المفسّرون والقرآن

(١)

المفسّرون

والتفسير التحليلي للقرآن

عرض وتهذيب لما ورد في تفاسير المدارس الإسلامية حول المعاني القرآنية



أ. د. نور الدين أبو لحية

دار الأنوار للنشر والتوزيع

هذا الكتاب

يحاول هذا الكتاب التعرف على ما ذكره المفسّرون ـ بحسب مدارسهم المختلفة، وبحسب التسلسل التاريخي ـ من المعاني التي فُسّرت بها آيات القرآن الكريم ـ وبحسب الترتيب المصحفي ـ من خلال:

١. التعرف على معاني مفرداتها، وما تحتمله من معان.

٢. أو من خلال تراكيبها النحوية، وما تحتمله كذلك من المعاني.

٣. أو ما قد ترشد إليه علوم البلاغة من البيان والمعاني ونحوها من المعاني القرآنية.

وبذلك، فإنه يحاول استيعاب كل ما ذكره المفسّرون من الوجوه التي تحتملها كل لفظة أو آية قرآنية، من خلال تحليلها اللغوي، وبجوانبه المختلفة، بالإضافة إلى علاقة ذلك بما ورد في الأحاديث والآثار، أو بما يتبناه المفسّر من رؤية عقدية أو فقهية أو ثقافة علمية.

ولهذا اعتمدنا ما ورد في المصادر التفسيرية الكبرى للطوائف المختلفة، وفي العصور المختلفة ـ ابتداء من العصر الأول إلى هذا العصر ـ وقد انتقيناها من خلال الرجوع لكل التفاسير المعروفة، والتي رأينا أغلبها يكرر ما سبق ذكره، أو يختصر الكلام في الآيات الكريمة، ولذلك رأينا أن ما انتقيناه منها قد يغني عن غيرها.

وهذا الانتقاء مؤسّس على الاهتمام بطائفة المفسر، وعصره، وأسلوبه في تفسيره، ومدى اهتمام طائفته أو الأمّة به، ومدى توسعه في تناول المواضيع المختلفة، ولذلك استبعدنا التفاسير المختصرة جدا إلا تلك التي قد نرى من خلالها رؤية طائفة معينة.

وقد رتبنا التفاسير بحسب التسلسل الزمني، لنرى مدى تأثر بعضها ببعض، بالإضافة إلى التعرف على الجدل الحاصل بينها، فالكثير من التفاسير المتأخرة تتناول بالعرض أو النقد أو التفصيل التفاسير السابقة لها.

وأهم ما حاولنا القيام به في هذا الكتاب ـ كما في السلسلة جميعا ـ هو تبسيط وتيسير الوصول إلى المعلومة من هذه المصادر التفسيرية، وذلك من خلال اعتماد المناهج الحديثة من التفكيك والترتيب وضم النظير إلى نظيره، ونحو ذلك.

(١)

المفسّرون

والتّفسير التحليلي للقرآن

عرض وتهذيب لما ورد في تفاسير المدارس الإسلامية حول المعاني القرآنية

الجزء ٣٦

أ. د. نور الدين أبو لحية

www.aboulahia.com

الطبعة الأولى

١٤٤٦ـ ٢٠٢٥

دار الأنوار للنشر والتوزيع


بسم الله الرحمن الرحيم

فهرس المحتويات

٥٩. أهل الكتاب والنقمة على المؤمنين

نتناول في هذا الفصل ما ذكره المفسّرون ـ بحسب التسلسل التاريخي، والمدارس الإسلامية المختلفة ـ حول تفسير المقطع [٥٩] من سورة المائدة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنْقِمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ﴾ [المائدة: ٥٩]، مع العلم أنّا نقلنا المباحث التي لا علاقة لها ـ كبرى أو مباشرة ـ بالتفسير التحليلي إلى محالّها من كتب السلسلة.

ابن عباس:

روي عن ابن عباس (ت ٦٨ هـ) أنّه قال: أتى النبي ﷺ نفر من يهود، فيهم أبو ياسر بن أخطب، ونافع بن أبي نافع، وعازر بن عمرو، وزيد، وخالد، وإزار بن أبي إزار، وأشيع، فسألوه عمن يؤمن به من الرسل، قال: (أومن بالله، وما أنزل إلى إبراهيم، وإسماعيل، وإسحاق، ويعقوب، والأسباط، وما أوتي موسى، وعيسى، وما أوتي النبيون من ربهم، لا نفرق بين أحد منهم، ونحن له مسلمون)، فلما ذكر عيسى جحدوا نبوته، وقالوا: لا نؤمن بعيسى، ولا نؤمن بمن آمن به، فأنزل الله فيهم: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنْقِمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا﴾ إلى قوله: ﴿فَاسِقُونَ﴾[1].

زيد:

روي عن الإمام زيد (ت ١٢٢ هـ) أنّه قال: ﴿هَلْ تَنْقِمُونَ مِنَّا﴾ معناه تكرهون[2].

مقاتل:

روي عن مقاتل بن سليمان (ت ١٥٠ هـ) أنّه قال: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنْقِمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللهِ﴾ يعني: صدقنا بالله بأنه واحد لا شريك له، وصدقنا بـ ﴿مَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا﴾ يعني: قرآن محمد ﷺ، وصدقنا بـ ﴿وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلُ﴾ قرآن محمد ﷺ؛ الكتب التي أنزلها الله عز وجل على الأنبياء، ﴿وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ﴾ يعني: عصاة، قالت اليهود للمؤمنين: ما نعلم أحدا من أهل هذه الأديان أقل حظا في الدنيا

---

(١) ابن جرير ٢/٥٩٦.

(٢) تفسير الإمام زيد، ص ١٣٠.

والآخرة منكم[1].

الماتريدي:

ذكر أبو منصور الماتريدي (ت ٣٣٣ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[2]:

١. ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنْقِمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ﴾:

أ. قيل: ﴿هَلْ تَنْقِمُونَ مِنَّا﴾: هل تطعنون علينا، وهو قول ابن عباسٍ.

ب. وقيل: وهل تعيبون علينا.

ج. وقال أَبُو عَوْسَجَةَ: ﴿هَلْ تَنْقِمُونَ مِنَّا﴾، أي: تنكرون منا.

د. وهو يرجع إلى واحد.

٢. والنقم: هو العيب والطعن، والانتقام: هو الانتصار، ومعناه: ﴿هَلْ تَنْقِمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلُ﴾، أي: كيف تطعنون علينا وتعيبون، وأنتم ممن قد دعوتم إلى الإيمان بالله، والإيمان بما أنزل في الكتب، وأنتم ممن قد أوتيتم الكتاب، وفي كتابكم الإيمان بالله، والإيمان بالكتب كلها؛ فكيف تنكرون الإيمان بذلك كله، وتعيبون علينا، ولا تعيبون على أنفسكم بفسقكم وخروجكم عن أمر الله تعالى، وعما أمركم كتابكم ودعاكم إليه، ونهاكم عما أنتم فيه!؟

٣. ﴿وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلُ﴾ وهو القرآن، وهو يصدق ما قبله من الكتب، ﴿وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلُ﴾ من الكتب المتقدمة من التوراة والزبور والإنجيل، وهي تصدق القرآن، بعضها يصدق بعضًا، فكيف تنكرون الإيمان به!؟

العياني:

ذكر الإمام المهدي العياني (ت ٤٠٤ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[3]:

١. معنى قوله عز وجل: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنْقِمُونَ مِنَّا﴾، أي هل تعيبون منا ﴿إِلَّا أَنْ آمَنَّا

(١) تفسير مقاتل ابن سليمان ١/٤٨٨.

(٢) تأويلات أهل السنة: ٣/٥٤٨.

(٣) تفسير الإمام المهدي العياني: ٢/٢٢٢.

بِاللهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلُ﴾، هذا توقيف لهم على تجنبهم للإيمان وكفرهم بما نزل من الفرقان.

الطوسي:

ذكر أبو جعفر الطوسي (ت ٤٦٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. أمر الله تعالى نبيه ﷺ أن يخاطب أهل الكتاب فيقول لهم ﴿هَلْ تَنْقِمُونَ مِنَّا﴾ وقيل في معناه ثلاثة أقوال:

أ. أحدها: هل تسخطون.

ب. الثاني: هل تنكرون.

ج. الثالث: هل تكرهون.

د. والمعنى متقارب يقول نقم ينقم نقماً ونقم ينقم، والاول اكثر قال عبد الله بن قيس الرقيات:

ما نقموا من بني أمية إلا ... أنهم يحملون إن غضبوا

٢. قال ابن عباس: أتى رسول الله ﷺ نفر من يهود فيهم أبو ياسر بن أخطب ورافع ابن أبي رافع وغيره، فسألوه عمن يؤمن به من الرسل، فقال أؤمن ﴿بِاللهِ وَمَا أنزل إِلَيْنَا وَمَا أنزل إِلَى إبراهيم وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أحد مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ فلما ذكر عيسى جحدوا نبوته، وقالوا: لا نؤمن به وبمن آمن به، فأنزل الله هذه الآية.

٣. وقوله: ﴿وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ﴾ في موضع نصب، لأنه مصدر في تقدير بان أكثركم، ولو استأنفه كان صواباً لكن لم يقرأ به، وقيل في معناه ثلاثة أقوال:

أ. قال الزجاج والفراء هل تكرهون منا إلا إيماننا وفسقكم، والمعنى ليس هذا مما ينقم.

ب. الثاني: قال الحسن: لفسقكم نقمتم ذلك علينا.

ج. الثالث: قال أبو علي: نقموا فسق أكثرهم، لأنهم لم يتابعوهم عليه.

٤. سؤال وإشكال: كيف قال: ﴿وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ﴾ وهم جميعاً فساق؟ والجواب: عنه ثلاثة أجوبة:

---

(١) تفسير الطوسي: ٣/٥٧١.

أ. أحدهما أنهم خارجون عن أمر الله طلباً للرئاسة وحسداً على منزلة النبوة.

ب. الثاني: فاسقون بركوب الاهواء.

ج. الثالث: على التلطف للاستدعاء.

٥. ومعنى الآية هل تكرهون إلا إيمانا وفسقكم أي إنما كرهتم إيماننا وأنتم تعلمون أنا على حق، لأنكم فسقتم بأن أقمتم على دينكم لمحبتكم الرئاسة وتكسبكم بها الأموال.

٦. سؤال وإشكال: كيف يعلم عاقل أن دينا من الأديان حق فيؤثر الباطل على على الحق!؟

والجواب: أكثر ما نشاهده كذلك، من ذلك أن الإنسان يعلم أن القتل يورده النار، فيقتل إما إيثاراً لشفاء غيظ أو لأخذ مال، وكما فعل إبليس مع علمه بأن الله يدخله النار بمعصيته فآثر هواه على القربة من الله وعمل لما يدخله النار، وهذا ظاهر في العادات.

الجشمي:

ذكر الحاكم الجشمي (ت ٤٩٤ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. النِّقْمَةُ: العقاب، ونقمت الأمر ونقمته أنكرته بفتح القاف وكسرها، وسمي العقاب نقمة؛ لأنه يجب على ما يُنْكَرُ من الفعل، ونَقَمَ يَنْقِمُ نَقْمًا مثل ضرب يضرب ضربًا، ونَقِمَ يَنْقَمُ مثل علم يعلم، والأول أكثر، قال ابن الرقيات:.

مَا نَقَمُوا مِنْ بَنِي أُمَيَّةَ إِلَّا   أَنَّهُمْ يَحْلُمُونَ إِنْ غضبوا

ويُرْوَى: يجهلون.

٢. مما روي في سبب نزول الآية الكريمة: عن ابن عباس أن نفرًا من اليهود فيهم أبو ياسر بن أخطب، ورافع بن أبي رافع أتوا رسول الله ﷺ، وقالوا: من تؤمن به من الرسل؟ فقال: أؤمن بِالله، وبما أنزل إلينا، وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل)، إلى قوله: ﴿وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى﴾، فلما ذكر عيسى جحدوا نبوته، وقالوا: لا نؤمن بما آمن به، وقالوا: ما نعلم أهل دين أقل حظًّا في الدنيا والآخرة منكم، ولا دينًا شرًا من دينكم، فنزلت الآية.

(١) التهذيب في التفسير: ٣/٣٣٩.

٣. لما تقدم ذكر اليهود والنصارى في عداوتهم للمسلمين أمر رسوله بمحاجتهم، وبيان ما لأجله نقموا منهم، فقال سبحانه: ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ﴾ هم اليهود والنصارى ﴿هَلْ تَنْقِمُونَ مِنَّا﴾:

أ. قيل: تنكرون منا.

ب. وقيل: تكرهون منا.

ج. وقيل: هل تعيبوننا، وتهزؤون بنا، عن الأصم.

٤. ﴿إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللهِ﴾ ووحدناه ووصفناه بما يليق به من الصفات العُلا، والأسماء الحسنى، ونزهناه عما لا يجوز عليه في ذاته وأفعاله ﴿وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا﴾ القرآن ﴿وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلُ﴾ على الأنبياء ﴿وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ﴾ خارجون عن الدين، وتقديره: ما تنقمون إلا أن أكثركم فاسقون.

٥. سؤال وإشكال: كيف ينقم اليهود من المسلمين بفسق أكثرهم؟ والجواب: فيه ثلاثة أقوال:

أ. الأول: تقديره: ما نقمتم إلا أنا لم نتابعكم على فسقكم الذي عليه أكثركم، عن أبي علي.

ب. الثاني: هل تنقمون منا إلا إيماننا وفسقكم، أي ليس هذا مما ينقم.

ج. الثالث: لفسقكم نقمتم علينا، عن الحسن.

٦. سؤال وإشكال: أليس كلهم فساقا، فلم خص أكثرهم؟ والجواب: فيه أربعة أقوال:

أ. قيل: خارجون عن أمر الله لطلب الرياسة حسدًا منهم له.

ب. وقيل: فاسقون بركوب الأهواء.

ج. وقيل: هو للتلطف في الاستدعاء.

د. وقيل: ذكر أكثرهم لكيلا يظن أن من آمن يدخل في ذلك، أو من تقدم منهم كانوا مؤمنين.

٧. تدل الآية الكريمة على:

أ. أنهم نقموا من جميع ما ذكر في الآية، فتدل أن فيهم من لا يؤمن بِالله، وذلك ظاهر في النصارى لقولهم بالتثليث، وكثير من مشبهة اليهود.

ب. أنهم لا يؤمنون بجميع ما أنزل من قبل، وذلك ظاهر في اليهود لا يؤمنون بالإنجيل والقرآن، وكذلك النصارى لا تؤمن بالقرآن.

ج. أن أكثرهم فساق، وفيهم مؤمنون؛ لذلك قال: ﴿أَكْثَرَهُمْ﴾ فيحتمل أنه أراد من أسلم أو من

تقدم على ما قررنا.

د. قال الأصم: وتدل على نبوته حيث أخبر بفسقهم، وعن عَنَتِهِم..

٨. فتحت ﴿أَنَّ﴾ عن قوله: ﴿وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ﴾ عطفًا على قوله: ﴿إِلَّا أَنْ آمَنَّا﴾ تقديره: إلا أن آمنا وإلا أنكم فاسقون، ويجوز بالكسر على الابتداء.

الطَبِرسي:

ذكر الفضل الطَبِرسي (ت ٥٤٨ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. مما روي في سبب نزول الآية الكريمة: قيل إن نفرا من اليهود أتوا رسول الله ﷺ، فسألوه عمن يؤمن به من الرسل، فقال: أؤمن بالله، وما أنزل إلى إبراهيم، وإسماعيل، وإسحاق إلى قوله: ﴿وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ فلما ذكر عيسى، جحدوا نبوته، وقالوا: والله ما نعلم أهل دين قط، أخطأ في الدنيا والآخرة، منكم، ولا دينا شرا من دينكم، فأنزل الله الآية، وما بعدها.

٢. ﴿تَنْقِمُونَ﴾ يقال نقم الامر، ينقم، نقما، ونقم ينقم: إذا أنكره، الأول أكثر، قال عبد الله بن قيس الرقيات: ما نقموا من بني أمية إلا... أنهم يحلمون إن غضبوا وسمي العقاب: نقمة، لأنه يجب على ما ينكر من الفعل.

٣. أمر الله سبحانه رسوله بحجاجهم فقال: ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنْقِمُونَ مِنَّا﴾:

أ. أي: هل تنكرون منا.

ب. وقيل: هل تسخطون منا.

ج. وقيل: هل تكرهون منا.

د. والمعاني متقاربة.

٤. ﴿إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللهِ﴾ فوجدناه ووصفناه بما يليق به من الصفات العلى، ونزهناه عما لا يجوز عليه في ذاته وصفاته ﴿وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا﴾ من القرآن ﴿وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلُ﴾ على الأنبياء.

٥. ﴿وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ﴾:

---

(١) تفسير الطبرسي: ٣/٣٢٩.

أ. قال الزجاج: معناه هل تكرهون إلا إيماننا وفسقكم أي: إنما كرهتم إيماننا، وأنتم تعلمون أنا على الحق، لأنكم فسقتم بأن أقمتم على دينكم لمحبتكم الرئاسة، وكسبكم بها الأموال، وهذا معنى قول الحسن، لفسقكم نقمتم علينا، قال بعض أهل التحقيق: فعلى هذا يجب أن يكون موضع أن في قوله: ﴿وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ﴾ نصبا بإضمار اللام على تأويل ولأن أكثركم فاسقون.

ب. وقيل: لما ذكر تعالى ما نقمه اليهود عليهم من الإيمان بجميع الرسل، وليس هو مما ينقم ذكر في مقابلته فسقهم، وهو مما ينقم، ومثل هذا يحسن في الازدواج، يقول القائل: هل تنقم مني إلا أني عفيف وأنك فاجر؟ وإلا أني غني وأنك فقير؟ فيحسن ذلك لإتمام المعنى بالمقابلة.

ج. وقيل في قوله: ﴿وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ﴾ قول آخر ذكره أبو علي الجرجاني صاحب النظم قال: يجعله منظوما بقوله: ﴿آمَنَّا بِالله﴾ على تأويل آمنا بالله، وبأن أكثركم فاسقون، فيكون موضع ان جر بالباء، وهذا وجه حسن.

٦. ومعنى ﴿فَاسِقُونَ﴾: خارجون عن أمر الله طلبا للرئاسة، وحسدا على منزلة النبوة، والمراد بالأكثر من لم يؤمن منهم، لان قليلا من أهل الكتاب آمن.

٧. ﴿وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ﴾ في موضع نصب وكذلك قوله: ﴿أَنْ آمَنَّا بِالله﴾ والتقدير: هل تنقمون منا إلا إيماننا وفسقكم.

ابن الجوزي:

ذكر أبو الفرج بن الجوزي (ت ٥٩٧ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. سبب نزول قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنْقِمُونَ مِنَّا﴾: أنّ نفرا من اليهود أتوا رسول الله ﷺ، فسألوه عمّن يؤمن به من الرّسل، فذكر جميع الأنبياء، فلمّا ذكر عيسى، جحدوا نبوّته، وقالوا: والله ما نعلم دينا شرّا من دينكم، فنزلت هذه الآية والتي بعدها، قاله ابن عباس.

٢. قرأ الحسن، والأعمش: (تنقمون) بفتح القاف، قال الزجّاج: يقال: نقمت على الرجل أنقم، ونقمت عليه أنقم، والأوّل أجود، ومعنى (نقمت): بالغت في كراهة الشّيء والمعنى: هل تكرهون منّا إلا

---

(١) زاد المسير في علم التفسير: ١/٥٦٣.

إيمانِنا، وفسقكم، لأنّكم علمتم أنّنا على حقّ، وأنكم فسقتم.

الرَّازي:

ذكر الفخر الرازي (ت ٦٠٦ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. وجه النظم أنه تعالى لما حكى عنهم أنهم اتخذوا دين الإسلام هزوا ولعبا قال لهم: ما الذي تنقمون من هذا الدين، وما الذي تجدون فيه مما يوجب اتخاذه هزوا ولعبا.

٢. قرأ الحسن ﴿هَلْ تَنْقِمُونَ﴾ بفتح القاف، والفصيح كسرها، يقال: نقمت الشيء ونقمته بكسر القاف وفتحها إذا أنكرته، وللمفسرين عبارات: هل تنقمون منا: هل تعيبون هل تنكرون، هل تكرهون.

٣. اختلفوا لم سمي العقاب نقمة، قال بعضهم: سمي العقاب نقمة لأنه يجب على ما ينكر من الفعل، وقال آخرون: الكراهة التي يتبعها سخط من الكاره تسمى نقمة، لأنها تتبعها النقمة التي هي العذاب:

أ. على القول الأول لفظ النقمة موضوع أولا للمكروه، ثم سمي العذاب نقمة لكونه مكروها.

ب. وعلى القول الثاني لفظ النقمة موضوع للعذاب، ثم سمي المنكر والمكروه نقمة لأنه يتبعه العذاب.

٤. معنى الآية أنه يقول لأهل الكتاب: لم اتخذتم هذا الدين هزوا ولعبا، ثم قال على سبيل التعجب: هل تجدون في هذا الدين إلا الإيمان بالله والإيمان بما أنزل على محمد ﷺ، والإيمان بجميع الأنبياء الذين كانوا قبل محمد! يعني أن هذا ليس مما ينقم، أما الإيمان بالله فهو رأس جميع الطاعات، وأما الإيمان بمحمد وبجميع الأنبياء فهو الحق والصدق؛ لأنه إذا كان الطريق إلى تصديق بعض الأنبياء في ادعاء الرسالة والنبوّة هو المعجز، ثم رأينا أن المعجز حصل على يد محمد ﷺ وجب الإقرار بكونه رسولا، فأما الإقرار بالبعض وإنكار البعض فذلك كلام متناقض، ومذهب باطل، فثبت أن الذي نحن عليه هو الدين الحق والطريق المستقيم، فلم تنقموه علينا!

٥. قال ابن عباس: إن نفرا من اليهود أتوا رسول الله ﷺ فسألوه عمن يؤمن به من الرسل، فقال:

---

(١) التفسير الكبير: ٣٨٩/١٢.

أومن بالله وما أنزل علينا وما أنزل على إبراهيم وإسماعيل إلى قوله ونحن له مسلمون، فلما ذكر عيسى جحدوا نبوّته وقالوا: والله ما نعلم أهل دين أقل حظا في الدنيا والآخرة منكم ولا دينا شرا من دينكم، فأنزل الله تعالى هذه الآية وما بعدها.

٦. سؤال وإشكال: كيف ينقم اليهود على المسلمين مع كون أكثر اليهود فاسقين؟ والجواب: من وجوه:

أ. الأول: قوله: ﴿وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ﴾ تخصيص لهم بالفسق، فيدل على سبيل التعريض أنهم لم يتبعوهم على فسقهم، فكان المعنى: وما تنقمون منا إلا أن آمنا، وما فسقنا مثلكم.

ب. الثاني: لما ذكر تعالى ما ينقم اليهود عليهم من الإيمان بجميع الرسل وليس ذلك مما ينقم ذكر في مقابله فسقهم، وهو مما ينقم، ومثل هذا حسن في الازدواج، يقول القائل: هل تنقم مني إلا أني عفيف وأنك فاجر، وأني غني وأنت فقير، فيحسن ذلك لإتمام المعنى على سبيل المقابلة.

ج. الثالث: أن يكون الواو بمعنى (مع) أي وما تنقمون منا إلا الإيمان بالله مع أن أكثركم فاسقون، فإن أحد الخصمين إذا كان موصوفا بالصفات الذميمة واكتسب الثاني شيئا كثيرا من الصفات الحميدة كان اكتسابه للصفات الحميدة مع كون خصمه مكتسبا للصفات الذميمة أشد تأثيرا في وقوع البغض والحسد في قلب الخصم.

د. الرابع: أن يكون على تقدير حذف المضاف، أي واعتقاد أنكم فاسقون.

هـ. الخامس: أن يكون التقدير: وما تنقمون منا إلا بأن آمنا بالله وبأن أكثركم فاسقون، يعني بسبب فسقكم نقمتم الإيمان علينا.

و. السادس: يجوز أن يكون تعليلا معطوفا على تعليل محذوف كأنه قيل: وما تنقمون منا إلا الإيمان لقلة إنصافكم، ولأجل أن أكثركم فاسقون.

٧. سؤال وإشكال: اليهود كلهم فساق وكفار، فلم خص الأكثر بوصف الفسق؟ والجواب: من وجهين:

أ. الأول: يعني أن أكثركم إنما يقولون ما يقولون، ويفعلون ما يفعلون طلبا للرياسة والجاه وأخذ الرشوة والتقرب إلى الملوك، فأنتم في دينكم فساق لا عدول، فإن الكافر والمبتدع قد يكون عدل دينه، وقد

يكون فاسق دينه، ومعلوم أن كلهم ما كانوا كذلك فلذلك خصّ أكثرهم بهذا الحكم.

ب. الثاني: ذكر أكثرهم لئلا يظن أن من آمن منهم داخل في ذلك.

القرطبي:

ذكر محمد بن أحمد القرطبي (ت ٦٧١ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنْقِمُونَ مِنَّا﴾ قال ابن عباس: جاء نفر من اليهود ـ فيهم أبو ياسر بن أخطب ورافع بن أبي رافع ـ إلى النبي ﷺ فسألوه عمن يؤمن به من الرسل عليهم السلام، فقال: نؤمن بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل إلى قوله: ﴿وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾، فلما ذكر عيسى عليه السلام، جحدوا نبوته وقالوا: والله ما نعلم أهل دين أقل حظا في الدنيا والآخرة منكم ولا دينا شرا من دينكم، فنزلت هذه الآية وما بعدها، وهي متصلة بما سبقها من إنكارهم الأذان، فهو جامع للشهادة لله بالتوحيد، ولمحمد ﷺ بالنبوة، والمتناقض دين من فرق بين أنبياء الله لا دين من يؤمن بالكل، ويجوز إدغام اللام في التاء لقربها منها.

٢. ﴿تَنْقِمُونَ﴾ معناه تسخطون، وقيل: تكرهون، وقيل: تنكرون، والمعنى متقارب، يقال: نقم من كذا ينقم ونقم ينقم، والأول أكثر، قال عبد الله بن قيس الرقيات:

ما نقموا من بني أمية إلا   أنهم يحلمون إن غضبوا

وفي التنزيل: ﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ﴾ [البروج] ويقال: نقمت على الرجل بالكسر فأنا ناقم إذا عتبت عليه، يقال: ما نقمت عليه الإحسان، قال الكسائي: نقمت بالكسر لغة، ونقمت الأمر أيضا ونقمته إذا كرهته، وانتقم الله منه أي عاقبه، والاسم منه النقمة، والجمع نقمات ونقم مثل كلمة وكلمات وكلم، وإن شئت سكنت القاف ونقلت حركتها إلى النون فقلت: نقمة والجمع نقم، مثل نعمة ونعم.

٣. ﴿إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللهِ﴾ في موضع نصب بـ ﴿تَنْقِمُونَ﴾ و﴿تَنْقِمُونَ﴾ بمعنى تعيبون، أي هل تنقمون منا إلا إيماننا بالله وقد علمتم أنا على الحق.

٤. ﴿وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ﴾ أي في ترككم الإيمان وخروجكم عن امتثال أمر الله، فقيل هو مثل

(١) تفسير القرطبي: ٦/٢٣٣.

قول القائل: هل تنقم مني إلا أني عفيف وأنك فاجر، وقيل: أي لأن أكثركم فاسقون تنقمون منا ذلك.

الشوكاني:

ذكر محمد بن علي الشوكاني (ت ١٢٥٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنْقِمُونَ مِنَّا﴾ يقال: نقمت على الرجل بالكسر فأنا ناقم: إذا عبت عليه، قال الكسائي: نقمت بالكسر لغة، ونقمت الأمر أيضا ونقمت: إذا كرهته، وانتقم الله منه: أي عاقبه، والاسم منه النقمة، والجمع نقمات، مثل كلمة وكلمات، وإن شئت سكنت القاف ونقلت حركتها إلى النون، والجمع نقم مثل نعمة ونعم؛ وقيل: المعنى يسخطون؛ وقيل: ينكرون، وقال الله سبحانه: ﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ﴾ والمعنى في الآية: هل تعيبون أو تسخطون أو تنكرون أو تكرهون منا إلا إيماننا بالله وبكتبه المنزلة، وقد علمتم بأنا على الحق ﴿وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ﴾ بترككم للإيمان والخروج عن امتثال أوامر الله.

٢. ﴿وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ﴾ معطوف على أن آمنا: أي ما تنقمون منا إلا الجمع بين إيماننا وبين تمرّدكم وخروجكم عن الإيمان وفيه أن المؤمنين لم يجمعوا بين الأمرين المذكورين، فإنّ الإيمان من جهتهم، والتمرّد والخروج من جهة الناقمين؛ وقيل: هو على تقدير محذوف: أي واعتقادنا أن أكثركم فاسقون؛ وقيل: إن قوله: ﴿أَنْ آمَنَّا﴾ هو منصوب على أنه مفعول له والمفعول محذوف، فيكون ﴿وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ﴾ معطوفا عليه عطف العلة على العلة، والتقدير: وما تنقمون منا إلا لأن آمنا، ولأن أكثركم فاسقون، وقيل: معطوف على علّة محذوفة، أي لقلّة إنصافكم، ولأنّ أكثركم فاسقون؛ وقيل: الواو في قوله: ﴿وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ﴾ هي التي بمعنى مع: أي ما تنقمون منا إلا الإيمان مع أن أكثركم فاسقون؛ وقيل: هو منصوب بفعل محذوف يدل عليه هل تنقمون: أي ولا تنقمون أن أكثركم فاسقون؛ وقيل: هو مرفوع على الابتداء والخبر محذوف؛ أي وفسقكم معلوم فتكون الجملة حالية.

أَطَّفِّيش:

ذكر محمد أَطَّفِّيش (ت ١٣٣٢ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[٢]:

١. سبب النزول: سأل نفر من اليهود كأَبي اليُسْرِ بن أخطب، وغازي بن عمرو، وزيد بن خالد،

---

(١) فتح القدير: ٦٣/٢.

(٢) تيسير التفسير، أطفيش: ٧٢/٤.

ورافع بن أبي رافع رسولَ الله ﷺ عمَّن يؤمن به من الرُّسل؟ فقال ﷺ : أؤمن ﴿بِاللهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالاَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ النَّبِيئُونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٦])، فلمَّا سمعوا ذكر عيسى عليه السلام جحدوا نبوَّته وقالوا: والله لا نعلم أهل دين أقلَّ حظًّا منكم في الدُّنيا والآخرة، ولا دينًا شرًّا من دينكم، ولا نؤمن بمن آمنت به، يعنون عيسى أو الكلَّ، غضبًا، كما قالوا: ﴿مَآ أَنزَلَ اللهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٩١]، وإن أرادوا العموم، فنزلت الآية الكريمة.

٢. ﴿قُلْ يَآ أَهْلَ الْكِتَابِ﴾ أي: اليهود، وذكرهم باسم الكتاب تشنيعًا عليهم بمخالفة ما في الكتاب، وإرشادًا إلى أنَّ اللائق أن يكونوا أوَّل تابع، وكذا في غير هذه الآية، وكذا النصارى، وقيل: الخطاب لأهل الكتاب مطلقًا، وقيل: لِلْكُفَّارِ مطلقا، وقيل: للمؤمنين مطلقا.

٣. ﴿هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّا﴾ من أوصافنا ﴿إِلَّآ أَنَ امَنَّا بِاللهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا﴾ القرآن، ﴿وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ﴾ من التوراة والإنجيل وغيرهما، و(أَنْ) مصدريَّة دخلت على الماضي، وضُمِّن (تَنقِمُ) معنى تعيب أو تنكر أو تكره، فعدَّاه إلى المصدر، أي: ما تنقمون منَّا إلَّا إيمانَنَا بالله.. إلخ، أو هو باق على ظاهره ويقدَّر الجارُّ قبل (أَنْ)، أي: ما تنقمون منَّا بكلام السوء والتكذيب إلَّا بسبب إيماننا، والأصل أن يقال: نقمت عليه بكذا، وكان هنا بـ (مِنْ) لذلك التضمُّن، أو هي بمعنى على، وجعل الله تعالى إنكارهم لبعض الأنبياء والكتب إنكارًا لله؛ لأنَّ من كفر بكتاب أو نبيء فقد كفر بالله سبحانه، أو المراد: هل تنقمون منَّا إلَّا جمع ذلك بالإيمان، وتحبُّون أن نؤمن بغير عيسى والإنجيل فقط؟

٤. ﴿وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ﴾ عطف على (أَنَ ـ امَنَّا)، باعتبار لازم الفسق، وهو المخالفة، أي: ما تنقمون منَّا إلَّا إيماننا بذلك وإلَّا مخالفتكم إذ دخلنا في الإيمان وخرجتم عنه، هذا هو المعنى، وأمَّا اللفظ فهكذا: (إلَّا إيمانَنَا وفِسْقَ أكثرِكُم)، ويجوز العطف بدون اعتبار اللازم، لكن على حذف مضاف، أي: إلَّا إيماننا واعتقاد أنَّ أكثركم فاسقون، أي: واعتقاد فسق أكثركم، أي: واعتقادنا فسق أكثركم، أو يعطف على (بِاللهِ)، أي: إلَّا إيماننا بالله وبأنَّ أكثركم فاسقون، ومن لم يؤمن بأنَّ فعل الفاسق فسق لا يقبل إيمانه بالله وكتبه، ولا داعي إلى تكلُّف عطفه على علَّة محذوفة متعلِّقة بـ (تَنقِمُ)، هكذا: لقلَّة إنصافكم وفسق أكثركم، ولا إلى تكلُّف نصبه بمحذوف، أي: ولا تنقمون أنَّ أكثركم فاسقون، أو تكَلُّفِ جَعْلِهِ مبتدأً خبرُه محذوف،

أي: وفسق أكثركم معلوم، أو فسق أكثركم معلوم عندكم وَلَكِنَّ حُبَّ الرياسة والمال منعكم عن الإنصاف، ولا إلى دعوى زيادة الواو وأَنَّ ما بعدها تعليل، ولا إلى دعوى أنَّ الواو عاطفة بمعنى مع، وأمَّا أن نجعلها واو المعيَّة التي يُنصَب مدخولُها، فلا وجه له؛ لأنَّه لَا بُدَّ فيها من المصاحبة في معموليَّة الفعل، نعم لم يشترط الأخفش إلَّا المقارنة في الوجود كما في: (سرت والنيل)، و(جئت وطلوع الشمس)

القاسمي:

ذكر جمال الدين القاسمي (ت ١٣٣٢ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. لمّا نهى تعالى عن تولّي المستهزئين، أمر أن يخاطبوا بأن الدين منزّه عما يصحح صدور ما صدر عنهم من الاستهزاء، ويظهر لهم سبب ما ارتكبوا ويلقموا الحجر، بقوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ﴾ وصفوا بذلك تمهيدا لتبكيتهم وإلزامهم بكفرهم بكتابهم، أي: يا أصحاب الكتاب، العالمين بالنقائص والكمالات، التي يستحق على تحققها وفقدها الاستهزاء.

٢. ﴿هَلْ تَنْقِمُونَ مِنَّا﴾ أي: ما تعيبون وتنكرون منا ﴿إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللهِ﴾ وهو رأس الكمالات ﴿وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا﴾ وهو أصل الاعتقادات والأعمال والأخلاق ﴿وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلُ﴾ وهو يشهد لما أنزل إلينا ﴿وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ﴾ أي: متمردون خارجون عن الإيمان بما ذكر.

٣. إنما فسر (تنقمون) بـ (تعيبون) و(تنكرون) لأن النقمة معناها الإنكار باللسان أو بالعقوبة ـ كما قاله الراغب ـ لأنه لا يعاقب إلّا على المنكر فيكون على حد قوله: (ونشتم بالأفعال لا بالتكلم)، فلذا حسن (انتقم منه) مطاوعه، بمعنى عاقبه وجازاه، وإلّا فكيف يخالف المطاوع أصله؟ فافهم، و(نقم) ورد كعلم يعلم وضرب يضرب، وهي الفصحى، ويعدّى بـ (من) و(على)، وقال أبو حيّان: أصله أن يتعدى بـ (على)، ثم (افتعل) المبنيّ منه، يعدى بـ (من) لتضمنه معنى الإصابة بالمكروه، وهنا (فعل) بمعنى (افتعل)، كذا في (العناية)

٤. في الآية تسجيل على أهل الكتاب بكمال المكابرة والتعكيس، حيث جعلوا الإيمان بما ذكر، موجبا لنقمه، مع كونه في نفسه موجبا لقبوله وارتضائه، فمعنى الآية: ليس شيء ينقم من المؤمنين، فلا

(١) تفسير القاسمي: ٤/١٨٠.

موجب للاستهزاء، وهذا مما تقصد العرب في مثله، تأكيد النفي والمبالغة فيه بإثبات شيء وذلك الشيء لا يقتضي إثباته، فهو منتف أبدا، ويسمى مثل ذلك عند علماء البيان تأكيد المدح بما يشبه الذم وبالعكس، فمن الأول نحو:

ولا عيب فيهم غير أنّ سيوفهم ... بهنّ فلول من قراع الكتائب

ومن الثاني هذه الآية وشبهها، أي: ما ينبغي لهم أن ينقموا شيئا إلّا هذا، وهذا لا يوجب لهم أن ينقموا شيئا، فليس شيء ينقمونه، فينبغي أن يؤمنوا به ولا يكفروا، وفيه أيضا التعريض بكفرهم، وتقريع بسوء الصنيع في مقابلة الإحسان.

٥. إسناد الفسق إلى أكثرهم، لأن من قال منهم ما قال وحمل غيره على العناد، طلبا للرياسة والجاه وأخذ الرشوة، إنما هو أكثرهم، ولئلا يظن أن من آمن منهم داخل في ذلك.

رضا:

ذكر محمد رشيد رضا (ت ١٣٥٤هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنْقِمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ﴾ الاستفهام للإنكار والتبكيت أي قل أيها الرسول مخاطبا ومحتجا على أهل الكتاب دون المشركين: هل تنقمون منا شيئا، أي هل عندنا شيء تنكرونه وتعيبونه علينا وتكرهوننا لأجله لمضادتكم إيانا فيه، إلا إيماننا الصادق بالله وتوحيده وتنزيهه وإثبات صفات الكمال له، وإيماننا بما أنزله إلينا وبما أنزله من قبل على رسله؟ أي عندنا سوى ذلك وهو يعاب وينقم، بل يمدح صاحبه ويكرم، ـ وألا إن أكثركم فاسقون، أي خارجون من حظيرة هذا الإيمان الصحيح الكامل، وليس لكم من الدين إلا العصبية الجنسية، والتقاليد الباطلة؟ فلذلك تعيبون الحسن من غيركم، وترضون القبيح من أنفسكم، يقال نقم منه كذا ينقم (كضرب يضرب) إذا أنكره عليه بالقول والفعل وعابه به وكرهه لأجله، وهو من مادة النقمة وهي كراهة السخط، والعقاب المرتب عليها، ويقال: (نقم ينقم) (بوزن علم يعلم) والمستعمل في القرآن الأول.

---

(١) تفسير المنار: ٦/٣٦٩.

٢. في قوله تعالى: (وأكثركم فاسقون) ما نبهنا على مثله من دقة القرآن في الحكم على الأمم والشعوب إذ يحكم على الكثير أو الأكثر، وما عم إلا واستثنى، وقد كان ولا يزال في أهل الكتاب أناس لا يزالون معتصمين بأصول الدين وجوهره من التوحيد وحب الحق والعدل والخير، وهؤلاء هم الذين كانوا يسارعون إلى الإسلام إذا عرفوه بقدر نصيب كل من جوهر الدين ونور البصيرة، وهذا لا ينافي ما كان من طروء التحريف على دينهم، ونسيان حظ ونصيب مما نزل إليهم.

المراغي:

ذكر أحمد بن مصطفى المراغي (ت ١٣٧١ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. ﴿قُلْ يَا أهل الْكِتَابِ هَلْ تَنْقِمُونَ مِنَّا إلا أَنْ آمَنَّا بِاللهِ وَمَا أنزل إِلَيْنَا وَمَا أنزل مِنْ قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ﴾ أي قل يا أهل الكتاب من اليهود والنصارى: هل تعيبون علينا من شيء وتكرهوننا لأجله، إلا إيماننا الصادق بالله وتوحيده وإثبات صفات الكمال له، وإيماننا بما أنزل إلينا وبما أنزل من قبل على رسله، لقلة إنصافكم، ولأن أكثركم فاسقون خارجون عن حظيرة الإيمان الصحيح وليس لكم من الدين إلا العصبية الجنسية، والتقاليد الباطلة، والخلاصة ـ إنه ما عندنا سوى ذلك، وهذا مما لا يعاب ولا ينقم منه، بل يمدح صاحبه ويكرم، لكنكم لفسقكم وخروجكم من حظيرة الدين الصحيح عبتم الحسن من غيركم، ورضيتم بالقبيح من أنفسكم.

٢. في قوله: ﴿وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ﴾ دقة في الأحكام على الأمم والشعوب، إذ هو يحكم على الكثير أو الأكثر وما عمم إلا استثنى، وقد كان في أهل الكتاب ناس لا يزالون معتصمين بأصول الدين وجوهره من التوحيد وحب الحق والعدل، وهؤلاء هم الذين سارعوا إلى الإسلام عندما عرفوا حقيقة أمره وتجلى لهم صدق الداعي إليه.

المراغي:

ذكر أحمد بن مصطفى المراغي (ت ١٣٧١ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(٢)]:

١. ردّ الله تعالى على الاستفهام التهكمي باستفهام تهكمي مثله فقال: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ

---

(١) تفسير المراغي ٦/١٤٨.

(٢) تفسير المراغي ٦/١٤٩.

ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللهِ﴾ استعمال المثوبة في الجزاء الحسن أكثر من استعمالها في الجزاء السيّئ، وقيل إن استعمالها في الجزاء السيّئ من باب التهكم والازدراء، أي هل أنبئكم أيها المستهزئون بديننا وأذاننا مما هو شر من عملكم هذا جزاء وثوابا عند الله.

٢. وهذا السؤال يستدعى سؤالا منهم عن ذلك الذي هو شر (ما هو) فأجابهم بقوله: ﴿مَنْ لَعَنَهُ اللهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾ من لعنه الله: أي جزاء من لعنه على حد قوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى﴾ أي ولكن البر برّ من اتقى أي إن الذي هو شر من ذلك ثوابا وجزاء جزاء من لعنه الله وغضب عليه إلخ.. وفى هذا انتقال بهم من تبكيت لهم بإقامة الحجة على هزئهم ولعبهم بما ذكر ـ إلى ما هو أشد منه تبكيتا وتشنيعا عليهم، ذلك هو التذكير بسوء حال آبائهم مع أنبيائهم وما كان من جزاء الله لهم على فسقهم وتمردهم بأشد ما جازى به الفاسقين الذين ظلموا أنفسهم ـ من اللعن والغضب والمسخ وعبادة الطاغوت.

٣. أما اللعن فقد ذكر في عدة مواضع من القرآن الكريم مع بيان أسبابه، والغضب الإلهي يستلزم اللعنة، واللعنة تلزمه، إذ هي منتهى المؤاخذة لمن غضب الله عليه.

٤. وأما جعله منهم قردة وخنازير فقد تقدم في سورة البقرة ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ وسيأتي في سورة الأعراف ﴿فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ وجمهرة العلماء على أنهم مسخوا فكانوا قردة وخنازير على الحقيقة وانقرضوا، لأن الممسوخ لا يكون له نسل، ونقل ابن جرير عن مجاهد أنه قال مسخت قلوبهم ولم يمسخوا قردة، وإنما هو مثل ضربه الله لهم كما ضرب المثل بقوله: ﴿كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾

٥. ﴿أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ أي إن أولئك الذين اتصفوا بما ذكر من المخازي وشنيع الأمور شر مكانا، إذ لا مكان لهم في الآخرة إلا النار، وهم أضل عن قصد سواء الطريق ووسطه الذي لا إفراط فيه ولا تفريط، ومثل هؤلاء لا يحملهم على الاستهزاء بدين المسلمين وبصلاتهم وأذانهم إلا الجهل وعمى البصيرة.

سيّد:

ذكر سيّد قطب (ت ١٣٨٥ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١ . وحين تتم النداءات الثلاثة للذين آمنوا، يتوجه الخطاب إلى الرسول ﷺ ليواجه أهل الكتاب، فيسألهم: ماذا ينقمون من الجماعة المسلمة؟ وهل ينقمون منها إلا الإيمان بالله، وما أنزل إلى أهل الكتاب؛ وما أنزله الله للمسلمين بعد أهل الكتاب..؟ هل ينقمون إلا أن المسلمين يؤمنون، وأنهم هم ـ أهل الكتاب ـ أكثرهم فاسقون؟ وهي مواجهة مخجلة، ولكنها كذلك كاشفة وحاسمة ومحددة لأصل العداوة ومفرق الطريق.

٢ . إن هذا السؤال الذي وجه الله رسوله إلى توجيهه لأهل الكتاب، هو من ناحية سؤال تقريري لإثبات ما هو واقع بالفعل منهم؛ وكشف حقيقة البواعث التي تدفع بهم إلى موقفهم من الجماعة المسلمة ودينها وصلاتها، وهو من ناحية سؤال استنكاري، لاستنكار هذا الواقع منهم، واستنكار البواعث الدافعة عليه.. وهو في الوقت ذاته توعية للمسلمين، وتنفير لهم من موالاة القوم، وتقرير لما سبق في النداءات الثلاثة من نهي عن هذه الموالاة وتحذير.

٣. إن أهل الكتاب لم يكونوا ينقمون على المسلمين في عهد الرسول ﷺ وهم لا ينقمون اليوم على طلائع البعث الإسلامي ـ إلا أن هؤلاء المسلمين يؤمنون بالله؛ وما أنزله الله إليهم من قرآن؛ وما صدق عليه قرآنهم مما أنزله الله من قبل من كتب أهل الكتاب:

أ. إنهم يعادون المسلمين لأنهم مسلمون! لأنهم ليسوا يهودا ولا نصارى، ولأن أهل الكتاب فاسقون منحرفون عما أنزله الله إليهم؛ وآية فسقهم وانحرافهم أنهم لا يؤمنون بالرسالة الأخيرة وهي مصدقة لما بين أيديهم ـ لا ما ابتدعوه وحرفوه ـ ولا يؤمنون بالرسول الأخير، وهو مصدق لما بين يديه؛ معظم لرسل الله أجمعين.

ب. إنهم يحاربون المسلمين هذه الحرب الشعواء؛ التي لم تضع أوزارها قط، ولم يخب أوارها طوال ألف وأربعمائة عام؛ منذ أن قام للمسلمين كيان في المدينة؛ وتميزت لهم شخصية؛ وأصبح لهم وجود مستقل؛ ناشئ من دينهم المستقل، وتصورهم المستقل، ونظامهم المستقل، في ظل منهج الله الفريد.

---

(١) في ظلال القرآن: ٢/٩٢٤.

ج. إنهم يشنون على المسلمين هذه الحرب المشبوبة لأنهم ـ قبل كل شيء ـ مسلمون ولا يمكن أن يطفئوا هذه الحرب المشبوبة إلا أن يردوا المسلمين عن دينهم؛ فيصبحوا غير مسلمين.. ذلك أن أهل الكتاب أكثرهم فاسقون؛ ومن ثم لا يحبون المستقيمين الملتزمين من المسلمين! والله سبحانه يقرر هذه الحقيقة في صورة قاطعة، وهو يقول لرسوله ﷺ في السورة الأخرى: ﴿وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾، ويقول له في هذه السورة أن يواجه أهل الكتاب بحقيقة بواعثهم وركيزة موقفهم: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنْقِمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ﴾

٤. وهذه الحقيقة التي يقررها الله سبحانه في مواضع كثيرة من كلامه الصادق المبين، هي التي يريد تمييعها وتلبيسها وتغطيتها وإنكارها اليوم كثيرون من أهل الكتاب، وكثيرون ممن يسمون أنفسهم (مسلمين).. باسم تعاون (المتدينين) في وجه المادية والإلحاد كما يقولون! أهل الكتاب يريدون اليوم تمييع هذه الحقيقة بل طمسها وتغطيتها، لأنهم يريدون خداع سكان الوطن الإسلامي ـ أو الذي كان إسلاميا بتعبير أصح ـ وتخدير الوعي الذي كان قد بثه فيهم الإسلام بمنهجه الرباني القويم، ذلك أنه حين كان هذا الوعي سليما لم يستطع الاستعمار الصليبي أن يقف للمد الإسلامي، فضلا على أن يستعمر الوطن الإسلامي.. ولم يكن بد لهؤلاء ـ بعد فشلهم في الحروب الصليبية السافرة، وفي حرب التبشير السافرة كذلك ـ أن يسلكوا طريق الخداع والتخدير، فيتظاهروا ويشيعوا بين ورثة المسلمين، أن قضية الدين والحرب الدينية قد انتهت! وأنها كانت مجرد فترة تاريخية مظلمة عاشتها الأمم جميعا! ثم تنور العالم و(تقدم) فلم يعد من الجائز ولا اللائق ولا المستساغ أن يقوم الصراع على أساس العقيدة.. وإنما الصراع اليوم على المادة! على الموارد والأسواق والاستغلالات فحسب! وإذن فما يجوز للمسلمين ـ أو ورثة المسلمين ـ أن يفكروا في الدين ولا في صراع الدين! وحين يطمئن أهل الكتاب ـ وهم الذين يستعمرون أوطان المسلمين ـ إلى استنامة هؤلاء لهذا التخدير؛ وحين تتميع القضية في ضمائرهم؛ فإن المستعمرين يأمنون غضبة المسلمين لله؛ وللعقيدة.. الغضبة التي لم يقفوا لها يوما.. ويصبح الأمر سهلا بعد التنويم والتخدير.. ولا يكسبون معركة العقيدة وحدها، بل يكسبون معها ما وراءها من الأسلاب والمغانم والاستثمارات والخامات؛ ويغلبون في معركة (المادة) بعد ما يغلبون في معركة (العقيدة).. فهما قريب من

قريب..

٥. وعملاء أهل الكتاب في الوطن الإسلامي، ممن يقيمهم الاستعمار هنا وهناك علانية أو في خفية، يقولون القول نفسه.. لأنهم عملاء يؤدون الدور من داخل الحدود.. وهؤلاء يقولون عن (الحروب الصليبية) ذاتها: إنها لم تكن (صليبية)! ويقولون عن (المسلمين) الذين خاضوها تحت راية العقيدة: إنهم لم يكونوا (مسلمين) وإنما هم كانوا (قوميين)! وفريق ثالث مستغفل مخدوع؛ يناديه أحفاد (الصليبيين) في الغرب المستعمر: أن تعالوا إلينا، تعالوا نجتمع في ولاء؛ لندفع عن (الدين) غائلة (الملحدين)! فيستجيب هذا الفريق المستغفل المخدوع؛ ناسيا أن أحفاد الصليبيين هؤلاء وقفوا في كل مرة مع الملحدين؛ صفا واحدا، حينما كانت المواجهة للمسلمين! على مدار القرون! وما يزالون! وأنهم لا يعنيهم حرب المادية الالحادية قدر ما تعنيهم حرب الإسلام، ذلك أنهم يعرفون جيدا أن الإلحادية المادية عرض طارئ وعدو موقوت؛ وأن الإسلام أصل ثابت وعدو مقيم! وإنما هذه الدعوة المموهة لتمييع اليقظة البادئة عند طلائع البعث الإسلامي؛ وللانتفاع بجهد المستغفلين المخدوعين ـ في الوقت ذاته ـ ليكونوا وقود المعركة مع الملحدين لأنهم أعداء الاستعمار السياسيون! وهؤلاء كهؤلاء حرب على الإسلام والمسلمين.. حرب لا عدة فيها للمسلم إلا ذلك الوعي الذي يربيه عليه المنهج الرباني القويم..

٦. إن هؤلاء الذين تخدعهم اللعبة أو يتظاهرون بالتصديق، فيحسبون أهل الكتاب جادين إذ يدعونهم للتضامن والولاء في دفع الإلحاد عن (الدين) إنما ينسون واقع التاريخ في أربعة عشر قرنا ـ لا استثناء فيها ـ كما ينسون تعليم ربهم لهم في هذا الأمر بالذات، وهو تعليم لا مواربة فيه، ولا مجال للحيدة عنه، وفي النفس ثقة بالله ويقين بجدية ما يقول! إن هؤلاء يجتزءون فيما يقولون ويكتبون بالآيات القرآنية، والأحاديث النبوية، التي تأمر المسلمين أن يحسنوا معاملة أهل الكتاب؛ وأن يتسامحوا معهم في المعيشة والسلوك، ويغفلون التحذيرات الحاسمة عن موالاتهم؛ والتقريرات الواعية عن بواعثهم، والتعليمات الصريحة عن خطة الحركة الإسلامية، وخطة التنظيم، التي تحرم التناصر والموالاة، لأن التناصر والموالاة لا يكونان عند المسلم إلا في شأن الدين وإقامة منهجه ونظامه في الحياة الواقعية، وليست هناك قاعدة مشتركة يلتقي عليها المسلم مع أهل الكتاب في شأن دينه ـ مهما يكن هناك من تلاق في أصول هذه الأديان مع دينه قبل تحريفها ـ إذ هم لا ينقمون منه إلا هذا الدين، ولا يرضون عنه إلا بترك هذا الدين.. كما يقول

رب العالمين..

٧. إن هؤلاء ممن يجعلون القرآن عضين؛ يجزئونه ويمزقونه، فيأخذون منه ما يشاءون - مما يوافق دعوتهم الغافلة الساذجة على فرض براءتها - ويدعون منه ما لا يتفق مع اتجاههم الغافل أو المريب! ونحن نؤثر أن نسمع كلام الله، في هذه القضية، على أن نسمع كلام المخدوعين أو الخادعين! وكلام الله سبحانه في هذه القضية حاسم واضح صريح مبين..

٨. ونقف وقفة قصيرة في هذا الموضع عند قوله تعالى - بعد تقرير أن سبب النقمة هو الإيمان بالله وما أنزل إلينا وما أنزل من قبل - أن بقية السبب: ﴿وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ﴾ فهذا الفسق هو شطر الباعث! فالفسق يحمل صاحبه على النقمة من المستقيم.. وهي قاعدة نفسية واقعية؛ تثبتها هذه اللفتة القرآنية العجيبة.. إن الذي يفسق عن الطريق وينحرف لا يطيق أن يرى المستقيم على النهج الملتزم.. إن وجوده يشعره دائما بفسقه وانحرافه، إنه يتمثل له شاهدا قائما على فسقه هو وانحرافه.. ومن ثم يكرهه وينقم عليه، يكره استقامته وينقم منه التزامه؛ ويسعى جاهدا لجره إلى طريقه؛ أو للقضاء عليه إذا استعصى قياده! إنها قاعدة مطردة، تتجاوز موقف أهل الكتاب من الجماعة المسلمة في المدينة، إلى موقف أهل الكتاب عامة من المسلمين عامة، إلى موقف كل فاسق منحرف من كل عصبة ملتزمة مستقيمة.. والحرب المشبوبة دائما على الخيرين في مجتمع الأشرار، وعلى المستقيمين في مجتمع الفاسقين، وعلى الملتزمين في مجتمع المنحرفين..

٩. هذه الحرب أمر طبيعي يستند إلى هذه القاعدة التي يصورها النص القرآني العجيب.. ولقد علم الله سبحانه أن الخير لا بد أن يلقى النقمة من الشر، وأن الحق لا بد أن يواجه العداء من الباطل، وأن الاستقامة لا بد أن تثير غيظ الفساق، وأن الالتزام لا بد أن يجر حقد المنحرفين، وعلم الله سبحانه أن لا بد للخير والحق والاستقامة والالتزام أن تدفع عن نفسها وأن تخوض المعركة الحتمية مع الشر والباطل والفسق والانحراف، وأنها معركة لا خيار فيها، ولا يملك الحق ألا يخوضها في وجه الباطل، لأن الباطل سيهاجمه، ولا يملك الخير أن يتجنبها لأن الشر لا بد سيحاول سحقه.. وغفلة - أي غفلة - أن يظن أصحاب الحق والخير والاستقامة والالتزام أنهم متروكون من الباطل والشر والفسق والانحراف؛ وأنهم يملكون تجنب المعركة؛ وأنه يمكن أن تقوم هناك مصالحة أو مهادنة! وخير لهم أن يستعدوا للمعركة المحتومة بالوعي والعدة؛ من أن يستسلموا للوهم والخديعة.. وهم يومئذ مأكولون مأكولون!

الخطيب:

ذكر عبد الكريم الخطيب (ت ١٣٩٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. ﴿قُلْ يَا أهل الْكِتَابِ﴾ هو نداء مطلق لأهل الكتاب، وخاصة اليهود، وليس المراد بهذا القول أن يلقاهم النبيّ به، وأن يبلغهم إيّاه، وإنما هو قول موجّه إلى النبيّ وإلى المؤمنين، تنكشف به حال أهل الكتاب، وموقفهم العناديّ من المؤمنين.. وليس يمنع من هذا أن يستمع اليهود إلى هذا القول، وأن يعرفوا رأى القرآن فيهم، إذ كانوا دائما يتتبعون أخبار النبيّ وما ينزل عليه من كلمات ربّه، ليبحثوا فيها عن شبهة، يضلّون بها المؤمنين، ويفتنونهم في دينهم.

٢. وفي هذه الآية يرى المؤمنين أن هذا الموقف العناديّ من أهل الكتاب الذي يقفونه منهم، لا سبب له، إلا إيمان المؤمنين بالله، وما أنزل عليهم من قرآن، وما أنزل على النبيين قبلهم من كتب الله.. ذلك في حين أن أكثر أهل الكتاب ﴿فَاسِقُونَ﴾ أي خارجون على دين الله، منكرين أو متنكرين لرسل الله وكتب الله.. تلك إذن هي أسباب هذه الحرب الخبيثة التي يعلنها اليهود على المؤمنين.. إنها عداوة بين المؤمنين وغير المؤمنين، بين من استجاب لله ورسله، ومن حادّ الله ورسله.

ابن عاشور:

ذكر محمد الطاهر بن عاشور (ت ١٣٩٣ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(٢)]:

١. ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنْقِمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللهِ مَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللهِ مَنْ لَعَنَهُ اللهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ هذه الجمل معترضة بين ما تقدّمها وبين قوله: ﴿وَإِذَا جَاءُوكُمْ﴾ [المائدة: ٦١]، ولا يتّضح معنى الآية أتمّ وضوح ويظهر الدّاعي إلى أمر الله ورسوله ﷺ بأن يواجههم بغليظ القول مع أنّه القائل ﴿لَا يُحِبُّ اللهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ﴾ [النساء: ١٤٨] والقائل ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ [العنكبوت: ٤٦]

---

(١) التفسير القرآني للقرآن: ١١٢٩/٣.

(٢) التحرير والتنوير: ١٤١/٥.

إلّا بعد معرفة سبب نزول هذه الآية، فيعلم أنّهم قد ظلموا بطعنهم في الإسلام والمسلمين[1]، فخصّ بهذه المجادلة أهل الكتاب لأنّ الكفّار لا تنهض عليهم حجّتها، وأريد من أهل الكتاب خصوص اليهود كما ينبئ به الموصول وصلته في قوله: ﴿مَنْ لَعَنَهُ اللهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ﴾ الآية، وكانت هذه المجادلة لهم بأنّ ما ينقمونه من المؤمنين في دينهم إذا تأمّلوا لا يجدون إلّا الإيمان بالله وبما عند أهل الكتاب وزيادة الإيمان بما أنزل على محمّد ﷺ.

٢. والاستفهام إنكاري وتعجّبي، فالإنكار دلّ عليه الاستثناء، والتعجّب دلّ عليه أنّ مفعولات ﴿تَنْقِمُونَ﴾ كلّها محامد لا يحقّ نقمها، أي لا تجدون شيئا تنقمونه غير ما ذكر، وكلّ ذلك ليس حقيقا بأن ينقم، فأمّا الإيمان بالله وما أنزل من قبل فظاهر أنّهم رضوه لأنفسهم فلا ينقمونه على من ماثلهم فيه، وأمّا الإيمان بما أنزل إلى محمّد فكذلك، لأنّ ذلك شيء رضيه المسلمون لأنفسهم وذلك لا يهمّ أهل الكتاب، ودعا الرسول إليه أهل الكتاب فمن شاء منهم فليؤمن ومن شاء فليكفر، فما وجه النقم منه، وعدّي فعل ﴿تَنْقِمُونَ﴾ إلى متعلّقه بحرف (من)، وهي ابتدائية، وقد يعدّى بحرف (على)

٣. وأمّا عطف قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ﴾ فقرأه جميع القرّاء ـ بفتح همزة (أنّ) ـ على أنّه معطوف على ﴿أَنْ آمَنَّا بِاللهِ﴾، وقد تحيّر في تأويلها المفسّرون لاقتضاء ظاهرها فسق أكثر المخاطبين مع أنّ ذلك لا يعترف به أهله، وعلى تقدير اعترافهم به فذلك ليس ممّا ينقم على المؤمنين إذ لا عمل للمؤمنين فيه، وعلى تقدير أن يكون ممّا ينقم على المؤمنين فليس نقمه عليهم بمحلّ للإنكار والتعجّب الّذي هو سياق الكلام، فذهب المفسّرون في تأويل موقع هذا المعطوف مذاهب شتّى:

أ. فقيل: هو عطف على متعلّق ﴿آمَنَّا﴾ أي آمنّا بالله، وبفسق أكثركم، أي تنقمون منّا مجموع هذين الأمرين، وهذا يفيت معنى الإنكار التعجّبي لأنّ اعتقاد المؤمنين كون أكثر المخاطبين فاسقون يجعل المخاطبين معذورين في نقمه فلا يتعجّب منه ولا ينكر عليهم نقمه، وذلك يخالف السياق من تأكيد الشيء بما يشبه ضدّه فلا يلتئم مع المعطوف عليه، فالجمع بين المتعاطفين حينئذ كالجمع بين الضبّ والنّون، فهذا وجه بعيد.

(١) ذكر ما ورد في سبب النزول الذي سبق ذكره.

ب. وقيل: هو معطوف على المستثنى، أي ما تنقمون منّا إلّا إيماننا وفسق أكثركم، أي تنقمون تخالف حالينا، فهو نقم حسد، ولذلك حسن موقع الإنكار التعجّبي، وهذا الوجه ذكره في (الكشاف) وقدّمه وهو يحسن لو لم تكن كلمة ﴿مِنَّا﴾ لأنّ اختلاف الحالين لا ينقم من المؤمنين، إذ ليس من فعلهم ولكن من مصادفة الزّمان.

ج. وقيل: حذف مجرور دلّ عليه المذكور، والتّقدير: هل تنقمون منّا إلّا الإيمان لأنّكم جائرون وأكثركم فاسقون، وهذا تخريج على أسلوب غير معهود، إذ لم يعرف حذف المعطوف عليه في مثل هذا، وذكر وجهان آخران غير مرضيين.

د. والّذي يظهر لي أن يكون قوله: ﴿وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ﴾ معطوفا على ﴿أَنْ آمَنَّا بِاللهِ﴾ على ما هو المتبادر ويكون الكلام تهكّما، أي تنقمون منّا أنّنا آمنّا كإيمانكم وصدّقنا رسلكم وكتبكم، وذلك نقمه عجيب وأنّنا آمنّا بما أنزل إلينا وذلك لا يهمّكم، وتنقمون منّا أنّ أكثركم فاسقون، أي ونحن صالحون، أي هذا نقم حسد، أي ونحن لا نملك لكم أن تكونوا صالحين، فظهرت قرينة التهكّم فصار في الاستفهام إنكار فتعجّب فتهكّم، تولّد بعضها عن بعض وكلّها متولّدة من استعمال الاستفهام في مجازاته أو في معان كنائية، وبهذا يكمل الوجه الّذي قدّمه صاحب (الكشاف)

أبو زهرة:

ذكر محمد أبو زهرة (ت ١٣٩٤ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنْقِمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللهِ﴾ نقم منه معناه عاب عليه أمرا، وأنكره، ومنه الانتقام بمعنى العقاب، وذلك لأن العقاب لا يقع إلا من أمر ينكره المعاقب ويعيبه، فيتبعه العقاب، فهو نتيجة الاستنكار لمن يقدر على العقاب، ويرى فيه حكمة توجبه.

٢. والاستفهام هنا استفهام إنكاري لنفى الواقع، فهو توبيخ مؤكد بالاستفهام، والمعنى أن الله تعالى يأمر نبيه الأمين أن يسألهم موبخا منكرا عليهم أنهم لا يعيبون عليه إلا أنه والمؤمنين معه آمنوا بالله ورسوله حق الإيمان وأن أكثرهم فاسقون.

---

(١) زهرة التفاسير: ٥/٢٢٦٣.

٣. وهنا بعض مباحث لفظية نذكرها لتقريب معنى النص السامي الكريم:

أ. الأول: كيف يعيبون الإيمان مع أنهم كافرون، وإنما يحسد على الإيمان من يدركه، ويعرف مزاياه ويحقد على المؤمن؛ لأنه حرم منه، والجواب عن ذلك أن أهل الكتاب يعرفون الرسالة والرسل، ومنهم موحدون يدركون معاني التوحيد، وهم يحسدون المؤمنين على ذلك، وخصوصا اليهود والمنافقين، وقد قال تعالى فيهم: ﴿وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ﴾.. [النساء]، وقال تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٠٩)﴾ [البقرة]، فهؤلاء الكافرون من أهل الكتاب يستنكرون على المؤمنين إيمانهم، والباعث على ذلك أمران:

• أحدهما: حسد مستكن في قلوبهم، وهم يرون أن النبوة نعمة كانوا يرجونها فيهم، فكانت في غيرهم، وأن الإيمان نعمة وخير، وهم يحسدون الناس دائما على ما آتاهم من فضله، وقد قتلهم الحسد، وأفسد مداركهم.

• الثاني الذى بعثهم على النقمة على أهل الإيمان أنهم يرونهم في قوة نامية، وهم في خسة هاوية، وهم كفار منزعجون، وأولئك مؤمنون مطمئنون.

ب. الثاني: إن في النص الكريم حصرا لسبب النقمة على المسلمين، ولذلك كان الاستثناء في قوله تعالت كلماته: ﴿هَلْ تَنْقِمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلُ﴾

ج. الثالث: أن إيمان المؤمنين شامل للرسالات الإلهية كلها، فهم يؤمنون بما أنزل على محمد ﷺ وما أنزل من قبله، واليهود كانوا يأخذون على المؤمنين أنهم يؤمنون بكل الأنبياء، ومنهم من قتلوهم، ومنهم من حاولوا قتله، ولم يستطيعوا أن ينالوا منه، وقد روى عن ابن عباس أن بعض زعماء اليهود ذهبوا إلى النبي ﷺ يسألونه عما يؤمن به فقال ﷺ أو من بالله وما أنزل إلينا، وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط، وما أوتى موسى وعيسى، وما أوتى النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون) فلما ذكر عيسى عليه السلام جحدوا نبوته، وقالوا: لا نؤمن بمن آمن به)

د. أن الله تعالى قال ﴿وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ﴾، ولم يقل سبحانه وأنتم فاسقون؛ إنصافا للذين يقتصدون منهم، وقد قال تعالى: ﴿مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾ [المائدة]، وقال تعالى:

﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ (١١٣) يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ (١١٤) وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ وَاللهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ (١١٥)﴾ [آل عمران] وإن الأكثرين منهم فاسقون، بل إنه يكون منهم ما هو شر من الفسق في ذاته، فيقعون مع الفسق في أشد مظاهر الخسة.

مُغْنِيَّة:

ذكر محمد جواد مُغْنِيَّة (ت ١٤٠٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. ﴿قُلْ يَا أهل الْكِتَابِ هَلْ تَنْقِمُونَ مِنَّا إلا أَنْ آمَنَّا بِالله وَمَا أنزل إِلَيْنَا وَمَا أنزل مِنْ قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ﴾، أجل، انهم لا يرضون إلا عمن يؤمن بهم وبامتيازهم واستغلالهم.. ان هذا في مقاييسهم قدس الأقداس، وان كفر بالله، وجميع الأنبياء والمرسلين.. أما من يكفر بظلمهم وطغيانهم فإنه عندهم شر الأولين والآخرين، وان كان ولي الأولياء.. ولا شيء أصدق في الدلالة على ذلك من أنهم يتهمون الوطنيين الأحرار منهم، ويرمونهم بالمروق من الدين، لا لشيء إلا لأنهم يستنكرون السياسة الاستعمارية، والتفرقة العنصرية.. ومع هذه التهمة الظالمة يزعمون أنهم حماة الدين، وحراسه من الإلحاد والملحدين.

٢. سؤال وإشكال: إن قولك هذا هو الواقع الذي نراه ونشاهده، ولكنه لا يصلح تفسيرا للآية، لأن الظاهر منها أنهم يعادون المسلمين لأنهم مسلمون يؤمنون بالله والقرآن والتوراة والإنجيل؟ والجواب: ظاهر الآية يدل صراحة على أن الله سبحانه أمر نبيّه الكريم أن يقول لهم: هل لنا من ذنب يستوجب منكم هذا العداء إلا أننا على حق، وأنتم على باطل، تماما كما يقول الوطني المخلص لخصمه العميل الخائن: هل تنقم مني إلا أني وطني، وأنك عميل؟ وليس من شك ان هذا المعنى يتفق مع تفسيرنا للآية، بل هو أظهر مصاديقها وأفرادها، وقد تنبه إلى ذلك صاحب مجمع البيان، حيث جاء في تفسيره: (معنى الآية هل تكرهون منا إلا إيماننا وفسقكم، أي انما كرهتم إيماننا وأنتم تعلمون انّا على حق، وانكم أقمتم على دينكم لمحبتكم الرياسة، وكسبكم بها الأموال ـ ثم قال ـ ومعنى فاسقون خارجون عن أمر الله طلبا للرئاسة)

الطباطبائي:

---

(١) التفسير الكاشف: ٣/٨٦.

ذكر محمد حسين الطباطبائي (ت ١٤٠٢ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[1]

١. ﴿قُلْ يَا أهل الْكِتَابِ هَلْ تَنْقِمُونَ مِنَّا إلا أَنْ آمَنَّا بِالله﴾ قال الراغب في مفردات القرآن: (نقمت الشيء (بالكسر) ونقمته (بالفتح) إذا أنكرته إما باللسان وإما بالعقوبة، قال تعالى: ﴿وَمَا نَقَمُوا إلا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللهُ﴾، ﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إلا أَنْ يُؤْمِنُوا بِالله﴾، ﴿هَلْ تَنْقِمُونَ مِنَّا﴾ والنقمة: العقوبة قال تعالى: ﴿فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ﴾)، فمعنى قوله: ﴿هَلْ تَنْقِمُونَ مِنَّا إلا أَنْ آمَنَّا﴾: هل تنكرون أو تكرهون منا إلا هذا الذي تشاهدونه وهو أنا آمنا بالله وما أنزله وإنكم فاسقون؟ نظير قول القائل: هل تكره مني إلا أني عفيف وأنك فاجر، وهل تنكر مني إلا أني غني وأنك فقير؟ إلى غير ذلك من موارد المقابلة والازدواج فالمعنى: هل تنكرون منا إلا أنا مؤمنون وأن أكثركم فاسقون.

٢. وربما قيل: إن قوله: ﴿وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ﴾ بتقدير لام التعليل والمعنى: هل تنقمون منا إلا لأن أكثركم فاسقون؟ وقوله: ﴿أَنْ آمَنَّا بِالله وَمَا أنزل إِلَيْنَا وَمَا أنزل مِنْ قَبْلُ﴾ في معنى ما أنزل إلينا وإليكم، ولم ينسبه إليهم تعريضا بهم كأنهم إذا لم يفوا بما عاهدوا الله عليه ولم يعملوا بما تأمرهم به كتبهم فكتبهم لم تنزل إليهم وليسوا بأهلها.

٣. ومحصل المعنى: أنا لا نفرق بين كتاب وكتاب مما أنزله الله على رسله فلا نفرق بين رسله، وفيه تعريض لهم أنهم يفرقون بين رسل الله ويقولون: ﴿نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ﴾ كما كانوا يقولون: ﴿آمنوا بِالَّذِي أنزل عَلَى الَّذِينَ آمنوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ﴾ قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِالله وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ الله وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾

الحوثي:

ذكر بدر الدّين الحوثي (ت ١٤٣١ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[2]:

١. ﴿هَلْ تَنْقِمُونَ﴾ هل تعيبون وتنكرون منا إلا أن آمنا، وهذا ليس عيباً، قال الراغب: (نقَمت الشيء ونقمته، إذا أنكرته باللسان أو بالعقوبة) ولكنهم عابوه كفراً منهم بالقرآن وبالإنجيل إذا كان

(١) الميزان في تفسير القرآن: ٦/٢٩.

(٢) التيسير في التفسير: ٢/٣٣٢.

المنكرون هم اليهود؛ لأن قوله تعالى: ﴿وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلُ﴾ يعم (الإنجيل)

٢. ﴿وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ﴾ قيل في تفسيره: إنه نظير قول القائل: هل تكره مني إلا أني عفيف وأنك فاجر، وهل تنكر مني إلا أني غني وأنك فقير، قلت: إن صح وقوع هذا في لغة العرب بلفظ ـ مني ـ في المثالين وبلفظ ـ وأنك ـ فهو لا يستقيم في سياق ﴿هَلْ تَنْقِمُونَ﴾ أي تنكرون بالقول، لقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ﴾ وإن لم يصح فالراجح: أن أهل الكتاب حملوا ذنوب فساقهم على المسلمين، وجعلوا إسلام المسلمين هو سبب فسقهم، وذلك يتصور بطريقتين:

أ. الأولى: ترغيب اليهود لفساقهم بإباحة الجريمة؛ لئلا يدخلوا في الدين الذي يحرمها قولاً وفعلاً.

ب. الثانية: أن يسهِّلوها لهم ويجعلوها مكفرة بثباتهم على اليهودية ويزعموا لهم أنها صغيرة في جنب الدخول في الإسلام، فلما كثر الفسق وانتشر بجعله خيراً من الإسلام وبتهوينه لفساقهم لئلا يدخلوا في الإسلام حمّلوا الإسلام عيبهم وجعلوه سبب فسقهم، فكان عندهم من جملة ما يعيبون به الإسلام أنه سبب لانتشار الفسق فيهم ـ والله أعلم، وعلى هذا: يصح التركيب أنهم يعيبون من المؤمنين الإيمان ويعيبون منهم فسق فساقهم، مخالفة للعدل الذي يقضي بأنها: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ [الأنعام:١٦٤] وقد ذكر في (الكشاف) وجوهاً أربعة، لقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ﴾ فراجعه إن شئت.

فضل الله:

ذكر محمد حسين فضل الله (ت ١٤٣١ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. نلاحظ[(٢)] أنّ الآيات واردة في التنديد بأهل الكتاب ـ وهم اليهود ـ في رفضهم للإيمان بالإسلام الّذي يؤكد على وحدة الرسالات بكل القيم الروحيّة والأخلاقيّة المتضمنة لها وبكل الشرائع المسنونة فيها، في الوقت الّذي لا يمثّل الكتاب لديهم إلّا اسما للانتماء مع انحرافهم عن أحكامه وقيمه في عبادتهم للطاغوت، وأكلهم السّحت، الأمر الّذي أدى إلى أن مسخ الله بعضهم قردة وخنازير ولعنهم وغضب عليهم، وعلى ضوء هذا، فإنّ سياق الآيات ليس سياق حوار حول التفاصيل في نبوّة عيسى، بل هو في مواجهة اليهود للإسلام كله، لأنّهم يرون أنّ دينهم هو خاتم الأديان، ولا يعترفون بدين بعده، ولا برسول

---

(١) من وحي القرآن: ٨/٢٤١.

(٢) ذكر ما ورد في سبب النزول الذي سبق ذكره.

من بعد موسى، ولهذا فإنّ سبب النزول أشبه بالاجتهاد منه بالرّواية، والله العالم.

٢. يثير القرآن الحوار مع أهل الكتاب، في أسلوب مميّز يريد من خلاله أن يقودهم إلى التأمل في دوافعهم الخفيّة بما يكشف لهم النوازع الذاتية المعقّدة من شخصيتهم ويعرفهم أنّهم ليسوا بمنأى عن الفضيحة، فمهما حاولوا الاختباء وراء بعض الأقنعة التي تخفي ملامحهم الحقيقيّة فيما ينوونه أو فيما يفعلونه، فإنّ الله يكشف ذلك كله لرسوله وللمؤمنين، وقد جاء الأسلوب بلهجة هادئة هي أقرب إلى لهجة العتاب، في صيغة السؤال العميق: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنْقِمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِالله وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ﴾ لماذا كل هذه الحرب؟ ولماذا كل هذا التآمر؟ وماذا فعلنا لكم حتّى نستحق كل هذا الضغط والكراهية، ولماذا تنقمون منّا؟ ماذا نريد، إلى أيّ شيء ندعو، هل تنقمون منّا إلّا أنّنا سرنا في خط الهدى المستقيم!؟ إنّنا آمنا بالله وبرسالاته وكتبه الّتي أنزلت إلينا وإلى من قبلنا، وإنّكم انحرفتم عنه إلى السير في خط الأنانية الذاتية والفئوية، والعمل على تحطيم كل الأشياء المقدسة التي تحول بينكم وبين الوصول إلى مطامعكم ومطامحكم في مركز الرئاسة، وربّما كان الأسلوب بمثابة الإشارة إلى أنّ الموقف الّذي اتخذه أهل الكتاب لم يكن ناشئا من خطة فكرية، بل هو ناشئ من عقدة ذاتية، فهؤلاء المسلمون لا يعيشون الأفق الضيق في الإيمان ولا يدورون في محور محدود، بل تتسع آفاقهم لتشمل كل الرسالات وكل الرسل، فلا يتركون مجالا لحالة عدائية في خط المجابهة، لأنّهم يحترمون ما يحترمه الآخرون، بينما يسيء الآخرون إلى ما يحترمونه، مما يفقد الآخرين حجة اللجوء إلى الخصام والنزاع، ويحوّل موقفهم بالتالي إلى عقدة مرضيّة مستحكمة، ويظل الجوّ الذي أثاره الحوار يبحث عن جواب، ولا جواب.

الشيرازي:

ذكر ناصر مكارم الشيرازي في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. في هذه الآية يأمر الله نبيّه ﷺ أن يسأل أهل الكتاب عن سبب اعتراضهم وانتقادهم للمسلمين، وهل أنّ الإيمان بالله الواحد الأحد والإعتقاد بما أنزل على نبي الإسلام والأنبياء الذين سبقوه يجابه بالاعتراض والانتقاد.

---

(١) تفسير الأمثل: ٤/٦٥.

٢. كلمة (تنقمون) مشتقة من المصدر (نقمة) وتعني في الأصل إنكار شيء معين نطقا أو فعلا كما تأتي بمعنى إيقاع العقاب أو الجزاء.

٣. وتشير هذه الآية ـ أيضا ـ إلى جانب آخر من جوانب صلف ووقاحة اليهود وتطرفهم غير المبرر، ونظرتهم الضيقة الآحادية الجانب التي دفعت بهم إلى الاستهانة بكل شخص ودين غير أنفسهم ودينهم، وهم لتطرفهم ذلك كانوا يرون الحقّ باطلا والباطل حقّا.

٤. وتأتي في آخر الآية عبارة تبيّن علّة الجملة السابقة، حيث تبيّن أن اعتراض اليهود وانتقادهم للمسلمين الذين آمنوا بالله وبكتبه، ما هو إلّا لأنّ أكثر اليهود من الفاسقين الذين انغمسوا في الذنوب، ولذلك فهم ـ لانحرافهم وتلوثهم بالآثام ـ يعيبون على كل إنسان ظاهر اتباعه للصواب وسيره في طريق الحقّ حيث تؤكّد الآية: ﴿وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ﴾

٥. وبديهي أنّ المقاييس في محيط موبوء بالفساد والفسق، تنقلب ـ أحيانا ـ بحيث يصبح الحقّ باطلا والباطل حقا، ويصبح العمل الصالح والإعتقاد النزيه شيئا قبيحا مثيرا للاعتراض والانتقاد، بينما يعتبر كل عمل قبيح شيئا جميلا جديرا بالاستحسان والمديح، وهذه هي طبيعة المسخ الفكري الناتج عن الانغماس في الخطايا والذنوب إلى درجة الإدمان.

٦. وتجدر الإشارة إلى أنّ هذه الآية تنتقد جميع أهل الكتاب، وواضح أنّها عزلت حساب الأقلية الصالحة بدقة عن الأكثرية الآثمة باستخدام كلمة (أكثركم) في العبارة الأخيرة منها.

٦٠. عظم العقوبة الإلهية وخطرها

نتناول في هذا الفصل ما ذكره المفسّرون ـ بحسب التسلسل التاريخي، والمدارس الإسلامية المختلفة ـ حول تفسير المقطع [٦٠] من سورة المائدة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ الله مَنْ لَعَنَهُ اللهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ [المائدة: ٦٠]، مع العلم أنّا نقلنا المباحث التي لا علاقة لها ـ كبرى أو مباشرة ـ بالتفسير التحليلي إلى محالّها من كتب السلسلة.

ابن مسعود:

روي عن عبد الله بن مسعود (ت ٣٢ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال: قال رجل: يا رسول الله، القردة والخنازير هي مما مسخ؟ فقال النبي ﷺ: (إن الله عز وجل لم يهلك قوما أو يعذب قوما فيجعل لهم نسلا، وإن القردة والخنازير كانوا قبل ذلك)[١]

٢. روي أنّه قال: سألنا رسول الله ﷺ عن القردة والخنازير، أهي من نسل اليهود؟ فقال: (لا، إن الله لم يلعن قوما قط فمسخهم فكان لهم نسل، ولكن هذا خلق كان، فلما غضب الله على اليهود فمسخهم، جعلهم مثلهم)[٢]

علي:

روي عن الإمام علي (ت ٤٠ هـ) أنّه قال: أمر الله عباده أن يسألوه طريق المنعم عليهم، وهم النبيون والصديقون والشهداء والصالحون، ويستعيذوا به من طريق المغضوب عليهم، وهم اليهود الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ الله مَنْ لَعَنَهُ اللهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ﴾ قوله تعالى: ﴿وإِذا جاؤُكُمْ قالُوا آمَنَّا وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ﴾[٣].

ابن عباس:

---

(١) مسلم ٤/٢٠٥٠.

(٢) أحمد ٦/٢٩٢.

(٣) التفسير المنسوب إلى الإمام العسكري: ٥٠/٢٣.

روي عن ابن عباس (ت ٦٨ هـ) أنّه قال: إن الممسوخين كلاهما من أصحاب السبت، فشبانهم مسخوا قردة، ومشايخهم مسخوا خنازير[(١)].

أبو مالك:

روي عن أبي مالك غزوان الغفاري (ت ١٠٠ هـ) أنه قيل له: كانت القردة والخنازير قبل أن يمسخوا؟ قال: نعم، وكانوا مما خلق من الأمم[(٢)].

ابن كثير:

روي عن عمر بن كثير بن أفلح مولى أبي أيوب الأنصاري (ت ١٠١ هـ) قال: حدثت: أن المسخ في بني إسرائيل من الخنازير كان أن امرأة من بني إسرائيل كانت في قرية من قرى بني إسرائيل، وكان فيها ملك بني إسرائيل، وكانوا قد استجمعوا على الهلكة، إلا أن تلك المرأة كانت على بقية من الإسلام متمسكة به، فجعلت تدعو إلى الله، حتى إذا اجتمع إليها ناس فتابعوها على أمرها قالت لهم: إنه لابد لكم من أن تجاهدوا عن دين الله، وأن تنادوا قومكم بذلك، فاخرجوا، فإني خارجة، فخرجت، وخرج إليها ذلك الملك في الناس، فقتل أصحابها جميعا، وانفلتت من بينهم، ودعت إلى الله حتى تجمع الناس إليها، حتى إذا رضيت منهم أمرتهم بالخروج، فخرجوا، وخرجت معهم، فأصيبوا جميعا، وانفلتت من بينهم، ثم دعت إلى الله، حتى إذا اجتمع إليها رجال واستجابوا لها أمرتهم بالخروج، فخرجوا، وخرجت، فأصيبوا جميعا، وانفلتت من بينهم، فرجعت وقد أيست وهي تقول: سبحان الله، لو كان لهذا الدين ولي وناصر لقد أظهره بعد! فباتت محزونة، وأصبح أهل القرية يسعون في نواحيها خنازير، مسخهم الله في ليلتهم تلك، فقالت حين أصبحت ورأت ما رأت: اليوم أعلم أن الله قد أعز دينه وأمر دينه، قال: فما كان مسخ الخنازير في بني إسرائيل إلا على يدي تلك المرأة[(٣)].

مجاهد:

روي عن مجاهد (ت ١٠٤ هـ) أنّه قال: ﴿وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ﴾، قال: مسخت من

---

(١) تفسير البغوي ٣/٧٥.

(٢) عزاه السيوطي إلى أبي الشيخ.

(٣) ابن جرير ٨/٥٤٠.

يهود[1].

السدي:

روي عن إسماعيل السدي الكوفي (ت ١٢٧ هـ) أنّه قال في قوله: ﴿مَثُوبَةً عِنْدَ اللهِ﴾ ثوابا عند الله[2].

مقاتل:

روي عن مقاتل بن سليمان (ت ١٥٠ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ﴾ يعني: المؤمنين ﴿مَثُوبَةً عِنْدَ اللهِ﴾ يعني: ثوابا من عند الله، قالت اليهود: من هم يا محمد؟ فقال النبي ﷺ: ﴿مَنْ لَعَنَهُ اللهُ﴾ وهم اليهود، ﴿وَغَضِبَ عَلَيْهِ﴾ فإن لم يقتل أقر بالخراج، وغضب عليه[3].

٢. روي أنّه قال: ﴿وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ﴾ القردة في شأن الحيتان، والخنازير في شأن المائدة[4].

٣. روي أنّه قال: ﴿وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾ فيها تقديم، وعبد الطاغوت، يعني: ومن عبد الطاغوت، وهو الشيطان[5].

٤. روي أنّه قال: ﴿أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا﴾ في الدنيا يعني: شر منزلة ﴿وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ يعني: وأخطأ عن قصد الطريق من المؤمنين[6].

ابن زيد:

روي عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم (ت ١٨٢ هـ) أنّه قال: المثوبة: الثواب؛ مثوبة الخير، ومثوبة

---

(١) تفسير مجاهد ص ٣١١.

(٢) ابن جرير ٨/٥٣٩.

(٣) تفسير مقاتل ابن سليمان ١/٤٨٨.

(٤) تفسير مقاتل ابن سليمان ١/٤٨٨.

(٥) تفسير مقاتل ابن سليمان ١/٤٨٩.

(٦) تفسير مقاتل ابن سليمان ١/٤٨٩.

الشر، وقرأ: شر ثوابا[1].

الهادي إلى الحق:

ذكر الإمام الهادي إلى الحق (ت ٢٩٨ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[2]:

١. ﴿وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾ [المائدة: ٦٠]، هؤلاء قوم من بني إسرآئيل مسخوا حين عتوا واجتروا، فُجعلوا صَور ما ذكر الله جل جلاله، عن أن يحويه قول أو يناله، من القردة والخنازير، فجعلُ الله لهم، هو: تحويلهُ لصورهم، وإحلاله لنقمه الله سبحانه بهم، على ماكان من فعلهم، وما استوجبوا بجرمهم.

٢. وأما قوله: ﴿وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾ فإنما هو منه على التقديم والتأخير، أراد سبحانه ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللهِ مَنْ لَعَنَهُ اللهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾ [المائدة: ٦٠] فجعلها في اللفظ مؤخره وهي في المعنى مقدمة، وفعل الطاغوت فليس من فعل الله، لأن الطاغوت هو ما أطغى من الفعل، وأفسد من العمل، وخالف من الحق، وجنب عن الصدق.

٣. ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللهِ مَنْ لَعَنَهُ اللهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾، إن الله لم يأخذهم، ولم يجعل منهم ما جعل من القردة والخنازير، ومسخ منهم من مسخ من المذنبين، إلا بعد الإعذار والإنذار، مرارا بعد مرار، فلما أبوا، وعموا عن أمره سبحانه وخالفوا ـ أخذوا بذنوبهم، فلم يجدوا من دون الله وليا ولا نصيرا.

٤. وأما قوله: ﴿وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾ فإن ذلك مردود على أول الآية، وهو مقدم في المعنى، وكثير مثل ذلك على ما يكون على التقديم والتأخير، يعلمه من عباده العالم الخبير؛ فمعناه: أنبئكم بشر من ذلك مثوبة عند الله من لعنه الله، وغضب عليه، وعبد الطاغوت، وجعل منهم القردة والخنازير، أراد: أن من عبد الطاغوت فهو شر من ذلك؛ فهذا موضع ما ظن من: ﴿عبد الطاغوت﴾؛ ألا ترى كيف أهلك من كان كذلك؟ ومن اجترأ من الخلق كاجتراء أولئك[3]؟

---

(١) ابن جرير ٨/٥٣٩.

(٢) تفسير الإمام الهادي: ١/١٨٦.

(٣) الأنوار البهية المنتزع من كتب أئمة الزيدية: ١/٣٣١.

المرتضى:

ذكر الإمام المرتضى بن الهادي (ت ٣١٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[1]:

١. سؤال وإشكال: ﴿وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾، قلت: ما معنى ذلك؟

والجواب: قد سئل جدي القاسم صلوات الله عليه عن هذه المسألة، فقال: جعلهم هو: تبديله لهم تبارك وتعالى، وقوله: ﴿وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾ فإنما هو نسق وتمام لما تقدم من الأول ولحق، من قوله سبحانه: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللهِ﴾، يريد: منزلة ومحلا ومرتبة عند الله من لعنه الله، وغضب عليه، وجعل منهم القردة والخنازير، وعبد الطاغوت، والمسخ المقدورة الممقوتة، تقديما وتأخيرا وتعريفا، ولست تحتاج ـ والله محمود ـ إلى تفسير فيما يجوز من شأن القرآن من التقديم والتأخير.

الماتريدي:

ذكر أبو منصور الماتريدي (ت ٣٣٣ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[2]:

قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللهِ مَنْ لَعَنَهُ اللهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾:

أ. ذكر هذا على أثر قوله: ﴿هَلْ تَنْقِمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللهِ﴾ على أثر قوله: ﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا﴾ الآية؛ وذلك أنهم كانوا يستهزئون بالمؤمنين ويضحكون منهم، ويطعنون في دينهم ويعيبون عليهم؛ فقال على أثر ذلك: ﴿قُلْ﴾ يا مُحَمَّد: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ﴾، أي: مما المؤمنون عليه ﴿مَثُوبَةً عِنْدَ اللهِ﴾ قالوا: من؛ قال الله: ﴿مَنْ لَعَنَهُ اللهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ﴾ الآية؛ فمن كان هذا وصفه فهو شر مما عليه المؤمنون، وقد كان فيهم جميع ذلك مما غضب الله عليهم ولعنهم، أي: حول جوهرهم إلى أقبح جواهر في الطبع وأوخسها ـ وهي القردة والخنازير ـ بسوء صنيعهم.

ب. أو يكون ذلك على أثر قول ما قالوا: ما ذكر في بعض القصة: (والله ما نعلم من أهل دين أقل حظًّا في الدنيا والآخرة، من هَؤُلَاءِ)، يعنون: المؤمنين؛ لأنهم كانوا يَدَّعُون أن الدنيا والآخرة لهم، وليس لهَؤُلَاءِ لا دنيا ولا آخرة؛ فقال الله سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ﴾ يا مُحَمَّد: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ

(١) الأنوار البهية المنتزع من كتب أئمة الزيدية: ١/٣٣٣.

(٢) تأويلات أهل السنة: ٣/٥٤٩.

اللهِ﴾، أي: ثوابًا عند الله، فقالوا: من هم؟ قال: ﴿مَنْ لَعَنَهُ اللهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ﴾

١. والملعون هو المطرود عن الخيرات، وجعل من حول جوهره إلى جوهر القرد والخنزير، وهو أقبح جوهر في الطبع والعقل وأوسخه، ومن ﴿وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾ يعني: الشيطان.

٢. ﴿أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا﴾ في الدنيا؛ لما حول جوهرهم إلى أقبح جوهر في الأرض ـ من الذين لم يحول جوهرهم إلى ذلك؛ إذ لم يروا أحدًا من المؤمنين حُوِّل جوهره إلى جوهر مَنْ ذُكِرَ، وقد رأوا كثيرًا من أوائلهم قد حولوا من جوهرهم إلى هذه الجواهر المستقبحة في الطبع المؤذية، أو يكون على الإضمار على أثر أمر كان ونحن لم نعلم به؛ فنزل عند ذلك.

٣. وعن الحسن قال: قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ﴾: الذين لعنهم الله، والذين غضب عليهم، والذين عبدوا الطاغوت، والذين جعل منهم القردة والخنازير: منهم من جعله قردة، ومنهم من أبقى على جوهره الذي كان، ﴿أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا﴾ في الدنيا والآخرة.

٤. ﴿وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ أي: أخطأ طريقًا ودينًا، والله أعلم بالقصة.

العياني:

ذكر الإمام المهدي العياني (ت ٤٠٤ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. معنى قوله: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً﴾، أي شر من ذلك مصيراً وثواباً عند الله.

٢. معنى قوله: ﴿مَنْ لَعَنَهُ اللهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾، هذا من التقديم والتأخير، والمعنى في ذلك من عبد الطاغوت ولعنه الله وغضب عليه وجعل منهم القردة والخنازير ﴿أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾

الطوسي:

ذكر أبو جعفر الطوسي (ت ٤٦٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(٢)]:

١. قراء حمزة (وعبد الطاغوت) بضم الباء وخفض التاء يريد خدم الطاغوت في قول الأعمش، ويحيى بن رئاب، الباقون بفتح الباء والدال ونصب التاء:

---

(١) تفسير الإمام المهدي العياني: ٢/٢٢٢.

(٢) تفسير الطوسي: ٣/٥٧٣.

أ. قال أبو علي: حجة حمزة أنه حمل على ما عمل فيه (جعل) كأنه قال وجعل منهم من عبد الطاغوت، ومعنى (جعل) خلق، كما قال: ﴿وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ وقال: ﴿وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾ قال وليس (عبد) لفظ جمع لأنه ليس في أبنية الجمع شيء على هذا البناء لكنه واحد في موضع جمع كما قال: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ وجاء على (فعل) لأن هذا البناء يراد به الكثرة نحو يقظ وندس و(عبد) في الأصل صفة، وأن كان استعمل استعمال الأسماء، ولا يزيل ذلك عنه كونه صفة كما لم يزل في الأبرق والأبطح حيث كسر تكسير الأسماء لم يزل عنهما معنى الصفة بدلالة أنهم تركوا صرفهما كما تركوا صرف (أحمر) ولم يجعلوه كأوكل وأبدع.

ب. وأما من فتح فإنه عطفه على مثال الماضي الذي في الصلة، وهو قوله: ﴿لَعَنَهُ اللهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ﴾ وأفرد الضمير في (عبد) وان كان المعنى فيه كثرة لأن الكلام محمول على لفظ (من) دون معناه، ولو حمل الكلام أو البعض على المعنى لكان صواباً قال الفراء: وقرأ أبي وعبد الله (وعبد الطاغوت) على الجمع، والمعنى والذين عبد الطاغوت ـ بضم العين والباء ـ مثل ثمار وثمر، وعبيد وعبد، على أنه جمع جمع، ويكون المعنى وجعل منهم عبد الطاغوت كما تقول: جعلت زيداً أخاك أي نسبته اليك ويجوز على هذا رفع الدال على تقدير، وهم عبد الطاغوت لكن لم يقرأ به أحد، قال

ج. ولو قرأ قارئ وعبد الطاغوت كان صواباً يريد به عبدة الطاغوت ويحذف الهاء للاضافة كما قال الشاعر: (قام ولاها فسقوه صرخدا) يريد ولاتها وحكي في الشواذ و(عبد الطاغوت) على ما لم يسمي فاعله، ذكره الرماني، قال الطبري هي قراءة أبي جعفر المدني، وحكى البلخي (عابد الطاغوت، وعبد الطاغوت) مثل شاهد وشهد، وحكى ايضا (عباد الطاغوت) مثل كافر وكفار، ولا يقرأ بشيء من ذلك، وقال الطبري عن بريدة الاسلمي أنه قرأ (عابد الطاغوت) فهذه ثمانية أوجه، لكن لا يقرأ إلا بقرائتين أو ثلاثة، لأن القراءة متبوعة يؤخذ بالمجموع عليه، قال الفراء (عبد) على ما قرأ حمزة إن كانت لغة فهو مثل حذر وحذر، وعجل وعجل فهو وجه وإلا فإنه أراد قول الشاعر:

أبني لبيني إن أمكم　　　أمة وإن آباءكم عبد

فحرك وهذا في ضرورة الشعر لا في القراءة وأنشد الأخفش:

أنسب العبد إلى آبائه　　　اسود الجلدة من قوم عبد

٢. أمر الله تعالى في هذه الآية نبيه ﷺ أن يخاطب الكفار ويقول لهم: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ﴾ أي هل أخبركم ﴿بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ﴾ أي من الذي طعنتم عليه من المسلمين، ومما رغبتم عنه ونقمتم عليه.

٣. وإنما قال: ﴿بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ﴾ وإن لم يكن من المؤمن شرَّ وكذلك قوله: ﴿أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا﴾ على الإنصاف في الخطاب والمظاهرة في الحجاج لأن الكفار يعتقدون أن هؤلاء أشرار، وأن ما فيهم شر فخرج على ما يعتقدونه.

٤. وقوله: ﴿مَثُوبَةً﴾ معناها الثواب الذي هو الجزاء ووزنها مفعولة مثل مقولة ومجوزة ومضوفة على معنى المصدر وقال الشاعر:

وكنت إذا جاري دعا لمضوفة — أشمر حتى ينصف الساق مئزري

وقال أبو عبيدة هي (مفعلة) مثل مكرهة ومعقلة ومشغلة.

٥. وموضع (من) يحتمل ثلاثة أوجه من الإعراب:

أ. أحدها: الجر والتقدير بشر من ذلك لمن لعنه الله والرفع على من لعنه الله.

ب. والنصب على أنبئكم من لعنه الله.

٦. وقيل في معنى (الطاغوت) قولان:

أ. أحدهما: قال الحسن: هو الشيطان، لأنهم أطاعوه طاعة المعبود.

ب. الثاني: كل ما دعا إلى عبادته من دون الله من الفراعنة، فشبه به ما عبد من الأصنام ونحوها، قال أبو علي: وهو ها هنا العجل الذي عبدته اليهود، لأن الكلام كله في صفتهم.

٧. وقوله: ﴿أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا﴾ يعني هؤلاء الذين وصفهم بأنهم لعنهم وغضب عليهم، وأنهم عبدة الطاغوت شر مكانا يعني في عاجل الدنيا وآجل الآخرة، وهو نصب على التمييز.

٨. وقوله: ﴿وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ يعني أجوز عن الطريق المستقيم.

٩. وظن بعضهم أن قوله: ﴿وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ﴾ جعلهم كذلك ﴿وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾ يفيد أنه جعلهم يعبدون الطاغوت ـ يتعالى الله عن ذلك ـ لأنه لو كان جعلهم كذلك لما كان عليهم لوم:

أ. وإنما المعنى ما قلناه: من أنه أخبر عمن هو شر ممن عابوه، وهم الذين لعنهم وغضب عليهم، ومن جعل منهم القردة والخنازير، ومن عبد الطاغوت، لأنه تعالى هو الخالق لهم، وإن كان لم يخلق عبادتهم

للطاغوت.

ب. وقال أبو علي: هو معطوف على قوله: ﴿مَنْ لَعَنَهُ اللهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ﴾ ومن ﴿عَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾ ومن جعل منهم القردة والخنازير وليس بمعطوف على قوله: ﴿وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ﴾ فعلى هذا سقطت الشبهة.

الجشمي:

ذكر الحاكم الجشمي (ت ٤٩٤ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[1]:

١. شرح مختصر للكلمات:

أ. المثوبة: الثواب، وهو الجزاء، وأصله ثاب يثوب، ومنه المثابة المرجع، ومنه ﴿مَثَابَةً لِلنَّاسِ﴾، واختلفوا في وزنه، قيل: مَفُولَة، نحو مقولة ومعونة، وأصله مثووبة، نحو ميسورة، فأسقطت عين الفعل، استثقالاً للضمة على الواو، ونقلت حركتها إلى فاء الفعل، وهي الثاء؛ لأنه من ثاب يثوب، فصار مثوبة.

ب. الطاغوت: فَعَلُوتٌ من الطغيان، يقال: طغى إذا جاوز حده في العصيان، والطُّغْوَان والطغيان لغتان، وطغى البحر: إذا هاجت أمواجه، وطغى السيل، وطغى الدم: تبيَّغَ بصاحبه.

٢. مما روي في سبب نزول الآية الكريمة:

أ. ذكر الأصم عن بعضهم أن أهل الكتاب قالوا: ما نعلم أمة جاءها رسول أضيق عيشًا، ولا أشد جهدًا، ولا أشقى من أمة محمد ﷺ، فأنزل الله تعالى هذه الآية.

ب. وقيل: لما نزلت الآية التي قبلها نقمت اليهود من إيمان المسلمين بجميع الأنبياء، فنزلت هذه الآية، وأمر النبي ﷺ أن يجيبهم، فلما نزلت هذه الآية عير المسلمون اليهود، وقالوا: يا إخوان القردة والخنازير، وافتضحوا.

٣. أمر الله تعالى نبيه ﷺ بمحاجة اليهود في إظهار فضائحهم، فقال سبحانه: ﴿قُلْ﴾ يا محمد هَؤُلَاءِ المستهزئين من اليهود والكفار ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ﴾ أخبركم ﴿بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً﴾:

أ. بشر جزاء مما تنقمون منا.

---

(١) التهذيب في التفسير: ٣/٣٤٢.

ب. وقيل: بشر من ذلك؛ أي من الَّذِينَ طعنتم عليهم من المسلمين.

ج. وقيل: معناه: إن كان ذلك عندكم شرًّا فأنا أخبركم بشر منه عاقبة.

٤. سؤال وإشكال: كيف قال: ﴿بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ﴾، ولم يكن في المؤمنين شرٌّ؟ والجواب: أنه ذكر ذلك على الإنصاف في المخاطبة والمظاهرة في الحجاج كقوله: ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾

٥. ﴿مَثُوبَةً عِنْدَ اللهِ﴾ جزاء عند الله ﴿مَنْ لَعَنَهُ اللهُ﴾ أبعده من رحمته ﴿وَغَضِبَ عَلَيْهِ﴾ وغضبه إرادة العقوبة والاستحقاق به، قال الأصم: فضرب عليهم الذلة والمسكنة والجزية أينما كانوا من الروم وفارس.

٦. ﴿وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ﴾ يعني مسخهم قردة وخنازير:

أ. قيل: القردة أصحاب السبت، والخنازير كفار أهل مائدة عيسى.

ب. وقال ابن عباس: كلا المسخين في أصحاب السبت، فشبابهم مسخوا قردة، ومشائخهم مسخوا خنازير.

٧. ﴿وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾ يعني: منهم من عبد الطاغوت، واختلفوا:

أ. فقيل: الطاغوت هو الشيطان، عن الحسن والأصم؛ لأنهمْ أطاعوه طاعة المعبود.

ب. وقيل: الطاغوت: كل من دعا إلى عبادة الصنم، لأنهم أطاعوه طاعة المعبود.

ج. وقيل: الطاغوت: كل من دعا إلى عبادة غير الله من الفراعنة.

د. وقيل: هو ههنا العِجْل الذي عبدته بنو إسرائيل؛ لأن الكلام في صفتهم.

٨. ﴿أُولَئِكَ﴾ يعني هَؤُلَاءِ الَّذِينَ وصفهم ﴿شَرٌّ مَكَانًا﴾ في الدنيا والآخرة، ممن نقمتم عليه، أما في الدنيا فبالقتل والسبي، وضربت عليهم الذلة والمسكنة، وألزموا الجزية، وأما في الآخرة فعذاب الأبد، ﴿وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ يعني أبعد من طريق الحق والنجاة.

٩. تدل الآية الكريمة على:

أ. وقوع مسخ في اليهود، والأقرب أن المسخين كانا في صنف واحد.

ب. نبوته من حيث أخبرهم عن سرائر أخبارهم، ولم يقرأ كتابًا، ولا سمع حديثًا، فعلم أنه يقول ذلك وحيًا.

ج. وفيه تسلية للنبي ﷺ، وبيان حال اليهود.

د. ولا تعلق للمجبرة بقوله: ﴿وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾؛ لأنه ليس فيه أن عبادة الطاغوت منه، ولا هو معطوف على ﴿جَعَلَ﴾؛ لأنه فعل ماض، ولا يعطف على الأسماء، والمعنى: منهم من عبد الطاغوت.

هـ. أنه ذمهم، وأوجب اللعن لهم، ولو كان خلقه فيهم لما صح ذلك.

١٠. في ﴿وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾ عشر قراءات:

أ. الأول: قراءة العامة وأكثر القراء أبو جعفر ونافع وابن كثير وابن عامر وأبو عمرو وعاصم ويعقوب والكسائي ﴿عَبْدُ﴾ بفتح العين والباء والدال ﴿الطَّاغُوتَ﴾ بفتح التاء على أنّ ﴿عَبْدُ﴾ فعل ماض، نحو ضَرَبَ، وصَبَغَ، والطاغوت مفعول، واختلفوا أنه معطوف على ماذا؟ فقيل: على قوله: ﴿لَعَنَهُ اللهُ﴾، تقديره: من لعنه الله وعبد الطاغوت، وقيل: على القردة والخنازير، أي وجعل منهم مَنْ عَبَدَ الطاغوت، والمراد وصفهم بذلك، وحكم فيهم بذلك، وقيل: في قراءة ابن مسعود: من عبدوا الطاغوت.

ب. الثاني: قراءة حمزة، ويحيى بن وثاب ﴿عَبْدُ﴾ بفتح العين والدال وضم الباء وكسر ﴿الطَّاغُوتَ﴾، على معنى أنه شديد العبادة للطاغوت، نحو: رجل حَذُرٌ؛ أي شديد الحذر، وقيل: المراد به العبد، وهما لغتان عَبُدٌ وعَبْدٌ، كَسَبُعٌ وسَبْعٍ، وقيل: المراد الجمع؛ أي خدم الطاغوت، فجمع العبد عباد، والعَبُدُ جمع الجمَع كثمار وثمر، ثم استثقل ضمتين متواليتين، فأبدل من الأولى: فتحة.

ج. الثالث: قراءة الأعمش ﴿عَبْدُ﴾ بضم العين والباء، وكسر تاء ﴿الطَّاغُوتَ﴾، وهو جمع عبد كرغيف وَرُغُفٍ، وسرير وسُرُرٍ، قال الشاعر: أسوَدَ الجِلْدَةِ من قَوْمٍ عُبُدْ.

د. الرابع: روي عن أبي جعفر القاري، ﴿وَعَبَدَ﴾ بضم العين وكسر الباء وفتح الدال، وضم تاء ﴿الطَّاغُوتَ﴾، على فِعْلِ ما لم يسم فاعله بمعنى عُبِدَ الطاغوتُ)

هـ. الخامس: قراءة الحسن ﴿عَبْدُ﴾ بفتح العين وسكون الباء، على الواحد.

و. السادس: قراءة أبي برزة الأسلمي وَعَابِدَ الطاغوت) بالألف، على الواحد.

ز. السابع: قراءة ابن العباس وَعَبِيدَ الطاغوت)، على الجمع.

ح. الثامن: قراءة أبي واقد الليثي: وعُبَّادَ الطاغوت) جمع عابد، نحو: كافر وكُفَّار.

ط. التاسع: قراءة أبان بن تغلب، وعون العقيلي ﴿عَبْدُ﴾ بتشديد الباء وضم العين، مثل: رُكَّع

سُجَّد.

ي. العاشر: قراءة عبيد بن عمير وأَعْبُدَ الطاغوت) جمع عبد، نحو: كلب وأكلب، ويجوز في العربية وجه آخر ﴿وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾ إلا أن الهاء تحذف للإضافة، مثل ﴿وَإِقَامِ الصَّلَاةِ﴾، وهو جمع عابد مثل: كافر وكَفَرَةٍ.

١١. مسائل لغوية ونحوية:

أ. ﴿مَثُوبَةً﴾ نصب على التفسير، كقوله: ﴿أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾

ب. في موضع ﴿مِنْ﴾ في قوله: ﴿مَنْ لَعَنَهُ اللهُ﴾ من الإعراب ثلاثة أوجه:

- الأول: الجر على تقدير: شر من ذلك مثوبة ممن لعنه الله.
- الثاني: الرفع بتقدير: هم من لعنه الله.
- الثالث: نصبا على اتباع ﴿أُنَبِّئُكُمْ﴾، تقديره: أنبئكم من لعنه الله.

الطَبِرسي:

ذكر الفضل الطَبِرسي (ت ٥٤٨ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. أمر سبحانه نبيه ﷺ أن يخاطبهم فقال: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء المستهزئين من الكفار واليهود ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ﴾ أي: هل أخبركم ﴿بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللهِ﴾:

أ. أي: بشر مما نقمتم من إيماننا ثوابا أي: جزاء، المعنى: إن كان ذلك عندكم شرا فأنا أخبركم بشر منه عاقبة عند الله.

ب. وقيل: معناه هل أخبركم بشر من الذين طعنتم عليهم من المسلمين، وإنما قال: ﴿بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ﴾، وإن لم يكن في المؤمن شر على الإنصاف في المخاطبة والمظاهرة في الحجاج، كقوله: ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [سبأ: ٢٤]

٢. ﴿مَنْ لَعَنَهُ اللهُ﴾ أي: أبعده من رحمته ﴿وَغَضِبَ عَلَيْهِ﴾ بفسقه وكفره، وغضبه عليه:

أ. أراد به العقوبة والاستخفاف به.

---

(١) تفسير الطبرسي: ٣/٣٣١.

ب. وقيل: غضبه أن ضرب عليهم الذلة والمسكنة والجزية، أينما كانوا من الأرض.

٣. ﴿وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ﴾ أي: مسخهم قردة وخنازير:

أ. قال المفسرون: يعني بالقردة أصحاب السبت، وبالخنازير: كفار مائدة عيسى.

ب. وروى الوالبي، عن ابن عباس: إن الممسوخين من أصحاب السبت، لان شبانهم مسخوا قردة، وشيوخهم مسخوا خنازير.

٤. ﴿وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾:

أ. قال الزجاج: هو نسق على لعنه الله، ومن عبد الطاغوت.

ب. وقال الفراء: تأويله وجعل منهم القردة ومن عبد الطاغوت فعلى هذا يكون الموصول محذوفا، وذلك لا يجوز عند البصريين، فالصحيح الأول.

٥. اختلف في معنى قوله تعالى: ﴿الطَّاغُوتَ﴾:

أ. قيل: الطاغوت هنا الشيطان، عن ابن عباس، والحسن، لأنهم أطاعوه طاعة المعبود.

ب. وقيل: هو العجل الذي عبده اليهود، عن الجبائي، لان الكلام كله في صفتهم.

٦. لا تعلق في هذه الآية للمجبرة، لان أكثر ما تضمنته الإخبار بأنه خلق من يعبد الطاغوت على قراءة حمزة، أو غيره ممن قرأ عبادا، أو عبادا، أو عبدا، وغير ذلك، ولا شبهة في أنه تعالى خلق الكافر، وأنه لا خالق للكافر سواه، غير أن ذلك لا يوجب أن يكون خلق كفره، وجعله كافرا، وليس لهم أن يقولوا إنا نستفيد من قوله: وجعل منهم من عبد الطاغوت أو عبد الطاغوت، أنه خلق ما به كان عابدا، كما نستفيد من قوله: ﴿وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ﴾ أنه جعل ما به كانوا كذلك، وذلك أنا إنما استفدنا ما ذكروه، لان الدليل قد دل على أن ما به يكون القرد قردا، والخنزير خنزيرا، لا يكون إلا من فعل الله، وليس كذلك ما به يكون الكافر كافرا، فإنه قد دل الدليل على أنه يتعالى عن فعله وخلقه فافترق الأمران.

٧. ﴿أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا﴾:

أ. أي: هؤلاء الذين وصفهم الله بأنه لعنهم، وغضب عليهم، وأنهم عبدوا الطاغوت، شر مكانا، لان مكانهم سقر، ولا شر في مكان المؤمنين، ومثله أصحاب الجنة يومئذ خير مستقرا.

ب. وقيل: معناه أنهم شر مكانا في عاجل الدنيا، وآجل الآخرة، ممن نقمتم من المؤمنين، أما في

الدنيا فبالقتل والسبي، وضرب الذلة والمسكنة عليهم، وإلزام الجزية، وأما في الآخرة فبعذاب الأبد.

٨. ﴿وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ أي: أجوز عن الطريق المستقيم، وأبعد من النجاة.

٩. قال المفسرون: فلما نزلت هذه الآية عير المسلمون أهل الكتاب وقالوا: يا إخوان القردة والخنازير، فنكسوا رؤوسهم وافتضحوا.

١٠. قراءات ووجوه:

أ. قرأ حمزة وحده: (وعبد الطاغوت) بضم الباء، وجر التاء، والباقون ﴿وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾ بفتح الباء ونصب التاء، وقرأ ابن عباس، وابن مسعود، وإبراهيم النخعي، والأعمش، وأبان بن تغلب ﴿وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾ بضم العين والباء، وفتح الدال، وخفض الطاغوت، وقرأ أبي بن كعب (عبدوا الطاغوت)، ورواية عكرمة عن ابن عباس ﴿وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾ بتشديد الباء وفتح الدال، وقراءة أبي واقد: (وعباد الطاغوت) وقراءة أبي جعفر الرؤاسي النحوي ﴿وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾ كقولك ضرب زيد، لم يسم فاعله، وقراءة عون العقيلي، وابن بريدة: (وعابد الطاغوت)، ورواية علقمة، عن ابن مسعود ﴿وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾ على وزن صرد: فهذه عشر قراءات اثنتان منها في السبعة، قال أبو علي:

• حجة حمزة في قراءة ﴿وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾ أن يحمله على ما عمل فيه، جعل كأنه وجعل منهم عبد الطاغوت، ومعنى جعل: خلق، كقوله: ﴿وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾، وليس ﴿عَبْدُ﴾ لفظ جمع، لأنه ليس من أبنية الجموع شيء على هذا البناء، ولكنه واحد يراد به الكثرة، ألا ترى أن في الأسماء المفردة المضافة إلى المعارف ما لفظه لفظ الإفراد، ومعناه الجمع، كما في قوله: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ ولان بناء فعل، يراد به المبالغة والكثرة، نحو: يقظ وندس، فكان تقديره أنه قد ذهب في عباد الطاغوت كل مذهب، وتكرر ذلك منه.

• وأما من فتح فقال: ﴿وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾ فإنه عطفه على بناء الماضي الذي في الصلة، وهو قوله: ﴿لَعَنَهُ اللهُ﴾ وأفرد الضمير في ﴿عَبْدُ﴾ وإن كان المعني فيه الكثرة، لان الكلام محمول على لفظه دون معناه، وفاعله ضمير من كما أن فاعل الأمثلة المعطوفة عليه ضمير من، فأفرد لحمل ذلك جميعا على اللفظ، ولو حمل الكل على المعنى، أو البعض على اللفظ، والبعض على المعنى، لكان مستقيما.

وأما قوله: (عبد الطاغوت)، فهو جمع عبد، وأنشد:

إنسب العبد إلى آبائه أسود الجلد ومن قوم عبد

هكذا قال أبو الحسن، وقال أحمد بن يحيى: عبد: جمع عابد، كبازل وبزل، وشارف وشرف، وكذلك عبد: جمع عابد، ومثله عباد وعباد، ويجوز أن يكون عباد: جمع عبد.

• وأما عبد الطاغوت وعبدوا الطاغوت فظاهر، وأما عابد الطاغوت فهو واحد في معنى جماعة، وكذلك وعبد الطاغوت، لأنه كحطم ولبد، كما أن عبد كحذر، وفطن، ووظف، وعجز.

ب. روى في الشواذ قراءة الحسن، وابن هرمز ﴿مَثْوبَةً﴾ ساكنة الثاء مفتوحة الواو، وكذلك في سورة البقرة ﴿لَمَثْوبَةٌ﴾، والوجه في مثوبة فإنه قد خرج على الأصل شاذا، قال أبو الفتح: ومثله ما يحكى عنهم: لفكاهة مقودة إلى الأذى وقياسها مثابة ومقادة، ومثله مزيد وقياسه مزاد إلا أن مزيدا علم، والأعلام قد يحتمل فيها ما يكره من الأجناس نحو محبب ومكوزة، ومريم، ومدين، ورجاء بن حياة ومثوبة: مفعلة، ونظيرها المبطخة والمشرقة، وأصل مثوبة: مثوبة، فنقلت الضمة من الواو إلى الثاء، ومثلها معونة، وقيل: هي مفعولة مثل مقولة ومضوفة على معنى المصدر، قال الشاعر: وكنت إذا جاري دعا لمضوفة... أشمر حتى ينصف الساق مئزري.

١١. مثوبة: نصب على التمييز كذلك هو خير ثوابا، موضع من يحتمل ثلاثة أوجه من الاعراب:

أ. أحدها: الجر على البدل، والتقدير هل أنبئكم بمن لعنه الله

ب. الثاني: الرفع على خبر المبتدأ المحذوف أي: هم من لعنه الله

ج. الثالث: النصب على البدل من موضع الجار والمجرور، والتقدير أنبئكم أي: هل أخبركم على من لعنه الله مكانا على التمييز.

ابن الجوزي:

ذكر أبو الفرج بن الجوزي (ت ٥٩٧ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. سبب نزول قوله تعالى: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ﴾ قال المفسّرون: قول اليهود للمؤمنين: والله ما علمنا أهل دين أقلّ حظّا منكم في الدّنيا والآخرة، ولا دينا شرّا من دينكم.

---

(١) زاد المسير في علم التفسير: ١/٥٦٤.

٢. في قوله تعالى: ﴿بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ﴾ قولان:

أ. أحدهما: بشرّ من المؤمنين، قاله ابن عباس.

ب. الثاني: بشرّ ممّا نقمتم من إيماننا، قاله الزجّاج.

٣.

٤. موضع (من) في قوله تعالى: ﴿مَنْ لَعَنَهُ اللهُ﴾ قال الزجّاج: وإن شئت كان رفعا، وإن شئت كان خفضا:

أ. فمن خفض جعله بدلا من (شرّ) فيكون المعنى: أنبّئكم بمن لعنه الله؟

ب. ومن رفع فبإضمار (هو) كأنّ قائلا قال من ذلك؟ فقيل: هو من لعنة الله.

٥. ﴿مَثُوبَةً عِنْدَ اللهِ مَنْ لَعَنَهُ اللهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ﴾ أما (المثوبة) فهي الثّواب:

أ. قال أبو صالح عن ابن عباس: من لعنه الله بالجزية، وغضب عليه بعبادة العجل، فهم شرّ مثوبة عند الله.

ب. وروي عن ابن عباس أنّ المسخين من أصحاب السّبت: مسخ شبابهم قردة، ومشايخهم خنازير.

ج. وقال غيره: القردة: أصحاب السّبت، والخنازير: كفّار مائدة عيسى، وكان ابن قتيبة يقول: أنا أظنّ أنّ هذه القردة والخنازير هي المسوخ بأعيانها توالدت، قال: واستدللت بقوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ﴾ فدخول الألف واللام يدلّ على المعرفة، وعلى أنّها القردة التي تعاين، ولو كان أراد شيئا انقرض ومضى، لقال: وجعل منهم قردة وخنازير، إلا أن يصحّ حديث أمّ حبيبة في (المسوخ) فيكون كما قال عليه السّلام، قلت أنا: وحديث أمّ حبيبة في (الصّحيح) انفرد بإخراجه مسلم، وهو أنّ رجلا سأل النبيّ ﷺ، فقال: يا رسول الله، القردة والخنازير هي ممّا مسخ؟ فقال النبيّ ﷺ: (إن الله لم يمسخ قوما أو يهلك قوما، فيجعل لهم نسلا ولا عاقبة، وإنّ القردة والخنازير قد كانت قبل ذلك) وقد ذكرنا في سورة البقرة عن ابن عباس زيادة بيان ذلك، فلا يلتفت إلى ظنّ ابن قتيبة.

٦. ﴿وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾ فيها عشرون قراءة:

أ. قرأ ابن كثير، وعاصم، وأبو عمرو، وابن عامر، ونافع، والكسائيّ: (وعبد) بفتح العين والباء والدال، ونصب تاء (الطّاغوت)، وفيها وجهان: أحدهما: أنّ المعنى: وجعل منهم القردة والخنازير ومن عبد الطّاغوت، والثاني: أنّ المعنى: من لعنه الله وعبد الطّاغوت.

ب. وقرأ حمزة: (وعبد الطاغوت) بفتح العين والدال، وضم الباء، وخفض تاء الطاغوت، قال ثعلب: ليس لها وجه إلّا أن يجمع فعل على فعل، وقال الزجّاج: وجهها أنّ الاسم بني على (فعل) كما تقول: علم زيد، ورجل حذر، أي: مبالغ في الحذر، فالمعنى: جعل منهم خدمة الطّاغوت ومن بلغ في طاعة الطّاغوت الغاية.

ج. وقرأ ابن مسعود، وأبيّ بن كعب، (وعبدوا)، بفتح العين والباء ورفع الدال على الجمع (الطاغوت) بالنّصب.

د. وقرأ ابن عباس، وابن أبي عبلة: (وعبد) بفتح العين والباء والدال، إلا أنهما كسرا تاء (الطّاغوت)، قال الفرّاء: أرادا (عبدة) فحذفا الهاء.

هـ. وقرأ أنس بن مالك: (وعبيد) بفتح العين والدال وبياء بعد الباء وخفض تاء (الطّاغوت)

و. وقرأ أيوب، والأعمش: (وعبّد)، برفع العين ونصب الباء والدال مع تشديد الباء، وكسر تاء (الطّاغوت)

ز. وقرأ أبو هريرة، وأبو رجاء، وابن السّميفع، (وعابد) بألف، مكسورة الباء مفتوحة الدال، مع كسر تاء الطّاغوت.

ح. وقرأ أبو العالية، ويحيى بن وثّاب: (وعبد) برفع العين والباء وفتح الدال، مع كسر تاء الطّاغوت، قال الزجّاج: هو جمع عبيد، وعبد مثل رغيف، ورغف، وسرير، وسرر، والمعنى: وجعل منهم عبيد الطّاغوت.

ط. وقرأ أبو عمران الجونيّ، ومورّق العجليّ، والنّخعيّ: (وعبد) برفع العين وكسر الباء مخففة، وفتح الدال مع ضمّ تاء (الطّاغوت)

ي. وقرأ أبو المتوكّل، وأبو الجوزاء، وعكرمة: (وعبّد) بفتح العين والدال وتشديد الباء، مع نصب تاء الطّاغوت.

ك. وقرأ الحسن، وأبو مجلز، وأبو نهيك: (وعبد) بفتح العين والدال، وسكون الباء خفيفة مع كسر تاء الطّاغوت.

ل. وقرأ قتادة، وهذيل بن شرحبيل: (وعبدة) بفتح العين والباء والدال وتاء في اللفظ منصوبة بعد الدال (الطّواغيت) بألف وواو وياء بعد الغين على الجمع.

م. وقرأ الضّحّاك، وعمرو بن دينار: (وعبد) برفع العين وفتح الباء والدال مع تخفيف الباء، وكسر تاء (الطّاغوت)

ن. وقرأ سعيد بن جبير، والشّعبيّ: (وعبدة) مثل حمزة، إلا أنهما رفعا تاء (الطّاغوت)

س. وقرأ يحيى بن يعمر، والجحدريّ: (وعبد) بفتح العين ورفع الباء مع كسر تاء (الطّاغوت)

ع. وقرأ أبو الأشهب العطارديّ: (وعبد) برفع العين وتسكين الباء، ونصب الدال، مع كسر تاء (الطّاغوت)

ف. وقرأ أبو السّمّال: (وعبدة) بفتح العين والباء والدال وتاء في اللفظ بعد الدال مرفوعة مع كسر تاء (الطّاغوت)

ص. وقرأ معاذ القارئ: (وعابد) مثل قراءة أبي هريرة إلا أنه ضم الدال.

ق. وقرأ أبو حياة: (وعبّاد) بتشديد الباء وبألف بعدها مع رفع العين، وفتح الدال.

ر. وقرأ ابن حذلم، وعمرو بن فائد: (وعبّاد) مثل أبي حياة إلا أنّ العين مفتوحة والدال مضمومة.

٧. وقد سبق ذكر (الطّاغوت) في سورة البقرة، وفي المراد به هاهنا قولان:

أ. أحدهما: الأصنام.

ب. الثاني: الشّيطان.

٨. ﴿أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا﴾ أي: هؤلاء الذين وصفناهم شرّ مكانا من المؤمنين، ولا شرّ في مكان المؤمنين، ولكنّ الكلام مبنيّ على كلام الخصم، حين قالوا للمؤمنين: لا نعرف شرّا منكم، فقيل: من كان بهذه الصّفة، فهو شرّ منهم.

الرّازي:

ذكر الفخر الرازي (ت ٦٠٦ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[1]:

١. ﴿مِنْ ذَلِكَ﴾ إشارة إلى المنقم، ولا بدّ من حذف المضاف، وتقديره: بشر من أهل ذلك؛ لأنه قال: ﴿مَنْ لَعَنَهُ اللهُ﴾ ولا يقال الملعون شر من ذلك الدين، بل يقال: إنه شر ممن له ذلك الدين.

٢. سؤال وإشكال: هذا يقتضي كون الموصوفين بذلك الدين محكوما عليهم بالشر، ومعلوم أنه ليس كذلك، والجواب: إنما خرج الكلام على حسب قولهم واعتقادهم، فإنهم حكموا بأن اعتقاد ذلك الدين شر، فقيل لهم: هب أن الأمر كذلك ولكن لعنة الله وغضبه ومسخ الصور شر من ذلك.

٣. ﴿مَثُوبَةً﴾ نصب على التمييز، ووزنها مفعلة كقولك: مقولة ومجوزة، وهو بمعنى المصدر، وقد جاءت مصادر على مفعول كالمعقول والميسور.

٤. سؤال وإشكال: المثوبة مختصة بالإحسان، فكيف جاءت في الإساءة؟ والجواب: هذا على طريقة قوله: ﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [آل عمران: ٢١] وقول الشاعر: (تحية بينهم ضرب وجيع)

٥. (من) في قوله: ﴿مَنْ لَعَنَهُ اللهُ﴾ يحتمل وجهين:

أ. الأول: أنه في محل الرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف، فإنه لما قال: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ﴾ فكأن قائلا قال من ذلك؟ فقيل: هو من لعنه الله ونظيره قوله تعالى: ﴿قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكُمُ النَّارُ﴾ [الحج: ٧٢] كأنه قال هو النار.

ب. الثاني: يجوز أن يكون في موضع خفض بدلا من (شر) والمعنى أنبئكم بمن لعنه الله.

٦. ذكر الله تعالى من صفاتهم أنواعا:

أ. أولها: أنه تعالى لعنهم.

ب. ثانيها: أنه غضب عليهم.

ج. ثالثها: أنه جعل منهم القردة والخنازير وعبد الطاغوت، قال أهل التفسير: عنى بالقردة أصحاب السبت، وبالخنازير كفار مائدة عيسى، وروي أيضا أن المسخين كانا في أصحاب السبت لأن شبانهم مسخوا قردة، ومشايخهم مسخوا خنازير.

---

(١) التفسير الكبير: ٣٩١/١٢.

٧. ذكر صاحب (الكشاف) في قوله: ﴿وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾ أنواعا من القراآت:

أ. أحدها: قرأ أبي: وعبدوا الطاغوت.

ب. ثانيها: قرأ ابن مسعود: ومن عبدوا.

ج. ثالثها: وعابد الطاغوت عطفا على القردة.

د. رابعها: وعابدي.

هـ. خامسها: وعباد.

و. سادسها: وعبد.

ز. سابعها: وعبد، بوزن حطم.

ح. ثامنها: وعبيد.

ط. تاسعها: وعبد بضمتين جميع عبيد.

ي. عاشرها: وعبدة بوزن كفرة.

ك. الحادي عشر: وعبد، وأصله عبدة، فحذفت التاء للإضافة، أو هو كخدم في جمع خادم.

ل. الثاني عشر: عبد.

م. الثالث عشر: عباد.

ن. الرابع عشر: وأعبد.

س. الخامس عشر: وعبد الطاغوت على البناء للمفعول، وحذف الراجع، بمعنى وعبد الطاغوت فيهم أو بينهم.

ع. السادس عشر: وعبد الطاغوت، بمعنى صار الطاغوت معبودا من دون الله تعالى، كقولك: أمر إذا صار أميرا.

ف. السابع عشر: قرأ حمزة: عبد الطاغوت بفتح العين وضم الباء ونصب الدال وجر الطاغوت، وعابوا هذه القراءة على حمزة ولحنوه ونسبوه إلى ما لا يجوز ذكره، وقال قوم: إنها ليست بلحن ولا خطأ، وذكروا فيها وجوها:

• الأول: أن العبد هو العبد إلا أنهم ضموا الباء للمبالغة، كقولهم: رجل حذر وفطن للبليغ في

الحذر والفطنة، فتأويل عبد الطاغوت أنه بلغ الغاية في طاعة الشيطان، وهذا أحسن الوجوه.

• الثاني: أن العبد، والعبد لغتان كقولهم: سبع وسبع.

• الثالث: أن العبد جمعه عباد، والعباد جمعه عبد، كثمار وثمر، ثم استثقلوا ضمتين متواليتين فأبدلت الأولى: بالفتحة.

• الرابع: يحتمل أنه أراد أعبد الطاغوت، فيكون مثل فلس وأفلس، ثم حذفت الهمزة ونقلت حركتها إلى العين.

• الخامس: يحتمل أنه أراد: وعبدة الطاغوت، كما قرئ ثم حذف الهاء وضم الباء لئلا يشتبه بالفعل.

٨. ﴿وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾ قال الفرّاء: تأويله وجعل منهم القردة من عبد الطاغوت، فعلى هذا: الموصول محذوف.

٩. ﴿وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾:

أ. احتج أهل السنة ـ ومن وافقهم ـ بهذه الآية على أن الكفر بقضاء الله، قالوا: لأن تقدير الآية وجعل الله منهم من عبد الطاغوت، وإنما يعقل معنى هذا الجعل إذا كان هو الذي جعل فيهم تلك العبادة، إذ لو كان جعل تلك العبادة منهم لكان الله تعالى ما جعلهم عبدة الطاغوت، بل كانوا هم الذين جعلوا أنفسهم كذلك، وذلك على خلاف الآية.

ب. قال المعتزلة ـ ومن وافقهم ـ معناه أنه تعالى حكم عليهم بذلك ووصفهم به كقوله ﴿وَجَعَلُوا الْمَلائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبادُ الرَّحْمنِ إِناثاً﴾ [الزخرف: ١٩] والكلام فيه قد تقدم مرارا.

١٠. اختلف في معنى قوله تعالى: ﴿وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾:

أ. قيل: الطاغوت العجل.

ب. وقيل: الطاغوت الأحبار، وكل من أطاع أحدا في معصية الله فقد عبده.

١١. ﴿أُولئِكَ شَرٌّ مَكاناً﴾ أي أولئك الملعونون الممسوخون شر مكانا من المؤمنين، وفي لفظ المكان وجهان:

أ. الأول: قال ابن عباس: لأن مكانهم سقر، ولا مكان أشد شرا منه.

ب. الثاني: أنه أضيف الشر في اللفظ إلى المكان وهو في الحقيقة لأهله، وهو من باب الكناية كقولهم: فلان طويل النجاد كثير الرماد، ويرجع حاصله إلى الإشارة إلى الشيء بذكر لوازمه وتوابعه.

١٢. ﴿وَأَضَلُّ عَنْ سَواءِ السَّبِيلِ﴾ أي عن قصد السبيل والدين الحق، قال المفسرون: لما نزلت هذه الآية عبر المسلمون أهل الكتاب وقالوا: يا إخوان القردة والخنازير، فافتضحوا ونكسوا رؤوسهم.

القرطبي:

ذكر محمد بن أحمد القرطبي (ت ٦٧١ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ﴾ أي بشر من نقمكم علينا، وقيل: بشر ما تريدون لنا من المكروه، وهذا جواب قولهم: ما نعرف دينا شرا من دينكم.

٢. ﴿مَثُوبَةً﴾ نصب على البيان وأصلها مفعولة فألقيت حركة الواو على الثاء فسكنت الواو وبعدها واو ساكنة فحذفت إحداهما لذلك، ومثله مقولة ومجوزة ومضوفة على معنى المصدر، كما قال الشاعر:

وكنت إذا جاري دعا لمضوفة ... أشمر حتى ينصف الساق مئزري

وقيل: مفعلة كقولك مكرمة ومعقلة.

٣. ﴿مَنْ لَعَنَهُ اللهُ﴾ ﴿مِنْ﴾ في موضع رفع، كما قال: ﴿بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكُمُ النَّارُ﴾ [الحج] والتقدير: هو لعن من لعنه الله، ويجوز أن يكون في موضع نصب بمعنى: قل هل أنبئكم بشر من ذلك من لعنه الله، ويجوز أن تكون في موضع خفض على البدل من شر والتقدير: هل أنبئكم بمن لعنه الله، والمراد اليهود، وقد تقدم القول في الطاغوت، أي وجعل منهم من عبد الطاغوت، والموصول محذوف عند الفراء، وقال البصريون: لا يجوز حذف الموصول، والمعنى من لعنه الله وعبد الطاغوت، وقرأ ابن وثاب النخعي ﴿أُنَبِّئُكُمْ﴾ بالتخفيف، وقرأ حمزة: (عبد الطاغوت) بضم الباء وكسر التاء، جعله اسما على فعل كعضد فهو بناء للمبالغة والكثرة كيقظ وندس وحذر، وأصله الصفة، ومنه قول النابغة:

من وحش وجرة موشي أكارعه ... طاوي المصير كسيف الصيقل الفرد

---

(١) تفسير القرطبي: ٦/٢٣٤.

بضم الراء، ونصبه بـ ﴿جَعَلَ﴾، أي جعل منم عبدا للطاغوت، وأضاف عبد إلى الطاغوت فخفضه، وجعل بمعنى خلق، والمعنى: وجعل منهم من يبالغ في عبادة الطاغوت، وقرأ الباقون بفتح الباء والتاء، وجعلوه فعلا ماضيا، وعطفوه على فعل ماضي وهو غضب ولعن، والمعنى عندهم من لعنه الله ومن عبد الطاغوت، أو منصوبا بـ ﴿جَعَلَ﴾، أي جعل منهم القردة والخنازير وعبد الطاغوت، ووحد الضمير في عبد حملا على لفظ ﴿مِنْ﴾ دون معناها، وقرأ أبي وابن مسعود (وعبدوا الطاغوت) على المعنى، ابن عباس: ﴿وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾، فيجوز أن يكون جمع عبد كما يقال: رهن ورهن، وسقف وسقف، ويجوز أن يكون جمع عباد كما يقال: مثال ومثل، ويجوز أن يكون جمع عبيد كرغيف ورغف، ويجوز أن يكون جمع عابد كبازل وبزل، والمعنى: وخدم الطاغوت، وعن ابن عباس أيضا ﴿وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾ جعله جمع عابد كما يقال: شاهد وشهد وغائب وغيب، وعن أبي واقد: وعباد الطاغوت للمبالغة، جمع عابد أيضا، كعامل وعمال، وضارب وضراب، وذكر محبوب أن البصريين قرؤوا: (وعباد الطاغوت) جمع عابد أيضا، كقائم وقيام، ويجوز أن يكون جمع عبد، وقرأ أبو جعفر الرؤاسي ﴿وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾ على المفعول، والتقدير: وعبد الطاغوت فيهم، وقرأ عون العقيلي وابن بريدة: (وعابد الطاغوت) على التوحيد، وهو يؤدي عن جماعة، وقرأ ابن مسعود أيضا ﴿وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾ وعنه أيضا وأبي (وعبدت الطاغوت) على تأنيث الجماعة، كما قال تعالى: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ﴾ [الحجرات] وقرأ عبيد بن عمير: (وأعبد الطاغوت) مثل كلب وأكلب، فهذه اثنا عشر وجها.

٤. ﴿أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا﴾ لأن مكانهم النار، وأما المؤمنون فلا شر في مكانهم، وقال الزجاج: أولئك شر مكانا على قولكم، النحاس: ومن أحسن ما قيل فيه: أولئك الذين لعنهم الله شر مكانا في الآخرة من مكانكم في الدنيا لما لحقكم من الشر، وقيل: أولئك الذين لعنهم الله شر مكانا من الذين نقموا عليكم، وقيل: أولئك الذين نقموا عليكم شر مكانا من الذين لعنهم الله، ولما نزلت هذه الآية قال المسلمون لهم: يا إخوة القردة والخنازير فنكسوا رؤوسهم افتضاحا، وفيهم يقول الشاعر:

فلعنة الله على اليهود ... إن اليهود إخوة القرود

الشوكاني:

ذكر محمد بن علي الشوكاني (ت ١٢٥٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ﴾ بيّن الله سبحانه لرسوله أن فيهم من العيب ما هو أولى بالعيب، وهو ما هم عليه من الكفر الموجب للعن الله وغضبه ومسخه؛ والمعنى: هل أنبئكم بشرّ من نقمتكم علينا أو بشرّ مما تريدون لنا من المكروه أو بشرّ من أهل الكتاب أو بشرّ من دينهم.

٢. ﴿مَثُوبَةً﴾ أي جزاء ثابتا، وهي مختصّة بالخير كما أنّ العقوبة مختصّة بالشرّ، ووضعت هنا موضع العقوبة على طريقة ﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ وهي منصوبة على التمييز من بشرّ.

٣. ﴿مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ﴾ خبر لمبتدأ محذوف مع تقدير مضاف محذوف: أي هو لعن من لعنه الله أو هو دين من لعنه الله، ويجوز أن يكون في محل جر بدلا من شرّ.

٤. ﴿وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ﴾ أي مسخ بعضهم قردة وبعضهم خنازير وهم اليهود، فإن الله مسخ أصحاب السبت قردة، وكفار مائدة عيسى منهم خنازير.

٥. ﴿وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾ قرأ حمزة بضم الباء من عبد وكسر التاء من الطاغوت أي جعل منهم عبد الطاغوت بإضافة عبد إلى الطاغوت. والمعنى: وجعل منهم من يبالغ في عبادة الطاغوت، لأن فعل من صيغ المبالغة، كحذر وفطن للتبليغ في الحذر والفطنة. وقرأ الباقون بفتح الباء من عبد وفتح التاء من الطاغوت على أنه فعل ماض معطوف على فعل ماض وهو غضب ولعن، كأنه قيل: ومن عبد الطاغوت، أو معطوف على القردة والخنازير: أي جعل منهم القردة والخنازير وجعل منهم عبد الطاغوت حملا على لفظ من. وقرأ أبي وابن مسعود وعبدوا الطاغوت حملا على معناها. وقرأ ابن عباس وعبد بضم العين والباء كأنه جمع عبد، كما يقال: سقف وسقف، ويجوز أن يكون جمع عبيد كرغيف ورغف، أو جمع عابد كبازل وبزل، وقرأ أبو واقد (وعباد) جمع عابد للمبالغة، كعامل وعمال، وقرأ البصريون وعباد جمع عابد أيضا، كقائم وقيام، ويجوز أن يكون جمع عبد، وقرأ أبو جعفر الرقاشي وعبد الطاغوت على البناء للمفعول، والتقدير وعبد الطاغوت فيهم، وقرأ عون العقيلي وابن بريدة: (وعابد الطاغوت) على التوحيد، وروي عن ابن مسعود وأبيّ أنهما قرءا وعبدة الطاغوت وقرأ عبيد بن عمير (وأعبد الطاغوت) مثل كلب وأكلب،

---

(١) فتح القدير: ٢/٦٤.

وقرئ وعبد الطاغوت عطفا على الموصول بناء على تقدير مضاف محذوف، وهي قراءة ضعيفة جدا، والطاغوت: الشيطان أو الكهنة أو غيرهما مما قد تقدّم مستوفى.

٦. ﴿أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا﴾ الإشارة إلى الموصوفين بالصفات المتقدمة، وجعلت الشرارة للمكان، وهي لأهله للمبالغة، ويجوز أن يكون الإسناد مجازيا.

٧. ﴿وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ معطوف على شرّ، أي هم أضلّ من غيرهم عن الطريق المستقيم، والتفضيل في الموضعين للزيادة مطلقا أو لكونهم أشرّ وأضل مما يشاركهم في أصل الشرارة والضلال.

أَطَّفِّيش:

ذكر محمد أَطَّفِّيش (ت ١٣٣٢ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. لَمَّا قالوا: دينكم شرٌّ دين أجابهم الله تعالى بقوله: ﴿قُلْ هَلْ﴾ توبيخ ﴿أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ﴾ بنوع من الناس وهو شرٌّ، ﴿مِن ذَالِكَ﴾ النوع الذي آمن بعيسى والأنبياء كلِّهم والكتب كلِّها، وعبارة بعضٍ: الإشارة إلى الدِّين، وقيل: إلى الأكثر الفاسقين بتأويل من ذكر، وادَّعى بعض أنَّ (ذَا) يشار بها للمفرد وغيره، وقيل: الإشارة إلى الأشخاص المُتَقَدِّمين الذين هم أهل الكتاب، وإنَّ المراد أنَّ السلف شرٌّ من الخلف، والتفضيل بين الذوات لا بين الأعراض.

٢. والشرُّ إِنَّمَا هو باعتبار دعواهم أنَّ أهل الإسلام شرُّ أهل كلِّ دين، فإنَّه لا سوء في أهل الإسلام من حيث الإسلام، وأثبته تهكُّمًا بهم كما تهكَّم بطريق الاستعارة في قوله: ﴿مَثُوبَةً عِندَ اللهِ﴾ أي: عقوبة، وأصله في الجزاء بالخير، وإن فَسَّرنَاه شرًّا ـ وذلك بالأَعراض ـ قدَّرنا مضافًا، أي: بأهل عمل أسوأ من ذلك العمل الذي هو الإيمان بالحقِّ كُلِّه، فيناسب بالتقدير قوله: ﴿مَن لَّعَنَهُ اللهُ﴾، أو يبقى (بِشَرٍّ) و(ذَالِكَ) على معنى الأعراض فيُقَدَّرُ العَرَضُ هنا، أي: كفر من لعنه الله، أو دين من لعنه الله، وما ذكرته أوَّلاً أولى، لأنَّه لا تقدير فيه أوَّلاً ولا آخرًا، والتمييز بالمثوبة صالح للذات وللعَرَض، تقول: فلان شرٌّ عقابًا وعمله شرٌّ عقابًا، أو هو مفعول لأجله على حذف مضاف، أي: لطلب مثوبة، أو بلا حذف عند من لا يشترط الاتِّحاد في الفاعل، ومعناه الإثابة، والإثابة فعلٌ لله تعالى، و(مَنْ) خبر لمحذوف، كأنَّه قيل: من هو؟ فقال: (هو من

(١) تيسير التفسير، أطفيش: ٧٤/٤.

لعنه الله)، ولا يحسن البدل أو البيان إلَّا على التعريض بأنَّ الْمُتَّصِف باللعن وما بعده لا بدَّ أن يكون شرًّا مثوبة.

٣. و﴿لَعَنَهُ اللهُ﴾: أبعده عن الخير بالخذلان، ﴿وَغَضِبَ عَلَيْهِ﴾ قضى عليه بالعذاب ﴿وَجَعَلَ مِنْهُم﴾ هذا الضمير لمراعاة معنى (مَنْ)، ﴿الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ﴾ مسخ شبَّان أصحاب السبت قردة وشيوخهم خنازير، أو أصحاب السبت من اليهود قردة وأصحاب المائدة من النصارى خنازير.

٤. ﴿وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾ العجلَ، أو الشيطانَ، أو الكهنةَ، وكلَّ من عُبد من دون الله، ومَن رَأَسَ في الضلال فهو طاغوت، والعطف على (لَعَنَهُ اللهُ)، أي: وأنتم راضون عنهم وسالكون طريق كفرهم، فساغ ذمُّهم بما فعل هؤلاء.

٥. ﴿أُوْلَئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا﴾ هو نار الآخرة، واسم التفضيل خارج عن بابه، إذ لا سوء في مكان المؤمنين وهو الجنَّة، أو باق عليه بمعنى أنَّ مكانهم وهو النَّار شرٌّ من مكان المؤمنين وهو الدُّنيا لِمَا يلحقهم فيها من الهموم والحاجة وسماع الأذى، أو شرٌّ من مكان المؤمنين على زعم الكفَّار هؤلاء أَنَّ مكان المؤمنين سوء، أو شرٌّ مكانًا على سائر كفرة اليهود، ويجوز أن يراد بـ (مَكَانًا) المرتبة والشأن، وهو منصوب على التمييز المحوَّل عن الفاعل مبالغة، بإثبات الشرارة للموضع لعظم شرارتهم حتَّى أثَّر في مكانهم، أو عظم حتَّى صار مجسَّمًا، أو الإسناد مجازيٌّ كـ (جَرَى النَّهْرُ)، أو يراعى في المكان أصله وهو موضع الكون الذي يكون فيه أمرهم إلى التمكُّن فيه، أي: شرٌّ منصرَفًا وهو جهنَّم.

٦. ﴿وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ السَّبِيلِ﴾ أي: عن السبيل السواء، أي: الوسط، أي: الأفضل وهو دين الإسلام ولا خير في غيره، وناسب الوسط أنَّه بين تفريط اليهود وقَدْحِهِم إذ أنكروا عيسى وقالوا: إنَّه ولد الزنى وإنَّ أمَّه زنت، وإفراط النصارى وغلوِّهم بقولهم: عيسى إله أو ابن الله، واسم التفضيل خارج عن بابه، إذ لا ضلال في الإسلام، أو باق على بابه باعتبار قصدهم، أو بالنسبة إلى غيرهم من الكفَّار.

القاسمي:

ذكر جمال الدين القاسمي (ت ١٣٣٢ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

---

(١) تفسير القاسمي: ١٨١/٤.

١ . ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ﴾ المخاطب بكاف الجمع أهل الكتاب المتقدم ذكرهم، أو الكفار مطلقا، أو المؤمنون، والمشار إليه الأكثر الفاسقون، وتوحيد اسم الإشارة لكونه يشار به إلى الواحد وغيره، أو لتأويله بالمذكور ونحوه، وفي الكلام مقدر أي: بشرّ من حال هؤلاء، وقيل: المشار إليه المتقدمون الذين هم أهل الكتاب، يعني أن السلف شرّ من الخلف، وجعله الزمخشريّ إشارة إلى المنقوم.

٢ . وقد جوّد في إيضاحه العلامة أبو السعود بقوله: لما أمر ﷺ بإلزامهم وتبكيتهم، ببيان أن مدار نقمهم للدين إنما هو اشتماله على من يوجب ارتضاءه عنهم أيضا، وكفرهم بما هو مسلم لهم ـ أمر ﷺ عقيبه بأن يبكتهم ببيان أن الحقيق بالنقم والعيب حقيقة، ما هم عليه من الدين المحرف، وينعى عليهم في ضمن البيان جناياتهم وما حاق بهم من تبعاتها وعقوباتها، على منهاج التعريض، لئلا يحملهم التصريح بذلك على ركوب متن المكابرة والعناد، ويخاطبهم قبل البيان بما ينبئ عن عظم شأن المبيّن، ويستدعي إقبالهم على تلقيه من الجملة الاستفهامية المشوقة إلى المخبر به، والتنبئة المشعرة بكونه أمر خطيرا، لما أن النبأ هو الخبر الذي له شأن وخطر، وحيث كان مناط النقم شرّية المنقوم حقيقة أو اعتقادا، وكان مجرد النقم غير مقيد لشريته البتة، قيل (بشرّ من ذلك) ولم يقل: بأنقم من ذلك، تحقيقا لشرية ما سيذكر وزيادة تقرير لها، وقيل: إنما قيل ذلك، لوقوعه في عبارة المخاطبين، حيث أتى نفر من اليهود فسألوا رسول الله ﷺ عن دينه فقال ﷺ: (أومن بالله وما أنزل إلينا). . ـ إلى قوله ـ ونحن له مسلمون، فحين سمعوا ذكر عيسى عليه السلام، قالوا: لا نعلم شرّا من دينكم، وإنما اعتبر الشرية بالنسبة إلى الدين ـ وهو منزه عن شائبة الشرية بالكلية ـ مجاراة معهم على زعمهم الباطل المنعقد على كمال شريته، ليثبت أن دينهم شرّ من كل شرّ، أي: هل أخبركم بما هو شرّ في الحقيقة مما تعتقدونه شرّا، وإن كان في نفسه خيرا محضا؟

٣. ﴿مَثُوبَةً عِنْدَ اللهِ﴾ أي جزاء ثابتا عند الله، قال الراغب: الثواب ما رجع إلى الإنسان من جزاء أعماله، سمي به بتصور أن ما عمله يرجع إليه، كقوله: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٧]، ولم يقل: ير جزاءه، والثواب يقال في الخير ولا شر، لكن الأكثر المتعارف في الخير، وكذا المثوبة، وهي مصدر ميميّ بمعناه، وعلى اختصاصها بالخير استعملت هنا في العقوبة على طريقة: (تحية بينهم ضرب وجيع) في التهكم، ونصبها على التمييز من (بشرّ)

٤ . ﴿مَنْ لَعَنَهُ اللهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ﴾ بدل من ﴿شَرٍّ﴾ على حذف

مضاف، أي: بشر من أهل ذلك من لعنه الله، أو بشر من ذلك دين من لعنه الله، أو خبر محذوف، أي: هو من لعنه الله وهم اليهود، أبعدهم الله من رحمته وسخط عليهم بكفرهم وانهماكهم في المعاصي بعد وضوح الآيات ومسخ بعضهم قردة وخنازير، وهم أصحاب السبت، كما تقدم بيانه في سورة البقرة.

٥. ﴿وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾ عطف على صلة (من) والمراد من الطاغوت: العجل، أو الكهنة وكل من أطاعوه في معصية الله تعالى.

٦. ﴿أُولَئِكَ﴾ أي: الملعونون الممسوخون ﴿شَرٌّ مَكَانًا﴾ إثبات الشرارة للمكان كناية عن إثباتها لأهله، كقولهم: (سلام على المجلس العالي) و(المجد بين برديه) كأن شرهم أثّر في مكانهم أو عظم حتى صار متجسما! وقيل: المراد بالمكان محل الكون والقرار الذي يؤول أمرهم إلى التمكن فيه، كقوله: ﴿شَرٌّ مَكَانًا﴾ [الفرقان: ٣٤]، وهو مصيرهم، يعني جهنم، ﴿وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ أي: أكثر ضلالا عن الصراط المستقيم.

رضا:

ذكر محمد رشيد رضا (ت ١٣٥٤هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللهِ﴾ المثوبة كالمقولة من ثاب الشيء يثوب ثاب إليه، إذا رجع، فهي الجزاء والثواب، واستعماله في الجزاء الحسن أكثر، وقيل استعماله في الجزاء السيئ تهكم، والمعنى هل أنبئكم يا معشر المستهزئين بديننا وأذاننا بما شر من عملكم هذا ثوابا وجزاء عند الله تعالى؟ وهذا السؤال يستلزم سؤالا منهم عن ذلك، وجوابه قوله تعالى: ﴿مَنْ لَعَنَهُ اللهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾، أي أن الذي هو شر من ذلك ثوابا وجزاء عند الله هو عمل من لعنه الله، أو جزاء من لعنه الله الخ فهو على حد قوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى﴾ [البقرة: ١٨٩]، وقوله: ﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللهِ﴾ [البقرة: ١٧٧] وفي هذا التعبير وجه آخر وهو: هل أنبئكم بشر من أهل العمل مثوبة عند الله؟ هم الذين لعنهم الله الخ، كما تقول في تفسير الآية الأخرى: ولكن ذا البر من اتقى.

٢. انتقل بهذه الآية من تبكيت اليهود وإقامة الحجة على هزؤهم ولعبهم بما تقدم إلى ما هو أشد

---

(١) تفسير المنار: ٦/٣٧٠.

منه تبكيتا وتشنيعا عليهم، بما فيه التذكير بسوء حالهم مع أنبيائهم، وما كان من جزائهم على فسقهم وتمردهم، بأشد ما جازى الله تعالى به الفاسق الظالمين لأنفسهم، وهو اللعن والغضب والمسخ الصوري أو المعنوي وعبادة الطاغوت، وقد عظم هذا المعنى بتقديم الاستفهام عليه، المشوق إلى الأمر العظيم المنبإ عنه.

٣. أما لعن الله لهم فهو مبين مع سببه في عدة آيات من سور البقرة والنساء، وقد تقدم تفسيره، وكذا هذه السورة (المائدة) فسيأتي في غير هذه الآية خبر لعنهم، ومنها أنهم لعنوا على لسان داوود وعيسى ابن مريم عليهما السلام، وبعض ذلك اللعن مطلق وبعضه مقيد بأعمال لهم، كنقض الميثاق، والفرية على مريم العذراء، وترك التناهي عن المنكر، ومنه لعن أصحاب السبت أي الذين اعتدوا فيه، وقد ذكر في سورة البقرة مجملا، وسيأتي في سورة الأعراف مفصلا، والغضب الإلهي يلزم اللعنة وتلزمه، بل اللعنة عبارة عن منتهى المؤاخذة لمن غضب الله عليه، وتقدم تفسير كل منهما.

٤. وأما جعله منهم القردة والخنازير فتقدم في سورة البقرة وسيأتي في سورة الأعراف، قال تعالى في الأولى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ [البقرة: ٦]، وقال بعد بيان اعتدائهم في السبت من الثانية: ﴿فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ [الأعراف: ١٦٦]وجمهور المفسرين على أن معنى ذلك على أنهم مسخوا فكانوا قردة وخنازير حقيقة، وانقضوا، لأن الممسوخ لا يكون له نسل كما ورد، وفي الدر المنثور (أخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم في قوله: ﴿قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ قال: مسخت قلوبهم ولم يمسخوا قردة، وإنما هو مثل ضربه لهم كمثل الحمار يحمل أسفارا) فالمراد على هذا أنهم صاروا كالقردة في نزواتها، والخنازير في إتباع شهواتها، وتقدم في تفسير آية البقرة وترجيح هذا القول من جهة المعنى بعد نقله عن مجاهد من رواية ابن جرير، قال: (مسخت قلوبهم ولم يمسخوا قردة وإنما هو مثل ضربه الله لهم كمثل الحمار يحمل أسفارا)، ولا عبرة برد ابن جرير قول مجاهد هذا وترجيحه القول الآخر فذلك اجتهاده، وكثيرا ما يرد به قول ابن عباس والجمهور، وليس قول مجاهد بالبعيد من استعماله اللغة، فمن فصيح اللغة أن تقول: ربي فلان الملك قومه أو جيشه على الشجاعة والغزو، فجعل منهم الأسود الضواري، وكان له منهم الذئاب المفترسة.

٥. ﴿وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾ ففيه قراءتان سبعيتان متواترتان وعدة قراءات شاذة، قرأ الجمهور

﴿عَبْدُ﴾ بالتحريك على أنه فعل ماض من العبادة، و﴿الطَّاغُوتَ﴾ بالنصب مفعوله، والجملة على هذا معطوفة على قوله: ﴿لَعَنَهُ اللهُ﴾ أي هل أنبئكم بشر من ذلك مثوبة عند ذلك؟ هم من لعنه الله وغضب عليه الخ ومن عبد الطاغوت، وقرأ حمزة ﴿وَعَبَدَ﴾ بفتح العين والدال وضم الباء، وهو لغة في ﴿عَبْدُ﴾ واحد العبيد، وقرأ ﴿الطَّاغُوتَ﴾ بالجر بالإضافة، وهو على هذا معطوف على القردة أي وجعل منهم عبيد الطاغوت، بناء على أن عبدا يرد به الجنس الواحد، كما تقول: كاتب السلطان يشترط فيه كذا كذا، وقد تقدم أن الطاغوت اسم فيه معنى المبالغة من الطغيان الذي هو مجاوزة الحد المشروع والمعروف إلى الباطل والمنكر، فهو يشمل كل مصادر طغيانهم، وخصه بعض المفسرين بعبادة العجل، ولا دليل على التخصيص.

٦. ﴿أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ أي أولئك الموصوفون بما ذكر من المخازي والشنائع شر مكانا إذ لا مكان لهم في الآخرة إلا النار ـ أو المراد بإثبات الشر لمكانهم وإثباته لأنفسهم من باب الكناية، الذي هو كإثبات الشيء بدليله ـ وأضل عن قصد طريق الحق ووسطه الذي لا إفراط فيه ولا تفريط، ومن كان هذا شأنه يحمله على الاستهزاء بدين المسلمين وصلاتهم وأذانهم واتخاذهم هزؤا ولعبا إلا الجهل وعمى القلب.

سيّد:

ذكر سيّد قطب (ت ١٣٨٥ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. نمضي مع السياق القرآني في توجيه الله سبحانه لرسوله ﷺ لمواجهة أهل الكتاب، بعد تقرير بواعثهم واستنكار هذه البواعث في النقمة على المسلمين.. فإذا هو يجبههم بتاريخ لهم قديم، وشأن لهم مع ربهم، وعقاب أليم: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللهِ مَنْ لَعَنَهُ اللهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ وهنا تطالعنا سحنة يهود، وتاريخ يهود! إنهم هم الذين لعنهم الله وغضب عليهم، وجعل منهم القردة والخنازير، إنهم هم الذين عبدوا الطاغوت.

٢. وقصة لعنة الله لهم وغضبه عليهم واردة في مواضع شتى من القرآن الكريم؛ وكذلك قصة

---

(١) في ظلال القرآن: ٢/٩٢٧.

جعله منهم القردة والخنازير.. فأما قضية عبادتهم للطاغوت، فتحتاج إلى بيان هنا، لأنها لفتة ذات دلالة خاصة في سياق هذه السورة.. إن الطاغوت هو كل سلطان لا يستمد من سلطان الله، وكل حكم لا يقوم على شريعة الله، وكل عدوان يتجاوز الحق.. والعدوان على سلطان الله وألوهيته وحاكميته هو أشنع العدوان وأشده طغيانا، وأدخله في معنى الطاغوت لفظا ومعنى.. وأهل الكتاب لم يعبدوا الأحبار والرهبان؛ ولكن اتبعوا شرعهم وتركوا شريعة الله، فسماهم الله عبادا لهم؛ وسماهم مشركين.. وهذه اللفتة هنا ملحوظ فيها ذلك المعنى الدقيق، فهم عبدوا الطاغوت.. أي السلطات الطاغية المتجاوزة لحقها.. وهم لم يعبدوها بمعنى السجود لها والركوع، ولكنهم عبدوها بمعنى الاتباع والطاعة، وهي عبادة تخرج صاحبها من عبادة الله ومن دين الله.

٣. والله سبحانه يوجه رسوله ﷺ لمجابهة أهل الكتاب بهذا التاريخ، وبذلك الجزاء الذي استحقوه من الله على هذا التاريخ.. كأنما هم جيل واحد بما أنهم جبلة واحدة.. يوجهه ليقول لهم: إن هذا شر عاقبة: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللهِ﴾، أي شر من نقمة أهل الكتاب على المسلمين، وما يكيدون لهم وما يؤذونهم بسبب إيمانهم، وأين نقمة البشر الضعاف من نقمة الله وعذابه، وحكمه على أهل الكتاب بالشر والضلال عن سواء السبيل: ﴿أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾

الخطيب:

ذكر عبد الكريم الخطيب (ت ١٣٩٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللهِ﴾ الإشارة هنا إلى موقف أهل الكتاب هؤلاء، ونقمتهم على المؤمنين، لا لشيء إلا لأنهم مؤمنون.. وهذا موقف يورد صاحبه موارد البوار والهلاك، وهذا هو المصير الذي سيصير إليه المعاندون من أهل الكتاب، الذين وقفوا من النبيّ ومن دعوته إلى الإيمان بالله، هذا الموقف.. ثم إذ يعرض القرآن اليهود المعاصرين للنبوة في هذا المعرض، ينتقل بهم في لمحة خاطفة تردّهم إلى الماضي البعيد، وتشرف بهم على آبائهم وأجدادهم، الذين كان لهم موقف من رسل الله كهذا الموقف الذي يقفونه هم من رسول الله، ومن المكر بآيات الله، فكان عقابهم أليما شديدا، إذ جعل الله منهم

(١) التفسير القرآني للقرآن: ٣/١١٢٩.

القردة والخنازير وعبدة الطاغوت، بهذه اللعنة التي رماهم الله بها، فمسخت آدميتهم، ونسخت طبيعتهم، فإذا هم قردة وخنازير في صور آدمية، يعبدون الطاغوت، ويوالون الشيطان.. والأبناء يعرفون عن يقين خبر هذا البلاء الذي حلّ بآبائهم، فكانوا مثلة في الناس، فإذا كان هؤلاء الأبناء لم يمسخوا بعد قردة وخنازير وعبدة للطاغوت، فإنهم على الطريق الذي يقودهم إلى هذا البلاء، إذا هم ظلّوا على هذا الموقف من النبيّ ومن دعوته، ولم يفيئوا إلى السلامة والعافية، بموادعة النبيّ أو متابعته على دينه.

٢. وفي التعبير عن العقاب الأليم هنا بلفظ المثوبة، التي يعبّر بها في مقام الجزاء الحسن ـ في هذا ما يشير إلى أن هذا العقاب هو الجزاء الحسن الذي يحلّ باليهود، إذا هو قيس بما وراءه من ألوان العقاب والنّكال، الراصد لهم!

ابن عاشور:

ذكر محمد الطاهر بن عاشور (ت ١٣٩٣ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. اطّرد الله تعالى في التهكّم بهم والعجب من أفن رأيهم مع تذكيرهم بمساويهم فقال: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ الله﴾، وشرّ اسم تفضيل، أصله أشرّ، وهو للزيادة في الصفة، حذفت همزته تخفيفا لكثرة الاستعمال، والزّيادة تقتضي المشاركة في أصل الوصف فتقتضي أنّ المسلمين لهم حظّ من الشرّ، وإنّما جرى هذا تهكّما باليهود لأنّهم قالوا للمسلمين: لا دين شرّ من دينكم، وهو ممّا عبّر عنه بفعل ﴿تَنْقِمُونَ﴾، وهذا من مقابلة الغلظة بالغلظة كما يقال: (قلت فأوجبت)

٢. والإشارة في قوله: ﴿مِنْ ذَلِكَ﴾ إلى الإيمان في قوله: ﴿هَلْ تَنْقِمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِالله﴾ باعتبار أنّه منقوم على سبيل الفرض، والتّقدير: ولمّا كان شأن المنقوم أن يكون شرّا بني عليه التهكّم في قوله: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ﴾، أي ممّا هو أشدّ شرّا.

٣. والمثوبة مشتقّة من ثاب يثوب، أي رجع، فهي بوزن مفعولة، سمّي بها الشيء الّذي يثوب به المرء إلى منزله إذا ناله جزاء عن عمل عمله أو سعي سعاه، وأصلها مثوب بها، اعتبروا فيها التّأنيث على تأويلها بالعطيّة أو الجائزة ثمّ حذف المتعلّق لكثرة الاستعمال، وأصلها مؤذن بأنّها لا تطلق إلّا على شيء

(١) التحرير والتنوير: ١٤٣/٥.

وجودي يعطاه العامل ويحمله معه، فلا تطلق على الضّرب والشتم لأنّ ذلك ليس ممّا يثوب به المرء إلى منزله، ولأنّ العرب إنّما يبنون كلامهم على طباعهم وهم أهل كرم لنزيلهم، فلا يريدون بالمثوبة إلّا عطية نافعة، ويصحّ إطلاقها على الشيء النّفيس وعلى الشيء الحقير من كلّ ما يثوب به المعطى، فجعلها في هذه الآية تمييزا لاسم الزيادة في الشرّ تهكّم لأنّ اللّغة والغضب والمسخ ليست مثوبات، وذلك كقول عمرو بن كلثوم:

قريناكم فعجّلنا قراكم قبيل الصبح مرداة طحونا

وقول عمرو بن معد يكرب:

وخيل قد دلفت لها بخيل تحيّة بينهم ضرب وجيع

٤. ﴿مَنْ لَعَنَهُ اللهُ﴾ مبتدأ، أريد به بيان من هو شرّ مثوبة، وفيه مضاف مقدّر دلّ عليه السياق، وتقديره: مثوبة من لعنه الله، والعدول عن أن يقال: أنتم أو اليهود، إلى الإتيان بالموصول للعلم بالمعنيّ من الصلة، لأنّ اليهود يعلمون أنّ أسلافا منهم وقعت عليهم اللّعنة والغضب من عهد أنبيائهم، ودلائله ثابتة في التّوراة وكتب أنبيائهم، فالموصول كناية عنهم.

٥. وأمّا جعلهم قردة وخنازير فقد تقدّم القول في حقيقته في سورة البقرة، وأمّا كونهم عبدوا الطاغوت فهو إذ عبدوا الأصنام بعد أن كانوا أهل توحيد فمن ذلك عبادتهم العجل.

٦. والطاغوت: الأصنام، وتقدّم عند قوله تعالى: ﴿يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ﴾ في سورة النّساء [٥١]، وقرأ الجمهور ﴿وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾ بصيغة فعل المضيّ في ﴿عَبْدُ﴾ وبفتح التّاء من ﴿الطَّاغُوتَ﴾ على أنّه مفعول ﴿عَبْدُ﴾، وهو معطوف على الصّلة في قوله: ﴿مَنْ لَعَنَهُ اللهُ﴾، أي ومن عبدوا الطاغوت، وقرأه حمزة وحده ـ بفتح العين وضمّ الموحّدة وفتح الدّال وبكسر الفوقيّة من كلمة الطاغوت ـ على أن (عبد) جمع عبد، وهو جمع سماعي قليل، وهو على هذه القراءة معطوف على ﴿الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ﴾

٧. والمقصود من ذكر ذلك هنا تعيير اليهود المجادلين للمسلمين بمساوي أسلافهم إبكاتا لهم عن التطاول، على أنّه إذا كانت تلك شنشنتهم أزمان قيام الرسل والنبيئين بين ظهرانيهم فهم فيما بعد ذلك أسوأ حالا وأجدر بكونهم شرّا، فيكون الكلام من ذمّ القبيل كلّه، على أنّ كثيرا من موجبات اللّعنة والغضب والمسخ قد ارتكبتها الأخلاف، على أنّهم شتموا المسلمين بما زعموا أنّه دينهم فيحقّ شتمهم بما

نعتقده فيهم.

أبو زهرة:

ذكر محمد أبو زهرة (ت ١٣٩٤ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. أمر الله تعالى نبيه ﷺ أن ينبههم إلى عظيم شرهم، والاستفهام هنا للتنبيه، الخطير في ذاته، والتنبيء به ذكره مؤكدا، والإشارة عند الأكثرين إلى ما نقمه اليهود على النبي ﷺ والمؤمنين معه من أنهم يؤمنون بالرسالات الإلهية كلها لا فرق بين رسول ورسول، ولو كانوا هم قد قتلوه أو حاولوا قتله، والمثوبة في أصل معناها الجزاء الثابت على العمل، سواء أكان شرا أم كان خيرا، ولكن شاع استعمالها في الخير، وهي في لغة القرآن لا تكون إلا في الخير كالثواب فإنه مقابل العقاب.

٢. سؤال وإشكال: كيف يكون الإيمان شرا، ويوجد ما هو أعظم شرا منه؟، وكيف يعبر عن جزاء الشر بالمثوبة؟ والجواب:

أ. إن في التعبير عن ثمرات شرهم بالمثوبة من التهكم بهم، والازدراء بتفكيرهم، وإن التعبير عن الإيمان وهو خير، بالشر من قبيل المشاكلة لتفكيرهم، كأنه قيل إذا كنتم تنقمون على رسول الله ﷺ إيمانه وتحسبونه شرا لا خير فيه فشر منه عاقبة ومآلا ما أنتم عليه من لعن وطرد من رحمة الله، ومن وقوع في غضبه ومن مسخكم قردة وخنازير.

ب. وقيل: إن الإشارة إلى فسقهم، ومؤدى الكلام على هذا أن هناك ما هو شر من فسقهم وجحودهم، وهو ثمرة فعلهم، وتلك الثمرة هي اللعن والطرد من رحمته، ومسخهم قردة وخنازير، وكأن قوله: ﴿أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ﴾ فيها حكم بالفسق الدائم المستمر في اليهود الذى يتوارثونه جيلا بعد جيل، حتى صار ذلك كالجبلة فيهم والغرائز الموروثة، وقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا﴾ بيان لثمرة فسقهم، ولكن الظاهر هو الأول؛ لأن المقابلة واضحة في هذا النص الأخير، إذ فيه مقابلة ما عليه أهل الإيمان بما آل إليه أمرهم.

٣. وقد ذكر الله سبحانه وتعالى حالهم في الدنيا والآخرة، فقال تعالت كلماته: ﴿مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ

---

(١) زهرة التفاسير: ٥/٢٢٦٥.

﴿وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾ المقابلة هنا بين من آمنوا بالله ورسله، وبين من أنزل بهم سبحانه ما أنزل، وقد ذكرهم مقرونين بما أنزله سبحانه:

أ. ومعنى من لعنه الله، أنه طردهم من رحمته، رحمة الإيمان وإدراك الحق والقرار والاطمئنان في الدنيا، وضرب الذلة عليهم إلا بحبل من الناس، وإن استقروا زمانا فإلى طرد مستمر، هكذا كان ماضيهم، وهكذا يكون حاضرهم إن شاء الله تعالى، وإنهم في الآخرة في السعير يدوم عليهم عذابها.

ب. والأمر الثاني: الذى ينزله تعالى بهم هو غضبه عليهم، وسيعاملون في الدنيا والآخرة على مقتضى حكمته في غضبه وعدم رضاه.

ج. والأمر الثالث: أن الله سبحانه وتعالى جعل منهم القردة والخنازير، وقد سار المفسرون على الأخذ بظاهر اللفظ، وقالوا: إن الله تعالى مسخهم قردة وخنازير حقيقة، بل أفرط بعضهم فزعم أن القردة والخنازير خلفوا نسلا لهم، ولكن الحقيقة أن القردة والخنازير كانت قبلهم، وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ﴾ مبالغة في المشابهة بينهم، حتى كأنهم الأصل في هذين النوعين من الأحياء، ومع أن المفسرين قد أخذوا بظاهر الألفاظ من غير تأويل، قد روى عن مجاهد الذى تلقى التفسير عن ترجمان القرآن ابن عباس أن المراد بمسخهم قردة وخنازير مسخ قلوبهم، فصاروا في نزواتهم، واستيلاء الشهوات على نفوسهم وعبثهم بكل مقدرات القيم الخلقية كالقردة، كما صاروا في قذارات نفوسهم، وتطلبهم للقذر من المكاسب كالخنازير إذا يطلبون القذارات يأكلونها، وتنمو أجسامهم عليها، وقد قال ابن كثير في تفسيره ما نصه عن مجاهد: ﴿فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾، فقال: (مسخت قلوبهم، ولم يمسخوا قردة، وإنما هم مثل ضربه الله تعالى: ﴿كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾ [الجمعة]، وهذا سند جيد عن مجاهد وهو قول غريب)، وعندى أنه لا غرابة، وإن كان الأكثرون يستغربونه، وإنه قد وردت أحاديث قد تفيد هذا، فقد روى عن ابن مسعود أنه قال: (سألنا رسول الله ﷺ عن القردة والخنازير أهي من نسل اليهود؟ فقال ﷺ: (إن الله لم يلعن قوما قط فمسخهم فكان لهم نسل، ولكن هذا خلق كان فلما غضب الله تعالى على اليهود فمسخهم جعلهم مثلهم)، وإنه قد يستفاد من الحديث أن المثلية في النفوس لا في الأجساد، وهذا هو الذى نميل إليه، واللفظ يحتمله ولذا نختاره.

د. والأمر الرابع الذى منى الله تعالى به اليهود أنهم عبدوا الطاغوت، والطاغوت فعلوت من

الطغيان وهم يعبدون الطغيان دائما، فهم يعبدون الحاكم الطاغي ويكونون أدواته، وهم يعبدون المال الطاغي المأخوذ من غير حله، وهم يعبدون الهوى ويتخذون هواهم إلها يعبدونه.

٤. وقد سجل الله سبحانه وتعالى الحكم مؤكدا فقال سبحانه: ﴿أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ أي أولئك المتصفون بالفسق الذى أنزل الله تعالى عليهم سخطه، وقرر طردهم من رحمته، ومسخ قلوبهم حتى صارت قلوبهم كقلوب القردة والخنازير، وعبدوا الطغيان، ولم يؤمنوا بالحق، هؤلاء شر مكانا، أي مكانهم في الدنيا شر مكان إذ يأكلون من المحرمات، كما تأكل الخنازير من القاذورات، وهم في ذلة، ولو أوتوا قوة وسلطانا بسبب اتصالهم بأشرار الأرض، فهم في ذلك بالتبعية، وهم أبعد عن الطريق السوى المستقيم، فهم في ضلال مستمر، وإن سكنوا واطمأنوا أياما فسيذيقهم الله تعالى وبال أمرهم، ويحق الله الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون.

مُغْنِيَّة:

ذكر محمد جواد مُغْنِيَّة (ت ١٤٠٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللهِ﴾، ذلك إشارة إلى حال المنتقمين، والمثوبة تستعمل في الجزاء بالخير، والعقوبة في الجزاء بالشر، وقد وضعت المثوبة هنا موضع العقوبة من باب تحيتهم السباب، والمعنى: قل يا محمد لأعداء الدين والحق الذين يستهزءون من الإسلام والأذان، قل لهم: إن كان الإيمان بالله وكتبه شرا يوجب النقمة فأنا أخبركم بشرّ من هذا، إن كان هذا شرا.. وهو﴿مَنْ لَعَنَهُ اللهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾

٢. وهذه الأوصاف كلها من أوصاف اليهود، حيث سجل الله عليهم لعنته وغضبه في أكثر من آية، ووصفهم بعبادة الجبت والطاغوت، وقال لهم: كونوا قردة خاسئين، ومن هذه الآيات: ١ ـ الآية ٤٦ من النساء: ﴿كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ﴾

أ. الآية ٤٦ من النساء: ﴿كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ﴾

ب. الآية ٩٠ من البقرة: ﴿فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ﴾

---

(١) التفسير الكاشف: ٣/٨٧.

ج. الآية ٦٥ البقرة: ﴿فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾، وما قال الله لشيء كن إلا كان.

د. الآية ٥١ ـ النساء: ﴿يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ﴾

٣. وقيل المراد بالطاغوت الشيطان، وقيل: العجل، والصحيح أن كل من أطاع عبدا في معصية الله فهو عبد له.

٤. قال الرازي: (احتج أصحابنا ـ أي الأشاعرة ـ بهذه الآية على أن الكفر بقضاء من الله، لأن التقدير وجعل الله منهم من عبد الطاغوت)، والصحيح أن عبد معطوف على لعنه الله، لا على جعل منهم القردة، وأن التقدير (هل أنبئكم بشرّ الناس، أو بشرّ من ذلك من لعنه ومن عبد الطاغوت)، وعليه فلا يصح الاستدلال بهذه الآية على أن الكفر من الله، لا من العبد.

٥. ﴿أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾، أولئك إشارة إلى اليهود ظاهرا وتشمل كل من حاد عن الحق واقعا، ولا يجديه قول لا إله إلا الله محمد رسول الله.. إذ لا إيمان بلا تقوى.

الطباطبائي:

ذكر محمد حسين الطباطبائي (ت ١٤٠٢ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي(١):

١. ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ الله مَنْ لَعَنَهُ الله﴾ ذكروا أن هذا أمر منه تعالى لنبيه ﷺ أن يخاطب أولئك المستهزءين اللاعبين بالدين على طريق التسليم أخذا بالنصفة في التكليم ليلزمهم أنهم إن نقموا من المؤمنين إيمانهم بالله وما أنزله على رسله فعليهم أن ينقموا أنفسهم لأنهم شر مكانا وأضل عن سواء السبيل لابتلائهم باللعن الإلهي والمسخ بالقردة والخنازير وعبادة الطاغوت فإذا لم ينقموا أنفسهم على ما فيهم من أسباب النقمة فليس لهم أن ينقموا من لم يبتل إلا بما هو دونه في الشر، وهم المؤمنون في إيمانهم على تقدير تسليم أن يكون إيمانهم بالله وكتبه شرا، ولن يكون شرا.

٢. فالمراد بالمثوبة مطلق الجزاء، ولعلها استعيرت للعاقبة والصفة اللازمة كما يستفاد من تقييد قوله: ﴿بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً﴾ بقوله: ﴿عِنْدَ الله﴾ فإن الذي عند الله هو أمر ثابت غير متغير وقد حكم به الله وأمر به، قال تعالى: ﴿وَمَا عِنْدَ الله بَاقٍ﴾، وقال تعالى: ﴿لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ﴾، فهذه المثوبة مثوبة لازمة

(١) الميزان في تفسير القرآن: ٦/٣٠.

لكونها عند الله سبحانه.

٣. وفي الكلام شبه قلب، فإن مقتضى استواء الكلام أن يقال: إن اللعن والمسخ وعبادة الطاغوت شر من الإيمان بالله وكتبه وأشد ضلالا، دون أن يقال: إن من لعنه الله وجعل منهم القردة والخنازير وعبد الطاغوت شر مكانا وأضل إلا بوضع الموصوف مكان الوصف، وهو شائع في القرآن الكريم كقوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللهِ﴾، وبالجملة فمحصل المعنى أن إيماننا بالله وما أنزله على رسله إن كان شرا عندكم فأنا أخبركم بشر من ذلك يجب عليكم أن تنقموه وهو النعت الذي فيكم:

أ. وربما قيل: إن الإشارة بقوله: ﴿ذَلِكَ﴾ إلى جمع المؤمنين المدلول عليه بقوله: ﴿هَلْ تَنْقِمُونَ مِنَّا﴾ وعلى هذا فالكلام على استوائه من غير قلب، والمعنى هل أنبئكم بمن هو شر من المؤمنين لتنقموهم؟ وهم أنتم أنفسكم، وقد ابتليتم باللعن والمسخ وعبادة الطاغوت.

ب. وربما قيل: إن قوله: ﴿مِنْ ذَلِكَ﴾ إشارة إلى المصدر المدلول عليه بقوله: ﴿هَلْ تَنْقِمُونَ مِنَّا﴾ أي هل أنبئكم بشر من نقمتكم هذه مثوبة وجزاء؟ هو ما ابتليتم به من اللعن والمسخ وغير ذلك.

الحوثي:

ذكر بدر الدّين الحوثي (ت ١٤٣١ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. ﴿قُلْ﴾ يا محمد لأهل الكتاب يا أهل الكتاب المتسبون إليه ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ﴾ مما نقمتم علينا وهو الإيمان وليس مما يحق أن ينقم وفسق أكثركم ونحن منه براء وبريئون فما بقي إلا الإيمان فشر منه مرجعاً ﴿عِنْدَ اللهِ﴾ عمل ﴿مَنْ لَعَنَهُ اللهُ﴾ بذنبه ﴿وَغَضِبَ عَلَيْهِ﴾ وقد مر في السورة: ﴿لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً﴾ إلى آخر الآية، ومرَّ في (سورة النساء) تعديد جرائمهم ﴿وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ﴾ كما مرَّ في (سورة البقرة) ويأتي في (سورة الأعراف)

٢. ﴿وَالْخَنَازِيرَ﴾ لعلهم قوم من النصارى كفروا بعد إنزال المائدة عليهم قال الله: ﴿إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ﴾، قال الشرفي في (المصابيح): (قيل: القردة: أصحاب السبت، والخنازير: كفار أهل مائدة عيسى عليه السلام، وقال ابن عباس: المسخين

---

(١) التيسير في التفسير: ٢/٣٣٣.

في أصحاب السبت فشبابهم مسخوا قردة ومشائخهم خنازير، ثم قال الشرفي: وقال الهادي عليه السلام: فهؤلاء قوم من بني إسرائيل مسخوا حين عتوا واجترءوا فجعلوا صور ما ذكر الله? عن أن يحويه قول أو يناله من القردة والخنازير، فجعْل الله لهم تحويله لصوَرهم وإحلاله لنقمه سبحانه بهم على ما كان من فعلهم وما استوجبوا بجرمهم) وما ذكره الإمام الهادي عليه السلام يكفينا؛ لأنه الذي دل عليه القرآن من دون تعيين الممسوخين خنازير، وأما ما حكي عن ابن عباس فلا يصح عنه؛ لأنه مخالف للقرآن؛ لأنه دل على مسخ الذين اعتدوا في السبت من أصحاب القرية قردة، وذلك ينافي جعلهم قسمين قردة وخنازير، وابن عباس أجل من أن يخفى عليه أو يعتمد من الأساطير على رواية تخالفه.

٣. ﴿وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾ حكى الشرفي في (المصابيح): (عن الهادي عليه السلام أنه قال وأما قوله: ﴿وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾ فإنما هو على التقديم والتأخير، أراد سبحانه هل أنبئكم بشر من ذلك مثوبة عند الله من لعنه الله وغضب عليه ﴿وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾ فجعلها في اللفظ مؤخرة وهي في المعنى مقدمة، وفعل الطاغوت فليس من فعل الله؛ لأن الطاغوت هو ما أطغى من الفعل وأفسد من العمل، وخالف الحق وجنّب عن الصدق) قد جعل الإمام الهادي عليه السلام في (آية الوضوء) ﴿وَأَرْجُلَكُمْ﴾ معطوفاً على ﴿وُجُوهَكُمْ﴾ ومثل ذلك أراد هنا؛ ولعله جعل اللعنة والغضب شيئاً واحداً، هو خذلانهم وسلبهم التوفيق، بحيث يصيرون إلى عذابه.

٤. والعبادة للطاغوت: إما أنها طاعتهم للشيطان في ترك عبادة الله على قول الناصر عليه السلام: أن الطاعة للشيطان عبادة لَه كما بسطه في (البساط) وبناء عليه يصلح تفسير (الطاغوت) بالشيطان، وبالملوك الذين كانوا يأمرونهم بالفساد في الأرض حين علوا علواً كبيراً، ويحتمل: أن عبادتهم للطاغوت: إيمانهم بهم، وقد مرَّ التفسير لَه عند ذكر قوله تعالى: ﴿يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ﴾ [النساء:٥١] والظاهر: أن منهم من عبد الطاغوت حقيقة، ولذلك عابه عليهم لكونهم أهل كتاب يدّعون اتباعه.

٥. ﴿أُولَئِكَ﴾ أهل الصفات المذكورة ﴿شَرٌّ مَكَانًا﴾ أي أسوأ حالاً، والمراد أنهم أشر في أنفسهم، ونسب ذلك إلى مكانهم على طريقة الكناية، كقول الشاعر:

يبيت بمنجاة من اللؤْم بيتها … إذا ما بيوت بالملامة حُلَّتِ

والمعنى واضح؛ لأن الله ـ سبحانه وتعالى ـ لا يغضب عليهم ويلعنهم إلا وهم شر، ولا يجعل منهم

القردة والخنازير إلا وهم شر؛ ولأن من عبد الطاغوت شر ممن آمن بالله وكتبه، وهذه المفاضلة كما في قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [فصلت:٤٠]

٦. ﴿وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ ﴿سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾: المستوى من الطريق فلا انحراف فيه ولا طلوع ولا نزول، فهو لا يخفى على السائر فيه، ولا يضل عنه إلا من هو أعمى البصر والبصيرة، وهؤلاء الموصوفون من أهل الكتاب قد شبهوا به؛ لأنهم عدلوا عن الصراط المستقيم وهو بيِّنٌ لهم في (التوراة)

فضل الله:

ذكر محمد حسين فضل الله (ت ١٤٣١ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي(١):

١. يعنف الأسلوب، وتتغير اللهجة، فهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثا، ولا يريدون السير في خط الحوار، فلا بدّ من تصفية الموقف معهم، وإعلان الحرب عليهم، والوصول من خلال ذلك إلى النتيجة الحاسمة، فكانت المسألة هي الحديث عمّا ينتظر هؤلاء من عذاب وما يمثله ذلك من موقع.

٢. ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللهِ﴾، والمثوبة هي الجزاء بالخير، ولكنّ الله أراد بها ـ هنا ـ الجزاء بالشر، على سبيل التهكم والاستهزاء، ﴿مَنْ لَعَنَهُ اللهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ﴾ فقد لعنهم الله وأبعدهم عن ساحة رحمته، وغضب عليهم، لما واجهوه به من التمرّد، ﴿وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ﴾ في عملية المسخ، ﴿وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾ وقد عبدوا الطاغوت الّذي أرادهم الله أن يكفروا به، فيما يمثّله من انحراف في العقيدة والعمل وخط الحياة.

٣. ﴿أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا﴾، لأنّ مواقعهم الّتي يقفون فيها لا تمثّل أيّ جانب من جوانب الخير بل هي الشر كله، فيما يمثّل من خلفيات ذاتية وأعمال ضالة، ومواقف منحرفة، وسعي في إقامة الفساد في الأرض، ﴿وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾، وأيّ ضلال أشدّ من التمرّد على الله فيما أمر به من طاعة رسله، وإقامة شريعته في الأرض، وأيّ انحراف عن الخط المستقيم أكثر من الانحراف عن الحجج الواضحة والبراهين القاطعة الّتي تضع الحقيقة في نصابها الصحيح بعيدا عن كل حالات الريب والشك!؟

الشيرازي:

(١) من وحي القرآن: ٨/٢٤٣.

ذكر ناصر مكارم الشيرازي في تفسير هذا المقطع ما يلي[1]:

١. الآية الكريمة تقارن المعتقدات المحرفة وأعمال أهل الكتاب والعقوبات التي تشملهم بوضع المؤمنين الأبرار من المسلمين لكي يتبيّن أي الفريقين يستحق النقد والتقريع، وهذا بذاته جواب منطقي للفت انتباه المعاندين والمتطرفين في عصبيتهم.

٢. وفي هذه المقارنة تطلب الآية من النّبي ﷺ أن يسأل هؤلاء: هل أنّ الإيمان بالله الواحد وبكتبه التي أنزلها على أنبيائه أجدر بالنقد والاعتراض، أم الأعمال الخاطئة التي تصدر من أناس شملهم عقاب الله؟ فتخاطب الآية النّبي بأن يسأل هؤلاء: إن كانوا يريدون التعرف على أناس لهم عند الله أشد العقاب جزاء ما اقترفوه من أعمال، حيث تقول: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللهِ﴾ إن كلمة (مثوبة) وكذلك كلمة (ثواب) تعنيان ـ في الأصل ـ الرجوع أو العودة إلى الحالة الأولى، كما تطلقان ـ أيضا ـ لتعنيا المصير والجزاء (الأجر أو العقاب) لكنهما في الغالب تستخدمان في مجال الجزاء الحسن، وأحيانا تستخدم كلمة (الثواب) بمعنى العقاب وفي الآية جاءت بمعنى المصير أو العقاب.

٣. ولا شك أنّ الإيمان بالله وكتبه ليس بالأمر غير المحمود، وأن المقارنة الجارية في هذه الآية بين الإيمان وبين أعمال وأفكار أهل الكتاب، هي من باب الكناية، كما ينتقد إنسان فاسد إنسانا تقيا فيسأل الإنسان التقي ردا على هذا الفاسد: أيّهما أسوأ الأتقياء أم الفاسدون.

٤. بعد هذا تبادر الآية إلى شرح الموضوع، فتبيّن أنّ أولئك الذين شملتهم لعنة الله فمسخهم قرودا وخنازير، والذين يعبدون الطاغوت والأصنام، إنّما يعيشون في هذه الدنيا وفي الآخرة وضعا أسوأ من هذا الوضع، لأنّهم ابتعدوا كثيرا عن طريق الحقّ وعن جادة الصواب، تقول الآية الكريمة: ﴿مَنْ لَعَنَهُ اللهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ كلمة (سواء) تعني في اللغة (المساواة والاعتدال والتساوي) وان وجه تسمية الصراط المستقيم في الآية: ﴿سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ لأنّ جميع أجزاء هذا الطريق مستوية ولأن طرفيه متساويان وممهدان، كما تطلق هذه التسمية على كل طريقة تتسم بالاعتدال وتخلو من الانحراف.

---

(١) تفسير الأمثل: ٤/٦٧.

٥. سنتطرق إلى معنى المسخ الذي يتغير بموجبه شكل الإنسان، وهل أنّ هذا التغير في الشكل يشمل صورته الجسمية، أم المراد التغير الفكري والأخلاقي؟ وذلك عند تفسير الآية من سورة الأعراف، وبصورة مفصلة بإذن الله.

٦١. الدخول بالكفر والخروج به

نتناول في هذا الفصل ما ذكره المفسّرون ـ بحسب التسلسل التاريخي، والمدارس الإسلامية المختلفة ـ حول تفسير المقطع [٦١] من سورة المائدة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ﴾ [المائدة: ٦١]، مع العلم أنّا نقلنا المباحث التي لا علاقة لها ـ كبرى أو مباشرة ـ بالتفسير التحليلي إلى محالّها من كتب السلسلة.

ابن عباس:

روي عن ابن عباس (ت ٦٨ هـ) أنّه قال: ﴿وَإِذَا جَاءُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ﴾ فإنهم دخلوا وهم يتكلمون بالحق، وتسر قلوبهم الكفر، فقال: ﴿دَخَلُوا بِالْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ﴾[(١)].

قتادة:

روي عن قتادة بن دعامة (ت ١١٧ هـ) أنّه قال: ﴿وَإِذَا جَاءُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا﴾ الآية، قال: أناس من اليهود كانوا يدخلون على النبي ﷺ، فيخبرونه أنهم مؤمنون راضون بالذي جاء به، وهم متمسكون بضلالتهم والكفر، فكانوا يدخلون بذلك، ويخرجون به من عند رسول الله ﷺ[(٢)].

ابن كثير:

روي عن عبد الله بن كثير (ت ١٢٠ هـ) أنّه قال: ﴿وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ﴾، أي: إنه من عندهم[(٣)].

السدي:

روي عن إسماعيل السدي الكوفي (ت ١٢٧ هـ) أنّه قال في الآية: هؤلاء ناس من المنافقين كانوا

---

(١) ابن جرير ٥٤٧/٨.

(٢) ابن جرير ٥٤٧/٨.

(٣) ابن جرير ٥٤٨/٨.

يهود، يقول: دخلوا كفارا، وخرجوا كفارا[(١)].

الكلبي:

روي عن محمد بن السائب الكلبي (ت ١٤٦ هـ)

روي عن محمد بن السائب الكلبي (ت ١٤٦ هـ) أنّه قال: ﴿وَإِذَا جَاءُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ﴾ هؤلاء منافقو أهل الكتاب، كانوا إذا دخلوا على رسول الله قالوا: آمنا، وقد دخلوا حين دخلوا على النبي كفارا، وخرجوا من عنده وهم كفار، ولم ينتفعوا بما سمعوا منه بشيء، وهم من اليهود[(٢)].

مقاتل:

روي عن مقاتل بن سليمان (ت ١٥٠ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال: لما نزلت هذه الآية ﴿وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ﴾ عيرت اليهود، فقالوا لهم: يا إخوان القردة والخنازير، فنكسوا رءوسهم، وفضحهم الله تعالى، وجاء أبو ياسر بن أخطب، وكعب بن الأشرف، وعازر بن أبي عازر، ونافع بن أبي نافع، ورافع بن أبي حريملة، هم رؤساء اليهود، حتى دخلوا على رسول الله ﷺ، فقالوا: قد صدقنا بك يا محمد؛ لأنا نعرفك، ونصدقك، ونؤمن بك، ثم خرجوا من عنده بالكفر، غير أنهم أظهروا الإيمان؛ فأنزل الله عز وجل فيهم: ﴿وَإِذَا جَاءُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ﴾[(٣)].

٢. روي أنّه قال: ﴿وَإِذَا جَاءُوكُمْ﴾ اليهود ﴿قَالُوا آمَنَّا﴾ يعني: صدقنا بمحمد ﷺ؛ لأنهم دخلوا عليه وهم يسرون الكفر، وخرجوا من عنده بالكفر، فذلك قوله سبحانه: ﴿وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ﴾ يعني: بالكفر مقيمين عليه، ﴿وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ﴾ يعني: بما يسرون في قلوبهم من الكفر بمحمد ﷺ، نظيرها في آل عمران[(٤)].

---

(١) ابن جرير ٨/٥٤٧.

(٢) تفسير ابن أبي زمنين ٢/٣٦.

(٣) تفسير مقاتل ابن سليمان ١/٤٨٩.

(٤) تفسير مقاتل ابن سليمان ١/٤٨٩.

ابن زيد:

روي عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم (ت ١٨٢ هـ) أنّه قال في قوله: ﴿وَإِذَا جَاءُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ﴾، ﴿وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [آل عمران: ٧٢] فإذا رجعوا إلى كفارهم من أهل الكتاب وشياطينهم رجعوا بكفرهم، وهؤلاء أهل الكتاب من يهود[١].

الماتريدي:

ذكر أبو منصور الماتريدي (ت ٣٣٣ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[٢]:

١. قوله تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ﴾:

أ. قيل: إن الآية في اليهود.

ب. وقيل: إنها في المنافقين، وهي في المنافقين أشبه.

٢. ذكر أنهم كانوا يدخلون على النبي ﷺ ويظهرون الموافقة له، ويخبرونه أنهم يجدون نعته وصفته في كتبهم، ويضمرون الخلاف له في السر وهزءوا به؛ فقال عند ذلك: ﴿وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ﴾: أخبر عز وجل نبيه ﷺ: أنهم دخلوا بالكفر؛ لأنهم يقولون ذلك استهزاء، وعلى ذلك خرجوا؛ ففيه دلالة إثبات رسالة سيدنا مُحَمَّد ﷺ؛ لأنه أخبرعما أضمروا؛ ليعلموا أنه إنما علم ذلك بالذي يعلم الغيب، مع علمهم أنه لا يعلمه إلا الله، والله أعلم بما كانوا يكتمون ويضمرون من الكفر والهزء.

الطوسي:

ذكر أبو جعفر الطوسي (ت ٤٦٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[٣]:

١. أخبر الله تعالى عن هؤلاء المنافقين بأنهم إذا جاؤوا المؤمنين ﴿قَالُوا آمَنَّا﴾ أي صدقنا ﴿وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ﴾ قيل فيه قولان:

---

(١) ابن جرير ٨/٥٤٧.

(٢) تأويلات أهل السنة: ٣/٥٥٠.

(٣) تفسير الطوسي: ٣/٥٧٧.

أ. أحدهما: قال الحسن وابن عباس والسدي وقتادة وأبو علي: وقد دخلوا بالكفر بخلاف ما أظهروه على النبي ﷺ وخرجوا به من عنده.

ب. الثاني: وقد دخلوا به في أحوالهم وقد خرجوا به إلى أحوال أخر كقولك هو يتقلب في الكفر ويتصرف به، ومعناه تقريب الماضي من الحال ولهذا دخلت (في) هذا الموضوع، وقال الخليل: ويكون لقوم ينتظرون الخبر كقولك قد ركب الأمير لمن كان ينتظره، وهو راجع إلى ذلك الأصل لأنه تقريب من الحال المنتظرة وأصل الدخول الانتقال إلى محيط كالوعاء إلا أنه قد كثر حتى قيل دخل في هذا الأمر، ولا يدخل في المعنى ما ليس منه، ودخل في الإسلام، وخرج بالردة منه، وكان ذلك مجاز، وقوله: والمضاف إليه لا يعمل في المضاف لأنه من تمامه، وليس كذلك (متى) لأنها جزاء.

٢. وقوله: ﴿وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ﴾ معناه ما يكتمونه من نفاقهم إذ أظهروا بألسنتهم ما أضمروا خلافه في قلوبهم فبين الله للناس أمرهم.

الجشمي:

ذكر الحاكم الجشمي (ت ٤٩٤ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. اختلف في سبب نزول الآية الكريمة:

أ. قيل: نزلت في المنافقين عن جماعة من أهل التفسير.

ب. وقيل: نزلت في الَّذِينَ قالوا ﴿آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ﴾ عن ابن زيد.

٢. أظهر الله تعالى نفاقهم، وما هم عليه من سوء الفعال، فقال تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءُوكُمْ﴾:

أ. يعني المنافقين الَّذِينَ وصفهم في الآية المتقدمة، ونهى عن موالاتهم، إذا جاؤوا إلى المؤمنين.

ب. وقيل: هم كفرة أهل الكتاب المحرفين الكلم عن مواضعه، ويكون منهم منافقون، عن أبي مسلم.

ج. وقيل: هم اليهود، عن ابن زيد.

٣. ﴿قَالُوا آمَنَّا﴾ أي: قالوا لكم: صدقنا بما جاء به رسولكم رسول الله وتبعناه ﴿وَقَدْ دَخَلُوا

---

(١) التهذيب في التفسير: ٣/٣٤٦.

بِالْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ﴾:

أ. يعني أنهم مع هذا القول مقيمون على الكفر.

ب. وقيل: معناه دخلوا به على النبي ﷺ والمؤمنين، وخرجوا به من عندهم، عن الحسن وقتادة.

ج. وقيل: دخلوا في أحوالهم وخرجوا به إلى أحوال أخر كقولك: هو يتقلب في الظعن ويتصرف فيه، فأطلع الله نبيه على سوء خلتهم لئلا يغتروا بها لم يظهر لهم من قولهم.

٤. ﴿وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ﴾:

أ. أي يسترون من نفاقهم، فيظهرون بألسنتهم خلاف ما في قلوبهم.

ب. وقيل: يكتمون الدلالات في الكتب على صدقه، والبشارة به.

ج. وقيل: يكتمون الكفر، عن أبي علي.

٥. تدل الآية الكريمة على:

أ. أنه تعالى عَرَّفَهُ من حالهم ما يجري مجرى الغيب، فيكون معجزة له، وبيانًا لنفاقهم.

ب. أن أفعال العباد حادثة من جهتهم لأنه وصفهم بالدخول به والخروج به، دل أن الكفر والدخول والخروج فعلهم.

الطَبرِسي:

ذكر الفضل الطَبرِسي (ت ٥٤٨ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[1]:

١. أخبر الله تعالى عن هؤلاء المنافقين بقوله: ﴿وَإِذَا جَاءُوكُمْ﴾ أيها المؤمنون ﴿قَالُوا آمَنَّا﴾ أي: صدقنا ﴿وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ﴾ قيل فيه قولان:

أ. أحدهما: إنهم دخلوا به على النبي ﷺ، وخرجوا به من عنده، أي: دخلوا وخرجوا كافرين، والكفر معهم في كلتا حالتيهم، عن الحسن، وقتادة.

ب. الثاني: إن معناه وقد دخلوا به في أحوالهم، وخرجوا به إلى أحوال أخر، كقولك: هو يتقلب في الكفر، ويتصرف فيه.

(١) تفسير الطبرسي: ٣/٣٣٣.

٢. ﴿وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ﴾ أكد الكلام بالضمير تعيينا إياهم بالكفر، وتمييزا لهم من غيرهم بهذه الصفة ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ﴾ معناه: بما كانوا يكتمون من نفاقهم، إذا أظهروا بألسنتهم ما أضمروا خلافه في قلوبهم.

٣. مسائل لغوية ونحوية:

أ. قد تدخل (في) الكلام على وجهين: إذا كانت مع الماضي قريبة من الحال، وإذا كانت مع المستقبل دلت على التقليل.

ب. موضع الباء من قوله: ﴿وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ﴾ نصب على الحال، لان المعنى دخلوا كافرين، وخرجوا كافرين، لأنه لا يريد أنهم دخلوا يحملون شيئا، وهو كقولك: خرج زيد بثيابه أي: وثيابه عليه، يريد خرج لابسا ثيابه، ومثله قول الشاعر:

ومستنة كاستنان الخرو... فقد قطع الحبل بالمرود

أي: وفيه المرود، يعني وهذه صفته.

ج. الفرق بين قولك متى جاؤوكم، وإذا جاؤوكم: إن متى يتضمن معنى أن الجزاء، ويعمل فيه جاؤوكم، ولا يجوز أن يعمل في إذا لان إذا مضاف إلى ما بعده، والمضاف إليه لا يعمل في المضاف، لأنه من تمامه.

ابن الجوزي:

ذكر أبو الفرج بن الجوزي (ت ٥٩٧ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. ﴿وَإِذَا جَاءُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا﴾، قال قتادة: هؤلاء ناس من اليهود كانوا يدخلون على رسول الله ﷺ، فيخبرونه أنهم مؤمنون بما جاء به، وهم متمسّكون بضلالتهم.

٢. ﴿وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكُفْرِ﴾ أي: دخلوا كافرين، وخرجوا كافرين، فالكفر معهم في حالتيهم، ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ﴾ من الكفر والنّفاق.

الرَّازي:

(١) زاد المسير في علم التفسير: ١/٥٦٥.

ذكر الفخر الرازي (ت ٦٠٦ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. قالوا: نزلت هذه الآية في ناس من اليهود كانوا يدخلون على الرسول ﷺ ويظهرون له الإيمان نفاقا، فأخبره الله عزّ وجلّ بشأنهم وأنهم يخرجون من مجلسك كما دخلوا لم يتعلق بقلبهم شيء من دلائلك وتقريراتك ونصائحك وتذكيراتك.

٢. الباء في قوله ﴿دَخَلُوا بِالْكُفْرِ﴾ وَ﴿خَرَجُوا بِهِ﴾ يفيد بقاء الكفر معهم حالتي الدخول والخروج من غير نقصان ولا تغيير فيه ألبتة، كما تقول: دخل زيد بثوبه وخرج به، أي بقي ثوبه حال الخروج كما كان حال الدخول.

٣. ذكر عند الدخول كلمة (قد) فقال: ﴿وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكُفْرِ﴾ وذكر عند الخروج كلمة ﴿هُمْ﴾ فقال: ﴿وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ﴾ قالوا: الفائدة في ذكر كلمة (قد) تقريب الماضي من الحال، والفائدة في ذكر كلمة (هم) التأكيد في إضافة الكفر إليهم، ونفى أن يكون من النبي ﷺ في ذلك فعل، أي لم يسمعوا منك يا محمد عند جلوسهم معك ما يوجب كفرا، فتكون أنت الذي ألقيتهم في الكفر، بل هم الذين خرجوا بالكفر باختيار أنفسهم.

٤. قال المعتزلة ـ ومن وافقهم ـ إنه تعالى أضاف الكفر إليهم حالتي الدخول والخروج على سبيل الذم، وبالغ في تقرير تلك الاضافة بقوله: ﴿وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ﴾ فدل هذا على أنه من العبد لا من الله، والجواب: المعارضة بالعلم والداعي.

٥. ﴿وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ﴾ والغرض منه المبالغة فيما في قلوبهم من الجد والاجتهاد في المكر بالمسلمين والكيد بهم والبغض والعداوة لهم.

القرطبي:

ذكر محمد بن أحمد القرطبي (ت ٦٧١ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[٢]:

١. ﴿وَإِذَا جَاءُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا﴾ الآية، هذه صفة المنافقين، والمعنى أنهم لم ينتفعوا بشيء مما سمعوه، بل دخلوا كافرين وخرجوا كافرين.

---

(١) التفسير الكبير: ١٢، ص: ٣٩٢.

(٢) تفسير القرطبي: ٦/٢٣٧.

٢. ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ﴾ أي من نفاقهم، وقيل: المراد اليهود الذين قالوا: آمنوا بالذي أنزل على الذين آمنوا وجه النهار إذا دخلتم المدينة، واكفروا آخره إذا رجعتم إلى بيوتكم، يدل عليه ما قبله من ذكرهم وما يأتي.

الشوكاني:

ذكر محمد بن علي الشوكاني (ت ١٢٥٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي(١):

١. ﴿وَإِذَا جَاءُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا﴾ أي إذا جاءوكم أظهروا الإسلام، ﴿وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ﴾ جملتان حاليتان: أي جاءوكم حال كونهم قد دخلوا عندك متلبسين بالكفر وخرجوا من عندك متلبسين به لم يؤثر فيهم ما سمعوا منك، بل خرجوا كما دخلوا.

٢. ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ﴾ عندك من الكفر، وفيه وعيد شديد، وهؤلاء هم المنافقون؛ وقيل: هم اليهود الذين قالوا: ﴿آمِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ﴾

أَطَّفَيِّش:

ذكر محمد أَطَّفَيِّش (ت ١٣٣٢ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي(٢):

١. ﴿وَإِذَا جَآءُوكُمْ قَالُواْ آمَنَّا﴾ بك وبما جئت به، عطف قصَّة على أخرى، والجاؤون مطلق المنافقين، أو بعض اليهود الذين من ذرِّيَّة هؤلاء اليهود الذين مُسخ بعضهم، يدخلون على رسول الله ﷺ ويظهرون له الإسلام ويضمرون الكفر، والكاف للنبيء ﷺ تعظيمًا، أو له ولمن عنده من المؤمنين.

٢. ﴿وَقَد دَّخَلُواْ﴾ عليك ﴿بِالْكُفْرِ﴾ حال من واو (قَالُوا)، والباء للمصاحبة، ﴿وَهُمْ قَدْ خَرَجُواْ بِهِ﴾ من عندك، حال مُقَدَّرة بمعنى: يخرجون، لأنَّهم حال القول غير خارجين، أو هذه حال من واو (دَخَلُوا)، فالواو للحال لا عاطفة عَلَى الحال مقارنة، و(بِالْكُفْرِ) حال من واو (دَخَلُوا)، و(بِهِ) حال من واو (خَرَجُوا)، و(قَدْ) الأوَّل لتقريب الماضي من الحال، أو مُتَعَلِّقان بـ (دخل) و(خرج)، أو (وهم قد خرجوا بِهِ) عطف قصَّة على أخرى لا مدخل لها في الحاليَّة، وفي (قَدْ) في الموضعين تلويح بما يُتوقَّع ﷺ من ظهور نفاقهم لِمَا يُرى من أمارته، فإنَّ الإخبار بالدخول بالكفر والخروج به، بحيث لا يتأثَّرون بشيء مِمَّا

---

(١) فتح القدير: ٢/٦٥.

(٢) تيسير التفسير، أطفيش: ٤/٧٦.

سمعوا منه ﷺ ، كالإخبار بأنَّ ما تتوقَّعه منهم قد حضر فأنت عالم بنفاقهم، وقال: ﴿وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ﴾، ولم يقل: (وقد خرجوا به) تأكيدًا لذمِّهم وكفرهم حال الخروج بحسب اعتبار أنَّ الظاهر أن لا يخرجوا بكفرهم بعد مشاهدتهم له ﷺ ، أو إخبار بأنَّ كفرهم حال الخروج أشدُّ، لأنَّهم ازدادوا كفرًا إذْ زَجَرَهم وكفروا بما قال.

٣. ﴿وَاللهُ أَعْلَمُ﴾ منك ﴿بِمَا كَانُواْ يَكْتُمُونَ﴾ من الكفر وسيجزيهم به.

القاسمي:

ذكر جمال الدين القاسمي (ت ١٣٣٢ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. بين تعالى علامات كمال شرهم وضلالهم بقوله: ﴿وَإِذَا جَاءُوكُمْ﴾ يعني سفلة اليهود، ويقال: المنافقون: ﴿قَالُوا آمَنَّا﴾ أي: بك ونعتك، أنه في كتابنا.

٢. ﴿وَقَدْ دَخَلُوا﴾ إليكم متلبسين ﴿بِالْكُفْرِ﴾ بكفر السرّ ﴿وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا﴾ أي: من عندكم متلبسين ﴿بِهِ﴾ أي: بكفر السر، فهم مستمرون عليه ﴿وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ﴾ أي من الكفر، وفيه وعيد لهم.

رضا:

ذكر محمد رشيد رضا (ت ١٣٥٤هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(٢)]:

١. ﴿وَإِذَا جَآؤُوكُمْ قَالُوَاْ آمَنَّا﴾ الكلام في منافقي اليهود الذين كانوا في المدينة جوارها، أي ذلك شأنهم في حال البعد عنكم، وإذا جاؤوكم قالوا للرسول ولكم إننا آمنا بالرسول وما أنزل عليه.

٢. ﴿وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ﴾ أي والحال الواقعة منهم أنهم دخلوا عليكم متلبسين بالكفر، وهم أنفسهم قد خرجوا متلبسين به، فحالهم عند خروجهم هي حالهم عند دخولهم، لم يتحولوا عن كفرهم بالرسول ما نزل من الحق، ولكنهم يخادعونكم ـ كما قال تعالى في آية البقرة: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٧٦]

---

(١) تفسير القاسمي: ١٨٣/٤.

(٢) تفسير المنار: ٣٧٢/٦.

٣. ﴿وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ﴾ عند دخولهم من قصد تسقط الأخبار، والتوسل إليه بالنفاق والخداع، وعند خروجهم من الكيد والمكر والكذب الذي يلقونه إلى البعداء منم قومهم كما تقدم قريبا في تفسير ﴿سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ﴾ [المائدة: ٤١]

٤. نكتة قوله: ﴿وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ﴾ هي تأكيد كون حالهم في وقت الخروج كحالهم في وقت الدخول، وإنما احتاج هذا التأكيد لمجيئه على خلاف الأصل لأن من كان يجالس الرسول الله ﷺ وأصحابه يسمع من العلم والحكمة ويرى من الفضائل ما يكبر في صدره ويؤثر في قلبه حتى إذا كان سيئ الظن رجع عن سوء ظنه ـ وأما سيء القصد فلا علاج له ـ وقد كان يجيئه الرجل يريد قتله، فإذا رآه وسمع كلامه آمن به وأحبه، وهذا هو المعقول الذي أيدته التجربة، وإنما شذ هؤلاء وأمثالهم، لأن سوء نيتهم وفساد طويتهم قد صرفا قلوبهم عن التذكر والاعتبار، ووجها كل قواهم إلى الكيد والخداع، والتجسس وما يراد به، فلم يبق لهم من الاستعداد ما يعقلون به تلك الآيات ويفقهون مغزى الحكم والآداب، ﴿مَا جَعَلَ اللهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ﴾ [الأحزاب: ٤]

المراغي:

ذكر أحمد بن مصطفى المراغي (ت ١٣٧١ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. بين الله تعالى حال المنافقين منهم فقال: ﴿وَإِذَا جَاءُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ﴾ أي وإذا جاءكم المنافقون من اليهود قالوا للرسول ولكم إننا آمنا بالرسول وما أنزل عليه، وحالهم الواقعة منهم أنهم دخلوا عليكم وهم مقيمون على الكفر والضلال وخرجوا وهم كذلك، فحالهم عند خروجهم كحالهم عند دخولهم لم يتحولوا عن كفرهم بالرسول وما نزل من الحق؟ ولكنهم قوم دأبهم الخداع والنفاق كما جاء في سورة البقرة: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمنوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللهُ عَلَيْكُمْ﴾ الآية.

٢. ﴿وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ﴾ حين دخولهم من قصد تسقّط الأخبار والتوسل إلى ذلك بالنفاق والخداع، وحين خروجهم من الكيد والمكر والكذب الذي يلقونه إلى البعداء من قومهم كما علمت

---

(١) تفسير المراغي ٦/١٥٠.

مما سلف عند قوله: ﴿سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ﴾

في قوله: ﴿وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ﴾ تأكيد لكونهم حين الخروج كما هم حين الدخول، واحتيج إليه لمجيئه على خلاف المعروف، لأن من كان يجالس الرسول ﷺ وأصحابه يسمع منه العلم والحكمة، ويرى من أحاسن أخلاقه ما يؤثّر في القلوب ويلين قاسيها ـ يرجع عن سوء عقيدته، وتصفو نفسه من كدورتها إلا إذا كان متعنتا مخادعا، فإن الذكرى لا تنفعه، والعظات والزواجر لا تؤثر فيه، وقد كان الرجل يجيء إلى النبي ﷺ يريد قتله حتى إذا رآه وسمع كلامه انجابت عن قلبه ظلمات الكفر والفسوق وآمن به وأحبه، وما شذّ هؤلاء إلا لسوء نيتهم، وفساد طويّتهم، وذلك ما صرف قلوبهم عن التذكر والاعتبار ووجّه هممهم إلى الكيد والخداع، فلم يكن لديهم عقول تعي وتفقه مغزى الحكم والآداب.

سيّد:

ذكر سيّد قطب (ت ١٣٨٥ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[1]:

١. يمضي السياق في التنفير من موالاتهم بعرض صفاتهم وسماتهم ـ بعد عرض تاريخهم وجزائهم ـ ويجيء التحذير والتوعية منهم بكشف ما يبيتون.. ويبرز اليهود كذلك في الصورة، لأن الحديث عن وقائع جارية، ومعظم الشر كان يجيء من قبل يهود: ﴿وَإِذَا جَاءُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ﴾

٢. إنها عبارات تنشئ صورا متحركة ومشاهد حية ـ على طريقة التعبير القرآنية الفريدة ـ ومن وراء القرون يملك قارئ هذه الآيات أن يشهد ـ بعين التصور ـ هؤلاء القوم الذين يتحدث عنهم القرآن من يهود ـ على الأرجح ـ فالسياق يتحدث عنهم، وإن كان من الجائز أنه يعني كذلك بعض المنافقين في المدينة.. يشهدهم يجيئون للمسلمين فيقولون: آمنا.. ويشهد في جعبتهم (الكفر) وهم يدخلون به ويخرجون؛ بينما ألسنتهم تقول غير ما في الجعبة من كفر يحملونه داخلين خارجين! ولعلهم من يهود أولئك الذين كانوا يبيتون البلبلة وهم يقولون بعضهم لبعض: آمنوا بهذا القرآن وجه النهار واكفروا آخره لعلهم يرجعون.. أي لعل المسلمين يرجعون عن دينهم بسبب هذه البلبلة والتشكيك الخبيث اللئيم.

---

(١) في ظلال القرآن: ٢/٩٢٨.

٣. ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ﴾، يقولها الله سبحانه لأنها الحقيقة؛ ثم لكي يطمئن المؤمنون إلى كلاءة ربهم لهم، وحفظهم من كيد عدوهم؛ وإحاطته علما بهذا الكيد المكتوم، ثم ليهدد أصحاب هذا الكيد لعلهم ينتهون!

الخطيب:

ذكر عبد الكريم الخطيب (ت ١٣٩٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. النفاق هو الصفة الغالبة على اليهود، فهو توأم الحسد الذي يملأ قلوبهم ضغينة وحقدا على الناس.. فهم إذا التقوا بالمؤمنين لأمر ما بيّتوه في صدورهم، أظهروا الإيمان حتى يطمئن إليهم المؤمنون، ويأمنوا جانبهم.. وهم على الحقيقة ليسوا من الإيمان في شيء..

٢. في قوله تعالى: ﴿وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ﴾ تغليظ لكفرهم، وتجسيم له، لكثافته، وإطباقه عليهم، حتى لكأنه يكاد يكون كائنا محسوسا، يعيش معهم كما يعيش بعضهم مع بعض.. ﴿وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ﴾.. إنه أشبه بالوليد تحمله أمّه على صدرها، حتى لكأنه قطعة منها، تغدو به، وتروح به، لا تدعه بعيدا عنها لحظة واحدة.. وقد حسبوا أنهم أخفوا هذا الكفر الذي يحملونه في صدورهم، ولكن الله أعلم بما يكتمون، لا تخفى على الله منهم خافية.

ابن عاشور:

ذكر محمد الطاهر بن عاشور (ت ١٣٩٣ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[٢]:

١. عطف ﴿وَإِذَا جَاءُوكُمْ﴾ على قوله: ﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوًا﴾ [المائدة: ٥٨] الآية، وخصّ بهذه الصّفات المنافقون من اليهود من جملة الّذين اتّخذوا الدّين هزوءا ولعبا، فاستكمل بذلك التّحذير ممّن هذه صفتهم المعلنين منهم والمنافقين، ولا يصحّ عطفه على صفات أهل الكتاب في قوله: ﴿وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ﴾ [المائدة: ٦٠] لعدم استقامة المعنى، وبذلك يستغني عن تكلّف وجه لهذا العطف.

٢. معنى قوله: ﴿وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ﴾ أنّ الإيمان لم يخالط قلوبهم طرفة عين، أي هم دخلوا كافرين وخرجوا كذلك، لشدّة قسوة قلوبهم، فالمقصود استغراق الزمنين وما بينهما، لأنّ

---

(١) التفسير القرآني للقرآن: ٣/١١٣٠.

(٢) التحرير والتنوير: ٥/١٤٥.

ذلك هو المتعارف، إذ الحالة إذا تبدّلت استمرّ تبدّلها، ففي ذلك تسجيل الكذب في قولهم: آمنّا، والعرب تقول: خرج بغير الوجه الذي دخل به.

أبو زهرة:

ذكر محمد أبو زهرة (ت ١٣٩٤ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. بعد أن ذكر سبحانه وتعالى في الآية السابقة بعض صفات اليهود، وضعف من يواليهم، ويركن إليهم، إذ يركن إلى الذين ظلموا فتمسهم النار، وذكر طبائعهم الحيوانية التي تشبه الخنازير في شراهتها، والقرود في نزواتها، بيّن بعض ما يترتب على هذه الدخيلة من مظاهر في أعمالهم.

٢. وأولها النفاق في أقوالهم، وأكلهم سحت المال في معاملاتهم، ومسارعتهم إلى كل معصية وعدوان، ولذا قال سبحانه: ﴿وَإِذَا جَاءُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ﴾ الخطاب للنبي ﷺ والمؤمنين، وقد كان ذلك يتكرر منهم استهزاء وسخرية أو نفاقا، ومخادعة أو الأمران معا، كان ذلك يتكرر منهم، ولم يكن مرة أو اثنتين، بل كان يتكرر من غير عدد، ولذلك قال سبحانه في أحوالهم: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ [البقرة]، وقال سبحانه وتعالى فيهم: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ اللهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [البقرة]

٣. وكان الخطاب للنبي ﷺ والمؤمنين ليذكرهم بصفات المنافقين واليهود، وليؤكد لهم أنهم لا يصلحون أن يكونوا أولياء لكم؛ لأن الولي النصير أو المحب يجب أن يفتح قلبه لك، ويخلص لك الود، ويمحض لك المحبة، واليهودى ومحبته للناس نقيضان لا يجتمعان، فلا تتخذوا منهم معشر المؤمنين أولياء؛ لأنه لا ولاء لمنافق، ولا محبة من حقود حاسد، وقد كان ذلك تصويرا لحالهم، في نفاقهم يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم.

٤. وقد صور ذلك سبحانه بقوله تعالت كلماته: ﴿وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ﴾، أي

---

(١) زهرة التفاسير: ٥/٢٢٦٩.

أنهم كانوا على ما هم عليه عندما دخلوا وعند ما خرجوا دخلوا كافرين، و﴿قَدْ﴾ قال النحويون: تكون للتكثير أو للتقليل عندما تدخل على المضارع، وتكون للتقريب أو التحقيق عندما تدخل على الماضي ورأى أن أكثر استعمال القرآن الكريم لها للتحقيق، لا للتقليل ولا للتكثير، ولذلك يقول سبحانه: ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الأحزاب]، ويقول تعالت كلماته: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ﴾ [الأنعام]، وواضح أن ﴿قَدْ﴾ في الماضي للتحقيق في قوله تعالى حكاية عن قول سيدنا المسيح يوم القيامة: ﴿قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ﴾ [المائدة]، ألا ترى أن قد دخلت على علم الله تعالى وهو مؤكدا إذا حصل موضوعه، و﴿قَدْ﴾: هنا قال المفسرون للتقريب، أي أنها قربت الماضي من الحال القائمة، والجملة الماضوية لا تكون حالا إلا إذا جاء معها قد، ليكون معنى التقريب قائما، وهو تقريب الحال القائمة من الماضي المستقر، والمعنى أنهم دخلوا كافرين، وخرجوا كافرين، وأرى أن ﴿قَدْ﴾ هنا للتحقيق، وتأكيد المعنى، والباء للمصاحبة، والمعنى دخلوا مصاحبين لكفرهم المؤكد وخرجوا مصاحبين للكفر المؤكد، وقد تأكدت حالهم الأولى: بالتعبير بقد، وتأكدت حالهم وهي الخروج بالكفر بقد وبهم، فكان تأكيد مصاحبتهم للكفر وهم خارجون أقوى من تأكيدها وهم داخلون، وهذا للإشارة إلى أنهم ما دخلوا بقلب سليم، بل دخلوا مخادعين منافقين، ودخولهم على هذه النية المحتسبة عليهم تزيدهم كفرا ونفاقا، لأنهم كلما لاح دليل زادهم عنتا، وزادهم كفرا على كفرهم، والتعبير بـ (هم) الدالة على القصر فيه إشارة إلى أنهم مقصورون في خروجهم على الكفر ليس لهم حال سواه، وذلك فضل تأكيد.

٥. ﴿وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ﴾ صدر الله سبحانه وتعالى النص الكريم بلفظ الجلالة لتربية المهابة، ولبيان أنه الناصر والولي الذى لا يخفى عليه شيء في الأرض، ولا في السماء، وأن تدبيره فوق كل تدبير، وعلمه فوق كل علم، وأفعل التفضيل ليس على بابه، لأنه لا يوجد من يكون علمه من جنس علمه، حتى يكون علم أكبر وأعظم، بل المراد ـ والله سبحانه وتعالى العليم ـ أن الله تعالى يعلم ما يخفون علما لا يدانيه علم، وليس فوقه علم، وهو أعلى ما يتصور من علم، فعبر بأفعل التفضيل تقريبا لا تحقيقا.

٦. والتعبير بقوله تعالت كلماته: ﴿بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ﴾، بالجمع بين الماضي والمستقبل يفيد أنه يعلم بما كتموه في الماضي وما يكتمونه في الحاضر والقابل، فهو سبحانه يعلم ماضي أمرهم، وحاضره، ومغيبه،

ولفظة كانوا على هذا المعنى تفيد العلم المستمر.

مُغْنِيَّة:

ذكر محمد جواد مُغْنِيَّة (ت ١٤٠٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. ﴿وَإِذَا جَاءُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ﴾، كان منافقو اليهود يدخلون على النبي ﷺ، ويقولون له: نحن بك من المؤمنين، وهم كاذبون في أقوالهم، وقد عبر سبحانه عن نفاقهم هذا بأنهم دخلوا على النبي بالكفر، وخرجوا من عنده بالكفر.. ويشعر هذا التعبير بأنهم لو كانوا طلاب حق لخرجوا مؤمنين من عند الرسول بعد أن سمعوا ورأوا البينات والدلائل.

٢. ﴿وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ﴾ من الكفر والنفاق ويجازيهم عليه بما يستحقون.

الطباطبائي:

ذكر محمد حسين الطباطبائي (ت ١٤٠٢ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[٢]:

١. ﴿وَإِذَا جَاءُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ﴾ يشير تعالى إلى نفاق قلوبهم وإضمارهم ما لا يرتضيه الله سبحانه في لقائهم المؤمنين فقال: ﴿وَإِذَا جَاءُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا﴾ أي أظهروا الإيمان والحال أنهم قد دخلوا عليكم مع الكفر وقد خرجوا من عندكم بالكفر أي هم على حالة واحدة عند الدخول والخروج وهو الكفر لم يتغير عنه وإنما يظهرون الإيمان إظهارا، والحال أن الله يعلم ما كانوا يكتمونه سابقا من الغدر والمكر، فقوله: ﴿وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ﴾ في معنى قولنا: لم يتغير حالهم في الكفر، والضمير في قوله: ﴿هُمْ قَدْ خَرَجُوا﴾ جيء به للتأكيد، وإفادة تميزهم في الأمر وتثبيت الكفر فيهم.

٢. وربما قيل: إن المعنى أنهم متحولون في أحوال الكفر المختلفة.

الحوثي:

ذكر بدر الدّين الحوثي (ت ١٤٣١ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[٣]:

---

(١) التفسير الكاشف: ٣/٨٩.

(٢) الميزان في تفسير القرآن: ٦/٣١.

(٣) التيسير في التفسير: ٢/٣٣٦.

١. ﴿وَإِذَا جَاءُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ﴾ أي هؤلاء الذي نهاكم الله عن اتخاذهم أولياء الذين اتخذوا دينكم هزؤاً ولعباً ﴿إِذَا جَاءُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا﴾ استهزاءً بكم؛ لأنهم قالوا ذلك وقد دخلوا مضمرين للكفر، مصرين عليه، مصاحبين له، وهم وإن قالوا: ﴿آمَنَّا﴾ قد خرجوا من عندكم بالكفر كما دخلوا به.

٢. ﴿وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ﴾ في الماضي قبل مجيئهم وعند دخولهم وخروجهم، فكيف تتخذونهم أولياء وقد نهاكم العليم الخبير!؟

فضل الله:

ذكر محمد حسين فضل الله (ت ١٤٣١ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي(١):

١. يعود الحديث إلى ملامح النفاق في سلوكهم، فهم يتلونون بكلمات الكفر والإيمان، تبعا لمطامعهم وشهواتهم، ﴿وَإِذَا جَاءُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكُفْرِ﴾ لأنّهم كانوا يحملونه في جوانحهم، وفي أعماق قلوبهم، وفي آفاق أفكارهم، ﴿وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ﴾ لأنّ تلك الكلمات الاستعراضية لم تكن موقفا يلتزمونه، بل كانت نفاقا يمارسونه، ليتخلصوا من إحراج الأجواء المحيطة بهم، ولينفذوا إلى داخل المجتمع من موقع حميم، ولكنّ حيلتهم لا تخفى، وخططهم لا تنجح.

٢. ﴿وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ﴾، لأنّه الرب ﴿اللهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ [آل عمران: ٥] ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [المائدة: ٤٠]

الشيرازي:

ذكر ناصر مكارم الشيرازي في تفسير هذا المقطع ما يلي(٢):

الآية الكريمة ـ واستكمالا للبحث الذي تناولته الآيات السابقة حول المنافقين ـ تكشف عن ظاهرة الازدواجية النفاقية عند هؤلاء، وتنبّه المسلمين إلى أنّ المنافقين حين يأتونهم يتظاهرون بالإيمان وقلبهم يغمره الكفر، ويخرجون من عندهم المسلمين ولا يزال الكفر يملأ قلوبهم، حيث لا يترك منطق المسلمين

---

(١) من وحي القرآن: ٨/٢٤٤.

(٢) تفسير الأمثل: ٤/٦٩.

واستدلالهم وكلامهم في نفوس هؤلاء المنافقين أي أثر يذكر.

١. ولذلك يجب على المسلمين أن لا ينخدعوا بهؤلاء الذين يتظاهرون بالحقّ والإيمان، ويبدون القبول لأقوال المسلمين رياء وكذبا، وتؤكّد الآية أنّ المنافقين مهما تستروا على نفاقهم، فإنّ الله يعلم ما يكتمون.

٦٢. الآثام ونهي الربانيين والأحبار عنها

نتناول في هذا الفصل ما ذكره المفسّرون ـ بحسب التسلسل التاريخي، والمدارس الإسلامية المختلفة ـ حول تفسير المقطع [٦٢] من سورة المائدة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَتَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ [المائدة: ٦٢ ـ ٦٣]، مع العلم أنّا نقلنا المباحث التي لا علاقة لها ـ كبرى أو مباشرة ـ بالتفسير التحليلي إلى محالّها من كتب السلسلة.

علي:

روي عن الإمام علي (ت ٤٠ هـ) أنّه قال في خطبته: أيها الناس، إنما هلك من هلك قبلكم بركوبهم المعاصي، ولم ينههم الربانيون والأحبار، فلما تمادوا في المعاصي، ولم ينههم الربانيون والأحبار؛ أخذتهم العقوبات، فمروا بالمعروف، وانهوا عن المنكر، قبل أن ينزل بكم مثل الذي نزل بهم، واعلموا أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا يقطع رزقا، ولا يقرب أجلا[١].

ابن عباس:

روي عن ابن عباس (ت ٦٨ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال: ﴿لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ﴾، قال: فهلا ينهاهم الربانيون والأحبار! وهم الفقهاء والعلماء[٢].

٢. روي أنّه قال: ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾، يعني: الربانيين في تركهم ذلك[٣].

٣. روي أنّه قال: ما في القرآن آية أشد توبيخا من هذه الآية: (لولا ينهاهم الربانيون والأحبار عن قولهم العدوان وأكلهم السحت لبئس ما كانوا يعملون) هكذا قرأ[٤].

---

(١) ابن أبي حاتم ٤/١١٦٦.

(٢) ابن أبي حاتم ٤/١١٣٩.

(٣) ابن جرير ٨/٥٥١.

(٤) عزاه السيوطي إلى ابن جرير وأبي الشيخ، وعند ابن جرير ٨/٥٥١: (عن قولهم الإثم)،والقراءة شاذة.

الضحاك:

روي عن الضحاك بن مزاحم (ت ١٠٢ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال: ﴿لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ﴾ الربانيون والأحبار: فقهاؤهم وقراؤهم وعلماؤهم.. ما أخوفني من هذه الآية![1].

٢. روي أنّه قال: ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ حيث لا ينهونهم عن قولهم الإثم، وأكلهم السحت[2].

٣. روي أنّه قال: ما في القرآن آية أخوف عندي من هذه الآية: ﴿لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾، أساء الثناء على الفريقين جميعا[3].

البصري:

روي عن الحسن البصري (ت ١١٠ هـ) أنّه قال: ﴿وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ﴾ هو أخذ الرشوة على الحكم[4].

مجاهد:

روي عن مجاهد (ت ١٠٤ هـ) أنّه قال: ﴿لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ﴾ الربانيون: هم الفقهاء العلماء، وهم فوق الأحبار[5].

الباقر:

روي عن الإمام الباقر (ت ١١٤ هـ) أنه قيل له: بلغني أنك تقول: من طلق لغير السنة أنك لا ترى طلاقه شيئا؟فقال: ما أقوله، بل الله عز وجل يقوله، أما والله لو كنا نفتيكم بالجور، لكنا شرا منكم، لأن الله عز وجل يقول: ﴿لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ﴾ الآية[6].

---

(١) ابن جرير ٨/٥٤٩.

(٢) ابن جرير ٨/٥٥١.

(٣) ابن المبارك (٥٧).

(٤) تفسير ابن أبي زمنين ٢/٣٦.

(٥) سعيد بن منصور في سننه ٤/١٥٠٢.

(٦) الكافي ٦/٥٧.

قتادة:

روي عن قتادة بن دعامة (ت ١١٧ هـ) أنّه قال: ﴿وَتَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ﴾، قال: كان هذا في أحكام اليهود بين أيديكم[(١)].

زيد:

روي عن الإمام زيد (ت ١٢٢ هـ) أنّه قال: ﴿لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ﴾ [المائدة: ٦٣] معناه هلّا.. والأحبار: الفقهاء.. والرّبانيون: فوق الأحبار[(٢)].

ابن هبيرة:

روي عن عبد الله بن هبيرة السبئي (ت ١٢٦ هـ) أنّه قال: ﴿وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ﴾ مهر البغي، وما كان يأخذ الكاهن على كهانتهم[(٣)].

الصادق:

روي عن الإمام الصادق (ت ١٤٨ هـ) أنه قيل له: إن عمر بن رياح زعم أنك قلت: (لا طلاق إلا ببينة؟)، فقال: ما أنا قلته، بل الله تبارك وتعالى يقول، إنا والله لو كنا نفتيكم بالجور، لكنا أشر منكم، إن الله يقول: ﴿لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ﴾[(٤)].

السدي:

روي عن إسماعيل السدي الكوفي (ت ١٢٧ هـ) أنّه قال: ﴿وَتَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ [المائدة: ٦٢]، الإثم: الكفر[(٥)].

ابن أسلم:

روي عن زيد بن أسلم (ت ١٣٦ هـ) أنّه قال: السحت: الحرام كله، والرشوة من السحت[(٦)].

---

(١) ابن جرير ٨/٥٤٨.

(٢) تفسير الإمام زيد، ص ١٢٩.

(٣) ابن أبي شيبة في مصنفه ١١/٣٧٢.

(٤) تفسير العيّاشي ١/٣٣٠.

(٥) ابن جرير ٨/٥٤٨.

(٦) عبد الله بن وهب في الجامع. تفسير القرآن ٢/١٦١.

مقاتل:

روي عن مقاتل بن سليمان (ت ١٥٠ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال: ﴿وَتَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الْإِثْمِ﴾ يعني: المعصية، ﴿وَالْعُدْوَانِ﴾ يعني: الظلم، وهو الشرك، ﴿وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ﴾ يعني: كعب بن الأشرف؛ لأنه كان يرشي في الحكم، ويقضي بالجور، ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[1].

٢. روي أنّه قال: ﴿لَوْلَا﴾ يعني: فهلا ﴿يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ﴾ يعني بالربانيين: المتعبدين، والأحبار يعني: القراء الفقهاء، أصحاب القربان من ولد هارون عليه السلام، وكانوا رءوس اليهود[2].

٣. روي أنّه قال: ﴿عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ﴾ يعني: الشرك، ﴿وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ﴾ يعني: الرشوة في الحكم[3].

٤. روي أنّه قال: ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ حين لم ينهوهم، فعاب من أكل السحت: الرشوة في الحكم، وعاب الربانيين الذين لم ينهوهم عن أكله[4].

ابن زيد:

روي عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم (ت ١٨٢ هـ) أنّه قال: ﴿وَتَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ هؤلاء اليهود، ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ﴾ إلى قوله: ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ قال: يصنعون ويعملون واحد، قال لهؤلاء حين لم ينهوا كما قال لهؤلاء حين عملوا، وذلك الإركان[5].

الماتريدي:

ذكر أبو منصور الماتريدي (ت ٣٣٣ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[6]:

---

(١) تفسير مقاتل ابن سليمان ١/٤٨٩.

(٢) تفسير مقاتل ابن سليمان ١/٤٩٠.

(٣) تفسير مقاتل ابن سليمان ١/٤٩٠.

(٤) تفسير مقاتل ابن سليمان ١/٤٩٠.

(٥) ابن جرير ٨/٥٤٩.

(٦) تأويلات أهل السنة: ٣/٥٥٠.

١. ﴿وَتَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ يحتمل أن يكون قوله: ﴿وَتَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ﴾: من ملوكهم وعوامهم، ﴿يُسَارِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾، أي: في قول الكفر والعدوان، والعدوان: هو المجاوزة عن الحد الذي حد لهم، ويسارعون ـ أيضًا ـ في أكل السحت، والسحت، قيل: هو كل محرم، وقيل: هو الرشوة في الحكم، وعن عمر أنه قال الرشوة: هي الكفر، وأما السحت: هو أن يرفع حاجة أخيه إلى السلطان فيأكل عنده، وقد ذكرنا هذا فيما تقدم.

٢. ثم قال على أثر ذلك: قوله تعالى: ﴿لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ عاتب الله عز وجل الربانيين والأحبار عن تركهم نهي أُولَئِكَ عن صنيعهم، وأشركهم في الإثم شرعا سواء؛ ليعلموا أن العامل بالإثم والمعصية والراضي به والتارك النهي عن ذلك ـ سواء، وفيه دلالة أن تارك النهي عن المنكر يلحقه من الإثم ما يلحق الفاعل به، والربانيون والأحبار قد ذكرنا فيما تقدم.

الديلمي:

ذكر الإمام الناصر الديلمي (ت ٤٤٤ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. ﴿وَتَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الْإِثْمِ﴾ يريد بالإثم في معصية الله عز وجل ﴿وَالْعُدْوَانِ﴾ ظلم الناس ﴿وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ﴾ وقد ذكرناه.

٢. ﴿لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ ومعنى لولا أي هلاَّ روينا عن أمير المؤمنين أنه قال: ما في القرآن آية أعظم توبيخاً ولا أشد تعنيفاً للعلماء من هذه الآية.

الماوردي:

ذكر أبو الحسن الماوردي (ت ٤٥٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[٢]:

١. ﴿وَتَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الْإِثْمِ﴾ يريد بالإثم معصية الله تعالى، ﴿وَالْعُدْوَانِ﴾ أي ظلم الناس، ﴿وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ﴾ فيه تأويلان:

---

(١) البرهان في تفسير القرآن للديلمي: ١/٢١٨.

(٢) تفسير الماوردي: ٢/٥٠.

أ. أحدهما: الرُّشا.

ب. الثاني: الربا.

٢. ﴿لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ أي لبئس صنيع الربانيين والأحبار إذ لم ينهوهم، قال ابن عباس والضحاك: ما في القرآن آية أشد توبيخاً للعلماء من هذه الآية، وكان ابن عباس يقرؤها: ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾، وقوله: ﴿لَوْلَا﴾ بمعنى هلا، والربانيون: هم علماء الإنجيل، والإحبار: هم علماء التوراة.

الطوسي:

ذكر أبو جعفر الطوسي (ت ٤٦٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. وصف الله تعالى المنافقين الذين تقدم وصفهم لنبيه ﷺ بأنه ﴿تَرى كَثِيراً مِنْهُمْ يُسارِعُونَ﴾ أي يبادرون في الإثم والعدوان:

أ. قال السدي: الإثم الكفر.

ب. وقال غيره: وهو يقع على كل معصية وهو الأولى.

٢. والفرق بين الإثم والعدوان:

أ. أن الإثم الجرم كائنا ما كان، والعدوان الظلم، فهم يسارعون في ظلم الناس وفي الجرم الذي يعود عليهم بالوبال والخسران.

ب. وقيل: العدوان من عدوهم على الناس بما لا يحل، وقيل ـ لمجاوزتهم حدود الله وتعديتهم إياها، ويقال قائم إذا تحرج من الإثم، والآثم الفاعل للإثم والسحت الرشوة في الحكم ـ في قول الحسن ـ وأصله استئصال القطع فيكون من هذا لأنه يقتضي عذاب الاستئصال ويتكرر لأنه يقتضي استئصال المال بالذهاب.

٣. وإنما قال: ﴿يُسَارِعُونَ﴾ بدل قوله: (يعجلون) وان كانت العجلة أدل على الذم لأمرين:

أ. أحدهما: أنهم يبادرون إليه كالمبادرة إلى الحق، فأفاد (يسارعون) أنهم يعملون كأنهم محقون فيه.

---

(١) تفسير الطوسي: ٥٧٨/٣.

ب. والآخر: لإزالة إيهام أن الذم من جهة العجلة، وإيجابه في الإثم والعدوان.

٤. وقوله: ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ يدل على أن الحمد والذم يكونان للأفعال، لأنه بمنزلة بئس العمل عملهم، وهذا ذم لذلك العمل إلا أنه جرى على طريقة الحقيقة أو طريقة المجاز بدليل آخر يعلم، وقد كثر استعماله حتى قيل الأخلاق المحمودة والأخلاق المذمومة، ونعم ما صنعت وبئس ما صنعت وأصل الذم واللوم واحد إلا أن الذم كثر في نفس العمل دون اللوم، لأنه لا يقال: لمت عمله كما يقال ذممت عمله.

٥. و(ما) في قوله: (لبئس ما) يحتمل أمرين:

أ. أحدهما: أن تكون كافة كما تكون في انما زيد منطلق وليتما عمرو قائم، فلا يكون لها على هذا موضع.

ب. الثاني: أن تكون نكرة موصوفة كأنه قيل: لبئس شيئاً كانوا يعملون.

٦. ﴿لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ معنى (لو لا) ها هنا هلا، وأصلها أن يمتنع الشيء لوجود غيره، (لو) معناها امتناع الشيء لامتناع غيره، وقال الرماني أصلها التقدير لوجوب الشيء عن الأول فنقلت إلى التحضيض على فعل الثاني من أجل الأول، وان لم يذكر ولا بد معها من دلالة دخلها معنى: لم لا يفعل.

٧. سؤال وإشكال: كيف تدخل (لولا) على الماضي وهي للتحضيض وفي التحضيض معنى الأمر!؟ والجواب: لأنها تدخل للتحضيض والتوبيخ، فإذا كانت مع الماضي فهي توبيخ كقوله تعالى: ﴿لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ﴾، وقوله: ﴿لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا﴾

٨. و(الرباني) العالم بالدين الذي من قبل الرب، وهو منسوب إلى الرب على وجه تغيير الاسم، كما قالوا روحاني في النسبة إلى الروح، وبحراني في النسبة إلى البحر، وقال الحسن (الربانيون) علماء أهل الإنجيل والأحبار علماء أهل التوراة، وقال غيره كله في اليهود، لأنه يتصل بذكرهم.

٩. وقوله: (لبئس ما) اللام فيه لام القسم ولا يجوز أن تكون لام الابتداء، لأنها لا تدخل على الفعل إلا في باب (أن) خاصة لأنها زحلقت عن الاسم إلى الخبر لئلا يجمع بين حرفين في موضع واحد بمعنى واحد والصنع والعمل واحد، وقيل الفرق بينهما أن الصنع مضمن بالجودة من قولهم: ثوب صنيع،

وفلان صنيعة فلان إذا استخلصه إلى غيره وصنع الله لفلان أي أحسن إليه وكل ذلك كالفعل الجيد.

الجشمي:

ذكر الحاكم الجشمي (ت ٤٩٤ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. شرح مختصر للكلمات:

أ. الإثم والجرم والذنب من النظائر، وأثم فهو آثم وأثيم، ويقال: تَأَثَّمَ: إذا تحرج من الإثم وكف عنه، والأثام مقصورًا: الاسم، والأثوم الكذوب، ورجل أثيم وأَثُومٌ أي محتمل للآثام، والأثام جزاء الإثم، ومنه ﴿يَلْقَ أَثَامًا﴾ يقال: أَثَمَهُ يَأْثُمُهُ: إذا جازاه جزاء إثمه، وقيل: الإثم الخمر أيضا.

ب. الصنع والجَعْل والعمل نظائر غير أن في الصنع تضمين الجودة، ومنه: ثوب صنيع، وصنع الله إلى فلان: أحسن الله إليه.

ج. العدوان: الظلم فجمع بينهم في وصفهم بَيْنَ أنهم يسارعون في ظلم الناس وفي الجرم الذي يعود وباله عليهم.

د. السحت: أصله الاستئصال، ومنه ﴿فَيُسْحِتَكُمْ﴾ أي: يستأصلكم.

هـ. النهي، ضد الأمر، وهو قول القائل لمن دونه: لا تفعل إذا كره المنهي عنه، واختلفوا فمنهم من قال النهي في الشرع يدل على الفساد، ومنهم من قال لا يدل.

٢. ثم بَيَّنَ تعالى أنهم مع نفاقهم يضمون إليه خصالاً مذمومة، فقال سبحانه: ﴿وَتَرَى﴾ يا محمد ﴿كَثِيرًا مِنْهُمْ﴾ قيل: المراد بالكثير الرؤساء علماء السوء ﴿يُسَارِعُونَ﴾ يبادرون يعني يَقْدُمُون على هذه الخصال، كمن لا يبالي، وإنما قال يسارعون، ولم يقل: يعجلون ـ وإن كانت العجلة أدل على الذم ـ لوجهين:

أ. أحدهما أنهم يبادرون إليه كالمبادرة إلى الحق، فأفاد ﴿يُسَارِعُونَ﴾ أنهم يعملونه كأنهم محقون فيه.

ب. الثاني: لإزالة الإيهام بأن الذم من جهة العجلة؛ إذ الذم لأجل الإثم والعدوان.

٣. ﴿فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ أي في فعل ذلك، والإثم: الإجرام والمعاصي، والعدوان:

أ. قيل: الظلم.

---

(١) التهذيب في التفسير: ٣/٣٤٦.

ب. وقيل: مجاوزتهم حدود الله وتعديهم إياها.

٤. ﴿وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ﴾:

أ. قيل: الرشوة في الحكم، عن السدي.

ب. وقيل: الحرام، عن الأصم وأبي علي.

٥. ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي بئس العمل عملهم ﴿لَوْلَا يَنْهَاهُمُ﴾ أي هلا ينهاهم، والكناية فيهم تعود إلى الأكثر، وقد تقدم ذكرهم ﴿الرَّبَّانِيُّونَ﴾:

أ. قيل: العلماء بالدين منسوب إلى الرب، نحو روحاني ونجواني.

ب. وقيل: الربانيون الزهاد.

٦. ﴿وَالْأَحْبَارُ﴾ العلماء:

أ. وقيل: الربانيون علماء أهل الإنجيل، والأحبار علماء أهل التوراة، عن الحسن.

ب. وقيل: كلهم من اليهود؛ لأنه متصل بذكرهم.

٧. ﴿عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ﴾:

أ. قيل: تحريفهم الكتاب.

ب. وقيل: كلما قالوا بخلاف الحق.

٨. ﴿وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ﴾ الحرام والرشوة ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ أي بئس الصنيع صنيعهم حيث أجمعوا على معصية الله إما ثابت على الإثم أو كاتم للحق أو تارك للنهي.

٩. تدل الآية الكريمة على:

أ. وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

ب. أن تارك النهي عن المنكر مع التمكن كمرتكبه في أن كل واحد ساء صنعه.

ج. أن أخذ الرشا في الحكم سُحْتٌ، وسئل عمر بن الخطاب عن ذلك فقال: هو كفر، وإنما السحت أن تطلب الجاه إلى ذي سلطان لأخيك ثم تأكل ماله، وقيل: ليس آية في القرآن أشد تخويفًا للعلماء منها.

د. أن أفعال العباد حادثة من جهتهم من وجوه:

• منها: أنه وصفهم بالمسارعة.

• ومنها: وصفه بأنه عملهم وصنيعهم.

• ومنها: أنه أضاف السحت إليهم.

• ومنها: وصفه إياهم بقول الإثم.

• ومنها: توبيخهم وذمهم.

• ومنها: إضافة الكتمان إليهم.

د. أن الاستطاعة قبل الفعل من وجوه:

• منها: قوله: ﴿لَوْلَا يَنْهَاهُمُ﴾ دل أنهم كانوا ممكنين من ذلك حتى يصح الكلام؛ إذ لا يقال للأعمى: هلا نَقَطْتَ المصحف، وللمُقْعد: هلا مشيت.

• ومنها: أنه ذمهم على ترك النهي، ولو نَهَوْا ولم يقدر أولئك على ذلك فما معنى النهي.

• ومنها: أنه وبخهم وذمهم، ويستحيل ذم مَنْ لا يَقْدِرُ.

• ومنها: أنه لو كانت القدرة موجبة لكان صُنْعُهُم فِعْلَ الله تعالى كالعلة والمعلول، فكان لا يصح أن يقال: ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾؛ لأن ذلك صنعه.

١٠. قراءة العامة ﴿الرَّبَّانِيُّونَ﴾ وقرأ أبو واقد الليثي الرِّبِّيُّون) كقوله: ﴿مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ﴾

١١. مسائل لغوية ونحوية:

أ. في موضع ﴿مَا﴾ في قوله: ﴿لَبِئْسَ مَا﴾ وجهان:

• الأول: أن تكون كافة، كقوله: إنما زيد منطلق، وعلى هذا لا يكون له موضع من الإعراب.

• الثاني: أن تكون نكرة موصوفة كأنه قيل: لبئس شيئًا كانوا يصنعون.

ب. معنى (لَوْلا) وهو حث على الفعل الثاني لأجل الأول، وتدخل على الماضي والمستقبل، فإذا دخل على المستقبل فهو للتخصيص، وإذا دخل على الماضي، فهو للتوبيخ، كقوله: ﴿لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ﴾، و﴿لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ﴾

ج. اللام في قوله: ﴿لَبِئْسَ﴾ لام القسم، ولا يجوز أن تكون لام الابتداء؛ لأنه لا يدخل على الفعل إلا في باب ﴿أَنْ﴾ خاصة.

الطَبرِسي:

ذكر الفضل الطَبرِسي (ت ٥٤٨ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. شرح مختصر للكلمات:

أ. الفرق بين الاثم والعدوان: إن الاثم الجرم كائنا ما كان، والعدوان الظلم.

ب. الصنع والعمل واحد، وقيل الفرق بينهما: إن الصنع مضمن بالجودة من قولهم ثوب صنيع، وفلان صنيعة فلان: إذا استخلصه على غيره، وصنع الله لفلان أي: أحسن إليه، وكل ذلك كالفعل الجيد.

٢. بين الله سبحانه أنهم يضمون إلى نفاقهم خصالا أخر ذميمة فقال: ﴿وَتَرَى﴾ يا محمد ﴿كَثِيرًا مِنْهُمْ﴾ قيل: المراد بالكثير: رؤساؤهم وعلماؤهم ﴿يُسَارِعُونَ﴾ يبادرون ﴿فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾:

أ. قيل: الاثم الكفر، عن السدي، والعدوان: مجاوزة حدود الله وتعديها.

ب. وقيل: الاثم كل معصية وهو الأولى، والعدوان: الظلم، أي: يسارعون في ظلم الناس، وفي الجرم الذي يعود عليهم بالوبال والخسران.

٣. ﴿وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ﴾ أي: الرشوة في الحكم، عن الحسن، وسماها سحتا:

أ. لأنه يؤدي إلى الاستئصال.

ب. ويقال: لأنها تذهب بالبركة من المال.

٤. قال أهل المعاني: أكثر ما تستعمل المسارعة في الخير كقوله تعالى: ﴿يُسَارِعُونَ﴾ وفائدة لفظة المسارعة وإن كان لفظ العجلة أدل على الذم أنهم يعملونه كأنهم محقون فيه، ولذلك قال ابن عباس في تفسيره: وإنهم يجترئون على الخطأ.

٥. ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي: لبئس العمل عملهم ﴿لَوْلَا يَنْهَاهُمُ﴾ أي: هلا ينهاهم، والكناية في هم تعود إلى الكثير ﴿الرَّبَّانِيُّونَ﴾:

أ. أي: العلماء بالدين الذين من قبل الرب على وجه تغير الاسم، كما قالوا روحاني بالنسبة إلى الروح، وبحراني بالنسبة إلى البحر.

ب. وقال الحسن: الربانيون علماء أهل الإنجيل، ﴿وَالْأَحْبَارُ﴾ علماء أهل التوراة.

---

(١) تفسير الطبرسي: ٣/٣٣٣.

ج. وقال غيره: كلهم من اليهود لأنه يتصل بذكرهم.

٦. ﴿عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ﴾:

أ. أي: عن تحريفهم الكتاب.

ب. وقيل: عن كل ما قالوه بخلاف الحق.

٧. ﴿وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ﴾ أي: الحرام والرشوة ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ أي: لبئس الصنع صنعهم، حيث اجتمعوا على معصية الله، وأنذر سبحانه علماءهم بترك التكبر عليهم، فيما ضيعوا منزلتهم، فذم هؤلاء بمثل اللفظة التي ذم بها أولئك.

٨. في هذه الآية دلالة على أن تارك النهي عن المنكر، بمنزلة مرتكبه، وفيه وجوب الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر.

٩. مسائل لغوية ونحوية:

أ. ﴿لَبِئْسَ﴾ اللام فيه: لام القسم، ولا يجوز أن يكون لام الابتداء، لأنها لا تدخل على الفعل إلا في باب إن خاصة، لأنها أخرت إلى الخبر، لئلا يجتمع حرفان متفقان في المعنى.

ب. قوله: ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ يدل على أن المدح والذم يكونان بالأفعال، لأنه بمنزلة لبئس العمل عملهم، وما يحتمل أمرين:

• أحدهما: أن تكون كافة كما تكون في إنما زيد منطلق، وليتما عمرو قائم، فلا يكون لها على هذا موضع

• الثاني: أن يكون نكرة موصوفة، كأنه قيل: لبئس شيئا كانوا يعملون.

(لولا) ههنا بمعنى هلا، قال علي بن عيسى: وأصلها التقرير لوجوب الشيء عن الأول، فنقلت إلى التحضيض على فعل الثاني، من أجل الأول، وإن لم يذكر لا، ولا بد معها من لا، لأنه دخلها معنى لم لا تفعل.

ج. سؤال وإشكال: كيف تدخل لولا على الماضي، وهي للتحضيض، وفي التحضيض معنى الامر، والجواب: لأنها تدخل للتحضيض والتوبيخ، فإذا كانت مع الماضي، فهو توبيخ كقوله تعالى: ﴿لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ﴾

ابن الجوزي:

ذكر أبو الفرج بن الجوزي (ت ٥٩٧ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. ﴿وَتَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ﴾ يعني: اليهود ﴿يُسَارِعُونَ﴾، أي: يبادرون ﴿فِي الْإِثْمِ﴾ وفيه قولان:

أ. أحدهما: أنه المعاصي، قاله ابن عباس.

ب. الثاني: الكفر، قاله السّدّيّ.

٢. فأمّا العدوان فهو الظّلم، وفي (السّحت) ثلاثة أقوال:

أ. أحدها: الرّشوة في الحكم.

ب. الثاني: الرّشوة في الدّين.

ج. الثالث: الرّبا.

٣. ﴿لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ﴾ (لو لا) بمعنى: (هلّا)، و(الربّانيون) مذكورون في آل عمران، و﴿وَالْأَحْبَارُ﴾ قد تقدّم ذكرهم في هذه السّورة، وهذه الآية من أشدّ الآيات على تاركي الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر، لأنّ الله تعالى جمع بين فاعل المنكر وتارك الإنكار في الذّمّ، قال ابن عباس: ما في القرآن آية أشدّ توبيخا من هذه الآية.

الرَّازي:

ذكر الفخر الرازي (ت ٦٠٦ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(٢)]:

١. ﴿وَتَرى كَثِيراً مِنْهُمْ يُسارِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ﴾:

أ. المسارعة في الشيء الشروع فيه بسرعة.

ب. قيل: الإثم الكذب، والعدوان الظلم، وقيل: الإثم ما يختص بهم، والعدوان ما يتعداهم إلى غيرهم.

ج. وأما أكل السحت فهو أخذ الرشوة، وقد تقدم الاستقصاء في تفسير السحت.

٢. في الآية فوائد:

---

(١) زاد المسير في علم التفسير: ١/٥٦٦.

(٢) التفسير الكبير: ١٢، ص: ٣٩٣.

أ. الأولى: أنه تعالى قال: ﴿وَتَرى كَثِيراً مِنْهُمْ﴾ والسبب أن كلهم ما كان يفعل ذلك، بل كان بعضهم يستحيي فيترك.

ب. الثانية: أن لفظ المسارعة إنما يستعمل في أكثر الأمر في الخير، قال تعالى: ﴿يُسارِعُونَ فِي الْخَيْراتِ﴾ [آل عمران: ١١٤]، وقال تعالى: ﴿نُسارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْراتِ﴾ [المؤمنون: ٥٦] فكان اللائق بهذا الموضع لفظ العجلة، إلا أنه تعالى ذكر لفظ المسارعة لفائدة، وهي أنهم كانوا يقدمون على هذه المنكرات كأنهم محقون فيه.

ج. الثالثة: لفظ الإثم يتناول جميع المعاصي والمنهيات، فلما ذكر الله تعالى بعده العدوان وأكل السحت دلّ هذا على أن هذين النوعين أعظم أنواع المعصية والإثم.

٣. ﴿لَوْلا يَنْهاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ ما كانُوا يَصْنَعُونَ﴾:

أ. معنى لَوْلا هاهنا التحضيض والتوبيخ، وهو بمعنى هلا.

ب. الكلام في تفسير الربانيين والأحبار قد تقدم، قال الحسن: الربانيون علماء أهل الإنجيل، والأحبار علماء أهل التوراة، وقال غيره: كله في اليهود لأنه متصل بذكرهم.

٤. المعنى أن الله تعالى استبعد من علماء أهل الكتاب أنهم ما نهوا سفلتهم وعوامهم عن المعاصي، وذلك يدل على أن تارك النهي عن المنكر بمنزلة مرتكبه، لأنه تعالى ذم الفريقين في هذه الآية على لفظ واحد، بل نقول: إن ذم تارك النهي عن المنكر أقوى لأنه تعالى قال في المقدمين على الإثم والعدوان وأكل السحت ﴿لَبِئْسَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: ٦٢]، وقال في العلماء التاركين للنهي عن المنكر ﴿لَبِئْسَ ما كانُوا يَصْنَعُونَ﴾ والصنع أقوى من العمل لأن العمل إنما يسمى صناعة إذا صار مستقرا راسخا متمكنا، فجعل جرم العاملين ذنبا غير راسخ، وذنب التاركين للنهي عن المنكر ذنبا راسخا، والأمر في الحقيقة كذلك لأن المعصية مرض الروح، وعلاجه العلم بالله وبصفاته وبأحكامه، فإذا حصل هذا العلم وما زالت المعصية كان مثل المرض الذي شرب صاحبه الدواء فما زال، فكما أن هناك يحصل العلم بأن المرض صعب شديد لا يكاد يزول، فكذلك العالم إذا أقدم على المعصية دلّ على أن مرض القلب في غاية القوة والشدة، وعن ابن عباس: هي أشد آية في القرآن، وعن الضحاك: ما في القرآن آية أخوف عندي منها والله أعلم.

القرطبي:

ذكر محمد بن أحمد القرطبي (ت ٦٧١ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[1]:

١. ﴿وَتَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ﴾ يعني من اليهود ﴿يُسَارِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ أي يسابقون في المعاصي والظلم ﴿وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾، ﴿لَوْلَا﴾ بمعنى أفلا، ﴿يَنْهَاهُمُ﴾ يزجرهم، ﴿الرَّبَّانِيُّونَ﴾ علماء النصارى، ﴿وَالْأَحْبَارُ﴾ علماء اليهود قاله الحسن، وقيل الكل في اليهود، لأن هذه الآيات فيهم.

٢. ثم وبخ علماءهم في تركهم نهيهم فقال: ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ كما وبخ من يسارع في الإثم بقوله: ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ودلت الآية الكريمة على أن تارك النهي عن المنكر كمرتكب المنكر، فالآية توبيخ للعلماء في ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وقد مضى القول في هذا المعنى.. وروى سفيان ابن عيينة قال: حدثني سفيان بن سعيد عن مسعر قال بلغني أن ملكا أمر أن يخسف بقرية فقال: يا رب فيها فلان العابد فأوحى الله تعالى إليه: (أن به فابدأ فإنه لم يتمعر وجهه في ساعة قط)، وفي صحيح الترمذي: (إن الناس إذا رأوا الظالم ولم يأخذوا على يديه أو شك أن يعمهم الله بعقاب من عنده)، والصنع بمعنى العمل إلا أنه يقتضي الجودة، يقال: سيف صنيع إذا جود عمله.

الشوكاني:

ذكر محمد بن علي الشوكاني (ت ١٢٥٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[2]:

١. ﴿وَتَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الْإِثْمِ﴾ الخطاب لرسول الله ﷺ أو لكل من يصلح له، والضمير في ﴿مِنْهُمْ﴾ عائد إلى المنافقين أو اليهود أو إلى الطائفتين جميعا.

٢. ﴿يُسَارِعُونَ فِي الْإِثْمِ﴾ في محل نصب على الحال على أن الرؤية بصرية أو هو مفعول ثان لترى على أنها قلبية، والمسارعة: المبادرة، والإثم: الكذب أو الشرك أو الحرام، والعدوان: الظلم المتعدي إلى الغير أو مجاوزة الحدّ في الذنوب، والسحت: الحرام، فعلى قول من فسر الإثم بالحرام يكون تكريره للمبالغة.

٣. والربانيون علماء النصارى، والأحبار: علماء اليهود؛ وقيل: الكل من اليهود لأن هذه الآيات فيهم.

---

(١) تفسير القرطبي: ٦/٢٣٧.

(٢) فتح القدير: ٢/٦٥.

٤. ثم وبخ علماءهم في تركهم لنهيهم فقال: ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ وهذا فيه زيادة على قوله: ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ لأنّ العمل لا يبلغ درجة الصنع حتى يتدرّب فيه صاحبه، ولهذا تقول العرب: سيف صنيع: إذا جوّد عامله عمله، فالصنع هو العمل الجيد لا مطلق العمل، فوبخ سبحانه الخاصة، وهم العلماء التاركون للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بما هو أغلظ وأشدّ من توبيخ فاعل المعاصي، فليفتح العلماء لهذه الآية مسامعهم ويفرجوا لها عن قلوبهم، فإنها قد جاءت بما فيه البيان الشافي لهم بأن كفّهم عن المعاصي مع ترك إنكارهم على أهلها لا يسمن ولا يغني من جوع، بل هم أشدّ حالا وأعظم وبالا من العصاة، فرحم الله عالما قام بما أوجبه الله عليه من فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فهو أعظم ما افترضه الله عليه وأوجب ما أوجب عليه النهوض به، اللهم اجعلنا من عبادك الصالحين الآمرين بالمعروف الناهين عن المنكر الذين لا يخافون فيك لومة لائم، وأعنّا على ذلك وقوّنا عليه ويسّره لنا، وانصرنا على من تعدّى حدودك وظلم عبادك، إنه لا ناصر لنا سواك ولا مستعان غيرك، يا مالك يوم الدين، إياك نعبد وإياك نستعين.

أَطَّفِّيش:

ذكر محمد أَطَّفِّيش (ت ١٣٣٢ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. ﴿وَتَرَى﴾ تعلم، أو تشاهد، وهو أنسب لظهور حالهم، ﴿كَثِيرًا مِّنْهُمْ﴾ من المنافقين أو اليهود ﴿يُسَارِعُونَ﴾ أصله: المسارعة في الخير ففيه المبالغة بأنَّهم رغبوا في الشرِّ كأنَّه خيرٌ يُتسابق إليه، ﴿فِي الِاثْمِ﴾ الذنب فيما بينهم وبين الله، أو مطلق الذنب، ويقال: الكذب، لقوله: ﴿عَن قَوْلِهِمُ الِاثْمَ﴾، وَقِيلَ الإثم: الحرام، وقيل: الكذب بقولهم: (آمنَّا) إخبارًا كان أو إنشاء، إلَّا أنَّه إن كان إنشاء فالكذب باعتبار تضمُّنه الإخبار بحصول صفة الإيمان، وَقِيلَ: (الإثم): الكفر مطلقًا، ﴿وَالعُدْوَانِ﴾ الذنب بينهم وبين الخلق، أو خصوص الذنب المجاوز للحدِّ.

٢. ﴿وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ﴾ الحرام كالرُّشا، وما يؤكل على الدِّين وعلى إفساده، والربا، وعطفُه تخصيصٌ بعد تعميم، ﴿لَبِيسَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ هو المسارعة في الإثم والعدوان وأكل السحت.

(١) تيسير التفسير، أطفيش: ٤/٧٨.

٣. ﴿لَوْلَا يَنْهَاهُم﴾ تحضيض على النهي ﴿الرَّبَّانِيُّونَ﴾ العبَّاد ﴿وَالَاحْبَارُ﴾ العلماء، ومرَّ كلام فيهما، وهما من اليهود لأنَّ الكلام فيهم، وقيل الربَّانيُّون: علماءُ النصارى، والأحبار: علماء اليهود، ولا مانع من أن يؤمر نصرانيٌّ بنهي اليهود.

٤. ﴿عَن قَوْلِهِمُ الِاثْمَ﴾ نصب المفرد بالقول اعتبارًا لمعنى الذكر، أي: عن ذكرهم الإثم، أو لكونه بمعنى الجملة، أي: عن قولهم: القرآن غير حقٍّ؛ أو: محمَّد غير رسول؛ أو: ليس في التوراة كذا، وهو فيها؛ أو: معناه كذا، وليس كذلك؛ أو: فيها كذا، وليس فيها، وليس بمعنى المقول، وإلَّا لم ينصب المفرد.

٥. ﴿وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِيسَ﴾ والله لبئس، أو اللام للابتداء لشبه الفعل بالاسم لجموده، ﴿مَا كَانُواْ﴾ أي: الربَّانيُّون والأحبار، ﴿يَصْنَعُونَ﴾ من ترك النهي عن المنكر، وتركُ النهي منهم عن المنكر أشدُّ من أكل السحت وقول الإثم؛ ولذلك قال: ﴿يَصْنَعُونَ﴾ هنا، وهناك: ﴿يَعْمَلُونَ﴾؛ لأنَّ الصنعة ما كان عن تدبير وتفكُّر وإبرام، فهو راسخ، فبرسوخ ترك النهي زاد تركهم إيَّاه قبحًا على قول الإثم وأكل السحت، وأيضًا بعلمهم بالله وكُتُبِهِ يشتدُّ النهي في حقِّهم عن المنكر، فبتركه يشتدُّ القبح.

٦. يؤخذ من الآية الوعيد الشديد على مَن تَرَكَ النهيَ من علماء هذه الأمَّة، كما قال ابن عبَّاس والضحَّاك: ما في القرآن أشدُّ على العلماء من هذه الآية، وأيضًا المعصية لَذَّة للعاصي، ولا لَذَّة في ترك النهي فكيف يترك، فتاركه أقبح، وأيضًا يجترئ الناس على تلك المعصية وغيرها إذا ترك النهي فيزداد ذنب تارك النهي بذلك.

القاسمي:

ذكر جمال الدين القاسمي (ت ١٣٣٢ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. ﴿وَتَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ﴾ أي اليهود ﴿يُسَارِعُونَ فِي الْإِثْمِ﴾ أي: الحرام، كالكذب والعصيان من غير مبالاة من الله ولا من الناس ﴿وَالْعُدْوَانِ﴾ أي: الظلم والاعتداء على الناس ﴿وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ﴾ أي الحرام كالرشا، وخصه بالذكر مع اندراجه في الإثم للمبالغة في التقبيح، وفيه دلالة على تحريم الرشا، لأن ذلك ورد في كبرائهم أنهم يسترشون في تغيير الحكم ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ مما ذكر.

(١) تفسير القاسمي: ٤/١٨٣.

٢. ﴿لَوْلَا﴾ أي هلا ﴿يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ﴾ أي: الزهاد منهم والعبّاد ﴿وَالْأَحْبَارُ﴾ أي العلماء ﴿عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ﴾ أي الكذب ﴿وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ﴾ أي الرشوة، المفسدة أمر العالم كله.

٣. ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ من ترهبهم وتعلمهم لغير دين الله، أو من تركهم نهيهم، وهذا الذم المقول فيهم، أبلغ مما قيل في حق عامتهم، أولا: لأنه لما عبر عن الواقع المذموم من مرتكبي المناكير بالعمل في قوله: ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾، وعبّر عن ترك الإنكار عليهم حيث ذمه بالصناعة في قوله: ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ ـ كان هذا الذم أشد، لأنه جعل المذموم عليه صناعة لهم وللرؤساء، وحرفة لازمة، هم فيها أمكن من أصحاب المناكير في أعمالهم، وهذا معنى قول الزمخشريّ: كأنهم جعلوا آثم من مرتكبي المناكير، لأن كل عامل لا يسمى صانعا، ولا كل عمل يسمى صناعة، حتى يتمكن فيه ويتدرب وينسب إليه، وكأن المعنى في ذلك، أن مواقع المعصية معه الشهوة التي تدعوه إليها وتحمله على ارتكابها، وأما الذي ينهاه، فلا شهوة معه في فعل غيره، فإذا فرط في الإنكار كان أشد حالا من المواقع، ثم قال الزمخشري: ولعمري! إن هذه الآية مما يقذ السامع وينعى على العلماء توانيهم.

٤. وفي (الإكليل): في هذه الآية وجوب النهى عن المنكر على العلماء، اختصاص ذلك بهم، وقال البيضاويّ: فيها تحضيض لعلمائهم على النهي عن ذلك، فإن (لولا) إذا دخل على الماضي أفاد التوبيخ، وإذا دخل على المستقبل أفاد التحضيض:

أ. روى ابن جرير عن ابن عباس قال ما في القرآن آية أشدّ توبيخا من هذه الآية.

ب. وقال الضحاك: ما في القرآن آية أخوف عندي منها.

ج. وروى ابن أبي حاتم عن يحيي بن يعمر قال خطب عليّ بن أبي طالب، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أيها الناس! إنما هلك من كان قبلكم بركوبهم المعاصي ولم ينههم الربانيون والأحبار، فلما تمادوا أخذتهم العقوبات، فمروا بالمعروف وانهوا عن المنكر قبل أن ينزل بكم مثل الذي نزل بهم، واعلموا أنّ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا يقطع رزقا ولا يقرّب أجلا.

د. روى أحمد عن جرير قال: قال رسول الله ﷺ: ما من قوم يكون بين أظهرهم من يعمل بالمعاصي، هم أعزّ منه وأمنع، ولم يغيّروا، إلّا أصابهم الله منه بعذاب.

رضا:

ذكر محمد رشيد رضا (ت ١٣٥٤هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. ﴿وَتَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ﴾ أي ترى أيها الرسول أو أيها السامع كثيرا من هؤلاء اليهود الذين اتخذوا دين الحق هزؤا ولعبا يسارعون فيما هم فيه من قول الإثم وعمله، وهو كل ما يضر قائله وفاعله في دينه ودنياه، وفي العدوان وهو الظلم وتجاوز الحقوق والحدود الذي يضر الناس، وفي أكل السحت وهو الدنيء من المحرم ـ كما تقدم ـ ولم يقل: يسارعون إلى ذلك لأن المسارع إلى الشيء يكون خارجا عنه فيقبل عليه بسرعة، وهؤلاء غاقون في الإثم والعدوان، وإنما يسارعون في جزئيات وقائعهما، كلما قدروا على إثم أو عدوان ابتدروه ولم ينوا فيه.

٢. ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ تقبيح للعمل الذي كانوا يعملونه في استغراقهم في المعاصي المفسدة لأخلاقهم وللأمة التي يعيشون فيها إن لم تنههم وتزجرهم، على أنهم تركوا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فلم يكن يقوم به أحد منهم، لا العلماء ولا العباد إذ كان الفساد قد عم الجميع، ولذلك قال: ﴿لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾

٣. ﴿لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ أي هلا ينهى هؤلاء المسارعين فيما ذكر أئمتهم في التربية والسياسة وعلماء الشرع والفتوى فيهم، عن قول الإثم كالكذب، وأكل السحت كالرشوة! لبئس ما كان يصنع هؤلاء الربانيون والأحبار، من الرضى بهذا الأوزار، وترك فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، روي عن ابن عباس أنه قال: ما في القرآن أشد توبيخا من هذه الآية أي فهي حجة على العلماء إذا قصروا في الهداية والإرشاد، وتركوا السوء الذين أضاعوا الدين وأفسدوا الأمة بترك هذه الفريضة.

٤. ومن العجائب أننا نقرأ توبيخ القرآن لعلماء اليهود على ذلك، ونعلم أن القرآن أنزل موعظة وعبرة، ثم نعتبر بإهمال علمائنا لأمر ديننا، وعناية علمائهم في هذا العصر بأمر دينهم ودنياهم!! وسيأتي بسط هذا المعنى إن شاء الله تعالى.

٥. من مباحث البلاغة في التعبير التفرقة بين يعلمون ويصنعون:

---

(١) تفسير المنار: ٣٧٢/٦.

أ. قال الراغب: الصنع إجادة الفعل فكل صنع فعل، وليس كل فعل صنعا، ولا ينسب إلى الحيوانات والجمادات كما ينسب الفعل.

ب. وقال غيره: الصنع أخص من العمل فهو ما صار ملكة منه، والعمل أخص من الفعل، لأنه فعل بقصد.

ج. وقال في الكشاف: كأنهم جعلوا آثم من مرتكبي المناكير، لأن كل عامل يسمى صانعا ولا كل عمل يسمى صناعة، حتى يتمكن فيه ويتدرب وينسب إليه، وكان المعنى في ذلك أن موقع المعصية معه الشهوة التي تدعوه وتحمله على ارتكابها، وأما الذي ينهاه فلا شهوة معه في فعل غيره فإذا فرط في الإنكار كان أشد إثما من المواقع.

د. والذي أفهمه أن معاصي العوام من قبيل ما يحصل بالطبع، لأنه اندفاع مع الشهوة بلا بصيرة، ومعصية العلماء بترك النهي عن المنكر والأمر بالمعروف من قبيل الصناعة المتكلفة لفائدة للصانع فيها يلتمسها ممن يصنع له، وما ترك العلماء النهي عن المنكر وهم يعملون ما أخذهم الله عليهم من الميثاق إلا تكلفا لإرضاء الناس، وتحاميا لتنفيرهم منهم، فهو إيثار لرضاهم على رضوان الله وثوابه، والأقرب أن يكون من الصنع ـ لا من الصناعة، وهو العمل الذي يقدمه المرء لغيره يرضيه به.

المراغي:

ذكر أحمد بن مصطفى المراغي (ت ١٣٧١ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. ذكر الله تعالى من شئونهم ما هو شر مما سلف فقال: ﴿وَتَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ﴾ أي وترى أيها الرسول كثيرا من هؤلاء اليهود الذين اتخذوا دينك هزوا ولعبا ـ يسارعون في الظلم والعدوان وتجاوز الحدود التي ضربها الله للناس، وفى أكل السحت وكل ما يعود على فاعله بالضرر في الدين والدنيا، فهم غارقون في الإثم والعدوان، فكلما قدروا عليهما ابتدروهما ولم يتأخروا عن ارتكابهما.

٢. ثم بالغ في قبح هذه الأعمال فقال: ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي والله ما أقبح هذا العمل الذي

---

(١) تفسير المراغي ٦/١٥١.

يعمله هؤلاء من مسارعتهم في كل ما يفسد الأخلاق، ويدنّس النفوس، ويقوّض نظم المجتمع، وويل للأمة التي يعيش فيها أمثال هؤلاء، فهلّا نهاهم علماؤهم وزهادهم وعبّادهم عن أفعالهم بأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر قبل أن يستفحل الشر، ويعم الضّر؟ وإلى هذا أشار بقوله: ﴿لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ قال في الكشاف: (لا يسمى العامل صانعا ولا العمل صناعة حتى يتمكن فيه العامل ويتدرب وينسب إليه، وفاعل المعصية معه الشهوة التي تدعوه إليها وتحمله على ارتكابها، وأما الذي ينهاه فلا شهوة معه في فعل غيره، فإذا فرّط في الإنكار على المعصية كان أشد إثما وأعظم جرما من الفاعل لها)، أي هلا ينهى هؤلاء الذين يسارعون فيما ذكر من المعاصي ـ أئمتهم في التربية والسياسة، وعلماء الدين من الأحبار والرهبان، لبئس ما كانوا يصنعون من الرضى بهذه الأوزار والخطايا، وتركهم فريضة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر.

٣. روى عن ابن عباس أنه قال ما في القرآن أشد توبيخا من هذه الآية ـ يريد بذلك أنها حجة على العلماء إذا هم قصروا في الهداية والإرشاد، وتركوا النهى عن الشرور والآثام التي تفسد نظم الحياة للفرد والمجتمع، فحق على العلماء والحكام أن يعتبروا بهذا النعي على اليهود ساسة وعلماء ومربّين فيزدجروا ويعلموا أن هذه موعظة وذكرى لهم إن نفعت الذكرى.

سيّد:

ذكر سيّد قطب (ت ١٣٨٥ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. يمضي السياق يرسم حركاتهم كأنها منظورة تشهد وتلحظ من خلال التعبير: ﴿وَتَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾، والمسارعة مفاعلة تصور القوم كأنما يتسابقون تسابقا في الإثم والعدوان، وأكل الحرام، وهي صورة ترسم للتبشيع والتشنيع، ولكنها تصور حالة من حالات النفوس والجماعات حين يستشري فيها الفساد؛ وتسقط القيم؛ ويسيطر الشر.. وإن الإنسان لينظر إلى المجتمعات التي انتهت إلى مثل هذه الحال، فيرى كأنما كل من فيها يتسابقون إلى الشر.. إلى الإثم والعدوان، قويهم وضعيفهم سواء.. فالإثم والعدوان ـ في المجتمعات الهابطة الفاسدة

(١) في ظلال القرآن: ٢/٩٢٩.

ـ لا يقتصران على الأقوياء؛ بل يرتكبهما كذلك الضعفاء.. فحتى هؤلاء ينساقون في تيار الإثم، وحتى هؤلاء يملكون الاعتداء؛ إنهم لا يملكون الاعتداء على الأقوياء طبعا، ولكن يعتدي بعضهم على بعض، ويعتدون على حرمات الله، لأنها هي التي تكون في المجتمعات الفاسدة الحمى المستباح الذي لا حارس له من حاكم ولا محكوم؛ فالإثم والعدوان طابع المجتمع حين يفسد؛ والمسارعة فيهما عمل هذه المجتمعات! وكذلك كان مجتمع يهود في تلك الأيام.. وكذلك أكلهم للحرام.. فأكل الحرام كذلك سمة يهود في كل آن!

٢. ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾! ويشير السياق إلى سمة أخرى من سمات المجتمعات الفاسدة؛ وهو يستنكر سكوت الربانيين القائمين على الشريعة، والأحبار القائمين على أمر العلم الديني.. سكوتهم على مسارعة القوم في الإثم والعدوان وأكل السحت؛ وعدم نهيهم عن هذا الشر الذي يتسابقون فيه: ﴿لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾، فهذه السمة ـ سمة سكوت القائمين على أمر الشريعة والعلم الديني عما يقع في المجتمع من إثم وعدوان ـ هي سمة المجتمعات التي فسدت وآذنت بالانهيار.. وبنو إسرائيل ﴿كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ﴾، كما حكى عنهم القرآن الكريم.

٣. إن سمة المجتمع الخير الفاضل الحي القوي المتماسك أن يسود فيه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.. أن يوجد فيه من يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر؛ وأن يوجد فيه من يستمع إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ وأن يكون عرف المجتمع من القوة بحيث لا يجرؤ المنحرفون فيه على التنكر لهذا الأمر والنهي، ولا على إيذاء الآمرين بالمعروف الناهين عن المنكر.

٤. وهكذا وصف الله الأمة المسلمة فقال: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللهِ﴾ ووصف بني إسرائيل فقال: ﴿كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ﴾، فكان ذلك فيصلا بين المجتمعين وبين الجماعتين، أما هنا فينحي باللائمة على الربانيين والأحبار، الساكتين على المسارعة في الإثم والعدوان وأكل السحت، الذين لا يقومون بحق ما استحفظوا عليه من كتاب الله، وإنه لصوت النذير لكل أهل دين، فصلاح المجتمع أو فساده رهن بقيام الحفظة على الشريعة والعلم فيه بواجبهم في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ والأمر كما قلنا من قبل في الظلال، يقتضي (سلطة) تأمر

وتنهى، والأمر والنهي أمر غير الدعوة، فالدعوة بيان، والأمر والنهي سلطان، وكذلك ينبغي أن يحصل الآمرون بالمعروف الناهون عن المنكر على السلطان الذي يجعل لأمرهم ونهيهم قيمته في المجتمع؛ فلا يكون مطلق كلام!

الخطيب:

ذكر عبد الكريم الخطيب (ت ١٣٩٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. ﴿وَتَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ﴾ أي أن كثيرا من هؤلاء اليهود، يأتون المنكرات في غير تحرّج أو تأثّم، بل يفعلونها وكأنها قربات يتقربون بها إلى الله.. فهم يلقون بالكلمات الكاذبة، الآثمة وكأنّهم يرتّلون مزمارا من مزامير داوود وهم يعتدون على حرمات الله، ويستبيحون محارمه، وكأنهم يتناولون طعاما شهيا، على جوع وحرمان، وهم يأكلون أموال الناس بالباطل، وكأنها مائدة عيسى المنزلة عليهم من السماء! وهذا كله يكشف عن ضمائر ميتة، ومشاعر متبلّدة، لا تتأثّم من إثم، ولا تعفّ عن محرّم.

٢. في قوله تعالى: ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ حكم يدين أفعالهم تلك، ويدمغها بالسوء، الذي يردى أهله، ويهلك المتلبّسين به.

٣. ﴿لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ﴾ هو تشنيع على علماء اليهود، وأهل الرأي فيهم، وأنّهم لا ينكرون هذا المنكر الذي يعيش فيه أتباعهم، ويموج فيه عامتهم، وهم الأعين المبصرة فيهم، ولكنها أعين ترى الحق فتصدّ عنه، وترى النور فتعشى به.

٤. ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ هو توبيخ لهؤلاء العلماء، ووعيد لهم، إذ عرفوا الحق وكتموه، ورأوا المنكر وسكتوا عنه أو أجازوه.. ولهذا وصف الله عملهم هذا بأنه ليس مجرد عمل، بل هو صنعة، أي عمل مع علم، على حين وصف عمل أتباعهم بأنه ﴿عَمِلَ﴾ لأنه عمل لا يستند إلى علم، وإنما مستنده أوهام وأباطيل.. ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾

ابن عاشور:

---

(١) التفسير القرآني للقرآن: ١١٣١/٣.

ذكر محمد الطاهر بن عاشور (ت ١٣٩٣ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. الرؤية في قوله: ﴿وَتَرَى﴾ بصرية، أي أنّ حالهم في ذلك بحيث لا يخفى على أحد، والخطاب لكلّ من يسمع، وتقدّم معنى ﴿يُسَارِعُونَ﴾ عند قوله: ﴿لَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ﴾ [النساء: ٤١]

٢. والإثم: المفاسد من قول وعمل، أريد به هنا الكذب، كما دلّ عليه قوله: ﴿عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ﴾، والعدوان: الظلم، والمراد به الاعتداء علي المسلمين إن استطاعوه.

٣. والسحت تقدّم في قوله: ﴿سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ﴾ [المائدة: ٤٢]، و﴿لَوْلَا﴾ تحضيض أريد منه التّوبيخ، و﴿الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ﴾ تقدّم بيان معناهما في قوله تعالى: ﴿يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ﴾ [المائدة: ٤٤] الآية.

٤. اقتصر في توبيخ الربّانيين على ترك نهيهم عن قول الإثم وأكل السحت، ولم يذكر العدوان إيماء إلى أنّ العدوان يزجرهم عنه المسلمون ولا يلتجئون في زجرهم إلى غيرهم، لأنّ الاعتماد في النصرة على غير المجني عليه، ضعف.

٥. جملة ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ مستأنفة، ذمّ لصنيع الربّانيين والأحبار في سكوتهم عن تغيير المنكر، و﴿يَصْنَعُونَ﴾ بمعنى يعلمون، وإنّما خولف هنا ما تقدّم فيّ الآية قبلها للتّفنن، وقيل: لأنّ ﴿يَصْنَعُونَ﴾ أدلّ على التمكّن في العمل من ﴿يَعْمَلُونَ﴾، واللام للقسم.

أبو زهرة:

ذكر محمد أبو زهرة (ت ١٣٩٤ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[٢]:

١. بيّن الله سبحانه أخلاقهم بعد أن بين معاملتهم لأهل الإيمان فقال تعالت كلماته: ﴿وَتَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾، في هذا النص توجيه النبي ﷺ إلى ما عليه كثير من اليهود من مفاسق ومفاجر وعدوان، وقد كانت عبارات التنبيه موجهة واضحة وموضوعها بيّن يرى بالعين أو بما يشبه العين لوضوحه، فأنت ترى الكثيرين منهم يخوضون في الشر خوضا، لا يرعوون، ولا يجتنبون سوءا بل يقدمون

(١) التحرير والتنوير: ١٤٥/٥.

(٢) زهرة التفاسير: ٢٢٧١/٥.

على كل حرب وشر.

٢. وحكم الله تعالى عدل دائم، وينبه سبحانه إلى العدل في الأحكام، فهو سبحانه لم ينبه النبي ﷺ إلى أنهم جميعا فيهم الشر مستحكم، بل في الكثير، لا في الكل ولا في القليل، ومعنى المسارعة في الإثم والعدوان المعاجلة وعدم التردد، فهم لا يترددون في ارتكاب الإثم والعدوان، وربما يترددون كل التردد في الخير ونفع الناس لذات النفع، والتعدية بفي تشير إلى أنهم مغمورون في الآثام ينتقلون فيها مسارعين من حال إلى شر منه، فهم يرتعون فيها دائما.

٣. وقد تكلم العلماء في معنى الإثم والعدوان، فقال بعضهم: الإثم هو الكذب، والعدوان هو تعدى حدود الله تعالى، والاعتداء على محارمه، ولكن ابن جرير الطبري فسر الإثم بالمعاصي والعدوان بالتعدى، أو ما يتجه نحو ذلك، والذى نراه أن الإثم كما هو الأصل اللغوي له في الجملة هو ما يبطئ عن الخير، والكذب إثم لأنه يبطئ عن فعل الخير، فالإثم هو ما عند اليهود من تباطؤ عن الخير، وعصيان للأوامر التي يكون في أدائها نفع الناس، والنص يبين أن هؤلاء يعملون أعمالا من شأنها أن تبطئ عن فعل الخير، ويعوقونه، وهم مع ذلك يعتدون على غيرهم، فهم محرومون من الخير سلبا وإيجابا لا يفعلونه ويفعلون نقيضه، والله تعالى من ورائهم محيط.

٤. وإنهم لفساد نفوسهم، واستيلاء الشر على قلوبهم فسدت مداركهم، حتى أنهم يحسبون أن ما يفعلونه من آثام وعدوان هو خيرا، وهو فساد في الأرض عظيم، ولذلك عبر سبحانه عن عملهم السوء في عجلة وتسرع من غير مواناة بالمسارعة مع أن أكثر استعمال المسارعة في الخير، كما قال تعالى: ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران]، وكما قال تعالى: ﴿وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾ [آل عمران]، وقوله: ﴿نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ﴾ [المؤمنون]، وذلك لأنهم يحسبونه خيرا فعبر عنه باللفظ الذى يدل على الخير، إذ إنهم لفساد قلوبهم يأثمون ويؤذون ويحسبون أنهم يحسنون صنعا، وأوضح اعتداءاتهم على الناس أكلهم أموالهم بالباطل.

٥. ولذلك قال سبحانه عاطفا على سوء عملهم: ﴿وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ﴾، السحت: ما يستأصل من قشور الأشياء، وسحته معناه استأصله، والسحت والإسحات الاستئصال، كما قال تعالى: ﴿فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ﴾ [طه]، وقد أطلق السحت على كل محظور؛ لأنه يستأصل أخذه كل علاقة اجتماعية تربط الناس

بعضهم ببعض وتفسد أمورهم، كالربا، والرشوة، وأخذ الأموال بالغش والتزوير والنصب، والاحتكار الآثم الذى قال فيه النبي ﷺ: (المحتكر خاطئ) أي آثم.

٦. وإن اليهود لانقطاعهم عن الاتصال الأدبى بالناس، والتألم لآلامهم، كانوا يعتبرون الناس وأموالهم نهبا مقسوما لهم دون غيرهم، فكانوا يأكلون أموال الناس؛ لأن من عداهم أميون، وهم المختارون، فكانوا يقولون: ما علينا في الأميين، وإن اليهود بسبب بغضهم الشديد الذى توارثوه جيلا بعد جيل، قد انفصلوا عن الناس بقلوبهم، وقد عاشوا مضطهدين في وسط النصارى أذاقوهم الويل والذل أكؤسا، فكوّنوا الجماعات السرية ليفتكوا بالوحدات الاجتماعية، وليفسدوا العلائق بينها، وما من دعوة مخربة إلا كان اليهود دعامتها، وأخذوا يكتنزون الأموال بالطرق المحرمة، فهم الذين نشروا الربا في الأرض، وهو من أخبث أنواع السحت واتخذوا الرشوة سبيلا لبسط سلطانهم في الأرض، واتخذوا الاحتكار ذريعة لتجويع الناس، والناس جميعا في نظرهم أعداؤهم، واتخذوا النصب والاحتيال والغش والخديعة ذريعة لأكل أموال الناس بالباطل، وإن تظاهروا بفضيلة مالية، لكى يكتسبوا من هذا المظهر، وبذلك أفسدوا الضمائر وهتكوا حمى الفضائل، وأزالوا أو حاولوا أن يزيلوا كل المقومات الخلقية، ليفسدوا المجتمعات، ويزيلوا كل القيم، وإن الذلة تلاحقهم إن شاء الله تعالى.

٧. وقد حكم سبحانه على أعمالهم بقوله تعالت كلماته: ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾، ذلك حكم صارم قاطع يذم أعمالهم، والله سبحانه وتعالى حكم ذلك الحكم القاطع على أعمالهم باستحقاقها للمذمة؛ لأنها مخالفة لأوامر الله تعالى ونواهيه، وهي شر في ذاتها، وهي مقوضة لكل مقوم للأخلاق والفضائل والعلاقات الإنسانية.

٨. والحكم على ما كان منهم وما هم مستمرون فيه من عمل، ولذلك عبر بالماضي والحاضر، فذكر كان بلفظ الماضي و﴿يَعْمَلُونَ﴾ بلفظ المضارع الدال على الحال والمستقبل، ومؤدى ذلك الجمع، أي أن ذلك كان منهم في الماضي وهو مذموم، واستمروا عليه في الحاضر والمستقبل، وذلك أشد شرا، وأوغل فسادا، وقد أكد سبحانه ذلك الحكم بالقسم، وباللام الموطئة للقسم، وبكلمة بئس الدالة على شدة الذم.

٩. والله سبحانه وتعالى يتولى الناس، ويدفع عنهم شرهم، ويرد عنهم كيدهم، وإنهم منذ أخرجوا من مصر مستنقذين على يد كليم الله تعالى موسى عليه السلام ونفوسهم في الشر، يبدو منهم وتتوالى

مقاومة الناس لهم، ولذلك قد تولد معه إحساس بالكمال دون الناس، حتى توهموا أنهم الشعب المختار في هذه الأرض، ولكى يفرضوا سلطانهم لم يجدوا سبيلا إلا المال، فأكلوه سحتا، وأنفقوه سحتا وتوارثوا ذلك خلفا عن سلف، حتى إن المستقرئ لتاريخ الأمم لا يجد جماعة من الناس تشابه حاضرها بماضيها، تشابه حاضر اليهود بماضيهم، حتى إن القرآن الكريم كان يخاطب الحاضرين منهم بأعمال الماضين؛ لأنهم مثلهم تماما وعلى شاكلتهم، وهم غير قابلين للتغير.

١٠. وما عندهم من بقية من التوراة كتابهم، لا يغير طباعهم، فلا يتكون عندهم رأى عام إلا من تعاليم السابقين، وعلماؤهم يجارونهم، ولا يبينون لهم، فكان رأيهم العام فاسدا لشيوع الفساد فيه، وعدم وجود من يرشدهم إلى الصواب، ولذا قال تعالى: ﴿لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ﴾ الربانيون هنا هم العلماء الذين يحاولون أن يكون علمهم لله، ويتصلون بربهم حتى ينسبوا إليه ولا يكون لهم وصف إلا نسبتهم إليه سبحانه، يزعمون ذلك في أقوالهم ويظهرونه في أعمالهم، والأحبار هم الفقهاء أو العلماء الذين يفسرون أحكام الكتاب، ويعرفون الناس بشئون دينهم، وقد يكون من يجمع بين الوصفين، ولكن لكل وصف جانب من العمل.

١١. و﴿لَوْلَا﴾ هنا للحض على الفعل في المستقبل، والتوبيخ في الماضي على عدم فعله، وهو هنا للتوبيخ على تقصيرهم في الماضي وتخاذلهم عن أدائه، وإلا ما كان ذم حالهم، واستنكار أمرهم، والمعنى: هلا كان من هؤلاء الذين كان يتبعهم اليهود ويستمعون إليهم، ويستجيبون لهم من يرشدهم إلى الحق ليتبعوه وينهاهم عن الظلم ليجتنبوه، وقد اتخذوا أولئك الأحبار والربانيين وسطاء بينهم وبين الله ليتعرفوا حكمه عن طريقهم، ولكنهم لم يفعلوا، ولقد كان الموضع الذى كان ينبغي أن ينهوا عنه هو قولهم الإثم وأكلهم السحت، فالنهى الواجب منصب على أمرين:

أ. أحدهما: قول الإثم، أي القول المبطئ المانع من الخير، والثاني: أكل السحت، والأمران جماع الرذائل ـ فإن الذى يدفع إلى الشر قول ذميم يحرض على الفساد ويدفع إليه، ويجرئ الناس عليه، ويتضمن ذلك ارتكاب الشهوات، بكل أجزائها، لأن أول الشر استحسانه، واستحسانه يكون غالبا بالقول المشجع عليه والدافع له، ثم استمرءوا من بعد ذلك بقوله يزينه ويزكيه، ويكون من بعد ذلك ممن زين له سوء عمله فرآه حسنا.

ب. الثاني: طمع لما في أيدى الناس وحسد على ما آتاهم الله من فضله، ووراء ذلك أكل لمال الناس بالباطل، وشره لما في أيديهم، واتخاذ المال ذريعة لإفساد ذات البين بينهم، والتحريض على الشر، والتحكم المرذول.

١٢. ولعل ذكر نهى الأحبار للعامة عن السحت تعريض بهم؛ لأنهم كانوا لا يتعففون عن الرشا بكل أنواعها، كما أن ذكر النهى عن قول الإثم تعريض آخر بأحوالهم، فإن من قول الزور تحريف الكلم عن مواضعه، والنطق بالزور في الشرع، وكان يقع منهم.

١٣. ولذلك ذم سبحانه صنيعهم، وهو لا يخلو من فساد حكمهم وتغيير حكم الشرع لهوى الأقوياء منهم، فقال تعالت كلماته: ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾، ذم الله تعالى صنيعهم، وهو عملهم الشر بدقة وإحكام، لا بمقتضى الغرائز الحيوانية من غير تفكير، وفى الماضي وما هم عليه في الحاضر، وما يكون منهم في المستقبل.

١٤. وهنا يتكلم المفسرون في التفرقة بين ذم أعمال اليهود عامة من دهماء وغيرهم بقوله تعالى: ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾، وذم أعمال الربانيين والأحبار بقوله تعالى: ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾، وخلاصة هذه التفرقة: أن العمل يكون عادة بانبعاث شهوة من طمع في مال، أو لذة جسد، أما الصنيع، فإنه يكون بمهارة وتدبير وتعرف للغايات والنتائج ولو كانت آثمة، وأن الصنيع يكون بالعمل وغيره، ومن أحسن من قال في التفرقة فخر الدين الرازي في تفسيره الكبير، فقد قال موضحا ما ذكره الزمخشري وغيره، والمعنى أن الله تعالى استبعد من علماء أهل الكتاب أنهم ما نهوا سفلتهم وعامتهم عن المعاصي وذلك يدل أن تارك النهى عن المنكر بمنزلة مرتكبه؛ لأنه تعالى ذم الفريقين في هذه الآية على لفظ واحد، بل نقول: إن ذم تارك النهى عن المنكر أقوى؛ لأنه تعالى قال في المقدمين على الإثم والعدوان وأكل السحت: لبئس ما كانوا يعملون، وقال في العلماء التاركين للنهى عن المنكر: لبئس ما كانوا يصنعون، والصنع أقوى من العمل؛ لأن العمل إنما يسمى صناعة إذا صار مستقرا راسخا متمكنا فجعل جرم العاملين ذنبا غير راسخ، وذنب التاركين للنهى ذنبا راسخا، والأمر في الحقيقة كذلك، لأن المعصية مرض الروح، وعلاجه العلم بالله وبصفاته، وبأحكامه، فإذا حصل هذا العلم وما زالت المعصية كان مثل المرض الذى شرب صاحبه الدواء فما زال)

١٥. وإن هؤلاء الربانيين والأحبار لم يكن ما أخذ عليهم هو السكوت عن النهى فقط، بل إنهم رتعوا فيما رتع فيه غيرهم، وبذلك ضلوا، وكانوا سببا في فساد الجمع كله، ولعنهم وطردهم كما قال تعالى: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [المائدة]

١٦. ولقد قال ابن عباس في هذه الآية: ﴿لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ﴾ إنها أصعب آية في كتاب؛ لأنها تبين إثم الذين يقصرون في الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وهما عصام الأمر، ومانعا الإثم، وبهما صلاح الجماعة الإنسانية، روى أحمد أن رسول الله ﷺ قال: (ما من قوم يكون بين أظهرهم من يعمل بالمعاصي وهم أعز منه وأمنع، ولم يغيروا إلا أصابهم الله بعذاب من عنده)، وروى يحيى بن معمر أن الإمام على بن أبى طالب خطب فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: (أيها الناس إنما هلك من كان قبلكم بركوبهم المعاصي ولم ينههم الربانيون والأحبار فلما تمادوا في المعاصي أخذتهم العقوبات، فأمروا بالمعروف انهوا عن المنكر قبل أن ينزل بكم مثل الذى نزل بهم واعلموا أن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر لا يقطع رزقا ولا يقرب أجلا)، وإن ما توقعه إمام الهدى على ـ كرم الله وجهه ـ قد وقع، فإن الذين يتخذون من المؤمنين مكان الأحبار باسم الإسلام، قد سكتوا عن النهى عن قول الإثم، بل منهم من أيد المنكر، بعد أن ارتضاه ومنهم من مالأ في دينه، يحسب أن قول الحق قد يقطع رزقا، أو يضيع أملا، وبذلك وقعت معاص من غير استنكار، وترك الواجب في استهتار، ولا منادى بالحق، اللهم وفقنا لقول الحق واعف عنا واغفر لنا وارحمنا، وأنت خير الراحمين.

مُغْنِيَّة:

ذكر محمد جواد مُغْنِيَّة (ت ١٤٠٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[1]:

١. ﴿وَتَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾، المسارعة مفاعلة وتومئ إلى التسابق والتنافس في الإثم والعدوان وأكل السحت، أي الحرام، وهذه سمة لا تفارق اليهود، ومن أجلها مقتهم الناس قديما وحديثا، إلا من يتخذ منهم أداة للشر، تماما كالسم

---

(١) التفسير الكاشف: ٣/٨٩.

القاتل.. حتى في الولايات المتحدة وكر الصهاينة يوجد جماعة كثر يناهضون اليهود.

٢. ﴿لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾، هذا التوبيخ الذي دلت عليه لولا وبئس موجه في الظاهر لرؤساء الأديان من أهل الكتاب.. وفي الواقع موجه لكل من عرف الحق، وسكت عنه، ان العالم بالله حقا المخلص له وحده يحتج على المظالم بشتى الوسائل، وإذا تيقن أن موته في هذه السبيل ينبه الغافلين، ويردع الظالمين أقدم عليه، وعبر عن احتجاجه بالاستشهاد، وتاريخ الشهداء جميعا هو تاريخ الاحتجاج على جرائم الظلم والعدوان.

الطباطبائي:

ذكر محمد حسين الطباطبائي (ت ١٤٠٢ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. ﴿وَتَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ﴾، الظاهر أن المراد بالإثم هو الخوض في آيات الدين النازلة على المؤمنين والقول في معارف الدين بما يوجب الكفر والفسوق على ما يشهد به ما في الآية التالية من قوله: ﴿عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ﴾، وعلى هذا فالأمور الثلاثة أعني الإثم والعدوان وأكل السحت تستوعب نماذج من فسوقهم في القول والفعل، فهم يقترفون الذنب في القول وهو الإثم القولي، والذنب في الفعل وهو إما فيما بينهم وبين المؤمنين وهو التعدي عليهم، وإما عند أنفسهم كأكلهم السحت، وهو الربا والرشوة ونحو ذلك.

٢. ثم ذم ذلك منهم بقوله: ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ثم أتبعه بتوبيخ الربانيين والأحبار في سكوتهم عنهم وعدم نهيهم عن ارتكاب هذه الموبقات من الآثام والمعاصي وهم عالمون بأنها معاص وذنوب فقال: ﴿لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾

٣. وربما أمكن أن يستفاد من قوله: ﴿عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ﴾ عند تطبيقه على ما في الآية السابقة: ﴿يُسَارِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ﴾ حيث ترك العدوان في الآية الثانية: أن الإثم والعدوان شيء واحد، وهو تعدي حدود الله سبحانه قولا تجاه المعصية الفعلية التي أنموذجها أكلهم

---

(١) الميزان في تفسير القرآن: ٦/٣١.

السحت، فيكون المراد بقوله: ﴿يُسَارِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ﴾ إراءة سيئة قولية منهم وهي الإثم والعدوان، وسيئة أخرى فعلية منهم وهي أكلهم السحت.

٤. والمسارعة مبالغة في معنى السرعة وهي ضد البطء، والفرق بين السرعة والعجلة على ما يستفاد من موارد استعمال الكلمتين أن السرعة أمس بعمل الأعضاء والعجلة بعمل القلب، نظير الفرق بين الخضوع والخشوع، والخوف والخشية، قال الراغب في المفردات: (السرعة ضد البطء، ويستعمل في الأجسام والأفعال، يقال: سرع (بضم الراء) فهو سريع وأسرع فهو مسرع، وأسرعوا صارت إبلهم سراعا نحو أبلدوا، وسارعوا وتسارعوا)، وربما قيل: إن المسارعة والعجلة بمعنى واحد غير أن المسارعة أكثر ما يستعمل في الخير، وأن استعمال المسارعة في المقام ـ وإن كان مقام الذم وكانت العجلة أدل على الذم منها ـ إنما هو للإشارة إلى أنهم يستعملونها كأنهم محقون فيها ولا يخلو عن بعد.

الحوثي:

ذكر بدر الدّين الحوثي (ت ١٤٣١ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. ﴿وَتَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ﴾ ﴿وَتَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ﴾ أي ذلك ظاهر منهم مكشوف، لا يتسترون فيه كما في زماننا الذي حذا كثير من أهله حذو أهل الكتاب و﴿الْإِثْمِ﴾ المعاصي كشرب الخمر و﴿الْعُدْوَانِ﴾ التعدي على الناس، ومسارعتهم إلى ذلك: إقدامهم عليه بسرعة لفرط جرأتهم على الله، وحرصهم على الإثم والعدوان.

٢. ﴿وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ﴾: أكلهم الربا، والرشوة، وأكلهم أموال الناس بالباطل بأي طريقة كان ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي والله لبئس ما كانوا يعملون، فكيف تتخذونهم أولياء وهم ضالون مضلون!؟

٣. ﴿لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ لبئس ما كان الربانيون والأحبار يصنعون من المصانعة بترك النهي والمداهنة، كأن ذلك كان صناعة لهم يتقنونها لتحصيل أغراض دنيوية، فهلا كانوا ينهونهم وهم ربانيون وأحبار، قال الشرفي: (و﴿الرَّبَّانِيُّونَ﴾

(١) التيسير في التفسير: ٢/٣٣٦.

علماء أهل الإنجيل ﴿وَالْأَحْبَارُ﴾ علماء اليهود) والراجح: أن (الأحبار) علماء الفريقين، بدليل قوله تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ﴾ [التوبة:٣١] و(الربانيين) الدعاة إلى الرب، فهم يدعون الناس إلى تقوى الله، ويأمرونهم بالبر من دون أن ينهوا فاعل المعصية عنها بعينه.

٤. ولعل الحرام سمي سحتاً؛ لأنه سببٌ لهلاك صاحبه وخلوده في النار، قال تعالى: ﴿فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ﴾ [طه:٦١] أي يهلككم بعذاب، وقال الراغب: (السِّحتُ: القشر الذي يستأصل، قال تعالى: ﴿فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ﴾ [طه:٦١] وقرئ ﴿فَيُسْحِتَكُمْ﴾ يقال: سحته، وأسحته، ومنه السحت للمحظور الذي يلزم صاحبه العار، كأنه يُسْحِتُ دينه ومروءته) قوله: القشر الذي يستأصل: عبارة (الصحاح): وسحتُّ الشحم عن اللحم إذا قشرته عنه، وفي (الصحاح): (وسَحَته وأسحته أي استأصله) وعلى هذا: فمعنى: ﴿فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ﴾ [طه:٦١] فيستأصلكم، أي يهلككم أجمعين، وعلى هذا: فلا ينبغي اتخاذهم أولياء حتى الربانيين والأحبار.

فضل الله:

ذكر محمد حسين فضل الله (ت ١٤٣١ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[1]:

١. ﴿وَتَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ فيما ينطلقون به من كلمات الشر والفساد ويتحركون فيه من حركات الضلال والإضلال والعدوان، بما يثيرونه من أقاويل السوء ضدّ الأنبياء والأولياء ودعاة الصلاح والإصلاح، وبما يتآمرون به ضد الإسلام والمسلمين، وبما يعتدون به على حقوق النّاس الضعفاء ممن حولهم بكل أساليب الاعتداء في القول والفعل، ﴿وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ﴾ وهو الحرام فيما يأكلونه من الرّبا الحرام، والرشوة المحرمة، والغش والسرقة والخيانة، وغير ذلك من أنواع أكل المال بالباطل، ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ لأنّ تلك الأعمال تمثّل أكثر الأعمال بعدا عن خط الخير والإنسانيّة، وأشدّها قربا من غضب الله وسخطه.

٢. وكان لهم ربانيون، يتخذون لأنفسهم مواقع النّاس المخلصين لله، وأحبار يملكون من العلم ما يرتفع بمنزلتهم إلى الدرجات العليا، ولكنّهم كانوا يسكتون عنهم، ولا ينهونهم عن قولهم الإثم وأكلهم

---

(١) من وحي القرآن: ٢٤٤/٨.

السّحت، خوفا ومجاملة وغير ذلك من النوازع الذاتية الّتي تمنع المصلحين من الجهر بكلمة الإصلاح، ﴿لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾، فما قيمة الربانية في داخل الإنسان إذا لم تتحول إلى ممارسة عمليّة ضاغطة، ضد كل الّذين يعملون بعيدا عن الله!؟ وما دور العلم الّذي يحمله صاحبه إذا لم يتحرك في خط التوعية الفكرية والعملية الّتي ترفع مستوى النّاس وتقربهم إلى الله وتبعدهم عن خط الشيطان في الضلال والفساد!؟

٣. ماذا يوحي لنا ذلك كله؟ وهل هذه قصة اليهود في ملامحهم الذاتية في التاريخ؟ أم هي قصة كل هؤلاء المنحرفين عن خط الله، الّذين يتلونون في كل يوم بألف لون انطلاقا من مطامعهم وشهواتهم، ويسارعون في الإثم والعدوان في كل عصر وكل مكان، ويأكلون الحرام بمختلف الأساليب والحجج القانونيّة الّتي يلعبون فيها على الشرائع والقوانين، ويتعقّدون من النّاس الّذين يؤمنون بالله وبرسالاته، وينقمون عليهم هذا الإيمان لأنّه يكشف خداعهم وزيفهم وفسقهم وفجورهم؟ عندما يتطلع النّاس إلى الفوارق الكبيرة الّتي تحكم ساحة الموازنة بين الفريقين اللذين ينتسبان معا إلى الوحي وإلى الرسل، يجدون المؤمنين الحقيقيين هم الّذي يعتبرونها التزاما وعملا وصدقا في الكلمة والموقف، أمّا الّذين يواجهون القضّية على أساس اللّامبالاة واللعب على الحبال ـ كما يقولون ـ والكذب في الكلام والممارسة، فإنهم الفاسقون الذين لا تقرب شخصياتهم من أجواء الإيمان بل تظل سادرة في خط الضلال البعيد.

٤. وهكذا تمتد هذه الآيات إلى جميع العلماء الّذين يملكون العلم الّذي يمكن له أن يفتح عقول النّاس على الحقّ ويتحرك ليواجه تحديات الباطل وانحرافات الواقع، ولكنّهم يتقاعسون عن ذلك ويتثاقلون خوفا على بعض دنياهم، أو رغبة في الحصول على بعض دنيا المنحرفين الّذين قد يملكون المال أو الجاه أو السلطة، أو حبّا بالراحة الّتي يبتعدون بها عن التعب والجهد الّذي يثقل حياتهم ويرهق أوضاعهم، فإنّ مسئوليّة الساكتين عن الحقّ كمسؤوليّة الناطقين بالباطل، لأنّ النتيجة معهما سواء في إفساح المجال للضلال في زيادة النمو والامتداد في الحياة العامّة والخاصة، وقد ورد في الحديث المأثور عن النبيّ محمّد ﷺ: (إذا ظهرت البدع في أمتي فليظهر العالم علمه، فمن لم يفعل فعليه لعنة الله)، وجاء في الحديث عن الإمام عليّ عليه السّلام في نهج البلاغة في خطبته قوله عليه السّلام: (فإن الله سبحانه لم يلعن القرن الماضي بين أيديكم إلّا لتركهم الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر، فلعن الله السّفهاء لركوب المعاصي

والحلماء لترك التّناهي)، ولعلّ هذا إشارة إلى قوله تعالى: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ [المائدة: ٧٨ ـ ٧٩]

٥. وقد لاحظ بعض المفسرين الفرق بين كلمة ﴿يَعْمَلُونَ﴾ في الحديث عن سواء النّاس وكلمة ﴿يَصْنَعُونَ﴾ في الحديث عن العلماء، وذلك من خلال أنّ الصنع هو كل عمل استخدمت فيه الدقة والمهارة، بينما العمل يطلق على جميع الأفعال حتّى لو كانت خالية من الدقة، تأكيدا على أنّ النّاس العاديين يذنبون من موقع الجهل، بينما العلماء يرتكبون الذنب عن دراية وعلم وتفكير، وهذه ملاحظة طريفة، ولكنّنا لا نتصور أنّ هذه النكتة ملحوظة في الآية، لأنّ المطروح في عمل الجاهلين المعصية، أمّا في عمل العلماء فهو ترك النهي عن المنكر، وهما سيّان في الخلفيات الكامنة وراء العمل من حيث الرغبة في الحصول على المنفعة أو الاجتناب عن المضرّة، من دون أن يكون لنوعيّة المارسة للعمل دور في ذلك، وبعبارة أخرى، لو كانت القضيّة قضيّة عمل يقوم به العلماء لكان هذا الكلام مجال سلبيّ أمام هذا العمل من قبل العلماء، فلا وحدة في الموضوع ليكون الفارق في الخصوصيّة، والله العالم.

٦. وفي ضوء ذلك، قد يكون من الضروري للرساليين أن يدققوا في النماذج المحيطة بهم من المنحرفين عن خط الله، ومن أهل الكتاب الّذين يكيدون للإسلام ولأهله المكائد، ليتعرّفوا ملامح الآيات في ملامحهم، ليبتعدوا عن جو الخديعة الّذي يراد لهم أن يعيشوا فيه، وليكونوا عن حذر فيما يأخذون ويدعون ويقتربون ويبتعدون، في نطاق العلاقات الإنسانيّة المتحركة في أكثر من صعيد، وبذلك يمكن لهم أن يستلهموا الوعي القرآني في تركيز الوعي الحياتي الإنساني.

الشيرازي:

ذكر ناصر مكارم الشيرازي في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. تبيّن الآية الكريمة علائم من نوع آخر للمنافقين، فتشير إلى أنّ كثيرا من هؤلاء في انتهاجهم طريق العصيان والظلم وأكل المال الحرام، يتسابقون بعضهم مع بعضهم الآخر تقول الآية: ﴿وَتَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ﴾ أي أن هؤلاء يسرعون الخطى في طريق المعاصي

---

(١) تفسير الأمثل: ٤/ ٧٠.

والظلم، وكأنّهم يسعون إلى أهداف تصنع لهم الفخر والمجد، ويتسابقون فيما بينهم في هذا الطريق دون خجل أو حياء.

٢. وتجدر الإشارة ـ هنا ـ إلى أنّ كلمة (إثم) قد وردت بمعنى (الكفر) كما وردت لتعني جميع أنواع الذنوب أيضا، وبما أنّها اقترنت في هذه الآية بكلمة (العدوان) قال بعض المفسّرين: أنّها تعني الذنوب التي تضرّ صاحبها فقط، على عكس العدوان الذي يتعدى طوره صاحبه إلى الآخرين، كما يحتمل أن يكون مجيء كلمة (العدوان) بعد كلمة (الإثم) في هذه الآية، من باب ما يصطلح عليه بذكر العام قبل الخاص، وأن مجيء كلمة (السحت) بعدهما هو من قبيل ذكر الأخص.

٣. وعليه فالقرآن قد ذم المنافقين، أوّلا لكل ذنب اقترفوه، ثمّ خصص ذنبين كبيرين لما فيهما من خطر ـ وهما الظلم وأكل الأموال المحرمة، سواء كانت ربا أم رشوة أم غير ذلك.

٤. وخلاصة القول أن القرآن الكريم قد ذم هذه الجماعة من المنافقين من أهل الكتاب، لوقاحتهم وصلفهم وتعنتهم في ارتكاب أنواع الآثام وبالأخص الظلم وأكل المال الحرام، ولكي يؤكّد القرآن قبح هذه الأعمال، قالت الآية: ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾، وتدل عبارة ﴿كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ على أنّ هذه الذنوب لم تكن تصدر عن هؤلاء صدفة، بل كانوا يمارسونها دائما مع سبق إصرار.

٥. بعد ذلك تحمل الآية على علمائهم الذين أيّدوا قومهم على ارتكاب المعاصي بسكوتهم، فتقول: ﴿لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ﴾، وقد أشرنا سابقا إلى أنّ كلمة (ربّانيون) هي صيغة جمع لكلمة (ربّاني) المشتقة من كلمة (رب) وتعني العالم أو المفكر الذي يدعو الناس إلى الله، لكنّها قد أطلقت في كثير من الحالات على علماء المسيحيين، أي رجال الدين المسيحي، أمّا كلمة (أحبار) فهي صيغة جمع لكلمة (حبر) وهي تعني العلماء الذين يخلفون أثارا حسنة في المجتمع، لكنّها أطلقت في موارد كثيرة على رجال الدين اليهود.

٦. أمّا خلو هذه الآية من كلمة (العدوان) التي وردت في الآية قبلها، فقد استدلّ بعضهم من ذلك على أن كلمة (الإثم) الواردة هنا تشمل جميع المعاني التي تدخل في إطار هذه الكلمة ومن ضمنها (العدوان)

٧. لقد وردت في هذه الآية عبارة ﴿قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ﴾ التي تختلف عمّا ورد في الآية السابقة، ولعل

هذه إشارة إلى أن العلماء مكلفون بردع الناس عن النطق بما يشوبه الذنب من قول، كما هم مكلّفون بمنع الناس عن ارتكاب العمل السيء ولربّما تكون كلمة (قول) الواردة هنا بمعنى (العقيدة) أي أن العلماء الذين يهدفون إلى إصلاح أي مجتمع فاسد، عليهم أوّلا أن يصلحوا أو يغيروا المعتقدات الفاسدة التي تشيع في هذا المجتمع، فما لم يحصل التغيير الفكري لا يمكن توقع حصول اصلاحات جذرية في الجوانب العملية، وبهذه الصورة تبيّن الآية للعلماء أنّ الثورة الفكرية هي الأساس والمنطلق لكل إصلاح يراد تحقيقه في كل مجتمع فاسد.

٨. وفي الختام، يمارس القرآن الكريم نفس أسلوب الذم الذي اتّبعه مع أهل المعاصي الحقيقيين، فيذم العلماء الساكتين الصامتين التاركين للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ويقبح صمتهم هذا، كما تقول الآية: ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾، وهكذا تبيّن أنّ مصير الذين يتخلون عن مسئولية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر العظيمة وخاصة إن كانوا من العلماء يكون كمصير أصحاب المعاصي، وهؤلاء في الحقيقة شركاء في الذنب مع العاصين، ونقل عن ابن عباس قوله: بأنّ هذه الآية أعنف آية وبخت العلماء المتجاهلين لمسؤولياتهم الصامتين عن المعاصي.

٩. وبديهي أنّ هذا الحكم لا ينحصر في علماء اليهود والنصاري، بل يشمل كل العلماء مهما كانت دياناتهم إن هم سكتوا وصمتوا أمام تلوث مجتمعاتهم بالذنوب وتسابق الناس في الظلم والفساد، ذلك لأنّ حكم الله واحد بالنسبة لجميع البشر، وورد عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السّلام في إحدى خطبه، أنّ سبب هلاك الأقوام السابقة هو ارتكابهم للمعاصي وسكوت علمائهم عليهم وامتناعهم عن النهي عن المنكر فكان ينزل عليهم ـ لهذا السبب ـ البلاء والعذاب من الله، وأن على الناس أن يأمروا بالمعروف وينهوا عن المنكر لكي لا يتورطوا بمصير أولئك الأقوام، كما ورد بنفس هذا المضمون كلام للإمام علي عليه السّلام في (نهج البلاغة) في آخر خطبته القاصعة (الخطبة ١٩٢) قوله عليه السّلام: (فإنّ الله سبحانه لم يلعن القرن الماضي بين أيديكم إلّا لتركهم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فلعن السفهاء لركوب المعاصي والحلماء لترك التناهي..)

١٠. ويلفت الانتباه هنا أيضا أنّ الآية السابقة حين كانت تتحدث عن سواد الناس جاءت بعبارة (يعملون) بينما حين صار الحديث في هذه الآية عن العلماء جاءت بعبارة (يصنعون) والصنع هو كل عمل

استخدمت فيه الدقة والمهارة، بينما العمل يطلق على جميع الأفعال حتى لو كانت خالية من الدقة، هكذا فإن هذه العبارة (يصنعون) تتضمن بحدّ ذاتها ذما أكبر، وذلك لأنّ سواد الناس إن ارتكبوا ذنبا يكون ارتكابهم هذا ـ غالبا ـ بسبب جهلهم، بينما العالم الذي لا يؤدي واجبه فهو يرتكب إثما عن دراية وعلم وتفكير، ولهذا يكون عقابه أشد وأعنف من عقاب الجاهل.

٦٣. اليهود واتهام الله بالبخل والعجز

نتناول في هذا الفصل ما ذكره المفسّرون ـ بحسب التسلسل التاريخي، والمدارس الإسلامية المختلفة ـ حول تفسير المقطع [٦٣] من سورة المائدة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ [المائدة: ٦٤]، مع العلم أنّا نقلنا المباحث التي لا علاقة لها ـ كبرى أو مباشرة ـ بالتفسير التحليلي إلى محالّها من كتب السلسلة.

أبو هريرة:

روي عن أبي هريرة (ت ٥٨ هـ) أنّه قال: قال رسول الله ﷺ: (إن يمين الله ملأى، لا يغيضها نفقة، سحاء الليل والنهار، أرأيتم ما أنفق منذ خلق السماوات والأرض، فإنه لم يغض ما في يمينه)، قال: (وعرشه على الماء، وفي يده الأخرى القبض، يرفع ويخفض)[١].

ابن عباس:

روي عن ابن عباس (ت ٦٨ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال: قال: رجل من اليهود ـ يقال له: شأس بن قيس ـ: إن ربك بخيل لا ينفق، فأنزل الله: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾[٢].

٢. روي أنّه قال: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللهِ مَغْلُولَةٌ﴾، أي: بخيلة[٣].

٣. روي أنّه قال: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللهِ مَغْلُولَةٌ﴾، قال: لا يعنون بذلك أن يد الله موثقة، ولكن يقولون: إنه بخيل، أمسك ما عنده، تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا[٤].

أنس:

روي عن أنس بن مالك (ت ٩٣ هـ) مرفوعا: أن يحيى بن زكريا سأل ربه، فقال: يا رب، اجعلني

---

(١) البخاري ٦/٧٣.

(٢) الطبراني في الكبير ١٢/٦٧.

(٣) ابن أبي حاتم ٤/١١٦٧.

(٤) ابن جرير ٨/٥٥٣.

ممن لا يقع الناس فيه، فأوحى الله إليه: يا يحيى، هذا شيء لم أستخلصه لنفسي، كيف أفعله بك!؟ اقرأ في المحكم تجد فيه: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللهِ﴾ [التوبة: ٣٠]، وقالوا: ﴿يَدُ اللهِ مَغْلُولَةٌ﴾، وقالوا، وقالوا[١].

الضحاك:

روي عن الضحاك بن مزاحم (ت ١٠٢ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال: ﴿مَغْلُولَةً﴾، يقولون: إنه بخيل، ليس بجواد[٢].

٢. روي أنّه قال: ﴿غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ﴾، قال: أمسكت عن النفقة والخير[٣].

مجاهد:

روي عن مجاهد (ت ١٠٤ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال في قول الله: ﴿يَدُ اللهِ مَغْلُولَةٌ﴾ [المائدة: ٦٤] لقد تجهدنا[٤]، الله، يا بني إسرائيل، حتى جعل الله يده إلى نحره، وكذبوا[٥].

٢. روي أنّه قال: اليهود قالوا: إن الله لما نزع ملكنا منا وضع يده على صدره، يحمد إلينا، ويقول: يا بني إسرائيل، يا بني أحباري، لا أبسطها حتى أرد عليكم الملك[٦].

عكرمة:

روي عن عكرمة (ت ١٠٥ هـ) أنّه قال: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [المائدة: ٦٤] يعني: اليدين[٧].

البصري:

روي عن الحسن البصري (ت ١١٠ هـ) أنّه قال: معناه: يد الله مكفوفة عن عذابنا، فليس يعذبنا

---

(١) عزاه السيوطي إلى الديلمي في مسند الفردوس.

(٢) ابن جرير ٨/٥٥٥.

(٣) ابن جرير ٨/٥٥٥.

(٤) تَجَهَّدنا: أي ألحّ علينا أن نفعل كذا.

(٥) تفسير مجاهد ص ٣١٢.

(٦) تفسير الثعلبي ٤/٨٨.

(٧) ابن أبي حاتم ٤/١١٦٨.

إلا بما يقربه قيمة قدر ما عبد آباؤنا العجل، وهو سبعة أيام[1].

الباقر:

روي عن الإمام الباقر (ت ١١٤ هـ) أنّه قال: ﴿يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ اليد في كلام العرب القوة والنعمة، قال: ﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا داوُدَ ذَا الْأَيْدِ﴾ وقال: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ﴾ أي بقوة ﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ وقال: ﴿وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ﴾ أي قواهم، ويقال: لفلان عندي يد بيضاء، أي نعمة[2].

ابن منبه:

روي عن وهب بن منبه (ت ١١٤ هـ) أنّه قال: قال موسى: يا رب، احبس عني كلام الناس، فقال الله عز وجل: لو فعلت هذا بأحد لفعلته بي[3].

قتادة:

روي عن قتادة بن دعامة (ت ١١٧ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ الله مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا﴾ إلى: ﴿وَاللهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾، أما قوله: ﴿يَدُ الله مَغْلُولَةٌ﴾ قالوا: الله بخيل، غير جواد، قال: الله: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾[4].

٢. روي أنّه قال: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ﴾ بهما ﴿كَيْفَ يَشَاءُ﴾[5].

زيد:

روي عن الإمام زيد (ت ١٢٢ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ الله مَغْلُولَةٌ﴾ معناه هو يحب أن يمسك خيره[6].

---

(١) تفسير الثعلبي ٤/٨٨.

(٢) معاني الأخبار: ١٥/٨، التوحيد: ١/١٥٣.

(٣) أبو نعيم ٤/٤٢.

(٤) ابن جرير ٨/٥٥٤.

(٥) ابن أبي حاتم ٤/١١٦٨.

(٦) تفسير الإمام زيد، ص ١٣٠.

٢. روي أنّه قال: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ الله مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ مجاز الآية: النعمة منه والفضل، وقوله تعالى: ﴿يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ يدل على ذلك، وقد يقول الرجل من العرب: (لفلان علي يد)، أي: نعمة، وقد قال علي في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ﴾ [الإسراء: ٣٠]، قال: (لا تمسك يدك عن النفقة في حق، بمنزلة المغلولة يده إلى عنقه)[١].

السدي:

روي عن إسماعيل السدي الكوفي (ت ١٢٧ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال: ﴿وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا﴾ قالوا: إن الله وضع يده على صدره، فلم يبسطها أبدا حتى يرد علينا ملكنا[٢].

٢. روي أنّه قال: ﴿يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ يرزق كيف يشاء[٣].

الكلبي:

روي عن محمد بن السائب الكلبي (ت ١٤٦ هـ) أنّه قال: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ الله مَغْلُولَةٌ﴾ كانوا من أخصب الناس، وأكثرهم خيرا، فلما عصوا الله، وبدلوا نعمة الله كفرا؛ كف الله عنهم بعض الذي كان بسط لهم، فعند ذلك قالت اليهود: كف الله يده عنا، فهي مغلولة، أي: لا يبسطها علينا[٤].

الصادق:

روي عن الإمام الصادق (ت ١٤٨ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال في قول الله عز وجل: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ الله مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ﴾ يعنوا أنه هكذا، ولكنهم قد قالوا: قد فرغ من الأمر فلا يزيد ولا ينقص، فقال الله جل جلاله تكذيبا لقولهم: ﴿غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ أو لم تسمع الله عز وجل يقول: ﴿يَمْحُوا الله

---

(١) الأنوار البهية المنتزع من كتب أئمة الزيدية: ٣٣٣/١.

(٢) ابن جرير ٥٥٤/٨.

(٣) ابن جرير ٥٥٤/٨.

(٤) تفسير ابن أبي زمنين ٣٦/٢.

ما يَشاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتابِ﴾[1].

٢. روي أنّه قال في قول الله تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللهِ مَغْلُولَةٌ﴾ كانوا يقولون: قد فرغ من الأمر[2].

٣. روي أنّه سئل عن قول الله: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ﴾ فقال: كذا ـ وقال بيده إلى عنقه ـ ولكنه قال: قد فرغ من الأشياء[3].

٤. روي أنّه قال في قول الله عز وجل: ﴿يَدُ اللهِ مَغْلُولَةٌ﴾: يعنون أنه قد فرغ من الأمر مما هو كائن، لعنوا بما قالوا، قال الله عز وجل: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾[4].

٥. روي أنّه قال: إذا بلغك عن أخيك شيء يسوءك فلا تغتم، فإنه إن كان كما يقول كانت عقوبة عجلت، وإن كانت على غير ما يقول كانت حسنة لم تعملها، قال: وقال موسى عليه السلام: يا رب، أسالك ألا يذكرني أحد إلا بخير، قال: ما فعلت ذلك لنفسي[5].

مقاتل:

روي عن مقاتل بن سليمان (ت ١٥٠ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ﴾ يعني: ابن صوريا، وفنحاص اليهوديين، وعازر بن أبي عازر ﴿يَدُ اللهِ مَغْلُولَةٌ﴾ يعني: ممسكة، أمسك الله يده عنا، فلا يبسطها علينا بخير، وليس بجواد، وذلك أن الله عز وجل بسط عليهم في الرزق، فلما عصوا واستحلوا ما حرم عليهم أمسك عنهم الرزق، فقالوا عند ذلك: يد الله محبوسة عن البسط، يقول الله عز وجل: ﴿غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ﴾[6].

٢. روي أنّه قال: ﴿غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ﴾، يعني: أمسكت أيديهم عن الخير[7].

---

(١) التوحيد: ١/١٦٧.

(٢) الأمالي ٢/٢٧٥.

(٣) تفسير العيّاشي ١/٣٣٠.

(٤) تفسير العيّاشي ١/٣٣٠.

(٥) أبو نعيم في الحلية ٣/١٩٨.

(٦) تفسير مقاتل ابن سليمان ١/٤٩٠.

(٧) تفسير مقاتل ابن سليمان ١/٤٩٠.

٣. روي أنّه قال: ﴿وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ بالخير، ﴿يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ إن شاء وسع في الرزق، وإن شاء قتر، هم خلقه وعبيده في قبضته[١].

الثوري:

روي عن سفيان الثوري (ت ١٦١ هـ) أنّه قال: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللهِ مَغْلُولَةٌ﴾، قالوا: لا ينفق شيئا[٢].

الرضا:

روي عن الإمام الرضا (ت ٢٠٣ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي عن المشرقي أنّه قال: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ يدان هكذا؟ وأشرت بيدي إلى يديه، فقال: لا، لو كان هكذا لكان مخلوقا[٣].

٢. روي أنّه قال: إن الله كما وصف نفسه، أحد صمد نور، ثم قال: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ فقيل له: أفله يدان هكذا؟ فقال: لو كان هكذا، كان مخلوقا[٤].

الرسّي:

ذكر الإمام القاسم الرسي (ت ٢٤٦ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[٥]:

١. ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾، وتأويل ذلك عند أهل العلم: بل نعمتاه مبسوطتان على خلقه، نعمة الدنيا، ونعمة الآخرة.. وقيل في تأويله: بل رزقاه مبسوطان على خلقه، رزق موسع، ورزق مضيق، ﴿يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾، أي: يفعل من ذلك ما هو أصلح لعباده.

الناصر:

ذكر الإمام الناصر بن الإمام الهادي (ت ٣٢٥ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[٦]:.

---

(١) تفسير مقاتل ابن سليمان ١/ ٤٩٠.

(٢) تفسير سفيان الثوري ص ١٠٤.

(٣) التوحيد: ٢/١٦٨.

(٤) تفسير العيّاشي ١/ ٣٣٠.

(٥) الأنوار البهية المنتزع من كتب أئمة الزيدية: ١/ ٣٣٣.

(٦) الأنوار البهية المنتزع من كتب أئمة الزيدية: ١/ ٣٣٤.

١. معنى قوله: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾، يعني: نعمتاه مبسوطتان، نعمته في الدنيا، ونعمته في الآخرة؛ وكذلك قوله: ﴿خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص:٧٥]، وقوله: ﴿مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا﴾ [يس: ٧١]، يقول: ما توليته بنفسي؛ والعرب تقول لمن تخاطبه: (في عنقك يا فلان لي يد)، يعني: نعمة، لا أن في عنقه له يد لازمة بكف وأصابع، وقد قال الله سبحانه: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾؛ فهل يجوز في العقول أن للمؤمنين عند الله عز وجل قدما مطروحة بعقب وأصابع؛ هذا ما لا يجوز في العقول، ولا يتوهّمه مسلم؛ وقد قال الشاعر في نحو ذلك:

تحملت من أسما ما ليس لي به ... ولا للجبال الراسيات يدان

والجبال ليس لها أيدي؛ فجاز هذا في لغة العرب، وإنما خاطبهم الله عز وجل بلغتهم التي يعرفون، وإنما جاء الهلاك في الدين والترك للتوحيد من جهل الخلق باللغة العربية؛ ألا ترى أن العرب تقول: (ما زلنا نطأ السماء حتى وصلنا إليكم من مسيرة أيام كثيرة)، وهذا الكلام عند من لا يفهمه غير جائز: أن يكون أحد يطأ السماء، وهو عند العرب وأهل المعرفة صحيح جائز؛ لأنهم يعنون بالسماء هاهنا: الغيث، أي: لم يزالوا يطئونه، حتى بلغوا إلى أصحابهم.

الماتريدي:

ذكر أبو منصور الماتريدي (ت ٣٣٣ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ الله مَغْلُولَةٌ﴾ الآية، قال الحسن: قول اليهود: (يد الله مغلولة)، أي: محبوسة ممنوعة عن تعذيبنا؛ لقولهم: ﴿نَحْنُ أَبْنَاءُ الله وَأَحِبَّاؤُهُ﴾، وقوله عز وجل: ﴿غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ﴾، في الآخرة بالسلاسل إلى أعناقهم.

٢. وقوله عز وجل: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾:

أ. بالمغفرة والتعذيب؛ يغفر لمن يشاء، ويعذب من يشاء، قال ابن عباسٍ: قولهم: (يد الله مغلولة): لا يعنون بذلك أن يده موثقة مغلولة حقيقة اليد والغل؛ ولكن وصفوه بالبخل، وقالوا: أمسك ما عنده؛ بخلا منه، تعالى الله عن ذلك.

(١) تأويلات أهل السنة: ٣/٥٥١.

ب. وقال آخرون: إن الله تبارك وتعالى قد كان بسط على اليهود الرزق؛ فكانت من أخصب الناس وأكثرهم خيرًا، فلما عصوا الله في مُحَمَّد ﷺ، وكفروا به، وبدلوا نعمة الله كفرًا بالنعمة ـ كف الله تعالى عنهم بعض الذي كان بسط عليهم من السعة في الرزق؛ فعند ذلك قالوا: ﴿يَدُ اللهِ مَغْلُولَةٌ﴾، لم يقولوا: يده مغلولة إلى عنقه، ولكن ممسكة عنهم الرزق، فلا يبسط كما كان يبسط؛ وهو كقوله: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ﴾: نهى عن البخل في الإنفاق، لا أنه أراد حقيقة غل اليد إلى عنقه؛ فعلى ذلك قولهم: ﴿يَدُ اللهِ مَغْلُولَةٌ﴾: كناية عن البخل ووصف به، لا حقيقة الغل، وبالله العصمة.

٣. وتأويل قوله: ﴿غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ﴾ على هذا التأويل، أي: أيديهم هي الممسكة عن الإنفاق، وهم الموصوفون بالبخل والشح، ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾، أي: نعمه مبسوطة: يوسع على من يشاء، ويقتر على من يشاء، وفي حرف ابن مسعود: بل يداه بسطان، قال الفراء: يقال: وجه مبسوط، ووجه بسط.

٤. ثم لا يحتمل أن يفهم من إضافة اليد إلى الله ما يفهم من الخلق؛ لما وجد إضافة اليد إلى من لا يحتمل أن يكون له اليد، من ذلك قوله تعالى: ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾: لا يفهم من القرآن اليد كما يفهم من الخلق؛ فعلى ذلك لا يجوز أن يفهم من إضافة اليد إلى الله تعالى كما يفهم من الخلق؛ ألا ترى أنه قال: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ﴾، ﴿فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾، لم يفهم منه اليد نفسها؛ وكذلك قوله: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ﴾، لكن أضيف ذلك إلى اليد؛ لما باليد يقدم ويعطي ويكسب؛ ألا ترى أنه قال تعالى: ﴿لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللهِ وَرَسُولِهِ﴾، ومعلوم أنه لم يفهم من اليد: اليد نفسها، ولكن أضيف ذلك إليها؛ لما ذكرنا.

٥. وقوله عز وجل: ﴿وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا﴾:

أ. قيل: عذبوا بما قالوا: ﴿يَدُ اللهِ مَغْلُولَةٌ﴾، واللعن ـ في اللغة ـ: هو الطرد؛ كأنه قال طردوا عن رحمة الله وأيسوا عنها حتى لا ينالوها أبدًا بقولهم الذي قالوا.

ب. وقيل: فيه إخبار: أنهم يموتون على ذلك، ولا يؤمنون، فماتوا على ذلك؛ فذلك دليل رسالته، ﷺ.

العياني:

ذكر الإمام المهدي العياني (ت ٤٠٤ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. معنى قوله: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ الله مَغْلُولَةٌ﴾، أي قالوا عليهم لعنة الله أن نعمته ملزومة، فرد عليهم كذبهم بقوله: ﴿غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾، أي لكن نعمتاه واسعتان، وهاتان النعمتان فهما نعمة الابتداء، ونعمة المكافأة، ويمكن أن تكونا نعمة الدنيا والدين.

الديلمي:

ذكر الإمام الناصر الديلمي (ت ٤٤٤ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[٢].:

١. ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ الله مَغْلُولَةٌ﴾ أي مقبوضة عن العطاء على جهة البخل وهؤلاء الذين قالوا هم يهود بني قينقاع ﴿غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ﴾ في جهنم ﴿وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا﴾ أي طردهم حين أجلوا من ديارهم ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ اليد هنا النعمة وأراد بالتثنية نعمة الدنيا ونعمة الآخرة، ويحتمل أن يقال: التثنية على جهة المبالغةكما يقال: لبيك وسعديك، ويجوز أن تكون اليد بمعنى الملك كما يقال: هذا ملك يمينه، ويجوز أن تكون بمعنى القوة كقوله: ﴿أُولِي الْأَيْدِي﴾ [ص:٤٥]، أي بل قوتاه بالثواب والعقاب قال: الأعشى:

يداك يدا مجد فكف مقيد   وكف إذا ما ظن بالزاد تنفق

٢. ﴿يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ أي يعطي من يشاء من عباده على قدر مصالحهم وينعم على من يشاء بما يصلحه في دينه ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾ يعني بحسدهم إياه وعنادهم له ﴿وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ﴾ أي بين اليهود والنصارى في تباين قولهم واختلافهم في المسيح.

الماوردي:

ذكر أبو الحسن الماوردي (ت ٤٥٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[٣]:

١. قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ الله مَغْلُولَةٌ﴾ فيه تأويلان:

أ. أحدهما: أي مقبوضة عن العطاء على جهة البخل، قاله ابن عباس وقتادة.

ب. الثاني: مقبوضة عن عذابهم، قاله الحسن، قال الكلبي ومقاتل: القائل لذلك فنحاس

---

(١) تفسير الإمام المهدي العياني: ٢/٢٢٤.

(٢) البرهان في تفسير القرآن للديلمي: ١/٢١٩.

(٣) تفسير الماوردي: ٢/٥١.

وأصحابه من يهود بني قينقاع.

٢. ﴿غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ﴾ فيه قولان:

أ. أحدهما: أنه قال ذلك إلزاماً لهم البخل على مطابقة الكلام، قاله الزجاج.

ب. الثاني: أن معناه غلت أيديهم في جهنم على وجه الحقيقة، قاله الحسن.

٣. ﴿وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا﴾:

أ. قال الكلبي: يعني يعذبهم بالجزية.

ب. ويحتمل أن يكون لَعْنُهم هو طردهم حين أجلوا من ديارهم.

٤. ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ فيه أربعة تأويلات:

أ. أحدها: أن اليدين ها هنا النعمة من قولهم لفلان عندي يد أي نعمة، ومعناه بل نعمتاه مبسوطتان، نعمة الدين، ونعمة الدنيا.

ب. الثاني: اليد ها هنا القوة كقوله تعالى: ﴿أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ﴾ [ص: ٤٥] ومعناه بل قوتان بالثواب والعقاب.

ج. الثالث: أن اليد ها هنا الملك من قولهم في مملوك الرجل هو: ملك يمينه، ومعناه ملك الدنيا والآخرة.

د. الرابع: أن التثنية للمبالغة في صفة النعمة كما تقول العرب لبيك وسعديك، وكقول الأعشى:

يداك يدا مجد فكف مفيدة ... وكف إذا ما ضنَّ بالزاد تنفق

٥. ﴿يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ يحتمل وجهين:

أ. أحدهما: يمعنى أنه يعطي من يشاء من عباده إذا علم أن في إعطائه مصلحة دينه.

ب. الثاني: ينعم على من يشاء بما يصلحة في دينه.

الطوسي:

ذكر أبو جعفر الطوسي (ت ٤٦٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

---

(١) تفسير الطوسي: ٥٨٠/٣.

١. أخبر الله تعالى في هذه الآية عن اليهود انها قالت: إن ﴿يَدُ اللهِ مَغْلُولَةٌ﴾ وقيل في معنى (مغلولة) قولان:

أ. أحدهما قال ابن عباس وقتادة، والضحاك: إن المراد بذلك أنها مقبوضة من العطاء على وجه الصفة له بالبخل كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ﴾ وإنما قالوا ذلك لما نزل قوله: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ قالوا: إن رب محمد فقير يستقرض منا فأنزل الله هذه الآية.

ب. الثاني: قال الحسن معناه أنها مقبوضة عن عذابنا.

٢. وقال البلخي يجوز أن يكون اليهود، قالوا قولا واعتقدوا مذهباً معناه يؤدي إلى أن الله يبخل في حال ويجود في حال أخرى، فحكي الله تعالى ذلك على وجه التعجب منهم والتكذيب لهم، ويجوز أن يكون ذلك على وجه التعجب منهم والتكذيب لهم، ويجوز أن يكونوا قالوا ذلك على وجه الهزء حيث لم يوسع على النبي ﷺ وعلى أصحابه، وليس ينبغي أن يتعجب من قوم يقولون لموسى: ﴿اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ ومن اتخذ العجل إلهاً، ومن زعم أنه ربه أبيض الرأس واللحية جالس على كرسي، كيف يقولون إن الله يبخل مرة ويجود اخرى، وقال الحسين بن علي المغربي حدثني بعض اليهود الثقات منهم بمصر أن طائفة قديمة من اليهود قالت ذلك بهذا اللفظ.

٣. واما اليد فإنها تستعمل على خمسة أوجه:

أ. أحدها: الجارحة.

ب. الثاني: النعمة.

ج. الثالث: القوة.

د. الرابع: الملك.

هـ. الخامس: تحقيق إضافة الفعل.

٤. قال الله تعالى: ﴿أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ﴾ معناه القوى ويقال لفلان على فلان يد أي نعمة وله علي يد أشكرها أي نعمة، وقال الشاعر:

له في ذوي الحاجات أيد كأنها مواقع ماء المزن في البلد القفر

ومثل ذلك يقولون له عليه صنع حسنة، وقوله: ﴿الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ﴾ معناه من يملك ذلك وقوله: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ أي توليت خلقه.

٥. وقوله: ﴿غلت أيدهم﴾ قيل في معناه قولان:

أ. أحدهما: قال الزجاج وغيره معناه الزموا البخل على مطابقة الكلام الأول فهم أبخل الناس.

ب. الثاني: قال الحسن وأبو علي ﴿غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ﴾ في جهنم.

٦. وقوله: ﴿وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا﴾ أي أبعدوا من رحمة الله وثوابه، ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ تكذيب منه تعالى لما قالوا وإخبار أن يديه مبسوطتان أي نعمة مبسوطة.

٧. وقيل في وجه تثنية اليد ثلاثة أقوال:

أ. أحدها: أنه أراد نعمة الدنيا ونعمة الدين أو نعمة الدنيا ونعمة الآخرة.

ب. الثاني: قال الحسن معناه قوتاه بالثواب والعقاب والغفران والعذاب بخلاف قول اليهود إن يده مقبوضة عن عذابنا.

ج. الثالث: أن التثنية للمبالغة في صفة النعمة مثل قولهم: لبيك وسعديك، وكما يقول القائل: بسط يديه يعطي يمنة ويسرة ولا يريدون الجارحة وإنما يريدون كثرة العطية وقال الأعشى:

يداك يدا مجد فكف مفيدة وكف إذا ما ضن بالزاد تنفق

٨. ﴿يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ معناه يعطي من شاء من عباده ويمنع من شاء منهم، لأنه متفضل بذلك ويفعل حسب ما تقتضيه المصلحة.

الجشمي:

ذكر الحاكم الجشمي (ت ٤٩٤ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. شرح مختصر للكلمات:

أ. اليد في اللغة تتصرف على خمسة أوجه: بمعنى الجارحة، وهو الأصل في الباب، وبمعنى النعمة، وبمعنى القوة والملك، وتحقيق إضافة الفعل:

(١) التهذيب في التفسير: ٣/٣٥٠.

- فالأول كقوله: ﴿فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ﴾
- الثاني: كقولهم: لفلان علي يَدٌ، أي نعمة أشكرها له، وسمي بذلك؛ لأن اليد سبب، وصلة النعمة.
- الثالث: كقوله: ﴿أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ﴾ وسمي بذلك؛ لأن أكثر ما يتقوى به على الأعمال اليد.
- الرابع: كقوله: ﴿بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ﴾
- الخامس: كقوله: ﴿خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ لأن أكثر الأعمال باليد، فأما ما يقوله الكلابية أن اليد صفة من صفاته تعالى ففاسد؛ لأن هذه الصفة غير معقولة، لا في الشاهد ولا في الغائب، ولأن اليد بمعنى الصفة غير موجودة في لغة العرب، ولأن كل صفة لله تعالى لا يدل عليها فعله إما بنفسه أو بواسطة فإثباته محال، ولا تدل أفعاله عليها، ولو جاز أن يقال: له يد بمعنى صفة جاز في الساق والقَدَمِ والعين والرأس ونحوه فيؤدي إلى الجهالات.

ب. الغُلُّ معروف، وفي رقبته غل من حديد، وغُلَّ فلان: جُعِلَ في عنقه غل.

٢. اختلف في سبب نزول الآية الكريمة:

أ. قيل: كان الله تعالى بسط نعمه على اليهود، فكانوا من أكثر الناس مالاً، فلما كفروا بمحمد ﷺ كف عنهم ذلك، فعند ذلك قال فنحاص: يد الله مغلولة، عن ابن عباس وعكرمة والضحاك.

ب. وقيل: إن اليهود قالوا: إن الله تعالى لما نزع ملكه منا وضع يده على صدره يتحمد إلينا، ويقول: يا بني إسرائيل، يا بني أحبائي، لا أبسطها حتى أرد عليكم الملك، عن مجاهد والسدي.

٣. ذكر الله تعالى من أقاويلهم الفاسدة ومذاهبهم الباطلة، فقال سبحانه: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ﴾ قيل: إن القائل واحد غير أن الآخرين رضوا بقوله، ولم ينهوه، فأشركهم فيها ﴿يَدُ اللهِ مَغْلُولَةٌ﴾ قيل: لم يريدوا عين الغل، ولا شبهة على عاقل أن ذلك لا يجوز، فعلم أنهم أرادوا معنى، ثم اختلفوا:

أ. فقيل: مقبوض العطاء على جهة الصفة بالبخل، عن ابن عباس وقتادة والضحاك والأصم وأبي علي، وذلك نحو قوله: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ﴾

ب. وقيل: مقبوضة عن عذابنا، فليس يعذبنا إلا قدر ما عبدنا العجل، عن الحسن.

ج. وقيل: أرادوا أنه فقير، كقولهم ﴿إِنَّ اللهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾ عن أبي مسلم.

د. وقيل: هو استفهام يعني أيد الله مغلولة حيث قدر المعيشة علينا؟

هـ. وقيل: يجوز أن يكونوا قالوه هُزُوًا بأن إله محمد لا ينفق عليه.

و. وقيل: يجوز أن يكون اعتقادهم اعتقاد المُجْبِرَة أنه لا يقدر على خلاف المعلوم فصار كالمغلول عما سوى المعلوم، ولو علموا أنه قادر لذاته لعلموا أنه يقدر على خلاف المعلوم إلا أنه لا يفعله للحكمة، ذكره الشيخ أبو حامد.

٤. ﴿غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ﴾:

أ. قيل: معناه ألزموا البخل على مطابقة الكلام الأول، عن الزجاج وغيره.

ب. وقيل: غلت أيديهم في جهنم على الحقيقة، عن الحسن وأبي علي.

ج. وقيل: أمسكت أيديهم عن الخيرات، وأبعدوا من رحمة الله بكفرهم.

د. وقيل: إنه دعاء كقولهم: قاتله الله، عن أبي مسلم.

٥. ﴿وَلُعِنُوا﴾:

أ. أبعدوا من الرحمة.

ب. وقيل: عذبوا.

٦. ﴿بِمَا قَالُوا﴾ أي جزاء على مقالتهم.

٧. في قوله تعالى: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ أقوال أربعة:

أ. الأول: اليد بمعنى النعمة، ثم اختلفوا:

- فقيل: نعمتاه نعمة الدين، ونعمة الدنيا، ونعمة التكليف، ونعمة التخويل.
- وقيل: نعمة الشدة، ونعمة الرخاء، ونعمة النفع، ونعمة الدفع، ونعمه الظاهرة، ونعمه الباطنة.

ب. الثاني: اليد بمعنى القدرة، يعني قويناه بالثواب والعقاب، خلاف ما قاله اليهود أن عذابه مقبوض عنا، عن الحسن.

ج. الثالث: المراد باليد النعمة، والتثنية للمبالغة في صفة النعمة، كما يقول العرب: لبيك وسعديك، قال الأعشى:.

يَدَاكَ يَدَا مَجْدٍ، فَكَفٌ مُفِيدَةٌ وَكَفٌّ إِذَا مَا ضُنَّ بِالزَّادِ تُنْفِقُ

د. الرابع: أراد به الملك والتثنية للمبالغة، قال الفراء: ونحوه ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾ يعني جنة واحدة.

٨. ﴿يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ أي يعطي كيف يشاء بحسب ما يرى من مصالح عباده.

٩. تدل الآية الكريمة على:

أ. أن في اليهود من يضيف البخل إلى الله تعالى عند تغير حاله إلى ضيق، ومعلوم أن كل مكلف يقر بالصانع، فلا يعتقد تعذر ذلك عليه، لكن لما جهلوا المصلحة وصفوه بذلك عند الضيق، وبعد، فلا يبعد عن قوم يعبدون العجل، ويقولون لنبيهم: ﴿اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ أن يعتقدوا مثل هذه الاعتقادات الفاسدة.

ب. نفي البخل عنه بأفصح لفظ، وهو قوله: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾، ولا يجوز أن يستدل بالآية على إثبات اليد؛ لأن ذلك من صفات الأجسام، ولا يقال: إنها صفة؛ لأن ذلك لا يُعْقَلُ، وإثبات ما لا يعقل يستحيل.

ج. أن الرزق من جهته، وأنه يرزق بحسب المصلحة لا بحسب شهواتهم.

د. أن العبد فاعل لقوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللهِ مَغْلُولَةٌ﴾

الطَبِرسي:

ذكر الفضل الطَبِرسي (ت ٥٤٨ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. أخبر الله تعالى بعظيم فريتهم، فقال: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللهِ مَغْلُولَةٌ﴾:

أ. أي: مقبوضة عن العطاء، ممسكة عن الرزق، فنسبوه إلى البخل، عن ابن عباس، وقتادة، وعكرمة، والضحاك، قالوا: إن الله كان قد بسط على اليهود حتى كانوا من أكثر الناس مالا، وأخصبهم ناحية، فلما عصوا الله في محمد ﷺ، وكذبوه، كف الله عنهم ما بسط عليهم من السعة، فقال عند ذلك فنحاص بن عاذورا ﴿يَدُ اللهِ مَغْلُولَةٌ﴾، ولم يقل إلى عنقه، قال أهل المعاني: إنما قال فنحاص ولم ينهه

(١) تفسير الطبرسي: ٣/٣٣٨.

الآخرون، ورضوا بقوله، فأشركهم الله في ذلك.

ب. وقيل: معناه يد الله مكفوفة عن عذابنا، فليس يعذبنا إلا بما يبر به قسمه، قدر ما عبد آباؤنا العجل، عن الحسن.

ج. وقيل: إنه استفهام، وتقديره أيد الله مغلولة عنا، حيث قتر المعيشة علينا.

د. وقال أبو القاسم البلخي: يجوز أن يكون اليهود قالوا قولا، واعتقدوا مذهبا، يؤدي معناه إلى أن الله يبخل في حال، ويجود في حالة أخرى، فحكى عنهم ذلك على وجه التعجيب منهم، والتكذيب لهم، ويجوز أن يكونوا قالوا ذلك على وجه الهزؤ، من حيث لم يوسع على النبي، وعلى أصحابه، وليس ينبغي أن يتعجب من قوم يقولون لموسى ﴿اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ ويتخذون العجل إلها أن يقولوا: إن الله يبخل تارة، ويجود أخرى.

هـ. وقال الحسين بن علي المغربي: حدثني بعض اليهود بمصر أن طائفة منهم قالت ذلك.

٢. اليد: تذكر في اللغة على خمسة أوجه: الجارحة، والنعمة، والقوة، والملك، وتحقيق إضافة الفعل:

أ. فالنعمة في قولهم لفلان عندي يد أشكرها أي: نعمة، قال عدي بن زيد:

ولن أذكر النعمان إلا بصالح... فإن له عندي يديا وأنعما

جمع يدا على يدي: كالكليب والعبيد، وحسن التكرار لاختلاف اللفظين.

ب. واليد: للقوة في نحو قوله تعالى: ﴿أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ﴾ أي ذوي القوى والعقول، وأنشد الأصمعي للغنوي:

فاعمد لما تعلو فمالك بالذي لا تستطيع من الأمور يدان

يريد ليس لك به قوة، وعلى هذا ما ذكره سيبويه من قولهم: لا يدين بها لك، ومعنى هذه التثنية المبالغة في نفي الاقتدار، والقوة على الشيء.

ج. واليد بمعنى الملك: في نحو قوله: ﴿الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ﴾ أي يملك ذلك، وهذه الضيعة في يد فلان أي: في ملكه.

د. واليد بمعنى التولي للشيء وإضافة الفعل، في نحو قوله تعالى: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ أي لما توليت خلقه تخصيصا لآدم، وتشريفا له بهذا، وإن كان جميع المخلوقات هو خلقها لا غير، وتقول: يدي لك رهن

بالوفاء إذا ضمنت له شيئا، وكأن معناه اجتهادي وطاقتي.

هـ. وتستعمل أيضا حيث تراد النصرة، وذلك مثل ما جاء في الحديث: (وهم يد على من سواهم) أي نصرتهم واحدة، وكلمتهم مجتمعة على من تشق عصاهم.

و. قال أحمد بن يحيى بن ثعلب: اليد الجماعة، ومنه الحديث: (وهم يد على من سواهم)

ز. وقد يستعار اليد للشيء الذي لا يد له، تشبيها بمن له اليد، قال ابن الأعرابي: يد الدهر: الدهر كله يقال لا آتيه يد الدهر، ويد المسند، قال ذو الرمة:

ألا طرقت مي هيوما بذكرها   وأيدي الثريا جنح في المغارب

وأصل هذه الاستعارة لثعلبة بن صعير في قوله: (ألقت ذكاء يمينها في كافر) فجعل للشمس يدا في المغيب، لما أراد أن يصفها بالغروب، ثم للبيد في قوله:

حتى إذا ألقت يدا في كافر   وأجن عورات الثغور ظلامها

ح. وقد يستعار اليد في مواضع كثيرة يطول ذكرها، ولما كان الجواد ينفق باليد، والبخيل يمسك باليد، عن الانفاق، أضافوا الجود والبخل إلى اليد، فقالوا للجواد مبسوط اليد، وبسط البنان، فياض الكف، وللبخيل كز الأصابع، مقبوض الكف، جعل الأنامل، في أشباه لهذا كثيرة معروفة في أشعارهم.

٣. أنكر الزجاج على من ذهب إلى أن معنى اليد في الآية: النعمة، بأن قال إن هذا ينقضه قوله: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ فيكون المعنى: بل نعمتاه مبسوطتان، ونعم الله أكثر من أن تحصى، قال أبو علي الفارسي: قوله: نعمتاه مبسوطتان، لا يدل على تقليل النعمة، وعلى أن نعمته نعمتان ثنتان:

أ. ولكنه يدل على الكثرة والمبالغة، فقد جاء بالتثنية، ويراد به الكثرة والمبالغة، وتعداد الشيء لا المعنى الذي يشفع الواحد المفرد، ألا ترى إلى قولهم: لبيك إنما هو إقامة على طاعتك بعد إقامة، وكذلك سعديك إنما هو مساعدة بعد مساعدة، وليس المراد بذلك طاعتين اثنتين، ولا مساعدتين، فكذلك المعنى في الآية إن نعمه متظاهرة متتابعة، فهذا وجه.

ب. وإن شئت حملت المثنى على أنه تثنية جنس، لا تثنية واحد مفرد، ويكون أحد جنسي النعمة نعمة الدنيا، والآخر نعمة الآخرة، أو نعمة الدين، فلا يكون التثنية على هذا مرادا بها اثنتين، وقد جاء تثنية اسم الجنس في كلامهم مجيئا واسعا، قال الفرزدق:

وكل رفيقي كل رحل وإن هما تعاطى القنا قوما هما أخوان

فتأويل الرفيقين في البيت: العموم والإشاعة، ألا ترى أنه لا يجوز أن يكون رفيقان اثنان لكل رحل، وبعده، فإذا كانوا قد استجازوا تثنية الجمع الذي بني للكثرة كقوله:

لأصبح القوم أو بادا ولم يجدوا عند التفرق في الهيجا جمالين

وقبله:

سعى عقالا فلم يترك لنا سبدا فكيف لو قد سعى عمرو عقالين

وقول أبي النجم (بين رماحي نهشل، وعقيل) ونحو ما حكاه سيبويه من قولهم: لقاحان سوداوان، فإن تجوز تثنية اسم الجنس أجدر، لأنه على لفظ الواحد، فالتثنية فيه أحسن إذ هو أشبه بألفاظ الأفراد.

٤. ﴿غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ﴾ قيل فيه أقوال:

أ. أحدها: إنه على سبيل الإخبار، أي: غلت أيديهم في جهنم، عن الحسن، واختاره الجبائي، ومعناه شدت إلى أعناقهم، وتأويله أنهم جوزوا على هذا القول بهذا الجزاء، فعلى هذا يكون في الكلام ضمير الفاء، أو الواو، وتقديره فغلت أيديهم، أو وغلت، لان كلامهم قد تم، واستؤنف بعده كلام آخر، ومن عاداتهم أنهم يحذفون فيما يجري هذا المجرى، ومن ذلك قوله: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللهَّ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللهَّ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [البقرة: ٦٧] والمراد فقالوا: لان كلام موسى قد تم.

ب. ثانيها: أن يكون القول خرج مخرج الدعاء، كما يقال: قاتله الله، عن أبي مسلم، وعلى هذا فيكون معناه تعليمنا وتوفيقنا على الدعاء عليهم، كما علمنا الاستثناء في غير هذا الموضع، بقوله: ﴿لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللهُ آمِنِينَ﴾

ج. ثالثها: إن معناه جعلوا بخلاء، ألزموا البخل، فهم أبخل قوم، فلا يلفى يهودي أبدا غير لئيم بخيل، عن الزجاج.

٥. ﴿وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا﴾:

أ. أي: أبعدوا عن رحمة الله وثوابه، بسبب هذه المقالة.

ب. وقيل: عذبوا في الدنيا بالجزية، وفي الآخرة بالنار، عن الحسن.

٦. ثم رد الله عليهم بضد مقالتهم فقال: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ أي: ليس الامر على ما وصفوه، بل هو جواد، فليس لذكر اليد هنا معنى غير إفادة معنى الجود.

٧. وإنما قال: ﴿يَدَاهُ﴾ على التثنية:

أ. مبالغة في معنى الجود والإنعام، لان ذلك أبلغ فيه من أن يقول بل يده مبسوطة ويمكن أن يكون المراد باليد النعمة، ويكون الوجه في تثنية النعمة أنه أراد نعم الدنيا، ونعم الآخرة، لأن الكل، وان كانت نعم الله، فمن حيث اختص كل منهما بصفة تخالف صفة الآخر، كأنهما جنسان ويمكن أن يكون تثنية النعمة أنه أريد بهما النعم الظاهرة والباطنة، كما قال تعالى: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾

ب. وقيل: إن المراد باليدين القوة والقدرة، عن الحسن، ومعناه قوتاه بالثواب والعقاب مبسوطتان، بخلاف قول اليهود: إن يده مقبوضة عن عذابنا.

٨. ﴿يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ معناه يعطي كيف يشاء من يشاء من عباده، ويمنع من يشاء من عباده، لأنه متفضل بذلك، فيفعل على حسب المصلحة.

٩. قال أبو علي: اعلم أن يدا كلمة نادرة، ووزنها فعل، يدلك على ذلك قولهم أيد وجمعهم له على أفعل، كأكلب وأنفس، يدل على أنه فعل كما دل آباء وآخاء على أن وزن أب وأخ فعل، واللام منه الياء، وهو من باب سلس وقلق، لا يعلم لذلك في الكلام نظير، والذي يدل على ذلك يديت إليه يدا، ولا يعلم في الواو مثله، ألا ترى أنه لم يجئ مثل دعوت، وقد جاء في الأسماء ذلك، وهو قولهم واو، وأما قولهم: ذهبوا أيادي سبا إذا أرادوا الافتراق، وقول ذي الرمة:

فيا لك من دار تحمل أهلها   أيادي سبا بعدي وطال احتيالها

وهو في موضع حال، لأنه كقولك ذهبوا متفرقين، وإذا كان كذلك لا يصلح إضافتها لان سبأ معرفة، فيكون المضاف إليه معرفة، فإذا كان معرفة، وجب أن لا يكون حالا، قال والوجه فيها عندي أن لا يقدر فيها الإضافة، ولكن يجعل الاسمان بمنزلة اسم واحد، كحضرموت فيمن لم يضف، وكان القياس أن يتحرك اللام من أيادي بالفتح في موضع النصب، إلا أنهم أسكنوه ولم يحركوه، وشبهوه بالحالتين الأخيرتين، وهذا الضرب قد اطرد فيه الاسكان، فقالوا: معدي كرب وقالي، وبادي بدا، فأسكنوا جميع ذلك.

ابن الجوزي:

ذكر أبو الفرج بن الجوزي (ت ٥٩٧ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللهِ مَغْلُولَةٌ﴾ قال أبو صالح عن ابن عباس: نزلت في فنحاص اليهوديّ وأصحابه، قالوا: يد الله مغلولة، وقال مقاتل: فنحاص وابن صلوبا، وعازر بن أبي عازر، وفي سبب قولهم هذا ثلاثة أقوال:

أ. أحدها: أنّ الله تعالى كان قد بسط لهم الرّزق، فلمّا عصوا الله تعالى في أمر محمّد ﷺ وكفروا به كفّ عنهم بعض ما كان بسط لهم، فقالوا: يد الله مغلولة، رواه أبو صالح عن ابن عباس، وبه قال عكرمة.

ب. الثاني: أن الله تعالى استقرض منهم كما استقرض من هذه الأمّة، فقالوا: إنّ الله بخيل، ويده مغلولة فهو يستقرضنا، قاله قتادة.

ج. الثالث: أن النّصارى لمّا أعانوا بختنصّر المجوسيّ على تخريب بيت المقدس، قالت اليهود: لو كان الله صحيحا لمنعنا منه، فيده مغلولة، ذكره قتادة أيضا.

٢. والمغلولة: الممسكة المنقبضة، وعن ماذا عنوا أنها ممسكة، فيه قولان:

أ. أحدهما: عن العطاء، قاله ابن عباس، وقتادة، والفرّاء، وابن قتيبة، والزجّاج.

ب. الثاني: ممسكة من عذابنا، فلا يعذّبنا إلا تحلّة القسم بقدر عبادتنا العجل، قاله الحسن.

٣. في قوله تعالى: ﴿غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ﴾ ثلاثة أقوال:

أ. أحدها: غلّت في جهنّم، قاله الحسن.

ب. الثاني: أمسكت عن الخير، قاله مقاتل.

ج. الثالث: جعلوا بخلاء، فهم أبخل قوم، قاله الزجّاج.

د. قال ابن الأنباريّ: وهذا خبر أخبر الله تعالى به الخلق أنّ هذا قد نزل بهم، وموضعه نصب على معنى الحال، تقديره: قالت اليهود هذا في حال حكم الله بغلّ أيديهم، ولعنته إيّاهم، ويجوز أن يكون المعنى: فغلّت أيديهم، ويجوز أن يكون دعاء، معناه: تعليم الله لنا كيف ندعو عليهم، كقوله تعالى: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي

(١) زاد المسير في علم التفسير: ١/٥٦٦.

لَهَبٍ﴾ وقوله تعالى: ﴿لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللهُ آمِنِينَ﴾

٤. في قوله تعالى: ﴿وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا﴾ ثلاثة أقوال:

أ. أحدها: أبعدوا من رحمة الله.

ب. الثاني: عذّبوا قردة بالجزية، وفي الآخرة بالنّار.

ج. الثالث: مسخوا قردة وخنازير.

٥. وروى ابن عباس عن النبيّ ﷺ أنه قال: (من لعن شيئا لم يكن للعنه أهلا رجعت اللعنة على اليهود بلعنة الله إيّاهم)

٦. قال الزجّاج: وقد ذهب قوم إلى أن معنى (يد الله): نعمته، وهذا خطأ ينقضه ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ فيكون المعنى على قولهم: نعمتاه، ونعم الله أكثر من أن تحصى، والمراد بقوله: بل ﴿يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾: أنه جواد ينفق كيف يشاء، وإلى نحو هذا ذهب ابن الأنباريّ، قال ابن عباس: إن شاء وسّع في الرّزق، وإن شاء قتّر.

الرَّازي:

ذكر الفخر الرازي (ت ٦٠٦ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[1]:

١. سؤال وإشكال: في هذا الموضع إشكال وهو أن الله تعالى حكى عن اليهود أنهم قالوا ذلك، ولا شك في أن الله تعالى صادق في كل ما أخبر عنه، ونرى اليهود مطبقين متفقين على أنا لا نقول ذلك ولا نعتقده ألبتة، وأيضا المذهب الذي يحكى عن العقلاء لا بدّ وأن يكون معلوم البطلان بضرورة العقل، والقول بأن يد الله مغلولة قول باطل ببديهة العقل، لأن قولنا (الله) اسم لموجود قديم، وقادر على خلق العالم وإيجاده وتكوينه، وهذا الموجود يمتنع أن تكون يده مغلولة وقدرته مقيدة وقاصرة، وإلا فكيف يمكنه مع القدرة الناقصة حفظ العالم وتدبيره، والجواب: إذا ثبت هذا فنقول: حصل الأشكال الشديد في كيفية تصحيح هذا النقل وهذه الرواية فنقول: عندنا فيه وجوه:

أ. الأول: لعلّ القوم إنما قالوا هذا على سبيل الإلزام، فإنهم لما سمعوا قوله تعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي

(١) التفسير الكبير: ١٢، ص: ٣٩٤.

يُقْرِضُ اللهَ قَرْضاً حَسَناً﴾ [البقرة: ٢٤٥] قالوا: لو احتاج إلى القرض لكان فقيرا عاجزا، فلما حكموا بأن الإله الذي يستقرض شيئا من عباده فقير مغلول اليدين، لا جرم حكى الله عنهم هذا الكلام.

ب. الثاني: لعلّ القوم لما رأوا أصحاب الرسول ﷺ في غاية الشدة والفقر والحاجة قالوا على سبيل السخرية والاستهزاء: إن إله محمد فقير مغلول اليد، فلما قالوا ذلك حكى الله عنهم هذا الكلام.

ج. الثالث: قال المفسرون: اليهود كانوا أكثر الناس مالا وثروة، فلما بعث الله محمدا وكذبوا به ضيق الله عليهم المعيشة فعند ذلك قالت اليهود: يد الله مغلولة، أي مقبوضة عن العطاء على جهة الصفة بالبخل، والجاهل إذا وقع في البلاء والشدة والمحنة يقول مثل هذه الألفاظ.

د. الرابع: لعلّه كان فيهم من كان على مذهب الفلسفة، وهو أنه تعالى موجب لذاته، وأن حدوث الحوادث عنه لا يمكن إلا على نهج واحد وسنن واحد، وأنه تعالى غير قادر على إحداث الحوادث على غير الوجوه التي عليها تقع، فعبروا عن عدم الاقتدار على التغيير والتبديل بغل اليد.

هـ. الخامس: قال بعضهم: المراد هو قول اليهود: إن الله لا يعذبنا إلا بقدر الأيام التي عبدنا العجل فيها، إلا أنهم عبروا عن كونه تعالى غير معذب لهم إلا في هذا القدر من الزمان بهذه العبارة الفاسدة، واستوجبوا اللعن بسبب فساد العبارة وعدم رعاية الأدب، وهذا قول الحسن فثبت أن هذه الحكاية صحيحة على كل هذه الوجوه والله أعلم.

٢. غل اليد وبسطها مجاز مشهور عن البخل والجود، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ﴾ [الإسراء: ٢٩] قالوا: والسبب فيه أن اليد آلة لأكثر الأعمال لا سيما لدفع المال ولإنفاقه، فأطلقوا اسم السبب على المسبب، وأسندوا الجود والبخل إلى اليد والبنان والكف والأنامل، فقيل للجواد: فياض الكف مبسوط اليد، وبسط البنان تره الأنامل، ويقال للبخيل: كز الأصابع مقبوض الكف جعد الأنامل.

٣. سؤال وإشكال: لما كان قوله: ﴿يَدُ اللهِ مَغْلُولَةٌ﴾ المراد منه البخل وجب أن يكون قوله: ﴿غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ﴾ المراد منه أيضا البخل لتصح المطابقة، والبخل من الصفات المذمومة التي نهى الله تعالى عنها، فكيف يجوز أن يدعو عليهم بذلك؟ والجواب: قوله: ﴿يَدُ اللهِ مَغْلُولَةٌ﴾ عبارة عن عدم المكنة من البذل والإعطاء، ثم إن عدم المكنة من الإعطاء تارة يكون لأجل البخل وتارة يكون لأجل الفقر، وتارة يكون

لأجل العجز، فكذلك قوله: ﴿غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ﴾ دعاء عليهم بعدم القدرة والمكنة؛ سواء حصل ذلك بسبب العجز أو الفقر أو البخل، وعلى هذا التقدير فإنه يزول الأشكال.

٤. في قوله تعالى: ﴿غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا﴾ وجهان:

أ. الأول: أنه دعاء عليهم، والمعنى أنه تعالى يعلمنا أن ندعو عليهم بهذا الدعاء كما علمنا الاستثناء في قوله: ﴿لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللهُ آمِنِينَ﴾ [الفتح: ٢٧] وكما علمنا الدعاء على المنافقين في قوله: ﴿فَزَادَهُمُ اللهُ مَرَضًا﴾ [البقرة: ١٠] وعلى أبي لهب في قوله: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ﴾ [المسد: ١]

ب. الثاني: أنه إخبار، قال الحسن: غلت أيديهم في نار جهنم على الحقيقة، أي شدت إلى أعناقهم جزاء لهم على هذا القول.

٥. سؤال وإشكال: إذا كان هذا الغل إنما حكم به جزاء لهم على هذا القول، فكان ينبغي أن يقال: فغلت أيديهم، والجواب: حذف العطف وإن كان مضمرا إلا أنه حذف لفائدة، وهي أنه لما حذف كان قوله: ﴿غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ﴾ كالكلام المبتدأ به، وكون الكلام مبتدأ به يزيده قوة ووثاقة؛ لأن الابتداء بالشيء يدل على شدة الاهتمام به وقوة الاعتناء بتقريره، ونظير هذا الموضع في حذف فاء التعقيب قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا﴾ [البقرة: ٦٧] ولم يقل: فقالوا أتتخذنا هزوا.

٦. ﴿وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا﴾ قال الحسن: عذبوا في الدنيا بالجزية وفي الآخرة بالنار.

٧. ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾، الكلام في هذه الآية من المهمات، فإن الآيات الكثيرة من القرآن ناطقة بإثبات اليد، فتارة المذكور هو اليد من غير بيان العدد، قال تعالى: ﴿يَدُ اللهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ [الفتح: ١٠] وتارة بإثبات اليدين لله تعالى: منها هذه الآية، ومنها قوله تعالى لإبليس الملعون: ﴿مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص: ٧٥] وتارة بإثبات الأيدي، قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا﴾ [يس: ٧١]، إذا عرفت هذا فنقول اختلفت الأمة في تفسير يد الله تعالى:

أ. فقالت المجسمة: إنها عضو جسماني كما في حق كل أحد، واحتجوا عليه بقوله تعالى: ﴿أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٩٥] وجه الاستدلال أنه تعالى قدح في إلهية الأصنام لأجل أنها ليس لها شيء من هذه الأعضاء، فلو لم

تحصل لله هذه الأعضاء لزم القدح في كونه إلها، ولما بطل ذلك وجب إثبات هذه الأعضاء له قالوا وأيضا اسم اليد موضوع لهذا العضو، فحمله على شيء آخر ترك للغة، وإنه لا يجوز، والكلام في إبطال هذا القول مبني على أنه تعالى ليس بجسم، والدليل عليه أن الجسم لا ينفك عن الحركة والسكون، وهما محدثان، وما لا ينفك عن المحدث فهو محدث، ولأن كل جسم فهو متناه في المقدار، وكل ما كان متناهيا في المقدار فهو محدث، ولأن كل جسم فهو مؤلف من الأجزاء، وكل ما كان كذلك كان قابلا للتركيب والانحلال، وكل ما كان كذلك افتقر إلى ما يركّبه ويؤلّفه، وكل ما كان كذلك فهو محدث، فثبت بهذه الوجوه أنه يمتنع كونه تعالى جسما، فيمتنع أن تكون يده عضوا جسمانيا.

ب. وأما جمهور الموحدين فلهم في لفظ اليد قولان:

• الأول: قول من يقول: القرآن لما دلّ على إثبات اليد لله تعالى آمنا به، والعقل لما دل على أنه يمتنع أن تكون يد الله عبارة عن جسم مخصوص وعضو مركب من الأجزاء والأبعاض آمنا به، فأما أن اليد ما هي وما حقيقتها فقد فوضنا معرفتها إلى الله تعالى، وهذا هو طريقة السلف.

• وأما المتكلمون فقالوا: اليد تذكر في اللغة على وجوه:

أ. أحدها: الجارحة وهو معلوم.

ب. ثانيها: النعمة، تقول: لفلان عندي يد أشكره عليها.

ج. ثالثها: القوة قال تعالى: ﴿أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ﴾ [ص: ٤٥] فسروه بذوي القوى والعقول، وحكى سيبويه أنهم قالوا: لا يد لك بهذا، والمعنى سلب كمال القدرة

د. رابعها: الملك، يقال: هذه الضيعة في يد فلان، أي في ملكه، قال تعالى: ﴿الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ﴾ [البقرة: ٢٣٧] أي يملك ذلك.

هـ. خامسها: شدة العناية والاختصاص، قال تعالى: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص: ٧٥] والمراد تخصيص آدم عليه السلام بهذا التشريف، فإنه تعالى هو الخالق لجميع المخلوقات، ويقال: يدي لك رهن بالوفاء إذا ضمن له شيئا.. إذا عرفت هذا فنقول: اليد في حق الله يمتنع أن تكون بمعنى الجارحة، وأما سائر المعاني فكلها حاصلة.

• وهاهنا قول آخر، وهو أن أبا الحسن الأشعري زعم في بعض أقواله أن اليد صفة قائمة بذات

الله تعالى، وهي صفة سوى القدرة من شأنها التكوين على سبيل الاصطفاء، وقال: والذي يدل عليه أنه تعالى جعل وقوع خلق آدم بيديه علة لكرامة آدم واصطفائه، فلو كانت اليد عبارة عن القدرة لامتنع كونه علة للاصطفاء، لأن ذلك حاصل في جميع المخلوقات، فلا بدّ من إثبات صفة أخرى وراء القدرة يقع بها الخلق والتكوين على سبيل الاصطفاء، وأكثر العلماء زعموا أن اليد في حق الله تعالى عبارة عن القدرة وعن النعمة.

٨. سؤال وإشكال: إن فسرتم اليد في حق الله تعالى بالقدرة فهذا مشكل؛ لأن قدرة الله تعالى واحدة ونص القرآن ناطق بإثبات اليدين تارة، وبإثبات الأيدي أخرى، وإن فسرتموها بالنعمة فنص القرآن ناطق بإثبات اليدين، ونعم الله غير محدودة كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ الله لَا تُحْصُوهَا﴾ [إبراهيم: ٣٤] [النحل: ١٨]، والجواب: إن اخترنا تفسير اليد بالقدرة كان الجواب عن الأشكال المذكور أن القوم جعلوا قولهم ﴿يَدُ الله مَغْلُولَةٌ﴾ كناية عن البخل، فأجيبوا على وفق كلامهم، فقيل: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ أي ليس الأمر على ما وصفتموه به من البخل، بل هو جواد على سبيل الكمال، فإن من أعطى بيده أعطى على أكمل الوجوه، وأما إن اخترنا تفسير اليد بالنعمة كان الجواب عن الإشكال المذكور من وجهين:

أ. الأول: أنه نسبة بحسب الجنس، ثم يدخل تحت كل واحد من الجنسين أنواع لا نهاية لها، فقيل: نعمتاه نعمة الدين ونعمة الدنيا، أو نعمة الظاهر ونعمة الباطن، أو نعمة النفع ونعمة الدفع، أو نعمة الشدة ونعمة الرخاء.

ب. الثاني: أن المراد بالنسبة المبالغة في وصف النعمة، ألا ترى أن قولهم (لبيك) معناه إقامة على طاعتك بعد إقامة، وكذلك (سعديك) معناه مساعدة بعد مساعدة، وليس المراد منه طاعتين ولا مساعدتين، فكذلك الآية: المعنى فيها أن النعمة متظاهرة متتابعة ليست كما ادعى من أنها مقبوضة ممتنعة.

٩. ﴿يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ أي يرزق ويخلق كيف يشاء، إن شاء قتر، وإن شاء وسع، وقال: ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ﴾ [الشورى: ٢٧]، وقال: ﴿يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ [الرعد: ٢٦]، وقال: ﴿قُلِ اللهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ﴾ إلى قوله: ﴿وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ﴾ [آل عمران: ٢٦]

١٠. في قوله تعالى: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ رد على المعتزلة ـ ومن وافقهم ـ وذلك

لأنهم قالوا: يجب على الله تعالى إعطاء الثواب للمطيع، ويجب عليه أن لا يعاقبه، ويجب عليه أن لا يدخل العاصي الجنة، ويجب عليه عند بعضهم أن يعاقبه، فهذا المنع والحجر والقيد يجري مجرى الغل، فهم في الحقيقة قائلون بأن يد الله مغلولة وأما أهل السنة فهم القائلون بأن الملك ملكه، وليس لأحد عليه استحقاق، ولا لأحد عليه اعتراض كما قال: ﴿قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [المائدة: ١٧] فقوله سبحانه: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ لا يستقيم إلا على المذهب والمقالة، والحمد لله على الدين القويم والصراط المستقيم.

القرطبي:

ذكر محمد بن أحمد القرطبي (ت ٦٧١ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللهِ مَغْلُولَةٌ﴾:

أ. قال عكرمة: إنما قال هذا فنحاص بن عازوراء لعنه الله، وأصحابه، وكان لهم أموال فلما كفروا بمحمد ﷺ قل ما لهم، فقالوا: إن الله بخيل، ويد الله مقبوضة عنا في العطاء، فالآية خاصة في بعضهم.

ب. وقيل: لما قال قوم هذا ولم ينكر الباقون صاروا كأنهم بأجمعهم قالوا هذا.

ج. وقال الحسن: المعنى يد الله مقبوضة عن عذابنا.

د. وقيل: إنهم لما رأوا النبي ﷺ في فقر وقلة مال وسمعوا ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ ورأوا النبي ﷺ قد كان يستعين بهم في الديات قالوا: إن إله محمد فقير، وربما قالوا: بخيل.

٢. هذا معنى قولهم: ﴿يَدُ اللهِ مَغْلُولَةٌ﴾ هذا على التمثيل كقوله: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ﴾ [الاسراء]، ويقال للبخيل: جعد الأنامل، ومقبوض الكف، وكز الأصابع، ومغلول اليد، قال الشاعر:

كانت خراسان أرضا إذ يزيد بها ... وكل باب من الخيرات مفتوح

فاستبدلت بعده جعدا أنامله ... كأنما وجهه بالخل منضوح

٣. اليد في كلام العرب:

---

(١) تفسير القرطبي: ٦/٢٣٨.

أ. تكون للجارحة كقوله تعالى: ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا﴾ [ص] هذا محال على الله تعالى.

ب. وتكون للنعمة، تقول العرب: كم يد لي عند فلان، أي كم من نعمة لي قد أسديتها له.

ج. وتكون للقوة، قال الله تعالى: ﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ﴾ [ص]، أي ذا القوة.

د. وتكون يد الملك والقدرة، قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ الله يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ [آل عمران]

هـ. وتكون بمعنى الصلة، قال الله تعالى: ﴿مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا﴾ [يس] أي مما عملنا نحن، وقال: ﴿أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ﴾ أي الذي له عقدة النكاح.

و. وتكون بمعنى التأييد والنصرة، ومن قوله ﷺ: (يد الله مع القاضي حتى يقضي والقاسم حتى يقسم)

ز. وتكون لإضافة الفعل إلى المخبر عند تشريفا له وتكريما، قال الله تعالى: ﴿يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص] لا يجوز أن تحمل على الجارحة، لأن الباري جل وتعالى واحد لا يجوز عليه التبعيض، ولا على القوة والملك والنعمة والصلة، لأن الاشتراك يقع حينئذ بين وليه آدم وعدوه إبليس، ويبطل ما ذكر من تفضيله عليه، لبطلان معنى التخصيص، فلم يبق إلا أن تحمل على صفتين تعلقتا بخلق آدم تشريفا له دون خلق إبليس تعلق القدرة بالمقدور، لا من طريق المباشرة ولا من حيث المماسة، ومثله ما روي أنه عز اسمه وتعالى علاه وجد أنه (كتب التوراة بيده، وغرس دار الكرامة بيده لأهل الجنة)، وغير ذلك تعلق الصفة بمقتضاها.

٤. ﴿غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا﴾ حذفت الضمة من الياء لثقلها:

أ. أي غلت في الآخرة، ويجوز أن يكون دعاء عليهم، وكذا ﴿وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا﴾ والمقصود تعليمنا كما قال: ﴿لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللهُ﴾ [الفتح]، علمنا الاستثناء كما علمنا الدعاء على أبي لهب بقوله: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ﴾ [المسد]

ب. وقيل: المراد أنهم أبخل الخلق، فلا ترى يهوديا غير لئيم، وفي الكلام على هذا القول إضمار الواو، أي قالوا: يد الله مغلولة وغلت أيديهم، واللعن بالابعاد، وقد تقدم.

٥. ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ ابتداء وخبر، أي بل نعمته مبسوطة، فاليد بمعنى النعمة، سؤال وإشكال: قال بعضهم: هذا غلط، لقوله: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ فنعم الله تعالى أكثر من أن تحصى فكيف

تكون بل نعمتاه مبسوطتان؟ والجواب:

أ. أنه يجوز أن يكون هذا تثنية جنس لا تثنية واحد مفرد، فيكون مثل قوله ﷺ: (مثل المنافق كالشاة العائرة بين الغنمين)، فأحد الجنسين نعمة الدنيا، والثاني نعمة الآخرة.

ب. وقيل: نعمتا الدنيا النعمة الظاهرة والنعمة الباطنة، كما قال: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ [لقمان]

ج. وروى ابن عباس عن النبي ﷺ أنه قال فيه: (النعمة الظاهرة ما حسن من خلقك، والباطنة ما ستر عليك من سيئ عملك)

د. وقيل: نعمتاه المطر والنبات اللتان النعمة بهما ومنهما.

هـ. وقيل: إن النعمة للمبالغة، كقول العرب: (لبيك وسعديك) وليس يريد الاقتصار على مرتين، وقد يقول القائل: ما لي بهذا الامر يد أو قوة.

و. قال السدي، معنى قوله: ﴿يَدَاهُ﴾ قوتاه بالثواب والعقاب، بخلاف ما قالت اليهود: إن يده مقبوضة عن عذابهم.

ز. وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: (إن الله تعالى قال لي أنفق أنفق عليك)، وقال رسول الله ﷺ: (يمين الله ملأى لا يغيضها سحاء الليل والنهار أرأيتم ما أنفق مذ خلق السماوات والأرض فإنه لم يغض ما في يمينه ـ قال ـ وعرشه على الماء وبيده الأخرى القبض يرفع ويخفض، السح الصب الكثير، وبغيض ينقص، ونظير هذا الحديث قوله جل ذكره: ﴿وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ﴾، وأما هذه الآية ففي قراءة ابن مسعود (بل يداه بسطان) حكاه الأخفش، وقال يقال: يد بسطة، أي منطلقة منبسطة.

٦ . ﴿يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾) أي يرزق كما يريد، ويجوز أن تكون اليد في هذه الآية بمعنى القدرة، أي قدرته شاملة، فإن شاء وسع وإن شاء قتر.

الشوكاني:

ذكر محمد بن علي الشوكاني (ت ١٢٥٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[1]:

---

(١) فتح القدير: ٢/٦٧.

١. ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللهِ مَغْلُولَةٌ﴾ اليد عند العرب تطلق على الجارحة، ومنه قوله تعالى: ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا﴾ وعلى النعمة، يقولون كم يد لي عند فلان؛ وعلى القدرة، ومنه قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللهِ﴾ أو على التأييد، ومنه قوله ﷺ: (يد الله مع القاضي حين يقضي) وتطلق على معان أخر، وهذه الآية هي على طريق التمثيل كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ﴾ والعرب تطلق غلّ اليد على البخل وبسطها على الجود مجازا، ولا يريدون الجارحة كما يصفون البخيل بأنه جعد الأنامل، ومقبوض الكفّ، ومنه قوله الشاعر:

كانت خراسان أرضا إذ يزيد بها وكلّ باب من الخيرات مفتوح

فاستبدلت بعده جعدا أنامله كأنّما وجهه بالخلّ منضوح

فمراد اليهود هنا، عليهم لعائن الله، أنّ الله بخيل.

٢. فأجاب سبحانه عليهم بقوله: ﴿غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ﴾ دعاء عليهم بالبخل، فيكون الجواب عليهم مطابقا لما أرادوه بقوله: ﴿يَدُ اللهِ مَغْلُولَةٌ﴾ ويجوز أن يراد غلّ أيديهم حقيقة بالأسر في الدنيا أو بالعذاب في الآخرة، ويقوّي المعنى الأوّل أن البخل قد لزم اليهود لزوم الظلّ للشمس فلا ترى يهوديا، وإن كان ماله في غاية الكثرة، إلا وهو من أبخل خلق الله، وأيضا المجاز أوفق بالمقام لمطابقته لما قبله.

٣. ﴿وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا﴾ معطوف على ما قبله والباء سببية: أي أبعدوا من رحمة الله بسبب قولهم: ﴿يَدُ اللهِ مَغْلُولَةٌ﴾

٤. ثم ردّ سبحانه بقوله: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ أي بل هو في غاية ما يكون من الجود، وذكر اليدين مع كونهم لم يذكروا إلا اليد الواحدة مبالغة في الردّ عليهم بإثبات ما يدل على غاية السخاء، فإن نسبة الجود إلى اليدين أبلغ من نسبته إلى اليد الواحدة، وهذه الجملة الإضرابية معطوفة على جملة مقدّرة يقتضيها المقام: أي كلا ليس الأمر كذلك ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ وقيل: المراد بقوله: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ نعمة الدنيا الظاهرة ونعمتها الباطنة؛ وقيل: نعمة المطر والنبات؛ وقيل: الثواب والعقاب، وحكى الأخفش عن ابن مسعود أنه قرأ بل يداه بسيطتان: أي منطلقتان كيف يشاء.

٥. ﴿يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ جملة مستأنفة مؤكدة لكمال جوده سبحانه: أي إنفاقه على ما تقتضيه مشيئته، فإن شاء وسع، وإن شاء قتر، فهو الباسط القابض؛ فإن قبض كان ذلك لما تقتضيه حكمته الباهرة

لا لشيء آخر، فإن خزائن ملكه لا تفنى ومواد جوده لا تتناهى.

أَطَّفِّيش:

ذكر محمد أَطَّفِّيش (ت ١٣٣٢ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. سبب النزول: لَمَّا كذَّب اليهود رسول الله ﷺ كفَّ عنهم ما كان مبسوطًا عندهم من النعم، وكانوا قبل ذلك أكثر الناس مالاً ونعمة، فقال فنحاص بن عازوراء رأس يهود قينقاع أو النباش بن قيس ـ روايتان عن ابن عبَّاس ـ : (يد الله مغلولة)، ورضي بقوله اليهودُ ولم ينهوه، فكلُّهم قالوا، فنزلت الآية الكريمة.

٢. ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللهِ مَغْلُولَةٌ﴾ مقبوضة عن توسيع الرزق، قبضها هو عنهم، وهو كناية عن البخل، أو عن مطلق المنع، أو مجاز استعاريٌّ، والكناية لا يَلزم تحقُّق كلماتها بل لازمها، ولو لم تتحقَّق كلماتها، أو عن الفقر تعالى الله عنه، كقوله تعالى: ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ﴾ [آل عمران: ١٨١]، وذلك أنَّ الله تعالى لا يتَّصف باليد، وقد قيل: إنَّها بمعنى النِّعمة، لَكِنِ اليهودُ الزائغون مجسِّمون، فلا يبعد أنَّهم أثبتوا اليد لله تعالى، ومن التجسيم قولهم: إنَّ ربَّهم أبيض الرأس واللحية، قاعد على كرسيٍّ، فرغ من خلق السَّمَاوَات وَالأَرْض يوم الجمعة، واستلقى على ظهره واضعًا إحدى رجليه على الأخرى، وإحدى يديه على صدره، ليستريح من التعب، تعالى الله عن ذلك، وقالوا لموسى عليه السلام : ﴿اِجْعَل لَّنَآ إِلَهًا كَمَا لَهُمُ ءَالِهَةٌ﴾، [الأعراف: ١٣٨]، وقد عبدوا العجل، وقيل: قالوا استهزاء بالنبيء ﷺ إذ لم يوسِّع عليه وعلى أصحابه، وقيل: يده ممنوعة من عذابنا إلَّا قدر أيَّام عبادة العجل، واليد: القدرة، أو على ظاهره.

٣. ﴿غُلَّتَ اَيْدِيهِمْ﴾ إخبار بأنَّ أيديهم ستغلُّ في النَّار، أو تُغَلُّ عند السحب إلى النَّار، أو تُغَلُّ بالأسر، أو تزداد فقرًا بحيث لا تعطي ولا تأخذ؛ فالمعنى: ستغلُّ غلًّا لَا بُدَّ منه، وكأنَّه حاضر ومتحقِّق الآن، أو غلِّت عن الإنفاق الموجب لإدرار الرزق عليهم، وإخبار ببخلهم، فلا ترى أبخل منهم، ولا أفقر، ولو كانوا ذوي مال؛ لأنَّ (الغنى غنى القلب)، أو أمسكت عن فعل الخير، فالمراد كلُّهم لا أيديهم فقط، لا

---

(١) تيسير التفسير، أطفيش: ٤/٧٩.

دعاء بفقرٍ أو قبضٍ؛ لأنَّ الله لا يدعو؛ لأنَّه إنَّما يدعو المحتاج العاجز، والله جلَّ وعلا لا يحتاج، ولا أحد مثله أو فوقه يَستجلِب منه، إلَّا أن يقال: صورة دعاءٍ بطريق الكناية بأن يراد لازمها، وهو كونهم بحال خسيسة بحيث يستحقُّون الدعاء عليهم بسوء.

٤. ﴿وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْ﴾ من أنَّ يد الله مغلولة، أو به وبسائر بهاتينهم، أي: أُبعدوا عن الرحمة بالمسخ قردة وخنازير، والذلِّ والجلاء، وإدخالِ النَّار، والعطفُ على (غُلَّتَ اَيْدِيهِمْ)، وهو مثله في أنَّه إخبار أو دعاء.

٥. ونَاقَضَ قولَهم بإثباتِ البسط له وبكونه يعطي بيديه معًا في قوله: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾، عطف على محذوف، أي: ليس الأمر كما قالوا ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾، والمعنى: إنَّه جواد باسط للنعمة، وهكذا المراد لا إثبات الجارحتين، ولكن ثنَّى اليد إعلامًا بأنَّه في غاية الجود، وكناية، والكناية يراد لازمها وحده تارةً ـ وهو هنا كثرة العطاء لا معناها الحقيقيُّ، وهو هنا: الجارحتان ـ ولازِمُها ومعناها معًا تارةً، أو اليدان النعمتان: نعمة الدُّنيا، ونعمة الآخرة، أو نعمة إعطاء الخير ونعمة صرف الضُّرِّ، أو نعمة الدُّنيا ونعمة الدِّين، أو نعمة الظاهر ونعمة الباطن، أو ما يعطي إكرامًا وما يعطي إهانة واستدراجًا، وقيل: التثنية للثواب والعقاب، وقيل: للتكثير كَـ (كَرَّتَيْنِ) و(لبَّيْكَ) و(مرَّة بعد أخرى)

٦. وزعم جمهور الأشاعرة أنَّ اليد في حقِّ الله واليدين والأيدي صفة ذات، يؤمن بها بلا تكييف، وهو خطأ، وجمهور المتكلِّمين على ما نحن عليه من تفسير ذلك بالنعمة والقدرة ونحو ذلك.

٧. وَهَذَا البسط المذكور في الآية مقيَّد بقوله: ﴿يُنفِقُ﴾ الخَلْقَ، أو يصرِّفُ النِّعَمَ، ﴿كَيْفَ يَشَآءُ﴾ من تضييق وبسط على مقتضى الحكمة، وقوله: ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الاَرْضِ وَلَكِنْ يُّنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ﴾ [الشورى: ٢٧]، وقوله: ﴿يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَّشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾ [الشورى: ١٢]، فكأنَّه قيل: بل يداه مبسوطتان متى شاء ولمن شاء، فهو مطلقًا جواد، يبسط الخير الكثير، مفرّقًا بحسب مشيئته.

القاسمي:

ذكر جمال الدين القاسمي (ت ١٣٣٢ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[1]:

---

(١) تفسير القاسمي: ٤/١٨٥.

١. ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللهِ مَغْلُولَةٌ﴾ أخرج الطبرانيّ وابن إسحاق عن ابن عباس قال: قال رجل من اليهود يقال له شاس بن قيس: إن ربك بخيل لا ينفق، فنزلت، وأخرج أبو الشيخ من وجه آخر عنه: نزلت في فنحاص، رأس يهود قينقاع، وتقدم أنه الذي قال إن الله فقير ونحن أغنياء، فضربه أبو بكر، فيكون أريد بالآية هنا، ما حكى عنه بقوله المذكور، ولما لم ينكر على القائل قومه ورضوا به، نسبت تلك العظيمة إلى الكل، كما يقال: بنو فلان قتلوا فلانا، وإنما القاتل واحد منهم.

٢. (غلّ اليد وبسطها): مجاز مشهور عن البخل والجود، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ﴾ [الإسراء: ٢٩]، قالوا: والسبب فيه أن اليد آلة لأكثر الأعمال، لا سيما لدفع المال ولإنفاقه، فأطلقوا اسم السبب على المسبب، وأسندوا الجود والبخل إلى اليد والبنان والكف والأنامل، فقيل للجواد: فياض الكف، مبسوط اليد، وسبط البنان نزه الأنامل، ويقال للبخيل: كزّ الأصابع، مقبوض الكف، جعد الأنامل.

٣. ﴿غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ﴾ دعاء عليهم بالبخل أو بالفقر والمسكنة، أو بغلّ الأيدي حقيقة، يغلّون أي: تشدّ أيديهم إلى أعناقهم أسارى في الدنيا ومسحوبين إلى النار في الآخرة.

٤. ﴿وَلُعِنُوا﴾ أي: أبعدوا عن الرحمة فلا يوفقون للتوبة ﴿بِمَا قَالُوا﴾ من الكلمة الشنيعة التي لا تصح في حق الله حقيقة ولا مجازا.

٥. ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ أي: بأنواع العطايا المختلفة، وثنّى (اليد) مبالغة في الرّد ونفي البخل عنه تعالى، وإثباتا لغاية الجود، فإن غاية ما يبذله السخيّ من ماله أن يعطيه بيديه ﴿يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ تأكيد لما قبله، منبه على أن إنفاقه تابع لمشيئته، المبنية على الحكم، التي عليها يدور أمر المعاش والمعاد.

٦. ما زعمه الزمخشريّ ومن تابعه ـ من أنّ إثبات اليد لا يصحّ حقيقة له تعالى ـ فإنه نزعة كلامية اعتزالية:

أ. قال ابن عبد البرّ في (شرح الموطأ): أهل السنة مجمعون على الإقرار بالصفات الواردة كلها في القرآن والسنة، والإيمان بها، وحملها على الحقيقة لا على المجاز، إلّا أنهم لا يكيّفون شيئا من ذلك ولا يحدّون فيه صفة محصورة، وأما أهل البدع، الجهمية والمعتزلة كلها، والخوارج، فكلهم ينكروها ولا يحمل شيئا منها على الحقيقة، ويزعم أن من أقرّ بها شبّه، وهم عند من أقرّ بها نافون للمعبود، والحق فيما قاله القائلون

بما نطق به كتاب الله وسنة رسوله، وهم أئمة الجماعة.

ب. وقال القاضي أبو يعلى في كتاب (إبطال التأويل): لا يجوز ردّ هذه الأخبار ولا التشاغل بتأويلها، والواجب حملها على ظاهرها، وأنها صفات الله، لا تشبّه بسائر الموصوفين بها من الخلق، ولا يعتقد التشبيه فيها ثم قال ويدل على إبطال التأويل، أن الصحابة ومن بعدهم من التابعين، حملوها على ظاهرها ولم يتعرضوا لتأويلها ولا صرفها عن ظاهرها، ولو كان التأويل سائغا لكانوا إليه أسبق، لما فيه من إزالة التشبيه ورفع الشبهة.

ج. وقال أبو الحسن الأشعريّ في كتاب (الإبانة) في باب (الكلام في الوجه والعينين والبصر واليدين) وذكر الآيات في ذلك، ورد على المتأولين بكلام طويل لا يتسع هذا الموضع لحكايته، مثل قوله: فإن سئلنا: أتقولون لله يدان؟ قيل: نقول ذلك، وقد دل عليه قوله: ﴿يَدُ اللهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ [الفتح: ١٠]، وقوله تعالى: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص: ٧٥] وروي عن النبيّ ﷺ أنه قال ان الله مسح ظهر آدم بيده فاستخرج منه ذرية، وقد جاء في الخبر المأثور عن النبيّ ﷺ: أن الله خلق آدم بيده، وخلق جنة عدن بيده، وكتب التوراة بيده، وغرس شجرة طوبى بيده، وليس يجوز في لسان العرب، ولا في عادة أهل الخطاب، أن يقول القائل: عملت كذا بيدي، ويعني به النعمة، وإذا كان الله إنما خاطب العرب بلغتها وما يجري في مفهومها في كلامها، ومعقولا في خطابها، وكان لا يجوز في خطاب أهل اللسان أن يقول القائل: فعلت بيدي، ويعني به النعمة ـ بطل أن يكون معنى قوله عز وجل ﴿بِيَدَيَّ﴾ النعمة، وذكر كلاما طويلا في تقرير هذا ونحوه.

د. وقال القاضي أبو بكر الباقلانيّ في كتاب (الإبانة) له: فإن قال فما الدليل على أنّ لله وجها ويدا؟ قيل له: ﴿وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٧]، وقوله تعالى: ﴿مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ فأثبت لنفسه وجها ويدا: فإن قال فما أنكرتم أن يكون وجهه ويده جارحة إذ كنتم لا تعقلون وجها ويدا إلّا جارحة؟ قلنا: لا يجب هذا كما لا يجب ـ إذا لم نعقل حيّا عالما قادرا إلّا جسما ـ أن نقضي نحن وأنتم بذلك على الله سبحانه.

هـ. وقال الشيخ تقيّ الدين في (الرسالة المدنية): مذهب أهل الحديث ـ وهم السلف من القرون الثلاثة ومن سلك سبيلهم من الخلف ـ أنّ هذه الأحاديث تمرّ كما جاءت ويؤمن بها وتصدّق وتصان عن

تأويل يفضي إلى تعطيل، وتكييف يفضي إلى تمثيل، وقد أطلق غير واحد ممن حكى إجماع السلف ـ منهم الخطابيّ ـ مذهب السلف أنّها تجري على ظاهره مع نفي الكيفية والتشبيه عنها، وذلك، أن الكلام في الصفات فرع عن الكلام في الذات، يحتذي حذوه ويتبع فيه مثاله، فإذا كان إثبات الذات إثبات وجود لا إثبات كيفية، فكذلك إثبات الصفات إثبات وجود لا إثبات كيفية.

و. ويرحم الله الإمام يحيى الصرصريّ الأنصاريّ حيث يقول من قصيدة:

إن المقال بالاعتزال لخطّة	عمياء حلّ بها الغواة المرد
هجموا على سبل الهدى بعقولهم	ليلا فعاثوا في الديار وأفسدوا
صمّ، إذا ذكر الحديث لديهم	نفروا، كأن لم يسمعوه، وغرّدوا
واضرب لهم مثل الحمير إذا رأت	أسد العرين فهنّ منهم شرّد

إلى أن قال:

يدعو من اتبع الحديث مشبّها	هيهات ليس مشبّها من يسند
لكنه يروي الحديث كما أتى	من غير تأويل ولا يتأوّد

٧. روى أحمد والشيخان في معنى الآية عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: إن يمين الله ملأى لا يغيضها نفقة، سحاء الليل والنهار، أرأيتم ما أنفق منذ خلق السموات والأرض، فإنه لم يغض ما في يمينه، وكان عرشه على الماء وفي يده الأخرى الفيض ـ أو القبض ـ يرفع ويخفض وقال: يقول الله تعالى: أنفق أنفق عليك.

٨. في هذه الآية دلالة على جواز لعن اليهود، ولا إشكال أنّ ذلك جائز.

٩. هذه الآية أصل في تكفير من صدر منه، في جناب البارئ تعالى، ما يؤذن بنقص.

رضا:

ذكر محمد رشيد رضا (ت ١٣٥٤هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[1]:

١. لما أسرفت يهود المدينة ما حولها في عداوة النبي ﷺ بعد ما فضلهم على مشركي قومه، وأقرهم

(١) تفسير المنار: ٦/٣٧٤.

على دينهم وما في دينهم وما في أيديهم، بين الله تعالى له مخازيهم التي يشهد بها تاريخهم وكتب دينهم، وما كان من تأثيرها في أخلاق المعاصرين له وأعمالهم، ثم عطف على ما تقدم من ذلك قولا فظيعا قاله بعضهم يدل على الجرأة على الله تعالى فيهم، الذي هو ترك التناهي عن المنكر فيما بينهم، فقال: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللهِ مَغْلُولَةٌ﴾ هذا القول الفظيع من شواهد قولهم الإثم الذي أثبته فيما قبل هذه الآية، وقد عزي إليهم ـ وهو واحد أو آحاد منهم ـ لأنه أثر ما فشا فيهم من الجرأة على الله وترك إنكار المنكر ـ كما قلنا آنفا ـ والمقر للمنكر شريك الفاعل له، وهذا هو وجه وصل هذه الآية بما قبلها.

٢. وقد جعل أهل الجدل الآية من المشكلات لأن يهود عصره ينكرون صدور هذا القول عنهم، ولأنه يخالف عقائدهم ومقتضى دينهم، ومما قالوه في حل الإشكال: إنهم قالوا ذلك على سبيل الإلزام، فإنهم لما سمعوا قوله تعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ﴾ [البقرة: ٢٤٥] قالوا: من احتاج إلى القرض كان فقيرا عاجزا مغلول اليدين، بل قالوا ما هو أبعد من هذا في تعليل قولهم والخرص في بيان مرادهم منه، وما هذا إلا غفلة عن جرأة أمثالهم في كل عصر، على مثل هذا القول البعيد عن الأدب بعد صاحبه عن حقيقة الإيمان ممن ليس لهم من الدين إلا العصبية الجنسية، والتقاليد القشرية، فلا إشكال في صدوره عن بعض المجازفين من اليهود في عصر النبي ﷺ وقد كان أكثرهم فاسقين فاسدين.

٣. وطالما سمعنا ممن يعدون من المسلمين في عصرنا مثله في الشكوى من الله عز وجل والاعتراض عليه عند الضيق، وفي إبان المصائب، وعبارة الآية لا تدل على أن هذا القول يقوله جميع اليهود في كل عصر، حتى يجعل إنكار بعضهم له في بعض العصور وجها للإشكال في الآية، وإنما عزاه إلى جنسهم لما ذكرناه آنفا، على أن الناس في كل زمان يعزون إلى الأمة ما يسمعونه من بعض أفرادهم إذا كان مثله لا ينكر فيهم، والقرآن يسند إلى المتأخرين ما قاله وفعله سلفهم منذ قرون، بناء على قاعدة تكافل الأمة وكونها كالشخص الواحد، ومثل هذا الأسلوب مألوف في كلام الناس أيضا.

٤. واليد تطلق في اللغة على عدة معان: يقول أهل البيان إن بعضها حقيقة وبعضها من المجاز أو الكناية، فتطلق على الجارحة وعلى النعمة والقدرة والملك والتصرف وغير ذلك، رأى أهل التأويل بأن هذه الآية يجب تأويلها لأن اليد بمعنى الجارحة مما يستحل نسبته إلى الله تعالى، ويقول بعض أهل التفويض: بل نثبت له اليد وننزهه عن لوازم هذا الإطلاق من مشابهة الناس، وتفسير ابن عباس ـ إمام

مفسري السلف والخلف ـ للآية يدل على أنها ليست مما يجري فيه الخلاف بين الخلف والسلف في التأويل والتفويض، لأن استعمال غل اليد في البخل وبسطها في الجود معروف في اللغة مألوف، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا﴾ [الإسراء: ٢٩] ولا يقول أحد يفهم اللغة أن هذا من إخراج اللفظ عن ظاهره المسمى عندهم بالتأويل؟

٥. ﴿غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا﴾ وهو دعاء عليهم يناسب جرمهم هذا، وجزاء لهم بالطرد والإبعاد من رحمة الله تعالى وعنايته الخاصة بعباده المؤمنين، قد جاء على طريقة الاستئناف البياني لأنه مما تستشرف له النفوس وتتساءل عنه بالفعل أو بالقوة، والمشهور من معنى ﴿غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ﴾ أمسكت أيديهم وانقبضت عن العطاء والإنفاق في سبيل البر والخير، وهو دعاء عليهم بالبخل؛ وما زالوا أبخل الأمم فلا يكاد أحد منهم يبذل شيئا، إلا إذا كان يرى أنه له من وراءه ربحا.

٦. وقد حسنت أحوالهم في هذا الزمان، وارتقت معارفهم وحضارتهم في كثير من البلاد، وتربوا في أمم من الإفرنج صار من تقاليدهم الاجتماعية بذل المال لمعاهد العلم والملاجئ والمستشفيات والجمعيات الخيرية، وهم على كونهم أغنى من هذه الأمم مضطرون لمجاراتها لا يبذلون إلا دون ما يبذل غيرهم من الإعانات الخيرية، بل هم على شدة تكافلهم واستمساكهم بالعصبية الملية فيما بينهم، قلما يساعد أغنيائهم فقراءهم بالصدقة الخالصة لوجه الله تعالى واجبا في الخير، بل يتاجرون ويرابون بالإعانات، فيعطون الفقراء مالا على أن يعملوا به في تجارة أو غيرها، بشرط أن يردوه في مدة معينة مع ربا قليلة في الغالب.

٧. وقيل: إن المراد بغل الأيدي ربطها إلى الأعناق بالإغلال في الدنيا أو في النار أو فيهما، نقل عن الحسن البصري أنه قال في تفسير هذا الغل: يغلون في الدنيا صار وفي الآخرة معذبين بأغلال جهنم، وقال في تفسير اللعنة: عذبوا في في الدنيا بالجزية وفي الآخرة بالنار، حكاه عنه نظام الدين النيسابوري في تفسيره، وأورد واقعة بهذا المعنى حدثت في زمنه قال: ومما وقع في عصرنا من إعجاز القرآن ما حكي أن متغلبا من اليهود يسمى بسعد الدولة ـ وهو من أشقى الناس ـ كان سمع بهذه الآية، فاتفق أن وصل إلى بغداد فنزل بالمدرسة المستنصرية، ودعا بمصحف كان مكتوبا بأحسن خط وأشهره من خطوط الكتاب الماضين، وكان يعلم أن أهل هذا العصر لا يقدرون على كتابة مثله، ثم قال أين هذه الآية؟ ـ يعني قوله: ﴿غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ

وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا﴾ وأروه إياه فمحاها، فلم يمض إلا أسبوع إلا وقد سخط السلطان عليه وبعث في طلبه وأمر بغل يديه، فغلوه وحملوه إليه وأمر بقتله، والمراد أن السلطان غضب عليه بسبب من أسباب شقاوته التي عرف بها لا بسبب اعتدائه وتشويهه للمصحف، لأن السلطان لم يعلم بذلك، ولأجل هذا عد المصنف الإيقاع به من معجزات القرآن، وإنما عجزنا نحن في هذه الحكاية من تساهل المسلمين في عهد الحكومة العباسية كيف وصل إلى هذا الحد، رجل من أشقياء اليهود أهل النفوذ يجيء بغداد فينزل في مدرسة من أشهر المدارس الإسلامية ويكون له حرية التصرف فيها والعبث بكتبها ما يمكنه من تشويه مصحف أثري كان أحسن المصاحف التي حفظها التاريخ في بغداد؟ فليعتبر هذا التسامح المعتبرون.

٨. ثم رد عليهم تعالى بقوله: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ أي بل هو صاحب الجود الكامل، والعطاء الشامل، عبر عن ذلك ببسط اليدين لأن الجواد السخي إذا أراد أن يبالغ في عطاء جهد استطاعته يعطيه بكلتا يديه، وصفوه بغاية البخل والإمساك، فأبطل قولهم وأثبت لنفسه غاية الجود وسعة العطاء، ولا غرو فكل ما يتقلب العالم كله من الخير والنعم، هو سجل من ذلك الجود والكرم.

٩. والنكتة في قوله: ﴿كَيْفَ يَشَاءُ﴾ بيان أن تقتير الرزق على بعض العباد، الجاري على وفق الحكمة وسنن الله تعالى في الاجتماع، لا ينافي سعة الجود، وسريانه في كل الوجود؛ فإنه له سبحانه الإرادة والمشيئة في تفضيل بعض الناس على بعض في الرزق، بحسب السنن التي أقام بها سنن الخلق.

١٠. والعجب من الإمام الجليل أبي جعفر بن جرير الطبري كيف صور استعمال لفظ اليد هنا أحسن تصوير، ثم خفيت عنه نكتة تثنيته فجعلها حجة المفوضة على أهل التأويل، ونحن معه في إثبات الصفة، ننعي على المؤولين النفاة، ولا يمنعنا ذلك أن نفهم نكتة تثنية اليد، من استعمال لفظها المفرد، قال ابن جرير بعد تفسير غل اليد بالإمساك وحبس العطاء عن الاتساع ما نصه: (وإنما وصف ـ تعالى ذكره ـ اليد بذلك والمعنى العطاء، الناس وبذل معروفهم الغالب بأيديهم، فجرى استعمال الناس في وصف بعضهم بعضا إذا وصفوه بجود وكرم، أو ببخل وشح وضيق، بإضافة ما كان من ذلك من صفة الموصوف إلى يديه، كما قال الأعشى في مدح رجل:

يداك يدا جود فكف مفيدة كف إذا مما ضن بالزاد تنفق

فأضاف ما كان صفة صاحب اليد من انفاق وإفادة إلى اليد، ومثل ذلك في كلام العرب في أشعارها

وأمثالها أكثر من أن تحصى، فخاطبهم الله بها يتعارفونه أو يتحاورونه بينهم في الكلام)، ثم لما ذكر قول من قال من أهل الجدل إن يد الله نعمته أو قدرته أو ملكه، وقول من قال إن يد الله صفة من صفاته غير أنها ليست بجارحة كجوارح بني آدم، رد القول الأول، ورجح الثاني بتثنية اليد وعدم إفرادها، وإبطال قول من قال إن التثنية بمعنى الجمع.

١١. نعم إن التثنية ليست بمعنى الجمع، اليد واليدين لم يقصد بلفظهما النعمة والقوة والملك، وإنما الاستعمال في الموضعين من الكناية، ونكتة التثنية إفادة سعة العطاء ومنتهى الجود والكرم، وليس في هذا القول المروي عن ابن عباس تأويل، ولا نفي لما أثبته البارئ لنفسه من صفة اليد واليدين والأيدي في آيات أخرى، وما سبب ذهول ابن جرير عن نكتة التثنية إلا توجهه إلى الرد على أهل الجدل في المذهب الذي كانوا انتحلوه في تأويل الصفات، ومتى وجه الإنسان همه إلى شيء يكون له منه حجاب ما عن غيره، وتقرير الحقيقة لذاتها، غير الرد على من يعدون من خصومها، ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ﴾ [الأحزاب: ٤] ولهذا غلط كثير من أنصار مذهب السلف في مسائل خالفوا فيها من حيث يريدون تأييده، وهذه آفة من آفات عصبية المذاهب لا تنفك عنها.

المراغي:

ذكر أحمد بن مصطفى المراغي (ت ١٣٧١ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. بعد أن ذكر سبحانه في الآيات السالفة بعض مخازيهم من مسارعتهم في الإثم والعدوان وأكل السحت إلى نحو أولئك مما اختلت به نظم المجتمع في الأفراد والجماعات، فأصبحوا قوما أنانية، همة كل واحد منهم جمع المال واكتسابه على أي صورة كان وبأي وجه جمع، وقد أثّر هذا في أخلاقهم وأعمالهم أشد الأثر كما تشهد بذلك كتب دينهم ـ ذكر هنا أفظع مخازيهم وأقبحها، بجرأتهم على ربهم ووصفهم إياه بما ليس من صفته، وإنكارهم جميل أياديه عندهم، وكثرة صفحه عنهم، وعفوه عن عظيم جرمهم توبيخا لهم، وتعريفا لنبيه ﷺ قديم جهلهم، واحتجاجا له بأنه مبعوث ورسول، إذ أخبر بخفي علومهم ومكنون أخبارهم التي لا يعلمها إلا أحبارهم دون غيرهم من اليهود.

---

(١) تفسير المراغي ١٥٣/٦.

٢. ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللهِ مَغْلُولَةٌ﴾ أي قال ذلك بعض منهم، ونسبه إلى الأمة بناء على التكافل العام بين أفرادها وكونها كالشخص الواحد، وأن الناس في كل زمان يعزون إلى الأمة ما يسمعون من بعض أفرادها وقد جرت سنة القرآن أن ينسب إلى المتأخرين ما قاله أو فعله سلفهم منذ قرون، ولا عجب في صدور هذا القول من بعض الأشخاص منهم، فإنا نرى من المسلمين في عصرنا مثله في الشكوى من الله عزّ وجل والاعتراض عليه عند الضيق وفى إبّان المصائب.

٣. ثم دعا عليهم بالبخل والطرد من رحمته فقال: ﴿غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا﴾ هذا دعاء عليهم بالبخل وانقباض الأيدي عن العطاء والإمساك عن الإنفاق في سبيل البر والخير وما زالوا أبخل الأمم، فلا يكاد أحد منهم يبذل شيئا إلا إذا كان يرى أن له من ورائه ربحا، كما دعا عليهم بالطرد والبعد من رحمته وعنايته الخاصة بعباده المؤمنين، وقيل إن المراد بغل الأيدي ربطها إلى الأعناق بالأغلال في الدنيا أو في النار أو فيهما، فقد نقل عن الحسن البصري أنه قال: يغلّون في الدنيا أسارى، وفى الآخرة معذبين بأغلال جهنم، وقال في تفسير اللعنة: عذّبوا في الدنيا بالجزية وفى الآخرة بالنار.

٤. ثم رد سبحانه عليهم ما قالوه وأثبت لنفسه غاية الجود وسعة العطاء وأن كل ما في العالم من خير هو سجل من ذلك الجود فقال: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ أي بل هو الجواد المتصرف وفق حكمته وسننه في الاجتماع، وتقتير الرزق على بعض العباد لا ينافى سعة الجود، وسريانه في كل الوجود، فإن له سبحانه الإرادة والمشيئة في تفضيل بعض الناس على بعض في الرزق بحسب السنن التي أقام بها نظام الخلق، وعبر عن سعة الجود ببسط اليدين، لأن الجواد السخي إذا أراد أن يبالغ في العطاء جهد استطاعته، يعطى بكلتا يديه كما قال الأعشى يمدح جوادا:

يداك يدا جود فكفّ مفيدة ... وكفّ إذا ما ضنّ بالزاد تنفق

سيّد:

ذكر سيّد قطب (ت ١٣٨٥ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي(١):

١. كنموذج من قولهم الإثم في أبشع صوره يحكي القرآن الكريم قول اليهود الغبي اللئيم:

---

(١) في ظلال القرآن: ٢/٩٣٠.

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾، وذلك من سوء تصور يهود لله سبحانه، فقد حكى القرآن الكريم الكثير من سوء تصورهم ذاك، وقد قالوا: إن الله فقير ونحن أغنياء عندما سئلوا النفقة! وقالوا: يد الله مغلولة، يعللون بذلك بخلهم؛ فالله ـ بزعمهم ـ لا يعطي الناس ولا يعطيهم إلا القليل.. فكيف ينفقون!؟ وقد بلغ من غلظ حسهم، وجلافة قلوبهم، ألا يعبروا عن المعنى الفاسد الكاذب الذي أرادوه وهو البخل بلفظه المباشر؛ فاختاروا لفظا أشد وقاحة وتهجما وكفرا فقالوا: يد الله مغلولة! ويجيء الرد عليهم بإحقاق هذه الصفة عليهم، ولعنهم وطردهم من رحمة الله جزاء على قولهم: ﴿غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا﴾

٢. وكذلك كانوا، فهم أبخل خلق الله بمال! ثم يصحح هذا التصور الفاسد السقيم؛ ويصف الله سبحانه بوصفه الكريم، وهو يفيض على عباده من فضله بلا حساب: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾، وعطاياه التي لا تكف ولا تنفد لكل مخلوق ظاهرة للعيان.. شاهدة باليد المبسوطة، والفضل الغامر، والعطاء الجزيل، ناطقة بكل لسان، ولكن يهود لا تراها؛ لأنها مشغولة عنها باللم والضم، وبالكنود وبالجحود، وبالبذاءة حتى في حق الله!

الخطيب:

ذكر عبد الكريم الخطيب (ت ١٣٩٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[1]:

١. لم تقف جرائم اليهود عند حدّ التطاول على الأنبياء، والاعتداء على أموال الناس وأكلها سحتا وعدوانا، بل لقد تطاولوا على الله سبحانه وتعالى، وتعاملوا معه كما يتعاملون مع النّاس، فقالوا فيه سبحانه تلك القولة المنكرة: ﴿يَدُ اللهِ مَغْلُولَةٌ﴾ أي ممسكة، بخيلة، حتى لكأن غلّا يمسكها، وقيدا يقيّدها عن البذل والعطاء!.

٢. إنهم لا يرضون بما في أيديهم من هذا المال الكثير الذي سلبوه من الناس، وجمعوه من كل وجه حرام.. بل هم يريدون أن تتحول الجبال ذهبا، يكون لهم وحدهم، لا ينال أحد غيرهم ذرة منه.. إنهم يريدون الله أن يكون مترضيا لأهوائهم، مستجيبا لهذا الجشع الذي لا يشبع أبدا.. فإن لم يفعل ذلك كان

(١) التفسير القرآني للقرآن: ٣/١١٣٢.

عندهم إلها بخيلا ممسكا، لا يستحق أن يحمد أو يعبد!.

٣. وقد أخذهم الله سبحانه بهذه القولة العظيمة، فجعل عقابهم من جنس عملهم: ﴿غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ﴾.. فهذا هو حكم الله عليهم بما جدّفوا هم عليه به.. فجعل أيديهم شحيحة ممسكة، لا تنضح بخير أبدا، ولا تجود بمعروف أبدا.. يجمعون المال، ويشقون في جمعه، ثم لا ينعمون بهذا المال، ولا ينالون منه ما ينال أصحاب المال من أموالهم من متع الحياة ونعيمها.. فهم هكذا أبدا.. كائنات مشتتة في كل وجه من وجوه الأرض، تجمع المال، وترد موارد الهلاك في سبيله، وأيد شحيحة لا تنفق من هذا المال، ولا تنتفع به.. ﴿كَذَلِكَ الْعَذَابُ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾

٤. وليس هذا وحده هو حكم الله فيهم، وعقابه لهم، على تلك الكلمة الفاجرة، بل لقد رماهم الله بعقوبة أخرى، هي آلم وأنكى.. إذ صبّ عليهم لعنته: ﴿وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا﴾.. فهم لعنة تمشى على الأرض، لا يراهم النّاس إلا كانوا منهم في وجه عداوة وبغضه، وإلا موضع بلاء وانتقام.. ﴿مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلًا﴾ [الأحزاب: ٦١]

٥. ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾.. تلك هي يد الله، عطاؤها جزل، ومواهبها تفيض على الأرض والسماء.. له ملك السموات والأرض.. ينفق كيف يشاء، حسب ما يقضي علمه، وكما تقدّر حكمته.

ابن عاشور:

ذكر محمد الطاهر بن عاشور (ت ١٣٩٣ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ الله مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾، عطف على جملة ﴿وَإِذَا جَاءُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا﴾ [المائدة: ٦١]، فإنّه لمّا كان أولئك من اليهود والمنافقين انتقل إلى سوء معتقدهم وخبث طويتهم ليظهر فرط التنافي بين معتقدهم ومعتقد أهل الإسلام، وهذا قول اليهود الصرحاء غير المنافقين فلذلك أسند إلى اسم (اليهود)

٢. ومعنى ﴿يَدُ الله مَغْلُولَةٌ﴾ الوصف بالبخل في العطاء لأنّ العرب يجعلون العطاء معبّرا عنه

---

(١) التحرير والتنوير: ٥/١٤٦.

باليد، ويجعلون بسط اليد استعارة للبذل والكرم، ويجعلون ضدّ البسط استعارة للبخل فيقولون: أمسك يده وقبض يده، ولم نسمع منهم: غلّ يده، إلّا في القرآن كما هنا، وقوله: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ﴾ في سورة الإسراء [٢٩]، وهي استعارة قويّة لأنّ مغلول اليد لا يستطيع بسطها في أقلّ الأزمان، فلا جرم أن تكون استعارة لأشدّ البخل والشحّ.

٣. واليهود أهل إيمان ودين فلا يجوز في دينهم وصف الله تعالى بصفات الذمّ، فقولهم هذا:

أ. إمّا أن يكون جرى مجرى التهكّم بالمسلمين إلزاما لهذا القول الفاسد لهم، كما روي أنّهم قالوا ذلك لمّا كان المسلمون في أوّل زمن الهجرة في شدّة، وفرض الرسول عليهم الصدقات، وربّما استعان باليهود في الديات، وكما روي أنّهم قالوه لمّا نزل قوله تعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ [البقرة: ٢٤٥] فقالوا: إنّ ربّ محمّد فقير وبخيل، وقد حكي عنهم نظيره في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾ [البقرة: ١٨١]، ويؤيّد هذا قوله عقبه: ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾

ب. وإمّا أن يكونوا قالوه في حالة غضب ويأس؛ فقد روي في سبب نزولها أنّ اليهود نزلت بهم شدّة وأصابتهم مجاعة وجهد، فقال فنحاص بن عازورا هذه المقالة، فإمّا تلقّفوها منه على عادة جهل العامّة، وإمّا نسب قول حبرهم إلى جميعهم لأنّهم يقلّدونه ويقتدون به.

٤. وقد ذمّهم الله تعالى على كلا التقديرين، إذ الأول استخفاف بالإسلام وبدينهم أيضا، إذ يجب تنزيه الله تعالى عن هذه المقالات، ولو كانت على نيّة إلزام الخصم، والثّاني ظاهر ما فيه من العجرفة والتأفّف من تصرّف الله، فقابل الله قولهم بالدّعاء عليهم، وذلك ذمّ على طريقة العرب.

٥. وجملة ﴿غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ﴾ معترضة بين جملة ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ﴾ وبين جملة ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾، وهي إنشاء سبّ لهم، وأخذ لهم من الغلّ المجازي مقابله الغلّ الحقيقي في الدعاء على طريقة العرب في انتزاع الدعاء من لفظ سببه أو نحوه، كقول النّبي ﷺ: (عصيّة عصت الله ورسوله، وأسلم سلّمها الله، وغفار غفر الله لها)

٦. وجملة ﴿وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا﴾ يجوز أن تكون إنشاء دعاء عليهم، ويجوز أن تكون إخبارا بأنّ الله لعنهم لأجل قولهم هذا، نظير ما في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا لَعَنَهُ اللهُ﴾ في سورة النّساء

٧. وقوله: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ نقض لكلامهم وإثبات سعة فضله تعالى، وبسط اليدين تمثيل للعطاء، وهو يتضمّن تشبيه الإنعام بأشياء تعطى باليدين، وذكر اليد هنا بطريقة التثنية لزيادة المبالغة في الجود، وإلّا فاليد في حال الاستعارة للجود أو للبخل لا يقصد منها مفرد ولا عدد، فالتثنية مستعملة في مطلق التّكرير، كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ﴾ [الملك: ٤]، وقولهم: (لبّيك وسعديك)، وقال الشّاعر:

جاد الحمى بسط اليدين بوابل شكرت نداه تلاعه ووهاده

٨. وجملة ﴿يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ بيان لاستعارة ﴿يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾، و﴿كَيْفَ﴾ اسم دالّ على الحالة وهو مبني في محلّ نصب على الحال، وفي قوله: ﴿كَيْفَ يَشَاءُ﴾ زيادة إشارة إلى أن تقتيره الرزق على بعض عبيده لمصلحة، مثل العقاب على كفران النعمة، قال تعالى: ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ﴾ [الشورى: ٢٧]

أبو زهرة:

ذكر محمد أبو زهرة (ت ١٣٩٤ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[1]:

١. بين الله سبحانه وتعالى أحوال اليهود ومعاملتهم للمؤمنين، وهي تدل على مقدار حقدهم على أهل الإيمان وتعصبهم ضدهم، ونفاقهم في ذات أنفسهم ومعاملتهم للمؤمنين بالخداع، واستهزائهم بالحقائق الإسلامية، واتخاذهم الدين هزوا ولعبا، وفى هذه الآية يبين سبحانه حالهم في جنب الله تعالى، وأنهم إن أعطوا أشروا وبطروا النعمة، وإن منعوا كفروا، وقالوا قالة لا تليق بذات الله تعالى، وإن هذا ليس هو الطريق الأمثل لمن أوتوا الكتاب وبلغوا رسالات النبيين.

٢. ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللهِ مَغْلُولَةٌ﴾ أصل الغل: توسط الشيء وتدرعه، والغل ما يفيد به الشخص ويجعل الأطراف وسطه، وقيل للبخيل هو مغلول اليدين، ومن ذلك ما حكاه الله سبحانه وتعالى عن اليهود أنهم قالوا يد الله مغلولة، وهي تحتمل عدة معان متلاقية في مؤداها، وإن اختلفت فيما يقرر سبب

---

(١) زهرة التفاسير: ٥/٢٢٧٧.

قولهم لعنهم الله:

أ. فقد قيل: إنهم لما علموا أن كل شيء مقدر بقدر، وأنه سبحانه وتعالى قضى كل شيء فقدره تقديرا تهجموا بهذا القول غير الكريم، فقالوا: إن يد الله مغلولة، أي في حكم المقيدة.

ب. وقيل: إنهم كانوا يرون المؤمنين الصادق إيمانهم في غير ثروة، وهم يعتمدون على الله، فقالوا مقالتهم.

ج. وقيل: إنهم بسبب كفرهم وإيذائهم للمؤمنين وتغير الأحوال قتر عليهم في الرزق، فلم ينسبوا ذلك إلى أسباب واقعة، بل قالوا مقالتهم في شأن ربهم.

د. والذى نراه أن اليهود في هلع دائم وطمع، وحسبوا أن الفقر لا ينالهم أبدا، فإن أعطوا خيرا نسبوه لأنفسهم وحيلتهم وعلمهم، وإن لم يعطوا اتهموا ربهم، وذلك غير شأن المذعنين لله المؤمنين به الذين يعلمون أنه يعطى ويمنع، ويعز ويذل بحكمة وتقدير.

٣. ولفظ: ﴿يَدُ اللهِ مَغْلُولَةٌ﴾ مجاز عن البخل، وهو من قبيل الاستعارة التمثيلية إذ شبهت حال من قبضت يده عن العطاء، فلا يعطى بحال من غلت يده، وربطت على وسطه، فلا يستطيع تحريكها، وعبر باليد؛ لأنها هي التي يكون بها العطاء، ولقد قال تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا﴾ [الإسراء]

٤. وليس المراد باليد الجارحة، بل الكناية عن المنع والإعطاء، وقد قال في ذلك الزمخشري (غل اليد وبسطها مجاز عن البخل والجود) ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ﴾، ولا يقصد من يتكلم به إثبات يد ولا غل ولا بسط حتى يستعمله في قليل لا يعطى بيده عطاء قط، ولا يمنعه إلا بإشارته من غير استعمال يده وبسطها وقبضها، ولو أعطى الأقطع إلى المنكب عطاء جزيلا لقالوا: ما أبسط يده بالنوال؛ لأن بسط اليد وقبضها عبارتان وقعتا متعاقبتين، وقد استعملوه حيث لا تصح اليد كقوله:

جاد الحمى بسط اليدين بوابل   شكرت نداه تلاعه ووهاده

٥. وقد فسرت اليد المنسوبة لله تعالى بالمعنى المجازى المناسب في كل آية في القرآن الكريم على ما اختاره الغزالي وغيره، حتى أنه قال في قوله تعالى: ﴿يَدُ اللهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ [الفتح]، بالسلطان والقوة، كما

يقال وضع الأمير يده على المدينة، ولو كان مقطوع اليدين، والكلام في هذه المسألة مشهور في كتب علم الكلام.

٦. ﴿غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا﴾ هذه الجملة معناها الدعاء عليهم، وهذا تعليم من الله لنا بأن ندعو على من فسدت قلوبهم، وذهب بهم الطمع والجشع إلى نسيان ما يجب لذات الله العلية، وما ينبغي فقالوا كلمتهم التي قالوها، وهي تدل على استهانة بالحقائق وذات الله سبحانه، تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا، فعلمنا الله أن ندعو عليهم بغل اليد، وبالطرد وهو دعاء مستجاب ما داموا على هذا الحال من الأثرة المردية التي تنسيهم حقائق التدين والإيمان.

٧. والدعاء عليهم بغل الأيدي معناه الدعاء عليهم بالشح المرير الذى يجعلهم مبغضين للناس، منحرفين عن طريقهم مطرودين من المجتمع، ويصح أن يفسر قوله تعالى: ﴿غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ﴾، بالدعاء عليهم بالغل الفعلي بأيديهم بأن يمنعوا عن العمل الحر، ويعيشوا أسارى أو كالأسارى في ذل، ويكون التعبير من قبيل الجناس بالمشاكلة اللفظية، وإنا نميل إلى هذا، ويرشح له التعبير بأيديهم؛ لأن العرف اللغوي جرى على أن التعبير بالأيدي يفيد البطش، والتعبير بالأيادى يفيد النعمة، فيقال لفلان الأيادى على فلان، ولا يقال له الأيدي عليه، والمعنى على هذا الدعاء عليهم أن تغل أيديهم الباطشة فلا يقووا على غيرهم بل يكونون أسارى أو كالأسارى، وما ينالون من قوة ظاهرة أحيانا، فليست منهم، وهي إلى حين، وما كان ذلك إلا من فساد غيرهم.

٨. ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ هذا رد عليهم، وبسط اليد هنا مجاز عن الجود والفيض والإنعام من الله تعالى على خلقه، وعبر هنا بالمثنى، فقال سبحانه ﴿يَدَاهُ﴾، للإشارة إلى كثرة الفيض والإنعام، والعطاء العميم كأنه يعطى بيدين لا بيد واحدة، ولكن إذا كانوا لم يدركوا فيض نعمته، فإنهم لم يدركوا معنى حكمته فإن الله تعالى يبسط يديه بالعطاء على الطريقة التي يراها، وبالحكمة التي يريدها، ولذا قال تعالى: ﴿يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾، وهذه الجملة السامية تدل على أمرين:

أ. أحدهما: عموم عطائه.

ب. وثانيهما: أن شكل العطاء يختلف، فأحيانا يكون لبعض الناس عميما ليختبرهم بكثرة العطاء، وليحاسبوا عليه وتكون النعمة الكثيرة ابتلاء، وأحيانا يعطى حينا ويمنع حينا ليذوقوا النعمة بعد فقدها،

ويختبر صبرهم وإيمانهم، كما قال تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء]، والمؤمن الصادق الإيمان يصبر في الإعطاء والحرمان، والكافر يطغى بالعطاء ويكفر في الحرمان، ولقد قال تعالى في وصف النفس البشرية: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [هود]

مُغْنِيَّة:

ذكر محمد جواد مُغْنِيَّة (ت ١٤٠٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللهِ مَغْلُولَةٌ﴾، هذه صورة من الصور العديدة التي يرسمها القرآن لليهود، ومثلها قولهم: ﴿إِنَّ اللهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾.. وعلى قياسهم ينبغي أن يكونوا هم الآلهة، وقد تجلت هذه الغطرسة والوقاحة بأقبح معانيها في تحديهم للرأي العام العالمي باحتلال القدس سنة ١٩٦٧.

٢. وفي بعض الروايات أن الذي نطق بكلمة الكفر هذه رجل منهم، اسمه فنحاص.. وقد تكون الرواية صحيحة، وصحيح أيضا أن الواحد لا يعبّر عن رأي الطائفة والجماعة، وأن بعض ضعاف المسلمين يقول هذا حين تحاصره المصائب، ولا يجد له مهربا.. هذا صحيح، ولكن من اطلع على سيرة اليهود يعلم أنهم يقولون هذا بلسان الحال، وإن لم ينطقوا به بلسان المقال.. إنهم يريدون من الله أن يهب الأرض ومن عليها إليهم وحدهم، وإلا فهو بخيل مغلول اليد.

٣. ﴿غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا﴾، وبما فعلوا من المسارعة إلى الإثم والعدوان وأكلهم المال الحرام، قال صاحب تفسير المنار: ﴿غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ﴾ هو دعاء من الله عليهم بالبخل وما زالوا أبخل الأمم، فلا يكاد أحد منهم يبذل شيئا إلا إذا درّ عليه ربحا، وقد كان الربح الوحيد عندهم هو المال، ومن أجله يحل كل محرم، أما اليوم فلا ربح أفضل من قتل عربي، حتى ولو كان طفلا، والشعار الديني المقدس لهيئاتهم (الخيرية) (ادفع دولارا تقتل عربيا) مسلما أو نصرانيا.. بل إنهم يسخون بأرواحهم رجالا ونساء وأطفالا ليخرجوا الفلسطينيين من ديارهم ويحلّوا محلهم.. وأغرب ما قرأت ان زعماء الصهاينة، ومنهم وايزمان

______

(١) التفسير الكاشف: ٣/٩١.

وموسى شاريت ودافيد بن غوريون تواطئوا مع النازية وزعماء الجستابو على ذبح اليهود والتنكيل بهم لهدفين:

أ. الأول: دفع اليهود للهجرة إلى فلسطين.

ب. الثاني: اصطناع المبررات لقيام دولة إسرائيل، (عن كتاب اطلاق الحمامة ٥ يونيو للمؤلفين: بيليايف وكوبستيشنكو وبريماكوف، ترجمة ماهر عسل)

٤. وإذا تواطأ اليهود مع أعدى أعدائهم، وضحوا بمئات الألوف منهم من أجل دولة إسرائيل فهل يكثر منهم القول: ان الله فقير ونحن أغنياء، وأن يده مغلولة عن البذل والعطاء؟ وأية غرابة في قولهم: نحن حمامة السلام، والعرب دعاة الحرب والدمار بعد أن قالوا: ان الله فقير ونحن أغنياء؟، وإذا كانت يد الله مغلولة لأنه لم يهبهم الأرض ومن عليها فبالأولى: أن يكون العرب طغاة معتدين، لأنهم لم يعتذروا لليهود عن التقصير، وعدم عرفان الجميل.. وليس قولي هذا كلاما شعريا، أو إحساسا عاطفيا.. ألم يلح اليهود على اعتراف العرب بإسرائيل؟، وأي معنى لهذا الاعتراف في هذا الظرف بالذات إلا الاعتذار وطلب العفو؟

٥. ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾، المراد باليد هنا عين المراد بيمينه في الآية ٦٧ من الزمر: ﴿وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾ أي بقدرته، وقال يداه بالتثنية لا بالإفراد لأنها أبلغ شكلا، وأقوى محتوى ﴿يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ بإيجاد السبب الموجب: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ [الملك: ١٥]، أجل، قد لا تسعف الظروف أحيانا، ويخيب المسعى، وقوله: ﴿وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ تهديد ووعيد لمن يطلب العيش على حساب غيره.

الطباطبائي:

ذكر محمد حسين الطباطبائي (ت ١٤٠٢ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[1]:

١. ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾:

(١) الميزان في تفسير القرآن: ٦/٣٣.

أ. كانت اليهود لا ترى جواز النسخ في الأحكام الدينية، ولذا كانت لا تقبل بنسخ التوراة وتعير المسلمين بنسخ الأحكام، وكذا كانت لا ترى جواز البداء في القضايا التكوينية على ما يتراءى من خلال الآيات القرآنية كما تقدم الكلام فيه في تفسير قوله تعالى: ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أو نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أو مِثْلِهَا﴾ والآية ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ الله مَغْلُولَةٌ﴾ تقبل الانطباق على قولهم هذا غير أن ظاهر قوله تعالى جوابا عنهم: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ يأبى عن ذلك.

ب. ويدل على أنهم إنما تكلموا بهذه الكلمة الأثيمة في شيء من أمر الرزق، أما في خصوص المؤمنين لما في عامتهم من الفقر الشامل والعسرة وضيق المعيشة، وأنهم إنما قالوا هذا القول استهزاء بالله سبحانه إيماء إلى أنه لا يقدر على إغناء عباده المؤمنين به وإنجائهم من الفقر والمذلة.

ج. لكن هذا الوجه لا يناسب وقوع الآية في سورة المائدة إن كانت نازلة في مطاوي سائر آياتها فإن المسلمين كانوا يوم نزولها على خصب من العيش وسعة من الرزق ورفاهية من الحال.

د. وإما أنهم إنما قالوها لجدب أو غلاء أصابهم فضاقت بذلك معيشتهم، ونكدت حالهم، واختل نظام حياتهم، كما ربما يظهر من بعض ما ورد في أسباب النزول.

هـ. وهذا الوجه أيضا يأباه سياق الآيات فإن الظاهر أن الآيات إنما تتعرض لشتات أوصافهم فيما يعود إلى عدوانهم ومكرهم بالنسبة إلى المسلمين نقمة منهم لا ما صدر منهم من إثم القول عند أنفسهم.

و. وإما أنهم إنما تفوهوا بذلك لما سمعوا أمثال قوله تعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾، وقوله تعالى: ﴿وَأَقْرِضُوا اللهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾، فقالوا: يد الله مغلولة لا يقدر على تحصيل ما ينفق في حوائجه لترويج دينه وإحياء دعوته، وقد قالوا ذلك سخرية واستهزاء على ما يظهر من بعض آخر مما ورد في أسباب النزول، وهذا الوجه أقرب إلى النظر.

ز. وكيف كان فهذه النسبة أعني نسبة غل اليد والمغلوبية عند بعض الحوادث مما لا يأباه تعليمهم الديني والآراء الموجودة في التوراة فالتوراة تجوز أن يكون الأمور معجزا لله سبحانه وصادا مانعا له من إنفاذ بعض ما يريده من مقاصده كالأقوياء من الإنسان، يشهد بذلك ما تقصه من قصص الأنبياء كآدم وغيره، فعندهم من وجوه الاعتقاد ما يبيح لهم أن ينسبوا إليه تعالى ما لا يناسب ساحة قدسه وكبرياء ذاته جلت عظمته وإن كانت الكلمة إنما صدرت منهم استهزاء فإن لكل فعل مبادئ في الاعتقاد ينبعث إليه

الإنسان منها ويتجرأ بها.

٢. وأما قوله: ﴿غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا﴾:

أ. فهو دعاء عليهم بعذاب مشابه لما نسبوا إليه تعالى من النقص غير المناسب لساحة قدسه، وهو مغلولية اليد وانسلاب القدرة على ما يحبه ويشاؤه، وعلى هذا فقوله: ﴿وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا﴾ عطف تفسير على قوله: ﴿غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ﴾ فإن مغلولية أيديهم مصداق لعنة الله عليهم إذ القول من الله سبحانه فعل، ولعنه تعالى أحدا إنما هو تعذيبه بعذاب إما دنيوي أو أخروي فاللعن هو العذاب المساوي لغل أيديهم أو الأعم منه ومن غيره.

ب. وربما احتمل كون قوله: ﴿غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ﴾ إخبارا عن وقوع كلمة العذاب وهو جزاء اجترائهم على الله سبحانه بقولهم: ﴿يَدُ اللهِ مَغْلُولَةٌ﴾ عليهم، والوجه الأول أقرب من الفهم.

٣. وأما قوله: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ فهو جواب عن قولهم: ﴿يَدُ اللهِ مَغْلُولَةٌ﴾ مضروب في قالب الإضراب، والجملة أعني قوله: ﴿يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ كناية عن ثبوت القدرة، وهو شائع في الاستعمال.

٤. وإنما قيل: ﴿يَدَاهُ﴾ بصيغة التثنية مع كون اليهود إنما أتوا في قولهم: ﴿يَدُ اللهِ مَغْلُولَةٌ﴾ بصيغة الإفراد ليدل على كمال القدرة كما ربما يستفاد من نحو قوله تعالى: ﴿قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ﴾ لما فيه من الإشعار أو الدلالة على إعمال كمال القدرة، ونحو قولهم: (لا يدين بها لك) فإن ذلك مبالغة في نفي كل قدرة ونعمة.

٥. وربما ذكروا لليد معاني مختلفة في اللغة غير الجارحة كالقدرة والقوة والنعمة والملك وغير ذلك، لكن الحق أن اللفظة موضوعة في الأصل للجارحة، وإنما استعملت في غيرها من المعاني على نحو الاستعارة لكونها من الشئون المنتسبة إلى الجارحة نوعا من الانتساب كانتساب الإنفاق والجود إلى اليد من حيث بسطها، وانتساب الملك إليها من حيث التصرف والوضع والرفع وغير ذلك، فما يثبته الكتاب والسنة لله سبحانه من اليد يختلف معناه باختلاف الموارد كقوله تعالى: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾، وقوله: ﴿أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ يراد به القدرة وكمالها، وقوله: ﴿بِيَدِكَ الْخَيْرُ﴾، وقوله: ﴿فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾، وقوله: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ﴾، إلى غير ذلك يراد بها الملك والسلطة، وقوله:

﴿لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللهِ وَرَسُولِهِ﴾ يراد بها الحضور ونحوه.

٦. وأما قوله: ﴿يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ فهو بيان لقوله: ﴿يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾

الحوثي:

ذكر بدر الدّين الحوثي (ت ١٤٣١ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[1]:

١. ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللهِ مَغْلُولَةٌ﴾ مجاز عن البخل أخزاهم الله، قال تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ﴾ [الإسراء:٢٩] أي لا تترك الإنفاق ولا تكثره إلى حد يجحف بحالك، وفي تفسير الإمام زيد بن علي عليهما السلام لـ (غريب القرآن): ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللهِ مَغْلُولَةٌ﴾: (معناه: هو يحب أن يمسك خيره)

٢. ﴿غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا﴾ هذا من الردّ على اليهود، يعبر عن سخط الله عليهم، ومقته لمقالتهم، كقوله تعالى: ﴿قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ﴾ [البروج:٤]

٣. ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ فأكذب الله قولهم وبيّن أن عطاءه مستمر على ما يشاء؛ لأنه حكيم في إنفاقه في البسط والتقدير، وسواء في قدرته وكرمه بسط أو قدر، فلا يصعب عليه البسط ولا يقدر لمشقة البسط سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون علواً كبيراً، قال في (الكشاف): (غل اليد وبسطها، مجاز عن البخل والجود، ولا يقصد من يتكلم به إثبات يد ولا غل ولا بسط حتى أنه يستعمله في ملك لا يعطي عطاء ولا يمنعه إلا بإشارته من غير استعمال يد وبسطها وقبضها، ولو أعطى الأقطع إلى المنكب عطاء جزيلاً، لقالوا: ما أبسط يده بالنوال، وقد استعملوهما حيث لا تصح اليد، كقوله:

جاد الحمى بسط اليدين بوابل   شكرت نداه تلاعه ووهاده

ولقد جعل لبيد للشّمال يداً، في قوله: (إذ أصبحت بيد الشمال زمامها) ويقال: بَسَط اليأس كفيه في صدري، فجُعِلت لليأس الذي هو من المعاني لا من الأعيان كفَّان، ومن لم ينظر في علم البيان عمي عن تبصر محجة الصواب في تأويل أمثال هذه الآية)

٤. ويدل على ما ذكره قول الله تعالى: ﴿وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ﴾ [الإسراء:٢٤] وليس

---

(١) التيسير في التفسير: ٢/٣٣٨.

للمخاطب جناح حقيقي، ومن الغلط البيّن تسمية هذه الآية وأمثالها باسم (آيات الصفات) فليست من الصفات، وإنما تسميتها دعوى بلا بينة؛ لأنها لم تخرج في القرآن مخرج الوصف لله سبحانه بأن لَه أعضاء ـ سبحانه وتعالى ـ وإنما جاءت مجيء ذكر الجناح واليد، في قوله تعالى: ﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ﴾ [الحجر:٨٨] ﴿وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ﴾ [الإسراء:٢٤] ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ [سبأ:٤٦]، ألا ترى أن هذا السياق ليس بصدد وصف العذاب بأن له يدين، وكذلك قوله تعالى: ﴿مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ [البقرة:٩٧] في القرآن وفي الإنجيل.

٥. ومن العجيب قولهم: إن اليد يختلف معناها بحسب ما تضاف إليه، ولم ينزهوا الله عن اليد، فكأنهم يقولون: معنى الآية إثبات اليد؛ لأن لله يداً، وعلى هذا فاحتجاجهم بالآية دور؛ لأنهم أثبتوا لَه يداً بناء على احتجاجهم بالآية، ولو أنصفوا مع قولهم: إن اليد يختلف معناها بحسب ما تضاف إليه، لقالوا: ليس المعنى إثبات اليد؛ لأن الله ليس لَه أعضاء، أو على أقل تقدير وقفوا في المعنى ولم يثبتوا يداً، بناء على أصلهم أنه يختلف معناها بحسب ما تضاف إليه، وهم لم يثبتوا للعذاب يداً بناء على هذا الأصل.

٦. ومن الدور قولهم: نثبت ما أثبت القرآن؛ لأنه مبني على أنه أثبت عضواً، لا على مجرد لفظ اليد، ألا ترى أنهم لا يقولون: نثبت للقرآن يدين، كما أثبت في قوله: ﴿مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ [البقرة:٩٧] ولا يقولون: نثبت للعذاب ما أثبت القرآن لقوله تعالى: ﴿بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ [سبأ:٤٦]، فظهر: أنهم قاسوا الخالق على المخلوقين، وجعلوا الإضافة في قوله: ﴿بَلْ يَدَاهُ﴾ كإضافة اليد إلى المخلوق، وزعموا أن خلاف ذلك تعطيل بناء على هذا القياس، وهو جهل عظيم، بل التعطيل تشبيه الخالق بالمخلوق؛ لأنه يلزم منه عبادة غير الله، أي الصورة التي يتوهمونها ونفي غيرها بناء على أنها هي الله سبحانه وتعالى.

٧. فأما البَلْكَفَة فلا تفيدهم بعد إثبات العضو، وكذلك قولهم: (تليق بجلاله) لأنه ليس إلا كقولنا: للملائكة أجنحة ليست كأجنحة الطيور التي نراها، بل أجنحة تليق بهم وتناسب خلقهم وأجسامهم، فكما أن هذا لا ينفي الجناح الذي هو آلة الطيران، فكذلك قولهم بزعمهم تليق بجلاله؛ لأنه يكفي عندهم نفي كونها من جنس أيدي المخلوقين، وليس إلا كنفي كون أجنحة الملائكة من جنس أجنحة الطيور التي نراها؛ لأنهم لا يعنون بقولهم: (تليق بجلاله) نفي العضو، فلذلك لم يخلصهم من التشبيه ـ وبالله التوفيق.

٨. ولو خرج ذكر الأعضاء في القرآن مخرج وصفه تعالى بأسمائه الحسنى كما في آخر (سورة الحشر) بأن كان فيه مثلاً هو الله ذو الوجه واليدين والجنب والعين لساغ جعل ذلك من المتشابه، فأما وهو لم يقع كذلك، فليس ينبغي عده من المتشابه إلا عند من يجهل اللغة العربية، ولذلك لم يجرِ عند العرب إشكال في معناها؛ لأنه لا يخطر ببال العربي الأصيل إلا المعنى الذي سيق لَه الكلام، كإثبات العطاء المستمر، ولا يخطر بباله إثبات عضو لله ـ سبحانه وتعالى ـ وعلى هذا فتسمية هذه وما أشبهها (آيات الصفات) بدعة؛ لأنها لم تكن في الكتاب هذه التسمية، ولا السنة، وإنما ابتدعوها ليتوصلوا إلى إثبات مذهبهم.

فضل الله:

ذكر محمد حسين فضل الله (ت ١٤٣١ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. جاء في الدر المنثور عن ابن عباس: (قال رجل من اليهود يقال له النباش بن قيس: إنّ ربّك بخيل لا ينفق، فأنزل الله: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾، والظاهر أنّ هذا اليهودي ـ إذا صحّت الرّواية ـ يعبّر عن منطق يهوديّ شائع وكلام معروف عندهم يتداولونه فيما بينهم، وليس كلاما فرديا، وذلك من خلال ظاهر الآية في نسبة القول إلى اليهود لا إلى شخص معين.

٢. كيف يتصوّر اليهود الله، وكيف يتحدثون عنه!؟ لا يجسد الله في تصوّر اليهود تلك الذات الجامعة لكل صفات الجلال والجمال والكمال والعلم والقوّة والقدرة اللامتناهية بحيث لا يكون ثمة مجال للحديث عنه إلّا بصفات التعظيم والتقديس، لأنّه الرّب العظيم الذي ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١] في الأرض ولا في السماء، ولكنّهم يتصورونه كما يتصورون أي كائن آخر محدود، وما يلزم عن المحدودية من نواقص وسلبيات، الأمر الّذي يفقد الصورة الإلهيّة حيويتها وبريقها في عيون الآخرين.

٣. وفي هذا الاتجاه جاء قولهم كما ذكر الله تعالى عنهم: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللهِ مَغْلُولَةٌ﴾ وإغلال اليد يكنّى به عن العجز سواء في الحركة أو في العطاء، لأنّ من شأن تقييد اليد أن يعيق من حركتها وعطائها، وهذه الرؤية منهم، لأنّهم ينظرون إلى فقر عباد الله، فإذا كان الله قادرا على العطاء وعلى نصرة عباده، فكيف

---

(١) من وحى القرآن: ٢٤٨/٨.

يتركهم للفقر ينهش أجسادهم، وللظلم يخنق حياتهم!؟ ويشعرون أمام ذلك بالعلو والرفعة بما يملكونه من مال وجاه وقوّة إزاء ما يفقده الآخرون من ذلك كله، ولكنّ الله يقابل منطقهم الأعوج هذا بالدعاء عليهم بأن تغلّ أيديهم بالمرض الّذي يمنعها من التحرك والقدرة، أو بالحديث عن الإمكانات المستقبليّة الّتي قد توحي بشيء من هذا القبيل، ليكون الجو أشبه شيء بالتهديد الخفي، ﴿غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ﴾ وشلّت ومنعت من التحرك الّذي يمليه عليها إرادتها ومعتقدها.

٤. ثمّ يواجههم باللعنة ﴿وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا﴾، وذلك بسبب ما قالوه من كلام ينطلق من جهل وسوء معرفة بالله الّذي خلقهم ورزقهم وأفاض كلّ نعمه عليهم وعلى جميع خلقه، وبشكل دائم لا انقطاع له، مما يكشف عن تمرّدهم وانحرافهم واستغراقهم في أجواء الضلال، وابتعادهم عن الحقيقة الإلهيّة الّتي تفرض نفسها على الوجود كله.

٥. ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ بالخير المتدفق في كل مجاري الحياة ومواردها كالينبوع المتدفق المتفجر بالعطاء المستمر والممتد، وجاءت اليد هنا لتدل على النعمة والرزق والعطاء على سبيل الكناية، وربّما كانت التثنية سبيلا من سبل التعبير عن الشمول في العطاء من خلال كل الوسائل الّتي ينزل فيها الخير على خلقه، ويمكن أن يكون الأساس في التعبير أنّ العطاء يكون باليد، فإذا كانت اليدان مبسوطتين بالعطاء، فكأنّه يعطي بكل وسيلة من وسائل العطاء، فلا تبقى وسيلة لا يعطي بها كناية عن شمول العطاء عنده، والله العالم.

٦. ﴿يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ فليس لأحد من خلقه أن يحدد له المورد والطريقة والمقدار، بل هي مشيئته الّتي تحدد للخلق أرزاقهم كما تحدد أعمارهم.

الشيرازي:

ذكر ناصر مكارم الشيرازي في تفسير هذا المقطع ما يلي[1]:

١. تبرز هذه الآية واحدا من المصاديق الواضحة للأقوال الباطلة التي كان اليهود يتفوهون بها، وقد تطرقت الآية السابقة إليها ـ أيضا ـ ولكن على نحو كلي.

(١) تفسير الأمثل: ٤/٧٤.

٢. ويتحدث لنا التّأريخ عن فترة من الوقت كان اليهود فيها قد وصلوا إلى ذروة السلطة والقدرة، وكانوا يمارسون الحكم على قسم مهم من المعمورة، ويمكن الاستشهاد بحكم سليمان وداوود كمثال على حكم الدولة اليهودية، وقد استمر حكم اليهود بعدهما بين رقي وانحطاط حتى ظهر الإسلام، فكان إيذانا بأفول الدولة اليهودية، وبالأخص في الحجاز، إذ أدى قتال النّبي ﷺ ليهود بني النضير وبني قريظة ويهود خيبر إلى إضعاف سلطتهم بصورة نهائية، وفي ذلك الوضع كان البعض من اليهود حين يتذكرون سلطتهم القوية السابقة، كانوا يقولون استهزاء وسخرية ـ إنّ يد الله أصبحت مقيدة بالسلاسل (والعياذ بالله) وأنّه لم يعد يعطف على اليهود! ويقال: أنّ المتفوه بهذا الكلام كان الفخاس بن عازوراء رئيس قبيلة بني القينقاع، أو النباش بن قيس كما ذكر بعض المفسّرين، وبما أنّ سائر أبناء الطائفة اليهودية أظهروا الرضى عن أقوال كبار قومهم هؤلاء، لذلك جاء القرآن لينسب هذه الأقوال إلى جميعهم، كما تقول الآية: ﴿قالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللهِ مَغْلُولَةٌ﴾

٣. ويجب الانتباه إلى أنّ كلمة (اليد) تطلق في اللغة العربية على معان كثيرة ومنها (اليد العضوية) كما أن معانيها (النعمة) و(القدرة) و(السلطة) و(الحكم)، وبديهي أنّ المعنى الشائع لها هو اليد العضوية، ولما كان الإنسان ينجز أغلب أعماله المهمّة بيده، فقد أطلقت من باب الكناية على معان أخرى.

٤. وتفيدنا الكثير من الرّوايات الواردة عن أهل البيت عليهم السّلام أنّ هذه الآية تشير إلى ما كان اليهود يعتقدون به حول القضاء والقدر والمصير والإرادة، حيث كانوا يذهبون إلى أنّ الله قد عين كل شيء منذ بدء الخليقة، وأنّ كل ما يجب أن يحصل قد حصل، وأنّ الله لا يستطيع من الناحية العملية إيجاد تغيير في ذلك.

٥. وبديهي أنّ تتمة الآية التي تتضمن عبارة ﴿بَلْ يَداهُ مَبْسُوطَتانِ﴾ ـ كما سيأتي شرحه ـ تؤيد المعنى الأوّل، كما يمكن أن يقترن المعنى الثّاني بالمعنى الأوّل في مسير واحد، لأنّ اليهود حين أفل نجم سلطانهم، كانوا يعتقدون أن هذا الأفول هو مصيرهم المقدر، وأنّ يد الله مقيدة لا تستطيع فعل شيء أمام هذا المصير.

٦. والله تعالى يرد على هؤلاء توبيخا وذما لهم ولمعتقدهم هذا بقوله: ﴿غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِما قالُوا﴾ ثمّ لكي يبطل هذه العقيدة الفاسدة يقول سبحانه وتعالى: ﴿بَلْ يَداهُ مَبْسُوطَتانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشاءُ﴾ فلا إجبار في عمل الله كما أنّه ليس محكوما بالجبر الطبيعي ولا الجبر التّأريخي، بل أنّ إرادته فوق كل شيء

وتعمل في كل شيء والملفت للنظر هنا أنّ اليهود ذكروا اليد بصيغة المفرد كما جاء في الآية الكريمة، لكن الله تعالى من خلال رده عليهم قد ثنّى كلمة اليد فقال: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ وهذا بالإضافة إلى كونه تأكيدا للموضوع، هو كناية لطيفة تظهر عظمة جود الله وعفوه، وذلك لأنّ الكرماء جدّا يهبون ما يشاءون للغير بيدين مبسوطتين، أضف إلى ذلك أنّ ذكر اليدين كناية عن القدرة الكاملة، أو ربّما يكون إشارة إلى النعم المادية والمعنوية، أو الدنيوية والأخروية.

٦٤. اليهود وعواقب الطغيان والكفر

نتناول في هذا الفصل ما ذكره المفسّرون ـ بحسب التسلسل التاريخي، والمدارس الإسلامية المختلفة ـ حول تفسير المقطع [٦٤] من سورة المائدة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ [المائدة: ٦٤]، مع العلم أنّا نقلنا المباحث التي لا علاقة لها ـ كبرى أو مباشرة ـ بالتفسير التحليلي إلى محالّها من كتب السلسلة.

التيمي:

روي عن إبراهيم التيمي (ت ٩٤ هـ) أنّه قال: ﴿الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ﴾ الخصومات، والجدال في الدين[١].

مجاهد:

روي عن مجاهد (ت ١٠٤ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال: ﴿وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ اليهود والنصارى[٢].

٢. روي أنّه قال: كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللهُ﴾ هم اليهود[٣].

٣. روي أنّه قال: ﴿كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللهُ﴾، يقول: كلما مكروا مكرا أطفأه الله[٤].

٤. روي أنّه قال: ﴿كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ﴾ حرب محمد ﷺ[٥].

البصري:

روي عن الحسن البصري (ت ١١٠ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

---

(١) ابن أبي حاتم ٤/١١٦٨.

(٢) ابن جرير ٨/٥٥٨.

(٣) ابن جرير ٨/٥٦٠.

(٤) ابن أبي حاتم ٤/١١٦٨.

(٥) تفسير مجاهد ص ٣١٢.

١. روي أنّه قال: ﴿كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللهُ﴾ كلما اجتمعت السفلة[1]، على قتل العرب أذلهم الله[2].

٢. روي أنّه قال: ﴿كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللهُ﴾ كلما أجمعوا أمرهم ليفسدوا أمر محمد ﷺ، وأوقدوا نار المحاربة؛ أطفأها الله، فردهم، وقهرهم، ونصر نبيه ودينه[3].

قتادة:

روي عن قتادة بن دعامة (ت ١١٧ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال: ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾ حملهم حسد محمد ﷺ والعرب على أن تركوا القرآن، وكفروا بمحمد ﷺ ودينه، وهم يجدونه مكتوبا عندهم[4].

٢. روي أنّه قال: ﴿كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللهُ﴾ أولئك أعداء الله اليهود، كلما أوقدوا نارا للحرب أطفأها الله، فلن تلقى اليهود ببلد إلا وجدتهم من أذل أهله، لقد جاء الإسلام حين جاء وهم تحت أيدي المجوس، وهم أبغض خلق الله تقمئة وتصغيرا بأعمالهم أعمال السوء[5].

٣. روي أنّه قال: هذا عام في كل حرب طلبته اليهود، فلا تلقى اليهود في البلد إلا وجدتهم من أذل الناس، ﴿وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾[6].

الباقر:

روي عن الإمام الباقر (ت ١١٤ هـ) أنّه قال: ﴿كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللهُ﴾ كلما أراد جبار من الجبابرة هلكة آل محمد عليهم السلام قصمه الله[7].

زيد:

---

(١) السَّفِلَة ـ بفتح السين وكسر الفاء ـ: السُّقاط من الناس.

(٢) ابن أبي حاتم ١١٦٩/٤.

(٣) تفسير البغوي ٧٧/٣.

(٤) ابن جرير ٥٥٨/٨.

(٥) ابن جرير ٥٦٠/٨.

(٦) تفسير البغوي ٧٧/٣.

(٧) تفسير القمي ١٧١/١.

روي عن الإمام زيد (ت ١٢٢ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال: ﴿وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ﴾ معناه جعلناها[١].

٢. روي أنّه قال: ﴿كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ﴾ معناه نصبوا للحرب[٢].

السدي:

روي عن إسماعيل السدي الكوفي (ت ١٢٧ هـ) أنّه قال: ﴿كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللهُ﴾ كلما أجمعوا أمرهم على شيء فرقه الله، وأطفأ حدهم ونارهم، وقذف في قلوبهم الرعب[٣].

الربيع:

روي عن الربيع بن أنس (ت ١٣٩ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال: قالت العلماء فيما حفظوا وعلموا: إنه ليس على الأرض قوم حكموا بغير ما أنزل الله إلا ألقى الله بينهم العداوة والبغضاء، وقال: ذلك في اليهود، حيث حكموا بغير ما أنزل الله: ﴿وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾[٤].

٢. روي أنّه قال: ﴿لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ﴾ [الإسراء: ٤ ـ ٦] كان الفساد الأول، فبعث الله عليهم عدوا، فاستباحوا الديار، واستنكحوا النساء، واستعبدوا الولدان، وخربوا المسجد، فغبروا[٥]، زمانا، ثم بعث الله فيهم نبيا، وعاد أمرهم إلى أحسن ما كان، ثم كان الفساد الثاني بقتلهم الأنبياء، حتى قتلوا يحيى بن زكريا، فبعث الله عليهم بختنصر، قتل من قتل منهم، وسبى من سبى، وخرب المسجد، فكان بختنصر للفساد الثاني، قال: والفساد: المعصية، ثم قال: ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ إلى قوله: ﴿وَإِنْ عُدْتُمْ

---

(١) تفسير الإمام زيد، ص ١٣٠.

(٢) تفسير الإمام زيد، ص ١٣٠.

(٣) ابن جرير ٨/٥٦١.

(٤) عزاه السيوطي إلى أبي الشيخ.

(٥) فغَبَروا: أي: بقَوا ومَكثوا.

عُدْنَا﴾، فبعث الله لهم عزيرا، وقد كان علم التوراة وحفظها في صدره، وكتبها لهم، فقام بها ذلك القرن، ولبثوا فنسوا، ومات عزير، وكانت أحداث، ونسوا العهد، وبخلوا ربهم، وقالوا: ﴿يَدُ الله مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾، وقالوا في عزير: إن الله اتخذه ولدا، وكانوا يعيبون ذلك على النصارى في قولهم في المسيح، فخالفوا ما نهوا عنه، وعملوا بما كانوا يكفرون عليه، فسبق من الله كلمة عند ذلك أنهم لم يظهروا على عدو آخر الدهر، فقال: ﴿كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾، فبعث الله عليهم المجوس الثلاثة أربابا، فلم يزالوا كذلك والمجوس على رقابهم وهم يقولون: يا ليتنا أدركنا هذا النبي الذي نجده مكتوبا عندنا، عسى الله أن يفكنا به من المجوس والعذاب الهون، فبعث محمدا ﷺ، واسمه محمد، واسمه في الإنجيل أحمد، فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به، قال: ﴿فَلَعْنَةُ الله عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٨٩]، وقال: ﴿فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ﴾ [البقرة: ٩٠][(١)].

مقاتل:

روي عن مقاتل بن سليمان (ت ١٥٠ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال: ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ﴾ يعني: اليهود من بني النضير ﴿مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾: أمر الرجم، والدماء، ونعت محمد ﷺ ﴿طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾ بالقرآن، يعني: جحودا به[(٢)].

٢. روي أنّه قال: ﴿وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ﴾ يعني: اليهود والنصارى، شر ألقاه عز وجل بينهم ﴿الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ﴾ يعني: يبغض بعضهم بعضا، ويشتم بعضا ﴿إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ فلا يحب اليهودي النصراني، ولا النصراني اليهودي[(٣)].

٣. روي أنّه قال: ﴿كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللهُ﴾ يعني: كلما أجمعوا أمرهم على مكر بمحمد ﷺ في أمر الحرب فرقه الله عز وجل، وأطفأ نار مكرهم، فلا يظفرون بشيء أبدا، ﴿وَيَسْعَوْنَ فِي

---

(١) ابن جرير ٨/٥٥٩.

(٢) تفسير مقاتل ابن سليمان ١/٤٩٠.

(٣) تفسير مقاتل ابن سليمان ١/٤٩٠.

الْأَرْضِ فَسَادًا﴾ يعني: يعملون فيها بالمعاصي، ﴿وَاللهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ يعنى: العاملين بالمعاصي[1].

الماتريدي:

ذكر أبو منصور الماتريدي (ت ٣٣٣ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[2]:

١. وقوله عز وجل: ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾، قيل فيه بوجهين:

أ. قيل: يريد ما أنزل الله إليك من القرآن، ﴿كَثِيرًا مِنْهُمْ﴾، يعني: اليهود ﴿طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾

ب. وقيل: ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾: من البيان عما كتموا من نعته وصفته التي كانت في كتابهم، وما حرفوا فيه وغيروه من الأحكام؛ فذلك مما زادهم طغيانًا وكفرًا.

ج. قيل: ﴿طُغْيَانًا﴾، أي: تماديا بالمعصية، ﴿وَكُفْرًا﴾: بالقرآن.

د. وقيل: الطغيان: هو العدوان، وهو المجاوزة عن الحد الذي حد.

٢. سؤال وإشكال: ما معنى إضافة زيادة الطغيان إلى القرآن، والقرآن لا يزيد طغيانًا ولا كفرًا؟

والجواب: قيل: إضافة الأفعال إلى الأشياء تكون لوجوه ثلاثة: منها: ما يضاف لحقيقة الفعل بها، ومنها: ما يضاف للأحوال، ومنها: ما يضاف لمكان ما به يكون الفعل، وهاهنا أضيف ذلك إلى القرآن؛ لما كان فيهم من الطغيان والكفر لمكان ما أنزل إليهم بالكفر الذي كان فيهم؛ وهو كقوله تعالى: ﴿إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ﴾: إنهن لا يضللن أحدًا في الحقيقة؛ ولكن لما صاروا بهن ضلالا أضيف إليهن، وكقوله عز وجل: ﴿وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾، والحياة الدنيا لا تغر أحدًا؛ ولكن لما لو كانت لها حواس لكان ما أبدت من الزينة لغرت.

٣. ﴿وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ اختلف فيه:

أ. قال بعضهم: ﴿وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ﴾: بين اليهود والنصارى، أي: لا يحب اليهودي نصرانيا، ولا النصراني يهوديا.

ب. وقال آخرون: ﴿بَيْنَهُمْ﴾، أي: بين اليهود؛ لأن اليهود على مذاهب مختلفة وأهواء مشتتة: منهم من يقول: عزير ابن الله، ومنهم من يذهب مذهب التشبيه، هم على أهواء مختلفة؛ فبينهم عداوة وبغضاء،

---

(١) تفسير مقاتل ابن سليمان ١/٤٩٠.

(٢) تأويلات أهل السنة: ٣/٥٥٢.

على ما ذكرنا الاختلاف الواقع بينهم.

٤. ثم معنى ما أضاف من إلقاء العداوة بينهم إلى نفسه لا يخلو: إما أن يكون له في نفس العداوة فعل، أو أن يكون في سبب العداوة، ولا يجوز أن يكون له في فعل العداوة صنع؛ لأنه فعلهم، ولا في سبب العداوة ـ أيضًا ـ لأن سببه الاختلاف، والاختلاف فعلهم ـ أيضًا ـ فإذا بطل أن يكون له في واحد من هذين صنع؛ دل أن له ذلك من الوجه الآخر، وهو أن خلق فعل العداوة وسبب العداوة منهم، وبالله التوفيق والعصمة.

٥. سؤال وإشكال: ذكر هاهنا أنه تعالى ألقى بينهم العداوة والبغضاء، وذكر في آية أخرى أن بعضهم أولياء بعض بقوله تعالى: ﴿لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ﴾ كيف يجمع بينهما!؟ والجواب: قيل: ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ في أصل الدِّين وهو الكفر، وبينهم عداوة؛ لاختلاف الأهواء والمذاهب.

٦. وفي الآية دلالة الامتنان على رسول الله ﷺ بما أخبر أنه ألقى بينهم العداوة والبغضاء، ولو كانوا على مذهب واحد، ولم يكن بينهم اختلاف وعداوة ـ لكان ذلك عليه أشد، وفي المقام بينهم أصعب، لكن مَنَّ عليه بالاختلاف فيما بينهم؛ لما جعل الاختلاف والتنازع سبب الفشل؛ كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا﴾ الآية.

٧. وقوله عز وجل: ﴿كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللهُ﴾، يحتمل وجهين:

أ. يحتمل: كلما أرادوا مكر رسول الله ﷺ وأجمعوا أمرهم على قتله، أطلع الله نبيه ﷺ على ذلك؛ حتى لم يقدروا على مكره.

ب. الثاني: كلما انتصبوا للحرب مع رسول الله ﷺ واجتمعوا عليه، فرق الله شملهم، وجعلهم بحيث لا يجتمعون على ذلك.

٨. وقوله عز وجل: ﴿وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا﴾ يحتمل وجهين ـ أيضًا ـ:

أ. يحتمل: السعي بالفساد على حقيقة المشي على الأقدام، وهو ما كانوا يسعون في نصب الحرب مع المؤمنين، والاتصال بغيرهم من الكفرة، والاستعانة بهم؛ فذلك هو السعي في الأرض بالفساد.

ب. الثاني: ما كتموا من نعت رسول الله ﷺ وصفته وحرفوا ما في كتبهم من أعلام نبوته وآيات رسالته، ودعوا الناس إلى غير ما نزل فيه؛ وذلك سعي في الأرض بالفساد.

٩. وقوله عز وجل: ﴿وَاللهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ لأنه لا يحب الفساد، ولا يرضى به.

العياني:

ذكر الإمام المهدي العياني (ت ٤٠٤ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. معنى قوله: ﴿وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ﴾، أي تركنا وخلينا.

٢. ومعنى قوله: ﴿كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللهُ﴾، أي كلما أوقدوا شراً، ودبروا الحرب لأوليا الله تدبيراً، أطفأ الله شرهم وهدم عزهم وأبطل تدبيرهم ودمر كفرهم.

الماوردي:

ذكر أبو الحسن الماوردي (ت ٤٥٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[٢]:

١. ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾ يعني حسدهم إياه وعنادهم له.

٢. ﴿وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ﴾ فيه قولان:

أ. أحدهما: أنه عنى اليهود بما حصل منهم من الخلاف.

ب. الثاني: أنه أراد بين اليهود والنصارى في تباين قولهم في المسيح، قاله الحسن.

الطوسي:

ذكر أبو جعفر الطوسي (ت ٤٦٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[٣]:

١. ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أنزل إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾ أي وسيزدادون عند ذلك طغياناً وكفراً لأن القرآن لا يفعل شيئاً من ذلك، كما يقول القائل: وعظتك فكانت موعظتي وبالًا عليك، وما زادتك إلا شراً أي انك ازددت عندها شراً، وذلك مشهور في الاستعمال، والطغيان هنا هو الغلو في الكفر.

٢. ﴿وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ﴾ قيل فيه قولان:

أ. أحدهما: إن المراد بذلك بين اليهود والنصارى على ما قلناه في قوله: ﴿فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ﴾ هذا قول الحسن ومجاهد، وقد جرى ذكرهم في قوله: ﴿لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ﴾

---

(١) تفسير الإمام المهدي العياني: ٢/٢٢٤.

(٢) تفسير الماوردي: ٢/٥٣.

(٣) تفسير الطوسي: ٣/٥٨٤

ب. الثاني: أن الكناية راجعة على اليهود خاصة، والمراد ما وقع بينهم من الخلاف بين الاشمعينية والعنانية وغيرهم من طوائف اليهود ذكره الرماني.

٣. وبما ذا القي بينهم العداوة والبغضاء؟ قيل فيه قولان:

أ. أحدهما: قال أبو علي بتعريف اليهود قبح مذهب النصارى في عبادة المسيح وبتعريف النصارى قبح مذهب اليهود في الكفر بالمسيح.

ب. الثاني: قال الرماني بوضع البغضاء عقاباً على الاختلاف بالباطل.

٤. قوله تعالى: ﴿إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ فيه دلالة على أنهم لا يجتمعون على مذهب واحد إلى يوم القيامة، ولا بد أن يكون ذلك مختصاً بمن يعلم الله من حالهم أنهم لا يؤمنون.

٥. ﴿كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ﴾ قيل في معناه قولان:

أ. أحدهما: قال الحسن ومجاهد: لحرب محمد ﷺ، وفي ذلك دلالة ومعجزة، لأن الله أخبر عن الغيب وكان كما أخبر، لأن اليهود كانت أشد أهل الحجاز بأساً وأمنعهم داراً حتى أن قريشاً كانت تعتضد بهم والأوس والخزرج تستبق إلى محالفتهم والتكثر بنصرتهم، فأباد الله حضراءهم واقتلع أصلهم، فأجلى النبي ﷺ بني قينقاع وبني النضير، وقتل بني قريظة وشرد أهل خيبر وغلب على فدك ودان له أهل وادي القرى، فمحا الله آثارهم صاغرين وحقق بخبر نبيه ﷺ، وهذه كلمة مستعملة في اللغة في التشاغل بالحرب والاستعداد لها، قال عوف ابن عطية:

إذا ما اجتنينا جنا منهل شببنا لحرب بعلياء نارا

ب. الثاني: قال قتادة: هو عام، والمعنى إن الله أذلهم بذلك لا يغزون أبداً، وإنما يطفئ الله بلطفه نار حربهم وما يوقي نبيه ﷺ من نقض ما يبرمون، وما يطلعه عليه من أسرارهم ويمن به عليه من النصر والتأييد.

٦. ثم أخبر تعالى أن هؤلاء اليهود ﴿يَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَاداً﴾ يعني بمعصية الله وتكذيب رسله ومخالفة أمره ونهيه، واجتهادهم في دفع الإسلام ومحو ذكر النبي ﷺ من كتبهم، وذلك هو سعيهم بالفساد، ثم قال: ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ يعني لا يحب من كان عاملاً بمعاصيه في أرضه.

٧. ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا﴾ قد بينا أن معنى (لو) امتناع الشيء لامتناع غيره، وقال

الرماني معناه وجوب المعنى الثاني بالأول على جهة التقدير بطريقة لو كان كذا لكان كذا، فإن قطع الأول قطع الثاني بطريقه كقولك وقد كان كذا وكذا، وقد كان كذا وما كان كذا، فما كان كذا فنحوه، وما كفَّرنا عنهم سيئاتهم فما آمنوا واتقوا، والفرق بين (لو) و(إن) مع أن كل واحدة منهما تعلق المعنى الأول: أن (لو) للماضي و(إن) للمستقبل كقولك: إن أتيتني أكرمتك، ولو أتيتني لأكرمتك، فيقدر الإكرام بالإتيان في الماضي، وفي (إن) وعد وليس في (لو) ذلك.

٨. أخبر الله تعالى أن هؤلاء اليهود والكفار لو آمنوا واتقوا معاصيه لكفر عنهم سيئاتهم أي غطاها عليهم وأزال عقابها عنهم وأثابهم على إيمانهم وتقواهم، ﴿وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ اللام لام القسم وأصل التكفير التغطية، ومنه يكفر في السلاح قال الشاعر: في ليلة كفر النجوم غمامها.

٩. ﴿وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ وان كان على لفظ الماضي فالمراد به الاستقبال وإنما كان كذلك، لأنه قدر تقدير الماضي كما قال: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا﴾ وذلك يدل على أن (لو) أوسع من (ان)

١٠. ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ قد بينا معنى (لو) فيما مضى وإنما فتحت (أنهم) بعدها لأن هذا موضع قد خالف الابتداء بأنه بالفعل أولى فصار بمنزلة العامل الذي يختص بالفعل دون الاسم أو الاسم دون الفعل يبين ذلك امتناع اللام من الدخول على الخبر في (لو) وليس كذلك (حتى) و(إلا)

١١. ومعنى ﴿أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾ علموا بما فيهما على ما فيهما دون أن يحرفوا شيئاً منهما أو يغيروا أو يبدلوا كما كانوا يفعلون ويحتمل أن يكون معناه بما فيهما بأن أقاموهما نصب أعينهم لئلا يزالوا في شيء من حدودهما.

١٢. قوله تعالى: ﴿وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ يحتمل أمرين:

أ. أحدهما: قال ابن عباس وأبو علي وغيرهما: المراد به الفرقان.

ب. الثاني: قال قوم: كل ما دل الله عليه من أمور الدين.

١٣. اختلف في معنى قوله تعالى: ﴿لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾:

أ. قيل: ﴿لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ﴾ بإرسال السماء عليهم مدراراً ﴿وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ بإعطاء الأرض خيرها وبركتها، وقال قوم ﴿مِنْ فَوْقِهِمْ﴾ ثمار النخل والأشجار ﴿وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ الزرع.

ب. الثاني: أن المعنى فيه التوسعة، كما يقال: هو في الخير من قرنه إلى قدمه أي يأتيه الخير من كل جهة يلتمسه منها، واختار الطبري الوجه

١٤. والمعنى لو آمنوا لأقاموا في أوطانهم، وأموالهم وزروعهم، ولم يجلوا عن بلادهم، ففي ذلك التأسيف لهم على ما فاتهم، والاعتداد بسعة ما كانوا فيه من نعمة الله عليهم، وهو جواب التبخيل في قولهم ﴿يَدُ اللهِ مَغْلُولَةٌ﴾

١٥. وقد جعل الله التقى من أسباب الرزق فقال: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللهَّ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ وقال: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ وقال: ﴿اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا﴾ وقال: ﴿وأَنْ لَوِ اسْتَقامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْناهُمْ ماءً غَدَقاً﴾

١٦. ﴿مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ﴾:

أ. يعني من هؤلاء الكفار قوم معتدلون في العمل من غير غلو ولا تقصير، قال أبو علي: وهم الذين أسلموا منهم، وتابعوا النبي ﷺ، وهو المروي في تفسير أهل البيت.

ب. وقال قوم: نزلت في النجاشي وأصحابه، وحكى الزجاج عن قوم أنهم قالوا: نزلت في قوم لم يناصبوا النبي ﷺ مناصبة هؤلاء.

١٧. الأول أقوى، لأن الله تعالى لا يجوز أن يسمي الناصب مقتصداً بحال، ويحتمل أن يكون أراد به من يقر منهم بأن المسيح عبد الله، ولا يدعي فيه الالهية والنبوة، وقال مجاهد: هم مسلمو أهل الكتاب، وبه قال ابن زيد، والسدي.

١٨. واشتقاق المقتصدين من القصد، لأنه القاصد إلى ما يعرف، فكان خلاف الطالب المتحير في طلبه، والاقتصاد الاستواء في العمل المؤدي إلى الغرض، وقوله: ﴿وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾ إخبار منه تعالى أن أكثر هؤلاء اليهود والنصاري، ويعملون الأعمال السيئة وهم الذين يقيمون على الكفر والجحود بالنبي ﷺ.

١٩. وقوله: ﴿سَاءَ﴾ معناه قبح و﴿مَا يَعْمَلُونَ﴾:

أ. يحتمل أن تكون (ما) مع ما بعدها بمنزلة المصدر والتقدير: بئس شيئاً عملهم كما قال: ﴿سَاءَ

مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا﴾

ب. الثاني أن تكون (ما) بمعنى الذي وما بعدها صلة لها والعائد محذوف.

الجشمي:

ذكر الحاكم الجشمي (ت ٤٩٤ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. شرح مختصر للكلمات:

أ. الوَقُود بفتح الواو: الحطب، وبضمها: المصدر، وقد وقودًا، والوقود نفس النار يقال: وَقَدَتِ النار تَقِدُ، وأوقدتها أنا، وذكر النار في الحرب توسع، وكثيرًا ما تذكره العرب يقولون: حمي الوطيس، ويصلى بنار الحرب، وأسعرت الحرب، واستوقد بمعنى أوقد، ومنه ﴿كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا﴾ أي أوقدها.

ب. ﴿أَطْفَأَهَا﴾ يقال: أطْفَأْتُ النار، وطَفِئَتْ هي.

ج. السعي: العمل، سعى سعيًا عَدَا وعمل، والمسعاة في الكرم والجود وهو المساعي، والسعاية في أخذ الصدقات، وسعاية العبد: إذا عمل في فكاك رقبته، وأصل الباب العمل، قال الراعي:

سَعى عِقالاً فلَمْ يتْرُكْ لنا سَبدًا ... فكيفَ لو قدْ سعى عمروٌ عِقَالَيْنِ

يعني: أخذ الصدقة لنفسه.

٢. ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾ المراد بالكثير علماء اليهود:

أ. يعني ازدادوا عند نزول ما أنزل إليك من ربك من القرآن من الحجج مجاوزة في الكفر وكفرًا بإنكارهم وذلك كما يقال: ما زدتك بموعظتي إلا شرا، وزيادة كفرهم أنهم كانوا كفرة فلما أنزل آية أخرى كفروا به أيضًا فازدادوا كفرًا.

ب. وقيل: إقامتهم على الكفر زيادة في كفرهم.

٣. ﴿وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ﴾:

أ. قيل: ألقينا بأن نخطر ببالهم ما تتجدد عنده العداوة.

---

(١) التهذيب في التفسير: ٣/٣٥٠.

ب. وقيل: ألقى بأن عرف كل واحد كفر صاحبه، فعادى بعضهم بعضًا، فعرف النصارى مذهب اليهود في المسيح، وعرف اليهود مذهب النصارى في المسيح، عن أبي علي.

ج. وقيل: يأمر بمعاداة الكافرين في باطلهم، فأوجب على النصارى معاداة اليهود، وعلى اليهود معاداة النصارى في باطلهم، عن أبي مسلم.

د. وقيل: ألقينا بالألطاف عن القاضي.

٤. ﴿بَيْنَهُمْ﴾:

أ. قيل: بين اليهود وبين النصارى، عن الحسن ومجاهد؛ لأنه جرى ذكرهم في قوله: ﴿لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى﴾

ب. وقيل: بين اليهود فصاروا فرقًا كالعَنَانية وغيرهم.

٥. ﴿الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ﴾:

أ. قيل: هما واحد.

ب. وقيل: العداوة بالاعتقاد والعزم، والبغضاء بالإظهار.

٦. ﴿كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللهُ﴾:

أ. قيل: كلما أوقدوا نارًا لحرب محمد وأصحابه، أي أجمعوا لذلك واستعدوا، عن الحسن ومجاهد والأصم ﴿أَطْفَأَهَا اللهُ﴾ بنصر نبيه، وكسر شوكتهم.

ب. وقيل: أذلهم الله عن قتادة، ولن تلقى اليهود ببلد إلا وهم أذلة، وجاء الإسلام وهم تحت أيدي المجوس.

ج. وقيل: كلما أجمعوا على شيء واستقام أمرهم شتت الله ذلك بسوء أفعالهم، بأن يخلي بينهم وبين أعدائهم كما فعله بخت نَصَّر وغيره، على ما قص الله تعالى في قوله: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾

د. وقيل: أطفأها الله بإحكام العداوة بينهم حتى يشغلهم ذلك عن محاربة المسلمين، عن أبي مسلم.

هـ. وقيل: بنصر الله المؤمنين، عن أبي علي.

٧. ﴿وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا﴾ يعني اليهود:

أ. يعملون الفساد في الأرض.

ب. وقيل: فسادهم بما يظهر بينهم من الكفر والظلم ومحاربة النبي ﷺ.

ج. وقيل: مجتهدون في إبطال أمر محمد، ﷺ.

٨. ﴿وَاللهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ أي لا يريد إكرامهم، ولا يرضى أفعالهم.

٩. تدل الآية الكريمة على:

أ. إلقاء العداوة بين اليهود والنصارى من جهته تعالى، وأن تلك العداوة حسية.

ب. يدل قوله: ﴿لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ أنه لا يريد فسادهم؛ لأن المحبة هي الإرادة، وإنما لا يحبهم لأجل فسادهم.

ج. أن العبد فاعل من وجوه:

- منها قوله: ﴿كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا﴾: ولو كان ذلك خلقًا لله تعالى لكان الموقد والمطفئ واحدًا.
- ومنها: قوله: ﴿وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا﴾

١٠. مسائل لغوية ونحوية:

١١. مسائل لغوية ونحوية:

أ. ﴿يَسْعَوْنَ﴾ عطف على قوله: ﴿وَقَالَتْ﴾ أي ذلك قولها وهذا عملها.

ب. ﴿فَسَادًا﴾ نصب على المصدر، تقديره: يفسدون في الأرض فسادًا.

الطَبِرسي:

ذكر الفضل الطَبِرسي (ت ٥٤٨ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾ أي: سيزدادون عند إنزال القرآن إليك طغيانا وكفرا، ويريد بالكثير منهم: المقيمين على الكفر، وإنما ازدادوا كفرا لأنه كلما أنزل الله حكما وأخبرهم النبي ﷺ به، جحدوه وازدادوا بذلك طغيانا، وهو التمادي والمجاوزة عن الحد، وكفروا انضم إلى كفرهم، وهذا كما يقول القائل: وعظتك فكانت موعظتي وبالا عليك، وما زادتك إلا شرا، على معنى أنك ازددت عندها شرا، وذلك مشهور في الاستعمال.

---

(١) تفسير الطبرسي: ٣/٣٣٩.

٢. ﴿وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾:

أ. أي بين اليهود والنصارى، عن الحسن، ومجاهد.

ب. وقيل: يريد به اليهود خاصة، وقد مر تفسيره في أول السورة عند قوله: ﴿فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾

٣. ﴿كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللهُ﴾:

أ. أي: لحرب محمد، عن الحسن، ومجاهد، وفي هذا دلالة ومعجزة لان الله أخبره فوافق خبره المخبر، فقد كانت اليهود أشد أهل الحجاز بأسا، وأمنعهم دارا، حتى إن قريشا كانت تعتضد بهم، والأوس والخزرج تستبق إلى محالفتهم، وتتكثر بنصرتهم، فأباد الله خضراءهم، واستأصل شأفتهم، واجتث أصلهم، فأجلى النبي بني النضير وبني قينقاع، وقتل بني قريظة، وشرد أهل خيبر، وغلب على فدك، ودان له أهل وادي القرى، فمحا الله تعالى آثارهم صاغرين.

ب. وقال قتادة: معناه إن الله أذلهم ذلا لا يعزون بعده أبدا، وإنما يطفئ نار حربهم بلطفه، وبما يطلع نبيه عليه من أسرارهم، وبما يمن به عليه من التأييد والنصر.

٤. ﴿وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا﴾ بمعصية الله، وتكذيب رسله، ومخالفة أمره ونهيه، واجتهادهم في محو ذكر النبي ﷺ من كتبهم ﴿وَاللهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ العاملين بالفساد، والمعاصي، في أرضه.

ابن الجوزي:

ذكر أبو الفرج بن الجوزي (ت ٥٩٧ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾ قال الزجّاج: كلّما أنزل عليك شيء كفروا به، فيزيد كفرهم، و(الطّغيان) هاهنا: الغلوّ في الكفر، وقال مقاتل: وليزيدنّ بني النّضير ما أنزل إليك من ربّك من أمر الرّجم والدّماء طغيانا وكفرا.

١. ﴿وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ﴾ فيمن عني بهذا قولان:

أ. أحدهما: اليهود والنّصارى، قاله ابن عباس: ومجاهد، ومقاتل، سؤال وإشكال: فأين ذكر

---

(١) زاد المسير في علم التفسير: ١/٥٦٧.

النّصارى؟ والجواب: أنه قد تقدّم في قوله تعالى: ﴿لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ﴾

ب. الثاني: أنهم اليهود، قاله قتادة.

٢. ﴿وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا﴾ فيه أربعة أقوال:

أ. أحدها: بالمعاصي، قاله ابن عباس، ومقاتل.

ب. الثاني: بمحو ذكر النبيّ ﷺ من كتبهم، ودفع الإسلام، قاله الزجّاج.

ج. الثالث: بالكفر.

د. الرابع: بالظّلم، ذكرهما الماورديّ.

الرَّازي:

ذكر الفخر الرازي (ت ٦٠٦ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾ المراد بالكثير علماء اليهود:

أ. يعني ازدادوا عند نزول ما أنزل إليك من ربك من القرآن والحجج شدة في الكفر وغلوا في الإنكار، كما يقال: ما زادتك موعظتي إلا شرا.

ب. وقيل: إقامتهم على الكفر زيادة منهم في الكفر.

قال أهل السنة ـ ومن وافقهم ـ: دلّت الآية على أنه تعالى لا يراعي مصالح الدين والدنيا لأنه تعالى لما علم أنهم يزدادون عند إنزال تلك الآيات كفرا وضلالا، فلو كانت أفعاله معللة برعاية المصالح للعباد لامتنع عليه إنزال تلك الآيات، فلما أنزلها علمنا أنه تعالى لا يراعي مصالح العباد، ونظيره قوله: ﴿فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ﴾ [التوبة: ١٢٥]، سؤال وإشكال: علم الله تعالى من حالهم أنهم سواء أنزلها أو لم ينزلها فإنهم يأتون بتلك الزيادة من الكفر، فلهذا حسن منه تعالى إنزالها، والجواب: على هذا التقدير لم يكن ذلك الازدياد لأجل إنزال تلك الآيات، وهذا يقتضي أن تكون إضافة ازدياد اكفر إلى إنزال تلك الآيات باطلا، وذلك تكذيب لنص القرآن.

٢. اتصال هذه الآية ﴿وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ بما قبلها هو أنه تعالى بيّن

---

(١) التفسير الكبير: ٣٩٧/١٢.

أنهم إنما ينكرون نبوته بعد ظهور الدلائل على صحتها لأجل الحسد ولأجل حب الجاه والتبع والمال والسيادة، ثم إنه تعالى بيّن أنهم لما رجحوا الدنيا على الآخرة لا جرم أن الله تعالى كما حرمهم سعادة الدين، فكذلك حرمهم سعادة الدنيا، لأن كل فريق منهم بقي مصرا على مذهبه ومقالته، يبالغ في نصرته ويطعن في كل ما سواه من المذاهب والمقالات تعظيما لنفسه وترويجا لمذهبه، فصار ذلك سببا لوقوع الخصومة الشديدة بين فرقهم وطوائفهم، وانتهى الأمر فيه إلى أن بعضهم يكفر بعضا، ويغزو بعضهم بعضا.

٣. في قوله تعالى: ﴿وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ﴾ قولان:

أ. الأول: المراد منه ما بين اليهود والنصارى من العداوة لأنه جرى ذكرهم في قوله: ﴿لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى﴾ [المائدة: ٥١] وهو قول الحسن ومجاهد.

ب. الثاني: أن المراد وقوع العداوة بين فرق اليهود، فإن بعضهم جبرية، وبعضهم قدرية، وبعضهم موحدة، وبعضهم مشبهة، وكذلك بين فرق النصارى: كالملكانية والنسطورية واليعقوبية.

٤. سؤال وإشكال: فهذا المعنى حاصل بتمامه بين فرق المسلمين، فكيف يمكن جعله عيبا على اليهود والنصارى؟ والجواب: هذه البدع إنما حدثت بعد عصر الصحابة والتابعين، أما في ذلك الزمان فلم يك شيء من ذلك حاصلا، فلا جرم حسن من الرسول ومن أصحابه جعل ذلك عيبا على اليهود والنصارى.

٥. ﴿كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللهُ﴾، هذا شرح نوع آخر من أنواع المحن عن اليهود، وهو أنهم كلما هموا بأمر من الأمور رجعوا خائبين خاسرين مقهورين ملعونين كما قال تعالى: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا﴾ [آل عمران: ١١٢] قال قتادة: لا تلقى اليهود ببلدة إلا وجدتهم من أذل الناس.

٦. ﴿وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا﴾:

أ. أي ليس يحصل في أمرهم قوة من العزة والمنعة، إلا أنهم يسعون في الأرض فسادا، وذلك بأن يخدعوا ضعيفا، ويستخرجوا نوعا من المكر والكيد على سبيل الخفية.

ب. وقيل: إنهم لما خالفوا حكم التوراة سلّط عليهم بختنصّر ثم أفسدوا فسلّط عليهم بطرس الرومي، ثم أفسدوا فسلّط عليهم المجوس، ثم أفسدوا فسلّط عليهم المسلمين.

٧. ﴿وَاللهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ وذلك يدل على أن الساعي في الأرض بالفساد ممقوت عند الله

تعالى.

القرطبي:

ذكر محمد بن أحمد القرطبي (ت ٦٧١ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ﴾ لام قسم، ﴿مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ أي بالذي أنزل إليك، ﴿طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾ أي إذا نزل شي من القرآن فكفروا ازداد كفرهم.

٢. ﴿وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ﴾ قال مجاهد: أي بين اليهود والنصارى، لأنه قال قبل هذا ﴿لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ﴾ وقيل: أي ألقينا بين طوائف اليهود، كما قال: ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى﴾ [الحشر] فهم متباغضون متفقين، فهم أبغض خلق الله إلى الناس.

٣. ﴿كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ﴾ يريد اليهود، و﴿كُلَّمَا﴾ ظرف أي كلما جمعوا وأعدوا شتت الله جمعهم.

أ. وقيل: إن اليهود لما أفسدوا وخالفوا كتاب الله ـ التوراة ـ أرسل الله عليهم بخت نصر، ثم أفسدوا فأرسل عليهم بطرس الرومي، ثم أفسدوا فأرسل عليهم المجوس، ثم أفسدوا فبعث الله عليهم المسلمين، فكانوا كلما استقام أمرهم شتتهم الله فكلما أوقدوا نارا أي أهاجوا شرا، وأجمعوا أمرهم على حرب النبي ﷺ ﴿أَطْفَأَهَا اللهُ﴾ وقهرهم ووهن أمرهم فذكر النار مستعار، قال قتادة: أذلهم الله تعالى، فلقد بعث الله النبي ﷺ وهم تحت أيدي المجوس، ثم قال تعالى: ﴿وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا﴾ أي يسعون في إبطال الإسلام، وذلك من أعظم الفساد، والله أعلم.

ب. وقيل: المراد بالنار هنا نار الغضب، أي كلما أوقدوا نار الغضب في أنفسهم وتجمعوا بأبدانهم وقوة النفوس منهم باحتدام نار الغضب أطفأها الله حتى يضعفوا وذلك بما جعله من الرعب نصرة بين يدي نبيه ﷺ.

الشوكاني:

ذكر محمد بن علي الشوكاني (ت ١٢٥٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(٢)]:

---

(١) تفسير القرطبي: ٦/٢٤٠.

(٢) فتح القدير: ٢/٦٧.

١. ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ﴾، اللام هي لام القسم: أي ليزيدن كثيرا من اليهود والنصارى ما أنزل إليك من القرآن المشتمل على هذه الأحكام الحسنة.

٢. ﴿طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾ أي طغيانا إلى طغيانهم وكفرا إلى كفرهم، ﴿وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ﴾ أي بين اليهود ﴿الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ﴾ أو بين اليهود والنصارى.

٣. ﴿كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللهُ﴾ أي كلما جمعوا للحرب جمعا، وأعدوا له عدّة، شتّت الله جمعهم، وذهب بريحهم فلم يظفروا بطائل ولا عادوا بفائدة، بل لا يحصلون من ذلك إلا على الغلب لهم، وهكذا لا يزالون يهيجون الحروب ويجمعون عليها، ثم يبطل الله ذلك، والآية مشتملة على استعارة بليغة، وأسلوب بديع ﴿وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا﴾ أي يجتهدون في فعل ما فيه فساد، ومن أعظمه ما يريدونه من إبطال الإسلام وكيد أهله؛ وقيل: المراد بالنار هنا الغضب: أي كلما أثاروا في أنفسهم غضبا أطفأه الله بما جعله من الرعب في صدورهم والذلة والمسكنة المضروبتين عليهم.

٤. ﴿وَاللهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ إن كانت اللام للجنس فهم داخلون في ذلك دخولا أوّليا، وإن كانت للعهد فوضع الظاهر موضع المضمر لبيان شدّة فسادهم وكونهم لا ينفكون عنه.

أَطَّفِّيش:

ذكر محمد أَطَّفِّيش (ت ١٣٣٢ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. ﴿وَلَيَزِيدَنَّ﴾ أي: والله لَيَزِيدَنَّ، ﴿كَثِيرًا مِّنْهُمْ﴾ من اليهود، ﴿مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ من القرآن وغيره، ﴿مِن رَّبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾ على طغيانهم وكفرهم السابقَيْنِ، كلَّما نزل من الله شيء كفروا به، أو سعوا في إطفائه بالتحريف للفظه وَمَعنَاه ما أمكن، كالمريض كلَّما أكل غذاءً صالحًا للأصحَّاء ازداد مرضًا.

٢. ﴿وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ كلُّ فرقة من اليهود تخالف الأخرى قلبًا وقولاً، وقيل: الضمير للنصارى واليهود لذكرهم في ﴿لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ﴾ [المائدة: ٥١]، وفي لفظٍ: أهل الكتاب، فمنهم مجبرة، ومنهم قَدَرِيَّة، ومشبِّهة، ومجسِّمة، ومُرجئة، كما أنَّ النصارى ملكانيَّة، ونسطوريَّة، وماردانيَّة، وهم على ذلك حتَّى في عهد رسول الله ﷺ ونزول القرآن، وزادت النصارى أنَّهم

---

(١) تيسير التفسير، أطفيش: ٨٢/٤.

على ذلك حتَّى في عهد نزول الإنجيل، بخلاف فِرَق هذه الأمَّة، فإنَّها لم توجد في زمان نزول القرآن بل بعد رسول الله ﷺ ، والبغضاء في القلب، والعداوة أثرها على الجوارح، مِن شتمٍ وضربٍ ونحوِ ذلك، فكلَّما كانت العداوة فالبغضاء موجودة، وليس كلَّما كانت البغضاء فالعداوة موجودة، فالعداوة أخصُّ من البغضاء، وكلُّ عدوٍّ مبغض، وقد تبغض من ليس عدوًّا، ومن تلك العداوة بين اليهود والنصارى: لا يرى جندٌ يهوديُّون ونصرانيُّون مجتمعين على قتال المسلمين.

٣. ﴿كُلَّمَآ أَوقَدُواْ نَارًا لِّلحَرْبِ﴾ كلَّما شدَّدوا شرًّا من جموع وأموال ومكر وحيل وشجاعة يلقون به رسول الله ﷺ والمسلمين، ﴿أَطْفَأَهَا﴾ أبطلها، كما تُطفأُ النَّارُ بالماء، ﴿اللهُ﴾ بإلقاء البأس بينهم، وتفرُّق الناس عنهم، وكذلك قبل النبيء ﷺ ؛ فَإِنَّهُمْ لَمَّا خالفوا التوراة وقتلوا الأنبياء سلَّط الله عليهم (بُخْتُ نُصَّر) من بابل، قَتَلَ كبارَهم، وسَبَى صغارَهم، وأَحرق التوراةَ، وأَخرَبَ بيتَ المقدس، وذلك حين حبسوا (أرمياءَ)، وقتلوا يحيى، وقيل: (شعياء)، ثمَّ أفسدوا بقتل يحيى أو (شعياءَ)، على ما مَرَّ، فسلَّط الله عليهم (قطرس الرومي)، ثمَّ أفسدوا بقصد قتل عيسى فسلَّط عليهم المجوس، ثمَّ أفسدوا فسلَّط عليهم الروم، إذ ردَّت لهم الغلبة على المجوس، ثمَّ سلَّط الله المسلمين عليهم وعلى الروم، فقتلوا قريظة وأجلوا النضير وبني قينقاع، وأَسَرُوا أهل خيبر، ودان لهم أهل وادي القرى، وضربوا على أهل الذمَّة الجزية، وقيل: جاء الإسلام وهم تحت المجوس، ووجهه أنَّه حين غلبت الروم الفرس وهم مجوس، كانوا تحت المجوس كما كانوا من قبل، حتَّى تغلَّب المسلمون على الفرس، مع أنَّ من كان منهم في أرض الروم فهو تحت الروم، وقيل: الآية على العموم: لا يقاتِلُ اليهود قومًا إلَّا غلبهم القوم، كُفَّارا أو مسلمين.

٤. وأشار إلى تلك الإفسادات وغيرها بقول: ﴿وَيَسْعَوْنَ فِي الَارْضِ﴾ أيِّ أرض كانوا، أو في أرضهم ﴿فَسَادًا﴾ مفعول (يَسْعَوْنَ) لتضمُّنه معنى (يكسبون)، ففيه مبالغة بأنَّهم راغبون في الفساد كالرغبة في جمع المال، أو يَسْعَوْنَ سَعْيَ فسادٍ، أو اسم مصدر، أي: لأجل الإفساد، أو ذوي إفساد، وذلك أنَّهم يجتهدون في الكيد على المسلمين وإثارة الحروب وهتك الحرم، أو (يَسْعَوْنَ) بمعنى: يفسدون، أي: يفسدون فسادًا، أي: إفسادًا.

٥. ﴿وَاللهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ أي: يجازيهم شرًّا عمومًا، فيدخل هؤلاء بالأَوْلى، أو المراد من عُهِد، أظهر لهم ليصفهم بالإفساد، فيدخل غيرهم بالإلحاق لِعِلَّةِ الإفساد.

القاسمي:

ذكر جمال الدين القاسمي (ت ١٣٣٢ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ﴾ أي من اليهود ﴿مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ من جوامع الخيرات ﴿طُغْيَانًا﴾ أي: عدوانا على الناس، أو تماديا في الجحود ﴿وَكُفْرًا﴾ أي: في أنفسهم بعد كفرهم وطغيانهم بالتحريف وأخذ الرشوة أوّلا، وهذا من إضافة الفعل إلى السبب، أي: يزدادون طغيانا وكفرا بما أنزل، كما قال: ﴿فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ﴾، [التوبة: ١٢٥]

٢. قال الحافظ ابن كثير: أي يكون ما آتاك الله، يا محمّد، من النعمة نقمة في حقّ أعدائك من اليهود وأشباههم، فكما يزداد به المؤمنون تصديقا وعملا صالحا وعلما نافعا، يزداد به الكافرون الحاسدون لك ولأمتك، طغيانا ـ وهو المبالغة والمجاوزة للحدّ في الأشياء ـ وكفرا أي تكذيبا، كما قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ [فصلت: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء: ٨٢]

٣. ﴿وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ فكلمتهم أبدا مختلفة وقلوبهم شتى، لا يقع بينهم اتفاق ولا تعاضد، وقد ذكر الشهرستانيّ أنهم افترقوا نيّفا وسبعين فرقة، ولما قدم النبيّ ﷺ المدينة، كان اليهود ثلاث طوائف حول المدينة: بني قينقاع وبني النضير وبني قريظة، وبسط ما جرياتهم، وهدية ﷺ في شأنهم، مبسوط في (زاد المعاد) لابن القيم، فراجعه.

٤. ﴿كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ﴾ أي: كلما أرادوا حرب الرسول ﷺ، وإثارة شر عليه، ردهم الله سبحانه وتعالى، بأن أوقع بينهم منازعة كفّ بها عنه شرهم، أو: كلما أرادوا حرب أحد، غلبوا وقهروا ولم يقم لهم نصر من الله تعالى على أحد قط، فإيقاد النار كناية عن إرادة الحرب، لأنه كان عادتهم ذلك، ونيران العرب مشهورة، منها هذه، وإطفاء النار على الأول عبارة عن دفع شرهم، وعلى الثاني غلبتهم، و(للحرب) إما صلة لـ (أوقدوا)، أو متعلق بمحذوف وقع صفة (نارا) أي: كائنة للحرب.

٥. ﴿وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا﴾ أي: للفساد أو مفسدين، أي: يجتهدون في الكيد للإسلام وأهله

---

(١) تفسير القاسمي: ٤/١٨٩.

وتعويق الناس عنه وإثارة الفتن ﴿وَاللهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ أي: من كان الإفساد صفته، و(اللام) إما للجنس وهم داخلون فيه دخولا أوليّا، أو للعهد، ووضع المظهر موضع المضمر للتعليل، وبيان كونهم راسخين في الإفساد.

رضا:

ذكر محمد رشيد رضا (ت ١٣٥٤هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[1]:

١. ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾ الخطاب للنبي ﷺ أي أن هذا الذي أنزلناه عليك من خفي أمور هؤلاء اليهود المعاصرين لك ومن أحوال سلفهم وشؤون كتبهم وحقائق تاريخهم، هو من أعظم الحجج والآيات على نبوتك، فكان ينبغي أن يجذبهم الإيمان بك، لأنك لولا النبوة والوحي لما علمت من ذلك شيئا ـ لا من ماضيه لأنك أمي لم تقرأ الكتب، وما كل من قرأها يعلم كل ما جئت به عنهم ـ ولا من حاضره لأنه من خفايا مكرهم وأسرارهم كيدهم ـ ولكنهم لتجاوزهم الحدود في الكفر والحسد للعرب، والعصبية الجنسية لأنفسهم، لا بجذبهم ذلك إلى الإيمان ولا يقربهم منه إلا قليلا منهم، والله ليزيدن كثيرا منهم طغيانا في بغضك وعداوتك وكفرا بما جئت به، قال قتادة: حملهم محمد ﷺ والعرب على أن كفروا به ـ وفي رواية: على أن تركوا القرآن وكفروا بمحمد ودينه ـ وهم يجدونه مكتوبا عندهم، فعلم مما شرحناه أن زيادة طغيان الكثيرين منهم وكفرهم جاء على خلاف الظاهر وضد ما يقتضيه الدليل، فلهذا أكده بالقسم الذي تفيده اللام في قوله: (ليزيدن)

٢. ﴿وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ قال المفسرون أن الضمير في قوله تعالى: ﴿بَيْنَهُمْ﴾ يرجع إلى اليهود والنصارى في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ﴾ رواه ابن جرير عن مجاهد واقتصر عليه، وعزاه غيره إلى الحسن أيضا، ورواه أبو الشيخ عن الربيع، فلا نعرف في التفسير المأثور عن السلف غيره، وفي تفاسير المتأخرين احتمال أن يكون الضمير لليهود وحدهم، ويراد بالملقى حينئذ عداوة المذاهب والبغضاء بين الأفراد، لأن هذا لا ينقطع من بين الناس، ولكن يظهر معه فائدة لتخصيص اليهود به، وهم الآن من أشد الأمم تعاطفا وتعاضدا وائتلافا، وأما

---

(١) تفسير المنار: ٣٧٨/٦.

العداوة بينهم وبين النصارى فلم تنقطع، وهي على أشدها الآن في بلاد روسية وعلى أقلها في إنكلترة وفرنسة وألمانية، لما في هذه الممالك من القوانين الحرة والحكومات المنتظمة، ولما للمال وأهله فيها من النفوذ والتأثير في السياسة وسائر شؤون الاجتماع، واليهود أغنى أهلها، والمديرون لأرحية أعظم الأعمال المالية فيها، وهم على مكانتهم هذه مبغوضون من جماهير النصارى، وكم ألفت كتب في فرنسة وغيرها في التحريض عليهم، وقد أخبرني ألماني من العلماء المستشرقين أنهم لا يعدون اليهودي في بلاده منهم، بل يقولون هذا يهودي وهذا ألماني، وأما العداوة بين النصارى فهي أشد، وأن دولهم الكبرى تستعد دائما لحرب يسحق بعضها بعضا.

٣. ﴿كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللهُ﴾ الحرب ضد السلم وليس مرادفا للقتال بل أعم ـ كما حققناه في تفسير آية المحاربة من هذه السورة ـ فهو يصدق بالإخلال بالأمن، والنهب والسلب ولو بغير قتل، ويصدق بتهييج الفتن والإغراء بالقتال، خص مجاهد الحرب هنا بحربهم للنبي ﷺ، والحسن باجتماع السفلة من الأقوام على قتل العرب، وقال السدي في تفسير الجملة: كلما أجمعوا أمرهم على شيء فرقه الله وأطفأ حدهم ونارهم وقذف في قلوبهم الرعب، وفسره الربيع بما كان من مفاسدهم الماضية التي أغرت بها البابلين والروم قبل النصرانية وبعدها ثم المسلمين، كأنه يرى أن إيقادهم لنار الحرب هو تلبسهم بالأعمال التي هي سبب لها، وإن لم يريدوها بها، والمراد أن الله تعالى يخذلهم في كل ما يكيدون به لرسوله وللمؤمنين الصادقين، فإما أن يخيبوا ولا يتم له ما يسعون إليه من الإغراء والتحريض، وإما أن ينصر الله رسوله والمؤمنين، وكذلك كان، وصدق الله وعده، وأعزه جنده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده.

٤. وجعل بعض المفسرين ذلك عاما عملا بظاهر اللفظ دون السياق والقرينة والأسباب والعلل، فقال الزمخشري في تفسيره: (كلما أرادوا محاربة أحد غلبوا وقهروا ولم يقم لهم نصر من الله على أحد قط ـ ثم قال ـ وقيل كلما حاربوا رسول الله ﷺ نصره عليهم)، وما اخترناه أظهر.

٥. ومن المفصل في السيرة النبوية أن اليهود كانوا يغرون المشركين بالنبي ﷺ والمؤمنين، وكان منهم من سعى لتحريض الروم على غزوهم، ومنهم من كان يقطع الطريق على المؤمنين ويؤوي أعداءهم ويساعدهم، ككعب بن الأشرف.

٦. وكل ما كان من مقاومة اليهود للنبي ﷺ والمؤمنين كان سببه الحسد والعصبية، وتوقع الأحبار

والرؤساء وإزالة الإسلام لما كان لهم من الامتياز بين العرب في الحجاز من مكان العلم والمعرفة، إذ كان المشركون يحترمونهم لكونهم أهل كتاب وعلم وإن لم يدينوا بدينهم، فكانت عداوتهم للمسلمين عداوة سياسة جنسية ليست من طبيعة الدين ولا من روحه، ولذلك كان ضلع اليهود مع المسلمين في الشام والأندلس لما رأوا ما عند مسلمي العرب من العدل، المزيل لما كان الروم والقوط من الجور عليهم والظلم، وكذلك كانت عداوة النصارى للمسلمين في الصدر الأول للإسلام سياسية، ولذلك كانت على أشدها بينهم وبين الروم (الرومان) المستعمرين للبلاد المجاورة للحجاز كالشام ومصر، وكان نصارى البلاد أقرب إلى الميل للمسلمين بعد ما وثقوا بعدلهم، لما كانوا يقاسون من ظلم الروم على كونهم من أهل دينهم، وهذا شأن الناس في العداوة والمودة أبدا، يتبعون في ذلك مصالحهم ومنافعهم، فلا ينبغي أن يجعل ما ذكر وصفا ذاتيا لهم أو لدينهم، لينتظر القارئ شهادة الله تعالى للنصارى بكونهم أقرب مودة للمؤمنين بعد آيات قليلة، فتحتم أن العداوة من السياسة لا من الدين.

٧. ﴿وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ أي أنهم لم يكونوا فيما يأتونه أو على ما يأتونه من عداوة النبي والمؤمنين وإيقاد نيران الحرب والفتن والقتال، مصلحين للأخلاق والأعمال، أو لشؤون الاجتماع والعمران، بل كانوا يسعون في الأرض سعي فساد أو لأجل الفساد، بمحاولة منع اجتماع كلمة العرب، وخروجهم من الأمية إلى العلم، ومن الوثنية إلى التوحيد، وبالكيد للمؤمنين، وتشكيكهم في الدين، حسدا لهم، وحبا في دوام امتيازهم عليهم، والله لا يحب المفسدين في الأرض، فلا يصلح عملهم، وينجح سعيهم، لأنهم مضادون لحكمته في صلاح الناس وعمران البلاد.

٨. والدليل على صحة هذا أن الله أبطل كل ما كاده أولئك الأقوام، للنبي ﷺ وللعرب والإسلام، وأن العرب لما اجتمعت كلمتها وصلحت حالها بالإسلام، وان العرب لما اجتمعت كلمتها وصلحت حالها بالإسلام، أصلحوا بين الناس، وعمروا الأرض في بلاد كان لهم فيها سلطان، وأما غيرهم فكانوا مفسدين بالظلم ومخربين للبلاد، فالإسلام يأمر بالصلاح والإصلاح على أكمل وجه وهو ما يحبه الله تعالى، فلما قام المسلمون به حق القيام، أيدهم ونصرهم على جميع من ناوءهم من الأقوام، وكذلك التوراة والإنجيل ما أنزلت إلا لهداية الناس إلى الصلاح والإصلاح، إنما كان أهلها مفسدين في ذلكم العصر، لأنهم تركوا هدايتها، كما هو شأن جماهير المسلمين في هذا العصر: تركوا هداية القرآن، وأعرضوا عما أرشد إليه من

الصلاح والإصلاح، فزال ملكهم، وسلط الله عليهم غيرهم، وقس جزاء الآخرة على جزاء الدنيا، فكل منهما مرتب بحسب الله تعالى على صلاح النفوس والإصلاح في الأعمال، وبناء على هذه الحقيقة قال: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾

المراغي:

ذكر أحمد بن مصطفى المراغي (ت ١٣٧١ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي(١):

١. ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أنزل إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾ أي إن هذا الذي أنزلناه عليك أيها النبي من خفىّ أمور هؤلاء اليهود المعاصرين لك، ومن أحوال سلفهم، وشئون كتبهم، وحقائق تاريخهم ـ هو من أعظم الأدلة على نبوتك، وكان ينبغي أن يجذبهم إلى الإيمان بك، إذ لولا النبوة والوحى ما علمت من هذا شيئا، فلا تعرف الماضي لأنك أمي لم تقرأ الكتب، ولا تعرف الحاضر لأنه من مكرهم الخفيّ وكيدهم السّرّى ـ لكنهم لطغيانهم وتجاوزهم الحدود في الكفر والحسد للعرب لم يجذبهم ذلك إلى الإيمان ولم يقرب إلا قليلا منهم، وو الله ليزيدن ذلك كثيرا منهم طغيانا في بغضك وعداوتك، وكفرا بما جئت به، وقال قتادة: حملهم حسد محمد ﷺ والعرب على أن تركوا القرآن وكفروا بمحمد ودينه.

٢. ﴿وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ أي وألقينا بين اليهود والنصارى العداوة والبغضاء فهي لا تنقطع أبدا، وهي على أشدها الآن في روسيا وألمانيا، وأقلها في انجلترا وفرنسا، واليهود مع كونهم المديرين لأعظم الأعمال المالية ولهم النفوذ والتأثير في السياسة وسائر شئون الاجتماع مبغوضون من جماهير النصارى، وقد ألّفت كتب كثيرة في فرنسا وغيرها في التحريض عليهم، واستأصلت شأفتهم ألمانيا وكثير من البلاد المجاورة لها بعد الحرب العظمى، وأصبح هذا الشعب عندهم من أقبح شعوب العالم، وكذلك العداوة بين بعض النصارى وبعض لا تزال آثارها تظهر بين حين وآخر لدى الدول الكبرى القوية، فهي دائما في استعداد لحرب يسحق بها بعضهم بعضا، والحرب القائمة الآن بين الدول المسيحية الكبري أكبر برهان على صدق ذلك.

٣. ﴿كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللهُ﴾ أي كلما هموا بالكيد للرسول وللمؤمنين الصادقين

(١) تفسير المراغي ٦/١٥٥.

خذلهم الله، وهم إما أن يخيبوا في سعيهم ولا يتم لهم ما أرادوا من الإغراء والتحريض، وإما أن ينصر الله رسوله والمؤمنين، والمعروف في كتب السيرة أن اليهود كانوا يغرون المشركين بالنبي ﷺ والمؤمنين، ومنهم من سعى لتحريض الروم على غزوهم، ومنهم من كان يؤوى أعداءهم ويساعدهم، ككعب بن الأشرف، وما سبب ذلك إلا الحسد والعصبية، وخوف الأحبار والرهبان من إزالة الإسلام لامتيازاتهم العلمية والدينية التي كانوا معروفين بها في بلاد الحجاز، فكانت عداوتهم للمسلمين عداوة سياسية جنسية ليست من طبيعة الدين ولا روحه، والدليل على ذلك أن اليهود كان لهم ضلع بعد ذلك مع المسلمين في الشام والأندلس، لما رأوا من عدلهم وإزالة الجور والظلم الذي كان عليه الروم والقوط، وكذلك عداوة النصارى للمسلمين كانت سياسية وكانت على أشدها بينهم وبين الروم المستعمرين للبلاد المجاورة للحجاز كالشام ومصر، وكان نصارى البلاد أقرب ميلا إلى المسلمين بعد أن وثقوا بعدلهم، وزال عنهم ظلم الروم مع كونهم من أهل دينهم، وقد جرت العادة أن الناس يتبعون في العداوة أو المودة ما تمليه عليهم منافعهم ومصالحهم.

٤. ﴿وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا﴾ أي إن ما يأتونه من عداوة النبي ﷺ والمؤمنين وإيقاد الفتن والحروب لم يكن بقصد الإصلاح للأخلاق وشئون العمران والاجتماع، بل كانوا يقصدون السعي في الأرض للفساد، ويحاولون الكيد للمؤمنين ومنع اجتماع كلمة العرب، ويودون إلا يخرجوا من الأمية إلى العلم والعرفان، ولا من الوثنية إلى التوحيد، حسدا لهم وحبا في دوام امتيازهم عنهم.

٥. ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ في الأرض بل يبغضهم، ومن ثم لا ينجح سعيهم، ولا يصلح عملهم، لأنهم يريدون أن يبطلوا حكمته تعالى في صلاح الناس، وعمران البلاد، ومن ثم أبطل سبحانه كل ما كاده أولئك القوم للنبي ﷺ والعرب والإسلام، وأصلح بالإسلام ما كانوا خرّبوه من البلاد، ونصر المسلمين على كل من ناوأهم، وكذلك هم تركوا التوراة والإنجيل وهما قد أنزلا لهداية الناس إلى الصلاح والإصلاح، فزال ملكهم وسلط الله عليهم غيرهم.

سيّد:

ذكر سيّد قطب (ت ١٣٨٥ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. يحدث الله رسوله ﷺ عما سيبدو من القوم، وعما سيحل بهم، بسبب حقدهم وغيظهم من اصطفاء الله له بالرسالة؛ وبسبب ما تكشفه هذه الرسالة من أمرهم في القديم والحديث: ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾، فبسبب من الحقد والحسد، وبسبب من افتضاح أمرهم فيما أنزل الله إلى رسوله، سيزيد الكثيرون منهم طغيانا وكفرا، لأنهم وقد أبوا الإيمان لا بد أن يشتطوا في الجانب المقابل؛ ولا بد أن يزيدوا تبجحا ونكرا، وطغيانا وكفرا، فيكون الرسول ﷺ رحمة للمؤمنين، ووبالا عن المنكرين.

٢. ثم يحدثه عما قدر الله لهم من التعادي والتباغض فيما بينهم؛ ومن إبطال كيدهم وهو في أشد سعيره تلهبا؛ ومن عودتهم بالخيبة فيما يشنونه من حرب على الجماعة المسلمة: ﴿وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ﴾، وما تزال طوائف اليهود متعادية، وإن بدا في هذه الفترة أن اليهودية العالمية تتساند؛ وتوقد نار الحرب على البلاد الإسلامية وتفلح!

٣. ولكن ينبغي ألا ننظر إلى فترة قصيرة من الزمان ولا إلى مظهر لا يشتمل على الحقيقة كاملة، ففي خلال ألف وثلاثمائة عام.. بل من قبل الإسلام.. واليهود في شحناء وفي ذل كذلك وتشرد، ومصيرهم إلى مثل ما كانوا فيه، مهما تقم حولهم الأسناد، ولكن مفتاح الموقف كله في وجود العصبة المؤمنة، التي يتحقق لها وعد الله.. فأين هي العصبة المؤمنة اليوم، التي تتلقى وعد الله، وتقف ستارا لقدر الله، ويحقق الله بها في الأرض ما يشاء؟ ويوم تفيء الأمة المسلمة إلى الإسلام: تؤمن به على حقيقته؛ وتقيم حياتها كلها على منهجه وشريعته.. يومئذ بحق وعد الله على شر خلق الله.. واليهود يعرفون هذا، ومن ثم يسلطون كل ما في جعبتهم من شر وكيد؛ ويصبون كل ما في أيديهم من بطش وفتك، على طلائع البعث الإسلامي في كل شبر من الأرض، ويضربون ـ لا بأيديهم ـ ولكن بأيدي عملائهم ـ ضربات وحشية منكرة؛ لا ترعى في العصبة المؤمنة إلّا ولا ذمة.. ولكن الله غالب على أمره، ووعد الله لا بد أن يتحقق.

٤. ﴿وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ﴾، إن هذا

---

(١) في ظلال القرآن: ٢/٩٣٠.

الشر والفساد الذي تمثله يهود، لا بد أن يبعث الله عليه من يوقفه ويحطمه؛ فالله لا يحب الفساد في الأرض؛ وما لا يحبه الله لا بد أن يبعث عليه من عباده من يزيله ويعفي عليه: ﴿وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾

الخطيب:

ذكر عبد الكريم الخطيب (ت ١٣٩٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[1]:

١. في قوله سبحانه: ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أنزل إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾ إشارة إلى أن هذا الذي نزل على محمد ﷺ من هدى ونور، هو مما بسطته يد الله لعباده من رزق، وإنه لرزق كريم، فيه الغنى كلّه، والسعادة كلها.. وهؤلاء القوم مدعوّون فيمن دعوا.. إلى هذا الرزق الكريم، وإلى هذا العطاء الجزل، ولكنّهم لم يستقبلوا هذا الخير استقبال النعم، بالحمد والشكر، بل زادهم ذلك طغيانا إلى طغيان وكفرا إلى كفر.. ولن يكون حالهم أحسن من هذا الحال، لو بسط الله لهم في الرزق، من مال وغيره.. إنهم لن يزدادوا به إلا طغيانا وكفرا.. فهذا شأنهم مع كل نعمة من نعم الله.

٢. ﴿وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ هو لعنة من لعنات الله على هؤلاء القوم، تقطع معهم مسيرتهم في الحياة، متنقلة بهم من جيل إلى جيل، إلى أن تقوم الساعة.. فالعداوة قائمة بينهم، يطعمون منها طعاما خبيثا، يملأ كيانهم حقدا وبغضا، لا يطمئن لهم قلب، ولا يستريح لهم بال، فهم في حرب مستعرة فيما بينهم، وهم في حرب متصلة بينهم وبين الناس جميعا.. يبغضون الناس، ويبغضهم الناس، وتلك هي اللعنة التي تأخذ الملعونين بالبأساء والضرّاء، مع كل نفس يتنفسونه، من الميلاد إلى الممات..

٣. في قوله تعالى: ﴿إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ تأبيد لهذه اللعنة التي لا ترفع عن الملعونين أبدا، حتى بعد موتهم.. فتصحبهم إلى قبورهم، وتبعث معهم يوم يبعثون.

٤. ﴿كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللهُ﴾ النار التي يوقدها اليهود هنا، هي كيدهم لدين الله، ولرسول الله.. كلّما نزلت آية من آيات القرآن الكريم، نظروا فيها، وتأوّلوها تأويلا فاسدا، وعرضوها على

---

(١) التفسير القرآني للقرآن: ٣/١١٣٣.

ما عندهم من مقولات باطلة مضللة، ليفسدوا بها على الناس دينهم.. وفي كل مرة يفعل اليهود هذا تفضحهم آيات الله على الملأ، فلا يرجعون إلا بالخزي وسوء المنقلب وهذا ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿أَطْفَأَهَا اللَّهُ﴾ أي أنه تعالى بما ينزل من آيات القرآن الكريم على النبي، يبطل ما دبّر اليهود، ويتبّر ما كانوا يعملون، فإذا نارهم التي أوقدوها قد أصبحت رمادا، لم يبق منها إلا ما اصطبغت به وجوههم وجلودهم، من سواد دخانها، وذرور شررها.

٥. ﴿وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا﴾ العطف هنا هو على قوله تعالى: ﴿وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا﴾ وعلى هذا يكون قوله تعالى: ﴿وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا﴾ حكم من أحكام الله عليهم، وأنه بعض معطيات اللعنة التي صبّها الله عليهم.. فهم أبدا مأخوذون بهذا الحكم، لا يتحولون عنه أبدا.. أي أن سعيهم في الأرض فسادا هو طبيعة فيهم، لا يتحولون عنها أبدا.

٦. ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ هو حكم على اليهود، يتناولهم هم أولا، ثم يمتدّ إلى كل مفسد غيرهم ثانيا، فقد وصفهم الله سبحانه قبل ذلك بأنهم يسعون في الأرض فسادا.. أي أنهم مفسدون، ثم حكم سبحانه بأنه لا يحبّ المفسدين.. أي لا يحبّ هؤلاء الذين وصفوا بالفساد، ولم يذكرهم الله تعالى بقوله والله (لا يحبهم) ليقيم الوصف الملازم لهم ـ وهو الفساد ـ مقامهم، فهم والفساد كائن واحد.

ابن عاشور:

ذكر محمد الطاهر بن عاشور (ت ١٣٩٣ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[1]:

١. ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾، عطف على جملة ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾، وقع معترضا بين الردّ عليهم بجملة ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ وبين جملة ﴿وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ﴾، وهذا بيان للسبب الّذي بعثهم على تلك المقالة الشنيعة، أي أعماهم الحسد فزادهم طغيانا وكفرا، وفي هذا إعداد للرسول ﷺ لأخذ الحذر منهم، وتسلية له بأنّ فرط حنقهم هو الّذي أنطقهم بذلك القول الفظيع.

٢. ﴿وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾، عطف على جملة ﴿وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا﴾ عطف

---

(١) التحرير والتنوير: ١٤٨/٥.

الخبر على الإنشاء على أحد الوجهين فيه، وفي هذا الخبر الإيماء إلى أنّ الله عاقبهم في الدّنيا على بغضهم المسلمين بأن ألقى البغضاء بين بعضهم وبعض، فهو جزاء من جنس العمل، وهو تسلية للرّسول ﷺ أن لا يهمّه أمر عداوتهم له، فإنّ البغضاء سجيتهم حتّى بين أقوامهم وأنّ هذا الوصف دائم لهم شأن الأوصاف الّتي عمي أصحابها عن مداواتها بالتخلّق الحسن، وتقدّم القول في نظيره آنفا.

٣. تركيب ﴿أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللهُ﴾ تمثيل، شبّه به حال التهيّؤ للحرب والاستعداد لها والحزامة في أمرها، بحال من يوقد النّار لحاجة بها فتنطفئ، فإنّه شاعت استعارات معاني التسعير والحمي والنّار ونحوها للحرب، ومنه حمي الوطيس، وفلان مسعر حرب، ومحشّ حرب، فقوله: ﴿أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ﴾ كذلك، ولا نار في الحقيقة، إذ لم يؤثر عن العرب أنّ لهم نارا تختصّ بالحرب تعدّ في نيران العرب الّتي يوقدونها لأغراض، وقد وهم من ظنّها حقيقة، ونبّه المحقّقون على وهمه.

٤. وشبّه حال انحلال عزمهم أو انهزامهم وسرعة ارتدادهم عنها، وإحجامهم عن مصاحبة أعدائهم، بحال من انطفأت ناره الّتي أوقدها، ومن بداعة هذا التمثيل أنّه صالح لأن يعتبر فيه جمعه وتفريقه، بأن يجعل تمثيلا واحدا لحالة مجموعة أو تمثيلين لحالتين، وقبول التمثيل للتفريق أتمّ بلاغة، والمعنى أنّهم لا يلتئم لهم أمر حرب ولا يستطيعون نكاية عدوّ، ولو حاربوا أو حوربوا انهزموا، فيكون معنى الآية على هذا كقوله: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا﴾ [آل عمران: ١١٢]

٥. وأمّا ما يروى أنّ معدّا كلّها لمّا حاربوا مذبح يوم (خزازى)، وسيادتهم لتغلب وقائدهم كليب، أمر كليب أن يوقدوا نارا على جبل خزازى ليهتدي بها الجيش لكثرته، وجعلوا العلامة بينهم أنّهم إذا دهمتهم جيوش مذحج أوقدوا نارين على (خزازى)، فلمّا دهمتهم مذحج أوقدوا النّار فتجمّعت معدّ كلّها إلى ساحة القتال وانهزمت مذحج، وهذا الّذي أشار إليه عمرو بن كلثوم بقوله:

ونحن غداة أوقد في خزازى رفدنا فوق رفد الرافدينا

فتلك شعار خاصّ تواضعوا عليه يومئذ فلا يعدّ عادة في جميع الحروب، وحيث لا تعرف نار للحرب تعيّن الحمل على التمثيل، ولذلك أجمع عليه المفسّرون في هذه الآية فليس الكلام بحقيقة ولا كناية.

٦. وقوله: ﴿وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا﴾ القول فيه كالقول في نظيره المتقدّم آنفا عند قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا﴾ [المائدة: ٣٣]

أبو زهرة:

ذكر محمد أبو زهرة (ت ١٣٩٤ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. ولقد بين سبحانه وتعالى بعد أخلاق اليهود، ومن يشاكلهم من أهل الكتاب، فقال: ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾ في هذا النص الكريم يبين سبحانه وتعالى عدم رجاء الإيمان من أكثر اليهود، ذلك أن اليهود ليسوا طلاب حق، فيهتدوا إن بدت معالمه، وظهر نوره، بل هم قوم أكل الحقد قلوبهم، واستولى الحسد على نفوسهم، فهم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله، فإذا جاءهم النور ممن يحسدونهم لا يزيدهم ذلك إلا بغيا وظلما وكفرا.

٢. وقد أكد سبحانه وتعالى فساد قلوبهم بالقسم المطوي باللام الموطئة له، وبنون التوكيد الثقيلة لكى ينتفى الرجاء في إيمانهم، وليعاملهم النبي ﷺ ومن بعده من المؤمنين على أساس مكنون نفوسهم، وخبايا أحاسيسهم.

٣. والطغيان: الظلم الذى يتجاوز كل حد معقول، والذى يبعث عليه الشره وفساد النفس، وزيادة الطغيان، وسببه أن ما أنزل إلى النبي جاء على غير ما يريدون، وأنهم حاسدون، وزيادة بالكفر بالإصرار عليه، وبزيادة مقدار ما يكفرون به من آيات، وبالعناد واللجاجة التي استولت عليهم.

٤. ﴿وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾، ﴿بَيْنَهُمْ﴾ يعنى في جمعهم؛ لأن البين هو الفاصل الذى يكون بين شيئين، ويطلق البين ويراد به ما يلقى أمام الشخص، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ [الأعراف]، وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللهِ وَرَسُولِهِ﴾ [الحجرات]، وقوله تعالى: ﴿فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً﴾ [المجادلة]

٥. والعداوة هي البغضاء المعلنة التي يناوئ فيها المبغض من يبغضه جهارا، والبغضاء هي الكراهية المستكنة والمعلنة، وعندى أنهما معنيان مختلفان، فالعداوة المناوأة الظاهرة، والمقاومة المعلنة، والبغضاء هي الكراهية التي تكون في القلب، فهما معنيان متغايران، وإن كانا متلازمين أحيانا، فلا عداوة من غير بغضاء، ولكن قد يفترقان فتوجد البغضاء من غير إعلانها، أي من المناوأة والمقاومة.

---

(١) زهرة التفاسير: ٥/٢٢٨١.

٦. والضمير في قوله تعالى: ﴿بَيْنَهُمْ﴾ يعود على اليهود؛ لأن الحديث عنهم، ولا يدخل فيه النصارى، وقد فهم بعض المفسرين أنه يعود على اليهود والنصارى، والعداوة بين الفريقين مستحكمة إلا عند الذين تحللوا من نصرانيتهم وكادوا يكونون يهودا في أعمالهم، والواضح أن الضمير يعود على اليهود وحدهم، وقد ألقى الله تعالى بينهم العداوة والبغضاء فقد افترقوا على أكثر من سبعين فرقة، كما ورد بذلك الحديث الصحيح، فمنهم الجبرية والقدرية، والمشبهة ومنهم من ينكر البعث، ومنهم الربانيون والقراءون، وبينهم العداوة مستحكمة، وهم ينكرون أن يكون اليهود من غير بنى إسرائيل، حتى إنهم لا يعترفون بيهودية من يدخل في دين موسى من غيرهم، فيعادون السامرة الذين لم يكونوا من أصل إسرائيلى.

٧. ويصح أن نفسر قوله تعالى: ﴿وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾، بأن تستقبلهم بين أيديهم العداوة والبغضاء كالبين في قوله: ﴿مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ﴾ [يس]، وفى قوله تعالى: ﴿لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللهِ وَرَسُولِهِ﴾ [الحجرات]، والمعنى على هذا ألقينا بين أيديهم عداوة وبغضاء تكون منهم للناس، ومن الناس لهم ذلك بأن ما في نفوسهم من حسد لجوج، ومادية شرسة، وأثره حاقدة، جعلتهم في عداوة مستمرة مع الناس، وجعلتهم مبغضين إليهم دائما، فهم مكروهون من الناس كارهون لهم يعادونهم ويبغضونهم ولا تجد في قلب أحد محبة لهم، ولو كانوا يناصرونهم أحيانا؛ لأن نصرتهم لأنفسهم ليكونوا آلة ينفذون بها مآربهم، والله سبحانه وتعالى من ورائهم محيط.

٨. ﴿كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللهُ﴾ إن هؤلاء اليهود لحسدهم المستمر للناس، ولكراهيتهم لهم يثيرون الحروب بين الناس، فهم يثيرونها على غيرهم إذا كانت فيهم قوة، أو أحسوا أن فيهم قوة، أو اتخذوا ذريعة للإيذاء، وإذا لم يكن فيهم قوة ولم يحسوها، كان عملهم إيقاظ الأحقاد بين الشعوب، وإثارة العداوات التي تعقبها الحروب، هذا شأنهم الدائم المستمر يدفعهم إلى إثارة أسباب الحروب.

٩. والتعبير بقوله تعالى: ﴿كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللهُ﴾، يجرى على ما كان عليه العرب من أنهم كانوا إذا أرادوا حربا بالإغارة على غيرهم إما انتقاما أو اعتداء أوقدوا نارا يسمونها نار الحرب، ومهما يكن ما عند العرب من عبارات في هذا، فإن التعبير مجاز، إذ عبر عن إثارة الحروب بإيقاد نارها، باعتبار أن الحروب في ذاتها وبما تشتمل عليه من مذابح بشرية تشبه النار المستعرة، وإن اليهود يوقظون الأحقاد ويثيرون الفتن، ويوقدون نيران الحروب، والله من ورائهم محيط وإنما يطفئ ما يوقدون ويحبط ما

يدبرون.

١٠. ﴿وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ وإنهم إذ يثيرون الفتن، ويشعلون الحروب، لا يقصدون إلا السعي في الأرض فسادا فكلما مكن لهم في الأرض أفسدوا ولم يصلحوا، وإذا علوا أفسدوا ولم يصلحوا، حتى إذا طغوا وبغوا أرسل الله عليهم شدائد جزاء لفسادهم، ولقد قال تعالى في بيان ما قرره كتابهم وهو التوراة والقرآن بشأنهم: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدْتُمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا﴾ [الإسراء]، وهذا النص الكريم يفيد:

أ. أولا ـ أنهم دأبوا على الفساد من بعد موسى ومن جاء من النبيين كداود وسليمان، وأن نتيجة هذا الفساد كانت وبالا عليهم، فجاء بختنصّر وأزال سلطانهم ثم جاء من بعده الرومان فأزالوا سلطانهم، وجعلوهم أذلاء في الأرض.

ب. ثانيا ـ على أن الرسول ﷺ اجتثهم من بلاد العرب.

ج. ثالثا ـ على أنهم سيدخلون المسجد الحرام كما دخلوه أول مرة.

د. رابعا ـ على أنهم سيفسدون فيه كشأنهم، إذ يتبرون ما علوا تتبيرا.

هـ. خامسا ـ على رجاء رحمة الله تعالى بعباده المسلمين إذا عادوا إلى التقوى فيعود سبحانه وتعالى عليهم بالنصر، لأن اليهود دائما مفسدون.

١١. وقد ختم الله سبحانه وتعالى النص الكريم بقوله تعالت كلماته: ﴿وَاللهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾، فالله تعالى لا يحبهم كما يزعمون ويتوهمون إذ يقولون نحن أبناء الله وأحباؤه؛ لأنه سبحانه وتعالى يحب من يعمر الأرض، ولا يفسدها، وأولئك تجار الحروب يفسدون ولا يصلحون، ألم تر أنهم يمنعون كل صلح بين الناس ليتمكنوا من الكسب في صناعة أدوات الحرب، وليستعيدوا مهمتهم في إفساد ما بين الناس.

مُغْنِيَّة:

ذكر محمد جواد مُغْنِيَّة (ت ١٤٠٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أنزل إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾، المراد بالكثير الرؤساء والمترفون الذين خافوا على مناصبهم من دعوة الحق، وزادتهم هذه الدعوة حقدا على صاحبها محمد ﷺ لأنه كشف عن عوراتهم وسيئاتهم التي منها تحريف كلام الله عن مواضعه، وأكلهم المال الحرام، وعدم التناهي عن المنكر.. ومن شأن الدعي الصلف أن يزداد عتوا وفسادا إذا نبه إلى عيوبه ومآثمه.

٢. ﴿وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾، قال صاحب تفسير المنار: (لا نعرف في التفسير المأثور عن السلف إلا أن الضمير في قوله: (بينهم) يرجع إلى اليهود والنصارى في قوله تعالى: ﴿يَا أيها الَّذِينَ آمنوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أولياء﴾.. وفي تفاسير المتأخرين احتمال أن يكون الضمير لليهود وحدهم، ونحن على رأي السلف أولا: لأنهم أعرف بما يراد من مفردات القرآن والحديث من المتأخرين، لأنهم أقرب إلى عهد الرسالة ونزول القرآن، ثانيا: لأن العداء بين اليهود والنصارى عداء ذاتي، فاليهود يعتقدون ان المسيح مشعوذ محتال وابن سفاح ـ نعوذ بالله ـ والنصارى يعتقدون أنه ابنه تعالى الله، بينما يعتقد المسلمون أنه نبي منزه عن الجهل والمعصية)، ومحال أن يزول العداء بين اليهود والنصارى: ما دامت كل طائفة على عقيدتها، وقد حاول بابا روما عام ١٩٦٥ أن يقرب بين الطائفتين، ولكن اليهود ما زالوا مصرين على رأيهم بالسيد المسيح عليه السلام.. أجل، ان الأطماع المشتركة قربت، بل وحدت بين أرباب الشركات لكلتا الطائفتين، ولكن على أساس تجاري، لا على أساس ديني.

٣. ﴿كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللهُ﴾، إن كلمة الحرب وضعت أول ما وضعت للقتال، واستعملت في هذا المعنى قرونا طوالا، وبمرور الزمن تطورت، حتى أصبحت تدل الآن على ضد السلم والأمن والرخاء، فأي بلد يخشى على نفسه من احتلال دولة أقوى منه، أو ارتفعت أسعار المعيشة فيه لقتال في بلد من البلدان فهو في حالة حرب، وإن لم تسل الدماء على أرضه، لأنه قد تأثر بذاك القتال، وأفقده الكثير من أمنه وراحته.

٤. سؤال وإشكال: بعد هذه الإشارة نتساءل: هل المراد بالحرب في الآية خصوص القتال أو ما

---

(١) التفسير الكاشف: ٩٣/٣.

يشمل الأمن والرخاء؟ ثم إذا كان المقصود هم اليهود كما قال المفسرون فبماذا يجاب عن حرب ٥ حزيران سنة ١٩٦٧ التي أوقد اليهود نارها، ولم تخمد، حتى الآن؟ والجواب: أما كلمة الحرب في الآية فإن المراد منها خصوص القتال، لأن هذه الكلمة لم تحمل غير هذا المعنى يومذاك، أما حرب ٥ حزيران فنجيب عنها بما يلي:

أ. اتفق المفسرون على أن المراد باليهود خصوص من كان يهم بالكيد لرسول الله ﷺ والمسلمين، فقد جاء في كتب السيرة النبوية إن يهود المدينة تحالفوا مع المشركين ضد النبي وصحابته، وأن منهم من سعى لتحريض الروم عليهم، كما أن بعضهم كان يؤوي أعداءهم ويساعدهم.

ب. لو سلمنا ـ جدلا ـ أن المراد كل اليهود في كل عصر أخذا بظاهر العموم فإن حادثة ٥ حزيران لم تكن حربا بالمعنى المعروف لهذه الكلمة، وإنما كانت اغتيالا وغدر جبان، فحتى ليلة الغدر كانت تؤكد إسرائيل وواشنطن أنهما لم تبدءا بالهجوم، بل وبعد الغدر أذاعت إسرائيل أن العرب هم البادئون، ثم ظهرت الحقيقة.. على أن حرب ٥ حزيران لم تكن بين العرب واليهود، وإنما كانت في واقعها بين العرب والولايات المتحدة، فهي مهندس العدوان، والآمر به، ومصدر السلاح والمال، وصانع الخديعة السياسية، والمحامي والحارس، أما إسرائيل فقد مثلت دور الجندي المطيع، قال مؤلفو كتاب اطلاق الحمامة: (نشرت الصحف الفرنسية وألمانيا الغربية أن المخابرات الأمريكية سلمت إسرائيل قبل العدوان كل ما تجمع لديها من معلومات بالإضافة إلى الدوسية الخاصة بالشرق الأوسط لدى قيادة الحلف الأطلسي.. وأن الذي أصدر الأمر لإسرائيل بالهجوم على العرب باسم الرئيس جونسون هو مستشاره اليهودي الصهيوني (والت روستو).. وكان الأميرال الأميركي يحمل في جيبه أمرا بتنفيذ الاستعداد للقتال في جميع الوحدات الخاضعة له.. أما عملية ليبرتي سفينة التجسس فقد كانت مدبرة بين الأميركيين والاسرائيليين)

ج. أن نار الحرب التي أوقدتها واشنطن أو عميلتها إسرائيل قد أخمدها الله ما في ذلك ريب.. فلقد اعترف الذين أوقدوها أكثر من مرات، وأعلنوا بالصحف والاذاعات أنها لم تحقق الهدف المطلوب منها، وهو ضرب القيادة التحررية للعرب، واستسلامهم دون قيد وشرط، وبالتالي حل مشكلة إسرائيل من الناحية السياسية.. وفي الوقت نفسه كانت حادثة ٥ حزيران امتحانا قاسيا للعرب، وتأكيدا لضرورة الإصلاح الجذري، وتنبيها لهم إلى أصدقائهم وأعدائهم.. ولو لم يكن لتلك الحادثة من فائدة إلا افتضاح

المتآمرين على بلادهم وأمتهم لكفى.

٥. ﴿وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا﴾، لأن أهدافهم الأثيمة محال أن تتحقق إلا بالتخريب وإثارة الفتن، وقد صرح المسئولون في إسرائيل ان بقاء دولتهم وحياتها رهن بالخلافات القائمة بين زعماء العرب.. فهل من مذكر؟

٦. ﴿وَاللهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾، ومن ثم تكون عاقبتهم إلى وبال، وإن طال الزمن.

الطباطبائي:

ذكر محمد حسين الطباطبائي (ت ١٤٠٢ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أنزل إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾ هذه الجملة وما يتلوها إلى آخر الآية كلام مسرود لتوضيح قوله: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ الله مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا﴾ على ما يعطيه السياق.

٢. وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ﴾، يشير إلى أن اجتراءهم على الله العظيم وتفوههم بمثل قولهم: ﴿يَدُ الله مَغْلُولَةٌ﴾ ليس من المستبعد منهم فإن القوم متلبسون بالاعتداء والكفر من قديم أيامهم، وقد أورثهم ذلك البغي والحسد، ولا يؤمن من هذه سجيته إذا رأى أن الله فضل غيره عليه بما لا يقدر قدره من النعمة أن يزداد طغيانا وكفرا.

٣. واليهود كانت ترى لنفسها السيادة والتقدم على الدنيا، وكانت تتسمى بأهل الكتاب، وتتباهى بالربانيين والأحبار، وتفتخر بالعلم والحكمة، وتسمي سائر الناس أميين، فإذا رأت قرآنا نازلا على قوم كانت تتذلل لعلمها وكتابها ـ كما كانت هي الحرمة المراعاة بينها وبين العرب في الجاهلية ـ ثم أمعنت فيه فوجدته كتابا إلهيا مهيمنا على ما تقدم عليه من الكتب السماوية، ومشتملا على الحق الصريح والتعليم العالي والهداية التامة ثم أحست بما يتعقبه من ذلتها واستكانتها في نفس ما كانت تتعزز وتتباهى به وهو العلم والكتاب، لا جرم تستيقظ من رقدتها، وتطغى عاديتها، ويزيد طغيانها وكفرها، فنسبة زيادة طغيانهم وكفرهم إلى القرآن إنما هي بعناية أن أنفسهم الباغية الحاسدة ثارت بالطغيان والكفر بمشاهدة نزول القرآن

---

(١) الميزان في تفسير القرآن: ٦/٣٥.

وإدراك ما يتضمنه من المعارف الحقة والدعوة الظاهرة.

٤. على أن الله سبحانه ينسب الهداية والإضلال في كتابه إلى نفسه كثيرا كقوله: ﴿كُلًّا نُمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ وقال في خصوص القرآن: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إلا خَسَارًا﴾ [الإسراء: ٨٢] والإضلال أو ما يشبهه إنما يعد مذموما إذا كان إضلالا ابتدائيا، وأما ما كان منه من قبيل الجزاء إثر فسق ومعصية من الضال يوجب نزول السخط الإلهي عليه ويستدعي حلول ما هو أشد مما هو فيه من الضلال فلا ضير في الإضلال بهذا المعنى ولا ذم يلحقه كما يشير إليه قوله: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِ إلا الْفَاسِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٦]، وقوله: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥]

٥. وبالآخرة يعود معنى زيادة القرآن طغيانهم وكفرهم إلى سلب التوفيق وعدم تعلق العناية الإلهية بردهم مما هم فيه من الطغيان والكفر بآيات الله إلى التسليم والإيمان بإجابة الدعوة الحقة، وقد تقدم البحث عن هذا المعنى في تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِ إلا الْفَاسِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٦]

٦. ولنرجع إلى أول الكلام فقوله: ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ﴾، كأنه مسوق لرفع الاستبعاد والتعجب الناشئ من اجتراء هؤلاء المتسمين بأهل الكتاب، والمدعين أنهم أبناء الله وأحباؤه على ربهم بمثل هذه الكلمة المهينة المزرية: ﴿يَدُ اللهِ مَغْلُولَةٌ﴾، وإن من المحتوم اللازم لهم هذه الزيادة في الطغيان والكفر التي هذه الكلمة من آثارها وسيتلوها آثار بعد آثار مشوهة، وهذا هو المستفاد من التأكيد المدلول عليه بلام القسم ونون التأكيد في قوله: ﴿لَيَزِيدَنَّ﴾

٧. وفي تعقيب الطغيان بالكفر من غير عكس جرى على الترتيب الطبعي فإن الكفر من آثار الطغيان وتبعاته.

٨. ﴿وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ ضمير بينهم راجع إلى اليهود على ما هو ظاهر وقوع الجملة في سياق الكلام على اليهود خاصة وإن كانت الآيات بدأت الكلام في أهل الكتاب عامة، وعلى هذا فالمراد بالعداوة والبغضاء بينهم ما يرجع إلى الاختلاف في المذاهب والآراء، وقد أشار الله سبحانه إليه في مواضع من كلامه كقوله: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ﴾ ـ إلى أن قال ـ ﴿فَمَا اخْتَلَفُوا إلا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ

﴿يَخْتَلِفُونَ﴾ [الجاثية: ١٧] وغير ذلك من الآيات.

٩. والعداوة كان المراد بها البغض الذي يستصحب التعدي في العمل، والبغضاء هو مطلق ما في القلب من حالة النفار وإن لم يستعقب التعدي في العمل فيفيد اجتماعهما معنى البغض الذي يوجب الظلم على الغير والبغض الذي يقصر عنه.

١٠. في قوله تعالى: ﴿إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ ما لا يخفى من الدلالة على بقاء أمتهم إلى آخر الدنيا.

١١. ﴿كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللهُ﴾ إيقاد النار إشعالها، وإطفاؤها إخمادها، والمعنى واضح، ومن المحتمل أن يكون قوله: ﴿كُلَّمَا أَوْقَدُوا﴾ بيانا لقوله: ﴿وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ﴾ فيعود المعنى إلى أنه كلما أثاروا حربا على النبي ﷺ والمؤمنين أطفأها الله بإلقاء الاختلاف بينهم، والآية على ما يدل عليه السياق تسجل عليهم خيبة المسعى في إيقاد النيران التي يوقدونها على دين الله سبحانه، وعلى المسلمين بما أنهم مؤمنون بالله وآياته، وأما الحروب التي ربما أمكن أن يوقدوا نارها لا لأمر الدين الحق بل لسياسة أو تغلب جنسي أو ملي فهي خارجة عن مساق الآية.

١٢. ﴿وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ السعي هو السير السريع، وقوله: ﴿فَسَادًا﴾ مفعول له أي يجتهدون لإفساد الأرض، والله لا يحب المفسدين فلا يخليهم وأن ينالوا ما أرادوه من فساد الأرض فيخيب سعيهم، فهذا كله بيان لكونهم غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا، حيث إنهم غير نائلين ما قصدوه من إثارة الحروب على النبي ﷺ والمسلمين، وما اجتهدوا لأجله من فساد الأرض.

الحوثي:

ذكر بدر الدّين الحوثي (ت ١٤٣١ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي(١):

١. ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾ وذلك لخذلانهم واستمرارهم في الكفر، مثل أن يسمعوا قول الله تعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ [البقرة:٢٤٥] فيزعموا أنه فقير؛ لأنه بزعمهم طلب القرض ولا يطلبه إلا الفقير، وغير ذلك من أنواع الطغيان والكفر يتوصلون إليه بالقرآن كما مثلت، فيزيدهم ﴿طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾

---

(١) التيسير في التفسير: ٢/٣٤١.

٢. ﴿وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ إلقاء الشيء طرحه، والعداوة: المباينة مع البغض وإرادة الضر بالغير، وذكر إلقاء العداوة دون جعل العداوة يشعر بسهولة تحصيلها بينهم، وهو على معنى التخلية مع فطرة النفوس على قبول العداوة والبغضاء بسبب ما يقع بينهم من اختلاف مع تركهم تحكيم العقول، كما قال تعالى: ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [الحشر:١٤]، أو على أنهم يستحقون كلهم تسليط بعضهم على بعض، كقوله تعالى: ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ﴾ [الأنعام:٦٥] وهذا أظهر، فهم على ذلك إلى يوم القيامة، وهذا يدل: على أن المهدي المنتظر لا يستطيع إدخالهم في الإسلام، وغاية قوته عليهم أن يضرب عليهم الجزية والصغار، كما أمر الله.

٣. ﴿كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللهُ﴾ لما بينهم من العداوة والبغضاء، كما قال تعالى: ﴿لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى﴾ [الحشر:١٤] فأما عدوانهم على مصر وسوريا والأردن في حرب الأيام الستة، فهي محمولة على أن الموقد لها الحقيقي هو أمريكا، وإنما هي باسم اليهود، وكذا عدوانهم السابق على مصر مع دولتين عظيمتين، أو المراد: كلما أوقدوا ناراً لحرب المؤمنين، بقرينة قوله تعالى: ﴿أَطْفَأَهَا اللهُ﴾، وقوله تعالى: ﴿إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ﴾ [آل عمران:١١٢]

٤. ﴿وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ ﴿يَسْعَوْنَ﴾ يدل على شدة عنايتهم بالفساد، والسعي: سير سريع، وقوله تعالى: ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ يدل على أنهم يسعون لنشر الفساد في الأرض وإشاعته في أقطار الأرض ﴿وَاللهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ فيرجى منه أن لا يخليهم وشأنهم؛ لأنه لا يحب الفساد، وذلك كله دليل على أنه لا ينبغي لمؤمن اتخاذهم أولياء.

فضل الله:

ذكر محمد حسين فضل الله (ت ١٤٣١ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾، وهذا يمثل حركة العقدة المستعصية في النفس، فنحن نلاحظ أنّ كثيرا من النّاس المعقّدين بالحقد والحسد ضد أناس آخرين يزدادون

---

(١) من وحي القرآن: ٨/٢٥٢.

حقدا وحسدا كلما ازداد هؤلاء إحسانا ولطفا وعملا صالحا، لأنهم لا يستطيعون النظر إلى الأشياء بعين مفتوحة بالنور لتبصر الأمور على حقيقتها، كما هي في الحياة، بل ينظرون إليها من موقع حقدهم وحسدهم الّذي يحوّل الحسنات إلى سيئات والفضائل إلى عيوب، وهكذا كان هؤلاء اليهود الّذين لم ينظروا إلى الإسلام من موقع الفكر الباحث عن الحقيقة، بل من موقع الحقد الّذي يعمل على إخفائها وتغطيتها وتشويهها، وعلى إبعاد النّاس عنها بمختلف أساليب التشويه، ولهذا فإنّهم يعيشون في حالة استنفار دائم أمام كل انتصار للإسلام، وكل انطلاق لآياته، وكل حركة لمفاهيمه، فإذا انتصر الإسلام في معاركه، أو تنزلت آيات الله على نبيه من أجل إيضاح الخط والهدف، فإنّ هناك عقدة جديدة تولد، وحقدا أسود يصعد، ويبدأ هذا وذاك ليدفعهم إلى زيادة طغيان حاقد في مشاعرهم وتصرفاتهم، وليزيدهم كفرا على كفر فيما يريدون السير على أساسه من التمرّد على الله ورسالاته!

٢. وبهذا نعرف أنّ نسبة زيادة الطغيان والكفر إلى الآيات المنزلة من الله، من خلال إثارتها لتفاعلات العقد النفسيّة الكامنة في الداخل، فيما يريد الإنسان إثارته في عمق ذاته، وفي ضوء ذلك، لا نجد هناك مجالا للحديث عن موضوع الجبر فيما يستفيده البعض من سببية الآيات المنزلة في زيادة طغيانهم وكفرهم، مما يجعل الموضوع مرتبطا بالله بشكل مباشر، لأنّ القضيّة لا تخرج عن نطاقها الطبيعي من ارتباطها بالأسلوب الأدبي في الفن التعبيري القرآني الّذي يسند الأشياء إلى أسبابها العادية الّتي تمثّل سببا للإثارة أو لخلق جوّ معين، أو لإيجاد مشاعر معينة في جانب الإيجاب والسلب في علاقة الأشياء بالأشياء.

٣. ﴿وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾، وذلك من خلال الأسس الّتي ارتكز عليها بنيانهم الذاتي، والمفاهيم الّتي تحكم طريقتهم في التفكير والعمل والعلاقات، لانطلاقها من جذور مادية لا تتحرك فيها أيّة نبضة روحية للمشاعر، ولا تنساب في أعماقها أيّة عاطفة إنسانيّة للقلوب، حتّى العلاقات الحميمة الّتي قد تنشأ فيما بينهم، لا ترتكز على المعنى الحميم، بل تنطلق من الحسابات المادية القائمة على الربح من جهة، وعلى العصبيّة من جهة أخرى، وإذا كانت المسألة تعيش في هذا الجو المادي الخانق، فإنّ النتائج ستكون مزيدا من الصراع على النفوذ والأرباح والمطامع والامتيازات، مما يولّد المزيد من العداوة والبغضاء اللتين تمتدان إلى يوم القيامة تبعا لامتداد الأجواء المعقدة الّتي تدفع إليهما، بما يتعمّق في داخل شخصياتهم من عقد حاقدة ضد بعضهم البعض.

٤. ويظلون ينتقلون من حرب إلى حرب، ولكنّهم لا يحققون الانتصار النهائي الأخير الّذي يريدون فيه السيطرة على مقدرات الأمور في الحياة، فإنّ الله يبطل كل مقاصدهم ومخططاتهم، بما يثيره حولهم من بوادر وظروف وأسباب تطفئ ما أوقدوه، وتهدم ما بنوه.

٥. وتلك هي قصّة حروبهم الّتي تتجدد ولكنّها لا تصل إلى النتائج النهائيّة المقصودة، بل تحاصرها الأوضاع المتنوعة الّتي تقف بها في بدايات الطريق أو منتصفاتها، وهذا ما عبّرت عنه الفقرة القرآنيّة: ﴿كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللهُ﴾، وذلك هو أسلوب القرآن في إسناد كل الأمور إلى الله من حيث استنادها إلى القوانين الطبيعيّة الّتي أودعها الله في حركة قانون السببية للأشياء.

٦. وربّما كانت الاستيحاءات الّتي استوحيناها من هذه الفقرة، جوابا على بعض التساؤلات الّتي يتساءل فيها النّاس عن مدى انطباق هذه الفقرة أو اختلافها، مع الانتصارات الّتي حققها اليهود في حروبهم ضد العرب والمسلمين في فلسطين في عصرنا الحاضر، فقد يلوح لنا أنّ الآية تركز على عدم بلوغهم الأهداف النهائية لما يريدون في خطواتهم العسكرية والسياسيّة من السيطرة على العالم، وبذلك تمثّل الآية نبوءة لمستقبل قادم يؤدي إلى هزائم مستقبليّة، من خلال انتفاضات إسلاميّة قادمة، وربّما جاء في بعض التفاسير، أنّ الآية تتحدث عن الحروب الدينية الّتي يطلقها اليهود في حياة الديانات الأخرى، لا عن الحروب السياسيّة الّتي قد لا يتقمّص فيها اليهود شخصيتهم اليهوديّة، بل يتحركون في نطاق التيارات السياسيّة المطروحة في العالم لتكون شخصيتهم مجرّد سلاح للمعركة، ولكنّ الباحث المدقق قد يستطيع التحفظ على هذا التفسير من خلال الطروحات الّتي تحكم الساحة اليهوديّة الّتي تؤكد على الصفة الدينية كأساس للقوميّة الإسرائيليّة، وتتحدث عن التوراة كمنطلق للطموحات اليهوديّة فيما تدعي شرعيته من الأرض والحكم والسيادة في الماضي والحاضر والمستقبل، ويبقى لنا مع التاريخ القادم، القيام بر صد للمستقبل من خلال ما نصنعه من تاريخ جديد يبسط سيادة الإسلام على العالم.

٧. ﴿وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا﴾ بما يثيرونه من قلاقل ومؤامرات في مجال الحرب والسياسة على مستوى العالم، وبما يعملون له من إفساد للعقائد والأخلاق والعلاقات الإنسانيّة، وتشوية للتاريخ في قوانينه وأوضاعه وحقائقه، وتحليل مزيّف لتطلعات الإنسان المستقبليّة، لأنّ قصة القيم عندهم، فيما يطرحونه من شعارات القيم الأخلاقية، لا تثير أيّ إحساس أخلاقيّ فيما يتعلّق بالآخرين، بل هي محدودة

بحدود الشعب اليهودي الّذي يملك كل الامتيازات والحقوق بالنسبة إلى العالم، بينما يتحمّل العالم بالنسبة إليهم كل المسؤوليات والواجبات، وهكذا يرون في فساد العالم وتدميره الفرصة الّتي يحاولون من خلالها فرض نفوذهم، وإظهار تفوقهم وحضاريتهم في مجال الأخلاق العامّة والخاصة، وبهذا كان تاريخهم في خط حركة الرسالات، هو التآمر عليها، وإفساد حياة أتباعها في تصوراتهم وفي سلوكهم العملي.

٨. أمّا في خط السياسية والاقتصاد والاجتماع والأخلاق، فإنّهم يلجؤون إلى كل ما يملكون من أدوات الإفساد والبلبلة والإرباك والتمييع من أجل إيجاد حالة من الاهتزاز والضياع في حياة النّاس، وخلق وضع داخليّ نفسيّ يوحي بالتمرد على كل المبادئ والأعراف والتقاليد، بقطع النظر عن الموازين الهادئة، لما هو خير أو شرّ، أو مصلحة أو مفسدة، في هذا الجانب أو ذاك، وذلك بطرق وأساليب خفية، تتخذ من الواجهات السياسيّة والاجتماعيّة والدينيّة ستارا تختفي وراءه، بحيث يبدو الأمر كما لو كان حركة تطورية عفوية، بما تحفل به الحياة من حركات التطور الاجتماعي والفكري، وعلى ضوء هذا العرض القرآني لصفات اليهود، في تجاوزهم كل الحدود في التعدي على حرمات الله بالمستوى الّذي لا يتوّرعون عن القول بأنّ ﴿يَدُ اللهِ مَغْلُولَةٌ﴾، وفي هذا الجو النفسي الداخلي والبغيض، وفي خطواتهم العمليّة المستمرة على مدى التاريخ في إفساد البلاد والعباد، لا بدّ لنا من الحذر في التعامل والتعايش معهم في عملية رصد واعية ذكية، تهدف إلى تفشيل كل مخططاتهم، وتحجيم كل قوتهم، وتهديم كل أوضاعهم، لتحفظ للحياة سلامها وصلاحها لإطلاقها في طريق الله بأمان وإخلاص.

٩. ﴿وَاللهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ لأنّ الله يريد للحياة السير على خط الصلاح والإصلاح بما يمثّله ذلك من مصلحة الإنسان الحقيقيّة على مدى الزمن، ولذلك، فإنّه يحب الصالحين والمصلحين الّذين ينفذون تعاليمه ويخضعون لإرادته، ولا يحب المفسدين الذين يفسدون على النّاس حياتهم، ويبعدونهم عن سلامة المصير في الدنيا والآخرة، ويتمرّدون على أوامر الله ونواهيه، وينحرفون عن الخط المستقيم فيما تفرضه إرادة الله من السير على طريق الاستقامة في سلوك الإنسان في الحياة، وإذا كان الله لا يحب المفسدين، كان من اللازم على المؤمنين أن يرفضوا التعاطف مع هؤلاء، لأنّ بناء شخصيّة المؤمنين يرتكز على قاعدة الانسجام مع خط رضى الله في مشاعره وعواطفه، فيحب من أحبه الله ويبغض من أبغضه، وبذلك يمكن للاستقامة في الجانب العاطفي في داخل الإنسان، أن تفرض نفسها على طبيعة العلاقات الإنسانيّة الّتي

يتحرك فيها الشعور، وتفرضها العاطفة، فلا يكون هناك فاصل في شخصيّة الإنسان الازدواجية بين نوعين من الشخصيّة، بل يعيش الوحدة التامة الّتي تجعل تصوّراته الذاتيّة على صورة تصوّراته الرسالية الإسلاميّة، فيما يتحرك فيه الفكر والعاطفة والعمل.

الشيرازي:

ذكر ناصر مكارم الشيرازي في تفسير هذا المقطع ما يلي[1]:

١. تشير الآية الكريمة إلى أنّ آيات الله التي تفضح أقوال ومعتقدات هؤلاء تجعلهم يوغلون أكثر في صلفهم وعنادهم ويتمادون في طغيانهم وكفرهم بدلا من تأثيرها الايجابي في ردعهم عن السير في نهجهم الخاطئ حيث تقول الآية الكريمة: ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾

٢. بعد ذلك تؤكّد الآية على أن صلف هؤلاء وطغيانهم وكفرهم سيجر عليهم الوبال، فينالهم من الله عذاب شديد في هذه الدنيا، من خلال تفشي العداء والحقد فيما بينهم حتى يوم القيامة، فتقول الآية الكريمة: ﴿وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾

٣. وقد اختلف المفسّرون في معنى عبارة ﴿الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ﴾ الواردة في هذه الآية، لكنّنا لو تغاضينا عن الوضع الاستثنائي غير الدائم الذي يتمتع به اليهود في الوقت الحاضر، ونظرنا إلى تاريخ حياتهم المقترن بالتشتت والتشرد، لثبت لدينا أنّ هناك عامل واحد لهذا الوضع التّأريخي الخاص لهؤلاء، وهو انعدام الاتحاد والإخلاص فيما بينهم على الصعيد العالمي، فلو كان هؤلاء يتمتعون بالوحدة والصدق فيما بينهم، لما عانوا طيلة تاريخ حياتهم من ذلك التشرد والضياع والتشتت والتعاسة، وقد شرحنا قضية العداوة والبغضاء الدائمة بين أهل الكتاب بشيء من التفصيل عند تفسير الآية من نفس هذه السورة.

٤. وتشير الآية ـ في الختام ـ إلى المساعي والجهود التي كان يبذلها اليهود لتأجيج نيران الحروب، وعناية الله ولطفه بالمسلمين في انقاذهم من تلك النيران المدمرة الماحقة، فتقول ﴿كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللهُ﴾، وتعتبر هذه الظاهرة إحدى معاجز حياة النّبي الأكرم محمّد ﷺ، لأنّ اليهود كانوا الأقوى بين أهل الحجاز والأعرف بمسائل الحرب، بالإضافة إلى ما كانوا يمتلكون من قلاع حصينة وخنادق منيعة،

---

(١) تفسير الأمثل: ٤/٧٦.

ناهيك عن قدرتهم المالية الكبيرة التي كانت لهم عونا في كل صراع بحيث أن قريشا كانوا يستمدون العون منهم، وكان الأوس والخزرج يسعى كل منهما إلى التحالف معهم وكسب صداقتهم ونيل العون منهم في المجال العسكري، لكنّهم فقدوا فجأة قدرتهم المتفوقة ـ هذه ـ وطويت صفحة جبروتهم دفعة واحدة، بشكل لم يكن متوقعا لديهم، فاضطر يهود بني النضير وبني قريظة وبني القينقاع إلى ترك ديارهم، كما استسلم نزلاء قلاع خيبر الحصينة وسكان فدك من اليهود خاضعين للمسلمين، وحتى أولئك الذين كانوا يقطنون في فيافي الحجاز منهم اضطروا إلى الخضوع أمام عظمة الإسلام، فهم بالإضافة إلى عجزهم عن نصرة المشركين اضطروا إلى ترك ميدان النزال والصراع.

٥. ثمّ تبيّن الآية ـ أيضا ـ أنّ هؤلاء لا يكفون عن نشر بذور الفتنة والفساد في الأرض فتقول: ﴿وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا﴾ وتؤكّد أيضا قائلة: ﴿وَاللهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾، ويستدلّ من هذا على أن أسلوب المواجهة القرآني لليهود لم يكن يتركز على أساس عنصري مطلقا، بل أن المعيار الذي استخدمه القرآن في توجيه النقد إليهم، هو معيار الأعمال التي يمكن أن تصدر من أي جنس وعنصر أو طائفة، وسنلاحظ في الآيات القادمة أنّ القرآن على الرغم من كل ما صدر من هؤلاء، قد ترك باب التوبة مفتوحا أمامهم.

٦٥. بركات الإيمان والتقوى والتمسك بالكتاب

نتناول في هذا الفصل ما ذكره المفسّرون ـ بحسب التسلسل التاريخي، والمدارس الإسلامية المختلفة ـ حول تفسير المقطع [٦٥] من سورة المائدة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: ٦٥ ـ ٦٦]، مع العلم أنّا نقلنا المباحث التي لا علاقة لها ـ كبرى أو مباشرة ـ بالتفسير التحليلي إلى محالّها من كتب السلسلة.

علي:

روي عن الإمام علي (ت ٤٠ هـ) أنّه إذا حدث بهذا الحديث عن رسول الله ﷺ: (تفرقت أمة موسى على إحدى وسبعين ملة؛ سبعون منها في النار، وواحدة في الجنة، وتفرقت أمة عيسى على اثنتين وسبعين ملة؛ واحدة منها في الجنة، وإحدى وسبعون منها في النار، وتعلوا أمتي على الفريقين جميعا بملة واحدة في الجنة، وثنتان وسبعون منها في النار) تلا فيه قرآنا: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا﴾ إلى قوله: ﴿سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾، وتلا أيضا: ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٨١]، يعني: أمة محمد ﷺ[١].

ابن عباس:

روي عن ابن عباس (ت ٦٨ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال: وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ﴾، يعني: ما أنزل إليهم الفرقان[٢].

٢. روي أنّه قال: لأكلوا من الرزق الذي ينزل من السماء، والذي ينبت من الأرض[٣].

٣. روي أنّه قال: ﴿لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ﴾ يعني: لأرسل عليهم السماء مدرارا، ﴿وَمِنْ تَحْتِ

---

(١) أبو نعيم في الحلية ٣/٢٢٦.

(٢) ابن أبي حاتم ٤/١١٧٠.

(٣) ابن جرير ٨/٥٦٤.

أَرْجُلِهِمْ﴾ تخرج الأرض من بركاتها[1].

أنس:

روي عن أنس بن مالك (ت ٩٣ هـ) أنّه قال: كنا عند رسول الله ﷺ، فذكر حديثا، قال: ثم حدثهم النبي ﷺ، فقال: تفرقت أمة موسى على إحدى وسبعين ملة؛ سبعون منها في النار، واحدة في الجنة، وتفرقت أمة عيسى على اثنتين وسبعين ملة؛ واحدة منها في الجنة، وإحدى وسبعون منها في النار، وتعلوا أمتي على الفريقين جميعا بملة واحدة في الجنة، وثنتان وسبعون منها في النار)، قالوا: من هم، يا رسول الله؟ قال: (الجماعات الجماعات)، قال يعقوب بن زيد: كان علي إذا حدث بهذا الحديث عن رسول الله ﷺ تلا فيه قرآنا: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا﴾ إلى قوله: ﴿سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾، وتلا أيضا: ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٨١]، يعني: أمة محمد ﷺ[2].

مجاهد:

روي عن مجاهد (ت ١٠٤ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾ أما إقامتهم التوراة والإنجيل فالعمل بهما، وأما ﴿وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ فمحمد ﷺ، وما أنزل عليه[3].

٢. روي أنّه قال: ﴿لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ بركات السماء والأرض[4].

٣. روي أنّه قال: ﴿لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ﴾ فأرسلت عليهم مطرا، وأما ﴿من تحت أرجلهم﴾ يقول: لأنبت لهم من الأرض من رزقي ما يغنيهم[5].

٤. روي أنّه قال: ﴿مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ﴾ وهم مسلمة أهل الكتاب[6].

٥. روي أنّه قال: تفرقت بنو إسرائيل فرقا؛ فقالت فرقة: عيسى هو ابن الله، وقالت فرقة: هو الله،

---

(١) ابن جرير ٨/٥٦٣.

(٢) أبو نعيم في الحلية ٣/٢٢٦.

(٣) ابن جرير ٨/٥٦٤.

(٤) ابن جرير ٨/٥٦٤.

(٥) ابن جرير ٨/٥٦٤.

(٦) ابن جرير ٨/٥٦٤.

وقالت فرقة: هو عبد الله وروحه، وهي المقتصدة، وهي مسلمة أهل الكتاب[١].

٦. روي أنّه قال: ﴿وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ﴾ يهود ﴿سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾[٢].

الباقر:

روي عن الإمام الباقر (ت ١١٤ هـ) أنّه قال: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ الولاية[٣].

قتادة:

روي عن قتادة بن دعامة (ت ١١٧ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا﴾ آمنوا بما أنزل الله، واتقوا ما حرم الله[٤].

٢. روي أنّه قال: إقامتهم التوراة والإنجيل أن يؤمنوا بمحمد؛ لأنهم قد أمروا بذلك[٥].

٣. روي أنّه قال: ﴿لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾، يقول: لأعطتهم السماء بركاتها، والأرض نباتها[٦].

٤. روي أنّه قال: ﴿مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ﴾ يقول: على كتاب الله، وأمره، ثم ذم أكثر القوم، فقال: ﴿وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾[٧].

القرظي:

روي عن محمد بن كعب القرظي (ت ١٢٠ هـ) أنّه قال: ﴿مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾ فهؤلاء أمة مقتصدة؛ الذين قالوا: عيسى عبد الله، وكلمته، وروحه ألقاها إلى مريم[٨].

---

(١) ابن جرير ٨/٥٦٦.

(٢) ابن أبي حاتم ٤/١١٧٢.

(٣) الكافي ١/٣٤٢.

(٤) ابن جرير ٨/٥٦٢.

(٥) تفسير ابن أبي زمنين ٢/٣٧.

(٦) ابن جرير ٨/٥٦٣.

(٧) ابن جرير ٨/٥٦٦.

(٨) عزاه السيوطي إلى ابن المنذر.

زيد:

روي عن الإمام زيد (ت ١٢٢ هـ) أنّه قال: ﴿مِنْهُمْ أُمَّةٌ﴾ معناه جماعة[١].

السدي:

روي عن إسماعيل السدي الكوفي (ت ١٢٧ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾، يقول: لو عملوا بما أنزل إليهم مما جاءهم به محمد ﷺ لأنزلنا عليهم المطر، فأنبت الثمر[٢].

٢. روي أنّه قال: ﴿أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ﴾، يقول: مؤمنة[٣].

ابن دينار:

روي عن مالك بن دينار (ت ١٣٠ هـ) أنّه قال: جنات النعيم بين جنات الفردوس وبين جنات عدن، وفيها جوار خلقن من ورد الجنة، قيل: فمن يسكنها؟ قال: الذين هموا بالمعاصي، فلما ذكروا عظمة الله جل جلاله راقبوه[٤].

الربيع:

روي عن الربيع بن أنس (ت ١٣٩ هـ) أنّه قال: الأمة المقتصدة: الذين لا هم فسقوا في الدين، ولا هم غلوا، قال: والغلو: الرغبة، والفسق: التقصير عنه[٥].

ابن جريج:

روي عن ابن جريج (ت ١٥٠ هـ) أنّه قال: ﴿لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ﴾ [المائدة: ٦٦] المطر، ﴿وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ من نبات الأرض[٦].

---

(١) تفسير الإمام زيد، ص ١٣٠.
(٢) ابن جرير ٨/٥٦٤.
(٣) ابن جرير ٨/٥٦٦.
(٤) ابن أبي حاتم ٤/١١٧٠.
(٥) ابن جرير ٨/٥٦٧.
(٦) ابن جرير ٨/٥٦٤.

مقاتل:

روي عن مقاتل بن سليمان (ت ١٥٠ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ﴾ يعني: اليهود والنصارى ﴿آمَنُوا﴾ يعني: صدقوا بتوحيد الله، ﴿وَاتَّقَوْا﴾ الشرك؛ ﴿لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ يعني: لمحونا عنهم ذنوبهم، ﴿وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾[1].

٢. روي أنّه قال: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾ فعملوا بما فيهما من أمر الرجم، والزنا، وغيره، ولم يحرفوه عن مواضعه في التوراة التي أنزلها الله عز وجل، فأما في الإنجيل فنعت محمد ﷺ، وأما في التوراة فنعت محمد ﷺ والرجم والدماء وغيرها، ولم يحرفوها عن مواضعها، وأقاموا ﴿مَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ في التوراة والإنجيل من نعت محمد ﷺ، ومن إيمان بمحمد ﷺ، ولم يحرفوا نعته[2].

٣. روي أنّه قال: ﴿لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ﴾ يعنى: المطر، ﴿وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ يعني: من الأرض؛ النبات[3].

٤. روي أنّه قال: ﴿مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ﴾، يعني: عصبة عادلة في قولها، من مؤمني أهل التوراة والإنجيل، فأما أهل التوراة فعبد الله بن سلام وأصحابه، وأما أهل الإنجيل فالذين كانوا على دين عيسى ابن مريم ﷺ، وهم اثنان وثلاثون رجلا[4].

٥. روي أنّه قال: ﴿وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ﴾ يعني: من أهل الكتاب، يعني: كفارهم ﴿سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾ يعني: بئس ما كانوا يعملون[5].

ابن زيد:

روي عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم (ت ١٨٢ هـ) أنّه قال: ﴿مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ

---

(١) تفسير مقاتل ابن سليمان ١/٤٩١.

(٢) تفسير مقاتل ابن سليمان ١/٤٩١.

(٣) تفسير مقاتل ابن سليمان ١/٤٩١.

(٤) تفسير مقاتل ابن سليمان ١/٤٩١.

(٥) تفسير مقاتل ابن سليمان ١/٤٩١.

سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾ المقتصدة: أهل طاعة الله، وهؤلاء أهل الكتاب[1].

المرتضى:

ذكر الإمام المرتضى بن الهادي (ت ٣١٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[2].:

١. ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ أراد عز وجل: أن أهل التوراة والإنجيل لو أقاموا ما أنزل إليهم من ربهم لدرت أرزاقهم، وكثرت نعمهم، وأكلوا ـ كما قال: ـ من فوقهم، ومن تحت أرجلهم، ولأنزل عليهم من السماء البركات، ومن الأرض النعم السابغات، كما قال عز وجل: ﴿وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقًا﴾ [الجن:١٦]، وقال: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأعراف:٦٠]

٢. فلما أن كانت البركات تأتي من السماء والأرض قال: ﴿مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾، فكان هذا دليلا وشاهدا على كفر أهل الكتاب في تحريفهم للتوراة والإنجيل، وتركهم ما فيهما من أمر الله ونهيه وأحكامه.

٣. وفي مثل ما ذكرت في الآية: ما يروى عن عيسى بن مريم صلوات الله عليه أنّه قال: بحق أقول لكم يا بني إسرائيل: أن لو اتقيتم الله حق تقاته لأكلتم من فوقكم، ومن تحت أرجلكم، وعن أيمانكم، وعن شمائلكم، فإن قلتم: كيف ذلك؟والجواب: فانظروا إلى الطير تغدوا خماصا وتروح بطانا.. فإن قلتم: نحن أكبر أجوافا؟ والجواب: فانظروا إلى بقر الوحش والظباء والسباع تغدوا خماصا، وتروح بطانا، لا تحرث ولا تزرع، الله يرزقها وإياكم)؛ وفي كتاب الله عز وجل الشاهد لذلك، قوله سبحانه: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق:٢، ٣]

الماتريدي:

ذكر أبو منصور الماتريدي (ت ٣٣٣ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[3]:

---

(١) ابن جرير ٨/٥٦٦.

(٢) الأنوار البهية المنتزع من كتب أئمة الزيدية: ١/٣٣٥.

(٣) تأويلات أهل السنة: ٣/٥٥٥.

١. قوله عز وجل: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ عامل الله عز وجل خلقه معاملة أكرم الأكرمين؛ حيث وعد لهم المغفرة، وتكفير ما ارتكبوا في حال الكفر، وقولهم في الله من القبيح الوَحْش؛ لو آمنوا واتقوا الذي قالوا في الله؛ وهو كما قال الله: ﴿إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ﴾: وذلك أنه لما تاب ورجع عن صنيعه يرجع عن جميع ما كان منه، ويندم على ذلك، ويتمنى أن يكون ما كان منه في تلك الحال من الشر: خيرًا؛ فهو كقوله تعالى: ﴿فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾؛ لأنهم يندمون على تلك السيئات التي كانت منهم، ويتمنون أن يكون الذي كان منهم في تلك الحال خيرًا لا شرًّا.

٢. ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾ يحتمل هذا وجهين:

أ. يحتمل: ولو أنهم عملوا بما في التوراة والإنجيل، وبما أنزل إليهم من القرآن ـ لأكلوا من كذا مما ذكر.

ب. ويحتمل: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾: على ما أنزل، ورجعوا عما حرفوا فيها وغيروه وكتموه من نعت نبينا مُحَمَّد ﷺ وصفته، وما فيها من الأحكام ـ لكان لهم ما ذكر، وذلك أنهم كانوا يخافون الضيق إذا أسلموا وهو قوله: ﴿إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا﴾ فأخبر الله عز وجل أنهم لو آمنوا واتقوا الشرك، لوسع عليهم العيش.

٣. وقوله عز وجل: ﴿لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾:

أ. ليس على حقيقة الأكل؛ ولكن يخرج على المبالغة في الوصف والذكر؛ كما يقال: فلان من قرن رأسه إلى قدمه في نعمة: ليس على حقيقة ما وصف؛ ولكن على المبالغة في الوصف بالسعة.

ب. ويحتمل: أن يكون على حقيقة الأكل: أما ما يخرج من تحت الأرجل: فهو ما يخرج من الأرض من المأكول والمشروب، ومن فوقهم: من الثمار والفواكه يخرج من الأشجار.

ج. ويحتمل: ما ذكر ﴿مِنْ فَوْقِهِمْ﴾: وهو الجبال، و﴿وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾: الأرض، إخبار أن يكون لهم نزل الجبل والسهل جميعًا.

د. وقيل: ﴿لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ﴾، أي: أرسل الله عليهم مدرارًا، ﴿وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾: تخرج

الأرض بركتها، وتنبت لهم الثمرة، وقال قتادة: لأعطتهم الأرض نباتها، والسماء بركتها.

٤. وقوله عز وجل: ﴿مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ﴾، قيل فيه بوجهين:

أ. قيل: ﴿أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ﴾ من أسلم منهم.

ب. وقيل: منهم أمة مقتصدة على كتاب الله لم يحرفوه، ولا غيروه، ولا كتموا شيئًا، ولا سعوا في الأرض بالفساد على ما عمل أكثرهم من التحريف والتغيير.

الديلمي:

ذكر الإمام الناصر الديلمي (ت ٤٤٤ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾ وإقامتهما العمل بما فيهما من غير تبديل ولا تحريف ولا تحويل ثم قال: ﴿وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ يعني القرآن لأنهم لما خوطبوا بما فيه صار كأنه منزل عليهم.

٢. ﴿لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ والمراد به التوسعة عليهم بإنزال المطر من السماء وبإخراج النبات من الأرض ﴿مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ﴾ على أمر الله عز وجل عادلة.

الماوردي:

ذكر أبو الحسن الماوردي (ت ٤٥٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(٢)]:

١. ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾ فيه تأويلان:

أ. أحدهما: أقاموها نصب أعينهم حتى إذا نظروا ما فيها من أحكام الله تعالى وأوامره لم يزلوا.

ب. الثاني: إن إقامتها العمل بما فيها من غير تحريف ولا تبديل.

٢. ثم قال تعالى: ﴿وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ يعني القرآن لأنهم لما خوطبوا به صار منزلاً عليهم.

٣. ﴿لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ فيه تأويلان:

أ. أحدهما: أنه أراد التوسعة عليهم كما يقال هو في الخير من قرنه إلى قدمه.

ب. الثاني: لأكلوا من فوقهم بإنزال المطر، ومن تحت أرجلهم بإنبات الثمر، قاله ابن عباس.

٤. ﴿مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ﴾ فيه تأويلان:

---

(١) البرهان في تفسير القرآن للديلمي: ٢١٩/١.

(٢) تفسير الماوردي: ٥٣/٢.

أ. أحدهما: مقتصدة على أمر الله تعالى، قاله قتادة.

ب. الثاني: عادلة، قاله الكلبي.

الجشمي:

ذكر الحاكم الجشمي (ت ٤٩٤ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[1]:

١. الاقتصاد أصله القصد، وهي الاستقامة، والاقتصاد الاستواء في العمل المؤدي إلى الفرض، وأقصد السهم إذا أصاب، وقصدت قصده: نحوت نحوه.

٢. ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا﴾ صدقوا بمحمد وما جاء به ﴿وَاتَّقُوا﴾ الكفر والمعاصي ﴿لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ أي سترنا كفرهم إذا آمنوا بأن يغفر ذلك لهم فلا يأخذهم به، ويستر سيئاتهم بالحسنات، وهي التوبة والإيمان.

٣. ﴿وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ أي سندخلهم، وإنما جاء بلفظ الماضي؛ لأنه مقرر كتقرير الماضي ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ﴾ يعني أهل الكتاب من اليهود والنصارى.

٤. ﴿أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾:

أ. يعني عملوا بما فيها، بأن أقاموها نصب أعينهم، فلم يتركوا حدودها وما فيها من الإيمان بنبينا محمد، أي لو اتبعوا النبي ﷺ وأطاعوه كما هو في التوراة.

ب. وقيل: إقامة التوراة الاستقامة عليها دون التحريف، ولم يرد العمل بجميع ما فيه؛ لأنه منسوخ، فالمراد ما ذكرنا.

٥. ﴿وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ﴾:

أ. قيل: القرآن، عن ابن عباسٍ وجماعة، وهو قول أبي علي.

ب. وقيل: كتب الأنبياء.

ج. وقيل: كلَّ ما أمر الله به من أمور الدين.

٦. ﴿لَأَكَلُوا﴾ يعني لتركوا في ديارهم ولم يقتلوا، فكانوا يتمتعون بالنعم وما رزقهم الله، وخص

---

(١) التهذيب في التفسير: ٣/٣٥٠.

الأكل لأنه معظم الانتفاع ﴿مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾:

أ. قيل: من فوقهم المطر، بأن يرسل السماء عليهم مدرارًا ﴿وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ ما يخرج من الأرض من النبات والثمار، وبركات الله تعالى، عن ابن عباس وقتادة.

ب. وقيل: هو جواب الله إياهم حيث بَخَّلُوا الله بقولهم: ﴿يَدُ الله مَغْلُولَةٌ﴾

ج. وقيل: المراد به التوسعة كما يقال: هو في الخير من قرنه إلى قدمه، عن الفراء.

د. وقيل: لما كفروا بالنبي أخذهم بالسنين.

٧. ﴿مِنْهُم﴾ أي من أهل الكتاب ﴿أُمَّةٍ﴾ جماعة ﴿مُقْتَصِدَةٌ﴾:

أ. مستقيمة على طريقتها مؤمنة بعيسى وبمحمد كعبد الله بن سلام وغيره من اليهود، وبحيرا وسلمان من النصارى.

ب. وقيل: مقتصدة في دينها لا يضيفون البخل إليه، ويعترفون بأنه يفعل الأصلح، ويرضون بما رزقهم.

ج. وقيل: المقتصدة العادلة، عن ابن عباس.

٨. ﴿وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ﴾:

أ. من اليهود والنصارى نحو كعب بن الأشرف وأمثاله.

ب. وقيل: هم الَّذِينَ أقاموا على الكفر وسخطوا قسم الله.

٩. ﴿سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾ أي سيء عملهم.

١٠. تدل الآية الكريمة على:

أ. يدل قوله: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ﴾ الآية، أن التكفير لا يحصل إلا بالإيمان واتقاء الكبائر بخلاف قول المرجئة.

ب. أن التقوى من سبب الرزق.

ج. استدل بعض الحنفية بأن قوله: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾ يدل على أن التمسك بهما واجب والتعبد بتلك الشرائع لازم ما لم ينسخ، قال القاضي: وليس كذلك؛ لأن المراد إقامتهما في الأمور الدالة على نبوته دون غيرها.

د. أن الثواب والعقاب يجب على العمل.

هـ. أن العبد فاعل من وجوه:

• منها قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا﴾ وعلى قود قولهم يجب أن يقال: إنه خلق فيهم الإيمان والتقوى.

• ومنها: قوله: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾ وهذا لا يليق إلا وذلك فعلهم.

• ومنها: قوله: ﴿سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾

و. لطيف تدبير الله في عباده لما فرق بين الوعد والوعيد، والترغيب والترهيب.

١١. مسائل لغوية ونحوية:

أ. ﴿لَوْ﴾ معناه وجوب المعنى الثاني بالأول يقال: لو كان كذا لكان كذا.

ب. ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا﴾ عطف على قوله: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا﴾

الطَبِرسي:

ذكر الفضل الطَبِرسي (ت ٥٤٨ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي(١):

١. شرح مختصر للكلمات:

أ. أصل التكفير: التغطية، ومنه تكفر في السلاح.

ب. الاقتصاد: الاستواء في العمل، الذي يودي إلى الغرض، واشتقاقه من القصد، لان القاصد إلى ما يعرف مكانه، فهو يمر على الاستقامة إليه، خلاف الطالب المتحير في طلبه.

٢. ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ﴾ يعني: اليهود والنصارى ﴿آمَنُوا﴾ بمحمد ﷺ ﴿وَاتَّقُوا﴾ الكفر والفواحش ﴿لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ أي: سترناها عليهم، وغفرناها لهم، ﴿وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ ظاهر المعنى.

٣. ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾:

أ. أي: عملوا بما فيهما على ما فيهما، دون أن يحرفوا شيئا منهما، أو يغيروا، أو يبدلوا، كما كانوا

---

(١) تفسير الطبرسي: ٣/٣٤٠.

يفعلونه.

ب. ويحتمل أن يكون معناه: عملوا بما فيهما، بأن أقاموهما نصب أعينهم، لئلا يزلوا في شيء من حدودهما ﴿وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ يريد به القرآن، عن ابن عباس، واختاره الجبائي.

ج. وقيل: المراد به كل ما دل الله عليه من أمور الدين.

٤. ﴿لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ﴾ بإرسال السماء عليهم مدرارا، ﴿وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾:

أ. بإعطاء الأرض خيرها وبركتها، عن ابن عباس، وقتادة، ومجاهد.

ب. وقيل: المراد لأكلوا ثمار النخيل والأشجار من فوقهم، والزرع من تحت أرجلهم، والمعنى: لتركوا في ديارهم، ولم يجلوا عن بلادهم، ولم يقتلوا، فكانوا يتمتعون بأموالهم، وزروعهم، وثمارهم، وما رزقهم الله من النعم، وإنما خص سبحانه الأكل لأن ذلك معظم الانتفاع، وفي هذا تأسيف لليهود على ما فاتهم، واعتداد بسعة ما كانوا فيه من نعم الله عليهم، وهو جواب تبخيلهم إياه في قولهم ﴿يَدُ اللهِ مَغْلُولَةٌ﴾

ج. وقيل: إن المعنى في قوله: ﴿لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ التوسعة كما يقال فلان في الخير من قرنه إلى قدمه أي: يأتيه الخير من كل جهة يلتمسه منها، ونظير هذه الآية قوله: ﴿وَأَنْ لَوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقًا﴾ [الجن: ١٦]، ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢ ـ ٣]﴾ [الطلاق: ٢] جعل الله تعالى التقوى من أسباب التوسعة في الرزق.

٥. ﴿مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ﴾ أي: من هؤلاء قوم معتدلون في العمل من غير غلو، ولا تقصير:

أ. قال أبو علي الجبائي: وهم الذين أسلموا منهم، وتابعوا النبي ﷺ وبه قال مجاهد، والسدي، وابن زيد، وهو المروي في تفسير أهل البيت عليهم السلام.

ب. وقيل: يريد به النجاشي وأصحابه.

ج. وقيل: إنهم قوم لم يناصبوا النبي مناصبة هؤلاء، حكاه الزجاج.

د. ويحتمل أن يكون أراد به من يقر منهم بأن المسيح عبد الله ولا يدعي فيه الإلهية.

٦. ﴿وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾ قبح عملهم أي: أكثر هؤلاء اليهود والنصارى، يعملون الاعمال السيئة، وهم الذين يقيمون على الكفر والجحود بالنبي ﷺ.

٧. ﴿سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾ يحتمل أن يكون ﴿مَا﴾ مع ما بعدها، بمنزلة المصدر، ويحتمل أن يكون

بمعنى الذي وما بعدها، صلة لها، والعائد محذوف.

ابن الجوزي:

ذكر أبو الفرج بن الجوزي (ت ٥٩٧ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ﴾ يعني: اليهود والنّصارى ﴿آمَنُوا﴾ بالله وبرسله ﴿وَاتَّقَوْا﴾ الشّرك ﴿لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ التي سلفت.

٢. ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾ قال ابن عباس: عملوا بما فيها، وفيما أنزل إليهم من ربّهم قولان:

أ. أحدهما: كتب أنبياء بني إسرائيل.

ب. الثاني: القرآن، لأنهم لما خوطبوا به، كان نازلا إليهم.

٣. ﴿لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ فيه قولان:

أ. أحدهما: لأكلوا بقطر السّماء، ونبات الأرض، وهذا قول ابن عباس، ومجاهد، وقتادة.

ب. الثاني: أن المعنى: لوسع عليهم، كما يقال: فلان في خير من قرنه إلى قدمه، ذكره الفرّاء، والزجّاج، وقد أعلم الله تعالى بهذا أنّ التّقوى سبب في توسعة الرّزق كما قال: ﴿لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾، وقال: ﴿وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾

٤. ﴿مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ﴾:

أ. يعني: من أهل الكتاب، وهم الذين أسلموا منهم، قاله ابن عباس، ومجاهد.

ب. وقال القرظيّ: هم الذين قالوا: المسيح عبد الله ورسوله.

٥. و(الاقتصاد) الاعتدال في القول والعمل من غير غلوّ ولا تقصير.

الرّازي:

ذكر الفخر الرازي (ت ٦٠٦ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[٢]:

١. لما بالغ الله تعالى في ذمهم وفي تهجين طريقتهم بين أنهم لو آمنوا واتقوا لوجدوا سعادات الآخرة

---

(١) زاد المسير في علم التفسير: ١/٥٦٨.

(٢) التفسير الكبير: ١٢/٣٩٩.

والدنيا، أما سعادات الآخرة فهي محصورة في نوعين:

أحدهما: رفع العقاب.. وهو المراد بقوله: ﴿لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾

الثاني: إيصال الثواب، وهو المراد بقوله: ﴿وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾

٢. سؤال وإشكال: الإيمان وحده سبب مستقل باقتضاء تكفير السيئات وإعطاء الحسنات، فلم ضم إليه شرط التقوى؟ والجواب: المراد كونه آتيا بالإيمان لغرض التقوى والطاعة، لا لغرض آخر من الأغراض العاجلة مثل ما يفعله المنافقون.

ثم لما بيّن الله تعالى في الآية الأولى: أنهم لو آمنوا لفازوا بسعادات الآخرة، بيّن في هذه الآية ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾ أيضا أنهم لو آمنوا لفازوا بسعادات الدنيا ووجدوا طيباتها وخيراتها، وفي إقامة التوراة والإنجيل ثلاثة أوجه:

أ. أحدها: أن يعملوا بما فيها من الوفاء بعهود الله فيها، ومن الإقرار باشتمالها على الدلائل الدالة على بعثة محمد ﷺ.

ب. ثانيها: إقامة التوراة إقامة أحكامها وحدودها كما يقال: أقام الصلاة إذا قام بحقوقها، ولا يقال لمن لم يوف بشرائطها: أنه أقامها.

ج. ثالثها: أقاموها نصب أعينهم لئلا يزلوا في شيء من حدودها، وهذه الوجوه كلها حسنة لكن الأول أحسن.

٣. في قوله تعالى: ﴿وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ﴾ قولان:

أ. الأول: أنه القرآن.

ب. الثاني: أنه كتب سائر الأنبياء، مثل كتاب شعياء ومثل كتاب حيقوق، وكتاب دانيال، فإن هذه الكتب مملوءة من البشارة بمبعث محمد ﷺ.

٤. ﴿لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ اليهود لما أصروا على تكذيب محمد ﷺ أصابهم القحط والشدة، وبلغوا إلى حيث قالوا: ﴿يَدُ اللهِ مَغْلُولَةٌ﴾ فالله تعالى بيّن أنهم لو تركوا ذلك الكفر لا نقلب الأمر وحصل الخصب والسعة، وفي قوله: ﴿لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ وجوه:

أ. الأول: أن المراد منه المبالغة في شرح السعة والخصب، لا أن هناك فوقا وتحتا، والمعنى لأكلوا أكلا متصلا كثيرا، وهو كما تقول: فلان في الخير من فرقه إلى قدمه، تريد تكاثف الخير وكثرته عنده.

ب. الثاني: أن الأكل من فوق نزول القطر، ومن تحت الأرجل حصول النبات، كما قال تعالى في سورة الأعراف ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ٩٦]

ج. الثالث: الأكل من فوق كثرة الأشجار المثمرة، ومن تحت الأرجل الزروع المغلة.

د. الرابع: المراد أن يرزقهم الجنان اليانعة الثمار، فيجتنون ما تهدل من رؤوس الشجر، ويلتقطون ما تساقط على الأرض من تحت أرجلهم.

هـ. الخامس: يشبه أن يكون هذا إشارة إلى ما جرى على اليهود من بني قريظة وبني النضير من قطع نخيلهم وإفساد زروعهم وإجلائهم عن أوطانهم.

٥. ﴿مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ﴾ معنى الاقتصاد في اللغة الاعتدال في العمل من غير غلو ولا تقصير، وأصله القصد، وذلك لأن من عرف مطلوبه فإنه يكون قاصدا له على الطريق المستقيم من غير انحراف ولا اضطراب، أما من لم يعرف موضع مقصوده فإنه يكون متحيرا، تارة يذهب يمينا وأخرى يسارا، فلهذا السبب جعل الاقتصاد عبارة عن العمل المؤدي إلى الغرض، ثم في هذه الأمة المقتصدة قولان:

أ. أحدهما: أن المراد منها الذين آمنوا من أهل الكتاب: كعبد الله بن سلام من اليهود، والنجاشي من النصارى، فهم على القصد من دينهم، وعلى المنهج المستقيم منه، ولم يميلوا إلى طرفي الإفراط والتفريط.

ب. الثاني: المراد منها الكفار من أهل الكتاب الذين يكونون عدولا في دينهم، ولا يكون فيهم عناد شديد ولا غلظة كاملة، كما قال: ﴿وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنْطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ﴾ [آل عمران: ٧٥]

٦. ﴿وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾ وفيه معنى التعجب كأنه قيل: وكثير منهم ما أسوأ عملهم، والمراد: منهم الأجلاف المذمومون المبغضون الذين لا يؤثر فيهم الدليل ولا ينجع فيهم القول.

القرطبي:

ذكر محمد بن أحمد القرطبي (ت ٦٧١ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ﴾ ﴿أَنْ﴾ في موضع رفع، وكذا ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ﴾، ﴿آمَنُوا﴾ صدقوا، ﴿وَاتَّقُوا﴾ أي الشرك والمعاصي، ﴿لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ﴾ اللام جواب ﴿لَوْ﴾، وكفرنا غطينا، وقد تقدم، وإقامة التوراة والإنجيل العمل بمقتضاهما وعدم تحريفهما، وقد تقدم هذا المعنى في البقرة) مستوفى، ﴿وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ أي القرآن، وقيل: كتب أنبيائهم.

٢. ﴿لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ قال ابن عباس وغيره: يعني المطر والنبات، وهذا يدل على أنهم كانوا في جدب، وقيل: المعنى لوسعنا عليهم في أرزاقهم ولأكلوا أكلا متواصلا، وذكر فوق وتحت للمبالغة فيما يفتح عليهم من الدنيا، ونظير هذه الآية: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق] ﴿وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقًا﴾ [الجن] ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأعراف] فجعل تعالى التقى من أسباب الرزق كما في هذه الآيات، ووعد بالمزيد لمن شكر فقال: ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم]

٣. ثم أخبر تعالى أن منهم مقتصدا ـ وهم المؤمنون منهم كالنجاشي وسلمان وعبد الله بن سلام اقتصدوا فلم يقولوا في عيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام إلا ما يليق بهما، وقد: أراد بالاقتصاد قوما لم يؤمنوا، ولكنهم لم يكونوا من المؤذين المستهزئين، والاقتصاد الاعتدال في العمل، وهو من القصد، والقصد إتيان الشيء تقول: قصدته وقصدت له وقصدت إليه بمعنى.

٤. ﴿سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾ أي بئس شي عملوه، كذبوا الرسل، وحرفوا الكتب وأكلوا السحت.

الشوكاني:

ذكر محمد بن علي الشوكاني (ت ١٢٥٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(٢)]:

١. ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا﴾ أي لو أن المتمسّكين بالكتاب، وهم اليهود والنصارى، على أنّ التعريف للجنس ﴿آمَنُوا﴾ الإيمان الذي طلبه الله منهم، ومن أهمّه الإيمان بما جاء به محمد ﷺ كما أمروا بذلك في كتب الله المنزلة عليهم ﴿وَاتَّقُوا﴾ المعاصي التي من أعظمها ما هم عليه من الشرك بالله

---

(١) تفسير القرطبي: ٦/٢٤١.

(٢) فتح القدير: ٢/٦٨.

والجحود لما جاء به رسول الله ﷺ، ﴿لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ التي اقترفوها، وإن كانت كثيرة متنوّعة؛ وقيل المعنى: لوسعنا عليهم في أرزاقهم.﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾ أي أقاموا ما فيهما من الأحكام التي من جملتها الإيمان بما جاء به محمد ﷺ.

٢. ﴿وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ من سائر كتب الله التي من جملتها القرآن فإنها كلها وإن نزلت على غيرهم فهي في حكم المنزلة عليهم لكونهم متعبدين بما فيها ﴿لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ ذكر فوق وتحت للمبالغة في تيسر أسباب الرزق لهم وكثرتهم وتعدد أنواعها.

٣. ﴿مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ﴾ جواب سؤال مقدّر، كأنه قيل: هل جميعهم متّصفون بالأوصاف السابقة، أو البعض منهم دون البعض، والمقتصدون منهم هم المؤمنون كعبد الله بن سلام ومن تبعه وطائفة من النصارى ﴿وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾ وهم المصرّون على الكفر المتمرّدون عن إجابة محمد ﷺ والإيمان بما جاء به.

أَطَّفِّيش:

ذكر محمد أَطَّفِّيش (ت ١٣٣٢ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. ﴿وَلَوَ اَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ﴾ التوراة والإنجيل، فالمتبادر أنَّ أهل الكتاب اليهود والنصارى، ويحتمل اليهود؛ لأنَّ الكلام فيهم، وهم مخاطبون بالإنجيل كالتوراة، ﴿آمَنُواْ﴾ بمحمَّدٍ ﷺ وبما جاء به، وهو يتضمَّن الإيمان بالأنبياء والكتب كلِّها، فأهل الكتاب مشركون إذْ لم يؤمنوا به، فلا يدخلون الجنَّة، أو ولو أنَّ أهل الكتاب آمنوا بجميع الرسل والكتب ﴿وَاتَّقَوْاْ﴾ إيقادَ الحرب، والسعيَ فسادًا، والإلحادَ في صفات الله وأفعاله، وأكلَ السحت، وغيرَ ذلك مِمَّا هو معصية فعلاً أو تركًا، ﴿لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ نسقطها عنهم فلا نؤاخذهم بها، فهذه تخلية، وهي طرح الْمَضَرَّة، ﴿وَلأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ هذه تحلية، أُخِّرت على ما هو الأصل.

٢. ولا شكَّ أنَّ التوحيد مكفِّر لِمَا قبله حال الشرك، والآية لم تخرج عن ذلك، أمَّا من حيِيَ بعد إسلامه حتَّى وقع عليه تكليف بفعل أو ترك، ففعَل الواجب وترَك المحرَّم فقد اتَّقَى، ومن أسلم ومات

---

(١) تيسير التفسير، أطفيش: ٨٤/٤.

قبل ذلك فقد اتَّقَى، بمعنى أنَّه انتفى عنه فعل ما نهي عنه، وترك ما أمر به، فلفظ (اتَّقَوْا) شامل لهما، على أنَّه من عموم المجاز، أو المراد في الآية مَن حَيِيَ فيُعلم غيره كذلك إلحاقًا، بل من مات بعد التوحيد وقبل ذلك فقد آمن واتَّقى الشرك، فشملته الآية بلا عموم مجاز، إذ قد فعل ما كلِّف به في الحال، ولا يُكتَفَى بذلك فيمن حَيِيَ إلى ذلك، لأدلَّة وجوب العمل الصالح والتقوى مع الإيمان فيمن أسلم مِن شرك، وفيمن إسلامه أصيل، قال مالك بن دينار: (جنَّات الفردوس وجنَّات عدن جنَّتان عظيمتان بينهما جنَّة النعيم، أفضل منهما فيها جوار خلقن من ورد الجنَّة)، قيل: فمن يسكنها؟ قال: (الذين إذا همُّوا بالمعاصي ذكروا عظمة الله تعالى فتركوا المعاصي)، ماتت النوار زوج الفرزدق، فصلَّى عليها الحسن، ووقف الناس، فقال: (ما تنتظرون؟) فقال الفرزدق: (ينتظرون شرَّ الناس) يعنى نفسه، (وخيرَ الناس) يعني الحسن، فقال الحسن: (لستَ بشرِّهم ولستُ بخيرهم، ولكن ما أعددتَ لهذا اليوم؟) فقال: (شهادة أن لا إله إلَّا الله سبعين سنة)، توهَّم أنَّ التوحيد يكفي، فقال الحسن: (هذا العمود، فأين الأطناب؟) يعني التوحيد كعمود الخيمة لا ينتفع به دون العمل والتقوى، كما لا ينتفع بالخيمة دون الأطناب.

٣. ﴿وَلَوَ اَنَّهُمُ أَقَامُواْ التَّوْراةَ وَالاِنجِيلَ﴾ آمنوا بهما وعملوا بما فيهما من الإيمان بمحمَّدٍ ﷺ ، والعمل بشرعه، والدعاء إليه بلا كتم ولا تحريف، ﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ﴾ من سائر كتب الله أنزلت عليهم أو على غيرهم، لأنَّهم كلِّفوا بها، أو المراد: القرآن، لأنَّه أنزل إليهم كما أنزل إلى غيرهم، أعني كلِّفوا به كغيرهم، وممَّا أنزل عليهم: كتاب (دانيال)، وكتاب (شعياءَ)، وكتاب (أرمياءَ)، وزبور داود، وكتاب (حزقيل)، وكتاب (حبقوق) بِقَافَيْنِ.

٤. ﴿لأَكَلُواْ مِن فَوْقِهِمْ﴾ الشجر العالي عليهم كالنخل وأنواع ما يعلو، ﴿وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم﴾ ما سفل عنهم مِن حرثٍ وما نبت بلا حرث، وما سقط من الشجر العالي، وما بين ذلك داخل في الكلام، كما يذكر الأطراف، ويترك ذكر الأوساط وهي مرادة، أو يرزقهم أجنَّة كأجنَّة سبأ بلا عمل، يأكلون منها وما تساقط لا يعفن بالسقوط، أو المراد الكناية عن كثرة الأرزاق لا خصوص الثمار، ولا خصوص الجهات فتكون لهم بركات السماء والأرض وكلِّ جهة، وقد قيل: لأَعطَتهُم السماءُ مطرَها وبركتها، والأرضُ نباتَها وخيرَها، كقوله تعالى: ﴿لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَآءِ وَالاَرْضِ﴾ [الأعراف: ٩٦]

٥. ﴿مِّنْهُمُ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ﴾ عادلة، لا غالية ولا مقصِّرة، تعمل بالحقِّ، وهم من آمن بالنبيء ﷺ

واتَّبعه، كما قال مجاهد: كعبد الله بن سلام، قيل: ومن اتَّبع كتاب الله قبل بعثته ﷺ أو بعدها، ولم يبلغه خبره، وقيل: عبد الله بن سلام ونحوه وأربعون من النصارى، وقيل: النجاشيُّ وأصحابه.

٦. ﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾ من معاندةٍ وتحريف وإعراض وإفراط في عداوة، وهذه الكثرة مقابلة القِلَّة، فمن ساء عملُه ككعبِ بن الأشرف أكثرُ مِمَّن اقتصد كما دلَّ له قوله: ﴿أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ﴾

القاسمي:

ذكر جمال الدين القاسمي (ت ١٣٣٢ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ﴾ أي: مع ما عددنا من سيئاتهم ﴿آمَنُوا﴾ برسول الله ﷺ وبما جاء به ﴿وَاتَّقُوا﴾ مباشرة الكبائر ﴿لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ أي ذنوبهم ﴿وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ في الآخرة مع المسلمين، وفيه إعلام بعظم معاصي اليهود والنصارى وكثرة سيئاتهم، ودلالة على سعة رحمة الله تعالى وفتحه باب التوبة على كل عاص، وإن عظمت معاصيه وبلغت مبالغ سيئات اليهود والنصارى، وأن الإسلام يجبّ ما قبله وإن جلّ، وأن الكتابيّ لا يدخل الجنة ما لم يسلم.

٢. قال الزمخشريّ: وفيه أن الإيمان لا ينجي ولا يسعد إلا مشفوعا بالتقوى، كما قال الحسن: هذا العمود، فأين الأطناب؟.. قال ناصر الدين في (الانتصاف): هو ينتهز الفرصة من ظاهر هذه الآية فيجعله دليلا على قاعدته، في أن مجرد الإيمان لا ينجي من الخلود في النار، حتى ينضاف إليه التقوى لأن الله تعالى جعل المجموع في هذه الآية شرطا للتكفير ولإدخال الجنة، وظاهره أنهما ما لم يجتمعا لا يوجد تكفير ولا دخول الجنة، وأنى له ذلك؟ والإجماع والاتفاق من الفريقين ـ أهل السنة والجماعة، والمعتزلة ـ على أن مجرد الإيمان يجبّ ما قبله ويمحوه كما ورد النص، فلو فرضنا موت الداخل في الإيمان عقيب دخوله فيه، لكان كيوم ولدته أمه ـ باتفاق ـ مكفّر الخطايا محكوما له بالجنة، فدل ذلك على أن اجتماع الأمرين ليس بشرط، هذا إن كان المراد بالتقوى الأعمال، وإن كانت التقوى ـ على أصل موضعها ـ الخوف من الله عز وجل، فهذا المعنى ثابت لكل مؤمن وإن قارف الكبائر، وحينئذ لا يتم للزمخشريّ منه غرض، وما هذا إلا إلحاح ولجاج في مخالفة المعتقد المستفاد من قوله ﷺ: من قال لا إله إلا الله دخل الجنة وإن زنى أو سرق، كررها النبيّ ﷺ

(١) تفسير القاسمي: ٤/١٩٠.

مرارا، ثم قال وإن رغم أنف أبي ذر، لمّا راجعه رضي الله في ذلك، ونحن نقول: وإن رغم أنف القدرية.

٣. ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾ أي: أقاموا أحكامهما وحدودهما وما فيهما من نعت رسول الله ﷺ، وأصل الإقامة الثبات في المكان، ثم استعير إقامة الشيء لتوفية حقه ﴿وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ أي: بيّنوا ما بيّن لهم ربهم في التوراة والإنجيل، ويقال: أقروا بجملة الكتب والرسل من ربهم، ويقال: هو القرآن.

٤. ﴿لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ لوسّع عليهم أرزاقهم، بأن يفيض عليهم بركات من السماء والأرض، ويكثر ثمرة الأشجار وغلة الزروع، أو يرزقهم الجنان اليانعة الثمار، فيجتنونها من رأس الشجر، ويلتقطون ما تساقط على الأرض، وجعل ﴿مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ بمعنى الأمطار والأنهار التي تحصل بها أقواتهم ـ بعيد من الأكل، والأقرب الوجوه الثلاثة المتقدمة، ونبه تعالي بذلك على أن ما أصابهم من الضنك والضيق، إنما هو بشؤم معاصيهم، وكفرهم، لا لقصور في فيض الكريم، تعالى.

٥. ودلت الآية الكريمة على أن العمل بطاعة الله تعالى سبب لسعة الرزق، وهو كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ٩٦]، ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢ ـ ٣]، ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا﴾ الآيات، [نوح: ١٠]، ﴿وَأَنْ لَوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُمْ ماءً غَدَقاً﴾ [الجن: ١٦]

٦. روى أحمد عن زياد بن لبيد أنه قال ذكر النبيّ ﷺ شيئا فقال: وذاك عند ذهاب العلم قال قلنا: يا رسول الله! وكيف يذهب العلم ونحن نقرأ القرآن ونقرئه أبناءنا، ويقرئه أبناؤنا أبناءهم إلى يوم القيامة؟ فقال: (ثكلتك أمك يا ابن أم لبيد! إن كنت لأراك من أفقه رجل بالمدينة، أو ليس هذه اليهود والنصارى يقرءون التوراة والإنجيل، لا ينتفعون مما فيهما بشيء) في رواية ابن أبي حاتم: أو ليست التوراة والإنجيل بأيدي اليهود والنصارى؟ فما أغنى عنهم حين تركوا أمر الله؟ ثم قرأ: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقامُوا التَّوْراةَ والْإِنْجِيلَ﴾.. الآية.

٧. ﴿مِنْهُمْ أُمَّةٌ﴾ أي طائفة ﴿مُقْتَصِدَةٌ﴾ أي: عادلة مستقيمة، وهم من آمن بالنبيّ ﷺ، كعبد الله بن سلام والنجاشي وسلمان ﴿وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ﴾ أي: بئس ﴿مَا يَعْمَلُونَ﴾ أي: من تحريف الحق والإعراض عنه والإفراط في العداوة، والآية كقوله تعالى: ﴿وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ

يَعْدِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٩]

رضا:

ذكر محمد رشيد رضا (ت ١٣٥٤هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ أي لو أنهم آمنوا بخاتم النبيين والمرسلين، واتقوا باتباعه تلك المفاسد التي جروا عليها، لكفرنا عنهم تلك السيئات لأن هذا الإيمان يجب ما قبله، والتقوى التي تتبعه تزكي النفس وتطهرها من تأثير تلك السيئات فيمحى أثرها، ويكون ذلك كفارة لها، فيستحقون جنات النعيم التي لا بؤس فيها.

٢. ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ إقامة التوراة والإنجيل: العمل بهما على أقوم الوجوه وأحسنها، سواء فيه عمل النفس وهو الإيمان والإذعان، وعمل القوى والجوارح، أي لو أقاموا ما في التوراة والإنجيل المنزلين من قبل بنور التوحيد والفضائل، المبشرين بالنبي الذي يأتي من أبناء أخيهم إسماعيل كما قال موسى: والبارقليط روح الحق الذي يعلمهم كل شيء كما قال عيسى عليهم السلام وأقاموا بعد ذلك ما نزل إليهم من ربهم على لسان هذا النبي الذي بشرت به كتبهم وهو الفرقان الذي أكمل به الدين ـ لو أقاموا جميع ذلك ولم يفرقوا بين رسل الله وكتبه ـ لوسع الله عليهم بالتبع لذلك ما يهمهم من موارد الرزق، فأكلوا من الثمرات والبركات التي تنتج من أمطار السماء ونبات الأرض، وتمتعوا بما وعد الله به هذا النبي وأمته من سعة الملك.

٣. وقيل إن المراد بما أنزل إليهم من ربهم سائر ما أوحاه الله تعالى إلى أنبيائهم من أمر الدين وآدابه والبشارة بالنبي الأخير ﷺ كزبور داوود وحكم سليمان وكتب دنيال وأشيعا وغيرهما عليهم السلام، وفي مجلدات المنار بيان لكثير من هذه البشارات، وإقامة هذه الكتب من أسباب الصلاح والإصلاح، فلو أقامها قبل البعثة المحمدية أهل الكتاب، لما غلب عليهم ما عزاه المؤرخون إليهم من الطغيان والفساد، ولما عاندوا النبي المبشرة به ذلك العناد، ذلك بأنهم لم يقيموها ولا تدبروها، وإنما كان الدين عندهم أماني يتمنونها،

---

(١) تفسير المنار: ٦/٣٨١.

وبدعا وتقاليد يتوارثونها، فهم بين غلو وتقصير، وإفراط وتفريط، والمراد أن دهماءهم وسوادهم الأعظم كان كذلك كما يعلم من تواريخهم وتواريخ غيرهم.

٤. ومن دقة القرآن وعدله، وتمحيص الحقيقة في ذلك بقوله: ﴿مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾ أي منهم جماعة معتدلة في أمر الدين، لا تغلو بالإفراط ولا تهمل بالتقصير، قيل هم العدول في دينهم، وقيل هم الذين أسلموا منهم، والمعتدلون لا تخلو منهم أمة، ولكنهم يكثرون في طور صح الأمة وارتقائها، ويقلون في طور فسادها وانحطاطها ـ وهل تهلك الأمم إلا بكثرة الذين يعملون السوء من الأشرار، وقلة الذين يعملون الصالحات من الأخيار؟

٥. وهؤلاء المعتدلون في الأمم هم الذين يسبقون إلى صلاح وإصلاح يقوم به المجددون من الأنبياء في عصورهم، ولما جاء الإصلاح الإسلامي على لسان خاتم النبيين والمرسلين ﷺ قبله المقتصدون من أهل الكتاب ومن غيرهم، فكانوا مع إخوانهم العرب من المجددين للتوحيد والفضائل والآداب، والمحيين للعلوم والفنون والعمران، فهل يعتبر المسلمون بذلك الآن، ويعودون إلى إقامة القرآن، وأخذ الحكمة من حيث يجدونها، وعدد الإصلاح والسيادة من حيث يرونها، أم يفتؤون يسلكون بدينهم مع عدم إقامة كتابه، والتبجح بفضائل نبيهم على تركهم لسنته وآدابه؟

٦. روى ابن أبي حاتم عن جبير بن نفير أن رسول الله ﷺ قال: (يوشك أن يرفع العلم) قلت: كيف وقد قرأنا القرآن وعلمناه أبناءنا؟ فقال: (ثكلتك أمك يا ابن نفير) إن كنت لأراك من أفقه أهل المدينة، أو ليست التوراة والإنجيل بأيدي اليهود والنصارى؟ فما أغنى عنهم حين تركوا أمر الله)؟ ثم قرأ ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾ الآية، وأخرج أحمد وابن ماجه من طريق ابن أبي الجعد عن زياد بن لبيد قال ذكر النبي ﷺ شيئا فقال: (ذلك عند ذهاب العلم) قلنا يا رسول الله: وكيف يذهب العلم ونحن نقرأ القرآن ونقرئه أبناءنا ويقرئه أبناؤنا أبناءهم إلى يوم القيامة؟ قال: (ثكلتك أمك يا ابن أم لبيد، إن كنت لأراك من أفقه رجل بالمدينة، أو ليس هذه اليهود والنصارى يقرؤون التوراة والإنجيل وينتفعون مما فيهما بشيء) والشاهد فيه أن العبرة بالعمل بما في الكتب الإلهية والاهتداء بهدايتها، وقد كان أهل الكتاب في ذلك العصر أبعد ما كانوا عن هداية دينهم مع شدة عصبيتهم الجنسية له، كما هو شأن المسلمين اليوم، على أن عصبيتهم الجنسية له قد ضعفت أيضا واستبدل كثير منهم جنسية اللغة أو الوطن.

٧. ولا يمنعنا من الاعتبار بهذا الحديث ما علل به من الضعف وانقطاع السند والقلب والاختلاف، لأننا لا نريد أن نثبت به حقيقة ولا حكما شرعيا لا دليل عليهما سواه، وهو لا يدل على سلامة التوراة والإنجيل من التحريف بالزيادة والنقصان، لأنهما على ثبوت ذلك يشملان على التوحيد والهداية إلى البر والتقوى، ولكن أهلهما لا يقيمون ذلك، فالحجة عليهما قائمة على حال، وقد عملت أن هذا الحديث تثبت به العبرة، ولكن لا تقوم به حجة، وقد أشار الحافظ في ترجمة زياد بن لبيد من الإصابة إلى مخرجيه وعلله عندهم، ومنه يعلم قصور ما اكتفى به السيوطي في الدر المنثور.

٨. إن الشهادة لبعض أهل الكتاب بالقصد والاعتدال في هذه الآية له نظائر في آيات أخرى كقوله تعالى: ﴿وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٩]، وقوله: ﴿وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنْطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ﴾ [آل عمران: ٧٥] ـ الآية ـ وغير ذلك، ولو أن هذا القرآن وحي من الله لما وجدت فيه مثل هذه الشهادة، لأن الإنسان مهما كان عادلا فاضلا لا يرى الفضيلة المستترة في خصومه الذين يناوئونه ويحاربونه فيشهد لهم بها، بل أكثر الناس يعمي عن محاسن عدوه الظاهرة المستفيضة، وإن رأى شيئا منها يظن أنه نفاق وخداع، قال شاعرنا الحكيم:

وعين الرضا عن كل عيب كليلة كما أن عين السخط تبدي المساويا

٩. من شواهد العبرة على هذه الحقيقة كلمة قالتها امرأة كبيرة العقل والعلم والسن من فضليات النساء في سويسرة لشيخنا محمد عبده؛ قالت له: (إنني لم أكن قبل معرفتك أظن أن القداسة توجد في غير المسيحيين) فإذا كانت هذه المرأة الواسعة العلم بأخلاق البشر التي لها عدة مؤلفات في علوم التربية تظن مثل هذا الظن في هذا العصر الذي عرف البشر فيه من أحوال البعداء عنهم وتاريخهم ما لم يعرف مثله سلفهم في عصر ما، فهل يظن أن رجلا أميا في الحجاز يهتدي بغير وحي من الله إلى تلك الحقيقة في أولئك القوم منذ ثلاثة عشر قرنا؟؟

المراغي:

ذكر أحمد بن مصطفى المراغي (ت ١٣٧١ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[1]:

---

(١) تفسير المراغي ٦/١٥٧.

١. ندّمهم الله تعالى على سوء أعمالهم فقال: ﴿وَلَوْ أَنَّ أهل الْكِتَابِ آمنوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ أي ولو أنهم آمنوا بالله ورسوله واتقوا ما كانوا يتعاطونه من المآثم والمحارم لكفرنا عنهم سيئاتهم التي اقترفوها ومحونا عنهم ذنوبهم ولم نفضحهم بها، ولأدخلناهم في الآخرة جنات ينعمون بها، وفي ذلك إعلام من الله بعظم معاصي اليهود والنصارى وكثرة سيئاتهم، ودلالة على سعة رحمته، وفتحه باب التوبة لكل عاص وإن عظمت معاصيه وبلغت مبلغ سيئات اليهود والنصارى، وإخبار بأن الإيمان لا ينجّى إلا إذا شفع بالتقوى، ومن ثم قال الحسن: هذا العمود فأين الأطناب؟

٢. ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أنزل إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ أي ولو أقاموا ما في التوراة والإنجيل المنزّلين بنور التوحيد، المبشّرين بالنبي الذي يأتي من أبناء إسماعيل، والذي قال فيه عيسى عليه السلام: إنه روح الحق الذي يعلمهم كل شيء وأقاموا ما أنزل إليهم من ربهم على هذا النبي الكريم الذي بشرت به كتبهم ـ لوسع الله عليهم رزقهم، ولأعطتهم السماء مطرها وبركتها، والأرض نباتها وخيرها، كما قال تعالى: ﴿لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾

٣. وفي هذا تنبيه إلى أن ما أصابهم من الضنك والضيق إنما هو من شؤم جناياتهم، لا من قصور في فيض الله وعظيم عطائه، وإشارة إلى أنهم لو أقاموهما ما عاندوا النبي ذلك العناد، فالدين عندهم إنما كان أماني يتمنّونها، وبدعا وتقاليد يتوارثونها، فهم بين غلوّ وتقصير وإفراط وتفريط.

٤. ثم ذكر أنهم ليسوا سواسية في أفعالهم وأقوالهم فقال: ﴿مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾ أي منهم جماعة معتدلة في أمر دينها لا تفرط ولا تهمل، وهم الذين أسلموا كعبد الله بن سلام وأضرابه من اليهود، والنجاشي وأصحابه من النصارى، وكثير منهم أجلاف متعصبون، ساء ما يعملون من كفرهم بالله واجتراح المعاصي، ويزعم النصارى منهم أن المسيح ابن الله ويكذبون بمحمد ﷺ، ويكذب اليهود بعيسى ومحمد صلى الله عليهما.

٥. والمعتدلون لا تخلو منهم أمة، لكنهم يكثرون في طور صلاح الأمة وارتقائها، ويقلّون في طور فسادها وانحلالها، ولا تهلك الأمم إلا بكثرة من يعمل السوء من أشرارها، وقلة من يعمل الصالحات من أخيارها، وهؤلاء المعتدلون هم السباقون إلى كل صلاح وإصلاح يقوم به المجددون من الأنبياء في مختلف العصور، ومن ثم قبل هذا الدين الجديد هؤلاء المقتصدون من أهل الكتاب ومن غيرهم فكانوا مع

إخوانهم العرب من المجددين للتوحيد والفضائل والآداب، والمحبين للعلوم والفنون.

٦. روي ابن أبي حاتم عن جبير بن نفير أن رسول الله ﷺ قال: (يوشك أن يرفع العلم، قلت: وكيف وقد قرأنا القرآن وعلمناه أبناءنا؟ فقال: ثكلتك أمك يا ابن نفير، إن كنت لأراك من أفقه أهل المدينة، أو ليست التوراة والإنجيل بأيدي اليهود والنصارى، فما أغنى ذلك عنهم حين تركوا أمر الله، ثم قرأ: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾ الآية)، أخرج أحمد وابن ماجه عن زياد بن لبيد قال: (ذكر النبي ﷺ شيئا فقال: وذلك عند ذهاب العلم، قلنا: يا رسول الله وكيف يذهب العلم ونحن نقرأ القرآن ونقرئه أبناءنا ويقرئه أبناؤنا أبناءهم إلى يوم القيامة؟ قال ثكلتك أمك يا ابن أم لبيد، إن كنت لأراك من أفقه رجل بالمدينة، أو ليس هذه اليهود والنصارى يقرءون التوراة والإنجيل ولا ينتفعون مما فيهما بشيء)، ومغزى هذا أن العبرة في الأديان هو العمل بها والاهتداء بهديها، وقد كان أهل الكتاب في ذلك العصر أبعد ما كانوا عن هداية دينهم مع شدة عصبيتهم الجنسية له، كما هو شأن المسلمين اليوم.

٧. وهذه الشهادة لبعض أهل الكتاب بالقصد والاعتدال لها نظائر في آيات أخرى كقوله تعالى: ﴿وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾، وقوله: ﴿وَمِنْ أهل الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنْطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ﴾ الآية.

سيّد:

ذكر سيّد قطب (ت ١٣٨٥ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. في نهاية الدرس تجيء القاعدة الإيمانية الكبرى ـ قاعدة أن إقامة دين الله في الأرض معناها الصلاح والكسب والفلاح في حياة المؤمنين في هذه الدنيا وفي الآخرة على السواء، لا افتراق بين دين ودنيا، ولا افتراق بين دنيا وآخرة، فهو منهج واحد للدنيا وللآخرة؛ للدنيا وللدين.. تجيء هذه القاعدة الإيمانية الكبيرة بمناسبة الحديث عن انحراف أهل الكتاب عن دين الله؛ وأكلهم السحت؛ وتحريفهم الكلم من بعد مواضعه لينالوا عرضا من أعراض هذه الأرض.. واتباع دين الله كان أجدى عليهم في الأرض والسماء، وفي الدنيا والآخرة لو أنهم اختاروا الطريق.

---

(١) في ظلال القرآن: ٢/٩٣١.

٢. إن هاتين الآيتين تقرران أصلا كبيرا من أصول التصور الإسلامي، ومن ثم فهما تمثلان حقيقة ضخمة في الحياة الإنسانية، ولعل الحاجة إلى جلاء ذلك الأصل، وإلى بيان هذه الحقيقة لم تكن ماسة كما هي اليوم؛ والعقل البشري، والموازين البشرية، والأوضاع البشرية تتأرجح وتضطرب وتتوه بين ضباب التصورات وضلال المناهج، بإزاء هذا الأمر الخطير..

٣. إن الله سبحانه يقول لأهل الكتاب ـ ويصدق القول وينطبق على كل أهل كتاب ـ إنهم لو كانوا آمنوا واتقوا لكفر عنهم سيئاتهم ولأدخلهم جنات النعيم ـ وهذا جزاء الآخرة، وإنهم لو كانوا حققوا في حياتهم الدنيا منهج الله الممثل في التوراة والإنجيل وما أنزله الله إليهم من التعاليم ـ كما أنزلها الله بدون تحريف ولا تبديل ـ لصلحت حياتهم الدنيا، ونمت وفاضت عليهم الأرزاق، ولأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم من فيض الرزق، ووفرة النتاج وحسن التوزيع، وصلاح أمر الحياة.. ولكنهم لا يؤمنون ولا يتقون ولا يقيمون منهج الله ـ إلا قلة منهم في تاريخهم الطويل مقتصدة غير مسرفة على نفسها ﴿وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾

٤. وهكذا يبدو من خلال الآيتين أن الإيمان والتقوى وتحقيق منهج الله في واقع الحياة البشرية في هذه الحياة الدنيا، لا يكفل لأصحابه جزاء الآخرة وحده ـ وإن كان هو المقدّم وهو الأدوم ـ ولكنه كذلك يكفل صلاح أمر الدنيا، ويحقق لأصحابه جزاء العاجلة.. وفرة ونماء وحسن توزيع وكفاية.. يرسمها في صورة حسية تجسم معنى الوفرة والفيض في قوله: ﴿لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾،

٥. وهكذا يتبين أن ليس هنالك طريق مستقل لحسن الجزاء في الآخرة؛ وطريق آخر مستقل لصلاح الحياة في الدنيا، إنما هو طريق واحد، تصلح به الدنيا والآخرة، فإذا تنكب هذا الطريق فسدت الدنيا وخسرت الآخرة.. هذا الطريق الواحد هو الإيمان والتقوى وتحقيق المنهج الإلهي في الحياة الدنيا..

٦. وهذا المنهج ليس منهج اعتقاد وإيمان وشعور قلبي وتقوى فحسب، ولكنه كذلك ـ وتبعا لذلك ـ منهج حياة إنسانية واقعية، يقام، وتقام عليه الحياة.. وإقامته ـ مع الإيمان والتقوى ـ هي التي تكفل صلاح الحياة الأرضية، وفيض الرزق، ووفرة النتاج، وحسن التوزيع، حتى يأكل الناس جميعا ـ في ظل هذا المنهج ـ من فوقهم ومن تحت أرجلهم.

٧. إن المنهج الإيماني للحياة لا يجعل الدين بديلا من الدنيا؛ ولا يجعل سعادة الآخرة بديلا من

سعادة الدنيا، ولا يجعل طريق الآخرة غير طريق الدنيا.. وهذه هي الحقيقة الغائمة اليوم في أفكار الناس وعقولهم وضمائرهم وأوضاعهم الواقعية، لقد افترق طريق الدنيا وطريق الآخرة في تفكير الناس وضميرهم وواقعهم، بحيث أصبح الفرد العادي ـ وكذلك الفكر العام للبشرية الضالة ـ لا يرى أن هنالك سبيلا للالتقاء بين الطريقين، ويرى على العكس أنه إما أن يختار طريق الدنيا فيهمل الآخرة من حسابه؛ وإما أن يختار طريق الآخرة فيهمل الدنيا من حسابه؛ ولا سبيل إلى الجمع بينهما في تصور ولا واقع.. لأن واقع الأرض والناس وأوضاعهم في هذه الفترة من الزمان توحي بهذا..

٨. حقيقة: إن أوضاع الحياة الجاهلية الضالة البعيدة عن الله، وعن منهجه للحياة، اليوم تباعد بين طريق الدنيا وطريق الآخرة، وتحتم على الذين يريدون البروز في المجتمع، والكسب في مضمار المنافع الدنيوية، أن يتخلوا عن طريق الآخرة؛ وأن يضحوا بالتوجيهات الدينية والمثل الخلقية؛ والتصورات الرفيعة والسلوك النظيف، الذي يحض عليه الدين، كما تحتم على الذين يريدون النجاة في الآخرة أن يتجنبوا تيار هذه الحياة وأوضاعها القذرة، والوسائل التي يصل بها الناس في مثل هذه الأوضاع إلى البروز في المجتمع، والكسب في مضمار المنافع، لأنها وسائل لا يمكن أن تكون نظيفة ولا مطابقة للدين والخلق، ولا مرضية لله سبحانه.. ولكن.. تراها ضربة لازب! ترى أنه لا مفر من هذا الحال التعيس؟ ولا سبيل إلى اللقاء بين طريق الدنيا وطريق الآخرة؟

٩. كلا.. إنها ليست ضربة لازب! فالعداء بين الدنيا والآخرة؛ والافتراق بين طريق الدنيا وطريق الآخرة، ليس هو الحقيقة النهائية التي لا تقبل التبديل.. بل إنها ليست من طبيعة هذه الحياة أصلا، إنما هي عارض ناشئ من انحراف طارئ! إن الأصل في طبيعة الحياة الإنسانية أن يلتقي فيها طريق الدنيا وطريق الآخرة؛ وأن يكون الطريق إلى صلاح الآخرة هو ذاته الطريق إلى صلاح الدنيا، وأن يكون الإنتاج والنماء والوفرة في عمل الأرض هو ذاته المؤهل لنيل ثواب الآخرة كما أنه هو المؤهل لرخاء هذه الحياة الدنيا؛ وأن يكون الإيمان والتقوى والعمل الصالح هي أسباب عمران هذه الأرض كما أنها هي وسائل الحصول على رضوان الله وثوابه الأخروي..

١٠. هذا هو الأصل في طبيعة الحياة الإنسانية.. ولكن هذا الأصل لا يتحقق إلا حين تقوم الحياة على منهج الله الذي رضيه للناس.. فهذا المنهج هو الذي يجعل العمل عبادة، وهو الذي يجعل الخلافة في

الأرض وفق شريعة الله فريضة، والخلافة عمل وإنتاج، ووفرة ونماء، وعدل في التوزيع يفيض به الرزق على الجميع من فوقهم ومن تحت أرجلهم، كما يقول الله في كتابه الكريم.

١١. إن التصور الإسلامي يجعل وظيفة الإنسان في الأرض هي الخلافة عن الله، بإذن الله، وفق شرط الله.. ومن ثم يجعل العمل المنتج المثمر، وتوفير الرخاء باستخدام كل مقدرات الأرض وخاماتها ومواردها ـ بل الخامات والموارد الكونية كذلك ـ هو الوفاء بوظيفة الخلافة، ويعتبر قيام الإنسان بهذه الوظيفة ـ وفق منهج الله وشريعته حسب شرط الاستخلاف ـ طاعة لله ينال عليها العبد ثواب الآخرة؛ بينما هو بقيامه بهذه الوظيفة على هذا النحو يظفر بخيرات الأرض التي سخرها الله له؛ ويفيض عليه الرزق من فوقه ومن تحت رجليه، كما يصور التعبير القرآني الجميل! ووفق التصور الإسلامي يعتبر الإنسان الذي لا يفجر ينابيع الأرض، ولا يستغل طاقات الكون المسخرة له، عاصيا لله، ناكلا عن القيام بالوظيفة التي خلقه الله لها، وهو يقول للملائكة: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾، وهو يقول كذلك للناس: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ﴾، ومعطلا لرزق الله الموهوب للعباد.. وهكذا يخسر الآخرة لأنه خسر الدنيا! والمنهج الإسلامي ـ بهذا ـ يجمع بين العمل للدنيا والعمل للآخرة في توافق وتناسق، فلا يفوّت على الإنسان دنياه لينال آخرته، ولا يفوت عليه آخرته لينال دنياه، فهما ليسا نقيضين ولا بديلين في التصور الإسلامي.

١٢. هذا بالقياس إلى جنس الإنسان عامة، وبالقياس إلى الجماعات الإنسانية التي تقوم في الأرض على منهج الله.. فأما بالقياس إلى الأفراد فإن الأمر لا يختلف.. إذ أن طريق الفرد وطريق الجماعة ـ في المنهج الإسلامي ـ لا يختلفان ولا يتصادمان ولا يتعارضان.. فالمنهج يحتم على الفرد أن يبذل أقصى طاقته الجسمية والعقلية في العمل والإنتاج؛ وأن يبتغي في العمل والإنتاج وجه الله، فلا يظلم ولا يغدر ولا يغش ولا يخون، ولا يأكل من سحت، ولا يحتجز دون أخيه المحتاج في الجماعة شيئا يملكه ـ مع الاعتراف الكامل له بملكيته الفردية لثمرة عمله والاعتراف للجماعة بحقها في ماله في حدود ما فرض الله وما شرع ـ والمنهج يسجل للفرد عمله ـ في هذه الحدود ووفق هذه الاعتبارات ـ عبادة لله يجزيه عليها بالبركة في الدنيا وبالجنة في الآخرة..

١٣. ويربط المنهج بين الفرد وربه رباطا أقوى بالشعائر التعبدية التي يفرضها عليه؛ ليستوثق بهذا

الرباط من تجدد صلته بالله في اليوم الواحد خمس مرات بالصلاة، وفي العام الواحد ثلاثين يوما بصوم رمضان، وفي العمر كله بحج بيت الله، وفي كل موسم أو في كل عام بإخراج الزكاة..

١٤. ومن هنا قيمة هذه الفرائض التعبدية في المنهج الإسلامي، إنها تجديد للعهد مع الله على الارتباط بمنهجه الكلي للحياة، وهي قربى لله يتجدد معها العزم على النهوض بتكاليف هذا المنهج، الذي ينظم أمر الحياة كلها، ويتولى شئون العمل والإنتاج والتوزيع والحكم بين الناس في علاقاتهم وفي خلافاتهم، ويتجدد معها الشعور بعون الله ومدده على حمل التكاليف التي يتطلبها النهوض بهذا المنهج الكلي المتكامل، والتغلب على شهوات الناس وعنادهم وانحرافهم وأهوائهم حين تقف في الطريق.. وليست هذه الشعائر التعبدية أمورا منفصلة عن شئون العمل والإنتاج والتوزيع والحكم والقضاء، والجهاد لإقرار منهج الله في الأرض، وتقرير سلطانه في حياة الناس.. إنما الإيمان والتقوى والشعائر التعبدية شطر المنهج، المعين على أداء شطره الآخر.. وهكذا يكون الإيمان والتقوى وإقامة منهج الله في الحياة العملية سبيلا للوفرة والفيض، كما يعد الله الناس في هاتين الآيتين الكريمتين..

١٥. إن التصور الإسلامي، وكذلك المنهج الإسلامي المنبثق منه، لا يقدم الحياة الآخرة بديلا من الحياة الدنيا ـ ولا العكس ـ إنما يقدمهما معا في طريق واحد، وبجهد واحد، ولكنهما لا يجتمعان كذلك في حياة الإنسان إلا إذا اتبع منهج الله وحده في الحياة ـ دون أن يدخل عليه تعديلات مأخوذة من أوضاع أخرى لم تنبثق من منهج الله، أو مأخوذة من تصوراته الذاتية التي لم تضبط بهذا المنهج ـ ففي هذا المنهج وحده يتم ذلك التناسق الكامل.

١٦. والتصور الإسلامي ـ وكذلك المنهج الإسلامي المنبثق منه ـ لا يقدم الإيمان والعبادة والصلاح والتقوى، بديلا من العمل والإنتاج والتنمية والتحسين في واقع الحياة المادية.. وليس هو المنهج الذي يعد الناس فردوس الآخرة ويرسم لهم طريقه؛ بينما يدع للناس أن يرسموا لأنفسهم الطريق المؤدي إلى فردوس الدنيا ـ كما يتصور بعض السطحيين في هذا الزمان! ـ فالعمل والإنتاج والتنمية والتحسين في واقع الحياة الدنيا تمثل في التصور الإسلامي ـ والمنهج الإسلامي ـ فريضة الخلافة في الأرض، والإيمان والعبادة والصلاح والتقوى، تمثل الارتباطات والضوابط والدوافع والحوافز لتحقيق المنهج في حياة الناس.. وهذه وتلك معا هي مؤهلات الفردوس الأرضي والفردوس الأخروي معا؛ والطريق هو الطريق، ولا فصام

بين الدين والحياة الواقعية المادية كما هو واقع في الأوضاع الجاهلية القائمة في الأرض كلها اليوم، والتي منها يقوم في أوهام الواهمين أنه لا مفر من أن يختار الناس الدنيا أو يختاروا الآخرة، ولا يجمعوا بينهما في تصور أو في واقع.. لأنهما لا تجتمعان..! إن هذا الفصام النكد بين طريق الدنيا وطريق الآخرة في حياة الناس، وبين العمل للدنيا والعمل للآخرة، وبين العبادة الروحية والإبداع المادي، وبين النجاح في الحياة الدنيا، والنجاح في الحياة الأخرى.. إن هذا الفصام النكد ليس ضريبة مفروضة على البشرية بحكم من أحكام القدر الحتمية! إنما هو ضريبة بائسة فرضتها البشرية على نفسها وهي تشرد عن منهج الله، وتتخذ لنفسها مناهج أخرى من عند أنفسها، معادية لمنهج الله في الأساس والاتجاه..

١٧. وهي ضريبة يؤديها الناس من دمائهم وأعصابهم في الحياة الدنيا، فوق ما يؤدونه منها في الآخرة وهو أشد وأنكى.. إنهم يؤدونها قلقا وحيرة وشقاء قلب وبلبلة خاطر، من جراء خواء قلوبهم من طمأنينة الإيمان وبشاشته وزاده وريه، إذا هم آثروا اطراح الدين كله، على زعم أن هذا هو الطريق الوحيد للعمل والإنتاج والعلم والتجربة، والنجاح الفردي والجماعي في المعترك العالمي! ذلك أنهم في هذه الحالة يصارعون فطرتهم، يصارعون الجوعة الفطرية إلى عقيدة تملأ القلب، ولا تطيق الفراغ والخواء، وهي جوعة لا تملؤها مذاهب اجتماعية، أو فلسفية، أو فنية.. على الإطلاق.. لأنها جوعة النزعة إلى إله..

١٨. وهم يؤدونها كذلك قلقا وحيرة وشقاء قلب وبلبلة خاطر، إذا هم حاولوا الاحتفاظ بعقيدة في الله، وحاولوا معها مزاولة الحياة في هذا المجتمع العالمي الذي يقوم نظامه كله وتقوم أوضاعه وتقوم تصوراته، وتقوم وسائل الكسب فيه ووسائل النجاح على غير منهج الله، وتتصادم فيه العقيدة الدينية والخلق الديني، والسلوك الديني، مع الأوضاع والقوانين والقيم والموازين السائدة في هذا المجتمع المنكود.

١٩. وتعاني البشرية كلها ذلك الشقاء، سواء اتبعت المذاهب المادية الإلحادية، أو المذاهب المادية التي تحاول استبقاء الدين عقيدة بعيدة عن نظام الحياة العملية.. وتتصور ـ أو يصور لها أعداء البشرية ـ أن الدين لله، وأن الحياة للناس! وأن الدين عقيدة وشعور وعبادة وخلق، والحياة نظام وقانون وإنتاج وعمل! وتؤدي البشرية هذه الضريبة الفادحة.. ضريبة الشقاء والقلق والحيرة والخواء.. لأنها لا تهتدي إلى منهج الله الذي لا يفصل بين الدنيا والآخرة بل يجمع؛ ولا يقيم التناقض والتعارض بين الرخاء في الدنيا والرخاء

في الآخرة، بل ينسق..

٢٠. ولا يجوز أن تخدعنا ظواهر كاذبة، في فترة موقوتة، إذ نرى أمما لا تؤمن ولا تتقي، ولا تقيم منهج الله في حياتها، وهي موفورة الخيرات، كثيرة الإنتاج عظيمة الرخاء.. إنه رخاء موقوت، حتى تفعل السنن الثابتة فعلها الثابت، وحتى تظهر كل آثار الفصام النكد بين الإبداع المادي والمنهج الرباني.. والآن تظهر بعض هذه الآثار في صور شتى:

أ. تظهر في سوء التوزيع في هذه الأمم، مما يجعل المجتمع حافلا بالشقاء، وحافلا بالأحقاد، وحافلا بالمخاوف من الانقلابات المتوقعة نتيجة هذه الأحقاد الكظيمة.. وهو بلاء على رغم الرخاء!..

ب. وتظهر في الكبت والقمع والخوف في الأمم التي أرادت أن تضمن نوعا من عدالة التوزيع واتخذت طريق التحطيم والقمع والإرهاب ونشر الخوف والذعر، لإقرار الإجراءات التي تأخذ بها لإعادة التوزيع.. وهو بلاء لا يأمن الإنسان فيه على نفسه ولا يطمئن ولا يبيت ليلة في سلام! وتظهر في الانحلال النفسي والخلقي الذي يؤدي بدوره ـ إن عاجلا أو آجلا ـ إلى تدمير الحياة المادية ذاتها.

ج. فالعمل والإنتاج والتوزيع، كلها في حاجة إلى ضمانة الأخلاق، والقانون الأرضي وحده عاجز كل العجز عن تقديم الضمانات لسير العمل كما نرى في كل مكان! وتظهر في القلق العصبي والأمراض المنوعة التي تجتاح أمم العالم ـ وبخاصة أشدها رخاء ماديا ـ مما يهبط بمستوى الذكاء والاحتمال، ويهبط بعد ذلك بمستوى العمل والإنتاج، وينتهي إلى تدمير الاقتصاد المادي والرخاء! وهذه الدلائل اليوم واضحة وضوحا كافيا يلفت الأنظار! وتظهر في الخوف الذي تعيش فيه البشرية كلها من الدمار العالمي المتوقع في كل لحظة؛ في هذا العالم المضطرب؛ الذي تحوم حوله نذر الحرب المدمرة.. وهو خوف يضغط على أعصاب الناس من حيث يشعرون أو لا يشعرون؛ فيصيبهم بشتى الأمراض العصبية.. ولم ينتشر الموت بالسكتة وانفجار المخ والانتحار كما انتشر في أمم الرخاء! وتظهر هذه الآثار كلها بصورة متقدمة واضحة في ميل بعض الشعوب إلى الاندثار والدمار ـ وأظهر الأمثلة الحاضرة تتجلى في الشعب الفرنسي ـ وليس هذا إلا مثلا للآخرين، في فعل الافتراق بين النشاط المادي والمنهج الرباني؛ وافتراق الدنيا والآخرة، وافتراق الدين والحياة؛ أو اتخاذ منهج للآخرة من عند الله، واتخاذ منهج للدنيا من عند الناس؛ وإيقاع هذا الفصام النكد بين منهج الله وحياة الناس!

٢١. وقبل أن ننهي هذا التعليق على التقرير القرآني لتلك الحقيقة الكبيرة، نحب أن نؤكد أهمية التناسق في منهج الله بين الإيمان والتقوى وإقامة المنهج في الحياة الواقعية للناس، وبين العمل والإنتاج والنهوض بالخلافة في الأرض؛ فهذا التناسق هو الذي يحقق شرط الله لأهل الكتاب ـ ولكل جماعة من الناس ـ أن يأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم في الدنيا، وأن تكفر عنهم سيئاتهم ويدخلوا جنات النعيم في الآخرة؛ وأن يجتمع لهم الفردوس الأرضي ـ بالوفرة والكفاية مع السلام والطمأنينة ـ وفردوس الآخرة بما فيه من نعيم ورضوان.. ولكننا مع هذا التوكيد لا نحب أن ننسى أن القاعدة الأولى: والركيزة الأساسية هي الإيمان والتقوى وتحقيق المنهج الرباني في الحياة الواقعية.. فهذا يتضمن في ثناياه العمل والإنتاج والترقية والتطوير للحياة.. فضلا على أن للصلة بالله مذاقها الذي يغير كل طعوم الحياة؛ ويرفع كل قيم الحياة؛ ويقوّم كل موازين الحياة.. فهذا هو الأصل في التصور الإسلامي وفي المنهج الإسلامي، وكل شيء فيه يجيء تبعا له، ومنبثقا منه ومعتمدا عليه.. ثم يتم تمام الأمر كله في الدنيا والآخرة في تناسق واتساق.

٢٢. وينبغي أن نذكر أن الإيمان والتقوى والعبادة والصلة بالله وإقامة شريعة الله في الحياة.. كل أولئك ثمرته للإنسان، وللحياة الإنسانية، فالله سبحانه غني عن العالمين.. وإذا شدد المنهج الإسلامي في هذه الأسس، وجعلها مناط العمل والنشاط؛ ورد كل عمل وكل نشاط لا يقوم عليها، وعده باطلا لا يقبل، وحابطا لا يعيش، وذاهبا مع الريح.. فليس هذا لأن الله سبحانه يناله شيء من إيمان العباد وتقواهم وعبادتهم له وتحقيق منهجه للحياة.. ولكن لأنه سبحانه يعلم أن لا صلاح لهم ولا فلاح إلا بهذا المنهاج..

٢٣. في الحديث القدسي: عن أبي ذر عن النبي ﷺ فيما روى عن ربه ـ تبارك وتعالى ـ أنه قال: (يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي، وجعلته بينكم محرما، فلا تظالموا.. يا عبادي كلكم ضال إلا من هديته، فاستهدوني أهدكم.. يا عبادي، كلكم جائع إلا من أطعمته، فاستطعموني أطعمكم.. يا عبادي، كلكم عار إلا من كسوته، فاستكسوني أكسكم.. يا عبادي، إنكم تخطئون بالليل والنهار، وأنا أغفر الذنوب جميعا، فاستغفروني أغفر لكم.. يا عبادي، إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني، ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني.. يا عبادي، لو أن أولكم وآخركم، وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم، ما زاد ذلك في ملكي شيئا.. يا عبادي، لو أن أولكم وآخركم، وإنسكم وجنكم، كانوا على أفجر قلب رجل واحد، ما نقص ذلك من ملكي شيئا.. يا عبادي لو أن أولكم وآخركم، وإنسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد

فسألوني، فأعطيت كل إنسان مسألته، ما نقص ذلك مما عندي، إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر.. يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم، ثم أوفيكم إياها، فمن وجد خيرا فليحمد الله؛ ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه).. (رواه مسلم) وعلى هذا الأساس ينبغي أن ندرك وظيفة الإيمان والتقوى والعبادة وإقامة منهج الله في الحياة والحكم بشريعة الله.. فهي كلها لحسابنا نحن.. لحساب هذه البشرية.. في الدنيا والآخرة جميعا.. وهي كلها ضروريات لصلاح هذه البشرية في الدنيا والآخرة جميعا..

٢٤. ونحسب أننا لسنا في حاجة لأن نقول: إن هذا الشرط الإلهي لأهل الكتاب غير خاص بأهل الكتاب، فالشرط لأهل الكتاب يتضمن الإيمان والتقوى وإقامة منهج الله المتمثل في ما أنزل إليهم في التوراة والإنجيل، وما أنزل إليهم من ربهم ـ وذلك بطبيعة الحال قبل البعثة الأخيرة ـ فأولى بالشرط الذين أنزل إليهم القرآن.. أولى بالشرط الذين يقولون: إنهم مسلمون.. فهؤلاء هم الذين يتضمن دينهم بالنص: الإيمان بما أنزل إليهم وما أنزل من قبل، والعمل بكل ما أنزل إليهم وما استبقاه الله في شرعهم من شرع من قبلهم.. وهم أصحاب الدين الذي لا يقبل الله غيره من أحد.. وقد انتهى إليه كل دين قبله؛ ولم يعد هناك دين يقبله الله غيره.. أو يقبل من أحد غيره، فهؤلاء أولى أن يكون شرط الله وعهده لهم.. وهؤلاء أولى أن يرتضوا ما ارتضاه الله منهم، وأن يستمتعوا بما يشرطه الله لهم من تكفير السيئات ودخول الجنة في الآخرة؛ ومن الأكل من فوقهم ومن تحت أرجلهم في الدنيا.. إنهم أولى أن يستمتعوا بما يشرطه الله لهم بدلا من الجوع والمرض والخوف والشظف الذي يعيشون فيه في كل أرجاء الوطن الإسلامي ـ أو الذي كان إسلاميا بتعبير أصح ـ وشرط الله قائم؛ والطريق إليه معروف.. لو كانوا يعقلون.

الخطيب:

ذكر عبد الكريم الخطيب (ت ١٣٩٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[1]:

١. العقوبات التي أخذ الله سبحانه وتعالى بها بنى إسرائيل لم تكن إلا جزاء لما كسبت أيديهم من سوء، وما اكتسبت ألسنتهم من إثم.. وإلا فهم خلق من خلق الله، وعباد من عبيده، لم يخصّهم بهذه اللعنات التي مسخت وجودهم وغيّرت خلقهم، إلا لما كان منهم من محادّة الله ورسله، ومكر بآياته وكتبه،

---

(١) التفسير القرآني للقرآن: ٣/١١٣٥.

ولو أنهم آمنوا كما آمن المؤمنون، واتقوا الله كما اتقى المتقون، لكفّر الله عنهم سيئاتهم، ولمسّهم برحمته، وأفاض عليهم من رضوانه، ولسلك بهم مسالك الحق والهدى.. ثم كان جزاؤهم في الآخرة أن ينعموا بجناته التي أعدّها للمؤمنين المتقين من عباده، فهذا مشهد يراه ﴿الْيَهُودُ﴾ وكان من حقهم ـ لو عملوا له ـ أن ينالوه ويسعدوا به.. ولكنهم ـ وقد نكصوا على أعقابهم ـ لن ينالوه أبدا، ولن يأخذوا نصيبهم منه أبدا.

٢. ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أنزل إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ ـ هو إشارة إلى ما بين أيديهم من خير ضيّعوه، وما معهم من نور أطفئوه! فهذه التوراة.. يقول الله فيها.. ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ﴾ [المائدة: ٤٤] وهذا الإنجيل.. يقول الله فيه.. ﴿وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ﴾ [المائدة: ٤٦]، وهذا القرآن.. يقول الله فيه.. ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢]، هذه الكتب المنزلة من عند الله، تحمل الهدى والنور.. هي بين يدى أهل الكتاب ـ وخاصة اليهود ـ فلو أنهم أقاموا هذه الكتب على وجهها وأخذوا عنها بعض ما فيها، واستقاموا على أمرها ونهيها، لاستقام طريقهم في الحياة، ولملأ الله قلوبهم غنى ورضى، ولوجدوا فيما أنزل الله من رزق، هو خير كثير، يسع الناس جميعا، ويسعد به الناس جميعا، ولكنّهم كفروا بآيات الله، واتبعوا أهواءهم، وجروا على ما تمليه عليهم أنفسهم من حقد وحسد، وشره، وتكالب على المال.. فكان الجري اللاهث في الحياة نصيبهم، وكان الجوع النفسي، والجدب الوجداني، خاتمة مطافهم وسعيهم.

٣. إنهم لم يتوكّلوا على الله، ولم يعطوه أيديهم ليقودهم إلى الخير، ولو فعلوا لكفل لهم رزقا حسنا، وحياة طيبة، كما يقول الرسول الكريم: (لو توكلتم على الله حق التوكل لرزقكم كما يرزق الطير، تغدو خمصا (أي جياعا) وتروح بطانا (أي شبعى))

٤. ﴿مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾، الأمة: الجماعة، والاقتصاد: هو المتوسط في الأمر، وعدم المبالغة في مجاوزة حدوده.. والمعنى، أن من هؤلاء اليهود جماعة مقتصدة، أي معتدلة في زيغها وانحرافها، لم تبالغ في الزيغ والانحراف، ولم تبعد كثيرا عن طريق الحق.. أما كثرتهم ففي ضلال مبين، وكفر غليظ.

ابن عاشور:

ذكر محمد الطاهر بن عاشور (ت ١٣٩٣ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ عقّب نهيهم وذمّهم بدعوتهم للخير بطريقة التّعريض إذ جاء بحرف الامتناع فقال: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا﴾، والمراد اليهود، والمراد بقوله: ﴿آمَنُوا﴾ الإيمان بمحمّد ﷺ، وفي الحديث: (اثنان يؤتون أجرهم مرّتين: رجل من أهل الكتاب آمن بنبيّه ثمّ آمن بي (أي عندما بلغته الدّعوة المحمّديّة) فله أجران، ورجل كانت له جارية فأدّبها فأحسن تأديبها وعلّمها ثمّ أعتقها فتزوّجها فله أجران.

١. واللام في قوله: ﴿لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ﴾ ـ وقوله ـ ﴿وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ﴾ لام تأكيد يكثر وقوعها في جواب (لو) إذا كان فعلا ماضيا مثبتا لتأكيد تحقيق التلازم بين شرط (لو) وجوابها، ويكثر أن يجرّد جواب ـ لو ـ عن اللام، كما سيأتي عند قوله تعالى: ﴿لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا﴾ في سورة الواقعة [٧٠]

٢. ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾، إقامة الشيء جعله قائما، كما تقدّم في أول سورة البقرة، واستعيرت الإقامة لعدم الإضاعة لأنّ الشيء المضاع يكون ملقى، ولذلك يقال له: شيء لقى، ولأنّ الإنسان يكون في حال قيامه أقدر على الأشياء، فلذا قالوا: قامت السوق:

أ. فيجوز أن يكون معنى إقامة التّوراة والإنجيل إقامة تشريعها قبل الإسلام، أي لو أطاعوا أوامر الله وعملوا بها سلموا من غضبه فلأغدق عليهم نعمه، فاليهود آمنوا بالتّوراة ولم يقيموا أحكامها كما تقدّم آنفا، وكفروا بالإنجيل ورفضوه، وذلك أشدّ في عدم إقامته، وبالقرآن، وقد أومأت الآية إلى أنّ سبب ضيق معاش اليهود هو من غضب الله تعالى عليهم لإضاعتهم التّوراة وكفرهم بالإنجيل وبالقرآن، أي فتحتّمت عليهم النقمة بعد نزول القرآن.

ب. ويحتمل أن يكون المراد: لو أقاموا هذه الكتب بعد مجيء الإسلام، أي بالاعتراف بما في التّوراة والإنجيل من التبشير ببعثة محمّد ﷺ حتّى يؤمنوا به وبما جاء به، فتكون الآية إشارة إلى ضيق معاشهم بعد هجرة الرسول إلى المدينة، ويؤيّده ما روي في سبب نزول قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللهِ مَغْلُولَةٌ﴾

---

(١) التحرير والتنوير: ١٤٩/٥.

[المائدة: ٦٤] كما تقدّم.

٣. ومعنى ﴿لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ تعميم جهات الرزق، أي لرزقوا من كلّ سبيل، فأكلوا بمعنى رزقوا، كقوله: ﴿وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَمًّا﴾ [الفجر: ١٩]، وقيل: المراد بالمأكول من فوق ثمار الشجر، ومن تحت الحبوب والمقاثي، فيكون الأكل على حقيقته، أي لاستمرّ الخصب فيهم، وفي معنى هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ في سورة الأعراف [٩٦]، واللام في قوله: ﴿لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ﴾ مثل اللام في الآية قبلها.

٤. ﴿مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾، إنصاف لفريق منهم بعد أن جرت تلك المذامّ على أكثرهم، والمقصد يطلق على المطيع، أي غير مسرف بارتكاب الذنوب، واقف عند حدود كتابهم، لأنّه يقتصد في سرف نفسه، ودليل ذلك مقابلته بقوله في الشقّ الآخر: ﴿سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾، وقد علم من اصطلاح القرآن التعبير بالإسراف عن الاسترسال في الذنوب، قال تعالى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ﴾ [الزمر: ٥٣]، ولذلك يقابل بالاقتصاد، أي الحذر من الذنوب.

٥. واختير المقتصد لأنّ المطيعين منهم قبل الإسلام كانوا غير بالغين غاية الطاعة، كقوله تعالى: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللهِ﴾ [فاطر: ٣٢]، فالمراد هنا تقسيم أهل الكتاب قبل الإسلام لأنّهم بعد الإسلام قسمان سيّئ العمل، وهو من لم يسلم؛ وسابق في الخيرات، وهم الّذين أسلموا مثل عبد الله بن سلام ومخيريق، وقيل: المراد بالمقتصد غير المفرطين في بغض المسلمين، وهم الّذين لا آمنوا معهم ولا آذوهم، وضدّهم هم المسيئون بأعمالهم للمسلمين مثل كعب بن الأشرف، فالأوّلون بغضهم قلبي، والآخرون بغضهم بالقلب والعمل السيّئ، ويطلق المقتصد على المعتدل في الأمر، لأنّه مشتقّ من القصد، وهو الاعتدال وعدم الإفراط، والمعنى مقتصدة في المخالفة والتنكّر للمسلمين المأخوذ من قوله: ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾ [المائدة: ٦٨]

٦. والأظهر أن يكون قوله: ﴿سَاءَ﴾ فعلا بمعنى كان سيّئا، و﴿مَا يَعْمَلُونَ﴾ فاعله، كما قدّره ابن عطية، وجعله في (الكشاف) بمعنى بئس، فقدّر قولا محذوفا ليصحّ الإخبار به عن قوله: ﴿وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ﴾، بناء على التزام عدم صحّة عطف الإنشاء على الإخبار، وهو محلّ جدال، ويكون ﴿مَا يَعْمَلُونَ﴾ مخصوصا

بالذمّ، والّذي دعاه إلى ذلك أنّه رأى حمله على معنى إنشاء الذمّ أبلغ في ذمّهم، أي يقول فيهم ذلك كل قائل.

أبو زهرة:

ذكر محمد أبو زهرة (ت ١٣٩٤ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ كان الحديث من قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [المائدة]، في شأن أهل الكتاب ومن يتخذهم أولياء دون اليهود، ثم ذكر سبحانه وتعالى أحوال اليهود الذين كان بعض أهل الكتاب والمسلمين يواليهم فعلا ويستنصر بهم، وبينت أحوالهم لكى يبتعد المؤمنون عنهم، وفى هذا النص الكريم يبين سبحانه أن باب الإيمان مفتوح غير مغلق، فمن دخله كفّر عن نفسه سيئاته، فكفرها الله عنه، ومعناه: لو أن أهل الكتاب آمنوا بالله وحده، وصدقوا رسوله الذى بعث رحمة للعالمين، وجعلوا بينهم وبين الباطل وقاية وخافوا عقاب الله تعالى ورجوا ثوابه، وتوقعوا حسابه، وامتلأت قلوبهم بخشية الله تعالى، لو فعلوا ذلك لكفّر تعالى عنهم سيئاتهم أي لسترها، ولرفعها عنهم؛ لأن الحسنات يذهبن السيئات، ولأن الله غفور رحيم يقبل التوبة من عباده، وأنه لا تذهب السيئات عنهم فقط، بل إنه سبحانه يثيبهم في الآخرة، فيدخلهم جنات النعيم، فيدخلهم يوم القيامة الجنات التي تكون محل النعيم، وهذا جزاؤهم في الآخرة، أما الدنيا فقد قال فيه سبحانه: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ﴾

٢. ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ﴾ الضمير يعود إلى أهل الكتاب، وهم اليهود والنصارى، وقد عبر عنهم في الاسم الظاهر بأهل الكتاب للإشارة إلى أن لهم فضل علم يهديهم إلى الحق إن أخلصوا، وطلبوه صفوا غير مكدر بشيء من الأهواء والأحقاد وحسد الناس على ما آتاهم الله تعالى من فضله لو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل بإدراك ما فيهما من غير عوج في التفكير وتنفيذ ما اشتملا عليه من أوامر ونواه، ولم يحرفوا فيهما الكلم عن مواضعه، وأقاموا ما أنزل إليهم

---

(١) زهرة التفاسير: ٥/٢٢٨٤.

من ربهم، وهو القرآن الكريم لو فعلوا ذلك وقاموا بها خوطبوا به حق القيام لأتاهم الرزق من كل ناحية من السماء ومن الأرض، وقيل المراد برزق السماء ما يفيض من غيث وما في الأرض هو الزروع والثمار مما تخرجه الأرض، وما يستنبط من معادن وفلزات، وإن خير الأقوال أن يقال: إن المراد أن بسطه بالرزق يأتيهم من كل ما يحيط بهم، ويعمهم الخير، كما يعبر عن شدة العذاب بأنه يأتيهم من فوقهم ومن أسفل منهم، كما قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ﴾ [الأنعام] وفى النص الكريم بضع إشارات:

أ. أولها: التعبير عن القرآن بـ ﴿وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ ففيه إشارة إلى أنهم مخاطبون به، وأنه منزل إليهم مع غيرهم، وليسوا خارجين عن التكليف الذى دعا إليه.

ب. الثانية: أن ما جاء في التوراة والإنجيل حقا هو من عند الله تعالى، وأن القرآن مصدق لما جاء قبله.

ج. الثالثة: أن إقامة الشرع تأتى بالرزق الرغيد لمن أخذ بالأسباب واعتمد على الله تعالى حق الاعتماد، ويجب أن يعلم أن الرزق الحسن لا يتنافى مع مجهود الابتلاء.

٣. ﴿مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾ وإن هذا النص الكريم يشير إلى أنه لا يخلو جنس من خير فهؤلاء الكتابيون الذى كان فيهم اليهود لا يخلون من خير قد يدفعهم إلى الهداية وسلوك الحق المستقيم، فهؤلاء الكتابيون منهم أمة مقتصدة، والأمة: الجماعة من الناس الذين يجمعهم دين أو فكر أو مكان أو جنس أو نحو ذلك، ويقول الخليل بن أحمد: وكل شيء ضم إليه سائر ما يليه يسمى أمة، والاقتصاد من القصد، وهو استقامة الطريق، فالاقتصاد طلب الطريق المستقيم الذى يوصل إلى الهداية والحق، والمعنى على هذا: منهم جماعة مستقيمة الإدراك تدرك الحق وتذعن إليه، وهي قليلة فيهم، وليست كثيرة، وإن هؤلاء لاستقامة طريقهم وحسن إدراكهم يصلون إلى الحق، ويؤمنون ويتقون، وبجوار هؤلاء كثير منهم تسوء أعمالهم، ويكون من حالهم ما يثير العجب من عظم ما فيها من سوء، فإن كلمة ساء تدل على التعجب من كثرة سوئهم، اللهم اهدنا إلى الحق واجعلنا من أهّل القصد والإيمان.

مُغْنِيَّة:

ذكر محمد جواد مُغْنِيَّة (ت ١٤٠٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[1]:

١. ﴿وَلَوْ أَنَّ أهل الْكِتَابِ آمنوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾، هذه دعوة من الله سبحانه لليهود والنصارى أن يتوبوا ويدخلوا في الإسلام، وإن استجابوا لدعوته صفح عن جميع ذنوبهم، وإن عظمت، لأن الإسلام يجبّ ما قبله، كما جاء في الحديث، وان اتقوا بعد إسلامهم أدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار.

٢. ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أنزل إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾، إقامة التوراة والإنجيل العمل بهما، والمراد بما أنزل اليهم التعاليم التي كانوا يسمعونها من الأنبياء، وهي المعروفة عند المسلمين بالأحاديث النبوية، ومن فوقهم ومن تحت أرجلهم كناية عن السعة في الرزق، تماما كما تقول: فلان غارق في النعم من قرنه إلى قدمه، وفي معنى هذه الآية آيات كثيرة، منها الآية ٩٥ من الاعراف: ﴿وَلَوْ أَنَّ أهل الْقُرَى آمنوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾، والآية ١٢ الرعد: ﴿إِنَّ اللهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾، والآية ٤١ الروم: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ﴾، والآية ٣٠ الشورى: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾، وترشدنا هذه الآيات إلى أمرين:

أ. أن ظهور الفساد، ومنه الفقر والمرض والجهل، إنما هو من حكم الأرض، لا من حكم السماء، ومن أيدي الناس الذين أماتوا الحق، وأحيوا الباطل، لا من قضاء الله وقدره، وان أية جماعة عرفوا الحق، وعملوا به عاشوا في سعادة وهناء.

ب. أن التعبير في الآيات الكريمة بقوم وبالناس يدل على أن الشقاء يستند إلى فساد الأوضاع، وأن مجرد صلاح فرد من الأفراد لا يجدي شيئا ما دام بين قوم فاسدين، بل يجر صلاحه عليه البلاء والشقاء، قال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾ [الأنفال: ٢٥]، أي ان الآثار السيئة لمجتمع سيء تعم جميع أفراده الصالح والطالح.. وليس من شك أن الشعب الكسول الخانع الخاضع للعسف والجور لا بد أن يعيش أفراده في الذل والهوان، وعلى هذا يكون المراد بالإيمان الموجب للرزق هو الإيمان

(١) التفسير الكاشف: ٣/٩٦.

بالله مع العمل بجميع أحكامه ومبادئه، لا إقامة الصلاة فقط، بل وأداء الزكاة، وجهاد المستقلين والمحتكرين، وإقامة العدل في كل شيء وليس من شك ان العدل متى عم وساد صلحت الأوضاع، وذهب الفقر والشقاء، وهذا ما يهدف إليه القرآن.

٣. لقد كشف الإسلام عن الصلة الوثيقة بين فساد الأوضاع، وبين التخلف وآلام الإنسانية بشتى أنواعها، وسبق إلى معرفة هذه الحقيقة كل عالم من علماء الاجتماع، وكل قائد من قادة الاشتراكية والديمقراطية وغيرها.. وإذا كان لدى هؤلاء شيء يذكر فعن الإسلام أخذوا، ومنه اقتبسوا.. ولكن ما الحيلة فيمن ينفر من كل ما يمت إلى الدين بسبب، لا لشيء إلا لأن اسمه دين.

٤. ﴿مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾، الضمير في منهم يعود إلى أهل الكتاب المذكورين في الآية صراحة، وهم اليهود والنصارى، والمراد بالأمة الجماعة، ومعنى مقتصدة معتدلة، والذين أطلق الله عليهم وصف الاعتدال هم من اعتنق الإسلام من اليهود والنصارى بعد أن ظهرت لهم دلائل الحق، وبينات الصدق، وقد ذكر أهل التاريخ والسير أسماء كثيرة لمن أسلم من أهل الكتاب، أما الذين أصروا على الكفر بعد أن استبان لهم الحق فهم المقصودون بقوله تعالى: ﴿وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾

الطباطبائي:

ذكر محمد حسين الطباطبائي (ت ١٤٠٢ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[1]:

١. ﴿وَلَوْ أَنَّ أهل الْكِتَابِ آمنوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ عود إلى حال أهل الكتاب عامة كما كان بدأ الكلام فيهم عامة، وختم الكلام بتخليص القول في ما فاتهم من نعمة السعادة في الآخرة والدنيا، وهي جنة النعيم ونعمة الحياة السعيدة.

٢. والمراد بالتقوى بعد الإيمان التورع عن محارم الله واتقاء الذنوب التي تحتم السخط الإلهي وعذاب النار، وهي الشرك بالله وسائر الكبائر الموبقة التي أوعد الله عليها النار، فيكون المراد بالسيئات التي وعد الله سبحانه تكفيرها الصغائر من الذنوب، وينطبق على قوله سبحانه: ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ

(١) الميزان في تفسير القرآن: ٦/٣٨.

عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا﴾ [النساء: ٣١]

٣. ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أنزل إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ المراد بالتوراة والإنجيل الكتابان السماويان اللذان يذكر القرآن أن الله أنزلهما على موسى وعيسى عليه السلام دون ما بأيدي القوم من الكتب التي يذكر أنه لعبت بها يد التحريف، والظاهر أن المراد بما أنزل إليهم من ربهم سائر الكتب المنسوبة إلى الأنبياء الموجودة عندهم كمزامير داوود الذي يسميه القرآن بالزبور، وغيره من الكتب.

٤. وأما احتمال أن يكون المراد به القرآن فيبعده أن القرآن نسخ بأحكامه شرائع التوراة والإنجيل فلا وجه لعدهما معه وتمني أن يكونوا أقاموهما مع القرآن الناسخ لهما، والقول بأن العمل بالقرآن عمل بهما أيضا، كما أن العمل بالأحكام الناسخة في الإسلام عمل بمجموع شرائع الإسلام المتضمنة للناسخ والمنسوخ جميعا لكون دين الله واحدا لا يزاحم بعضه بعضا، غاية الأمر أن بعض الأحكام مؤجلة موقوتة من غير تناقض يدفعه أن الله سبحانه عبر عن هذا العمل بالإقامة وهي حفظ الشيء على ساق، ولا يلائم ذلك الأحكام المنسوخة بما هي منسوخة، فإقامة التوراة والإنجيل إنما يصح حين كانت الشريعتان لم تنسخا بشريعة أخرى، والإنجيل لم ينسخ شريعة التوراة إلا في أمور يسيرة.

٥. على أن قوله تعالى: ﴿وَمَا أنزل إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ يعدهم منزلا إليهم، وغير معهود من كلامه تعالى أن يذكر أن القرآن نزل إليهم، فالظاهر أن المراد بما أنزل إليهم من ربهم بعد التوراة والإنجيل سائر الكتب وأقسام الوحي المنزلة على أنبياء بني إسرائيل كزبور داوود وغيره، والمراد بإقامة هذه الكتب حفظ العمل العام بما فيها من شرائع الله تعالى، والاعتقاد بما بين الله تعالى فيها من معارف المبدأ والمعاد من غير أن يضرب عليها بحجب التحريف والكتمان والترك الصريح، فلو أقاموها هذه الإقامة لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم.

٦. وأما قوله تعالى: ﴿لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ فالمراد بالأكل التنعم مطلقا سواء كان بالأكل كما في مورد الأغذية أو بغيره كما في غيره، واستعمال الأكل في مطلق التصرف والتنعم من غير مزاحم شائع في اللغة.

٧. والمراد من فوقهم هو السماء، ومن تحت أرجلهم هو الأرض، فالجملة كناية عن تنعمهم بنعم

السماء والأرض وإحاطة بركاتها عليهم نظير ما وقع في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أهل الْقُرَى آمنوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف: ٩٦]

٨. والآية من الدليل على أن لإيمان هذا النوع أعني نوع الإنسان وأعماله الصالحة تأثيرا في صلاح النظام الكوني من حيث ارتباطه بالنوع الإنساني فلو صلح هذا النوع صلح نظام الدنيا من حيث إيفائه باللازم لحياة الإنسان السعيدة من اندفاع النقم ووفور النعم.

٩. ويدل على ذلك آيات أخرى كثيرة في القرآن بإطلاق لفظها كقوله تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ﴾ [الروم: ٤٢] وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [الشورى: ٣٠] إلى غير ذلك وقد تقدم بعض ما يتعلق به من الكلام في البحث عن أحكام الأعمال.

١٠. ﴿مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾ الاقتصاد أخذ القصد وهو التوسط في الأمور فالأمة المقتصدة هي المعتدلة في أمر الدين والتسليم لأمر الله، والكلام مستأنف أريد به بيان حال جميع ما نسب إليهم من التعدي عن حدود الله والكفر بآيات الله ونزول السخط واللعن على جماعتهم أن ذلك كله إنما تلبس به أكثرهم وهو المصحح لنسبة هذه الفظائع إليهم وأن منهم أمة معتدلة ليست على هذا النعت وهذا من نصفة الكلام الإلهي حيث لا يضيع حقا من الحقوق ويراقب إحياء أمر الحق وإن كان قليلا.

١١. وقد تعرض لذلك أيضا في مطاوي الآيات السابقة لكن لا بهذه المثابة من التصريح كقوله: ﴿وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ﴾، وقوله: ﴿وَتَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يُسَارِعُونَ﴾ وقوله: ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أنزل إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾

الحوثي:

ذكر بدر الدّين الحوثي (ت ١٤٣١ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[1]:

---

(١) التيسير في التفسير: ٢/٣٤٢.

١. ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ ﴿آمَنُوا﴾ بالله ورسله وكتبه واليوم الآخر ﴿وَاتَّقُوا﴾ الله بطاعته ﴿لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ﴾ ما مضى من ﴿سَيِّئَاتِهِمْ﴾ بالتغطية لها، كأن لم تكن ﴿وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ مثل كل مؤمن تقي.

٢. ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ من كتب الله التي منها القرآن في عهد محمد ﷺ، وإقامتُها: إحياؤها والعمل بما فيها، فتركها ونسيانها إضاعة وإهمال ضد الإقامة.

٣. ﴿لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ بنزول بركات السماء وظهور بركات الأرض، كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأعراف:٩٦] لكنهم لم يقيموا (التوراة) و(الإنجيل) وما أنزل إليهم فعوقبوا بنقص البركات وقلة الأرزاق، حتى قالوا: ﴿يَدُ الله مَغْلُولَةٌ﴾ والسبب من عند أنفسهم فما كان ينبغي لهم إلا أن يلوموا أنفسهم ويرجعوا إلى ربهم لا أن يزدادوا كفراً إلى كفرهم.

٤. ﴿مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾ ﴿مِنْهُمْ أُمَّةٌ﴾ دفع لإيهام أنهم كلهم لم يؤمنوا ولم يقيموا (التوراة) قال تعالى: ﴿وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ [الأعراف:١٥٩]، وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِالله وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ﴾ الآية [آل عمران:١٩٩]

٥. ﴿سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾ ما أسوء أعمالهم التي يعملونها مستمرين على أعمال السوء، وقد مر تفصيل بعض أعمالهم السيئة قريباً، وفي (سورة البقرة) تفصيل كامل يدل على سوء أعمالهم، وكذلك مرَّ قولهم: ﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ وفي (سورة النساء) كلام كثير في جرائم اليهود، ويأتي في هذه السورة في جرائم النصارى.

فضل الله:

ذكر محمد حسين فضل الله (ت ١٤٣١ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ فليست هناك عقدة ضدّ أهل الكتاب، لأنّ ذلك ليس معقولا فيما يتعلّق بعلاقة الله بخلقه في ثوابه وعقابه، فليس

---

(١) من وحي القرآن: ٨/٢٥٧.

له مصلحة في طاعة من أطاعه، على مستوى الذات، وليس عليه خسارة في معصية من عصاه، بل كل ما هناك هو حكمة الله ورحمته بما يصلح أمرهم، ويسهل لهم حياتهم، وليس أهل الكتاب بدعا من النّاس الّذين يعصون الله، ولن يكونوا بدعا من النّاس الّذين يتوبون إلى الله عندما يتوبون، بل هم بشر ممن خلق، فإذا تابوا وأصلحوا وأنابوا، فإنّ الله يتوب عليهم، ويكفّر عنهم سيئاتهم، ويدخلهم جنّات النعيم.

٢. وفي ضوء ذلك، يتبلور المفهوم الإسلامي في العلاقات السلبيّة الّتي يعيشها المسلم مع الآخرين الّذين يختلف معهم في الخط، فليست هناك عقدة ذاتية ضد الشخص أو الجماعة، بل هناك موقف ضد الخط الفكري والعملي، فإذا تغيّر الخط في الاتجاه الإيجابي، تغيّر الموقف في هذا الاتجاه من دون أن يخلّف الماضي عقدة لدى الحاضر أو المستقبل فيما كان يعيشه من تصرّفات سلبية متشنّجة.

٣. ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ لقد جاءت الرسالات الإلهيّة من أجل إقامة العدل على الأرض بين النّاس وإشاعة الرخاء والأمن والطمأنينة في الحياة من خلال ذلك، لأنّ العدل كلما امتد في الأرض، كلما تساقطت الامتيازات المصطنعة والأنانيات المعقدة، وتحولت الأوضاع من حالة تخلّف وضياع إلى حالة تقدم وانطلاق وامتداد في رحاب الله، وهكذا كانت رسالة التوراة والإنجيل في مفاهيمها العامّة الّتي لا تختلف مع حركة الرسالة الأخيرة، وهي الإسلام، وإن كانت تختلف معه في بعض التفاصيل، فهي سبيل رخاء فيما تستهدفه من بناء الشخصيّة الإنسانيّة على أساس متين، فلا مجال لأي انحراف أو اهتزاز وارتباك يحاول إفساد العلاقات، وبالتالي، إفساد الحياة العامة والخاصة للنّاس، وعلى ضوء هذا، جاءت الآية الّتي توحي إليهم بأنّ كل هذه المشاكل التي يتخبطون فيها، وما يلحق بهم من هزائم وفقر وقلق وارتباك وفساد، كانت ناشئة من عدم ارتباطهم العملي بالتوراة والإنجيل، وما أنزل إليهم من ربّهم من الكتب الأخرى، فلو أقاموها فيما بينهم ﴿لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ لأنّها سبيلان للخير والأمن والصلاح.

٤. سؤال وإشكال: قد يثير بعض المفسرين في هذا المجال مسألة هذا التأكيد القرآني على التوراة والإنجيل، مما يوحي بأنّهما يمثّلان الحقيقة في صورتها الحاليّة الموجودة عند اليهود والنصارى، وهذا مما يتنافى مع إشارة القرآن إلى وجود بعض التحريف فيهما من بعض الجهات، ولا يتوافق مع فكرة نسخ الشرائع الّتي يفرضها تعاقب الرسالات، والجواب: نجيب عن ذلك، بأنّ الآية تتحدث عن التوراة

والإنجيل بما يمثّلانه من حقيقة نازلة من السماء على موسى وعيسى عليه السّلام، وأمّا قضيّة النسخ، فإنّها لا تتناول المفاهيم العامة الّتي تعتبر المبادئ الأساسية الّتي تنزلت بها الرسالات فيما ترتكز عليه قضيّة الإيمان والحياة، بل تتناول التفاصيل والجزئيات الّتي تختلف حسب اختلاف الزمان والمكان، وهذا ما يؤكده الإنجيل الّذي جاء مصدقا لما بين يديه من التوراة، وما يؤكده القرآن الّذي جاء مصدقا لما بين يديه من التوراة والإنجيل، وهذا ما يوحيه الإيمان الإسلامي لأتباعه، بالإيمان بما أنزل إلى محمّد ﷺ وإلى النبيين عليه السّلام من قبله.

٥. ﴿مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾ وهذا توضيح من الله سبحانه وتعالى للحقيقة الواقعيّة الّتي كان عليها أمر اليهود، فلم يكن هؤلاء بأجمعهم فاسقين، ولكنّ الأكثرية منهم كانت كذلك، فهناك أمّة مقتصدة أي معتدلة في أمور الدين والحياة، لا تنحرف عن الخط، بل تظل منسجمة مع الاستقامة في العقيدة والعمل، ليأخذ كل واحد حقّه في الأحكام التقييمية السلبيّة والإيجابيّة.

٦. وربّما كان من الضروري لنا أن نستوحي من هذا التوضيح الإلهي الّذي استهدف وضع الأمور في نصابها الصحيح، وعدم إلحاق الأقل بالأعم الأغلب في الأحكام السلبية، كيف نصدر أحكامنا في الأمور العامّة على الجماعات أو المواقف والأحداث، فلا نستعمل التعميم في المجالات السلبية والإيجابيّة فنطلق الحكم بشكل عام، بل ينبغي لنا أن نعطي كل ذي حقّ حقّه، لئلا نظلم النّاس حقوقهم فيما ننسبه إليهم مما لا دخل لهم فيه من قريب أو من بعيد.

الشيرازي:

ذكر ناصر مكارم الشيرازي في تفسير هذا المقطع ما يلي[1]:

١. بعد أن وجهت الآيات السابقة النقد لنهج وأسلوب أهل الكتاب، جاءت هاتان الآيتان وفقا لما تقتضيه مبادئ التربية الإنسانية لتفتحا باب العودة والتوبة أمام المنحرفين من أهل الكتاب، لكي يعودوا إلى الطريق القويم، ولتريهم الدرب الحقيقي الذي يجب أن يسيروا فيه، ولتثمن دور تلك الأقلية من أهل الكتاب التي عاشت في ذلك العصر لكنّها لم تواكب الأكثرية في أخطائها، فتقول الآية الاولى في البدء:

(١) تفسير الأمثل: ٤/٧٩.

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾، بل ذهبت إلى أبعد من هذا فوعدتهم بالجنّة ونعيمها، إذ قالت: ﴿وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾، وهذه إشارة إلى النعم المعنوية الأخروية.

٢. ثمّ تشير الآية الثّانية إلى الأثر العميق الذي يتركه الإيمان والتقوى ـ في الحياة الدنيوية للإنسان، فتؤكّد أنّ أهل الكتاب لو طبقوا التّوراة والإنجيل وجعلوهما منهاجا لحياتهم وعملوا لكل ما نزل عليهم من ربّهم، سواء في الكتب السماوية السابقة أو في القرآن، دون تمييز أو تطرف لغمرتهم النعم الإلهية من السماء والأرض، فتقول الآية: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾، وبديهي أنّ المراد من اقامة التّوراة والإنجيل هو اتّباعهم لما بقي من التّوراة والإنجيل الحقيقيين في أيديهم في ذلك العصر، ولا يعني اتّباع ما حرّف منهما والذي يمكن معرفته من خلال القرائن.

٣. والمراد بجملة ﴿ما أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ هو كل الكتب السماوية والأحكام الإلهية، لأنّ هذه الجملة يفهم منها الإطلاق، وهي في الحقيقة إشارة إلى النهي عن خلط العصبيات القومية بالوسائل الدينية الإلهية، فليس المهم كون هذا الكتاب عربيا أو ذلك الكتاب يهوديا، بل المهم هو الأحكام الإلهية الواردة فيها وفي كل الكتب السماوية، أي أنّ القرآن أراد أن يطفئ ـ ما أمكنه ذلك ـ نار العصبية القومية عند هؤلاء، ويمهد السبيل إلى التغلغل في أعماق نفوسهم وقلوبهم، لذلك فالضمائر الواردة في هذه الآية تعود إلى أهل الكتاب وهي: (إليهم، من ربّهم، من فوقهم، ومن تحت أرجلهم) وما ذلك إلّا لكي يترك هؤلاء عنادهم وصلفهم، ولكي لا يتصوروا أنّ الخضوع والاستسلام أمام القرآن يعني استسلام اليهود للعرب، بل هو استسلام وخضوع لربّهم العظيم.

٤. ولا شك أنّ المراد بإقامة التّوراة والإنجيل هو العمل بالمبادئ السماوية الواردة فيهما، لأنّ جميع المبادئ والتعاليم كما أسلفنا سابقا ـ التي جاء بها الأنبياء أينما كانوا ـ واحدة لا فرق بينها غير الفرق بين الكامل والأكمل، ولا يتنافى هذا مع النسخ الذي ورد في بعض الأحكام الواردة في الشريعة اللاحقة لأحكام وردت في شريعة سابقة.

٥. ومجمل القول هو أن الآية الأخيرة تؤكّد مرّة أخرى هذا المبدأ الأساسي القائل بأن اتباع التعاليم السماوية التي جاء بها الأنبياء، ليس لأعمار الحياة الآخرة التي تأتي بعد الموت فحسب، بل أنّ لها ـ أيضا ـ

انعكاسات واسعة على الحياة الدنيوية المادية للإنسان، فهي تقوي الجماعات وتعزز صفوفها وتكثف طاقاتها، وتغدق عليها النعيم وتضاعف امكانياتها وتضمن لها الحياة السعيدة المقترنة بالأمن والاستقرار.

٦. ولو ألقينا نظرة على الثروات الطائلة والطاقات البشرية الهائلة التي تهدر اليوم في عالم الإنسان نتيجة للانحراف عن هذه التعاليم، وفي صنع وتكديس أسلحة فتّاكة، وفي صراعات لا مبرر لها ومساع هدامة لرأينا أن ذلك كله دليل حيّ على هذه الحقيقة، حيث أنّ الثروات التي تستخدم لإشاعة الدمار في هذا العالم ـ إذا أمعنا النظر جيدا ـ إن لم تكن أكثر حجما من الثروات التي تنفق في سبيل البناء، فهي ليست بأقلّ منها.

٧. إنّ العقول المفكرة التي تسعى وتعمل جاهدة ـ اليوم ـ لإكمال وتوسيع انتاج الأسلحة الحربية، ولتوسيع بقعة النزاعات الاستعمارية، إنّما تشكل جزءا مهما من الطاقات البشرية الخلاقة التي طالما احتاجها المجتمع البشري لرفع احتياجاته، وكم سيصبح وجه الدنيا جميلا وجذابا لو كانت كل هذه الطاقات تستغل في سبيل الإعمار؟

٨. وجدير بالانتباه هنا ـ أيضا ـ إلى أن عبارتي ﴿مِنْ فَوْقِهِمْ﴾ و﴿مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ الواردتان في الآية الأخيرة، معناهما أن نعم السماء والأرض ستغمر هؤلاء المؤمنين، كما يحتمل أن تكونا كناية عن النعم بصورة عامّة كما ورد في الآثار الأدبية العربية وغيرها قولهم: (إنّ فلانا غرق في النعمة من قمة رأسه حتى أخمص قدمه)

٩. كما أنّ هذه الآية تعد جوابا على أحد أقوال اليهود الذي ورد ذكره في الآيات السابقة، حيث تؤكّد أنّ سبب انقطاع نعم الله عنهم، ليس هو ما زعموه من أن ذات الله المقدسة المنزهة قد شابها البخل (والعياذ بالله) أو أن يده أصبحت مغلولة، بل لأنّ أعمالهم الخبيثة قد انعكست آثارها في حياتهم المادية والمعنوية فسودتها، فإن لم يتوبوا لن ينقذهم الله من آثار هذه الأعمال.

١٠. وفي الختام تشير الآية الكريمة إلى الأقلية الصالحة من أهل الكتاب الذين اختاروا طريق الاعتدال في حياتهم خلافا لنهج الأغلبية المنحرفة، فعزل الله حسابهم عن حساب هذه الأكثرية الضالة، حيث تقول الآية: ﴿مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾، وقد وردت عبارات مشابهة عن الأقلية الصالحة من أهل الكتاب، في الآيتين (١٥٩ و١٨١) من سورة الأعراف، والآية من سورة آل

عمران.

٦٦. الرسول والبلاغ والعصمة

نتناول في هذا الفصل ما ذكره المفسّرون ـ بحسب التسلسل التاريخي، والمدارس الإسلامية المختلفة ـ حول تفسير المقطع [٦٦] من سورة المائدة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة: ٦٧]، مع العلم أنّا نقلنا المباحث التي لا علاقة لها ـ كبرى أو مباشرة ـ بالتفسير التحليلي إلى محالّها من كتب السلسلة.

ابن مسعود:

روي عن عبد الله بن مسعود (ت ٣٢ هـ) أنّه قال: كنا نقرأ على عهد رسول الله ﷺ: (يآ أيها الرسول بلغ مآ أنزل إليك من ربك أن عليا مولى المؤمنين وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس)[١].

علي:

روي عن الإمام علي (ت ٤٠ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال: ﴿وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾: أي يمنعك منهم[٢].

٢. روي أنّه قال: لقد أنزل الله عز وجل إلي: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ يعني في ولايتك يا علي ﴿وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾ ولو لم أبلغ ما أمرت به من ولايتك لحبط عملي، ومن لقي الله عز وجل بغير ولايتك فقد حبط عمله، وعد ينجز لي، وما أقول إلا قول ربي تبارك وتعالى، وإن الذي أقول لمن الله عز وجل، أنزله فيك[٣].

عائشة:

روي عن عائشة (ت ٥٧ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

---

(١) عزاه السيوطي إلى ابن مردويه.

(٢) تفسير الإمام زيد، ص ١٣٠.

(٣) الأمالي: ١٣/٣٩٩.

١. روي أنّها قالت: من زعم أن محمدا ﷺ كتم شيئا من كتاب الله فقد أعظم على الله الفرية، والله يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ الآية[1].

٢. روي أنّها قالت: كان النبي ﷺ يحرس حتى نزلت: ﴿وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾، فأخرج رأسه من القبة، فقال: (أيها الناس، انصرفوا، فقد عصمني الله)[2].

أبو هريرة:

روي عن أبي هريرة (ت ٥٨ هـ) أنّه قال: كنا إذا صحبنا رسول الله ﷺ في سفر تركنا له أعظم دوحة وأظلها، فينزل تحتها، فنزل ذات يوم تحت شجرة، وعلق سيفه فيها، فجاء رجل فأخذه، فقال: يا محمد، من يمنعك مني؟ فقال رسول الله ﷺ: (الله يمنعني منك، ضع عنك السيف)، فوضعه؛ فنزلت: ﴿وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾[3].

ابن عباس:

روي عن ابن عباس (ت ٦٨ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال: كان النبي ﷺ يحرس، وكان يرسل معه عمه أبو طالب كل يوم رجالا من بني هاشم يحرسونه، حتى نزلت: ﴿وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾، وأراد عمه أن يرسل معه من يحرسه، فقال: (يا عم، إن الله قد عصمني من الجن والإنس)[4].

٢. روي أنّه قال: سئل رسول الله ﷺ: أي آية أنزلت من السماء أشد عليك؟ فقال: كنت بمنى أيام موسم، واجتمع مشركو العرب وأفناء الناس في الموسم، فأنزل علي جبريل، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾، قال: (فقمت عند العقبة، فناديت: يا أيها الناس، من ينصرني على أن أبلغ رسالات ربي ولكم الجنة؟ أيها الناس، قولوا: لا إله إلا الله وأنا رسول الله إليكم، تفلحوا، وتنجحوا، ولكم الجنة)، قال: (فما بقي رجل ولا امرأة ولا صبي إلا يرمون

---

(١) البخاري ١٤٠/٦.

(٢) الترمذي ٢٨٩/٥.

(٣) آدم بن أبي إياس ـ كما في تفسير مجاهد ص ٣١٣.

(٤) الطبراني ٢٥٦/١١.

علي بالتراب والحجارة، ويبزقون في وجهي، ويقولون: كذاب صابئ، فعرض علي عارض، فقال: يا محمد، إن كنت رسول الله فقد آن لك أن تدعو عليهم كما دعا نوح على قومه بالهلاك)، فقال النبي ﷺ: (اللهم، اهد قومي فإنهم لا يعلمون، وانصرني عليهم أن يجيبوني إلى طاعتك)، فجاء العباس عمه، فأنقذه منهم، وطردهم عنه، قال: الأعمش: فبذلك تفتخر بنو العباس، ويقولون: فيهم نزلت: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [القصص: ٥٦]، هوي النبي ﷺ أبا طالب، وشاء الله عباس بن عبد المطلب[(١)].

٣. روي أنّه قال: ﴿وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾، يعني: إن كتمت آية مما أنزل إليك لم تبلغ رسالته[(٢)].

٤. روي عنترة، قال: كنت عند ابن عباس، فجاءه رجل، فقال: إن ناسا يأتونا فيخبرونا أن عندكم شيئا لم يبده رسول الله ﷺ للناس، فقال: ألم تعلم أن الله قال: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾!؟ والله، ما ورثنا رسول الله ﷺ سوداء في بيضاء[(٣)].

٥. روي أنّه قال: أمر الله تعالى نبيه محمدا ﷺ أن ينصب الإمام علي علما للناس ليخبرهم بولايته، فتخوف رسول الله ﷺ أن يقولوا حابى ابن عمه، وأن يطعنوا في ذلك عليه، فأوحى الله إليه: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ فقام رسول الله ﷺ بولايته يوم غدير خم[(٤)].

جابر:

روي عن جابر بن عبد الله (ت ٧٣ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال: لما غزا رسول الله ﷺ بني أنمار نزل ذات الرقيع بأعلى نخل، فبينا هو جالس على رأس بئر قد دلى رجليه فقال الوارث من بني النجار: لأقتلن محمدا، فقال له أصحابه: كيف تقتله؟ قال:

---

(١) الضياء المقدسي في الأحاديث المختارة ١٣/١٠.

(٢) ابن جرير ٥٦٨/٨.

(٣) ابن أبي حاتم ١١٧٢/٤.

(٤) تفسير العيّاشي ٣٣١/١، شواهد التنزيل ١٩٢/١.

أقول له: أعطني سيفك، فإذا أعطانيه قتلته به، فأتاه، فقال: يا محمد، أعطني سيفك أشيمه[1]، فأعطاه إياه، فرعدت يده، فقال رسول الله ﷺ: (حال الله بينك وبين ما تريد)، فأنزل الله: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ الآية[2].

٢. روي أنّه قال: كان رسول الله ﷺ إذا خرج بعث معه أبو طالب من يكلؤه، حتى نزلت: ﴿وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾، فذهب ليبعث معه، فقال: (يا عم، إن الله قد عصمني، لا حاجة لي إلى من تبعث)[3].

الخدري:

روي عن أبي سعيد الخدري (ت ٧٤ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال: نزلت هذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ على رسول الله ﷺ يوم غدير خم[4]،، في علي[5].

٢. روي أنّه قال: كان العباس عم النبي ﷺ في من يحرسه، فلما نزلت: ﴿وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ ترك رسول الله ﷺ الحرس[6].

مجاهد:

روي عن مجاهد (ت ١٠٤ هـ) أنّه قال: لما نزلت: ﴿بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾، قال: (يا رب، إنما أنا واحد، كيف أصنع يجتمع علي الناس؟)، فنزلت: ﴿وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾[7].

الباقر:

روي عن الإمام الباقر (ت ١١٤ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

---

(١) شام السيف يشيمُه شيْمًا: غمَده، وأيضًا: استلَّه، وهو المراد هنا، وهو من الأضداد.

(٢) ابن أبي حاتم ١١٧٣/٤.

(٣) ابن مردويه ـ كما في تفسير ابن كثير ١٥٣/٣.

(٤) غدير خُم: غدير معروف بين مكة والمدينة.

(٥) الواحدي في أسباب النزول ص ٢٠٢.

(٦) الطبراني في الأوسط ٢١/٤.

(٧) سفيان الثوري في تفسيره ص ١٠٤.

١. روي أنّه قال: لما نزل جبريل عليه السلام على رسول الله ﷺ في حجة الوداع بإعلان أمر الإمام علي ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ إلى آخر الآية، قال: فمكث النبي ﷺ ثلاثا حتى أتى الجحفة، فلم يأخذ بيده فرقا من الناس، فلما نزل الجحفة يوم الغدير في مكان يقال له مهيعة نادى الصلاة جامعة، فاجتمع الناس، فقال النبي ﷺ: من أولى بكم من أنفسكم؟ قال: فجهروا، فقالوا: الله ورسوله، ثم قال لهم الثانية، فقالوا: الله ورسوله، ثم قال لهم الثالثة، فقالوا: الله ورسوله، فأخذ بيد علي عليه السلام فقال: من كنت مولاه فعلي مولاه، اللهم وال من والاه، وعاد من عاداه، وانصر من نصره، واخذل من خذله، فإنه مني وأنا منه، وهو مني بمنزلة هارون من موسى، إلا أنه لا نبي بعدي(١).

٢. عن أبي الجارود عنه أنّه قال: (فرض الله عز وجل على العباد خمسا، أخذوا أربعا وتركوا واحدة)، قلت: أتسميهن لي، جعلت فداك؟ فقال: (الصلاة، وكان الناس لا يدرون كيف يصلون، فنزل جبريل عليه السلام وقال: يا محمد، أخبرهم بمواقيت صلاتهم، ثم نزلت الزكاة، فقال: يا محمد، أخبرهم من زكاتهم، مثل ما أخبرتهم من صلاتهم، ثم نزل الصوم فكان رسول الله ﷺ إذا كان يوم عاشوراء بعث إلى من حوله من القرى، فصاموا ذلك اليوم، فنزل [صوم] شهر رمضان بين شعبان وشوال، ثم نزل الحج، فنزل جبريل عليه السلام فقال: أخبرهم من حجهم مثل ما أخبرتهم من صلاتهم وزكاتهم وصومهم، ثم نزلت الولاية، وإنما أتاه ذلك في يوم الجمعة بعرفة، أنزل الله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾ وكان كمال الدين بولاية الإمام علي، فقال عند ذلك رسول الله ﷺ: إن أمتي حديثو عهد بالجاهلية، ومتى أخبرتهم بهذا في ابن عمي يقول قائل ويقول قائل، فقلت في نفسي، من غير أن ينطق به لساني، فأتتني عزيمة من الله عز وجل بتلة أوعدني إن لم أبلغ، أن يعذبني فنزلت ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ فأخذ رسول الله ﷺ بيد علي عليه السلام فقال: يا أيها الناس، إنه لم يكن نبي من الأنبياء ممن كان قبلي، إلا وقد عمره الله تعالى ثم دعاه فأجابه، فأوشك أن أدعى فأجيب، وأنا مسئول وأنتم مسئولون، فما ذا أنتم قائلون؟فقالوا: نشهد أنك قد بلغت ونصحت وأديت ما عليك، فجزاك الله أفضل جزاء

(١) تفسير العيّاشي ١/٣٣٢.

المرسلين، فقال: اللهم اشهد، ثلاث مرات، ثم قال: يا معشر المسلمين، هذا وليكم من بعدي، فليبلغ الشاهد منكم الغائب)، قال الإمام الباقر: (كان ـ والله ـ أمين الله على خلقه غيبه وعلمه ودينه الذي ارتضاه لنفسه، ثم إن رسول الله ﷺ حضره الذي حضره، فدعا عليا، فقال: يا علي إني أريد أن أئتمنك على ما ائتمنني الله عليه من غيبه وعلمه، ومن خلقه، ومن دينه الذي ارتضاه لنفسه، فلم يشرك ـ والله فيها يا زياد ـ أحدا من الخلق، ثم إن الإمام علي حضره الذي حضره، فدعا ولده، وكانوا اثني عشرة ذكرا، فقال لهم: يا بني، إن الله عز وجل قد أبى إلا أن يجعل في سنة من يعقوب، وإن يعقوب دعا ولده، وكانوا اثني عشر ذكرا، فأخبرهم بصاحبهم، ألا وإني أخبركم بصاحبكم، ألا إن هذين ابنا رسول الله ﷺ ـ الحسن والحسين (عليهما السلام) ـ فاسمعوا لهما، وأطيعوا، ووازروهما، فإني قد ائتمنتهما على ما ائتمنني عليه رسول الله ﷺ، مما ائتمنه الله عليه، من خلقه، ومن غيبه، ومن دينه الذي ارتضاه لنفسه، فأوجب الله لهما من علي عليه السلام ما أوجب للإمام علي من رسول الله ﷺ، فلم يكن لأحد منهما فضل على صاحبه، إلا بكبره، وإن الحسين كان إذا حضر الحسن عليه السلام لم ينطق في ذلك المسجد حتى يقوم، ثم إن الحسن عليه السلام حضره الذي حضره، فسلم ذلك إلى الحسين، ثم إن حسينا عليه السلام حضره الذي حضره، فدعا ابنته الكبرى فاطمة بنت الحسين عليه السلام فدفع إليها كتابا ملفوفا، ووصية ظاهرة، وكان الإمام السجاد مبطونا لا يرون إلا أنه لما به، فدفعت فاطمة الكتاب إلى الإمام السجاد ثم صار والله ذلك الكتاب إلينا)[1].

٣. روي أنّه قال في قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾: (هي الولاية)[2].

٤. عن زياد بن المنذر، أبي الجارود، صاحب الزيدية، قال: كنت عند الإمام الباقر بالأبطح، وهو يحدث الناس، فقام إليه رجل من أهل البصرة يقال له: عثمان الأعشى، كان يروي عن الحسن البصري، فقال: يا بن رسول الله، جعلت فداك، إن الحسن البصري يحدثنا حديثا يزعم أن هذه الآية نزلت في رجل، ولا يخبرنا من الرجل، ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾ تفسيرها: أتخشى الناس والله يعصمك من الناس؟ فقال الإمام الباقر: (ما له لا قضى الله دينه ـ يعني صلاته

(١) الكافي ١/٢٢٩.

(٢) مختصر بصائر الدرجات: ٦٤.

ـ أما أن لو شاء أن يخبر به أخبر به، إن جبريل عليه السلام هبط على رسول الله ﷺ فقال له: إن ربك تبارك وتعالى، يأمرك أن تدل أمتك على صلاتهم، فدله على الصلاة، واحتج بها عليه، فدل رسول الله ﷺ أمته عليها، واحتج بها عليهم، ثم أتاه فقال: إن الله تبارك وتعالى يأمرك أن تدل أمتك في زكاتهم على مثل ما دللتهم عليه في صلاتهم، فدله على الزكاة، واحتج بها عليه فدل رسول الله ﷺ أمته على الزكاة، واحتج بها عليهم، ثم أتاه فقال: إن الله تبارك وتعالى يأمرك أن تدل أمتك في صيامهم على مثل ما دللتهم عليه في صلاتهم وزكاتهم، شهر رمضان بين شعبان وشوال، يؤتى فيه كذا، ويجتنب فيه كذا، فدله على الصيام، واحتج به عليه، فدل رسول الله ﷺ أمته على الصيام واحتج به عليهم، ثم أتاه فقال: إن الله تبارك وتعالى يأمرك أن تدل أمتك في حجهم على مثل ما دللتهم عليه في صلاتهم وزكاتهم وصيامهم، فدله على الحج، واحتج به عليه، فدل رسول الله ﷺ أمته على الحج، واحتج به عليهم، ثم أتاه فقال: إن الله تبارك وتعالى يأمرك أن تدل أمتك من وليهم على مثل ما دللتهم عليه في صلاتهم وزكاتهم وصيامهم وحجهم)، قال: (فقال رسول الله ﷺ: رب، امتي حديثو عهد بجاهلية، فأنزل الله: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾ تفسيرها: أتخشى الناس، فالله يعصمك من الناس، فقام رسول الله ﷺ، فأخذ بيد علي فرفعها، فقال: من كنت مولاه فعلي مولاه، اللهم وال من والاه، وعاد من عاداه، وانصر من نصره، واخذل من خذله، وأحب من أحبه، وأبغض من أبغضه)[1].

٥. روي أنّه قال: لما أنزل الله على نبيه ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ أخذ رسول الله ﷺ بيد علي عليه السلام فقال: يا أيها الناس، إنه لم يكن نبي من الأنبياء ممن كان قبلي، إلا وقد عمر، ثم دعاه الله فأجابه، وأوشك أن ادعى فأجيب، وأنا مسئول وأنتم مسئولون، فما أنتم قائلون؟قالوا: نشهد أنك قد بلغت، ونصحت، وأديت ما عليك، فجزاك الله أفضل ما جزى المرسلين، فقال: اللهم اشهد، ثم قال: يا معشر المسلمين، ليبلغ الشاهد الغائب، أوصي من آمن بي وصدقني بولايةعلي، ألا إن ولاية علي ولايتي وولايتي ولاية ربي، عهدا عهده إلي ربي، وأمرني أن أبلغكموه، ثم قال: هل سمعتم؟ ثلاث مرات يقولها، فقال قائل:

(١) تفسير العيّاشي ٣٣٣/١، شواهد التنزيل ١٩١/١.

قد سمعنا، يا رسول الله)[١].

قتادة:

روي عن قتادة بن دعامة (ت ١١٧ هـ) أنّه قال: أخبر الله نبيه ﷺ أنه سيكفيه الناس، ويعصمه منهم، وأمره بالبلاغ، وذكر لنا: أن نبي الله ﷺ قيل له: لو احتجبت، فقال: (والله، لأبدين عقبي للناس ما صاحبتهم)[٢].

زيد:

روي عن الإمام زيد (ت ١٢٢ هـ) أنّه قال: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾: هذه للإمام علي ـ صلوات الله عليه ـ خاصة ﴿وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾: أي يمنعك منهم[٣].

الصادق:

روي عن الإمام الصادق (ت ١٤٨ هـ) أنّه قال: (العجب ـ يا أبا حفص ـ لما لقي علي ابن أبي طالب عليه السلام أنه كان له عشرة آلاف شاهد، لم يقدر على أخذ حقه، والرجل يأخذ حقه بشاهدين إن رسول الله ﷺ خرج من المدينة حاجا، وتبعه خمسة آلاف، ورجع من مكة، وقد شيعه خمسة آلاف من أهل مكة، فلما انتهى إلى الجحفة نزل جبريل بولاية علي عليه السلام، وقد كانت نزلت ولايته بمنى، وامتنع رسول الله ﷺ من القيام بها لمكان الناس، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ مما كرهت بمنى، فأمر رسول الله ﷺ فقمت السمرات، فقال رجل من الناس: أما والله، ليأتينكم بداهية) فقلت لعمر: من الرجل؟ فقال: الحبشي[٤].

ابن حيان:

روي عن مقاتل بن حيان (ت ١٤٩ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

---

(١) تفسير العيّاشي ١/٣٣٤.

(٢) ابن جرير ٨/٥٦٨.

(٣) تفسير الإمام زيد، ص ١٣٠.

(٤) تفسير العيّاشي ١/٣٣٢.

١. روي أنّه قال: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ﴾، يقول: يا محمد[(١)].

٢. روي أنّه قال: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ يقول: بلغ ما أرسلت به، يحرضه على أن يبلغ الرسالة عن ربه[(٢)].

٣. روي أنّه قال: ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾، يعني: ممن حولك من العرب كلها أنهم لا يصلون إليك، فأمن النبي ﷺ عند ذلك[(٣)].

مقاتل:

روي عن مقاتل بن سليمان (ت ١٥٠ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾، وذلك أن النبي ﷺ دعا اليهود إلى الإسلام، فأكثر الدعاء، فجعلوا يستهزئون، ويقولون: أتريد يا محمد أن نتخذك حنانا، كما اتخذت النصارى عيسى ابن مريم حنانا!؟ فلما رأى النبي ﷺ ذلك سكت عنهم، فحرض الله ـ يعني: فحضض الله عز وجل النبي ﷺ على الدعاء إلى الله عز وجل، وألا يمنعه ذلك تكذيبهم إياه واستهزاؤهم، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾[(٤)].

٢. روي أنّه قال: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ﴾، يعني: محمدا ﷺ[(٥)].

٣. روي أنّه قال: ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾، يعني: من اليهود؛ فلا تقتل[(٦)].

الهادي إلى الحق:

ذكر الإمام الهادي إلى الحق (ت ٢٩٨ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(٧)]:

١. وفيه أنزل الله على رسوله بغدير خم: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ

---

(١) ابن أبي حاتم ٤/١١٧٢.
(٢) ابن أبي حاتم ٤/١١٧٢.
(٣) ابن أبي حاتم ٤/١١٧٤.
(٤) تفسير مقاتل ابن سليمان ١/٤٩١.
(٥) تفسير مقاتل ابن سليمان ١/٤٩١.
(٦) تفسير مقاتل ابن سليمان ١/٤٩٢.
(٧) الأنوار البهية المنتزع من كتب أئمة الزيدية: ١/٣٣٦.

﴿فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾، فوقف ﷺ، وقطع سيره، ولم يستجز أن يتقدم خطوة واحدة، حتى ينفذ ما عزم به عليه في علي، فنزل تحت الدوحة مكانه، وجمع الناس، ثم قال: (يا أيها الناس، ألست أولى بكم من أنفسكم)، قالوا: بلى، يا رسول الله.. فقال: (اللهم اشهد)، ثم قال: (اللهم اشهد)، ثم قال: (فمن كنت مولاه، فعلي مولاه، اللهم وال من والاه، وعاد من عاداه، واخذل من خذله، وانصر من نصره.

الماتريدي:

ذكر أبو منصور الماتريدي (ت ٣٣٣ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾ هذا وذلك أن أهل الكفر كانوا على طبقات ثلاث:

أ. منهم من يقول: ﴿لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾، وقولهم: ﴿لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ﴾

ب. ومنهم من كان يخوفه ويمكر به، ليقتلوه؛ كقوله: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ﴾ الآية.

ج. ومنهم من كان يعرض عليه النساء والأموال؛ ليترك ذلك، وألا يدعوهم إلى دينه الذي هو عليه.

٢. كانوا على الوجوه التي ذكرنا؛ فأمر الله عز وجل أن يقوم على تبليغ رسالته، وألا يمنعه ما يخشى من مكرهم وكيدهم على قتله؛ لأن المرء قد يمتنع عن القيام بما عليه إذا خشي هلاكه أو لطلب مودة وصلة، أو يمتنع عن القيام بما عليه إذا كُذبَ في القول، ولحقه أذى لذلك؛ فأمر الله عز وجل نبيه بتبليغ ما أنزل إليه، وإن خشي على نفسه الهلاك أو التكذيب في القول، والأذى وترك طلب الموالاة، أي: لا يمنعك شيء من ذلك عن تبليغ ما أنزل إليك، أو أن يكون الأمر بتبليغ الرسالة في حادث الوقت: أن بلغ ما أنزل إليك في حادث الوقت؛ كما بلغت في الماضي من الوقت، أو أن يكون الأمر بتبليغ ما أنزل إليه أمرًا بتبليغ البيان،

---

(١) تأويلات أهل السنة: ٣/٥٥٧.

أي: بلغ ما أنزل إليك من البيان كما بلغت تنزيلا؛ وهو كقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ أخبر عز وجل أنه إنما أرسل الرسل على لسان قومهم؛ ليبينوا لهم؛ فعلى ذلك هذا.

٣. ويحتمل قوله تعالى: ﴿بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾، أي: بلغ ما أنزل إليك من الآيات والحجج والبراهين، التي جعلها الله أعلاما لرسالتك، وآثارا لنبوتك؛ ليلزمهم الحجة بذلك.

٤. وقوله عز وجل: ﴿وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾، أي: وإن لم تبلغ ما أنزل إليك؛ لما تخشى من الهلاك والمكر بك ـ كان كأن لم تبلغ الرسالة رأسًا، لم يعذر نبيه ﷺ في ترك تبليغ الرسالة إليهم، وإن خاف على نفسه الهلاك، ليس كمن أكره على الكفر أبيح له أن يتكلم بكلام الكفر، بعد أن يكون قلبه مطمئنا بالإيمان إذا خاف الهلاك على نفسه، ولم يبح له ترك تبليغ الرسالة وإن خشي على نفسه الهلاك؛ ذلك أن تبليغ الرسالة تعلق باللسان دون القلب، والإيمان تعلقه بالقلب دون اللسان؛ فإذا أكره على الكفر أبيح له التكلم به بعد أن يكون القلب على حاله مطمئنا بالإيمان، وأما الرسالة: فلا سبيل له أن يبلغها إلا باللسان؛ لذلك لم يبح له تركها وإن خاف الهلاك؛ وهذا يدل لقولنا في المكره بالطلاق والعتاق أنه إذا تكلم به عمل؛ لتعلقهما باللسان دون القلب؛ فالإكراه لا يمنع نفاذ ما تعلق باللسان دون القلب كالرسالة التي ذكرنا.

٥. ويحتمل قوله تعالى: ﴿وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ﴾، أي: لم تبلغ الرسالة في حادث الوقت كأن لم تبلغ فيما مضى، أو إن لم تبلغ البيان كما بلغت التنزيل فما بلغت الرسالة.

٦. وقوله عز وجل: ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ فيه دليل إثبات رسالته ﷺ لأنه عز وجل أخبر أنه عصمه من الناس؛ فكان ما قال فدل أنه علم ذلك بالله، وكذلك في قوله تعالى: ﴿فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ﴾: كان يقول بين ظهراني الكفرة: كيدوني جميعًا، ثم لم يلحقه من كيدهم شيء دل أنه كان ذلك بالله تعالى، وعن عائشة: كان النبي ﷺ ليحرس، فلما نزل قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ قال: (انصرفوا إلى منازلكم؛ فإن الله عصمني من الناس)؛ فانصرفوا.

العياني:

ذكر الإمام المهدي العياني (ت ٤٠٤ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[1]:

---

(١) تفسير الإمام المهدي العياني: ٢/٢٢٤.

١. معنى قوله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ الآية، أي بلغ ما أمرك الله من الإشارة الكافية في إمامة أمير المؤمنين، وإن لم تفعل ذلك فكأنك ما بلغت شيئاً من رسالته، وصدق الله عز وجل أن رسوله لو كتم أكبر أصول الدين لما بلغ رسالات الله ولما نفعت، لأن الفروع لا تنفع إلا بمعرفة الأصول والإمامة أكبر شيء من الأديان عند ذوي العقول.

٢. معنى قوله: ﴿وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾، فهذه بشارة من الله لنبيه بالعصمة من شر الناس، ومعنى يعصمك هو يمنعك ويحوطك حتى لا ينالوك ولا يقدروا أبداً بالمكروه عليك.

الديلمي:

ذكر الإمام الناصر الديلمي (ت ٤٤٤ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ أوجب الله سبحانه على رسوله بهذه الآية تبليغ ما أنزل عليه من كتابه في هذا الحكم وهذه الآية نزلت في أمير المؤمنين في منصرف رسول الله ﷺ من حجة الوداع بغدير خم أمر أن يأخذ على الناس العهد لأمير المؤمنين علي ففعل ونصب أقتاباً للإبل فطلع إليها آخذاً بيد أمير المؤمنين ثم قال: (ألست أولى بكم من أنفسكم؟) قالوا: بلى يا رسول الله، قال: (فمن كنت مولاه فعلي مولاه اللهم وال من والاه وعاد من عاداه وانصر من نصره واخذل من خذله.

٢. ﴿وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ﴾ يعني إن كتمت إظهار ولايته ﴿فَمَا بَلَّغْتَ﴾ حق ﴿رِسَالَتَهُ﴾ فيما كلفك وذلك لما علم الله سبحانه ورسوله أن إظهار ولايته تشق على كثير ممن كان معه لما كانوا قد أظهروا من النفاق وصرف هذا الأمر بعده من أهل بيت نبيه فلذلك شدد على رسول الله ﷺ لتكون الحجة على المنافقين أبلغ.

٣. ﴿وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ أي من المنافقين الذي يعلم الله منهم فله الطاعة لك فيما تأمرهم به وتدعوهم إليه ﴿إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ أي لا يعينهم ولا يهديهم إلى الجنة.

الماوردي:

ذكر أبو الحسن الماوردي (ت ٤٥٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[٢]:

١. ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ أوجب الله تعالى بهذه الآية على رسوله تبليغ ما

---

(١) البرهان في تفسير القرآن للديلمي: ١/٢١٩.

(٢) تفسير الماوردي: ٢/٥٤.

أنزل عليه من كتابه سواء كان حكماً، أو حداً، أو قصاصاً، فأما تبليغ غيره من الوحي فتخصيص وجوبه: بما يتعلق بالأحكام دون غيرها.

٢. ثم قال تعالى: ﴿وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾ يعني إن كتمت آية مما أنزل عليك فما بلغت رسالته لأنه يكون، غير ممتثل لجميع الأمر، ويحتمل وجهين آخرين:

أ. أحدهما: أن يكون معناه بلغ ما انزل إليك من ربك فيما وعدك من النصر، فإن لم تفعل فما بلغت حق رسالته فيما كلفك من الأمر، لأن استشعار النصر يبعث على امتثال الأمر.

ب. الثاني: أن يكون معناه بلغ ما أنزل إليك من ربك بلاغاً يوجب الانقياد إليه بالجهاد عليه، وإن لم تفعل ما يقود إليه من الجهاد عليه فما بلغت ما عليك من حق الرسالة إليك.

٣. ﴿وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ يعني أن ينالوك بسوء من قتل أو غيره، واختلف أهل التفسير في سبب نزول ذلك على قولين:

أ. أحدهما: أن النبي ﷺ نزل منزلاً في سفره واستظل بشجرة يقيل تحتها، فأتاه أعرابي فاخترط سيفه ثم قال من يمنعك مني؟ فقال: الله، فرعدت يد الأعرابي وسقط سيفه وضرب برأسه الشجرة حتى انتثر دماغه، فأنزل الله تعالى: ﴿وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾، قاله محمد بن كعب القرظي.

ب. الثاني: أن النبي ﷺ كان يهاب قريشاً، فأنزل الله تعالى هذه الآية، قاله ابن جريج، وروت عائشة أن النبي ﷺ كان يُحْرَس حتى نزلت هذه الآية ﴿وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ فأخرج النبي ﷺ رأسه من القبة وقال: يا أيها الناس انصرفوا فقد عصمني الله.

٤. ﴿إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ فيه تأويلان:

أ. أحدهما: لا يعينهم على بلوغ غرضهم.

ب. الثاني: لا يهديهم إلى الجنة.

الطوسي:

ذكر أبو جعفر الطوسي (ت ٤٦٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[1]:

---

(١) تفسير الطوسي: ٣/٥٨٨.

١. قرأ نافع وعاصم في رواية أبي بكر وابن عامر (رسالاته) على الجمع، وحد، فلأنه يدل على الكثرة.

٢. قيل في سبب نزول هذه الآية أربعة أقوال:

أحدها: قال محمد بن كعب القرطي، وغيره: إن اعرابياً هم بقتل النبي ﷺ فسقط السيف من يده وجعل يضرب برأسه شجرة حتى انتشر دماغه.

الثاني: أن النبي ﷺ كان يهاب قريشاً فأزال الله عز وجل بالآية تلك الهيبة، وقيل كان النبي ﷺ حراس بين أصحابه، فلما نزلت الآية قال الحقوا بملاحقكم، فإن الله عصمني من الناس.

الثالث: قالت عائشة: إن المراد بذلك إزالة التوهم أن النبي ﷺ كتم شيئاً من الوحي للتقية.

الرابع: قال أبو جعفر وأبو عبد الله عليهما السلام: إن الله تعالى لما أوحى إلى النبي ﷺ أن يستخلف علياً كان يخاف، أن يشق ذلك على جماعة من أصحابه، فأنزل الله تعالى هذه الآية تشجيعاً له على القيام بما أمره بأدائه.

٣. والآية فيها خطاب للنبي ﷺ وإيجاب عليه تبليغ ما أنزل إليه من ربه وتهديد له إن لم يفعل وأنه يجري مجرى إن لم يفعل ولم يبلغ رسالته.

٤. سؤال وإشكال: كيف يجوز ذلك؟ ولا يجوز أن يقول: إن لم تبلغ رسالته، فما بلغتها لأن ذلك معلوم لا فائدة فيه! والجواب: قال ابن عباس: معناه إن كتمت آية مما أنزل اليك فما بلغت رسالته والمعنى أن جريمته كجريمته لو لم يبلغ شيئاً مما أنزل إليه في انه يستحق به العقوبة من ربه.

٥. وقوله: ﴿وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ معناه يمنعك أن ينالوك بسوء من فعل أو شر أو قهر، وأصله عصام القربة، وهو وكاؤها الذي يشد به من سير أو خيط، قال الشاعر:

وقلت عليكم مالكاً إن مالكاً   سيعصمكم إن كان في الناس عاصم

أي سيمنعكم.

٦. وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ قيل في معناه قولان:

أ. قال الجبائي: إن الله لا يهدي إلى الثواب والجنة الكافرين.

ب. وقال الرماني: معنى الهداية هاهنا المعونة بالتوفيق والألطاف إلى الكفر بل إنما يهديهم إلى

الإيمان والثواب، لأن من هداه إلى غرضه فقد أعانه على بلوغه، ولا يجوز أن يكون المراد به أنه لا يهديهم إلى الإيمان، لأنه تعالى هداهم إليه بأن دلهم عليه ورغبهم فيه وحذرهم من خلافه.

٧. وفي الآية دلالة على صحة نبوة النبي ﷺ من وجهين:

أ. أحدهما: أنه لا يقدم على الإخبار بذلك محققاً إلا من يأمن أن يكون مخبره على ما هو به، لأنه لا داعي له الي ذلك غير الصدق.

ب. الثاني: أنه لما وقع مخبره على ما أخبر به فيه وفي نظائره دل على أنه من عند علام الغيوب، وحكى البلخي أن بعد قوله تعالى: ﴿وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ لم يكن الكفار قادرين على قتل النبي ﷺ ولا منهيون عن قتله، لأن مع المنع لا يصح النهي عنه، قال: وإنما هم منهيون عن أسباب القتل التي تقتل غالباً، لأنهم كانوا قادرين عليها، قال: ووجه آخر أنهم كانوا قادرين لكن علم أنهم لا يقتلونه، وأنه يحول بينهم وبين القتل.

ج. الأول لا يصح، لأن القدرة على بعض الأجناس قدرة على كل جنس تتعلق القدرة بها.

الجشمي:

ذكر الحاكم الجشمي (ت ٤٩٤ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. شرح مختصر للكلمات:

أ. البلوغ: الوصول، يقال: أبلغ سلامي أي أوصل، وَبَلَغْتُ المكان أشرفت عليه وإن لم تدخل، ومنه ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾ يقال: أبلغ يُبْلِغُ إبلاغًا، وبَلَّغَ يُبَلِّغُ تبليغًا، ومنه البلاغ بمعنى الإبلاغ، وبالغ مبالغة إذا اجتهد؛ لأنه به يصل إلى المقصود، وفي المثل: (أحمق بِلْغٌ) بسكون اللام، قيل: معناه مع حماقته يبلغ ما يريده، وقيل: يبلغ بلسانه كنه ما في ضميره، ومنه: رجل بليغ من البلاغة، والبُلْغَةُ ما يتبلغ به من العيش، وقول عائشة لعلي يوم الجمل: (قد بلغت منا البُلَغِينَ) يعني بلغتْ الحرب كل مبلغ، قال أبو عبيدة: هو مثل قولهم: لقيت منه البِرَحِينَ.

ب. العصمة: المنع، والعصمة من الله تنقسم، فمنها أن يدفع الشر عن نفسه، كما عصم نبيه من كيد

(١) التهذيب في التفسير: ٣/٣٥٧.

الكفار، ومنها أن يلطف له بألطافه، حتى ينتهي عن فعل القبيح، ومنه قولنا في الأنبياء: (إنهم معصومون) واعتصم فلان بفلان، أي امتنع به، وأصله عصام القربة، وهو الذي يشد به رأسها من خيط أو سير.

٢. اختلف في سبب نزول الآية الكريمة:

أ. قيل: نزل رسول الله ﷺ منزلاً تحت شجرة وعلق سيفه عليها، فأتاه أعرابي وهو نائم، فأخذ السيف واخترطه، وقال: يا محمد، من يمنعك مني؟ قال: ﴿اللهُ﴾ فرعدت يد الأعرابي وسقط السيف من يده، وضرب برأسه الشجرة حتى انتثر دماغه، فأنزل الله تعالى في هذه القصة هذه الآية، عن محمد بن كعب وأبي هريرة.

ب. وقيل: كان رسول الله، ﷺ يهاب قريشًا واليهود والنصارى، فأزال الله تعالى عن قلبه تلك الهيبة بهذه الآية، في معنى قول الحسن وأنس.

ج. وقيل: لما نزل قوله تعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ﴾ سكت النبي ﷺ عن عيب آلهتهم فنزلت هذه الآية، وقال: ﴿بَلِّغْ﴾ يعني معائب آلهتهم، ولا تخف منهم، فالله يعصمك عنهم.

د. وقيل: نزلت في عيب اليهود واستهزائهم بالنبي ﷺ فسكت عنهم، فأنزل الله تعالى هذه الآية.

هـ. وقيل: نزلت في قصة الرجم والقصاص، على ما تقدم في قصة اليهود.

و. وقيل: لما نزلت آية التخيير، وهو قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ﴾ فلم يعرضها عليهن خوفًا من اختيارهن الدنيا، فنزلت هذه الآية.

ز. وقيل: نزلت في أمر زيد وزينب بنت جحش.

ح. وقيل: نزلت في الجهاد، فإن المنافقين كرهوه، فكان يمسك أحيانًا من حثهم على الجهاد، فنزلت الآية.

ط. وقيل: نزلت في إزالة التوهم أنه ﷺ كتم شيئًا من الوحي للتقية، عن عائشة.

ي. وقيل: نزلت في فضل علي، ولما نزلت هذه الآية أخذ بيده، وقال: (من كنت مولاه فهذا عليٌّ مولاه، اللهم وال من والاه وعاد من عاداه)، فلقيه عمر فقال: هنيئًا لك يا بن أبي طالب أصبحت مولاي ومولى كل مؤمن ومؤمنة، عن ابن عباس، والبراء بن عازب، ومحمد بن علي.

ك. وقيل: نزلت في حقوق المسلمين فعند ذلك قال في حجة الوداع لما بين الشرائع والمناسك: (هل

بلغت)؟ قالوا: نعم، قال: (اللهم فاشهد)

٣. لما تقدم ذكر معائب اليهود والنصارى والمشركين وذم أفعالهم أمر رسوله ﷺ بتبليغ ذلك من غير خوف، ووعده النصر والعصمة منهم، فقال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ﴾ وهذا نداء تشريف وتعظيم ﴿بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ﴾ أي أوصل إليهم ﴿مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾:

أ. قيل: ما تقدم في السورة من معائب اليهود والنصارى.

ب. وقيل: في سائر الأحكام، وما يوحى إليه، وهو الصحيح الظاهر.

٤. ﴿وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾:

أ. أي: إن لم تبلغ شيئًا من ذلك، وقصرت في شيء وإن قل فهو كمن لم يبلغ شيئًا منه في عظيم ما ارتكب من الإثم.

ب. وقيل: معناه إن لم تبلغ شيئًا فما أتممت رسالته؛ لأن مَنْ ترك شيئًا لا يوثق بقوله، ولا يؤمن منه النقصان والزيادة والتحريف.

ج. وقيل: معناه إن لم تبلغ جميع ذلك لم تستحق درجة الأنبياء وثوابهم.

د. وقيل: هو إزالة التهمة أنه ما كتم شيئًا من الوحي.

هـ. وقيل: بلغ جميع المنزل.

و. وقيل: بلغ إلى الكافة.

ز. وقيل: بلغ في الحال ولا تؤخره.

٥. سؤال وإشكال: هل يظن به أنه مع صحة نبوته لا يبلغ شيئًا؟ والجواب: يجوز أن يظن أنه يجب أداء البعض دون أداء الكل، أو يظن أنه يجب الأداء إلى بعض دون بعض، أو يظن أنه يجب في حال دون حال حتى يجب عند زوال الخوف ولا يجب مع الخوف، فأزال جميع ذلك وأمر بالتبليغ في جميع الأحوال إلى جميع الخلق.

٦. ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾:

أ. يعني يمنعك أن ينالوك بسوء من قتل أو قهر أو شيء يمنع الأداء.

ب. وقيل: معناه يعصمك من بين الناس؛ لأنك النبي في وقتك.

٧. سؤال وإشكال: أليس عندكم تجب العصمة حتى يؤدي الرسالة فما فائدة الآية؟ والجواب:

أ. يجوز أن تكون مؤكدة.

ب. ويجوز أن يظن أن عند الخوف الشديد يجوز تأخير الإبلاغ فأزال ذلك، ولأنه علم أنه يحرسه وقت الأداء، وبالآية علم ذلك في عموم الأحوال.

٨. سؤال وإشكال: فمن أي شيء يحرسه؟ والجواب: مما يمنع الأداء والإبلاغ، فأما الأذى القليل والذي لا يمنع الإبلاغ يجوز أن يخلى، ولا يكون معصوما فيه.

٩. سؤال وإشكال: أليس شُجَّ جبينه، وكُسِرَتْ رباعيته؟ والجواب:

أ. ذاك لا يمنع الإبلاغ، فلذلك جاز.

ب. وقيل: إن الآية نزلت بعده، وروي أن ركانة أشجع العرب صارعه فصرعه رسول الله ﷺ ثم أتاه أبو بكر وعمر، وقالا: إن ركانة أفتك الناس، فكيف صرعته؟ فقال: أليس الله تعالى قال: ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ ثم حكى ما صنع به.

١٠. ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾:

أ. قيل: معنى الهداية: التوفيق والمعونة، يعني لا يغنيهم، ولا يؤيدهم بالألطاف.

ب. وقيل: لا يهديهم إلى الثواب والجنة، عن أبي علي.

١١. تدل الآية الكريمة على:

أ. أن النبي ﷺ لا يجوز عليه كتمان شيء من الوحي لتقية ولا لغيرها، خلاف ما يقوله الرافضة، وكما لا يجوز أن يكتم لا يجوز أن يغير ويبدل، وأن يسهو عنه؛ لأن جميع ذلك ترك الإبلاغ.

ب. أنه تعالى يحرسه حتى يتم الأداء، وعلى أن الرسالة يجب أن تظهر، ولا يجوز التقية على الرسول في الرسالة.

ج. أنه يقطع على البقاء إلى أن تؤدى، ولا يكون إغراء لما علمه من حالهم أنهم لا يعصون، وقال شيخنا أبو علي: وذلك معجز من وجهين:

- أحدهما: أنه أخبر بعصمته، فكان كذلك مع كثرة الأعداء وحرصهم على هلاكه.
- الثاني: إيراده ذلك عليهم، فلو لم يكن على ثقة من صدقه لصرفه عن إيراده خوف انكشاف حاله،

ولأن الأعداء عند ذلك يكونون أحرص على هلاكه.

١٢. قرأ أبو جعفر، ونافع ههنا (رسالاته) وفي الأنعام ﴿حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ على الجمع، وفي الأعراف ﴿بِرِسَالَاتِي﴾ على واحده، وقرأ حفص محن عاصم على الضد، وفي المائدة والأنعام على واحده، وفي الأعراف على الجمع، وقرأ أبو عمرو وحمزة والكسائي في المائدة على واحده، وفي الأنعام والأعراف على الجمع، وقرأ ابن كثير في الجميع على واحده، وقرأ ابن عامر وأبو بكر عن عاصم ويعقوب كله على الجمع.

١٣. ﴿مَا أُنْزِلَ﴾: موضعه نصب بوقوع الفعل عليه، ورسالاته): التاء مكسورة؛ لأن تاء الجمع مكسورة أبدًا.

الطَبِرسي:

ذكر الفضل الطَبِرسي (ت ٥٤٨ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. شرح مختصر للكلمات:

أ. الرسول يكون بمعنى الرسالة، ويكون بمعنى المرسل، فأما كونه بمعنى الرسالة: فكقول الشاعر:

لقد كذب الواشون ما بحت عنهم   بسر ولا أرسلتهم برسول

أي برسالة، وكونه بمعنى المرسل قوله: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ﴾ ومثله في أنه فعول بمعنى مفعول، قوله:

وما زلت خيرا منك مذ عض كارها   بلحييك غادي الطريق ركوب

يريد: إنه طريق مركوب مسلوك.

ب. العصمة: المنع، من عصام القربة: وهو وكاؤها الذي تشد به من سير أو خيط، قال الشاعر:

وقلت عليكم مالكا إن مالكا   سيعصمكم إن كان في الناس عاصم

(١) تفسير الطبرسي: ٣/٣٤٢.

أي: سيمنعكم، واعتصم فلان بفلان: أي امتنع به.

٢. أمر سبحانه نبيه بالتبليغ، ووعده العصمة والنصرة، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ﴾، وهذا نداء تشريف وتعظيم ﴿بَلِّغْ﴾ أي: أوصل إليهم ﴿مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾ أكثر المفسرون فيه الأقاويل:

أ. فقيل: إن الله تعالى بعث النبي ﷺ برسالة ضاق بها ذرعا، وكان يهاب قريشا، فأزال الله بهذه الآية تلك الهيبة، عن الحسن.

ب. وقيل يريد به إزالة التوهم من أن النبي ﷺ كتم شيئا من الوحي للتقية، عن عائشة.

ج. وقيل غير ذلك:

• وروى العياشي في تفسيره بإسناده عن ابن عمير، عن ابن أذينة، عن الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عباس، وجابر بن عبد الله، قالا: أمر الله محمدا ﷺ أن ينصب عليا عليه السلام للناس، فيخبرهم بولايته، فتخوف رسول الله ﷺ أن يقولوا: حابى ابن عمه، وأن يطعنوا في ذلك عليه، فأوحى الله إليه هذه الآية، فقام بولايته يوم غدير خم وهذا الخبر بعينه قد حدثناه السيد أبو الحمد، عن الحاكم أبي القاسم الحسكاني، بإسناده عن ابن أبي عمير في كتاب شواهد التنزيل لقواعد التفصيل والتأويل.

• وفيه أيضا بالاسناد المرفوع إلى حيان بن علي الغنوي، عن أبي صالح، عن ابن عباس قال: نزلت هذه الآية في علي عليه السلام، فأخذ رسول الله ﷺ بيده عليه السلام، فقال: من كنت مولاه فعلي مولاه، اللهم وال من والاه، وعاد من عاداه، وقد أورد هذا الخبر بعينه أبو إسحاق أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي في تفسيره بإسناده مرفوعا إلى ابن عباس، قال: نزلت هذه الآية في علي عليه السلام أمر النبي ﷺ أن يبلغ فيه، فأخذ رسول الله ﷺ بيد علي عليه السلام، فقال: من كنت مولاه فعلي مولاه، اللهم وال من والاه، وعاد من عاداه وقد اشتهرت الروايات عن أبي جعفر، وأبي عبد الله عليهما السلام أن الله أوحى إلى نبيه ﷺ أن يستخلف عليا عليه السلام، فكان يخاف أن يشق ذلك على جماعة من أصحابه، فأنزل الله تعالى هذه الآية تشجيعا له على القيام بما أمره الله بأدائه.

٣. ﴿وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾:

أ. المعنى: إن تركت تبليغ ما أنزل إليك، وكتمته، كنت كأنك لم تبلغ شيئا من رسالات ربك في استحقاق العقوبة.

ب. وقال ابن عباس: معناه إن كتمت آية مما أنزل إليك فما بلغت رسالته أي: لم تكن ممتثلا بجميع الامر.

٤. ﴿وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ أي: يمنعك من أن ينالوك بسوء ﴿إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ قيل فيه قولان:

أ. أحدهما: إن معنى الهداية هنا أنه سبحانه لا يهديهم بالمعونة، والتوفيق، والألطاف إلى الكفر، بل إنما يهديهم إلى الايمان، لأن من هداه إلى غرضه، فقد أعانه على بلوغه عن علي بن عيسى، قال: ولا يجوز أن يكون المراد لا يهديهم إلى الايمان، لأنه تعالى هداهم إلى الايمان، بأن دلهم عليه، ورغبهم فيه، وحذرهم من خلافه.

ب. والآخر إن المراد لا يهديهم إلى الجنة والثواب، عن الجبائي.

٥. في هذه الآية دلالة على صدق النبي ﷺ وصحة نبوته من وجهين:

أ. أحدهما: انه وقع مخبره على ما أخبر به فيه وفي نظائره، فدل ذلك على أنه من عند عالم الغيوب والسرائر.

ب. الثاني: انه لا يقدم على الإخبار بذلك إلا وهو يأمن أن يكون مخبره على ما أخبر به، لأنه لا داعي له إلى ذلك إلا الصدق، وروي أن النبي ﷺ، لما نزلت هذه الآية، قال لحراس من أصحابه، كانوا يحرسونه، منهم سعد وحذيفة: الحقوا بملاحقكم، فإن الله تعالى عصمني من الناس.

٦. قرأ نافع، وابن عامر، وأبو بكر، عن عاصم: (رسالاته) على الجمع، والباقون ﴿رِسَالَتَهُ﴾ على التوحيد.. قال أبو علي:

أ. حجة من جمع أن الرسل يرسلون بضروب من الرسائل كالتوحيد والشرائع، فلما اختلفت الرسائل، حسن أن تجمع، كما حسن أن تجمع أسماء الأجناس إذا اختلفت، ألا ترى أنك تقول: رأيت تمورا كثيرة، نظرت في علوم كثيرة، فتجمع هذه الأسماء إذا أردت ضروبها، كما تجمع غيرها من الأسماء.

ب. وحجة من أفرد هذه الأسماء أنها تدل على الكثرة، وإن لم تجمع، كما تدل الألفاظ المصوغة

للجمع.

فمما يدل على ذلك قوله: ﴿لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا﴾ فوقع الاسم الشائع على الجميع، كما يقع على الواحد، فكذلك الرسالة.

٧. ﴿أَرْسَلَ﴾ فعل يتعدى إلى مفعولين، ويتعدى إلى الثاني منهما بالجار، كقوله: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ﴾ [نوح: ١] ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾ [الصافات: ١٤٧]، ويجوز الاقتصار على أحدهما دون الآخر، كقوله: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَى﴾ و﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا﴾ وقال: ﴿فَأَرْسِلْ إِلَى هَارُونَ﴾ فعدى إلى الثاني، والأول مقدر في المعنى، وقال:

فأرسلها العراك ولم يذدها ولم يشفق على نغص الدخال

المعنى خلى بين هذه الإبل وبين شربها، ولم يمنعها من ذلك، وأنشد أبو زيد:

لعمري لقد جاءت رسالة مالك إلى جسد بين العوائد مختبل

والرسالة هنا بمعنى الإرسال، والمصدر في تقدير الإضافة إلى الفاعل، والمفعول الأول في التقدير محذوف، كما كان في قوله: ﴿فَأَرْسِلْ إِلَى هَارُونَ﴾ محذوفا، والتقدير رسالة المالك زيدا إلى جسد، والجار والمجرور في موضع نصب بكونه مفعولا ثانيا، والمعنى: إلى ذي جسد، لان الرسالة لم تأت الجسد دون سائر المرسل إليه، وهذا مثل قوله: (وبعد عطائك المائة الرتاعا) في وضعه العطاء موضع الاعطاء.

ابن الجوزي:

ذكر أبو الفرج بن الجوزي (ت ٥٩٧ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. ذكر المفسّرون أنّ هذه الآية نزلت على أسباب:

أ. روى الحسن أن النبيّ ﷺ قال (لمّا بعثني الله برسالته، ضقت بها ذرعا، وعرفت أنّ من النّاس من يكذّبني)، وكان رسول الله ﷺ، يهاب قريشا واليهود والنّصارى، فأنزل الله هذه الآية.

ب. وقال مجاهد: لمّا نزلت ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ قال: (يا ربّ كيف أصنع؟ إنّما أنا وحدي يجتمع عليّ النّاس)، فأنزل الله ﴿وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾

(١) زاد المسير في علم التفسير: ١/٥٦٨.

ج. وقال مقاتل: لمّا دعا اليهود، وأكثر عليهم، جعلوا يستهزئون به، فسكت عنهم، فحرّض بهذه الآية.

د. وقال ابن عباس: كان رسول الله ﷺ يحرس فيرسل معه أبو طالب كلّ يوم رجالا من بني هاشم يحرسونه حتى نزلت عليه هذه الآية، فقال: (يا عمّاه إنّ الله قد عصمني من الجنّ والإنس)

هـ. وقال أبو هريرة: نزل رسول الله ﷺ ذات يوم تحت شجرة وعلّق سيفه فيها، فجاء رجل فأخذه، فقال: يا محمّد من يمنعني منك؟ فقال: (الله)، فنزل قوله تعالى: ﴿وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾

و. وقالت عائشة: سهر رسول الله ﷺ ذات ليلة، فقلت: ما شأنك؟ قال ألا رجل صالح يحرسني الليلة، فبينما نحن في ذلك إذ سمعت صوت السّلاح، فقال: (من هذا)؟ فقال: سعد وحذيفة جئنا نحرسك، فنام رسول الله ﷺ حتى سمعت غطيطه، فنزلت ﴿وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾، فأخرج رسول الله ﷺ رأسه من قبّة أدم وقال: (انصرفوا أيّها النّاس، فقد عصمني الله تعالى)

٢. ﴿بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ﴾:

أ. قال الزجّاج: معناه: بلّغ جميع ما أنزل إليك، ولا تراقبنّ أحدا، ولا تتركنّ شيئا منه مخافة أن ينالك مكروه، فإن تركت منه شيئا، فما بلّغت، قال ابن قتيبة: يدلّ على هذا المحذوف قوله تعالى: ﴿وَاللهُ يَعْصِمُكَ﴾

ب. وقال ابن عباس: إن كتمت آية فما بلّغت رسالتي.

ج. وقال غيره: المعنى: بلّغ جميع ما أنزل إليك جهرا، فإن أخفيت شيئا منه لخوف أذى يلحقك، فكأنّك ما بلّغت شيئا.

٣. قرأ أبو عمرو، وحمزة، والكسائيّ: (رسالته) على التّوحيد، وقرأ نافع (رسالاته) على الجمع.

٤. ﴿وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ قال ابن قتيبة: أي يمنعك منهم، وعصمة الله: منعه للعبد من المعاصي، ويقال: طعام لا يعصم، أي: لا يمنع من الجوع.

٥. سؤال وإشكال: أين ضمان العصمة وقد شجّ جبينه، وكسرت رباعيّته، وبولغ في أذاه؟

والجواب: عنه جوابان:

أ. أحدهما: أنه عصمة من القتل والأسر وتلف الجملة، فأمّا عوارض الأذى، فلا تمنع عصمة

الجملة.

ب. الثاني: أن هذه الآية نزلت بعد ما جرى عليه ذلك، لأنّ (المائدة) من أواخر ما نزل.

في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ قولان:

أ. أحدهما: لا يهديهم إلى الجنّة.

ب. الثاني: لا يعينهم على بلوغ غرضهم.

الرَّازي:

ذكر الفخر الرازي (ت ٦٠٦ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي(١):

١. ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ أمر الرسول بأن لا ينظر إلى قلة المقتصدين وكثرة الفاسقين ولا يخشى مكروههم فقال: ﴿بَلِّغْ﴾ أي واصبر على تبليغ ما أنزلته إليك من كشف أسرارهم وفضائح أفعالهم، فإن الله يعصمك من كيدهم ويصونك من مكرهم:

أ. روى الحسن عن النبي ﷺ قال: (إن الله بعثني برسالته فضقت بها ذرعا وعرفت أن الناس يكذبوني واليهود والنصارى وقريش يخوفوني، فلما أنزل الله هذه الآية زال الخوف بالكلية)

ب. روي أن النبي ﷺ كان أيام إقامته بمكة يجاهر ببعض القرآن ويخفي بعضه إشفاقا على نفسه من تسرع المشركين إليه وإلى أصحابه، فلما أعز الله الإسلام وأيده بالمؤمنين قال له: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ أي لا تراقبن أحدا، ولا تترك شيئا مما أنزل إليك خوفا من أن ينالك مكروه.

٢. ﴿وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾ قرأ نافع ﴿رِسالاتِهِ﴾ في هذه الآية وفي الأنعام حيث يجعل رسالاته [الأنعام: ١٢٤] على الجمع، وفي الأعراف ﴿بِرِسَالَاتِي﴾ [الأعراف: ١٤٤] على الواحد، وقرأ حفص عن عاصم على الضد، ففي المائدة والأنعام على الواحد، وفي الأعراف على الجمع، وقرأ ابن كثير في الجميع على الواحد، وقرأ ابن عامر وأبو بكر عن عاصم كله على الجمع:

أ. حجة من جمع أن الرسل يبعثون بضروب من الرسالات وأحكام مختلفة في الشريعة، وكل آية أنزلها الله تعالى على رسوله ﷺ فهي رسالة، فحسن لفظ الجمع.

(١) التفسير الكبير: ١٢/٤٠٠.

ب. وأما من أفرد فقال: القرآن كله رسالة واحدة، وأيضا فإن لفظ الواحد قد يدل على الكثرة وإن لم يجمع كقوله: ﴿وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا﴾ [الفرقان: ١٤] فوقع الاسم الواحد على الجمع، وكذا هاهنا لفظ الرسالة وإن كان واحدا إلا أن المراد هو الجمع.

٣. سؤال وإشكال: إن قوله: ﴿وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾ معناه فإن لم تبلغ رسالته فما بلغت رسالته، فأي فائدة في هذا الكلام؟ والجواب:

أ. أجاب جمهور المفسرين بأن المراد: أنك إن لم تبلغ واحدا منها كنت كمن لم يبلغ شيئا منها، وهذا الجواب عندي ضعيف، لأن من أتى بالبعض وترك البعض لو قيل: إنه ترك الكل لكان كذبا ولو قيل أيضا: إن مقدار الجرم في ترك البعض مثل مقدار الجرم في ترك الكل فهو أيضا محال ممتنع، فسقط هذا الجواب.

ب. والأصح عندي أن يقال: إن هذا خرج على قانون قوله: (أنا أبو النجم وشعري شعري)، ومعناه أن شعري قد بلغ في الكمال والفصاحة إلى حيث متى قيل فيه: إنه شعري فقد انتهى مدحه إلى الغاية التي لا يمكن أن يزاد عليها، فهذا الكلام يفيد المبالغة التامة من هذا الوجه، فكذا هاهنا: فإن لم تبلغ رسالته فما بلغت رسالته، يعني أنه لا يمكن أن يوصف ترك التبليغ بتهديد أعظم من أنه ترك التبليغ، فكان ذلك تنبيها على غاية التهديد والوعيد والله أعلم.

٤. ذكر المفسرون في سبب نزول الآية وجوها:

أ. الأول: أنها نزلت في قصة الرجم والقصاص على ما تقدم في قصة اليهود.

ب. الثاني: نزلت في عيب اليهود واستهزائهم بالدين والنبي سكت عنهم، فنزلت هذه الآية.

ج. الثالث: لما نزلت آية التخيير، وهو قوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ﴾ [الأحزاب: ٢٨] فلم يعرضها عليهن خوفا من اختيارهن الدنيا فنزلت.

د. الرابع: نزلت في أمر زيد وزينب بنت جحش، قالت عائشة: من زعم أن رسول الله ﷺ كتم شيئا من الوحي فقد أعظم الفرية على الله، والله تعالى يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ﴾ ولو كتم رسول الله شيئا من الوحي لكتم قوله: ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللهُ مُبْدِيهِ﴾ [الأحزاب: ٣٧]

هـ. الخامس: نزلت في الجهاد، فإن المنافقين كانوا يكرهونه، فكان يمسك أحيانا عن حثهم على

الجهاد.

و. السادس: لما نزل قوله تعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ فَيَسُبُّوا اللهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام: ١٠٨] سكت الرسول عن عيب آلهتهم فنزلت هذه الآية وقال: ﴿بَلِّغْ﴾ يعني معايب آلهتهم ولا تخفها عنهم، والله يعصمك منهم.

ز. السابع: نزلت في حقوق المسلمين، وذلك لأنه قال في حجة الوداع لما بين الشرائع والمناسك (هل بلغت) قالوا نعم، قال ﷺ: (اللهم فاشهد)

ح. الثامن: روي أنه ﷺ نزل تحت شجرة في بعض أسفاره وعلق سيفه عليها، فأتاه أعرابي وهو نائم فأخذ سيفه واخترطه وقال: يا محمد من يمنعك مني؟ فقال: (الله) فرعدت يد الأعرابي وسقط السيف من يده وضرب برأسه الشجرة حتى انتثر دماغه، فأنزل الله هذه الآية وبين أنه يعصمه من الناس.

ط. التاسع: كان يهاب قريشا واليهود والنصارى، فأزال الله عن قلبه تلك الهيبة بهذه الآية.

ي. العاشر: نزلت الآية في فضل علي بن أبي طالب عليه السلام، ولما نزلت هذه الآية أخذ بيده وقال: (من كنت مولاه فعلي مولاه اللهم وال من والاه وعاد من عاداه) فلقيه عمر، فقال: هنيئا لك يا ابن أبي طالب أصبحت مولاي ومولى كل مؤمن ومؤمنة، وهو قول ابن عباس والبراء بن عازب ومحمد بن علي.

٥. هذه الروايات وإن كثرت إلا أن الأولى: حمله على أنه تعالى آمنه من مكر اليهود والنصارى، وأمره بإظهار التبليغ من غير مبالاة منه بهم، وذلك لأن ما قبل هذه الآية بكثير وما بعدها بكثير لما كان كلاما مع اليهود والنصارى امتنع إلقاء هذه الآية الواحدة في البين على وجه تكون أجنبية عما قبلها وما بعدها.

٦. سؤال وإشكال: كيف يجمع بين ﴿وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ وبين ما روي أنه ﷺ شج وجهه يوم أحد وكسرت رباعيته؟ والجواب: من وجهين:

أ. أحدهما: أن المراد يعصمه من القتل، وفيه التنبيه على أنه يجب عليه أن يحتمل كل ما دون النفس من أنواع البلاء، فما أشد تكليف الأنبياء عليهم الصلاة والسلام!

ب. ثانيها: أنها نزلت بعد يوم أحد.

٧. المراد من ﴿النَّاسِ﴾ هاهنا الكفار، بدليل قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾، ومعناه أنه تعالى لا يمكنهم مما يريدون، وعن أنس: كان رسول الله ﷺ يحرسه سعد وحذيفة حتى نزلت هذه الآية، فأخرج رأسه من قبة أدم وقال: (انصرفوا يا أيها الناس فقد عصمني الله من الناس)

القرطبي:

ذكر محمد بن أحمد القرطبي (ت ٦٧١ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾:

أ. قيل: معناه أظهر التبليغ، لأنه كان في أول الإسلام يخفيه خوفا من المشركين، ثم أمر بإظهاره في هذه الآية، وأعلمه الله أنه يعصمه من الناس، وكان عمر أول من أظهر إسلامه وقال: لا نعبد الله سرا[٢]، وفي ذلك نزلت: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال] فدلت الآية الكريمة على رد قول من قال إن النبي ﷺ كتم شيئا من أمر الدين تقية، وعلى بطلانه، ودلت على أنه ﷺ لم يسر إلى أحد شيئا من أمر الدين، لأن المعنى بلغ جميع ما أنزل إليك ظاهرا، ولولا هذا ما كان في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾

ب. وقيل: بلغ ما أنزل إليك من ربك في أمر زينب بنت جحش الأسدية، وقيل غير هذا.

ج. والصحيح القول بالعموم، قال ابن عباس: المعنى بلغ جميع ما أنزل إليك من ربك، فإن كتمت شيئا منه فما بلغت رسالته، وهذا تأديب للنبي ﷺ، وتأديب لحملة العلم من أمته ألا يكتموا شيئا من أمر شريعته، وقد علم الله تعالى من أمر نبيه أنه لا يكتم شيئا من وحيه، وفي صحيح مسلم عن مسروق عن عائشة أنها قالت: من حدثك أن محمدا ﷺ كتم شيئا من الوحي فقد كذب، والله تعالى يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾

٢. قوله تعالى: ﴿وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ دليل على نبوته، لأن الله تعالى أخبر أنه معصوم، ومن ضمن سبحانه له العصمة فلا يجوز أن يكون قد ترك شيئا مما أمره الله به، وسبب نزول هذه الآية:

أ. أن النبي ﷺ كان نازلا تحت شجرة فجاء أعرابي فاخترط سيفه وقال للنبي ﷺ: من يمنعك مني؟

---

(١) تفسير القرطبي: ٦/٢٤٢.

(٢) تاريخيا هذا غير صحيح، لأن عمر أسلم بعد الدعوة الجهرية بفترة طويلة

فقال: ﴿اللَّهُ﴾، فذعرت يد الأعرابي وسقط السيف من يده، وضرب برأسه الشجرة حتى انتثر دماغه، ذكره المهدوي، وذكره القاضي عياض في كتاب الشفاء قال: وقد رويت هذه القصة في الصحيح، وأن غورث ابن الحارث صاحب القصة، وأن النبي ﷺ عفا عنه، فرجع إلى قومه وقال: جئتكم من عند خير الناس، وقد تقدم الكلام في هذا المعنى في هذه السورة عند قوله: ﴿إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَنْ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ﴾ [المائدة] مستوفى، وفي النساء أيضا في ذكر صلاة الخوف.

ب. وفي صحيح مسلم عن جابر بن عبد الله قال غزونا مع وسول الله ﷺ غزوة قبل نجد فأدركنا رسول الله ﷺ في واد كثير العضاه فنزل رسول الله ﷺ تحت شجرة فعلق سيفه بغصن من أغصانها، قال وتفرق الناس في الوادي يستظلون بالشجر، قال فقال رسول الله ﷺ: إن رجلا أتاني وأنا نائم فأخذ السيف فاستيقظت وهو قائم على رأسي فلم أشعر إلا والسيف مصلتا في يده فقال لي من يمنعك مني ـ قال ـ قلت الله ثم قال في الثانية: من يمنعك مني ـ قال ـ قلت الله قال فشام السيف فها هو ذا جالس ثم لم يعرض له رسول الله ﷺ وقال ابن عباس قال النبي ﷺ: لما بعثني الله برسالته ضقت بها ذرعا وعرفت أن من الناس من يكذبني فأنزل الله هذه الآية.

ج. وكان أبو طالب يرسل كل يوم مع رسول الله ﷺ رجالا من بني هاشم يحرسونه حتى نزل: ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ فقال النبي ﷺ: (يا عماه إن الله قد عصمني من الجن والإنس فلا أحتاج إلى من يحرسني)، وهذا يقتضي أن ذلك كان بمكة، وأن الآية مكية وليس كذلك، وقد تقدم أن هذه السورة مدنية بإجماع، ومما يدل على أن هذه الآية مدنية ما رواه مسلم في الصحيح عن عائشة قالت: سهر رسول الله ﷺ مقدمه المدينة ليلة فقال: ليت رجلا صالحا من أصحابي يحرسني الليلة) قالت: فبينا نحن كذلك سمعنا خشخشة سلاح، فقال: (مِنْ هَذَا)؟ قال سعد بن أبي وقاص فقال له رسول الله ﷺ: (ما جاء بك)؟ فقال: وقع في نفسي خوف على رسول الله ﷺ فجئت أحرسه، فدعا له رسول الله ﷺ ثم نام، وفي غير الصحيح قالت: فبينما نحن كذلك سمعت صوت السلاح، فقال: مِنْ هَذَا؟ فقالوا: سعد وحذيفة جئنا نحرسك، فنام ﷺ حتى سمعت غطيطه ونزلت هذه الآية، فأخرج رسول الله ﷺ رأسه من قبة أدم وقال: انصرفوا أيها الناس فقد عصمني الله.

٣. قرأ أهل المدينة: (رسالاته) على الجمع، وأبو عمرو وأهل الكوفة: ﴿رِسَالَتَهُ﴾ على التوحيد،

قال النحاس: والقراءتان حسنتان والجمع أبين، لأن رسول الله ﷺ كان ينزل عليه الوحي شيئا فشيئا ثم يبينه، والإفراد يدل على الكثرة، فهي كالمصدر والمصدر في أكثر الكلام لا يجمع ولا يثنى لدلالته على نوعه بلفظه كقوله: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ [إبراهيم]

﴿إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ أي لا يرشدهم وقد تقدم، وقيل: أبلغ أنت فأما الهداية فإلينا، نظيره ﴿مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾ [المائدة]

الشوكاني:

ذكر محمد بن علي الشوكاني (ت ١٢٥٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[1]:

١. العموم الكائن في ﴿مَا أُنْزِلَ﴾ يفيد أنه يجب عليه ﷺ أن يبلغ جميع ما أنزله الله إليه لا يكتم منه شيئا، وفيه دليل على أنه لم يسرّ إلى أحد مما يتعلق بما أنزله الله إليه شيئا، ولهذا ثبت في الصحيحين عن عائشة أنها قالت: من زعم أن محمدا ﷺ كتم شيئا من الوحي فقد كذب، وفي صحيح البخاري من حديث أبي جحيفة وهب بن عبد الله السوائي قال قلت لعليّ بن أبي طالب: هل عندكم شيء من الوحي مما ليس في القرآن؟ فقال: لا والذي فلق الحبة وبرأ النسمة، إلا فهما يعطيه الله رجلا في القرآن وما في هذه الصحيفة، قلت: وما في هذه الصحيفة؟ قال العقل، وفكاك الأسير، وأن لا يقتل مسلم بكافر.

٢. ﴿وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ﴾ ما أمرت به من تبليغ الجميع بل كتمت ولو بعضا من ذلك فما بلّغت رسالاته، قرأ أبو عمرو وأهل الكوفة إلا شعبة ﴿رِسَالَتَهُ﴾ على التوحيد، وقرأ أهل المدينة وأهل الشام رسالاته على الجمع، قال النحاس: (والجمع أبين لأنّ رسول الله ﷺ كان ينزل عليه الوحي شيئا فشيئا، ثم يبينه)، وفيه نظر، فإنّ نفي التبليغ عن الرسالة الواحدة أبلغ من نفيه عن الرسالات، كما ذكره علماء البيان على خلاف في ذلك، وقد بلغ رسول الله ﷺ لأمته ما نزل إليهم، وقال لهم في غير موطن: هل بلغت؟ فيشهدون له بالبيان، فجزاه الله عن أمته خيرا.

٣. ثم إنّ الله سبحانه وعده بالعصمة من الناس دفعا لما يظنّ أنه حامل على كتم البيان، وهو خوف لحوق الضّرر من الناس، وقد كان ذلك بحمد الله فإنه بيّن لعباد الله ما نزل إليهم على وجه التمام، ثم حمل

---

(١) فتح القدير: ٢/٦٩.

من أبي من الدخول في الدين على الدخول فيه طوعا أو كرها وقتل صناديد الشرك وفرّق جموعهم وبدّد شملهم، وكانت كلمة الله هي العليا، فأسلم كلّ من نازعه ممن لم يسبق فيه السيف العذل حتى قال يوم الفتح لصناديد قريش وأكابرهم: ما تظنون أني فاعل بكم؟ فقالوا: أخ كريم وابن أخ كريم فقال: اذهبوا فأنتم الطلقاء.

٤ . وهكذا من سبقت له العناية من علماء هذه الأمة يعصمه الله من الناس، إن قام ببيان حجج الله وإيضاح براهينه، وصرخ بين ظهراني من ضادّ الله وعانده ولم يمتثل لشرعه كطوائف المبتدعة، وقد رأينا من هذا في أنفسنا وسمعنا منه في غيرنا ما يزيد المؤمن إيمانا وصلابة في دين الله وشدّة شكيمة في القيام بحجة الله، وكل ما يظنه متزلزلو الأقدام ومضطربو القلوب من نزول الضرر بهم وحصول المحن عليهم فهو خيالات مختلفة وتوهمات باطلة، فإنّ كلّ محنة في الظاهر هي منحة في الحقيقة، لأنها لا تأتي إلا بخير في الأولى والأخرى ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾

٥ . ﴿إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ جملة متضمّنة لتعليل ما سبق من العصمة؛ أي إن الله لا يجعل لهم سبيلا إلا الإضرار بك، فلا تخف وبلغ ما أمرت بتبليغه.

أَطَّفِّيش:

ذكر محمد أَطَّفِّيش (ت ١٣٣٢ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١ . ﴿يَآ أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ كلَّه، لا تَخَفْ لومة لائم ولا مكروهًا ولا تراقب أحدًا، والمراد: ما أنزل للتبليغ لمصالح الناس دينًا ودنيًا، لا ما يحرم إفشاؤه أو ما لا خير فيه، فعن جعفر الصادق في قوله تعالى: ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَآ أَوْحَىٰ﴾ [النجم: ١٠] أنَّه أوحى إليه في قلبه بلا واسطة، ولا يعلم به أحد إلَّا حين يعطيه الشفاعة، وقبَّح الله من قال: كَتَمَ البعضَ تقيَّة، وَيَرُدُّه: ﴿وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾، وقد قال الله تعالى: ﴿تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾، وقال: ﴿مَا فَرَّطْنَا﴾ إلخ [الأنعام: ٣٨]، ما في السنَّة أخذه النبيء ﷺ من القرآن إذا لم ينزل به وحي، أو هو فيه ولو نزل به وحي على حدة، ويحتمل ما قلته قول عائشة أنَّه ﷺ قال: (لا أحلِّل ولا أحرِّم إلَّا ما في القرآن)، قال ابن مسعود: (ذكر لنا في القرآن كلُّ شيء إلَّا

(١) تيسير التفسير، أطفيش: ٤/٨٦.

أنَّ علمنا يقصر)، والمراد أنَّ القرآن محلُّ الاستنباط، وقد خَرَّجَ بعضهم عُمرَهُ ﷺ ثلاثًا وَسِتِّينَ سنة من قوله تعالى: ﴿وَلَنْ يُّوَخِّرَ اللهُ نَفْسًا﴾ إلخ [المنافقون: ١١] في سورة هي رأس ثلاث وَسِتِّينَ سورة.

٢. ﴿وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ﴾ بل تركت بعضًا ﴿فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَاتِهِ﴾؛ لأنَّ تاركَ بعضٍ كتاركِ كلٍّ، فكأنَّك لم تبلِّغ شيئًا لارتباط بعضٍ ببعضٍ، إذ كانت كشيء واحد أمر بتبليغها كلِّها، فَتَرْكُ بعضٍ كتركِ ركنٍ من أركان الصلاة، أو إن لم تفعل التبليغ بأن تركت ما تركت عوقبت؛ لأنَّك لم تبلِّغ رسالته، فنابت العلَّة مناب الجواب، وهو في صورة تهديد، كأنَّه قيل: تهيَّأْ لشأن ما اقترفت من عدم التبليغ، كما روي عنه ﷺ : (إنَّ الله بعثني برسالته، فضِقت بها ذرعًا، فأوحى الله إليَّ: إن لم تبلِّغ رسالتي عذَّبتك، فضمن لي العصمة، فقويت)، قال ابن عبَّاس: سئل رسول الله ﷺ : أيُّ آية أنزلت من السماء أشدُّ عليك؟ فقال: (كنت بمنى أيَّام موسم، فنزل عليَّ ﴿يَآ أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ﴾ الآية، فناديت عند العقبة: أيُّها الناس من ينصرني على أن أبلِّغ رسالات ربِّي ولكم الجنَّة؟ أيُّها الناس قولوا: لا إله إلَّا الله وأنا رسول الله إليكم تُفلحوا، ولكم الجنَّة، فما بقي رجل ولا امرأة ولا أمَة، ولا صبيٌّ إلَّا رموني بالتراب والحجارة، ويقولون: كذَّاب صابئ، فعرض عليَّ عارض فقال: يا محمَّد إن كنت رسول الله، فقد آن لك أن تدعو عليهم كنوح، فقلت: اللهُمَّ اهْدِ قَوْمِي فَإِنَّهُمْ لا يعلمون، وانصرني عليهم أن يجيبوني إلى طاعتك، فجاء العبَّاس فطردهم وأنقذني منهم)

٣. ﴿وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ لا يصلك منهم ضربٌ ولا قتل ولا سحر، ولا ما يمنعك من التبليغ، وهذا بعدما سُحر في مشط ومشاطة، وأُطعِم لحمًا مسمومًا، وشُجَّ يوم أحد وكُسرت رباعيته، وسورة المائدة من آخر ما أنزل، فهو يبلِّغ ما نزل بعد هذا، ويكرِّر تبليغ ما بلَّغ من قبلُ لمن بلغه ولمن لم يبلغه، وإن كانت الآية قبل أُحُدٍ والسحرِ والسمِّ وجُعلت في هذه السورة فالمُراد: عصمته من القتل وما يمنعه من التبليغ، وكان ﷺ يحرسه سعد وحذيفة، كما قال أنس: إنَّه كان ﷺ يحرس حتَّى نزلت هذه الآية، فأخرج رأسه من قبَّة أَدَمٍ، أي: كان فيها حال النزول، فقال: (انصرفوا أيُّها الناس فقد عصمني الله من الناس)

٤. ﴿إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ لا يمكِّنهم مِمَّا أَرادوه مِن قتلك وقتلِ أَصحابك، ومن تعطيل التبليغ، أَو لا يوفِّق من سبقت شقاوتُه عند الله إلى التوبة، والأوَّل أَنسب لِمَا في صحيح مسلم عن عائشة: (سهر رسول الله ﷺ مَقْدَمَهُ المدينةَ ليلةً فقال: ليت رجلا صالحا من أصحابي يحرسني الليلة، قالت: فبينما نحن كذلك، سمعنا خشخشة السلاح، قال: من هذا؟ قال: سعد بن أبي وقَّاص، فقال له ﷺ : ما جاء

بك؟ قال: وقع في نفسي خوف على رسول الله ﷺ ، فجئت أحرسه، فدعا له رسول الله ﷺ فنام)، وروي أنَّها قالت: (فبينما نحن كذلك سمعت صوت السلاح، فقال: من هذا؟ قال: سعد وحذيفة جئنا نحرسك، فنام! حتَّى سمعت غطيطه، ونزلت هذه الآية، فأَخرج رسول الله ﷺ رأسه من قبَّة أدم، وقال: انصرفوا أيُّها الناس فقد عصمني الله من الناس)

٥. وزعم بعض أنَّ المعنى: يعصمك من الذنوب من بين الناس، وهو تفسير لم يعصم صاحبه من الخطأ، وكذا من قال: لا يهدي القوم الكافرين إلى الكفر، بل إلى الإيمان والهدى إرشادًا.

القاسمي:

ذكر جمال الدين القاسمي (ت ١٣٣٢ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[1]:

١. ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ﴾ نودي ﷺ بعنوان الرسالة تشريفا له وإيذانا بأنها من موجبات الإتيان بما أمر به من التبليغ ﴿بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ مما يفصّل مساوئ الكفار، ومن قتالهم، والدعوة إلى الإسلام، غير مراقب في التبليغ أحدا، ولا خائف أن ينالك مكروه.

٢. ﴿وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ﴾ أي: ما تؤمر به من تبليغ الجميع، سترا لبعض مساوئهم ﴿فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾ أي: شيئا مما أرسلت به، لما أن بعضها ليس أولى بالأداء من بعض، فإذا لم تؤد بعضها فكأنك أغفلت أداءها جميعا، كما أنّ من لم يؤمن ببعضها، كان كمن لم يؤمن بكلّها.

٣. قال في (الانتصاف): ولما كان عدم تبليغ الرسالة أمرا معلوما عند الناس، مستقرّا في الأفهام أنه عظيم شنيع، ينقم على مرتكبه، بل عدم نشر العلم من العالم أمر فظيع، فضلا عن كتمان الرسالة من الرسول ـ استغنى عن ذكر الزيادات التي يتفاوت بها الشرط والجزاء، للصوقها بالجزاء في الأفهام، وإن كل من سمع عدم تبليغ الرسالة، فهم ما وراءه من الوعيد والتهديد، وحسن هذا الأسلوب في الكتاب العزيز بذكر الشرط عامّا بقوله: ﴿وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ﴾ ولم يقل: فإن لم تبلغ الرسالة فما بلغت الرسالة، حتى يكون اللفظ متغايرا، وهذه المغايرة اللفظية ـ وإن كان المعنى واحد ـ أحسن رونقا وأظهر طلاوة، من تكرار اللفظ الواحد في الشرط والجزاء، وهذا الفصل كاللباب من علم البيان، به من التبليغ وعدم الاكترات

(١) تفسير القاسمي: ١٩٢/٤.

بعداوتهم وكيدهم ﴿إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ تعليل لعصمته، أي: لا يهديهم طريق الإساءة إليك، فما عذرك في مراقبتهم؟

٤. لا خفاء في أن النبيّ ﷺ قد بلّغ البلاغ التام، وقام به أتمّ القيام، وثبت في الشدائد وهو مطلوب، وصبر على البأساء والضرّاء وهو مكروب ومحروب، وقد لقى بمكة من قريش ما يشيب النواصي، ويهدّ الصياصي، وهو، مع الضعف، يصابر صبر المستعلي، ويثبت ثبات المستولي، ثم انتصب لجهاد الأعداء وقد أحاطوا بجهاته، وأحدقوا بجنباته، وصار بإئثانه في الأعداء محذورا، وبالرعب منه منصورا، حتى أصبح سراج الدين وهّاجا، ودخل الناس في دين الله أفواجا:

أ. روى البخاريّ ومسلم وغيرهما عن عائشة، قالت لمسروق: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ﴾ من حدثك أنّ محمدا كتم شيئا مما أنزل الله عليه فقد كذب، والله يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾.. الآية.

ب. وفي (الصحيحين) عنها أيضا أنها قالت: لو كان محمد ﷺ كاتما شيئا من القرآن لكتم هذه الآية: ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ﴾

ج. روى البخاريّ وغيره عن أبي جحيفة قال قلت لعليّ بن أبي طالب: هل عندكم شيء من الوحي مما ليس في القرآن؟ فقال: لا، والذي فلق الحبة وبرأ النسمة! إلا فهما يعطيه الله رجلا في القرآن، وما في هذه الصحيفة، قلت: وما في هذه الصحيفة؟ قال العقل، وفكاك الأسير، وأن لا يقتل مسلم بكافر.

د. وقال البخاريّ: قال الزهريّ: من الله الرسالة، وعلى الرسول البلاغ، وعلينا التسليم.

هـ. قال ابن كثير: وقد شهدت له ﷺ أمته بإبلاغ الرسالة، وأداء الأمانة، واستنطقهم بذلك في أعظم المحافل في خطبته يوم حجة الوداع، وقد كان هناك من أصحابه نحو من أربعين ألفا، كما

و. ثبت في (صحيح مسلم) عن جابر بن عبد الله: أن رسول الله ﷺ قال في خطبته يومئذ: يا أيها الناس! إنكم مسؤولون عني فما أنتم قائلون؟ قالوا: نشهد أنك بلغت وأديت ونصحت، فجعل يرفع رأسه ويرفع يده إلى السماء وينكبها إليهم ويقولون: اللهم! هل بلغت؟

ز. روى أحمد عن ابن عباس: قال رسول الله ﷺ في حجة الوداع: يا أيها الناس! أي يوم هذا؟ قالوا: يوم حرام، قال أيّ بلد هذا؟ قالوا: بلد حرام، قال فأي شهر هذا؟ قالوا: شهر حرام، قال فإن أموالكم

ودماءكم وأعراضكم عليكم حرام، كحرمة يومكم هذا في بلدكم هذا في شهركم هذا، ثم أعادها مرارا، ثم رفع إصبعه إلى السماء فقال: اللهم! هل بلّغت؟ مرارا (قال ابن عباس: والله! إنها لوصية إلى ربه عز وجل) ثم قال ألا فليبلغ الشاهد الغائب، لا ترجعوا بعدي كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض..!

٥. تضمن قوله تعالى: ﴿وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ معجزة كبرى لرسوله ﷺ، قال الماورديّ في كتابه (أعلام النبوة) في الباب الثامن في معجزاته، عصمته ﷺ، ما نصه: أظهر الله تعالى لرسوله ﷺ من أعلام نبوته بعد ثبوتها بمعجز القرآن، واستغنائه عما سواه من البرهان، ما جعله زيادة استبصار يحجّ به من قلت فطنته، ويذعن لها من ضعفت بصيرته، ليكون إعجاز القرآن مدركا بالخواطر الثاقبة تفكرا واستدلالا وإعجاز العيان معلوما ببداية الحواس احتياطا واستظهارا، فيكون البليد مقهورا بوهمه وعيانه، واللبيب محجوبا بفهمه وبيانه، لأن لكل فريق من الناس طريقا هي عليهم أقرب، ولهم أجذب، فكان ما جمع انقياد الفرق أوضح سبيلا، وأعم دليلا، فمن معجزاته عصمته من أعدائه وهم الجم الغفير، والعدد الكثير، وهم على أتم حنق عليه، وأشد طلب لنفسه، وهو بينهم مسترسل قاهر، ولهم مخالط ومكاثر، ترمقه أبصارهم شزرا، وترتد عنه أيديهم ذعرا، وقد هاجر عنه أصحابه حذرا، حتى استكمل مدته فيهم ثلاث عشرة سنة، ثم خرج عنهم، سليما لم يكلم في نفس ولا جسد، وما كان ذلك إلا بعصمة إلهية وعده الله تعالى بها فحققها حيث يقول: ﴿وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ فعصمه منهم:

أ. ثم قال الماورديّ: وإن قريشا اجتمعت في دار الندوة، وكان فيهم النضر بن الحارث بن كنانة، وكان زعيم القوم، وساعده عبد الله بن الزّبعري وكان شاعر القوم، فحضهم على قتل محمد ﷺ وقال لهم: الموت خير لكم من الحياة، فقال بعضهم: كيف نصنع؟ فقال أبو جهل: هل محمد إلا رجل واحد؟ وهل بنو هاشم إلا قبيلة من قبائل قريش؟ فليس فيكم من يزهد في الحياة فيقتل محمدا ويريح قومه؟ وأطرق مليا، فقالوا: من فعل هذا ساد، فقال أبو جهل: ما محمد بأقوى من رجل منا، وإني أقوم إليه فأشدخ رأسه بحجر، فإن قتلت أرحت قومي، وإن بقيت فذاك الذي أوثر، فخرجوا على ذلك، فلما اجتمعوا في الحطيم، خرج عليهم رسول الله ﷺ، فقالوا: قد جاء، فتقدم من الركن فقام يصلي، فنظروا إليه يطيل الركوع والسجود، فقال أبو جهل: فإني أقوم فأريحكم منه، فأخذ مهراسا عظيما، ودنا من رسول الله ﷺ وهو ساجد لا يلتفت ولا يهابه، وهو يراه، فلما دنا منه ارتعد وأرسل الحجر على رجله، فرجع وقد شدخت أصابعه

وهو يرتعد، وقد دوخت أوداجه، ورسول الله ﷺ ساجد، فقال أبو جهل لأصحابه: خذوني إليكم، فالتزموه وقد غشي عليه ساعة، فلما آفاق قال له أصحابه: ما الذي أصابك؟ قال لما دنوت منه، أقبل عليّ من رأسه فحل فاغر فاه، فحمل عليّ أسنانه، فلم أتمالك، وإني أرى محمدا محجوبا، فقال له بعض أصحابه: يا أبا الحكم! رغبت وأحببت الحياة ورجعت، قال ما تغرّوني عن نفسي، قال النضر بن الحارث: فإن رجع غدا فأنا له، قالوا له: يا أبا سهم! لئن فعلت هذا لتسودنّ، فلما كان من الغد اجتمعوا في الحطيم منتظرين رسول الله ﷺ، فلما أشرف عليهم قاموا بأجمعهم فواثبوه، فأخذ حفنة من تراب وقال: شاهت الوجوه، وقال: حم لا ينصرون، فتفرقوا عنه، وهذا دفع إلهيّ وثق به من الله تعالى، فصبر عليه حتى وقاه الله، وكان من أقوى شاهد على صدقه.

ب. (ومن أعلامه): أن معمر بن يزيد، وكان أشجع قومه، استغاثت به قريش وشكوا إليه أمر رسول الله ﷺ، وكانت بنو كنانة تصدر عن رأيه وتطيع أمره، فلما شكوا إليه قال لهم: إني قادم إلى ثلاث وأريحكم منه، وعندي عشرون ألف مدجّج فلا أرى هذا الحيّ من بني هاشم يقدر على حربي، وإن سألوني الدية أعطيتهم عشر ديات، ففي مالي سعة، وكان يتقلد بسيف طوله سبعة أشبار في عرض شبر، وقصته في العرب مشهورة بالشجاعة والبأس، فلبس، يوم وعده قريشا، سلاحه وظاهر بين درعين، فوافقهم بالحطيم ورسول الله ﷺ في الحجر يصلي، وقد عرف ذلك فما التفت ولا تزعزع ولا قصر في الصلاة، فقيل له: هذا محمد ساجد، فأهوى إليه، وقد سل سيفه وأقبل نحوه، فلما دنا منه رمى بسيفه وعاد، فلما صار إلى باب الصفا عثر في درعه فسقط فقام، وقد أدمى وجهه بالحجارة، يعدو كأشد العدو، حتى بلغ البطحاء ما يلتفت إلى خلف، فاجتمعوا وغسلوا عن وجهه الدم وقالوا: ما أصابك؟ قال ويحكم! المغرور من غررتموه، قالوا: ما شأنك؟ قال ما رأيت كاليوم، دعوني ترجع إلي نفسي، فتركوه ساعة وقالوا: ما أصابك؟ يا أبا الليث! قال إني لما دنوت من محمد، فأردت أن أهوى بسيفي إليه، أهوى إليّ من عند رأسه شجاعان أقرعان ينفخان بالنيران، وتلمع من أبصارهما، فعدوت، فما كنت لأعود في شيء من مساءة محمد.

ج. (ومن أعلامه): أن كلدة بن أسد، أبا الأشد، وكان من القوة بمكان، خاطر قريشا يوما في قتل رسول الله ﷺ، فأعظموا له الخطر إن هو كفاهم، فرأى رسول الله ﷺ في الطريق يريد المسجد ما بين دار عقيل وعقال، فجاء كلدة ومعه المزراق، فرجع المزراق في صدره، فرجع فزعا، فقالت له قريش: مالك؟

يا أبا الأشد! فقال: ويحكم! ما ترون الفحل خلفي؟ قالوا: ما نرى شيئا، قال ويحكم! فإني أراه، فلم يزل يعدو حتى بلغ الطائف، فاستهزأت به ثقيف، فقال: أنا أعذركم، لو رأيتم ما رأيت لهلكتم.

د. (ومن أعلامه): أن أبا لهب خرج يوما، وقد اجتمعت قريش فقالوا له: يا أبا عتبة! إنك سيدنا وأنت أولى بمحمد منا، وإن أبا طالب هو الحائل بيننا وبينه، ولو قتلته لم ينكر أبو طالب ولا حمزة منك شيئا، وأنت بريء من دمه فنؤدي نحن الدية وتسود قومك، فقال: فإني أكفيكم! ففرحوا بذلك ومدحته خطباؤهم، فلما كان في تلك الليلة وكان مشرفا عليه، نزل أبو لهب، وهو يصلي، وتسلقت امرأته أم جميل الحائط، حتى وقفت على رسول الله ﷺ، وهو ساجد، فصاح به أبو لهب فلم يلتفت إليه، وهما كانا لا ينقلان قدما ولا يقدران على شيء حتى تفجر الصبح، وفرغ رسول الله ﷺ، فقال له أبو لهب: يا محمدا أطلق عنا، فقال: ما كنت لأطلق عنكما أو تضمنا لي أنكما لا تؤذياني، قالا: قد فعلنا، فدعا ربه فرجعا.

هـ. (ومن أعلامه): أن قريشا اجتمعوا في الحطيم، فخطبهم، عتبة بن ربيعة فقال: إن هذا ابن عبد المطلب قد نغص علينا عيشنا وفرّق جماعتنا وبدّد شملنا وعاب ديننا وسفّه أحلامنا وضلل آباءنا، وكان في القوم الوليد بن المغيرة وأبو جهل ابن هشام وشيبة بن ربيعة والنضر بن الحارث ومنبه ونبيه ابنا الحجاج، وأمية وأبيّ ابنا خلف، في جماعة من صناديد قريش، فقالوا له: قل ما شئت فإنا نطيعك، قال سأقوم فأكلمه، فإن هو رجع عن كلامه وعما يدعو إليه، وإلا رأينا فيه رأينا، فقالوا له: شأنك يا أبا عبد شمس! فقام وتقدم إلى النبيّ ﷺ وهو جالس وحده، فقال: أنعم صباحا يا محمد! قال يا عبد شمس! إن الله قد أبدلنا بهذا، السلام، تحية أهل الجنة، قال يا ابن أخي! إني قد جئتك من عند صناديد قريش لأعرض عليك أمورهم، إن أنت قبلتها فلك الحظ فيها ولنا فيها الفسحة! ثم قال يا ابن عبد المطلب! أنا زعيم قريش فيما قالت، قال قل، قال يا ابن عبد المطلب! إنك دعوت العرب إلى أمر ما يعرفونه فاقبل مني ما أقول لك، قال قل، قال إن كان ما تدعو إليه تطلب به ملكا فإنا نملكك علينا من غير تعب ونتوجك، فارجع عن ذلك، فسكت، ثم قال له: وإن كان ما تدعوا إليه أمرا تريد به امرأة حسناء فنحن نزوجك، فقال: لا قوة إلا بالله! ثم قال له: وإن كان ما تتكلم به تريد مالا أعطيناك من الأموال حتى تكون أغنى رجل في قريش، فإن ذلك أهون علينا من تشتت كلمتنا وتفريق جماعتنا، وإن كان ما تدعو إليه جنونا داويناك كما تداوي قيس بن ثعلبة مجنونهم، فسكت النبيّ ﷺ فقال: يا محمد! ما تقول؟ وبم أرجع إلى قريش؟ فقال النبيّ ﷺ: ﴿حم تَنْزِيلٌ مِنَ

الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ ـ حتى بلغ إلى قوله: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ [فصلت: ١ ـ ١٣]، قال عتبة: فلما تكلم بهذا الكلام، فكأن الكعبة مالت حتى خفت أن تمس رأسي من أعجازها، وقام فزعا يجر رداءه، فرجع إلى قريش وهو ينتفض انتفاض العصفور، وقام النبيّ ﷺ يصلي، فقالت قريش: لقد ذهبت من عندنا نشيطا ورجعت فزعا مرعوبا فما وراءك؟ قال ويحكم! دعوني، إنه كلمني بكلام لا أدري منه شيئا، ولقد رعدت عليّ الرعدة حتى خفت على نفسي، وقلت: الصاعقة قد أخذتني.. فندموا على ذلك.

و. (ومن أعلامه): أنه لما أراد الهجرة، خرج من مكة ومعه أبو بكر، فدخل غارا في جبل ثور ليستخفي من قريش، وقد طلبته وبذلت لمن جاء به مائة ناقة حمراء، فأعانه الله تعالى بإخفاء أثره، وأنبت على باب الغار ثمامة (وهي شجرة صغيرة)، وألهمت العنكبوت فنسجت على باب الغار نسج سنين في طرفه عين، ولدغ أبو هذه الليلة غير لدغة، فخرّق ثيابه وجعلها في الشقوق، وسدّ بعضها بقدمه اتقاء لرسول الله ﷺ، وأقام فيه ثلاثة أيام ثم خرج منه، فلقيه سراقة بن مالك بن جعشم، وهو من جملة من توجه لطلبه، فقال له أبو بكر: هذا سراقة قد قرب، فقال رسول الله ﷺ: اللهمّ! اكفنا سراقة، فأخذت الأرض قوائم فرسه إلى إبطها، فقال سراقة: يا محمد! ادع الله أن يطلقني ولك عليّ أن أردّ من جاء يطلبك، ولا أعين عليك أبدا! فقال اللهمّ! إن كان صادقا فأطلق عن فرسه، فأطلق الله عنه، ثم أسلم سراقة وحسن إسلامه.

٦. هذا ما أورده الماورديّ من الأعلام قبل الهجرة؛ ثم أورد ما وقع بعدها؛ وسننقلها عن ابن كثير، فإنه قال في هذه الآية:

أ. ومن عصمة الله لرسوله، حفظه له من أهل مكة وصناديدها وحسّادها ومعانديها ومترفيها، مع شدة العداوة والبغضة ونصب المحاربة له ليلا ونهارا، بما يخلقه الله من الأسباب العظيمة بقدره وحكمته العظيمة، فصانه في ابتداء الرسالة بعمه أبي طالب، إذ كان رئيسا مطاعا كبيرا في قريش، وخلق الله في قلبه محبة طبيعية لرسول الله ﷺ، لا شرعية، ولو كان أسلم لاجترأ عليه كفارها وكبارها، ولكن لما كان بينه وبينهم قدر مشترك في الكفر، هابوه واحترموه.

ب. فلما مات عمه أبو طالب نال منه المشركون أذى يسيرا، ثم قيض الله له الأنصار فبايعوه على الإسلام، وعلى أن يتحمل إلى دراهم، وهي المدينة، فلما صار إليها منعوه من الأحمر والأسود، وكلّما همّ أحد من المشركين وأهل الكتاب بسوء كاده الله وردّ كيده عليه، كما كاده اليهود بالسحر، فحماه الله منهم وأنزل عليه سورتي المعوذتين دواء لذلك الداء، ولما سمّه اليهود في ذراع تلك الشاة بخيبر، أعلمه الله به وحماه منه، ولهذا أشباه كثيرة جدّا يطول ذكرها.

رضا:

ذكر محمد رشيد رضا (ت ١٣٥٤هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[1]:

١. ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ تقدم أن نداء النبي ﷺ بلقب الرسول لم يرد إلا في موضعين من هذه السورة، وهذا ثانيهما؛ وكلاهما جاء في سياق الكلام في دعوة أهل الكتاب إلى الإسلام ومحاجتهم في الدين، وقد اختلف مفسرو السلف وفي وقت نزول هذه الآية:

أ. فروى ابن مردويه والضياء في المختارة عن ابن عباس، وأبو الشيخ عن الحسين، وعبد بن حميد وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد ـ ما يدل على أنها نزلت في أوائل الإسلام، وبدء العهد بالتبليغ العام، وكأنها على هذا القول وضعت في آخر مدينة للتذكير بأول العهد بالدعوة في آخر العهد بها.

ب. وروى ابن أبي حاتم وابن مردويه وابن عساكر عن أبي سعيد الخدري أنها نزلت يوم غدير خم في علي بن أبي طالب.

ج. وروت الشيعة عن الإمام محمد الباقر أن المراد بما أنزل إليه من ربه النص على خلافة علي بعده، وأنه ﷺ كان يخاف أن يشق ذلك على بعض أصحابه فشجعه الله تعالى بهذه الآية، وفي رواية عن ابن عباس أن الله أمره أن يخبر الناس بولاية علي فتخوفوا أن يقولوا: حابى ابن عمه، وأن يطعنوا في ذلك عليه، فلما نزلت الآية عليه في غدير خم أخذ بيد علي وقال: (من كنت مولاه فعلي مولاه، اللهم وال من والاه، وعاد من عاداه) ولهم في ذلك روايات وأقوال في التفسير مختلفة.

د. ومنها: ما ذكره الثعلبي في تفسيره أن هذا القول من النبي ﷺ في موالاة علي شاع وطار في البلاد

---

(١) تفسير المنار: ٣٨٤/٦.

فبلغ الحارث بن النعمان الفهري، فأتى النبي ﷺ على ناقته وكان بالأبطح فنزل وعقل ناقته وقال للنبي ﷺ وهو في ملأ من أصحابه: يا محمد أمرتنا عن الله أن نشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله؛ فقبلنا منك - ثم ذكر سائر أركان الإسلام وقال - ثم لم ترض بهذا حتى مددت بضبعي ابن عمك وفضلته علينا، وقلت (من كنت مولاه فعلي مولاة) فهذا منك أم من الله؟ فقال ﷺ (والله الذي إله إلا هو، هو أمر الله) فولى الحارث يريد راحلته وهو يقول: (اللهم إن كان هذا هو الحق عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم) [الأنفال: ٣٢] فما وصل إليها حتى رماه الله بحجر فسقط على هامته وخرج من دبره، وأنزل الله تعالى: ﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ لِلْكَافِرِينَ﴾ [المعارج: ١، ٢] الخ وهذه الرواية موضوعة، وسورة المعارج هذه مكية، وما حكاه الله من قول بعض كفار قريش ﴿اللهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ﴾ كان تذكيرا بقول قالوه قبل الهجرة، وهذا التذكير في سورة الأنفال وقد نزلت بعد غزوة بدر قبل نزول المائدة ببضع سنين، وظاهر الرواية أن الحارث بن النعمان هذا كان مسلما فارتد، ولم يعرف في الصحابة، والأبطح بمكة والنبي ﷺ ولم يرجع من غدير خم إلى مكة؛ بل نزل فيه منصرفه من حجة الوداع إلى المدينة.

٢. أما حديث (من كنت مولاه فعلي مولاه) فقد رواه أحمد في المسند من حديث البراء وبريدة، والترمذي والنسائي والضياء في المختار من حديث زيد ابن أرقم، وابن ماجه عن البراء، وحسنه بعضهم وصححه الذهبي بهذا اللفظ، ووثق أيضا سنده من زاد فيه (اللهم وال من والاه وعاد من عاداه) الخ وفي رواية أنه خطب الناس فذكر أصول الدين، ووصى بأهل بيته فقال: (إني قد تركت فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي أهل بيتي، فانظروا كيف تخلفوني فيهما، فإنهما لم يفترقا حتى يردا علي الحوض، الله مولاي، وأنا ولي كل مؤمن) ثم أخذ بيد علي ثم قال - الحديث، ورواه غير من ذكر بأسانيد ضعيفة ومنها أن عمر لقيه فقال له: هنيئا لك أصبحت وأمسيت مولى كل مؤمن ومؤمنة، وذكروا أن سببه تبرئة علي مما كان قاله فيه بعض من كان معه من اليمن واستمالتهم إليه، وذلك أن عليا كرم الله وجهه كان وجهه النبي ﷺ في سرية إلى اليمن، فقاتل من قاتل وأسلم على يديه من أسلم، ثم أنه تعجل إلى رسول الله ﷺ ليدرك معه الحج واستخلف على جنده رجلا من أصحابه فكسا ذلك الرجل كل واحد منهم حلة من البز الذي مع علي، فلما دنا جيشه خرج إليهم فوجد عليهم الحلل فأنكر ذلك وانتزعها منهم، فأظهر الجيش شكواه من ذلك، وروي أيضا عن بريدة الأسلمي أنه كان مع علي في غزوة اليمن وأنه رأى منه جفوة فشكاه إلى النبي ﷺ فلما

رأى النبي ﷺ أن بعض المؤمنين يشكو عليا بغير حق، إذ لم يفعل إلا ما يرضي الحق، خطب الناس في غدير خم، وأظهر رضاه عن علي وولايته له وما ينبغي للمؤمنين من موالاته، وغدير خم مكان بين الحرمين قريب من رابغ على بعد ميلين من الجحفة، قالوا وقد نزله النبي ﷺ وخطب الناس فيه في اليوم الثامن من ذي الحجة، وقد اتخذته الشيعة عيدا على عهد بني بويه في حدود الاربع مئة.

٣. ويقول أهل السنة إن الحديث لا يدل على ولاية السلطة التي هي الإمامة أو الخلافة، ولم يستعمل هذا اللفظ في القرآن بهذا المعنى، بل المراد بالولاية فيه ولاية النصرة والمودة التي قال الله فيها في كل من المؤمنين والكافرين ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ [المائدة: ٥١] معناه من كنت ناصرا ومواليا له فعلي ناصره ومواليه، أو من والاني نصرني فليوال عليا وينصره، وحاصل معناه أنه يقفو أثر النبي ﷺ فينصر من ينصر النبي ﷺ، وعلى من ينصر النبي أن ينصره، وهذه مزية عظيمة، وقد نصر علي كرم الله وجهه أبا بكر وعمر وعثمان ووالاهم، فالحديث ليس حجة على من والاهم مثله، بل حجة له على من يبغضهم ويتبرأ منهم، وإنما يصح أن يكون حجة على من والى معاوية ونصره، فهو لا يدل على الإمامة بل يدل على نصره إماما ومأموما، ولو دل على الإمامة عند الخطاب لكان إماما مع وجود النبي ﷺ والشيعة لا تقول بذلك، وللفريقين أقوال في ذلك لا نحب استقصاءها والترجيح بينها، لأنها من الجدل الذي فرق بين المسلمين، وأوقع بينهم العداوة والبغضاء، وما دامت عصبية المذاهب غالبة على الجماهير فلا رجاء في تحريمهم الحق في مسائل الخلاف، ولا في تجنبهم ما يترتب على الخلاف من التفرق والعداء، ولو زالت تلك العصبية ونبذها الجمهور لما ضر المسلمين حينئذ ثبوت هذا القول أو ذاك، لأنهم لا ينظرون فيه حينئذ إلا بمرآة الإنصاف والاعتبار، فيحمون المحقين، ويستغفرون للمخطئين (ربنا اغفر لنا وإخواننا الذين سبقونا بالإيمان، ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم) (الحشر: ١٠]

٤. ثم إننا نجزم بأن مسألة الإمامة لو كان فيها نص من القرآن أو الحديث لتواتر واستفاض، ولم يقع فيها ما وقع من الخلاف، ولتصدى علي للقيام بأمر المسلمين يوم وفاة النبي ﷺ فخطبهم وذكرهم بالنص، وبين لهم من يحسن بيانه في ذلك الوقت، وكان هو الواجب عليه لو كان يعتقد أنه الإمام بعد رسول الله ﷺ بأمر من الله ورسوله، ولكنه لم يقل ذلك ولا احتج بالآية هو ولا أحد من آل بيته وأنصاره الذي يفضلونه على غيره، يوم السقيفة ولا يوم الشورى بعد عمر، ولا قبل ذلك وبعده في زمنه، وهو هو

الذي كان تأخذه في الله لومة لائم، ولم يعرف التقية في قول ولا عمل؛ وإنما وجدت هذه المسائل، ووضعت لها روايات واستنبطت الدلائل، بعد تكون الفرق وعصبية المذاهب، والوصية بالخلافة لا مناسبة لها في سياق محاجة أهل الكتاب، فهي مما لا ترضاه بلاغة القرآن، بل لو أراد النبي ﷺ النص على خلفته من بعده وتبليغ ذلك للناس لقاله في خطبته في حجة الوداع، وهي التي استشهد الناس فيها على تبليغه فشهدوا، وأشهد الله على ذلك، دع سياق الآية وما قبلها وما بعدها، فإنها هي نفسها تقبل أن يكون المراد التبليغ فيها تبليغ الناس إمارة علي، فإن جملة (إن لم تفعل) الشرطية، التي بعد جملة ﴿بَلِّغْ﴾ الأمرية، وجملة الأمر بالعصمة، وجملة التذييل التعليلي بنفي هداية الكافرين ـ لا يناسب شيء منها تبليغ الناس مسألة الإمارة، فتأمل الآية في ذاتها بعين البصيرة لا بعين التقليد.

٥. وأما الحديث فنهتدي به: نوالي عليا المرتضى ونوالي من والاهم، ونعادي من عاداهم، ونعد ذلك كموالاة رسول الله ﷺ، ونؤمن بأن عترته ﷺ تجمع على مفارقة الكتاب الذي أنزله الله عليه، وأن الكتاب والعترة خليفتا الرسول، فقد صح الحديث بذلك في غير قصة الغدير؛ فإذا أجمعوا على أمر قبلناه واتبعناه، وإذا تنازعوا في أمر رددناه إلى الله والرسول.

٦. وأما المتبادر من الآية فالظاهر أنه الأمر بالتبليغ العام في أول الإسلام، كما رواه أهل التفسير بالمأثور، ولولاه لاحتمل أن يكون المراد به تبليغ أهل الكتاب ما بعده هذه الآية، كأنه قال بلغ ما أنزل إليك في شأن أهل الكتاب، واذكر لهم ما يكون فصل الخطاب، فإن سألت عن ذلك الجواب: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾ [المائدة: ٦٨] الخ ما سيأتي، وإذا صح حديث ابن عباس الذي رواه ابن مردويه والضياء لا يبقى للاحتمال مجال، قال: سئل رسول الله ﷺ أي آية من السماء أنزلت أشد عليك؟ فقال: (كنت بمنى أيام موسم واجتمع مشركو العرب وأفناء الناس في الموسم، فنزل علي جبريل فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾ الآية، ـ قال ـ فقمت عند العقبة فقلت: يا أيها الناس من ينصرني على أن أبلغ رسالات ربي ولكم الجنة؟ أيها الناس قولوا لا إله إلا الله، وأنا رسول الله إليكم، تفلحوا وتنجحوا ولكم الجنة ـ قال ﷺ فما بقي رجل ولا امرأة ولا صبي إلا يرمون علي بالتراب والحجارة ويقولون كذاب صابئ: فعرض علي عارض فقال: يا محمد إن كنت رسول الله فقد آن لك أن تدعو عليهم كما دعا نوح على قومه بالهلاك، فقال النبي ﷺ اللهم اهد قومي

فإنهم لا يعلمون، وانصرني عليهم أن يجيبوني إلى طاعتك) فجاء العباس عمه فأنقذه منهم وطردهم عنه، وسيأتي لهذا مزيد تأكيد.

٧. ﴿وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ﴾ أي وإن لم تفعل ما أمرت به التبليغ العام لما أنزل إليك كله ـ وهو ما عليه الجمهور ـ أو الخاص بأهل الكتاب ـ على ما سبق من الاحتمال ـ بأن كتمته ولو مؤقتا خوفا من الأذى بالقول أو الفعل أو بهما جميعا.

٨. ﴿فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾ أي فحسبك جرما أنك ما بلغت الرسالة ولا قمت بها بعثت لأجله، وهو تبليغ الناس ما انزل إليهم من ربهم ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾ وذهب الجمهور إلى أن معناه: وإن لم تبلغ جميع ما أنزل إليك من ربك بأن كتمت بعضه فكأنك لم تبلغ منه شيئا قط، لأن كتمان البعض ككتمان الجميع، فهو من قبيل قوله تعالى: ﴿مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾ [المائدة: ٣٢] ويقويه قراءة نافع وابن عامر وابن أبي بكر (رسالاته) بالجمع، فمعنى هذه القراءة إفادة استغراق النفي لكل مسألة من مسائل الوحي الذي كلف الرسول تبليغه، لكن في الحكم لا في الواقع، فكأنه قال وإن لم تفعل كنت كأنك ما بلغت شيئا ما من مسائل الرسالة لأنها لا تتجزأ، وقد ضعف هذا الوجه الرازي وإن كان رأي الجمهور، لأنه يقتضي أن ترك تبليغ بعض المسائل ترك لتبليغ كل مسألة بالفعل، وذلك خلاف الواقع؛ أو في الحكم، ولا يصح أن يجعل تارك صلاة واحدة كتارك جميع الصلوات، وإنما المعنى التشبيه من بعض الوجوه، ولا يعارض ما لا يتجزأ في الحكم كالإيمان والكفر بما يتجزأ كالعبادات والمعاصي، وترك التبليغ لو جاز وقوعه كفر، ولهذا المعنى نظير يؤيده وهو حكم الله بان من كذب بعض الرسل كان كمن كذبهم كلهم، وذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا﴾ [النساء: ١٤٩] بل ورد ما يؤيد الوجه الآخر أيضا، وهو تشبيه قاتل النفس الواحدة بقاتل الناس جميعا، وتقدمت الآية في ذلك، وأما معنى قراءة الآخرين ﴿رِسَالَتَهُ﴾ بالإفراد فهو نفي القيام بمنصب الرسالة.

٩. وقد جاء في القرآن ذكر تبليغ الرسالات بالجمع في قوله تعالى من سورة الأحزاب بعد قصة زيد وزينب ﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللهَ وَكَفَى بِاللهِ حَسِيبًا﴾ [الأحزاب:

٣٩] هكذا فقرأ الجماعة كلهم ﴿رِسَالَاتِ﴾ بالجمع، وإنما قرئ بالإفراد في الشواذ، وجاء في مواضع أخرى من سورة الأعراف وغيرها، والاستشهاد بآية الأحزاب أنسب في هذا المقام، لأن ما نزل في قصة زيد وزينب هو أشد ما نزل على النبي ﷺ متعلقا بشخصه الكريم، وهو قوله تعالى: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ﴾ [الأحزاب: ٣٧] حتى روي عن عائشة وأنس أنهما قالا: لو كتم النبي ﷺ من القرآن شيئا لكتم هذه الآية.

١٠. سؤال وإشكال: إن الله تعالى قد عصم الرسل عليهم السلام من كتمان شيء كما أمرهم بتبليغه، ولولا ذلك لبطلت حكمة الرسالة بعدم ثقة الناس بالتبليغ، فما حكمة التصريح مع هذا بالأمر بالتبليغ، وتأكيده بجعل كتمان بعضه ككتمان كله؟ والجواب: حكمته بالنسبة إلى الرسول الله ﷺ إعلام الله تعالى إياه بأن التبليغ حتم لا تخيير فيه، ويجوز كتمانه ولو مؤقتا بتأخير شيء منه عن وقته على سبيل الاجتهاد، إذ كان يجوز لولا هذا النص أن يكون من اجتهاد الرسول تأخير بعض الوحي إلى أن يقوى استعداد الناس لقبوله، ولا يحملهم سماعه على رده، وإيذاء الرسول لأجله. ـ وحكمته بالنسبة إلى الناس أن يعرفوا هذه الحقيقة بالنص، فلا يعذروا إذا اختلفوا فيها اختلاف الرأي والفهم:

أ. أما الأول: فيؤيده تأخير الرسول الله ﷺ الإذن لمولاه زيد بن حارثة بتطليق زينب مع علمه بأن الله تعالى ما قضى بتزويجها له ـ وهو يعلم أن طباعهما لا تتفق وانه لا بد أن يضطر إلى طلاقها ـ إلا ليتزوجها النبي ﷺ بعد الطلاق، ويبطل بذلك جريمة التبني وما يترتب عليها من الباطل، وكان النبي ﷺ يخشى أن يقول الناس: تزوج مطلقة ابنه، لأنه تبنى زيدا قبل البعثة، ولما لم يؤقت الله تعالى وقتا لتطليق زيد زينب ولتزوج النبي ﷺ بها، وافق اجتهاد النبي ﷺ طبعه البشري والعمل بظاهر الشريعة من كراهه الطلاق، فكان بناء على هذا يقول لزيد كلما شكا إليه عشرة زينب ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللهَ﴾ ويخفى في نفسه ما يعلمه من أنه لا بد من طلاق زيد لها وتزوجه هو بها، ولكنه كان يحب تأخير ذلك، ولأجل هذا الشبه والتناسب بين تنفيذ ما أراد الله من إبطال التبني ولوازمه بزواج الرسول ﷺ بزينب بعد تطليق زيد لها وبين مسألة التبليغ الوحي وكونه لا يجوز تأخيره خشية من قول الناس أو فعلهم ـ لأجل هذا ـ بين الله تعالى عقب هذه المسألة من سورة الأحزاب سنته في عدم الحرج على الرسل وفي تبليغهم رسالات الله، وكونهم

يخشونهم ولا يخشون أحدا سواه.

ب. وأما الثاني: وهو ما ذكرناه من حكمة ذلك بالنسبة إلى الناس ـ فيؤيده ما نقل إلينا من الأقوال والآراء في جواز كتمان بعض الوحي ـ غير القرآن ـ أو العلم النبوي غير الوحي، عن كل الناس أو عن جمهورهم، وتأويل هذه الآية وما ثبت في معناها تأويلا يتفق مع آرائهم؛ فكيف لو لم ترد هذه الآية في المسألة، ومن هذا الباب ثبت في الصحيحين والسنن من سؤال بعض الناس عليا المرتضى: هل خصهم الرسول بشيء من الوحي أو علم الدين؟ يعني أهل البيت، وقد ورد في ذلك روايات متعددة بألفاظ مختلفة، منها قول أبي جحيفة لعلي: هل عندكم شيء من الوحي إلا ما في كتاب الله؟ قال علي: لا والذي فلق الحبة، وبرأ النسمة، إلا فهما يعطيه الله رجلا في القرآن، وما في هذه الصحيفة، (قال السائل) قلت: وما في هذه الصحيفة؟ قال العقل وفكاك الأسير وأن لا يقتل مسلم بكافر، ومن البديهي أن الاستثناء في كلام الإمام علي منقطع لأن الفهم في القرآن ليس من الوحي، وكذا ما في صحيفة، هو العقل أي دية القتل وفكاك الأسير الخ، وقال بعض العلماء: إن سبب سؤال علي عن ذلك أن بعض غلاة الشيعة كانوا يتحدثون أو يبثون في الناس إن عند علي وآل بيته من الوحي ما خصهم به النبي ﷺ دون الناس، ويرون عن بعضهم جواز الكتمان على سبيل التقية.

١١. ومن الناس من قال إن ما يوحيه الله للرسل أنواع: منها ما هو خاص بهم لا يأذنهم بتبليغه لأحد، ومنه ما يأمرهم بتبليغه لجميع الناس، ومنه ما يخص به من يراهم أهلا له من الأفراد، ومن هنا أخذ من يقولون إن علم الأنبياء قسمان ظاهر وباطن، فالظاهر عام والباطن خاص، ولبعض المتصوفة والباطنية سبح طويل في بحر هذه الأوهام:

أ. فأما الباطنية فأئمتهم في مذاهبهم زنادقة تعمدوا هدم الإسلام بالشبهات والتأويلات المشككات.

ب. أما المتصوفة فقد راج على بعضهم بعض تلك الشبهات والتأويلات لضعفهم في علم الكتاب والسنة، فاستمسكوا بالأحاديث الموضوعة، وأخذوا بظواهر بعض الأحاديث والآثار الصحيحة، كقول أبي هريرة المروي في صحيح البخاري: حفظت من رسول الله ﷺ وعائين فأما أحدهما فبثثته، وأما الآخر فلو بثثته فقطع مني هذا البلعوم ـ يشير إلى عنقه، لأنه إذا ذبح ينقطع بلعومه وهو مجرى الطعام ـ فجهلة

المتصوفة يزعمون أن ما عندهم من علم الحقيقة هو من قبيل ما في الوعاء الآخر من وعائي أبي هريرة، وبعضهم يظن أن ما عندهم من على الحقيقة هو من قبيل ما في الوعاء الآخر من وعائي أبي هريرة، وبعضهم يظن أن لشيوخهم سندا في تلقي علم الباطن ينتهي إلى بعض الصحابة أو أئمة آل البيت عليهم الرضوان.

١٢. والذي عليه المحققون أن أبا هريرة يعني بما كتم من الحديث أحاديث الفتن وما يكون من الفساد في الدين والدنيا على أيدي أغيلمة من سفهاء قريش، وهم بنو أمية، وقد روي عنه أنه دعا الله تعالى أن ينقذه من سنة ستين وإمارة الصبيان، وقد مات سنة سبع وخمسين، وقيل سنة تسع وخمسين؛ وفي سنة ستين ولي يزيد بن معاوية؛ فعلم أن أبا هريرة كان يستعيذ بالله من إمارته؛ وقد أعاذه الله تعالى فلم ير أيامها السود، وروي عنه أنه كان يقول في أغيلمة قريش الذين يفسدون على المسلمين أمر دينهم كما ورد في الحديث: لو شئت أن أسميهم بأسمائهم لفعلت، لهذا دليل على أنه سمع كحذيفة بن اليمان أخبار الفتن وأمراء الجور من النبي ﷺ وكان يكتمها عند وقعها خوفا من انتقام أولئك الأمراء المستبدين المفسدين، وأما كتمان شيء من أمر الدين فهو محرم بالإجماع وبنصوص الكتاب والسنة، فكيف يكتمه؟، وقد روى البخاري وغيره عنه أنه قال إن الناس يقولون أكثر أبو هريرة الحديث، ولولا آيتان في كتاب الله تعالى ما حديث حديثا، ثم يتلو قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى﴾ ـ إلى قوله تعالى ـ ﴿الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٥٩]، وقوله: (إذا أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبينه للناس ولا تكتمون) [آل عمران: ١٨٧] الخ وروى عنه أبو داوود والترمذي وابن ماجه وابن حبان في صحيحه حديث (من سئل عن علم فكتمه ألجم يوم القيامة بلجام من نار) وروي عن غيره، وله طرق حسنة وصحيحة، والوعيد في بعض ألفاظه على الكتمان مطلقا.

١٣. والحق الذي لا مرية فيه أن الرسول بلغ جميع ما أنزل الله إليه من القرآن وبينه، ولم يخص أحدا بشيء من علم الدين، وأنه لا يمتاز أحد في علم الدين على أحد إلا بفهم القرآن، وهو على نوعين: نوع كسبي يتوسل إليه بعلم السنة وآثار علماء الصحابة والتابعين وعلماء الأمصار في الصدر الأول، ومفردات العربية وأساليبها، وكذا بعلوم الكون وشؤون البشر وسنن الله في الخلق، فإن هذه العلوم المكتسبة من نقلية وعقلية هي التي يستعان بها على فهم القرآن ـ ونوع وهبي وهو الذي أشار إليه الإمام علي المرتضى بالفهم الذي يؤتيه الله عبدا في القرآن، وهو ما به يفضل أهل العم الكسبي بعضهم بعضا، ومن له من علم العربية

والسنن والآثار لا حظ له من هذا العلم الوهبي، لأن الكسبي هو الأصل الذي يثمر العلم الوهبي.

١٤. وقد ذكر القسطلاني في شرح البخاري أن قول علي يدل على جواز استخراج العالم بفهمه من القرآن ما لم يكن منقولا عن المفسرين، وقد اشترط العلماء لكل فهم جديد في القرآن شرطين - أحدهما أن يوافق مدلولات اللغة العربية، وثانيها أن لا يخالف أصول الدين القطعية، فسقطت بذلك ضلالات الباطنية، وأهل الوحدة من غلاة الصوفية، وأشباههم من الذين يعبثون بكتاب الله بأهوائهم، كالدجال عبيد الله الذي صنف في هذه الأيام تصانيف باللغة التركية حرف فيها القرآن أبعد تحريف، بحيث لا تنطبق على اللغة العربية، ولا على أصول الإسلام ول فروعه، ومنها كتاب (قوم جديد) وكتاب (صوك جواب) أي الجواب الأخير، والظاهر أن الغرض من هذه الكتب تنفير الترك من الإسلام وتحويلهم عنه.

١٥. وقد بينا غير مرة أن القرآن هو أصل الدين، وأن السنة بيان له واستنباط منه، وذكرنا بعض الشواهد على هذا في التفسير وفي المنار، ثم رأينا النقل في ذلك عن الإمام الشافعي فقد قال جميع ما حكم به النبي ﷺ فهو مما فهمه من القرآن، ذكره السيد الآلوسي في روح البيان، ومن أجدر من النبي ﷺ بالفهم الوهبي من القرآن، وقد اختصه الله بإنزاله إليه وببيانه للناس؟ وتقدم إيضاح هذا البحث في تفسير ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة: ٣] في أوائل هذه السورة، وقد روي عن أكابر الصوفية ما لم يرو عن غيرهم في إثبات كون القرآن ينبوع علوم الدين، بل صرح بعضهم بكونه ينبوع جميع العلوم والحقائق الكونية كلها، وسنعود إلى هذا البحث فنوفيه حقه إن شاء تعالى في تفسير قوله: ﴿مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٣٨] ما في معناه.

١٦. ﴿وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ روى أهل التفسير بالمأثور والترمذي وأبو الشيخ والحاكم وأبو نعيم والبيهقي والطبراني عن بضعة رجال من الصحابة أن النبي ﷺ كان يحرس في مكة قبل نزول هذه الآية فلما نزلت ترك الحرس، وكان أبو طالب أول الناس اهتماما بحراسته، وحرسه العباس أيضا، ومما روي في ذلك عن جابر وابن عباس أن النبي ﷺ كان يحرس وكان يرسل معه عمه أبو طالب كل يوم رجالا من بني هاشم يحرسونه حتى نزلت الآية فقال: (يا عم! إن الله قد عصمني لا حاجة لي إلى من تبعث) ومعنى ﴿يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ يمنعك من فتكهم، مأخوذ من عصام القربة، وهو ما توكأ به - أي ما يربط به فمها - من سير جلد أو خيط، والمراد بالناس الكفار الذين يتضمن تبليغ الوحي بيان كفرهم وضلالهم، وفساد

عقائدهم وأعمالهم، والنعي عليهم وعلى سلفهم، فإن ذلك يغيظهم ويحملهم على الإيذاء، لذلك كان المشركون يتصدون لإيذائه ﷺ بالقول والفعل، وائتمروا به بعد موت أبي طالب وقرروا قتله في دار الندوة، ولكن الله تعالى عصمه منهم، وكذلك فعل اليهود بعد الهجرة، ولذلك قيل: إن هذه الآية نزلت مرتين، فإن لم تكن نزلت مرتين فقد وضعت في سياق تبليغ أهل الكتاب لتدل على أن النبي ﷺ كان عرضة لإيذائهم، وإن الله تعالى هو الذي عصمه من كيدهم، وللتذكير بما كان من إيذاء مشركي قومه من قبلهم.

١٧. أما قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ فهو تذييل تعليلي للعصمة، أي أنه تعالى لا يهدي أولئك الناس الذين هم بصدد إيذائك على التبليغ ـ وهم القوم الكافرون ـ إلى ما يهمون به من ذلك، بل يكونون خائبين وتتم كلمات الله تعالى حتى يكمل بها الدين.

المراغي:

ذكر أحمد بن مصطفى المراغي (ت ١٣٧١ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي(١):

١. ﴿يَا أيها الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أنزل إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ أي يا أيها الرسول بلّغ إلى الخلق جميع ما أنزل إليك من ربك مالك أمرك ومبلّغك إلى كمالك، ولا تخش في ذلك أحدا ولا تخف أن ينالك من ذلك مكروه.

٢. ثم أكد ما سلف بقوله: ﴿وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾ أي وإن لم تفعل ما أمرت به من التبليغ لما أنزل إليك، بأن كتمته ولو إلى حين خوفا من الأذى بالقول أو بالفعل ـ فحسبك جرما أنك ما بلغت الرسالة ولا قمت بما بعثت لأجله، وهو تبليغ الناس ما أنزل إليهم من ربهم كما قال تعالى: ﴿إِنْ عَلَيْكَ إلا الْبَلَاغُ﴾

٣. والحكمة في التصريح بالأمر بالتبليغ وتأكيده بجعل كتمان بعضه ككتمان كله، مع العلم بأن الرسل صلوات الله عليهم معصومون من كتمان شيء مما أمرهم الله بتبليغه وإلا بطلت حكمة الرسالة بعدم ثقة الناس بالتبليغ ـ الحكمة في ذلك بالنظر إلى الرسول ﷺ إعلامه بأن التبليغ حتم لا يجوز كتمانه على أي حال بتأخير شيء عن وقته على سبيل الاجتهاد، ولولا هذا النص لكان للرسول أن يجتهد بتأخير بعض

______

(١) تفسير المراغي ٦/١٥٩.

الوحى إلى أن يقوى استعداد الناس لقبوله، ولا يحملهم سماعه على رده وإيذاء الرسول لأجله، والحكمة بالنسبة إلى الناس أن يعرفوا هذه الحقيقة بالنص، فلا يعذروا إذا اختلفوا فيها باختلاف الرأي والفهم.

٤. ومن هذا تعلم أن ما نقل من الأقوال والآراء من جواز كتمان بعض الوحى غير القرآن عن كل الناس أو عن جمهورهم لا يتفق مع الدين في شيء ولا يعوّل على ما رووه من الأخبار الضعيفة، والأحاديث الموضوعة في هذا الباب، والحق الذي لا شبهة فيه أن الرسول بلغ جميع ما أنزل إليه من القرآن، وبيّنه ولم يخصّ أحدا بشيء من علم الدين، وأنه لا امتياز لأحد عن أحد في علم الدين إلا بفهم القرآن فهما يتوسل إليه بعلم السنة، وآثار علماء الصحابة والتابعين، وعلماء الأمصار في الصدر الأول، وبمعرفة مفردات اللغة العربية وأساليبها، ومعرفة علوم الكون وشئون البشر وسنن الله في الخلق.

٥. روى ابن مردويه عن ابن عباس قال: (سئل رسول الله ﷺ أي آية من السماء أنزلت أشد عليك؟ فقال: كنت بمنى أيام موسم، واجتمع مشركو العرب وأفناء الناس في الموسم، فنزل عليّ جبريل فقال: ﴿يَا أيها الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أنزل إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾ الآية قال ـ فقمت عند العقبة فقلت: أيها الناس من ينصرنى على أن أبلغ رسالات ربى ولكم الجنة؟ أيها الناس قولوا لا إله إلا الله وأنا رسول إليكم، تفلحوا وتنجحوا ولكم الجنة ـ قال ﷺ فما بقي رجل ولا أمة ولا صبى إلا يرمون عليّ بالتراب والحجارة ويقولون: كذاب صابئ فعرض عليّ عارض فقال: اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون، وانصرني عليهم أن يجيبونى إلى طاعتك، فجاء العباس عمه فأنقذه منهم وطردهم عنه)

٦. ﴿وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ أي يمنعك من فتكهم، مأخوذ من عصام القربة: وهو ما توكأ به أي يربط به فمها من سير جلد أو خيط، والناس هم الكفار الذين يتضمن تبليغ الوحى بيان كفرهم وضلالهم، وفساد عقائدهم وأعمالهم، والنعي عليهم وعلى سلفهم، وكان ذلك يغيظهم ويحملهم على إيذائه ﷺ بالقول أو بالفعل، وائتمروا به بعد موت أبى طالب وقرروا قتله في دار الندوة ولكن الله تعالى عصمه منهم، وكذلك فعل اليهود بعد الهجرة.

٧. وقد وضعت هذه الآية وهي مكية في سياق تبليغ أهل الكتاب وهو مدنى، لتدل على أن النبي ﷺ كان عرضة لإيذائهم أيضا، وأن الله تعالى عصما من كيدهم، ولتذكّر بما كان من إيذاء مشركي قومه من قبلهم.

٨. ثم ذكر ما هو كالسبب في العصمة فقال: ﴿إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ أي إنه تعالى لا يهدى أولئك القوم الكافرين الذين هم بصدد إيذائك على التبليغ إلى ما يريدون، بل يكونون خائبين، وتتم كلمات الله تعالى حتى يكمل بها الدين.

سيّد:

ذكر سيّد قطب (ت ١٣٨٥ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي(١):

١. يمضي هذا الدرس في بيان حال أهل الكتاب ـ من اليهود والنصارى ـ وكشف الانحراف فيما يعتقدون، وكشف السوء فيما يصنعون؛ في تاريخهم كله ـ وبخاصة اليهود ـ كما يمضي في تقرير نوع العلاقة بينهم وبين الرسول ﷺ والجماعة المسلمة؛ وواجب الرسول ﷺ في تعامله معهم وواجب المسلمين.. ذلك إلى تقرير حقائق أساسية ضخمة في أصول التصور الاعتقادي؛ وفي أصول النشاط الحركي للجماعة المسلمة، تجاه المعتقدات المنحرفة وتجاه المنحرفين.

٢. لقد نادى الله سبحانه الرسول ﷺ وكلفه تبليغ ما أنزل إليه من ربه.. كل ما أنزل إليه.. لا يستبقي منه شيئا، ولا يؤخر منه شيئا مراعاة للظروف والملابسات، أو تجنبا للاصطدام بأهواء الناس، وواقع المجتمع.. وإن لم يفعل فما يكون قد بلغ.. ومن هذا الذي كلف الرسول ﷺ تبليغه أن يجابه أهل الكتاب بأنهم ليسوا على شيء حتى يقيموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم.. هكذا قاطعة جازمة صريحة جاهرة.. وأن يعلن كذلك كفر اليهود بنقضهم الميثاق وقتلهم الأنبياء، وكفر النصارى بقولهم: إن الله هو المسيح عيسى بن مريم، وقولهم: إن الله ثالث ثلاثة، كما يعلن أن المسيح عليه السلام أنذر بني إسرائيل عاقبة الشرك، وتحريم الله الجنة على المشركين.. وأن بني إسرائيل لعنوا على لسان داوود وعيسى بن مريم بعصيانهم وعدوانهم، وينتهي الدرس بكشف موقف أهل الكتاب من مظاهرة المشركين على المسلمين، وإعلان أن هذا ناشئ من عدم إيمانهم بالله والنبي، وأنهم مدعوون إلى الإيمان بما جاء به محمد ﷺ وإلا فما هم بالمؤمنين..

٣. ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾، إنه الأمر الجازم الحاسم للرسول ﷺ أن يبلغ ما

---

(١) في ظلال القرآن: ٢/٩٣٧.

أنزل إليه من ربه كاملا، وألا يجعل لأي اعتبار من الاعتبارات حسابا وهو يصدع بكلمة الحق.. هذا، وإلا فما بلغ وما أدّى وما قام بواجب الرسالة.. والله يتولى حمايته وعصمته من الناس، ومن كان الله له عاصما فماذا يملك له العباد المهازيل! إن كلمة الحق في العقيدة لا ينبغي أن تجمجم! إنها يجب أن تبلغ كاملة فاصلة؛ وليقل من شاء من المعارضين لها كيف شاء؛ وليفعل من شاء من أعدائها ما يفعل؛ فإن كلمة الحق في العقيدة لا تملق الأهواء؛ ولا تراعي مواقع الرغبات؛ إنما تراعي أن تصدع حتى تصل إلى القلوب في قوة وفي نفاذ..

٤. وكلمة الحق في العقيدة حين تصدع تصل إلى مكامن القلوب التي يكمن فيها الاستعداد للهدى.. وحين تجمجم لا تلين لها القلوب التي لا استعداد فيها للإيمان؛ وهي القلوب التي قد يطمع صاحب الدعوة في أن تستجيب له لو داهنها في بعض الحقيقة! ﴿إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾

٥. وإذن فلتكن كلمة الحق حاسمة فاصلة كاملة شاملة.. والهدى والضلال إنما مناطهما استعداد القلوب وتفتحها، لا المداهنة ولا الملاطفة على حساب كلمة الحق أو في كلمة الحق! إن القوة والحسم في إلقاء كلمة الحق في العقيدة، لا يعني الخشونة والفظاظة؛ فقد أمر الله رسوله ﷺ أن يدعو إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة ـ وليس هنالك تعارض ولا اختلاف بين التوجيهات القرآنية المتعددة ـ والحكمة والموعظة الحسنة لا تجافيان الحسم والفصل في بيان كلمة الحق، فالوسيلة والطريقة إلى التبليغ شيء غير مادة التبليغ وموضوعه، والمطلوب هو عدم المداهنة في بيان كلمة الحق كاملة في العقيدة، وعدم اللقاء في منتصف الطرق في الحقيقة ذاتها، فالحقيقة الاعتقادية ليس فيها أنصاف حلول..

٦. ومنذ الأيام الأولى: للدعوة كان الرسول ﷺ يدعو بالحكمة والموعظة الحسنة في طريقة التبليغ، وكان يفاصل مفاصلة كاملة في العقيدة، فكان مأمورا أن يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ فيصفهم بصفتهم؛ ويفاصلهم في الأمر، ولا يقبل أنصاف الحلول التي يعرضونها عليه، ولا يدهن فيدهنون، كما يودون! ولا يقول لهم: إنه لا يطلب إليهم إلا تعديلات خفيفة فيما هم عليه، بل يقول لهم: إنهم على الباطل المحض، وإنه على الحق الكامل.. فيصدع بكلمة الحق عالية كاملة فاصلة، في أسلوب لا خشونة فيه ولا فظاظة..

٧. وهذا النداء، وهذا التكليف، في هذه السورة: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ

لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾، يبدو من السياق ـ قبل هذا النداء وبعده ـ أن المقصود به مباشرة هو مواجهة أهل الكتاب بحقيقة ما هم عليه، وبحقيقة صفتهم التي يستحقونها بها هم عليه.. ومواجهتهم بأنهم ليسوا على شيء.. ليسوا على شيء من الدين ولا العقيدة ولا الإيمان.. ذلك أنهم لا يقيمون التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم ومن ثم فلا شيء مما يدعونه لأنفسهم من أنهم أهل كتاب وأصحاب عقيدة وأتباع دين: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾

الخطيب:

ذكر عبد الكريم الخطيب (ت ١٣٩٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[1]:

١. بعد أن عرض الله سبحانه وتعالى أهل الكتاب في هذه المعارض المختلفة، في زيفهم وطغيانهم، وفيما أخذوا به من نقمة وبلاء، وفي غفلتهم عما بين أيديهم من حق وخير، واتّباعهم لما في نفوسهم من سراب الأهواء والأباطيل ـ بعد هذا كان من الله سبحانه هذا النداء الكريم، لنبيه الكريم: ﴿يَا أيها الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أنزل إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ ـ فهو أمر ملزم للرسول أن يؤذّن في الناس بما يتلقّى من آيات ربّه.. ﴿يَا أيها الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أنزل إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾.. فتلك هي مناط رسالة الرسول، وفحوى الحكمة من رسالته.. إنه وصلة بين الله والنّاس، وفي هذا يقول الله تعالى: ﴿يَا أيها الْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنْذِرْ﴾ [المدثر: ١] ويقول سبحانه: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ [الحجر: ٩٤]

٢. ﴿وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾ هو تنبيه للرّسول، وإلفات له إلى الأمر الذي دعاه الله إليه، وأنه إن لم يفعل فقد حبس هذا الخير المرسل من الله إلى عباده دون أن يصل إليهم..

٣. وانظر إلى قوله تعالى: ﴿وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾ وقف خاشعا بين يدى هذا الأدب السماوي، وأقصر الطرف عن النظر إلى جلال هذا الإنسان العظيم الذي يخلع الله عليه خلعا وضيئة من فيوض رحمته، وغيوث رضوانه، فلا يلقاه ربّه إلا بهذا اللطف العظيم، في أمر لو وقع لكان داعية للّوم، أو الوعيد بالعقاب الشديد! ولكنه ـ سبحانه سبحانه ـ يرفع نبيّه الكريم، عن موطن العتاب، أو اللوم.. فيقول

---

(١) التفسير القرآني للقرآن: ١١٣٨/٣.

له ـ جل شأنه ـ ﴿وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾! ولم يقل سبحانه: (وإن لم تفعل فأنت ملوم، أو مؤاخذ).. هكذا أدب السماء مع الأصفياء من عباد الله، وهكذا ألطاف الله مع رسول الله.

٤. ورسول الله خير من يلقى هذا اللطف بما هو أهل له من حمد وشكر، وسيّد من يقوم لهذه الإشارة بما تقتضيه من جدّ وعزم.. فما وهن الرسول الكريم، وما ضعف عن حمل الرسالة، واحتمال ما تنوء به الجبال من أعبائها.. فلكم لقى من السفهاء، والحمقى، والطغاة، من بغى وعدوان؟ حتى لقد خرج مهاجرا من البلد الحرام، الذي عاش فيه شبابه، وقضى فيه أيام صباه، بين أهله وعشيرته، وألقى بنفسه في أحضان الغربة، فرارا بالرسالة التي بين يديه أن يمسكها المشركون عن أن تبلغ غايتها، وتملأ أسماع العالمين بهديها، وتفتح مغالق القلوب بنورها.

٥. ﴿وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ هو من تمام نعمة الله سبحانه وتعالى على نبيّه الكريم، فهو سبحانه قد اصطفاه ليكون رسولا للعالمين، حاملا مختتم رسالات السماء إلى الناس.. ثم لم يدعه سبحانه ـ يحمل أعباء الرسالة، ويلقى الضرّ والأذى في سبيلها دون أن تكون أمداد سماوية تعينه، وتحمل عنه بعض ما يحمل من أعباء، وكلّا.. فقد أمده الله بأمداد من الصبر واليقين، والعزم، وإذا هو ﷺ يواجه قريشا كلها بصلفها وكبرها، وبجبروتها وعتوّها، فلا يلين لها، ولا يحفل بتهديدها ووعيدها.. ثم إذا هو ﷺ يخوض غمرات الحرب، ويتقدم صفوف الأبطال والفرسان، ثم إذا هو ﷺ يلقى كيد اليهود ومكرهم، ملاطفا وموادعا، حتى إذا لجّوا في الضلال، وتمادوا في الكيد والبغي، صدمهم صدمة ألقت بهم خارج الجزيرة العربية كلها، ومع هذا كله، مما فضل الله به على نبيّه الكريم، من قوة الاحتمال، وثبات الجنان، ووثاقة العزم ـ يجيء هذا المدد العظيم، من ربّ عظيم، إلى نبي كريم، تحمله كلمات الله إلى رسول الله: ﴿وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾.. فأي نعمة مع هذه النعمة؟ وأي تكريم مع هذا التكريم؟ فالله سبحانه وتعالى هو الذي يأخذ إلى جنابه الكريم، عبده ورسوله محمدا ﷺ وإذا هو في حمى ربّ العالمين، لا يناله سوء من أحد، ولا يصيبه أذى من إنسان!..

٦. ﴿وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾.. وإنه لو اجتمع الناس جميعا لما نالوا من محمد نيلا.. هكذا كان وعد الله، وهكذا استيقن رسول الله من وعد ربّه.. ولا شك أن هذا من أنباء الغيب، ومن تحدّيات القرآن للكافرين والملحدين والمنافقين.. فلو أن الرسول ﷺ أصيب بأذى بعد هذه الآية الكريمة لكان ذلك دليلا

ـ أي دليل ـ على أن ما يتقوله الكافرون والمنافقون على القرآن الكريم، وأنه قول بشر، وتلفيقات إنسان..

٧. وإذا علمنا أن هذه الآية في سورة المائدة، وأن هذه السورة كانت آخر سور القرآن نزولا، على أصح الأقوال، أو أنها من آخر سور القرآن نزولا، بلا خلاف ـ إذا علمنا هذا أدركنا السرّ في تأخر هذا الوعد الكريم إلى أخريات أيام الرسول، وإلى مختتم رسالته، وذلك حتى لا ينكشف للرسول وهو قائم على طريق الدعوة، أنّه في ضمان هذه الحراسة الربانية، وفي ظلّ تلك العصمة التي عصمه الله بها من الناس، وذلك ليكون له بلاؤه، وجهده، وعزمه، في ملاقاة الشدائد، واحتمال المحن، مستقبلا كل ما يمكن أن تتمخض عنه الأحداث، ولو كان في ذلك ذهاب نفسه.

٨. أمّا لو كان الرسول ﷺ قد تلقّى هذا الوعد الكريم من ربّه من أول خطواته على طريق رسالته، لما كان له فضل في مكابدة الأهوال، ومصادمة الشدائد، والتعرض للأخطار، ولا سوى في هذا أوهى الناس عزما، وأقلّهم صبرا، وأجبنهم قلبا، مع أقواهم عزما، وأكثرهم صبرا، وأشجعهم قلبا.. إذ كان كلّ منهما يلقى الموت وهو في أمان وثيق من أنه لن يموت بيد إنسان.

٩. سؤال وإشكال: قد يسأل سائل هنا: إذا كان ما تلقّاه الرسول من قوله تعالى: ﴿يَا أيها الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أنزل إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾.. الآية ـ قد كان في مختتم رسالة النبيّ فما محصّل هذا الأمر بالتبليغ، وقد بلّغ الرسول فعلا ما أنزل إليه من ربّه؟ ثم ما محصّل هذه العصمة، وقد استقرّ أمر الإسلام، وانطفأت جذوة أصحاب الشوكة والبغي! والجواب: على هذا:

أ. أولا: أن الرسول ﷺ إذ يتلقى هذا الخبر المسعد من الله، يراجع خط سيره على طريق دعوته، من أول يوم دعاه الله فيه بقوله: ﴿قُمْ فَأَنْذِرْ﴾ إلى هذا اليوم الذي كادت الدعوة تنتهى فيه إلى غايتها ـ فيرى أنه كان في ضمان هذه الرعاية الكريمة من رب كريم، وأن عناية الله لم تتخلّ عنه لحظة، وأنه كان في عصمة من الله من أن تناله يد بسوء، يقطع عليه طريق دعوته، ويعجزه عن الوفاء بها.. فها هو ذا ﷺ قد بلّغ رسالة ربّه، وجاهد في سبيلها، حتى اجتمع الناس عليها، ودخلوا في دين الله أفواجا.. وهذا كله من فضل الله عليه، ورعايته له، ففي هذه المراجعة يرى الرسول مكانته عند ربّه، ومنزلته في المصطفين الأخيار من عباده.. فينشرح لذلك صدره، وتنتعش روحه، ويجد في هذا جزاء طيبا يستقبله من عند الله، وهو يوشك أن يحطّ رحاله بعد هذه الرحلة الطويلة المضنية.

ب. ثانيا: أن انكشاف عواقب الأمور قبل أن تقع، يقطع على الإنسان طريقه إلى العمل والكفاح، ويسلمه إلى استسلام أشبه باليأس، انتظارا للمقدور الذي يسعى إليه، كما ينتظر راكب القطار مجيئه في موعده المحدد، إن في انتظار المجهول إيقاظا للمشاعر، وحفزا للهمم، وتشوّقا إلى ما تكشف عنه الأيام.. فمن يعمل لغاية لا يدرى ما عاقبة أمره فيها، باذلا جهده في التمرس بالأسباب، هو ممسك بوجوده كله، ينتظر ثمرة عمله، وغاية سعيه الموصلة لها.. إنه إن بلغ الغاية حمد وسعد، وإن لم يبلغها فقد أعذر لنفسه، ورضى عن مسعاه، وإن لم يحصّل منه ما يريد..فكيف بالرسول، وقد حمل الرسالة، وواجه بها النّاس جميعا، متحدّيا عقائد فاسدة، ومتصديا لقلوب مريضة، وعقول مظلمة، وطبائع صلدة متحجرة؟ كيف به وقد بلغ بصبره، وجهاده، وعزمه، ما أراد الله لدعوته أن تبلغ؟ إنها سعادة ورضى، وحمد وشكر.. كل أولئك لو قسم في الناس جميعا لوسعهم واشتمل عليهم.

١٠. في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ إشارة إلى تلك العصمة التي عصم الله بها النبي من الناس، وأنه سبحانه لا يهدى الكافرين إلى طريق الحق، كما أنه سبحانه لا يهديهم إلى الطريق الذي يخلص منه إلى النبي أذى على أيديهم.. فقد سدّ الله عليهم المنافذ التي يبلغون بها ما يريدون به من أذى.. ﴿إِنَّ اللهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾ [الطلاق: ٣]

ابن عاشور:

ذكر محمد الطاهر بن عاشور (ت ١٣٩٣ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[1]:

﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾ إنّ موضع هذه الآية في هذه السورة معضل، فإنّ سورة المائدة من آخر السور نزولا إن لم تكن آخرها نزولا، وقد بلّغ رسول الله ﷺ الشريعة وجميع ما أنزل إليه إلى يوم نزولها، فلو أنّ هذه الآية نزلت في أوّل مدّة البعثة لقلنا هي تثبيت للرسول وتخفيف لأعباء الوحي عنه، كما أنزل قوله تعالى: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ﴾ [الحجرات: ٩٤، ٩٥]، وقوله: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ ـ إلى قوله ـ ﴿وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ﴾ [المزمل: ٥ ـ ١٠] الآيات، فأمّا وهذه السورة من آخر السور نزولا وقد أدّى رسول الله

(١) التحرير والتنوير: ٥/١٥١.

الرسالة وأكمل الدّين فليس في الحال ما يقتضي أن يؤمر بتبليغ، فنحن إذن بين احتمالين:

أ. أحدهما: أن تكون هذه الآية نزلت بسبب خاصّ اقتضى إعادة تثبيت الرسول على تبليغ شيء ممّا يثقل عليه تبليغه.

ب. ثانيهما: أن تكون هذه الآية نزلت من قبل نزول هذه السورة، وهو الّذي تواطأت عليه أخبار في سبب نزولها.

١. فأمّا هذا الاحتمال الثّاني فلا ينبغي اعتباره لاقتضائه أن تكون هذه الآية بقيت سنين غير ملحقة بسورة، ولا جائز أن تكون مقروءة بمفردها، وبذلك تندحض جميع الأخبار الواردة في أسباب النزول الّتي تذكر حوادث كلّها حصلت في أزمان قبل زمن نزول هذه السورة، وقد ذكر الفخر عشرة أقوال في ذلك، وذكر الطبري خبرين آخرين، فصارت اثني عشر قولا، وقال الفخر بعد أن ذكر عشرة الأقوال: إنّ هذه الروايات وإن كثرت فإنّ الأولى: (حمل الآية على أنّ الله آمنه مكر اليهود والنّصارى، لأنّ ما قبلها وما بعدها كان كلاما مع اليهود والنّصارى فامتنع إلقاء هذه الآية الواحدة في البين فتكون أجنبية عمّا قبلها وما بعدها)، وأمّا ما ورد في الصّحيح أنّ رسول الله كان يحرس حتّى نزل ﴿وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ فلا يدلّ على أنّ جميع هذه الآية نزلت يومئذ، بل اقتصر الراوي على جزء منها، وهو قوله: ﴿وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ فلعلّ الّذي حدّثت به عائشة أنّ الله أخبر رسوله بأنّه عصمه من النّاس فلمّا حكاه الراوي حكاه باللّفظ الواقع في هذه الآية.

٢. فتعيّن التعويل على الاحتمال الأوّل: فإمّا أن يكون سبب نزولها قضية ممّا جرى ذكره في هذه السورة، فهي على وتيرة قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ﴾ [المائدة: ٤١]، وقوله: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللهُ إِلَيْكَ﴾ [المائدة: ٤٩] فكما كانت تلك الآية في وصف حال المنافقين تليت بهذه الآية لوصف حال أهل الكتاب، والفريقان متظاهران على الرسول ﷺ: فريق مجاهر، وفريق متستر، فعاد الخطاب للرسول ثانية بتثبيت قلبه وشرح صدره بأن يدوم على تبليغ الشريعة ويجهد في ذلك ولا يكترث بالطاعنين من أهل الكتاب والكفّار، إذ كان نزول هذه السورة في آخر مدّة النّبي ﷺ لأنّ الله دائم على عصمته من أعدائه وهم الّذين هوّن أمرهم في قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ﴾ [المائدة: ٤١] فهم المعنيّون من ﴿النَّاسِ﴾ في هذه الآية،

فالمأمور بتبليغه بعض خاصّ من القرآن.

٣. وقد علم من خلق النّبي ﷺ أنّه يحبّ الرفق في الأمور ويقول: إنّ الله رفيق يحبّ الرفق في الأمر كلّه (كما جاء في حديث عائشة حين سلّم اليهود عليه فقالوا: السام عليكم، وقالت عائشة لهم: السام عليكم واللّعنة)، فلمّا أمره الله أن يقول لأهل الكتاب ﴿وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللهِ مَنْ لَعَنَهُ اللهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٥٩، ٦٠] الآية، وكان ذلك القول مجاهرة لهم بسوء أعلمه الله بأنّ هذا لا رفق فيه فلا يدخل فيما كان يعاملهم به من المجادلة بالّتي هي أحسن، فتكون هذه الآية مخصّصة لما في حديث عائشة وتدخل في الاستثناء الّذي في قوله تعالى: ﴿لَا يُحِبُّ اللهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظُلِمَ﴾ [النساء: ١٤٨]، ولذلك أعيد افتتاح الخطاب له بوصف الرسول المشعر بمنتهى شرفه، إذ كان واسطة بين الله وخلقه، والمذكّر له بالإعراض عمّن سوى من أرسله.

٤. ولهذا الوصف في هذا الخطاب الثّاني موقع زائد على موقعه في الخطاب الأول، وهو ما فيه من الإيماء إلى وجه بناء الكلام الآتي بعده، وهو قوله: ﴿وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾، كما قال تعالى: ﴿مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾ [المائدة: ٩٩]، فكما ثبّت جنانه بالخطاب الأوّل أن لا يهتمّ بمكائد أعدائه، حذّر بالخطاب الثّاني من ملاينتهم في إبلاغهم قوارع القرآن، أو من خشيته إعراضهم عنه إذا أنزل من القرآن في شأنهم، إذ لعلّه يزيدهم عنادا وكفرا، كما دلّ عليه قوله في آخر هذه الآية ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة: ٦٨]، ثم عقّب ذلك أيضا بتثبيت جنانه بأن لا يهتمّ بكيدهم بقوله: ﴿وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ وأنّ كيدهم مصروف عنه بقوله: ﴿إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾، فحصل بآخر هذا الخطاب ردّ العجز على الصدر في الخطاب الأوّل الّتي تضمّنه قوله: ﴿لَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ﴾ [المائدة: ٤١] فإنّهم هم القوم الكافرون والّذين يسارعون في الكفر، فالتّبليغ المأمور به على هذا الوجه تبليغ ما أنزل من القرآن في تقريع أهل الكتاب، وما صدق ﴿مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ شيء معهود من آي القرآن، وهي الآي المتقدّمة على هذه الآية، وما صدق ﴿مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ هو كلّ ما نزل من القرآن قبل ذلك اليوم.

٥. والتّبليغ جعل الشيء بالغا، والبلوغ الوصول إلى المكان المطلوب وصوله، وهو هنا مجاز في حكاية الرّسالة للمرسل بها إليه من قولهم: بلغ الخبر وبلغت الحاجة، والأمر بالتّبليغ مستعمل في طلب

الدّوام، كقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ﴾ [النساء: ١٣٦]، ولمّا كان نزول الشريعة مقصودا به عمل الأمّة بها (سواء كان النّازل متعلّقا بعمل أم كان بغير عمل، كالّذي ينزل ببيان أحوال المنافقين أو فضائل المؤمنين أو في القصص ونحوها، لأنّ ذلك كلّه إنّما نزل لفوائد يتعيّن العلم بها لحصول الأغراض الّتي نزلت لأجلها، على أنّ للقرآن خصوصية أخرى وهي ما له من الإعجاز، وأنّه متعبّد بتلاوته، فالحاجة إلى جميع ما ينزل منه ثابتة بقطع النّظر عمّا يحويه من الأحكام وما به من مواعظ وعبر)، كان معنى الرّسالة إبلاغ ما أنزل إلى من يراد علمه به وهو الأمّة كلّها، ولأجل هذا حذف متعلّق ﴿بَلَغ﴾ لقصد العموم، أي بلّغ ما أنزل إليك جميع من يحتاج إلى معرفته، وهو جميع الأمّة، إذ لا يدرى وقت ظهور حاجة بعض الأمّة إلى بعض الأحكام، على أنّ كثيرا من الأحكام يحتاجها جميع الأمّة.

٦. والتّبليغ يحصل بما يكفل للمحتاج إلى معرفة حكم تمكّنه من معرفته في وقت الحاجة أو قبله، لذلك كان الرسول ﷺ يقرأ القرآن على النّاس عند نزول الآية ويأمر بحفظها عن ظهر قلب وبكتابتها، ويأمر النّاس بقراءته وبالاستماع إليه، وقد أرسل مصعبا بن عمير إلى المدينة قبل هجرته ليعلّم الأنصار القرآن، وكان أيضا يأمر السامع مقالته بإبلاغها من لم يسمعها، ممّا يكفل ببلوغ الشّريعة كلّها للأجيال من الأمّة، ومن أجل ذلك كان الخلفاء من بعده يعطون النّاس العطاء على قدر ما معهم من القرآن، ومن أجل ذلك أمر أبو بكر بكتابة القرآن في المصحف بإجماع الصّحابة، وأكمل تلك المزيّة عثمان بن عفّان بانتساخ القرآن في المصاحف وإرسالها إلى أمصار الإسلام، وقد كان رسول الله عيّن لأهل الصّفّة الانقطاع لحفظ القرآن.

٧. والّذي ظهر من تتبّع سيرة رسول الله ﷺ أنّه كان يبادر بإبلاغ القرآن عند نزوله، فإذا نزل عليه ليلا أخبر به عند صلاة الصّبح، وفي حديث عمر، قال رسول الله: (لقد أنزلت عليّ اللّيلة سورة لهي أحبّ إليّ ممّا طلعت عليه الشّمس) ثمّ قرأ: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾ [الفتح: ١]، وفي حديث كعب بن مالك في تخلّفه عن غزوة تبوك (فأنزل الله توبتنا على نبيّه حين بقي الثلث الآخر من اللّيل ورسول الله عند أمّ سلمة، فقال: يا أمّ سلمة تيب على كعب بن مالك، قالت: أفلا أرسل إليه فأبشّره، قال: (إذا يحطمكم النّاس فيمنعونكم النّوم سائر اللّيلة، حتّى إذا صلّى رسول الله صلاة الفجر آذن بتوبة الله علينا)، في حديث ابن عبّاس: أنّ رسول الله نزلت عليه سورة الأنعام جملة واحدة بمكّة ودعا رسول الله الكتّاب فكتبوها من

ليلتهم.

٨. وفي الإتيان بضمير المخاطب في قوله: ﴿إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ إيماء عظيم إلى تشريف الرسول ﷺ بمرتبة الوساطة بين الله والنّاس، إذ جعل الإنزال إليه ولم يقل إليكم أو إليهم، كما قال في آية آل عمران [١٩٩] ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ﴾، وقوله: ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ٤٤]، وفي تعليق الإنزال بأنّه من الرّب تشريف للمنزّل.

٩. والإتيان بلفظ الرّب هنا دون اسم الجلالة لما في التذكير بأنّه ربّه من معنى كرامته، ومن معنى أداء ما أراد إبلاغه، كما ينبغي من التعجيل والإشاعة والحثّ على تناوله والعمل بما فيه.

١٠. وعلى جميع الوجوه المتقدّمة دلّت الآية على أنّ الرسول مأمور بتبليغ ما أنزل إليه كلّه، بحيث لا يتوهّم أحد أنّ رسول الله قد أبقى شيئا من الوحي لم يبلّغه، لأنّه لو ترك شيئا منه لم يبلّغه لكان ذلك ممّا أنزل إليه ولم يقع تبليغه، وإذ قد كانت هذه الآية من آخر ما نزل من القرآن علمنا أنّ من أهمّ مقاصدها أنّ الله أراد قطع تخرّص من قد يزعمون أنّ الرسول قد استبقى شيئا لم يبلّغه، أو أنّه قد خصّ بعض النّاس بإبلاغ شيء من الوحي لم يبلّغه للنّاس عامّة، فهي أقطع آية لإبطال قول الرافضة بأنّ القرآن أكثر ممّا هو في المصحف الّذي جمعه أبو بكر ونسخه عثمان، وأنّ رسول الله اختصّ بكثير من القرآن عليّا بن أبي طالب وأنّه أورثه أبناءه وأنّه يبلغ وقر بعير، وأنّه اليوم مختزن عند الإمام المعصوم الّذي يلقّبه بعض الشيعة بالمهدي المنتظر وبالوصيّ[1].

١١. وكانت هذه الأوهام ألّمت بأنفس بعض المتشيّعين إلى عليّ في مدّة حياته، فدعا ذلك بعض النّاس إلى سؤاله عن ذلك، روى البخاري أنّ أبا جحيفة سأل عليّا: هل عندكم شيء ما ليس في القرآن وما ليس عند النّاس، فقال: (لا والّذي فلق الحبّة وبرأ النّسمة ما عندنا إلّا ما في القرآن إلّا فهما يعطى رجل في كتاب الله وما في الصحيفة، قلت: وما في الصّحيفة، قال العقل، وفكاك الأسير، وأن لا يقتل مسلم بكافر)، وحديث مسروق عن عائشة الّذي سنذكره ينبئ بأنّ هذا الهاجس قد ظهر بين العامّة في زمانها، وقد يخصّ الرّسول بعض النّاس ببيان شيء من الأحكام ليس من القرآن المنزّل إليه لحاجة دعت إلى تخصيصه، كما

---

(١) للأسف كل هذا من الدعايات الكاذبة التي كان يمكن للشيخ تجاوزها خاصة وأنه عاصر كبار علماء الشيعة

كتب إلى عليّ ببيان العقل، وفكاك الأسير، وأن لا يقتل مسلم بكافر، لأنّه كان يومئذ قاضيا باليمن، وكما كتب إلى عمرو بن حزم كتاب نصاب الزّكاة لأنّه كان بعثه لذلك، فذلك لا ينافي الأمر بالتّبليغ لأنّ ذلك بيان لما أنزل وليس عين ما أنزل، ولأنّه لم يقصد منه تخصيصه بعلمه، بل قد يخبر به من تدعو الحاجة إلى علمه به، ولأنّه لّما أمر من سمع مقالته بأن يعيها ويؤيّديها كما سمعها، وأمر أن يبلّغ الشّاهد الغائب، حصل المقصود من التّبليغ؛ فأمّا أن يدع شيئا من الوحي خاصّا بأحد وأن يكتمه المودع عنده عن النّاس فمعاذ الله من ذلك.

١٢. وقد يخصّ أحدا بعلم ليس ممّا يرجع إلى أمور التّشريع، من سرّ يلقيه إلى بعض أصحابه، كما أسرّ إلى فاطمة بأنّه يموت يومئذ وبأنّها أوّل أهله لحاقا به، وأسرّ إلى أبي بكر بأنّ الله أذن له في الهجرة، وأسرّ إلى حذيفة خبر فتنة الخارجين على عثمان، كما حدّث حذيفة بذلك عمر بن الخطّاب، وما روي عن أبي هريرة أنّه قال حفظت من رسول الله وعاءين، أمّا أحدهما فبثثته، وأمّا الآخر فلو بثثته لقطع منّي هذا البلعوم.

١٣. ومن أجل ذلك جزمنا بأن الكتاب الّذي همّ رسول الله ﷺ بكتابته للنّاس، وهو في مرض وفاته، ثمّ أعرض عنه، لم يكن فيما يرجع إلى التشريع لأنّه لو كان كذلك لما أعرض عنه والله يقول له: ﴿بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾، روى البخاري عن عائشة أنّها قالت لمسروق: (ثلاث من حدّثك بهن فقد كذب، من حدّثك أنّ محمّدا كتم شيئا ممّا أنزل عليه فقد كذب، والله يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾ الحديث.

١٤. وقوله: ﴿وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾ جاء الشّرط بإن الّتي شأنها في كلام العرب عدم اليقين بوقوع الشرط، لأنّ عدم التّبليغ غير مظنون بمحمّد ﷺ وإنّما فرض هذا الشّرط ليبني عليه الجواب، وهو قوله: ﴿فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾، ليستفيق الّذين يرجون أن يسكت رسول الله عن قراءة القرآن النّازل بفضائحهم من اليهود والمنافقين، وليبكت من علم الله أنّهم سيفترون، فيزعمون أنّ قرآنا كثيرا لم يبلّغه رسول الله الأمّة.

١٥. ومعنى ﴿لَمْ تَفْعَلْ﴾ لم تفعل ذلك، وهو تبليغ ما أنزل إليك، وهذا حذف شائع في كلامهم، فيقولون: فإن فعلت، أو فإن لم تفعل، قال تعالى: ﴿وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ

﴿فَإِنَّكَ إِذًا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [يونس: ١٠٦] أي إن دعوت ما لا ينفعك، يحذفون مفعول فعلت ولم تفعل لدلالة ما تقدّم عليه، وقال تعالى: ﴿فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا﴾ في سورة البقرة [٢٤]، وهذا ممّا جرى مجرى المثل فلا يتصرّف فيه إلّا قليلا ولم يتعرّض له أئمّة الاستعمال.

١٦. ومعنى ترتّب هذا الجواب على هذا الشّرط أنّك إن لم تبلّغ جميع ما أنزل إليك فتركت بعضه كنت لم تبلّغ الرّسالة، لأنّ كتم البعض مثل كتمان الجميع في الاتّصاف بعدم التّبليغ، ولأنّ المكتوم لا يدري أن يكون في كتمانه ذهاب بعض فوائد ما وقع تبليغه، وقد ظهر التّغاير بين الشّرط وجوابه بما يدفع الاحتياج إلى تأويل بناء الجواب على الشّرط، إذ تقدير الشّرط: إن لم تبلّغ ما أنزل، والجزاء، لم تبلّغ الرّسالة، وذلك كاف في صحّة بناء الجواب على الشرط بدون حاجة إلى ما تأوّلوه ممّا في (الكشاف) وغيره، ثمّ يعلم من هذا الشّرط أنّ تلك منزلة لا تليق بالرسل، فينتج ذلك أنّ الرسول لا يكتم شيئا ممّا أرسل به.

١٧. وتظهر فائدة افتتاح الخطاب بـ ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ﴾ للإيماء إلى وجه بناء الخبر الآتي بعده، وفائدة اختتامه بقوله: ﴿فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾

١٨. وقرأ نافع، وابن عامر، وأبو بكر، وأبو جعفر ﴿رِسالاتِهِ﴾ - بصيغة الجمع، وقرأه الباقون ﴿رِسَالَتَهُ﴾ بالإفراد، والمقصود الجنس فهو في سياق النّفي سواء مفرده وجمعه.

١٩. ولا صحّة لقول بعض علماء المعاني استغراق المفرد أشمل من استغراق الجمع، وأنّ نحو: لا رجال في الدار، صادق بما إذا كان فيها رجلان أو رجل واحد، بخلاف نحو لا رجل في الدّار، ويظهر أنّ قراءة الجمع أصرح لأنّ لفظ الجمع المضاف من صيغ العموم لا يحتمل العهد بخلاف المفرد المضاف فإنّه يحتمل الجنس والعهد، ولا شكّ أن نفي اللّفظ الّذي لا يحتمل العهد أنصّ في عموم النّفي لكن القرينة بيّنت المراد.

٢٠. وقوله: ﴿وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ افتتح باسم الجلالة للاهتمام به لأنّ المخاطب والسّامعين يترقّبون عقب الأمر بتبليغ كلّ ما أنزل إليه، أن يلاقي عنتا وتكالبا عليه من أعدائه فافتتح تطمينه بذكر اسم الله، لأنّ المعنى أنّ هذا ما عليك، فأمّا ما علينا فالله يعصمك، فموقع تقديم اسم الجلالة هنا مغن عن الإتيان بأمّا، على أنّ الشيخ عبد القاهر قد ذكر في أبواب التّقديم من (دلائل الإعجاز) أنّ ممّا يحسن فيه تقديم المسند إليه على الخبر الفعلي ويكثر؛ الوعد والضّمان، لأنّ ذلك ينفي أن يشكّ من يوعد في تمام الوعد

والوفاء به فهو من أحوج النّاس إلى التّأكيد، كقول الرّجل: أنا أكفيك، أنا أقوم بهذا الأمر انتهى، ومنه قوله تعالى حكاية عن يوسف ﴿وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ﴾ [يوسف: ٧٢]، فقوله: ﴿وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ فيه هذا المعنى أيضا، والعصمة هنا الحفظ والوقاية من كيد أعدائه.

٢١. و﴿النَّاسِ﴾ في الآية مراد به الكفّار من اليهود والمنافقين والمشركين، لأنّ العصمة بمعنى الوقاية تؤذن بخوف عليه، وإنّما يخاف عليه أعداءه لا أحبّاءه، وليس في المؤمنين عدوّ لرسوله، فالمراد العصمة من اغتيال المشركين، لأنّ ذلك هو الّذي كان يهمّ النّبي ﷺ، إذ لو حصل ذلك لتعطّل الهدي الّذي كان يحبّه النّبي للنّاس، إذ كان حريصا على هدايتهم، ولذلك كان رسول الله، لمّا عرض نفسه على القبائل في أوّل بعثته، يقول لهم (أن تمنعوني حتّى أبيّن عن الله ما بعثني به ـ أو ـ حتّى أبلّغ رسالات ربّي)، فأمّا ما دون ذلك من أذى وإضرار فذلك ممّا نال رسول الله ﷺ ليكون ممّن أوذي في الله: فقد رماه المشركون بالحجارة حتّى أدموه وقد شجّ وجهه، وهذه العصمة الّتي وعد بها رسول الله ﷺ قد تكرّر وعده بها في القرآن كقوله: ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللهُ﴾ [البقرة: ١٣٧]، وفي غير القرآن، فقد جاء في بعض الآثار أنّ رسول الله ﷺ أخبر وهو بمكّة أنّ الله عصمه من المشركين، وجاء في الصّحيح عن عائشة أنّ رسول الله كان يحرس في المدينة، وأنّه حرسه ذات ليلة سعد بن أبي وقّاص وحذيفة وأنّ رسول الله أخرج رأسه من قبّة وقال لهم: (الحقوا بملاحقكم فإنّ الله عصمني)، أنّه قال في غزوة ذات الرقاع سنة ستّ للأعرابي غورث بن الحارث الّذي وجد رسول الله نائما في ظلّ شجرة ووجد سيفه معلّقا فاخترطه وقال للرسول: من يمنعك منّي، فقال: الله، فسقط السيف من يد الأعرابي، وكلّ ذلك كان قبل زمن نزول هذه الآية، والّذين جعلوا بعض ذلك سببا لنزول هذه الآية قد خلطوا، فهذه الآية تثبيت للوعد وإدامة له وأنّه لا يتغيّر مع تغيّر صنوف الأعداء.

٢٢. ثمّ أعقبه بقوله: ﴿إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ ليتبيّن أنّ المراد بالنّاس كفّارهم، وليؤمي إلى أنّ سبب عدم هدايتهم هو كفرهم، والمراد بالهداية هنا تسديد أعمالهم وإتمام مرادهم، فهو وعد لرسوله بأنّ أعداءه لا يزالون مخذولين لا يهتدون سبيلا لكيد الرّسول والمؤمنين لطفا منه تعالى، وليس المراد الهداية في الدّين لأنّ السياق غير صالح له.

أبو زهرة:

ذكر محمد أبو زهرة (ت ١٣٩٤ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. في الآيات السابقة ذكر سبحانه تعالى مواقف اليهود من رسالة محمد ﷺ وامتناع أهل الكتاب عن الإيمان بما جاء به تعصب من عندهم، وإن اختلفوا في معاملتهم، فمنهم من نافق وكذب وغدر، وألب عليه الجموع، وحرض المشركين وحالفهم، ومنهم من اقتصد في المخالفة، وبعض هؤلاء أحسن المعاملة مع الاختلاف ولم يمالئ عليه الأعداء والمشركون من وراء هؤلاء وأولئك يحاربون، ويحاولون أن ينتهزوا الفرص للانقضاض على المسلمين، فكان البلاء شديدا، حروب وفتن يريدون إثارتها، وخبال يقصدون إليه، ولذلك أمر الله نبيه بأن يمضي في تبليغ الرسالة غير ملتفت لما يدبرون إلا بمقدار إحباطه، مطرحا عداوتهم وبغضاءهم، فالله تعالى عاصمه منهم.

٢. ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾، النداء للنبي ﷺ بوصف الرسالة لتشريفه بهذا الوصف الكريم، ولأنه مصطفى لها: ﴿اللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام]، وللتمهيد لما يأمره به من التبليغ، وأن يصدع بأمر الله لا يراقب أحدا، ولا يخاف من عدو؛ لأنه يبلغ ما أنزل الله تعالى إليه، وقد زكى سبحانه وتعالى الأمر بالتبليغ ووثقه بقوله: ﴿مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾، بما أنه منزل إليك من الله تعالى، فأنت الأولى بالتبليغ دون غيرك، والمسئول عن إعلام الناس بما أنزل الله تعالى، وإنك إذ تبلغ الرسالة في حماية الله تعالى وكلاءته.

٣. ولذلك قال تعالت كلماته: ﴿مِنْ رَبِّكَ﴾، أي الذى خلقك ونماك وقام على رعايتك وهو الذى يحميك، ويدفع عنك السوء والشر، ويبلغك مبلغ الحق من نشر الرسالة ليؤمن من يؤمن عن بينة، ويكفر من يكفر عن بينة: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء]

٤. وقوله: ﴿مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾، (ما) فيه دالة على العموم، وهي بهذا العموم تدل على معنى (جميع)، أي بلغ جميع ما أنزل إليك من ربك، أي لا تخف شيئا ولا تكتم شيئا، ولقد روى أن النبي ﷺ قال: (إن الله تعالى بعثني برسالته فضقت بها ذرعا، وعرفت أن الناس يكذبوننى، واليهود والنصارى وقريش يخوفوننى، فلما أنزل الله هذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾، زال الخوف) فالرسول

---

(١) زهرة التفاسير: ٥/٢٢٨٦.

ﷺ بلغ الشريعة كلها غير منقوصة، وما كتم شيئا، ولقد قالت أم المؤمنين عائشة: من قال إن محمدا كتم شيئا من رسالة الله تعالى فقد أعظم الفرية، ولقد قال عليه السلام: (تركت فيكم ما إن أخذتم به لن تضلوا بعدى أبدا كتاب الله تعالى، وسنتى)، ولو كان قد ترك شيئا لمن بعده، لكان قد ترك تبليغ الرسالة، ولكن ذلك محال لقوله تعالى: ﴿وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾

٥. ﴿وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾ أي إن لم تبلغ كل ما أنزل عليك فما بلغت الرسالة؛ ذلك لأن ترك بعض الرسالة ترك لها، فمن كلف تبليغ كتاب لواحد، فأسقط منه أسطرا لا يعد قد بلغ الكتاب، ومن يؤمر بتبليغ كلام فيحذف بعضه لا يعد قد بلغ الرسالة؛ لأن الرسالة فيما هو عند الناس كلّ لا يقبل التجزئة، فكيف تقبل رسالة الله تعالى إلى خلقه، تجزئة فينقل بعضها، ويكتم بعضها، وقد عبر عن هذا المعنى الزمخشري في الكشاف، فقال: (ذلك أن بعضها ليس بأولى بالأداء من بعض، وإذا لم تؤد بعضها فكأنك أغفلت أداءها جميعا، كما أن من لم يؤمن ببعضها كان كأن لم يؤمن بكلها؛ لإدلاء كل منها بما يدليه غيرها، وكونها كذلك في حكم شيء واحد، والشيء الواحد لا يكون مبلغا، وغير مبلغ، مؤمنا به، وغير مؤمن به) أي أن تبليغ بعض الرسالة وترك بعضها معناه ترك وجوب الإيمان به فترة بعد وفاة الرسول، وذلك غير معقول في ذاته، وغير مقبول في هذا الشرع الشريف؛ لأن الله تعالى عندما تأذن بموت رسوله قال تعالت كلماته: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة]

٦. وإنه يجب التنبيه إلى أمور ثلاثة:

أ. أولها: أن النبي ﷺ ما انتقل إلى الرفيق الأعلى حتى أتم الرسالة بيانا، سؤال وإشكال: وقد يقول قائل إن الشريعة منها ما هو ثابت بالنص، وهذا بلا ريب قد تم بيانه قبل وفاة النبي ﷺ، وقسم قد ثبت بغير النصوص، فكيف يكون قد تم بيانه!؟ والجواب: أن تبليغ الشريعة كان ببيانها، وليس معنى البيان أن يبين حكم كل جزئي من الجزئيات، بل معنى البيان أن تبين الأحكام الكلية والجزئية التي يحتاج بيانها إلى نص، والجزئيات التي لا تبين يكون من الكليات ما يدل عليها بوجود العلة أو الغاية التي يثبت أن الشارع الحكيم أرادها، ولذلك يقول الإمام الشافعي في الرسالة الأصولية: البيان إما نص قائم، وإما حمل على نص قائم، ولا شك أن كل حكم لا نص عليه يثبت الحكم فيه بالحمل على نص قائم، سواء أكان الحمل

بطريق القياس، أي بإثبات الحكم غير المنصوص عليه في موضعه بالقياس على الحكم المنصوص عليه، في موضع يشبهه، ووجه الشبه العلة المؤثرة في الحكم، أم كان الحمل بطريق وجود المصالح ودفع المضار المتفق مع مقاصد الشرع، وغايات أحكامه، وذلك موضع اجتهاد الفقهاء.

ب. الثاني: أنه يجب التنبيه إلى أن الذين يأخذون ببعض أحكام الشريعة مؤمنين بها، ويطرحون الآخر وراءهم ظهريا يحسبون أن ما اطرحوه ليس من الشرع ينكرون تبليغ النبي ﷺ للرسالة كاملة، وذلك انحراف يؤدى إلى الكفر والعياذ بالله.

ج. الثالث: في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾ سؤال وإشكال: فكيف يكون الشرط والجزاء في معنى واحد؛ لأن الشرط ظاهر معناه أنك إن لم تقم بالتبليغ كاملا صادعا بالحق، فما بلغت الرسالة أي أنك إن لم تبلغ فما بلغت، وجزاء الشرط يجب أن يكون معنى مترتبا على الشرط، وذلك يقتضى المغايرة بينهما، فلا يمكن أن يكونا شيئا، وظاهر النص أنهما شيء واحد، والجواب: أجيب عن ذلك بجوابين:

• الأول: أن المعنى أنك إن لم تقم بأداء الرسالة كلها بأن تركت بعضها، فإنك تكون كمن ترك الرسالة كلها، وقد اعترض على ذلك الفخر الرازي بأن ترك بعض الرسالة لا يمكن أن يكون كترك كلها، والجرم في ترك بعضها ليس كالجرم في تركها كلها، وإني أرى أن اعتراض فخر الدين الرازي غير وارد، لأن ترك جزء من الرسالة من غير تبليغ يكون تركا للرسالة ذاتها، ولذا عبر في الجزاء بقوله تعالت كلماته: ﴿فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾ أي إن لم تفعل بتبليغها كاملة فما أديت واجب التبليغ، وجرم الجزء كجرم الكل إذا كان يتعلق بالاعتقاد فمن أنكر بعض ما يجب الإيمان به يكون كمن ينكر كله إذ يكون ممن يؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون ببعض.

• الثاني: أن يكون الكلام من قبيل بيان أن الشرط ذاته يكفى أن يكون فيه كمال التخلي عن التبليغ، والمعنى على هذا أنك لم تقم بالتبليغ فحسبك أنك تخليت عما يجب عليك أن تفعله، وهو عملك كرسول - وإن التبليغ يقتضى جهودا وبلاء، وتعرضا للأذى، وقد أشار الله سبحانه وتعالى إلى ذلك، وبين أنه في حماية الله تعالى، وكفالته.

٧. ﴿وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ العصم: الإمساك، ويتضمن

الإمساك الحماية، ومنع الأذى، وجاء في مفردات الأصفهاني عصمة الأنبياء حفظه إياهم أولا بما خصهم به من صفاء الجوهر، ثم بما أولاهم من الفضائل الجسمية والنفسية ثم بالنصرة، وبتثبيت أقدامهم، ثم بإنزال السكينة عليهم وبحفظ قلوبهم وبالتوفيق قال تعالى: ﴿وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾، ومعنى العصمة من الناس على هذا ألا يمكّنوا منه ﷺ ومن دعوته، ومن نفسه، فأوهامهم لا تعلق بنفسه ونفاقهم لا يؤثر في دعوته، وخلافهم وعنادهم لا يمنعان الحق من أن يصل إلى قلوب أهل الهداية والإيمان، ولجاجتهم في الكفر لا تثنيه عما يدعو إليه، ويستمسك به، وما يثار عليه من حروب لا تهزمه ما دام هو ومن معه آخذين في الأسباب ناصرين لله وللحق.

٨. وليس معنى عصمة الله تعالى أن يكون الوصول إلى الحق هينا لينا سهلا، بل إنه لا بد من الجهاد، ولا بد من نزول البلاء بل بتوالي الابتلاء، كما قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة]، فالعصمة هي عصمة النفس والجسم من القتل، والدعوة من أن يعوق طريقها ويقضى عليها، وإن كان الأذى البدني يقع كشج رأسه وكسر ثنياته، وغير ذلك مما كان يفعله المشركون واليهود معه عليه السلام.

٩. والناس لا يختصون بالمشركين واليهود، بل المراد السلامة مع الجهاد، من كل ما يكون من الناس عامة إذ لا دليل على التخصيص، وكان ممن آذوا النبي ﷺ كسرى فارس، وما كان من هؤلاء ولا هؤلاء وقد عصمه تعالى منه.

١٠. وقد ختم الله سبحانه وتعالى الآية بقوله تعالت كلماته: ﴿إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ والهداية التي ينفيها هذا النص الكريم هي الوصول إلى الحق، لأن الجحود قد ران على قلوبهم بما كسبوا من شر، وما اجترحوا من سيئات، وما لجت به نفوسهم من عناد، وهم لا يصلون إلى النيل من الحق وتعويق الدعوة، وعبر عن الكافرين بالقوم للإشارة إلى أنهم مهما تعددت أجناسهم وتباينت عناصرهم يلتقون عند غاية واحدة، وهي معاندتك والكفر بما جئت به، فهم بذلك التآلف في الإنكار صاروا كأنهم قوم متحدون.

مُغْنِيَّة:

ذكر محمد جواد مُغْنِيَّة (ت ١٤٠٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

يدل ظاهر الآية على أن هناك أمرا هاما نزل على النبي ﷺ، وقد أمره الله بتبليغه إلى الناس، فضاق النبي به ذرعا، لأنه ثقيل على أنفسهم، فتريث يتحين الظروف والمناسبات تجنبا للاصطدام مع المنحرفين.. ولكن الله سبحانه حثه على التبليغ حالا، ودون أن يحسب حسابا لأي اعتبار، والله سبحانه يتولى حمايته وعصمته من كل مكروه.

١. سؤال وإشكال: إن قوله تعالى: ﴿وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾ لا يفيد شيئا يحسن السكوت عليه، حيث جعل جواب الشرط عين فعله، تماما مثل قول القائل: إن لم تفعل فما فعلت، وإن لم تبلغ فما بلغت.. فما هو الوجه؟ والجواب: إن قوله تعالى: ﴿فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾ يشعر بأن هذا الأمر الذي تريث النبي ﷺ في تبليغه خوفا من الناس قد بلغ من الأهمية حدا يوازي تبليغه تبليغ الرسالة كلها، بحيث إذا ترك تبليغه فكأنما ترك تبليغ جميع الأحكام، تماما كما تقول لمن كان قد أحسن اليك: إذا لم تفعل هذا فما أنت بمحسن إليّ إطلاقا، وعليه يكون المعنى إن لم تبلغ هذا الأمر فكأنك لم تؤد شيئا من رسالتي، وجازيتك جزاء من كتم جميع أحكامها.

٢. سؤال وإشكال: ما هو هذا الأمر الذي بلغ من العظمة هذا المبلغ، حتى أناط الله تبليغ الرسالة جميعا بتبليغه، وجعل الرسول يتوقف أو يتربث في تبليغه، وهو الحريص على أن يصدع بأمر الله مهما كانت النتائج؟ والجواب: بعد أن اتفق المفسرون الشيعة منهم والسنة على تفسير الآية بالمعنى الذي ذكرناه، بعد أن اتفقوا على هذا اختلفوا في تعيين هذا الأمر الذي تريث النبي ﷺ في تبليغه، والذي لم يذكره الله صراحة:

أ. قال الشيعة: إن هذه الآية نزلت في علي بن أبي طالب، وأن هذا الأمر الهام هو ولايته على الناس، وأن النبي ﷺ تريث في التبليغ لا خوفا على نفسه، كلا، فلقد جابه صناديد قريش بما هو أعظم، فسفه أحلامهم، وسب آلهتهم، وعاب أمواتهم، وهم الأشداء الأقوياء، وأهل العصبية الجاهلية.. أقدم النبي على هذا، ولم يخش فيه لومة لائم يوم لا حول للإسلام ولا طول، فكيف يخشى من تبليغ حكم من الأحكام بعد أن أصبح في حصن حصين من جيش الإسلام ومناعته؟ وإنما خاف النبي ﷺ إذا نص على علي بالخلافة

---

(١) التفسير الكاشف: ٣/٩٧.

أن يتهم بالمحاباة والتحيز لصهره وابن عمه، وأن يتخذ المنافقون والكافرون من هذا النص مادة للدعاية ضد النبي ﷺ والتشكيك في نبوته وعصمته.. وبديهة أن مثل هذه الدعاية يتقبلها البسطاء والسذج، هذا ملخص ما قاله الشيعة، واستدلوا عليه بأحاديث رواها السنة في ذلك، ونقل بعضها الرازي وصاحب تفسير المنار.

ب. أما السنة فقد اختلفوا فيما بينهم: فمن قائل: إن النبي ﷺ سكت عن بعض الأحكام التي تتعلق باليهود، ومن قائل: إن الحكم الذي سكت النبي عنه يتصل بقصة زيد وزينب بنت جحش، وقال جماعة من السنة ان الآية نزلت في فضل علي بن أبي طالب، لا في خلافته:

أ. ونقل هذا القول الرازي وصاحب تفسير المنار، قال الرازي: (العاشر ـ أي القول العاشر ـ: نزلت الآية في فضل علي بن أبي طالب، ولما نزلت هذه الآية أخذ النبي بيد علي، وقال: (من كنت مولاه فعلي مولاه اللهم وال من والاه وعاد من عاداه) فلقيه عمر فقال: هنيئا لك يا ابن أبي طالب أصبحت مولاي ومولى كل مؤمن ومؤمنة، وهو قول ابن عباس والبراء بن عازب ومحمد بن علي)

ب. قال صاحب تفسير المنار: (أما حديث من كنت مولاه فعلي مولاه فقد رواه أحمد في مسنده، والترمذي، والنسائي، والضياء في المختار، وابن ماجة، وحسّنه بعضهم، وصححه الذهبي بهذا اللفظ، ووثّق سند من زاد فيه: اللهم وال من والاه وعاد من عاداه الخ)، وفي رواية انه خطب الناس، فذكر أصول الدين، ووصى بأهل بيته، فقال: (إني قد تركت فيكم الثّقلين: كتاب الله، وعترتي أهل بيتي، فانظروا كيف تخلفوني فيهما، فإنهما لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض، الله مولاي، وأنا ولي كل مؤمن، ثم أخذ بيد علي وقال ـ الحديث ـ أي من كنت مولاه فعلي مولاه، ثم أطال صاحب تفسير المنار الكلام، وقال فيما قال المراد بالولاية في الحديث ولاية النصرة والمودة.. ولكنه أتبع هذا التفسير بقوله: (إن مثل هذا الجدل فرق بين المسلمين، وأوقع بينهم العداوة والبغضاء، وما دامت عصبية المذاهب غالبة على الجماهير فلا رجاء في تحريهم الحق في مسائل الخلاف)، هذا صحيح يقره كل عاقل، ولولا التعصب للباطل لم يقع الخلاف بين المسلمين، وعلى افتراض حصوله فإنه لا يستمر هذا الأمد الطويل، ولم تؤلف عشرات الكتب في مسألة واحدة، ثم قال صاحب تفسير المنار: (أما حديث من كنت مولاه فعلي مولاه فنحن نهتدي به، ونوالي عليا المرتضى، ونوالي من والاهم، ونعادي من عاداهم، ونعد ذلك كموالاة رسول الله ﷺ، ونؤمن بأن عترته ﷺ

لا تجتمع على مفارقة الكتاب الذي أنزله الله عليه، وأن الكتاب والعترة خليفتا الرسول، فقد صح الحديث بذلك في غير قصة الغدير، فإذا أجمعوا على أمر قبلناه واتبعناه، وإذا تنازعوا في أمر رددناه إلى الله والرسول)

الطباطبائي:

ذكر محمد حسين الطباطبائي (ت ١٤٠٢ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. معنى الآية في نفسها ظاهر فإنها تتضمن أمر الرسول ﷺ بالتبليغ في صورة التهديد، ووعده ﷺ بالعصمة من الناس، غير أن التدبر في الآية[(٢)]:

أ. من حيث وقوعها موقعها الذي وقعت فيه، وقد حففتها الآيات المتعرضة لحال أهل الكتاب وذمهم وتوبيخهم بما كانوا يتعاورونه من أقسام التعدي إلى محارم الله والكفر بآياته، وقد اتصلت بها من جانبيها الآيتان، أعني قوله: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أنزل إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾، وقوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أهل الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أنزل إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾، ثم الإمعان في التدبر في نفس الآية وارتباط الجمل المنضودة فيها يزيد الإنسان عجبا على عجب، فلو كانت الآية متصلة بما قبلها وما بعدها في سياق واحد في أمر أهل الكتاب لكان محصلها أمر النبي ﷺ أشد الأمر بتبليغ ما أنزله الله سبحانه في أمر أهل الكتاب، وتعين بحسب السياق أن المراد بما أنزل إليه من ربه هو ما يأمره بتبليغه في قوله: ﴿قُلْ يَا أهل الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أنزل إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾، وسياق الآية يأباه فإن قوله: ﴿وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ يدل على أن هذا الحكم المنزل المأمور بتبليغه أمر مهم فيه مخافة الخطر على نفس النبي ﷺ أو على دين الله تعالى من حيث نجاح تبليغه، ولم يكن من شأن اليهود ولا النصارى في عهد النبي ﷺ أن يتوجه إليه من ناحيتهم خطر يسوغ له ﷺ أن يمسك عن التبليغ أو يؤخره إلى حين فيبلغ الأمر إلى حيث يحتاج إلى أن يعده الله بالعصمة منهم إن بلغ ما أمر به فيهم حتى في أوائل هجرته ﷺ إلى المدينة وعنده حدة اليهود وشدتهم حتى انتهى إلى وقائع خيبر وغيرها.

ب. على أن الآية لا تتضمن أمرا شديدا ولا قولا حادا، وقد تقدم عليه تبليغ ما هو أشد وأحد

---

(١) الميزان في تفسير القرآن: ٦/٤٣.

(٢) تقسيم الفروع هنا ليس منهجيا، وإنما من باب التبسيط فقط

وأمر من ذلك على اليهود، وقد أمر النبي ﷺ بتبليغ ما هو أشد من ذلك كتبليغ التوحيد ونفي الوثنية إلى كفار قريش ومشركي العرب وهم أغلظ جانبا وأشد بطشا وأسفك للدماء، وأفتك من اليهود وسائر أهل الكتاب، ولم يهدده الله في أمر تبليغهم ولا آمنه بالعصمة منهم.

ج. على أن الآيات المتعرضة لحال أهل الكتاب معظم أجزاء سورة المائدة فهي نازلة فيها قطعا، واليهود كانت عند نزول هذه السورة قد كسرت سورتهم، وخمدت نيرانهم، وشملتهم السخطة واللعنة كلما أوقدوا نارا للحرب أطفأها الله فلا معنى لخوف رسول الله ﷺ منهم في دين الله، وقد دخلوا يومئذ في السلم في حظيرة الإسلام وقبلوا هم والنصارى الجزية، ولا معنى لتقريره تعالى له خوفه منهم واضطرابه في تبليغ أمر الله إليهم، وهو أمر قد بلغ إليهم ما هو أعظم منه، وقد وقف قبل هذا الموقف فيما هو أهول منه وأوحش.

د. فلا ينبغي الارتياب في أن الآية لا تشارك الآيات السابقة عليها واللاحقة لها في سياقها، ولا تتصل بها في سردها، وإنما هي آية مفردة نزلت وحدها.

هـ. والآية تكشف عن أمر قد أنزل على النبي ﷺ (إما مجموع الدين أو بعض أجزائه) وكان النبي ﷺ يخاف الناس من تبليغه ويؤخره إلى حين يناسبه، ولولا مخافته وإمساكه لم يحتج إلى تهديده بقوله: ﴿وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾ كما وقع في آيات أول البعثة الخالية عن التهديد كقوله تعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ إلى آخر سورة العلق، وقوله: ﴿يَا أيها الْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنْذِرْ﴾ [المدثر: ٢]، وقوله: ﴿فَاسْتَقِيمُوا إليه وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ﴾ [حم السجدة: ٦]، إلى غير ذلك.

و. فهو ﷺ كان يخافهم ولم يكن مخافته من نفسه في جنب الله سبحانه فهو أجل من أن يستنكف عن تفدية نفسه أو يبخل في شيء من أمر الله بمهجته فهذا شيء تكذبه سيرته الشريفة ومظاهر حياته، على أن الله شهد في رسله على خلاف ذلك كما قال تعالى: ﴿مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللهُ لَهُ سُنَّةَ اللهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللهِ قَدَرًا مَقْدُورًا الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إلا اللهَ وَكَفَى بِاللهِ حَسِيبًا﴾ [الأحزاب: ٣٩] وقد قال تعالى في أمثال هذه الفروض: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٥]، وقد مدح الله سبحانه طائفة من عباده بأنهم لم يخشوا الناس في عين أن الناس خوفوهم فقال: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا

حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: ١٧٣]

ز. وليس من الجائز أن يقال: إنه ﷺ كان يخاف على نفسه أن يقتلوه فيبطل بذلك أثر الدعوة وينقطع دابرها فكان يعوقه إلى حين ليس فيه هذه المفسدة فإن الله سبحانه يقول له ﷺ: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ [آل عمران: ١٢٨]، لم يكن الله سبحانه يعجزه لو قتلوا النبي ﷺ أن يحيي دعوته بأي وسيلة من الوسائل شاء، وبأي سبب أراد.

ح. نعم من الممكن أن يقدر لمعنى قوله: ﴿وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ أن يكون النبي ﷺ يخاف الناس في أمر تبليغه أن يتهموه بما يفسد به الدعوة فسادا لا تنجح معه أبدا فقد كان أمثال هذا الرأي والاجتهاد جائزا له مأذونا فيه من دون أن يرجع معنى الخوف إلى نفسه بشيء ومن هنا يظهر أن الآية لم تنزل في بدء البعثة كما يراه بعض المفسرين إذ لا معنى حينئذ لقوله تعالى: ﴿وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ إلا أن يكون النبي ﷺ يماطل في إنجاز التبليغ خوفا من الناس على نفسه أن يقتلوه فيحرم الحياة أو أن يقتلوه ويذهب التبليغ باطلا لا أثر له فإن ذلك كله لا سبيل إلى احتماله.

ط. على أن المراد بما أنزل إليه من ربه لو كان أصل الدين أو مجموعة في الآية عاد معنى قوله: ﴿وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾ إلى نحو قولنا: يا أيها الرسول بلغ الدين وإن لم تبلغ الدين فما بلغت الدين، وأما جعله من قبيل قول أبي النجم: (أنا أبو النجم وشعري شعري)، كما ذكره بعضهم أن معنى الآية: وإن لم تبلغ الرسالة فقد لزمك شناعة القصور في التبليغ والإهمال في المسارعة إلى ايتمار ما أمرك به الله سبحانه، وأكده عليك كما أن معنى قول أبي النجم: (إني أنا أبو النجم وشعري شعري) المعروف بالبلاغة المشهور بالبراعة، فإن ذلك فاسد لأن هذه الصناعة الكلامية إنما تصح في موارد العام والخاص والمطلق والمقيد ونظائر ذلك فيفاد بهذا السياق اتحادهما كقول أبي النجم: (شعري شعري) أي لا ينبغي أن يتوهم على متوهم أن قريحتي كلت أو أن الحوادث أعيتني أن أقول من الشعر ما كنت أقوله فشعري الذي أقول اليوم هو شعري الذي كنت أقوله بالأمس.

ي. وأما قوله تعالى: ﴿وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾ فليس يجري فيه مثل هذه العناية فإن الرسالة التي هي مجموع الدين أو أصله على تقدير نزول الآية في أول البعثة أمر واحد غير مختلف ولا متغير حتى يصح أن يقال: إن لم تبلغ هذه الرسالة فما بلغت تلك الرسالة أو لم تبلغ أصل الرسالة فإن المفروض أنه

أصل الرسالة التي هي مجموع المعارف الدينية.

ك. فقد تبين أن الآية بسياقها لا تصلح أن تكون نازلة في بدء البعثة ويكون المراد فيها بما أنزل إلى الرسول ﷺ مجموع الدين أو أصله، ويتبين بذلك أنها لا تصلح أن تكون نازلة في خصوص تبليغ مجموع الدين أو أصله في أي وقت آخر غير بدء البعثة فإن الإشكال إنما ينشأ من جهة لزوم اللغو في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾ كما مر.

ل. على أن قوله: ﴿يَا أيها الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أنزل إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ لا يلائم النزول في أي وقت آخر غير بدء البعثة على تقدير إرادة الرسالة بمجموع الدين أو أصله، وهو ظاهر، على أن محذور دلالة قوله: ﴿وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ على أن النبي ﷺ كان يخاف الناس في تبليغه على حاله.

م. فظهر أن ليس هذا الأمر الذي أنزل على النبي ﷺ وأكدت الآية تبليغه هو مجموع الدين أو أصله على جميع تقاديره المفروضة، فلنضع أنه بعض الدين، والمعنى: بلغ الحكم الذي أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته، ولازم هذا التقدير أن يكون المراد بالرسالة مجموع ما حمله رسول الله ﷺ من الدين ورسالته، وإلا فالمحذور السابق وهو لزوم اللغو في الكلام على حاله إذ لو كان المراد بقوله: ﴿رِسَالَتَهُ﴾ الرسالة الخاصة بهذا الحكم كان المعنى: بلغ هذا الحكم وإن لم تبلغه فما بلغته، وهو لغو ظاهر، فالمراد أن بلغ هذا الحكم وإن لم تبلغه فما بلغت أصل رسالته أو مجموعها، وهو معنى صحيح معقول، وحينئذ يرد الكلام نظير المورد الذي ورده قول أبي النجم: (أنا أبو النجم وشعري شعري)

ن. وأما كون هذا الحكم بحيث لو لم يبلغ فكأنما لم تبلغ الرسالة فإنما ذلك لكون المعارف والأحكام الدينية مرتبطة بعضها ببعض بحيث لو أخل بأمر واحد منها أخل بجميعها وخاصة في التبليغ لكمال الارتباط، وهذا التقدير وإن كان في نفسه مما لا بأس به لكن ذيل الآية وهو قوله: ﴿وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ لا يلائمه فإن هذا الذيل يكشف عن أن قوما كافرين من الناس هموا بمخالفة هذا الحكم النازل أو كان المترقب من حالهم أنهم سيخالفونه مخالفة شديدة، ويتخذون أي تدبير يستطيعونه لإبطال هذه الدعوة وتركه سدى لا يؤثر أثرا ولا ينفع شيئا وقد وعد الله رسوله أن يعصمه منهم، ويبطل مكرهم، ولا يهديهم في كيدهم.

س. ولا يستقيم هذا المعنى مع أي حكم نازل فرض فإن المعارف والأحكام الدينية في الإسلام

ليست جميعا في درجة واحدة ففيها التي هي عمود الدين، وفيها الدعاء عند رؤية الهلال، وفيها زنى المحصن وفيها النظر إلى الأجنبية، ولا يصح فرض هذه المخافة من النبي ﷺ والوعد بالعصمة من الله مع كل حكم حكم منها كيفما كان بل في بعض الأحكام.

ع. فليس استلزام عدم تبليغ هذا الحكم لعدم تبليغ غيره من الأحكام إلا لمكان أهميته ووقوعه من الأحكام في موقع لو أهمل أمره كان ذلك في الحقيقة إهمالا لأمر سائر الأحكام، وصيرورتها كالجسد العادم للروح التي بها الحياة الباقية والحس والحركة، وتكون الآية حينئذ كاشفة عن أن الله سبحانه كان قد أمر رسوله ﷺ بحكم يتم به أمر الدين ويستوي به على عريشة القرار، وكان من المترقب أن يخالفه الناس ويقلبوا الأمر على النبي ﷺ بحيث تنهدم أركان ما بناه من بنيان الدين وتتلاشى أجزاؤه، وكان النبي ﷺ يتفرس ذلك ويخافهم على دعوته فيؤخر تبليغه إلى حين بعد حين ليجد له ظرفا صالحا وجوا آمنا عسى أن تنجح فيه دعوته، ولا يخيب مسعاه فأمره الله تعالى بتبليغ عاجل، وبين له أهمية الحكم، ووعده أن يعصمه من الناس، ولا يهديهم في كيدهم، ولا يدعهم يقلبوا له أمر الدعوة.

ف. وإنما يتصور تقليب أمر الدعوة على النبي ﷺ وإبطال عمله بعد انتشار الدعوة الإسلامية لا من جانب المشركين ووثنية العرب أو غيرهم كأن تكون الآية نازلة في مكة قبل الهجرة، وتكون مخافة النبي ﷺ من الناس من جهة افترائهم عليه واتهامهم إياه في أمره كما حكاه الله سبحانه من قولهم: ﴿مُعَلَّمٌ مَجْنُونٌ﴾)[الدخان: ١٤]، وقولهم: ﴿شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ﴾ [(الطور: ٣٠]: وقولهم: ﴿سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ [(الذاريات: ٥٢] وقولهم: ﴿إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلا رَجُلًا مَسْحُورًا﴾ [(الإسراء: ٤٧] وقولهم: ﴿إِنْ هَذَا إِلا سِحْرٌ يُؤْثَرُ﴾ [(المدثر: ٢٤] وقولهم: ﴿أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [(الفرقان: ٥] وقولهم: ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ﴾ [(النحل: ١٠٣] وقولهم: ﴿أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ﴾ [(ص: ٦] إلى غير ذلك من أقاويلهم فيه ﷺ.

ص. فهذه كلها ليست مما يوجب وهن قاعدة الدين، وإنما تدل ـ إذا دلت ـ على اضطراب القوم في أمرهم، وعدم استقامتهم فيه على أن هذه الافتراءات والمرامي لا تختص بالنبي ﷺ حتى يضطرب عند تفرسها ويخاف وقوعها فسائر الأنبياء والرسل يشاركونه في الابتلاء بهذه البلايا والمحن، ومواجهة هذه المكاره من جملة أممهم كما حكاه الله تعالى عن نوح ومن بعده من الأنبياء المذكورين في القرآن.

ق. بل إن كان شيء ـ ولا بد ـ فإنما يتصور بعد الهجرة واستقرار أمر الدين في المجتمع الإسلامي والمسلمون كالمعجون الخليط من صلحاء مؤمنين وقوم منافقين أولي قوة لا يستهان بأمرهم، وآخرين في قلوبهم مرض وهم سماعون ـ كما نص عليه الكتاب العزيز ـ وهؤلاء كانوا يعاملون مع النبي ﷺ ـ في عين أنهم آمنوا به واقعا أو ظاهرا ـ معاملة الملوك، ومع دين الله معاملة القوانين الوضعية القومية كما يشعر بذلك طوائف من آيات الكتاب قد تقدم تفسير بعضها في الأجزاء السابقة من هذا الكتاب.

ر. فكان من الممكن أن يكون تبليغ بعض الأحكام مما يوقع في الوهم انتفاع النبي ﷺ بتشريعه وإجرائه يستوجب أن يقع في قلوبهم أنه ملك في صورة النبوة وقانون ملكي في هيئة الدين كما ربما وجد بعض شواهد ذلك في مطاوي كلمات بعضهم.

ش. وهذه شبهة لو كانت وقعت هي أو ما يماثلها في قلوبهم ألقت إلى الدين من الفساد والضيعة ما لا يدفعه أي قوة دافعة، ولا يصلحه أي تدبير مصلح فليس هذا الحكم النازل المأمور بتبليغه إلا حكما فيه توهم انتفاع للنبي ص، واختصاص له بمزية من المزايا الحيوية لا يشاركه فيها غيره من سائر المسلمين، نظير ما في قصة زيد وتعدد الأزواج والاختصاص بخمس الغنائم ونظائر ذلك.

ت. غير أن الخصائص إذا كانت مما لا تمس فيه عامة المسلمين لم يكن من طبعها إثارة الشبهة في القلوب فإن الازدواج بزوجة المدعو ابنا مثلا لم يكن يختص به والازدواج بأكثر من أربع نسوة لو كان تجويزه لنفسه عن هوى بغير إذن الله سبحانه لم يكن يمنعه أن يجوز مثل ذلك لسائر المسلمين، وسيرته في إيثار المسلمين على نفسه في ما كان يأخذه لله ولنفسه من الأموال ونظائر هذه الأمور لا تدع ريبا لمرتاب ولا يشتبه أمرها لمشتبه دون أن تزول الشبهة.

ث. فقد ظهر من جميع ما تقدم أن الآية تكشف عن حكم نازل فيه شوب انتفاع للنبي ﷺ، واختصاصه بمزية حيوية مطلوبة لغيره أيضا يوجب تبليغه والعمل به حرمان الناس عنه فكان النبي ﷺ يخاف إظهاره فأمره الله بتبليغه وشدد فيه، ووعده العصمة من الناس وعدم هدايتهم في كيدهم إن كادوا فيه.

خ. وهذا يؤيد ما وردت به النصوص من طرق الفريقين أن الآية نزلت في أمر ولاية علي عليه السلام، وأن الله أمر بتبليغها وكان النبي ﷺ يخاف أن يتهموه في ابن عمه، ويؤخر تبليغها وقتا إلى وقت

حتى نزلت الآية فبلغها بغدير خم، وقال فيه: من كنت مولاه فهذا علي مولاه.

ذ. وكون ولاية أمر الأمة مما لا غنى للدين عنه ظاهر لا ستر عليه، وكيف يسوغ لمتوهم أن يتوهم أن الدين الذي يقرر بسعته لعامة البشر في عامة الأعصار والأقطار جميع ما يتعلق بالمعارف الأصلية، والأصول الخلقية، والأحكام الفرعية العامة لجميع حركات الإنسان وسكناته، فرادى ومجتمعين على خلاف جميع القوانين العامة لا يحتاج إلى حافظ يحفظه حق الحفظ؟ أو أن الأمة الإسلامية والمجتمع الديني مستثنى من بين جميع المجتمعات الإنسانية مستغنية عن وال يتولى أمرها ومدبر يدبرها ومجر يجريها؟

ض. وبأي عذر يمكن أن يعتذر إلى الباحث عن سيرة النبي الاجتماعية؟ حيث يرى أنه ﷺ كان إذا خرج إلى غزوة خلف مكانه رجلا يدير رحى المجتمع، وقد خلف عليا مكانه على المدينة ـ عند مسيره إلى تبوك فقال: يا رسول الله أتخلفني على النساء والصبيان؟ فقال ﷺ: أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى ـ إلا أنه لا نبي بعدي؟

ظ. وكان ﷺ ينصب الولاة الحكام في ما بيد المسلمين من البلاد كمكة والطائف واليمن وغيرها، ويؤمر رجالا على السرايا والجيوش التي يبعثها إلى الأطراف، وأي فرق بين زمان حياته وما بعد مماته دون أن الحاجة إلى ذلك بعد غيبته بالموت أشد، والضرورة إليه أمس ثم أمس.

٢. ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ خاطبه ﷺ بالرسالة لكونها أنسب الصفات إلى ما تتضمنه الآية من الأمر بالتبليغ لحكم الله النازل فهو كالبرهان على وجوب التبليغ الذي تظهره الآية وتقرعه سمع رسول الله ﷺ فإن الرسول لا شأن له إلا تبليغ ما حمل من الرسالة فتحمل الرسالة يفرض عليه القيام بالتبليغ.

٣. ولم يصرح باسم هذا الذي أنزل إليه من ربه بل عبر عنه بالنعت وأنه شيء أنزل إليه، إشعارا بتعظيمه ودلالة على أنه أمر ليس فيه لرسول الله ﷺ صنع، ولا له من أمره شيء ليكون كبرهان آخر على عدم خيرة منه ﷺ في كتمانه وتأخير تبليغه، ويكون له عذرا في إظهاره على الناس، وتلويحا إلى أنه ﷺ مصيب في ما تفرسه منهم وتخوف عليه، وإيماء إلى أنه مما يجب أن يظهر من ناحيته ﷺ وبلسانه وبيانه.

٤. ﴿وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾ المراد بقوله: ﴿رِسَالَتَهُ﴾ وقرئ (رسالاته) كما تقدم مجموع رسالات الله سبحانه التي حملها رسوله ﷺ، وقد تقدم أن الكلام يفيد أهمية هذا الحكم المرموز إليه، وأن له

من المكانة ما لو لم يبلغه كأن لم يبلغ شيئا من الرسالات التي حملها، فالكلام موضوع في صورة التهديد، وحقيقته بيان أهمية الحكم، وأنه بحيث لو لم يصل إلى الناس، ولم يراع حقه كان كأن لم يراع حق شيء من أجزاء الدين فقوله: ﴿وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ﴾ جملة شرطية سيقت لبيان أهمية الشرط وجودا وعدما لترتب الجزاء الأهم عليه وجودا وعدما، وليست شرطية مسوقة على طبع الشرطيات الدائرة عندنا فإنا نستعمل (إن) الشرطية طبعا فيما نجهل تحقق الجزاء للجهل بتحقق الشرط، وحاشا ساحة النبي ﷺ من أن يقدر القرآن في حقه احتمال أن يبلغ الحكم النازل عليه من ربه وأن لا يبلغ، وقد قال تعالى: ﴿اللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٤]، فالجملة أعني قوله: ﴿وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ﴾، إنما تفيد التهديد بظاهرها وتفيد إعلامه عليه السلام وإعلام غيره مال هذا الحكم من الأهمية، وأن الرسول معذور في تبليغه.

٥. ﴿وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ قال الراغب: (العصم (بالفتح فالسكون) الإمساك والاعتصام الاستمساك ـ إلى أن قال ـ والعصام (بالكسر) ما يعتصم به أي يشد، وعصمة الأنبياء حفظه إياهم أولا بما خصهم به من صفاء الجوهر، ثم بما أولاهم من الفضائل الجسمية والنفسية، ثم بالنصرة وبتثبيت أقدامهم، ثم بإنزال السكينة عليهم وبحفظ قلوبهم وبالتوفيق قال تعالى: ﴿وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾، والعصمة شبه السوار، والمعصم موضعها من اليد، وقيل للبياض بالرسغ عصمة تشبيها بالسوار، وذلك كتسمية البياض بالرجل تحجيلا، وعلى هذا قيل: غراب أعصم)، وما ذكره من معنى عصمة الأنبياء حسن لا بأس به غير أنه لا ينطبق على الآية ﴿وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ بل لو انطبق فإنما ينطبق على مثل قوله: ﴿وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْزَلَ اللهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا (١١٣)﴾ [النساء: ١١٣] وأما قوله: ﴿وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ فإن ظاهره أنها عصمة بمعنى الحفظ والوقاية من شر الناس المتوجه إلى نفس النبي الشريفة أو مقاصده الدينية أو نجاح تبليغه وفلاح سعيه، وبالجملة المعنى المناسب لساحته المقدسة.

٦. وكيف كان فالمتحصل من موارد استعمال الكلمة أنها بمعنى الإمساك والقبض فاستعماله في معنى الحفظ من قبيل استعارة اللازم لملزومه فإن الحفظ يلزمه القبض، وكان تعليق العصمة بالناس من دون بيان أن العصمة من أي شأن من شئون الناس كتعدياتهم بالإيذاء في الجسم من قتل أو سم أو أي

اغتيال، أو بالقول كالسب والافتراء، أو بغير ذلك كتقليب الأمور بنوع من المكر والخديعة والمكيدة وبالجملة السكوت عن تشخيص ما يعصم منه لإفادة نوع من التعميم، ولكن الذي لا يعدو عنه السياق هو شرهم الذي يوجب انقلاب الأمر على النبي ﷺ بحيث يسقط بذلك ما رفعه من أعلام الدين.

٧. والناس مطلق من وجد فيه معنى الإنسانية من دون أن يعتبر شيء من خصوصياته الطبيعية التكوينية كالذكورة والأنوثة أو غير الطبيعية كالعلم والفضل والغنى وغير ذلك، ولذلك قل ما ينطبق على غير الجماعة، ولذلك أيضا ربما دل على الفضلاء من الإنسان إذا كان الفضل روعي فيه وجود معنى الإنسانية كقوله تعالى: ﴿إذا قِيلَ لَهُمْ آمنوا كَما آمَنَ النَّاسُ﴾ أي الذين وجد فيهم معنى الإنسانية، وهو ملاك درك الحق وتمييزه من الباطل، وربما كان دالا على نوع من الخسة وسقوط الحال، وذلك إذا كان الأمر الذي يتكلم فيه مما يحتاج إلى اعتبار شيء من الفضائل الإنسانية التي اعتبرت زائدة على أصل معنى النوع كقوله: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[(الروم: ٣٠] وكقولك: لا تثق بمواعيد الناس، ولا تستظهر بسوادهم نظرا منك إلى أن الوثوق والاستظهار يجب أن يتعلقا بالفضلاء من الإنسان ذوي ملكة الوفاء بالعهد والثبات على العزيمة لا على من ليس له إلا مجرد صدق اسم الإنسانية، وربما لم يفد شيئا من مدح أو ذم إذا تعلق الغرض بما لا يزيد على أصل معنى الإنسانية كقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣]

٨. ولعل قوله: ﴿وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ أخذ فيه لفظ الناس اعتبارا بسواد الأفراد الذي فيه المؤمن والمنافق والذي في قلبه مرض، وقد اختلطوا من دون تمايز، فإذا خيف خيف من عامتهم.

٩. وربما أشعر به قوله: ﴿إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ فإن الجملة في مقام التعليل لقوله: ﴿وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ وقد تقدم أيضا أن الآية نزلت بعد الهجرة وظهور شوكة، الإسلام وكان السواد الأعظم من الناس مسلمين بحسب الظاهر وإن كان فيهم المنافقون وغيرهم، فالمراد بالقوم الكافرين قوم هم في الناس مذكوري النعت ممحوي الاسم وعد الله سبحانه أن يبطل كيدهم ويعصم رسوله ﷺ من شرهم.

١٠. والظاهر أيضا أن يكون المراد بالكفر الكفر بآية من آيات الله وهو الحكم المراد بقوله: ﴿مَا أنزل إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾، كما في قوله في آية الحج: ﴿وَمَنْ كَفَرَ فإن اللهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٧]،

وأما الكفر بمعنى الاستكبار عن أصل الشهادتين فإنه مما لا يناسب مورد الآية البتة إلا على القول بكون المراد بقوله: ﴿مَا أنزل إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ مجموع رسالات الدين، وقد عرفت عدم استقامته.

١١. والمراد بعدم هدايته تعالى هؤلاء القوم الكافرين عدم هدايته إياهم في كيدهم ومكرهم، ومنعه الأسباب الجارية أن تنقاد لهم في سلوكهم إلى ما يرومونه من الشر والفساد نظير قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [المنافقون: ٦]، وقوله تعالى: ﴿وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٨]، وقد تقدم البحث عنه.

١٢. وأما كون المراد بعدم الهداية هو عدم الهداية إلى الإيمان فغير صحيح البتة لمنافاته أصل التبليغ والدعوة فلا يستقيم أن يقال: أدعهم إلى الله أو إلى حكم الله وأنا لا أهديهم إليه إلا في مورد إتمام الحجة محضا، على أن الله سبحانه قد هدى ولا يزال يهدي كثيرين من الكفار بدليل العيان، وقد قال أيضا: ﴿وَاللهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾[(البقرة: ٢١٣]

١٣. فتبين أن المراد بعدم هداية الكافرين عدم تخليتهم لينالوا ما يهمون به من إبطال كلمة الحق وإطفاء نور الحكم المنزل فإن الكافرين وكذا الظالمين والفاسقين يريدون بشامة أنفسهم وضلال رأيهم أن يبدلوا سنة الله الجارية في الخلقة وسياقة الأسباب السالكة إلى مسبباتها ويغيروا مجاري الأسباب الحقة الظاهرة عن سمة عصيان رب العالمين إلى غايتهم الفاسدة مقاصدهم الباطلة والله رب العالمين لن يعجزه قواهم الصورية التي لم يودعها فيهم ولم يقدرها في بناهم إلا هو، فهم ربما تقدموا في مساعيهم أحيانا ونالوا ما راموه أوينات واستعلوا واستقام أمرهم برهة لكنه لا يلبث دون أن يبطل أخيرا وينقلب عليهم مكرهم ولا يحيق المكر السيئ إلا بأهله، وكذلك يضرب الله الحق والباطل فأما الباطل فيذهب جفاء، وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض.

١٤. وعلى هذا فقوله: ﴿إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ تفسير قوله: ﴿وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ بالتصرف في سعة إطلاقه، ويكون المراد بالعصمة عصمته ﷺ من أن يناله الناس بسوء دون أن ينال بغيته في تبليغ هذا الحكم وتقريره بين الأمة كأن يقتلوه دون أن يبلغه أو يثوروا عليه ويقلبوا عليه الأمور أو يتهموه بها يرتد به المؤمنون عن دينه، أو يكيدوا كيدا يميت هذا الحكم ويقبره بل الله يظهر كلمة الحق ويقيم الدين على ما شاء وأينما شاء ومتى ما شاء، وفيمن شاء قال تعالى: ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أيها النَّاسُ

وَيَأْتِ بِآخَرِينَ وَكَانَ اللهُ عَلَى ذَلِكَ قَدِيرًا﴾ [(النساء: ١٣٣]

١٥. وأما أخذ الآية أعني قوله: ﴿وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ بإطلاقه على ما فيه من السعة والشمول فمما ينافيه القرآن والمأثور من الحديث والتاريخ القطعي، وقد نال ﷺ من أمته أعم من كفارهم ومؤمنيهم ومنافقيهم من المصائب والمحن وأنواع الزجر والأذى ما ليس في وسع أحد أن يتحمله إلا نفسه الشريفة، وقد قال ﷺ ـ كما في الحديث المشهور ـ: ما أوذي نبي مثل ما أوذيت قط.

١٦. في تفسير العياشي، عن أبي صالح، عن ابن عباس وجابر بن عبد الله قالا: أمر الله تعالى نبيه محمدا ﷺ ـ أن ينصب عليا علما في الناس ليخبرهم بولايته ـ فتخوف رسول الله ﷺ أن يقولوا: خابى ابن عمه ـ وأن يطعنوا في ذلك عليه، قال فأوحى الله إليه هذه الآية: ﴿يَا أيها الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أنزل إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ ـ فقام رسول الله ﷺ بولايته يوم غدير خم[1]..

أقول: وروى نزول الآية في أمر الولاية وقصة الغدير معه الكليني في الكافي، بإسناده، عن أبي الجارود، عن أبي جعفر عليه السلام في حديث طويل، وروى هذا المعنى الصدوق في المعاني، بإسناده عن محمد بن الفيض بن المختار، عن أبيه عن أبي جعفر عليه السلام في حديث طويل، ورواه العياشي أيضا عن أبي الجارود في حديث طويل، وبإسناده عن عمرو بن يزيد عن أبي عبد الله عليه السلام مختصرا.

١٧. في تفسير المنار، عن تفسير الثعلبي: أن هذا القول من النبي ﷺ في موالاة علي شاع ـ وطار في البلاد فبلغ الحارث بن النعمان الفهري ـ فأتى النبي ﷺ على ناقته، وكان بالأبطح فنزل وعقل ناقته، وقال للنبي ﷺ ـ وهو في ملإ من أصحابه ـ يا: محمد أمرتنا من الله أن نشهد أن لا إله إلا الله ـ وأنك رسول الله؛ فقبلنا منك ـ ثم ذكر سائر أركان الإسلام ـ ثم لم ترض بهذا حتى مددت بضبعي ابن عمك، وفضلته علينا، وقلت: (من كنت مولاه فعلي مولاه) فهذا منك أم من الله؟ فقال ﷺ: والله الذي لا إله إلا هو هو أمر الله، فولى الحارث يريد راحلته، وهو يقول: اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك ـ فأمطر علينا حجارة من السماء ـ أو ائتنا بعذاب أليم، فما وصل إلى راحلته حتى رماه الله بحجر ـ فسقط على هامته وخرج من دبره، وأنزل الله تعالى: ﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ﴾ الحديث، قال في المنار بعد نقل هذا

---

(١) ذكر هنا بعض الأحاديث والآثار، التي سبق ذكرها.

الحديث ما لفظه: (وهذه الرواية موضوعة، وسورة المعارج هذه مكية، وما حكاه الله من قول بعض كفار قريش: ﴿اللهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ﴾ كان تذكيرا بقول قالوه قبل الهجرة، وهذا التذكير في سورة الأنفال، وقد نزلت بعد غزوة بدر قبل نزول المائدة ببضع سنين، وظاهر الرواية أن الحارث بن النعمان هذا كان مسلما فارتد ولم يعرف في الصحابة، والأبطح بمكة والنبي ﷺ لم يرجع من غدير خم إلى مكة بل نزل فيه منصرفة من حجة الوداع إلى المدينة)، وأنت ترى ما في كلامه من التحكم:

أ. أما قوله: (إن الرواية موضوعة، وسورة المعارج هذه مكية، فيعول في ذلك على ما في بعض الروايات عن ابن عباس وابن الزبير أن سورة المعارج نزلت بمكة، وليت شعري ما هو المرجح لهذه الرواية على تلك الرواية، والجميع آحاد؟ سلمنا أن سورة المعارج مكية كما ربما تؤيده مضامين معظم آياته فما هو الدليل على أن جميع آياتها مكية؟ فلتكن السورة مكية، والآيتان خاصة غير مكيتين كما أن سورتنا هذه أعني سورة المائدة مدنية نازلة في آخر عهد رسول الله ﷺ، وقد وضعت فيها الآية المبحوث عنها أعني قوله تعالى: ﴿يَا أيها الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أنزل إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾، وهو كعدة من المفسرين مصرون على أنها نزلت بمكة في أول البعثة، فإذا جاز وضع آية مكية آية: ﴿يَا أيها الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أنزل إِلَيْكَ﴾ في سورة مدنية (المائدة) فليجز وضع آية مدنية آية: ﴿سَأَلَ سَائِلٌ﴾ في سورة مكية سورة المعارج.

ب. وأما قوله: (وما حكاه الله من قول بعض كفار قريش)] إلى آخره، فهو في التحكم كسابقه؛ فهب إن سورة الأنفال نزلت قبل المائدة ببضع سنين فهل يمنع ذلك أن يوضع عند التأليف بعض الآيات النازلة بعدها فيها كما وضعت آيات الربا وآية: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللهِ﴾ [(البقرة: ٢٨١]، وهي آخر ما نزل على النبي ﷺ عندهم في سورة البقرة النازلة في أوائل الهجرة وقد نزلت قبلها ببضع سنين.

ج. ثم قوله: (إن آية: ﴿وَإِذْ قَالُوا اللهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ﴾، الآية) تذكير لما قالوه قبل الهجرة) تحكم آخر من غير حجة لو لم يكن سياق الآية حجة على خلافه فإن العارف بأساليب الكلام لا يكاد يرتاب في أن هذا أعني قوله: ﴿اللهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ لاشتماله على قوله: ﴿إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ﴾ بما فيه من اسم الإشارة وضمير الفصل والحق المحلى باللام وقوله: ﴿مِنْ عِنْدِكَ﴾ ليس كلام وثني مشرك يستهزئ بالحق ويسخر منه، وإنما هو كلام من أذعن بمقام الربوبية، ويرى أن الأمور الحقة تتعين من لدنه، وأن الشرائع مثلا تنزل من عنده، ثم

إنه يتوقف في أمر منسوب إلى الله تعالى يدعي مدع أنه الحق لا غيره، وهو لا يتحمل ذلك ويتحرج منه فيدعو على نفسه دعاء منزجر ملول سئم الحياة.

د. وأما قوله: (وظاهر الرواية أن الحارث بن النعمان هذا كان مسلما فارتد ولم يعرف في الصحابة) تحكم آخر؛ فهل يسع أحدا أن يدعي أنهم ضبطوا أسماء كل من رأى النبي ﷺ وآمن به أو آمن به فارتد؟ وإن يكن شيء من ذلك فليكن هذا الخبر من ذلك القبيل.

هـ. وأما قوله: (والأبطح بمكة والنبي ﷺ لم يرجع من غدير خم إلى مكة) فهو يشهد على أنه أخذ لفظ الأبطح اسما للمكان الخاص بمكة ولم يحمله على معناه العام وهو كل مكان ذي رمل، ولا دليل على ما حمله عليه بل الدليل على خلافه وهو القصة المسرودة في الرواية وغيرها، وربما استفيد من مثل قوله:

نجوت وقد بل المرادي سيفه　　　من ابن أبي شيخ الأباطح طالب

إن مكة وما والاها كانت تسمى الأباطح، قال في مراصد الاطلاع: (أبطح بالفتح ثم السكون وفتح الطاء والحاء المهملة كل مسيل فيه رقاق الحصى فهو أبطح، وقال ابن دريد: الأبطح والبطحاء السهل المنبسط على وجه الأرض، وقال أبو زيد: الأبطح أثر المسيل ضيقا كان أو واسعا، والأبطح يضاف إلى مكة وإلى منى لأن مسافته منهما واحدة، وربما كان إلى منى أقرب وهو المحصب، وهي خيف بني كنانة، وقد قيل: إنه ذو طوى، وليس به)، على أن الرواية بعينها رواها غير الثعلبي وليس فيه ذكر من الأبطح وهي ما يأتي من رواية المجمع من طريق الجمهور وغيرها، وبعد هذا كله فالرواية من الآحاد، وليست من المتواترات ولا مما قامت على صحتها قرينة قطعية، وقد عرفت من أبحاثنا المتقدمة أنا لا نعول على الآحاد في غير الأحكام الفرعية على طبق الميزان العام العقلائي الذي عليه بناء الإنسان في حياته، وإنما المراد بالبحث الآنف بيان فساد ما استظهر به من الوجوه التي استنتج منها أنها موضوعة.

١٨. وفي المجمع: عن جعفر بن محمد الصادق عن آبائه قال: لما نصب رسول الله ﷺ عليا يوم غدير خم ـ قال من كنت مولاه فهذا علي مولاه، فقال: فطار ذلك في البلاد ـ فقدم على النبي النعمان بن الحارث الفهري ـ فقال: أمرتنا من الله أن نشهد أن لا إله إلا الله، وأنك رسول الله، وأمرتنا بالجهاد وبالحج وبالصوم والصلاة والزكاة فقبلناها، ثم لم ترض حتى نصبت هذا الغلام ـ فقلت: من كنت مولاه فعلي مولاه ـ فهذا شيء منك أو أمر من الله تعالى؟ فقال: بلى والله الذي لا إله إلا هو أن هذا من الله، فولى النعمان بن الحارث

وهو يقول: اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء ـ فرماه الله بحجر على رأسه فقتله، فأنزل الله: ﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾، وهذا المعنى مروي في الكافي، أيضا.

الحوثي:

ذكر بدر الدّين الحوثي (ت ١٤٣١ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾ ﴿مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ﴾ منزل مخصوص ليس كلما أنزل؛ لأنه لو كان عاماً، لكان قوله تعالى: ﴿وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾ كتحصيل الحاصل، كما لو قال: (وإن لم تفعل فلم تفعل) فتبين: أنه منزل مخصوص لو لم يبلغه لحبط تبليغه الماضي وصار لم يبلغ رسالات الله أو رسالته.

٢. وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ﴾ تقدمة للأمر بالتبليغ مناسبة ما على الرسول إلا البلاغ، وقوله: ﴿مِنْ رَبِّكَ﴾ تنبيه على وجوب طاعته؛ لأنه المالك المربي.

٣. ﴿وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ وهذا قطع للعلة في ترك التبليغ، وفيه إشارة إلى أن الأمر الذي أمر بتبليغه مما يخشى منه عدوان أعداء الله على المبلغ.

٤. قال في (الكشاف): (فإن قلت: أين العصمة وقد شج في وجهه يوم أحد وكسرت رباعيته صلوات الله عليه)!؟ قلت: لا وجه للسؤال، لأن قوله تعالى: ﴿وَاللهُ يَعْصِمُكَ﴾ مضارع فليست العصمة إلا من حين نزول قوله تعالى: ﴿وَاللهُ يَعْصِمُكَ﴾ ولا يلزم عصمته في الماضي مع أنه تعالى قد عصمه من القتل في الماضي لكن قوله تعالى: ﴿يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ لا يختص بالقتل ولم يخبره في الماضي بأنه يعصمه من الناس ليباشر المعارك باذلاً نفسه لله، كما قال تعالى: ﴿فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ﴾ [النساء:٨٤]

٥. ﴿إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ ولذلك احتجْتَ إلى العصمة من الناس وإخبارك بها لتبلغ هذا الأمر المخصوص الذي يثير بعض الناس، فقوله: ﴿وَاللهُ يَعْصِمُكَ﴾ والتعليل: بأن ﴿اللهَ لَا يَهْدِي﴾ كقوله تعالى: ﴿وَخُذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اللهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾ [النساء:١٠٢] في أنه تعليل بتركهم على

---

(١) التيسير في التفسير: ٣٤٣/٢.

كفرهم، إلا أنه هنا عبر عنه بترك هدايته لهم، وهناك عبر عنه بإعداد العذاب لهم المسوغ لتركهم على كفرهم يقاتلون المسلمين ويحتاج المسلمون إلى أخذ الحذر منهم.

٦. مما روي في سبب نزول الآية الكريمة:

أ. قال السيوطي في (الدر المنثور): (وأخرج ابن أبي حاتم، وابن مردويه، وابن عساكر: عن أبي سعيد الخدري، قال نزلت هذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ على رسول الله ﷺ يوم (غدير خمّ) في علي بن أبي طالب.

ب. وأخرج ابن مردويه، عن ابن مسعود، قال كنا نقرأ على عهد رسول الله ﷺ: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ إن علياً مولى المؤمنين ﴿وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾)

ج. وروى المرشد بالله عليه السلامفي (الأمالي الخميسية) باسناده عن ابن عباس في قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ نزلت في علي عليه السلام أمر رسول الله ﷺ أن يبلغ فيه، فأخذ رسول الله ﷺ بيد علي عليه السلام فقال: (من كنت مولاه فعلي مولاه، اللهم والِ من والاه، وعاد من عاداه)

د. وفي (مناقب أمير المؤمنين علي عليه السلام) تأليف محمد بن سليمان الكوفي: محمد بن سليمان، قال حدثنا محمد بن منصور، عن عبّاد، عن علي بن هاشم، عن أبي الجارود، عن أبي جعفر عليه السلام قال لما أمر الله رسول الله ﷺ بما أمر به قال: قومي حديث عهد بالجاهلية، إذ أتاه جبريل فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ فأخذ بيد علي فقال: (من كنت مولاه فعليّ مولاه، اللهم والِ من والاه، وعاد من عاداه)

هـ. وقال الإمام الهادي عليه السلام في أول كتاب (الأحكام): (وفيه ـ أي في علي عليه السلام ـ: أنزل الله على رسوله بـ (غدير خُمّ): ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ فوقف ﷺ وقطع سيره، ولم يستجز أن يتقدم خطوة واحدة حتى ينفذ ما عزم به عليه في علي عليه السلام) الخ (حديث الغدير)

و. وفي (شواهد التنزيل) عند ذكره لهذه الآية: بإسناده عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: (لما أسري

بي إلى السماء سمعت تحت العرش: أن علياً راية الهدى، وحبيب من يؤمن بي، بلغ يا محمد) قال فلما نزل النبي ﷺ أسر ذلك فأنزل الله?: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ في علي بن أبي طالب ﴿وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾

ز. وفي (شواهد التنزيل): بإسناد عن أبي سعيد الخدري، قال نزلت هذه الآية في علي ابن أبي طالب: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ وفي (شواهد التنزيل): بإسناد عن ابن عباس في قوله?: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ الآية، نزلت في علي أمر رسول الله ﷺ أن يبلغ فيه، فأخذ رسول الله بيد علي، فقال: (من كنت مولاه فعلي مولاه، اللهم وال من والاه، وعاد من عاداه)

ح. وفيه بإسناد قال حدثنا عبد الله ابن أبي أوفى قال سمعت رسول الله ﷺ يقول يوم (غدير خم) وتلا هذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾ ثم رفع يديه حتى يرى بياض إبطيه، ثم قال: (ألا من كنت مولاه فعلي مولاه، اللهم والِ من والاه، وعادِ من عاداه، ثم قال اللهم اشهد)

ط. وفيه: بإسناد عن زياد بن المنذر، يقول: كنت عند أبي جعفر ـ محمد بن علي ـ وهو يحدث الناس، إذ قام إليه رجل من أهل البصرة يقال لَه: عثمان الأعشى، كان يروي عن الحسن البصري، فقال: يا ابن رسول الله جعلني الله فداك إن الحسن يخبرنا أن هذه الآية نزلت بسبب رجل، ولا يخبرنا من الرجل: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾؟ فقال: لو أراد أن يخبر به لأخبر به، ولكنه يخاف، إن جبريل هبط على النبي ﷺ فقال له: (إن الله يأمرك أن تدل أمتك على صلاتهم) إلى قوله عليه السلام: (ثم هبط فقال: إن الله يأمرك أن تدل أمتك على وليّهم على مثل ما دللتهم عليه من صلاتهم وزكاتهم وصيامهم وحجهم ليلزمهم الحجة في جميع ذلك) فقال رسول الله ﷺ: يا رب إن قومي قريبوا عهد بالجاهلية وفيهم تنافسٌ وفخر، وما منهم رجل إلا وقد وتره وليهم وإني أخاف، فأنزل الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾ يريد فما بلغتها تامة ﴿وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ فلما ضمن الله لَه بالعصمة وخوَّفه أخذ بيد علي بن أبي طالب ثم قال: (يا أيها الناس من كنت مولاه فعلي مولاه، اللهم والِ من والاه، وعادِ من عاداه، وانصر من نصره، واخذل من خذله، وأحبَّ من أحبَّه، وابغض من أبغضه) قال زياد: فقال عثمان: ما انصرفت إلى بلدي بشيء أحب إلي من هذا الحديث)، وأنا اختصرته وهو بتمامه

في (شواهد التنزيل)

ي. وفيه بإسناد عن ابن عباس وجابر بن عبد الله قالا: أمر الله محمداً أن ينصب علياً للناس ليخبرهم بولايته، فتخوف رسول الله ﷺ أن يقولوا: حابا ابن عمه، وأن يطعنوا في ذلك عليه، فأوحى الله إليه: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ الآية، فقام رسول الله بولايته يوم (غدير خمّ) قال المحمودي في (تخريج أحاديث شواهد التنزيل): (والحديث رواه ابن مردويه في كتاب (مناقب علي عليه السلام) بعدة طرق) الخ.

ك. وفيه بسند عن ابن عباس: عن النبي ﷺ رواية فيها بعض الطول، قال في آخرها: حتى كان يوم الثامن عشر أنزل الله عليه: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ ثم أخذ بيد علي بن أبي طالب، فرفعها حتى رأى الناس بياض إبطيهما، ثم قال: (أيها الناس الله مولاي، وأنا مولاكم، فمن كنت مولاه فعلي مولاه، اللهم والِ من والاه، وعادِ من عاداه، وانصر من نصره، واخذل من خذله) وأنزل الله: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ انتهى، وفي تخريجه زيادات، فليراجع من أراد.

ل. وقد بسط الأميني في (الغدير) تخريج نزول قول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ﴾ في (غدير خم) في ولاية علي عليه السلام وذلك في (الغدير) في [ج ١/ ص ٢١٤ ـ ٢٢٣] فراجعه، وفي (الميزان) بيان مفيد ينبغي تأمله.، وفي (الشافي) تأليف الإمام المنصور بالله عبد الله بن حمزة في [ج ١/ ص ١١٤] نقل من (تفسير الثعلبي) بإسناده عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ الآية: نزلت في علي بن أبي طالب أمر النبي ﷺ بأن يبلغ فيه فأخذ رسول الله ﷺ بيد علي عليه السلام فقال: (من كنت مولاه فعلي مولاه، اللهم والِ من والاه وعادِ من عاداه)، وقد أسند المنصور بالله عليه السلام (تفسير الثعلبي) منه إلى المؤلف.

م. فتحصل من ذلك كله: أنها نزلت في علي عليه السلام، وقد أكدَته القرائن في الآية كونها في منزل مخصوص، وقوله تعالى: ﴿وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾

فضل الله:

ذكر محمد حسين فضل الله (ت ١٤٣١ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. لخص الرازي في تفسيره الكبير، أهم أقوال المفسرين في أسباب نزول الآية موضوع البحث، ومجملها يدور حول قضايا جزئية لا أهمية لها في مدلولها وفي نتائجها، وهي:

أ. الأول: أنها نزلت في قصة الرجم والقصاص على ما تقدّم في قصة اليهود.

ب. الثاني: نزلت في عيب اليهود واستهزائهم بالدين، والنبيّ سكت عنهم، فنزلت هذه الآية.

ج. الثالث: لما نزلت آية التخيير، وهو قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ﴾ [الأحزاب: ٢٨] فلم يعرضها عليهن خوفا من اختيارهنّ الدنيا فنزلت.

د. الرابع: نزلت في أمر زيد وزينب بنت جحش..

هـ. الخامس: نزلت في الجهاد، فإن المنافقين كانوا يكرهونه، فكان يمسك أحيانا عن حثهم على الجهاد..

و. العاشر: نزلت الآية في فضل علي بن أبي طالب عليه السّلام، ولما نزلت هذه الآية أخذ بيده وقال: (من كنت مولاه فعلي مولاه، اللهم وال من والاه، وعاد من عاداه، فلقيه عمر فقال: هنيئا لك يا بن أبي طالب أصبحت مولاي ومولي كلّ مؤمن ومؤمنة) وهو قول ابن عباس والبراء بن عازب ومحمّد بن عليّ.

٢. ويعلّق صاحب التفسير الكبير على هذه الروايات بقوله: (واعلم أن هذه الروايات وإن كثرت، إلا أن الأولى: حمله على أنه تعالى آمنه من مكر اليهود والنصارى، وأمره بإظهار التبليغ من غير مبالاة منه بهم، وذلك لأن ما قبل هذه الآية بكثير، وما بعدها بكثير، لما كان كلاما مع اليهود والنصارى، امتنع إلقاء هذه الآية الواحدة في البين على وجه تكون أجنبية عمّا قبلها وما بعدها)

٣. لنا جملة ملاحظات على ما قيل، نوجزها بالتالي:

أ. بالنسبة للرواية الأولى، فملاحظتنا أنها لا تتناسب مع وعي النبيّ ﷺ للرسالة، وقناعته بها، واستعداده للدعوة إليها، لأنها تتضمن ضيقه ذرعا وخوفه من تكذيب الناس له، وتهديد الله له بالعذاب،

---

(١) من وحى القرآن: ٨/٢٦١.

هذا مع ملاحظة أن الآية توحي بأنه كان قد بلغ الرسالة، وأن الله قد أنزل عليه قضية تساوي الرسالة في أهميتها، ويمثل إهمالها إهمالا للرسالة نفسها.

ب. وهكذا الأمر في الرواية الثانية: التي تمثل حيرة النبيّ ﷺ أمام مسألة الدعوة، وجهله بالطريقة الّتي يدعو بها الناس ليجتمعوا إليه، في الوقت الذي نعرف فيه وعيه للواقع الذي عاش فيه وهو الذي عاش معه قبل الدعوة زهاء أربعين سنة، مع ملاحظة أن الآية لا تمثل جوابا على التساؤل المذكور، بل هي تتضمن أمرا بالتبليغ وتشديدا عليه وعصمة من الناس.

ج. أما الرواية المتعلّقة بقوله: ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ لا ندري كيف كانت هذه الآية أشدّ عليه وهي لم تتضمّن تهديدا بالعقاب بل تتضمّن عصمة له من الناس، وكيف كانت النتائج السلبية برميه بالتراب والحجارة عصمة له ولا ينافي ذلك إنقاذ العباس له لأنه جاء بعد أن نال النبيّ ﷺ ـ على تقدير صحة الرواية ـ الجهد الكبير وهكذا نلاحظ على مسألة ترك الحراسة من قبل النبيّ ﷺ من جهة الوعد بالعصمة، فإن الظاهر أن العصمة القوليّة مما يمكن أن يقوله الناس من كلام غير مسئول في المسألة الّتي يبلغها مما توحي به من عناصر للاتهام وللإثارة في الناس.

٤. وبعبارة أخرى، إن القضية المطروحة ليست العصمة من الخطر الذي يمكن أن يصيب حياته، فقد كان النبيّ ﷺ يتحرك في قلب الخطر في ساحات الحرب في حروبه المتعدّدة ولكن القضية المطروحة هي عصمته من كلام الناس في الموضوع المعيّن، والله العالم، بلغتها، لأن النتيجة ستكون بهذه المثابة من حيث الخطورة، وبهذا نرجح أن يكون الوجه الصحيح هو الوجه الأخير، وهو أنها نزلت في فضل عليّ عليه السّلام، لأن قرب عليّ عليه السّلام من رسول الله ﷺ من ناحية النسب والمصاهرة يفتح المجال للكثير من أقاويل السوء التي تربط الموقف بالعاطفة في قضية الولاية، مما يحتاج إلى الدفاع الإلهي الذي يتمثل في عصمة الله له عن ذلك كله، ولأن قضية الولاية تمثل امتداد وجود القيادة المسؤولة الكفوءة في الإمام، بالمستوي الذي يملك فيها التفوق الأفضلية على غيره من صحابة رسول الله ﷺ، لا سيما في الجانب المتصل بالوعي الفكري التشريعي للرسالة الإسلاميّة.

٥. ومن الواضح، أن مسألة بهذه الأهمية يؤدي إهمالها إلى أن تبقى حركة الرسالة في مهب الرياح، كما لاحظناه في اهتزاز المسيرة الإسلامية في كثير من جوانبها لعدم انطلاقها من قاعدة صلبة في طبيعتها

وموضوعها، وعلى ضوء ذلك، نفهم أن المتعيّن هو تفسير كلمة (المولى) بالولاية في خط القيادة بقرينة قوله ﷺ: (ألست أولى بالمؤمنين من أنفسهم)، فإنها ظاهرة في أن قوله: (من كنت مولاه فعلي مولاه) يعني من كنت أولى به من نفسه فعلي أولى به من نفسه، لأنه أراد أن يثبت له ما هو ثابت لنفسه مما أخذ اعترافهم به، وهو كناية عن القيادة لا المحبة والنصرة ـ كما يقول صاحب تفسير المنار هذا من جهة ومن جهة أخرى فإن إعلان مودة عليّ ومحبة الناس له لا تحمل أي أساس للنقد وللكلام غير المسؤول من الناس ليكون ذلك سببا في الحديث عن عصمة الله له منه، لأن من الطبيعي أن يدعو الإنسان الناس إلى مودة أقرب الناس إليه وإلى نصرته لا سيّما إذا كان في مثل مستوى عليّ عليه السّلام الذي يعرفه كل المسلمين بالقرابة القريبة من رسول الله ﷺ نسبا ومصاهرة وتقوى وجهادا، مما لا يثير أيّة مشكلة في الواقع ولا يسمح لليهود أن يصطادوا في الماء العكر، بينما تمثل الولاية ـ الإمامة ـ القيادة الكثير من الحديث السلبي ضد النبيّ محمد ﷺ الذي وعده الله بأن يعصمه منه.

٦. أما ما تحدّث عنه الفخر الرازي من قضية ضرورة الانسجام مع السياق ليجعلها واردة في تأمين النبي ﷺ من مكر اليهود والنصارى فهذا ما لم نستطع إخضاع الآية له لأنّ المسألة في موضوع عصمته من الناس لا تنطلق من الخط العام للرسالة في مفاهيمها وأحكامها الإجماليّة والتفصيليّة، بل تنطلق من شيء معين خطير يريد الله من الرسول ﷺ أن يبلغه، وإننا لن نجد هناك أيّة ضرورة لهذا الاتصال فيما بين الآيات لأن من الممكن أن يكون تنظيم الآيات خاضعا لارتباطها في الأجواء العامّة للفكرة التي قد تشتمل على جزئيات ومفردات متنوعة تلتقي بحركة الدعوة الإسلاميّة في خطوات الرسول ﷺ ومن معه فيما يواجههم من تحديات مختلفة في المواقع وفي الأسلوب، وقد يكفي في هذا الارتباط أن هذا الموقف من الرّسول ﷺ قد يثير الكثير من أقاويل اليهود في أجواء المدينة في اتهام النبيّ ﷺ بالعاطفة في مواجهة للأشياء وللأشخاص فيما يمكن أن يتمثل في قوله تعالى: ﴿وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ وعلى ضوء ذلك، فإن الأقرب في أسباب النزول هو ما رواه أبو سعيد الخدري في نزولها في غدير خم في نصب عليّ عليه السّلام أميرا للمؤمنين، لأنه هو الذي كان من الممكن أن يثير الأقاويل من المنافقين ضدّ النبيّ ﷺ باختيار صهره وابن عمه محاباة له، الأمر الذي يحتاج إلى حماية إلهيّة في الوجدان العام للناس.

٧. وهذا هو الذي يستوحيه المتدبر في الآية، لأن الظاهر منها هو العصمة الرساليّة، بمعنى إضعاف

موقف القوى المضادة التي تريد استغلال نقاط الضعف في المسألة المطروحة على مستوى إثارة الحساسيات الاجتماعية، لا العصمة الجسديّة بإبعاده عن الاعتداء عليه جسديّا بالجرح أو القتل، لأن السياق بعيد عن ذلك، هذا مع ملاحظة أن السورة مدنيّة، فلا وجه لما ذكر في الروايتين الأولى الثانية: من نزولها عليه في بداية الدعوة الثبات في حمل الرسالة

٨. وفي مطلق الأحوال، فإن في هذا النداء الإلهي للرسول ﷺ الكثير من اللهجة الحاسمة، والكثير من الإيحاء بالامتداد في حمل الرسالة والثبات في مواقعها، لأن قضية الرسالة ليست كلمة تقال بحذر، وليست موقفا يتّخذ بحياء، بل هي الكلمة القويّة الهادرة الّتي تنفذ إلى النفوس بقوّة، وتواجه العقبات بالتحدي، وتتحرك في ساحة الصراع بحيويّة وثبات، وهي الموقف الذي يجابه المواقف المضادة بطريقة حاسمة لا مجال فيها لسياسة اللف والدوران، والمجاملات المائعة الخجولة، ذلك لأن الدور الرسالي يمثل إرادة التغيير في المفاهيم والوسائل والأهداف، وتفجير المشكلة من الداخل، وتحويلها إلى حالة صراع يثير النزاع والخلاف والاهتزاز وتجاذب المواقف من أجل أن تكون النتائج النهائيّة خاضعة لعمليّة غربلة وتقييم وتفتيت للواقع الذي يراد تغييره، لئلا تبقى الرواسب الماضية عقبة نفسيّة أمام التغيير الداخلي الذي يفسح المجال لتغيير الواقع.

٩. وهكذا أراد الله لرسوله أن يتجاوز كل المخاوف الّتي قد تعطل الحركة، وتمنع المبادرة، وتربك المسيرة ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ ولا تلتفت إلى السلبيات الّتي قد يثيرها هذا الفريق أو ذاك ضد القضايا التي يريد الله أن تبلّغها للناس، ولا تتوقف أمام الكلمات اللامسؤولة الّتي قد يطلقها بعض الحاقدين والكافرين ليشوهوا الموقف، وليثيروا الغبار من حولك، ليمنعوا الرؤية الواضحة للأشياء.

١٠. ﴿وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾، ويتصاعد النداء، وتعنف اللهجة، وتشتد الكلمة في أجواء الإيحاء، ويتوقف المتأمل أمام هذه الفقرة، ليتساءل: ماذا هناك؟ فقد نزلت هذه الآية، بعد أن كاد الرسول يبلغ نهاية المطاف في تبليغ رسالته، بكل الأساليب الحكمية الرسالية التي كانت تعنف حينا وترق أحيانا، وعانى الكثير الكثير من الجهد والتعب والجهاد في سبيل ذلك، في الحروب الّتي خاضها في مواجهة التحديات الكافرة، وفي حملات العداء الّتي تحملها بصبر ومسئوليّة، وفي الكلمات القاسية الشاتمة

التي سمعها من المشركين فأعرض عنها استجابة لنداء الله، فما القضية الجديدة الّتي يعتبر ترك تبليغها بمثابة الموقف الذي يلغي كل ذلك الجهد والتعب والمعاناة، فكأنه لم يفعل شيئا، ولم يبلغ حكما أو آية أو رسالة؟

١١. كيف نستوحي هذه الآية؟ ماذا نستوحي من أجواء هذه الآية الّتي تؤكد الإصرار على الالتزام بالتبليغ في قضايا الفكر والتشريع الإسلاميّة الصعبة، المثيرة لعلامات الاستفهام، حول الذات والطريق المتحركة بأكثر من قضيّة اتهام، في الدوافع والغايات؟ ولا تتوقف الآية عند ذلك، بل تعمل على أن لا تترك مجالا للتردد والخوف القلق، بل تحسم الأمر كله بالكلمة الّتي تحمل ثقل المسؤوليّة لتوحي بأن القضايا الصعبة في حركة الرسالة تساوي الرسالة، لأن قيمتها تتمثل بالموقف الذي يركز القاعدة في موقع التحديات، ويفتح الآفاق على امتدادات الصراع، فإذا اهتز الموقف فإن القاعدة تصبح في قبضة اهتزازات الرياح وهدير العواصف، وإذا اختنقت الآفاق بنوازع الخوف والتردد، فإن الصراع سيفقد قوته وحيويته، ويختنق بأجواء المأساة، وتتصاعد الكلمة لتأخذ مجالها الروحي الإلهي، بكل ما لمعنى الألوهيّة من قوّة وعظمة، وبكل ما لكلمة الناس أمامها من ضعف وحقارة، ليرتفع الإنسان من خلال ذلك إلى الرحاب الواسعة حيث الشعور بالروحية المنفتحة الممتدة في آفاق الله، فيوحي له بالطمأنينة والسلام والأمان أمام كل التحديات من كل الناس، فها هو الوعد الإلهي بالعصمة من الناس، من كل ما يفكر فيه الناس، ومن كل ما يخططون له، أو يتحركون فيه.

١٢. ماذا يستوحي العاملون لله من ذلك كله؟ إن هناك أكثر من فكرة إسلاميّة يدور حولها الجدل في الساحة الفكرية في كل زمن كان للفكر فيه ساحة للصراع، وإن هناك أكثر من موقف إسلامي يختلف فيه الناس، في سلبياته وإيجابياته، في انسجامه مع المواقف التي يألفها الناس، وفي ابتعاده عنها، في مجالات تعدد المواقف واهتزازها، وإن هناك أكثر من جهة، أو شخص، ممن يتحركون في الساحة العامّة، يطلب منهم موقف مؤيد أو معارض من خلال المواقف التي يقفونها، مما يكلّف الكثير من التضحيات، ويضع الكثير من الصعوبات، وقد لا يكون هناك مجال للابتعاد عن الساحة، أو الغياب عن الموقف أو الاختفاء وراء الكلمات الضبابيّة أو الأوضاع الرمادية فلا بدّ من الموقف الإيجابي للفكر وللموقف، وهنا يأتي دور الحسم الإلهي بعدم التراجع، وبحتميّة الإقدام والإبلاغ والوقفة الحاسمة، ينطلق مع ذلك الوعد بالعصمة من كل عوامل الخوف من الناس المحيطة بالموقف إن وحي هذه الآية يعطينا فكرة الموقف وهي أن التقية

قد تكون في القضايا الصغيرة المتعلقة بالشخص وبتفصيلات التحرّك الخاضعة لإمكانات التغيير والتبديل من دون مساس بجوهر القضية الأساسيّة، أما القضايا الكبيرة فلا مجال فيها للتقية، لأن ذلك يحجب وضوح الرؤية عن الناس ويؤدي بهم إلى الوقوع في قبضة الكفر والضياع، وهذا مما لا تسمح به طبيعة الرسالة الّتي أنزلها الله لتخرج الناس من الظلمات إلى النور، ولتنقذهم من الضلال لتفتح لهم أبواب الهدى، فإن ذلك قد يلغي دور الرسالة في الساحة، وبالتالي وجودها.

١٣. إن من وحي هذه الآية، أن الداعية إلى الله لا يتجمّد عند حسابات الأشياء في نطاق الظروف الموضوعيّة المحيطة به لتكون بمثابة القضاء والقدر اللذين لا يستطيع الناس تجاوزهما لما يمثلانه من الحتميّة في حركة الحياة، بل ينبغي له أن يتجاوزها بعض الشيء بروح المغامرة الإيمانية المرتكزة على الثقة بالله الذي قد يخلق له ظروفا داخليّة في نفوس الناس، وخارجيّة في حركة حياتهم، فتوجه الأمر إلى اتجاه يختلف عن الاتجاه الذي تمثله الظروف العادية، إن الالتزام بالظروف المحيطة بالساحة وبالداعية، بالدقّة التي يتصوّرها البعض، قد يوقع الداعية إلى الله والعامل في سبيله، في قبضة الاستسلام للأمر الواقع، وفي تمجيد روح الاندفاع والمغامرة في اتجاه الآفاق البعيدة الّتي تحمل في رحابها معاني الفتوحات، وتلك هي قصة الإيمان بالله الّتي توحي للإنسان بمراعاة سنن الله المألوفة في الكون فيما تمثله الظروف والأسباب المألوفة، كما توحي له بانتظار الخفيّ من ألطافه فيما يعلمه من الأسباب والسنن الّتي لا يدركها الإنسان، لأنها بعيدة عن موضع إدراكه الحسيّ والوجداني.

الشيرازي:

ذكر ناصر مكارم الشيرازي في تفسير هذا المقطع ما يلي[1]:

١. إنّ لهذه الآية نفسا خاصا يميزها عمّا قبلها وعمّا بعدها من آيات، إنّها تتوجه بالخطاب إلى رسول الله ﷺ وحده وتبيّن له واجبة، فهي تبدأ بمخاطبة الرّسول: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ﴾ وتأمره بكل جلاء ووضوح أن ﴿بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ وعبارة (بلّغ) كما يقول الراغب في (المفردات) أكثر توكيدا من (أبلغ)

٢. ثمّ لكي يكون التوكيد أشد وأقوى ـ تحذره وتقول: ﴿وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾، ثمّ

(١) تفسير الأمثل: ٤/٨٣.

تطمئن الآية الرّسول ﷺ ـ وكأن أمرا يقلقه ـ وتطلب منه أن يهدئ من روعه وأن لا يخشى الناس: فيقول له: ﴿وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾، وفي ختام الآية إنذار وتهديد بمعاقبة الذين ينكرون هذه الرسالة الخاصّة ويكفرون بها عنادا، فتقول: ﴿إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾

٣. أسلوب هذه الآية، ولحنها الخاص، وتكرر توكيداتها، وكذلك ابتداؤها بمخاطبة الرّسول ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ﴾ التي لم ترد في القرآن الكريم سوى مرّتين، وتهديده بأنّ عدم تبليغ هذه الرسالة الخاصّة إنّما هو تقصير ـ وهذا لم يرد إلّا في هذه الآية وحدها ـ كل ذلك يدل على أنّ الكلام يدور حول أمر مهم جدا بحيث أن عدم تبليغه يعتبر عدم تبليغ للرسالة كلها.

٤. لقد كان لهذا الأمر معارضون أشداء إلى درجة أنّ الرّسول ﷺ كان قلقا لخشيته من أنّ تلك المعارضة قد تثير بعض المشاكل بوجه الإسلام والمسلمين، ولهذا يطمئنه الله تعالى من هذه الناحية.

٥. سؤال وإشكال: هنا يتبادر إلى الذهن السؤال التالي ـ مع الأخذ بنظر الاعتبار تأريخ نزول هذه الآية ـ وهو قطعا في أواخر حياة الرّسول الأكرم ﷺ: ترى ما هذا الموضوع المهم الذي يأمر الله رسوله ـ مؤكّدا ـ أن يبلّغه للناس؟ هل هو ممّا يخص التوحيد والشرك وتحطيم الأصنام، وهو ما تمّ حله للنبي ﷺ وللمسلمين قبل ذلك بسنوات؟ أم هو ممّا يتعلق بالأحكام والقوانين الإسلامية، مع أنّ أهمها كان قد سبق نزوله حتى ذلك الوقت؟ أم هو الوقوف بوجه أهل الكتاب من اليهود والنصارى، مع أنّنا نعرف أنّ هذا لم يعد مشكلة بعد الانتهاء من حوادث بني النضير وبني قريظة وبني قينقاع وخيبر وفدك ونجران؟ أم كان أمرا من الأمور التي لها صلة بشأن المنافقين، مع أنّ هؤلاء قد طردوا من المجتمع الإسلامي بعد فتح مكّة، وامتداد نفوذ المسلمين وسيطرتهم على أرجاء الجزيرة العربية كافة، فتحطمت قوتهم، ولم يبق عندهم إلّا ما كانوا يخفونه مقهورين؟ فما هذه المسألة المهمّة ـ يا ترى ـ التي برزت في الشهور الأخيرة من حياة رسول ﷺ بحيث تنزل هذه الآية وفيها كل ذلك التوكيد؟ والجواب: ليس ثمّة شك أنّ قلق رسول الله ﷺ لم يكن لخوف على شخصه وحياته، وإنّما كان لما يحتمله من مخالفات المنافقين وقيامهم بوضع العراقيل في طريق المسلمين، وهل هناك مسألة تستطيع أن تحمل كل هذه الصفات غير مسألة استخلاف النّبي ﷺ وتعيين مصير مستقبل الإسلام!؟ سوف نرجع إلى مختلف الرّوايات الواردة في الكثير من كتب السنة والشيعة بشأن هذه الآية، لكي نتبيّن إن كانت تنفعنا في إثبات الاحتمال الذي أوردناه آنفا، ثمّ نتناول بالبحث

الاعتراضات والانتقادات التي أوردها بعض المفسّرين من السنة حول هذا التّفسير.

٦. على الرغم من أنّ الأحكام المتسرعة، والتعصبات المذهبية قد حالت ـ مع الأسف ـ دون وضع الحقائق الخاصّة بهذه الآية في متناول أيدي جميع المسلمين بغير تغطية أو تمويه، إلّا أن هناك مختلف الكتب التي كتبها علماء من أهل السنة في التّفسير والحديث والتّأريخ، أوردوا فيها روايات كثيرة تقول جميعها بصراحة، إنّ الآية المذكورة قد نزلت في علي عليه السّلام، هذا الرّوايات ذكرها الكثيرون من الصحابة، منهم (زيد بن أرقم) و(أبو سعيد الخدري) و(ابن عباس) و(جابر بن عبد الله الأنصاري) و(أبو هريرة) و(البراء بن عازب) و(حذيفة) و(عامر بن ليلى بن ضمرة) و(ابن مسعود) وقالوا: إنّها نزلت في علي عليه السّلام وبشأن يوم الغدير، بعض هذه الأحاديث نقل بطريق واحد مثل رواية زيد بن أرقم، وبعضها نقل بأحد عشر طريقا، مثل رواية أبي سعيد الخدري ورواية ابن عباس، وبعضها نقل بثلاثة طرق، مثل رواية البراء بن عازب، أمّا العلماء الذين أوردوا هذه الرّوايات في كتبهم فهم كثيرون[1].

٧. ونحن لا نعني ـ طبعا ـ أنّ العلماء والمفسّرين الذين مرّ ذكرهم قد قبلوا نزول الآية في علي عليه السّلام، بل نقصد أنّهم ذكروا ـ فقط ـ الرّوايات الخاصّة بذلك في كتبهم، ولكنّهم بعد أن نقلوا تلك الرّوايات المعروفة، امتنعوا عن قبولها، إمّا خوفا من الظروف التي كانت تحيط بهم، وإمّا لأنّ التسرع في الحكم وقف حائلا دون إصدار حكم سليم في أمثال هذه الأمور، بل لقد سعوا ـ قدر إمكانهم ـ أن يعتموا الرؤية الصحيحة لها ويظهروها بشكل هامشي، فهذا الرازي ـ مثلا ـ وهو المعروف بتعصبه المذهبي في مسائل خاصّة، أدرج سبب نزول هذه الآية كاحتمال عاشر بعد إيراده تسعة احتمالات أخرى كلها واهية وضعيفة ولا قيمة لها، وليس هذا بمستغرب من الرازي، فهذا شأنه في كل المواضيع، لكنّنا نتعجب من كتّاب مثقفين أمثال سيد قطب، في تفسيره (في ظلال القرآن) ومحمّد رشيد رضا في تفسيره (المنار)، الذين أهملوا ـ كليا ـ الإشارة إلى سبب نزول هذه الآية المذكور في أمهات المصادر الإسلامية، أو ضعّفوا أهميته بحيث أصبح بتصويرهم لا يستلفت نظرا، هل كانت الظروف المحيطة بهؤلاء لا تسمح لهم بذكر الحقيقة؟ أم أنّ حجب التعصب أكثف من أن تخترقها أشعة التنوير!؟ لا ندري! وهناك آخرون اعتبروا نزول الآية

---

(١) ذكر نماذج عنهم، وقد سبق ذكر بعضهم

في علي عليه السّلام أمرا مسلّما به، ولكنّهم ترددوا في الإقرار بأنّها تدل على الولاية والخلافة، وسنردّ ـ إن شاء الله ـ على إشكالات هؤلاء، على كل حال، إنّ الرّوايات المنقولة في كتب أهل السنّة المعروفة ـ دع عنك كتب الشيعة ـ في هذا الموضوع من الكثرة بحيث لا يمكن إنكارها أو تجاوزها بسهولة، لسنا ندري لماذا يكتفى في أسباب نزول سائر الآيات بحديث واحد أو حديثين إثنين فقط، ولا تكون كل هذه الرّوايات الواردة بشأن نزول هذه الآية كافية!؟ أفي هذه الآية من الخصوصية ما ليس في الآيات الأخرى؟ ترى هل هناك دليل منطقي يسوّغ كل هذا التصلّب؟

٨. ثمّة موضوع آخر لا بدّ من الإشارة إليه، هو أنّ الرّوايات التي ذكرناها فيما سبق تتعلق كلها بنزول هذه الآية في علي عليه السّلام، أي الرّوايات الخاصّة بسبب نزول هذه الآية فقط، أم الرّوايات الواردة عن حادثة غدير خم وخطبة الرّسول الكريم ﷺ وإعلانه وصاية علي عليه السّلام وولايته، فإنّها أكثر بكثير من تلك، حتى أنّ العلّامة الأميني ينقل في كتابه (الغدير) حديث الغدير عن ١١٠ من صحابة رسول الله ﷺ مع اسنادها، وعن ٨٤ من التابعين، وعن ٣٦٠ من العلماء والأدباء المسلمين المعروفين بما لا يدع مجالا للشك في أنّ حديث الغدير واحد من أوثق الأحاديث المتواترة، ولئن شك أحد في تواتر هذه الرّوايات فإنّه لا يمكنه أن يقبل أي حديث متواتر آخر، ولمّا كانت دراسة كل هذه الرّوايات الخاصّة بشأن نزول هذه الآية، وكذلك البحث في الرّوايات الخاصّة بحادث الغدير، يتطلب تأليف كتاب ضخم يخرجنا عن طريقتنا في التّفسير، فإنّنا نكتفي بهذا القدر، ونحيل طالب الاستزادة حول هذا الموضوع إلى الكتب التّالية: (الدر المنثور) للسيوطي، و(الغدير) للعلّامة الأميني، و(إحقاق الحقّ) للقاضي نور الدين التستري، و(المراجعات) للسيد عبد الحسين شرف الدين، و(دلائل الصدق) للشيخ محمّد حسن المظفر.

٩. على الرغم من أنّ الرّوايات التي تذكر هذه الحادثة كثيرة وهي تصف واقعة بعينها، فإنّ الرّوايات التي عبّرت عنها متنوعة، فبعض هذه الرّوايات مسهب مطوّل، وبعضها الآخر موجز مكثف، وبعضها يتناول جانبا معينا من الحادثة، ومن مجموع تلك الرّوايات ومن التّأريخ الإسلامي ومن ملاحظة القرائن والظروف المحيطة بوقوعها وبمكانها يتبيّن ما يلي:

أ. أنّه في السنة الأخيرة من حياة النّبي ﷺ أدّى المسلمون مع رسول الله ﷺ حجّة الوداع في عظمة وجلال، وكان لهذه الحجة أثر كبير في النفوس، وبعد انتهائها أحاطت بالقلوب هالة من السموّ الروحي،

وتشرّبت في الأعماق لذّة هذه العبادة الكبرى، وكانت الجموع الغفيرة ـ قيل أنّ عددهم ٩٠ ألفا، وقيل ١٢٠ ألفا، وقيل ١٢٤ ألفا ـ من المسلمين المشاركين في تلك الحجّة يكادون يطيرون فرحا لهذه السعادة الكبرى التي شرفهم الله بها، لم يكن أهل المدينة وحدهم قد رافقوا النّبي ﷺ في هذه الحجة، بل التحق بركبه مسلمون توافدوا من سائر أنحاء الجزيرة العربية لينالوا شرف الصحبة في هذه الحجّة، كانت الشمس ترسل أشعتها اللافحة المحرقة على الوديان والسهول لكن لذّة هذا السفر الروحي يسّرت كل شيء اقترب وقت الظهيرة، واقترب الركب الكبير من أرض الجحفة، وظهرت من بعيد أرض (غدير خم) القاحلة الجافة المحرقة.

ب. كانت المنطقة، في الحقيقة تقع على مفترق طرق أربع حيث كان على الحجيج أن يتفرقوا إلى الوجهة التي يقصدونها فطريق يتجه إلى المدينة نحو الشمال، وآخر يوصل إلى العراق شرقا، وطريق الغرب يتجه إلى مصر، وطريق الجنوب يصل إلى اليمن، هاهنا كان لا بدّ أن يتحقق أهم فصل من فصول هذه الرحلة وآخر ذكرياتها، وكان على المسلمين أن يتلقوا آخر تكليف لهم، أو المرحلة النهائية من المهمات الناجحة التي اضطلع بها رسول الله ﷺ، قبل أن يتفرقوا إلى حال سبيلهم.

ج. كان يوم الخميس من السنة العاشرة للهجرة، وقد مضت ثمانية أيّام على عيد الأضحى، وإذا برسول الله ﷺ يصدّر أمره للحجيج بالتوقف، فراح المسلمون يتنادون الذين في مقدمة الركب أن يعودوا، وانتظروا حتى يلتحق بهم من كان في المؤخرة أيضا، كان الشمس قد تخطت نقطة الزوال، وصعد مؤذن النّبي ﷺ ينادي في الناس لصلاة الظهر، وأخذ الناس يستعدون ـ مسرعين ـ لأداء الصّلاة.

د. كانت الرياح لافحة محرقة، حتى اضطر بعضهم إلى أن يضع قسما من عباءته تحت قدميه وقسما منها فوق رأسه كي يتقي حرارة الحصى وأشعة الشمس، ما كان في تلك الصحراء ما يستظل به، ولا ما تستريح إليه العين من خضرة الأعشاب، اللهم إلّا بضع شجيرات عجاف عارية تصارع حرارة الجو صراعا مريرا، كان جمع قد لجأ إلى هذه الشجيرات ونشر رداءه عليها ليستظل به رسول الله ﷺ، إلّا أنّ الرياح الساخنة كانت تعصف بتلك المظلة فتنشر تحتها حرارة الشمس الحارقة.

هـ. انتهت صلاة الظهر، وهرع الحجيج يريدون نصب خيامهم الصغيرة التي كانوا يحملونها معهم يلوذون بها من حر الهاجرة، إلّا أنّ رسول الله ﷺ أخبرهم أنّ عليهم أن يستعدوا لسماع رسالة إلهية، جديدة

في خطبته، وكان الذين يقفون على مسافة من رسول الله ﷺ لا يستطيعون رؤيته، لذلك صنعوا له منبرا من أحداج الإبل ارتقاه رسول الله ﷺ فقال: (الحمد لله ونستعينه ونؤمن به، ونتول عليه، ونعوذ به من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا الذي لا هادي لمن ضلّ، ولا مضلّ لمن هدى، وأشهد أن لا إله إلّا الله، وأنّ محمّدا عبده ورسوله، أمّا بعد: أيّها الناس قد نبّأني اللطيف الخبير أنّه لم يعمر نبيّ إلّا مثل نصف عمر الذي قبله، وإنّي أوشك أن أدعى فأجيب، وإني مسئول وأنتم مسئولون، فماذا أنتم قائلون؟ قالوا: نشهد أنك بلّغت ونصحت وجهدت فجزاك الله خيرا، قال ألستم تشهدون أن لا إله إلّا الله، وأن محمّدا عبده ورسوله، وأن جنّته حقّ، وناره حقّ، وأن الموت حقّ، وأن الساعة آتية لا ريب فيها، وأنّ الله يبعث من في القبور؟ قالوا: بلى نشهد بذلك، قال اللهم اشهد، ثمّ قال أيّها الناس ألا تسمعون؟ قالوا: نعم، ثمّ ساد الجوّ صمت عميق، ولم يسمع فيه سوى أزيز الرياح.. قال رسول الله ﷺ (فانظروا كيف تخلفوني في الثقلين)، فنادى مناد: وما الثقلان، يا رسول الله؟ قال الثقل الأكبر كتاب الله طرفّ بيد الله عزّ وجلّ، وطرف بأيديكم فتمسكوا به لا تضلّوا، والآخر الأصغر عترتي، وإنّ اللطيف الخبير نبّأني أنّهما لن يتفرّقا حتى يردا عليّ الحوض، فسألت ذلك لهما ربّي، فلا تقدّموهما فتهلكوا، ولا تقصروا عنهما فتهلكوا، ثمّ أخذ بيد علي فرفعها حتى رؤي بياض آباطهما، وعرفه القوم أجمعون، فقال: أيّها النّاس: من أولى الناس بالمؤمنين من أنفسهم؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال إنّ الله مولاي، وأنا مولى المؤمنين، وأنا أولى بهم من أنفسهم فمن كنت مولاه فعليّ مولاه، (يقولها ثلاث مرات)، وفي لفظ أحمد إمام الحنابلة: (أربع مرات)، ثمّ قال: (اللهم وال من والاه، وعاد من عاداه، وأحبّ من أحبّه، وأبغض من أبغضه، وانصر من نصره، واخذل من خذله، وأدر الحقّ معه حيث دار، ألا فليبلغ الشاهد الغائب)

و. ثمّ لم يتفرقوا حتى نزل أمين وحي الله بقوله: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾ الآية، فقال رسول الله ﷺ: (الله أكبر على إكمال الدين، وإتمام النعمة، ورضى الرّب برسالتي والولاية لعلي من بعدي)

ز. ثمّ طفق القوم يهنئون أمير المؤمنين عليه السّلام وممن هنّأه أبو بكر وعمر كلّ يقول: بخّ بخّ لك يا ابن أبي طالب، أصبحت وأمسيت مولاي ومولى كل مؤمن ومؤمنة، وقال ابن عباس: وجبت والله في أعناق القوم، وانبرى حسان بن ثابت، شاعر رسول الله ﷺ يستأذنه في تخليد ذكرى هذه الحادثة في شعره،

فقال:

يناديهم يوم الغدير نبيّهم	بخم وأسمع بالرّسول مناديا
فقال: فمن مولاكم ونبيّكم؟	فقالوا، ولم يبدوا هناك التعاميا
إلهك مولانا وأنت نبيّنا	ولم تلق منا في الولاية عاصيا
فقال له: قم يا عليّ فإنّني	رضيتك من بعدي إماما وهاديا
فمن كنت مولاه فهذا وليه	فكونوا له أتباع صدق وواليا
هناك دعا: اللهم وال وليه	وكن للذي عادى عليا معاديا

١٠. ليس ثمّة شك في أنّ هذه الآية، لو لم تكن قد نزلت في خلافة علي عليه السّلام، لأكتفي فيها ـ كما قلنا ـ بأقل ممّا ورد فيها من روايات ومن قرائن موجودة في الآية نفسها، فكثير من كبار المفسّرين المسلمين يكتفون في تفسير سائر الآيات القرآنية حتى بعشر الرّوايات الموجودة بشأن هذه الآية، أو أقل من ذلك، ولكن ممّا يؤسف له أنّ حجاب التعصب قد حال دون قبول كثير من الحقائق.

١١. إنّ الذين يحملون لواء المخالفة تجاه تفسير هذه الآية والرّوايات الكثيرة الواردة بشأن نزولها، والرّوايات المتواترة بخصوص أصل حادثة الغدير، ينقسمون إلى قسمين:

أ. قسم حمل منذ البداية روح العناد والتعنت، وحمل بشدّة على الشيعة بالإهانة والسب والشتم.

ب. وآخرون حافظوا ـ إلى حد ما ـ على الروح العلمية في البحث والتحقيق، وتابعوا القضية عن طريق الاستدلال، ولذلك فهم يعترفون بجانب من الحقائق، ولكنّهم بعد إيرادهم بعض الإشكالات ـ التي ربّما كانت نتيجة لظروفهم الفكرية الخاصّة يتركون الوقوف عند الآية والرّوايات المرتبطة بها.

١٢. والنموذج البارز الذي يمثل القسم الأوّل هو ابن تيمية في كتابه (منهاج السنة) حيث يبدو فيه كمن يغمض عينيه في رابعة النهار ويضع أصابعه في أذنيه بشدّة، ثمّ ينادي: أين الشمس؟ فلا هو مستعد أن يفتح طرفا من عينه ليرى بعض الحقائق، ولا هو يرضى برفع أصابعه عن أذنيه كي يستمع إلى ضجيج المحدثين والمفسّرين المسلمين، بل يستمر في سبه وشتمه وإهاناته، إنّ دافع هؤلاء هو الجهل وعدم الاطلاع والتعصب المقرون بالعناد، ممّا دفع بهم إلى إنكار البديهيات والواضحات التي لا تخفى على أحد، لذلك فنحن لا نجشم أنفسنا عناء نقل أقوالهم، ولا نحمل القراء عناء سماع إجاباتهم، فماذا يمكن أن يقال لمن

ينبري بكل وقاحة لتجاهل هذا الحشد الكبير من كبار علماء الإسلام والمفسّرين ـ ومعظمهم من أهل السنة ـ من الذين أعلنوا أن تلك الآية قد نزلت بشأن علي عليه السّلام فيدعي ـ متعاميا عن الحقّ ـ أن أحدا من العلماء لم يقل شيئا كهذا في كتابه! وما قيمة قوله هذا ليستحق البحث فيه!؟ من الجدير بالذكر أنّ ابن تيمية، في محاولته تبرئة نفسه قبال كل هذه الكتب المعتبرة التي تقول بنزول هذه الآية بحق علي عليه السّلام، يلجأ إلى تعبير مضحك، ويكتفي بقوله: (إن العلماء الذين يعرفون ما يقولون لا يرون أن هذه الآية قد نزلت في علي)! فالظاهر (أنّ العلماء الذين يعرفون ما يقولون) هم أولئك الذين يضمون أصواتهم إلى أصوات ابن تيمية وعناده المفرط، أمّا من لا يضمّ صوته إليه فإنّه عالم لا يدرك ما يقول، وهذا منطق من ألقى العناد وحبّ الذات على عقله ظلالا مشؤومة، فلندع هؤلاء.

١٣. أمّا الشبهات التي أوردها القسم الثّاني من العلماء، فمنها ما يجدر بالبحث، وسوف نتناولها فيما يلي:

أ. سؤال وإشكال: هل معنى (المولى) هو (الأولى: بالتصرف)؟ إنّ أهم اعتراض يورد على حادثة الغدير هو أنّ من معاني (مولى) الصديق والنصير والمحب، ومن الممكن أن تكون الكلمة هنا بهذا المعنى أيضا، والجواب:

• ليس رد هذا الاعتراض بصعب، لأنّ كل ناظر منصف يدرك أن تذكير الناس بمحبّة علي عليه السّلام لا يقتضي كل تلك المقدمات، لا إلقاء خطبة في تلك الصحراء القاحلة وتحت ذلك الحر المحرق، وإيقاف تلك الجموع وانتزاع الاعترافات المتوالية منهم، إنّ حب المسلم لأخيه المسلم من المفاهيم الإسلامية الواضحة التي تقررت منذ بداية الدعوة، ثمّ إنّ هذا الأمر لم يكن من الأمور التي لم يبلغها رسول الله ﷺ حتى ذلك الوقت، بل ثبّته وأعلنه مرارا، كما إنّه لم يكن من الأمور التي تثير قلق رسول الله ﷺ وتخوفه حتى يطمئنه الله تعالى بشأنه، ولا كان أمرا على هذا القدر من الأهمية بحيث تتخذ الآية هذا الأسلوب الشديد في مخاطبة رسول الله ﷺ: ﴿وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾ كل هذه تدل على أنّ الأمر كان أكثر من مجرّد محبّة عادية تلك المحبّة التي كانت من أوليات الأخوة الإسلامية منذ بزوغ فجر الدعوة الإسلامية.

• ثمّ، إذا كان القصد هو تبيان مثل هذه المحبة العادية، فلماذا يعمد رسول الله ﷺ إلى استخلاص الاعترافات من الحاضرين قبل بيان قصده، فيسألهم: (ألست أولى بكم من أنفسكم) وردت هذه العبارة

في روايات كثيرة؟ أيتناسب هذا مع بيان محبّة عادية؟ ثمّ إنّ المحبّة العادية لا تستدعي من الناس، وحتى من عمر نفسه، أن يهنئ عليا عليه السّلام بقوله: (أصبحت مولاي ومولى كل مؤمن ومؤمنة) وهذا القسم من الحديث يعرف بحديث (التهنئة) وقد أورده كثير من كبار علماء الحديث والتّفسير والتّأريخ من أهل السنة، عن طريق عدد من الصحابة، مثل: ابن عباس، وأبي هريرة، والبراء بن عازب، وزيد بن أرقم، وقد نقل العلّامة الأميني هذا الحديث في المجلد الأوّل من كتابه (الغدير) عن ستين عالما من علماء أهل السنة.

• حبّ المسلم واجب، وعليّ كسائر المسلمين، ويجب حبّه، وليس في ذلك شيء جديد يستوجب التهنئة في ذلك اليوم وفي آخر سنة من حياة رسول الله ﷺ.

• ثمّ إنّ هناك ارتباطا بين حديث (الثقلين) وعبارات وداع رسول الله ﷺ وموالاة علي عليه السّلام، وإلّا فإنّ حبّ علي عليه السّلام حبّا عاديا لا يستدعي أن يجعله رسول الله ﷺ في مصافّ القرآن! أفلا يرى المنصف المحايد في التعبير الوارد في حديث الثقلين أنّ المسألة تتعلق بالقيادة، لأنّ القرآن هو القائد الأوّل للمسلمين بعد رحيل رسول الله ﷺ وأهل البيت عليهم السّلام هو القائد الثّاني؟

ب. سؤال وإشكال: قد يقال أحيانا إنّ الآيات السابقة واللاحقة على هذه الآية تخص أهل الكتاب ومخالفاتهم، وهذا ما يقول به صاحب تفسير (المنار) ويصر على ذلك، والجواب: لا ضير في ذلك ـ كما قلنا في تفسير الآية نفسها ـ لأنّ اختلاف لحن الآية يختلف عن مواضيع الآيات التي قبلها وبعدها، وثانيا سبق أن قلنا مرارا أن القرآن ليس كتابا أكاديميا يلتزم في مواضيعه أسلوب التبويب والتقسيم إلى فصول وفقرات معينة، بل إنّ آياته نزلت بحسب الحاجات والحوادث والوقائع المختلفة الطارئة، لذلك نلاحظ أنّ القرآن في الوقت الذي يتكلم عن إحدى الغزوات، ينتقل إلى ذكر حكم من الأحكام الفرعية ـ مثلا ـ وفي الوقت الذي يتحدث عن اليهود والنصارى، يخاطب المسلمين ويذكرهم بأحد القوانين الإسلامية السابقة، (راجع بحثنا في بداية تفسير هذه الآية لزيادة التوضيح)، من العجيب أنّ بعض المتعصبين يصرّون على القول بأنّ هذه الآية قد نزلت في أوائل البعثة، مع أن سورة المائدة نزلت في أواخر عمر رسول الله ﷺ، فإذا قالوا: إن هذه الآية وحدها نزلت في مكّة في أوائل البعثة، ثمّ أدخلت في هذه الآية للتناسب نقول: إن هذا على عكس ما تبحثون عنه تماما، لأننا نعرف أن رسول الله ﷺ في أوائل البعثة لم يصطدم باليهود ولا بالنصارى، وعليه فإن ارتباط هذه الآية ينقطع بما قبلها وما بعدها من آيات (تأمل بدقّة)، هذه كلها أدلة

على أن هذه الآية قد تعرضت إلى هبوب عواصف التعصب، فأحاطت بها بعض علامات الاستفهام ممّا لا يعتور آيات مشابهة أخرى أبدا، أمّا هذه الآية فكل يحاول من جهة أن يتشبث بها حرفها عن مسيرها.

ج. سؤال وإشكال: يقول بعضهم: كيف يمكن قبول هذا الحديث مع أنّه لم يرد في صحيحي مسلم والبخاري؟ والجواب: وهذا من عجائب القول أيضا: فهناك:

- أوّلا: كثير من الأحاديث المعتبرة التي قبل بها أهل السنّة مع أنّها ليست في صحيحي مسلم والبخاري، فهذا الحديث ليس الأوّل من نوعه في هذه الحالة.

- ثانيا: هل أنّ هذين الصحيحين هما الكتابان الوحيدان الموثقان عندهم، مع أنّ هذا الحديث قد ورد في سائر الكتب الأخرى المعتبرة عندهم، وحتى في بعض الصحاح الستة (وهي التي يعتمدها أهل السنة)، مثل (سنن ابن ماجة) و(مسند أحمد)، وهناك علماء مثل (الحاكم النيسابوري) و(الذهبي) و(ابن حجر) اعترفوا بصحة الكثير من طرق هذا الحديث، على الرغم ممّا عرف عنهم من التعصب، لذلك فلا يستبعد أن يقع البخاري ومسلم تحت ضغط السياسة الذي ساد زمانهما، فلم يستطيعا، أو لم يشاءا أن يقولا ما لا يتلاءم ورغبة سلطات زمانهما في كتابيهما.

د. سؤال وإشكال: يقول بعض: لو كان حديث الغدير ـ على عظمته ـ صحيحا فلماذا لم يستدل به علي عليه السّلام وأهل البيت عليهم السّلام وأصحابهم ومحبّوهم عند اقتضاء الضرورة؟ ألم يكن من الخير لو أنّهم استندوا إلى مثل هذا السند المهم لإثبات حق علي عليه السّلام؟ والجواب: هذا أيضا قول آخر ينبع من عدم الإحاطة بالمصادر الإسلامية في حقل الحديث والتّفسير والتّأريخ، إذ أنّ كثيرا من كتب علماء السنة قد ذكرت أن عليّا عليه السّلام وأئمّة أهل البيت عليهم السّلام وأتباعهم قد استدلوا فعلا بحديث الغدير:

- فهذا الخطيب الخوارزمي الحنفي في (المناقب) يروي عن عامر بن واثلة، قال: كنت على الباب يوم الشورى مع علي عليه السّلام في البيت وسمعته يقول: (لأحتجنّ عليكم بما لا يستطيع عربيكم ولا عجميكم تغيير ذلك) ثمّ قال: (أنشدكم الله أيّها النفر جميعا أفيكم أحد وحّد الله قبلي؟) قالوا: لا (ثمّ استمر في تعديد مناقبه وفضائله).. إلى أن قال: (فأنشدكم بالله هل فيكم أحد قال له رسول الله ﷺ: من كنت مولاه فعلي مولاه، اللهم وال من والاه، وعاد من عاداه، وانصر من نصره، ليبلّغ الشاهد الغائب، غيري؟)، قالوا: اللهم لا..) الحديث، هذه الرواية يذكرها الحمويني في (فرائد السمطين) في الباب ٥٨، وابن حاتم

في (الدر النظيم) والدار قطني، وابن عقدة، وابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغة.

• كذلك نقرأ في (فرائد السمطين) في الباب ٥٨ أن عليا عليه السّلام استشهد بحديث الغدير أمام جمع من الناس في المسجد على عهد عثمان، وفي الكوفة أيضا استند إلى هذا الحديث لتفنيد رأي الذين أنكروا خلافته بعد رسول الله ﷺ مباشرة.

• يقول صاحب كتاب (الغدير): إنّ أربعة من الصحابة وأربعة عشر من التابعين قد رووا هذا الحديث حسب ما نقلته مصادر أهل السنة المعروفة.

• وكما يقول الحاكم النيسابوري من (المستدرك) فإنّ عليا عليه السّلام قد استشهد بهذا الحديث يوم حرب الجمل أمام طلحة.

• كذلك في حرب صفين ـ كما يقول سليم بن قيس الهلالي ـ إنّ عليا كان في عسكره وأمام جمع من المهاجرين والأنصار والقادمين من أطراف البلاد، فاستشهد بهذا الحديث فقام اثنا عشر من الذين أدركوا بدرا مع رسول الله ﷺ وأكّدوا أنّهم سمعوا الحديث من رسول الله ﷺ.

• وبعد علي عليه السّلام استند إلى هذا الحديث سيدة الإسلام فاطمة الزّهراء عليها السّلام والإمامان الحسن والحسين عليهما السّلام وعبد الله بن جعفر، وعمّار بن ياسر، وقيس بن سعد، وعمر بن عبد العزيز، والمأمون الخليفة العباسي.

• بل إنّ عمرو بن العاص في رسالة له إلى معاوية أراد أن يثبت لمعاوية فيها أنّه على علم تام بالحقائق الخاصّة بمكانة كل من علي عليه السّلام ومعاوية بالنسبة للخلافة، فاستشهد صراحة بحديث الغدير، وقد نقله الخطيب الخوارزمي الحنفي في كتابه (المناقب)

هـ. سؤال وإشكال: يقولون: لو كانت الآية تخص تنصيب علي عليه السّلام في الخلافة والولاية وترتبط بحديث غدير خم، فما علاقة كلّ هذا بما جاء في آخر الآية: ﴿إِنَّ اللهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكافِرِينَ﴾؟

والجواب: للردّ على هذا الاعتراض يكفي أن نعرف أنّ لفظة (الكفر) في اللغة وفي القرآن تعني الإنكار والمخالفة والترك، فمرّة يقصد بها إنكار الله ونبوة رسول الله ﷺ، ومرّة يراد بها إنكار بعض الأحكام أو مخالفتها، ففي الآية من سورة آل عمران فيما يرتبط بالحج نقرأ: ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعالَمِينَ﴾ والآية من سورة البقرة تصف السحرة والذين تلوثوا بالسحر بأنّهم كفّار: ﴿وَما يُعَلِّمانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولا

إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾، وفي الآية من سورة إبراهيم نرى أنّ الشيطان يندد يوم القيامة بأولئك الذين أطاعوه واتبعوه ويقول لهم: إنكم بعد إطاعتكم أوامر الله قد جعلتموني شريكا له، وإني اليوم أكفر بعملكم ذاك: ﴿إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ﴾، وعليه، فلا عجب أن يطلق القرآن صفة الكفر على الذين يخالفون مسألة الولاية والخلافة.

و. سؤال وإشكال: من الذرائع الأخرى التي تذرعوا بها للنكوص عن هذه الحديث المتواتر والآية المذكورة، هي أنّه إذا كان رسول الله ﷺ قد نصب عليا عليه السّلام يوم الغدير للخلافة والولاية، فإن ذلك يعني وجود وليّين وقائدين في وقت واحد؟ والجواب: أنّ الالتفات إلى الظروف الزمانية الخاصّة بنزول الآية وورود الحديث، وكذلك القرائن المستوحاة من خطبة رسول الله ﷺ تنفي هذه الذريعة أيضا، إنّنا نعلم أنّ هذا الحدث قد جرى في أواخر عمر رسول الله ﷺ وإنّه كان يبلغ الناس بآخر الأوامر لأنّه قال: (وإنّي أوشك أن أدعى فأجيب)، إنّ من يقول هذا لا شك في أنّه بصدد تعيين خليفته، وإنّه يضع الخطط للمستقبل، لا للحاضر، كذلك من الواضح، إنّه لا يقصد إعلان وجود قائدين أو وليّين في وقت واحد.

ز. سؤال وإشكال: وممّا يلفت النظر أنّ بعض علماء أهل السنة الذين يطرحون هذا الاعتراض، يتقدم بعضهم برأي يناقض ذلك تماما، وهو أن رسول الله ﷺ قد عين عليا عليه السّلام في الخلافة والولاية، ولكنّه لم يعين تأريخ التعيين، فما المانع أن يأتي ذلك بعد ثلاثة خلفاء؟ والجواب: إنّه لأمر محير حقّا! يتشبثون بألوان المتناقضات لكي يبتعدوا عن حقيقة القضية! ألا يسأل هؤلاء أنفسهم: إذا أراد رسول الله ﷺ أن يعين خليفته الرابع ضمانا لمستقبل المسلمين، فلماذا لم يعين الخليفة الأوّل والثّاني والثّالث في يوم الغدير، وهم يتقدمون الرّابع وتنصيبهم مقدم على الأوّل!؟

١٤. مرّة أخرى نكرر مقولتنا السابقة لنختم به بحثنا هذا، وهي أنّه لولا وجود نظرات خاصّة في الأمر، لما حدثت كل هذه الاعتراضات والإشكالات بشأن هذه الآية وهذا الحديث، كما لم يحدث شيء من ذلك في غيرهما.

٦٧. الدين وإقامة الكتاب وقوانين الجزاء الإلهي

نتناول في هذا الفصل ما ذكره المفسّرون ـ بحسب التسلسل التاريخي، والمدارس الإسلامية المختلفة ـ حول تفسير المقطع [٦٧] من سورة المائدة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَى مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [المائدة: ٦٨ ـ ٦٩]، مع العلم أنّا نقلنا المباحث التي لا علاقة لها ـ كبرى أو مباشرة ـ بالتفسير التحليلي إلى محالّها من كتب السلسلة.

ابن عباس:

روي عن ابن عباس (ت ٦٨ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال: جاء رافع بن حارثة، وسلام بن مشكم، ومالك بن الصيف، ورافع بن حريملة، فقالوا: يا محمد، ألست تزعم أنك على ملة إبراهيم ودينه، وتؤمن بما عندنا من التوراة، وتشهد أنها من الله حق؟ فقال النبي ﷺ: (بلى، ولكنكم أحدثتم وجحدتم ما فيها مما أخذ عليكم من الميثاق، وكتمتم منها ما أمرتم أن تبينوه للناس، فبرئت من إحداثكم)، قالوا: فإنا نأخذ بما في أيدينا؛ فإنا على الهدى والحق، ولا نؤمن بك، ولا نتبعك، فأنزل الله فيهم: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾ إلى قوله: ﴿الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾[١].

٢. روي أنّه قال: وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾ الفرقان، يقول: فلا تحزن[٢].

٣. روي أنّه قال: ﴿فَلَا تَأْسَ﴾ فلا تحزن[٣].

ابن جبير:

(١) ابن جرير ٨/٥٧٢.

(٢) ابن جرير ٨/٥٧٤.

(٣) ابن أبي حاتم ٤/١١٧٥.

روي عن سعيد بن جبير (ت ٩٥ هـ) أنّه قال: ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ يعني: في الآخرة، ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ يعني: لا يحزنون عند الموت[١].

الباقر:

روي عن الإمام الباقر (ت ١١٤ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال في قول الله تبارك وتعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾: هي ولاية الإمام علي[٢].

٢. روي أنّه قال في قول الله عز وجل: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾: هي ولايتنا[٣].

زيد:

روي عن الإمام زيد (ت ١٢٢ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال: ﴿لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ﴾ معناه لا حجّة لكم[٤].

٢. روي أنّه قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ﴾ فالصّابئون: فرقة من أهل الكتاب يقرأون الزّبور.. ويقال: لا كتاب لهم[٥].

السدي:

روي عن إسماعيل السدي الكوفي (ت ١٢٧ هـ) أنّه قال: ﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ لا تحزن[٦].

مقاتل:

---

(١) ابن أبي حاتم ٤/١١٧٧.

(٢) بصائر الدرجات: ٩٤/٨.

(٣) مختصر بصائر الدرجات: ٦٤.

(٤) تفسير الإمام زيد، ص ١٣٠.

(٥) تفسير الإمام زيد، ص ١٣٠.

(٦) ابن جرير ٨/٥٧٥.

روي عن مقاتل بن سليمان (ت ١٥٠ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ﴾ يعني: اليهود والنصارى، ﴿لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ﴾ من أمر الدين ﴿حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾ يقول: حتى تتلوهما حق تلاوتهما كما أنزلهما الله عز وجل[١].

٢. روي أنّه قال: وتقيموا ﴿مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ من أمر محمد ﷺ، ولا تحرفوه عن مواضعه، فهذا الذي أمر الله عز وجل أن يبلغ أهل الكتاب[٢].

٣. روي أنّه قال: ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ يعني: ما في القرآن من أمر الرجم والدماء ﴿طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾ يعني: وجحودا بالقرآن[٣].

٤. روي أنّه قال: ﴿فَلَا تَأْسَ﴾ يعني: فلا تحزن ـ يا محمد ﷺ ـ ﴿عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ يعني: أهل الكتاب إذ كذبوك بما تقول[٤].

٥. روي أنّه قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ يعني: الذين صدقوا، ﴿وَالَّذِينَ هَادُوا﴾ يعني: اليهود، ﴿وَالصَّابِئُونَ﴾ هم قوم من النصارى صبأوا إلى دين نوح، وفارقوا هذه الفرق الثلاث، وزعموا أنهم على دين نوح عليه السلام، وأخطأوا لأن دين نوح عليه السلام كان على دين الإسلام، ﴿وَالنَّصَارَى﴾ إنما سموا نصارى لأنهم ابتدعوا هذا الدين بقرية تسمى: ناصرة، قال الله عز وجل: ﴿مَنْ آمَنَ﴾ من هؤلاء ﴿بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ وأدى الفرائض من قبل أن يبعث محمد ﷺ فله الجنة، ومن بقي منهم إلى أن يبعث محمد ﷺ فلا إيمان له إلا أن يصدق بمحمد ﷺ، فمن صدق بالله عز وجل أنه واحد لا شريك له، وبما جاء به محمد ﷺ، وبالبعث الذي فيه جزاء الأعمال ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾[٥].

٦. روي أنّه قال: ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ من العذاب، ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ من الموت[٦].

ابن زيد:

---

(١) تفسير مقاتل ابن سليمان ١/٤٩٢.

(٢) تفسير مقاتل ابن سليمان ١/٤٩٢.

(٣) تفسير مقاتل ابن سليمان ١/٤٩٢.

(٤) تفسير مقاتل ابن سليمان ١/٤٩٢.

(٥) تفسير مقاتل ابن سليمان ١/٤٩٣.

(٦) تفسير مقاتل ابن سليمان ١/٤٩٤.

روي عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم (ت ١٨٢ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ فقد صرنا من أهل الكتاب: التوراة لليهود، والإنجيل للنصارى، ﴿وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾: وما أنزل إلينا من ربنا، أي: لستم على شيء حتى تقيموا: حتى تعملوا بما فيه[1].

٢. روي أنّه قال: ﴿وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ القرآن[2].

ابن عيينة:

روي عن سفيان بن عيينة (ت ١٩٨ هـ) أنّه قال: ما في القرآن آية أشد علي من: ﴿لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾[3].

الماتريدي:

ذكر أبو منصور الماتريدي (ت ٣٣٣ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[4]:

١. قوله عز وجل: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾ لا يُبتَدَأ الكلام بمثل هذا إلا عن قول أو دعوى تسبق، وليس في الآية بيان ما كان منهم؛ فيشبه أن يكون الذي كان منهم ما ادَّعَوا أنهم على دين الله وعلى ولايته، أو ما قالوا: ﴿نَحْنُ أَبْنَاءُ اللهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾، أو ما قالوا: ﴿لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى﴾، أو نحو ذلك من أمانيهم ودعاويهم التي ادعوا لأنفسهم؛ فقال لرسوله: قل لهم: ﴿لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾:

أ. قال الحسن: قوله تعالى: ﴿حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾، أي: حتى تقيموا ما قد حرفتم وغيرتم من التوراة والإنجيل وبدلتم، وتثبتوا على ما أنزل وتؤمنوا به.

ب. وقال غيره: قوله تعالى: ﴿حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾ بالشهادة والتصديق لما فيهما.

ج. وعن ابن عباسٍ قال: ﴿حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ﴾: حتى تعملوا بما في التوراة والإنجيل من صفة

---

(١) ابن جرير ٨/٥٧٣.

(٢) ابن أبي حاتم ٤/١١٧٥.

(٣) علقه البخاري في صحيحه ٤/١٦٨٢.

(٤) تأويلات أهل السنة: ٣/٥٥٩.

مُحَمَّد ونعته ومبعثه ونبوته ﷺ، وتبينوه للناس ولا تكتموه، وهو وما ذكرنا واحد.

د. وقال بعضهم: ﴿لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾ هو ما أمر الله نبيه ﷺ أن يبلغ ما أنزل عليه بقوله: ﴿بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ﴾

٢. ﴿وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾، من كتب أنبيائكم، وحتى تقيموا ـ أيضًا ـ ما أنزل من الكتب: كتب الرسل أجمع؛ لأن الإيمان ببعض الرسل وببعض الكتب، والكفر ببعض ـ لا ينفع؛ حتى يؤمن بالرسل كلهم وبالكتب جملة.

٣. وقوله عز وجل: ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾: قد ذكرنا هذا، وقال بعضهم: قوله: ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ﴾: القرآن في أمر الرجم والقصاص ﴿طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾

٤. وقوله عز وجل: ﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾: أي: لا تحزن على كفرهم؛ كقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾، ونحو قوله: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ﴾

٥. وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَى مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ قال ابن عباسٍ: هم الذين آمنوا بألسنتهم، ولم تؤمن قلوبهم، وقال بعضهم: هم الذين آمنوا ببعض الرسل لم يتسموا باليهودية ولا بالنصرانية.

٦. ﴿وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَى﴾ قد ذكرنا فيما تقدم مَنْ هُم؟

٧. وقوله عز وجل: ﴿مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾، تأويل الآية ـ والله أعلم ـ: وإن اختلفت أديانهم، وتفرقت مذاهبهم لو آمنوا بالله وما ذكر، فلا خوف عليهم بما كان منهم في حال كفرهم؛ كقوله تعالى: ﴿إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ﴾، ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾: على فوت ما أعطاهم، أي: لا يفوتهم ذلك.

العياني:

ذكر الإمام المهدي العياني (ت ٤٠٤ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

(١) تفسير الإمام المهدي العياني: ٢/٢٢٤.

١. معنى قوله: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾، أي لستم على شيء من الحق، ولكنه اختصر.

الطوسي:

ذكر أبو جعفر الطوسي (ت ٤٦٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. سبب نزول هذه الآية ما روي عن ابن عباس أنه جاء جماعة من اليهود، فقالوا: يا محمد ألست تقول: إن التوراة من عند الله؟ قال بلى، قالوا فإنا نؤمن بها ولا نؤمن بما عداها فنزلت الآية.

٢. ومعناها أنه تعالى أمر نبيه ﷺ أن يقول لأهل الكتاب: ﴿لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾، وقيل في معناه قولان:

أ. أحدهما: حتى تقيموهما بالتصديق بما فيهما من البشارة بالنبي ﷺ والعمل بما يوجب ذلك فيهما.

ب. الثاني: قال أبو علي يجوز أن يكون الأمر بإقامة التوراة والإنجيل وما فيهما إنما كان قبل النسخ لهما.

٣. قوله تعالى: ﴿وَمَا أنزل إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ يحتمل أمرين:

أ. أحدهما: أن يريد به القرآن الذي أنزله على جميع الخلق.

ب. الثاني: أن يريد جميع ما نصبه الله من الأدلة الدالة على توحيده وصفاته وصدق نبيه ﷺ)

٤. ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أنزل إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾ المراد أنهم يزدادون عند نزوله طغياناً وكفراً، لأن القرآن المنزل لا يزيد شيئاً طغياناً.

٥. سؤال وإشكال: هذا هو المفسدة بعينه، لأنهم إذا فسدوا عنده ولولاه لما فسدوا كان ذلك مفسدة! والجواب: ليس في الآية أنه لو لم ينزل القرآن لم يكونوا يفعلون الكفر بل لا يمتنع أنه لو لم ينزل القرآن لفعلوا من الكفر ما هو أعظم، فصار إنزال القرآن لطفاً في استنقاص الكفر وتقليل المفسدة، فالمفسدة زائلة واللطف حاصل، على أنه لا يمنع أن يكونوا يفعلون الكفر بعينه لو لم ينزل القرآن فحقيقة المفسدة إذاً ليست بحاصلة، لأن حد المفسدة ما وقع عنده الفساد ولولاه لم يقع من غير أن يكون تمكيناً.

---

(١) تفسير الطوسي: ٣/٥٩٠.

٦. والطغيان هاهنا تجاوز الحد في الظلم والغلو فيه وأصله تجاوز الحد، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ﴾، وقوله: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى﴾ أي يتجاوز الحد في الخروج عن الحق.

٧. وقوله: ﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ معناه لا تحزن تقول أسى يأسي أساً إذا حزن، قال الشاعر: (وانحلبت عيناه من فرط الأسى) وهذا تسلية للنبي ﷺ وليس بنهي عن الحزن، لأنه لا يقدر عليه لكنه تسلية ونهي عن التعرض للحزن، قال البلخي ذلك يدل على بطلان ما روي من أن النبي ﷺ دعا للكفار بالهداية، لأنه نهاه عن الحزن وأمره بلعنهم ولا يجتمع قول اللهم العنهم، واهدهم واغفر لهم.

٨. ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمنوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَى مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخر وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ أخبر الله تعالى أن الذين صدقوا الله وأقروا بنبوة نبيه ﷺ:

أ. ﴿وَالَّذِينَ هَادُوا﴾ يعني الذين اعتقدوا اليهودية ونبوة موسى، وتأييد شرعه.

ب. ﴿وَالصَّابِئُونَ﴾ وهو جمع صابئ، وهو الخارج عن دين عليه أمَّة عظيمة من الناس إلى ما عليه فرقة قليلة، وهم عباد الكواكب، وعندنا لا يؤخذ منهم الجزية، وعند المخالفين يجرون مجرى أهل الكتاب وصبأ ناب البعير وسن الصبي إذا خرج، وضبأ ـ بالضاد المعجمة ـ معناه اختبأ في الأرض، ومنه اشتق ضابي البرجمي.

ج. ﴿وَالنَّصَارَى﴾ وهم الذين يقرون بالمسيح عليه السلام.

٩. ﴿مَنْ آمَنَ بِاللهِ﴾ قيل فيه قولان:

أ. أحدهما: يعني الذين آمنوا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم، وهم المنافقون ذكره الزجاج.

ب. الثاني: من دام على الإيمان والإخلاص ولم يرتد عن الإسلام.

١٠. وقيل في معنى رفع الصابئين ثلاثة أقوال:

أ. أحدها: قال سيبويه: إنه على التقديم والتأخير والتقدير: أن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون، والصابئون كذلك، قال الشاعر:

وإلا فاعلموا أنا وأنتم   بغاة ما بقينا في شقاق

والمعنى فاعلموا أنا بغاة ما بقينا في شقاق وأنتم كذلك، وقال ضابئ البرجمي:

فمن يك أمسى بالمدينة رحله فإني وقيار بها لغريب

ب. الثاني: قال الكسائي هو عطف على الضمير في (هادوا) وكأنه قال هادوا هم والصابئون، قال الرماني هذا غلط من وجهين:

- أحدهما: أن الصابئ لا يشارك اليهود في اليهودية.
- والآخر أنه عطف على الضمير المتصل من غير تأكيد بالمنفصل.

ج. الثالث: قال الفراء: إنه عطف على ما لا يتبين فيه الإعراب وهو (الذين) ويجوز النسق على مثل (الذين) وعلى المضمر نحو اني وزيد قائمان، فعطف على موضع (ان)

١١. ﴿وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ فالعمل والفعل واحد، وقال الرماني: فعل الشيء إحداثه وإيجاده بعد أن لم يكن وعمله إحداث ما يكون به متغيراً سواء كان إحداثه نفسه أو احداث حادث فيه.

١٢. ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ مع ما يمر بهم من أجل يوم القيامة لأمرين:

أ. أحدهما: أن ذلك لا يعتد به لأنه عارض، ثم يصيرون إلى النعيم الدائم، ومنه قوله: ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ﴾ وهو عذاب النار كما يقال للمريض لا بأس عليك.

ب. الثاني: أن أهوال يوم القيامة إنما تنال الضالين دون المؤمنون.

ج. الأول أقوى لعموم قوله: ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللهِ شَدِيدٌ﴾ وروي عن النبي ﷺ أن الناس يلجمهم العرق، وأنهم يحشرون حفاة عراة غرلا، فقالت عائشة: لا يحتشمون من ذلك، فقال ﷺ: ﴿لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾

١٣. فأما قوله: ﴿مَنْ آمَنَ بِاللهِ﴾ وقد ذكر الذين آمنوا، فإن المعني بالذين آمنوا هاهنا:

أ. في قول الزجاج: المنافقون بدلالة قوله: ﴿لَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ﴾ والتقدير من آمن منهم.

ب. وقال قوم: من آمن يرجع إلى من عدا الذين آمنوا وحمل ﴿الَّذِينَ آمنوا﴾ على ظاهره من حقيقة الايمان.

ج. ومنهم من قال يرجع إلى الجميع ويكون المعنى في (من آمن) من يستديم على الإيمان ويستمر

عليه، وقد استوفينا ما يتعلق بذلك في سورة البقرة.

الجشمي:

ذكر الحاكم الجشمي (ت ٤٩٤ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. شرح مختصر للكلمات:

أ. قام وأقام غيره يُقِيمُ إقامة.

ب. الطغيان: مجاوزة الحد في الظلم، ومنه: طغا الماء إذا جاوز الحد.

ج. أسى يَأْسَى أسًى إذا حزن، وحذف الألف للجزم؛ لأنه أمر.

د. الصبو: الميل، ومنه ﴿أَصْبُ إِلَيْهِنَّ﴾ والصابي: المائل من دين إلى دين، يقال: صبأ فلان، وقد صار اسمًا لفرقة من الكفار يجرون مجرى أهل الكتاب في أخذ الجزية عنهم، كما يجوز أخذها من المجوس، وإن لم يكونوا أهل كتاب.

٢. عن ابن عباس قال جاء جماعة من اليهود إلى رسول الله ﷺ، وقالوا: يا محمد ألست تقول: إن التوراة حق من عند الله؟ قال بلى)، قالوا: فإنا نؤمن بها ولا نؤمن بما عداها، فنزلت ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ﴾

٣. لما تقدم الأمر بتبليغ الرسالة بين أن من جملة ما تحمله في هذه الآيات، فقال سبحانه: ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ﴾:

أ. قيل: لستم على شيء من الدين الصحيح ما لم تُقِرُّوا بالكتابين والقرآن.

ب. وقيل: لستم من كفركم على طائل؛ لأن عاقبة فعلكم العقاب دون الثواب.

٤. ﴿حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾:

أ. أي حتى تعملوا بما فيهما من البشارة بمحمد والتصديق به.

ب. وقيل: هذا كان قبل النسخ، عن أبي علي، كأنه حمله على عموم الأحكام.

ج. وقيل: إقامتهما التمسك بما فيهما من التوحيد والعدل، وأصول الدين التي لا يرد عليها النسخ، فإن فيها خلاف ما عليه اليهود والنصارى من التثليث والتشبيه والجبر.

---

(١) التهذيب في التفسير: ٣/٣٦٢.

٥. ﴿وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾:

أ. قيل: القرآن والخطاب لليهود، ولما خوطبوا به جاز أن يقال أنزل عليكم.

ب. وقيل: ما أنزل عليكم من صفة محمد ﷺ.

٦. ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ يعني يزيدون عند نزوله كفرا وطغيانًا، وقد بَيَّنَّا معنى الطغيان، وذكرنا فائدة الجمع بينهما.

٧. ﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾:

أ. أي لا تحزن على تكذيبهم، فإن ضرره عائد عليهم.

ب. وقيل: لا تحزن فإن تكذيب الأنبياء عادتهم، وفيه تسلية للنبي ﷺ.

ج. وقيل: لا تحزن على هلاكهم وعذابهم فذلك جزاؤهم.

٨. ثم بَيَّنَ حال من آمن منهم فقال سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ صدقوا ﴿وَالَّذِينَ هَادُوا﴾ اليهود ﴿وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَى مَنْ آمَنَ بِاللهِ﴾:

أ. قيل: المراد أن الَّذِينَ آمنوا بأفواههم لو آمنوا بقلوبهم، وهم المنافقون عن الزجاج.

ب. وقيل: إن الَّذِينَ آمنوا ﴿مَنْ آمَنَ﴾ أي دام على الإيمان والإخلاص ولم يرتدوا عن الإسلام، عن أبي علي.

ج. وقيل: إن الَّذِينَ آمنوا بالكتب المتقدمة مَنْ آمن بالقرآن.

٩. ﴿وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ يعني يوم القيامة سمي آخرًا لتأخره عن الدنيا ﴿وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ أي عمل الطاعات ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ أي: لا يلحقهم خوف ولا حزن.

١٠. سؤال وإشكال: أليس يلحقهم أهوال القيامة؟ والجواب: فيه قولان:

أ. الأول: لا، بل يزيدهم سرورًا، عن أبي علي.

ب. الثاني: ذلك عارض يزول فلا يعتد به، عن أبي القاسم.

١١. سؤال وإشكال: إذا كان المنزل يزيدهم طغيانًا دل أنه أراد بإنزاله طغيانهم؟ والجواب: ليس كذلك، والمراد أنهم عنده يصيرون كذلك؛ لقوله تعالى حكاية عن إبراهيم ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ﴾ وكما يقال: ما زدتك بالموعظة إلا شرًّا.

١٢. تدل الآية الكريمة على:

أ. أن أهل الكتاب ليسوا على شيء فتدل على بطلان تمسكهم بما تمسكوا به.

ب. أن الإيمان لا يقتضي الأجر ما لم ينضم إليه العمل الصالح، بخلاف قول المرجئة.

ج. أن المؤمنين لا يخافون، ولا يحزنون في الآخرة؛ لأن الآية مطلقة، بخلاف قول أبي القاسم.

د. أنه لا يلحقهم عذاب القبر، بل تصل إليهم النعم في قبورهم، خلاف قول الحشوية.

هـ. أن للعبد فعلاً.

١٣. مسائل لغوية ونحوية:

أ. في رفع ﴿الصَّابِئُونَ﴾ ثلاثة أقوال:

• الأول: لضعف عمل ﴿أَنْ﴾ عن الكسائي وقال فيه قولًا آخر: إنه عطف على الضمير في ﴿هَادُوا﴾ كأنه قيل: هم والصابئون، وقال علي بن عيسى: وهذا غلط من وجهين: أحدهما: أن الصابئ لا يشارك اليهودي، والآخر: أنه عطف على الضمير المتصل من غير تأكيد بالمنفصل.

• الثاني: لأنه عطف على ما لا يتبين فيه الإعراب مع ضعف ﴿إِنَّ﴾، وهذا قول الفراء.

• الثالث: قول سيبويه: إنه على التقديم والتأخير، وتقديره: إن الَّذِينَ آمنوا والَّذِينَ هادوا والنصارى من آمن بِالله واليوم الآخر وعمل صالحًا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون، والصابئون كذلك، ونحوه قول الشاعر:

فَمَنْ يَكُ أَمْسَى بِالمدينة رَحْلُهُ   فَإِنِّي وَقَيَّارٌ بها لَغَرِيبُ

تقديره: فإني بها غريب وقيار كذلك.

ب. ﴿صَالِحًا﴾: نصب لأنه نعتٌ لمصدر محذوف؛ أي: عملاً صالحًا.

الطَبِرسي:

ذكر الفضل الطَبِرسي (ت ٥٤٨ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. مما روي في سبب نزول الآية الكريمة: قال ابن عباس: جاء جماعة من اليهود إلى رسول الله ﷺ

(١) تفسير الطبرسي: ٣/٣٤٤.

فقالوا له: ألست تقر بأن التوراة من عند الله؟ قال بلى، قالوا: فإنا نؤمن بها، ولا نؤمن بما عداها، فنزلت الآية.

٢. أمر سبحانه النبي ﷺ أن يخاطب اليهود فقال: (قل) يا محمد ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ﴾ من الدين الصحيح ﴿حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾:

أ. أي: حتى تقروا بالتوراة، والإنجيل، والقرآن المنزل إلى جميع الخلق.

ب. وقيل: معناه حتى تقيموا التوراة والإنجيل بالتصديق بما فيهما من البشارة بالنبي محمد ﷺ، والعمل بما يوجب ذلك فيهما.

ج. وقيل: معناه الامر بإقامة التوراة والإنجيل، وما فيهما، وإنما كان ذلك قبل النسخ لهما، عن الجبائي.

٣. ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾ مر تفسيره قبل ﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾:

أ. أي: لا تحزن عليهم، وهذه تسلية للنبي ﷺ أي فلا تحزن، فإن تكذيب الأنبياء عادتهم ودأبهم.

ب. وقيل: معناه لا تحزن على ذلك الكفر، وتجاوز الحد في الظلم منهم، فإن ضرر ذلك عائد عليهم.

ج. وقيل: معناه لا تحزن على هلاكهم وعذابهم، فذلك جزاؤهم بفعالهم.

٤. ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَى مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ قد مضى تفسير هذه الآية مشروحا في سورة البقرة، وقد ذكرنا ههنا أن المعني بـ ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾:

أ. في قول الزجاج، هم المنافقون، ثم ذكر بعد من آمن بالقلب.

ب. وقيل: إن من آمن محمول على اليهود والنصارى أي: من آمن منهم و﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ في الابتداء، محمول على ظاهره من حقيقة الايمان.

ج. وقيل: إن ﴿مَنْ آمَنَ﴾ يرجع إلى الجميع، ويكون معناه: من يستديم الايمان ويستمر عليه.

٥. اختلف في وجه ارتفاع قوله: ﴿وَالصَّابِئُونَ﴾:

أ. فقال الكسائي: هو نسق على ما في ﴿هَادُوا﴾ قال الزجاج: وهذا خطأ من جهتين:

• إحداهما: إن الصابي على هذا القول يشارك اليهودي في اليهودية، وليس كذلك، فإن الصابي غير اليهودي، فإن جعل ﴿هَادُوا﴾ بمعنى تابوا من قوله: ﴿إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ﴾ لا من اليهودية، ويكون المعنى تابوا هم والصابئون، فالتفسير جاء بغير ذلك، لان معنى الذين آمنوا في هذه الآية، إنما هو الايمان بأفواههم، ثم ذكر اليهود والنصارى فقال: ﴿مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللهِ﴾ فله كذا، فجعلهم يهودا ونصارى، فلو كانوا مؤمنين، لم يحتج إلى أن يقال من آمن منهم فلهم أجرهم، وهذا قول الفراء، والزجاج، في الانكار عليه.

• والجهة الأخرى أن العطف على الضمير المرفوع من غير توكيد قبيح، وإنما يأتي في ضرورة الشعر كما قال عمر بن أبي ربيعة.

قلت إذ أقبلت وزهر تهادى كنعاج الملا تعسفن رملا

ب. وقال الفراء: إنه عطف على ما لم يتبين فيه الاعراب مع ضعف إن، قال وهذا يجوز في مثل الذين، والمضمر نحو إني وزيد قائمان، ولا يجوز إن زيدا وعمرو قائمان، قال الزجاج: وهذا غلط لأن إن تعمل النصب والرفع، وليس في العربية ناصب ليس معه مرفوع، لأن كل منصوب مشبه بالمفعول، والمفعول لا يكون بغير فاعل، وكيف يكون نصب إن ضعيفا، وهو يتخطى الظروف، فتنصب ما بعدها نحو ﴿إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ﴾ ونصب إن من أقوى المنصوبات.

ج. وقال سيبويه، والخليل، وجميع البصريين: إن قوله: ﴿وَالصَّابِئُونَ﴾ محمول على التأخير، ومرفوع بالابتداء، والمعنى: إن الذين آمنوا، والذين هادوا من آمن منهم بالله إلى آخره، والصابئون، والنصارى، كذلك أيضا، أي: من آمن منهم بالله واليوم الآخر، فلا خوف عليهم، وانشدوا قول بشر بن حازم:

وإلا فاعلموا إنا وأنتم بغاة ما بقينا في شقاق

والمعنى: فاعلموا إنا بغاة ما بقينا في شقاق، وأنتم أيضا كذلك، وقول ضابئ البرجمي:

فمن يك أمسى بالمدينة رحله فإني وقيار بها لغريب

أي فإني بها غريب وقيار كذلك وزعم سيبويه أن قوما من العرب يغلطون فيقولون إنهم أجمعون

ذاهبون وإنك وزيد قائمان فجعل سيبويه هذا غلطا وجعله كقول الشاعر:

بدا لي اني لست مدرك ما مضى ولا سابق شيئا إذا كان جائيا

ابن الجوزي:

ذكر أبو الفرج بن الجوزي (ت ٥٩٧ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١ . سبب نزول قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ﴾ أنّ اليهود قالوا للنبيّ ﷺ: ألست تؤمن بما عندنا من التّوراة، وتشهد أنها حقّ؟ قال بلى، ولكنّكم أحدثتم وجحدتم ما فيها، فأنا بريء من إحداثكم، فقالوا: نحن على الهدى، ونأخذ بما في أيدينا، ولا نؤمن بك، فنزلت هذه الآية، قاله ابن عباس.

٢ . أمّا أهل الكتاب، فالمراد بهم اليهود والنّصارى.

٣ . ﴿لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ﴾ أي: لستم على شيء من الدّين الحقّ حتى تقيموا التّوراة والإنجيل، وإقامتهما: العمل بما فيهما، ومن ذلك الإيمان بمحمّد ﷺ، وفي الذي أنزل إليهم من ربّهم قولان قد سبقا، وكذلك باقي الآية.

٤ . ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ﴾ قد ذكرنا تفسيرها في البقرة، وكذلك اختلفوا في إحكامها ونسخها كما بيّنّا هناك، فأمّا رفع (الصّابئين) فذكر الزجّاج عن البصريين، منهم الخليل، وسيبويه أنّ قوله: (والصابئون) محمول على التّأخير، ومرفوع بالابتداء، والمعنى: إنّ الذين آمنوا والذين هادوا من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون، والصّابئون والنّصارى كذلك أيضا، وأنشدوا:

وإلّا فاعلموا أنّا وأنتم بغاة ما بقينا في شقاق

المعنى: فاعلموا أنّا بغاة ما بقينا في شقاق، وأنتم أيضا كذلك.

الرّازي:

ذكر الفخر الرازي (ت ٦٠٦ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(٢)]:

١ . لما أمره الله تعالى بالتبليغ سواء طاب للسامع أو ثقل عليه أمر بأن يقول لأهل الكتاب هذا

---

(١) زاد المسير في علم التفسير: ١/٥٧٠.

(٢) التفسير الكبير: ١٢/٤٠٢.

الكلام وإن كان مما يشق عليهم جدا فقال: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ﴾ من اليهود والنصارى ﴿لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ﴾ من الدين ولا في أيديكم شيء من الحق والصواب، كما تقول: هذا ليس بشيء إذا أردت تحقيره وتصغير شأنه.

٢. ﴿حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾، وهذا مذكور فيما قبل، والتكرير للتأكيد.

٣. ﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ فيه وجهان:

أ. الأول: لا تأسف عليهم بسبب زيادة طغيانهم وكفرهم، فإن ضرر ذلك راجع إليهم لا إليك ولا إلى المؤمنين.

ب. الثاني: لا تتأسف بسبب نزول اللعن والعذاب عليهم، فإنهم من الكافرين المستحقين لذلك.

٤. روى ابن عباس أنه جاء جماعة من اليهود وقالوا: يا محمد ألست تقر أن التوراة حق من الله تعالى؟ قال بلى، قالوا: فإنا مؤمنون بها ولا نؤمن بغيرها، فنزلت هذه الآية.

٥. ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَى مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ قد تقدم تفسير هذه الآية في سورة البقرة، وبقي هاهنا مسائل:

٦. ﴿الصَّابِئُونَ﴾ ظاهر الاعراب يقتضي أن يقال: والصابئين، وهكذا قرأ أبي بن كعب وابن مسعود وابن كثير، وللنحويين في علة القراءة المشهورة وجوه:

أ. الأول: وهو مذهب الخليل وسيبويه ارتفع ﴿الصَّابِئُونَ﴾ بالابتداء على نيّة التأخير، كأنه قيل: إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون، والصابئون كذلك، فحذف خبره، والفائدة في عدم عطفهم على من قبلهم هو أن الصابئين أشد الفرق المذكورين في هذه الآية ضلالا، فكأنه قيل: كل هؤلاء الفرق إن آمنوا بالعمل الصالح قبل الله توبتهم وأزال ذنبهم، حتى الصابئون فإنهم إن آمنوا كانوا أيضا كذلك.

ب. الثاني: وهو قول الفرّاء أن كلمة (إن) ضعيفة في العمل هاهنا، وبيانه من وجوه:

• الأول: أن كلمة (إن) إنما تعمل لكونها مشابهة للفعل، ومعلوم أن المشابهة بين الفعل وبين الحرف ضعيفة.

• الثاني: أنها وإن كانت تعمل لكن إنما تعمل في الاسم فقط، أما الخبر فإنه بقي مرفوعا بكونه خبر المبتدأ، وليس لهذا الحرف في رفع الخبر تأثير، وهذا مذهب الكوفيين، وقد بيناه بالدليل في سورة البقرة في تفسير قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ﴾ [البقرة: ٦]

• الثالث: أنها إنما يظهر أثرها في بعض الأسماء، أما الأسماء التي لا يتغير حالها عند اختلاف العوامل فلا يظهر أثر هذا الحرف فيها، والأمر هاهنا كذلك، لأن الاسم هاهنا هو قوله: ﴿الَّذِينَ﴾ وهذه الكلمة لا يظهر فيها أثر الرفع والنصب والخفض.

٧. إذا ثبت هذا فنقول: إنه إذا كان اسم ﴿إِنَّ﴾ بحيث لا يظهر فيه أثر الإعراب، فالذي يعطف عليه يجوز النصب على إعمال هذا الحرف، والرفع على إسقاط عمله، فلا يجوز أن يقال: إن زيدا وعمرو قائمان لأن زيدا ظهر فيه أثر الإعراب، لكن إنما يجوز أن يقال: إن هؤلاء وإخوتك يكرموننا، وإن هذا نفسه شجاع، وإن قطام وهند عندنا، والسبب في جواز ذلك أن كلمة (إن) كانت في الأصل ضعيفة العمل، وإذا صارت بحيث لا يظهر لها أثر في اسمها صارت في غاية الضعف، فجاز الرفع بمقتضى الحكم الثابت قبل دخول هذا الحرف عليه، وهو كونه مبتدأ، فهذا تقرير قول الفرّاء، وهو مذهب حسن وأولى من مذهب البصريين، لأن الذي قالوه يقتضي أن كلام الله على الترتيب الذي ورد عليه ليس بصحيح، وإنما تحصل الصحة عند تفكيك هذا النظم، وأما على قول الفرّاء فلا حاجة إليه، فكان ذلك أولى.

٨. قال بعض النحويين: لا شك أن كلمة (إن) من العوامل الداخلة على المبتدأ والخبر، وكون المبتدأ مبتدأ والخبر خبرا وصف حقيقي ثابت حال دخول هذا الحرف وقبله، وكونه مبتدأ يقتضي الرفع، إذا ثبت هذا فنقول: المعطوف على اسم (إن) يجوز انتصابه بناء على إعمال هذا الحرف، ويجوز ارتفاعه أيضا لكونه في الحقيقة مبتدأ محدثا عنه ومخبرا عنه، طعن صاحب (الكشاف) فيه وقال: إنما يجوز ارتفاعه على العطف على محل (إن واسمها) بعد ذكر الخبر، تقول: إن زيدا منطلق وعمرا وعمرو بالنصب على اللفظ، والرفع على موضع (إن) واسمها، لأن الخبر قد تقدم، وأما قبل ذلك الخبر فهو غير جائز، لأنا لو رفعناه على محل (إن واسمها) لكان العامل في خبرهما هو المبتدأ، ولو كان كذلك لكان العامل في خبرهما هو الابتداء، لأن الابتداء هو المؤثر في المبتدأ والخبر معا، وحينئذ يلزم في الخبر المتأخر أن يكون مرفوعا بحرف (إن) وبمعنى الابتداء فيجتمع على المرفوع الواحد رافعان مختلفان، وأنه محال، وهذا الكلام ضعيف، وبيانه

من وجوه:

أ. الأول: أن هذه الأشياء التي تسميها النحويون: رافعة وناصبة ليس معناها أنها كذلك لذواتها أو لأعيانها، فإن هذا لا يقوله عاقل، بل المراد أنها معرفات بحسب الوضع والاصطلاح لهذه الحركات، واجتماع المعرفات الكثيرة على الشيء الواحد غير محال، ألا ترى أن جميع أجزاء المحدثات دالة على وجود الله تعالى.

ب. الثاني: في ضعف هذا الجواب أنه بناه على أن كلمة (إن) مؤثرة في نصب الاسم ورفع الخبر، والكوفيون ينكرون ذلك ويقولون: لا تأثير لهذا الحرف في رفع الخبر ألبتة، وقد أحكمنا هذه المسألة في سورة البقرة.

ج. الثالث: وهو أن الأشياء الكثيرة إذا عطف بعضها على البعض فالخبر الواحد لا يكون خبرا عنها، لأن الخبر عن الشيء عبارة عن تعريف حاله وبيان صفته، ومن المحال أن يكون حال الشيء وصفته عين حال الآخر وصفته، لامتناع قيام الصفة الواحدة بالذوات المختلفة، وإذا ثبت هذا ظهر أن الخبر وإن كان في اللفظ واحدا إلا أنه في التقدير متعدد، وهو لا محالة موجود بحسب التقدير والنيّة، وإذا حصل التعدد في الحقيقة لم يمتنع كون البعض مرتفعا بالحرف والبعض بالابتداء، وبهذا التقدير لم يلزم اجتماع الرافعين على مرفوع واحد، والذي يحقق ذلك أنه سلم أن بعد ذكر الاسم وخبره جاز الرفع والنصب في المعطوف عليه، ولا شك أن هذا المعطوف إنما جاز ذلك فيه لأنا نضمر له خبرا، وحكمنا بأن ذلك الخبر المضمر مرتفع بالابتداء، وإذا ثبت هذا فنقول: إن قبل ذكر الخبر إذا عطفنا اسما على اسم حكم صريح العقل أنه لا بدّ من الحكم بتقدير الخبر، وذلك إنما يحصل بإضمار الأخبار الكثيرة، وعلى هذا التقدير يسقط ما ذكر من الالتزام والله أعلم.

٩. لما بيّن الله تعالى أن أهل الكتاب ليسوا على شيء ما لم يؤمنوا، بين أن هذا الحكم عام في الكل، وأنه لا يحصل لأحد فضيلة ولا منقبة إلا إذا آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا، وذلك لأن الإنسان له قوتان: القوة النظرية، والقوة العملية، أما كمال القوة النظرية فليس إلا بأن يعرف الحق، وأما كمال القوة العملية فليس إلا بأن يعمل الخير، وأعظم المعارف شرفا معرفة أشرف الموجودات وهو الله سبحانه وتعالى، وكمال معرفته إنما يحصل بكونه قادرا على الحشر والنشر؛ فلا جرم كان أفضل المعارف هو الإيمان

بالله واليوم الآخر، وأفضل الخيرات في الأعمال أمران: المواظبة على الأعمال المشعرة بتعظيم المعبود، والسعي في إيصال النفع إلى الخلق كما قال ﷺ: (التعظيم لأمر الله والشفقة على خلق الله)

ثم بيّن تعالى أن كل من أتى بهذا الإيمان وبهذا العمل فإنه يرد القيامة من غير خوف ولا حزن، والفائدة في ذكرهما أن الخوف يتعلق بالمستقبل، والحزن بالماضي، فقال: ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ بسبب ما يشاهدون من أهوال القيامة ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ بسبب ما فاتهم من طيبات الدنيا لأنهم وجدوا أمورا أعظم وأشرف وأطيب مما كانت لهم حاصلة في الدنيا، ومن كان كذلك فإنه لا يحزن بسبب طيبات الدنيا.

١٠. سؤال وإشكال: كيف يمكن خلو المكلف الذي لا يكون معصوما عن أهوال القيامة؟

والجواب: من وجهين:

أ. الأول: أنه تعالى شرط ذلك بالعمل الصالح، ولا يكون آتيا بالعمل الصالح إلا إذا كان تاركا لجميع المعاصي.

ب. الثاني: أنه إن حصل خوف فذلك عارض قليل لا يعتد به.

١١. قال المعتزلة ـ ومن وافقهم ـ أنه تعالى شرط عدم الخوف وعدم الحزن بالإيمان والعمل الصالح، والمشروط بشيء عدم عند عدم الشرط، فلزم أن من لم يأت مع الإيمان بالعمل الصالح فإنه يحصل له الخوف والحزن، وذلك يمنع من العفو عن صاحب الكبيرة، وجواب أهل السنة ـ ومن وافقهم ـ: أن صاحب الكبيرة لا يقطع بأن الله يعفو عنه لا محالة، فكان الخوف والحزن حاصلا قبل إظهار العفو.

١٢. قال الله تعالى في أول الآية ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ ثم قال في آخر الآية ﴿مَنْ آمَنَ بِاللهِ﴾ وفي هذا التكرير فائدتان.

أ. الأولى: أن المنافقين كانوا يزعمون أنهم مؤمنون، فالفائدة في هذا التكرير إخراجهم عن وعد عدم الخوف وعدم الحزن.

ب. الثانية: أنه تعالى أطلق لفظ الإيمان والإيمان يدخل تحته أقسام، وأشرفها الإيمان بالله واليوم الآخر، فكانت الفائدة في الإعادة التنبيه على أن هذين القسمين أشرف أقسام الإيمان وقد ذكرنا وجوها كثيرة في قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ وكلها صالحة لهذا الموضع.

١٣. الراجع إلى اسم (إن) محذوف، والتقدير: من آمن منهم، إلا أنه حسن الحذف لكونه معلوما.

القرطبي:

ذكر محمد بن أحمد القرطبي (ت ٦٧١ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. قال ابن عباس: جاء جماعة من اليهود إلى النبي ﷺ فقالوا: ألست تقر أن التوراة حق من عند الله؟ قال: بلى، فقالوا: فإنا نؤمن بها ولا نؤمن بما عداها، فنزلت الآية، أي لستم على شي من الدين حتى تعملوا بما في الكتابين من الإيمان بمحمد ﷺ، والعمل بما يوجبه ذلك منهما، وقال أبو علي: ويجوز أن يكون ذلك قبل النسخ لهما.

٢. ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾ أي يكفرون به فيزدادون كفرا على كفرهم، والطغيان تجاوز الحد في الظلم والغلو فيه، وذلك أن الظلم منه صغيرة ومنه كبيرة، فمن تجاوز منزلة الصغيرة فقد طغى، ومنه قوله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى﴾ [العلق] أي يتجاوز الحد في الخروج عن الحق.

٣. ﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ أي لا تحزن عليهم، أسى يأسى أسى إذا حزن، قال وانحلبت عيناه من فرط الأسى وهذه تسلية للنبي ﷺ، وليس بنهي عن الحزن، لأنه لا يقدر عليه ولكنه تسلية ونهي عن التعرض للحزن، وقد مضى هذا المعنى في آخر آل عمران) مستوفى،

٤. ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَى مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ تقدم الكلام فلا معنى لإعادته.

٥. ﴿وَالَّذِينَ هَادُوا﴾ معطوف، وكذا ﴿وَالصَّابِئُونَ﴾ معطوف على المضمر في ﴿هَادُوا﴾ في قول الكسائي والأخفش، قال النحاس: سمعت الزجاج يقول: وقد ذكر له قول الأخفش والكسائي: هذا خطأ من جهتين، إحداهما أن المضمر المرفوع يقبح العطف عليه حتى يؤكد، والجهة الأخرى أن المعطوف شريك المعطوف عليه فيصير المعنى أن الصابئين قد دخلوا في اليهودية وهذا محال، وقال الفراء: إنما جاز الرفع في ﴿وَالصَّابِئُونَ﴾ لأن ﴿أَنْ﴾ ضعيفة فلا تؤثر إلا في الاسم دون الخبر، و﴿الَّذِينَ﴾ هنا لا يتبين فيه الإعراب فجرى على جهة واحدة الأمران، فجاز رفع الصابئين رجوعا إلى أصل الكلام، قال الزجاج: وسبيل ما

---

(١) تفسير القرطبي: ٦/٢٤٥.

يتبين فيه الإعراب وما لا يتبين فيه الإعراب واحد، وقال الخليل وسيبويه: الرفع محمول على التقديم والتأخير، والتقدير: إن الذين آمنوا والذين هادوا من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون والصابئون والنصارى كذلك، وأنشد سيبويه وهو نظيره: وإلا فاعلموا أنا وأنتم...بغاة ما بقينا في شقاقوقال ضابئ البرجمي:

فمن يك أمسى بالمدينة رحله		فإني وقيار بها لغريب

وقيل: ﴿إِنَّ﴾ بمعنى ﴿نِعْمَ﴾ فالصابئون مرتفع بالابتداء، وحذف الخبر لدلالة الثاني عليه، فالعطف يكون على هذا التقدير بعد تمام الكلام وانقضاء الاسم والخبر، وقال قيس الرقيات:

بكر العواذل في الصبا		ح يلمنني وألومهنه

ويقلن شيب قد علا		ك وقد كبرت فقلت إنه

قال الأخفش: ﴿إِنَّهُ﴾ بمعنى ﴿نِعَمْ﴾، وهذه الهاء) أدخلت للسكت.

المنصور بالله:

ذكر الإمام القاسم بن محمد (ت ١٠٢٩ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي(١):

١. ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة: ٦٨] معناها: أنهم كفار، حتى يقيموا التوراة والإنجيل، أي: يعملوا بما فيهما من التصديق بنبوة محمد ﷺ، والتزام ما جاء به عن الله سبحانه وتعالى.

الشوكاني:

ذكر محمد بن علي الشوكاني (ت ١٢٥٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي(٢):

١. ﴿عَلَى شَيْءٍ﴾ فيه تحقير وتقليل لما هم عليه: أي لستم على شيء يعتدّ به حتى تقيموا التوراة والإنجيل: أي تعملوا بما فيهما من أوامر الله ونواهيه التي من جملتها أمركم باتباع محمد ﷺ ونهيكم عن مخالفته، قال أبو عليّ الفارسي: ويجوز أن يكون ذلك قبل النسخ لهما.

---

(١) الأنوار البهية المنتزع من كتب أئمة الزيدية: ١/٣٣٦.

(٢) فتح القدير: ٢/٧٢.

٢. ﴿وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ قيل: هو القرآن، فإن إقامة الكتابين لا تصح بغير إقامته، ويجوز أن يكون المراد ما أنزل إليهم على لسان الأنبياء من غير الكتابين.

٣. ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾ أي كفرا إلى كفرهم وطغيانا إلى طغيانهم، والمراد بالكثير منهم من لم يسلم، واستمرّ على المعاندة؛ وقيل: المراد به العلماء منهم، وتصدير هذه الجملة بالقسم لتأكيد مضمونها.

٤. ﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ أي دع عنك التأسف على هؤلاء، فإن ضرر ذلك راجع إليهم ونازل بهم، وفي المتبعين لك من المؤمنين غنى لك عنهم.

٥. ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾، جملة مستأنفة لترغيب من عداهم من المؤمنين، والمراد بالمؤمنين هنا الذين آمنوا بألسنتهم وهم المنافقون ﴿وَالَّذِينَ هَادُوا﴾ أي دخلوا في دين اليهود ﴿وَالصَّابِئُونَ﴾ مرتفع على الابتداء وخبره محذوف، والتقدير: والصّابئون والنصارى كذلك، قال الخليل وسيبويه: الرفع محمول على التقديم والتأخير، والتقدير: إن الذين آمنوا والذين هادوا من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون والصابئون والنصارى كذلك، وأنشد سيبويه، قول الشاعر:

وإلّا فاعلموا أنّا وأنتم　　　بغاة ما بقينا في شقاق

اي وإلا فاعلموا أنا بغاة وأنتم كذلك، ومثله قول ضابئ البرجمي:

فمن يك أمسى بالمدينة رحله　　　فإنّي وقيّار بها لغريب

أي فإني لغريب وقيار كذلك، وقال الكسائي والأخفش: إن ﴿الصَّابِئُونَ﴾ معطوف على المضمر في ﴿هَادُوا﴾ قال النحاس: سمعت الزجاج يقول: وقد ذكر له قول الكسائي والأخفش: هذا خطأ من وجهين: أحدهما أن المضمر المرفوع لا يعطف عليه حتى يؤكد، وثانيهما أن المعطوف شريك المعطوف عليه، فيصير المعنى: إن الصابئين قد دخلوا في اليهودية، وهذا محال، وقال الفراء: إنما جاز الرفع لأن إن ضعيفة فلا تؤثر إلا في الاسم دون الخبر، فعلى هذا هو عنده معطوف على محل اسم إنّ، أو على مجموع إنّ واسمها؛ وقيل: إنّ خبر إن مقدر، والجملة الآتية خبر الصابئون والنصارى، كما في قول الشاعر:

نحن بما عندنا وأنت بما　　　عندك راض والرأي مختلف

وقيل: إنّ هنا بمعنى نعم، فالصابئون مرتفع بالابتداء، ومثله قول ابن قيس الرقيات:

بكر العواذل في الصّبا ح يلمنني وألومهنّه

ويقلن شيب قد علا ك وقد كبرت فقلت إنّه

قال الأخفش: إنه بمعنى نعم والهاء للسكت، وقد تقدم الكلام على الصابئين والنصارى في البقرة، وقرئ الصابيون بياء صريحة تخفيفا للهمزة، وقرئ: الصابون بدون ياء، وهو من صبا يصبو لأنهم صبوا إلى اتباع الهوى، وقرئ والصابئين عطفا على اسم إن.

٦. ﴿مَنْ آمَنَ بِالله﴾ مبتدأ خبره ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ والمبتدأ وخبره خبر لـ ﴿إِنَّ﴾، ودخول الفاء لتضمن المبتدأ معنى الشرط، والعائد إلى اسم إن محذوف، أي من آمن منهم، ويجوز أن يكون من آمن بدلا من اسم إنّ وما عطف عليه، ويكون خبر إنّ ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ والمعنى على تقدير كون المراد بالذين آمنوا المنافقين كما قدّمنا: أن من آمن من هذه الطوائف إيمانا خالصا على الوجه المطلوب وعمل عملا صالحا، فهو الذي لا خوف عليه ولا حزن، وأما على تقدير كون المراد بالذين آمنوا جميع أهل الإسلام: المخلص والمنافق، فالمراد بمن آمن من اتّصف بالإيمان الخالص واستمرّ عليه، ومن أحدث إيمانا خالصا بعد نفاقه.

أَطَّفِّيش:

ذكر محمد أَطَّفِّيش (ت ١٣٣٢ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. ﴿قُلْ يَآ أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ من الدِّين الحقِّ، أو على شيء نافع، أو على شيء معتدٍّ به، ﴿حَتَّىٰ تُقِيمُواْ التَّوْرَاةَ وَالاِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ القرآنَ، أو كُتُبَ رُسُل بني إسرائيل، أو كُتُبَ الله كلّها، ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾ مَرَّ مثله، وإنَّ الإيمان به ﷺ واتِّباعه داخلان في ذلك.

٢. نزلت في رافع بن حارثة وسلام بن مشكم ومالك بن الصيف ورافع بن حرملة، إذ قالوا: يا محمَّد تزعم أنَّك على ملَّة إبراهيم وتؤمن بالتوراة؟ فقال ﷺ: (نعم، لكن أحدثتم وكتمتم ما أُمرتم بتبيينه)، قالوا: فإنَّا نأخذ بما عندنا ولا نتَّبعك، وقيل: المراد بأهل الكتاب: اليهود والنصارى.

---

(١) تيسير التفسير، أطفيش: ٨٩/٤.

٣. ﴿فَلَا تَاسَ﴾ لا تحزن ﴿عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ أيَّما كانوا، أو على هؤلاء فلا تأس عليهم بسبب كفرهم، أو إهلاكهم، وَوَضَعَ الظاهر موضع المضمر ليذكِّر أنَّه من اتَّصف بكفر لا يستحقُّ أن يُحزن عليه.

٤. ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ﴾ بألسنتهم، وقيل: مطلقًا، فيراد بالإيمان على الأوَّل في قوله: ﴿مَنَ امَنَ﴾ الإيمانُ المخلص ولا إشكال، وَعَلَى الثاني: الإيمانُ المخلصُ السابق والمستمرُّ والمخلصُ الحادثُ، جمعًا بين الحقيقة والمجاز؛ أو حملا على عموم المجاز، كذا قيل، قلت: بل حقيقة؛ لأنَّ حاصله ثبوت الإيمان المخلص هكذا: سبق واستمرَّ أو حدث.

٥. ﴿وَالَّذِينَ هَادُواْ وَالصَّابُونَ﴾ قلبت الهمزة ياءً فثقلت عليها الضمَّة فحذفت لثقلها، وضمَّت الباء الموحَّدة أو نقلت للباء، وحذفت الياء لالتقاء الساكنين، أو هو من (صَبَا) بالألف (يَصْبُو) بالواو قلبت ياءً كذلك، وهو مبتدأ عطف عليه بقوله: ﴿وَالنَّصَارَىٰ﴾ وخبره جملة.

٦. ﴿مَنَ امَنَ﴾ منهم ﴿بِاللهِ وَالْيَوْمِ الَاخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ في الآخرة، وخبر (إِنَّ) محذوف يقدَّر: (مثلُ هذا) قبل قوله: ﴿وَالصَّابُونَ﴾، أو هذا خبر (إِنَّ) وخبر (الصَّابُونَ) يقدَّر هكذا: (والصابون والنصارى كذلك)، وقال الكسائيُّ: معطوف على واو (هَادُوا)، ويعترض عليه بأنَّه لا يعطف على ضمير الرفع المُتَّصِل بلا فصل، ولعلَّ الكسائيَّ أجازه، لَكِنَّ إجازته ضعيفة، ويردُّه أنَّ الصابين على ذلك يهود، وقدَّر بعضٌ: (والذين هم الصابون) بحذف الموصول وصَدرِ الصِّلة، وقيل: الرفع عطف على محلِّ (إِنَّ) واسمها، ويردُّه عدم استقامة المعنى وتوارد عاملين هما: (إِنَّ) والابتداء، أو (إِنَّ) والمبتدأ على معمول واحد وهو الخبر، وقيل: (إِنَّ) بمعنى (نعم) فكلُّ ما بعدها مرفوع، ويردُّه أنَّه لا يوجد ما تكون له جوابًا إلَّا بتكلُّف وحذف، ولا تكون أوَّل الكلام، ولا شيء في القرآن يصحُّ أن تكون فيه (إِنَّ) بمعنى (نعم) أو يترجَّح.

٧. وإنَّما صحَّ أن يكون الصابون من أهل الجنَّة باعتبار أنَّهم جمعوا نوافل ومصالح من التوراة والإنجيل، وأدَّوا ما وجب، وتركوا ما حرِّم، أمَّا لو تركوا فرضًا أو عملوا محرَّمًا فلا، وذلك قبل البعثة، وأمَّا بعدها فكلُّ يهوديٍّ أو صابئ أو نصرانيٍّ في النَّار إلَّا إن آمن به ﷺ واتَّبَعَه، أو لم يبلغه خبره، وكان على دين غير منسوخ، أو على دين منسوخ لم يبلغه نسخه، روى أبو هريرة عنه ﷺ : (والذي نفس محمَّد بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمَّة يهوديٌّ ولا نصرانيٌّ ثمَّ يموت ولم يؤمن بالذي أرسلت به إلَّا كان من أصحاب

النَّار)، وشهر أنَّ الصابين خرجوا عن دين اليهود والنصارى وعبدوا الملائكة وهم في النَّار إلَّا من تاب، ووجدت في نسخة عتيقة للسيوطي، وفي أخرى مطبوعة بالقالب أنَّ إدريس عليه السلام حمل الناس على دين الصابين، وهو التوحيد والطهارة والصلاة والصوم وعبادات الله تعالى وأنَّه عمَّ الأرض بالتوحيد، وقيل: الصابين نسب إلى (صابئ بن متوشلخ بن إدريس)، وكان على دين الإسلام، وقيل: إلى (الصابئ بن ملوى) في عصر الخليل عليه السلام قلت: لا إشكال في ذلك؛ لأنَّ الصابئة الكفرة ينتسبون إلى الصابئ المسلم.

القاسمي:

ذكر جمال الدين القاسمي (ت ١٣٣٢ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[1]:

١. قال أبو السعود: إيراد هذه الآية الكريمة في تضاعيف الآيات الواردة في حق أهل الكتاب، لما أن الكل قوارع يسوء الكفار سماعها، ويشق على الرسول ﷺ مشافهتهم بها، وخصوصا ما يتلوها من النص الناعي عليهم كمال ضلالتهم، ولذلك أعيد الأمر فقيل خطابا للفريقين: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ﴾ أي: من الدين ﴿حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾ أي: تراعوهما وتحافظوا على ما فيهما من الأمور التي من جملتها دلائل نبوة النبيّ ﷺ واتّباعه.

٢. قال بعض المحققين: معنى قوله تعالى: ﴿حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾ أي: تعملوا طبق الواجب بأحكامها، وتحيوا شرائعها، وتطيعوا أوامرهما، وتنتهوا بنواهيها، فإن الإقامة هي الإتيان بالعمل على أحسن أوجهه، كإقامة الصلاة مثلا، أي فعلها على الوجه اللائق بها، ولا يدخل في ذلك القصص التي فيهما ولا العقائد ونحوها فإنها ليست عملية، والمراد أن يعملوا بما بقي عندهم من أحكام التوراة والإنجيل على علاته وعلى ما به من نقص وتحريف وزيادة، فإن شرائع هذه الكتب وأوامرها ونواهيها هي أقل أقسامها تحريفا، وأكثر التحريف في القصص والأخبار والعقائد وما ماثلها، وهي لا تدخل في الأمر بالإقامة، ولا شك أن أحكام التوراة والإنجيل وما فيهما من شرائع ومواعظ ونصائح ونحوها، لا تزال فيهما أشياء كثيرة لا عيب فيها، ونافعة للبشر وفيها هداية عظمى للناس، فهي مما يدخل

---

(١) تفسير القاسمي: ٤/٢٠٤.

تحت قوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ مِنْ قَبْلُ هُدًى لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ٣ ـ ٤]، فإذا أقام أهل الكتاب أحكامهما على علاتها كانوا لا شك على شيء يعتد به ويصح أن يسمى دينا، وإذا لم يقيموهما وجروا على خلافهما، كانوا مجردين من كل شيء يستحق أن يسمى دينا، وكانوا مشاغبين معاندين، وبدينهم غير مؤمنين إيمانا كاملا، وهذا معنى صحيح، وهو المتبادر من الآية، فأي شيء في هذا المعنى يدل على عدم تحريف التوراة والإنجيل وعلى وجودهما كاملين، كما يدعي ذلك المكابرون من أهلهما، وخصوصا بعد قوله تعالى: ﴿وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ﴾؟ [المائدة: ١٣]

٣. ثم قال ولك أن تقول: معنى قوله تعالى: ﴿لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾، الحقيقيّين، وذلك يستلزم البحث والتنقيب والجد والاجتهاد في نقد ما عندهم منهما نقدا عقليا تاريخيا صحيحا، حتى يستخلصوا حقهما من باطلهما بقدر الإمكان، ونتيجة ذلك العناء كلّه، أن يكونوا على شيء من الدين الحقّ، وهذا أمر لا شبهة فيه، ولو اتبعوا القرآن لأراحوا واستراحوا، ولكنهم ـ كما أخبر تعالى عنهم ـ لا يزيدهم القرآن إلّا طغيانا وكفرا حسدا وعنادا فلا يؤمنون به، ولا يهتم جمهورهم بإصلاح دينهم من المفاسد وتنقيته من الشوائب، فلم يدركوا خير هذا ولا ذاك، فكأن الآية تريهم أنهم إذا لم يتبعوا القرآن يجب عليهم القيام بعبء ثقيل جدّا من البحث والتمحيص، وبعد ذلك يكونون على شيء من الحق لا على الحق كله ولو أقاموا التوراة والإنجيل الحقيقيين غاية الإقامة، فما بالك إذا كان ذلك مستحيلا لعدم وجودهما على حقيقتهما؟ فهم ليسوا على شيء مطلقا، ولا يمكن أن يكونوا عليه، فإن كتبهم قد صارت خلقة بالية، لذلك قال رسول الله ﷺ لعمر ، حينما رأى ورقة من التوراة بيده: ألم آتكم بها بيضاء نقية؟ والله لو كان موسى حيّا ما وسعه إلّا اتباعي.

٤ . سؤال وإشكال: كيف يحثهم الله على العمل بأي شيء من دينهم، ومنه ما جاء القرآن ناسخا له؟ والجواب: لا شك عند كل عاقل أنه خير لأهل الكتاب أن يعملوا بشرائع دينهم الأصلية، فإنهم حينئذ يتجنبون الكذب والتحريف والعناد والأذى والإفساد في الأرض وإهلاك الحرث والنسل والزنى، وغير ذلك مما يعمله الناس، فمراد القرآن على التفسير الأول للآية حثهم ـ إن أصروا على عدم الإيمان به ـ على العمل بدينهم على الأقل ليستريح النبيّ وأتباعه من أكثر شرورهم ورذائلهم، ولكن بعد العمل بدينهم لا يكونون على الدين الحق الكامل؛ بل الذي يفهم من الآية أنهم يكونون على شيء من الدين، وهو ـ ولا

شك ـ خير من لا شيء ولا يفهم أنهم يكونون على الحق كله وعلى الدين الكامل الذي لا غاية أعظم منه، فإن ذلك لا يكون إلّا بالإسلام ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ [آل عمران: ٨٣]، ولا يخفى أنهم إذا أقاموا التوراة والإنجيل، آمنوا بمحمد ﷺ، لما تتقاضى إقامتها الإيمان به، إذ كثر ما جاء فيهما من البشارات به والتنويه باسمه ودينه، فإقامتهما على وجوههما تستدعي الإسلام البتة، بل هي هو، والله الموفق..

٥. ﴿وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ أي: القرآن المجيد بالإيمان به، وفي التعبير بقوله تعالى: ﴿لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ﴾ من التحقير والتصغير ما لا غاية وراءه، كما تقول: هذا ليس بشيء تريد غاية تحقيره وتصغير شأنه، وفي أمثالهم: أقل من لا شيء أي: لستم على دين يعتد به حتى يسمى شيئا، لفساده وبطلانه.

٦. ثم بيّن تعالى غلوّهم في العناد وعدم إفادة التبليغ فقال: ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا﴾، أي تماديا ﴿وَكُفْرًا﴾ أي ثباتا على الكفر ﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ أي: فإذا بالغت في تبليغ ما أنزل إليك، فرأيت مزيد طغيانهم وكفرهم، فلا تحزن عليهم لغاية خبثهم في ذواتهم، فإن ضرر ذلك راجع إليهم لا إليك، وفي المؤمنين غنى عنهم.

٧. ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَى مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ فيما يستقبلهم من العذاب ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ أي: في الآخرة إذا خاف المقصرون وحزنوا على تضييع العمر.

٨. ﴿الصَّابِئُونَ﴾ رفع على الابتداء، وخبره محذوف، والنية به التأخير عما في حيز (إن) من اسمها وخبرها، كأنه قيل: إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى حكمهم كذا، والصائبون كذلك، وأنشد سيبويه شاهدا له:

وإلّا فاعلموا أنّا وأنتم ... بغاة ما بقينا في شقاق

أي: فاعملوا أنا بغاة، وأنتم كذلك، ثم قال الزمخشريّ: سؤال وإشكال: ما التقديم والتأخير إلّا لفائدة، فما فائدة التقديم؟ والجواب: فائدته التنبيه على أن الصابئين يتاب عليهم إن صح منهم الإيمان والعمل الصالح، فما الظنّ بغيرهم؟ وذلك أن الصابئين أبين هؤلاء المعدودين ضلالا وأشدّهم غيّا، وما سموا صابئين إلّا لأنهم صبئوا عن الأديان كلها، أي: خرجوا، كما أن الشاعر قدم قوله: (وأنتم) تنبيها على

أن المخاطبين أوغل في الوصف بالبغاة من قومه، حيث عاجل به قبل الخبر الذي هو (بغاة) لئلا يدخل قومه في البغي قبلهم، مع كونهم أوغل فيه منهم وأثبت قدما..

٩. سؤال وإشكال: قال الناصر في (الانتصاف): ثمة سؤال، وهو أن يقال: لو عطف (الصابئين) ونصبه ـ كما قرأ ابن كثير ـ لأفاد أيضا دخولهم في جملة المتوب عليهم، ولفهم من تقديم ذكرهم على (النصارى) ما يفهم من الرفع من أن هؤلاء الصابئين ـ وهم أوغل الناس في الكفر ـ يتاب عليهم، فما الظنّ بالنصارى؟ ولكان الكلام جملة واحدة بليغا مختصرا، والعطف إفراديّ، فلم عدل إلى الرفع وجعل الكلام جملتين؟ وهو يمتاز بفائدة على النصب والعطف الإفراديّ؟ والجواب: بأنه لو نصبه وعطفه لم يكن فيه إفهام خصوصية لهذا الصنف، لأن الأصناف كلها معطوف بعضها على بعض عطف المفردات، وهذا الصنف من جملتها، والخبر عنها واحد، وأما مع الرفع فينقطع عن العطف الإفراديّ وتبقى بقية الأصناف مخصصة بالخبر المعطوف به، ويكون خبر هذا الصنف المنفرد بمعزل، تقديره مثلا (والصابئون كذلك) فيجيء كأنه مقيس على بقية الأصناف وملحق بها، وهو بهذه المثابة، لأنهم لما استقر بعد الأصناف من قبول التوبة، فكانوا أحقاء بجعلهم تبعا وفرعا مشبهين بمن هم أقعد منهم بهذا الخبر، وفائدة التقديم على الخبر أن يكون توسط هذا المبتدأ المحذوف الخبر، بين الجزأين، أدلّ على الخبر المحذوف من ذكره، بعد تقضي الكلام وتمامه.

١٠. سؤال وإشكال: إن قوله تعالى: ﴿مَنْ آمَنَ﴾ منهم كيف يقع خبرا عن ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أو بدلا، وهو يقتضي انقسام المؤمنين إلى مؤمنين وغير مؤمنين؟ والجواب: المراد بـ ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ الذي آمنوا باللسان فقط، وهم المنافقون، فالمعنى: الذين آمنوا باللسان ومن معهم، من أحدث منهم إيمانا خالصا، أو يؤول ﴿مَنْ آمَنَ﴾ بمن ثبت على الإيمان فيصح في حق المؤمنين الخلص، وفي هذا شبه جمع بين الحقيقة والمجاز، ودفع بأن الثبات على الإيمان ليس غير الإيمان بل هو وإحداثه فردان من مطلقه، والوجه الأول، إذ في ضمّ المؤمنين إلى الكفرة إخلال بتكريمهم، قاله الخفاجيّ.

١١. قال أبو السعود: أما على تقدير كون المراد بـ ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ مطلق المتدينين بدين الإسلام، المخلصين منهم والمنافقين فالمراد بـ ﴿مَنْ آمَنَ﴾ من اتصف منهم بالإيمان الخالص على الإطلاق، سواء كان ذلك بطريق الثبات والدوام عليه ـ كما هو شأن المخلصين، أو بطريق إحداثه وإنشائه ـ كما هو حال من

عداهم من المنافقين وسائر الطوائف، وفائدة التعميم للمخلصين المبالغة في ترغيب الباقين في الإيمان ببيان أن تأخرهم في الاتصاف به غير مخلّ بكونهم أسوة لأولئك الأقدمين الأعلام.

رضا:

ذكر محمد رشيد رضا (ت ١٣٥٤هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[1]:

١. ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ أي ﴿قُلْ﴾ لأهل الكتاب من اليهود والنصارى فيما تبلغهم عن الله تعالى: (لستم على شيء يعتد به من أمر الدين، ولا ينفعكم الانتساب إلى موسى وعيسى والنبيين (حتى تقيموا التوراة والإنجيل) فيما دعيا إليه من التوحيد الخالص، والعمل الصالح، وفيما بشرا من بعثة النبي الذي يجيء من ولد إسماعيل، الذي عبر عنه المسيح بروح الحق وبالبارقليط ﴿وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ على لسانه وهو القرآن المجيد، فإنه هو الذي أكمل به دين الأنبياء والمرسلين، على حسب سنته في النشوء والارتقاء بالتدريج.

٢. وقيل: إن المراد بما أنزل إليهم من ربهم ما أنزل على سائر أنبيائهم، كما قيل مثله في آية ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ [المائدة: ٦٦] وتقدم توجيهه، ولم يبعد العهد به فنعيده، إلا أن ذاك حكاية ماضية، وهذا بيان للحال الحاضرة، والحجة عليهم في الزمنيين قائمة، فهم لم يكونوا مقيمين لتلك الكتب قبل هذا الخطاب، ولا في وقته، ولا كان في استطاعتهم أن يقيموها في عهده، كما أنهم لا يستطيعون أن يقيموها الآن، فهذا تعجيز لهم، وتفنيد لدعواهم الاستغناء عن اتباع خاتم النبيين، بإتباعهم لأنبيائهم السابقين، ولا يتضمن الشهادة بسلامة تلك الكتب من التحريف.

٣. ومثله أن نقول الآن لدعاة النصرانية من الأمريكان والألمان والإنكليز: يا أيها الداعون لنا إلى إتباع التوراة والإنجيل، نحن لا نعتد بكم، ولا نرى أنكم على إيمان وثقة بدينكم، وصدق إخلاص في دعوتكم، حتى تقيموا أنتم وأهل ملتكم التوراة والإنجيل اللذين في أيديكم، فتحبوا أعداءكم، وتباركوا لاعنيكم، وتعطوا ما لقصير لقيصر، وتخضعوا لكل سلطة لأنها من الله، وإذا اعتدى عليكم أحد فلا تعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم، بل أديروا له الخد الأيسر، إذا ضربكم على الخد الأيمن، واتركوا التنافس في

---

(١) تفسير المنار: ٦/٣٩٢.

إعداد آلات الفتك الجهنمية، ليكون للناس السلام في الأرض، وأخرجوا من هذه الأموال الكثيرة والثروة الواسعة، لأن الغني لا يدخل ملكوت السماوات، حتى يلج الجمل في سم الخياط، ولا تهتموا برزق الغد.. الخ ونحن نراكم على نقيض كل ما جاء في هذه الكتب، فأنتم لا تخضعون لكل حاكم بل ميزتم أنفسكم، واستعليتم على الشرائع والحكام من غيركم، وإذا اعتدي على أحد منكم في بقعة من بقاع الأرض، تجردون سيوف دولتكم وتصوبون مدافعها على بلاد المعتدي ودولته لا عليه وحده، حتى تنتقموا لأنفسكم بأضعاف ما اعتدى به عليكم، ولا هم لأممكم ودولكم إلا امتلاء ثروة العالم وزينته ونعيمه، وتسخير غيركم من الأمم لخدمتكم بالقوة القاهرة، والاستعداد لسحق من ينافسكم في مجد هذا العالم الفاني، لعدم اهتمامكم بمجد الملكوت الباقي، فنحن لا نصدق بأنكم تدينون الله بهذه الكتب التي تدعوننا إليها، حتى تقيموها على وجهها. ـ فهل يعد دعاة النصرانية مثل هذا الخطاب لهم اعترافا منا بسلامة كتبهم من التحريف والزيادة والنقصان؟ أم يفهمون أنه حجة مبينة على التسليم الجدلي لأجل الإلزام؟ نعم يفهمون هذا ولكنهم يقولون لعوام المسلمين، إن هذه الآية شهادة للتوراة والإنجيل بالسلامة من التحريف!!.

٤. ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾ هذه جملة مستأنفة مؤكدة بالقسم الذي تدل عليه اللام في أولها، تثبت أن الكثير من أهل الكتاب لا يزيدهم القرآن الذي أكمل الله به الدين، المنزل على محمد خاتم النبيين، إلا طغيانا في فسادهم، وكفرا على كفرهم ـ ذلك بأنهم ما كانوا على إيمان صحيح بالله وبالرسل، ولا على عمل صالح مما تهدي إليه تلك بالكتب، وإنما كان أكثرهم على تقاليد وثنية، وعصبية جنسية، وعادات وأعمال ردية، فهم لهذا لم ينظروا في القرآن نظر إنصاف، وليس لهم من حقيقة دينهم الحق ما يقربهم من فهم حقيقة الإسلام، ليعلموا أن دين الله واحد فما سبق بدء وهذا إتمام، بل ينظرون إليه بعين العصبية والعدوان، وهذا سبب زيادة الكفر والطغيان. ـ الطغيان مجاوزة الحد المعتاد، وأما غير الكثير، وهم الذين حافظوا على التوحيد، ولم تحجبهم عن نور الحق تلك التقاليد، فهم يرون القرآن بعين البصيرة فيعلمون أنه الحق من ربهم، وأن من أنزل عليه هو النبي الأخير المبشر به في كتبهم، فيسارعون إلى الإيمان على حسب حفظهم من العلم وسلامة الوجدان.

٥. والفرق بين نسبة إنزال القرآن إلى الرسول هنا ونسبة إنزاله إليهم في أول الآية (على القول المشهور بأن المراد بما أنزل إليهم القرآن) هو أن خطابهم بإنزال القرآن إليهم يراد به أنهم مخاطبون به

ومدعون إليه، ومثله ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا﴾ [البقرة: ١٣٦] وأما إسناد إنزاله إلى الرسول ﷺ فليس لإفادة أنه أوحي إليه فقط، بل يشعر مع ذلك بأن إنزاله إليه سبب لطغيانهم وكفرهم، وأنهم لم يكفروا لأجل إنكارهم لعقائده وآدابه وشرائعه أو استقباحهم لها، بل لعداوة الرسول الذي أنزل إليه وعداوة قومه العرب، وقيل إنه يفيد براءتهم منه، وأنه لا حظ فيه.

٦. ﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ أي فلا تحزن عليهم لأنهم قوم تمكن الكفر منهم، وصار وصفا لازما لهم، ـ وهذه نكتة وضع الظاهر موضع الضمير ـ وحسبك الله ومن اتبعك من مؤمني قومك ومنهم، كعبد الله بن سلام وغيره من علمائهم، قال الراغب: الأسى الحزن، وأصله إتباع الفائت بالغم.

٧. والعبرة للمسلم في الآية أن يعلم أن المسلمين لا يكونون على شيء يعتد به من أمر الدين حتى يقيموا القرآن وما أنزل إليهم من ربهم فيه ويهتدوا بهدايته، فحجة الله على جميع عباده واحدة، فإذا كان الله تعالى لا يقبل من أهل الكتاب قبلنا، تلك التقاليد التي صدتهم عما عندهم من وحي الله تعالى، على ما كان قد طرأ عليه من التحريف بالزيادة والنقصان، فأن لا يقبل منا مثل ذلك مع حفظه لكتابنا أولى، والناس عن هذا غافلون، بالانتساب إلى المذاهب راضون، وبهدي الأئمتها لا يقتدون، وإلى حكمة الدين ومقاصده لا ينظرون، (ويحسبون أنهم على شيء ألا إنهم الكاذبون) [المجادلة: ١٨]

٨. ولما كان الانتساب إلى الدين لا يفيد في الآخرة إلا بإقامة كتاب الدين، بين الله تعالى بعد تلك الحجة أصول الدين المقصودة من إقامة الكتب الآلهية كلها التي يترتب عليها الجزاء والثواب فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَى مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾

٩. مناسبة وضع هذه الآية هنا لما قبلها وما بعدها بيان أن أهل الكتاب لم يقيموا دين الله، وما كلفهم الله إياه، ولا وسائله ومقاصده، فلا هم حفظوا نصوص الكتب كلها، ولا هم تركوا ما عندهم منها ظواهرها؛ ولا هم آمنوا بالله واليوم الآخر، على الوجه الذي كان عليه سلفهم الصالح، ولا هم عملوا الصالحات كما كانوا يعملون؛ اللهم إلا قليلا منهم كان مخبوءا في طيات الزمان، أو شعاف الجبال وزوايا البلدان، كانوا يعذبون على توحيد الله، ويرمون بالزندقة أو الهرطقة لرفضهم تقاليد الكنائس، وقد تقدم مثل هذه الآية في سورة البقرة.

١٠. وفي هذه الآية بحث لفظي ليس في تلك؛ وهو رفع كلمة الصائبين وتقديمها على كلمة النصارى، فأما الرفع ففي إعرابه وجوه أشهرها مبتدأ خبره محذوف التقدير (والصابئون كذلك) أو معطوف على محل اسم إن؛ وقد أجاز كوفيو النحويين هذا وعدوه من الفصيح إذا كان اسم إن مبنيا كما هو هنا، وكقولك: إنك وزيد صديقان، والبصريون يمنعونه، ومن هذا القبيل قول الشاعر:

وإلا فاعلموا أنا وأنتم بغاة ما بقينا في شقاق

١١. والإعراب صناعة يستعان بها على ضبط كلام العرب وفهمه، والعمدة في إثبات اللغات كلها السماع من أهلها، وقد ثبت بالسماع أن هذا الاستعمال فصيح ولكن ما نكتته؟ النكتة التي كان بها رفع الصابئين ههنا على مخالفته نسق عطف المنصوب عل المنصوب، هي تنبيه الذهن إلى أن الصابئين كانوا أهل كتاب وإن كان حكمهم كحكم المسلمين واليهود والنصارى في تعليق نفي الخوف والحزن عنهم يوم القيامة بشرط الإيمان الصحيح والعمل الصالح، اللذين تتزكى بهما النفوسّ، وتستعد لإرث الفردوس، ولما كان هذا غير معروف عند المخاطبين بهذه الآية، وكان الصائبون غير مظنة لإشراكهم في الحكم مع أهل الكتب السماوية، حسن في شرع البلاغة أن ينبه إلى ذلك بتغيير نسق الإعراب، فمثل هذا التغيير، لا يعد فصيحا إلا في مثل هذا التعبير، وهو ما كان لما تغير إعرابه أخرج عما يماثله، صفة خاصة تريد التنبيه عليها، فإذا قلت (إن زيد وعمرا ـ وكذا بكر ـ أو بكر كذلك ـ قادرون على مناظرة خالد) لم يكن هذا القول بليغا إلا إذا كان بكر في مظنة العجز عن مناظرة خالد؛ وأردت أن تنبه عن خطأ هذا الظن، وعلى كون بكر، يقدر على ما يقدر عليه من ذلك زيد وعمرو.

١٢. وهاهنا قاعدة عامة في البلاغة تدخل في بلاغة النطق والكتابة، وهي أن ما يرد تنبيه السمع أو اللحظ إليه من المفردات أو الجمل يميز على غيره، إما بتغيير نسق الإعراب في مثل الكلام العربي مطلقا، وإما برفع الصوت في الخطابة، وإما بكبر الحروف أو تغيير لون الحبر أو وضع الخطوط عليه في الكتابة، والمسلمون يكتبون القرآن في التفسير والمتون المشروحة بحبر أحمر، وفي الطبع يضعون الخطوط فوق الكلام الذي يميزونه كآيات القرآن في بعض كتب التفسير، ثم صار الكثيرون منهم يقلدون الإفرنج في وضع هذه الخطوط تحت الكلام الذي يريدون التنبيه عليه بتمييزه.

١٣. وقد تجرأ بعض أعداء الإسلام، على دعوى وجود الغلط النحوي في القرآن! وعد رفع

الصابئين هنا من هذا الغلط!! وهذا جمع بين السخف والجهل، وإنما جاءت هذه الجرأة من الظاهر المتبادر من قواعد النحو مع جهل أو تجاهل أن النحو استنبط من اللغة ولم تستنبط اللغة منه، وأن قواعده إذا قصرت عن الإحاطة ببعض ما ثبت عن العرب فإنما ذلك لقصور فيها، وأن كل ما ثبت نقله عن العرب فهو عربي صحيح، وينتسب إلى العرب الغلط في الألفاظ ولكن قد يغلطون في المعاني، ولم توجد لغة من لغات البشر دفعة واحدة، وإنما تترقى اللغات وتتسع بالتدريج، ولم يكن التجديد في مفرداتها ومركباتها، والتصرف في أساليبها ومشتقاتها، بالتشاور والتواطؤ بين جميع أفراد الأمة وبين الجماعة منها، ـ إلا ما يحصل في بعض المجامع العلمية والأدبية عند بعض الإفرنج في هذا العصر ـ وإنما كان التصرف والتجديد من عمل الأفراد، ولاسيما من يشتهرون بالفصاحة كالخطباء والشعراء، فلو لم يكن ذلك المعترض ضعيف العقل أو قوى التعصب على الإسلام، لنهاه عن هذا الاعتراض رواية هذا اللفظ عن النبي ﷺ، وإن لم يؤمن بأنه منزل عليه من الله عز وجل، فكيف وقد تلقته العرب بالقبول والاستحسان، فكان إجماعا عليه أقوى من إقرار الأندية الأدبية (الأكاديميات) الآن؟ بل يجب أن ينهاه مثل ذلك نقله عن أي بدوي من صعاليك العرب ولو برواية الآحاد، وليت شعري هل يعد ذلك المعتصب الأعمى مبتكرات مثل شكسبير في الإنكليزية وفيكتور هيغو بالفرنسية من اللحن والغلط فيهما؟؟

١٤. وأما تقديم الصابئين هنا على النصارى فمن قال إن المراد بالذين آمنوا هنا المنافقون الذين ادعوا الإيمان بألسنتهم ولم تؤمن قلوبهم، يرى أن نكتته الترتيب بين هذه الأصناف بالترقي من الجدير بقبول توبته إذا صح إيمانه ودعم بالعمل الصالح إلى الأجدر بذلك، ويجعل النصارى أقربها إلى القبول، ويليهم عنده الصابئون، فاليهود فالمنافقون، وأنت تعلم أن العطف بالواو لا يفيد الترتيب بل مطلق الجمع فلا حاجة إلى تكلف النكتة للتقديم والتأخير.

المراغي:

ذكر أحمد بن مصطفى المراغي (ت ١٣٧١ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. بين الله تعالى أن الانتساب إلى الأديان لا ينفع أهلها إلا إذا عملوا بها فقال: ﴿قُلْ يَا أهل الْكِتَابِ

---

(١) تفسير المراغي ٦/١٦١.

لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أنزل إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ أي قل لأهل الكتاب من اليهود والنصارى فيما تبلغهم عن ربك ﴿لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ﴾ يعتد به من أمر الدين، ولا ينفعكم الانتساب إلى موسى وعيسى والنبيين.

٢. ﴿حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾ فيما دعيا إليه من التوحيد الخالص، والعمل الصالح، وفيما بشرا به من بعثة النبي الذي يجيء من ولد إسماعيل الذي سماه المسيح روح الحق والبارقليط.

٣. ﴿وَمَا أنزل إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ على لسان محمد وهو القرآن المجيد فهو الذي أكمل به دين الأنبياء والمرسلين بحسب سنن الله في الكون.

٤. ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أنزل إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾ أي وأقسم بأن الكثير من أهل الكتاب لا يزيدهم القرآن الذي أكمل الله به الدين المنزل على محمد خاتم النبيين إلا غلوّا في تكذيبهم وكفرا على كفرهم، لأنهم لم ينظروا فيه نظرة إنصاف، بل نظروا إليه بعين العصبية والعدوان، إذ كانوا على تقاليد وثنية، وأعمال وعادات سخيفة، فلم يكن لهم من الدين الذي يدينون به ما يقرّبهم إلى فهم حقيقة الإسلام، ليعلموا أن دين الله واحد، وأن ما سبق بدء وهذا إتمام، أما غير الكثير وهم الذين حافظوا على التوحيد ولم تحجبهم عن نور الحق شتى التقاليد فهم الذين ينظرون إلى القرآن بعين البصيرة، فيعلمون أنه الحق من ربهم، وأن من أنزل عليه هو النبي المبشر به في كتبهم، فيسارعون إلى الإيمان به بحسب حظهم من سلامة الوجدان واطمئنان النفس، بما لديها من العلم والعرفان.

٥. ﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ قال الراغب: الأسى الحزن، وأصله اتباع الفائت بالغم، أي فلا تحزن عليهم لزيادة طغيانهم وكفرهم، فإن ضرر ذلك راجع إليهم لا إليك ولا إلى المؤمنين، وحسبك الله ومن اتبعك من مؤمني قومك ومن مؤمني أهل الكتاب كعبد الله بن سلام وغيره من علمائهم.

٦. والعبرة للمسلم من هذه الآية أن يعلم أنه لا يكون على شيء يعتدّ به من أمر الدين حتى يقيم القرآن وما أنزل إليه من ربه فيه ويهتدى بهديه، فحجة الله على عباده واحدة، فإذا كان الله لا يقبل من أهل الكتاب قبلنا ما ورثوه من تلك التقاليد التي صدتهم عما عندهم من وحي الله، فإنه لا يقبل منا مثل ذلك مع حفظنا لكتابنا والناس عن مثل هذا غافلون، وإلى حكمة الدين ومقاصده لا ينظرون، ويحسبون أنهم على شيء إلا إنهم هم الكاذبون.

٧. ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمنوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخر وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ أي إن الذين صدقوا الله ورسوله، والذين دخلوا اليهودية، والصابئين الذين يعبدون الملائكة ويصلّون إلى غير القبلة، والنصارى، من أخلص منهم الإيمان بما ذكر دواما وثباتا كما في المؤمنين المخلصين، أو إيجادا وإنشاء كما هو حال المنافقين وغيرهم من الطوائف الأخرى، فلا خوف عليهم فيما قدموا عليه من أهوال القيامة ولا هم يحزنون على ما خلّفوا وراءهم من لذات الدنيا وعيشها بعد معاينتهم ما أكرمهم الله به من جزيل ثوابه.

٨. وفى الآية إيماء إلى أن أهل الكتاب لم يقيموا دين الله، لا الوسائل منه ولا المقاصد، فلا هم حفظوا نصوص الكتب كلها، ولا هم تركوا ما عندهم منها على ظواهرها، ولا هم آمنوا بالله واليوم الآخر على الوجه الذي كان عليه سلفهم الصالح، ولا هم عملوا الصالحات كما كانوا يعملون، إلا قليلا منهم عذّبوا على توحيد الله ورموا بالزندقة لرفضهم تقاليد الكنائس والبدع التي شرعها الأحبار والرهبان، كما أن فيها ترغيبا لمن عدا من ذكروا في الإيمان والعمل الصالح ليكون لهم من الجزاء مثل ما لأولئك.

سيّد:

ذكر سيّد قطب (ت ١٣٨٥ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. حينما كلف الرسول ﷺ أن يواجههم بأنهم ليسوا على شيء من الدين والعقيدة والإيمان.. بل ليسوا على شيء أصلا يرتكن عليه! حينما كلف الرسول ﷺ بمواجهتهم هذه المواجهة الحاسمة الفاصلة، كانوا يتلون كتبهم؛ وكانوا يتخذون لأنفسهم صفة اليهودية أو النصرانية؛ وكانوا يقولون: إنهم مؤمنون.. ولكن التبليغ الذي كلف رسول الله ﷺ أن يواجههم به، لم يعترف لهم بشيء أصلا مما كانوا يزعمون لأنفسهم، لأن (الدين)، ليس كلمات تقال باللسان؛ وليس كتبا تقرأ وترتل؛ وليس صفة تورث وتدعى، إنما الدين منهج حياة، منهج يشمل العقيدة المستسرة في الضمير، والعبادة الممثلة في الشعائر، والعبادة التي تتمثل في إقامة نظام الحياة كلها على أساس هذا المنهج.. ولما لم يكن أهل الكتاب يقيمون الدين على قواعده هذه، فقد كلف (الرسول) ﷺ أن يواجههم بأنهم ليسوا على دين؛ وليسوا على شيء أصلا من هذا القبيل!

---

(١) في ظلال القرآن: ٢/٩٤٠.

وإقامة التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم، مقتضاها الأول الدخول في دين الله الذي جاء به محمد ﷺ فقد أخذ الله عليهم الميثاق أن يؤمنوا بكل رسول ويعزروه وينصروه، وصفة محمد وقومه عندهم في التوراة وعندهم في الإنجيل ـ كما أخبر الله وهو أصدق القائلين ـ فهم لا يقيمون التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم: (سواء كان المقصود بقوله: ﴿وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ هو القرآن ـ كما يقول بعض المفسرين ـ أو هو الكتب الأخرى التي أنزلت لهم كزبور داود)

٢. نقول إنهم لا يقيمون التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم إلا أن يدخلوا في الدين الجديد، الذي يصدق ما بين يديهم ويهيمن عليه.. فهم ليسوا على شيء ـ بشهادة الله سبحانه ـ حتى يدخلوا في الدين الأخير.. والرسول ﷺ قد كلف أن يواجههم بهذا القرار الإلهي في شأنهم؛ وأن يبلغهم حقيقة صفتهم وموقفهم؛ وإلا فما بلغ رسالة ربه.. ويا له من تهديد! وكان الله سبحانه يعلم أن مواجهتهم بهذه الحقيقة الحاسمة، وبهذه الكلمة الفاصلة، ستؤدي إلى أن تزيد كثيرا منهم طغيانا وكفرا، وعنادا ولجاجا.. ولكن هذا لم يمنع من أمر الرسول ﷺ أن يواجههم بها؛ وألا يأسى على ما يصيبهم من الكفر والطغيان والضلال والشرود بسبب مواجهتهم بها؛ لأن حكمته سبحانه تقتضي أن يصدع بكلمة الحق؛ وأن تترتب عليها آثارها في نفوس الخلق، فيهتدي من يهتدي عن بينة، ويضل من يضل عن بينة، ويهلك من هلك عن بينة ويحيا من حيّ عن بينة: ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾،

٣. وكان الله سبحانه يرسم للداعية بهذه التوجيهات منهج الدعوة؛ ويطلعه على حكمة الله في هذا المنهج؛ ويسلي قلبه عما يصيب الذين لا يهتدون، إذا هاجتهم كلمة الحق فازدادوا طغيانا وكفرا؛ فهم يستحقون هذا المصير البائس؛ لأن قلوبهم لا تطيق كلمة الحق؛ ولا خير في أعماقها ولا صدق، فمن حكمة الله أن تواجه بكلمة الحق؛ ليظهر ما كمن فيها وما بطن؛ ولتجهر بالطغيان والكفر؛ ولتستحق جزاء الطغاة والكافرين!

٤. ونعود إلى قضية الولاء والتناصر والتعاون بين المسلمين وأهل الكتاب ـ على ضوء هذا التبليغ الذي كلفه رسول الله ﷺ وعلى ضوء نتائجه التي قدر الله أن تكون في زيادة الكثيرين منهم طغيانا وكفرا.. فماذا نجد..؟ نجد أن الله سبحانه يقرر أن أهل الكتاب ليسوا على شيء حتى يقيموا التوراة والإنجيل وما

أنزل إليهم من ربهم.. وحتى يدخلوا في الدين الأخير تبعا لهذه الإقامة كما هو بديهي من دعوتهم إلى الإيمان بالله والنبي، في المواضع الأخرى المتعددة.. فهم إذن لم يعودوا على (دين الله) ولم يعودوا أهل (دين) يقبله الله، للوقوف في وجه الإلحاد والملحدين؛ كما ينادي بعض المخدوعين وبعض الخادعين! فأهل الكتاب لم يقيموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم؛ حتى يعتبرهم المسلم على شيء وليس للمسلم أن يقرر غير ما قرره الله: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾، وكلمة الله باقية لا تغيرها الملابسات والظروف! وإذا نحن اعتبرنا كلمة الله هي كلمة الفصل ـ كما هو الحق والواقع ـ لم يكن لنا أن نحسب حسابا لأثر المواجهة لأهل الكتاب بهذه الحقيقة، في هياجهم علينا، وفي اشتداد حربهم لنا، ولم يكن لنا أن نحاول كسب مودتهم بالاعتراف لهم بأنهم على دين نرضاه منهم ونقرهم عليه، ونتناصر نحن وإياهم لدفع الإلحاد عنه ـ كما ندفع الإلحاد عن ديننا الذي هو الدين الوحيد الذي يقبله الله من الناس..

٥. إن الله سبحانه لا يوجهنا هذا التوجيه، ولا يقبل منا هذا الاعتراف، ولا يغفر لنا هذا التناصر، ولا التصور الذي ينبعث التناصر منه، لأننا حينئذ نقرر لأنفسنا غير ما يقرر؛ ونختار في أمرنا غير ما يختار؛ ونعترف بعقائد محرفة أنها (دين) إلهي، يجتمع معنا في آصرة الدين الإلهي.. والله يقول: إنهم ليسوا على شيء حتى يقيموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم.. وهم لا يفعلون! والذين يقولون: إنهم مسلمون ـ ولا يقيمون ما أنزل إليهم من ربهم ـ هم كأهل الكتاب هؤلاء، ليسوا على شيء كذلك، فهذه كلمة الله عن أهل أي كتاب لا يقيمونه في نفوسهم وفي حياتهم سواء، والذي يريد أن يكون مسلما يجب عليه ـ بعد إقامة كتاب الله في نفسه وفي حياته ـ أن يواجه الذين لا يقيمونه بأنهم ليسوا على شيء حتى يقيموه، وأن دعواهم أنهم على دين، يردها عليهم رب الدين، فالمفاصلة في هذا الأمر واجبة؛ ودعوتهم إلى (الإسلام) من جديد هي واجب (المسلم) الذي أقام كتاب الله في نفسه وفي حياته.

٦. فدعوى الإسلام باللسان أو بالوراثة دعوى لا تفيد إسلاما، ولا تحقق إيمانا، ولا تعطي صاحبها صفة التدين بدين الله، في أي ملة، وفي أي زمان! وبعد أن يستجيب هؤلاء أو أولئك؛ ويقيموا كتاب الله في حياتهم؛ يملك (المسلم) أن يتناصر معهم في دفع غائلة الإلحاد والملحدين، عن (الدين) وعن (المتدينين).. فأما قبل ذلك فهو عبث؛ وهو تمييع، يقوم به خادع أو مخدوع! إن دين الله ليس راية ولا شعارا

ولا وراثة! إن دين الله حقيقة تتمثل في الضمير وفي الحياة سواء، تتمثل في عقيدة تعمر القلب، وشعائر تقام للتعبد، ونظام يصرف الحياة.. ولا يقوم دين الله إلا في هذا الكل المتكامل؛ ولا يكون الناس على دين الله إلا وهذا الكل المتكامل متمثل في نفوسهم وفي حياتهم.. وكل اعتبار غير هذا الاعتبار تمييع للعقيدة، وخداع للضمير؛ لا يقدم عليه (مسلم) نظيف الضمير! وعلى (المسلم) أن يجهر بهذه الحقيقة؛ ويفاصل الناس كلهم على أساسها؛ ولا عليه مما ينشأ عن هذه المفاصلة، والله هو العاصم، والله لا يهدي القوم الكافرين.

٧. وصاحب الدعوة لا يكون قد بلغ عن الله؛ ولا يكون قد أقام الحجة لله على الناس، إلا إذا أبلغهم حقيقة الدعوة كاملة؛ ووصف لهم ما هم عليه كما هو في حقيقته، بلا مجاملة ولا مداهنة.. فهو قد يؤذيهم إن لم يبين لهم أنهم ليسوا على شيء وأن ما هم عليه باطل كله من أساسه، وأنه هو يدعوهم إلى شيء آخر تماما غير ما هم عليه.. يدعوهم إلى نقلة بعيدة، ورحلة طويلة، وتغيير أساسي في تصوراتهم وفي أوضاعهم وفي نظامهم وفي أخلاقهم.. فالناس يجب أن يعرفوا من الداعية أين هم من الحق الذي يدعوهم إليه.. ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾

٨. وحين يجمجم صاحب الدعوة ويتمتم ولا يبين عن الفارق الأساسي بين واقع الناس من الباطل وبين ما يدعوهم إليه من الحق، وعن الفاصل الحاسم بين حقه وباطلهم.. حين يفعل صاحب الدعوة هذا ـ مراعاة للظروف والملابسات، وحذرا من مواجهة واقع الناس الذي يملأ عليهم حياتهم وأفكارهم وتصوراتهم ـ فإنه يكون قد خدعهم وآذاهم، لأنه لم يعرّفهم حقيقة المطلوب منهم كله، وذلك فوق أنه يكون لم يبلغ ما كلفه الله تبليغه!

٩. إن التلطف في دعوة الناس إلى الله، ينبغي أن يكون في الأسلوب الذي يبلغ به الداعية، لا في الحقيقة التي يبلغهم إياها.. إن الحقيقة يجب أن تبلغ إليهم كاملة، أما الأسلوب فيتبع المقتضيات القائمة، ويرتكز على قاعدة الحكمة والموعظة الحسنة..

١٠. ولقد ينظر بعضنا اليوم ـ مثلا ـ فيرى أن أهل الكتاب هم أصحاب الكثرة العددية وأصحاب القوة المادية، وينظر فيرى أصحاب الوثنيات المختلفة يعدون بمئات الملايين في الأرض، وهم أصحاب كلمة مسموعة، في الشئون الدولية، وينظر فيرى أصحاب المذاهب المادية أصحاب أعداد ضخمة

وأصحاب قوة مدمرة، وينظر فيرى الذين يقولون: إنهم مسلمون ليسوا على شيء لأنهم لا يقيمون كتاب الله المنزل إليهم.. فيتعاظمه الأمر، ويستكثر أن يواجه هذه البشرية الضالة كلها بكلمة الحق الفاصلة، ويرى عدم الجدوى في أن يبلغ الجميع أنهم ليسوا على شيء وأن يبين لهم (الدين) الحق! وليس هذا هو الطريق.. إن الجاهلية هي الجاهلية ـ ولو عمت أهل الأرض جميعا ـ وواقع الناس كله ليس بشيء ما لم يقم على دين الله الحق، وواجب صاحب الدعوة هو واجبه لا تغيره كثرة الضلّال؛ ولا ضخامة الباطل.. فالباطل ركام.. وكما بدأت الدعوة الأولى: بتبليغ أهل الأرض قاطبة: أنهم ليسوا على شيء.، كذلك ينبغي أن تستأنف.. وقد استدار الزمان كهيئة يوم بعث الله رسوله ﷺ وناداه: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾

١١. وينتهي هذا المقطع بالبيان الأخير عن (الدين) الذي يقبله الله من الناس، أيا كان وصفهم وعنوانهم وما كانوا عليه قبل بعثة النبي الأخير؛ والذي يلتقي عليه المتفرقون في الملل والنحل فيما غبر من التاريخ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَى مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾، والذين آمنوا هم المسلمون، والذين هادوا هم اليهود، والصابئون هم في الغالب تلك الفئة التي تركت عبادة الأوثان قبل بعثة الرسول ﷺ وعبدت الله وحده على غير نحلة معينة، ومنهم من العرب أفراد معدودون، والنصارى هم أتباع المسيح ـ عليه السّلام.

١٢. والآية تقرر أنه أيا كانت النحلة، فإن من آمنوا بالله واليوم الآخر وعملوا صالحا ـ ومفهوم ضمنا في هذا الموضع، وتصريحا في مواضع أخرى أنهم فعلوا ذلك على حسب ما جاء به الرسول الأخير ـ فقد نجوا: ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾، ولا عليهم مما كانوا فيه قبل ذلك؛ ولا مما يحملون من أسماء وعنوانات.، فالمهم هو العنوان الأخير.

١٣. وهذا الذي نقرر أنه مفهوم من الآية ضمنا يعتبر من (المعلوم من الدين بالضرورة)، فمن بديهيات هذه العقيدة، أن محمدا ﷺ هو خاتم النبيين، وأنه أرسل إلى البشر كافة، وأن الناس جميعا ـ على اختلاف مللهم ونحلهم وأديانهم واعتقاداتهم وأجناسهم وأوطانهم ـ مدعوون إلى الإيمان بما جاء به، وفق ما جاء به؛ في عمومه وفي تفصيلاته، وأن من لا يؤمن به رسولا، ولا يؤمن بما جاء به إجمالا وتفصيلا، فهو

ضال لا يقبل الله منه ما كان عليه من دين قبل هذا الدين، ولا يدخل في مضمون قوله تعالى: ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾

١٤. وهذه هي الحقيقة الأساسية (المعلومة من الدين بالضرورة) التي لا يجوز للمسلم الحق أن يجمجم فيها أو يتمتم؛ أمام ضخامة الواقع الجاهلي الذي تعيش فيه البشرية، والتي لا يجوز للمسلم أن يغفلها في إقامة علاقاته بأهل الأرض قاطبة؛ من أصحاب الملل والنحل، فلا يحمله ضغط الواقع الجاهلي على اعتبار أحد من أصحاب هذه الملل والنحل على (دين) يرضاه الله؛ ويصلح أن يتناصر معه فيه ويتولاه! إنما الله هو الولي ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّ اللهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾ مهما تكن ظواهر الأمور.. ومن آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا ـ على أساس هذا الدين الذي هو وحده الدين ـ فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون.. لا خوف عليهم في الدنيا ولا في الآخرة.. لا خوف عليهم من قوى الباطل والجاهلية المتراكمة، ولا خوف عليهم من أنفسهم المؤمنة العاملة الصالحة.. ولا هم يحزنون.

الخطيب:

ذكر عبد الكريم الخطيب (ت ١٣٩٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. صلة هذه الآية بما قبلها، هي أن الرسول الكريم، وقد بلّغ رسالة ربّه، وأدّاها إلى عباد الله فاستجاب لها الناس، ودخلوا في دين الله أفواجا.. وأن أهل الكتاب ـ من اليهود والنصارى ـ ما زالوا على موقفهم من تلك الدعوة، لم يستجيبوا لها ـ في جملتهم ـ ولم ينتفعوا بما حملت إليهم من إلفاتهم إلى الكتب التي بين أيديهم، وتنبيههم إلى ما أدخلوه عليها من تحريف وتبديل، وما كتموه من حق فيها، وما تأوّلوه من أحكامها حسب أهوائهم ـ أما وذلك هو حال أهل الكتاب إلى هذا اليوم الأخير من أيام الدعوة الإسلامية، فقد جاء أمر الله سبحانه إلى النبي الكريم يدعوهم دعوة أخيرة، إلى أن يصححوا موقفهم من التوراة والإنجيل، وما أنزل إليهم من ربّهم على يد أنبيائهم، من أسفار ضمّوها إلى التوراة، وجعلوها جميعا كتابهم المقدس.. ذلك أنهم إذا لم يستجيبوا للنبيّ ولم ينتفعوا بما بين يديه من كتاب كريم، فلا أقلّ من أن يستجيبوا لما في أيديهم هم، وأن يقيموه على وجهه الصحيح، من غير تحريف، أو تأويل هو أشد خطرا من

---

(١) التفسير القرآني للقرآن: ٣/١١٤٣.

التحريف ـ فإن لم يفعلوا فهم ليسوا على شيء من الدين.. إنهم ـ والحال كذلك ـ أسوأ حالا، وشرّ مكانا، من الكفار والمشركين، إذ كانوا أهل كتاب فضيعوه، وأصحاب دين فأفسدوه.. وعلى هذا فهم يحسبون أنهم أهل كتاب وأهل دين، وما هم ـ في الواقع ـ بأهل كتاب، ولا بأصحاب دين.

٢. ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أنزل إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾ هو حكم قاطع مؤكّد، بأنهم لن يصلحوا ما أفسدوا، ولن يستقيموا على التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربّهم، وإلا لكانت لهم رجعة إلى الدعوة الإسلامية، والتصالح معها ومع النبيّ الذي حملها.. ولكن أمرهم على غير هذا.. إنهم لن يزدادوا بما يسمعون من آيات الله التي تنزل على ﴿مُحَمَّدٌ﴾ إلا كفرا، وإلا عنادا وطغيانا..

٣. ﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ هو استخفاف بأمر أهل الكتاب ـ وصرف النظر عنهم، وتركهم في ضلالهم يعمهون، ليلقوا المصير السيّئ الذي يلقّاه المحادّون لله، الكافرون به، غير مأسوف عليهم.. إذ كان ذلك من صنع أيديهم، وما جنته عليهم أنفسهم، وقد نصحوا فلم ينتصحوا، وأنذروا فلم تغنهم النّذر.. ومن كان هذا شأنه فلا يستحق أن يأسى (أي يحزن) عليه أحد.

٤. ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمنوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَى مَنْ آمَنَ بِالله وَالْيَوْمِ الآخر وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ الصابئون: هم الذين عبدوا غير الله.. يقال صبأ فلان أي مال، فالصابئون، قد مالوا عن دعوة الفطرة التي فطر الله الناس عليها، واتبعوا أهواءهم.

٥. في قوله تعالى: ﴿وَالصَّابِئُونَ﴾ بالرفع، بعد قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمنوا وَالَّذِينَ هَادُوا﴾ ما يشعر باختلاف النسق في النظم، إذ عطف المرفوع على المنصوب.. وكان نسق النظم يقضي بأن يجيء هكذا: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمنوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى﴾.. كما تقرر ذلك قواعد النحو، ومقولات النحاة، وهذا أمر قد وقف عنده المفسّرون، وأكثروا وجوه القول فيه، والتخريج له، ليقيموا الآية الكريمة على أصول النحو وقواعده:

أ. فقال قائل: إنه بعد أن طال الفصل بين إنّ وواو العطف في ﴿وَالصَّابِئُونَ﴾ ضعف عمل إن فيما بعد الواو، وصارت الواو أشبه بواو استئناف..!

ب. وقال آخر: إن (الواو) واو استئناف فعلا، وذلك باعتبار أنها متأخرة على قوله تعالى: ﴿وَالنَّصَارَى﴾.. أي أن المعنى هكذا: إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى من آمن منهم بالله واليوم

الآخر وعمل صالحا فلهم أجرهم عند ربهم، والصابئون كذلك!

ج. وهذه التخريجات، وإن أرضت النحاة، وسوّت حسابهم مع قواعد النحو، إلا أنها تذهب بكثير من روعة النظم القرآني وتخفت كثيرا من أضواء إعجازه، والذي نراه في الآية الكريمة، ونطمئن إليه، هو أن ﴿وَالصَّابِئُونَ﴾ معطوفة على الذين آمنوا، والذين هادوا، كما أن لفظ ﴿النَّصَارَى﴾ معطوف عليها، وأنها جميعا واقعة تحت حكم إنّ المؤكدة للخبر، الواقع على هؤلاء المذكورين جميعا! ولكن كيف هذا؟ وعلى أي وجه كان؟ نقرأ الآية الكريمة مرة أخرى، فنرى أربع طوائف من الناس، يقع عليها حكم واحد.، أولا: الذين آمنوا.. ثانيا: والذين هادوا.. ثالثا: والذين صبئوا.. رابعا: والذين تنصّروا ولا يظهر الإعراب في أية لفظة من هذه الألفاظ الأربع إلا في لفظة (الصابئون).. وقد ذكر القرآن الكريم الذين آمنوا والذين هادوا، في صيغة الموصول وصلته، ولو ذكر (الذين صبئوا) بهذه الصيغة لوقع التكرار الذي يثير اضطرابا في النظم، الأمر الذي يترفع عنه كلام الله.. ولهذا، عدل النظم القرآني عن الذين (صبئوا) إلى قوله تعالى: ﴿وَالصَّابِئُونَ﴾.. و(ال) في ﴿وَالصَّابِئُونَ﴾ يحتمل معنى الاسم الموصول، ﴿الَّذِينَ﴾ وصابئون خبر لمبتدإ محذوف تقديره هم، أي والذين هم (صابئون) ومثلها ﴿وَالنَّصَارَى﴾ أي وكذلك الذين هم نصارى.. وقد كثر استعمال (ال) بمعنى الاسم الموصول، إذا اتصلت باسم مشتق، وهذا الاستعمال عربي فصيح.. يقول ابن هشام صاحب (مغنى اللبيب) في (ال) إنها تأتى على ثلاثة أوجه، أحدها: أن تكون اسما موصولا، بمعنى الذي وفروعه، وهي الداخلة على أسماء الفاعلين والمفعولين) ومن هذا قوله تعالى: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ﴾ فقد دخلت الفاء في الخبر، على تقدير: الذي يزنى والتي تزنى، فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة.. فذلك الشأن في خبر الاسم الموصول دائما، مثل قوله تعالى: (وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفاحِشَةَ مِنْ نِسائِكُمْ وَالَّذانِ يَأْتِيانِها مِنْكُمْ فَآذُوهُما)، ومعنى الآية الكريمة: أن الذين آمنوا، والذين اختلط إيمانهم بضلال أو فسق وهم الذين هادوا، والذين هم شرك ظاهر وهم (الصابئون) و﴿النَّصَارَى﴾ ـ هؤلاء جميعا هم عباد الله، وصنعة يده، وأنهم مدعوون إلى الإيمان به، والاستقامة على أوامره ونواهيه، فمن استجاب منهم للهّ، وآمن به وعمل صالحا، فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون.. فالإيمان بالله والعمل الصالح هو الذي يقرب الإنسان من ربه، ويدنيه من رحمته، ويؤهله لجناته، وليس شيء غير ذلك يتوسل به إلى الله، وإلى مرضاته.. من جاه أو حسب أو سلطان.. ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ

أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣]

ابن عاشور:

ذكر محمد الطاهر بن عاشور (ت ١٣٩٣ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[1]:

١. ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾ هذا الّذي أمر رسول الله ﷺ أن يقوله لأهل الكتاب هو من جملة ما ثبّته الله على تبليغه بقوله: ﴿بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾، فقد كان رسول الله يحبّ تألّف أهل الكتاب وربّما كان يثقل عليه أن يجابهم بمثل هذا ولكن الله يقول الحقّ، فيجوز أن تكون جملة ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ﴾ بيانا لجملة ﴿بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ [المائدة: ٦٧]، ويجوز أن تكون استئنافا ابتدائيا بمناسبة قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ [المائدة: ٦٧]

٢. والمقصود بأهل الكتاب اليهود والنّصارى جميعا؛ فأمّا اليهود فلأنّهم مأمورون بإقامة الأحكام الّتي لم تنسخ من التوراة، وبالإيمان بالإنجيل إلى زمن البعثة المحمّديّة، وبإقامة أحكام القرآن المهيمن على الكتاب كلّه؛ وأمّا النّصارى فلأنّهم أعرضوا عن بشارات الإنجيل بمجيء الرسول من بعد عيسى ـ عليهما السّلام ـ.

٣. ومعنى ﴿لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ﴾ نفي أن يكونوا متّصفين بشيء من التّدين والتّقوى لأنّ خوض الرّسول لا يكون إلّا في أمر الدّين والهدى والتّقوى، فوقع هنا حذف صفة ﴿شَيْءٍ﴾ يدلّ عليها المقام على نحو ما في قوله تعالى: ﴿فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ [الكهف: ٧٩]، أي كلّ سفينة صالحة، أو غير معيبة.

٤. والشيء اسم لكلّ موجود، فهو اسم متوغّل في التنكير صادق بالقليل والكثير، ويبيّنه السّياق أو القرائن، فالمراد هنا شيء من أمور الكتاب، ولمّا وقع في سياق النّفي في هذه الآية استفيد نفي أن يكون لهم أقلّ حظّ من الدّين والتّقوى ما داموا لم يبلغوا الغاية الّتي ذكرت، وهي أن يقيموا التّوراة والإنجيل والقرآن، والمقصود نفي أن يكون لهم حظّ معتدّ به عند الله، ومثل هذا النّفي على تقدير الاعتداد شائع في الكلام، قال عبّاس بن مرداس:

---

(١) التحرير والتنوير: ١٥٩/٥.

وقد كنت في الحرب ذا تدرإ فلم أعط شيئا ولم أمنع

أي لم أعط شيئا كافيا، بقرينة قوله: ولم أمنع، ويقولون: هذا ليس بشيء مع أنّه شيء لا محالة ومشار إليه ولكنّهم يريدون أنّه غير معتدّ به، ومنه ما وقع في الحديث الصّحيح أنّ رسول الله ﷺ سئل عن الكهّان، فقال: (ليسوا بشيء، وقد شاكل هذا النّفي على معنى الاعتداد النّفي المتقدّم في قوله: ﴿وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾، أي فما بلّغت تبليغا معتدّا به عند الله.

٥. والمقصود من الآية إنما هو إقامة التّوراة والإنجيل عند مجيء القرآن بالاعتراف بما في التّوراة والإنجيل من التبشير بمحمد ﷺ حتّى يؤمنوا به وبما أنزل عليه، وقد أومأت هذه الآية إلى توغّل اليهود في مجانبة الهدى لأنّهم قد عطّلوا إقامة التّوراة منذ عصور قبل عيسى، وعطّلوا إقامة الإنجيل إذ أنكروه، وأنكروا من جاء به، ثمّ أنكروا نبوءة محمّد ﷺ فلم يقيموا ما أنزل إليهم من ربّهم، والكلام على إقامة التّوراة والإنجيل مضى عند قوله آنفا: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾ [المائدة: ٦٦] إلخ.

٦. وقد فنّدت هذه الآية مزاعم اليهود أنّهم على التمسّك بالتّوراة، وكانوا يزعمون أنّهم على هدى ما تمسّكوا بالتّوراة ولا يتمسّكون بغيرها، وعن ابن عبّاس أنّهم جاءوا للنّبي ﷺ فقالوا: ألست تقرّ أنّ التّوراة حقّ، قال: (بلى)، قالوا: فإنّا نؤمن بها ولا نؤمن بما عداها، فنزلت هذه الآية، وليس له سند قوي، وقد قال بعض النّصارى للرّسول ﷺ في شأن تمسّكهم بالإنجيل مثل قول بعض اليهود، كما في قصة إسلام عدي بن حاتم، وكما في مجادلة بعض وفد نجران.

٧. وقوله: ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾، أي من أهل الكتاب، وذلك إمّا بباعث الحسد على مجيء هذا الدّين ونزول القرآن ناسخا لدينهم، وإمّا بما في بعض آيات القرآن من قوارعهم وتفنيد مزاعمهم، ولم يزل الكثير منهم إذا ذكروا الإسلام حتّى في المباحث التّاريخيّة والمدنيّة يحتدّون على مدنيّة الإسلام ويقلبون الحقائق ويتميّزون غيظا ومكابرة حتّى ترى العالم المشهود له منهم يتصاغر ويتسفّل إلى دركات التبال والتّجاهل، إلّا قليلا ممّن اتّخذ الإنصاف شعارا، وتباعد عن أن يرمى بسوء الفهم تجنّبا وحذارا.

٨. وقد سمّى الله ما يعترضهم من الشجا في حلوقهم بهذا الدّين ﴿طُغْيَانًا﴾ لأنّ الطغيان هو الغلوّ في الظلم واقتحام المكابرة مع عدم الاكتراث بلوم اللّائمين من أهل اليقين.

٩. وسلّى الله رسوله ﷺ بقوله: ﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾؛ فالفاء للفصيحة لتتمّ التّسلية، لأنّ رحمة الرسول بالخلق تحزنه ممّا بلغ منهم من زيادة الطّغيان والكفر، فنبّهت فاء الفصيحة على أنّهم ما بلغوا إلّا من جرّاء الحسد للرسول فحقيق أن لا يحزن لهم، والأسى الحزن والأسف، وفعله كفرح.

١٠. وذكر لفظ ﴿الْقَوْمَ﴾ وأتبع بوصف ﴿الْكَافِرِينَ﴾ ليدلّ على أنّ المراد بالكافرين هم الّذين صار الكفر لهم سجيّة وصفة تتقوّم بها قوميتهم، ولو لم يذكر القوم وقال: (فلا تأس على الكافرين) لكان بمنزلة اللّقب لهم فلا يشعر بالتّوصيف، فكان صادقا بمن كان الكفر غير راسخ فيه بل هو في حيرة وتردّد، فذلك مرجوّ إيمانه.

١١. ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَى مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ موقع هذه الآية دقيق، ومعناها أدقّ، وإعرابها تابع لدقّة الأمرين، فموقعها أدقّ من موقع نظيرتها المتقدّمة في سورة البقرة [٦٢]، فلم يكن ما تقدّم من البيان في نظيرتها بمغن عن بيان ما يختصّ بموقع هذه، ومعناها يزيد دقّة على معنى نظيرتها تبعا لدقّة موقع هذه.

١٢. وإعرابها يتعقّد إشكاله بوقوع قوله: ﴿وَالصَّابِئُونَ﴾ بحالة رفع بالواو في حين أنّه معطوف على اسم ﴿إِنَّ﴾ في ظاهر الكلام، فحقّ علينا أن نخصّها من البيان بما لم يسبق لنا مثله في نظيرتها[١]:

أ. ولنبدأ بموقعها فإنّه معقد معناها: فاعلم أنّ هذه الجملة يجوز أن تكون استئنافا بيانيا ناشئا على تقدير سؤال يخطر في نفس السامع لقوله: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾ [المائدة: ٦٨] فيسأل سائل عن حال من انقرضوا من أهل الكتاب قبل مجيء الإسلام: هل هم على شيء أو ليسوا على شيء وهل نفعهم اتّباع دينهم أيّامئذ؛ فوقع قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا﴾ الآية جوابا لهذا السؤال المقدّر، والمراد بالّذين آمنوا المؤمنون بالله وبمحمّد ﷺ أي المسلمون، وإنّما المقصود من الإخبار الّذين هادوا والصابون والنّصارى، وأمّا التعرّض لذكر الّذين آمنوا فلاهتمام بهم سنبيّنه قريبا، ويجوز أن تكون هذه الجملة مؤكّدة لجملة ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا﴾ [المائدة: ٦٥] إلخ، فبعد أن أتبعت تلك الجملة بما أتبعت به من الجمل عاد الكلام بما يفيد معنى تلك الجملة تأكيدا

(١) تقسيم الفروع هنا ليس منهجيا، وإنما من باب التبسيط فقط

للوعد، ووصلا لربط الكلام، وليلحق بأهل الكتاب الصابئون، وليظهر الاهتمام بذكر حال المسلمين في جنّات النّعيم، فالتّصدير بذكر الّذين آمنوا في طالعة المعدودين إدماج للتنويه بالمسلمين في هذه المناسبة، لأنّ المسلمين هم المثال الصّالح في كمال الإيمان والتحرّز عن الغرور وعن تسرّب مسارب الشرك إلى عقائدهم (كما بشّر بذلك النّبي ﷺ في خطبة حجّة الوداع بقوله: (إنّ الشيطان قد يئس أن يعبد من دون الله في أرضكم هذه) فكان المسلمون، لأنّهم الأوحدون في الإيمان بالله واليوم الآخر والعمل الصّالح، أوّلين في هذا الفضل.

ب. وأمّا معنى الآية فافتتاحها بحرف ﴿إِنَّ﴾ هنا للاهتمام بالخبر لعروّ المقام عن إرادة ردّ إنكار أو تردّد في الحكم أو تنزيل غير المتردّد منزلة المتردّد.

ج. وقد تحيّر النّاظرون في الإخبار عن جميع المذكورين بقوله: ﴿مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾، إذ من جملة المذكورين المؤمنون، وهل الإيمان إلّا بالله واليوم الآخر؟ وذهب النّاظرون في تأويله مذاهب: فقيل: أريد بالّذين آمنوا من آمنوا بألسنتهم دون قلوبهم، وهم المنافقون، وقيل: أريد بمن آمن من دام على إيمانه ولم يرتد، وقيل: غير ذلك، والوجه عندي أنّ المراد بالّذين آمنوا أصحاب الوصف المعروف بالإيمان واشتهر به المسلمون، ولا يكون إلّا بالقلب واللّسان لأنّ هذا الكلام وعد بجزاء الله تعالى، فهو راجع إلى علم الله، والله يعلم المؤمن الحقّ والمتظاهر بالإيمان نفاقا.

د. فالّذي أراه أن يجعل خبر (إنّ) محذوفا، وحذف خبر (إنّ) وارد في الكلام الفصيح غير قليل، كما ذكر سيبويه في (كتابه)، وقد دلّ على الخبر ما ذكر بعده من قوله: ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ إلخ، ويكون قوله: ﴿وَالَّذِينَ هَادُوا﴾ عطف جملة على جملة، فيجعل ﴿الَّذِينَ هَادُوا﴾ مبتدأ، ولذلك حقّ رفع ما عطف عليه، وهو ﴿وَالصَّابِئُونَ﴾، وهذا أولى من جعل ﴿وَالصَّابِئُونَ﴾ مبدأ الجملة وتقدير خبر له، أي والصابون كذلك، كما ذهب إليه الأكثرون لأنّ ذلك يفضي إلى اختلاف المتعاطفات في الحكم وتشتيتها مع إمكان التفصّي عن ذلك، ويكون قوله: ﴿مَنْ آمَنَ بِاللهِ﴾ مبتدأ ثانيا، وتكون (من) موصولة، والرّابط للجملة بالّتي قبلها محذوفا، أي من آمن منهم، وجملة ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ خبرا عن (من) الموصولة، واقترانها بالفاء لأنّ الموصول شبيه بالشرط، وذلك كثير في الكلام، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ﴾ [البروج: ١٠] الآية، ووجود الفاء فيه يعيّن كونه خبرا عن (من) الموصولة

وليس خبر ـ إنّ ـ ﴿فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ على عكس قول ضابي بن الحارث:

ومن يك أمسى بالمدينة رحله   فإنّي وقيّار بها لغريب

فإنّ وجود لام الابتداء في قوله: (لغريب) عيّن أنّه خبر (إنّ) وتقدير خبر عن قيّار، فلا ينظّر به قوله تعالى: ﴿وَالصَّابِئُونَ﴾

هـ. ومعنى ﴿مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ من آمن ودام، وهم الّذين لم يغيّروا أديانهم بالإشراك وإنكار البعث؛ فإنّ كثيرا من اليهود خلطوا أمور الشرك بأديانهم وعبدوا الآلهة كما تقول التّوراة، ومنهم من جعل عزيرا ابنا للهّ، وإنّ النّصارى ألّهوا عيسى وعبدوه، والصابئة عبدوا الكواكب بعد أن كانوا على دين له كتاب، وقد مضى بيان دينهم في تفسير نظير هذه الآية من سورة البقرة [٦٢]

و. ثمّ إنّ اليهود والنّصارى قد أحدثوا في عقيدتهم من الغرور في نجاتهم من عذاب الآخرة بقولهم: ﴿نَحْنُ أَبْنَاءُ اللهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾ [المائدة: ١٨]، وقولهم ﴿لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً﴾ [البقرة: ٨٠]، وقول النّصارى: إنّ عيسى قد كفّر خطايا البشر بما تحمّله من عذاب الطّعن والإهانة والصّلب والقتل، فصاروا بمنزلة من لا يؤمن باليوم الآخر، لأنّهم عطّلوا الجزاء وهو الحكمة الّتي قدّر البعث لتحقيقها.

ز. وجمهور المفسّرين جعلوا قوله: ﴿وَالصَّابِئُونَ﴾ مبتدأ وجعلوه مقدّما من وتأخير وقدّروا له خبرا محذوفا لدلالة خبر (إنّ) عليه، وأنّ أصل النظم: أنّ الّذين آمنوا والّذين هادوا والنّصارى لهم أجرهم إلخ، والصابون كذلك، جعلوه كقول ضابي بن الحارث: (فإنّي وقيّار بها لغريب) وبعض المفسّرين قدّروا تقادير أخرى أنهاها الألوسي إلى خمسة، والّذي سلكناه أوضح وأجرى على أسلوب النّظم وأليق بمعنى هذه الآية.

ح. وبعد فممّا يجب أن يوقن به أنّ هذا اللّفظ كذلك نزل، وكذلك نطق به النّبي ﷺ، وكذلك تلقّاه المسلمون منه وقرءوه، وكتب في المصاحف، وهم عرب خلّص، فكان لنا أصلا نتعرّف منه أسلوبا من أساليب استعمال العرب في العطف وإن كان استعمالا غير شائع لكنّه من الفصاحة والإيجاز بمكان، وذلك أنّ من الشائع في الكلام أنّه إذا أتي بكلام موكّد بحرف (إنّ) وأتي باسم إنّ وخبرها وأريد أن يعطفوا على اسمها معطوفا هو غريب عن ذلك الحكم جيء بالمعطوف الغريب مرفوعا ليدلّوا بذلك على أنّهم أرادوا عطف الجمل لا عطف المفردات، فيقدّر السامع خبرا يقدّره بحسب سياق الكلام، ومن ذلك قوله تعالى:

﴿أَنَّ اللهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ﴾ [التوبة: ٣]، أي ورسوله كذلك، فإنّ براءته منهم في حال كونه من ذي نسبهم وصهرهم أمر كالغريب ليظهر منه أنّ آصرة الدّين أعظم من جميع تلك الأواصر، وكذلك هذا المعطوف هنا لّما كان الصابون أبعد عن الهدى من اليهود والنّصارى في حال الجاهلية قبل مجيء الإسلام، لأنّهم التزموا عبادة الكواكب، وكانوا مع ذلك تحقّ لهم النّجاة إن آمنوا بالله واليوم الآخر وعملوا صالحا، كان الإتيان بلفظهم مرفوعا تنبيها على ذلك، لكن كان الجري على الغالب يقتضي أن لا يؤتى بهذا المعطوف مرفوعا إلّا بعد أن تستوفي (إنّ) خبرها، إنّما كان الغالب في كلام العرب أن يؤتى بالاسم المقصود به هذا الحكم مؤخّرا، فأمّا تقديمه كما في هذه الآية فقد يتراءى للنّاصر أنّه ينافي المقصد الّذي لأجله خولف حكم إعرابه، ولكن هذا أيضا استعمال عزيز، وهو أن يجمع بين مقتضيي حالين، وهما للدّلالة على غرابة المخبر عنه في هذا الحكم، والتّنبيه على تعجيل الإعلام بهذا الخبر فإنّ الصابئين يكادون ييأسون من هذا الحكم أو ييأس منهم من يسمع الحكم على المسلمين واليهود، فنبّه الكلّ على أنّ عفو الله عظيم لا يضيق عن شمولهم، فهذا موجب التّقديم مع الرّفع، ولو لم يقدّم ما حصل ذلك الاعتبار، كما أنّه لو لم يرفع لصار معطوفا على اسم (إنّ) فلم يكن عطفه عطف جملة، ثمّ عقّب ذلك كلّه بقوله: ﴿وَعَمِلَ صَالِحًا﴾، وهو المقصود بالذّات من ربط السلامة من الخوف والحزن، به، فهو قيد في المذكورين كلّهم من المسلمين وغيرهم، وأوّل الأعمال الصّالحة تصديق الرّسول والإيمان بالقرآن، ثم يأتي امتثال الأوامر واجتناب المنهيات كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ﴾ ـ إلى قوله ـ ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [البلد: ١٢ ـ ١٧]

أبو زهرة:

ذكر محمد أبو زهرة (ت ١٣٩٤ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[1]:

١. إذا كان الكفر قد جمع الكافرين فإنه لا يفرق بينهم كون بعضهم كتابيا، وبعضهم أميين، فلا فضل للكتابيين على الوثنيين في الكفر، ولا شرف بكونهم أهل كتاب ما داموا لم يؤمنوا به ولم يقيموه، ولذا قال تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ كان أهل الكتاب في البلاد العربية يستعلون على من فيها من أهل الوثنية، لأن عندهم علما من السماء، بأنه

(١) زهرة التفاسير: ٥/٢٢٩٢.

سيكون منهم نبي ينصرهم ويؤيدهم، ولأنهم يتبعون نبيا من الأنبياء، وأنه كما حكى الله سبحانه وتعالى عنهم، إذ قال تعالت كلماته: ﴿وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة]، وكانوا يسمون العرب أميين توهينا لشأنهم، ولبيان شرفهم بالعلم عليهم، فأمر الله تعالى نبيه أن يبين لهم أنهم لا يمكن أن يكونوا أعلى شأنا من الوثنيين إلا إذا اتبعوا الكتب التي جاءت لأنبيائهم، والكتاب الذى يخاطبون به وهو القرآن؛ لأن شرفهم وفخارهم بهذا العلم، فلا بد أن يقيموه، ويعطوه حقه، وإلا فهو حجة عليهم، وليس حجة لهم، وهو موضع مؤاخذة، وليس سببا للمفاخرة.

٢. وأمر الله تعالى نبيه بأن يتولى هو خطابهم؛ لأن الجدل والمعاندة كانت منهم له، ومعنى قوله تعالى: ﴿لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا﴾ إنكم معشر أهل الكتاب لستم على شيء مما يعلو به الإنسان من علم أو دين أو خلق أو فضل، حتى تقيموا التوراة والإنجيل، وما أنزل عليكم من ربكم، وهو القرآن؛ لأنكم تعتزون بعلم الكتاب فلا شيء لكم من الاعتزاز والفضل إلا إذا أقمتم ما تعتزون به، فلتنفذوا ما جاء في التوراة والإنجيل والقرآن، وبذلك تحققون السبب، فيتحقق المسبب، وهنا إشارتان بيانيتان:

أ. إحداهما ـ التعبير بقوله تعالى: ﴿لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ﴾ بالتعبير بـ (على) بدل (الباء)، وذلك أن حالتهم كانت حال استعلاء على غيرهم فكان المناسب أن يعبر بحرف الاستعلاء وهو (على)؛ لنفى ذلك الاستعلاء، والتعدية بالباء تفيد أن النفي منصبّ على ذواتهم، وإنما النفي منصب على استعلائهم.

ب. الثانية: التعبير عن القرآن بما أنزل إليكم من ربكم، فلم يقل حتى تقيموا التوراة والإنجيل والقرآن ـ كان فيه تصريح بأنهم مخاطبون به، وأنهم ممن أنزل لأجلهم، وإلى ذلك يشير قوله ﷺ (لو كان موسى حيا ما وسعه إلا أن يؤمن بما جئت به)

٣. ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾ تكلمنا في معنى هذا النص الكريم، وما فيه من توكيد، وذكرنا أن القرآن المنصف لا يحكم على الجميع بالشر، وفيهم أخبار، ولذلك كان حكمه على الكثرة لا على القلة، وإن طغيانهم هو ظلمهم للحقائق، وإفراطهم فيما يطغون به على أهل الإيمان وأشرنا إلى علة ذلك وهي حقدهم، وحسدهم، وأن النعمة تجيء إلى المحسود، فتزيد الحاسد حقدا وضغنا.

٤. سؤال وإشكال: ولكن لم كرر القول هنا وقد ذكر آنفا؟ والجواب: أن كلام اليهود الذى حكاه الله تعالى عنهم كان في جنب الله مما يدل على إيغالهم في الكفر والإنكار، وأنهم حاقدون على النبي ﷺ فلا يزيدهم ما أنزل عليه إلا طغيانا وكفرا، أما هنا فقد جاءت عقب الأمر الجازم بوجوب التبليغ وتعميمه - بالنسبة للموضوع، وبالنسبة للأشخاص فيبين سبحانه لنبيه ﷺ أنه مع التبليغ لا يرجو الإيمان: ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾ [الشورى]

٥. ولذلك قال سبحانه بعد ذلك: ﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ الأسى: الحزن، وحقيقته اتباع الفائت بالغم والألم، والمعنى لا تأس على إصرار الكافرين على كفرهم، ونزول اللعنة والعذاب بهم، لا تتأسف لذلك، لأنك قد بلغت، ولأنه يجب أن تتوقع منهم الكفر والجحود؛ لأن كثيرا منهم لا يزيدهم ما أنزل إليك إلا طغيانا وكفرا، ولأن تبعة الخطيئة عليهم دون غيرهم، ولأن الإيمان والهداية كما يريد الله، لا كما تريد أنت ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [القصص].. اللهم اهدنا للإيمان، واهد المسلمين للإيمان، فلا عزة لهم إلا به، وإنك أنت العزيز الحكيم.

٦. ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَى مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ في الآيات السابقة أشار سبحانه إلى استعلاء اليهود والنصارى لأنهم أهل كتاب جاءت إليهم الرسل بالتعليم والتوجيه فبين سبحانه وتعالى أن الاستعلاء بالإذعان، واتباع ما جاء إليهم والإيمان به، وفى هذه الآية يبين سبحانه وتعالى أن الناس جميعا في النجاة سواء، لا فرق بين يهودي ونصراني وعبدة للكواكب، فالإيمان يجبّ ما قبله، ويسوى بين المؤمنين.

٧. ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَى﴾ في هذا يبين سبحانه أن أساس النجاة وذريعة الثواب، ومنع العقاب الإيمان بالله واليوم الآخر والعمل الصالح واستشعار خشية الله واتقاء عذابه، وإطاعة ما أمر، والانتهاء عما نهى عنه وزجر، ولا ينظر في ذلك إلى سابق ما كانوا يتدينون، ولا إلى ما كانوا ينتحلون من نحل؛ فكما أنه لا تفرقة أمام الله تعالى بالجنسية لا تفرقة أيضا بالنحلة والملة إذا كانوا ينتهون إلى الإيمان بالله واليوم الآخر، ولذلك أكد سبحانه وتعالى أن الذين آمنوا بما جاء به محمد، والذين هادوا أي اليهود، والصابئين والنصارى، من كان منهم يؤمن بالله واليوم الآخر ويعملون صالحا، لا خوف عليهم من عقاب ولا مؤاخذة عليهم فيما فرط من ذنوب إذ الإيمان يجبّ ما قبله، ويمحو ما سبقه مما

ارتكبوا، فهذا النص الكريم كما يفيد التسوية بين النحل السابقة إن استقاموا على الجادة، والتقوا عند منجاة الإيمان يفتح أيضا باب الرجاء، ويقرب التوبة.

٨. وهنا أصناف أربعة هم الذين آمنوا، واليهود، والصابئون، والنصارى:

أ. فالذين آمنوا هم الذين أذعنوا للحق، وآمنوا بما جاء به محمد ﷺ وصدقوه، وأطاعوه، واليهود هم بنو إسرائيل الذين هم شر البرية بأعمالهم إن اقلعوا عنها، فباب الرحمة مفتوح يدخله كل عباد الله تعالى.

ب. والصابئون أو الصابئة طائفة ظهرت في بلاد المشرق، وقد قيل فيها: إنهم يعبدون الكواكب، وبعضهم قال إنهم يقدسونها من غير عبادة، ولا يخرجهم ذلك عن الشرك؛ لأن تقديس ما لا سبب لتقديسه نوع من العبادة، وإن لم تكن بالصلاة، وقد حدث أن ادعوا الدخول في النصرانية في عهد المأمون، فإنه التقى بهم في إحدى الغزوات، فسألهم من أي أهل الذمة أنتم؟ فقالوا: صابئة، فقال: لا بد أن تدخلوا في دين من الأديان السماوية أو أخرجكم من ديار الإسلام؛ لأنه لا عقد ذمة إلا مع أهل دين سماوي (وذلك أحد الآراء الفقهية وأشهرها) فاختار الأكثرون منهم أن ينتحلوا اسم النصرانية، ومنهم من بقى على عبادة الكواكب، وإن أظهروا غير ما يعتقدون، ومنهم من خلط بين النصرانية، وما بقى لهم من بقايا تقديس الكواكب، وهم أكتم الناس لعقائدهم، ولا تزال بقية باقية منهم في تخوم العراق، ولا يستطيع أحد أن يجزم بحقيقة اعتقادهم.

ج. والنصارى، وهم طوائف مختلفة، تجمعهم ألوهية المسيح، والتثليث، ومتفرقون فيما وراء ذلك ما بين كاثوليك أو ملكانية، وأرثوذكس أقباط، وطوائف غربية، ونساطرة ومارون، وغيرهم.

٩. والنص الكريم كما تلونا هو هكذا:

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا والَّذِينَ هادُوا والصَّابِئُونَ والنَّصارى

ونرى أن (الصابئون) مرفوعة، وظاهر السياق أن تكون بالنصب، فتكون (والصابئين) وهذه قراءة ابن كثير، وقراءة الآخرين بالرفع، ولذلك تكلم المفسرون في هذه القراءة التي يقرأ بها الأكثرون، وقد خاضوا في ذلك لأجل التخريج النحوى، وليس لأحد أن يخطئ القراءة من الناحية اللغوية، إلا أن يكون كجهلة بعض المستشرقين الذين يحسبون أن قواعد النحو حاكمة على القرآن، وذلك من فساد النظر؛ لأن القرآن فوق النحو، إذ النحو يستقى منه، وهو لا يخضع لما يقرره النحويون، بل هم الذين يخضعون

له، وأن القرآن قد ورد بذلك فهو قد دل على أن العطف على اسم إن بالرفع جائز، ولو كان الخبر متأخرا، ولا يحتاج إلى شاهد سواه، وأنه هو الشاهد الأول على سلامة التعبير من الوجهة العربية، ومع ذلك قد جاءت شواهد من كلام العرب بوجوب رفع المعطوف على اسم (إن) قبل وجود الخبر، فقد قال ضابئ بن الحارث:

فمن يك أمسى بالمدينة رحله فإني وقيار بها لغريب

وترى أن العطف بالرفع على اسم إن جاء قبل الخبر، وهو مذهب بعض النحويين، ويرجحه القرآن الكريم إذ جاء فيه ذلك، وهو خير شاهد، وقد أخذ النحويون يخرجونه على مقتضى قواعدهم، المانعة عند الذين يمنعون، فقال بعض المخرجين: إن الخبر ليس هو خبر الصابئين، إنما الصابئون مبتدأ خبره محذوف تقديره كذلك، وقال غيرهم: إن اسم (إن) أصلها مبتدأ دخلت عليه إن، فروعى معنى الابتداء فيه فرفع على هذا المعنى، وكل هذه تخريجات، النص فوقها، ولا عبرة بها لأنها لا تحكم على القرآن، بل إن العطف بالرفع جائز، وقوله تعالى: ﴿مَنْ آمَنَ﴾ بعد ذلك خبر للجميع.

١٠. سؤال وإشكال: ومهما يكن من تخريجات أكثر النحويين وتجويز غيرها فإن القرآن أبلغ كلام في الوجود لا بد أن يكون في عدو له عن النصب الذى هو ظاهر السياق إلى الرفع معنى قائم بذاته، فما هو ذلك المعنى؟ والجواب: قالوا: إن الصابئين أشد إيغالا في الكفر من اليهود والنصارى، فكان لا بد من تنبيه خاص بهم؛ ليكون ذلك تأكيدا لمعنى قبول التوبة والغفران؛ لأنهم إذا كانوا يغفر لهم وهم على هذه الحال من عبادة الكواكب، وعدم وجود كتاب، وكتمانهم اعتقاداتهم، فأولى ثم أولى أن يغفر لمن دونهم من ذلك الجحود، وهم اليهود والنصارى، ولأن الصابئين يشير بيان الغفران لهم إلى قبول توبة المشركين إذا آمنوا بعد شرك، كما قال تعالى: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ ما قَدْ سَلَفَ وإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الأنفال]

١١. وقد بين سبحانه خبر إن وهو جزاء الإيمان بعد كفر، فقال سبحانه: ﴿مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾، هذا هو الخبر، وفيه جزاء الإيمان وما تطلبه حقيقته، فذكر سبحانه أمورا ثلاثة هي الإيمان بالله تعالى وذلك يتضمن الإيمان بوحدانيته، وأسمائه الحسنى، وأنه الخالق وحده، والمهيمن على الوجود وحده، وأنه الأزلي الذى ليس له ابتداء، والباقي الذى لا يعروه

الفناء، وأنه لا يشبه أحدا من خلقه، وليس كالأشياء، لا يحس، ولا يحتويه مكان، وهو منزه عما تتصف به الحوادث إلى آخر كل ما يقتضيه التنزيه، وليس بوالد ولا ولد، وليس له كفوا أحد، والإيمان باليوم الآخر هو الإيمان بالبعث والنشور، والحساب والعقاب والثواب، وإنها جنة أبدا، أو نار أبدا، وأن الإنسان مجزى بعمله، وإن خيرا فخير أو شرا فشر: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة]

١٢. وذكر النص القرآني أمرا ثالثا، وهو العمل الصالح الذى يلقى الله تعالى وهو قائم به، مستمرا عليه، وهذا وإن لم يكن ركنا من أركان الإيمان ولكنه شرط لما جاء بعد ذلك من عدم الخوف والحزن، فإن المرتكب لا يمكن أن يكون في أمن من غضب الله، بل يكون حزينا على ما ارتكب، وإن قوى الإيمان إن عمل يكون عنده برد اليقين، والمؤمن الصادق يغلب الخوف على الرجاء، ولو كان طاهرا مطهرا، فكيف لو كان مرتكبا.

١٣. سؤال وإشكال: لماذا لم يذكر الإيمان برسالة النبي ﷺ مع أنه ركن من أركان الإيمان فشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله تعالى هي لب الإيمان! والجواب: أن الإيمان بالرسالة المحمدية التي قامت عليها الأدلة من المعجزات الباهرة ثمرة الإيمان بالله ولازمة له، فلا يمكن أن يكون مؤمنا بالله من يكذب رسوله الذى قامت الشواهد والأمارات على صدق رسالته، والإيمان بالله يقتضى الإيمان بصدق كل ما جاء في كتابه المنزل الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وهكذا فإن الإيمان بالله تعالى يقتضى الإيمان بالرسالة والرسل والإيمان بما جاءت به الكتب المنزلة، وجزاء هذا الإيمان الصادق والعمل الصالح ألا يكون المؤمن في خوف من قابل حياته في الآخرة، فلا يخاف عذاب يوم القيامة؛ لأن الإيمان هو الحصن الذى يلوذ به الخائفون، ولا يحزن على ما كان منه في كفره، وإنه في الجنة لا همّ، ولا حزن ولا عذاب.

١٤. وقد تكلم العلماء في أمرين لا بد أن نتكلم فيهما:

أ. أولهما ـ أن الله تعالى ابتدأ طوائف الذين يغفر لهم أن آمنوا بالمؤمنين فقال سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾، وجاء الخبر من بعد: ﴿مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾، فكيف ينطبق هذا الخبر على الذين آمنوا، وهم قد سبق إيمانهم، فلا يحتاج إلى تجديد، ولو كان الخبر مقصورا على الذين هادوا والصابئين والنصارى

لكان له موضعه ظاهرا، لأنهم غير مؤمنين، وقد أجاب العلماء عن ذلك بجوابين:

• أحدهما: أن الذين آمنوا قد يراد بهم الذين أعلنوا الدخول في الإسلام وإن لم تذعن قلوبهم، ولكن هذا الجواب لا نرتضيه لأن المنافقين ومن لم يذعنوا للحقائق الإسلامية لا يسمون مؤمنين، اقرأ قوله تعالى: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات]

• الثاني: أن معنى آمن بالنسبة لهم استمرار الإيمان وبالنسبة لغيرهم إنشاؤه، ونرى في هذا الجواب نوعا من دلالة اللفظ على معنيين متقاربين في موضع واحد، إذ يراد الإذعان، والاستمرار عليه، وإني أرى أن الخبر ليس للحكم بقبول الإيمان فقط، بل إنه خبر في معنى الشرط والجزاء فيه إثبات أن الإيمان مناط النجاة والثواب، وذلك ينطبق على المؤمنين ومن يدخلون في الإيمان الأمر.

ب. الثاني: هو دخول الفاء في قوله تعالى: ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾، وقد قيل في ذلك: إن الموصول في ﴿مَنْ آمَنَ﴾ في معنى الشرط، والفاء تدخل في خبر الموصول كما تدخل في جواب الشرط.

مُغْنِيَّة:

ذكر محمد جواد مُغْنِيَّة (ت ١٤٠٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي(١):

١. ﴿قُلْ يَا أهل الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ﴾ من دين الحق، ولا تنفعكم هذه المظاهر الدينية ﴿حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾.. تقدم تفسيره في الآية ٦٤ من هذه السورة.

٢. ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمنوا وَالَّذِينَ هَادُوا﴾.. تقدم تفسيره في الآية ٦٢ من سورة البقرة.

الطباطبائي:

ذكر محمد حسين الطباطبائي (ت ١٤٠٢ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي(٢):

١. الآيات في نفسها تقبل الاتصال والاتساق بحسب النظم، ولا تقبل الاتصال بقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾ مع الغض عن قوله تعالى: ﴿يَا أيها الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أنزل إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ وأما ارتباط قوله تعالى: ﴿يَا أيها الرَّسُولُ بَلِّغْ﴾ فقد عرفت الكلام فيه، والأشبه أن يكون هذه الآيات جارية على سياق الآيات السابقة من أوائل السورة إلى هنا أعني ارتباط مضامين الآيات آخذة من

---

(١) التفسير الكاشف: ٣/١٠٠.

(٢) الميزان في تفسير القرآن: ٦/٦٥.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا﴾ [الآية: ١٢] من السورة إلى آخر هذه الآيات المبحوث عنها باستثناء نزرة مما تتخللها كآية الولاية وآية التبليغ وغيرهما مما تقدم البحث عنه، ومثله الكلام في اتصال آيات آخر السورة بهذه الآيات فإنها جميعا يجمعها أنها كلام يتعلق بشأن أهل الكتاب.

٢. ﴿قُلْ يَا أهل الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾ إلى آخر الآية، الإنسان يجد من نفسه خلال أعماله أنه إذا أراد إعمال قوة وشدة فيما يحتاج إلى ذلك، وجب أن يعتمد على مستوى يستوي عليه أو يتصل به كمن أراد أن يجذب أو يدفع أو يحمل أو يقيم شيئا ثقيلا فإنه يثبت قدميه على الأرض أولا ثم يصنع ما شاء لما يعلم أن لولا ذلك لم يتيسر له ما يريد، وقد بحث عنه في العلوم المربوطة به، وإذا أجرينا هذا المعنى في الأمور المعنوية كأفعال الإنسان الروحية أو ما يتعلق من أفعال الجوارح بالأمور النفسية كان ذلك منتجا أن صدور مهام الأفعال وعظائم الأعمال يتوقف على أس معنوي ومبني قوى نفسي كتوقف جلائل الأمور على الصبر والثبات وعلو الهمة وقوة العزيمة وتوقف النجاح في العبودية على حق التقوى والورع عن محارم الله.

٣. ومن هنا يظهر أن قوله تعالى: ﴿لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ﴾ كناية عن عدم اعتمادهم على شيء يثبت عليه أقدامهم فيقدروا بذلك على إقامة التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم تلويحا إلى أن دين الله وحكمه لها من الثقل ما لا يتيسر حمله للإنسان حتى يعتمد على أساس ثابت ولا يمكنه إقامته بمجرد هوى من نفسه كما يشير تعالى إلى ذلك بالنسبة إلى القرآن الكريم بقوله: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ [المزمل: ٥]، وقوله: ﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر: ٢١]، وقوله: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا﴾ الآية[الأحزاب: ٧٢]، وقال في أمر التوراة خطابا لموسى عليه السلام: ﴿فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وأمر قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا﴾ [الأعراف: ١٤٥]، وقال خطابا لبني إسرائيل: ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ﴾ [البقرة: ٦٣] وقال خطابا ليحيي عليه السلام: ﴿يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ﴾ [مريم: ١٢]، فيعود المعنى إلى أنكم فاقدو العماد الذي يجب عليكم أن تعتمدوا عليه في إقامة دين الله الذي أنزل إليكم في كتبه وهو التقوى والإنابة إلى الله بالرجوع إليه مرة بعد أخرى والاتصال به والإيواء إلى ركنه بل

مستكبرون عن طاعته ومتعدون حدوده.

٤. ويظهر هذا المعنى من قوله تعالى خطابا لنبيه والمؤمنين: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إبراهيم وَمُوسَى وَعِيسَى﴾ فجمع الدين كله فيما ذكره، ثم قال: ﴿أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ فبين أن ذلك كله يرجع إلى إقامة الدين كلمة واحدة من غير تفرق ثم قال: ﴿كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إليه﴾ وذلك لكبر الاتفاق والاستقامة في اتباع الدين عليهم، ثم قال: ﴿اللهُ يَجْتَبِي إليه مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إليه مَنْ يُنِيبُ﴾ فأنبأ أن إقامة الدين لا يتيسر إلا بهداية من الله، ولا يصلح لها إلا المتصف بالإنابة التي هي الاتصال بالله وعدم الانقطاع عنه بالرجوع إليه مرة بعد أخرى، ثم قال: ﴿وَمَا تَفَرَّقُوا إلا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾ فذكر أن السبب في تفرقهم وعدم إقامتهم للدين هو بغيهم وتعديهم عن الوسط العدل المضروب لهم [الشورى: ١٤]، وقال أيضا في نظيرتها من الآيات: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ مُنِيبِينَ إليه وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [الروم: ٣٢] فذكر فيها أيضا أن الوسيلة إلى إقامة دين الفطرة الإنابة إلى الله، وحفظ الاتصال بحضرته، وعدم الانقطاع عن سببه.

٥. وقد أشار إلى هذه الحقيقة في الآيات السابقة على هذه الآية المبحوث عنها أيضا حيث ذكر أن الله لعن اليهود وغضب عليهم لتعديهم حدوده فألقى بينهم العداوة والبغضاء، وذكر هذا المعنى في غير هذا المورد في خصوص النصارى بقوله: ﴿فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ [المائدة: ١٤]

٦. وقد حذر الله سبحانه المسلمين عن مثل هذه المصيبة المؤلمة التي سيحلها على أهل الكتاب من اليهود والنصارى، وأنبأهم أنهم لا يتيسر ولن يتيسر لهم إقامة التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم، وقد صدق جريان التاريخ ما أخبر به الكتاب من تشتت المذاهب فيهم وإلقاء العداوة والبغضاء بينهم، فحذر الأمة الإسلامية أن يردوا موردهم في الانقطاع عن ربهم، وعدم الإنابة إليه في قوله: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا﴾ [الروم: ٣٠] في عدة آيات من السورة، وقد تقدم البحث عن بعض الآيات الملوحة إلى ذلك في ما تقدم من أجزاء الكتاب وسيأتي الكلام على بعض آخر منها إن شاء الله تعالى.

٧. وأما قوله تعالى: ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أنزل إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾ فقد تقدم البحث

عن معناه، وقوله: ﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ تسلية منه تعالى لنبيه ﷺ في صورة النهي عن الأسى.

٨. ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمنوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَى﴾ ظاهرها أن الصابئون عطف على ﴿الَّذِينَ آمنوا﴾ بحسب موضعه وجماعة من النحويين يمنعون العطف على اسم إن بالرفع قبل مضي الخبر، والآية حجة عليهم، والآية في مقام بيان أن لا عبرة في باب السعادة بالأسماء والألقاب كتسمي جمع بالمؤمنين وفرقة بالذين هادوا، وطائفة بالصابئين وآخرين بالنصارى، وإنما العبرة بالإيمان بالله واليوم الآخر والعمل الصالح، وقد تقدم البحث عن معنى الآية في تفسير سورة البقرة.

الحوثي:

ذكر بدر الدّين الحوثي (ت ١٤٣١ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ ﴿لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ﴾ فلا يكفيكم انتماؤكم إلى بعض كتب الله مع ترك ما بعدها فما أنتم عليه ليس شيئاً؛ لأنه لا يقبل منكم، قال في (الكشاف): (كما تقول: هذا ليس بشيء، تريد تحقيره وتصغير شأنه، وفي أمثالهم: أقل من لا شيء ﴿حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ﴾ ﴿حَتَّى تُقِيمُوا﴾ حتى تعملوا بها كلها، وقوله: ﴿وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ يعم كل ما أنزل الله إليهم ومنه القرآن لا عذر لكم في تركه؛ لأن الله أنزله إليكم كما أنزل التوراة، أو قوله: ﴿وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ﴾ أي القرآن الذي أنزل إليكم، وقوله: ﴿إِلَيْكُمْ﴾ بيّن أنه خطاب لأهل الكتاب كما هو خطاب لغيرهم.

٢. ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ ﴿طُغْيَانًا﴾ تجاوزاً للحد المعهود في العصيان وحسداً وكبراً ﴿وَكُفْرًا﴾ تكذيباً وجحوداً لآيات الله، أو كفر نعمة ﴿فَلَا تَأْسَ﴾ فلا تحزن على القوم الكافرين؛ لأنهم متمردون لا يريدون الحق فهم أهلكوا أنفسهم.

٣. ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ الذين قد آمنوا بمحمد والقرآن، ودخلوا في دين الله، وأهل الملل الثلاث، لا ينفعهم ما هم عليه، دون الإيمان بالله واليوم الآخر والعمل الصالح، فالمراد في الذين آمنوا اشتراط صدق الإيمان بكونه مقروناً بالعمل الصالح الذي يبعث عليه الإيمان الصادق والاستمرار عليه في

---

(١) التيسير في التفسير: ٢/٣٤٩.

المستقبل، وأما أهل الملل الثلاث فلا بد لهم من الإيمان بالله واليوم الآخر والعمل الصالح كذلك، وذلك يتضمن: توحيد الله، وتنزيهه عن مشابهة المخلوقين، وعن الشريك، وعن الولد، ويستلزم: الإيمان بالرسول، والقرآن، من حيث أن الإيمان بالله واليوم الآخر يبعث على الإيمان بآيات الله الدالة على أن القرآن من الله، وأن محمداً رسول الله ﷺ، وسائر ما يجب الإيمان به، ويستلزم: أن العمل لا يكون صالحاً إلا إذا كان كما أمر الله به، وشرع في كتابه، وعلى لسان رسوله ﷺ؛ لأن ما خالفه منسوخ قد صار غير مشروع، فالآية في الملل الثلاث بالنسبة إلى ما قبل البعثة، لتبين: أن العمدة الإيمان بالله، واليوم الآخر، والعمل الصالح، لا الأسماء، فهي ترد قولهم: ﴿لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى﴾ [البقرة:١١١]

٤. ﴿وَالصَّابِئُونَ﴾ أهل ملة غير ملة الإسلام، وغير ملتي اليهود والنصارى، وقد بسط في بيان دينهم (صاحب الميزان)، أما سيد قطب فقال في (تفسيره): (﴿وَالصَّابِئُونَ﴾ الأرجح أنهم تلك الطائفة من مشركي العرب قبل البعثة، الذين ساورهم الشك فيما كان عليه قومهم من عبادة الأصنام، فبحثوا لأنفسهم عن عقيدة يرتضونها، فاهتدوا إلى التوحيد، وقالوا: إنهم يتعبدون على الحنيفية الأولى: ملة إبراهيم) إلى قوله: (فقال عنهم المشركون: إنهم صبأوا، أي مالوا عن دين آبائهم كما كانوا يقولون عن المسلمين بعد ذلك، ومن ثم سموا الصابئة) والتعبير بقوله: تلك الطائفة من مشركي العرب، لا يناسب تفسيره، فصواب العبارة: تلك الطائفة الذين كان أصلهم من مشركي العرب، وقوله: فبحثوا لأنفسهم عن عقيدة يرتضونها، فاهتدوا إلى التوحيد فيه أنه يوهم ضياع التوحيد بالكلية، وظاهر قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ﴾ [الزخرف:٢٨] أنه لم يزل التوحيد يتوارثه عقب إبراهيم عليه السلام، ولذلك قالوا: إنهم يتعبدون على الحنيفية الأولى: ملة إبراهيم، وقد اتفق التفسيران للصابئين: على أنهم قوم يوحدون الله، ليسوا من اليهود ولا النصارى، وكانوا قبل بعثة الرسول ﷺ، إلا أن تفسير (الميزان) أثبت لهم أصناماً، فنافى ذلك قوله: إنهم أناس يوحدون الله، والحاصل: أنهم أهل ملة دينية غير اليهود وغير النصارى، وقد قدمت في تفسير (البقرة) حكايات لدينهم خلاف ما هنا، ولكن المحقق هذا الحاصل.

فضل الله:

ذكر محمد حسين فضل الله (ت ١٤٣١ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. ماذا يمثل الانتماء إلى الكتاب؟ هل هو مجرد نسبة يحملها الإنسان من تاريخ آبائه وأجداده لتمثل نسبا تاريخيا كما هي الأنساب التاريخيّة المتّصلة بالأشخاص والصفات، من دون أن تحمل معها شيئا من مضمون التاريخ في معطياته وأفكاره؟ أو هي شيء يتّصل بالمضمون في عطائه الحاضر في الفكر والموقف حيث يكون الكتاب هو الذي يطبع الشخصيّة بطابعه، فيعطي الفكرة من فكره، ويحدد المواقف من خلال خطوطه العمليّة، وبذلك يكون الانتماء في المضمون لا في الشكل؟

٢. إن الآية تطرح القضية على الأساس الثاني للتساؤل، فهي لا تكتفي بنفي الانتماء الحقيقي للكتاب بالأسلوب المألوف، بل تنفي ارتكازهم على أي شيء بالنحو المطلق، إلا بإقامة التوراة والإنجيل والقرآن، والذي عبرت عنه الآية، ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾، لأن ذلك هو الذي يمثل القاعدة الصلبة في قضية الوجود أمام الله، وبذلك يمكن استيحاء الموقف الذي يمارسه الناس في إطلاق الصفة على أساس الانتماء التاريخي، مما يجعل من اليهوديّة والمسيحيّة والإسلام صفات تمس الإطار القومي، الذي يحول هذه الجماعات إلى قوميات دينية متنوعة، بدلا من الإطار الفكري الذي يحولها إلى مجتمعات فكرية مختلفة مما يؤدّي إلى تجميد حركة الفكر في داخل عملية الصراع الفكري في الخط الديني، وتحويله إلى حركة تختزن الأحقاد التاريخيّة، وتتحدث عن الامتيازات الحاضرة، وتواجه الموقف بذهنيّة الأمور الثوابت في قضايا العقيدة، لا بذهنيّة الأمور القابلة للحوار، لهذا كان من الضروريات العملية للعاملين أن يحطموا هذا السور الصخري من الحواجز الّتي توحي بكسر الجليد المتجمّع في القلوب، إذا استطعنا أن نكسر الجليد القابع في أعماق الفكر وقد نجد أمامنا بعض السلبيات الأخرى لهذه الذهنيّة التي تقف في قضّية الانتماء على حدود الانتساب التاريخي بعيدا عن مضمون الحاضر فنلتقي بالملحدين الذين يحملون فكر الإلحاد كخطّ للحياة ولا يؤمنون بالكتاب في جميع مفاهيمه وتشريعاته، ولكنهم يحملون صفة المسيحيّة واليهودية أو الإسلام من الزاوية القوميّة لمجتمع الكتاب، لا من الناحية الفكريّة والروحية والعمليّة، مما يؤدي إلى تدخل هؤلاء في حركة المجتمعات في

(١) من وحي القرآن: ٢٧٣/٨.

مختلف جوانب الحياة، من موقع أنهم جزء منها في صفة الانتماء، وقد يؤدي ذلك إلى قيامهم بكثير من ألوان العبث بالقيم والمفاهيم والمصالح الحقيقيّة للدين وأهله، انطلاقا مما يؤمنون به من قضايا الكفر والضلال، ويخططون له من إفساد الفكر الديني ومواقفه.

٣. ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾ إن هذه الفقرة من الآية تثير الانطباع عن بعض الفئات المعقدة الموجودة في أهل الكتاب، كجزء من الجماعات المنتمية إلى فكر أو جهة، في موقفها من الجماعات المنتمية إلى فكر آخر أو جهة أخرى، فقد نجد في هذه الفئات الكثير من ألوان التعقيد في مواجهتها للآيات المنزلة على رسول الله ﷺ وعلى المؤمنين معه، فهم لا يواجهونها مواجهة الفكر الناقد الذي يتأمل ويفكر وينقد ويثير علامات الاستفهام فيما التبس عليه أمره، أو ما اتضح له فساده، وينسجم مع الإيجابيات فيما ثبت له صحته، بل يواجهونها مواجهة العقدة الّتي ترفض أن تفكر، وترفض أن تؤمن، وتتعامل مع الجوانب المشرقة البارزة فيها، أو البراهين الواضحة لديها، تعامل الحاقد الذي يبادر إلى الجحود والكفران، ويعمل على الظهور بمظهر التكبر والطغيان، كمن يستعرض عضلاته أمام الآخرين ليوحي بالقوّة، في موقف استعراضي يثير الشكل من أجل أن يعطي الانطباع الخاطئ باتفاقه مع المضمون، وذلك للإيحاء بأنهم فوق مستوى هذه الآيات فيما يملكونه من فكر ومعرفة، فلا مجال للتوقف عندها لإثارة الفكر والتأمل، تماما كما هو الفكر الرفيع الدرجات عند مات يتطلع من فوق إلى الفكر الذي يعيش في الحضيض، فلا يكلف نفسه الالتفات إليه بالنظرة الخاطفة، بل يواجهه بالتأمل العميق الهادئ ولكنهم يعلمون من أنفسهم، أن الأمر ليس كذلك، وأن وحي الله هو فوق كل وحي، وأن الفكر الذي ينطلق منه، هو فوق كل فكر من موقع الحجة والبرهان، وفي ضوء هذا التفسير، يتبين أن نسبة زيادة الطغيان والكفر فيهم إلى الآيات، ليست بلحاظ ما تحمله هذه الآيات من عوامل ذلك، بل بلحاظ ما تثيره من ردود فعل داخلية في نفوس هؤلاء من موقع العقدة المستحكمة في داخل ذواتهم.

٤. ﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ ولماذا تحمل في نفسك هذا الشعور العميق من الأسى، ما دمت قد أقمت الحجة عليهم من الله، وأعطيتهم كل مشاعر العطف والحنان بالكلمة والأسلوب والجو والعلاقة، وأفسحت لهم المجال للتراجع عمّا هم عليه من ضلال؟ وصبرت على كل نوازع الذاتية المعقدة، وتحملت كل ألوان الاضطهاد الروحي والعملي بما كانوا يثيرونه حولك من شبهات وشكوك، وما يقفونه

من مواقف سلبية؟ ولكنهم استمروا في خط التمرد والطغيان، فلم يستجيبوا للحوار الذي دعوتهم إليه، ولم يتجاوبوا مع دعوة التفكير والتأمل الّتي وجهتها إليهم، فهم ليسوا من الفئات الّتي تبعث الألم في النفس عندما تنحرف عن الخط، بل هم من الفئات الّتي توحي بعدم المبالاة، وبالإهمال لكل ما يتعلق بهم، لأنهم واجهوا الرسالة بذلك الموقف نفسه ﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾

٥. ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَى مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ لقد تقدّم تفسير هذه الآية عند التعرّض لتفسير آية من سورة البقرة، وقد يكون من المناسب هنا أن نوضح الفكرة توضيحا بسيطا، وهو أن هذه الآية تتحدث عن المقياس الذي يخضع له أمن الناس في يوم القيامة، فليس هو الانتماء إلى هذه الصفات والأسماء، بل هو الإيمان بالله واليوم الآخر والعمل الصالح بحدوده التفصيليّة المبنيّة في مكان آخر من كتاب الله، مع تعميق الخط التوحيدي الذي يربط الإسلام في خط العقيدة بالإيمان بالله الواحد في معنى الربوبيّة الّتي تستلزم العبوديّة في الإنسان وتنفتح به على المسؤوليّة في اليوم الآخر، وتلك هي مهمة الرسل الذين ذابوا في الإيمان ليؤكدوا علاقة الإنسان بالله إيمانا وحركة ومسئوليّة، الأمر الذي يفرض على المؤمنين الانفتاح على الرسل في خطهم الرسالي في معنى ارتباط شخصيتهم بالرسالة لا في الاستغراق في ذاتياتهم الشخصيّة.

٦. وربما كان إهمال الحديث عن النبوة هنا، باعتبار أنه شأن من شؤون الإيمان بالله، لأن النبي ﷺ هو الذي يحدد لهذا الإيمان حدوده، وهو الذي يخطط للعمل الصالح مواقعه، فهي الإطار الّذي يضم هذه الأمور الثلاثة ويجمعها في خط واحد وبذلك لا تكون الآية ظاهرة في إهمال النبوّة كأساس من أسس الإيمان بل في تحديد الموقف من هؤلاء الذين يعيشون بالأماني على أساس الانتماء بالشكل لا بالمضمون، تماما كما هي الآية الكريمة ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾ [النساء: ١٢٣ ـ ١٢٤] أما رفع كلمة ﴿وَالصَّابِئُونَ﴾ مع أنها معطوفة على اسم ﴿إِنَّ﴾ المنصوب، فربما كان الوجه فيها أنه معطوف على محل اسم ﴿إِنَّ﴾ الذي هو الرفع، لأنه في موضع الابتداء كما حرر في محله.

الشيرازي:

ذكر ناصر مكارم الشيرازي في تفسير هذا المقطع ما يلي[1]:

١. لاحظنا في ما سبق من تفسير آيات هذه السورة أنّ قسما كبيرا منها يدور حول العقبات التي كان يضعها أهل الكتاب (اليهود والنصارى) في طريق المسلمين وما كانوا يوردونه من مجادلة وتساؤل، هذه الآية ـ أيضا ـ تشير إلى جانب آخر من ذلك الموضوع، ترد فيها على منطقهم الواهي الداعي إلى اعتبار التّوراة كتابا متفقا عليه بين المسلمين واليهود، وترك القرآن باعتباره موضع خلاف، لذلك فالآية تخاطب الرّسول ﷺ قائلة: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾

٢. وذلك لأنّ هذه الكتب ـ كما قلنا ـ صادرة عن مبدأ واحد وأصولها واحدة، ولمّا كان آخر هذه الكتب السماوية أكملها وأجمعها فإنّه هو الأجدر بالعمل به، كما أنّ الكتب السابقة تحمل بشائر وارشادات إلى آخر الكتب، وهو القرآن، فإذا كانوا ـ حسب زعمهم ـ يقبلون التّوراة والإنجيل، وكانوا صادقين في زعمهم، فلا مندوحة لهم عن القبول بتلك البشائر أيضا، وإذ وجدوا تلك العلامات في القرآن، فإن عليهم أن يحنوا رؤوسهم خضوعا لها.

٣. هذه الآية تقول أنّ الادعاء لا يكفي، بل لا بدّ من إتباع ما جاء في هذه الكتب السماوية عمليا، ثمّ أن القضية ليست (كتابنا) و(كتابكم)، بل هي الكتب السماوية وما أنزل من الله، فكيف تريدون بمنطقكم الواهي هذا أن تتجاهلوا آخر كتاب سماوي؟

٤. ويعود القرآن ليشير إلى حالة أكثريتهم، فيقرّر أنّ أكثرهم لا يأخذون العبرة والعظة من هذه الآيات ولا يهتدون بها، بل أنّهم ـ لمّا فيهم من روح العناد ـ يزدادون في طغيانهم وكفرهم ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾، وهكذا يكون التأثير المعكوس للآيات الصادقة والقول المتزن في النفوس المملوءة عنادا والجاجا.

٥. وفي ختام الآية يخفف الله من حزن رسوله ﷺ إزاء تصلب هذه الأكثرية من المنحرفين وعنادهم، فيقول له: ﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾

(١) تفسير الأمثل: ٤/١٠٣.

٦. هذه الآية ليست مقصورة على اليهود ـ طبعا ـ فالمسلمون أيضا إذا اكتفوا بادعاء الإسلام ولم يقيموا تعاليم الأنبياء، وخاصة ما جاء في كتابهم السماوي، فلن تكون لهم منزلة ومكانة لا عند الله، ولا في حياتهم الفردية والاجتماعية، بل سيظلون دائما أذلاء ومغلوبين على أمرهم.

٧. الآية التّالية تعود لتقرر مرّة أخرى هذه الحقيقة، وتؤكّد أنّ جميع الأقوام وأتباع كل المذاهب دون استثناء، مسلمين كانوا أم يهودا أم صابئين أم مسيحيين، لا ينجون ولا يأمنون الخوف من المستقبل والحزن على ما فاتهم إلّا إذا آمنوا بالله وبيوم الحساب وعملوا صالحا: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَى مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾

٨. هذه الآية، في الحقيقة ردّ قاطع على الذين يظنون النجاة في ظل قومية معينة، ويفضلون تعاليم بعض الأنبياء على بعض، ويتقبلون الدعوة الدينية على أساس من تعصب قومي، فتقول الآية إن طريق الخلاص ينحصر في نبذ هذه الأقوال.

٩. وكما أشرنا في تفسير الآية من سورة البقرة، التي تقترب في مضمونها من مضمون هذه الآية سعى بعضهم بجد ليثبت أنّ هذه الآية تعتبر دليلا على (السلام العام) وعلى أنّ أتباع جميع الأديان ناجون، وأن يتجاهل فلسفة نزول الكتب السماوية بالتتابع الذي يدل على تقدم الإنسان في مسيرته التكاملية التدريجية، ولكن ـ كما قلنا ـ تضع الآية حدّا فاصلا بقولها ﴿وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ لكل قول، وتشخص الحقيقة، بخصوص تباين الأديان، فتوجب العمل بآخر شريعة إلهية، لأنّ العمل بقوانين منسوخة ليس من العمل الصالح، بل العمل الصالح هو العمل بالشرائع الموجودة وبآخرها.

١٠. ثمّ إنّ هناك احتمالا مقبولا في تفسير عبارة ﴿مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ وهو إنّها تختص باليهود والنصارى والصابئين، لأنّ ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ في البداية لا تحتاج إلى مثل هذا القيد، وعليه، فإن معنى الآية يصبح هكذا: إنّ المؤمنين من المسلمين ـ وكذلك اليهود والنصارى والصابئين، بشرط أن يؤمنوا وأن يتقبلوا الإسلام ويعملوا صالحا ـ سيكونون جميعا من الناجين وإن ماضيهم الديني لن يكون له أي أثر في هذا الجانب، وإن الطريق مفتوح للجميع.

٦٨. بنو إسرائيل والميثاق والفتنة

نتناول في هذا الفصل ما ذكره المفسّرون ـ بحسب التسلسل التاريخي، والمدارس الإسلامية المختلفة ـ حول تفسير المقطع [٦٨] من سورة المائدة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلًا كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ وَحَسِبُوا أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا وَصَمُّوا ثُمَّ تَابَ اللهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا كَثِيرٌ مِنْهُمْ وَاللهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: ٧٠ ـ ٧١]، مع العلم أنّا نقلنا المباحث التي لا علاقة لها ـ كبرى أو مباشرة ـ بالتفسير التحليلي إلى محالّها من كتب السلسلة.

ابن عباس:

روي عن ابن عباس (ت ٦٨ هـ) أنّه قال: وَحَسِبُوا أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ الشرك[١].

أبو العالية:

روي عن أبي العالية الرّياحيّ (ت ٩٣ هـ) أنّه قال: ﴿مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ أخذ مواثيقهم أن يخلصوا له، ولا يعبدوا غيره[٢].

مجاهد:

روي عن مجاهد (ت ١٠٤ هـ) أنّه قال: وَحَسِبُوا أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ يهود[٣].

البصري:

روي عن الحسن البصري (ت ١١٠ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال: ﴿وَحَسِبُوا أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ بلاء[٤].

---

(١) ابن جرير ٨/٥٧٨.

(٢) ابن أبي حاتم ٤/١١٧٧.

(٣) ابن جرير ٨/٥٧٨.

(٤) ابن جرير ٨/٥٧٧.

٢. روي أنّه قال: وحسبوا ألا يبتلوا في الدين يجاهدون فيه، وتفرض عليهم الطاعة بمحمد[١].

قتادة:

روي عن قتادة بن دعامة (ت ١١٧ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال: ﴿وَحَسِبُوا أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ حسب القوم ألا يكون بلاء[٢].

٢. روي أنّه قال: ﴿فَعَمُوا وَصَمُّوا﴾ كلما عرض لهم بلاء ابتلوا به هلكوا فيه[٣].

ابن كثير:

روي عن عبد الله بن كثير (ت ١٢٠ هـ) أنّه قال: هذه الآية لبني إسرائيل، والفتنة: البلاء، والتمحيص[٤].

السدي:

روي عن إسماعيل السدي الكوفي (ت ١٢٧ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال: ﴿وَحَسِبُوا أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ حسبوا ألا يبتلوا[٥].

٢. روي أنّه قال: ﴿فَعَمُوا وَصَمُّوا﴾ فعموا عن الحق، وصموا[٦].

الصادق:

روي عن الإمام الصادق (ت ١٤٨ هـ) أنّه قال: ﴿وَحَسِبُوا أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ حيث كان النبي ﷺ بين أظهرهم، فعموا وصموا حيث قبض رسول الله ﷺ، ثم تاب الله عليهم، حيث قام الإمام علي ـ قال: ـ ثم عموا وصموا إلى الساعة[٧].

مقاتل:

---

(١) تفسير ابن أبي زمنين ٢/٣٩.

(٢) ابن جرير ٨/٥٧٧.

(٣) ابن جرير ٨/٥٧٧.

(٤) ابن جرير ٨/٥٧٨.

(٥) ابن جرير ٨/٥٧٧.

(٦) ابن جرير ٨/٥٧٧.

(٧) الكافي ٨/١٩٩.

روي عن مقاتل بن سليمان (ت ١٥٠ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال: ﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ في التوراة على أن يعملوا بما فيها، ﴿وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلًا﴾ يعني: وأرسل الله تعالى إليهم رسلا ﴿كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ﴾ يعني: اليهود؛ ﴿فَرِيقًا كَذَّبُوا﴾ يعني: اليهود، فريقا كذبوا؛ عيسى ﷺ، ومحمدا ﷺ، ﴿وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ﴾ يعني: اليهود كذبوا بطائفة من الرسل، وقتلوا طائفة من الرسل، يعني: زكريا، ويحيى في بني إسرائيل[1].

٢. روي أنّه قال: ﴿وَحَسِبُوا أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾، يعني: اليهود حسبوا ألا يكون شرك، ولا يبتلوا، ولا يعاقبوا بتكذيبهم الرسل، وبقتلهم الأنبياء: أن لا يبتلوا بالبلاء والشدة من قحط المطر[2].

٣. روي أنّه قال: ﴿فَعَمُوا﴾ عن الحق فلم يبصروه، ﴿وَصَمُّوا﴾ عن الحق فلم يسمعوه[3].

٤. روي أنّه قال: ﴿ثُمَّ تَابَ اللهُ عَلَيْهِمْ﴾ يقول: تجاوز عنهم، فرفع عنهم البلاء، فلم يتوبوا بعد رفع البلاء، ﴿ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا كَثِيرٌ مِنْهُمْ وَاللهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ من قتلهم الأنبياء، وتكذيبهم الرسل[4].

الماتريدي:

ذكر أبو منصور الماتريدي (ت ٣٣٣ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[5]:

١. قوله عز وجل: ﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ قد أخذ الله عز وجل الميثاق على جميع البشر، وخصهم به دون غيرهم من الخلائق؛ لما رَكَّبَ فيهم ما يَعْرِفُ كُل به شهادة الخلقة على وحدانية ربه؛ كقوله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ﴾، ثم خص بني إسرائيل من البشر بفضل الميثاق؛ لما أرسل إليهم الرسل منهم، وهو قوله: ﴿وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلًا﴾، وكأنهم قد قبلوا تلك المواثيق؛ كقوله تعالى: ﴿وَقَالَ اللهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ

---

(١) تفسير مقاتل ابن سليمان ١/٤٩٤.

(٢) تفسير مقاتل ابن سليمان ١/٤٩٤.

(٣) تفسير مقاتل ابن سليمان ١/٤٩٤.

(٤) تفسير مقاتل ابن سليمان ١/٤٩٤.

(٥) تأويلات أهل السنة: ٣/٥٦١.

الصَّلَاةَ﴾ إلى آخره؛ وكقوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾، كان من الله لهم عهد ومنهم لله عهد، فأخبر أنهم إذا أوفوا بعهده يوفِ بعهدهم.

٢. وقوله عز وجل: ﴿كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ﴾ في الآية دلالة أنهم كانوا يخالفون دين الرسل بأجمعهم؛ لما أحدثوا من اتباع أهوائهم، وأن الرسل ـ وإن اختلفت أوقات مجيئهم ـ فإنهم إنما يدعون بأجمعهم إلى دين واحد.

٣. وقوله عز وجل: ﴿فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ﴾: منهم من كذب، ومنهم من قتل، لكن القتل إن كان فهو في الأنبياء غير الرسل؛ لأنه تعالى قال: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا﴾ أخبر أنه ينصر رسله، وليس في القتل نصر، ويحتمل قوله: ﴿وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ﴾، أي: فريقًا قصدوا قصد قتلهم، وقد ذكرنا هذا فيما تقدم.

٤. وقوله عز وجل: ﴿وَحَسِبُوا أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾: ولم يبين ما الفتنة التي حسبوا ألا تكون، فأهل التأويل اختلفوا فيها:

أ. قال قائلون: الفتنة: المحنة التي فيها الشدة، حسبوا ألا يأتيهم الرسل بامتحانهم على خلاف هواهم، بل جاءتهم الرسل؛ ليمتحنوا على خلاف ما أحدثوا من هوى أنفسهم.

ب. وقال بعضهم: قوله: ﴿وَحَسِبُوا أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾: أي: هلاك وعذاب بتكذيبهم الرسل، وقصدهم قصد قتلهم.

ج. وقال ابن عباسٍ: (ألا يكون شرك)

د. وقيل: ﴿وَحَسِبُوا أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾: أي: حسبوا ألا يبتلوا بتكذيبهم الرسل، وبقتلهم الأنبياء بالبلاء والقحط، فعموا عن الهدى، فلم يبصروه، وصموا عن الهدى فلم يسمعوه؛ لما لم ينتفعوا به، ثم تاب الله عليهم فرفع عنهم البلاء، فلم يتوبوا بعد رفع البلاء.

هـ. ويحتمل أن يكون قوله: ﴿وَحَسِبُوا أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا وَصَمُّوا ثُمَّ تَابَ اللهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا﴾: ما ذكره في آية أخرى: وهو قوله: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ﴾ الآية؛ تابوا مرة ثم رجعوا ثم تابوا؛ فذلك قوله: ﴿فَعَمُوا وَصَمُّوا ثُمَّ تَابَ اللهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا﴾ الآية.

العياني:

ذكر الإمام المهدي العياني (ت ٤٠٤ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. معنى قوله عز وجل: ﴿وَحَسِبُوا أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾، أي ظنوا أن لا يأتيهم محنة واختبار من الله ﴿فَعَمُوا وَصَمُّوا﴾، أي تعاموا عن الحق ولم ينظروا، وتصاموا عن استماع الهدى ولم ينصتوا، ﴿ثُمَّ تَابَ اللهُ عَلَيْهِمْ﴾، أي رجع بالفضل عليهم وعطف بالدعوة عليهم ولم يعجل بعقوبتهم، ﴿ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا﴾ ولم يقبلوا فاستحقوا من الله العقوبة لما عطلوا.

الديلمي:

ذكر الإمام الناصر الديلمي (ت ٤٤٤ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(٢)]:

١. ﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ والميثاق هو العهود والآيات التي أخذها أنبياء بني إسرائيل عليهم أن يعملوا بها وأن يصدقوا برسله ﴿وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلًا كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ﴾ هوى النفس مقصور والهواء الجو ممدود وهما يشتركان في معنى الاسم لأن النفس تستمع بهوائها كما تسمع بهواء الجو ﴿فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ﴾ أي قد اقتصروا على تكذيب فريق والمجاوزة إلى قتل فريق آخر.

٢. ﴿وَحَسِبُوا أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ أي العقوبة على تكذيبهم وتغلب الكفار والجبارين عليهم ﴿فَعَمُوا وَصَمُّوا﴾ أي عموا عن الرشد والهداية وصموا من الموعظة حتى شرعوا إلى قتل أنبيائهم حين حسبوا أن لا تكون فتنة ﴿ثُمَّ تَابَ اللهُ عَلَيْهِمْ﴾ أي بعد رجوعهم عما كانوا عليه من التكذيب والقتل بمعاينة العذاب والعقاب ﴿ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا﴾ أي عادوا بعد التوبة إلى ما كانوا عليه قبلها، والعود إنما كان من أكثرهم لا من جميعهم.

٣. معنى قوله عز وجل: ﴿وَحَسِبُوا أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾، أي ظنوا أن لا يأتيهم محنة واختبار من الله ﴿فَعَمُوا وَصَمُّوا﴾، أي تعاموا عن الحق ولم ينظروا، وتصاموا عن استماع الهدى ولم ينصتوا، ﴿ثُمَّ تَابَ اللهُ عَلَيْهِمْ﴾، أي رجع بالفضل عليهم وعطف بالدعوة عليهم ولم يعجل بعقوبتهم، ﴿ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا﴾ ولم يقبلوا فاستحقوا من الله العقوبة لما عطلوا.

الماوردي:

---

(١) تفسير الإمام المهدي العياني: ٢/٢٢٤.

(٢) البرهان في تفسير القرآن للديلمي: ١/٢٢٠.

ذكر أبو الحسن الماوردي (ت ٤٥٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. ﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ فيه تأويلان:

أ. أحدهما أن الميثاق آيات مبينة يقررها علم ذلك عندهم.

ب. الثاني: أن الميثاق أيمان أخذه أنبياء بني إسرائيل عليهم أن يعملوا بها وأمروا بتصيدق رسله.

٢. ﴿وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلًا﴾ يعني بعد أخذ الميثاق، ﴿كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ﴾ هوى النفس مقصور، وهواء الجو ممدود، وهما يشتركان في معنى الاسم لأن النفس تستمتع بهواها كما تستمتع بهواء الجو.

٣. ﴿فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ﴾ يعني أن الأنبياء إذا لم يحلوا لهم ما يَهْوُونَه في الدين كذبوا فريقاً في الدين، كذبوا فريقاً وقتلوا فريقاً، وهم قد كذبوا من قتلوه ولكن تقدير الكلام أنهم اقتصروا على تكذيب فريق وتجاوزوا إلى قتل فريق.

٤. ﴿وَحَسِبُوا أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ فيها ثلاثة تأويلات:

أ. أحدها: أنها العقوبة التي تنزل من السماء.

ب. الثاني: ما ابتلوا به من قتل الأنبياء وتكذيبهم.

ج. الثالث: ما بلوا به من جهة المتغلبين عليهم من الكفار.

٥. ﴿فَعَمُوا وَصَمُّوا﴾ يعني، فعموا عن المرشد وصموا عن الموعظة حتى تسرعوا إلى قتل أنبيائهم حين حسبوا ألا تكون فتنة.

٦. ﴿ثُمَّ تَابَ اللهُ عَلَيْهِمْ﴾ يعني أنهم تابوا بعد معاينة الفتنة فقبل الله توبتهم، ﴿ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا﴾ يعني أنهم عادوا بعد التوبة إلى ما كانوا عليه قبلها، والعود إنما كان من أكثرهم لا من جميعهم.

الطوسي:

ذكر أبو جعفر الطوسي (ت ٤٦٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[٢]:

١. ﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ اللام في قوله: (لقد) لام القسم، أقسم الله تعالى أنه أخذ

---

(١) تفسير الماوردي: ٢/٥٥.

(٢) تفسير الطوسي: ٣/٥٩٥.

الميثاق:

أ. وهو الأيمان المؤكدة التي أخذها أنبياءهم على بني إسرائيل في قول أبي علي.

ب. وقال غيره: يجوز أن يكون الميثاق هي الآيات البينة التي قرر بها علم ذلك عندهم، وإنما أخذ ميثاقهم على الإخلاص لتوحيد الله تعالى، والعمل بما أمر به، والانتهاء عما نهى عنه والتصديق برسله والبشارة بالنبي الاميِّ والإقرار به، حسب ما تقدمت صفته عندهم.

٢. ووجه الاحتجاج على أهل الكتاب بما أخذ على آبائهم من الميثاق أنهم قد عرفوا ذلك في كتبهم، وأقروا بصحته، فحجته لازمه لهم، والعمل به واجب عليهم، وعيب المخالفة يلحقهم كما لحق آباءهم الذين نقضوا الميثاق الذي أخذ عليهم.

٣. وقوله: ﴿كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ﴾ والهوى هو لطف محل الشيء من النفس مع الميل إليه بما لا ينبغي، فلذلك غلب على الهوى صفة الذم، كما قال تعالى: ﴿وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى فإن الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى﴾ ويقال: منه: هو يهوى ويقال: هوى يهوي هوياً إذا انحط في الهواء وأهوى بيده إذا انحط بها ليأخذ شيئاً، و﴿فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ﴾ أي جهنم، لأنه يهوي فيها، وهم يتهاوون في الهواء إذا سقط بعضهم في أثر بعض والفرق بين الهوى والشهوة: أن الشهوة تتعلق بالمدركات فيشتهي الإنسان الطعام، ولا يهوى الطعام، وهواء الجو ممدود، وهوى النفس مقصور، وقوله: ﴿وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ﴾ قيل فيه قولان:

أ. أحدهما: أنها منحرفة لا تعي شيئا كهواء الجو.

ب. والآخر: أنه قد أطارها الخوف، ومنه قوله: ﴿كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانَ﴾ أي استهوته من هوى النفس.

٤. وقوله: ﴿فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ﴾ نصب فريقاً في الموضعين بأنه مفعول به قدم، وإنما قال في الأول ﴿كَذَّبُوا﴾ بلفظ الماضي، وفي الثاني ﴿يَقْتُلُونَ﴾ بلفظ المستقبل لأمرين:

أ. أحدهما: ليدل بذلك على أن من شأنهم ذلك وعادتهم ففيه معنى كذبوا وقتلوا ويكذبون ويقتلون مع موافقته لرؤوس الآي.

ب. الثاني: أن يكون على معنى فريقاً كذبوا، ولم يقتلوا وفريقاً كذبوا وقتلوا فيكون يقتلون صفة الفريق.

٥. ﴿وَحَسِبُوا إلا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا وَصَمُّوا ثُمَّ تَابَ اللهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا كَثِيرٌ مِنْهُمْ وَاللهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ قرأ أبو عمرو وحمزة والكسائي (إلا تكون) بالرفع، الباقون بالنصب، ولم يختلفوا في رفع (فتنة) فمن رفع، فالمعنى حسبوا فعلهم غير فاتن لهم، لأنهم كانوا يقولون ﴿نَحْنُ أَبْنَاءُ اللهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾ ومن نصبه فلأن (أن) تنصب الفعل المضارع.

٦. وقال أبو علي الفارسي الأفعال على ثلاثة أضرب: فعل يدل على ثبات الشيء واستقراره نحو العلم، وفعل يدل على خلاف الاستقرار والثبات، وفعل يحتمل الأمرين:

أ. فما كان معناه العلم وقع بعده (أن) الثقيلة، ولم تقع بعده الخفيفة الناصبة للفعل، لأن الثقيلة معناها إثبات الشيء واستقراره والعلم بأنه كذلك أيضاً، فإذا أوقع عليه واستعمل معه كان وقعه ملائما له، ولو استعملت الناصبة للفعل بعد ما معناه العلم واستقرار الشيء له لتباينا وتدافعا، فمن استعمال الثقيلة بعد العلم وإيقاعه عليها قوله: ﴿وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ﴾ و﴿أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللهَ يَرَى﴾، لأن الباء زائدة، وكذلك التبين والتيقن، وما كان معناه العلم كقوله: ﴿ثُمَّ بَدَا لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ﴾ فهذا ضرب من العلم لأنه تبين لأمر قد بأن فلذلك كان قسما كما كان علمت قسما في نحو قوله: (ولقد علمت لتأتين منيتي)، وكذلك ﴿ثُمَّ بَدَا لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ﴾ فهو بمنزلة علموا ليسجننه وعلى ذلك قول الشاعر:

بدا لي أني لست مدرك ما مضى ولا سابقا شيئاً إذا كان جائيا

فأوقع بعدها الشديدة كما يوقعها بعد علمت واما ما كان معناه ما لم يثبت ولم يستقر فنحو (أطمع) و(أخاف) و(اشفق) و(أرجو) فهذا ونحوه لا يستعمل بعده إلا الخفيفة الناصبة للفعل كقوله تعالى: ﴿وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي﴾، وقوله: ﴿تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ﴾، وقوله: ﴿إلا أَنْ يَخَافَا إلا يُقِيمَا حُدُودَ اللهِ﴾، ﴿فإن خِفْتُمْ إلا يُقِيمَا حُدُودَ اللهِ﴾، وقوله: ﴿فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا﴾، وقوله: ﴿أَأَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا﴾ وكذلك (أرجو، وعسى، ولعل)

ب. فأما ما يستعمل في الأمرين نحو حسبت وظننت وزعمت فهذا النحو يجعل مرة بمنزلة (أرجو) و(أطمع) من حيث كان أمراً غير مستقر ومرة يجعل مرة بمنزلة العلم من حيث استعمل استعماله، ومن حيث كان خلافه، والشيء قد يجري مجرى الخلاف نحو (عطشان) و(ريان)

ج. فأما استعمالهم استعمال العلم، فلأنهم قد أجابوه بجواب القسم، حكى سيبويه ظننت ليسقيني، وقيل في قوله: ﴿وَظَنُّوا مَا لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ﴾ أن النفي جواب الظن كما كان جواباً لعلمت في قوله: ﴿عَلِمْتَ مَا أنزل هَؤُلَاءِ إلا رَبُّ السَّمَاوَاتِ﴾ وكلا الوجهين جاء به القرآن مثل قراءة من نصب قوله: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا﴾، ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ﴾ ﴿الم أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا﴾ ومثل قراءة من رفع قوله: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ﴾(أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مالٍ وبَنِينَ﴾ ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ﴾ فهذه مخففة من الشديدة، ومثل ذلك في الظن قوله: ﴿تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ﴾، وقوله: ﴿إِنْ ظَنَّا أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللهِ﴾ ومن الرفع قوله: ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ تَقُولَ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ﴾.. ﴿وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَبْعَثَ اللهُ أَحَدًا﴾ وإنما ها هنا الخفيفة من الثقيلة لأن الناصبة للفعل لا تقع بعدها (أن) لاجتماع الحرفين في الدلالة على الاستقبال كما لم تجتمع الناصبة مع السين، ولم يجتمعا كما لم يجتمع الحرفان بمعنى واحد، ولذلك كانت (ان) في قوله: ﴿عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ﴾ المخففة من الشديدة، ومن ذلك قوله: ﴿وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ﴾ فأما قوله: ﴿الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ﴾، وقوله: ﴿ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ﴾ فالظن ها هنا بمعنى العلم، وحسن وقوع الخفيفة من الشديدة في قول من رفع وإن كان بعده فعل لدخول (لا) وكونها عوضاً من حذف الضمير معه وإيلاء ما لم يكن يليه، ولو قلت علمت أن يقول لم يجز حتى يأتي بما يكون عوضاً نحو (قد) و(لا) والسين وسوف، كما قال: ﴿عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ﴾ ولا يدخل على ذلك قوله: ﴿وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إلا مَا سَعَى﴾ فلم يدخل بين (أن) و(ليس) شيء لأن (ليس) ليس بفعل على الحقيقة، وأما (فتنة) فلو نصب لكان صحيحاً في العربية على تقدير: أن لا يكون قولهم فتنة، ولكن لم يقرأ به أحد.

٧. قال الرماني: وحد الحسبان هو قوة أحد النقيضين في النفس على الآخر وأصله الحساب، فالنقيض القوي يحتسب به دون الآخر أي هو فيما يحتسب ولا يطرح ومنه الحسب لأنه مما يحسب ولا يطرح لأجل الشرف ومنه قولهم: حسبك أي يكفيك، لأنه بحساب الكفاية ومنه احتساب الأجر، لأنه فيما يحتسب ويكفي.

٨. والفتنة ها هنا العقوبة، وقيل البلية ـ في قول السدي وقتادة والحسن ومجاهد ـ وقيل: الشدة، وكل ذلك متقارب، وقال ابن عباس: الفتنة ـ ها هنا ـ الشرك، وأصل الفتنة الاختبار، ومنه افتتن بفلانة إذا

هواها، لأنه يظهر ما يطوي من خبره بها، وفتنت الذهب في النار إذا خلصته ليظهر خبره في نفسه متميزاً من شائب غيره، وقوله: ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ﴾ أي يحرقون، فإذا هم خبث كلهم ﴿وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا﴾ أي اختبرناك اختباراً أي ليظهره خبرك على خلوص أمرك في طاعتك أو غير ذلك من حالك.

٩. وقوله: ﴿فَعَمُوا وَصَمُّوا﴾ معناه عن الحق على وجه التشبيه بالأعمى والأصم لأنه لا يهدي إلى طريق الرشد في الدين كما لا يهتدي هذا إلى طريق الرشد في الدنيا لأجل العمى والصمم، فكذلك أولئك لإعراضهم عن النظر.

١٠. وقوله: ﴿ثُمَّ تَابَ اللهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا﴾ إخبار منه تعالى أن هؤلاء الكفار حسبوا أن لا يكون فتنة على ما فسرناها ﴿فَعَمُوا وَصَمُّوا﴾ وقتلوا الأنبياء وكذبوهم ثم أن فريقاً منهم تابوا فتاب الله عليهم ﴿ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا﴾ يعني عادوا إلى ما كانوا عليه، وقيل قوله: ﴿ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا﴾ في الإقرار بالنبي ﷺ.

١١. وقوله: ﴿كَثِيرٌ مِنْهُمْ﴾ قال الزجاج يحتمل رفعه ثلاثة أوجه:

أ. أحدها: أن يكون بدلًا من الفاء، فكأنه لما قال: ﴿عَمُوا وَصَمُّوا﴾ أبدل الكثير منهم أي عمي وصم كثير منهم كما يقول جاءني قومك أكثرهم.

ب. الثاني: أن يكون جمع الفعل متقدماً على لغة من قال اكلوني البراغيث، وذهبوا قومك، قال أبو عمرو الهذلي:

ولكن ديافي أبوه وامه بحوران يعصرون السليط أقاربه

١٢. الثالث: أن يكون (كثيراً) خبر ابتداء محذوف والتقدير ذو العمى والصمم ﴿كَثِيرٌ مِنْهُمْ﴾ ثم بين تعالى: (إنه بصير) أي عالم ﴿بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ أي بأعمالهم.

الجشمي:

ذكر الحاكم الجشمي (ت ٤٩٤ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. شرح مختصر للكلمات:

---

(١) التهذيب في التفسير: ٣/٣٦٥.

أ. ﴿تَهْوَى﴾ الهواء: ممدودا الجو، والهوى مقصورا: هوى النفس، أخذ منه، يقال: هَوِيَ يَهْوَي.

ب. الفتنة أصله الاختبار، يقال: فتنت الذهب بالنار، أي أخلصته؛ ليظهر خيره وشره، ومنه ﴿وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا﴾ ثم يستعمل في معان.

ج. الحسبان: قوة أحد النقيضين في النفس على الآخر، ومنه الحساب، ورُسُل: جمع رسول نحو: غفور وغُفُر، وفجور وفجر، ومنهم من يُسَكِّن فيقول: رُسْلٌ، فتلغى الضمة استخفافًا.

٢. مما ذكر في علاقة الآية الكريمة بما قبلها:

أ. قيل: لما بَيَّنَ تعالى أنهم ليسوا على شيء حتى يقيموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم بين المنزل، وما أخذ عليهم من الميثاق، وأنهم قبلوا ثم خالفوا، عن أبي مسلم.

ب. وقيل: لما بَيَّنَ أنهم ليسوا على شيء حتى يؤمنوا بمحمد بين أنه أخذ عليهم الميثاق بذلك، وقصدهم بالخطاب عن الأصم.

ج. وقيل: لما بَيَّنَ أنهم ليسوا على شيء بَيَّنَ أن ذلك مما أخذ عليهم فيه الميثاق.

٣. ﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ﴾ أي أخذنا عهدهم، والميثاق العهد المؤكد باليمين، واختلفوا في ذلك:

أ. فقيل: هو ما أخذ عليهم أنبياؤهم في الإيمان بمحمد.

ب. وقيل: هو ما أخذ عليهم في إخلاص التوحيد والعمل بما أمر، والانتهاء عما نهى، ولا تنافي بينهما، فيحمل على الجميع.

٤. ﴿بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾:

أ. أولاد يعقوب، وإنما احتج على هَؤُلَاءِ المخاطبين بذكر الميثاق؛ لأنهم عرفوا ذلك في كتبهم واعترفوا بصحته، فالحجة لازمة عليهم، وتلزمهم المذمة بالمخالفة، كما لزمت آباءهم.

ب. وقيل: المراد به اليهود والنصارى، وما أمروا به في الكتابين.

٥. ﴿وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلًا﴾ يعني رسل بني إسرائيل ﴿كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ﴾ قيل: الَّذِينَ قتلوا: اليهودُ، والَّذِينَ كذبوا اليهود والنصارى، عن الأصم.

سؤال وإشكال: كيف يجوز القتل على الأنبياء؟ والجواب:

أ. يجوز بعد التبليغ كما جاز موتهم، عن أبي علي وجماعة.. وهو الأصح.

ب. وقِيل: الرسل على نوعين: أصحاب شرائع، فلا يجوز أن يقتلوا كنوح وإبراهيم وموسى وأشباههم، ومنهم رسل يعلمونهم ما ضيعوا، ويأمرونهم بالمعروف، وينهونهم عن المنكر، فيجوز أن يقتلوا، عن الأصم.

٦. سؤال وإشكال: فلم عصم نبينا ولم يعصمهم؟ والجواب:

أ. قيل: لبقاء المصلحة، وتعلقها به.

ب. وقيل: لأن العرب كانت أهل لسان وبيان، يعدون ذلك من مفاخرهم، وكانوا أهل حرب وشنآن، فنقض عادتهم بالوجهين بالقرآن والعصمة.

٧. ﴿وَحَسِبُوا﴾ ظنوا ﴿أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾:

أ. قيل: اختبار وامتحان.

ب. وقيل: عقوبة على قتلهم وتكذيبهم.

ج. وقيل: شديدة.

د. وقيل: كفر وتحير في الدين.

٨. ﴿فَعَمُوا وَصَمُّوا﴾:

أ. يعني عن الحق تشبيهًا بالأصم والأعمى الذي لا يهتدي إلى منافعه.

ب. وقيل: تركوا التدين في الحج، عن أبي مسلم.

ج. وقيل: تجرؤوا على قتل الأنبياء، وعموا عن النظر في دلائلهم، فصموا عن سماع الحق منهم.

د. وقيل: تحيروا في المسيح فقالت اليهود: كذاب، وقالت النصارى: إله، فمثل المتحير فيه كأنه أصم وأعمى، لا يبصر ولا يسمع.

هـ. وقيل: تحيروا في دينهم، فجعل الله لهم نورًا بأن بعث محمدًا ﷺ فعموا عنه وصموا، وكذبوه، عن الأصم.

٩. ﴿ثُمَّ تَابَ اللهُ عَلَيْهِمْ﴾:

أ. أي: ندموا فقبل الله توبتهم، فلما انقضت تلك القرون ونشأت قرون تخلقوا بأخلاق آبائهم، فعموا عن الحق، وصموا عن استماعه، والمراد كفروا بعد الإيمان.

ب. وقيل: رفع الله عنهم البلاء فعادوا كما كانوا.

١٠. ﴿كَثِيرٌ مِنْهُمْ﴾:

أ. قيل: أراد من كان في عصر نبينا ﷺ.

ب. وقيل: كثير منهم في كل وقت.

١١. ﴿وَاللهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ أي عليم بأعمالهم يجازيهم بها، وفيه وعيد لهم.

١٢. تدل الآية الكريمة على:

أ. أنه يجوز أن يخلي الله تعالى بين رسوله وبين الكفار حتى يقتلوه، وقد بينا ما قيل فيه ومتى يجوز ذلك.

ب. أن المكلف قد يكفر بعد الإيمان خلاف ما قال بعضهم؛ لأن المراد بـ ﴿عَمُوا وَصَمُّوا﴾: كفروا.

ج. أن أفعال العباد حادثة من جهتهم؛ لذلك أخذ منهم الميثاق، ولذلك أضاف القتل والتكذيب إليهم، ولذلك قال: ﴿بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾، وكل ذلك يبطل قولهم في المخلوق.

١٣. اختلفوا في ﴿أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ فقرأ برفع النون حمزة والكسائي، وأبو عمرو ويعقوب، وقرأ الباقون بالنصب، أما الرفع فعلى تقدير: حسبوا أنه لا يكون بإضمار الهاء، وهو حسن في العربية، وأما النصب فعلى مخرج اللفظ، نصب بـ ﴿أَنْ﴾ وترك المبالاة بـ ﴿لَا﴾، واتفقوا في رفع ﴿فِتْنَةً﴾

١٤. مسائل لغوية ونحوية:

أ. في عطف المستقبل على الماضي في قوله: ﴿فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ﴾ قولان:

• الأول: ليدل على أن ذلك من شأنهم، ففيه معنى كذبوا وقتلوا، ويكذبون ويقتلون، مع التشاكل الذي حصل بعطف المفعول على المفعول.

• الثاني: أنه على تقدير: فريقًا كذبوا لم يقتلوا، وفريقًا كذبوا يقتلون، فيكون يقتلون صفة للفريق، ونصب ﴿فَرِيقًا﴾ لأنه مفعول، تقديره: كذبوا فريقًا وقتلوا فريقًا.

ب. رفع ﴿فِتْنَةً﴾ على معنى: وحسبوا ألَّا تقع فتنة، ﴿عَمُوا وَصَمُّوا﴾ فجمع، ثم قال: ﴿كَثِيرٌ مِنْهُمْ﴾، وإنما جاز ذلك؛ لأنه لما قال: ﴿فَعَمُوا وَصَمُّوا﴾ كأنه قيل: من هم؟ فقال: كثير منهم، كما تقول العرب: أكلوني البراغيث، كأنه قال أكلوني فقيل: من؟ قال البراغيث.

ج. خفف ﴿عَمُوا﴾ لأنه من عَمِيَ يَعْمَى، وشدد (صمّوا)؛ لأنه من الصمم، فلا بد من تثقيل الميم.

الطَبِرسي:

ذكر الفضل الطَبِرسي (ت ٥٤٨ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. شرح مختصر للكلمات:

أ. الهوى: هو لطف محل الشيء من النفس، مع الميل إليه، بما لا ينبغي، فلذلك غلب على الهوى صفة الذم، ويقال هوى يهوى، هوى، وهوى يهوي هويا: إذا انحط من الهوى وأهوى بيده: إذا انحط بها ليأخذ شيئا، وهاوية جهنم، لأنها يهوي فيها، وهم يتهاوون في المهواة: إذا سقط بعضهم على بعض، والفرق بين الهوى والشهوة: أن الشهوة تتعلق بالمدركات، فيشتهي الإنسان الطعام، ولا يهوى الطعام.

ب. الحسبان: هو قوة أحد النقيضين في النفس على الآخر، وأصله الحساب، فالنقيض القوي يحتسب به دون الآخر أي: هو مما يحتسب، ولا يطرح، ومنه الحسب: لأنه مما يحتسب ولا يطرح لأجل الشرف، ومنه قولهم حسبك: أي يكفيك، لأنه بحساب الكفاية، ومنه احتساب الاجر: لأنه فيما يحتسب ولا يلغى.

ج. الفتنة ههنا العقوبة، وأصله الاختبار، ومنه افتتن فلان بفلانة: إذا هويها، لأنه ظهر ما يطوي من خبره بها، وفتنت الذهب بالنار: إذا خلصته ليظهر خبره في نفسه، متميزا من شائب غيره.

٢. أقسم سبحانه بأنه أخذ عليهما الميثاق فقال: ﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾:

أ. يريد الأيمان المؤكدة التي أخذها أنبياؤهم عليهم في الإيمان بمحمد، والاقرار به.

ب. وقيل: أخذ ميثاقهم على الاخلاص في التوحيد، والعمل بما أمر به، والانتهاء عما نهى عنه، والتصديق برسله، والبشارة بمحمد ﷺ، ووجه الاحتجاج عليهم بذلك وإن كان أخذ الميثاق على آبائهم، أنهم عرفوا ذلك في كتبهم، وأقروا بصحته، فالحجة لازمة لهم، وعتب المخالفة يلحقهم، كما يلحق آباءهم.

٣. ﴿وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلًا كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ﴾ أي: مما لا تهوى أنفسهم، أي: بما لا يوافق مرادهم ﴿فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ﴾ أي: كذبوا طائفة، وقتلوا طائفة.

---

(١) تفسير الطبرسي: ٣٤٧/٣.

٤. سؤال وإشكال: لم عطف المستقبل على الماضي؟ والجواب: ليدل على أن ذلك من شأنهم، ففيه معنى كذبوا وقتلوا، ويكذبون ويقتلون، مع أن قوله يقتلون فاصلة، يجب أن يكون موافقا لرؤوس الآي، ويمكن أن يقال التقدير فيه فريقا كذبوا لم يقتلوه، وفريقا كذبوا يقتلون، فيكون ﴿يَقْتُلُونِ﴾ صفة للفريق، ولم يكن فيه عطف المستقبل على الماضي، وعلى الجواب الأول لم يكن كذبوا ويقتلون صفة للفريق، لان التقدير كذبوا فريقا ويقتلون فريقا.

٥. وقد ذكرنا تفسير الفريقين في سورة البقرة، عند قوله: ﴿فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾

٦. ﴿وَحَسِبُوا﴾ أي وظنوا ﴿أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾:

أ. أي: عقوبة على قتلهم وتكذيبهم، يريد وظنوا أن الله لا يعذبهم، عن عطاء، عن ابن عباس.

ب. وقيل: حسب القوم أن لا يكون بلية، عن قتادة، والحسن، والسدي.

ج. وقيل: فتنة: أي شدة وقحط، عن مقاتل.

د. والكل متقارب.

هـ. وقيل: وحسبوا فعلهم غير فاتن لهم، وذلك أنهم كانوا يقولون نحن أبناء الله وأحباؤه، عن الزجاج.

و. وقيل: معناه وقدروا أن لا تقع بهم فتنة في الإصرار على الكفر، وظنوا أن ذلك لا يكون موبقا لهم، عن ابن الأنباري.

٧. ﴿فَعَمُوا وَصَمُّوا﴾ على التشبيه بالأعمى والأصم، لأنه لا يهتدي إلى طريق الرشد في الدين، لإعراضه عن النظر، كما لا يهتدي هذا إلى طريق الرشد في الدنيا، لأجل عماه وصممه.

٨. ﴿ثُمَّ تَابَ اللهُ عَلَيْهِمْ﴾ يريد: إن فريقا منهم تابوا، فتاب الله عليهم ﴿ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا﴾:

أ. أي عادوا إلى ما كانوا عليه، يريد: فلما انقضت تلك القرون، ونشأت قرون أخر، تخلقوا بأخلاق آبائهم، فعموا عن الحق، وصموا عن استماعه.

ب. وقيل: معناه لما تابوا دفع الله عنهم البلاء، ثم صار ﴿كَثِيرٌ مِنْهُمْ﴾ كما كانوا.

ج. وقيل: أراد بكثير منهم من كان في عصر نبينا ﷺ.

٩. ﴿وَاللهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ أي: عليم بأعمالهم وهذا كالوعيد لهم.

١٠. قرأ أبو عمرو، وحمزة، والكسائي (أن لا تكون) بالرفع، والباقون بالنصب، ولم يختلفوا في رفع ﴿فِتْنَةٌ﴾:

أ. من قرأ ﴿أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾، بالرفع، جعل أن مخففة من الثقيلة، وأضمر الهاء، وجعل (حسبوا) بمعنى العلم، وعلى هذا الوجه تثبت النون في الخط.

ب. وأما النصب فعلى أنه جعل أن الناصبة للفعل، ولم يجعل حسبوا بمعنى العلم، وعلى هذا الوجه تسقط النون من الخط.

١١. مسائل لغوية ونحوية:

أ. اللام في لقد: لام القسم.

ب. نصب فريقا في الموضعين بأنه مفعول به، قال أبو علي الفارسي: الأفعال على ثلاثة أضرب: فعل يدل على ثبات الشيء واستقراره، وذلك نحو العلم، واليقين، والتبيين، وفعل يدل على خلاف الاستقرار والثبات، وفعل يجذب مرة إلى هذا القبيل، ومرة إلى هذا القبيل:

- فما كان معناه العلم وقع بعده إن الثقيلة، ولم يقع بعده الخفيفة الناصبة للفعل، وذلك أن الثقيلة معناها ثبات الشيء واستقراره، والعلم بأنه كذلك أيضا فإذا وقع عليه واستعمل معه كان وفقه، وأن الناصبة للفعل لا تقع على ما كان ثابتا مستقرا، فمن استعمال الثقيلة بعد العلم قوله: ﴿وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ﴾ (أولم يعلم بأن الله يرى) لان الباء زائدة.

- وأما ما كان معناه ما لم يثبت، ولم يستقر، فنحو: أطمع، وأخاف، وأرجو، وأخشى، ونحو ذلك، ويستعمل بعده الخفيفة الناصبة للفعل قال تعالى: ﴿وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي﴾، ﴿فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا﴾

- وأما ما يجذب مرة إلى هذا الباب، ومرة إلى هذا الباب، فنحو حسبت، وظننت، وزعمت، وهذا النحو يجعل مرة بمنزلة أرجو وأطمع من حيث كان أمرا غير مستقر، ومرة يجعل بمنزلة العلم من حيث يستعمل استعماله، ومن حيث كان خلافه، والشيء قد يجري مجرى الخلاف نحو: عطشان وريان، فأما استعمالهم إياه استعمال العلم فهو أنهم قد أجابوه بجواب القسم، حكى سيبويه: ظننت لتسبقني، وظنوا ما لهم من محيص، كما قالوا: ولقد علمت لتأتين منيتي، ولقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السماوات

والأرض.

ج. كلهم قرأ ﴿فِتْنَةٌ﴾ بالرفع لأنهم جعلوا كان بمنزلة وقع، ولو نصب فقيل: أن لا تكون فتنة على أن لا يكون قوله فتنة، لكان جائزا في العربية، وإنما رفع لاتباع الأثر.

د. إنما حسن وقوع أن الخفيفة من الشديدة، في قراءة من رفع، وإن كان بعده فعل، لدخول لا ولكونها عوضا عن حذف الضمير معه، وإيلائه ما لم يكن يليه، ولو قلت: علمت أن تقول، لم يحسن حتى تأتي بما يكون عوضا نحو: قد، ولا، والسين، وسوف، كما في قوله: ﴿عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضَى﴾: فإن قلت قد جاء ﴿وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى﴾ فلم يدخل بين أن، وليس، شيء فإنما جاء هذا لان ليس ليس بفعل على الحقيقة.

هـ. أما قوله: ﴿كَثِيرٌ مِنْهُمْ﴾ فيرتفع من ثلاثة أوجه:

- أحدها: أن يكون بدلا من الواو في عموا وصموا.
- الثاني: أن يكون خبر مبتدأ محذوف، كأنه قال ذو العمى والصمم كثير منهم.
- الثالث: أن يكون على لغة أكلوني البراغيث، وعليه قول الشاعر:

يلومونني في اشتراء النخيل ... أهلي فكلهم يعذل

وقال الفرزدق:

ألفيتا عيناك عند القفا ... أولى فأولى لك ذا واقية

وقال الهذلي:

ولكن ديافي أبوه وأمه ... بحوران يعصرن السليط أقاربه

ابن الجوزي:

ذكر أبو الفرج بن الجوزي (ت ٥٩٧ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١ . ﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ قال مقاتل: أخذ ميثاقهم في التّوراة بأن يعملوا بما فيها، قال ابن عباس: كان فيمن كذّبوا، محمّد وعيسى، وفيمن قتلوا: زكريّا ويحيى، قال الزجّاج: فأمّا التّكذيب،

---

(١) زاد المسير في علم التفسير: ١/٥٧١.

فاليهود والنّصارى يشتركون فيه، وأمّا القتل فيختصّ اليهود.

٢. ﴿وَحَسِبُوا أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وعاصم، وابن عامر: ﴿تَكُونُ﴾ بالنّصب، وقرأ أبو عمرو، وحمزة، والكسائيّ: (تكون) بالرّفع، ولم يختلفوا في رفع (فتنة):

أ. قال مكّيّ بن أبي طالب: من رفع جعل (أن) مخفّفة من الثّقيلة، وأضمر معها (الهاء)، وجعل (حسبوا) بمعنى: أيقنوا، لأنّ (أن) للتأكيد، والتّأكيد لا يجوز إلّا مع اليقين، والتّقدير: أنه لا تكون فتنة، ومن نصب جعل (أن) هي النّاصبة للفعل، وجعل (حسبوا) بمعنى: ظنّوا، ولو كان قبل (أن) فعل لا يصلح للشّكّ، لم يجز أن تكون إلا مخفّفة من الثّقيلة، ولم يجز نصب الفعل بها، كقوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ﴾، و﴿عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ﴾

ب. وقال أبو عليّ: الأفعال ثلاثة: فعل يدلّ على ثبات الشّيء واستقراره، نحو العلم والتّيقّن، وفعل يدلّ على خلاف الثّبات والاستقرار، وفعل يجذب إلى هذا مرة، وإلى هذا أخرى، فما كان معناه العلم، وقعت بعده (أنّ) الثّقيلة، لأن معناها ثبوت الشّيء واستقراره، كقوله تعالى: ﴿وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ﴾، ﴿أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللهَ يَرَى﴾، وما كان على غير وجه الثّبات والاستقرار نحو: أطمع وأخاف وأرجو، وقعت بعده (أن) الخفيفة، كقوله تعالى: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللهِ﴾، ﴿تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ﴾، ﴿فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا﴾، ﴿أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي﴾، وما كان متردّدا بين الحالين مثل حسبت وظننت، فإنه يجعل تارة بمنزلة العلم، وتارة بمنزلة أرجو وأطمع، وكلتا القراءتين في ﴿وَحَسِبُوا أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ قد جاء بها التّنزيل، فمثل مذهب من نصب: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ﴾، ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا﴾، ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا﴾، ومثل مذهب من رفع: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ﴾، ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ﴾، قال ابن عباس: ظنّوا أنّ الله لا يعذّبهم، ولا يبتليهم بقتلهم الأنبياء، وتكذيبهم الرّسل.

٣. ﴿فَعَمُوا وَصَمُّوا﴾ قال الزجّاج: هذا مثل تأويله: أنهم لم يعملوا بما سمعوا ورأوا من الآيات، فصاروا كالعمي الصّمّ.

٤. ﴿ثُمَّ تَابَ اللهُ عَلَيْهِمْ﴾ فيه قولان:

أ. أحدهما: رفع عنهم البلاء، قاله مقاتل، وقال غيره: هو ظفرهم بالأعداء، وذلك مذكور في قوله

تعالى: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ﴾

ب. الثاني: أنّ معنى (تاب عليهم): أرسل إليهم محمّدا يعلمهم أنّ الله قد تاب عليهم إن آمنوا وصدّقوا، قاله الزجّاج.

٥. في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا﴾ قولان:

أ. أحدهما: لم يتوبوا بعد رفع البلاء، قاله مقاتل.

ب. الثاني: لم يؤمنوا بعد بعثة محمّد ﷺ، قاله الزجّاج.

٦. ﴿كَثِيرٌ مِنْهُمْ﴾ أي: عمي وصمّ كثير منهم، كما تقول: جاءني قومك أكثرهم، قال ابن الأنباريّ: هذه الآية نزلت في قوم كانوا على الكفر قبل أن يبعث رسول الله ﷺ، فلما بعث كذّبوه بغيا وحسدا، وقدّروا أنّ هذا الفعل لا يكون موبقا لهم، وجانيا عليهم، فقال الله تعالى: ﴿وَحَسِبُوا أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ أي: ظنّوا ألّا تقع بهم فتنة في الإصرار على الكفر، فعموا وصمّوا بمجانبة الحقّ، ﴿ثُمَّ تَابَ اللهُ عَلَيْهِمْ﴾ أي: عرّضهم للتّوبة بأن أرسل محمّدا ﷺ وإن لم يتوبوا، ثم عموا وصمّوا بعد بيان الحقّ بمحمّد، كثير منهم، فخصّ بعضهم بالفعل الأخير، لأنهم لم يجتمعوا كلّهم على خلاف رسول الله ﷺ.

الرَّازي:

ذكر الفخر الرازي (ت ٦٠٦ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. المقصود بيان عتو بني إسرائيل وشدة تمردهم عن الوفاء بعهد الله، وهو متعلق بما افتتح الله به السورة، وهو قوله: ﴿أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ [المائدة: ١] فقال: ﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ يعني خلقنا الدلائل وخلقنا العقل الهادي إلى كيفية الاستدلال، وأرسلنا إليهم رسلا بتعريف الشرائع والأحكام.

٢. ﴿كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ﴾ جملة شرطية وقعت صفة لقوله: ﴿رُسُلًا﴾ والراجع محذوف، والتقدير: كلما جاءهم رسول منهم بما لا تهوى أنفسهم، أي بما يخالف أهواءهم وما يضاد شهواتهم من مشاق التكليف.

٣. سؤال وإشكال: أين جواب الشرط، فإن قوله: ﴿فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ﴾ لا يصلح أن

---

(١) التفسير الكبير: ١٢/٤٠٥.

يكون جوابا لهذا الشرط، لأن الرسول الواحد لا يكون فريقين؟ والجواب:

أ. جواب الشرط محذوف، وإنما جاز حذفه لأن الكلام المذكور دليل عليه، والتقدير: كلما جاءهم رسول ناصبوه، ثم إنه قيل: فكيف ناصبوه؟ فقيل: فريقا كذبوا وفريقا يقتلون.

ب. وقوله: الرسول الواحد لا يكون فريقين، فنقول: إن قوله: ﴿كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ﴾ يدل على كثرة الرسل، فلا جرم جعلهم فريقين.

٤. سؤال وإشكال: لم ذكر أحد الفعلين ماضيا، والآخر مضارعا؟ والجواب:

أ. أنه تعالى بيّن أنهم كيف كانوا يكذبون عيسى وموسى في كل مقام، وكيف كانوا يتمردون على أوامره وتكاليفه، وأنه عليه السلام إنما توفي في التيه على قول بعضهم لشؤم تمردهم عن قبول قوله في مقاتلة الجبارين.

ب. وأما القتل فهو ما اتفق لهم في حق زكريا ويحيى عليهما السلام، وكانوا قد قصدوا أيضا قتل عيسى وإن كان الله منعهم عن مرادهم وهم يزعمون أنهم قتلوه، فذكر التكذيب بلفظ الماضي هنا إشارة إلى معاملتهم مع موسى عليه السلام؛ لأنه قد انقضى من ذلك الزمان أدوار كثيرة، وذكر القتل بلفظ المضارع إشارة إلى معاملتهم مع زكريا ويحيى وعيسى عليهم السلام لكون ذلك الزمان قريبا فكان كالحاضر.

٥. سؤال وإشكال: ما الفائدة في تقديم المفعول في قوله تعالى: ﴿فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ﴾، والجواب: قد عرفت أن التقديم إنما يكون لشدة العناية، فالتكذيب والقتل وإن كانا منكرين إلا أن تكذيب الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وقتلهم أقبح، فكان التقديم لهذه الفائدة.

٦. ﴿وَحَسِبُوا أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ قرأ حمزة والكسائي وأبو عمرو أن لا تكون فتنة برفع نون (تكون) والباقون بالنصب، وذكر الواحدي لهذا تقريرا حسنا فقال: الأفعال على ثلاثة أضرب:

أ. الأول: فعل يدل على ثبات الشيء واستقراره نحو: العلم والتيقن والتبين، فما كان مثل هذا يقع بعده (أن) الثقيلة ولم يقع بعده (أن) الخفيفة الناصبة للفعل، وذلك لأن الثقيلة تدل على ثبات الشيء واستقراره، فإذا كان العلم يدل على الاستقرار والثبات و(أن) الثقيلة تفيد هذا المعنى حصلت بينهما موافقة ومجانسة، ومثاله من القرآن قوله تعالى: ﴿وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ﴾ [النور: ٢٥] ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ

اللهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ﴾ [التوبة: ١٠٤] ﴿أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللهَ يَرَى﴾ [العلق: ١٤] والباء زائدة.

ب. الثاني: فعل يدل على خلاف الثبات والاستقرار، نحو: أطمع وأخاف وأرجو، فهذا لا يستعمل فيه إلا الخفيفة الناصبة للفعل، قال تعالى: ﴿وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي﴾ [الشعراء: ٨٢] ﴿تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ﴾ [الأنفال: ٢٦] ﴿فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا﴾ [الكهف: ٨٠]

ج. الثالث: فعل يحذو مرة إلى هذا القبيل ومرة أخرى إلى ذلك القبيل نحو: حسب وأخواتها، فتارة تستعمل بمعنى أطمع وأرجو فيما لا يكون ثابتا ومستقرا، وتارة بمعنى العلم فيما يكون مستقرا.

٧. يمكن إجراء الحسبان هاهنا:

أ. بحيث يفيد الثبات والاستقرار، لأن القوم كانوا جازمين بأنهم لا يقعون بسبب ذلك التكذيب والقتل في الفتنة والعذاب.

ب. ويمكن إجراؤه بحيث لا يفيد هذا الثبات من حيث إنهم كانوا يكذبون ويقتلون بسبب حفظ الجاه والتبع، فكانوا بقلوبهم عارفين بأن ذلك خطأ ومعصية.

ج. وإذا كان اللفظ محتملا لكل واحد من هذين المعنيين لا جرم ظهر الوجه في صحة كل واحدة من هاتين القراءتين، فمن رفع قوله أن لا تكون كان المعنى: أنه لا تكون، ثم خففت المشددة وجعلت (لا) عوضا من حذف الضمير، فلو قلت: علمت أن يقول، بالرفع لم يحسن حتى تأتي بما يكون عوضا من حذف الضمير: نحو السين وسوف وقد، كقوله: ﴿عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ﴾ [المزمل: ٢٠] ووجه النصب ظاهر.

٨. قال الواحدي: وكلا الوجهين قد جاء به القرآن:

أ. فمثل قراءة من نصب وأوقع بعده الخفيفة قوله: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا﴾ [العنكبوت: ٤] ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ﴾ [الجاثية: ٢١] ﴿الم أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا﴾ [العنكبوت: ١، ٢]

ب. ومثل قراءة من رفع ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ﴾ [الزخرف: ٨٠] ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ﴾ [المؤمنون: ٥٥] ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَلَّنْ نَجْمَعَ﴾ [القيامة: ٣] فهذه مخففة من الثقيلة لأن الناصبة للفعل لا يقع بعدها (لن)

ج. ومثل المذهبين في الظن قوله: ﴿تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ﴾ [القيامة: ٢٥] ﴿إِنْ ظَنَّا أَنْ يُقِيمَا﴾ [البقرة:

٢٣٠] ومن الرفع قوله: ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ تَقُولَ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ﴾ [الجن: ٥] ﴿وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَبْعَثَ اللهُ أَحَدًا﴾ [الجن: ٧] فإن هاهنا الخفيفة من الشديدة كقوله: ﴿عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ﴾ [المزمل: ٢٠] لأن (أن) الناصبة للفعل لا تجتمع مع لن، لأن (لن) تفيد التأكيد، و(أن) الناصبة تفيد عدم الثبات كما قررناه.

٩. باب (حسب) من الأفعال التي لا بدّ لها من مفعولين، إلا أن قوله: ﴿أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ جملة قامت مقام مفعولي حسب لأن معناه: وحسبوا الفتنة غير نازلة بهم.

١٠. ذكر المفسرون في (الفتنة) وجوها، وهي محصورة في عذاب الدنيا وعذاب الآخرة، ثم عذاب الدنيا أقسام: منها القحط، ومنها الوباء، ومنها القتل، ومنها العداوة، ومنها البغضاء فيما بينهم، ومنها الأدبار والنحوسة، وكل ذلك قد وقع بهم، وكل واحد من المفسرين حمل الفتنة على واحد من هذه الوجوه.

١١. حسبانهم أن لا تقع فتنة يحتمل وجهين:

أ. الأول: أنهم كانوا يعتقدون أن النسخ ممتنع على شرع موسى عليه السلام، وكانوا يعتقدون أن الواجب عليهم في كل رسول جاء بشرع آخر أنه يجب عليهم تكذيبه وقتله.

ب. الثاني: أنهم وإن اعتقدوا في أنفسهم كونهم مخطئين في ذلك التكذيب والقتل إلا أنهم كانوا يقولون: نحن أبناء الله وأحباؤه، وكانوا يعتقدون أن نبوّة أسلافهم وآبائهم تدفع عنهم العقاب الذي يستحقونه بسبب ذلك القتل والتكذيب.

١٢. ﴿فَعَمُوا وَصَمُّوا ثُمَّ تَابَ اللهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا كَثِيرٌ مِنْهُمْ وَاللهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ الآية دالة على أن عماهم وصممهم عن الهداية إلى الحق حصل مرتين، واختلف المفسرون في المراد بهاتين المرتين على وجوه:

أ. الأول: المراد أنهم عموا وصموا في زمان زكريا ويحيى وعيسى عليهم السلام، ثم تاب الله على بعضهم حيث وفق بعضهم للإيمان به، ثم عموا وصموا كثير منهم في زمان محمد ﷺ بأن أنكروا نبوّته ورسالته، وإنما قال: ﴿كَثِيرٌ مِنْهُمْ﴾ لأن أكثر اليهود وإن أصروا على الكفر بمحمد ﷺ إلا أن جمعا منهم آمنوا به: مثل عبد الله بن سلام وأصحابه.

ب. الثاني: عموا وصموا حين عبدوا العجل، ثم تابوا عنه فتاب الله عليهم، ثم عموا وصموا كثير منهم بالتعنت، وهو طلبهم رؤية الله جهرة ونزول الملائكة.

ج. الثالث: قال القفال تعالى: ذكر الله تعالى في سورة بني إسرائيل ما يجوز أن يكون تفسيرا لهذه الآية فقال: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا﴾ [الإسراء: ٤ـ ٦] فهذا في معنى ﴿فَعَمُوا وَصَمُّوا﴾ ثم قال: ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا﴾ [الإسراء: ٧] فهذا في معنى قوله: ﴿ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا كَثِيرٌ مِنْهُمْ﴾

د. الرابع: أن قوله: ﴿فَعَمُوا وَصَمُّوا﴾ إنما كان برسول أرسل إليهم مثل داوود وسليمان وغيرهما فآمنوا به فتاب الله عليهم، ثم وقعت فترة فعموا وصموا مرة أخرى.

١٣. قرئ عموا وصموا بالضم على تقدير: عماهم الله وصممهم الله، أي رماهم وضربهم بالعمى والصمم، كما تقول: نزكته إذا ضربته بالنزك، وهو رمح قصير، وركبته إذا ضربته بركبتك.

١٤. في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا كَثِيرٌ مِنْهُمْ﴾ وجوه:

أ. الأول: على مذهب من يقول من العرب (أكلوني البراغيث)

ب. الثاني: أن يكون ﴿كَثِيرٌ مِنْهُمْ﴾ بدلا عن الضمير في قوله: ﴿ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا﴾ والإبدال كثير في القرآن قال تعالى: ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾ [السجدة: ٧]، وقال: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ [آل عمران: ٩٧] وهذا الإبدال هاهنا في غاية الحسن، لأنه لو قال عموا وصموا لأوهم ذلك أن كلهم صاروا كذلك، فلما قال: ﴿كَثِيرٌ مِنْهُمْ﴾ دل على أن ذلك حاصل للأكثر لا للكل.

ج. الثالث: أن قوله: ﴿كَثِيرٌ مِنْهُمْ﴾ خبر مبتدأ محذوف، والتقدير: هم كثير منهم.

١٥. لا شك أن المراد بهذا العمى والصمم الجهل والكفر، فنقول: إن فاعل هذا الجهل هو الله تعالى أو العبد، والأول: يبطل قوله المعتزلة ـ ومن وافقهم ـ والثاني: باطل لأن الإنسان لا يختار ألبتة تحصيل الجهل والكفر لنفسه، سؤال وإشكال: إنما اختاروا ذلك لأنهم ظنوا أنه علم، والجواب: حاصل هذا أنهم إنما اختاروا هذا الجهل لسبق جهل آخر، إلا أن الجهالات لا تتسلسل بل لا بدّ من انتهائها إلى الجهل الأول، ولا يجوز أن يكون فاعله هو العبد لما ذكرناه، فوجب أن يكون فاعله هو الله تعالى.

١٦. ﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ أي من قتل الأنبياء وتكذيب الرسل، والمقصود منه التهديد.

القرطبي:

ذكر محمد بن أحمد القرطبي (ت ٦٧١ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١ . ﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلًا﴾، قد تقدم في البقرة معنى الميثاق وهو ألا يعبدوا إلا الله، وما يتصل به، والمعنى في هذه الآية لا تأس على القوم الكافرين فإنا قد أعذرنا إليهم، وأرسلنا الرسل فنقضوا العهود، وكل هذا يرجع إلى ما افتتحت به السورة وهو قوله: ﴿أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ [المائدة]

٢ . ﴿كُلَّمَا جَاءَهُمْ﴾ أي اليهود ﴿رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ﴾ لا يوافق هواهم ﴿فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ﴾ أي كذبوا فريقا وقتلوا فريقا، فمن كذبوه عيسى ومن مثله من الأنبياء، وقتلوا زكريا ويحيى وغيرهما من الأنبياء.

٣. إنما قال: ﴿يَقْتُلُونِ﴾ لمراعاة رأس الآية، وقيل: أراد فريقا كذبوا، وفريقا قتلوا، وفريقا يكذبون وفريقا يقتلون، فهذا دأبهم وعادتهم فاختصر، وقيل: فريقا كذبوا لم يقتلوهم، وفريقا قتلوهم فكذبوا، و﴿يَقْتُلُونِ﴾ نعت لفريق.

٤ . ﴿وَحَسِبُوا أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ المعنى، ظن هؤلاء الذين أخذ عليهم الميثاق أنه لا يقع من الله تعالى ابتلاء واختبار بالشدائد، اغترارا بقولهم: نحن أبناء الله وأحباؤه، وإنما اغتروا بطول الإمهال، وقرأ أبو عمرو وحمزة والكسائي ﴿تَكُونُ﴾ بالرفع، ونصب الباقون، فالرفع على أن حسب بمعنى علم وتيقن، و﴿أَنْ﴾ مخففة من الثقيلة ودخول ﴿لَا﴾ عوض من التخفيف، وحذف الضمير لأنهم كرهوا أن يليها الفعل وليس من حكمها أن تدخل عليه، ففصلوا بينهما بلا)، ومن نصب جعل ﴿أَنْ﴾ ناصبة للفعل، وبقي حسب على بابه من الشك وغيره، قال سيبويه: حسبت ألا يقول ذلك، أي حسبت أنه قال ذلك، وإن شئت نصبت، قال النحاس: والرفع عند النحويين في حسب وأخواتها أجود كما قال:

ألا زعمت بسباسة اليوم أنني   كبرت وألا يشهد اللهو أمثالي

وإنما صار الرفع أجود، لان حسب وأخواتها بمنزلة العلم لأنه شي ثابت.

---

(١) تفسير القرطبي: ٦/٢٤٧.

٥ . ﴿فَعَمُوا﴾ أي عن الهدى، ﴿وَصَمُّوا﴾ أي عن سماع الحق، لأنهم لم ينتفعوا بما رأوه ولا سمعوه، ﴿ثُمَّ تَابَ اللهُ عَلَيْهِمْ﴾ في الكلام إضمار، أي أوقعت بهم الفتنة فتابوا فتاب الله عليهم بكشف القحط، أو بإرسال محمد ﷺ يخبرهم بأن الله يتوب عليهم إن آمنوا، فهذا بيان ﴿تَابَ اللهُ عَلَيْهِمْ﴾ أي يتوب عليهم إن آمنوا وصدقوا لا أنهم تابوا على الحقيقة.

٦ . ﴿ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا كَثِيرٌ مِنْهُمْ﴾ أي عمي كثير منهم وصم بعد تبين الحق لهم بمحمد ﷺ، فارتفع ﴿كَثِيرٌ﴾ على البدل من الواو، وقال الأخفش سعيد: كما تقول رأيت قومك ثلثيهم، وإن شئت كان على إضمار مبتدأ أي العمي والصم كثير منهم، وإن شئت كان التقدير العمي والصم منهم كثير، وجواب رابع أن يكون على لغة من قال (أكلوني البراغيث) وعليه قول الشاعر:

ولكن ديافي أبوه وأمه   بحوران يعصرن السليط أقاربه

ومن هذا المعنى قوله: ﴿وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ [الأنبياء]، ويجوز في غير القرآن ﴿كَثِيرًا﴾ بالنصب يكون نعتا لمصدر محذوف.

الشوكاني:

ذكر محمد بن علي الشوكاني (ت ١٢٥٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١ . ﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ كلام مبتدأ لبيان بعض أفعالهم الخبيثة، وقد تقدّم في البقرة بيان معنى الميثاق ﴿وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلًا﴾ ليعرّفوهم بالشرائع وينذروهم ﴿كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ﴾ جملة شرطية وقعت جوابا لسؤال ناس من الأحبار بإرسال الرسل كأنه قيل: ماذا فعلوا بالرسل؟ وجواب الشرط محذوف، أي عصوه.

٢ . ﴿فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ﴾ جملة مستأنفة أيضا جواب عن سؤال ناس عن الجواب الأوّل كأنه قيل: كيف فعلوا بهم؟ فقيل: فريقا منهم كذبوهم ولم يتعرضوا لهم بضرر، وفريقا آخر منهم قتلوهم، وإنما قال: ﴿وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ﴾ لمراعاة رؤوس الآي، فمن كذّبوه عيسى وأمثاله من الأنبياء، وممن قتلوه زكريا ويحيى.

---

(١) فتح القدير: ٢/٧٣.

٣. ﴿وَحَسِبُوا أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ أي حسب هؤلاء الذين أخذ الله عليهم الميثاق أن لا يقع من الله عز وجل ابتلاء واختبار بالشدائد اعتزازا بقولهم: ﴿نَحْنُ أَبْنَاءُ اللهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾، قرأ أبو عمرو وحمزة والكسائي تكون بالرفع على أنّ أن هي المخففة من الثقيلة، وحسب بمعنى علم، لأن أن معناها التحقيق، وقرأ الباقون بالنصب على أنّ أن ناصبة للفعل، وحسب بمعنى الظن، قال النحاس: والرفع عند النحويين في حسب وأخواتها أجود، ومثله:

ألا زعمت بسباسة اليوم أنّني　　　كبرت وألّا يشهد اللهو أمثالي

٤. ﴿فَعَمُوا وَصَمُّوا﴾ أي عموا عن إبصار الهدى، وصمّوا عن استماع الحق، وهذه إشارة إلى ما وقع من بني إسرائيل في الابتداء من مخالفة أحكام التوراة، وقتل شعيا، ثم تاب الله عليهم حين تابوا، فكشف عنهم القحط ﴿ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا كَثِيرٌ مِنْهُمْ﴾ وهذا إشارة إلى ما وقع منهم بعد التوبة من قتل يحيى بن زكريا وقصدهم قتل عيسى، وارتفاع ﴿كَثِيرٍ﴾ على البدل من الضمير في الفعلين، قال الأخفش: كما تقول رأيت قومك ثلاثتهم، وإن شئت كان على إضمار مبتدأ: أي العمي والصمّ كثير منهم، ويجوز أن يكون كثير مرتفعا على الفاعلية على لغة من قال أكلوني البراغيث، ومنه قوله الشاعر:

ولكن ديافيّ أبوه وأمّه　　　بحوران يعصرن السّليط أقاربه

وقرئ ﴿عَمُوا وَصَمُّوا﴾ بالبناء للمفعول: أي أعماهم الله وأصمهم.

أَطَّفَيِّش:

ذكر محمد أَطَّفَيِّش (ت ١٣٣٢ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. ﴿لَقَدَ اَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَآءِيلَ﴾ في التوراة بالتوحيد والعمل بما فيها، وممَّا فيها: الإيمان بمحمَّدٍ والقرآن والعمل به، ﴿وَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ﴾ منهم ﴿رُسُلاً﴾ كثيرة عظامًا، جارين على حكم التوراة ﴿كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولٌ﴾ من تلك الرُّسل ﴿بِمَا لَا تَهْوَى أَنفُسُهُمْ﴾ لصعوبته أو لغيرها، (كلَّما كان كذا كان كذا)، كهذه الآية، يعدُّها المناطقة قَضِيَّة شرطيَّة لشبهه بالشرط والجواب في الارتباط والتعلُّق، ونصبه على الظرفيَّة لإضافته للمصدر النائب عن الزمان المؤوَّل مِن ما المصدريَّة، والفعل بعدها يتعلَّق بجوابه محذوفًا،

---

(١) تيسير التفسير، أطفيش: ٩٢/٤.

أي: شاقُّوه أو استكبروا، وفسَّره بقوله: ﴿فَرِيقًا﴾ من الرُّسل ﴿كَذَّبُواْ﴾ بلا قتل ﴿وَفَرِيقًا﴾ منهم ﴿يَقْتُلُونَ﴾ كزكرياء ويحيى، وتعاطوا قتل عيسى فنجَّاه الله، وفي زعمهم الباطل أنَّهم قتلوه، وكتب الله عليهم ذنب القتل، وَقَدَّمَ المفعول للفاصلة والاهتمام، والمضارعُ لحكاية الحال الماضية، كأنَّه ﷺ يشاهد قتلهم، وهذا أقوى، وليدلَّ على التكرير، فإنَّ قتل الأنبياء عادتهم، فكأنَّه يشاهد تكريره أيضًا.

٢. وليس (كَذَّبُوا) و(يَقْتُلُونَ) جوابا يتعلَّق بهما، لأنَّ الرَّسول الواحد لا ينقسم إلى فريق مكذَّب - بفتح الذال - وفريق مقتول، ولأنَّه إن عُلِّق بـ (كَذَّبُوا) بقي (يَقْتُلُونَ)، أو بـ (يَقْتُلُونَ) بقي (كَذَّبُوا)، أو بهما لم يصحَّ، إذ لا يعمل عاملان في معمول، فيحتاج إلى تقدير (كلَّما) لأحدهما من مطلق الحذف مع ركَّة المعنى، وإن اعتبرنا الرَّسول عامًّا للرسل للفظ (كلَّما) اندفع به قولنا: إنَّ الرَّسول الواحد لا ينقسم.. إلخ، [قلت] وبقي قولنا: إنَّه إن علِّق بـ (كَذَّبُوا).. إلخ إشكالاً عليه لا يندفع، فاجْرِ على قولي: الجواب محذوف تقديره: (شاقُّوه) أو (استكبروا)

٣. ﴿وَحَسِبُواْ﴾ ظنَّ بنو إسرائيل ﴿أَلَّا تَكُونَ﴾ تحصل ﴿فِتْنَةٌ﴾ بلاء وعذاب بتكذيب الأنبياء وقتلهم، وذلك أنَّهم اعتقدوا أنَّ كلَّ من جاءهم بشرع غير شرعهم الأوَّلِ يَجِبُ قتله، كذا قيل، وفيه أنَّ أنبياءهم متواردون على التوراة بلا مخالفة، ولعلَّ المراد أنَّهم يجيئون من الله بأشياء ليست في التوراة ولا تناقضها، أو يقتلونهم تشهِّيًا وخوفًا من زوال الجاه وتفرُّق الأتباع، كما عبدوا العجل، ويزعمون أنَّ أسلافهم يشفعون لهم.

٤. ﴿فَعَمُواْ﴾ عن إدراك الدِّين ودلائله بمجرَّد ما وجدوا في التوراة بلا إسماعِ مُسْمِعٍ، كمن لا يرى بعينه ما هو ظاهر لعماه، كما عبدوا العجل.

٥. ﴿وَصَمُّواْ﴾ عن سماع المسْمِعِ لهم سماع قبول، كمن لا تسمع أُذناه لصمم فيهما، ويجوز أن يكون العمى والصمم بمعنى واحد مجازيٍّ، وهو المبالغة في الإعراض عن الحقِّ كَبُعد من اجتمع فيه العمى والصمم عن الإدراك.

٦. ﴿ثُمَّ تَابَ اللهُ عَلَيْهِمْ﴾ أي: وفَّقهم للتوبة، والسعيد منهم في ولاية الله تعالى له، ولو في حال المعصية لِمَا يختم له به لا لها، والشقيُّ في براءة الله، ولو في حال طاعته وتوبته لِمَا يختم به له، فليس في ذلك تقلُّب ولاية الله وبراءته بحسب التوبة ونقضها.

٧. ﴿ثُمَّ عَمُواْ وَصَمُّواْ كَثِيرٌ مِّنْهُمْ﴾ بدل من واو (عَمُوا)، فهو في نيَّة التقديم عن (صَمُّوا)، أو تجعل الواو في (عَمُوا) علامة الجمع، و(كَثِيرٌ) فاعلُه، وهو في نيَّة التقديم كذلك، وواو (صَمُّوا) فاعل، أو (كَثِيرٌ) مبتدأ و(عَمُوا) و(صَمُّوا) خَبَرَانِ بعطفٍ، لجواز تقديم الخبر الفعليِّ إذا لم يكن لبسٌ، كقولك: قام أبوه زيد، وإنَّما يمتنع إذا كان تقديمه يوهم المبتدأ بالفاعل، كقولك في زيد قام: قام زيد، أو اللبس بالتأكيد نحو: أنا قمت.

٨. ويقال: (فَعَمُوا وَصَمُّوا) إشارة إلى المرَّة الأولى: من مرَّتي الفساد، حين خالفوا التوراة وقتلوا (شعياء) أو حبسوا (أرمياء)، وإنَّما تابوا في أَسر (بخت نُصَّر)، وكانوا دهرًا طويلاً تحته في بابل في ذلٍّ عظيم، وأهلك الله (بخت نُصَّر)، وبعث ملكًا عظيمًا من فارس وعمر بيت المقدس ثلاثين سنة، وردَّ بني إسرائيل، وتراجعوا كأحسن ما كانوا وكثروا كذلك.

٩. وقيل: لَمَّا ورث (بهمان بن اسفنديار) الملك من جدِّه (كاسف) ألقى الله تعالى شفقة عليهم في قلبه، فردَّهم إلى الشام، وملَّك عليهم (دانيال) عليه السلام ، فاستولوا على من كان فيها من أتباع (بخت نصَّر)، فقامت عليهم الأنبياء فرجعوا إلى أحسن ما كانوا عليه، وذلك قوله تعالى: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ﴾ [الإسراء: ٦]، والمرَّة الثانية: من مرَّتي الفساد: حين قَتلوا زكرياء ويحيى، وقصدوا قتل عيسى عليه السلام .

١٠. ويقال: المراد بالتوبة أنَّهم تابوا من عبادة العجل، وفيه ضعف، لأنَّه على عهد سيِّدنا موسى عليه السلام لا يناسب المقام، وكذا ما قيل: ﴿فَعَمُوا وَصَمُّوا﴾ بعبادة العجل ثمَّ تابوا، ﴿ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا﴾ بطلب الرؤية والاعتداء في السبت، إلَّا أنَّ الاعتداء فيه في زمان داود بعد موسى ٦ ، ولو قيل: المراد في زمان سيِّدنا محمَّد ﷺ لجاز، لرضاهم عن أسلافهم، فيسند إليهم ما لآبائهم، وَقَدَّمَ العمى لأنَّه أوَّل ما يعرض لمن أنكر ما أُتِيَ من الحقِّ، ثمَّ لو أبصره لم يتَّبعه كأنَّه لم يسمعه، و(ثُمَّ) للتراخي رتبةً وزمانًا.

١١. ﴿وَاللهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ فلن ينجوا من عقابه، ومقتضى الظاهر: (بما عملوا)، لَكِنَّ المضارع للفاصلة وحكاية الحال والتكرير.

القاسمي:

ذكر جمال الدين القاسمي (ت ١٣٣٢ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. بين تعالى بعضا آخر من جناياتهم المنادية باستبعاد الإيمان منهم بقوله: ﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ أي: على الإيمان بالله ورسله ﴿وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلًا﴾ ليقفوهم على ما يأتون وما يذرون في دينهم ﴿كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ﴾ أي: بما يخالف هواهم ويضادّ شهواتهم من الأحكام الحقة، مع أن وضع الرسالة، الدعوة إلى مخالفة الهوى ﴿فَرِيقًا﴾ منهم ﴿كَذَّبُوا﴾ مع ظهور دلائل صدقهم ﴿وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ﴾ بعد التكذيب، سدّا لدعوتهم إلى ما يخالف أهويتهم.

٢. قال الزمخشريّ: جواب الشرط محذوف يدل عليه قوله: ﴿فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ﴾ كأنه قيل: كلما جاءهم رسول منهم ناصبوه.

٣. قال الناصر في (الانتصاف): ومما يدل على حذف الجواب أنه جاء ظاهرا في الآية الأخرى، وهي توأمة هذه، قوله تعالى: ﴿أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ [البقرة: ٨٧]، فأوقع قوله: ﴿اسْتَكْبَرْتُمْ﴾ جوابا، ثم فسر استكبارهم وصنيعهم بالأنبياء بقتل البعض وتكذيب البعض، فلو قدر الزمخشري هاهنا الجواب المحذوف مثل المنطوق به في أخت الآية فقال: وأرسلنا إليهم رسلا كلما جاءهم رسول بما لا تهوى أنفسهم استكبروا، لكان أولى، لدلالة مثله عليه.

٤. سؤال وإشكال: لم جيء بأحد الفعلين ماضيا وبالآخر مضارعا؟ والجواب: قال الزمخشريّ: جيء ﴿يَقْتُلُونِ﴾ على حكاية الحال الماضية استفظاعا للقتل واستحضارا لتلك الحال الشنيعة، للتعجيب منها.

٥. قال في (الانتصاف): أو يكون حالا على حقيقته، لأنهم داروا حول قتل محمد ﷺ، وقد قيل هذا الوجه في أخت هذه الآية في (البقرة)؛ وقد مضى وجه اقتضاء صيغة الفعل المضارع لاستحضاره دون الماضي، وتمثيله بقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ [الحج: ٦٣]، فعدل عن (فأصبحت) إلى (فتصبح) تصويرا للحال واستحضارا لها في ذهن السامع، ومنه:

بأني قد لقيت الغول تهوى بسهب كالصحيفة صحصحان

(١) تفسير القاسمي: ٤/٢٠٨.

فأضربها بلا دهش فخرّت صريعا لليدين وللجران

وأمثاله كثيرة.

٦. قال الخفاجيّ: اقتصر العلامة هنا على حكاية حال أسلافهم، لقرينة ضمائر الغيبة، وترك تلك الآية ـ يعني آية البقرة ـ على الاحتمالين لقرينة ضمائر المخاطبين، ليكون توبيخا وتعبيرا للحاضرين بفعل آبائهم، ولذا عقبت هذه الآية بقصة عيسى عليه السلام، فتأمل.

٧. ﴿وَحَسِبُوا أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ أي: ظن بنو إسرائيل أنهم لا يصيبهم من الله عذاب بقتل الأنبياء وتكذيب الرسل ﴿فَعَمُوا وَصَمُّوا﴾ عطف على (حسبوا)، و(الفاء) للدلالة على ترتيب ما بعدها على ما قبلها؛ أي: آمنوا بأس الله تعالى، فتمادوا في فنون الغيّ والفساد، وعموا عن الدين، بعد ما هداهم الرسل إلى معالمه الظاهرة، وصمّوا عن استماع الحق الذي ألقوه عليهم، ولذلك فعلوا ما فعلوا ﴿ثُمَّ تَابَ اللهُ عَلَيْهِمْ﴾ أي: مما كانوا فيه.

٨. قال أبو السعود: لم يسند التوبة إليهم كسائر أحوالهم من الحسبان والعمى والصمم، تجافيا عن التصريح بنسبة الخير إليهم، وإنما أشير إليها في ضمن بيان توبته تعالى عليهم، تمهيدا لبيان نقضهم إياهم بقوله تعالى: ﴿ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا﴾ كرة أخرى ﴿كَثِيرٌ مِنْهُمْ﴾ بدل من الضمير في الفعلين أو خبر محذوف، أي: أولئك كثير منهم ﴿وَاللهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ أي: بما عملوا، وصيغة المضارع لحكاية الحال الماضية استحضارا لصورتها الفظيعة ورعاية للفواصل، والجملة تذييل أشير به إلى بطلان حسبانهم المذكور، ووقوع العذاب من حيث لم يحتسبوا، إشارة إجمالية، اكتفي بها تعويلا على ما فصل نوع تفصيل في سورة (بني إسرائيل) [الإسراء]، أفاده أبو السعود، وهو مأخوذ من كلام القفال.

٩. قال أبو السعود: في هذه الآية إشارة إلى ما اكتنف بني إسرائيل من الفتنة وعذاب الله الذي حاق بهم قبل عيسى وبعده، وذلك أن أنبياءهم قبل عيسى كانوا يوبخون رؤساءهم الأشرار وشعبهم على خطاياهم، ولا سيما في عبادتهم الأوثان، وينحصوهم أن يرجعوا إلى الله، وينذرونهم بعقابه تعالى الشديد ودمارهم إن لم يتوبوا، كما أنبأهم إرميا عليه السلام بخراب بلدهم، وقضائه تعالى الهائل عليهم، إن أصرّوا على طغيانهم، فما استمعوا له، حتى روي أنه ختم له بالشهادة، إذ رجمته اليهود بمصرّ عتوّا واستكبارا، ثم سلط الله عليهم بختنصّر ملك بابل، وسبى شعبهم وهدمت جنوده مدينتهم بيت المقدس وهيكلها، وصار

تلال خراب، وذلك لاستئصال كفرهم وشرورهم، وتطهير هيكلهم من نجاسة أوثانهم، فحلّ عليهم من البابلية الشقاء والويل، وأخذوا أسرى إلى ما وراء الفرات، ولم يترك منهم إلّا الفقراء فقط، وبذلك انتهى ملكهم، وكان ذلك قبل ولادة عيسى عليه السلام بنحو خمسمائة وثمان وثمانين سنة، ثم تاب الله عليهم ورحمهم من سبيهم، وأعادهم برحمته إلى مدينتهم بيت المقدس، بعد أن أقاموا في بابل سبعين سنة، وابتدءوا ببناء هيكلهم ثانية، وأرجعوا العبادة إليه، وقام حزقيال عليه السلام بوعظهم وتهذيبهم ودعوتهم إلى التوبة وتذكيرهم بما مضى ليعتبروا، وهكذا كل نبيّ فيهم، لم يزل ينذرهم ويدعوهم إلى الله إلى أن بعث الله عيسى عليه السلام، فعموا عن الاهتداء به وصمّوا عن وعظه، وكان ما كان من همّهم بقتله، فدمرهم الله بعد ذلك وأباد مملكتهم، وطردوا من أرضهم بعد رفع عيسى عليه السلام بنحو أربعين سنة، وأخذ الرومانيون مدينتهم وهدموها مع الهيكل، وحلت عليهم نقمة الله فتفرقوا شذر مذر.

١٠. قال أبو السعود: هذا، وما قيل بأن قوله تعالى: ﴿فَعَمُوا وَصَمُّوا﴾ إشارة إلى عبادتهم العجل ـ فإنه بعيد، لأنها، وإن كانت معصية عظيمة ناشئة عن كمال العمى والصمم، لكنها في عصر موسى عليه السلام، ولا تعلّق لها بما حكي عنهم مما فعلوا بالرسل الذين جاءوهم بعده عليه السلام بأعصار، وكذا ما قيل بأن قوله تعالى: ﴿ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا﴾ إشارة إلى طلبهم الرؤية ـ فبعيد أيضا، لما ذكرنا، وفنون الجنايات الصادرة عنهم لا تكاد تتناهى، خلا أنّ انحصار ما حكي عنهم هاهنا في المرتين، وترتبه على حكاية ما فعلوا بالرسل عليهم السلام، يقضي بأن المراد ما ذكرناه، والله عنده علم الكتاب، كذا أفاده أبو السعود، ونحن نوافقه على ما رآه، بيد أنّ ما سقناه في التنبيه أظهر في ما جرياتهم، وأشد مطابقة لما في تواريخهم، مما ساقه هنا، فتثبّت.

١١. ويرحم الله القفال حيث قال: ذكر الله تعالى في سورة (بني إسرائيل) ما يجوز أن يكون تفسيرا لهذه الآية فقال: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا﴾ [الإسراء: ٤ ـ ٦] فهذا في معنى (فعموا وصموّا) ثم قال: ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا﴾، فهذا في معنى قوله: ﴿ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا كَثِيرٌ مِنْهُمْ﴾

رضا:

ذكر محمد رشيد رضا (ت ١٣٥٤هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. بدأ الله تعالى السياق الطويل في أهل الكتاب بأخذ الميثاق على بني إسرائيل وبعث النقباء فيهم، ثم أعاد التذكير به في أواخره هنا، فذكر وذكر معه إرسال الرسل إليهم ما كان من معاملتهم لهم فقال: ﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلًا كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ﴾ تقدم أن الميثاق هو العهد الموثق المؤكد وأن الله أخذه عليهم في التوراة، وقد نقضوا الميثاق كما تبين في أوائل هذه السورة وأواخر ما قبلها، وأما معاملتهم للرسل فقد بين الله تعالى إجماله بهذه القاعدة الكلية، وهي أنهم كانوا كلما جاءهم رسول بشيء لا تهواه أنفسهم ـ وإن كان مقترنا بأشياء يوافق فيها الحق أهوائهم ـ عاملوه بأحد أمرين: التكذيب المستلزم للإعراض والعصيان، أو القتل وسفك الدم.

٢. والظاهر أن جملة ﴿كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ﴾ استئناف بياني لا صفة لرسل كما قال الجمهور، وجعل الرسل فريقين في معاملة بعد ذكر لفظ الرسول مفردا في اللفظ جائز، لأن وقوعه مفردا إنما هو بعد ﴿كُلَّمَا﴾ المفيد للتكرار والتعدد، واستحسن بعضهم أن يكون جواب ﴿كُلَّمَا﴾ محذوفا تقديره: استكبروا وأعرضوا، وجعل التفصيل بعد ذلك استئنافا بيانيا مفصلا لما ترتب على الاستكبار وعدم قبول هداية الرسل، وهو حسن لموافقته لقوله تعالى في آية أخرى ﴿أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ [البقرة: ٨٧] وتقدم تفسيرها.

٣. والتعبير عن القتل بالمضارع مع كونه كالتكذيب وقع في الماضي نكتته تصوير جرم القتل الشنيع واستحضار هيئته المنكرة كأنه واقع في الحال، للمبالغة في النعي عليهم والتوبيخ لهم، فقد أفادت الآية أنهم بلغوا من الفساد واتباع أهوائهم أخشن مركب وأشده تقحما بهم في الضلال، حتى لم يعد يؤثر في قلوبهم وعظ الرسل وهديهم، بل صار يغريهم بزيادة الكفر والتكذيب وقتل أولئك الهداة الأحبار.

٤. ﴿وَحَسِبُوا أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ أي وظنوا ظنا تمكن من نفوسهم فكان كالعلم في قوته أنه لا توجد ولا تقع لهم فتنة بما فعلوا من الفساد، والفتنة الاختبار بالشدائد كتسلط الأمم القوية عليهم بالقتل

---

(١) تفسير المنار: ٦/٣٩٧.

والتخريب والاضطهاد، وقيل المراد بها القحط والجوائح؛ ولس بظاهر هنا، وإنما المتبادر أن المراد بها أجمل هنا هو ما جاء مفصلا في أوائل سورة الإسراء ـ التي تسمى سورة بني إسرائيل أيضا ـ من قوله تعالى: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ ـ إلى قوله ـ ﴿عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدْتُمْ عُدْنَا﴾ [الإسراء: ٤٤]

٥. فالفساد مرتين هنالك هو المشار إليه هنا بقوله تعالى: ﴿فَعَمُوا وَصَمُّوا ثُمَّ تَابَ اللهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا كَثِيرٌ﴾ أي فعموا عن آيات الله في كتبه الدالة على عقاب الله للأمم المفسدة الظالمة، وعن سننه في خلقه المصدقة لها، وصموا عن سماع المواعظ التي جاءهم بها الرسل، وأنذروهم بها الرسل، وأنذروهم بها عقاب الله لمن نقض ميثاقه، وخرج عن هداية دينه، فاتبع هواه، وظلم نفسه الناس، فلما عموا وصموا وانهمكوا في الظلم والفساد، سلط الله تعالى عليهم البابليين فجاسوا خلال الديار وأحرقوا المسجد الأقصى ونهبوا الأموال، وسبوا الأمة وسلبوا الملك والاستقلال، ثم رحمهم الله تعالى وتاب عليهم، وأعاد إليهم ملكهم وعزهم، ثم عموا وصموا مرة أخرى وعادوا إلى ظلمهم وإفسادهم في الأرض، وقتل الأنبياء بغير حق، فسلط الله تعالى عليهم الفرس ثم الروم (الرومانيين) فأزالوا ملكهم واستقلالهم.

٦. أما قوله تعالى: ﴿كَثِيرٌ مِنْهُمْ﴾ فهو بدل من فاعل عموا وصموا، أو هو الفاعل والواو علامة الجمع على لغة بعض العرب من الأزد التي يعبر النحاة بكلمة واحد من أهلها قال: (أكلوني البراغيث) والمراد أن عمى البصيرة والختم على السمع لم يكن عاما مستغرقا لكل فرد من أفرادهم، وإنما كان هو الكثير الغالب عليهم، وتقدم قريبا في تفسير ﴿وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: ٦٦] بيان حكمة التدقيق في القرآن بنسبة الفساد للكثير أو الأكثر في الأمة، وإنما يعاقب الله الأمم بالذنوب إذا كثرت وشاعت فيها، لأن العبرة بالغالب، والقليل النادر لا تأثير له في الصلاح أو الفساد العام، ولذلك قال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٥] وهذا هو الواقع وعلته ظاهرة، وحكمته باهرة.

٧. ﴿وَاللهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ الآن من الكيد لخاتم الرسل، فإتباع الهوى قد أعماهم وأصمهم مرة أخرى، فتركهم لا يبصرون ما جاء به من النور والهدى، وما هو عليه من النعوت والصفات التي أشار إليها النبيون في بشارتهم به، ولا يسمعون ما يتلو عليهم من الآيات، وما فيها من الحجج والبينات، وسيعاقبهم الله تعالى على ذلك بمثل ما عاقبهم على ما قبله، وقد غفل عن هذا المعنى جمهور المفسرين

فجعلوا ﴿يَعْلَمُونَ﴾ بمعنى الماضي، ونكتة التعبير به استحضار صورة أعمالهم في ماضيهم، وتمثيلها لهم ولغيرهم في حاضرهم، كما قلنا في تفسير ﴿وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ﴾ [المائدة: ٧٠] وما قلناه أقوى وأظهر، وإنما تحسن هذه النكتة في العمل المعين المهم الذي يراد التذكير به بعد وقوعه بجعل الزمن الحاضر، مرآة للزمن الغابر، ولا يظهر هذا الحسن في الأعمال المطلقة المبهمة.

٨. من مباحث اللفظ أن أبا عمرو وحمزة والكسائي ويعقوب قرأوا ﴿أَنْ تَكُونَ﴾ والأصل حينئذ: وحسبوا أنه ـ أي الحال والشأن ـ لا تكون فتنة، فخففت أن المشددة وحذف ضمير الشأن المتصل، وأشرب الحسبان معنى العلم كما تقدم.

المراغي:

ذكر أحمد بن مصطفى المراغي (ت ١٣٧١ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي(١):

١. بعد أن ذكر سبحانه أنه أخذ الميثاق على بنى إسرائيل وبعث فيهم النقباء ـ أعاد التذكير به هنا مرة أخرى، وبيّن عتوّهم وشدة تمردهم وما كان من سوء معاملتهم لأنبيائهم.

٢. ﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلًا كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ﴾ الميثاق هو العهد الموثّق، وقد أخذ الله عليهم العهد في التوراة بتوحيده واتباع الأحكام التي شرعها لهدى خلقه وتحليهم بحلي الفضائل ومكارم الأخلاق، وقد نقضوا هذا الميثاق كما تقدم أول السورة وعاملوا الرسل تلك المعاملة ـ وهو أنه كلما جاءهم رسول بشيء لا تهواه أنفسهم عاملوه بأحد الأمرين إما التكذيب المستلزم للإعراض والعصيان وإما القتل وسفك الدماء.

٣. وخلاصة ذلك ـ إنهم بلغوا من الفساد واتباع الأهواء أخشنها مركبا، وأشدها عتوا وضلالا، حتى لم يعد يؤثر في قلوبهم وعظ الرسل ولا هديهم، بل صار ذلك مغريا لهم بزيادة الكفر والتكذيب وقتل أولئك الهداة البررة والسادة الأخيار.

٤. ثم ذكر ما سولته لهم أنفسهم على سوء أفعالهم فقال: ﴿وَحَسِبُوا إلا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ الفتنة الاختبار بشدائد الأمور كتسلط الأمم القوية عليهم بالقتل والتخريب والاضطهاد: أي وظنوا ظنا قويا تمكن من

(١) تفسير المراغي ٦/١٦٣.

نفوسهم أنه لا تقع لهم فتنة بما فعلوا من الفساد، لأنهم كانوا يقولون نحن أبناء الله وأحباؤه، ويعتقدون أن نبوة أسلافهم وآبائهم تدفع عنهم العقاب الذي يستحقونه بسبب ذلك القتل والتكذيب.

٥. ثم بين نتائج ذلك فقال: ﴿فَعَمُوا وَصَمُّوا ثُمَّ تَابَ اللهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا كَثِيرٌ مِنْهُمْ﴾ أي فعموا عن آيات الله التي أنزلها في كتبه مرشدة إلى عقابه للأمم المفسدة الظالمة، وعما وضعه من السنن في خلقه مصدقا لذلك، وصموا عن سماع المواعظ التي جاءهم بها أولئك الرسل وأنذروهم بالعقاب إذا هم خالفوها ونقضوا الميثاق وخرجوا عن هدى الدين، وظلموا أنفسهم واتبعوا أهواءهم وساروا في غيهم، وانهمكوا في ضلالهم، فسلط الله عليهم من سامهم الخسف وأوقع بهم البوار والدمار، فجاس البابليون خلال ديارهم، وأحرقوا المسجد الأقصى ونهبوا أموالهم وسبوا أولادهم ونساءهم وسلبوهم أموالهم وثلّوا عروش ملكهم، ثم رحمهم الله وتاب عليهم حين أقلعوا عن الفساد وأعاد إليهم ملكهم وعزهم على يد ملك من ملوك الفرس، إذ جاء إلى بيت المقدس وعمره وردّ من بقي من بنى إسرائيل في أسر بختنصّر إلى وطنهم، ورجع من تفرق منهم في الأقطار فاستقروا وكثروا وكانوا كأحسن ما كانوا.

٦. ثم عموا وصموا مرة أخرى وعادوا إلى ظلمهم وفسادهم في الأرض وقتلوا الأنبياء بغير حق فقتلوا زكريا وأشعيا وأرادوا قتل عيسى عليه السلام، فسلط الله عليهم الفرس ثم الروم (الرومانيين) فأزالوا ملكهم واستقلالهم.

٧. وفى قوله: ﴿كَثِيرٌ مِنْهُمْ﴾ إشارة إلى أن عمى البصيرة والصمم عن المواعظ لم يكن للجميع بل كان للكثير منهم، والله تعالى يعاقب الأمم بذنوبها إذا كثرت وشاعت فيها، إذ العبرة بالغالب لا بالأقل النادر الذي لا يؤثر في صلاح ولا فساد ومن ثم قال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾

٨. ﴿وَاللهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ لنبيه وخاتم أنبيائه من الكيد والمكر وتدبير الإيقاع به وتأليب القبائل والشعوب المختلفة لتكون يدا واحدة للفتك به، وما سبب ذلك إلا اتباعهم للهوى، وأنهم عموا وصموا مرة أخرى فصاروا لا يبصرون ما جاء به من النور والهدى ولا يسمعون ما يتلوه عليهم من الآيات، وسيعاقبهم الله على ذلك بمثل ما عاقبهم به من قبل وينكّل بهم أشد النكال، ويذيقهم أنواع الوبال.

سيّد:

ذكر سيّد قطب (ت ١٣٨٥ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. يأخذ السياق في عرض طرف من تاريخ بني إسرائيل ـ اليهود ـ يتجلى فيه كيف أنهم ليسوا على شيء ويتبين معه ضرورة تبليغهم الدعوة، ومخاطبتهم بالإسلام، ليأووا منه إلى دين الله، ثم لتتبين حقيقتهم التي لم تتغير؛ وتنكشف للمسلمين هذه الحقيقة، فتسقط في أعينهم قيمة يهود، وتنفر قلوبهم من الولاء لهم والتناصر معهم، وهم على مثل هذه الحال في أمر الحق والدين: ﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلًا كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ وَحَسِبُوا أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا وَصَمُّوا ثُمَّ تَابَ اللهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا كَثِيرٌ مِنْهُمْ وَاللهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾

٢. إنه تاريخ قديم! فليس موقفهم من رسول الإسلام ﷺ بالأول ولا بالأخير! إنهم مردوا على العصيان والإعراض؛ ومردوا على النكول عن ميثاق الله؛ ومردوا على اتخاذ هواهم إلههم لا دين الله، ولا هدى الرسل؛ ومردوا على الإثم والعدوان على دعاة الحق وحملة دعوة الله: ﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلًا كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ﴾

٣. وسجل بني إسرائيل مع أنبيائهم حافل بالتكذيب والإعراض؛ حافل بالقتل والاعتداء! حافل بتحكيم الشهوات والأهواء، ولعله من أجل ذلك قص الله تاريخ بني إسرائيل على الأمة المسلمة في تفصيل وتطويل.. لعلها تتقي أن تكون كبني إسرائيل؛ ولعلها تحذر مزالق الطريق، أو لعل الواعين منها الموصولين بالله يدركون هذه المزالق؛ أو يتأسون بأنبياء بني إسرائيل حين يصادفون ما صادفوا وأجيال من ذراري المسلمين تنتهي إلى ما انتهى إليه بنو إسرائيل، حين طال عليهم الأمد فقست قلوبهم؛ فتحكم الهوى؛ وترفض الهدى، وتكذب فريقا من الدعاة إلى الحق، وتقتل فريقا؛ كما صنع بغاة بني إسرائيل، في تاريخهم الطويل! لقد صنع بنو إسرائيل تلك الآثام كلها؛ وهم يحسبون أن الله لن يفتنهم بالبلاء، ولن يأخذهم بالعقاب.

٤. حسبوا هذا الحسبان غفلة منهم عن سنة الله؛ وغرورا منهم بأنهم (شعب الله المختار)! ﴿وَحَسِبُوا أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا وَصَمُّوا﴾، طمس الله على أبصارهم فلا يفقهون مما يرون شيئا؛ وطمس

---

(١) في ظلال القرآن: ٢/٩٤٣.

على مسامعهم فلا يفيدون مما يسمعون شيئا.

﴿ثُمَّ تَابَ اللهُ عَلَيْهِمْ﴾، وأدركهم برحمته.. فلم يرعووا ولم ينتفعوا: ﴿ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا كَثِيرٌ مِنْهُمْ وَاللهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾، وهو مجازيهم بما يراه ويعلمه من أمرهم.. وما هم بمفلتين.

٥. ويكفي أن يعرف الذين آمنوا هذا التاريخ القديم عن يهود، وهذا الواقع الجديد؛ لتنفر قلوبهم المؤمنة من ولائهم، كما نفر قلب عبادة بن الصامت؛ فلا يتولاهم إلا المنافقون من أمثال عبد الله بن أبي بن سلول! ذلك شأن اليهود من أهل الكتاب.. فأما شأن النصارى فيبينه السياق القرآني في حسم وتوكيد يتمشيان مع طبيعة السورة؛ وطبيعة الموقف الذي تعالجه.

الخطيب:

ذكر عبد الكريم الخطيب (ت ١٣٩٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[1]:

١. ذكر الله سبحانه في الآية السابقة أن الناس جميعا، مؤمنهم وكافرهم، مدعوون إلى الإيمان بالله، والعمل الصالح الذي يرضى الله، ويستقيم مع ما أمر به ونهى، وأن من قبل ذلك فقد فاز برضوان الله، ثم جاءت هذه الآية: ﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلًا﴾ ـ جاءت لتسجل على اليهود، أنهم غير معذورين، بخروجهم عن طاعة الله، وبإفسادهم لدينه الذي في أيديهم.. إذ أخذ الله عليهم ميثاقا بعد خروجهم من مصر، وأنقذهم من العذاب المهين الذي كانوا فيه، وأراهم آياته عيانا، ففرق بهم البحر، وأغرق آل فرعون.. وأنزل عليهم المنّ والسلوى، ونتق الجبل فوقهم كأنه ظلة، وظلل عليهم الغمام، وأجرى لهم من صميم الحجر عيونا ـ بين يدى هذه الآيات الناطقة أخذ الله العهد عليهم أن يؤمنوا به، وأن يعملوا بأحكام التوراة، بقلوب سليمة، وعزائم وثيقة، فإن القلوب لتخشع، ولو كانت أقسى من الحجارة، وهي في مواجهة هذه الآيات البينات، فتتقبل الخير وتستجب له.

٢. لقد نقض بنو إسرائيل ميثاقهم مع الله، الذي أخذه عليهم وهم على بساط هذه النعم الغامرة، فكفروا وعبدوا العجل، فعفا الله عنهم، وأرسل إليهم رسله، يجمعونهم من أشتات الطرق التي شردوا فيها.. فما تبدلت حالهم، ولا تغير ما بنفوسهم، فمكروا برسل الله، وأخذوهم بالعنت والعذاب.. كلما

---

(١) التفسير القرآني للقرآن: ٣/١١٤٧.

جاءهم رسول بما لا تهوى أنفسهم كفروا به، وبسطوا فيه ألسنتهم بقالة السوء ومدوا إليه أيديهم بالأذى.. فريقا كذبوا وفريقا يقتلون.

٣. ﴿وَحَسِبُوا أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ إشارة إلى أنهم ـ وقد رأوا نعم الله تتظاهر عليهم ـ أنهم بمأمن من الفتن، وأن لهم أن يفعلوا ما تشتهي أنفسهم، وترتضي أهواؤهم، ولم يعلموا أن هذه النعم هي ابتلاء من الله لهم، وأنها ستكون نقمة عليهم إن لم يشكروا الله ويحمدوا له، شأن من يتلقى نعم الله من عباده المتقين، كما فعل سليمان مثلا، والذي يقول الله سبحانه على لسانه: ﴿فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾ [النمل: ٤٠]

٤. ولكنهم عموا وصموا عن نعم الله، فجعلوها أسلحة يحاربون الله ورسله بها، ويسعون في الأرض فسادا.. ومع هذا فقد تاب الله عليهم، وبسط لهم يد المغفرة، فلم يزدهم ذلك إلا ضلالا وكفرا ثم عموا وصموا كثير ﴿مِنْهُمْ﴾ أي أن كثرتهم الغالبة لم ترجع إلى الله، بل ظلت شاردة في طرق الضلالة والغواية، وقليل منهم هم الذين كانت لهم من إلى رجعة.. وهذه القلة منهم هم شهود عليهم بالضلال والعصيان.

ابن عاشور:

ذكر محمد الطاهر بن عاشور (ت ١٣٩٣ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي(١):

١. ﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلًا كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ﴾ استئناف عاد به الكلام على أحوال اليهود وجراءتهم على الله وعلى رسله، وذلك تعريض باليأس من هديهم بما جاء به محمّد ﷺ وبأنّ ما قابلوا به دعوته ليس بدعا منهم بل ذلك دأبهم جيلا بعد جيل، وقد تقدّم الكلام على أخذ الميثاق على اليهود غير مرّة، أولاها في سورة البقرة [٨٣]

٢. والرسل الذين أرسلوا إليهم هم موسى وهارون ومن جاء بعدهما مثل يوشع بن نون وأشعيا وأرميا وحزقيال وداوود وعيسى، فالمراد بالرسل هنا الأنبياء: من جاء منهم بشرع وكتاب، مثل موسى وداوود وعيسى، ومن جاء معززا للشرع مبينا له، له، مثل يوشع وأشعيا وأرميا، وإطلاق الرّسول على

---

(١) التحرير والتنوير: ٥/١٦٥.

النّبي الّذي لم يجيء بشريعة إطلاق شائع في القرآن كما تقدّم، لأنّه لمّا ذكر أنّهم قتلوا فريقا من الرسل تعيّن تأويل الرسل بالأنبياء فإنّهم ما قتلوا إلّا أنبياء لا رسلا.

٣. وقوله: ﴿كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا﴾ انتصب ﴿كُلَّمَا﴾ على الظرفيّة، لأنّه دالّ على استغراق أزمنة مجيء الرسل إليهم فيدلّ على استغراق الرسل تبعا لاستغراق أزمنة مجيئهم، إذ استغراق أزمنة وجود شيء يستلزم استغراق أفراد ذلك الشيء فما ظرفية مصدريّة دالّة على الزّمان.

٤. وانتصب (كلّ) على النّيابة عن الزّمان لإضافته إلى اسم الزّمان المبهم، وهو (ما) الظرفية المصدرية، والتقدير: في كلّ أوقات مجيء الرّسل إليهم كذّبوا ويقتلون، وانتصب ﴿كُلَّمَا﴾ بالفعلين وهو﴿كَذَّبُوا﴾ و﴿يَقْتُلُونَ﴾ على التّنازع.

٥. وتقديم ﴿كُلَّمَا﴾ على العامل استعمال شائع لا يكاد يتخلّف، لأنّهم يريدون بتقديمه الاهتمام به، ليظهر أنّه هو محلّ الغرض المسوقة له جملته، فإنّ استمرار صنيعهم ذلك مع جميع الرّسل في جميع الأوقات دليل على أنّ التّكذيب والقتل صارا سجيتين لهم لا تتخلّفان، إذ لم ينظروا إلى حال رسول دون آخر ولا إلى زمان دون آخر، وذلك أظهر في فظاعة حالهم، وهي المقصود هنا.

٦. وبهذا التّقديم يشرب ظرف ﴿كُلَّمَا﴾ معنى الشرطية فيصير العامل فيه بمنزلة الجواب له، كما تصير أسماء الشّرط متقدّمة على أفعالها وأجوبتها في نحو﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ﴾ [النساء: ٧٨]، إلّا أنّ ﴿كُلَّمَا﴾ لم يسمع الجزم بعدها ولذلك لم تعدّ في أسماء الشرط لأنّ (كلّ) بعيد عن معنى الشرطية، والحقّ أنّ إطلاق الشرط عليها في كلام بعض النّحاة تسامح، وقد أطلقه صاحب (الكشاف) في هذه الآية، لأنّه لم يجد لها سببا لفظيا يوجب تقديمها بخلاف ما في قوله تعالى: ﴿أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ﴾ في سورة البقرة: [٨٧]، وفي قوله: ﴿أَوَكُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ﴾ [١٠٠] في تلك السورة، فإنّ التّقديم فيهما تبع لوقوعهما متّصلتين بهمزة الاستفهام كما ذكرناه هنالك، وإن كان قد سكت عليهما في (الكشاف) لظهور أمرهما في تينك الآيتين، فالأحسن أن تكون جملة ﴿فَرِيقًا كَذَّبُوا﴾ حالا من ضمير ﴿إِلَيْهِمْ﴾ لاقترانها بضمير موافق لصاحب الحال، ولأنّ المقصود من الخبر تفظيع حال بني إسرائيل في سوء معاملتهم لهداتهم، وذلك لا يحصل إلّا باعتبار كون المرسل إليهم هذه حالهم مع رسلهم.

٧. وليست جملة ﴿فَرِيقًا كَذَّبُوا﴾ وما تقدّمها من متعلّقها استئنافا، إذ ليس المقصود الإخبار بأنّ

الله أرسل إليهم رسلا بل بمدلول هذا الحال.

٨. وبهذا يظهر لك أنّ التّقسيم في قوله: ﴿فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ﴾ ليس لرسول من قوله: ﴿كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ﴾ بل لـ ﴿رُسُلًا﴾، لأنّنا اعتبرنا قوله: ﴿كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ﴾ مقدّما من تأخير، والتقدير: وأرسلنا إليهم رسلا كذّبوا منهم فريقا وقتلوا فريقا كلّما جاءهم رسول من الرسل، وبهذا نستغني عن تكلّفات وتقدير في نظم الآية الآتي على أبرع وجوه الإيجاز وأوضح المعاني.

٩. وقوله: ﴿بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ﴾ أي بما لا تحبّه، يقال: هوي يهوى بمعنى أحبّ ومالت نفسه إلى ملابسة شيء إنّ بعثة الرسل القصد منها كبح الأنفس عن كثير من هواها الموقع لها في الفساد عاجلا والخسران آجلا، ولولا ذلك لترك النّاس وما يهوون، فالشرائع مشتملة لا محالة على كثير من منع النّفوس من هواها، ولمّا وصفت بنو إسرائيل بأنّهم يكذّبون الرسل ويقتلونهم إذا جاءوهم بما يخالف هواهم علمنا أنّه لم يخل رسول جاءهم من أحد الأمرين أو كليهما: وهما التّكذيب والقتل، وذلك مستفاد من ﴿كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ﴾، فلم يبق لقوله: ﴿بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ﴾ فائدة إلّا الإشارة إلى زيادة تفظيع حالهم من أنّهم يكذّبون الرسل أو يقتلونهم في غير حالة يلتمسون لأنفسهم فيها عذرا من تكليف بمشقّة فادحة، أو من حدوث حادث ثائرة، أو من أجل التّمسّك بدين يأبون مفارقته، كما فعل المشركون من العرب في مجيء الإسلام، بل لمجرّد مخالفة هوى أنفسهم بعد أن أخذ عليهم الميثاق فقبلوه فتتعطّل بتمرّدهم فائدة التّشريع وفائدة طاعة الأمّة لهداتها.

١٠. وهذا تعليم عظيم من القرآن بأنّ من حقّ الأمم أن تكون سائرة في طريق إرشاد علمائها وهداتها، وأنّها إذا رامت حمل علمائها وهداتها على مسايرة أهوائها، بحيث يعصون إذا دعوا إلى ما يخالف هوى الأقوام فقد حقّ عليهم الخسران كما حقّ على بني إسرائيل، لأنّ في ذلك قلبا للحقائق ومحاولة انقلاب التّابع متبوعا والقائد مقودا، وأنّ قادة الأمم وعلماءها ونصحاءها إذا سايروا الأمم على هذا الخلق كانوا غاشّين لهم، وزالت فائدة علمهم وحكمتهم واختلط المرعيّ بالهمل والحابل بالنابل، وقد قال رسول الله ﷺ: (من استرعاه الله رعيّة فغشّها لم يشمّ رائحة الجنّة)، فالمشركون من العرب أقرب إلى المعذرة لأنّهم قابلوا الرسول من أوّل وهلة بقولهم: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٢]، وقال قوم شعيب ﴿أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ [هود: ٨٧]، بخلاف اليهود آمنوا برسلهم

ابتداء ثمّ انتقضوا عليهم بالتّكذيب والتّقتيل إذا حملوهم على ما فيه خيرهم ممّا لا يهوونه.

١١. وتقديم المفعول في قوله: ﴿فَرِيقًا كَذَّبُوا﴾ لمجرّد الاهتمام بالتفصيل لأنّ الكلام مسوق مساق التّفصيل لأحوال رسل بني إسرائيل باعتبار ما لاقوه من قومهم، ولأنّ في تقديم مفعول ﴿يَقْتُلُونِ﴾ رعاية على فاصلة الآي، فقدّم مفعول ﴿كَذَّبُوا﴾ ليكون المفعولان على وتيرة واحدة، وجيء في قوله: ﴿يَقْتُلُونِ﴾ بصيغة المضارع لحكاية الحال الماضية لاستحضار تلك الحالة الفظيعة إبلاغا في التعجيب من شناعة فاعليها.

١٢. والضّمائر كلّها راجعة إلى بني إسرائيل باعتبار أنّهم أمّة يخلف بعض أجيالها بعضا، وأنّها رسخت فيها أخلاق متماثلة وعوائد متّبعة بحيث يكون الخلف منهم فيها على ما كان عليه السلف؛ فلذلك أسندت الأفعال الواقعة في عصور متفاوتة إلى ضمائرهم مع اختلاف الفاعلين، فإنّ الّذين قتلوا بعض الأنبياء فريق غير الّذين اقتصروا على التكذيب.

١٣. ﴿وَحَسِبُوا أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا وَصَمُّوا ثُمَّ تَابَ اللهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا كَثِيرٌ مِنْهُمْ وَاللهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ عطف على قوله: ﴿كَذَّبُوا﴾ [المائدة: ٧٠] و﴿يَقْتُلُونِ﴾ [المائدة: ٧٠] لبيان فساد اعتقادهم النّاشئ عنه فاسد أعمالهم، أي فعلوا ما فعلوا من الفظائع عن تعمّد بغرور، لا عن فلتة أو ثائرة نفس حتّى ينيبوا ويتوبوا، والضّمائر البارزة عائدة مثل الضّمائر المتقدّمة في قوله: ﴿كَذَّبُوا﴾ و﴿يَقْتُلُونِ﴾، وظنّوا أنّ فعلهم لا تلحقهم منه فتنة.

١٤. والفتنة مرج أحوال النّاس واضطراب نظامهم من جرّاء أضرار ومصائب متوالية، وقد تقدّم تحقيقها عند قوله: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ﴾ في سورة البقرة [١٠٢]، وهي قد تكون عقابا من الله للنّاس جزاء عن سوء فعلهم أو تمحيصا لصادق إيمانهم لتعلو بذلك درجاتهم ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ [البروج: ١٠] الآية، وسمّى القرآن هاروت وماروت فتنة، وسمّى النبي ﷺ الدجّال فتنة، وسمّى القرآن مزالّ الشيطان فتنة ﴿لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ﴾ [الأعراف: ٢٧]، فكان معنى الابتلاء ملازما لها.

١٥. والمعنى: وظنّوا أنّ الله لا يصيبهم بفتنة في الدّنيا جزاء على ما عاملوا به أنبياءهم، فهنالك مجرور مقدّر دالّ عليه السّياق، أي ظنّوا أن لا تنزل بهم مصائب في الدّنيا فأمنوا عقاب الله في الدّنيا بعد أن استخفّوا بعذاب الآخرة، وتوهّموا أنّهم ناجون منه، لأنّهم أبناء الله وأحبّاؤه، وأنّهم لن تمسّهم النّار إلّا أياما

معدودة، فمن بديع إيجاز القرآن أن أومأ إلى سوء اعتقادهم في جزاء الآخرة وأنّهم نبذوا الفكرة فيه ظهريا وأنّهم لا يراقبون الله في ارتكاب القبائح، وإلى سوء غفلتهم عن فتنة الدّنيا وأنّهم ضالّون في كلا الأمرين.

١٦. ودلّ قوله: ﴿وَحَسِبُوا أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ على أنّهم لو لم يحسبوا ذلك لارتدعوا، لأنّهم كانوا أحرص على سلامة الدّنيا منهم على السلامة في الآخرة لانحطاط إيمانهم وضعف يقينهم، وهذا شأن الأمم إذا تطرّق إليها الخذلان أن يفسد اعتقادهم ويختلط إيمانهم ويصير همّهم مقصورا على تدبير عاجلتهم، فإذا ظنّوا استقامة العاجلة أغمضوا أعينهم عن الآخرة، فتطلّبوا السلامة من غير أسبابها، فأضاعوا الفوز الأبدي وتعلّقوا بالفوز العاجل فأساءوا العمل فأصابهم العذابان العاجل بالفتنة والآجل.

١٧. واستعير ﴿عَمُوا وَصَمُّوا﴾ للإعراض عن دلائل الرشاد من رسلهم وكتبهم لأنّ العمى والصمم يوقعان في الضلال عن الطريق وانعدام استفادة ما ينفع، فالجمع بين العمى والصمم جمع في الاستعارة بين أصناف حرمان الانتفاع بأفضل نافع، فإذا حصل الإعراض عن ذلك غلب الهوى على النّفوس، لأنّ الانسياق إليه في الجبلّة، فتجنّبه محتاج إلى الوازع، فإذا انعدم الوازع جاء سوء الفعل، ولذلك كان قوله: ﴿فَعَمُوا وَصَمُّوا﴾ مرادا منه معناه الكنائي أيضا، وهو أنّهم أساءوا الأعمال وأفسدوا، فلذلك استقام أن يعطف عليه قوله: ﴿ثُمَّ تَابَ اللهُ عَلَيْهِمْ﴾، وقد تأكّد هذا المراد بقوله في تذييل الآية ﴿وَاللهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾

١٨. وقوله: ﴿ثُمَّ تَابَ اللهُ عَلَيْهِمْ﴾ أي بعد ذلك الضّلال والإعراض عن الرّشد وما أعقبه من سوء العمل والفساد في الأرض، وقد استفيد من قوله: ﴿أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾، وقوله: ﴿ثُمَّ تَابَ اللهُ عَلَيْهِمْ﴾ أنّهم قد أصابتهم الفتنة بعد ذلك العمى والصمم وما نشأ عنها عقوبة لهم، وأنّ الله لمّا تاب عليهم رفع عنهم الفتنة، ﴿ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا﴾، أي عادوا إلى ضلالهم القديم وعملهم الذّميم، لأنّهم مصرّون على حسبان أن لا تكون فتنة فأصابتهم فتنة أخرى، وقد وقف الكلام عند هذا العمى والصمم الثّاني ولم يذكر أنّ الله تاب عليهم بعده، فدلّ على أنّهم أعرضوا عن الحقّ إعراضا شديدا مرّة ثانية فأصابتهم فتنة لم يتب الله عليهم بعدها.

١٩. ويتعيّن أنّ ذلك إشارة إلى حادثين عظيمين من حوادث عصور بني إسرائيل بعد موسى - عليه السّلام، والأظهر أنّهما حادث الأسر البابلي إذ سلّط الله عليهم (بختنصر) ملك (أشور) فدخل بيت

المقدّس مرات سنة ٦٠٦ وسنة ٥٩٨ وسنة ٥٨٨ قبل المسيح، وأتى في ثالثتها على مدينة أورشليم فأحرقها وأحرق المسجد وحمل جميع بني إسرائيل إلى بابل أسارى، وأنّ توبة الله عليهم كان مظهرها حين غلب (كورش) ملك (فارس) على الأشوريين واستولى على بابل سنة ٥٣٠ قبل المسيح فأذن لليهود أن يرجعوا إلى بلادهم ويعمّروها فرجعوا وبنوا مسجدهم، وحادث الخراب الواقع في زمن (تيطس) القائد الرّوماني (وهو ابن الإنبراطور الرّوماني (وسبسيانوس) فإنّه حاصر (أورشليم) حتّى اضطرّ اليهود إلى أكل الجلود وأن يأكل بعضهم بعضا من الجوع، وقتل منهم ألف ألف رجل، وسبى سبعة وتسعين ألفا، على ما في ذلك من مبالغة، وذلك سنة ٦٩ للمسيح، ثمّ قفّاه الإنبراطور (أدريان) الرّوماني من سنة ١١٧ إلى سنة ١٣٨ للمسيح فهدم المدينة وجعلها أرضا وخلط ترابها بالملح، فكان ذلك انقراض دولة اليهود ومدينتهم وتفرّقهم في الأرض.

٢٠. وقد أشار القرآن إلى هذين الحديثين بقوله: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وأَمْدَدْناكُمْ بِأَمْوالٍ وبَنِينَ وجَعَلْناكُمْ أَكْثَرَ نَفِيراً إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَها فَإِذا جاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيسوءوا وُجُوهَكُمْ ولِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَما دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ ولِيُتَبِّرُوا ما عَلَوْا تَتْبِيراً عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ﴾ [الإسراء: ٤ ـ ٨] وهذا هو الّذي اختاره القفّال، وفي الآية أقوال أخر استقصاها الفخر.

٢١. وقد دلّت ثم على تراخي الفعلين المعطوفين بها عن الفعلين المعطوف عليهما وأنّ هنالك عميين وصممين في زمنين سابق ولا حق، ومع ذلك كانت الضّمائر المتّصلة بالفعلين المعطوفين عين الضمائر المتّصلة بالفعلين المعطوف عليهما، والّذي سوّغ ذلك أنّ المراد بيان تكرّر الأفعال في العصور وادّعاء أنّ الفاعل واحد؛ لأنّ ذلك شأن الأخبار والصفات المثبتة للأمم والمسجّل بها عليهم توارث السجايا فيهم من حسن أو قبيح، وقد علم أنّ الّذين عموا وصمّوا ثانية غير الّذين عموا وصمّوا أوّل مرّة، ولكنّهم لمّا كانوا خلفا عن سلف، وكانوا قد أورثوا أخلاقهم أبناءهم اعتبروا كالشيء الواحد، كقولهم: بنو فلان لهم ترات مع بني فلان.

٢٢. وقوله: ﴿كَثِيرٌ مِنْهُمْ﴾ بدل من الضّمير في قوله: ﴿ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا﴾، قصد منه تخصيص

أهل الفضل والصّلاح منهم في كلّ عصر بأنّهم برآء ممّا كان عليه دهماؤهم صدعا بالحق وثناء على الفضل.

٢٣. وإذ قد كان مرجع الضّميرين الأخيرين في قوله: ﴿ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا﴾ هو عين مرجع الضميرين الأوّلين في قوله: ﴿فَعَمُوا وَصَمُّوا﴾ كان الإبدال من الضميرين الأخيرين المفيد تخصيصا من عمومهما، مفيدا تخصيصا من عموم الضميرين الّذين قبلهما بحكم المساواة بين الضّمائر، إذ قد اعتبرت ضمائر أمّة واحدة، فإنّ مرجع تلك الضّمائر هو قوله: ﴿بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [المائدة: ٧٠]، ومن الضّروري أنّه لا تخلوا أمّة ضالّة في كلّ جيل من وجود صالحين فيها، فقد كان في المتأخّرين منهم أمثال عبد الله بن سلام، وكان في المتقدّمين يوشع وكالب اللّذين قال الله في شأنها ﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ﴾ [المائدة: ٢٣]

٢٤. وقوله: ﴿وَاللهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ تذييل، والبصير مبالغة في المبصر، كالحكيم بمعنى المحكم، وهو هنا بمعنى العليم بكلّ ما يقع في أفعالهم الّتي من شأنها أن يبصرها النّاس سواء ما أبصره النّاس منها أم ما لم يبصروه، والمقصود من هذا الخبر لازم معناه، وهو الإنذار والتّذكير بأنّ الله لا يخفى عليه شيء فهو وعيد لهم على ما ارتكبوه بعد أن تاب الله عليهم.

٢٥. وقرأ نافع، وابن كثير، وابن عامر، وعاصم، وأبو جعفر ﴿أَلَّا تَكُونَ﴾ ـ بفتح نون تكون على اعتبار (أن) حرف مصدر ناصب للفعل، وقرأ أبو عمرو، وحمزة، ويعقوب، وخلف ـ بضم النّون ـ على اعتبار (أن) مخفّفة من (أنّ) أخت (إنّ) المكسورة الهمزة، وأنّ إذا خفّفت يبطل عملها المعتاد وتصير داخلة على جملة، وزعم بعض النّحاة أنّها مع ذلك عاملة، وأنّ اسمها ملتزم الحذف، وأنّ خبرها ملتزم كونه جملة، وهذا توهّم لا دليل عليه، وزاد بعضهم فزعم أنّ اسمها المحذوف ضمير الشأن، وهذا أيضا توهّم على توهّم وليس من شأن ضمير الشأن أن يكون محذوفا لأنّه مجتلب للتّأكيد، على أنّ عدم ظهوره في أي استعمال يفنّد دعوى تقديره.

أبو زهرة:

ذكر محمد أبو زهرة (ت ١٣٩٤ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[1]:

---

(١) زهرة التفاسير: ٥/٢٢٩٩.

١. ﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلًا﴾ فتح الله تعالى باب القبول على اليهود والنصارى والصابئين، وقد أخذ سبحانه يبين كيف فتح الباب لهم من قبل ولكن غلقوه على أنفسهم، وقد ذكر سبحانه في هذا النص أمرين: أولهما ـ أنه تعالى أخذ عليهم الميثاق، والثاني: أنه أرسل رسلا ليسهل تنفيذ هذا الميثاق.

٢. والميثاق عقد موثق مشدد فيه، كما يشد الوثاق، وهو مؤكد بيمين الله تعالى، والله تعالى قد أخذ هذا الميثاق على بنى إسرائيل بأن يقوموا بالتكليفات التي يكلفهم إياها، ولم يذكر هنا موضوع الميثاق، وقد ذكره في مواضع كثيرة من كتاب الله تعالى، فترك هنا بيانه حملا عليها، ومن نصوص ميثاق الله تعالى على بنى إسرائيل قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلًا كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ﴾ وقد أكد الله سبحانه في الآية الكريمة التي نتكلم في معانيها (أخذ)، باللام وب (قد)، وبإضافة الأخذ إليه فقال سبحانه: ﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾

٣. ومع أخذ الميثاق المؤكد، لم يتركهم هملا، بل أرسل إليهم الرسل من عنده ليؤكدوا الميثاق، ويبينوه ويعاونوهم على تنفيذه، وقد جاءت كلمة ﴿رُسُلًا﴾ بالتنكير، وهو هنا للتكثير، أي أرسلنا إليهم رسلا كثيرة، ولم تكن نتيجة الميثاق وإرسال الرسل محمودة لهم، بل كانت منهم نكرا، ولذا قال سبحانه: ﴿كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ﴾ لقد كان الحكم الذى ارتضوا حكومته هواهم وشهواتهم، فما يوافق هواهم اتبعوه، وما لا يوافق هواهم ردوه، فاتخذوا بذلك إلههم هواهم وضلوا عن علم، ووقعوا في الشر، فلم يجعلوا العقل والميزان هو الحكم الذى يقبلون ما يقبله، ويردون ما يرده، وإنه ترتب على تحكيم الهوى وسيطرته عليهم أن كذبوا فريقا واكتفوا بالتكذيب، وأن قتلوا فريقا.

٤. هنا بعض مباحث لفظية تبين منها معنى النص الكريم:

أ. أولها: عدم وجود جواب الشرط، وهو (كلما)، فقال الزمخشري قام مقامه فريقا كذبوا وفريقا يقتلون، أو هو في الحقيقة جواب الشرط، لأن المعنى كلما جاءهم رسول بما لا تهوى أنفسهم كذبوا فريقا وفريقا قتلوه، وبعضهم قال إن الجواب محذوف تقديره، و(استكبرتم)، وأخذه من قوله تعالى في آية أخرى: ﴿أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ [البقرة]، وإن

الأوضح هو ما قرره الزمخشري لأن قوله: ﴿فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ﴾ تصلح جوابا، فلا حاجة إلى تقدير، وأما الآية الأخرى فقد جاءت الفاء في قوله: ﴿فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ فكانت الجملة غير صالحة لأن تكون جواب شرط، فكان لا بد من التصريح بجواب الشرط.

ب. الثاني: أن الله سبحانه وتعالى قسمهم فريقين فريقا كذبوه، وفريقا قتلوه، ولا شك أنه مع القتل التكذيب، ويكون المعنى على هذا أن هناك فريقا اكتفوا بتكذيب الرسول، وفريقا آخر ذهبت بهم اللجاجة في العناد وعداوة الهادين إلى أن يقتلوه.

ج. الثالث: التعبير عن التكذيب بالفعل الماضي فقال: ﴿فَرِيقًا كَذَّبُوا﴾، وعن القتل بالمضارع: ﴿وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ﴾، وقد علل ذلك الزمخشري بأن المضارع يدل على استحضار الجريمة البشعة التي ارتكبوها، وهي أن يقتلوا هاديهم ومرشدهم، وهناك تعليل آخر، وهو أنهم على استعداد لأن يقتلوا خاتم الهداة محمدا ﷺ، وقد هموا ولم ينالوا.

٥. ﴿وَحَسِبُوا أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا وَصَمُّوا ثُمَّ تَابَ اللهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا كَثِيرٌ مِنْهُمْ وَاللهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ الفتنة أصل معناها إدخال الذهب النار لتظهر جودته، وأطلقت الفتن في لغة القرآن على الشدائد التي تنزل ليختبر قلب المؤمن، فإن صبر ظهر إيمانه قويا شديدا، وإن خار ووهن كان من ضعفاء الإيمان ولقد قال تعالى: ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ [العنكبوت]، واليهود لما أنعم الله تعالى به عليهم إذ أخرجهم من قسوة فرعون ونجاهم بفلق البحر، حتى مروا، وغلقه على فرعون وقومه، حتى غرقوا، وهم ينظرون وأعطاهم من بعد ذلك المن والسلوى وغير ذلك ما أجزله تعالى عليهم من خير، حسبوا أن الإيمان جلب لا سلب فيه، وهناءة لا يرنقها تعب، ولذلك حسبوا ألا تكون فتنة تنزل بهم، ولكن الله أنزل عليهم هزائم تتلوها هزائم واختبرهم بقحط ينزل بهم، حتى يصقل إيمانهم، وكان ذلك الحسبان منهم لانغمار نفوسهم بالشهوات، لأنها تعمى وتصم، وترين على البصر بغشاوة فلا يرى، وتضع على الآذان وقرا فلا تسمع، ولذلك رتب الله تعالى على حسبانهم ألا فتنة تنزل أن عموا عن إدراك الحق، فلم يصلوا إليه، وأن صموا عن سماع الهادي فلم ينصتوا إليه، وبذلك سدت عليهم منافذ الإدراك، فلا عقل يدركون به إذ غشيته الشهوات حتى أعمته وجعلت عليه غشاوة ولا وعى يستمعون به إلى صوت الهداية، وقد نزلت بهم شدائد صقلت نفوسهم كالشدائد التي أنزلها التتار بهم،

فاستيقظت مداركهم وسمعت الحق آذانهم، وجاء الأنبياء أمثال داوود وسليمان فأنقذوهم، ولكن ما إن أحسوا ببحبوحة النعمة حتى استولت عليهم الشهوات فعموا وصموا ولكن كانت بقية صالحة.

٦. هنا مباحث لفظية نذكرها؛ لأنها تقرب إلينا معنى النص الكريم:

أ. الأول: أن قوله تعالى: ﴿أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ بنصب النون في تكون، وقرئ بضمها، والقراءة الأولى: على أساس أن (حسب) بمعنى الظن الغالب، والثانية: على أساس أن (حسب) بمعنى علم، والقراءتان متواترتان، وهما تنتهيان إلى أنهم ظنوا، ثم لغلبة الشهوات وسيطرتها تحول الظن إلى يقين أو كاليقين.

ب. الثاني: أن معنى: ﴿عَمُوا وَصَمُّوا﴾ فيه تشبيه حالهم في غلف قلوبهم واستيلاء الشهوات عليهم وعدم إدراكهم الحق بأنفسهم وعدم استماعهم للداعية بحال الأعمى الذى لا يبصر، ولا يستمع إلى من يدعوه ليسير في الطريق القويم.

ج. الثالث: أن المفسرين أرادوا أن يفسروا متى كانت التوبة التي يسترشدون فيها ثم الصمم الذى يلي الرشاد وقالوا في ذلك أقوالا كثيرة، وعندى أن توبتهم بشديدة تنزل بهم، يخرجهم الله منها، ثم عودتهم إلى ما كانوا عليه متكررا.

د. الرابع: أن قوله تعالى: ﴿ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا كَثِيرٌ مِنْهُمْ﴾ فيه معنى التراخي المعنوي لبعد ما بين التوبة والعمى والصمم، وكثير منهم بدل من الضمير؛ وفى هذا إشارة إلى تأصل الصمم والعمى حتى صاروا أهلا لأن يحكم على الجميع بسببهم ولكن عدل الله أخرج المهديين منهم، بهذا ختمت الآية، وهي تدل على أن الله جل جلاله عليم بما كان منهم علم من يبصر، وهو مجازيهم بأعمالهم، وهو فوقهم، وهو بكل شيء محيط.

مُغْنِيَّة:

ذكر محمد جواد مُغْنِيَّة (ت ١٤٠٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. ﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾، سبق تفسير قوله تعالى في الآية ١٢ من هذه السورة: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا﴾، والآية ١٣: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ﴾،

(١) التفسير الكاشف: ٣/١٠١.

وقال المفسرون: أن الله سبحانه كرر أخذ الميثاق من اليهود، ونقضهم إياه بقتلهم الأنبياء وتكذيبهم ـ كرر ذلك تأكيدا لعتوهم وشدة تمردهم.. ونضيف نحن إلى ذلك أن الله جل ثناؤه قد أراد أيضا من هذا التكرار ـ وهو أعلم بما أراد ـ أن يحذر ذراري المسلمين من ذراري اليهود، حيث سبق في علمه تعالى أن المسلمين سيفترقون إلى طوائف وينقسمون إلى دويلات، وان اليهود سيستغلون هذا الانقسام لإنشاء دولة لهم في قلب البلاد الإسلامية، ويكون منها ما كان.

٢. ﴿وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلًا﴾ بينوا لهم طريق الحق والهداية، ولكن ﴿كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ﴾، فهوى النفس وحده هو الآمر الناهي عند اليهود، ولا جزاء لمن خالفهم ـ وان كان نبيا ـ إلا القتل ان قدروا عليه، أو التكذيب ان عجزوا عن القتل.. وهذا الوصف لا يختص باليهود، وان كان الحديث عنهم، فكل من انخدع لهواه يفعل مثل ما فعلوا، يهوديا كان، أو مسلما، أو نصرانيا.

٣. ﴿وَحَسِبُوا أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾، المراد بالفتنة هنا شدائد الأمور، كتسلط الأقوياء عليهم بالقتل والتخريب والتشريد، أي ظن اليهود أنهم لا يغلبون أبدا لأنهم شعب الله المختار بزعمهم.. وقد اعتمدوا على هذا الزعم فيما مضى، أما اليوم فإنهم يعتمدون على القوى الاستعمارية، والعناصر الرجعية، والشركات الاحتكارية، وعلى إثارة الفتن والخلافات، ونشر الفساد والانحلال.

٤. ﴿فَعَمُوا وَصَمُّوا﴾، كل من كره شيئا عمي عن محاسنه، وقد كره اليهود كل شيء إلا ما تهوى أنفسهم، لذا تعاموا عن منهج الحق، وتصاموا عن صوت العدل، فسلط الله عليهم البابليين، فقتلوا رجالهم، ونهبوا أموالهم، وسبوا نساءهم وأطفالهم ﴿ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ بعد أن تابوا، لشدة ما أصابهم في أسر بختنصر من المذلة والمهانة ﴿ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا كَثِيرٌ مِنْهُمْ﴾، أي أن الله سبحانه بعد أن أنجاهم من عذاب الأسر عاود كثير منهم الكرة إلى البغي والفساد، قتلوا زكريا ويحيى، وكذبوا السيد المسيح عليه السلام وحاولوا قتله، وقالوا فيه وفي أمه قولا عظيما، فسلط الله عليهم الفرس والروم، وفعلوا بهم ما فعله بختنصر.

٥. ﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ من سفك الدماء، وتزييف الحقائق، وتدبير المؤامرات وتنفيذ الخطط التي يضع تصميمها كل طاغ وباغ.. ان الله سبحانه يعلم ذلك منهم، وهو مجازيهم عليه بالخزي والخذلان

في الدنيا قبل الآخرة.

٦. وهذا الوصف الذي حكاه الله عن اليهود ينطبق تماما على من يتظاهر بالإسلام، ثم يدور في فلك الذين يساندون إسرائيل، ويناصرونها على العرب والمسلمين.

الطباطبائي:

ذكر محمد حسين الطباطبائي (ت ١٤٠٢ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[1]:

١. ﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلًا﴾ إلى آخر الآية:

أ. هذه الآية وما بعدها إلى عدة آيات تتعرض لحال أهل الكتاب كالحجة على ما يشتمل عليه قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أهل الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾، فإن هذه الجرائم والآثام لا تدع للإنسان اتصالا بربه حتى يقيم كتب الله معتمدا عليه.

ب. ويحتمل أن تكون الآيات مرتبطة بقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمنوا وَالَّذِينَ هَادُوا﴾، فيكون تصديقا بأن الأسماء والألقاب لا تنفع شيئا في مرحلة السعادة إذ لو نفعت لصدت هؤلاء عن قتل الأنبياء وتكذيبهم والهلاك بمهلكات الفتن وموبقات الذنوب.

ج. ويمكن أن يكون هذه الآيات كالمبينة لقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمنوا وَالَّذِينَ هَادُوا﴾، وهو كالمبين لقوله: ﴿يَا أهل الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ﴾ والمعنى ظاهر.

٢. ﴿فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ﴾ الظاهر أن كلمتي ﴿فَرِيقًا﴾ في الموضعين مفعولان للفعلين بعدهما قدما عليهما للعناية بأمرهما، والتقدير: كذبوا فريقا ويقتلون فريقا، والمجموع جواب قوله: ﴿كُلَّمَا جَاءَهُمْ﴾، والمعنى نحو من قولنا: كلما جاءهم رسول بما لا تهوى أنفسهم أساءوا مواجهته وإجابته وجعلوا الرسل الآتين فريقين: فريقا كذبوا وفريقا يقتلون.

٣. ﴿وَحَسِبُوا إلا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا وَصَمُّوا﴾، متمم للكلام في الآية السابقة، والحسبان هو الظن، والفتنة هي المحنة التي تغر الإنسان أو هي أعم من كل شر وبلية، والعمى هو عدم إبصار الحق وعدم تمييز الخير من الشر، والصمم عدم سماع العظة وعدم الإعباء بالنصيحة، وهذا العمى والصمم معلولا حسبانهم

---

[1] الميزان في تفسير القرآن: ٦/٦٨.

أن لا تكون فتنة، والظاهر أن حسبانهم ذلك معلول ما قدروا لأنفسهم من الكرامة بكونهم من شعب إسرائيل وأنهم أبناء الله وأحباؤه فلا يمسهم السوء وإن فعلوا ما فعلوا وارتكبوا ما ارتكبوا، فمعنى الآية ـ والله أعلم ـ أنهم لمكان ما اعتقدوا لأنفسهم من كرامة التهود ظنوا أن لا يصيبهم سوء أو لا يفتنون بيا فعلوا فأعمى ذلك الظن والحسبان أبصارهم عن إبصار الحق، وأصم ذلك آذانهم عن سماع ما ينفعهم من دعوة أنبيائهم.

٤. وهذا مما يرجح ما احتملناه أن الآيات كالحجة المبينة لقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمنوا وَالَّذِينَ هَادُوا﴾ فمحصل المعنى أن الأسماء والألقاب لا تنفع أحدا شيئا فهؤلاء اليهود لم ينفعهم ما قدروا لأنفسهم من الكرامة بالتسمي بل أعماهم وأوردهم مورد الهلكة والفتنة لما كذبوا أنبياء الله وقتلوهم.

٥. ﴿ثُمَّ تَابَ اللهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا كَثِيرٌ مِنْهُمْ وَاللهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ التوبة من الله على عباده رجوعه تعالى بالرحمة إليهم، وهذا يدل على أن الله سبحانه قد كان بعدهم من رحمته وعنايته ولذلك أخذهم الحسبان المذكور ولزمهم العمى والصمم، لكن الله سبحانه رجع إليهم ثانية بالتوبة فرفع هذا الحسبان عن قلوبهم، والعمى والصمم عن أبصارهم وآذانهم، فعرفوا أنفسهم بأنهم عباد لا كرامة لهم على الله إلا بالتقوى، وأبصروا الحق وسمعوا عظة الله لهم بلسان أنبيائه فتبين لهم أن التسمي لا ينفع شيئا، ثم عموا وصموا كثير منهم، وإسناد العمى والصمم إلى جمعهم أولا ثم إلى كثير منهم ـ بإتيان كثير منهم بدلا من واو الجمع، أخذ بالنصفة في الكلام بالدلالة على أن إسناد العمى والصمم إلى جمعهم من قبيل إسناد حكم البعض إلى الكل، والواقع أن المتصف بهاتين الصفتين كثير منهم لا كلهم أولا، وإيماء إلى أن العمى والصمم المذكورين أولا شملا جميعهم على ما يدل عليه المقابلة ثانيا، وأن التوبة الإلهية لم يبطل أثرها ولم تذهب سدى بالمرة بل نجا بالتوبة بعضهم فلم يأخذهم العمى والصمم اللاحقان أخيرا ثالثا.

٦. ثم ختم تعالى الآية بقوله: ﴿وَاللهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ للدلالة على أن الله تعالى لا يغفله شيء فغيره تعالى إذا أكرم قوما بكرامة ضرب ذلك على بصره بحجاب يمنعه أن يرى منهم السوء والمكروه، وليس الله سبحانه على هذا النعت بل هو البصير لا يحجبه شيء عن شيء.

الحوثي:

ذكر بدر الدّين الحوثي (ت ١٤٣١ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١ . ﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ كما مر في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ اللهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ﴾ الآية، فذكر أخذ الميثاق هنا تقدمة لقوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلًا كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ﴾ ليبين نقضهم للميثاق، وأنه لا يفيدهم انتسابهم للكتاب وهم مخالفون لما فيه عادلون عن الإيمان الصحيح والعمل الصالح إلى ضدهما، كيف لا وهم كلما جاءهم رسول من الرسل الذين أرسلوا إليهم استكبروا، ففريقاً من الرسل كذبوا وفريقاً يقتلون، أي كذبوا فريقاً من الرسل وقتلوا فريقاً؛ وقدم المفعول؛ لأنه المهم، من حيث هو رسول أخذ عليهم الميثاق بالإيمان به ونصرته فكذبوه أو قتلوه، قال في (الكشاف): (فإن قلت: لِمَ جيء بأحد الفعلين ماضياً وبالآخر مضارعاً؟ قلت: جيء يقتلون على حكاية الحال الماضية، واستحضاراً لتلك الحال الشنيعة للتعجب منها)؛ ولعل قوله: للتعجب، غلط في النسخة، والصواب: والتعجيب منهم، وقد اعتبر باقياً بالنسبة للموجودين من أهل الكتاب ﴿قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة:٩١] فقال ـ والله أعلم ـ ﴿تَقْتُلُونَ﴾ لأنهم مشاركون فيه في الحال، فكأنه باقٍ إلى الآن ـ والله أعلم ـ أو أنه على استحضار الحال، ففيه رد على من زعم أنه جيء بالمضارع في قوله تعالى: ﴿وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ﴾ لكونه آخر الآية؛ لأن قوله تعالى: ﴿فَلِمَ تَقْتُلُونَ﴾ ليس آخر آية.

٢ . ﴿وَحَسِبُوا أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ فلذلك تجرؤا على تكذيب وقتل مَن كذبوا وقتلوا من الأنبياء، وهم قد تعرضوا للفتنة بتلك الجرائم لكنهم يظنون أنهم أحباء الله فلن يؤاخذهم بذنوبهم، والفتنة: إما عذاب، كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ﴾ [الذاريات:١٣] أو تكليف يشق عليهم ويكونون معه إذا عصوا أدّاهم للعذاب، كتكليف أصحاب السبت وابتلائهم بالحوت، قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ [الأعراف:١٦٣]

٣. ﴿فَعَمُوا وَصَمُّوا﴾ لأن آيات الله تتلى عليهم في التوراة، وهم يقرؤونها ولكنهم لا ينتفعون بها، كأنهم عمي لا يبصرونها، وصم لا يسمعونها؛ لجرأتهم على المعاصي، وقسوة قلوبهم لحسبانهم أن لا تكون

---

(١) التيسير في التفسير: ٢/٣٥١.

فتنة.

٤. ﴿ثُمَّ تَابَ اللهُ عَلَيْهِمْ﴾ فهداهم، ولعل ذلك بنبي من أنبيائهم أو زاجر عظيم حدث لهم ﴿ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا كَثِيرٌ مِنْهُمْ﴾ بعد اهتدائهم ﴿وَاللهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ فهو يجازي بقدر المستحق من خير أو شر، وينزل كلاً من الضال والمهتدي منزلته، ولا يخفى عليه شيء من عملهم ولا من توبة التائب وإصرار المصر.

فضل الله:

ذكر محمد حسين فضل الله (ت ١٤٣١ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. لقد تكرر في القرآن الحديث عن الميثاق الذي أخذه الله على بني إسرائيل في الالتزام بحدود الإيمان وخطوطه، بالسير على خط الرسل بما يوحيه الله إليهم من آيات وأحكام ليبينوها للناس وليعملوا بها، ﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلًا كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ﴾ ولكنهم نقضوا ذلك الميثاق، فكذبوا بعض الرسل، وقتلوا بعضا آخر، ولم يكن ذلك ناشئا من عدم قناعة، أو من قناعة مضادة بضلال هؤلاء الرسل، بل كان ناشئا من عدم موافقتهم لهوى أنفسهم، فليست القضّية قضية رفض للفكر، بل قضية هوى النفس الأمّارة بالسوء.

٢. ﴿وَحَسِبُوا أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ لقد كان هؤلاء يظنون أن الميثاق لا يمثل موقفا خاضعا للاختبار من خلال الفتنة التي يختبر بها الله عباده، ﴿فَعَمُوا وَصَمُّوا﴾ فأغلقوا أبصارهم عن رؤية الحقّ وأصموا أسماعهم عن سماع آياتهم، وجاءتهم الفتنة فسقطوا في الامتحان، وحاولوا الرجوع إلى الله من جديد، والعودة إلى الالتزام بالميثاق، ﴿ثُمَّ تَابَ اللهُ عَلَيْهِمْ﴾ لأن الله يريد أن يفسح لعباده المجال للتراجع عن الخطأ، والعودة إلى الصواب، ولكنهم عادوا إلى ما كانوا عليه، ﴿ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا كَثِيرٌ مِنْهُمْ﴾، ولم تكن القضّية تمثل حالة شموليّة، بل كانت تمثل ظاهرة في كثير منهم، ﴿وَاللهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ مهما كانت ألاعيبهم وأضاليلهم وحركاتهم التي يختبئون وراءها، فإن الله بصير بما يعمله العباد في كل حدوده وشرائعه.

---

(١) من وحي القرآن: ٢٨١/٨.

٣. وهذا هو الدرس الذي يجب أن يحفظه كل مؤمن بأن قضّية الإيمان لا بد من أن تخضع للامتحان، وفي كل المواقف الصغيرة والكبيرة، لا يمكن للإنسان أن يواجه ذلك بذهنيّة الأعمى والأصمّ، بل بروحيّة الإنسان المفتوح العين والقلب والأذن، الذي يرصد كل شيء مما حوله، لأن الله بصير بكل شيء في كل مجالات العمل.

الشيرازي:

ذكر ناصر مكارم الشيرازي في تفسير هذا المقطع ما يلي[1]:

١. في آيات سابقة من سورة البقرة، وفي أوائل هذه السورة أيضا إشارة إلى عهد وميثاق أخذه الله تعالى على بني إسرائيل وفي هذه الآية تذكير بهذا الميثاق: ﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلًا﴾

٢. يبدو أنّ هذا الميثاق هو الذي جاءت الإشارة إليه في الآية من سورة البقرة، أي العمل بما أنزل الله! ثمّ يضاف إلى ذلك القول بأنّهم، فضلا عن كونهم لم يعملوا بذاك الميثاق، ﴿كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ﴾، هذه هي طرائق المنحرفين الأنانيين وسبلهم، فهم بدلا من إتباع قادتهم، يصرون على أن يكون القادة هم التابعين ولا هوائهم، وإلّا فليس لهؤلاء الهداة والأنبياء حتى حق الحياة.

٣. في هذه الآية جاء الفعل (كذبوا) بصيغة الماضي بينما جاء الفعل (يقتلون) بصيغة المضارع، ولعل السبب ـ بالإضافة إلى المحافظة على التناسب اللفظي في أواخر الآيات السابقة والتّالية وكلها بصيغة المضارع ـ هو كون الفعل المضارع يدل على الاستمرار، والقصد من ذلك الإشارة إلى استمرار هذه الروح فيهم، وأن تكذيب الأنبياء وقتلهم لم يكن حدثا عارضا في حياتهم، بل كان طريقا واتجاها لهم.

٤. في الآية التّالية إشارة إلى غرورهم أمام كل ما اقترفوه من طغيان وجرائم: ﴿وَحَسِبُوا أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ أي ظنوا مع ذلك أن البلاء والجزاء لن ينزل بهم، واعتقدوا ـ كما صرحت الآيات الأخرى ـ أنّهم من جنس أرقى، وأنّهم أبناء الله! وأخيرا استحال هذا الغرور الخطير والتكبر إلى ما يشبه حجابا غطى أعينهم

---

(١) تفسير الأمثل: ٤/١٠٦.

وآذانهم: ﴿فَعَمُوا وَصَمُّوا﴾ عن رؤية آيات الله وعن سماع كلمات الحقّ.

٥. ولكنّهم عندما أصابتهم مظاهر من عقاب الله وشاهدوا نتائج أعمالهم المشؤومة، ندموا وتابوا بعد أن أدركوا أن وعد الله حق، وأنّهم ليسوا عنصرا متميزا فائقا، وتقبل الله توبتهم: ﴿ثُمَّ تَابَ اللهُ عَلَيْهِمْ﴾، إلّا أنّ حالة الندم والتوبة لم تلبث طويلا، فسرعان ما عاد الطغيان والتجبر وسحق الحقّ والعدالة، وعادت أغشية الغفلة الناتجة عن الانغماس في الإثم تحجب أعينهم وآذانهم مرّة أخرى ﴿ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا كَثِيرٌ مِنْهُمْ﴾ فلم يعودوا يرون آيات أو يسمعوا كلمة الحقّ، وعمت الحالة الكثير منهم.

٦. ولعل تقديم (عموا) على (وصمّوا) يعني أن عليهم أوّلا أن يبصروا آيات الله ومعجزات رسوله ﷺ، ثمّ يستمعوا إلى تعاليمه ويستوعبوها.

٧. وورود عبارة ﴿كَثِيرٌ مِنْهُمْ﴾ بعد تكرار ﴿عَمُوا وَصَمُّوا﴾ جاء لتوضيح أنّ حالة الغفلة والجهل والعمى والصمم تجاه الحقائق لم تكن عامّة، بل كان بينهم بعض الأقلية من الصالحين، وفي هذا دليل على أن تنديد القرآن باليهود لا ينطوي على أي جانب عنصري أو طائفي، بل هو موجّه إلى أعمالهم فحسب.

٨. سؤال وإشكال: هل أن تكرار عبارة ﴿عَمُوا وَصَمُّوا﴾ ذو طابع عام تأكيدي، أم للإشارة إلى حادثتين مختلفتين؟ والجواب: يرى بعض المفسّرين أنّ التكرار يشير إلى واقعتين مختلفتين حدثتا لبني إسرائيل، الاولى: الغزو البابلي لهم، والثّانية: غزو الإيرانيين والروم، والقرآن أشار إليها بشكل عابر في بداية سورة بني إسرائيل، ولا يستبعد ـ أيضا ـ أنّ بني إسرائيل قد تعرضوا مرات عديدة لهذه الحالات فحينما يشاهدون نتائج أعمالهم الشريرة، كانوا يتوبون، ثمّ ينقضون توبتهم، وقد حدث هذا عدّة مرّات لا مرّتين فقط.

٩. في نهاية الآية جملة قصيرة عميقة المعنى تقول: إنّ الله لا يغفل أبدا عن أعمالهم، إذ أنّه يرى كل ما يعملون: ﴿وَاللهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾

٦٩. النصارى وتأليه المسيح

نتناول في هذا الفصل ما ذكره المفسّرون ـ بحسب التسلسل التاريخي، والمدارس الإسلامية المختلفة ـ حول تفسير المقطع [٦٩] من سورة المائدة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ [المائدة: ٧٢]، مع العلم أنّا نقلنا المباحث التي لا علاقة لها ـ كبرى أو مباشرة ـ بالتفسير التحليلي إلى محالّها من كتب السلسلة.

عائشة:

روي عن عائشة (ت ٥٧ هـ) أنها روت عن رسول الله ﷺ أنّه قال: الدواوين يوم القيامة ثلاثة: ديوان لا يغفره الله، وديوان لا يعبأ الله به شيئا، وديوان لا يدعه الله لشيء، فأما الديوان الذي لا يغفر فإن الله لا يغفر أن يشرك به، وقال: ﴿إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾[1].

القرظي:

روي عن محمد بن كعب القرظي (ت ١٢٠ هـ) أنّه قال: لما رفع الله عيسى ابن مريم اجتمع من علماء بني إسرائيل مائة رجل، فقال بعضهم لبعض: أنتم كثير؛ نتخوف الفرقة، أخرجوا عشرة، فأخرجوا عشرة، ثم قالوا: أنتم كثير، أخرجوا عشرة، فأخرجوا عشرة، ثم قالوا: أنتم كثير، أخرجوا عشرة، فأخرجوا عشرة، حتى بقي عشرة، فقالوا: أنتم كثير حتى الآن، فأخرجوا ستة، وبقي أربعة، فقال بعضهم لبعض: ما تقولون في عيسى؟ فقال رجل منهم: أتعلمون أن أحدا يعلم الغيب إلا الله؟ قالوا: لا، قال: أتعلمون أن أحدا يحيي الموتى إلا الله؟ قالوا: لا، قال: أتعلمون أن أحدا يبرئ الأكمه والأبرص إلا الله؟ قالوا: لا، فقال الرجل: هو الله، كان في الأرض ما بدا له، ثم صعد إلى السماء حين بدا له، وقال الآخر: قد عرفنا عيسى، وعرفنا أمه، هو ولده، وقال الآخر: لا أقول كما تقولان، أقول: بل جاءت به أمه من عمل غير

---

(١) أحمد ٤٣/١٥٥.

صالح، فقال الآخر: لا أقول كما تقولون، قد كان عيسى يخبرنا أنه عبد الله، وروحه، وكلمته ألقاها إلى مريم، فنقول كما قال: لنفسه، لقد خشيت أن تكونوا قلتم قولا عظيما، قال: فخرجوا على الناس، فقالوا لرجل منهم: ماذا قلت؟ قال: قلت: هو الله، كان في الأرض ما بدا له، ثم صعد إلى السماء حين بدا له، قال: فاتبعه عنق[1]، من الناس، وهؤلاء على دين الملك، وقالوا للآخر: ماذا قلت؟ قال: قلت: بل جاءت به أمه من عمل غير صالح، فاتبعه عنق من الناس، ثم خرج الثالث، فقالوا: ماذا قلت؟ قال: قلت: هو ولد الله، فاتبعه عنق من الناس، وهؤلاء النسطورية واليعقوبية، فخرج الرابع، فقالوا له: ماذا قلت؟ قال: قلت: هو عبد الله، وروحه، وكلمته ألقاها إلى مريم، فاتبعه عنق من الناس، فقال محمد بن كعب: فكل قد ذكر الله في القرآن: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ الآية، ثم قرأ: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾ الآية [المائدة: ٧٣]، ثم قرأ: ﴿وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ١٥٦]، ثم قرأ: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا﴾ إلى قوله: ﴿مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: ٦٥ ـ ٦٦]، قال محمد بن كعب: فهؤلاء أمة مقتصدة؛ الذين قالوا: عيسى عبد الله، وكلمته، وروحه ألقاها إلى مريم[2].

الصادق:

روي عن زرارة، قال: كتبت إلى الإمام الصادق (ت ١٤٨ هـ) مع بعض أصحابنا فيما يروي الناس عن النبي ﷺ أنه من أشرك بالله فقد وجبت له النار، ومن لم يشرك بالله فقد وجبت له الجنة، قال: أما من أشرك بالله فهذا الشرك البين، وهو قول الله: ﴿مَنْ يُشْرِكْ بِالله فَقَدْ حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ﴾ وأما قوله: من لم يشرك بالله فقد وجبت له الجنة)، قال الإمام الصادق: (ها هنا النظر، هو من لم يعص الله)[3]

مقاتل:

روي عن مقاتل بن سليمان (ت ١٥٠ هـ) أنّه قال: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ نزلت في نصارى نجران الماريعقوبيين، منهم: السيد، والعاقب، وغيرهما، قالوا: إن الله هو المسيح

---

(١) عُنُق: جماعة.

(٢) عزاه السيوطي إلى ابن المنذر.

(٣) تفسير العيّاشي ١/٣٣٥.

ابن مريم، ﴿وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾ يعني: وحدوا الله ربي وربكم، ﴿إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ﴾ فيقول: إن الله هو المسيح ابن مريم، فيموت على الشرك ﴿فَقَدْ حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ﴾ يعني: وما للمشركين ﴿مِنْ أَنْصَارٍ﴾ يعني: من مانع يمنعهم من النار[1].

الماتريدي:

ذكر أبو منصور الماتريدي (ت ٣٣٣ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[2]:

١. قوله عز وجل: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ الآية:

أ. يحتمل قوله عز وجل: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا﴾: أي: كفروا بعيسى عليه السلام؛ لأن عيسى كذبهم في قولهم: (إنه ابن الله) بقوله: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾ الآية، وبقوله: ﴿إِنَّ اللهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ﴾، وبقوله: ﴿إِنِّي عَبْدُ اللهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ﴾ الآية، أخبر أنه عبد الله، ليس هو إلهًا ولا ابنه، تعالى الله عن ذلك.

ب. الثاني: كفروا بعلمهم؛ لأنهم علموا أنه ابن مريم، وسموه ابن مريم، ثم قالوا: هو الله أو ابن الله، فإن كان ابن مريم أنى يكون له ألوهية!؟ فإذا كانت أمه لم تستحق الألوهية وهي أقدم منه، كيف يكون لمن بعدها!؟ ولكن لسفههم قالوا ذلك، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرًا.

٢. وقوله عز وجل: ﴿إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ﴾: إذا حرم عليه الجنة صار مأواه النار.

٣. اختلف لم سمي: مسيحًا:

أ. قيل: سمي: مسيحًا؛ قال الحسن: سمي ذلك؛ لأنه ممسوح بالبركات، وسمي الدجال: مسيحًا؛ لأنه ممسوح باللعنة.

ب. وقيل: المسيح بمعنى الماسح، وذلك جائز؛ الفعيل بمعنى الفاعل، وهو ما كان يمسح المريض والأكمه والأبرص فيبرأ، ويمسح الموتى فيحيون، ومثل ذلك؛ فسمي بذلك، والفعيل بمعنى المفعول جائز ـ أيضًا ـ يقال: جريح ومجروح، وقتيل ومقتول؛ هذا كله جائز في اللغة.

---

(١) تفسير مقاتل ابن سليمان ١/٤٩٤.

(٢) تأويلات أهل السنة: ٣/٥٦٢.

الطوسي:

ذكر أبو جعفر الطوسي (ت ٤٦٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ اللام في (لقد) لام القسم، أقسم الله تعالى بأنه ﴿كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ والكفر هو الجحود لما يجب عليه الإقرار به، والتصديق له، وقال الرماني: هو تضييع حق النعمة بالجحد أو ما جرى مجراه في عظم الجرم، ولذلك كان من قتل نبياً فهو كافر وان أقر بجميع نعم الله، وعندنا إن قتل نبي يدل على أن قاتله جاحد لما يجب عليه الإقرار به، والاعتقاد لتصديقه.

٢. والذين يقولون من النصارى: إن الله هو المسيح بن مريم هم اليعقوبية، وهم مع ذلك مثلثة، لأنهم يقولون إن الأب والابن وروح القدس إله واحد، وغيرهم يقولون: إن المسيح ابن الله، ولا يقولون هو الله وأجمعوا على أنه إله.

٣. وقوله: ﴿وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾ إخبار عن المسيح عليه السلام أنه قال لبني إسرائيل الذين كانوا في زمانه ﴿اعْبُدُوا اللهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾ الذي يملكني وإياكم وإني وإياكم عبيده، ومن خلقني وخلقكم.

٤. ﴿إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ﴾ فالشرك هو الكفر، وإنما يطلق على من أشرك في عبادة الله غيره، وإنما كان كافراً، لأنه جحد نعمة الله بإضافتها إلى غيره، وزعمه أن غيره يستحق العبادة مع ما ثبت أنه لا يقدر أحد على ما يستحق به العبادة سوى الله تعالى، والشرك أصله الاجتماع في الملك، فإذا كان الملك بين نفسين، فهما شريكان وكذلك كل شيء يكون بين نفسين، ولا يلزم على ذلك ما يضاف إلى كل واحد منهما منفرداً كالعبد يكون مالكاً لله وهو ملك للإنسان، لأنه لو بطل ملك الإنسان، لكان ملكاً لله كما كان، لم يزد في ملكه شيء لم يكن.

٥. ﴿فَقَدْ حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ﴾ إخبار من المسيح لقومه أن من يشرك بالله، فإن الله يمنعه الجنة، والتحريم ها هنا هو تحريم منع لا تحريم عبادة، ﴿وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ معناه أنهم مع

---

(١) تفسير الطوسي: ٣/٦٠١.

حرمانهم الجنة مستقرهم النار، ولا ناصر لهم يدفع عنهم ويخلصهم مما هم فيه من أنواع العذاب.

الجشمي:

ذكر الحاكم الجشمي (ت ٤٩٤ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. الشرك: أصله الاجتماع في الملك، ومنه: الشركة في المال والثوب والدار، والإشراك في العبادة: جعلها له ولغيره، كما لو جعل جاعل المعنى بين اثنين.

٢. عاد الكلام إلى ذكر النصارى وما هم عليه من الكفر، فقال سبحانه: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ وهذا مذهب اليعقوبية من النصارى؛ لأنهم قالوا: إنه تعالى اتحد بالمسيح اتحاد الذات، فصارا شيئًا واحدًا، وصار الناسوت لاهوتًا، وذلك قولهم: إنه الإله وأنه يعبد.

٣. ﴿وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾ أي خالقي وخالقكم ﴿إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ﴾ وهو تحريم منع لا تحريم تَعَبُّدٍ ﴿وَمَأْوَاهُ﴾ مصيره ﴿النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ من معين ينجيهم من عذاب الله.

٤. تدل الآية الكريمة على:

أ. أن الكفر يدخل في الأقوال كما يدخل في الاعتقاد، خلاف ما يقوله بعضهم: إنه يدخل في الاعتقاد فقط.

ب. أن في النصارى من يقول: المسيح إله، ومنهم من يقول: ثالث ثلاثة، والنصارى ثلاث فرق: النسطورية، واليعقوبية، والملكية، ولهم فرق أخر غير مشهورة، ويقولون: إن الإله جوهر واحد ثلاثة أقانيم، وقالوا: إن الإله اتحد بالمسيح، ثم اختلفوا، فقال بعضهم: يصير اللاهوت والناسوت شيئًا واحدًا، والقديم والمحدث قديمًا، ومنهم من قال هما شيئان.

ج. أن الظالم لا ناصر له، فتدل على أنه لا شفاعة لهم، فيبطل قول المرجئة، والمعتبر بإطلاق اللفظ.

الطَبِرسي:

ذكر الفضل الطَبِرسي (ت ٥٤٨ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[٢]:

---

(١) التهذيب في التفسير: ٣/٣٦٩.

(٢) تفسير الطبرسي: ٣/٣٥٠.

١. الشرك: أصله الاجتماع في الملك، فإذا كان الملك بين نفسين، فهما شريكان، وكذلك كل شيء بين نفسين، ولا يلزم على ذلك ما يضاف إلى كل واحد منهما منفردا، كالعبد يكون ملكا لله، وهو ملك للإنسان، لأنه لو بطل ملك الإنسان، لكان ملكا لله، كما كان لم يزد في ملكه شيء لم يكن.

٢. عاد تعالى إلى ذكر النصارى، فقال: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ وهذا مذهب اليعقوبية منهم، لأنهم قالوا: إن الله اتحد بالمسيح اتحاد الذات، فصارا شيئا واحدا، وصار الناسوت لاهوتا، وذلك قولهم إنه الإله.

٣. ﴿وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾ أي: خالقي وخالقكم، ومالكي ومالككم، وإني وإياكم عبيده ﴿إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ﴾ أي بأن يزعم أن غيره يستحق العبادة مع ما ثبت أنه لا يقدر أحد على فعل ما يستحق به العبادة، سوى الله تعالى: ﴿فَقَدْ حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ﴾ والتحريم هاهنا تحريم منع، لا تحريم عبادة، ومعناه فإن الله يمنعه الجنة ﴿وَمَأْوَاهُ﴾ أي: مصيره ﴿النَّارَ﴾ وهذا كله إخبار من المسيح لقومه، ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ معناه: لا ناصر لهم يخلصهم مما هم فيه من أنواع العذاب.

ابن الجوزي:

ذكر أبو الفرج بن الجوزي (ت ٥٩٧ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي:

١. ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ قال مقاتل: نزلت في نصارى نجران، قالوا ذلك.

٢. ﴿وَقَالَ الْمَسِيحُ﴾ أي: وقد كان المسيح قال لهم وهو بين أظهرهم: إنه من يشرك بالله فقد حرّم الله عليه الجنّة.

الرّازي:

ذكر الفخر الرازي (ت ٦٠٦ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[1]:

١. لما استقصى الله تعالى الكلام مع اليهود شرع هاهنا في الكلام مع النصارى فحكى عن فريق منهم أنهم قالوا: إن الله هو المسيح ابن مريم، وهذا هو قول اليعقوبية لأنهم يقولون: إن مريم ولدت إلها،

---

(١) التفسير الكبير: ١٢/٤٠٩.

ولعلّ معنى هذا المذهب أنهم يقولون: إن الله تعالى حل في ذات عيسى واتحد بذات عيسى، ثم حكى تعالى عن المسيح أنه قال وهذا تنبيه على ما هو الحجة القاطعة على فساد قول النصارى، وذلك لأنه ﷺ لم يفرق بين نفسه وبين غيره في أن دلائل الحدوث ظاهرة عليه.

٢. ﴿إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ ومعناه ظاهر، واحتج أصحابنا على أن عقاب الفساق لا يكون مخلدا، قالوا: وذلك لأنه تعالى جعل أعظم أنواع الوعيد والتهديد في حق المشركين هو أن الله حرم عليهم الجنة وجعل مأواهم النار، وأنه ليس لهم ناصر ينصرهم ولا شافع يشفع لهم، فلو كان حال الفساق من المؤمنين كذلك لما بقي لتهديد المشركين على شركهم بهذا الوعيد فائدة.

القرطبي:

ذكر محمد بن أحمد القرطبي (ت ٦٧١ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ هذا قول اليعقوبية فرد الله عليهم ذلك بحجة قاطعة مما يقرون به، فقال: ﴿وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾ أي إذا كان المسيح يقول: يا رب ويا الله فكيف يدعو نفسه أم كيف يسألها؟ هذا محال.

٢. ﴿إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ﴾: قيل: وهو من قول عيسى، وقيل: ابتداء كلام من الله تعالى، والإشراك أن يعتقد معه موجدا، وقد مضى في آل عمران القول في اشتقاق المسيح فلا معنى لإعادته، ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾

الشوكاني:

ذكر محمد بن علي الشوكاني (ت ١٢٥٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[٢]:

١. ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ هذا كلام مبتدأ يتضمن بيان بعض فضائح أهل الكتاب، والقائلون بهذه المقالة هم فرقة منهم: يقال لهم: اليعقوبية؛ وقيل: هم الملكانية، قالوا: إن الله عز وجل حلّ في ذات عيسى، فردّ الله عليهم بقوله: ﴿وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾

---

(١) تفسير القرطبي: ٦/٢٤٩.

(٢) فتح القدير: ٢/٧٤.

أي والحال أنه قد قال المسيح هذه المقالة، فكيف يدّعون الإلهية لمن يعترف على نفسه بأنه عبد مثلهم؟

٢. ﴿إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ﴾ الضمير للشأن، وهذا كلام مبتدأ يتضمن بيان أن الشرك يوجب تحريم دخول الجنة؛ وقيل: هو من قول عيسى ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ ينصرونهم فيدخلونهم الجنة أو يخلصونهم من النار.

أَطَّفِّيش:

ذكر محمد أَطَّفِّيش (ت ١٣٣٢ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. ﴿لَقَدْ كَفَرَ﴾ أشرك ﴿الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ نزلت فيه الأُلُوهِيَّة من الله فيبقى الله غير إله، أو ناقص الأُلُوهِيَّة، ولا يخفى خطأُهم، فإنَّ الصفات القديمة لا يتحمَّلها حادث، والصفات الذاتيَّة لا يتَّصف بها غير من هي له، ولا سيما أنَّ صفات الله بمعنى أنَّها ليست شيئًا آخر زائدا عليه مقترنة ولا حالَّة به، سبحان الله عمَّا يقوله المبطلون، وفي ذكر مريم تشنيع عليهم بأنَّ المولود لا يكون إلها، وأنَّ مريم ولدت إلهًا.

٢. ﴿وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَآءِيلَ اَعْبُدُواْ اللهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾ فإنِّي عَبدٌ من عبيده أعبده ولست بإله، أرسل رسول الله ﷺ رجلاً إلى الجلندى بعُمان، فقال له قبل تبليغ الرسالة إليه: (هل تعلم أنَّ عيسى يصلِّي لله سبحانه؟) فقال: (نعم)، فقال: (فإنِّي أدعوك إلى عبادة من يعبده عيسى)

٣. ﴿إِنَّهُ مَنْ يُّشْرِكْ بِاللهِ﴾ غيرَهُ في العبادة أو في الصِّفة أو في الفعل أو في نفي ما هو له عنه، وهذا تصريح بأنَّ من قال عيسى إله فهو مشرك، ﴿فَقَدْ حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ﴾ قضى الله أن لا يدخلها، شبَّه قضاءه بعدم الدخول بمنع من لو خُلِّيَ لَدَخَلَ دارا مُنِع من دخولها، فإنَّه ليس في طاقة الإنسان أن يذهب إلى الجنَّة باختياره، حتَّى يأتي بابها فيمنعه البوَّاب، والتحريم لغويٌّ، ولك أن تقول: شرعيٌّ بطريق المجاز المرسل أو الاستعارة، فإنَّ تحريم الشيء سبب لعدم مقارفته، وملزوم لعدمها، والتحريم شبيه بالمنع الحسِّيِّ.

٤. ﴿وَمَأْوَاهُ النَّارُ﴾ فإنَّ الجنَّة مأوى من يوحِّد ويعمل الصالحات، ويتَّقي المحارم، ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنَ اَنصَارٍ﴾ أي: مانعين العذابَ عنهم من أوَّل، أو مزيلين له بعد وقوعه بمغالبة أو شفاعة، وهذا من كلام

(١) تيسير التفسير، أطفيش: ٤/٩٥.

المسيح، وقيل: من كلام الله، وقيل: قوله: ﴿إِنَّهُ مَنْ يُّشْرِكْ﴾ إلى قوله: ﴿مِنَ اَنصَارٍ﴾ من كلام الله، والراجح أنَّ ذلك من كلام عيسى، وذلك من مقابلة الجمع بالجمع، فرد لفرد، كأنَّه قيل: (وما لظالمٍ نصيرٌ)، قُلْ هذا ولا تقل: إنَّ صيغة الجمع للإشعار بأنَّ نصرة الواحد أمر غير محتاج إلى التعرُّض لنفيه لشدة ظهوره، وإنَّه إنَّما ينبغي التعرُّض لنفي نصرة الجمع.

٥. ومقتضى الظاهر: (وما لهم من ناصرين)، أي: لمن يشرك بالله، وأظهر الضمير ليصفهم بالظلم؛ فمن قال: (إنَّ الله هو المسيح) لا ينصره عيسى ولا غيره، بل يعاديه عيسى وغيره من المسلمين والحيوانات والجمادات، فما ينفعه التقرُّب بذلك إلى عيسى، وإذا لم تنصرهم الجماعة فأولى أن لا ينصرهم الفرد، وقيل: الجمع ردٌّ لقولهم: إنَّ لهم أنصارا كثيرة.

القاسمي:

ذكر جمال الدين القاسمي (ت ١٣٣٢ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. بيّن الله تعالى كفر النصارى وما هم عليه من فساد الاعتقاد المباين لأصل دعوة عيسى عليه السلام، من التوحيد الخالص، بقوله سبحانه: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾، قال الرازيّ: هذا قول اليعقوبية منهم، يقولون: إن مريم ولدت إلها، قال ولعلّ معنى هذا المذهب أنهم يقولون: إن الله تعالى حلّ في ذات عيسى واتّحد بها، تعالى الله عن ذلك علوّا كبيرا، وقد سبق الكلام على مثل هذا الآية في هذه السورة مفصّلا، فتذكّر.

٢. ثم بيّن تعالى أنهم صمّوا عن مقالات عيسى الداعية إلى التوحيد، كما عموا عما فيه من أمارات الحدوث، بقوله سبحانه: ﴿وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللهَ﴾ ولم يقل اعبدوني، ثم صرّح بقوله: ﴿رَبِّي وَرَبُّكُمْ﴾ قلعا لمادة توهم الاتحاد ﴿إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ﴾ كيف والشرك أعظم وجوه الظلم ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ أي: ما لهم من أحد ينصرهم بإنقاذهم من النار، إما بطريق المغالبة أو بطريق الشفاعة، والجمع لمراعاة المقابلة بـ (الظالمين)؛ و(اللام) إما للعهد، والجمع باعتبار معنى ﴿مَنَ﴾، كما أن الإفراد في الضمائر الثلاثة باعتبار لفظها، وما للجنس وهم داخلون فيه دخولا

---

(١) تفسير القاسمي: ٤/٢١٢.

أوليّا، ووضعه على الأول موضع الضمير، للتسجيل عليهم بأنهم ظلموا بالإشراك وعدلوا عن طريق الحقّ، والجملة تذييل مقرّر لما قبله، وهو إمّا من تمام كلام عيسى عليه السلام، وإمّا وارد من جهته تعالى، تأكيدا لمقالته عليه السلام، وتقريرا لمضمونها، أفاده أبو السعود.

رضا:

ذكر محمد رشيد رضا (ت ١٣٥٤هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. انتقل الله تعالى من بيان حال اليهود إلى بيان حال النصارى في دينهم فقال عز وجل: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ أكد تعالى بالقسم كفر قائلي هذا القول من النصارى، وإذ غلوا في إطراء نبيهم المسيح ابن مريم عليه السلام، غلوا ضادوا به غلو اليهود في الكفر به، وقولهم عليه وعلى أمه الصديقة بهتانا عظيما، ثم صار هو العقيدة الشائعة فيهم، ومن عدل عنها إلى التوحيد يعد مارقا من دينهم، ذلك بأنهم يقولون إن الإله مركب من ثلاثة أصول يسمونها (أقانيم) وهي الآب والابن وروح القدس، ويقولون إن المسيح هو الابن، والله هو الأب، وأن كل واحد من الثلاثة عين الآخرين، فينتج ذلك أن الله هو المسيح، وأن المسيح هو الله بزعمهم، وقد تقدم تفسير مثل هذه الجملة الآية ال ١٩ من هذه السورة (من هذا الجزء)

٢. ﴿وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾ أي والحال أن المسيح قال لهم ضد ما يقولون: أمرهم بعبادة الله تعالى وحده، معترفا بأنه ربه وربهم، فاعترف بأنه عبد مربوب لله تعالى، ودعا بني إسرائيل الذين أرسل إليهم أن يعبدوا الله الذي يعبده هو، ولا يزال أمره هذا محفوظا عندهم فيما حفظوا من إنجيله، في هذه الكتب التي كتبت لبيان بعض سيرته وتاريخه، وهي التي يسمونها الأناجيل، في إنجيل يوحنا منها عنه عليه السلام ما نصه: (وهذه ه الحياة الأبدية ـ أن يعرفوك أنت الإله الحقيقي وحدك ويسوع المسيح الذي أرسلته) فدين المسيح مبني على التوحيد المحض وهو دين الله الذي أرسل به جميع رسله، وسنعود إلى بيان ذلك في تفسير قوله تعالى في آخر هذه السورة حكاية عنه عليه السلام ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾ [المائدة: ١١٧]

---

(١) تفسير المنار: ٤٠٠/٦.

٣. ﴿إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ أمرهم عليه السلام بالتوحيد الخالص، وقفى عليه بالتحذير من الشرك والوعيد عليه، ببيان أن الحال والشأن الثابت عند الله تعالى هو أن كل من يشرك بالله شيئا ما من ملك أو بشر، أو كوكب أو حجر، أو غير ذلك، بأن يجعله ندا له، أو متحدا به، أو يدعوه لجلب نفع أو دفع ضر، أو يزعم أنه يقربه إلى الله زلفى، فيتخذه شفيعا زاعما أنه يؤثر في إرادة الله تعالى أو علمه، فيحمله على شيء غير ما سبق به علمه وخصصه إرادته في الأزل، ـ من يشرك هذا الشرك ونحوه فإن الله يحرم عليه الجنة في الآخرة، بَلْ هُوَ قَدْ حَرَّمَهَا عليه في سابق عمله، بمقتضى دينه الذي أوحاه إلى جميع رسله، فلا يكون له مأوى ولا ملجأ يأوي إليه إلا النار، دار العذاب والهوان، وما لهؤلاء الظالمين لأنفسهم بالشرك من نصير ينصرهم، ولا شفيع ينقذهم ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: ٢٥٥] ـ ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٨] فالنافع رضاه ﴿وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ﴾ [الزمر: ٧] وشر أنواعه الشرك، ونكته جمع الأنصار مع كون النكرة المفردة تفيد العموم في سياق النفي، هي التنبيه على كون النصارى كانوا يتكلون على كثير من الرسل والقديسين إذ كانت وثنية الشفاعة قد فشت فيهم، وإن لم تكن من أصل دينهم.

المراغي:

ذكر أحمد بن مصطفى المراغي (ت ١٣٧١ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. بعد أن عدّد الله تعالى قبائح اليهود ومخازيهم شرع يفصل قبائح النصارى ويبطل أقوالهم الفاسدة وآراءهم الزائفة، فقال: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ أي أقسم إن هؤلاء الذين ادّعوا أن الله هو المسيح بن مريم ـ قد كفروا وضلّوا ضلالا بعيدا، إذ هم في إطرائه ومدحه غلوا أشد من غلوّ اليهود في الكفر به وتحقيره، وقولهم عليه وعلى أمه الصدّيقة بهتانا عظيما؛ وقد صارت هذه المقالة هي العقيدة الشائعة عندهم، ومن عدل عنها عدّ مارقا من الدين فقالوا: إن الإله مركب من ثلاثة أصول يسمونها (الأقانيم الثلاثة) وهي الأب والابن وروح القدس فالمسيح هو الابن والله هو الأب وقد حل الأب في الابن واتحد به فكون روح القدس، وكل واحد من هذه الثلاثة عين الآخرين، وخلاصة ذلك ـ

---

(١) تفسير المراغي ١٦٦/٦.

الله هو المسيح، والمسيح هو الله كما يزعمون.

٢. ثم ذكر الله تعالى أن المسيح يكذبكم في ذلك فحكى عنه: ﴿وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾ أي والحال أن المسيح قال لهم ضد ما يقولون، فقد أمرهم بعبادة الله وحده، معترفا بأنه ربه وربهم، ودعا بنى إسرائيل الذين أرسل إليهم إلى عبادة الله وحده، ولا يزال هذا الأمر محفوظا في الأناجيل التي كتبت لبيان بعض سيرته وتاريخه ففي إنجيل يوحنا (وهذه هي الحياة الأبدية أن يعرفوك أنت الإله الحقيقي وحدك ويسوع المسيح الذي أرسلته) فدين المسيح مبنى على التوحيد المحض، وهو دين الله الذي أرسل به جميع رسله، وفى هذه المقالة تنبيه إلى ما هو الحجة القاطعة على فساد قول النصارى لأنه عليه السلام لم يفرق بين نفسه وغيره في أن دلائل الحدوث ظاهرة على الجميع.

٣. وبعد أن أمرهم عليه السلام بالتوحيد الخالص، أتبعه بالتحذير من الشرك والوعيد عليه، فقال: ﴿إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ أي إن كل من يشرك بالله شيئا من ملك أو بشر أو كوكب أو حجر أو نحو ذلك فيجعله ندّا له أو متحدا به، أو يدعوه لجلب نفع أو دفع ضرر، أو يزعم أنه يقرّ به إليه زلفى فيتخذه شفيعا ليؤثر في إرادته تعالى وعلمه، ويحمله على شيء غير ما سبق به علمه وخصصته إرادته في الأزل ـ من يفعل ذلك فإن الله قد حرم عليه الجنة في سابق علمه، وبمقتضى شرعه الذي أوحاه إلى جميع رسله، فلا مأوى له إلا النار التي هي دار العذاب والذل والهوان ـ وما للظالمين لأنفسهم بشركهم بالله من نصير ينصرهم ولا شفيع ينقذهم مما يحل بهم ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إلا بِإِذْنِهِ﴾، وفى هذا إيماء إلى أن النصارى كانوا يتكلمون على كثير من القديسين، إذ كانت وثنية الشفاعة قد فشت فيهم وإن لم تكن من أصل دينهم.

سيّد:

ذكر سيّد قطب (ت ١٣٨٥ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. لقد سبق في سياق السورة وصف الذين قالوا: إن الله هو المسيح ابن مريم بالكفر، فالآن يكرر هذا الوصف، سواء لمن قالوا: إن الله ثالث ثلاثة، ومن قالوا: إن الله هو المسيح ابن مريم، مع ذكر شهادة

---

(١) في ظلال القرآن: ٢/٩٤٤.

عيسى عليه السلام عليهم بالكفر، وتحذيره لهم من وصف أحد بالألوهية إلا الله سبحانه واعترافه بأن الله هو ربه وربهم على السواء، ثم تحذير الله لهم في النهاية من المضي فيما هم عليه من الكفر بسبب هذه المقولات التي لا يقول بها المؤمنون بالله وبدينه الصحيح.

٢. لقد سبق أن بينا ـ باختصار ـ كيف ومتى تسربت هذه المقولات المنحرفة من المجامع إلى العقيدة النصرانية التي جاء بها عيسى عليه السّلام رسولا من عند الله؛ كإخوانه الرسل؛ الذين جاءوا بكلمة التوحيد خالصة؛ لا يشوبها ظل من الشرك؛ لأن الرسالات كلها، جاءت لتقرير كلمة التوحيد في الأرض وإبطال كلمة الشرك، فالآن نذكر ـ باختصار كذلك ـ ما انتهت إليه تلك المجامع من الاتفاق على التثليث وألوهية المسيح والخلاف فيما بينها بعد ذلك، على النحو الذي أسلفناه:

أ. (جاء في كتاب (سوسنة سليمان) لنوفل بن نعمة الله بن جرجس النصراني: أن عقيدة النصارى التي لا تختلف بالنسبة لها الكنائس، وهي أصل الدستور الذي بينه المجمع النيقاوي هي الإيمان بإله واحد: آب واحد، ضابط الكل، خالق السماوات والأرض، كل ما يرى وما لا يرى، وبرب واحد يسوع، الابن الوحيد المولود من الأب قبل الدهور من نور الله، إله حق من إله حق، مولود غير مخلوق، مساو للأب في الجوهر، الذي به كان كل شيء والذي من أجلنا نحن البشر، ومن أجل خطايانا نزل من السماء، وتجسد من الروح القدس، ومن مريم العذراء تأنس، وصلب عنا على عهد بيلاطس، وتألم وقبر، وقام من الأموات في اليوم الثالث على ما في الكتب، وصعد إلى السماء وجلس على يمين الرب، وسيأتي بمجد ليدين الأحياء والأموات، ولا فناء لملكه، والإيمان بالروح القدس، الرب المحيي المنبثق من الأب، الذي هو مع الابن يسجد له، ويمجده، الناطق بالأنبياء) (وقال الدكتور (بوست) في تاريخ الكتاب المقدس: طبيعة الله عبارة عن ثلاثة أقانيم متساوية: الله الأب، والله الابن، والله الروح القدس، فإلى الأب ينتمي الخلق بواسطة الابن، وإلى الابن الفداء، وإلى الروح القدس التطهير)

ب. ونظرا لصعوبة تصور الأقانيم الثلاثة في واحد، وصعوبة الجمع بين التوحيد والتثليث، فإن الكتاب النصارى عن اللاهوت حاولوا تأجيل النظر العقلي في هذه القضية، التي يرفضها العقل ابتداء، ومن ذلك ما كتبه القس (بوطر) في رسالة (الأصول والفروع) حيث يقول: (قد فهمنا ذلك على قدر طاقة عقولنا، ونرجو ان نفهمه فهما أكثر جلاء في المستقبل حين يكشف لنا الحجاب عن كل ما في السماوات وما

في الأرض، وأما في الوقت الحاضر ففي القدر الذي فهمناه كفاية)

٣. والله سبحانه يقول: إن هذه المقولات كلها كفر، وهي تتضمن ـ كما رأينا ـ القول بألوهية المسيح عليه السّلام؛ والقول بأن الله ثالث ثلاثة.. وليس بعد قول الله سبحانه قول، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَّ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللهَّ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللهَّ فَقَدْ حَرَّمَ اللهُّ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾..

٤. وهكذا حذرهم المسيح عليه السّلام فلم يحذروا، ووقعوا بعد وفاته عنهم فيما حذرهم من الوقوع فيه، وما أنذرهم عليه الحرمان من الجنة والانتهاء إلى النار.. ونسوا قول المسيح عليه السلام: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾، حيث أعلن لهم أنه هو وهم في العبودية سواء، لربوبية الله الواحد الذي ليس له من شركاء.

الخطيب:

ذكر عبد الكريم الخطيب (ت ١٣٩٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[1]:

١. هؤلاء هم النصارى ـ بعد اليهود ـ قد كفروا بالله، إذ تصوروه في هذه الصورة المجسدة، التي رأوا فيها عيسى عليه السلام، فجعلوه الله رب العالمين.. ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَّ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ وهي قولة منكرة، أملتها أهواء مضللة، وتأويلات نضحت بها مشاعر فاسدة.

٢. أما المسيح عليه السلام فإنه لم يقل إلا ما قاله القرآن عنه: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللهَّ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللهَّ فَقَدْ حَرَّمَ اللهُّ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ فما جاء المسيح ﷺ، إلا ليصحح معتقدات اليهود الفاسدة، وإلا ليقيمهم على شريعة التوراة التي أفسدوها، وبعدوا عنها.

٣. ومن عجب أن الأناجيل الأربعة التي يدين بها المسيحيون، ليست فيها لفظة واحدة يؤخذ منها أن المسيح إله أو ابن إله! وما عرف المسيح بألوهية في حياته، ولا عرف أن أحدا من أتباعه ادّعى له هذه الدعوة، ولا عبده كما يعبد الإله.

ابن عاشور:

---

(١) التفسير القرآني للقرآن: ٣/١١٥٠.

ذكر محمد الطاهر بن عاشور (ت ١٣٩٣ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[1]:

١. ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ استئناف ابتدائي لإبطال ما عليه النّصارى، يناسب الانتهاء من إبطال ما عليه اليهود، وقد مضى القول آنفا في نظير قوله: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللهِ شَيْئًا﴾ [المائدة: ١٧] ومن نسب إليه هذا القول من طوائف النّصارى.

٢. والواو في قوله: ﴿وَقَالَ الْمَسِيحُ﴾ واو الحال، والجملة حال من ﴿الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ هُوَ الْمَسِيحُ﴾، أي قالوا ذلك في حال نداء المسيح لبني إسرائيل بأنّ الله ربّه وربّهم، أي لا شبهة لهم، فهم قالوا: إنّ الله اتّحد بالمسيح؛ في حال أنّ المسيح الّذي يزعمون أنّهم آمنوا به والّذي نسبوه إليه قد كذّبهم، لأنّ قوله: ﴿رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾، يناقض قولهم: ﴿إِنَّ اللهَ هُوَ الْمَسِيحُ﴾، لأنّه لا يكون إلّا مربوبا، وذلك مفاد قوله: ﴿رَبِّي﴾، ولأنّه لا يكون مع الله إله آخر، وذلك مفاد قوله: ﴿وَرَبَّكُمْ﴾، وذلك عقّب بجملة ﴿إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ﴾، فيجوز أن تكون هذه الجملة حكاية لكلام صدر من عيسى عليه السلام فتكون تعليلا للأمر بعبادة الله، ووقوع (إنّ) في مثل هذا المقام تغني غناء فاء التّفريع وتفيد التّعليل.

٣. وفي حكايته تعريض بأنّ قولهم ذلك قد أوقعهم في الشرك وإن كانوا يظنّون أنّهم اجتنبوه حذرا من الوقوع فيما حذّر منه المسيح، لأنّ الّذين قالوا: إنّ الله هو المسيح أرادوا الاتّحاد بالله وأنّه هو هو، وهذا قول اليعاقبة كما تقدّم آنفا، وفي سورة النّساء، وذلك شرك لا محالة، بل هو أشدّ، لأنّهم أشركوا مع الله غيره ومزجوه به فوقعوا في الشّرك وإن راموا تجنّب تعدّد الآلهة، فقد أبطل الله قولهم بشهادة كلام من نسبوا إليه الإلهية إبطالا تامّا، وإن كانت الجملة من كلام الله تعالى فهو تذييل لإثبات كفرهم وزيادة تنبيه على بطلان معتقدهم وتعريض بهم بأنّهم قد أشركوا بالله من حيث أرادوا التّوحيد، والضّمير المقترن بإنّ ضمير الشأن يدلّ على العناية بالخبر الوارد بعده.

٤. ومعنى ﴿حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ﴾ منعها منه، أي من الكون فيها، والمأوى: المكان الّذي يأوي إليه الشيء أي يرجع إليه، وجملة ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ يحتمل أيضا أن تكون من كلام المسيح عليه السلام

---

(١) التحرير والتنوير: ٥/١٧١.

على احتمال أن يكون قوله: ﴿إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ﴾ من كلامه، ويحتمل أن تكون من كلام الله تعالى تذييلا لكلام المسيح على ذلك الاحتمال، أو تذييلا لكلام الله تعالى على الاحتمال الآخر، والمراد بالظّالمين المشركون ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣]، أي ما للمشركين من أنصار ينصرونهم لينقذوهم من عذاب النّار، فالتّقدير: ومأواه النّار لا محالة ولا طمع له في التّخلّص منه بواسطة نصير، فبالأحرى أن لا يتخلّص بدون نصير.

أبو زهرة:

ذكر محمد أبو زهرة (ت ١٣٩٤ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. بين سبحانه ضلال اليهود وما كان ضلال فكر، بل ضلال قلب، ذلك لأنهم عرفوا الحق، ولكن حقد قلوبهم وحسد نفوسهم منعهم من الإذعان للحق الذى تبين لهم، وأدركوه، وطمس الله عليهم فجعل قلوبهم غلفا لا ينفذ الحق إليها، وبعد ذلك ذكر ضلال النصارى، وكان ضلالهم ضلال العقل الذى انحرفوا به تحت تأثير وثنية قديمة، أو فلسفة واهمة سيطرت في زمانهم، فكان الضلال ضلال فكر انحرف فاعتنقوا غير المعقول، وآمنوا بما هو مستحيل، ولا عجب في ذلك إذ استهوت العقول أفكار منحرفة شردتهم عن الجادة المستقيمة.

٢. وقد أخذ سبحانه يصور كفرهم فقال تعالت كلماته: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ أكد الله سبحانه وتعالى كفر الذين قالوا إن الله ـ تعالى عما يقولون ـ هو المسيح ابن مريم، ويظهر أنه كان من هؤلاء الذين انحرفت عقولهم من زعم أن الله تعالى حل في جسم فكان هو المسيح، مع أنهم يقرون أن مريم ولدته، وأن منهم وهم الأكثرون من يقولون: إنه ابن الله قد حلت فيه الألوهية، وهم بهذا الاعتبار قد قالوا: إن الله هو المسيح باعتبار أن الألوهية حلت فيه، وأنه الإله أو ابن الإله.

٣. وحقيقة ـ هذه النصرانية التي انحرفت عن أصل الديانة ـ المسيحية التي جاء بها المسيح، أنه بعد أن ترك المسيح هذه الدنيا تعرض المسيحيون لاضطهادات شديدة استمرت نحو ثلاثة قرون كانوا فيها يفرون بدينهم ويختفون وتحرق كتبهم، حتى صار أصل العقيدة معرضا لمنازع مختلفة، ولكن التوحيد هو

(١) زهرة التفاسير: ٥/٢٣٠٣.

السائد الغالب، وما إن رفع الاضطهاد عنهم، حتى تعرضوا لفتنة أشد من الأذى البدنى، فتعرضوا لأذى في العقيدة ذاتها، وهو أشد وأنكى، إذ أدخلت الوثنية في النصرانية بتأثير قسطنطين ملك الرومان، ولنترك الكلمة لابن البطريق النصراني يتكلم عن الأهواء التي دخلت في عقول المسيحية، فقد قال عن (مجمع نيقية) الذى أعلن ألوهية المسيح، والذى انعقد لمنع دعاية الوحدانية التي حملها أسقف اسمه أريوس، ويتبعه في فكرته أكثر المسيحيين قال ذلك النصراني: (بعث الملك قسطنطين إلى جميع البلدان فجمع البطارقة والأساقفة، فاجتمع في مدينة نيقية ثمانية وأربعون وألفان من الأساقفة مختلفين في الآراء والأديان، فمنهم من كان يقول إن المسيح وأمه إلهان من دون الله وهم البربرانية، ومنهم من كان يقول إن المسيح من الأب بمنزلة شعلة نار انفصلت من شعلة نار، فلم تنقص الأولى بانفصال الثانية عنها، وهي مقالة سابليوس وشيعته، ومنهم من كان يقول لم تحمل به مريم تسعة أشهر وإنما مر في بطنها، كما يمر الماء في الميزاب؛ لأن الكلمة دخلت في أذنها، وخرجت من حيث يخرج الولد من ساعتها، وهي مقالة إليان وأشياعه، ومنهم من كان يقول: إن المسيح إنسان خلق من اللاهوت كواحد منا في جوهره، وإن ابتداء الابن من مريم، وإنه اصطفى ليكون مخلصا للجوهر الإنسى صحبته النعمة الإلهية، وحلت فيه بالمجد والمشيئة، ولذلك سمى ابن الله، ويقولون إن الله جوهر قديم وأقنوم واحد، ويسمونه بثلاثة أسماء، ولا يؤمنون بالكلمة ولا بروح القدس، وهي مقالة بولس الشمشاطى بطريرك أنطاكية وأشياعه، ومنهم من كان يقول إنهم ثلاثة آلهة لم تزل صالح وطالح وعدل بينهما، وهي مقالة مرقيون اللعين وأصحابه، وقد زعموا أن مرقيون هو رئيس الحواريين، وأنكروا بطرس، ومنهم من كان يقول بألوهية المسيح، وهي مقالة بولس الرسول، ومقالة الثلاثمائة وثمانية عشر أسقفا)

٤. هذه هي الأهواء والآراء التي كانت تذكر في الجماعات المسيحية وظهرت عندما زال الاضطهاد، وحل محله الأمن، ولم يذكر ما كان يقرره أريوس الذى انعقد المجمع لإنهاء دعوته، والحق أن دعوة أريوس كانت هي البقاء على الوحدانية، فقد قرر كتاب تاريخ الأمة القبطية أن دعوة أريوس كانت منتشرة وكانت عامة وكان السائد عند الكثيرين إنكار ألوهية المسيح، فقد كانت كنيسة أسيوط على هذا الرأي وكان للرأي الأصيل رأى أريوس مشايعون في فلسطين ومقدونية والقسطنطينية، ولكن أريد تحويل المسيحية من التوحيد إلى الوثنية قبل أن يدخل فيها قسطنطين فانتقل للرأي الذى يتفق معها وهو ألوهية

المسيح، فأعلن موافقته على رأى ٣١٨ (ثمانية عشر وثلاثمائة) من جمع عددهم ثمانية وأربعون وألفان، واضطهد من عداهم، وقامت منازعات بين الوحدانية والوثنية، حتى اختفت أصوات الوحدانية في الأوساط النصرانية.

٥. ﴿وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾ في هذا النص الكريم بيان لحقيقة الدعوة التي دعا إليها عيسى عليه السلام ونفى نفيا مطلقا ادعاءاتهم الألوهية له فقد كانت دعوته التي كان موطنها بنى إسرائيل، وانبثق نورها، من أوساطهم إلى غيرهم من الناس، هي إلى التوحيد في العبادة إذ لا ألوهية سواه، وزكى التوحيد بقوله: ﴿رَبِّي وَرَبُّكُمْ﴾، فإن هذا النص يمنع الألوهية من نواح ثلاث:

أ. الأولى: إثبات أن الله هو ربه الذى خلقه ونماه، وأنشأه كما أنشأ غيره.

ب. الثانية: التسوية بينه وبين غيره من الخلق في التكوين والإنشاء والتربية، فهو في هذا لا يفترق عن أحد من البشر.

ج. الثالثة أنه لا يمكن أن يكون فيه عنصر الألوهية؛ لأن الله تعالى رباه ونماه، كما كان بالنسبة لغيره، وليس مما يسوغ للإله أن يأكل ويشرب وينمو كسائر البشر، فذاته العلية منزهة عن الأحداث، ولا يليق بها الاحتياج.

٦. وفى النص الكريم إشارة إلى جريمة من جرائم بنى إسرائيل، وهي أنهم كذبوا المسيح عليه السلام ـ وناوءوه كما ناوءوا محمدا، إذ كفروا بالمسيح مع أنه رسول إليهم، وهموا بقتله، وادعى النصارى أنهم قتلوه، وإن هذه الدعوة التي نادى بها المسيح بين ظهرانيهم وفى قوم لم تجد أرضا خصبه في أوساطهم، وحرضوا على المسيح عليه السلام واستمر الاضطهاد للنصارى، حتى غيرت وبدلت لهم في ذلك يد فعالة، وعليهم من وزرها قسط كبير.

٧. وقد حذر المسيح من الشرك، فقال ناهيا محذرا: ﴿إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ ظاهر السياق أنه من كلام السيد المسيح عليه السلام لبنى إسرائيل الذين كانوا أول من وجه إليهم دعوته، ويصح أن يكون ذلك الكلام مستقلا عن كلام السيد المسيح، وأنه تقرير لمقام الوحدانية في العبادة، وأنه لا عبادة من غير وحدانية، وأن الشرك ينفى العبادة، بل تكون ضلالا والإشراك بالله يتناول ثلاث شعب، إشراك في الذات، فيجعل ذات الله تعالى كذات الحوادث، وإشراك في

الخلق، فيحسب المشرك أن لغير الله تعالى أثرا في الخلق والتكوين، وإشراك في العبادة.

٨. والنصارى قد أشركوا في هذه النواحي كلها فحسبوا أن الله تعالى ليس منزها حتى يتصف بصفات الحوادث، زعموا أن الله تعالى يكون له ولد، كما يكون لغيره ولد، وأن هذا الولد شاركه في الخلق والتكوين وأنه يعبد معه، بل لا تكاد تجد ذكرا لعبادة الله تعالى من غير إشراك غيره.. ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان]

٩. وجزاء ذلك الشرك أن الله تعالى يحرم به الجنة، بمنعه منها فلا يدخلها، وهذه عقوبة سلبية، فالحرمان عقاب ومنع النعيم عقاب، وهناك عقوبة إيجابية، وهي دخول النار، وإذا كانت الجنة محرمة فمكان إيوائه النار يدخلها ويخلد فيها أبدا، وإنها للجنة أبدا، وللنار أبدا، ولا يمكن أن ينجيهم من العذاب أحد، ولذلك قال تعالى: ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾، أي أنه ليس لظالم من الظالمين نصير قط فالتعبير بقوله: ﴿مِنْ أَنْصَارٍ﴾، أي أنه لا نصير قط لا من كبير يخاف، ولا من صغير يرجى.

مُغْنِيَّة:

ذكر محمد جواد مُغْنِيَّة (ت ١٤٠٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[1]:

١. ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾، غالى اليهود في تحقير عيسى عليه السلام وأمه، وغالى النصارى في تعظيمها، حتى ارتفعا بهما إلى مكان الآلهة، والغلو في نظر الإسلام كفر بشتى صوره وأشكاله، قال الإمام علي عليه السلام: (سيهلك فيّ صنفان: محبّ مفرط يذهب به الحب إلى غير الحق، ومبغض مفرط يذهب به البغض إلى غير الحق، وخير الناس فيّ حالا النمط الأوسط فالزموه)

٢. ﴿وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾، المسيح من بني إسرائيل وأنذر أول من أنذر قومه، فأمرهم بعبادة الله وحده معترفا بأنه ربه وربهم، ومنذرا من يشرك بالله بأليم العذاب، ولكن النصارى أبوا إلا القول بربوية عيسى عليه السلام ومن جحد بها فقد جحد بخالق الكون في عقيدتهم.

الطباطبائي:

(١) التفسير الكاشف: ٣/١٠٣.

ذكر محمد حسين الطباطبائي (ت ١٤٠٢ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[1]:

١. ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ وهذا كالبيان لكون النصارى لم تنفعهم النصرانية والانتساب إلى المسيح عليه السلام عن تعلق الكفر بهم إذ أشركوا بالله ولم يؤمنوا به حق إيمانه حيث قالوا: إن الله هو المسيح بن مريم، والنصارى وإن اختلفوا في كيفية اشتمال المسيح بن مريم على جوهرة الألوهية بين قائل باشتقاق أقنوم المسيح وهو العلم من أقنوم الرب تعالى وهو الحياة، وذلك الأبوة والبنوة، وقائل بأنه تعالى صار هو المسيح على نحو الانقلاب، وقائل بأنه حل فيه كما تقدم بيان ذلك تفصيلا في الكلام على عيسى بن مريم عليه السلام في تفسير سورة آل عمران.

٢. لكن الأقوال الثلاثة جميعا تقبل الانطباق على هذه الكلمة (أن الله هو المسيح بن مريم) فالظاهر أن المراد بالذين تفوهوا بهذه الكلمة جميع النصارى الغالين في المسيح عليه السلام لا خصوص القائلين منهم بالانقلاب، وتوصيف المسيح بابن مريم لا يخلو من دلالة أو إشعار بسبب كفرهم وهو نسبة الألوهية إلى إنسان ابن إنسان مخلوقين من تراب، وأين التراب ورب الأرباب!؟

٣. ﴿وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾ إلى آخر الآية احتجاج على كفرهم وبطلان قولهم بقول المسيح عليه السلام نفسه؛ فإن قوله عليه السلام: ﴿اعْبُدُوا اللهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾ يدل على أنه عبد مربوب مثلهم، وقوله: ﴿إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ﴾ يدل على أن من يجعل لله شريكا في ألوهيته فهو مشرك كافر محرم عليه الجنة.

٤. وفي قوله تعالى حكاية عنه عليه السلام: ﴿فَقَدْ حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ عناية بإبطال ما ينسبونه إلى المسيح من حديث التفدية، وأنه عليه السلام باختياره الصلب فدى بنفسه عنهم فهم مغفور لهم مرفوع عنهم التكاليف الإلهية ومصيرهم إلى الجنة ولا يمسون نارا كما تقدم نقل ذلك عنهم في تفسير سورة آل عمران في قصة عيسى عليه السلام فقصة التفدية والصلب إنما سيقت لهذا الغرض.

٥. وما تحكيه الآية من قوله عليه السلام موجود في متفرقات الأبواب من الأناجيل كالأمر

---

(١) الميزان في تفسير القرآن: ٦/٧٠.

بالتوحيد، وإبطال عبادة المشرك، والحكم بخلود الظالمين في النار.

الحوثي:

ذكر بدر الدّين الحوثي (ت ١٤٣١ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ فهم يعلمون أنه ابن مريم، ومع ذلك يزعمون أن الله هو ابن مريم؛ كأنهم يريدون أن الله تجسد أي تحول جسداً، قال الإمام القاسم عليه السلام في كتاب (الرد على النصارى): (وزعمت الفرق الثلاث من النصارى ـ فنعوذ بالله من الجهل بالله ـ أنها تجد فيما في أيديها من كتب الأنبياء: أن المسيح ابن مريم هو الله وابن الله، فجعلوا في قولهم هذا الابن أباه) وقد حقق عليه السلام مقالاتهم أحسن تحقيق، ورد عليها بواضح الرّد النافع المفيد، فليطالعه من أراد التحقيق، وأقرب الرد وأنفعه: القرآن الحكيم، فإذا علموا أنه كلام الله علموا بطلان مقالهم، وقد تبين: أن القرآن كلام الله بتعجيزه للعرب أن يأتوا بسورة من مثله فلم يأتوا بشيء؛ وبإخباره أنهم لن يفعلوا، فكان خبره صدقاً.

٢. وبناء على ما حكاه الإمام القاسم عليه السلام يظهر: أن الآية الكريمة تعمهم بالتكفير؛ لأنهم تارة يقولون: هو هو، وتارة يقولون: ثالث ثلاثة، فكفرهم الله بكلا القولين، وذكر الإمام القاسم عليه السلام: أن النصارى أخذوا مذاهبهم في المسيح عليه السلام من اليهود، فأنكر عليهم قبوله من اليهود؛ ولكن لعله دخل على النصارى بواسطة يهودي تنصر سعياً في إفسادهم وخداعاً لهم، ليضلهم عن التوحيد، لئلا ينتصروا على اليهود في الحرب بينهم.

٣. ﴿وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾ فبيّن لهم عيسى عليه السلام: أن الله ربه وربهم، وأمرهم أن يعبدوا الله، والعبادة اعتراف بالعبودية ﴿إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِالله فَقَدْ حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ فأنذرهم المسيح فوات الجنة عليهم بالشرك والخلود في النار، وأنه لا يكون لهم من ناصر لا المسيح ولا غيره؛ والعلة في ذلك أنهم ظالمون، لأنه أقام ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ﴾ مقام: وما لهم، فظهر: أن العلة الجامعة لأهل النار هي الظلم، وإن كان الشرك ظلماً عظيماً.

---

(١) التيسير في التفسير: ٢/٣٥٣.

فضل الله:

ذكر محمد حسين فضل الله (ت ١٤٣١ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. لقد تحدثنا في تفسير الآية من هذه السورة عن معنى الكفر في الإسلام، وذكرنا أن الانحراف في التصور لفكرة الإله، كالإيمان بتجسده في رجل كالمسيح، وكعليّ كما يعتقده الغلاة فيه، هو مظهر من مظاهر الكفر، وبذلك يلتقي الكفر ـ في مفهومه الإسلامي ـ بالعقيدة التي تجسد الله في المسيح ليكون المسيح هو الرب والإله.

٢. ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ أو تحول إلى حقيقة واحدة، مؤلفة من ثلاثة أقانيم كما هو في عقيدة الأب والابن والروح القدس، لأن كلا من هذين التصورين يمثل الانحراف عن الخط الإسلامي للعقيدة.

٣. وقد عالج القرآن هذه الفكرة بعدّة أساليب:

أ. فنراه في الآية الأولى: يشير إلى شهادة المسيح على نفسه بالعبوديّة في دعوته الناس إلى عبادة الله ﴿وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾، فإن من كان الإله متجسدا فيه، لا يكون له رب بل هو الرب، ويؤكد الفكرة بالحديث عن مصير المشركين بالله الذين يتمثل إشراكهم تارة في عبادة غير الله مع الاعتراف بمغايرته له، إلى جانب عبادة الله من أجل أن يقربهم إلى الله زلفى، وأخرى في عبادة غير الله مع الاعتراف بأنه الله، لأن النتيجة فيهما واحدة وهي عبادة غير الله في الحقيقة، التي حرّم الله الجنة على أصحابها وجعل مسكنهم النار، ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣] فيما يمثله من إساءة لعظمة الله وحقّه في توحيد العقيدة والعبادة.

ب. أما في الآية الثانية: فقد أشار إلى فكرة التثليث وأكد انحرافها بالتأكيد على وحدانيّة الله بكل ما للوحدة من بساطة تمنع التركيب والتجزؤ وتنافي التعدد، ثم وجه إليهم الإنذار بقوله: ﴿إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ وذلك من دون أن يدخل معهم في جدل فكري أو نقاش عملي، لأن المسألة عندهم لم ترتكز على أساس القناعة الفكرية والبحث العملي، بل

---

(١) من وحي القرآن: ٨/٢٨٣.

ارتكزت على أساس الاعتماد على النظرة السطحيّة الضبابيّة للأشياء، مما يجعل من كل أحاديث القرآن عن التوحيد وعن صورة عيسى عليه السّلام البشرية في ضعفها البشري، ردا علميا مبسطا على كل هذا اللون من الفكر المنحرف، ودعوة إلى السير في طريق التأمل في اكتشاف الانحراف من أجل الوصول إلى النتيجة الحاسمة، وإن أسلوب الإنذار والتهديد طريقة قرآنية حكيمة تهدف إلى أن تجعل الإنسان يواجه الموقف بجدية أكبر، واهتمام أشد، بما يمثله ذلك من علاقة بقضّية المصير، ويبعده عن أن يتصرف فيه بأسلوب اللامبالاة والعبث، لأن كثيرا من المواقف الفكرية المنحرفة، قد تعود إلى عدم الإيمان بخطورة النتائج العلمية للانحراف، مما يوحي بعدم بذل الجهد في سبيل التصحيح.

الشيرازي:

ذكر ناصر مكارم الشيرازي في تفسير هذا المقطع ما يلي[1]:

١. تعقيبا على البحوث الماضية بشأن انحرافات اليهود التي مرّت في الآيات السابقة، تتحدث هذه الآيات والتي تليها عن انحرافات المسيحيين، فتبدأ أولا بأهم تلك الانحرافات، أي (تأليه المسيح) (تثليث المعبود): ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾

٢. وأيّ كفر أشدّ من أن يجعلوا الله اللامحدود من جميع الجهات متحدا مع مخلوق محدود من جميع الجهات، وأن يصفوا الخالق بصفات المخلوق، مع أنّ المسيح عليه السّلام نفسه يعلن صراحة لبني إسرائيل: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾ وبهذا يستنكر كل لون من ألوان الشرك، ويفرض الغلوّ في شخصه، ويعتبر نفسه مخلوقا كسائر مخلوقات الله.

٣. ولكي يشدد المسيح التوكيد على هذا الأمر، وليزيل كل إبهام وخطأ، يضيف قائلا: ﴿إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ﴾، ويمضي في التوكيد وإثبات أنّ الشرك والغلو ضرب من الظلم الواضح، فيقول أيضا: ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾

---

(١) تفسير الأمثل: ٤/١٠٩.

٧٠. النصارى والتثليث

نتناول في هذا الفصل ما ذكره المفسّرون ـ بحسب التسلسل التاريخي، والمدارس الإسلامية المختلفة ـ حول تفسير المقطع [٧٠] من سورة المائدة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [المائدة: ٧٣ ـ ٧٤]، مع العلم أنّا نقلنا المباحث التي لا علاقة لها ـ كبرى أو مباشرة ـ بالتفسير التحليلي إلى محالّها من كتب السلسلة.

مجاهد:

روي عن مجاهد (ت ١٠٤ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾ النصارى يقولون: إن الله ثالث ثلاثة، وكذبوا[1].

٢. روي أنّه قال: تفرقت بنو إسرائيل ثلاث فرق في عيسى؛ فقالت فرقة: هو الله، وقالت فرقة: هو ابن الله، وقالت فرقة: هو عبد الله، وروحه، وهي المقتصدة، وهي مسلمة أهل الكتاب[2].

قتادة:

روي عن قتادة بن دعامة (ت ١١٧ هـ) أنّه قال: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾، قالوا: عيسى إله، وأمه إله، والله إله، قال: الله: ﴿وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾[3].

السدي:

روي عن إسماعيل السدي الكوفي (ت ١٢٧ هـ) أنّه قال: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾ قالت النصارى: إن الله هو المسيح وأمه، فذلك قوله: ﴿أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ

---

(١) تفسير مجاهد ص ٣١٣.

(٢) ابن أبي حاتم ٤/١١٧٩.

(٣) تفسير ابن أبي زمنين ٢/٤٠.

دُونِ اللهِ﴾ [المائدة: ١١٦][1].

الخراط:

روي عن أبي صخر الخراط حميد بن زياد (ت ١٤١ هـ) أنّه قال: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾ هو قول اليهود: عزير ابن الله، وقول النصارى: المسيح ابن الله، فجعلوا الله ثالث ثلاثة[2].

مقاتل:

روي عن مقاتل بن سليمان (ت ١٥٠ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾، يعني: الملكانيين قالوا: الله، والمسيح، ومريم[3].

٢. روي أنّه قال: يقول الله عز وجل تكذيبا لقولهم: ﴿وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ﴾ من الشرك ﴿لَيَمَسَّنَّ﴾ يعني: ليصيبن ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ يعني: وجيع، والقتل بالسيف، والجزية على من بقي منهم عقوبة[4].

٣. روي أنّه قال: ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللهِ﴾ يعني: أفهلا يتوبون إلى الله، ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَهُ﴾ من الشرك، فإن فعلوا غفر لهم، ﴿وَاللهُ غَفُورٌ﴾ لذنوبهم، ﴿رَحِيمٌ﴾[5].

الداراني:

روي عن أبي سليمان الداراني (ت ٢١٢ هـ) أنّه قال: يا أحمد، والله، ما حرك ألسنتهم بقولهم: ثالث ثلاثة، إلا هو، ولو شاء لأخرس ألسنتهم[6].

الماتريدي:

---

(١) ابن جرير ٨/٥٨١.

(٢) ابن أبي حاتم ـ كما في تفسير ابن كثير ٣/١٥٨.

(٣) تفسير مقاتل ابن سليمان ١/٤٩٤.

(٤) تفسير مقاتل ابن سليمان ١/٤٩٤.

(٥) تفسير مقاتل ابن سليمان ١/٤٩٥.

(٦) ابن أبي حاتم ٤/١١٧٩.

ذكر أبو منصور الماتريدي (ت ٣٣٣ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. قوله تعالى: ﴿كَفَرَ﴾ بعلمهم، علموا بوحدانيته، فكيف يكون ثالث ثلاثة وهو واحد!؟ فإذا قالوا: هو الله فلا يكون هناك ثان ولا ثالث، وذلك تناقض في العقل، والثاني: أنهم لم يروا غير الله خلق السماوات والأرض، ولا رأوا أحدًا خلقهم سوى الله، كيف سموا دونه إلهًا ولم يخلق ما ذكرنا!؟ إنما خلق ذلك الله الذي لا إله غيره، وذلك قوله: ﴿وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ أي: يعلمون أنه لا إله إلا الله، إله واحد، لكنهم يتعنتون ويكابرون في ذلك.

٢. وقوله عز وجل: ﴿وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ﴾: عما تقدم ذكره ﴿لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ﴾ عن مقالتهم الشرك، فإن فعلوا فإن الله غفور رحيم؛ كقوله تعالى: ﴿إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ﴾، وبالله العصمة.

العياني:

ذكر الإمام المهدي العياني (ت ٤٠٤ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(٢)]:

١. معنى قوله: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾، أي لقد كفروا بالله وما عرفوه وهم النصارى عليهم لعنة الله، زعموا أن الله هو الأب، وأن عيسى هو الابن، وروح القدس معنى عندهم آخر فأكذبهم الله عز وجل وقال: ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾، أي قد مضت من قبله الرسل وحدث بعدهم صلى الله [عليه]، ﴿وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ﴾ أي صادقة صلوات الله عليها وعلى آبائها الطاهرين.

الطوسي:

ذكر أبو جعفر الطوسي (ت ٤٦٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(٣)]:

١. وهذا قسم آخر من الله بأنه كفر من قال: ﴿إِنَّ اللهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾ والقائلون بهذه المقالة هم جمهور النصارى من الملكانية، واليعقوبية والنسطورية، لأنهم يقولون: أب، وابن، وروح القدس إله واحد، ولا

---

(١) تأويلات أهل السنة: ٣/٥٦٣.

(٢) تفسير الإمام المهدي العياني: ٢/٢٢٥.

(٣) تفسير الطوسي: ٣/٦٠٣.

يقولون ثلاثة آلهة، ويمنعون من العبارة، وإن كان يلزمهم أن يقولوا إنهم ثلاثة آلهة، وما كان هكذا صح أن يحكى بالعبارة اللازمة، وإنما قلنا: يلزمهم، لأنهم يقولون الابن إله والأب إله وروح القدس إله، والابن ليس هو الأب.

٢. ومعنى ﴿ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾ أحد ثلاثة، وقال الزجاج، لا يجوز نصب ثلاثة لكن العرب فيه مذهب آخر وهو أنهم يقولون رابع ثلاثة، فعلى هذا يجوز الجر والنصب، لأنه معناه الذي صير الثلاثة أربعة بكونه فيهم.

٣. ثم أخبر تعالى، فقال: ﴿وَمَا مِنْ إِلَهٍ إلا إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ أي ليس إلا اله واحد، ودخلت (من) للتوكيد.

٤. ﴿وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ﴾ أي إن لم يرجعوا ويتوبوا عما يقولون من القول بالتثليث أقسم ﴿لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ يعني الذين يستمرون على كفرهم والمس - ها هنا - ما يكون معه إحساس وهو حلوله فيه، لأن العذاب لا يمس الحيوان إلا أحس به ويكون المس بمعنى اللمس، لأن في اللمس طلباً لاحساس الشيء فلهذا اختير ها هنا المس، واللمس ملاصقة معها إحساس.

٥. إنما قال: ﴿لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ﴾ لأمرين:

أ. أحدهما: ليعم الوعيد الفريقين الذين قالوا إن الله هو المسيح بن مريم، والذين قالوا هو ثالث ثلاثة والضمير عائد إلى أهل الكتاب.

ب. الثاني: أنه من أقام منهم على الكفر لزمه هذا الوعيد في قول أبي علي، والزجاج.

٦. وليس في الآية ما يدل على أن في أفعال الجوارح ما هو كفر لأن الذي فيها هو الإخبار عن أن من قال الله ثالث ثلاثة فهو كافر، وهذا لا خلاف فيه، وليس فيها أن هذا القول بعينه هو كفر أو دلالة على الكفر، فمن يقول الكفر هو الجحود، وأن الإيمان هو التصديق بالقلب يقول إن في أفعال الجوارح ما يدل على الكفر الذي هو الجحود في القلب مثل القول الذي ذكره الله تعالى، ومثل ذلك السجود للشمس وعبادة الأصنام وغير ذلك، فلا دلالة في الآية على ما قالوه.

٧. ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ الألف في قوله: (أفلا) الف إنكار وأصلها الاستفهام، لأنه لا يصح للسؤال جواب عن مثل هذا فيكون حينئذ تقريعاً لهم وإنكارا عليهم

ترك التوبة.

٨. وإنما دخلت (إلى) في قوله: ﴿يَتُوبُونَ إِلَى اللهِ﴾ لأن معنى التوبة الرجوع إلى طاعة الله، لأن التائب بمنزلة من ذهب عنها ثم عاد إليها، وقد بينا فيما مضى أن التوبة طاعة يستحق بها الثواب، فأما إسقاط العقاب عندها فهو تفضل من الله غير واجب.

٩. والفرق بين التوبة والاستغفار أن الاستغفار طلب المغفرة بالدعاء أو التوبة أو غيرها من الطاعة، والتوبة الندم على القبيح مع العزم على أن لا يعود إلى مثله في القبيح أو الإخلال بالواجب والاستغفار مع الإصرار على القبيح لا يصح ولا يجوز، وفي الآية تحضيض على التوبة والاقلاع من كل قبيح والإنكار لتركها، وحث على الاستغفار.

١٠. ﴿وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ إخبار منه تعالى أنه يستر الذنوب ويغفرها رحمة منه لعباده.

الجشمي:

ذكر الحاكم الجشمي (ت ٤٩٤ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. شرح مختصر للكلمات:

أ. التوبة: الندم مع العزم على ترك المعاودة.

ب. الاستغفار: طلب المغفرة.

ج. ثالث ثلاثة: يقال للواحد مع اثنين، ومع أن الله تعالى رابع أربعة، والمعنى هو أحد الثلاثة، ومن العرب من يقول: هو ثالث اثنين، معناه: أنه يُصَيِّرُ الاثنين ثلاثة.

٢. ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾ يعني: أحد ثلاثة:

أ. قيل: هَؤُلَاءِ صنف آخر، عن أبي مسلم.

ب. وقيل: هم جمهور الفرق من الملكية، والنسطورية واليعقوبية؛ لأنهم يقولون: ثلاثة أقانيم جوهر واحد: أب، وابن، وروح القدس إله واحد، ولا يقولون: ثلاثة آلهة، وهو معنى مذهبهم.

٣. ﴿وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا﴾ يمتنعوا ويكفوا ﴿عَمَّا يَقُولُونَ﴾ من المذاهب الفاسدة

---

(١) التهذيب في التفسير: ٣/٣٦٩.

﴿لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ﴾ خص بعضهم؛ لأنه علم أن بعضهم يؤمن ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ موجع:

أ. قيل: في الدنيا.

ب. وقيل: في الآخرة.

٤. ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللهِ﴾ ويرجعون عما يقولون إلى الله ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَهُ﴾ أي: يطلبون المغفرة منه بالتوبة ﴿وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ كثير المغفرة كثير الرحمة.

٥. تدل الآية الكريمة على:

أ. أن النصارى كفرت بأن قالوا: ثالث ثلاثة، فمن أثبت معه قديمًا وافقه في المعنى.

ب. أن الإله واحد، ولو كان معه قديم ـ والقدم من أخص الوصف ـ لأوجب المشاركة والمماثلة فيوجب كونه إلهًا، فمن هذا الوجه تدل على أنه لا قديم معه.

٦. مسائل لغوية ونحوية:

أ. ﴿ثَلَاثَةٌ﴾ كسر بالإضافة، ولا يجوز نصبه؛ لأن معناه أنه واحد ثلاثة، فإن قلت: رابع ثلاثة فعلى هذا يجوز فيه الجر والنصب؛ لأن معناه الذي صير الثلاثة أربعة بكونه فيهم.

ب. الألف في قوله: ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ﴾ أصله الاستفهام، والمراد به الإنكار عليهم بترك التوبة.

ج. ﴿مِنْ﴾ في قوله: ﴿وَمَا مِنْ إِلَهٍ﴾ دخلت مؤكدة، والمعنى: ما الله إلا إله واحد.

الطَبِرسي:

ذكر الفضل الطَبِرسي (ت ٥٤٨ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. المس، ههنا معناه: ما يكون معه إحساس، وهو حلوله فيه، لان العذاب لا يمس الحيوان، إلا أحس له، وقد يكون المس بمعنى اللمس.

٢. أقسم تعالى قسما آخر فقال: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾ والقائلون بهذه المقالة جمهور النصارى من الملكانية، واليعقوبية، والنسطورية، لأنهم يقولون: ثلاثة أقاليم جوهر واحد: آب، وابن، وروح القدس، إله واحد، ولا يقولون ثلاثة آلهة، ويمنعون من هذه العبارة وإن كان يلزمهم أن

---

(١) تفسير الطبرسي: ٣/٣٥٠.

يقولوا ثلاثة آلهة، فصح أن يحكى عنهم بالعبارة اللازمة، وإنما قلنا إنه يلزمهم ذلك، لأنهم يقولون: الابن إله، والأب إله، وروح القدس إله، والابن ليس هو الأب.

٣. ﴿وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ أي: ليس إله إلا إلها واحدا، وإنما دخلت من للتوكيد ﴿وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ﴾ أي: وإن لم يرجعوا ويتوبوا عما يقولون من القول بالتثليث، أقسم ﴿لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾

٤. إنما خص سبحانه الذين يستمرون على كفرهم:

أ. لأنه علم أن بعضهم يؤمن، عن أبي علي الجبائي، والزجاج.

ب. وقيل: إنه عم بقوله: ﴿الذي كفروا﴾ الفريقين الذين قالوا: إن الله هو المسيح بن مريم، والذين قالوا: إن الله هو ثالث ثلاثة، والضمير عائد إلى أهل الكتاب.

٥. ليس في هذا دلالة على أن في أفعال الجوارح ما هو كفر، لأنه إنما يتضمن أن من قال إنه ثالث ثلاثة، فهو كافر، ولا خلاف في ذلك، فإن من قال إن الكفر هو الجحود بالقلب، قال إن في أفعال الجوارح ما يدل على الكفر الذي هو الجحود مثل هذه المقالة، ومثل السجود للصنم، وغير ذلك، فلا دلالة في الآية على ما قالوه.

٦. ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللهِ﴾ قال الفراء: هذا أمر في لفظ الاستفهام، وقد يرد الامر بلفظ الاستفهام كقوله: ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾ وإنما دخلت ﴿إِلَى﴾ لان معنى التوبة الرجوع إلى طاعة الله، لان التائب بمنزلة من ذهب عنها، ثم عاد إليها.

٧. ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَهُ﴾ الفرق بين التوبة والاستغفار أن الاستغفار: طلب المغفرة بالدعاء، والتوبة، أو غيرهما من الطاعة، والتوبة الندم على المعصية مع العزم على أن لا يعود إلى مثلها في القبح، والاستغفار مع الإصرار على القبيح لا يصح ﴿وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ يغفر الذنوب ويسترها رحمة منه لعباده، وفي هذه الآية تحريض على التوبة، وحث على الاستغفار.

٨. مسائل لغوية ونحوية:

أ. قال الفراء ﴿ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾ لا يكون إلا مضافا، ولا يجوز التنوين في ﴿ثَالِثُ﴾ فينصب ﴿ثَلَاثَةٌ﴾، وكذلك قوله: ﴿ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ﴾ لا يكون إلا مضافا، لان المعنى مذهب اسم، كأنك قلت واحد

من اثنين، وواحد من ثلاثة، ولو قلت أنت ثالث اثنين، جاز الإضافة، وجاز التنوين، ونصب الاثنين، وكذلك رابع ثلاثة، لأنه فعل واقع، وزاد الزجاج لهذا بيانا فقال: لا يجوز في ثلاثة إلا الخفض، لان المعنى أحد ثلاثة، فإن قلت ثالث اثنين، أو رابع ثلاثة، جاز الخفض والنصب، أما النصب فعلى قولك كان القوم ثلاثة، فربعتهم، وأنا رابعهم عددا، ومن خفض فعلى حذف التنوين، كما قال عز وجل ﴿هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ﴾، وتقديره: بالغا للكعبة.

ب. وقوله: ﴿وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ﴾: فيه دلالة على اعتماد القسم في مثل قوله: ﴿وَلَئِنْ جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ لَيَقُولَنَّ﴾ [الروم: ٥٨] على الفعل الثاني دون الأول، ألا ترى أنه لو كان اعتماد القسم على الأول، لما حذف اللام من قوله: ﴿وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا﴾ كما لم يحذف اللام الثانية: في موضع، ومثله في الشعر قول عارق الطائي:

فأقسمت لا أحتل إلا بصهوة حرام علي رملة وشقائقه
فإن لم تغير بعض ما قد صنعتم لأنتحين للعظم ذو أنا عارقه

ج. سؤال وإشكال: لم لا يجوز أن يكون اعتماد القسم على اللام الأولى: إلا أنها حذفت كما حذفت من قوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾ والجواب: إن ذلك لا يجوز، لان إنما حذفت من ﴿قَدْ أَفْلَحَ﴾ لطول الكلام لما اعترض بين القسم والمقسم عليه، ولم يطل في هذا الموضع، فيستجاز حذفها، وإنما هذه اللام بمنزلة أن في قولك والله أن لو فعلت لفعلت تثبتها تارة، وتحذفها أخرى، والقسم لا يعتمد على هذه اللام، كما لا يعتمد على أن هذه، أنشد سيبويه:

فأقسم أن لو التقينا وأنتم لكان لكم يوم من الشر مظلم

فالذي اعتمد عليه أقسم قوله لكان دون أن، ألا ترى أنك تقول: أقسمت لو جئت لجئت، فتحذف أن كما تحذف هذه اللام، فهذه اللام من الزيادات التي إذا أدخلت أكدت، وإذا سقطت لم يخل سقوطها بالكلام، إلا أن زيادتها في القسم دون غيره، كما أن إن تزاد في قولهم ما ان في النفي دون غيره، وعلى هذا فيكون المعقود بالقسم في قولك: لئن أتيتني لأكرمتك إنما هو لأكرمتك، ولكن الشرط يكون كالاستثناء من هذه الجملة المعقودة بالقسم، كأنك أردت أن تقسم على البتات أن تكرمه، ثم بدا لك إذا أردت ذلك، ثم علقت إكرامك إياه بإتيانه، فصار التقدير: والله لأكرمتك إن أتيتني أي: إن أتيتني لأكرمتك، فاستغنيت

عن ذكر الجزاء لتقدير تقديم ما يدل عليه، فقولك: لأن أتيتني، متصل بما يدل عليه لأكرمتك من الجزاء، هذا الاتصال وهذه الجملة قد لخصتها من كلام الشيخ أبي علي.

ابن الجوزي:

ذكر أبو الفرج بن الجوزي (ت ٥٩٧ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾ قال مجاهد: هم النّصارى، قال وهب بن منبه: لمّا ولد عيسى لم يبق صنم إلّا خرّ لوجهه، فاجتمعت الشّياطين إلى إبليس، فأخبروه، فذهب فطاف أقطار الأرض، ثمّ رجع، فقال: هذا المولود الذي ولد من غير ذكر، أردت أن أنظر إليه، فوجدت الملائكة قد حفّت بأمّه، فليتخلّف عندي اثنان من مردتكم، فلمّا أصبح، خرج بهما في صورة الرّجال، فأتوا مسجد بني إسرائيل وهم يتحدّثون بأمر عيسى، ويقولون: مولود من غير أب، فقال إبليس: ما هذا ببشر، ولكنّ الله أحبّ أن يتمثّل في امرأة ليختبر العباد، فقال أحد صاحبيه: ما أعظم ما قلت، ولكنّ الله أحبّ أن يتّخذ ولدا، وقال الثالث: ما أعظم ما قلت، ولكنّ الله أراد أن يجعل إلها في الأرض، فألقوا هذا الكلام على ألسنة الناس، ثم تفرّقوا، فتكلّم به الناس، وقال محمّد بن كعب: لمّا رفع عيسى اجتمع مائة من علماء بني إسرائيل، وانتخبوا منهم أربعة، فقال أحدهم: عيسى هو الله كان في الأرض ما بدا له، ثمّ صعد إلى السماء، لأنه لا يحيي الموتى ولا يبرئ الأكمة والأبرص إلا الله، وقال الثاني: ليس كذلك، لأنّا قد عرفنا عيسى، وعرفنا أمّه، ولكنّه ابن الله، وقال الثالث: لا أقول كما قلتما، ولكن جاءت به أمّه من عمل غير صالح، فقال الرابع: لقد قلتم قبيحا، ولكنّه عبد الله ورسوله، وكلمته، فخرجوا، فاتّبع كلّ رجل منهم عنق من الناس.

٢. قال المفسّرون: معنى الآية: أنّ النّصارى قالت: الإلهية مشتركة بين الله وعيسى ومريم، وكلّ واحد منهم إله، وفي الآية إضمار، فالمعنى: ثالث ثلاثة آلهة، فحذف ذكر الآلهة، لأنّ المعنى مفهوم، لأنه لا يكفر من قال هو ثالث ثلاثة، ولم يرد الآلهة، لأنه ما من اثنين إلّا وهو ثالثهما، وقد دلّ على المحذوف قوله تعالى: ﴿وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾، قال الزجّاج: ومعنى ثالث ثلاثة: أنه أحد ثلاثة، ودخلت (من) في قوله تعالى: ﴿وَمَا مِنْ إِلَهٍ﴾ للتّوكيد، والذين كفروا منهم، هم المقيمون على هذا القول.

---

(١) زاد المسير في علم التفسير: ١/٥٧٢.

٣. قال ابن جرير: المعنى: ليمسّنّ الذين يقولون: المسيح هو الله، والذين يقولون: إنّ الله ثالث ثلاثة، وكلّ كافر يسلك سبيلهم، عذاب أليم.

٤. ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللهِ﴾ قال الفرّاء: لفظه لفظ الاستفهام، ومعناه الأمر، كقوله تعالى: ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾

الرّازي:

ذكر الفخر الرازي (ت ٦٠٦ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[1]:

١. ﴿ثَلَاثَةٌ﴾ كسرت بالإضافة، ولا يجوز نصبها لأن معناه: واحد ثلاثة، أما إذا قلت: رابع ثلاثة فههنا يجوز الجر والنصب، لأن معناه الذي صير الثلاثة أربعة بكونه فيهم.

في تفسير قول النصارى ﴿ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾ طريقان:

أ. الأول: قول بعض المفسرين، وهو أنهم أرادوا بذلك أن الله ومريم وعيسى آلهة ثلاثة، والذي يؤكد ذلك قوله تعالى للمسيح ﴿أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللهِ﴾ [المائدة: ١١٦] فقوله: ﴿ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾ أي أحد ثلاثة آلهة، أو واحد من ثلاثة آلهة، والدليل على أن المراد ذلك قوله تعالى في الرد عليهم ﴿وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ وعلى هذا التقدير ففي الآية إضمار، إلا أنه حذف ذكر الآلهة لأن ذلك معلوم من مذاهبهم، قال الواحدي ولا يكفر من يقول: إن الله ثالث ثلاثة إذا لم يرد به ثالث ثلاثة آلهة، فإنه ما من شيئين إلا والله ثالثهما بالعلم، لقوله تعالى: ﴿مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ﴾ [المجادلة: ٧]

ب. الثاني: أن المتكلمين حكوا عن النصارى أنهم يقولون: جوهر واحد، ثلاثة أقانيم أب، وابن، وروح القدس، وهذه الثلاثة إله واحد، كما أن الشمس اسم يتناول القرص والشعاع والحرارة، وعنوا بالأب الذات، وبالابن الكلمة، وبالروح الحياة، وأثبتوا الذات والكلمة والحياة، وقالوا: إن الكلمة التي هي كلام الله اختلطت بجسد عيسى اختلاط الماء بالخمر، واختلاط الماء باللبن، وزعموا أن الأب إله، والابن إله، والروح إله، والكل إله واحد، وهذا معلوم البطلان ببديهة العقل، فإن الثلاثة لا تكون واحدا،

---

(١) التفسير الكبير: ١٢/٤٠٩.

والواحد، لا يكون ثلاثة، ولا يرى في الدنيا مقالة أشد فسادا وأظهر بطلانا من مقالة النصارى.

٢. ﴿وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ في (من) قولان:

أ. أحدهما: أنها صلة زائدة والتقدير: وما إله إلا إله واحد.

ب. الثاني: أنها تفيد معنى الاستغراق، والتقدير: وما في الوجود من هذه الحقيقة إلا فرد واحد.

٣. ﴿وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ قال الزجاج: معناه: ليمسن الذين أقاموا على هذا الدين؛ لأن كثيرا منهم تابوا عن النصرانية.

٤. ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ قال الفرّاء: هذا أمر في لفظ الاستفهام كقوله: ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾ [المائدة: ٩١] في آية تحريم الخمر.

القرطبي:

ذكر محمد بن أحمد القرطبي (ت ٦٧١ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾، أي أحد ثلاثة، ولا يجوز فيه التنوين، عن الزجاج وغيره، وفيه للعرب مذهب آخر، يقولون: رابع ثلاثة، فعلى هذا يجوز الجر والنصب، لأن معناه الذي صير الثلاثة أربعة بكونه منهم، وكذلك إذا قلت: ثالث اثنين، جاز التنوين، وهذا قول فرق النصارى من الملكية والنسطورية واليعقوبية، لأنهم يقولون أب وابن وروح القدس إله واحد، ولا يقولون ثلاثة آلهة وهو معنى مذهبهم، وإنما يمتنعون من العبارة وهي لازمة لهم، وما كان هكذا صح أن يحكى بالعبارة اللازمة، وذلك أنهم يقولون: إن الابن إله والأب إله وروح القدس إله، وقد تقدم القول في هذا في النساء فأكفرهم الله بقولهم هذا.

٢. ﴿وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ أي أن الإله لا يتعدد وهم يلزمهم القول بثلاثة آلهة كما تقدم، وإن لم يصرحوا بذلك لفظا، وقد مضى في البقرة) معنى الواحد، و﴿مِنْ﴾ زائدة، ويجوز في غير القرآن ﴿إِلَهًا وَاحِدًا﴾ على الاستثناء، وأجاز الكسائي الخفض على البدل.

٣. ﴿وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا﴾ أي يكفوا عن القول بالتثليث ليمسنهم عذاب أليم في الدنيا والآخرة.

---

(١) تفسير القرطبي: ٦/٢٤٩.

٤. ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ﴾ تقرير وتوبيخ، أي فليتوبوا إليه وليسألوه ستر ذنوبهم، والمراد الكفرة منهم، وإنما خص الكفرة بالذكر لأنهم القائلون بذلك دون المؤمنين.

الشوكاني:

ذكر محمد بن علي الشوكاني (ت ١٢٥٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي(١):

١. ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾ وهذا كلام أيضا مبتدأ لبيان بعض مخازيهم، والمراد بثالث ثلاثة واحد من ثلاثة، ولهذا يضاف إلى ما بعده، ولا يجوز فيه التنوين كما قال الزجاج وغيره، وإنما ينوّن وينصب ما بعده إذا كان ما بعده دونه بمرتبة نحو ثالث اثنين ورابع ثلاثة، والقائل بأنه سبحانه وتعالى ثالث ثلاثة هم النصارى، والمراد بالثلاثة: الله سبحانه، وعيسى، ومريم كما يدل عليه قوله: ﴿أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ﴾، وهذا هو المراد بقولهم ثلاثة أقانيم: إقنيم الأب، وإقنيم الابن، وإقنيم روح وقد تقدّم في سورة النساء كلام في هذا.

٢. ثم ردّ الله سبحانه عليهم هذه الدعوى الباطلة فقال: ﴿وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ أي ليس في الوجود إلا الله سبحانه، وهذه الجملة حالية، والمعنى: قالوا تلك المقالة، والحال أنه لا موجود إلا الله، ومن في قوله: ﴿مِنْ إِلَهٍ﴾ لتأكيد الاستغراق المستفاد من النفي.

٣. ﴿وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ﴾ من الكفر ﴿لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ جواب قسم محذوف سادّ مسدّ جواب الشرط، ومن في ﴿مِنْهُمْ﴾ بيانية أو تبعيضية.

٤. ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ﴾ الفاء للعطف على مقدّر، والهمزة للإنكار.

أَطَّفِّيش:

ذكر محمد أَطَّفِّيش (ت ١٣٣٢ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي(٢):

١. ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾ قيل: هم النسطوريَّة والملكانيَّة من النصارى، وقيل: النسطوريَّة والمرقوسيَّة، والآخَران: عيسى وأمُّه، وكلٌّ من الثلاثة إلهٌ بزعمهم، وَالإِلَهِيَّة مشتركة بينهم، كما قال الله تعالى : ﴿ءَآنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللهِ﴾ [المائدة: ١١٦]، وقيل: زعموا ـ

---

(١) فتح القدير: ٢/٧٤.

(٢) تيسير التفسير، أطفيش: ٤/٩٧.

لعنهم الله ـ أنَّ الإله جوهر واحد مركَّب من ثلاثة أقانيم: الأب، والابن، وروح القدس؛ وأنَّ هذه الثلاثة إله واحد، كما أنَّ الشمس مركَّبة من قرص، وشعاع، وحرارة، وعَنَوا بالأب: الذَّاتَ ـ وقيل: الوجود ـ وبالابنِ: كلامَ الله، وبالروحِ: الحياةَ، ومنهم ـ لعنهم الله ـ مَن زعم أنَّ الحياة تتجسَّم، وأنَّ هذا الكلام اختلط بجسد عيسى اختلاط الماء باللبن، وأنَّ الأب إلهٌ، والابنَ إلهٌ، والروحَ إلهٌ والكلَّ إلهٌ واحدٌ، ولزمهم الحدوث؛ لأنَّ المركَّب حادث، والحادث يعجز ويجهل، ويحتاج.. إلى غير ذلك من صفات الخلق تعالى الله، ومن النصارى من هو مُوَحِّد مثلنا، ولا يُقبل توحيدُهُم وعملُهُم لكفرهم بالنبيِّ ﷺ والقرآن.

٢. ﴿وَمَا مِنۡ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ﴾ ظاهر هذا الكلام في العرف أنَّه لا يوجد إله إلَّا وهو واحد، فثبتت آلهة، إلَّا أنَّه كلٌّ واحد لا إله معه بل هو واحد، وهو متناقض، فبان أنَّه ليس ذلك مرادًا، بل المراد أنَّ الإله كائنًا من كان لا يوجد له شريك في الأُلُوهِيَّة، يوجِد الخلقَ ويستحقُّ العبادةَ، أو لا إله في الوجودِ ولا في الإمكانِ غيرُ إلهٍ لا يقبل الشركة وهو الله تعالى .

٣. ﴿وَإِن لَّمۡ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ﴾ من أنواع الإشراك، كالتثليث وكون الله هو المسيح، ﴿لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ نار الآخرة والقتل والأسر والجزية، و(مِن) للبيان، أي: ليمسَّنَّ الذين كفروا، وهم هؤلاء الذين لم ينتهوا، أو النصارى، ومقتضى الظاهر: (لَيَمَسَّنَّهُم)، ووَضَعَ الظاهر موضع المضمر ليصفهم بالكفر مرَّة بعد أخرى، ولينبِّه على أنَّ العذاب مترتِّب على عدم الانتهاء، أو (مِن) للتبعيض تحرُّزًا عن البعض الذي تاب وانتهى.

٤. ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ﴾ ألا ينتهون فيتوبون عن تلك العقائد الزائغة!؟ وما ينشأ عنها من الأقوال والأفعال الباطلة!؟، والاستفهام تعجيب من إصرارهم، وتوبيخٌ وإنكارٌ لأن يليق ذلك، فيقولوا: لا إله إلَّا الله اللهمَّ اغفر لنا، كما قال: ﴿وَيَسۡتَغۡفِرُونَهُۥ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ يغفر للتائب ويتفضَّل عليه، ومَن هذا فعلُهُ وهو قادر كيف لا يُتاب إليه.

القاسمي:

ذكر جمال الدين القاسمي (ت ١٣٣٢ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[1]:

---

(١) تفسير القاسمي: ٤/٢١٣.

١. بيّن تعالى كفر طائفة أخرى منهم بقوله سبحانه: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾ أي: أحد ثلاثة آلهة، بمعنى واحد منها:

أ. وهم الله ومريم وعيسى، وقال بعضهم: كانت فرقة منهم تسمى (كولى ري دينس) تقول: الآلهة ثلاثة: الأب والابن ومريم، وجاء في كتاب (علم اليقين): (أن فرقة منهم تسمى (المريميّين) قال يعتقدون أن المريم والمسيح إلهان، قال وكذلك البربرانيّون وغيرهم)، وأسلفنا عن ابن إسحاق أنّ نصارى نجران، منهم من قال بهذا أيضا.

ب. أو المعنى: أحد ثلاثة أقانيم كما اشتهر عنهم، أي هو جوهر واحد، ثلاثة أقانيم: أب وابن وروح القدس، وزعموا، أن الأب إله والابن إله والروح إله والكلّ إله واحد، كما قدمنا عنهم في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ﴾، قال الرازي: واعلم أن هذا معلوم البطلان ببديهة العقل، فإن الثلاثة لا تكون واحدا، والواحد لا يكون ثلاثة، ولا يرى في الدنيا مقالة أشدّ فسادا وأظهر بطلانا من مقالة النصارى، وقد صنفت عدة مصنفات في تزييف معتقدهم هذا، وهي شهيرة متداولة، والحمد للهّ.

٢. اتفق النحاة واللغويون على أن معنى قولهم (ثالث ثلاثة ورابع أربعة..) ونحو ذلك أحد هذه الأعداد مطلقا، لا الوصف بالثالث والرابع، وفي (التوضيح وشرحه): لك في اسم الفاعل المصوغ من لفظ اثنين وعشرة وما بينهما أن تستعمله على سبعة أوجه:

أ. (أحدها) أن تستعمله مفردا عن الإضافة، ليفيد الاتصاف بمعناه، فتقول: ثالث ورابع، ومعناه حينئذ واحد موصوف بهذه الصفة وهي كونه ثالثا ورابعا.

ب. (الوجه الثاني) أن تستعمله مع أصله الذي صيغ هو منه، ليفيد أن الموصوف به بعض تلك العدة المعينة لا غير، فتقول: خامس خمسة أي: واحد من خمسة لا زائد عليها، ويجب حينئذ إضافته إلى أصله، كما يجب إضافة البعض إلى كله، كيد زيد، قال تعالى: ﴿إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ﴾ [التوبة: ٤٠]، وقال تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾، وزعم الأخفش وقطرب والكسائي وثعلب أنه يجوز إضافة الأول إلى الثاني، ونصبه إياه، فعلى هذا يجوز ثالث ثلاثة بجرّ (ثلاثة) ونصبها، كما يجوز في (ضارب زيد)

ج. (الوجه الثالث) أن تستعمله مع ما دون أصله الذي صيغ منه بمرتبة واحدة، ليفيد معنى

التصيير، فتقول: هذا رابع ثلاثة أي: جاعل الثلاثة بنفسه أربعة، قال تعالى: ﴿مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ﴾ [المجادلة: ٧]، أي: إلا هو مصيّرهم أربعة ومصيرهم ستة، ويجوز حينئذ إضافته وإعماله، كما يجوز الوجهان في جاعل ومصير ونحوهما.. وانظر تتمة الأوجه.

٣. وبما ذكرناه يعلم ردّ ما ذهب إليه الجامي في (شرح الكافية) من اعتبار الصفة في نحو (ثالث ثالثة) حيث قال في شرح قول ابن الحاجب ﴿ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾: أي أحدها، لكن لا مطلقا، بل باعتبار وقوعه في المرتبة الثالثة، قال وإلّا يلزم جواز إرادة الواحد والأول من عاشر العشرة وذلك مستبعد جدّا.

٤. فكتب عليه بعض المحققين ما نصّه: الظاهر من عبارة (التوضيح) ومن كلام المصنف أنه لا يعتبر الوقوع في المرتبة الثانية أو الثالثة وهكذا.. إذ يبعد في الآيتين كون المراد بـ (ثاني اثنين وثالث ثلاثة) كونه في المرتبة الثانية أو الثالثة بل المراد أنه بعض تلك العدّة، بلا نظر لكونه في المرتبة الثانية أو الثالثة، إلّا أن يكون هذا باعتبار الوضع، وإن كان الاستعمال بخلافه، ولذا كتب العلامة عبد الحكيم على قوله: (وذلك مستبعد جدّا) أي: عند العقل، وإلّا فالاستعمال بخلافه.

٥. ﴿وَمَا مِنْ إِلَهٍ﴾ في نصّ الإنجيل والتوراة وجميع الكتب السماوية ودلائل العقل ﴿إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ لا يتعدد أفرادا ولا أجزاء ﴿وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ﴾ من هذا الافتراء والكذب، بعد ظهور الدلالة القطعية، متمسكين بمتشابهات الإنجيل التي أوضحتها محكماته ﴿لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ في الآخرة، من عذاب الحريق والأغلال والنكال، قال الزمخشريّ: ولم يقل (ليمسّنهم) لأن في إقامة الظاهر مقام المضمر فائدة، وهي تكرير الشهادة عليهم بالكفر في قوله: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا﴾ وفي البيان فائدة أخرى وهي الإعلام في تفسير ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ﴾ أنهم بمكان من الكفر.

٦. ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ﴾ بالتوحيد والتنزيه عمّا نسبوه إليه من الاتحاد والحلول، فيرجعوا عن التمسك بالمتشابهات إلى القطعيات، فالاستفهام لإنكار الواقع واستبعاده، فيه تعجيب من إصرارهم، ومدار الإنكار والتعجيب عدم الانتهاء والتوبة معا، أو معناه: ألا يتوبون ـ بعد هذه الشهادة المكررة عليهم بالكفر وهذا الوعيد الشديد ـ مما هم عليه، فمدارهما عدم التوبة عقب تحقق ما يوجبها من سماع تلك القوارع الهائلة.

٧. قال ابن كثير: هذا من كرمه تعالى وجوده ولطفه ورحمته بخلقه، مع هذا الذنب العظيم، وهذا

الافتراء والكذب والإفك، يدعوهم إلى التوبة والمغفرة، فكل من تاب إليه تاب عليه، كما قال: ﴿وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ فيغفر لهؤلاء إن تابوا، ولغيرهم.

٨. قال أبو السعود: الجملة حالية من فاعل ﴿يَسْتَغْفِرُونَهُ﴾ مؤكدة للإنكار والتعجيب من إصرارهم على الكفر وعدم مسارعتهم إلى الاستغفار، أي: والحال أنه تعالى مبالغ في المغفرة، فيغفر لهم عند استغفارهم، ويمنحهم من فضله.

رضا:

ذكر محمد رشيد رضا (ت ١٣٥٤هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[1]:

١. ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾ أكد تعالى بالقسم أيضا كفر الذين قالوا إن الله هو خالق السماوات والأرض وما بينهما ثالث أقانيم ثلاثة، وهي الأب والابن وروح القدس، قال ابن جرير: وهذا قول كان عليه جماهير النصارى قبل افتراق اليعقوبية والملكانية والنسطورية، كانوا فيما بلغنا يقولون: (الإله القديم جوهر واحد يعم ثلاثة أقانيم ـ أبا والدا غير مولود، وابنا مولودا غير والد، وزوجا متتبعة بينهما،) فكان هو وكثير من المفسرين والمؤرخين المتقدمين يرون ـ بحسب معرفتهم بحال نصارى زمنهم وما يروون عمن قبلهم ـ أن الذين يقولون من النصارى إن إلههم ثالث ثلاثة؛ هم غير الفرقة التي تقول منهم: إن الله هو المسيح ابن مريم، وأن ثم فرقة ثالثة تقول: إن المسيح هو ابن الله وليس هو الله، ولا ثالث ثلاثة، وأما النصارى المتأخرون فالذي نعرفه منهم وعنهم أنهم يقولون بالثلاثة الأقانيم، بأن كل واحد منها عين الآخر، فالأب عين الابن وعين روح القدس، ولما كان المسيح هو الابن كان عين الأب وروح القدس أيضا، ومن العجيب أن بعض متأخري المفسرين ينقلون أقوال من قبلهم في أمثال هذه المسائل ويقرونها، ولا يبحثون عن حال أهل زمنهم، ولا يشرحون حقيقة عقيدتهم، وقد سبق لنا بيان عقيدة التثليث، وكون النصارى أخذوها عن قدماء الوثنين، فارجع إلى تفسير ﴿وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ﴾ في أواخر سورة النساء، وبينا قبليها عقيدة الصلب والفداء، ثم بينا عقيدة التثليث في تفسير الآية ال ١٩ من السورة.

٢. قال تعالى ردا عليهم ﴿وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ أي قالوا قولهم هذا بلا روية ولا بصيرة،

---

(١) تفسير المنار: ٦/٤٠١.

والحال أنه ليس في الوجود ثلاثة آلهه ولا اثنان ولا أكثر من ذلك ـ لا يوجد إله ما إلا إله متصف بالوحدانية، وهو الله الذي لا تركيب في ذاته ولا تعدد، وهذه العبارة أشد تأكيدا لنفي تعدد الإله من عبارة: لا إله إلا إله واحد، لأن ﴿مِنَ﴾ بعد ﴿مَا﴾ تفيد استغراق النفي وشموله لكل نوع من أنواع المتعدد كل فرد من أفراده؛ فليس ثم تعداد ذوات وأعيان، ولا تعدد الأجناس والأنواع، ولا تعدد جزئيات أو أجزاء، والنصارى قد اقتبسوا عقيدة التثليث عمن قبلهم ولم يفهموها، وعقلاؤهم يتمنون لو يقدرون على التفصي منها، ولكنهم إذا أنكروها بعد هذه الشهرة تبطل ثقة العامة بالنصرانية كلها، كما قال أحد عقلاء القسوس لبعض أهل العلم العصري من الشبان السوريين.

٣. ومن الغريب أنهم يعترفون بأن هذه العقيدة لا تعقل، ولكن بعضهم يحاول تأنيس النفوس بها، بضرب أمثلة لا تصدق عليها، ككون الشمس مركبة من الجرم المشتعل والنور والحرارة، قال الشيخ ناصيف اليازجي.

نحن النصارى آل عيسى المنتمي	حب التأنس للبتولة مريم
فهو الإله ابن الإله وروحه	فثلاثة في واحد لم تقسم
للآب لاهوت ابنه كذا ابنه	وكذاهما والروح تحت تقنم
كالشمس يظهر جرمها بشعاعها	وبحرها والكل شمس فاعلم

فهو يقول إن ربهم جوهر له أعراض كسائر الجواهر والأجسام، ولكن العرض ليس عين الذات، فحرارة الشمس ليست شمسا، ولا هي عين الجرم ولا عين الضوء، فإذا لا يصح أن يكون الابن وروح القدس عين الآب!! وقد أورد صاحب (إظهار الحق) الحكاية الآتية، في بيان تخبطهم في هذه المسألة، قال: (نقل أنه تنصر ثلاثة أشخاص وعلمهم بعض القسيسين العقائد الضرورية سيما عقيدة التثليث، وكانوا في خدمته، فجاء محب من أحباء هذا القسيس وسأله عمن تنصر فقال: ثلاثة أشخاص تنصروا، فسأل هذا المحب: هل تعلموا شيئا من العقائد الضرورية؟ فقال: نعم، وطلب واحدا منهم ليرى محبه، فسأله عن عقيدة التثليث فقال: إنك علمتني أن الآلهة ثلاثة، أحدهم الذي هو في السماء، والثاني الذي تولد من بطن مريم العذراء، والثالث الذي نزل في صورة الحمامة على الإله الثاني بعد ما صار ابن ثلاثين سنة، فغضب القسيس وطرده وقال هذا مجهول، ثم طلب الآخر منهم وسأله فقال: إنك علمتني أن الآلهة كانوا ثلاثة

وصلب واحد منهم فالباقي إلهان، فغضب عليه القسيس أيضا وطرده، ثم طلب الثالث وكان ذكيا بالنسبة إلى الأولين وحريصا في حفظ العقائد فسأله، فقال: يا مولاي حفظت ما علمتني حفظا جيدا، وفهمت فهما كاملا، بفضل السيد المسيح: إن الواحد ثلاثة والثلاثة واحد، وصلب واحد منهم ومات، فمات الكل لأجل الاتحاد.. أقول: لا تقصير للمسؤولين فإن هذه العقيدة يخبط فيها الجهلاء هكذا ويتحير علماؤهم ويعترفون بأنا نعتقد ولا نفهم، ويعجزون عن تصويرها وبيانها.

٤. ﴿وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي وإن لم ينتهوا عن قولهم بالتثليث ويتركوه، ويعتصموا بعروة التوحيد الوثقى ويعتقدوه، فوالله ليصيبنهم بكفرهم عذاب شديد الألم في الآخرة، فوضع (الذين كفروا) موضع الضمير ليثبت أن ذلك القول كفر بالله، وإن الكفر سبب العذاب الذي توعدهم به، ويبين أن هذا العذاب لا يمس إلا الذين كفروا منهم خاصة بالتثليث أو غيره، دون من تاب وأناب إلى الله تعالى، إذ ليس عذاب الآخرة كعذاب الأمم في الدنيا يشترك فيه المذنبون وغيرهم، وقيل إن ﴿مِنَ﴾ بيانية.

٥. ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ الاستفهام هنا للتعجيب من شأن هؤلاء الناس في تثليثهم وإصرارهم عليه، بعد ما جاءتهم البينات المبطلة له؛ والنذر بالعذاب المرتب عليه، والهمزة داخلة على فعل محذوف عطف عليه فعل التوبة المنفي، والتقدير: أيسمعون ما ذكر من التنفيذ والوعيد، فلا يحملهم على التوبة والرجوع إلى التوحيد، واستغفار الله تعالى مما فرط منهم، والحال أن الله تعالى عظيم المغفرة واسع الرحمة، يقبل التوبة من عباده ويغفر لهم ما سلف، إذا هم آمنوا وأحسنوا فيما بقي؟ إن هذا لشيء عجاب، أو: أيصرون على ما ذكر بعد إقامة الحجة، ودحض الشبهة، فلا يتوبون؟ الخ.

المراغي:

ذكر أحمد بن مصطفى المراغي (ت ١٣٧١ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾ أي لقد كفر الذين قالوا إن الله خالق السموات والأرض وما بينهما ـ ثالث أقانيم ثلاثة، أب والد غير مولود، وابن مولود غير والد، وزوج متتبعة بينهما،

---

(١) تفسير المراغي: ٦/١٦٨

والخلاصة ـ إن الفرق ثلاثة:إن إلههم ثالث ثلاثة إن الله هو المسيح ابن مريم إن المسيح هو ابن الله وليس هو الله والمتأخرون من النصارى يقولون بالأقانيم الثلاثة وأن كل واحد منهما عين الآخر فالأب عين الابن وعين روح القدس، ولما كان المسيح هو الابن كان عين الأب وروح القدس أيضا، وقد ذكرنا فيما سلف أن النصارى أخذوا عقيدة التثليث من قدماء الوثنيين.

٢. ثم ردّ الله عليهم ما قالوه بلا روية ولا بصيرة، فقال: ﴿وَمَا مِنْ إِلَهٍ إلا إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ أي ولا يوجد إله إلا من اتصف بالوحدانية وهو الإله الذي لا تركيب في ذاته ولا في صفاته، فليس ثمّ تعدد ذوات وأعيان، ولا تعدد أجناس وأنواع، ولا تعدد جزئيات وأجزاء.

٣. ثم توعدهم على هذه المقالة فقال: ﴿وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي وإن لم يتهوا عن قولهم بالتثليث ويتركوه، ويعتصموا بعروة التوحيد ويعتقدوه، فو الله ليصيبنّهم عذاب شديد يوم القيامة جزاء كفرهم، وفى الآية إيماء إلى أن هذا العذاب لا يمس إلا الذين كفروا منهم خاصة دون من تاب وأناب إلى الله تعالى ورجع عن عقيدة التثليث وغيرها.

٤. ثم تعجب من حالهم بإصرارهم على التثليث بعد أن ظهرت لهم البينات، وقامت عليهم الحجج المبطلة له، والنذر بالعذاب المرتب عليه، فقال: ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أي أيسمعون ما ذكر من التفنيد لآرائهم والوعيد عليها، ثم لا يحملهم ذلك على التوبة والرجوع إلى التوحيد واستغفار الله عما فرط منهم، والحال أن ربهم واسع الرحمة عظيم المغفرة يقبل التوبة من عباده ويغفر لهم ما فرط من الزلات إذا هم آمنوا وأحسنوا واتقوا وعملوا الصالحات.

سيّد:

ذكر سيّد قطب (ت ١٣٨٥ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي(١):

١. ويستوفي القرآن الحكم على سائر مقولاتهم الكافرة: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾، ويقرر الحقيقة التي تقوم عليها كل عقيدة جاء بها رسول من عند الله: ﴿وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾،

٢. ويهددهم عاقبة الكفر الذي ينطقون به ويعتقدونه: ﴿وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ

(١) في ظلال القرآن: ٢/٩٤٦.

كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، والكافرون هم الذين لا ينتهون عن هذه المقولات التي حكم عليها الله بالكفر الصراح.

٣. ثم أردف التهديد والوعيد بالتحضيض والترغيب: ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾، ليبقي لهم باب التوبة مفتوحا؛ وليطمعهم في مغفرة الله ورحمته، قبل فوات الأوان.

الخطيب:

ذكر عبد الكريم الخطيب (ت ١٣٩٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. من طوائف المسيحيين من جعل الإله ثلاثة آلهة: الأب والابن وروح القدس، وهي في مجموعها إله واحد، ولكن لكل من هؤلاء الثلاثة عمل واختصاص في داخل الإله الواحد.. وهذا كفر بالله.. ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾.. ﴿وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾

٢. ﴿وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ هو وعيد للقائلين بهذه القولة، المعتقدين بها، العابدين الله عليها، وليس المراد بقوله تعالى: ﴿وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ﴾ مجرد الانتهاء عن القول والكفّ عنه، وإنما لأن هذا القول هو ترجمان العقيدة، وعنوانها.. فإذا أمسكوا عن هذا القول، تحوّلوا عن المعتقد القائم عليه، وكان لهم قول غيره، ومعتقد غير معتقدهم..

٣. ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ هو نداء كريم، من ربّ رحيم، يدعو به هؤلاء الضالين عنه، ليتوبوا إليه، وليستغفروا لذنبهم العظيم، بتصورهم الإله هذا التصوّر الخاطئ.. فإذا عادوا إلى الله، وعرفوه حقّ معرفته، واستغفروا لذنبهم وجدوا ربّا رحيما غفورا، يقبل التائبين، ويتجاوز عن سيئات المسيئين.

ابن عاشور:

ذكر محمد الطاهر بن عاشور (ت ١٣٩٣ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[٢]:

١. ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾ استئناف قصد منه الانتقال إلى إبطال مقالة أخرى من مقالات طوائف النّصارى، وهي مقالة (الملكانيّة المسمّين بالجعاثليقيّة)، وعليها معظم طوائف

---

(١) التفسير القرآني للقرآن: ٣/١١٥١.

(٢) التحرير والتنوير: ٥/١٧٢.

النّصارى في جميع الأرض، وقد تقدّم بيانها عند قوله تعالى: ﴿فَآمِنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ﴾ من سورة النّساء [١٧١]، وأنّ قوله فيها ﴿وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ﴾ يجمع الردّ على طوائف النّصارى كلّهم، والمراد بـ ﴿قَالُوا﴾ اعتقدوا فقالوا، لأنّ شأن القول أن يكون صادرا على اعتقاد، وقد تقدّم بيان ذلك.

٢. ومعنى قولهم: ﴿إِنَّ اللهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾ أنّ ما يعرفه النّاس أنّه الله هو مجموع ثلاثة أشياء، وأنّ المستحقّ للاسم هو أحد تلك الثّلاثة الأشياء، وهذه الثّلاثة قد عبّروا عنها بالأقانيم وهي: أقنوم الوجود، وهو الذات المسمّى الله، وسمّوه أيضا الأب؛ وأقنوم العلم، وسمّوه أيضا الابن، وهو الّذي اتّحد بعيسى وصار بذلك عيسى إلها؛ وأقنوم الحياة وسمّوه الرّوح القدس، وصار جمهورهم، ومنهم الرّكوسية طائفة من نصارى العرب، يقولون: إنّه لمّا اتّحد بمريم حين حملها بالكلمة تألّهت مريم أيضا، ولذلك اختلفوا هل هي أمّ الكلمة أم هي أمّ الله.

٣. فقوله: ﴿ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾ معناه واحد من تلك الثّلاثة، لأنّ العرب تصوغ من اسم العدد من اثنين إلى عشرة، صيغة فاعل مضافا إلى اسم العدد المشتقّ هو منه لإرادة أنّه جزء من ذلك العدد نحو﴿ثَانِيَ اثْنَيْنِ﴾ [التوبة: ٤٠]، فإن أرادوا أنّ المشتقّ له وزن فاعل هو الّذي أكمل العدد أضافوا وزن فاعل إلى اسم العدد الّذي هو أرقى منه فقالوا: رابع ثلاثة، أي جاعل الثلاثة أربعة.

٤. وقوله: ﴿وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ عطف على جملة ﴿لَقَدْ كَفَرَ﴾ لبيان الحقّ في الاعتقاد بعد ذكر الاعتقاد الباطل، ويجوز جعل الجملة حالا من ضمير ﴿قَالُوا﴾، أي قالوا هذا القول في حال كونه مخالفا للواقع، فيكون كالتّعليل لكفرهم في قولهم ذلك، ومعناه على الوجهين نفي عن الإله الحقّ أن يكون غير واحد فإنّ (من) لتأكيد عموم النّفي فصار النّفي بـ ﴿مَا﴾ المقترنة بها مساويا للنّفي بـ (لا) النّافية للجنس في الدلالة على نفي الجنس نصّا.

٥. وعدل هنا عن النّفي بلا التبرئة فلم يقل (ولا إله إلّا إله واحد) إلى قوله: ﴿وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ اهتماما بإبراز حرف (من) الدالّ بعد النّفي على تحقيق النّفي، فإنّ النّفي بحرف (لا) ما أفاد نفي الجنس إلّا بتقدير حرف (من)، فلمّا قصدت زيادة الاهتمام بالنّفي هنا جيء بحرف (ما) النّافية وأظهر بعده حرف (من)، وهذا ممّا لم يتعرّض إليه أحد من المفسّرين.

٦. وقوله: ﴿إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ يفيد حصر وصف الإلهيّة في واحد فانتفى التثليث المحكي عنهم،

وأمّا تعيين هذا الواحد من هو، فليس مقصودا تعيينه هنا لأنّ القصد إبطال عقيدة التثليث فإذا بطل التثليث، وثبتت الوحدانيّة تعيّن أنّ هذا الواحد هو الله تعالى لأنّه متّفق على إلهيّته، فلمّا بطلت إلهيّة غيره معه تمحّضت الإلهيّة له فيكون قوله هنا ﴿وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ مساويا لقوله في سورة آل عمران [٦٢] ﴿وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللهُ﴾ إلّا أنّ ذكر اسم الله تقدّم هنا وتقدّم قول المبطلين (إنّه ثالث ثلاثة) فاستغني بإثبات الوحدانيّة عن تعيينه، ولهذا صرّح بتعيين الإله الواحد في سورة آل عمران [٦٢] في قوله تعالى: ﴿وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللهُ﴾ إذ المقام اقتضى تعيين انحصار الإلهيّة في الله تعالى دون عيسى ولم يجر فيه ذكر لتعدّد الآلهة.

٧. وقوله: ﴿وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ عطف على جملة ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾، أي لقد كفروا كفرا إن لم ينتهوا عنه أصابهم عذاب أليم، ومعنى ﴿عَمَّا يَقُولُونَ﴾ أي عن قولهم المذكور آنفا وهو﴿إِنَّ اللهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾، وقد جاء بالمضارع لأنّه المناسب للانتهاء إذ الانتهاء إنّما يكون عن شيء مستمرّ كما ناسب قوله: ﴿قَالُوا﴾ قوله: ﴿لَقَدْ كَفَرَ﴾، لأنّ الكفر حصل بقولهم ذلك ابتداء من الزّمن الماضي، ومعنى ﴿عَمَّا يَقُولُونَ﴾ عمّا يعتقدون، لأنّهم لو انتهوا عن القول باللّسان وأضمروا اعتقاده لما نفعهم ذلك، فلمّا كان شأن القول لا يصدر إلّا عن اعتقاد كان صالحا لأن يكون كناية عن الاعتقاد مع معناه الصّريح.

٨. وأكّد الوعيد بلام القسم في قوله: ﴿لَيَمَسَّنَّ﴾ ردّا لاعتقادهم أنّهم لا تمسّهم النّار، لأنّ صلب عيسى كان كفّارة عن خطايا بني آدم، والمسّ مجاز في الإصابة، لأنّ حقيقة المسّ وضع اليد على الجسم، فاستعمل في الإصابة بجامع الاتّصال، كقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ [الأنعام: ٤٩]، فهو دالّ على مطلق الإصابة من غير تقييد بشدّة أو ضعف، وإنّما يرجع في الشدّة أو الضعف إلى القرينة، مثل ﴿أَلِيمٍ﴾ هنا، ومثل قوله: ﴿بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ [الأنعام: ٤٩] في الآية الأخرى، وقال يزيد بن الحكم الكلابي من شعراء الحماسة:

مسسنا من الآباء شيئا وكلّنا ... إلى حسب في قومه غير واضع

أي تتبّعنا أصول آبائنا.

٩. والمراد بـ ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ عين المراد بـ ﴿الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾ فعدل عن التّعبير عنهم بضميرهم إلى الصّلة المقرّرة لمعنى كفرهم المذكور آنفا بقوله: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا﴾، لقصد تكرير

تسجيل كفرهم وليكون اسم الموصول مومئا إلى سبب الحكم المخبر به عنه، وعلى هذا يكون قوله: ﴿مِنْهُمْ﴾ بيانا للّذين كفروا قصد منه الاحتراس عن أن يتوهّم السامع أنّ هذا وعيد لكفّار آخرين.

١٠. ولمّا توعّدهم الله أعقب الوعيد بالترغيب في الهداية فقال: ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ﴾، فالتّوبة هي الإقلاع عمّا هو عليه في المستقبل والرجوع إلى الاعتقاد الحقّ، والاستغفار طلب مغفرة ما سلف منهم في الماضي والنّدم عمّا فرط منهم من سوء الاعتقاد.

١١. وقوله: ﴿وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ تذييل بثناء على الله بأنّه يغفر لمن تاب واستغفر ما سلف منه، لأنّ ﴿غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ من أمثلة المبالغة يدلّان على شدّة الغفران وشدّة الرّحمة، فهو وعد بأنّهم إن تابوا واستغفروه رفع عنهم العذاب برحمته وصفح عمّا سلف منهم بغفرانه.

أبو زهرة:

ذكر محمد أبو زهرة (ت ١٣٩٤ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾ في الآية السابقة ذكر الله كفر من قالوا إن الله هو المسيح أو ما يؤدى إليه من القول بأن المسيح ابن الله، وفى هذه الآية يذكر كلاما آخر للمسيحيين، وهو قولهم إن الله ثالث ثلاثة، ويبدو من ظاهر الكلام أن عند النصارى طائفتين إحداهما تقول إن المسيح هو الله، أو ابن الله، فيكون إلها بهذا الاعتبار، والواقع أن النصارى تقرر عندهم التثليث من قبل نزول القرآن، وبعث النبي ﷺ، ومن ذلك التاريخ تتميز به عقيدة النصارى، وشعارهم الصليب رمزا إلى صلب المسيح في زعمهم الذى فنده القرآن الكريم على أن التثليث عندهم لم يجئ دفعة واحدة، فقد تقررت ألوهية المسيح على أنه ابن الله في زعمهم في مؤتمر نيقية الذى ذكرناه والذى انعقد في سنة ٣٢٥، وبعد ذلك بنحو ست وخمسين في مجمع القسطنطينية تقررت ألوهية روح القدس، وفرض ذلك الرأي بقوة السلطان كما فرض الرأي الأول الخاص بألوهية المسيح بقوة السلطان، وكان المسيحيون يجتمعون لرده، ويلاحظ في مجمع القسطنطينية أمران:

أ. أحدهما: أن الذين حضروا ذلك المجمع ١٥٠ من رجال دينهم، وما كان هذا ليمثل النصارى

---

(١) زهرة التفاسير: ٥/٢٣٠٧.

أجمعين، ولكن فرض رأى أولئك الذين سموهم أساقفة على النصارى جميعا، وأسكت كل صوت يخالفه، ولقد كان ذلك المجمع كسابقه مفاجاة لعامة النصارى؛ لأنه ليس بإله عندهم وقد أعلن ذلك مقدونيوس وكانت مقالته ليست هي الشائعة بين النصارى، حتى جاء ذلك المجمع القسطنطيني فأتم التثليث.

ب. ثانيهما: أن الذى دعا إلى عقده بطريق الإسكندرية، كما أنه هو الذى كان رئيس مجمع نيقية وإن لم تكن له الرئاسة في المجمع الأخير، وأن الذى دعا إلى تقرير ألوهية روح القدس هو هذا البطريق، وقال كما نقل كتاب تاريخ البطارقة لابن البطريق: (ليس روح القدس عندنا بمعنى غير روح الله، وليس روح الله شيئا غير حياته، فإذا قلنا إن روح الله مخلوق، فقد قلنا إن حياته مخلوقة، وإذا قلنا إن حياته مخلوقة، فقد زعمنا أنه غير حي وإذا زعمنا أنه غير حي فقد كفرنا به)، وأن هذه السلسلة التي ساقها تنقض لبناتها إذا قلنا روح القدس ليست روح الله، ولكنها جبريل الأمين الذى خلقه، وبذلك تنقطع حلقات السلسلة، حلقة حلقة، وروح القدس في زعمهم هي الروح العامة التي تنشر الحياة بين الأحياء، ومما يسترعى النظر، أن الذى قاد فكرة ألوهية المسيح وروح القدس هو بطريق الإسكندرية التي كانت تسودها في ذلك الإبان الأفلاطونية الحديثة التي كانت خلاصتها، أن الإله الأكبر هو العقل الأول، وقد نشأ عنه العقل الثاني، نشوء المعلول عن علته، أي أن وجودها متصل، وعرفوا روح القدس بالتعريف النصراني الذى ذكرناه، وبذلك تلتقى نصرانية النصارى مع فلسفة الإسكندرانية الواهمة وقائد الدعوة لألوهية المسيح وألوهية روح القدس هو هو بطريق الإسكندرية، فليعرف النصارى زمان ابتعادهم عن اتباع المسيح عليه السلام وسببه والمصدر الذى انحرفوا إليه ومن أوردهم مورده غير العذاب.

٢. هناك إذن عند النصارى تثليث، وأن الله تعالى ثالث ثلاثة، وأن الله تعالى قد حكم بأنهم كافرون، فقد قال سبحانه مؤكدا القول: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾، فمن الخطأ الفاحش ما يقال إن الله تعالى عبر عن النصارى واليهود بأنهم أهل كتاب، فليسوا كفارا.. فقد أكد سبحانه وتعالى كفرهم أولا بتكفيرهم لأنهم زعموا أن المسيح هو الله، ويقررون أن الله ثالث ثلاثة، وأكد كفرهم في الحالتين باللام وبقد، فكيف يسوغ المؤمن أن يقول إنهم غير كافرين، والنصان الكريمان واردان على موضوع واحد، وهو النصارى، فالنص الأول وهو: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ هُوَ الْمَسِيحُ﴾ موضوعه هو ذات موضوع النص الآخر: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾ وكل آية من الآيتين تبين ناحية

من نواحي اعتقادهم، واكتفى في الآية الأولى: بزعمهم في المسيح عليه السلام، لبيان مقدار افترائهم عليه ومناقضهم لمن ينتسبون إليه، وأنهم لا يصح أن يسموا مسيحيين، لأنه بريء منهم، وذكرت الثانية: لبيان حقيقة اعتقادهم.

٣. ﴿وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾، بعد أن بين سبحانه وتعالى كفر من يقول بالتثليث بيّن سبحانه وتعالى العقيدة الصحيحة، فقال سبحانه ذلك النص الحكيم، ومؤداه نفى الألوهية نفيا مطلقا عن غير إله واحد، والصيغة تفيد استحالة أن يكون الإله، غير واحد، لأنه لا ينتظم الكون والسماء والأرض، ومن فيهما كما جاء في قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الأنبياء]

٤. وكما أن في النص تقريرا لعقيدة التوحيد المستقيمة، فيه أيضا توبيخ موجه إليهم على مخالفتهم المعقول، ومجانبتهم ما يقره أهل العقول، ولذلك حذرهم سبحانه عن أن يسيروا في طريق الغى وأن يعودوا إلى الحق، فقال سبحانه: ﴿وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ هذا تحذير من الله سبحانه لهم عن أن يستمروا في هذا القول الكاذب على الله تعالى، وعلى رسوله المسيح ﷺ ومعنى الانتهاء يتضمن أمرين: أن يعدلوا عن ذلك القول وألا يعتقدوه ولا يؤمنوا به، ولم يكتف بالانتهاء عن العقيدة، ولكن الله سبحانه ذكر انتهاء عن القول للإشارة إلى أن هذا كلام يقولونه، ولا يمكن أن يكون عقيدة يعتنقونها، لأنه كلام لا يتفق مع العقل، وقد كذبهم عيسى عليه السلام بما قرره في دعوته، وبين أن الشرك ظلم عظيم، وأن من يشرك بالله مأواه جهنم، وحرم الله تعالى عليه الجنة.

٥. والخلاصة: أن هذا الادعاء قول يرددونه معا فيلحدون به وهو باطل، إذ كيف يولد ويكون إلها، وقد هددهم بالعذاب الشديد يمسهم.

٦. وهنا إشارات بيانية:

أ. الأولى: التعبير (يمسهم) إذ المراد أنه يصيب جلدهم، وهو موضع الإحساس فيهم، أي أن العذاب المؤلم مستمر؛ إذ يمس جلدهم، ويصيب موضع الإحساس فيهم.

ب. الثانية: أن من هنا بيانية أي يمسهم ذلك العذاب ما داموا مصرين على قولهم وكذبهم، وقال: ﴿الَّذِينَ﴾، وعبر بالظاهر دون الضمير للإشارة إلى سبب العذاب وهو كفرهم؛ لأن التعبير بالموصول يشير

إلى أن الصلة هي سبب الحكم.

ج. الثالثة: أن الله سبحانه وتعالى أكد العذاب الشديد ينزل بهم بالقسم المطوي الذى دلت عليه اللام، والنون المؤكدة، وتنكير عذاب، ووصفه بالألم الشديد؛ لأن التنكير هنا للتعظيم والتكثير.

٧. ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ بعد أن حذرهم سبحانه من الاستمرار على قولهم الإفك، وادعائهم على المسيح عليه السلام رغبهم في الإيمان بعد الترهيب من العذاب الأليم، وأن كتاب الله سبحانه وتعالى يجمع بين الترغيب والترهيب، ليؤمنوا خوفا من عذاب الله تعالى أو طمعا في ثوابه، أو لهما معا، سيق الكلام لهذا، وليبين أن باب المغفرة مفتوح لمن استغفر، وطلب الغفران، وقوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ﴾ الاستفهام للدلالة على أمور ثلاثة:

أ. أولها: توبيخهم على ما كان منهم وأنه يستحق التوبة والاستغفار.

ب. ثانيها: فيه تعجب من بقائهم على حالهم من الإفك والإصرار عليه من أنه لا يقبله عقل، ولا يذعن له مصدق، بل لا يتصوره متصور.

ج. ثالثا: على تحريضهم على التوبة، أي الرجوع إلى الله تعالى، وما تقره العقول، ولا تنبو عنه الأفهام، وعلى طلب الغفران عما سلف منهم من قول، وإن باب الغفران مفتوح، ولذلك ذيل الله سبحانه وتعالى الآية بقوله تعالت كلماته: ﴿وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾، والله جل جلاله المعبود، ولا معبود بحق سواه يغفر الذنوب لمن تاب ورجع إليه وهو رحيم بعباده لا يرضيه أن يشقوا، وأن رحمته سبقت عذابه وأنه سبحانه ليفرح بتوبة عبده أكثر من فرح العبد بقبولها؛ لأن الله تعالى يريد بعبده الصلاح والإصلاح، ولا يريد له الفساد والإفساد، وإذا تاب العبد انقلب من الفساد إلى الصلاح.

مُغْنِيَّة:

ذكر محمد جواد مُغْنِيَّة (ت ١٤٠٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾، أنكر سبحانه على النصارى أولا تأليه السيد المسيح عليه السلام، ثم أنكر عليهم في هذه الآية جعلهم الله واحدا من ثلاثة، وقولهم: إن الله هو الأب والمسيح

(١) التفسير الكاشف: ٣/١٠٥.

هو الابن، ثم حل الأب في الابن واتحد به فكوّن روح القدس، وكل واحد من هؤلاء الثلاثة هو عين الآخر، وهو غيره، وتقدم الكلام في ذلك عند تفسير الآية ١٧ من هذه السورة، والآية ١٧٠ من سورة النساء.

٢. ﴿ما مِنْ إِلهٍ إلا إِلهٌ واحِدٌ﴾، سئل الإمام علي عليه السلام عن التوحيد والعدل، فقال: التوحيد أن لا تتوهمه، والعدل أن لا تتهمه، أي من توحيد الله ان لا تتصوره بوهمك، لأن كل موهوم محدود والله لا يحد بوهم، والعدل ان لا تتهم الله بحكمته، وانه فعل ما لا ينبغي أن يفعل.

٣. سؤال وإشكال: ﴿وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، وتسأل: إن ﴿مِنْهُمْ﴾ في الآية تدل بظاهرها أن النصارى فيهم الكافر والمؤمن، مع العلم بأنهم جميعا يقولون بألوهية عيسى والله سبحانه يقول: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾؟ والجواب: أجاب المفسرون بأن ﴿مِنْهُمْ﴾ أخرجت من تاب وأسلم، وأبقت من أصر على الكفر.. ويلاحظ بأن من أسلم لا يعد منهم، والصحيح أن النصارى ظلوا على عقيدة التوحيد، والإيمان بنبوة عيسى أمدا غير قصير، ثم انقسموا إلى طائفتين: إحداهما تؤمن بالتوحيد، والأخرى تقول بالتعدد.. وعلى طول الأمد اتفقت كلمة الجميع على التثليث، وعلى هذا فلفظ ﴿مِنْهُمْ﴾ اخرج الطائفة البائدة التي كانت تؤمن بنبوة عيسى، لا بألوهيته، وتقدم الكلام عن ذلك مفصلا عند تفسير الآية ١٧ من هذه السورة.

٤. ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾، ما أوضح هذا الكلام، ورغم هذا الوضوح أبى بعض المفسرين إلا أن يفسره ويقول: (هنا فعل محذوف، والتقدير أفلا يسمعون ما قلنا فيتوبون) وهكذا يأتي الشيء جامدا باردا إذا كان في غير محله.

الطباطبائي:

ذكر محمد حسين الطباطبائي (ت ١٤٠٢ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[1]:

١. ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾ أي أحد الثلاثة: الأب والابن والروح، أي هو ينطبق على كل واحد من الثلاثة، وهذا لازم قولهم: إن الأب إله، والابن إله، والروح إله، وهو ثلاثة، وهو

(١) الميزان في تفسير القرآن: ٦/٧١.

واحد يضاهئون بذلك نظير قولنا: إن زيد بن عمرو إنسان، فهناك أمور ثلاثة هي: زيد وابن عمرو والإنسان، وهناك أمر واحد وهو المنعوت بهذه النعوت، وقد غفلوا عن أن هذه الكثرة إن كانت حقيقية غير اعتبارية أوجبت الكثرة في المنعوت حقيقة، وأن المنعوت إن كان واحدا حقيقة أوجب ذلك أن تكون الكثرة اعتبارية غير حقيقية فالجمع بين هذه الكثرة العددية والوحدة العددية في زيد المنعوت بحسب الحقيقة مما يستنكف العقل عن تعقله.

٢. ولذا ربما ذكر بعض الدعاة من النصارى أن مسألة التثليث من المسائل المأثورة من مذاهب الأسلاف التي لا تقبل الحل بحسب الموازين العلمية، ولم يتنبه أن عليه أن يطالب الدليل على كل دعوى يقرع سمعه سواء كان من دعاوي الأسلاف أو من دعاوي الأخلاف.

٣. ﴿وَمَا مِنْ إِلَهٍ إلا إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ إلى آخر الآية رد منه تعالى لقولهم: ﴿إِنَّ اللهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾ بأن الله سبحانه لا يقبل بذاته المتعالية الكثرة بوجه من الوجوه فهو تعالى في ذاته واحد، وإذا اتصف بصفاته الكريمة وأسمائه الحسنى لم يزد ذلك على ذاته الواحدة شيئا ولا الصفة إذا أضيفت إلى الصفة أورث ذلك كثرة وتعددا فهو تعالى أحدي الذات لا ينقسم لا في خارج ولا في وهم ولا في عقل، فليس الله سبحانه بحيث يتجزأ في ذاته إلى شيء وشيء قط، ولا أن ذاته بحيث يجوز أن يضاف إليه شيء فيصير اثنين أو أكثر، كيف؟ وهو تعالى مع هذا الشيء الذي تراد إضافته إليه تعالى في وهم أو فرض أو خارج، فهو تعالى واحد في ذاته لكن لا بالوحدة العددية التي لسائر الأشياء المتكون منها الكثرات، ولا منعوت بكثرة في ذات أو اسم، أو صفة، كيف؟ وهذه الوحدة العددية والكثرة المتألفة منها كلتاهما من آثار صنعه وإيجاده فكيف يتصف بما هو من صنعه؟

٤. في قوله تعالى: ﴿وَمَا مِنْ إِلَهٍ إلا إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ من التأكيد في إثبات التوحيد ما ليس في غيره حيث سيق الكلام بنحو النفي والاستثناء، ثم أدخل ﴿مِنَ﴾ على النفي لإفادة تأكيد الاستغراق، ثم جيء بالمستثنى وهو قوله: ﴿إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ بالتنكير المفيد للتنويع ولو أورد معرفة كقولنا (إلا الإله الواحد) لم يفد ما يرام من حقيقة التوحيد، فالمعنى: (ليس في الوجود شيء من جنس الإله أصلا إلا إله واحد نوعا من الوحدة لا يقبل التعدد أصلا لا تعدد الذات ولا تعدد الصفات، لا خارجا ولا فرضا، ولو قيل: وما من إله إلا الله الواحد لم يدفع به قول النصارى (إن الله ثالث ثلاثة) فإنهم لا ينكرون الوحدة فيه تعالى، وإنما

يقولون: إنه ذات واحدة لها تعين بصفاتها الثلاث، وهي واحدة في عين أنها كثيرة حقيقة، ولا يندفع ما احتملوه من المعنى إلا بإثبات وحدة لا تتألف منه كثرة أصلا، وهو الذي يتوخاه القرآن الكريم بقوله: ﴿وَمَا مِنْ إِلَهٍ إلا إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾

٥. وهذا من لطائف المعاني التي يلوح إليها الكتاب الإلهي في حقيقة معنى التوحيد وسنغور في البحث المستوفى عنه في بحث قرآني خاص ثم في بحث عقلي وآخر نقلي إيفاء لحقه(١).

٦. ﴿وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ تهديد لهم بالعذاب الأليم الأخروي الذي هو ظاهر الآية الكريمة.

٧. ولما كان القول بالتثليث الذي تتضمنه كلمة: ﴿إِنَّ اللهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾ ليس في وسع عقول عامة الناس أن تتعقله فأغلب النصارى يتلقونه قولا مذهبيا مسلما بلفظة من غير أن يعقلوا معناه، ولا أن يطمعوا في تعقله كما ليس في وسع العقل السليم أن يعقله عقلا صحيحا، وإنما يتعقل كتعقل الفروض المحالة كالإنسان اللاإنسان، والعدد الذي ليس بواحد ولا كثير ولا زوج ولا فرد فلذلك تتسلمه العامة تسلما من غير بحث عن معناه، وإنما يعتقدون في البنوة والأبوة شبه معنى التشريف فهؤلاء في الحقيقة ليسوا من أهل التثليث، وإنما يمضغون الكلمة مضغا، وينتمون إليها انتماء بخلاف غير العامة منهم وهم الذين ينسب الله سبحانه إليهم اختلاف المذاهب ويقرر أن ذلك ببغيهم كما قال تعالى: ﴿أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ ـ إلى أن قال: ﴿وَمَا تَفَرَّقُوا إلا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى: ١٤]

٨. فالكفر الحقيقي الذي لا ينتهي إلى استضعاف ـ وهو الذي فيه إنكار التوحيد والتكذيب بآيات الله ـ إنما يتم في بعضهم دون كلهم، وإنما أوعد الله بالنار الخالد الذين كفروا وكذبوا بآيات الله، قال: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: ٣٩] إلى غير ذلك من الآيات، وقد مر الكلام في ذلك في تفسير قوله تعالى: ﴿إلا الْمُسْتَضْعَفِينَ﴾ الآية[النساء: ٩٨]

٩. ولعل هذا هو السر في التبعيض الظاهر من قوله: ﴿لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ﴾ أو أن المراد به الإشارة إلى أن من النصارى من لا يقول بالتثليث، ولا يعتقد في المسيح إلا أنه عبد الله ورسوله، كما كانت

(١) نقلنا ذلك إلى محله من كتب السلسلة

على ذلك مسيحيو الحبشة وغيرها على ما ضبطه التاريخ فالمعنى: لئن لم ينته النصارى عما يقولون (نسبة قول بعض الجماعة إلى جميعهم) ليمسن الذين كفروا منهم ـ وهم القائلون بالتثليث منهم ـ عذاب أليم.

١٠. وربما وجهوا الكلام أعني قوله: ﴿لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ﴾ بأنه من قبيل وضع الظاهر موضع المضمر، والأصل: ليمسنهم، وإنما عدل إلى وضع الموصول وصلته مكانه ليدل على أن ذلك القول كفر بالله، وأن الكفر سبب العذاب الذي توعدهم به، وهذا وجه لا بأس به لولا أن الآية مصدرة بقوله: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾ ونظيره في البعد قول بعض آخر: إن (من) في قوله: ﴿مِنْهُمْ﴾ بيانية فإنه قول من غير دليل.

١١. ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ تحضيض على التوبة والاستغفار، وتذكير بمغفرة الله ورحمته، أو إنكار أو توبيخ.

الحوثي:

ذكر بدر الدّين الحوثي (ت ١٤٣١ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾ كل واحد من الثلاثة إله بزعمهم، وهم بزعمهم: (الله، وروح القدس، وعيسى) فقالوا: الله أب، وعيسى: ابن جوهره بزعمهم جوهر الأب وهو مولود غير مخلوق في قولهم، وروح القدس ليس أباً ولا ابناً، ومجموع الثلاثة واحد بزعمهم، راجع كتاب (الرد على النصارى) للقاسم عليه السلام.

٢. ﴿وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ واحد غير متعدد، وهو الله لا إله إلا هو و(مِنْ) تفيد تقوية عموم النفيْ ﴿وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ﴿يَنْتَهُوا﴾ يمتثلوا نهي الله لهم ويطيعوه ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ والذين قالوا: إن الله هو المسيح ابن مريم، والذين قالوا: إن الله ثالث ثلاثة، علق الوعيد على الكفر، بعد أن أخبر أنهم كفروا؛ ولعل الحكمة دفع التوهم من قوله تعالى: ﴿عَمَّا يَقُولُونَ﴾ للعموم لكل ما يقولون من حق وباطل ـ والله أعلم.

٣. وإنما رجحت أن قوله تعالى: ﴿عَمَّا يَقُولُونَ﴾ يعم القولين؛ لأن ﴿يَقُولُونَ﴾ يدل على التكرار،

---

(١) التيسير في التفسير: ٢/٣٥٤.

والقولان تكرار من حيث هو قول شرك، وقد ابتدأ بقوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا﴾ فعدوله عن الماضي إلى المضارع في قوله: ﴿عَمَّا يَقُولُونَ﴾ وهو الفعل الذي يكون عادة لفاعله فيعبر عنه بالمضارع.

٤. ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (الهمزة) سؤال للتوبيخ إن لم يتوبوا، وللدعاء إلى التوبة، و(الفاء) للتفريع على ما مضى في الآيات، من بيان كفرهم، ومن الوعيد الشديد عليه؛ لأن من شأنه أن يبعثهم على التوبة والاستغفار لطلب النجاة من العذاب الشديد وحرمان الجنة؛ لأن الله ﴿غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ يقبل التائبين المستغفرين، فيغفر الذنوب المهلكة، ويبدل أهلها من غضبه عليهم رحمة، قال الشرفي في (المصابيح): (وقال الفرَّاء: هذا أمر بصورة الاستفهام كقوله: ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾ في آية الخمر)

فضل الله:

ذكر محمد حسين فضل الله (ت ١٤٣١ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. في ضوء ذلك، جاءت الآية الثانية لتدعو القائلين بالتثليث إلى الانتهاء عنه ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾ لأن التثليث ليس فكرا حقيقيّا ليلتزموا به من خلال الالتزام بالحقيقة، بل هو الفكر المنحرف الذي ينبغي لأصحابه أن يكتشفوا انحرافه بالتأمل والتدبر، والوعي الكامل العميق لفكرة التوحيد، ﴿وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ﴾ بل انطلقوا في خط التعصب ﴿لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ فعليهم أن ينتظروا العذاب الأليم، جزاء كفرهم.

٢. أما الآية الثالثة، فتجسد بأسلوب التساؤل دعوة إلى التوبة والاستغفار والتراجع عن هذا الخط المنحرف، تماما كما هي المعصية عندما يمارسها الإنسان المؤمن، ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ﴾ لأن الانحراف في العقيدة، أشد خطرا من الانحراف في العمل.. وتفتح لهم أبواب الأمل بالمغفرة والرحمة من الله، ﴿وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾، يغفر لعباده انحرافاتهم الفكرية والعملية إذا رجعوا عنها من موقع رحمته الّتي وسعت كل شيء المسيح رسول وأمّه صديقة.

الشيرازي:

---

(١) من وحي القرآن: ٨/٢٨٦.

ذكر ناصر مكارم الشيرازي في تفسير هذا المقطع ما يلي[1]:

١. سبق أن أشرنا إلى أنّ تاريخ المسيحية يؤكّد بأنّ التثليث لم يكن معروفا في القرون الاولى من المسيحية، ولا حتى على عهد المسيح عليه السّلام، بل أن الأناجيل الموجودة ـ على الرغم من كل ما فيها من تحريفات وإضافات ـ ليس فيها أدنى إشارة إلى التثليث، وهذا ما يعترف به المحققون المسيحيون أنفسهم، وعليه فإن ما ورد في الآية المذكورة عن إصرار المسيح عليه السّلام على مسألة التوحيد إنّما ينسجم مع المصادر المسيحية الموجودة، ويعتبر من دلائل عظمة القرآن.

٢. وينبغي الالتفات إلى أنّ الموضوع الذي تتناوله الآية هو الغلو ووحدة المسيح بالله، أو بعبارة أخرى، هو (التوحيد في التثليث)، ولكن الآية التّالية تشير إلى مسألة (تعدد الآلهة) في نظر المسيحيين، أي (التثليث في التوحيد)، وتقول: إنّ الذين قالوا أن الله ثالث الأقانيم الثلاثة لا ريب أنّهم كافرون: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾

٣. اعتقد كثير من المفسّرين، ومنهم الطبرسي في (مجمع البيان)، والشيخ الطوسي في (التبيان)، والفخر الرازي والقرطبي في تفسيريهما، أنّ الآية السابقة تشير إلى فرقة من المسيحيين باسم (اليعاقبة) يعتقدون أن الله متحد بالمسيح عليه السّلام، وهذه الآية وردت بشأن فرقة أخرى هي (الملكانية) و(النسطورية) الذين يقولون بالأقانيم الثلاثة، أو الآلهة الثلاثة، غير أنّ هذه النظرة عن المسيحية كما سبق أن قلنا ـ لا تطابق مع الواقع، لأن الإعتقاد بالتثليث عام بين المسيحيين كافة، كما أن التوحيد بيننا نحن المسلمين عقيدة عامّة قطعية، ولكنّهم في الوقت الذي يعتقدون حقا بتثليث الأرباب، يؤمنون أيضا بالوحدة الحقيقية، قائلين أن ثلاثة حقيقيين يؤلفون واحدا حقيقيا!

٤. الظاهر أنّ الآيتين المذكورتين تشيران إلى جانبين مختلفين لهاتين القضيتين: في الأولى إشارة إلى وحدة الآلهة الثلاثة، وفي الثّانية إشارة إلى تعددها، وتوالي المسألتين هو في الحقيقة إشارة إلى واحد من الأدلة الواضحة على بطلان عقيدتهم، فكيف يمكن لله أن يكون واحدا مع المسيح وروح القدس مرّة، ومرّة أخرى يكون ثلاثة أشياء؟ أمن المعقول أن يتساوى الثلاثة مع الواحد!؟ إنّ ما يؤيد هذه الحقيقة هو أنّنا لا

---

(١) تفسير الأمثل: ٤/١١٠.

نجد بين المسيحيين أية طائفة لا تؤمن بالآلهة الثلاثة ـ ورد في بعض الرّوايات، وكذلك بعض التواريخ أنّ بين المسيحيين أقلية لا تؤمن بالتثليث، بل يعتقدون اتحاد عيسى بالله، ولكننا لا نرى لهؤلاء في هذا العصر اسم ولا رسم.

٥. ويرد القرآن عليهم ردا قاطعا فيقول: ﴿وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ وفي ذكر (من) قبل (إله) نفي أقوي لأي معبود آخر، ثمّ ينذرهم بلهجة قاطعة: ﴿وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، يقول بعضهم أن (من) في (منهم) بيانية، ولكن الظاهر أنّها تبعيضية تشير إلى الذين بقوا على كفرهم حتى بعد أن دعا القرآن إلى التوحيد، لا الذين تابوا ورجعوا.

٦. يذكر صاحب (المنار) قصّة في المجال تكشف عن غموض تثليث النصارى وتوحيدهم نقلا عن صاحب (إظهار الحقّ) قال: (نقل أنّه تنصر ثلاثة أشخاص، وعلمهم بعض القسيسين العقائد الضرورية، سيما عقيدة التثليث وكانوا في خدمته، فجاء أحد المسيحيين إلى هذا القسيس، وسأله عمن تنصّر، فقال: ثلاثة أشخاص تنصّروا فسأله: هل تعلموا شيئا من العقائد الضرورية؟ فقال: نعم، واستدعى واحدا منهم ليريه ذلك فسأله القسيس عن عقيدة التثليث، فقال: إنّك علمتني أن الآلهة ثلاثة، أحدهم في السماء، والثّاني تولد من بطن مريم العذراء، والثّالث الذي نزل في صورة الحمامة على الإله الثّاني بعد ما صار ابن ثلاثين سنة، فغضب القسيس وطرده وقال: هذا جاهل، ثمّ طلب الآخر منهم سأله فقال: إنّك علمتني أن الآلهة كانوا ثلاثة وصلب واحد منهم فالباقي إلهان، فغضب عليه القسيس ـ أيضا ـ وطرده، ثمّ طلب الثّالث وكان ذكيا بالنسبة إلى الأولين وحريصا في حفظ العقائد، فسأله، فقال: يا مولاي، حفظت ما علمتني حفظا جيدا، وفهمت فهما كاملا بفضل السيد المسيح: أن الواحد ثلاثة والثلاثة واحد، وصلب واحد منهم ومات، فمات الكل لأجل الاتحاد، ولا إله الآن، وإلّا يلزم نفي الاتحاد! في الآية الثالثة يدعوهم القرآن إلى أن يتوبوا عن هذه العقيدة الكافرة لكي يغفر لهم الله تعالى، فيقول: ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾

٧١. حقيقة المسيح وأمه

نتناول في هذا الفصل ما ذكره المفسّرون ـ بحسب التسلسل التاريخي، والمدارس الإسلامية المختلفة ـ حول تفسير المقطع [٧١] من سورة المائدة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ انْظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انْظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ [المائدة: ٧٤ ـ ٧٥]، مع العلم أنّا نقلنا المباحث التي لا علاقة لها ـ كبرى أو مباشرة ـ بالتفسير التحليلي إلى محالّها من كتب السلسلة.

ابن عباس:

روي عن ابن عباس (ت ٦٨ هـ) أنّه قال: ﴿أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ كيف يؤفكون!؟[١].

زيد:

روي عن الإمام زيد (ت ١٢٢ هـ) أنّه قال: ﴿أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ معناه كيف يصدون عن الدّين والخير[٢].

مقاتل:

روي عن مقاتل بن سليمان (ت ١٥٠ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال: ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ﴾ يعني: مؤمنة، كقوله سبحانه: ﴿إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا﴾ [مريم: ٤١، ٥٦]، يعني: مؤمنا نبيا، وذلك حين قال لها جبريل عليه السلام: ﴿إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ﴾ [مريم: ١٩]، وفي بطنك المسيح، فآمنت بجبريل عليه السلام، وصدقت بالمسيح ابن مريم عليه السلام، ثم سميت الصديقة وهي يومئذ في محراب بيت المقدس، ﴿كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ﴾ فلو كانا إلهين ما أكلا الطعام، ﴿انْظُرْ﴾ يا محمد، ﴿كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ﴾ يعني: العلامات في أمر عيسى ومريم [أنهما] كانا يأكلان الطعام، والآلهة لا تأكل الطعام، ﴿ثُمَّ انْظُرْ أَنَّى

---

(١) ابن أبي حاتم ٤/١١٨٠.

(٢) تفسير الإمام زيد، ص ١٣٠.

يُؤْفَكُونَ﴾ يعني: من أين يكذبون، فأعلمهم أني واحد[1].

الماتريدي:

ذكر أبو منصور الماتريدي (ت ٣٣٣ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[2]:

١. في الآية دلالة المحاجة مع الفريقين؛ كأنهم كانوا فريقين:

أ. أحد الفريقين كانوا ينكرون أنه رسول، والفريق الآخر يدعون له الربوبية والألوهية، فقال: إنه ابن مريم، وابن مريم لا يحتمل أن يكون إلهًا.

ب. الثاني: أخبر أنه رسول قد خلت من قبله الرسل، أي: قد خلت من قبل عيسى رسل مع آيات وبراهين لم يقل أحد من الأمم السالفة: إنهم كانوا آلهة، فكيف قلتم أنتم بأن عيسى إله، وإن كان معه آيات وبراهين لرسالته!؟

٢. وقوله عز وجل: ﴿وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ﴾:

أ. قيل: مطهرة عن الأقذار كلها، صالحة.

ب. وقيل: ﴿صِدِّيقَةٌ﴾: تشبه النبيين، وذلك أن جبريل عليه السلام لما أتاها وقال: ﴿إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا﴾ صدقته كتصديق الأنبياء والرسل الملائكة، وأما سائر الخلائق: إنما يصدقون الملائكة بإخبار الرسل إياهم، وهي إنما صدقت جبريل بإخباره أنه ملك، وأنه رسول؛ لذلك سميت صديقة.

ج. وقيل: كل مؤمن صديق؛ كقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ﴾ الآية.

٣. وقوله عز وجل: ﴿كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ﴾: فيه الاحتجاج عليهم من وجهين:

أ. أحدهما: أن الجوع قد كان يغلبهما ويحوجهما إلى أن يدفعا ذلك عن أنفسهما، ومن غلبه الجوع وقهره كيف يصلح أن يكون ربًّا إلها!؟.

ب. الثاني: أنهما إذا احتاجا إلى الطعام لا بد من أن يدفعهما ذلك إلى إزالة الأذى عن أنفسهما ودفعه،

---

(١) تفسير مقاتل ابن سليمان ١/٤٩٥.

(٢) تأويلات أهل السنة: ٣/٥٦٧.

والقيام في أخبث الأماكن وأقبحها، فمن دفع إلى ذلك لا يكون إلها، تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا.

٤. وقوله عز وجل: ﴿انْظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ﴾: والآيات ما ذكر من وجوه المحاجة عليهم:

أ. أحدها: أنه ابن مريم، ومن كان ابن آخر لا يكون إلها.

ب. الثاني: أنه رسول، وقد كان قبله رسل مع آيات وبراهين، لم يدع أحد لهم الألوهية والربوبية.

ج. الثالث: أنه كان يأكل الطعام، ومن كان تحت غلبة آخر وقهره، لا يكون إلها.

د. الرابع: من أكل الطعام احتاج أن يدفع عن نفسه الأذى، ويقوم في أخبث مكان، ومن كان هذا أمره لم يكن ربًّا.

٥. وليس في القرآن آية أكثر ولا أبين احتجاجًا على النصارى وأُولَئِكَ، ولا أقطع لقولهم من هذه الآية؛ للمعاني التي وصفنا.

٦. وقوله عز وجل: ﴿ثُمَّ انْظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾: أي: من أين يكذبون، قال أبو عبيد: ﴿يُؤْفَكُونَ﴾: يصرفون، ويخادعون عن الحق، كل من صرفته عن شيء فقد أفكته، ويقال: أفكت الأرض، إذا صرف عنها القطر، وقوله: ﴿يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ﴾ قال ابن عباسٍ: ﴿وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ قال أضلهم، فإذا أضلهم، فقد صرفهم عن الهدى، قال أَبُو عَوْسَجَةَ: الإفك عندي: الصرف عن الحق، وفي الأصل: الإفك: الكذب، وقَالَ الْقُتَبِيُّ: ﴿يُؤْفَكُونَ﴾: يصرفون عن الحق ويعدلون، وقيل: ﴿أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ يخدعون بالكذب.

العياني:

ذكر الإمام المهدي العياني (ت ٤٠٤ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. ثم قال عز وجل في عيسى وأمه مريم: ﴿كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ انْظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انْظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾، أي كانا محتاجين مضطرين إلى أكل الطعام، ومن كان محتاجاً مضطراً إلى الأكل والشرب فهو ضعيف، مربوب مرزوق لهيف، إلى الأغذية فقير مخلوق مع أسباب تدل على حدث من يأكل الطعام، لا يغفل عنها أحد يعقل من الأنام.

(١) تفسير الإمام المهدي العياني: ٢/٢٢٥.

٢. معنى قوله: ﴿ثُمَّ انْظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾، أي انظر بعقلك كيف يصدفون، ويصدهم رؤساؤهم فلا يومنون.

الديلمي:

ذكر الإمام الناصر الديلمي (ت ٤٤٤ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:.

١. ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ﴾ رد بذلك على اليهود والنصارى (حين قالوا) إنه ابن الله ﴿وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ﴾ رد على اليهود في نسبها إلى الفاحشة والصديقة المبالغة في صدقها ونفي الفاحشة عنها ﴿كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ﴾ أي إنما كنا بذلك عن الغائط لحدوثه عنه وهذه صفة تنتفي عن الإله، ويحتمل أن يكون المراد كانا يأكلان الطعام بين بذلك حاجتهما إلى الطعام والباري عز وجل ليس بذي حاجة.

٢. ﴿انْظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ﴾ أي الحجج والبراهين ﴿ثُمَّ انْظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ أي يصرفون يقال: أفكت الشيء إذا صرفته يقال: أفكت الأرض إذا صرفت فيها المطر ويحتمل أن يكون بمعنى تقلبون ومنه سميت المؤتفكات أي المنقلبات، ويجوز أن يكون من الإفك وهو الكذب أي أنا يكذبون.

الماوردي:

ذكر أبو الحسن الماوردي (ت ٤٥٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[٢]:

١. ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ﴾ رد الله بذلك على اليهود والنصارى، فرده على اليهود في تكذيبهم لنبوته ونسبتهم له إلى غير رِشْدة، ورده على النصارى في قولهم إنه ابن الله.

٢. ﴿وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ﴾ رد على اليهود في نسبتها إلى الفاحشة، وفي قوله: ﴿صِدِّيقَةٌ﴾ تأويلان:

أ. أحدهما: أنه مبالغة في صدقها ونفي الفاحشة عنها.

ب. الثاني: أنها مصدقة بآيات ربها فهي بمنزلة ولدها، قاله الحسن.

٣. ﴿كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ﴾ فيه قولان:

أ. أحدهما: أنه كنى بذلك عن الغائط لحدوثه منه، وهذه صفة تُنْفَى عن الإِله.

ب. الثاني: أنه أراد نفس الأكل لأن الحاجة إليه عجز والإِله لا يكون عاجزاً.

---

(١) البرهان في تفسير القرآن للديلمي: ١/٢٢١.

(٢) تفسير الماوردي: ٢/٥٧.

٤. ﴿انْظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ﴾ يعني الحجج والبراهين.

٥. ﴿ثُمَّ انْظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ فيه ثلاثة تأويلات:

أ. أحدها: يعني يصرفون، من قولهم أفكت الأرض إذا صرف عنها المطر.

ب. الثاني: يعني يقلبون، والمؤتفكات: المنقلبات من الرياح وغيرها.

ج. الثالث: يكذبون، من الإفك، وهو الكذب.

الطوسي:

ذكر أبو جعفر الطوسي (ت ٤٦٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. أخبر الله تعالى في هذه الآية أنه ليس المسيح بن مريم إلا رسول أرسله الله ﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ أي انه رسول ليس بإله كما أن الأنبياء قبله رسل ليسوا بآلهة، وأنه أتى بالمعجزات من قبل الله كما أتوا بها من قبل ربهم، فمن ادعى له الإلهية فهو كمن ادعى الإلهية لجميعهم لتساويهم في المنزلة ومعنى (خلت) مضت.

٢. ﴿وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ﴾ قيل في معناه قولان:

أ. أحدهما: أنها كانت تصدق بآيات ربها ومنزلة ولدها، وتصدقة فيما أخبرها به بدلالة قوله: ﴿وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا﴾ ذكر ذلك الحسن، والجبائي.

ب. الثاني: لكثرة صدقها وعظم منزلتها فيما تصدق به من أمرها أو سميت صديقة على وجه المبالغة، كما قيل: رجل سكيت، أي مبالغ في السكوت.

٣. ﴿كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ﴾ فيه احتجاج على النصارى:

أ. لأن من ولدته النساء، وكان يأكل الطعام لا يكون إلها للعباد لأن سبيله سبيلهم في الحاجة إلى الصانع المدبر، لأن من فيه علامة الحدث، لا يكون قديماً، ومن يحتاج إلى غيره لا يكون قادراً لا يعجزه شيء.

ب. وقيل إن ذلك كناية عن قضاء الحاجة لأن من أكل الطعام لا بد أن يحدث حدثاً مخصوصاً على

---

(١) تفسير الطوسي: ٣/٦٠٥.

مجرى العادة.

٤. ﴿انْظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ﴾ أمر للنبي وأمته بأن يكفروا فيما بين الله من الآيات والدلالات لهم على بطلان ما اعتقدوه من ربوبية المسيح، ونبوته ثم أمره بأن ينظر ثانياً ﴿أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ أي كيف يؤفكون، وقيل من أين يؤفكون ومعنى (يؤفكون) يصرفون، وقيل يقبلون، والمعنى متقارب، لأن المعنى انظر كيف يصرفون عن الآيات التي بيناها لهم ويقال: لكل مصروف عن شيء مأفوك عنه، وقد افكت فلاناً عن كذا أي صرفته عنه صرفاً، فأنا آفكه إفكاً فهو مأفوك وقد أفكت الأرض إذا صرف عنها المطر، والإفك الكذب، لأنه صرف الخبر عن وجهه، والمؤتفكات المنقلبات من الرياح، وغيرها، لأنها صرفت بقلبها عن وجهها.

الجشمي:

ذكر الحاكم الجشمي (ت ٤٩٤ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. شرح مختصر للكلمات:

أ. ﴿خَلَتْ﴾ الخلاء: الخالي، وخَلَتْ: مضت لخلو الزمان منه.

ب. الصِّدِّيقة: فِعِّيلَة من الصدق، وسميت بذلك لكثرة الصدق منها أو لكثرة التصديق، والصدق خبر مخبره على ما هو به.

ج. الإفك: الكذب، أفك الرجل: إذا كذب إفكًا، وأصله الصرف، وكل أمر صرف عن وجهه فقد أُفِك، ويقال: أفكته عن الشيء إذا صرفته عنه إفكًا، وهو مأفوك عنه مصروف، وقد أُفِكَتْ الأرض: إذا صُرِفَ عنها المطر، والإفك: الكذب؛ لأنه صرف الخبر عن وجهه، والمؤتفكات: المتقلبات من الرياح، وقوله: ﴿أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا﴾ أي: لتصرفنا، وائتفكت البلدة بأهلها: انقلبت.

٢. لما تقدم ذكر مقالات النصارى عقبه بالرد عليهم والاحتجاج على جميعهم، فقال سبحانه: ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ﴾ قد مضت ﴿مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ يعني لم يكن المسيح ـ وإن أتاكم بالأعاجيب من الآيات والمعجزات ـ إلا كسائر الأنبياء قبله، وكما أنهم لم يكونوا آلهة كذلك عيسى؛ لأن

(١) التهذيب في التفسير: ٣/٣٧١.

عيسى أحيا الميت؛ وموسى ألقى العصا فصارت حية، وإبراهيم ألقي في النار فلم يحترق، والجميع سواء في الإعجاز.

٣. ﴿وَأُمُّهُ﴾ يعني مريم ﴿صِدِّيقَةٌ﴾:

أ. قيل: تصدق برسل الله، عن أبي علي.

ب. وقيل: بآيات ربها ومَنْزِلَةِ ولدها وما أخبرها به، عن الحسن.

ج. وقيل: كثيرة الصدق.

د. وقيل: صدقت جبريل حين أتاها بالبشارة، عن مقاتل.

٤. ﴿كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ﴾:

أ. احتجاج من الله عليهم بأن سبيلهما سبيل سائر البشر في الحاجة إلى الطعام من حيث إنهما جسمان، وقد اختص عيسى مع ذلك بأن ولدته مريم، وفيه سمة الحدث؛ لأن الأجسام محدثة، وكل ذلك ينفي صفة الإلهية.

ب. وقيل: كانا يأكلان الطعام عبارة عن الحدث؛ أي من يطعم ويحدث لا يكون إلهًا.

ج. وقيل: وجه الاحتجاج أنه ابن مريم، ويأكل، ورسول، وكل ذلك يدل أنه ليس بإله.

٥. ﴿انْظُرْ﴾ يا محمد ﴿كَيْفَ نُبَيِّنُ﴾ نوضح ﴿لَهُمُ الْآيَاتِ﴾ حجج التوحيد ﴿ثُمَّ انْظُرْ﴾ تفكر في شأنهم أنهم مع هذه الآيات كيف ﴿يُؤْفَكُونَ﴾ يضرفون عن الحق الذي تؤديه إليهم.

٦. والآيات الدالة على بطلان قولهم، فأمره الله بنظرين:

أ. أحدهما: إلى قوله الجميل في نصب الآيات وإزاحة العلة.

ب. الثاني: إلى قولهم القبيح، وتركهم التدبر في الآيات.

٧. تدل الآية الكريمة على:

أ. الاحتجاج على بطلان قول النصارى؛ لأنه بين أنه رسول، وله أم، وأنه يأكل الطعام، وأنه ولد، وكل ذلك حجاج في بطلان ما هم عليه.

ب. بطلان قول اليهود أيضًا في عيسى.

الطَبرِسي:

ذكر الفضل الطَبرِسي (ت ٥٤٨ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. شرح مختصر للكلمات:

أ. الصديقة: المبالغة في الصدق، والصديق فعيل من أبنية المبالغة، كما يقال رجل سكيت أي: مبالغ في السكوت.

ب. ﴿يُؤْفَكُونَ﴾ يقال أفكه، يأفكه، أفكا: إذا صرفه، والإفك: الكذب، لأنه صرف عن الحق، وكل مصروف عن شيء مأفوك عنه، قال ابن السكيت: إن تك عن أحسن المروءة... مأفوكا ففي آخرين قد أفكوا وقد أفكت الأرض: إذا صرف عنها المطر، وأرض مأفوكة: لم يصبها مطر، والمؤتفكات: المتقلبات من الرياح، لأنها صرفت عن وجهها.

٢. لما قدم سبحانه ذكر مقالات النصارى، عقبه بالرد عليهم والحجاج لهم، فقال: ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ﴾ أي: ليس هو بإله ﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ أي: كما أن الرسل الذين مضوا قبله، ليسوا بآلهة، وإن أتوا بالمعجزات الباهرات، فكذلك المسيح، فمن ادعى له الإلهية، فهو كمن ادعى لهم الإلهية لتساويهم في المنزلة.

٣. ﴿وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ﴾:

أ. لأنها تصدق بآيات ربها، ومنزلة ولدها، وتصدقه فيما أخبرها به، بدلالة قوله: ﴿وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا﴾ عن الحسن، والجبائي.

ب. وقيل: سميت صديقة لكثرة صدقها، وعظم منزلتها فيما تصدق به من أمرها.

٤. ﴿كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ﴾ قيل فيه قولان:

أ. أحدهما: إنه احتجاج على النصارى بأن من ولده النساء، ويأكل الطعام، لا يكون إلها للعباد، لان سبيله سبيلهم في الحاجة إلى الصانع المدبر، والمعنى: إنهما كانا يعيشان بالغذاء، كما يعيش سائر الخلق، فكيف يكون إلها من لا يقيمه إلا أكل الطعام: وهذا معنى قول ابن عباس.

ب. الثاني: إن ذلك كناية عن قضاء الحاجة، لأن من أكل الطعام، لا بد له من الحدث، فلما ذكر

---

(١) تفسير الطبرسي: ٣/٣٥٣.

الأكل، صار كأنه أخبر عن عاقبته.

٥. ﴿انْظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ﴾ أمر سبحانه النبي ﷺ وأمته، بأن يفكروا فيما بين تعالى من الآيات أي: الدلالات على بطلان ما اعتقدوه من ربوبية المسيح، ثم أمر بأن ينظر.

٦. ﴿ثُمَّ انْظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ أي: كيف يصرفون عن الحق الذي يؤدي إليه تدبر الآيات.

أ. فالنظر الأول: إنما هو إلى فعله تعالى الجميل، في نصب الآيات، وإزاحة العلل.

ب. والنظر الثاني إلى أفعالهم القبيحة وتركهم التدبر للآيات.

ابن الجوزي:

ذكر أبو الفرج بن الجوزي (ت ٥٩٧ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ﴾ فيه ردّ على اليهود في تكذيبهم رسالته، وعلى النّصارى في ادّعائهم إلهيّته، والمعنى: أنه ليس بإله، وإنّما حكمه حكم من سبقه من الرّسل.

٢. في قوله تعالى: ﴿وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ﴾ ردّ على من نسبها من اليهود إلى الفاحشة، قال الزجّاج: والصّدّيقة: المبالغة في الصّدق، وصدّيق (فعّيل) من أبنية المبالغة، كما تقول: فلان سكّيت، أي: مبالغ في السّكوت.

٣. في قوله تعالى: ﴿كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ﴾ قولان:

أ. أحدهما: أنه بيّن أنّهما يعيشان بالغذاء، ومن لا يقيمه إلّا أكل الطعام فليس بإله، قاله الزجّاج.

ب. الثاني: أنه نبّه بأكل الطعام على عاقبته، وهو الحدث، إذ لا بدّ لآكل الطعام من الحدث، قاله ابن قتيبة، قال: وقوله تعالى: ﴿انْظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ﴾ من ألطف ما يكون من الكناية.

٤. ﴿يُؤْفَكُونَ﴾: يصرفون عن الحق ويعدلون، يقال: أفك الرجل عن كذا: إذا عدل عنه، وأرض مأفوكة: محرومة المطر والنّبات، كأنّ ذلك صرف عنها وعدل.

الرّازي:

ذكر الفخر الرازي (ت ٦٠٦ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(٢)]:

---

(١) زاد المسير في علم التفسير: ١/٥٧٣.

(٢) التفسير الكبير: ١٢/٤١٠.

١. ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ﴾ أي ما هو إلا رسول من جنس الرسل الذين خلوا من قبله جاء بآيات من الله كما أتوا بأمثالها، فإن كان الله أبرأ الأكمه والأبرص وأحيا الموتى على يده فقد أحيا العصا وجعلها حية تسعى وفلق البحر على يد موسى، وإن كان خلقه من غير ذكر فقد خلق آدم من غير ذكر ولا أنثى.

٢. ﴿وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ﴾ وفي تفسير ذلك وجوه:

أ. أحدها: أنها صدقت بآيات ربها وبكل ما أخبر عنه ولدها، قال تعالى في صفتها ﴿وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ﴾ [التحريم: ١٢]

ب. ثانيها: أنه تعالى قال: ﴿فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾ [مريم: ١٧] فلما كلمها جبريل وصدقته وقع عليها اسم الصديقة.

ج. ثالثها: أن المراد بكونها صديقة غاية بعدها عن المعاصي وشدة جدها واجتهادها في إقامة مراسم العبودية، فإن الكامل في هذه الصفة يسمى صديقا قال تعالى: ﴿فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ﴾ [النساء: ٦٩]

٣. ﴿كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ﴾، المقصود من ذلك: الاستدلال على فساد قول النصارى، وبيانه من وجوه:

أ. الأول: أن كل من كان له أم فقد حدث بعد أن لم يكن، وكل من كان كذلك كان مخلوقا لا إلها.

ب. الثاني: أنهما كانا محتاجين، لأنهما كانا محتاجين إلى الطعام أشد الحاجة، والإله هو الذي يكون غنيا عن جميع الأشياء، فكيف يعقل أن يكون إلها.

ج. الثالث: قال بعضهم: إن قوله: ﴿كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ﴾ كناية عن الحدث لأن من أكل الطعام فإنه لا بدّ وأن يحدث، وهذا عندي ضعيف من وجوه:

- الأول: أنه ليس كل من أكل أحدث، فإن أهل الجنة يأكلون ولا يحدثون.
- الثاني: أن الأكل عبارة عن الحاجة إلى الطعام، وهذه الحاجة من أقوى الدلائل على أنه ليس بإله، فأي حاجة بنا إلى جعله كناية عن شيء آخر.
- الثالث: أن الإله هو القادر على الخلق والإيجاد، فلو كان إلها لقدر على دفع ألم الجوع عن نفسه

بغير الطعام والشراب، فلما لم يقدر على دفع الضرر عن نفسه كيف يعقل أن يكون إلها للعالمين، وبالجملة ففساد قول النصارى أظهر من أن يحتاج فيه إلى دليل.

٤. ﴿انْظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انْظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ يقال: أفكه يأفكه إفكا إذا صرفه، والإفك الكذب لأنه صرف عن الحق، وكل مصروف عن الشيء مأفوك عنه، وقد أفكت الأرض إذا صرف عنها المطر، ومعنى قوله: ﴿أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ أنى يصرفون عن الحق، قال أهل السنة ـ ومن وافقهم ـ: الآية دلت على أنهم مصروفون عن تأمل الحق، والإنسان يمتنع أن يصرف نفسه عن الحق والصدق إلى الباطل والجهل والكذب، لأن العاقل لا يختار لنفسه ذلك، فعلمنا أن الله سبحانه وتعالى هو الذي صرفهم عن ذلك.

القرطبي:

ذكر محمد بن أحمد القرطبي (ت ٦٧١ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ ابتداء وخبر، أي ما المسيح وإن ظهرت الآيات على يديه فإنما جاء بها كما جاءت بها الرسل، فإن كان إلها فليكن كل رسول إلها، فهذا رد لقولهم واحتجاج عليهم.

٢. ثم بالغ في الحجة فقال: ﴿وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ﴾ ابتداء وخبر ﴿كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ﴾ أي أنه مولود مربوب، ومن ولدته النساء وكان يأكل الطعام مخلوق محدث كسائر المخلوقين، ولم يدفع هذا أحد منهم، فمتى يصلح المربوب لأن يكون ربا!؟ وقولهم: كان يأكل بناسوته لا بلاهوته فهذا منهم مصير إلى الاختلاط، ولا يتصور اختلاط إله بغير إله، ولو جاز اختلاط القديم بالمحدث لجاز أن يصير القديم محدثا، ولو صح هذا في حق عيسى لصح في حق غيره حتى يقال: اللاهوت مخالط لكل محدث.

٣. وقال بعض المفسرين في قوله: ﴿كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ﴾ إنه كناية عن الغائط والبول، وفي هذا دلالة على أنهما بشران.

٤. وقد استدلّ من قال إن مريم لم تكن نبية بقوله تعالى: ﴿وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ﴾، وفيه نظر، فإنه يجوز أن تكون صديقة مع كونها نبية كإدريس عليه السلام، وقد مضى في آل عمران ما يدل على هذا، وإنما قيل لها

---

(١) تفسير القرطبي: ٦/٢٥٠.

صديقة لكثرة تصديقها بآيات ربها وتصديقها ولدها فيما أخبرها به، عن الحسن وغيره.

٥. ﴿انْظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ﴾ أي الدلالات، ﴿ثُمَّ انْظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ أي كيف يصرفون عن الحق بعد هذا البيان، يقال: أفكه يأفكه إذا صرفه، وفي هذا رد على القدرية والمعتزلة.

الشوكاني:

ذكر محمد بن علي الشوكاني (ت ١٢٥٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ أي هو مقصور على الرسالة، لا يجاوزها كما زعمتم، وجملة ﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ صفة لرسول: أي ما هو إلا رسول من جنس الرسل الذين خلوا من قبله، وما وقع منه من المعجزات لا يوجب كونه إلها، فقد كان لمن قبله من الرسل مثلها، فإنّ الله أحيا العصا في يد موسى، وخلق آدم من غير أب، فكيف جعلتم إحياء عيسى للموتى ووجوده من غير أب يوجبان كونه إلها، فإن كان كما تزعمون إلها لذلك فمن قبله من الرسل الذين جاءوا بمثل ما جاء به آلهة، وأنتم لا تقولون بذلك.

٢. ﴿وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ﴾ عطف على المسيح: أي وما أمه إلا صدّيقة: أي صادقة فيما تقوله أو مصدّقة لما جاء به ولدها من الرسالة، وذلك لا يستلزم الإلهية لها، بل هي كسائر من يتصف بهذا الوصف من النساء.

٣. ﴿كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ﴾ استئناف يتضمّن التقرير لما أشير إليه من أنهما كسائر أفراد البشر: أي من كان يأكل الطعام كسائر المخلوقين فليس بربّ، بل وعبد مربوب ولدته النساء، فمتى يصلح لأن يكون ربا؟ وأما قولكم إنه كان يأكل الطعام بناسوته لا لاهوته، فهو كلام باطل يستلزم اختلاط الإله بغير الإله واجتماع الناسوت واللاهوت، لو جاز اختلاط القديم الحادث لجاز أن يكون القديم حادثا، ولو صحّ هذا في حق عيسى لصح في حق غيره من العباد.

٤. ﴿انْظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ﴾ أي الدلالات، وفيه تعجيب من حال هؤلاء الذين يجعلون تلك الأوصاف مستلزمة للإلهية ويغفلون عن كونها موجودة في من لا يقولون بأنه إله.

---

(١) فتح القدير: ٧٤/٢.

٥. ﴿ثُمَّ انْظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ أي كيف يصرفون عن الحق بعد هذا البيان؟ يقال: أفكه يأفكه إذا صرفه، وكرر الأمر بالنظر للمبالغة في العجيب، وجاء بـ ﴿ثُمَّ﴾ لإظهار ما بين العجبين من التفاوت.

أَطَّفِّيش:

ذكر محمد أَطَّفِّيش (ت ١٣٣٢ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ﴾ إِنَّما هو رسول من الله لا أُلُوهِيَّة له، وكيف يكون إلهًا من يتَّصف بالبنوَّة!؟ ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ جاءوا بما لم يجئ به غيرهم، ومع مجيئهم بما لم يجئ به غيرهم لم تَدَّعهم أُمَمُهم آلهةً، فلا كفر ككفر النصارى، بل قد كان فيهم مثل ما لعيسى من إحياء الموتى على أيديهم، وإحياء الجماد، ومن خلقٍ من غير أبٍ ولا أمٍّ، وقد أخرج الله تعالى للنبيِّ العربيِّ صالح عليه السلام ناقةً من صخرة، وأحيَى الله عصا موسى عليه السلام ، وخَلَقَ آدم بلا أب ولا أمٍّ، وخلق حوَّاء بلا أب ولا أمٍّ، سوى أنَّها جزء من آدم، وكلُّ ذلك أعجب.

٢. ﴿وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ﴾ لا إله، كما أنَّه رسول لا إله، وهي كسائر النساء الصدِّيقات، كما أنَّ عيسى من الرسل، والصِّدِّيق ـ بالشدِّ ـ من كان صادقًا مع الله ومع الخلق قولاً وفعلاً واعتقادًا مجتهدًا في ذلك، وكم امرأة صدِّيقة لم يدَّع قومُها أنَّها إله!، ولو كان عيسى وأمُّه إلهين لقالا: إنَّا إلهان، وصِدْقُها هو صِدْقُها مع الله تعالى ، وفي انتفائها ممَّا رمتها به اليهود، وفي إقرارها بكلمات رَبِّها وكتابه، وبالأنبياء وجميع ما يؤمَن به.

٣. ﴿كَانَا يَاكُلَانِ الطَّعَامَ﴾ ومن يأكل الطعام هو كسائر البشر وسائر الحيوان، لا يكون إلها لحدوثه وتركُّبه واحتياجه وعجزه وجهله بأكثر الأشياء، ومن يبول ويتغوَّط كيف يكون إلها!؟ ومن يركب الحمار ويعيى كيف يكون إلها!؟ ومن يكون إلها لا يصيبه مكروه، وقيل: المراد بأكل الطعام: الكناية عن قضاء حاجة الإنسان، وهذا أَمَرُّ ذوقًا في أسماع النصارى، ولم أر أبعد فهمًا وجدالاً من النصارى وما سمعنا به!.

٤. ﴿انظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الَايَاتِ﴾ على اختصاصنا بالأُلُوهِيَّة والوحدانيَّة، وهو تعجيب من البيان العظيم، ﴿ثُمَّ اَنظُرَ اَنَّىٰ﴾ كيف؟ ﴿يُوفَكُونَ﴾ يُصرفون عن التوحيد مع ذلك البيان العظيم!؟، وهذا تعجيب من إصرارهم على الشرك مع هذا البيان وعدم تدبُّرهم، و(ثُمَّ) لتراخي الرتبة، فإنَّ إعراضهم عن

---

(١) تيسير التفسير، أطفيش: ٤/٩٨.

التدبُّر في البيان الواضح أبعد، فإنَّ الإنسان قد يفعل ما يفعل جهلاً أو تشهِّيًّا فإذا وُعظ وبُيِّن له رَجَعَ كلَّ الرجوع أو بعضه، والنصارى لم يرجعوا أدنى رجوع.

القاسمي:

ذكر جمال الدين القاسمي (ت ١٣٣٢ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. أشار تعالى إلى بطلان التمسك بمعجزات عيسى وكرامات أمّه على إلهيتها، بأنّ غايتها الدلالة على نبوّته وولايتها، استنزالا لهم عن الإصرار على ما تقوّلوا عليهما، وإرشادا لهم إلى التوبة والاستغفار فقال: ﴿مَا الْمَسِيحُ﴾ أي: المعلوم حدوثه من كونه ﴿ابْنُ مَرْيَمَ﴾ بالخوارق الظاهرة على يديه ﴿إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ﴾ أي: مضت ﴿مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ أولو الخوارق الباهرة، فله أسوة أمثاله، كما قال تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ﴾ [الزخرف: ٥٩]، أي: ما هو إلّا رسول من جنس الرسل الذين خلوا قبله، جاء بآيات من الله كما أتوا بأمثالها، إن أبرأ الله الأبرص وأحيا الموتى على يده، فقد أحيا العصا وجعلها حية تسعى وفلق بها البحر على يد موسى، وهو أعجب، وإن خلقه من غير أب، فقد خلق آدم من غير أب ولا أم، وهو أغرب منه، وفي الآية وجه آخر: أي مضت من قبله الرسل، فهو يمضي مثلهم، فالجملة ـ على كل ـ منبئة عن اتصافه بما ينافي الألوهية.

٢. ﴿وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ﴾ أي: مبالغة في الصدق، ووقع اسم الصديقة عليها لقوله تعالى: ﴿وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ﴾، والوصف بذلك مشعر بالإغراق في العبودية والقيام بمراسمها، فمن أين لهم أن يصفوها بما يباين وصفها؟

٣. قال ابن كثير: دلت الآية الكريمة على أن مريم ليست بنبيّه، كما زعمه ابن حزم وغيره ـ ممن ذهب إلى نبوّة سارة أم إسحاق ونبوّة أم موسى ونبوّة أم عيسى ـ استدلالا منهم بخطاب الملائكة لسارة ومريم وبقوله: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾، وهذا معنى النبوّة، والذي عليه الجمهور أنّ الله لم يبعث نبيا إلّا من الرجال، قال الله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى﴾ [يوسف: ١٠٩]، وقد حكى الشيخ أبو الحسن الأشعريّ الإجماع على ذلك.

---

(١) تفسير القاسمي: ٤/٢١٥.

٤. قال العارف القاشانيّ في (لطائف الأعلام): (الصدّيق الكثير الصدق، كما يقال: سكّيت وصرّيع إذا كثر منه ذلك، والصديق من الناس من كان كاملا في تصديقه لما جاءت به رسل الله علما وعملا، قولا وفعلا وليس يعلو على مقام الصديقية إلّا مقام النبوّة، بحيث إن من تخطى مقام الصديقية حصل في مقام النبوّة، قال الله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ﴾ [مريم: ٥٨]، الآية، فلم يجعل تعالى بين مرتبتي النبوة والصديقية مرتبة أخرى تتخللها)، ثم بيّن صدق الأقوال، وصدق الأفعال، وصدق الأحوال: (فالأول) هو موافقة الضمير للنطق، قال الجنيد: حقيقة الصدق أن تصدق في مواطن لا ينجيك فيه إلّا الكذب، و(صدق الأفعال) هو الوفاء لله بالعمل من غير مداهنة، قال المحاسبيّ: الصادق هو الذي لا يبالي لو خرج كل قدر له في قلوب الخلق من أجل إصلاح قلبه، ولا يحب اطّلاع الناس على مثاقيل الذر من حسن عمله، ولا يكره أن يطلع الناس على السيء من حاله، لأن كراهته لذلك دليل على أنه يحب الزيادة عندهم، وليس هذا من أخلاق الصدّيقين، و(صدق الأحوال) اجتماع الهم على الحق، بحيث لا يختلج في القلب تفرقة عن الحق بوجه.

٥. ﴿كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ﴾ استئناف مبين لما قبله من أنهما كسائر البشر في الافتقار إلى الغذاء، وفيه تبعيد عما نسب إليهما، قال الزمخشريّ: لأن من احتاج إلى الاغتذاء بالطعام، وما يتبعه من الهضم والنفض، لم يكن إلا جسما مركبا من عظم ولحم وعروق وأعصاب وأخلاط وأمزجة، مع شهوة وقرم وغير ذلك.. مما يدل على أنه مصنوع مؤلّف مدبّر كغيره من الأجسام.

٦. إنما أخر في الاستدلال على بطلان مذهب النصارى، حاجتهما للطعام عما قبله من مساواتهما للرسل عليهم السلام، ترقيا في باب الاستدلال من الجليّ للأجلى، على ما هو القاعدة في سوق البراهين لإلزام الخصم، حتى إذا لم يسلّم في الجليّ لغموضه عليه، يورد له الأجلي تعريضا بغباوته، فيضطر للتسليم، إن لم يكن معاندا ولا مكابرا، هذا ما ظهر لي في سر التقديم والتأخير.

٧. وأما قول الخفاجيّ ـ ملخصا كلام البيضاويّ ـ في سر ذلك: (أنه تعالى بين أولا أقصى مراتب كمالهما، وأنه لا يقتضي الألوهية، وقدمه لئلا يواجههما بذكر نقائص البشرية الموجبة لبطلان ما ادعوا فيهما، على حد قوله تعالى: ﴿عَفَا اللهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ﴾، حيث قدم العفو على المعاتبة له ﷺ) فبعيد، وقياسه على الآية قياس مع الفارق لاختلاف المقامين، فالأظهر ما ذكرناه، والله أعلم بأسرار كتابه.

٨. ﴿انْظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ﴾ أي: على توحيد الله، وبطلان الاتحاد وإلهية عيسى وأمه، وبطلان شبهاتهم! ﴿ثُمَّ انْظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ أي: كيف يصرفون عن التأمل فيها إلى الإصرار على التمسك بالشبهات الظاهرة البطلان،! قال أبو السعود: وتكرير الأمر بالنظر، للمبالغة في التعجيب من حال الذين يدعون لهما الربوبية، ولا يرعوون عن ذلك، بعد ما بين لهم حقيقة خالهما بيانا لا يحوم حوله شائبة ريب، وثم لإظهار ما بين العجبين من التفاوت، أي إن بياننا للآيات أمر بديع في بابه، بالغ لأقاصي الغايات القاصية من التحقيق والإيضاح، وإعراضهم عنها ـ مع انتفاء ما يصححه بالمرة، وتعاضد ما يوجب قبولها ـ أعجب وأبدع.

رضا:

ذكر محمد رشيد رضا (ت ١٣٥٤هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ﴾ قد يقول قائلهم إذا سمع ما تقدم: إذا كان التثليث أمرا باطلا لا حقية له، وكان الإله الح واحدا لا تعدد فيه ولا تركيب من أصول ولا أقانيم، ولا يشبه الأجسام بذات ولا صفة ـ فما بال المسيح وما شأنه؟ هل يعد فردا من أفراد المخلوقات، لا يمتاز عليها بالذات ولا بالصفات؟ وهل تعد أمه كسائي النساء؟ أجاب الله تعالى عن هذه الأسئلة التي يوردها من أكبروا المسيح أن يكون بشرا، فبدأ بذكر خصوصيته التي امتاز بها على أكثر الناس، ثم ببيان حقيقته التي يشارك بها كل فرد من أفرادهم، أما الخصوصية فهو إنه ليس إلا رسولا من رسل الله تعالى الذين بعثهم لهداية عباده، قد خلت ومضت من قبله الرسل الذي اختصهم الله مثله تعالى بالرسالة وأيدهم بالآيات، فبهذه الخصوصية امتاز هو وإخوته الرسل على جماهير الناس، وأما أمه فهي صديقة من فضليات النساء، فمرتبتها في الفضل والكمال تلي مرتبة الأنبياء، وأما حقيقتهما الشخصية والنوعية فهي مساوية لحقيقة غيرهما من أفراد نوعهما وجنسهما، بدليل أنهما كانا يأكلان الطعام، وكل من يأكل الطعام فهو مفتقر إلى ما يقيم بنيته ويمد حياته، لئلا ينحل بدنه وتضعف قواه فيهلك ـ دع ما يستلزمه أكل الطعام، من الحاجة إلى دفع الفضلات، ـ وكل مفتقر إلى غيره فهو ممكن مساو لسائر

(١) تفسير المنار: ٦/٤٠٣.

الممكنات المخلوقة في حاجتها إلى غيرها، فلا يمكن أن يكون ربا خالقا، ولا ينبغي أن يكون ربا معبودا، وإن من سفه الإنسان لنفسه، واحتقاره لجنسه، أن يرفع بعض المخلوقات المساوية له في ماهيته ومشخصاته بمزية عرضية لها، فيجعل نفسه لها عبدا، ويسمى ما يفتتن بخصوصيته منها إلها أو ربا.

٢. ﴿انْظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انْظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ أي انظر أيها الرسول أو أيها السامع نظر عقل وفكر، كيف نبين لهؤلاء النصارى الآيات والبراهين على بطلان دعواهم في المسيح، ثم انظر بعد ذلك كيف يصرفون عن استبانة الحق بها، والانتقال من مقدماتها إلى نتائجها؟ كأن عقولهم قد فقدت بالتقليد وظيفتها؟

المراغي:

ذكر أحمد بن مصطفى المراغي (ت ١٣٧١ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. ذكر الله تعالى أن المسيح رسول كغيره من الرسل وأقام الدليل على ذلك فقال: ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ﴾ أي ليس المسيح إلا رسول من الرسل الذين بعثهم الله لهداية عباده، قد مضت من قبله رسل اختصهم مثله بالرسالة وأيدهم بالآيات، وأمه صديقة فلها في الفضل مرتبة تلى مرتبة الأنبياء والمرسلين، ونحو الآية قوله: ﴿وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ﴾

٢. أما حقيقتهما النوعية والجنسية فهي مساوية لحقيقة غيرهما من أفراد نوعهما وجنسهما فهما يأكلان الطعام ليقيما بنيتهما ويمدّا حياتهما لئلا ينحل بدنهما ويهلكا، وكذلك يعرض لهما ما يستلزمه أكل الطعام من الحاجة إلى دفع الفضلات، فلا يمكن أن يكون كل منهما إلها خالقا ولا ربا معبودا، ومن السفه أن يحتقر الإنسان نفسه ويحتقر جنسه ويرفع بعض المخلوقات المساوية له في الماهية والمشخصات والممتازة بميزات عرضية فيجعل نفسه عبدا لها ويسميها آلهة أو أربابا.

٣. وبعد أن بين حالهما بيانا لا يحوم حوله شائبة من الريب، تعجب من حال من يدّعى لهما الربوبية ولا يرعوى عن غيه وضلاله ولا يتأمل فيما هو عليه من أفن الرأي والخطأ، فقال: ﴿انْظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ

---

(١) تفسير المراغي: ٦/١٦٨

الْآيَاتِ ثُمَّ انْظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ الآيات هي الدلائل القاطعة ببطلان ما يدّعون، ويؤفكون أي يصرفون عن التأمل فيها لسوء استعدادهم وخبث نفوسهم، أي انظر أيها السامع نظرة عقل وفكر، كيف نبين لهؤلاء النصارى الآيات والبراهين البالغة أقصى الغايات في الوضوح على بطلان ما يدّعون في أمر المسيح ثم هم بعد ذلك يعرضون عنها، وكيف لا ينتقلون من مقدماتها إلى نتائجها، ومن مباديها إلى غاياتها، فكأنهم فقدوا عقولهم وصارت أفئدتهم هواء.

سيّد:

ذكر سيّد قطب (ت ١٣٨٥ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي(١):

١. واجههم الله تعالى بالمنطق الواقعي القويم، لعله يرد فطرتهم إلى الإدراك السليم، مع التعجيب من أمرهم في الانصراف عن هذا المنطق بعد البيان والإيضاح: ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ انْظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انْظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾

٢. وأكل الطعام مسألة واقعية في حياة المسيح عليه السلام وأمه الصديقة، وهي خصيصة من خصائص الأحياء الحادثين، ودليل على بشرية المسيح وأمه ـ أو على ناسوته بتعبيرهم اللاهوتي ـ فأكل الطعام تلبية لحاجة جسدية لا مراء فيها، ولا يكون إلها من يحتاج إلى الطعام ليعيش، فالله حي بذاته، قائم بذاته، باق بذاته، لا يحتاج، ولا يدخل إلى ذاته سبحانه أو يخرج منها شيء حادث كالطعام..

٣. ونظرا لوضوح هذا المنطق الواقعي ونصاعته التي لا يجادل فيها إنسان يعقل، فإنه يعقب عليه باستنكار موقفهم والتعجيب من انصرافهم عن ذلك المنطق البين: ﴿انْظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انْظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾، ولقد كانت هذه الحياة البشرية الواقعية للمسيح عليه السّلام، مصدر تعب لمن أرادوا تأليهه ـ على الرغم من تعاليمه ـ فقد احتاجوا إلى كثير من الجدل والخلاف حول لاهوتية المسيح عليه السّلام وناسوتيته ـ كما ذكرنا ذلك من قبل باختصار.

الخطيب:

ذكر عبد الكريم الخطيب (ت ١٣٩٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي(٢):

---

(١) في ظلال القرآن: ٢/٩٤٦.

(٢) التفسير القرآني للقرآن: ٣/١١٥١.

١. ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إلا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ﴾.. هو عرض للمسيح، يكشف عن حقيقته، وأنه رسول من رسل الله، وأمّه خلق مما خلق الله، وناس من الناس، وأنهما يجوعان كما يجوع الناس، ويأكلان مما يأكل النّاس، ويخضعان للضرورات التي يخضع لها الناس.. ومن كان هذا شأنه، فكيف يكون إلها مع الله؟، كيف ومن خلق الله من يستعلى على تلك الضرورات المتحكمة على المسيح وأمّه، كالملائكة مثلا؟ فإنهم لا يأكلون، ولا يشربون، ولا ينامون، ولا يمرضون!

٢. ﴿انْظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انْظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ تعجّب من موقف هؤلاء الذين يرون المسيح إلها أو ابن إله، وأنهم مع هذه الآيات البينات، التي تكشف لهم عن المسيح، وتريهم مكانه عيانا بين الناس ـ إنهم مع هذا لا يزالون على ما هم عليه من إفك وافتراء على الله، إذ يقولون فيه هذا القول الشنيع الآثم.

ابن عاشور:

ذكر محمد الطاهر بن عاشور (ت ١٣٩٣ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[1]:

١. ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ استئناف لتبيان وصف المسيح في نفس الأمر ووصف أمّه زيادة في إبطال معتقد النّصارى إلهيّة المسيح وإلهيّة أمّه، إذ قد علم أنّ قولهم ﴿إِنَّ اللهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾ [المائدة: ٧٣] أرادوا به إلهيّة المسيح، وذلك معتقد جميع النّصارى، وفرّعت طائفة من النّصارى يلقّبون (بالرّكوسيّة) (وهم أهل ملّة نصرانيّة صابئة) على إلهية عيسى إلهيّة أمّه ولولا أنّ ذلك معتقدهم لما وقع التّعرض لوصف مريم ولا للاستدلال على بشريّتها بأنّهما كانا يأكلان الطّعام.

٢. فقوله: ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ﴾ قصر موصوف على صفة، وهو قصر إضافي، أي المسيح مقصور على صفة الرّسالة لا يتجاوزها إلى غيرها، وهي الإلهيّة، فالقصر قصر قلب لردّ اعتقاد النّصارى أنّه الله.

٣. وقوله: ﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ صفة لرسول أريد بها أنّه مساو للرّسل الآخرين الّذين

---

(١) التحرير والتنوير: ٥/١٧٥.

مضوا قبله، وأنّه ليس بدعا في هذا الوصف ولا هو مختصّ فيه بخصوصيّة لم تكن لغيره في وصف الرّسالة، فلا شبهة للّذين ادّعوا له الإلهيّة، إذ لم يجيء بشيء زائد على ما جاءت به الرسل، وما جرت على يديه إلّا معجزات كما جرت على أيدي رسل قبله، وإن اختلفت صفاتها فقد تساوت في أنّها خوارق عادات وليس بعضها بأعجب من بعض، فما كان إحياؤه الموتى بحقيق أن يوهم إلهيّته، وفي هذا نداء على غباوة القوم الّذين استدلّوا على إلهيّته بأنّه أحيا الموتى من الحيوان فإنّ موسى أحيا العصا وهي جماد فصارت حيّة.

٤. وجملة ﴿وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ﴾ معطوفة على جملة ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ﴾، والقصد من وصفها بأنّها صدّيقة نفي أن يكون لها وصف أعلى من ذلك، وهو وصف الإلهيّة، لأنّ المقام لإبطال قول الّذين قالوا إنّ الله ثالث ثلاثة، إذ جعلوا مريم الأقنوم الثالث، وهذا هو الّذي أشار إليه قول صاحب (الكشاف) إذ قال: (أي وما أمّه إلّا صديقة) مع أنّ الجملة لا تشتمل على صيغة حصر، وقد وجّهه العلامة التفتازانيّ في (شرح الكشّاف) بقوله: (الحصر الّذي أشار إليه مستفاد من المقام والعطف) (أي من مجموع الأمرين)، وفي قول التفتازانيّ والعطف، نظر.

٥. والصدّيقة صيغة مبالغة، مثل شرّيب ومسّيك، مبالغة في الشّرب والمسك، ولقب امرئ القيس بالملك الضّلّيل، لأنّه لم يهتد إلى ما يسترجع به ملك أبيه، والأصل في هذه الصيغة أن تكون مشتقّة من المجرّد الثّلاثي، فالمعنى المبالغة في وصفها بالصدق، أي صدق وعد ربّها، وهو ميثاق الإيمان وصدق وعد النّاس، كما وصف إسماعيل عليه السلام بذلك في قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ﴾ [مريم: ٥٤]، وقد لقّب يوسف بالصدّيق، لأنّه صدق وعد ربّه في الكفّ عن المحرّمات مع توفر أسبابها، وقيل: أريد هنا وصفها بالمبالغة في التّصديق لقوله تعالى: ﴿وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا﴾ [التحريم: ١٢]

٦. وقوله: ﴿كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ﴾ جملة واقعة موقع الاستدلال على مفهوم القصر الّذي هو نفي إلهيّة المسيح وأمّه، ولذلك فصلت عن الّتي قبلها لأن الدّليل بمنزلة البيان، وقد استدلّ على بشريتهما بإثبات صفة من صفات البشر، وهي أكل الطّعام، وإنّما اختيرت هذه الصّفة من بين صفات كثيرة لأنّها ظاهرة واضحة للنّاس، ولأنّها أثبتتها الأناجيل؛ فقد أثبتت أنّ مريم أكلت ثمر النخلة حين مخاضها، وأنّ عيسى أكل مع الحواريين يوم الفصح خبزا وشرب خمرا، وفي إنجيل لوقا إصحاح ٢٢ (وقال لهم اشتهيت أن آكل هذا الفصح معكم قبل أن أتألّم لأنّي لا آكل منه بعد، وفي الصبح إذ كان راجعا في المدينة جاع)

٧. وقوله: ﴿انْظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ﴾ استئناف للتعجيب من حال الّذين ادّعوا الإلهيّة لعيسى، والخطاب مراد به غير معيّن، وهو كلّ من سمع الحجج السابقة، واستعمل الأمر بالنّظر في الأمر بالعلم لتشبيه العالم بالرأي والعلم بالرؤية في الوضوح والجلاء، وقد تقدّمت نظائره، وقد أفاد ذلك معنى التعجيب، ويجوز أن يكون الخطاب للرّسول عليه السلام، والمراد هو وأهل القرآن، و﴿كَيْفَ﴾ اسم استفهام معلّق لفعل ﴿انْظُرْ﴾ عن العمل في مفعولين، وهي موضع المفعول به لـ ﴿انْظُرْ﴾، والمعنى انظر جواب هذا الاستفهام، وأريد مع الاستفهام التعجيب كناية، أي انظر ذلك تجد جوابك أنّه بيان عظيم الجلاء يتعجّب النّاظر من وضوحه، والآيات جمع آية، وهي العلامة على وجود المطلوب، استعيرت للحجّة والبرهان لشبهه بالمكان المطلوب على طريق المكنية، وإثبات الآيات له تخييل، شبّهت بآيات الطّريق الدّالة على المكان المطلوب.

٨. وقوله: ﴿ثُمَّ انْظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ (ثمّ) فيه للترتيب الرتبي والمقصود أنّ التأمّل في بيان الآيات يقتضي الانتقال من العجب من وضوح البيان إلى أعجب منه وهو انصرافهم عن الحقّ مع وضوحه، و﴿يُؤْفَكُونَ﴾ يصرفون، يقال: أفكه من باب ضرب، صرفه عن الشّيء و﴿أَنَّى﴾ اسم استفهام يستعمل بمعنى من أين، ويستعمل بمعنى كيف، وهو هنا يجوز أن يكون بمعنى كيف (كما) في (الكشاف)، وعليه فإنّما عدل عن إعادة ﴿كَيْفَ﴾ تفنّنا، ويجوز أن تكون بمعنى من أين، والمعنى التعجيب من أين يتطرّق إليهم الصّرف عن الاعتقاد الحقّ بعد ذلك البيان المبالغ غاية الوضوح حتّى كان بمحلّ التّعجيب من وضوحه، وقد علّق بـ ﴿أَنَّى﴾ فعل ﴿انْظُرْ﴾ الثّاني عن العمل وحذف متعلّق ﴿يُؤْفَكُونَ﴾ اختصارا، لظهور أنّهم يصرفون عن الحقّ الّذي بيّنته لهم الآيات.

أبو زهرة:

ذكر محمد أبو زهرة (ت ١٣٩٤ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ﴾ في هذا النص الكريم (تسجيل) لحقيقة عيسى ابن مريم وأمه، وأن ما اختصا به لا يمكن أن يجعلهما إلهين من دون الله كما قالت

---

(١) زهرة التفاسير: ٥/٢٣١١.

البربرانية وغيرها من فرق النصارى، وكما حكى الله تعالى عنهم وعن عيسى عليه السلام في قوله تعالى له: ﴿أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللهِ﴾ [المائدة]

٢. وأن النص الكريم الذى نحن بصدد ذكر معانيه، فيه بيان أن عيسى وأمه ليس فيهما ما يجعلهما مختصين بصفات ليست في غيرهما فعيسى عليه السلام ليس إلا رسولا وقد خلت أي مضت من قبله الرسل فإبراهيم كان رسولا، ومن قبله كان نوح رسولا، وهؤلاء مضوا، ولم يدع الألوهية لهم أحد كما نحلتموها يا معشر النصارى للمسيح عليه السلام وإذا كان له معجزة خارقة للعادة بإحياء الموتى، فأولئك كانت لهم معجزات لا تقل عنها تأثيرا، ولا تقل عنها في ذاتها.

٣. وقد قال الزمخشري في ذلك وتبعه من بعده: (ما هو إلا رسول من جنس الرسل الذين خلوا من قبله جاء بآيات من الله تعالى كما جاءوا بأمثالها أن أبرأ الله الأكمه والأبرص، وإحياء الموتى على يده، فقد أحيا سبحانه وتعالى العصا وجعلها حية تسعى وفلق بها البحر وشق على يد موسى، وإن خلقه من غير ذكر فقد خلق آدم من غير ذكر ولا أنثى)، ونزيد على ما قاله الزمخشري أن معجزة كل نبي بما يناسب عصره، فعصر سيدنا عيسى كان عصرا يؤمن بالأسباب المادية، وكان في عهده الفلاسفة الطبيعيون، الذين لا يؤمنون بغير الأسباب التي يرونها، فكانت معجزات عيسى عليه السلام خرقا حسيا صارخا لهذه الأسباب، فولادته كانت بغير السبب المعروف، إذ كان من غير أب، وما كانوا يحسبون أن الأكمه الذى ولد أعمى يبصر، وما كانوا يعلمون أن البرص يشفى منه، فشفاه الله تعالى على يديه، وما كانوا يرون الحياة ترد بعد الوفاة، فأحياها الله تعالى على يديه، كما أجاب لإبراهيم عندما دعا ربه قائلا: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾

٤. جاء عيسى عليه السلام فكانت حياته وآياته كلها داعية لبطلان ذلك الاعتقاد بأنه لا شيء إلا الأسباب والمسببات، ولكنهم تمكنوا من اتباعه من بعده بثلاثة قرون، فأخرجوهم من اتباعه، وأعادوهم إلى الأسباب والمسببات، وأخرجوه من البشر، وزعموا أنه إله، وأمه لا تخرج عن أنها مخلصة صادقة تابعة للنبيين من قبله وله عليه السلام.

٥. والصدّيق هو الذى لا يقول إلا صدقا، ولا يكذب، ويصدق الحق ويدعو إليه، ويستمر عليه،

فالصديق هو الصادق في قوله وعمله والمصدق للحق المذعن له إذا جاءه، وقال الأصفهاني في مفرداته: (الصديقون هم قوم دون الأنبياء في الفضيلة) فهم المرتبة الأولى: بعد الأنبياء.

٦. ويلاحظ أنه عند ذكر عيسى عليه السلام في القرآن يذكر أنه ﴿الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ تأكيدا لبشريته، لأنه يرى بالحس مولودا بعد أن لم يكن، وأن ولادته من مريم البتول فكيف يتركون المحسوس إلى أوهام، وحياتهما تدل على البشرية، ولذا قال سبحانه: ﴿كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ انْظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انْظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ ذكر الله تعالى هنا بيان خواصهما الآدمية الحيوانية بعد بيان منزلتهما عند الله تعالى، إذ إن الأول رسول، والثانية: صديقة، ولا تتجاوز منزلتهما عند الله تعالى ذلك، وهما في الحياة المادية كسائر الأحياء من الأناسى يأكلان الطعام ويعملان على ذلك، وهما لهذا محتاجان إلى غيرهما، والإله لا يحتاج لغيره، ويقول الزمخشري في ذلك: (إن من احتاج إلى الاغتذاء بالطعام، وما يتبعه من الهضم، والنقض ـ لم يكن إلا جسما مركبا من عظم ولحم وعروق وأعصاب وأخلاط وأمزجة مع شهوة وقرم وغير ذلك مما يدل على أنه مصنوع مؤلف مدبر كغيره من البشر!) ولكنهم مع كل هذا تركوا الأعراض التي تدل على الآدمية وأماراتها، ولذلك قال تعالى:

٧. ﴿انْظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ﴾، أي انظر يا محمد إلى الأدلة على آدميته التي هي قائمة، وكيف بيناها، وصرفنا لهم القول الذى يدل على الحقيقة، ولكنهم ماديون يؤمنون بالمادة وأسبابها، ولذلك انصرفوا عن الحق وعن الإيمان وخضعوا لأوهام.

٨. ولذا قال تعالى: ﴿ثُمَّ انْظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾، وقد عبر بـ (ثم)، للدلالة على بعد بين ما تدل عليه الآيات وحالهم، ثم على بعد ما يقولون عن الحق، إذ يرون بالحس إنسانا يولد، ثم يفرضونه إلها بزعمهم؛ والإفك الصرف عن الحق، يقال: أفكه يأفكه إذا صرفه عن الأمر أو الحق، ولذلك يقال للكذب إفك؛ لأنه صرف عن الحقيقة، والمعنى الجملي انظر كيف ينصرفون عن الحق لأوهام لا يعقلونها مع قيام الأدلة الحسية على بعضها، ولكن ذرهم في غيهم يعمهون، اللهم لا تصرفنا عن الحق بأوهامنا، إنك سميع الدعاء.

مُغْنِيَّة:

ذكر محمد جواد مُغْنِيَّة (ت ١٤٠٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾، كنوح وإبراهيم وموسى وغيرهم، وقد أظهر الله المعجزات على أيديهم كما أظهرها على يد عيسى، فالقول بربوبيته من دونهم ترجيح بلا مرجح ﴿وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ﴾، وبيّن الله معنى الصديقة بقوله: ﴿وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ﴾ [التحريم: ١٢]

٢. ﴿كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ﴾، كل من افتقر إلى شيء أي شيء ولو إلى مكان أو زمان فهو مخلوق، لأن الافتقار وصف لازم له، ولا ينفك عنه بحال، وإلا كان خالقا غير مخلوق.. كما ان الغنى عن كل شيء وصف لازم للخالق، ومحال أن ينفك عنه، وإلا كان مخلوقا.. وبديهة أن من يأكل الطعام فهو في أشد الحاجة إليه.. إذن، هو مخلوق وليس بخالق.. وغريب أن تخفى هذه البديهة الواضحة على عاقل.

٣. ولهذا المنطق ونصاعته عقّب سبحانه على موقفهم بقوله ـ مستنكرا ـ ﴿انْظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ﴾، ومن هذه الآيات أن المسيح وأمه كانا يأكلان الطعام، فكيف يكونان إلهين؟

٤. ﴿ثُمَّ انْظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾، أي معرضين عن الحق مكذبين له تمردا وعنادا.

الطباطبائي:

ذكر محمد حسين الطباطبائي (ت ١٤٠٢ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[٢]:

١. ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إلا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ﴾ رد لقولهم: ﴿إِنَّ اللهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾ أو لقولهم هذا وقولهم المحكي في الآية السابقة: ﴿إِنَّ اللهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ جميعا، ومحصله اشتمال المسيح على جوهرة الألوهية، بأن المسيح لا يفارق سائر رسل الله الذين توفاهم الله من قبله كانوا بشرا مرسلين من غير أن يكونوا أربابا من دون الله سبحانه، وكذلك أمه مريم كانت صديقة تصدق بآيات الله تعالى وهي بشر، وقد كان هو وأمه جميعا يأكلان الطعام، وأكل الطعام مع ما يتعقبه مبني على أساس الحاجة التي هو أول أمارة من أمارات الإمكان والمصنوعية فقد كان المسيح عليه السلام ممكنا متولدا من ممكن، وعبدا ورسولا مخلوقا من أمه كانا يعبدان الله، ويجريان في سبيل الحاجة

---

(١) التفسير الكاشف: ٣/١٠٦.

(٢) الميزان في تفسير القرآن: ٦/٧٤.

والافتقار من دون أن يكون ربا.

٢. وما بيد القوم من كتب الإنجيل معترفة بذلك تصرح بكون مريم فتاة كانت تؤمن بالله وتعبده، وتصرح بأن عيسى تولد منها كالإنسان من الإنسان، وتصرح بأن عيسى كان رسولا من الله إلى الناس كسائر الرسل وتصرح بأن عيسى وأمه مريم كانا يأكلان الطعام، فهذه أمور صرحت بها الأناجيل، وهي حجج على كونه عليه السلام عبدا رسولا.

٣. ويمكن أن تكون الآية مسوقة لنفي ألوهية المسيح وأمه كليهما على ما يظهر من قوله تعالى: ﴿أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللهِ﴾ [المائدة: ١١٦] أنه كان هناك من يقول بألوهيتها كالمسيح أو أن المراد به اتخاذها إلها كما ينسب إلى أهل الكتاب أنهم اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله، وذلك بالخضوع لها ولهم بما لا يخضع لبشر بمثله.

٤. وكيف كان فالآية على هذا التقدير تنفي عن المسيح وأمه معا الألوهية بأن المسيح كان رسولا كسائر الرسل، وأمه كانت صديقة، وهما معا كانا يأكلان الطعام، وذلك كله ينافي الألوهية.

٥. وفي قوله تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ حيث وصف الرسل بالخلو من قبله، وهو الموت تأكيد للحجة بكونه بشرا يجوز عليه الموت والحياة كما جاز على الرسل من قبله.

٦. ﴿انْظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انْظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ الخطاب للنبي، ﷺ وهو في مقام التعجيب أي تعجب من كيفية بياننا لهم الآيات، وهو أوضح بيان لأظهر آية في بطلان دعواهم ألوهية المسيح، وكيفية صرفهم عن تعقل هذه الآيات؛ فإلى أي غاية يصرفون عنها، ولا تلتفت إلى نتيجتها ـ وهي بطلان دعواهم ـ عقولهم؟

الحوثي:

ذكر بدر الدّين الحوثي (ت ١٤٣١ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ أي فليس إلهاً وهذا قصر القلب، أي ما هو ﴿إِلَّا رَسُولٌ﴾ لا إله، وقوله: ﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ يحقق أن الرسالة لا تعني أنهم آلهة؛

(١) التيسير في التفسير: ٢/٣٥٦.

ولذلك خلوا أي مضوا من هذه الدنيا مع أنهم جاءوا بالآيات الدالة على صدقهم مثل ما جاء على يدي موسى وعصاه من الخوارق.

٢. ﴿وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ﴾ صدِّيقة، مصدّقة بكلمات الله وكتبه، أو كثيرة الصدق كما في الحديث الشريف: (عليكم بالصدق فإن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة، وإن الرجل ليصدق حتى يكتب عند الله صديقاً)، أو كما قال ﷺ.

٣. ﴿كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ﴾ وذلك دليل الحاجة والضعف المنافي للربوبية، قال الشرفي في (المصابيح): (وقال في (البرهان): هذا ردّ على اليهود والنصارى في قولهم إنه: ﴿ابْنُ اللهِ﴾ [التوبة:٣٠] ﴿وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ﴾ ردّ على اليهود في نسبتها إلى الفاحشة، والصديقة: المبالغة في صدقها ونفي الفاحشة عنها) يعنى أن قوله تعالى: ﴿كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ﴾ رد على النصارى في قولهم إنه ابن الله، وقوله تعالى: ﴿وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ﴾ رد على اليهود.

٤. قال الإمام القاسم عليه السلام في كتاب (الرد على النصارى): (وليس أحد من النصارى يثبت لمريم ما يثبت لابنها من الإلهية، بل كلهم يقول: إنها أمة من إماء الله محدثة غير قديمة ولا أزلية، وقد يلزمهم صاغرين فيها من إضافة الإلهية إليها ما قال الله تبارك وتعالى ـ ملزماً لهم ـ فيها) الخ، والقول المشار إليه قد نبّه عليه السلام عليه حيث قال عليه السلام: وفي ذلك ما يقول الله سبحانه لعيسى ـ صلوات الله عليه ورضوانه ـ فيما نزل من الكتاب في يوم البعث والحساب توقيفاً وتعريفاً لَه وللعباد، على أنه قد يجب للوالد في الذات ما يجب للأولاد وتوبيخاً لمن أفرده دون أمه في العبودية والإلهية وحالهما في الذات حال واحد مستوية فعبدوه عماية وجهلاً دونها وهم يعلمون أنه ابنها ومنها، ويوقنون ولا يشكون أن أباها أبوه فهي وآباؤها أولى منه بما أعطوه) إلى قوله عليه السلام: (إذ يقول لَه ـ صلى الله عليه ـ في ذلك عن غير ما سخطة ولا لوم ﴿يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِ وَأُمِّي إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللهِ قَالَ سُبْحَانَكَ﴾ الآية، إلى قوله تعالى: ﴿وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ مع بعض تفسير لغرض الاحتجاج على النصارى، فراجعه فإنه مفيد، وكلام (صاحب البرهان) هنا كأنه مبني على ما ذكره الإمام القاسم عليه السلام.

٥. ﴿انْظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انْظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ فتبيين الآيات لهم يبين عدل الله وحكمته وفضله ورحمته حيث لم يتركهم، مع أنهم لو استعملوا عقولهم لاهتدوا للصواب، وعلموا بطلان جعل

المسيح إلهاً ورباً ﴿ثُمَّ انْظُرْ﴾ بعد إكمال الحجة عليهم وقطع المعذرة ببيان الآيات ﴿أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ من أين يؤفكون، فإنك إذا نظرت وبحثت لم تجد لهم شبهة من شأنها إضلالهم وقلبهم من التوحيد إلى الشرك، وإنما هي خرافات مكذوبة على الأنبياء قبلوها بواسطة إهمالهم لعقولهم أو ما في كتبهم من المتشابه الذي جاء في أصحاب المسيح كما جاء فيه ولم يزعموا أن الحواريين أبناء الله كما زعموا في عيسى عليه السلام.

فضل الله:

ذكر محمد حسين فضل الله (ت ١٤٣١ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. تأتي بعد كل هذا الوعيد والإنذار والدعوة إلى التراجع، الصورة الحقيقية لعيسى ابن مريم عليه السّلام، ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ فهو رسول الله أرسله إلى عباده بعد فترة من خلو الساحة من الرسل ليتجدد به خط الرسالات وحركة الرسل.

٢. ﴿وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ﴾ صدقت الله بإيمانها وأخلصت لله في العبادة والموقف، وواجهت كل التحديات بروح المؤمنة الصادقة التقية، فلم يكن في عيسى عليه السّلام أي مظهر من مظاهر الألوهيّة أو أي سر من أسرارها، بل كانت آيات الله الظاهرة على يديه كالآيات الظاهرة على أيدي الرسل الذين سبقوه، من دون فرق إلا في الشكل تبعا للظروف الّتي تتنوع من خلالها المعجزة، ولم يكن في أمّه أيّ سر من أسرار القداسة الغيبية التي توحي بعبادتها من قبل الناس، بل كانت قداستها الروحية بإخلاصها لله وصدقها في إيمانها به كأية مؤمنة تقيّة أخرى ولكن بدرجة أكبر وقيمة أعلى لأن الله فضّلها على نساء العالمين.

٣. وقد ﴿كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ﴾، كما يأكله بقيّة البشر، في نوعيته وطريقته، فليس هناك أكل إلهي أو طريقة إلهيّة في الأكل، وذلك هو دليل المادية والحاجة والفاقة المنافية للألوهية، فكيف يؤلهون من هذا شأنه؟

٤. ﴿انْظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انْظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾، يكذبون ويتبعون الإفك من دون شعور بالمسؤوليّة في خط العقيدة والعمل ويستمر التساؤل ليؤكد الصورة، وليعمق الإحساس بالعبث فيما يمارسونه من شؤون الفكر.

---

(١) من وحي القرآن: ٢٨٧/٨.

الشيرازي:

ذكر ناصر مكارم الشيرازي في تفسير هذا المقطع ما يلي[1]:

١. تواصل هذه الآيات البحث الذي جاء في الآيات السابقة حول غلو المسيحيين في المسيح عليه السّلام واعتقادهم بألوهيته، فتفند في بضع آيات قصار اعتقادهم هذا، وتبدأ متسائلة عمّا وجدوه في المسيح من اختلاف عن باقي الأنبياء حتى راحوا يؤلهونه، فالمسيح ابن مريم قد بعثه الله كما بعث سائر الأنبياء من قبله: ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾، إذا كان بعثه من قبل الله سببا للتأليه والشرك، فلماذا لا تقولون القول نفسه بشأن سائر الأنبياء؟

٢. ولكنّنا نعلم أنّ المسيحيين المنحرفين لا يقنعون باعتبار عيسى عليه السّلام مجرّد مبعوث من الله، فاعتقادهم العام في الوقت الحاضر هو اعتباره ابن الله، وأنّه هو الله بمعنى من المعاني وأنّه جاء ليفتدي ذنوب البشر (ولم يأت لهدايتهم وقيادتهم) لذلك أطلقوا عليه اسم (الفادي) أي الذي افتدى بنفسه آثام البشر.

٣. ولمزيد من التوكيد، يقول: ﴿وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ﴾ أي أنّ من تكون له أمّ حملته في رحمها، ومن يكون محتاجا إلى كثير من الأمور، كيف يمكن أن يكون إلها!؟ ثمّ إذا كانت أمّه صديقة فذلك لأنّها هي ـ أيضا ـ على خط رسالة المسيح عليه السّلام، منسجمة معه، وتدافع عن رسالته، لهذا فقد كان عبدا من عباد الله المقربين، فينبغي ألّا يتخذ معبودا كما هو السائد بين المسيحيين الذين يخضعون أمام تمثاله إلى حدّ العبادة.

٤. ومرّة أخرى يشير القرآن إلى دليل آخر ينفي الربوبية عن المسيح عليه السّلام، فيقول: ﴿كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ﴾، فهذا الذي يحتاج إلى الطعام، ولو لم يتناول طعاما لعدّة أيّام يضعف عن الحركة، كيف يمكن أن يكون ربّا أو يقرن بالربّ!؟ وفي ختام الآية إشارة وضوح هذه الدلائل من جهة، وإلى عناد أولئك وجهلهم من جهة أخرى، فيقول: ﴿انْظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انْظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾

٥. تكرر كلمة (انظر) في الآية توجيه للنظر إلى جهتين: إلى الدلائل الواضحة الكافية لكل شخص، وإلى رد الفعل السلبي المحير المثير للعجب الصادر من هؤلاء.

(١) تفسير الأمثل: ٤/١١٣.

٦. ممّا يلفت النظر أنّ مسألة كون المسيح عليه السّلام بشرا ذا حاجات مادية جسمانية ـ وهي ما يستند إليها القرآن في هذه الآية وفي آيات أخرى ـ كانت من أكبر المعضلات بوجه المسيحيين الذين يدعون ألوهيته، فسعوا إلى تبرير ذلك بشتى الأساليب، حتى أنّهم اضطروا أحيانا إلى القول بثنائية المسيح: اللاهوت والناسوت، فهو من حيث لاهوتيته ابن الله، بل هو الله نفسه ومن حيث ناسوتيته فهو جسم ومخلوق من مخلوقات الله، وأمثال ذلك من التبريرات التي هي خير دلالة على ضعف منطقهم وخطله.

٧. لا بدّ من الالتفات ـ أيضا ـ أنّ الآية استعملت (ما) بمكان (من) والتي تشير عادة إلى غير العاقل، ولعل ذلك يفيد الشمول بالنسبة للمعبودات والأصنام المصنوعة من الحجر أو الخشب، فيكون المقصود هو أنّه إذا جاز أن يعبد الناس مخلوقا، جازت كذلك عبادتهم الأصنام، لأنّ هذه المعبودات تتساوى من حيث كونها جميعا مخلوقات، وأنّ تأليه المسيح عليه السّلام ضرب من عبادة الأصنام، لا عبادة الإله.

٧٢. العبادة والنفع والضر والغلو والضلال

نتناول في هذا الفصل ما ذكره المفسّرون ـ بحسب التسلسل التاريخي، والمدارس الإسلامية المختلفة ـ حول تفسير المقطع [٧٢] من سورة المائدة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهَّ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَاللهُّ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ [المائدة: ٧٦ ـ ٧٧]، مع العلم أنّا نقلنا المباحث التي لا علاقة لها ـ كبرى أو مباشرة ـ بالتفسير التحليلي إلى محالّها من كتب السلسلة.

مجاهد:

روي عن مجاهد (ت ١٠٤ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال: ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾، قال: ﴿ضَرًّا﴾: ضلالة[١].

٢. روي أنّه قال: ﴿وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾، قال: يهود[٢].

قتادة:

روي عن قتادة بن دعامة (ت ١١٧ هـ) أنّه قال: ﴿لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ﴾، يقول: لا تبتدعوا[٣].

السدي:

روي عن إسماعيل السدي الكوفي (ت ١٢٧ هـ) أنّه قال: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا﴾ فهم أولئك الذين ضلوا وأضلوا أتباعهم، ﴿وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾: عن عدل السبيل[٤].

الربيع:

روي عن الربيع بن أنس (ت ١٣٩ هـ) أنّه قال: قد كان قائم قام عليهم، فأخذ بالكتاب والسنة

---

(١) ابن أبي حاتم ٤/١١٨٠.

(٢) تفسير مجاهد ص ٣١٣.

(٣) ابن أبي حاتم ٤/١١٨٠.

(٤) ابن جرير ٨/٥٨٦.

زمانا، فأتاه الشيطان، فقال: إنما تركب أثرا وأمرا قد عمل به قبلك فلا تحمد عليه، ولكن ابتدع أمرا من قبل نفسك، وادع إليه، واجبر الناس عليه، ففعل، ثم ادكر من بعد فعله زمانا، فأراد أن يتوب، فخلع سلطانه وملكه، وأراد أن يتعبد، فلبث في عبادته أياما، فأتي، فقيل له: لو أنك تبت من خطيئة عملتها فيما بينك وبين ربك عسى أن يتاب عليك، ولكن ضل فلان وفلان في سبيلك حتى فارقوا الدنيا وهم على الضلالة، فكيف لك بهداهم!؟ فلا توبة لك أبدا، ففيه سمعنا وفي أشباهه هذه الآية: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾[1].

مقاتل:

روي عن مقاتل بن سليمان (ت ١٥٠ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال: ﴿قُلْ﴾ لنصارى نجران: ﴿أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ﴾ [المائدة: ٧٦] يعني: عيسى ﴿مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا﴾ في الدنيا، ﴿وَلَا نَفْعًا﴾ في الآخرة، ﴿وَاللهُ هُوَ السَّمِيعُ﴾ لقولهم: إن الله هو المسيح ابن مريم، وثالث ثلاثة، ﴿الْعَلِيمُ﴾ بمقالتهم[2].

٢. روي أنّه قال: نزلت في برصيصا[3].

٣. روي أنّه قال: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ﴾ يعني: نصارى نجران: ﴿لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ﴾ عن دين الإسلام، فتقولوا ﴿غَيْرَ الْحَقِّ﴾ في عيسى ابن مريم[4].

٤. روي أنّه قال: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا﴾ عن الهدى ﴿مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا﴾ عن الهدى ﴿كَثِيرًا﴾ من الناس، ﴿وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ يعني: وأخطأوا عن قصد سبل الهدى[5].

ابن زيد:

---

(١) ابن أبي حاتم ٤/١١٨٠.

(٢) تفسير مقاتل ابن سليمان ١/٤٩٥.

(٣) تفسير مقاتل ابن سليمان ١/٤٩٦.

(٤) تفسير مقاتل ابن سليمان ١/٤٩٦.

(٥) تفسير مقاتل ابن سليمان ١/٤٩٦.

روي عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم (ت ١٨٢ هـ) أنّه قال: ﴿لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ﴾ الغلو: فراق الحق، وكان مما غلوا فيه أن دعوا لله صاحبة وولدا[(١)].

الماتريدي:

ذكر أبو منصور الماتريدي (ت ٣٣٣ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(٢)]:

١. وقوله عز وجل: ﴿قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا﴾:

أ. إن خالفتموه ﴿وَلَا نَفْعًا﴾ إن أطعتموه.

ب. ويحتمل: قوله: ﴿مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا﴾ إن كان الله أراد بكم نفعًا، ولا نفعًا إن حل بكم الضر، أي: لا يملكون دفعه عنكم.

٢. وقوله عز وجل: ﴿وَاللهُ هُوَ السَّمِيعُ﴾:

أ. لنسبتكم عيسى إليه تعالى، ﴿الْعَلِيمُ﴾ بعبادتكم غير الله.

ب. ويحتمل: ﴿السَّمِيعُ﴾ المجيب لدعائكم، ﴿الْعَلِيمُ﴾ بنياتكم.

٣. وقوله عز وجل: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ﴾ خاطب الله عز وجل بالنهي عن الغلو في الدِّين أهل الكتاب، لم يخاطب أهل الشرك بذلك فيما خاطب بقوله: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللهِ إِلَّا الْحَقَّ﴾:

أ. وذلك أن أهل الكتاب ادعوا أنهم على دين الأنبياء والرسل الذين كانوا من قبل، فنهاهم الله عز وجل عن الغلو في الدِّين، والغلو: هو المجاوزة عن الحد الذي حد، والإفراط فيه والتعمق؛ فكأنه قال لا تجاوزوا في الدِّين الحد الذي حد فيه بنسبة الألوهية والربوبية إلى غير الله والعبادة له.

ب. وأما أهل الشرك: فإنهم يعبدون ما يستحسنون، ويتركون ما يستقبحون، ليس لهم دين يدينون به، وأما هَؤُلَاءِ: فإنهم يَدَّعُون أنهم على دين الأنبياء والرسل؛ لذلك خرج الخطاب لهم بذلك.

٤. وقوله عز وجل: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ﴾: يعني: الرؤساء بذلك، واللهّ أعلم.

٥. ﴿وَأَضَلُّوا كَثِيرًا﴾: أي: أتباعهم، ﴿وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾: أي: عن قصد طريق الهدى.

---

(١) ابن أبي حاتم ٤/١١٨٠.

(٢) تأويلات أهل السنة: ٣/٥٧٠.

الطوسي:

ذكر أبو جعفر الطوسي (ت ٤٦٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. ﴿قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَاللهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ أمر الله تعالى نبيه ﷺ أن يقول لهؤلاء النصارى الذين قالوا ﴿إِنَّ اللهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾: ﴿أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ أي توجهون عبادتكم إلى من لا يقدر على الضر والنفع، لأن القادر عليهما هو الله تعالى أو من يمكنه الله من ذلك، ولو جاز توجيه العبادة إلى المسيح الذي لا يملك ذلك لجاز توجيهها إلى الأصنام كما يقوله عباد الأصنام، وقد علمناك خلاف ذلك.

٢. والملك: هو القدرة على تصريف ما للقادر عليه أن يصرفه، فملك الضرر والنفع أخص من القدرة عليهما، لأن القادر عليهما قد يقدر من ذلك على ماله أن يفعل، وقد يقدر منه على ما ليس له أن يفعله، والنفع: هو فعل اللذة أو السرور أو ما أدى اليهما أو إلى واحد منهما مثل الملاذ التي تحصل في الحيوان، والصلة بالمال والوعد باللذة، فإن جميع ذلك نفع، لأنه يؤدي إلى اللذة، والضرر هو فعل الألم أو الغم أو ما أدى اليهما أو إلى واحد منهما كالآلام التي توجد في الحيوان والقذف والسب، لأن جميع ذلك يؤدي إلى الآلام والغضب ضرر لأنه من الأسباب المؤدية إلى الآلام.

٣. ﴿وَاللهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ قيل في معناه ها هنا قولان:

أ. أحدهما: أنه ذكر للاستدعاء إلى التوبة فهو يسمع قول العبد فيها وما يضمره منها.

ب. والآخر: التحذير من الجزاء بالسيئة، لأنه يعلم الأعمال ويسمع الاسرار والإعلان، وذلك دليل على ملك الجزاء بالثواب والعقاب.

﴿قُلْ يَا أهل الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ أمر الله تعالى نبيه ﷺ أن يخاطب أهل الكتاب:

أ. وهم النصارى ها هنا.

ب. وقال قوم: المراد به اليهود والنصارى، لأن اليهود أيضاً غلوا في تكذيب عيسى، ومحمد ﷺ

---

(١) تفسير الطوسي: ٣/٦٠٧.

ويقول لهم ﴿لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ﴾ ومعناه لا تتجاوزوا الحد الذي حده الله لكم إلى الازدياد، وضده التقصير وهو الخروج عن الحد إلى النقصان، والزيادة في الحد والنقصان معاً فساد أي ودين الله الذي أمر به هو بين الغلو، والتقصير، وهو الاقتصاد.

٤. ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ﴾ وقل لهم: لا تسلكوا سبيل الأوائل، لأن الاتباع هو سلوك الثاني طريقة الأول على وجه الاقتداء به وقد يتبع الثاني الأول في الحق وقد يتبعه في الباطل، وإنما يعلم أحدهما بدليل، والمراد ها هنا النهي عن اتباع سبيلهم الباطل.

٥. (الأهواء) ها هنا المذاهب التي تدعوا إليها الشهوة دون الحجة، لأن قد يستثقل النظر لما فيه من المشقة، ويميل طبعه إلى بعض المذاهب فيعتقده، وهو ضلال فيهلك به.

٦. ﴿قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ﴾ فيه قولان:

أ. قال الحسن، ومجاهد: هم اليهود.

ب. وقال أبو علي هم أسلافهم الذين هم رؤساء ضلالتهم الذين سنوا لهم هذا الكفر من الفريقين اليهود والنصارى.

٧. ﴿وَأَضَلُّوا كَثِيرًا﴾ يعني هؤلاء الذين ضلوا من قبل وأضلوا أيضاً كثيراً من الخلق، ونسب الإضلال اليهم، من حيث كان بدعائهم وإغوائهم.

٨. ﴿وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ قيل في معناه قولان:

أ. أحدهما: ضلوا باضلالهم غيرهم في قول الزجاج.

ب. الثاني: وضلوا من قبل، وضلوا من بعد، فلذلك كرر.

ج. وقيل ﴿ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ﴾ عن الهدى في الدنيا ﴿وَأَضَلُّوا كَثِيرًا﴾ عن طريق الجنة.

٩. و﴿سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ معناه مستقيم الطريق، والمعنى فيه الحق من الدين، لأنه يستقيم بصاحبه إلى الجنة، والخلود في النعيم، وقيل له: سواء لاستمراره على استواء.

الجشمي:

ذكر الحاكم الجشمي (ت ٤٩٤ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. شرح مختصر للكلمات:

أ. الغُلُوُّ: تجاوز الحد إلى الازدياد، ونقيضه التقصير، وهو الخروج عن الحد إلى النقصان، وكلاهما فاسدان، ودين الله بين الغلو والتقصير.

ب. الاتباع: طلب الثاني سلوك طريقة الأول.

ج. الأهواء: جمع هوى، وهو الذي تدعو إليه الشهوة دون الحُجَّةِ.

٢. زاد الله تعالى في الاحتجاج فقال: ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ﴾ أي سوى الله ﴿مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ أي لا يقدر لكم على نفع ولا ضر؛ لأن المستحق للعبادة إنما هو القادر على أصول النعم من النفع والضر، كالخلق والإحياء والرزق ونحو ذلك، وغير الله تعالى لا يقدر عليه، فلا يستحق غيره العبادة.

٣. ﴿وَاللهُ هُوَ السَّمِيعُ﴾ لأقوالكم ﴿الْعَلِيمُ﴾ بضمائركم:

أ. قيل: إنه استدعاء إلى التوبة.

ب. وقيل: تحذير من الجرائم.

٤. ثم دعاهم إلى الحق وترك الغلو، فقال تعالى: ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ﴾:

أ. قيل: الخطاب للنصارى لغلوهم في أمر المسيح.

ب. وقيل: لليهود والنصارى لغلوهم جميعًا، أما النصارى فيدعون أنه إله أو اتحد به الإله، واليهود تزعم أنه لغير رَشْدَة وأنه كذاب، عن أبي علي.

٥. ﴿لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ﴾ أي لا تجاوزوا الحد إلى الغلو، أو إلى التقصير فيفوتكم الحق، وخصهم بالنهي؛ لأنهم اختصوا بالغلو.

٦. ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ﴾ أي لا تقلدوا دين قوم اعتقدوا بالأهواء دون الحجج ﴿قَدْ ضَلُّوا﴾ في دينهم ﴿وَأَضَلُّوا﴾ غيرهم ﴿وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ أي الطريق المستقيم:

---

(١) التهذيب في التفسير: ٣/٣٧١.

أ. قيل: الَّذِينَ ضلوا عن الدين هم اليهود، عن الحسن ومجاهد.

ب. وقيل: ضلوا بكفرهم بعيسى، وأضلوا غيرهم، وضلوا بكفرهم بمحمد.

ج. وقيل: أسلافهم الَّذِينَ هم رؤساء الضلالة من الفريقين اليهود والنصارى، عن أبي علي.

٧. سؤال وإشكال: لم كرر ضلوا؟ والجواب:

أ. قيل: ضلوا وأضلوا فضلوا بإضلالهم غيرهم، عن الزجاج.

ب. وقيل: ضلوا من قبل وضلوا من بعد.

ج. وقيل: ضلوا عن الحق وضلوا عن طريق الجنة.

د. وقيل: لما اعترض قوله: ﴿وَأَضَلُّوا كَثِيرًا﴾ أعاد ضل لتتم الإبانة عن المراد.

هـ. وقيل: ضلوا بترك ما شرع لهم، وأضلوا بما شرعوا من الباطل.

٨. تدل الآية الكريمة على:

أ. أن غيره تعالى لا يستحق العبادة، وأنه لا يقدر على النفع والضر مطلقًا، كالموت والحياة، والسعة والإقتار، والإيجاد والإفناء.

ب. أن الغلو في الدين مذموم، والحق بين الغلو والتقصير، وأنت إذا فتشت المذاهب وجدت كلهم بين غال ومقصر، وأن الحق الذي بينهما ما يذهب إليه أهل التوحيد والعدل، فتفكر في مسألة مسألة، ولولا خشية الإطالة لذكرت ذلك مسألة مسألة.

ج. بطلان التقليد؛ لأنه اتباع الهوى.

الطَبِرسي:

ذكر الفضل الطَبِرسي (ت ٥٤٨ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. شرح مختصر للكلمات:

أ. الملك: القدرة على تصريف ما للقادر عليه أن يصرفه، فملك الضرر والنفع أخص من القدرة عليهما، لان القادر قد يقدر من ذلك على ما له أن يفعل، وقد يقدر منه على ما ليس له أن يفعله.

(١) تفسير الطبرسي: ٣/٣٥٣.

ب. النفع: هو فعل اللذة والسرور، أو ما أدى إليهما، أو إلى أحدهما، مثل الملاذ التي تحصل في الحيوان، والصلة بالمال، والوعد باللذة، فإن جميع ذلك نفع لأنه يؤدي إلى اللذة.

ج. الضرر: هو فعل الألم والغم، أو ما يؤدي إليهما، أو إلى واحد منهما، كالآلام التي توجد في الحيوان، وكالقذف والسب، لان جميع ذلك يؤدي إلى الألم.

د. الأهواء: جمع هوى النفس مقصور، لأنه مثل فعل وفعل جمعه أفعال.

٢. زاد تعالى في الاحتجاج عليهم فقال: ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ أي: أتوجهون عبادتكم إلى من لا يقدر لكم على النفع والضر، لان القادر عليهما هو الله، أو من يمكنه الله تعالى من ذلك، والمستحق للعبادة إنما هو القادر على أصول النعم، والنفع، والضر، والخلق، والاحياء، والرزق، ولا يقدر على ذلك غير الله، فلا يستحق العبادة سواه ﴿وَاللهُ هُوَ السَّمِيعُ﴾ لأقوالكم ﴿الْعَلِيمُ﴾ بضمائركم وفي هذا تحذير من الجزاء، واستدعاء إلى التوبة.

٣. ثم دعاهم إلى ترك الغلو فقال: ﴿قُلْ﴾:

أ. يا محمد للنصارى فإنهم المخاطبون هنا.

ب. وقال قوم: إنه خطاب لليهود والنصارى، لان اليهود غلوا أيضا في تكذيب عيسى ومحمد.

٤. ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ﴾ أي: لا تتجاوزوا الحد الذي حده الله لكم إلى الازدياد، وضده التقصير، وهو الخروج عن الحد إلى النقصان، والزيادة في الحد، والنقصان عنه، كلاهما فساد، ودين الله الذي أمر به هو بين الغلو والتقصير، وهو الاقتصار، ﴿غَيْرَ الْحَقِّ﴾ أي: مجاوزين الحق إلى الغلو وإلى التقصير، فيفوتكم الحق:

أ. من قال إن الخطاب لليهود والنصارى، فغلوا النصارى في عيسى: ادعاؤهم له الإلهية.

ب. وغلو اليهود فيه: تكذيبهم له، ونسبتهم إياه إلى أنه لغير رشدة.

٥. ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ﴾ قال ابن عباس: كل هوى ضلالة، يعني بالقوم الذين ضلوا من قبل رؤساء الضلالة من فريقي اليهود والنصارى.

٦. والآية خطاب للذين كانوا في عصر النبي ﷺ، نهوا أن يتبعوا أسلافهم فيما ابتدعوه بأهوائهم، وأن يقلدوهم فيما هووا:

أ. والأهواء ههنا المذاهب التي تدعو إليها الشهوة دون الحجة، لان الإنسان قد يستثقل النظر لما فيه من المشقة، ويميل طبعه إلى بعض المذاهب، فيعتقده، وهو ضلال، فيهلك به.

ب. والاتباع هو سلوك الثاني طريقة الأول على وجه الاقتداء به، وقد يتبع الثاني الأول في الحق، وقد يتبعه في الباطل، وإنما يعلم أحدهما بدليل.

٧. ﴿وَأَضَلُّوا كَثِيرًا﴾ يعني به هؤلاء الذين ضلوا عن الحق، أضلوا كثيرا من الخلق أيضا، ونسب الاضلال إليهم من حيث كان بدعائهم، وإغوائهم.

٨. ﴿وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ قيل في معناه قولان:

أ. أحدهما: إنهم ضلوا بإضلالهم غيرهم، عن الزجاج

ب. الثاني: إنهم ضلوا من قبل، بكفرهم بعيسى، وأضلوا غيرهم من بعد، بكفرهم بمحمد ﷺ، فلذلك كرر.

٩. معنى ﴿سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾: مستقيم الطريق، وقيل له سواء:

أ. لاستمراره على استواء.

ب. وقيل: لأنه يستقيم بصاحبه إلى الجنة والخلود في النعيم.

١٠. انتصاب ﴿غَيْرَ الْحَقِّ﴾ على وجهين:

أ. أحدهما: أن يكون على الحال من ﴿دِينِكُمْ﴾، فكأنه قال لا تغلوا في دينكم مخالفين للحق

ب. الثاني: أن يكون منصوبا على الاستثناء بمعنى لا تغلوا في دينكم إلا الحق، فيكون ﴿الْحَقُّ﴾ مستثنى من النهي عن الغلو فيه، بأن يجوز الغلو فيما هو حق على معنى اتباعه.

ابن الجوزي:

ذكر أبو الفرج بن الجوزي (ت ٥٩٧ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. ﴿قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ﴾ قال مقاتل: قل لنصارى نجران: أتعبدون من دون الله، يعني عيسى ما لا يملك لكم ضرّا في الدنيا، ولا نفعا في الآخرة، والله هو السّميع لقولهم: المسيح ابن الله، وثالث

---

(١) زاد المسير في علم التفسير: ١/٥٧٤.

ثلاثة، العليم بمقالتهم.

٢. ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ﴾ قال مقاتل: هم نصارى نجران، والمعنى: لا تغلوا في دينكم، فتقولوا غير الحقّ في عيسى، وقد بيّنّا معنى (الغلو) في آخر سورة (النّساء)

٣. ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ﴾ قال أبو سليمان: من قبل أن تضلّوا، وفيهم قولان:

أ. أحدهما: أنهم رؤساء الضّلالة من اليهود.

ب. الثاني: رؤساء اليهود والنّصارى، والآية خطاب للذين كانوا في عصر نبيّنا ﷺ نهوا أن يتّبعوا أسلافهم فيما ابتدعوه بأهوائهم.

الرَّازي:

ذكر الفخر الرازي (ت ٦٠٦ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[1]:

﴿قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَاللهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ هذا دليل آخر على فساد قول النصارى، وهو يحتمل أنواعا من الحجة:

أ. الأول: أن اليهود كانوا يعادونه ويقصدونه بالسوء، فما قدر على الإضرار بهم، وكان أنصاره وصحابته يحبونه فما قدر على إيصال نفع من منافع الدنيا إليهم، والعاجز عن الإضرار والنفع كيف يعقل أن يكون إلها.

ب. الثاني: أن مذهب النصارى أن اليهود صلبوه ومزقوا أضلاعه، ولما عطش وطلب الماء منهم صبوا الخل في منخريه، ومن كان في الضعف هكذا كيف يعقل أن يكون إلها.

ج. الثالث: أن إله العالم يجب أن يكون غنيا عن كل ما سواه، ويكون كل ما سواه محتاجا إليه، فلو كان عيسى كذلك لامتنع كونه مشغولا بعبادة الله تعالى، لأن الإله لا يعبد شيئا، إنما العبد هو الذي يعبد الإله، ولما عرف بالتواتر كونه كان مواظبا على الطاعات والعبادات علمنا أنه إنما كان يفعلها لكونه محتاجا في تحصيل المنافع ودفع المضار إلى غيره، ومن كان كذلك كيف يقدر على إيصال المنافع إلى العباد ودفع المضار عنهم، وإذا كان كذلك كان عبدا كسائر العبيد، وهذا هو عين الدليل الذي حكاه الله تعالى عن

(١) التفسير الكبير: ٤١١/١٢.

إبراهيم عليه السلام حيث قال لأبيه ﴿لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا﴾ [مريم: ٤٢]

١. ﴿وَاللهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ والمراد منه التهديد يعني سميع بكفرهم عليم بضمائرهم.

٢. ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ﴾، لما تكلم الله تعالى أولا: على أباطيل اليهود، ثم تكلم ثانيا: على أباطيل النصارى وأقام الدليل القاهر على بطلانها وفسادها، فعند ذلك خاطب مجموع الفريقين بهذا الخطاب فقال: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ﴾ والغلو نقيض التقصير، ومعناه الخروج عن الحد، وذلك لأن الحق بين طرفي الإفراط والتفريط، ودين الله بين الغلو والتقصير.

٣. ﴿غَيْرَ الْحَقِّ﴾ صفة المصدر، أي لا تغلوا في دينكم غلوا غير الحق، أي غلوا باطلا، لأن الغلو في الدين نوعان: غلو حق، وهو أن يبالغ في تقريره وتأكيده، وغلو باطل وهو أن يتكلف في تقرير الشبه وإخفاء الدلائل، وذلك الغلو هو أن اليهود لعنهم الله نسبوه إلى الزنا، وإلى أنه كذاب، والنصارى ادعوا فيه الإلهية.

٤. ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ الأهواء هاهنا المذاهب التي تدعو إليها الشهوة دون الحجة:

أ. قال الشعبي: ما ذكر الله لفظ الهوى في القرآن إلا ذمه، قال: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ﴾ [ص: ٢٦]، ﴿وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى﴾ [طه: ١٦]، ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى﴾ [النجم: ٣]، ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾ [الجاثية: ٢٣]

ب. قال أبو عبيدة: لم نجد الهوى يوضع إلا في موضع الشر، لا يقال: فلان يهوى الخير، إنما يقال: يريد الخير ويحبه.

ج. وقال بعضهم: الهوى إله يعبد من دون الله، وقيل: سمي الهوى هوى لأنه يهوي بصاحبه في النار، وأنشد في ذم الهوى:

إن الهوى لهو الهوان بعينه ... فإذا هويت فقد لقيت هوانا

د. وقال رجل لا بن عباس: الحمد لله الذي جعل هواي على هواك، فقال ابن عباس: كل هوى ضلالة.

٥. ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾:

أ. وصفهم الله تعالى بثلاث درجات في الضلال، فبين أنهم كانوا ضالين من قبل ثم ذكر أنهم كانوا مضلين لغيرهم، ثم ذكر أنهم استمروا على تلك الحالة حتى أنهم الآن ضالون كما كانوا، ولا نجد حالة أقرب إلى البعد من الله والقرب من عقاب الله تعالى من هذه الحالة، نعوذ بالله منها.

ب. ويحتمل أن يكون المراد: أنهم ضلوا وأضلوا، ثم ضلوا بسبب اعتقادهم في ذلك الإضلال أنه إرشاد إلى الحق، ويحتمل أن يكون المراد بالضلال الأول الضلال عن الدين، وبالضلال الثاني الضلال عن طريق الجنة.

القرطبي:

ذكر محمد بن أحمد القرطبي (ت ٦٧١ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. ﴿قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ الله مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ زيادة في البيان وإقامة حجة عليهم، أي أنتم مقرون أن عيسى كان جنينا في بطن أمه، لا يملك لأحد ضرا ولا نفعا وإذ أقررتم أن عيسى كان في حال من الأحوال لا يسمع ولا يبصر ولا يعلم ولا ينفع ولا يضر، فكيف اتخذتموه إلها؟

٢. ﴿وَاللهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ أي لم يزل سميعا عليما يملك الضر والنفع، ومن كانت هذه صفته فهو الاله على الحقيقة.

٣. ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ﴾ أي لا تفرطوا كما أفرطت اليهود والنصارى في عيسى، غلو اليهود قولهم في عيسى، ليس ولد رشدة، وغلو النصارى قولهم: إنه إله، والغلو مجاوزة الحد، وقد تقدم في النساء بيانه.

٤. ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ﴾ الأهواء جمع هوى وقد تقدم في البقرة)، وسمي الهوى هوى لأنه يهوي بصاحبه في النار، ﴿قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ﴾ قال مجاهد والحسن: يعني اليهود، ﴿وَأَضَلُّوا كَثِيرًا﴾ أي أضلوا كثيرا من الناس، ﴿وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ أي عن قصد طريق محمد ﷺ، وتكرير ضلوا على معنى أنهم ضلوا من قبل وضلوا من بعد، والمراد الأسلاف الذين سنوا الضلالة وعملوا بها من رؤساء اليهود والنصارى.

---

(١) تفسير القرطبي: ٦/٢٥١.

الشوكاني:

ذكر محمد بن علي الشوكاني (ت ١٢٥٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. أمر الله سبحانه رسوله ﷺ أن يقول لهم هذا القول إلزاما لهم وقطعا لشبهتهم؛ أي أتعبدون من دون الله متجاوزين إياه ما لا يملك لكم ضرّا ولا نفعا؟ بل هو عبد مأمور، وما جرى على يده من النفع، أو دفع من الضر، فهو بإقدار الله له وتمكينه منه، وأما هو، فهو يعجز عن أن يملك لنفسه شيئا من ذلك فضلا عن أن يملكه لغيره، ومن كان لا ينفع ولا يضرّ فكيف تتخذونه إلها وتعبدونه، وأي سبب يقتضي ذلك؟ والمراد هنا المسيح عليه السلام، وقدّم سبحانه الضرّ على النفع لأنّ دفع المفاسد أهمّ من جلب المصالح.

٢. ﴿وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ أي كيف تعبدون ما لا يملك لكم ضرّا ولا نفعا، والحال أن الله هو السّميع العليم، ومن كان كذلك فهو القادر على الضرّ والنفع لإحاطته بكل مسموع ومعلوم، ومن جملة ذلك مضارّكم ومنافعكم.

٣. ﴿لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ﴾ لما أبطل سبحانه جميع ما تعلّقوا به من الشبه الباطلة نهاهم عن الغلوّ في دينهم وهو المجاوزة للحد كإثبات الإلهية لعيسى، كما يقوله النصارى، أو حطّه عن مرتبته العلية كما يقوله اليهود فإن كل ذلك من الغلوّ المذموم وسلوك طريقة الإفراط أو التفريط واختيارهما على طريق الصواب.

٤. ﴿غَيْرَ﴾ منصوب على أنه نعت لمصدر محذوف: أي غلوّا غير غلوّ الحق، وأما الغلوّ في الحق بإبلاغ كلية الجهد في البحث عنه واستخراج حقائقه فليس بمذموم؛ وقيل: إن النصب على الاستثناء المتصل؛ وقيل: على المنقطع.

٥. ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ﴾ وهم أسلاف أهل الكتاب من طائفتي اليهود والنصارى: أي قبل البعثة المحمدية على صاحبها أفضل الصلاة والتسليم.

٦. ﴿وَأَضَلُّوا كَثِيرًا﴾ من الناس ﴿وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ أي عن قصدهم طريق محمد ﷺ بعد البعثة، والمراد أن أسلافهم ضلوا من قبل البعثة وأضلوا كثيرا من الناس إذ ذاك، وضلوا من بعد البعثة،

---

(١) فتح القدير: ٢/٧٧.

إما بأنفسهم، أو جعل ضلال من أضلّوه ضلالا لهم لكونهم سنوا لهم ذلك ونهجوه لهم؛ وقيل: المراد بالأول كفرهم بما يقتضيه العقل، وبالثاني كفرهم بما يقتضيه الشرع.

أَطَّفِّيش:

ذكر محمد أَطَّفِّيش (ت ١٣٣٢ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[1]:

١. ﴿قُلَ اتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا﴾ أي: دفع ضرٍّ ﴿وَلَا نَفْعًا﴾ في أبدانكم وأموالكم وأعراضكم من الجمادات والحيوانات فيقولوا لك: لا، فتقول: إنَّ عيسى لا يملك لكم ضرًّا ولا نفعًا كتلك الجمادات والحيوانات، فكيف يُعبد؟ أو (مَا) واقعةٌ على عيسى، أو عليه وعلى أمِّه باعتبار النوع أو باعتبار الشبه بنحو الفرس، أو باعتبار تغليب الصليب تأكيدًا في نفي الإِلِهيَّة، وقد قيل ـ على بُعدٍ ـ إنَّ المراد بـ (مَا): الصليب، أو باعتبار أنَّ أوّل أحوالها لا يوصف بعقل ولا بفضل، فهل يمنعكم أحدهما من موت أو مرض أو فقر أو ما تكرهون؟ فاعبدوا الذي يفعل ذلك بكم قهرًا وعدلاً، ويفعل لكم النفع الدينيَّ والدنيويَّ والأخرويَّ، وقدَّم الضُّر لأنَّ دفعه أهمُّ، وقد يقدَّم النفع لأنَّ النفس أميل إليه طبعًا.

٢. ﴿وَاللهُ هُوَ السَّمِيعُ﴾ لأقوالكم وأقوال غيركم ﴿الْعَلِيمُ﴾ بأحوالكم وأحوال غيركم، فيجازيكم، فهو أهلٌ للأُلوهية، وغَيْرُه إن ضرَّ أو نَفَعَ فبتمليك الله تعالى لا من ذاته.

٣. ﴿قُلْ يَآ أَهْلَ الْكِتَابِ﴾ يا أهل الإنجيل، بدليل قوله: ﴿لَا تَغْلُواْ فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ﴾ فإنَّ الغلوَّ الدفعُ بما لا يثبت، كما سمَّوا عيسى عليه السلام إلهًا أو ابنَ إله، أو أهلُ الكتاب: اليهودُ والنصارى؛ لأنَّ اليهود غلوا في عزير إذ سمَّوه ابن الله، وَلأَنَّ الغلوَّ يجوز إطلاقه عَلَى المبالغة في الذمِّ أَيضًا، فَإِنَّهُمْ ـ لعنهم الله ـ نسبوا مريم للزنى وابنَها لبنوَّة الزنى بهتانًا عظيمًا، و(غَيْرَ) مفعول مطلق، أي: غَلَوْا غَيْرَ الحقِّ، أي: غُلوًّا باطلاً، ويطلق الغلوُّ على المبالغة في الشيء ولو حلالاً، كالتعمُّق في مسائل علم الكلام على الوجه الحقِّ فإنَّه غلوٌّ، وعلى وجهٍ باطلٍ غلوٌّ أيضًا.

٤. ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَد ضَلُّواْ مِن قَبْلُ﴾ من قبلكم أو قبل بعث النبيء ﷺ، والمأصدق واحد، من أسلافكم القائلين ببنوَّة عيسى لله، أو أُلُوهِيَّته وأُلُوهِيَّة مريم، وبِدَعِهم في التوحيد، وبدعِ اليهود

---

(١) تيسير التفسير، أطفيش: ٤/١٠٠.

في التوحيد كالتجسيم ودعوى بنوَّة عزير، والإنكارِ على موسى في بعض الأحيان، وسائرِ بدعهم في التوحيد.

٥. ﴿وَأَضَلُّواْ كَثِيرًا﴾ من الناس في التوحيد وغيره ﴿وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ السَّبِيلِ﴾ عن سائر دينهم، أو عن القرآن، وعلى الوجهين تغاير الضلال الأَوَّل، وهذا أو الأوَّل عن أدلَّة العقل، وهذا عمَّا جاء به الوحي، أو الأوَّل الضلال بالغلوِّ، الثاني الضلال عن دينهم الواضح، وخروجهم عنه بالكُلِّيَّةِ، وقال الزجَّاج: الضلال الأخير ضلالُهم بإضلالهم غيرهم، كقوله تعالى: ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنَ اَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [النحل: ٢٥]، وقيل: واو (ضَلُّوا) عائد إلى (كَثِيرًا)

القاسمي:

ذكر جمال الدين القاسمي (ت ١٣٣٢ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. ﴿قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ هذا دليل آخر على فساد قول النصارى، والموصول كناية عن عيسى وأمه، أي: لا يستطيعان أن يضراكم بمثل ما يضركم به الله من البلايا والمصائب في الأنفس والأموال، ولا أن ينفعاكم بمثل ما ينفعكم به من صحة الأبدان والسعة والخصب، ولأن كل ما يستطيعه البشر من المضار والمنافع، فبإقدار الله وتمكينه، فكأنهما لا يملكان منه شيئا.

٢. وإيثار (ما) على (من) لتحقيق ما هو المراد من كونهما بمعزل من الألوهية رأسا، ببيان انتظامهما في سلك الأشياء التي لا قدرة لها على شيء أصلا؛ أي: وصفة الرب أن يكون قادرا على كل شيء لا يخرج مقدور عن قدرته.

٣. وإنما قدم (الضر) لأن التحرز عنه أهم من تحري النفع، ﴿وَاللهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ بالأقوال والعقائد، فيجازي عليها إن خيرا فخير وإن شرا فشر، فهو وعد ووعيد.

٤. جعل ابن كثير الخطاب في قوله تعالى: ﴿أَتَعْبُدُونَ﴾ عامّا للنصارى وغيرهم، أي قل لهؤلاء العابدين غير الله من سائر فرق بني آدم، وفي (تنوير المقباس) أن (ما) عبارة عن الأصنام خاصة، وكلاهما مما يأباه السباق والسياق.

---

(١) تفسير القاسمي: ٤/٢١٨.

٥. قال في (فتح البيان): إذا كان هذا في حق عيسى النبيّ، فما ظنك بوليّ من الأولياء؟ فإنه أولى بذلك.

٦. جعل أكثر المفسرين (ما) كناية عن عيسى عليه السلام فقط، والمقام أنها كناية عنه وعن أمه عليهما السلام، كما أوضحه المهايميّ واعتمدناه.

٧. دلت الآية الكريمة على جواز الحجاج في الدين؛ فإن كان مع الكفار وأهل البدع، فذلك ظاهر الجواز؛ وإن كان مع المؤمن جاز بشرط أن يقصد إرشاده إلى الحق، لا إن قصد العلوّ فمحظور، وحكي عن الشافعيّ أنه كان إذا جادل أحدا قال اللهم! ألق الحق على لسانه، أفاده بعض الزيدية.

٨. ولما أقام تعالى الأدلة القاهرة على بطلان ما تقوله النصارى، أرشدهم إلى اتباع الحق ومجانبة الغلوّ الباطل، بقوله سبحانه: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ﴾ أي: الذي هو ميزان العدل ﴿لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ﴾ أي: لا تتجاوزوا الحد في تعظيم عيسى وأمه، وترفعوهما عن رتبتهما إلى ما تقوّلتم عليهما من العظيمة، فأدخلتم في دينكم اعتقادا غير الحق بلا دليل عليه، مع تظاهر الأدلة على خلافه، ونصب (غير) على أنه صفة لمصدر محذوف، أي: غلوّا غير الحق، يعني غلّوا باطلا، أو حال من ضمير الفاعل أي: مجاوزين الحق، و(الغلو) نقيض التقصير، ومعناه الخروج عن الحد؛ وذلك لأن الحق بين طرفي الإفراط والتفريط، ودين الله بين الغلو والتقصير.

٩. دلت الآية الكريمة على أن الغلوّ في الدين غلوّان: (غلوّ حق) كأن يفحص عن حقائقه ويفتش عن أباعد معانيه ويجتهد في تحصيل حججه؛ و(غلوّ باطل) وهو أن يتجاوز الحق ويتخطاه بالإعراض عن الأدلة واتباع الشبه.

١٠. قال بعض الزيدية: دلت الآية الكريمة على أن الغلوّ في الدين لا يجوز، وهو المجاوزة للحق إلى الباطل، ومن هذا، الغلوّ في الطهارة مع كثير من الناس، بالزيادة على ما ورد به الشرع لغير موجب.

١١. ومن هذا القبيل الغلوّ في تعظيم الصالحين وقبورهم حتى يصيّرها كالأوثان التي كانت تعبد، روى أحمد والنسائيّ وابن ماجة والحاكم عن ابن عباس، أن النبيّ ﷺ قال إيّاكم والغلوّ في الدين، فإنما هلك من كان قبلكم بالغلوّ في الدين، وعن عمر؛ أن رسول الله ﷺ قال لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم، إنما أنا عبد، فقولوا: عبد الله ورسوله، أخرجاه، ولمسلم عن ابن مسعود؛ أن رسول الله ﷺ قال هلك

المتنطّعون! قالها ثلاثا

١٢. ثم نهاهم تعالى عن اتباع سلفهم وأئمتهم الضالين بقوله سبحانه: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا﴾ قال المهايميّ: أي: تقليدا ﴿أَهْوَاءَ قَوْمٍ﴾ تمسّكوا بخوارقهما على إلهيتهما، فإن نظروا إلى سبقهم فغايتهم أنهم ﴿قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ و﴾إلى كثرة أتباعهم فغايتهم أنهم ﴿أَضَلُّوا كَثِيرًا﴾ ممن شايعهم على التثليث ﴿و﴾إلى تمسّكهم بمتشابهات الإنجيل، فغايتهم أنهم ﴿ضَلُّوا عَنْ سَواءِ السَّبِيلِ﴾ إذ لم يردّوها إلى المحكمات.

١٣. دلت الآية الكريمة على أن ما لهؤلاء الكفرة من الأباطيل ـ مع مخالفتها للعقول ومزاحمتها للأصول ـ لا مستند ولا معول لهم فيها غير التقليد لأسلافهم الضالّين، الذين أحدثوا القول بالتثليث بعد نحو ثلاثمائة سنة من رفع المسيح عليه السلام، وقرروه في تعاليمهم بعد جدال واضطراب، وتمسّكوا في ذلك، بظواهر الألفاظ التي لا يحيطون بها علما، مما لا أصل له في شرع الإنجيل، ولا مأخوذ من قول المسيح ولا من أقوال حواريّيه، وهو مع ذلك مضطرب متناقض متهافت، يكذب بعضه بعضا، ويعارضه ويناقضه، كما تبيّن من الكتب المصنفة في الردّ عليهم.

١٤. جاء في (تنوير المقباس): إن المراد بـ (أهل الكتاب) هنا: نصارى نجران الذين قدموا على رسول الله ﷺ، وبقوله: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ﴾ العاقب والسيد، الأول: كما قال ابن إسحاق ـ كان أمير القوم وذا رأيهم، والثاني صاحب رحلهم ومجتمعهم، والأظهر أن المعني بـ (أهل الكتاب) عموم النصارى، والمذكورون يدخلون فيه دخولا أوليّا.

١٥. ذكر كثير من المفسّرين: أن المراد بـ (أهل الكتاب) هنا: اليهود والنصارى، وأن كليهما غلا في عيسى عليه السلام: أما غلوّ اليهود فالتقصير في حقه حتى نسبوه إلى غير رشدة، وأما غلوّ النصارى فمعلوم، وأن الخطاب في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ﴾ لليهود والنصارى الذين كانوا في زمان رسول الله ﷺ، نهوا عن اتباع أسلافهم فيما ابتدعوه من الضلالة بأهوائهم.

١٦. وظاهر أنّ ما نسب للفريقين ـ من الغلوّ والابتداع ـ مسلّم، بيد أن الأقرب للسباق الداحض لشبهات النصارى، أن تكون هذه الآية فيهم زجرا لهم عمّا سلكوه، إثر إبطاله بالبراهين الدامغة، على أن الغلوّ ألصق بالنصارى منه باليهود، كما لا يخفى.

رضا:

ذكر محمد رشيد رضا (ت ١٣٥٤هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[1]:

١. أقام الله تعالى البرهان من حال المسيح وأمه على بطلان كونه إلها، وبين ما يشاركان به أشرف البشر من المزية الخاصة، وما يشاركان به سائر البشر من صفاتهم العامة، وقفى على ذلك بالتعجيب من بعد التفاوت ما بين قوة الآيات حججهم بها، بها، وشدة انصرافهم عنها، ثم لقن نبيه حجة أخرى يوردها في سياق الإنكار عليهم وتبكيتهم على عبادة ما لا فائدة في عبادته فقال: ﴿قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ أي قل أيها الرسول لهؤلاء النصارى وأمثالهم الذين عبدوا غير الله: أتعبدون من دون الله ـ أي متجاوزين عبادة الله وحده ـ ما لا يملك لكم ضرا تخشون أن يعاقبكم به إذا تركتم عبادته، وترجون أن يدفعه عنكم إذا أنتم عبدتموهم، ولا يملك لكم نفعا ترجون أن يجزيكم به إذا عبدتموه، وتخافون أن يمنعه عنكم إذا كفرتموه؟ ﴿وَاللهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ أي والحال إن الله تعالى هو السميع لأدعيتكم وسائر أقوالكم، العليم بحاجاتكم وسائر أحوالكم، فلا ينبغي لكم أن تدعوا غيره، ولا أن تعبدوا سواه.

٢. ولما كان قول النصارى في المسيح من أشد الغلو في الدين، بتعظيم الأنبياء فوق ما يجب، وكان إيذاء اليهود له وسعيهم لقتله، من الغلو في الجمود على تقاليد الدين الصورية، واتباع الهوى فيه، وكان هذا الغلو هو الحامل لهم على قتل زكريا ويحيى وشيعا قال تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ الغلو الإفراط وتجاوز الحد في الأمر ـ فإن كان في الدين فهو تجاوز حد الوحي المنزل إلى ما تهوى الأنفس، كجعل الأنبياء الصالحين أربابا ينفعون بسلطة غيبية لهم فوق سنن الله في الأسباب والمسببات الكسبية، واتخاذهم لأجل ذلك آلهة يعبدون فيدعون من دون الله تعالى أو مع الله تعالى، سواء أطلق عليهم لقب الرب والإله كما فعلت النصارى أم لا، وكشرع عبادات لم يأذن بها الله، وتحريم ما لم يحرم الله، كالطيبات التي حرمها القسوس والرهبان على أنفسهم وعلى من اتبعهم، مبالغة في التنسك، سواء كان ذلك لوجه، أم كان رياء وسمعة ـ نهى الله تعالى أهل الكتاب الذين كانوا في عصر نزول القرآن عن هذا الغلو الذي كان عليه من

---

(١) تفسير المنار: ٦/٤٠٤.

قبلهم من أهل ملتهم، وعن التقليد الذي كان سبب ضلالتهم، فذكرهم بأن الذين كانوا قبلكم قد ضلوا باتباع أهوائهم في الدين، وعدم اتباعهم فيه سنة الرسل والنبيين، والصالحين من الحواريين، فكل أولئك كانوا موحدين، ولم يكونوا مفرطين ولا مفرَّطين، وإنها كانوا للشرك والغلو في الدين منكرين، فهذا التثليث وهذه الطقوس الكنسية الشديدة المستحدثة من بعدهم، ابتدعها قوم اتبعوا أهواءهم، فضلوا بها وأضلوا بها وأضلوا كثيرا ممن اتبعهم في بدعهم وضلالهم.

٣. وأما الضلال الثاني التي ختمت به الآية فقد فسر بإعراضهم عن الإسلام، كما فسر الضلال الأول بما كان قبل الإسلام، فالإسلام هو سواء السبيل، أي وسطه الذي لا غلو فيه ولا تفريط، لتحتيمه الاتباع، وتحريمه الابتداع والتقليد، ويجوز أن يكون الضلال الأول ضلال الابتداع والزيادة في الدين، والضلال الثاني جهل حقيقة الدين وجوهره، وكونه وسطا بين أطراف مذمومة، كالتوحيد بين الشرك والتعطيل، واتباع الوحي بين الابتداع والتقليد، والسخاء بين البخل والتقتير، الخ.

المراغي:

ذكر أحمد بن مصطفى المراغي (ت ١٣٧١ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. ﴿قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِّ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ أي قل أيها الرسول لهؤلاء النصارى وأمثالهم ممن عبدوا غير الله ـ أتعبدون من دونه أي متجاوزين عبادته وحده ـ ما لا يملك لكم ضرا تخشونه أن يعاقبكم به إذا أنتم تركتم عبادته، ولا يملك لكم نفعا ترجون أن يجزيكم به إذا عبدتموه؟ وفى هذا إيماء إلى دحض مقالتهم بالحجة والدليل فإن اليهود، وقد كانوا يعادون المسيح ويقصدونه بالسوء لم يقدر على الإضرار بهم، وأنصاره وصحابته مع شديد محبتهم له لم يستطع إيصال نفع من منافع الدنيا إليهم، والعاجز عن الضر والنفع كيف يعقل أن يكون إلها؟

٢. وإذا كان قول النصارى في المسيح من أشد أنواع الغلوّ في الدين بتعظيم الأنبياء فوق ما يجب أن يكون لهم من التعظيم وكان إيذاء اليهود له وسعيهم في قتله من الغلو في الجمود على تقاليد الدين التي ابتدعوها واتباع أهوائهم بلا علم، وكان هذا الغلوّ هو الذي دعاهم إلى قتل زكريا واشعيا قال تعالى: ﴿يَا

---

(١) تفسير المراغي: ١٧٠/٦

أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ سواء السبيل: وسطه الذي لا غلوّ فيه ولا تفريط وهو الإسلام، وضلالهم: ترك شريعتهم واتباعهم الأهواء الفاسدة الموافقة لشهوات النفوس الجامحة بها إلى الحصول على اللذات والإعراض عن الدين جانبا، وضلالهم عنه هو: إعراضهم عن اتباعه.

٣. نهى سبحانه أهل الكتاب الذين كانوا في عصر التنزيل عن الغلوّ الذي كان عليه من قبلهم من أهل ملتهم، وعن التقليد الذي كان سبب ضلالهم، إذ هم قد اتبعوا أهواءهم وتركوا سنن الرسل والنبيين والصالحين من قبلهم، لأن كل أولئك كانوا موحدين وكانوا ينكرون الشرك والغلو في الدين، فعقيدة التثليث وتلك الشعائر الكنسية المستحدثة من بعدهم كشرع عبادات لم يأذن بها الله، وتحريم ما لم يحرمه الله من الطيبات بل حرمها القسيسون والرهبان على أنفسهم وعلى من اتبعهم، مبالغة في التنسك والزهد أو رياء وسمعة، وجعل الأنبياء والصالحين أربابا ينفعون ويضرون بسلطة غيبية لهم فوق سنن الله في الأسباب والمسببات الكسبية، ولذا جعلوهم آلهة يعبدون من دون الله أو مع الله، كل أولئك قد ضلوا به وأضلوا كثيرا ممن اتبعهم فيه وسيكون سبب شقائهم وعذابهم في الآخرة إن لم يرجعوا عنه وينيبوا إلى الله منه.

سيّد:

ذكر سيّد قطب (ت ١٣٨٥ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. استطرادا في ذلك المنطق القرآني المبين من زاوية أخرى يجيء هذا الاستنكار: ﴿قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ الله ما لا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا ولا نَفْعاً والله هُوَالسَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾؟.

٢. ويختار التعبير بكلمة (بما) بدل كلمة (من) في هذا الموضع قصدا، ليدرج (المخلوقات) التي تعبد كلها ـ بما فيها من العقلاء ـ في سلك واحد، لأنه يشير إلى ماهيتها المخلوقة الحادثة البعيدة عن حقيقة الألوهية، فيدخل عيسى، ويدخل روح القدس، وتدخل مريم، كلهم في (ما) لأنهم بماهيتهم من خلق الله، ويلقي هذا التعبير ظله كذلك في هذا المقام؛ فيبعد أن يكون أحد من خلق الله مستحقا للعبادة؛ وهو لا يملك لهم ضرا ولا نفعا: ﴿وَالله هُوَالسَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾.. الذي يسمع ويعلم؛ ومن ثم يضر وينفع، كما أنه هو

---

(١) في ظلال القرآن: ٢/٩٤٧.

الذي يسمع دعاء عبيده وعبادتهم إياه، ويعلم ما تكنه صدورهم وما يكمن وراء الدعاء والعبادة.. فأما ما سواه فلا يسمع ولا يعلم ولا يستجيب الدعاء..

٣. وينهي هذا كله بدعوة جامعة، يكلف رسول الله ﷺ أن يواجهها إلى أهل الكتاب: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾، فمن الغلو في تعظيم عيسى عليه السلام جاءت كل الانحرافات، ومن أهواء الحكام الرومان الذين دخلوا النصرانية بوثنيتهم، ومن أهواء المجامع المتناحرة كذلك دخلت كل تلك المقولات على دين الله الذي أرسل به المسيح، فبلغه بأمانة الرسول، وهو يقول لهم: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾

٤. وهذا النداء الجديد هو دعوة الإنقاذ الأخيرة لأهل الكتاب؛ ليخرجوا بها من خضم الانحرافات والاختلافات والأهواء والشهوات الذي خاض فيه أولئك الذين ضلوا من قبل وأضلوا كثيرا وضلوا عن سواء السبيل..

٥. ونقف من هذا المقطع الذي انتهى بهذا النداء أمام ثلاث حقائق كبيرة، يحسن الإلمام بها في إجمال:

أ. الحقيقة الأولى: هي حقيقة هذا الجهد الكبير، الذي يبذله المنهج الإسلامي، لتصحيح التصور الاعتقادي، وإقامته على قاعدة التوحيد المطلقة؛ وتنقيته من شوائب الوثنية والشرك التي أفسدت عقائد أهل الكتاب، وتعريف الناس بحقيقة الألوهية؛ وإفراد الله سبحانه بخصائصها، وتجريد البشر وسائر الخلائق من هذه الخصائص.. وهذا الاهتمام البالغ بتصحيح التصور الاعتقادي، وإقامته على قاعدة التوحيد الكامل الحاسم، يدل على أهمية هذا التصحيح، وأهمية التصور الاعتقادي في بناء الحياة الإنسانية وفي صلاحها، كما يدل على اعتبار الإسلام للعقيدة بوصفها القاعدة والمحور لكل نشاط إنساني، ولكل ارتباط إنساني كذلك.

ب. والحقيقة الثانية: هي تصريح القرآن الكريم بكفر الذين قالوا: إن الله هو المسيح ابن مريم؛ أو قالوا: إن الله ثالث ثلاثة: فلم يعد لمسلم ـ بعد قول الله سبحانه قول، ولم يعد يحق لمسلم أن يعتبر أن هؤلاء على دين الله، والله سبحانه يقول: إنهم كفروا بسبب هذه المقولات، وإذا كان الإسلام ـ كما قلنا ـ لا يكره

أحدا على ترك ما هو عليه مما يعتقده لاعتناق الإسلام، فهو في الوقت ذاته لا يسمي ما عليه غير المسلمين دينا يرضاه الله، بل يصرح هنا بأنه كفر ولن يكون الكفر دينا يرضاه الله.

ج. والحقيقة الثالثة: المترتبة على هاتين الحقيقتين، أنه لا يمكن قيام ولاء وتناصر بين أحد من أهل الكتاب هؤلاء وبين المسلم الذي يدين بوحدانية الله كما جاء بها الإسلام، ويعتقد بأن الإسلام في صورته التي جاء بها محمد ﷺ هو وحده (الدين) عند الله.

٦. ومن ثم يصبح الكلام عن التناصر بين أهل (الأديان) أمام الإلحاد كلاما لا مفهوم له في اعتبار الإسلام! فمتى اختلفت المعتقدات على هذا النحو الفاصل، لم يعد هناك مجال للالتقاء على ما سواها، فكل شيء في الحياة يقوم أولا على أساس العقيدة.. في اعتبار الإسلام.

الخطيب:

ذكر عبد الكريم الخطيب (ت ١٣٩٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. ﴿قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ هو تسفيه لعقول أولئك الذين يعبدون من دون الله أربابا من حيوان أو جماد، ثم يرجون عندها النفع والضرّ، وهي في قيد العجز، لا تملك من أمر وجودها شيئا، فكيف يكون لها في هذا الوجود سلطان على العباد؟ ذلك هو الضلال البعيد، والبلاء المبين.. وقد اتخذ المسيحيون المسيح إلها، وأضافوا إليه أنفسهم، بل أضافوا إليه الوجود كلّه.. وما فكّروا أن ﴿الْمَسِيحُ﴾ عيسى بن مريم مخلوق عاجز ضعيف أمام قدرة الله وسلطان الله..

٢. لقد كان المسيح جنينا في أحشاء أمّه تسعة أشهر، ثم ولد طفلا، ترضعه أمه وتغذوه، وتحمله قبل أن تحمله رجلاه، أفهذا يكون إلها يملك الضرّ والنفع، ويدبّر أمر السموات والأرض؟ ذلك ما لا يقبله عقل، ولو كان به مسّ أو خبل!.. إذ أن مسافة الخلف بين الإله والإنسان أوسع من أن يملأها تصوّر، أو يصل بين طرفيها خيال.

٣. وفي تقديم الضرّ على النفع، هو مما يجرى مع طبيعة الإنسان، ويلتقى مع مطالبه ـ فدفع الضرّ مقدّم عند الكائن الحيّ على جلب النفع.. إذ أن الكائن الحيّ يطلب السلام لنفسه أولا، كي يضمن وجوده

(١) التفسير القرآني للقرآن: ١١٥٢/٣.

وبقاءه، ولا بقاء لحيّ مع وجود الخطر الذي يتهدّد حياته.. فإذا تمكن الكائن الحيّ من استخلاص نفسه من بين الأخطار التي تترصده، وتريد القضاء عليه، كان له بعد ذلك أن يطلب ما ينفع في إمساك حياته، واستمرار وجوده، مما يتصل بمعاشه، من طعام، ولباس، وسكن، وغير هذا..

٤. ﴿وَاللهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ هو إلفات إلى ذات الله سبحانه وتعالى، وإلى جلال الذات وعظمتها، التي يختفى أمام بهائها وسلطانها كل ذي جاه وسلطان.. وأنه هو وحده سبحانه السميع العليم، لا سمع لأحد مع سمعه، ولا علم لعالم مع علمه.. سبحانه وتعالى عما يشركون.

٥. ﴿قُلْ يَا أهل الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ﴾ المراد بأهل الكتاب هنا ـ هم النصارى، والدعوة إليهم هي إلا يغلو في دينهم، أي يبالغوا في الصورة التي ارتسمت لهم من المسيح، في ميلاده وفي المعجزات التي جاءت على يديه.. وأن هذه المبالغة قد أرتهم في المسيح ما ليس له، فما هو إلا إنسان، ولد كما يولد الناس، من رحم امرأة، ربّى في حجرها، ورضع من ثديها.

٦. ﴿غَيْرَ الْحَقِّ﴾ هو قيد للنّهي عن المغالاة، إذ هي مبالغة في طريق الضلال، وغلوّ في متابعة الهوى.. ويجوز أن يكون ﴿غَيْرَ الْحَقِّ﴾ مفعول به لقوله تعالى: ﴿لَا تَغْلُوا﴾ بمعنى لا تتجاوزوا بدينكم حدود الحق، بل التزموا هذه الحدود، وقفوا عندها، فإن ما بعدها هو الضلال والكفر.. ﴿فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إلا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ﴾، [يونس: ٣٢]

ابن عاشور:

ذكر محمد الطاهر بن عاشور (ت ١٣٩٣ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي(١):

١. ﴿قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَاللهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ لمّا كان الكلام السابق جاريا على طريقة خطاب غير المعيّن كانت جملة ﴿قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ﴾ مستأنفة، أمر الرّسول بأن يبلّغهم ما عنوا به.

٢. والظاهر أنّ ﴿أَتَعْبُدُونَ﴾ خطاب لجميع من يعبد شيئا من دون الله من المشركين والنّصارى، والاستفهام للتّوبيخ والتّغليط مجازا.

---

(١) التحرير والتنوير: ١٧٧/٥.

٣. ومعنى ﴿مِنْ دُونِ اللهِ﴾ غير الله، فمن للتّوكيد، و(دون) اسم للمغاير، فهو مرادف لسوى، أي أتعبدون معبودا هو غير الله، أي أتشركون مع الله غيره في الإلهيّة، وليس المعنى أتعبدون معبودا وتتركون عبادة الله، وانظر ما فسّرنا به عند قوله تعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ﴾ في سورة الأنعام [١٠٨]، فالمخاطبون كلّهم كانوا يعبدون الله ويشركون معه غيره في العبادة حتّى الّذين قالوا إنّ الله هو المسيح ابن مريم فهم ما عبدوا المسيح إلّا لزعمهم أنّ الله حلّ فيه فقد عبدوا الله فيه، فشمل هذا الخطاب المشركين من العرب ونصارى العرب كلّهم، ولذلك جيء بـ ﴿مَا﴾ الموصولة دون (من) لأنّ معظم ما عبد من دون الله أشياء لا تعقل، وقد غلب (ما) لما لا يعقل، ولو أريد بـ ﴿مَا لَا يَمْلِكُ﴾ عيسى وأمّه كما في (الكشاف) وغيره وجعل الخطاب خاصّا بالنّصارى كان التّعبير عنه بـ ﴿مَا﴾ صحيحا لأنّها تستعمل استعمال (من)، وكثير في الكلام بحيث يكثر على التّأويل، ولكن قد يكون التّعبير بمن أظهر.

٤. ومعنى ﴿لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا﴾ لا يقدر عليه، وحقيقة معنى الملك التمكّن من التّصرف بدون معارض، ثم أطلق على استطاعة التّصرّف في الأشياء بدون عجز، كما قال قيس بن الخطيم:

ملكت بها كفّي فأنهر فتقها　　　يرى قائم من دونها ما وراءها

فإنّ كفّه مملوكة له لا محالة، ولكنّه أراد أنّه تمكّن من كفّه تمام التّمكن فدفع به الرّمح دفعة عظيمة لم تخنه فيها كفّه، ومن هذا الاستعمال نشأ إطلاق الملك بمعنى الاستطاعة القويّة الثّابتة على سبيل المجاز المرسل كما وقع في هذه الآية ونظائرها ﴿وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا﴾ [الفرقان: ٣] ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ [يونس: ٤٩] ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا﴾ [العنكبوت: ١٧]، فقد تعلّق فعل الملك فيها بمعان لا بأشياء وذوات، وذلك لا يكون إلّا على جعل الملك بمعنى الاستطاعة القويّة ألا ترى إلى عطف نفي على نفي الملك على وجه التّرقّي في قوله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ في سورة النّحل [٧٣]، وقد تقدّم آنفا استعمال آخر في قوله: ﴿قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ﴾ [المائدة: ١٧]

٥. وقدّم الضرّ على النّفع لأنّ النّفوس أشدّ تطلّعا إلى دفعه من تطلّعها إلى جلب النّفع، فكان أعظم ما يدفعهم إلى عبادة الأصنام أنّ يستدفعوا بها الأضرار بالنّصر على الأعداء وبتجنّبها إلحاق الإضرار

بعابديها، ووجه الاستدلال على أنّ معبوداتهم لا تملك ضرّا ولا نفعا، وقوع الأضرار بهم وتخلّف النّفع عنهم.

٦. فجملة ﴿وَاللهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ في موضع الحال، قصر بواسطة تعريف الجزأين وضمير الفصل، سبب النّجدة والإغاثة في حالي السؤال وظهور الحالة، على الله تعالى قصر ادّعاء بمعنى الكمال، أي ولا يسمع كلّ دعاء ويعلم كلّ احتياج إلّا الله تعالى، أي لا عيسى ولا غيره ممّا عبد من دون الله.

٧. فالواو في قوله: ﴿وَاللهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ واو الحال، وفي موقع هذه الجملة تحقيق لإبطال عبادتهم عيسى ومريم من ثلاثة طرق: طريق القصر وطريق ضمير الفصل وطريق جملة الحال باعتبار ما تفيده من مفهوم مخالفه.

٨. ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ﴾ الخطاب لعموم أهل الكتاب من اليهود والنّصارى، وتقدّم تفسير نظيره في آخر سورة النّساء، والغلوّ مصدر غلا في الأمر: إذا جاوز حدّه المعروف، فالغلوّ الزّيادة في عمل على المتعارف منه بحسب العقل أو العادة أو الشرع.

٩. وقوله: ﴿غَيْرَ الْحَقِّ﴾ منصور على النّيابة عن مفعول مطلق لفعل ﴿تَغْلُوا﴾ أي غلوّا غير الحقّ، وغير الحقّ هو الباطل، وعدل عن أن يقال باطلا إلى ﴿غَيْرَ الْحَقِّ﴾ لما في وصف غير الحقّ من تشنيع الموصوف، والمراد أنّه مخالف للحقّ المعروف فهو مذموم؛ لأنّ الحقّ محمود فغيره مذموم، وأريد أنّه مخالف للصّواب احترازا عن الغلوّ الّذي لا ضير فيه، مثل المبالغة في الثّناء على العمل الصّالح من غير تجاوز لما يقتضيه الشرع، وقد أشار إلى هذا قوله تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللهِ إِلَّا الْحَقَّ﴾ في سورة النّساء [١٧١]، فمن غلوّ اليهود تجاوزهم الحدّ في التّمسك بشرع التّوراة بعد رسالة عيسى ومحمد ـ عليهما الصّلاة والسّلام ـ، ومن غلوّ النّصارى دعوى إلهيّة عيسى وتكذيبهم محمدا ﷺ، ومن الغلوّ الّذي ليس باطلا ما هو مثل الزّيادة في الوضوء على ثلاث غسلات فإنّه مكروه.

١٠. وقوله: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ﴾ عطف على النّهي عن الغلوّ، وهو عطف عامّ من وجه على خاصّ من وجه؛ ففيه فائدة عطف العامّ على الخاصّ وعطف الخاصّ على العامّ، وهذا نهي لأهل الكتاب الحاضرين عن متابعة تعاليم الغلاة من أحبارهم ورهبانهم الّذين أساءوا فهم الشريعة عن هوى منهم مخالف للدّليل، فلذلك سمّي تغاليهم أهواء، لأنّها كذلك في نفس الأمر وإن كان المخاطبون

لا يعرفون أنّها أهواء فضلّوا ودعوا إلى ضلالتهم فأضلّوا كثيرا مثل (قيافا) حبر اليهود الّذي كفّر عيسى ـ عليه السّلام ـ وحكم بأنّه يقتل، ومثل المجمع الملكاني الّذي سجّل عقيدة التثليث.

١١ . وقوله: ﴿مِنْ قَبْلِ﴾ معناه من قبلكم، وقد كثر في كلام العرب حذف ما تضاف إليه قبل وبعد وغير وحسب ودون، وأسماء الجهات، وكثر أن تكون هذه الأسماء مبنيّة على الضمّ حينئذ، ويندر أن تكون معربة إلّا إذا نكّرت، وقد وجّه النحويّون حالة إعراب هذه الأسماء إذا لم تنكّر بأنّها على تقدير لفظ المضاف إليه تفرقة بين حالة بنائها الغالبة وحالة إعرابها النّادرة، وهو كشف لسر لطيف من أسرار اللّغة.

١٢ . وقوله: ﴿وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ مقابل لقوله: ﴿قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ﴾ فهذا ضلال آخر، فتعيّن أنّ سواء السّبيل الذي ضلّوا عنه هو الإسلام، والسواء المستقيم، وقد استعير للحقّ الواضح، أي قد ضلّوا في دينهم من قبل مجيء الإسلام وضلّوا بعد ذلك عن الإسلام.

١٣ . وقيل: الخطاب بقوله: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ﴾ للنّصارى خاصّة، لأنّه ورد عقب مجادلة النّصارى وأنّ المراد بالغلوّ التّثليث، وأنّ المراد بالقوم الّذين ضلّوا من قبل هم اليهود.

١٤ . ومعنى النّهي عن متابعة أهوائهم النّهي عن الإتيان بمثل ما أتوا به بحيث إذا تأمّل المخاطبون وجدوا أنفسهم قد اتّبعوهم وإن لم يكونوا قاصدين متابعتهم؛ فيكون الكلام تنفيرا للنّصارى من سلوكهم في دينهم المماثل لسلوك اليهود، لأنّ النّصارى يبغضون اليهود ويعرفون أنّهم على ضلال.

أبو زهرة:

ذكر محمد أبو زهرة (ت ١٣٩٤ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١ . الكلام موصول بما قبله؛ لأن أولئك النصارى يعبدون عيسى عليه السلام ومنهم من يعبد معه أمه، ويقولون هما إلهان من دون الله، ومنهم من يعبد ثلاثة ويجعل الله تبارك وتعالى ثالثهم، تعالى الله سبحانه وتعالى عن ذلك الوهم الباطل، والكذب الفاحش، وقد بين سبحانه وتعالى أن عيسى عليه السلام وأمه الصديقة بشر كسائر البشر، يحتاجون إلى غيرهم، وهما آدميان يأكلان، ويفعلان كل ما هو من مقتضيات الإنسانية ومظاهرها.

---

(١) زهرة التفاسير: ٥/٢٣١٤.

٢. وقد بين مع ذلك كيف يعبدون مع هذه الحال، فقال لنبيه، قل لهم: ﴿أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾، الاستفهام هنا إنكاري لإنكار الواقع، والتعجب مما وقع منهم، وإنكار الواقع، توبيخ على سوء الفعل، وسوء التقدير، فهم يعبدون بشرا أو حجرا ويتركون عبادة الله تعالى، كما في قوله تعالى: ﴿مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ للعموم، وهي بهذا العموم تشتمل على ما يعبد من حجر وغيره، ولعدم اقتصاره على عيسى وأمه ذكر بلفظ (ما) الدال على العموم، لا بلفظ (من) الدال على العقلاء.

٣. ومعنى لا يملك ضرا ولا نفعا: أنه لا يملك المرض والسقم، ولا البلاء ولا الشدائد، كما لا يملك النفع بدفع الضر، ولا جلب الخير، ولا إنزال الغيث، ولا إرسال الرياح مبشرات بين يدى رحمته، ولا غير ذلك مما ينفع الوجود كله.

٤. سؤال وإشكال: كيف يقال إنهم يعبدون من دون الله مع أن المشركين يقولون: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى﴾ [الزمر]، والنصارى يعبدون ثلاثة أو اثنين على اختلاف طوائفهم ولم يتركوا عبادة الله والجواب: أن من يشرك العبادة مع الله تعالى لا يقال إنه عبد الله؛ لأن عبادة الله تعالى تقتضى أن تخلص العبادة له سبحانه، وألا يعبد سواه بأن يفرده بالعبادة وحده إذ لا يستحق العبادة معه أحد، ويقال حينئذ إنه عبد ما دون الله تعالى، إذ كانت عبادته ضد عبادة الله تعالى.

٥. سؤال وإشكال: قد يقول بعض الجاهلين إن من الناس من يضر ومن ينفع، والجواب: إنه نفع جزئي وضرر جزئي ولا يكون إلا بإرادة الله سبحانه وتعالى، ولو اجتمع أهل الأرض على أن يضروك بشيء لم يكتبه الله تعالى عليك، لم يضروك، ولو اجتمعوا على أن ينفعوك بشيء لم يكتبه الله تعالى لك لم ينفعوك.

٦. وقد ذيل الله سبحانه وتعالى الآية بقوله تعالت كلماته: ﴿وَاللهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾، أي أنهم يتركون عبادة الله تعالى وحده وهو العالم بكل شيء الذى لا يغيب عن علمه شيء في الأرض ولا في السماء، وهو العالم علم من يسمع ويرى، وهو بهذا العلم المحيط الدقيق الذى أحاط بكل الوجود يكون هو وحده الذى يضرهم وينفعهم، يتركونه ليعبدوا ما لا ينفع ولا يضر، ولكنه ضلال العقول.

٧. ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ﴾ الغلو: تجاوز الحد، وهو في الدين التعصب

له، والتشدد فيه، وتجاوز الحد في أداء ما يطلب كالانهماك في العبادة كما كان يفعل بعض المتشددين في دينهم الذين نهاهم النبي ﷺ، وقد ورد في الأثر: (لن يشاد أحد هذا الدين إلا غلبه، ولكن سددوا وقاربوا) وكما نهى النبي ﷺ قوما عكفوا على العبادة، وتركوا نساءهم، فقال ﷺ: (ما بال أقوام تركوا النساء وقاموا الليل وصاموا النهار وإني أقوم وأنام وأصوم وأفطر ولم أنقطع عن النساء)، وإن هذا النوع من الغلو، وإن كان غير محمود ولا مستحسن في الإسلام، لا يمكننا أن نعده غير حق في أصله، لأن أساسه حق، وإن غالوا فيه وربما يقول كثيرون إنه غير الحق.

٨. ونعود إلى النص الكريم، أمر الله تعالى نبيه أن ينادى أهل الكتاب، ويخاطبهم بقوله: ﴿لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ﴾، والمعنى لا تتجاوزوا الحد، وتشددوا في دينكم غلوا غير الحق، فكلمة غير الحق وصف لمحذوف، والوصف كاشف لأن الغلو دائما غير الحق عندهم، لأنه مجاوزة للحد، وكل مجاوزة للحد لا يمكن أن تكون حقا، وقد قال الزمخشري أن من الغلو ما هو حق، كالغلو في التنزيه، ومنها ما هو غير حق كالغلو الذى وقع فيه النصارى من الإفراط في تقديس عيسى وأمه، يصح أن يكون ﴿غَيْرَ الْحَقِّ﴾ منصوبا على أنه حال من الدين نفسه أي لا تغلوا وتشددوا في التمسك بدينكم، وتمنعوا أنفسكم عن أن يدخلها النور حال أن دينكم هو غير الحق.

٩. وفى الجملة النص لمنع تشدد النصارى واليهود في التمسك بدينهم غير الحق، والامتناع عن قبول الهداية التي جاءت إليهم، وهم في هذا التشدد يتبعون الأهواء، ولا يتبعون الحق، وهم مقلدون لمن ضلوا وأضلوا.

١٠. ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ الهوى معناه الميل إلى ما فيه شهوة ولذة، وخير الناس من كان هواه ولذته في طاعة الله تعالى، ولقد قال النبي ﷺ فيما روى في الصحاح: (لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به) ولكن كلمة الهوى لا تكاد تستعمل في القرآن إلا في مقام الذم في الاتباع، جاء في تفسير فخر الدين الرازي ما نصه: قال الشعبي ما ذكر الله تعالى لفظ الهوى في القرآن إلا ذمه قال تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ﴾ [ص]، ﴿وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى﴾ [طه]، ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى﴾ [النجم]، ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾ [الجاثية]، وقال أبو عبيدة: لم نجد الهوى إلا في موضع الشر، لا يقال: فلان يهوى الخير، إنما يقال يريد الخير ويحبه..

وقيل سمى الهوى هوى؛ لأنه يهوى بصاحبه في النار، وأنشد في ذم الهوى:

إن الهوى لهو الهوان بعينه   فإذا هويت فقد لقيت هوانا

جملة القول في ذلك أن الهوى يطلق ويراد به تجنب حكم العقل، والاتجاه إلى حكم الشهوة والإحساس من غير نظر إلى منطق العقل وما يدعو إليه الدليل، وسواء السبيل: وسط الطريق، والمراد أنهم ضلوا عن الحق، وهو دائما بين الإفراط والتفريط، فهم ضلوا عن القصد والحق والاعتدال.

١١. ولنتكلم في معنى النص الكريم، أن الله تعالى في علمه وحكمته ينهى أهل الكتاب عن الاستمرار في الاتباع لقوم قد ثبت ضلالهم قديما، وكانوا من قبل في ضلال بعيد، وهم عبدة الأوثان، ومن كان على شاكلتهم ممن اخترعوا آلهة على هواهم لا على منطق استقاموا عليه، ولا على نور من السماء اهتدوا بهديه، وقد سلكوا مسلكهم، فأدخلوا الوثنية في دينهم واتبعوا فلسفة ضالة مضلة.

١٢. وهؤلاء الذين اتبعوا أهواءهم، وضلوا بسبب ذلك أضلوا خلقا كثيرا، حتى شاع بينهم الانحراف عن الطريق، فكانت وثنية اليونان والرومان والفلاسفة هي التي أضلت خلقا كثيرا، فالضلال الأول هو ضلال الوثنية من قبل وهي التي أضلت النصارى، والإضلال هو سيطرة ذلك على من سيطروا عليهم، والضلال الأخير هو عدم خضوعهم لحكم النبي ﷺ وتركهم سبيل المؤمنين الذى كان فيه القصد والاعتدال فتأثرهم بأهواء من ضلوا من قبل وأضلوا جعلهم يأخذون طريق الضلال الأخير، وهو عدم الأخذ بهداية الرسول ﷺ.

مُغْنِيَّة:

ذكر محمد جواد مُغْنِيَّة (ت ١٤٠٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. ﴿قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَاللهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾، يستعمل القرآن الكريم (ما) فيما لا يعقل، قال تعالى: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى﴾، وفيمن يعقل: ﴿فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ﴾، وفيهما معا: ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾، ومنه قوله تعالى في هذه الآية ﴿مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ فإن المراد من (ما) كل ما اتخذ معبودا من المخلوقات فيندرج فيه عيسى

---

(١) التفسير الكاشف: ٣/١٠٧.

ومريم والأصنام.. أجل، أن استعمال (ما) فيما لا يعقل أكثر من استعمالها فيمن يعقل، على العكس من استعمال (من)

٢. أما وجه الاحتجاج على النصارى بهذه الآية فلأن الإله المعبود هو الذي يملك لعباده ضرا ونفعا، أما العاجز فمحال أن يكون إلها.. وقد ذكرت الأناجيل أن عيسى الذي يدعون له الألوهية قد أهين وصلب ودفن بعد أن وضعوا اكليل الشوك على رأسه، ومن لا يملك لنفسه ضرا ولا نفعا فبالأولى أن لا يملكهما لغيره.. ومن كان هذا شأنه لا يعبده عاقل، قال إبراهيم عليه السلام لأبيه: ﴿يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا﴾ [مريم: ٤٢]، وكان لأعرابي صنم يقدسه ويعبده، وجاءه ذات يوم ليسجد له كعادته فرأى ثعلبا بالقرب منه، فظن أن الثعلب قصده ليتبرك به، وحين أراد السجود له رأى قذارة الثعلب على رأسه، فثاب إليه رشده، وأخذ يحطم الصنم، ويقول:

أرب يبول الثعلبان برأسه لقد ذل من بالت عليه الثعالب

٣. ﴿قُلْ يَا أهل الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ﴾، هذا الخطاب موجه بظاهره إلى أهل الكتاب، وفي واقعه يشمل أهل الأديان جميعا.. والمظهر الأصيل المميز للإسلام انه يحصر النفع والضر بيد الله وحده، ويضع الإنسان أمام خالقه دون وسائط روحية أو مادية: ﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ الله وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [النساء: ١٢٢]

٤. ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾، المراد بالقوم رؤساء الدين الذين يتاجرون به، ويحرّفونه كما يشتهون.. وقد وصفهم جل ثناؤه بالضلال في أنفسهم أولا، وبإضلال أتباعهم ثانيا، ثم بيّن نوع الضلال والإضلال بأنه انحراف عن قصد السبيل ﴿وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾، وسواء السبيل هو الاعتدال وترك الغلو في الدين.. وهذا هو الإسلام في واقعه، دين قويم، وصراط مستقيم، وكيلا يقول المسلمون في محمد ﷺ ما قاله النصارى في المسيح عليه السلام أمر الله نبيه أن يقول للمؤمنين به: ﴿قُلْ إِنَّما أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحى إِلَيَّ أَنَّما إِلهُكُمْ إِلهٌ واحِدٌ فَمَنْ كانَ يَرْجُوا لِقاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صالِحاً وَلا يُشْرِكْ بِعِبادَةِ رَبِّهِ أَحَداً﴾ [الكهف: ١١١]، ودخل رجل على رسول الله، فارتجف من هيبته، فربت على كتفه في حنان وقال: (هوّن عليك، أنا ابن امرأة كانت تأكل القديد بمكة)

الطباطبائي:

ذكر محمد حسين الطباطبائي (ت ١٤٠٢ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. ﴿قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَاللهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ كان الخضوع لأمر الربوبية إنما انتشر بين البشر في أقدم عهوده، وخاصة بين العامة منهم ـ وعامتهم كانوا يعبدون الأصنام ـ طمعا في أن يدفع الرب عنهم الشر ويوصل إليهم النفع كما يتحصل من الأبحاث التاريخية، وأما عبادة الله لأنه الله عز اسمه فلم يكن يعدو الخواص منهم كالأنبياء والربانيين من أممهم، فأمر الله سبحانه رسوله أن يخاطبهم خطاب البشر الساذج الجاري على ما تلهمه فطرته الساذجة في عبادة الله كما خاطب الوثنيين وعباد الأصنام بذلك فيذكرهم أن الذي يضطر الإنسان بعبادة الرب هو أنه يرى أزمة الخير والشر والنفع والضر بيده فيعبده لأنه يملك الضر والنفع طمعا في أن يدفع عنه الضر ويوصل إليه الخير لعبادته له.

٢. وكل ما هو دون الله تعالى لا يملك شيئا من ضر ولا نفع لأنه مملوك لله محضا مسلوب عنه القدرة في نفسه فكيف يسوغ تخصيصه بالعبادة، وإشراكه مع ربه الذي هو المالك له ولغيره، وقد كان من الواجب أن يخص هو تعالى بالعبادة، ولا يتعدى عنه إلى غيره لأنه هو الذي يختص به السمع والإجابة فيسمع ويجيب المضطر إذ دعاه، وهو الذي يعلم حوائج عباده ولا يغفل عنها ولا يغلط فيها بخلاف غيره تعالى فإنه إنما يملك ما ملكه الله، ويقوى على ما قواه الله سبحانه.

٣. فقد تبين بهذا البيان:

أ. أولا: أن الحجة التي تشتمل عليها هذه الآية غير الحجة التي تشتمل عليها الآية السابقة وإن توقفتا معا على مقدمة مشتركة، وهي كون المسيح وأمه ممكنين محتاجين، فالآية السابقة حجتها أن المسيح وأمه كانا بشرين محتاجين عبدين مطيعين لله سبحانه، ومن كان حاله هذا الحال لم يصح أن يكون إلها معبودا، وحجة هذه الآية: أن المسيح ممكن محتاج مملوك بنفسه لا يملك ضرا ولا نفعا، ومن كان حاله هذا الحال لم يستقم ألوهيته وعبادته من دون الله.

---

(١) الميزان في تفسير القرآن: ٦/٧٥.

ب. وثانيا: أن الحجة مأخوذة مما يدركه الفهم البسيط والعقل الساذج من جهة غرض الإنسان البسيط في عبادته فإنه إنما يتخذ ربا ويعبده ليدفع عنه الضر ويجلب إليه النفع، وهذا إنما يملكه الله تعالى دون غيره، فلا غرض يتعلق بعبادة غير الله فمن الواجب أن يرفض عبادته.

ج. وثالثا: أن قوله: ﴿مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ إنما أخذت فيه لفظة ﴿مَا﴾ دون لفظة (من) مع المسيح من أولي العقل لأن الحجة بعينها هي التي تقام على الوثنيين وعبدة الأصنام التي لا شعور لها، ولا دخل في كون المسيح عليه السلام من أولي العقل في تمام الحجة فهي تامة في كل معبود مفروض دون الله سبحانه، على أن غيره تعالى وإن كان من أولي العقل والشعور لا يملكون شيئا من العقل والشعور من عند أنفسهم كسائر ما ينسب إليهم من شئون وجودهم؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنْظِرُونِ﴾ [الأعراف: ١٩٥]، وكذلك تقديم الضر على النفع في قوله: ﴿ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ للجري على وفق ما تدركه وتدعوا إليه الفطرة الساذجة كما مر، فإن الإنسان بحسب الطبع يرى ما تلبس به من النعم الموجودة عنده ما دامت عنده مملوكة لنفسه لا تلتفت نفسه إلى إمكان فقدها ولا تتصور ألمه عند فقدها بخلاف المضار التي يجدها بالفعل، والنعم التي يفتقدها ويجد ألم فقدها، فإن الفطرة تنبهها إلى الالتجاء إلى رب يدفع عنها الضر والضير، ويجلب إليها النعمة المسلوبة كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَو قَاعِدًا أَو قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَسَّهُ﴾ [يونس: ١٢]، وقال تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي﴾ [حم السجدة: ٥٠]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ﴾[حم السجدة: ٥١]، فتحصل أن مس الضر أبعث للإنسان إلى الخضوع للرب وعبادته من وجدان النفع، ولذلك قدم الله سبحانه الضر على النفع في قوله: ﴿مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ وكذا في سائر الموارد التي تماثله كقوله: ﴿اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَلا نَفْعاً وَلا يَمْلِكُونَ مَوْتاً وَلا حَياةً وَلا نُشُوراً﴾[الفرقان: ٣]

د. ورابعا: أن مجموع الآية: ﴿أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ﴾ إلى آخرها حجة على وجوب قصر العبادة في الله سبحانه من دون إشراك غيره معه وهي منحلة إلى حجتين ملخصهما: أن اتخاذ الإله وعبادة الرب إنما

هو لغرض دفع الضر وجلب النفع فيجب أن يكون الإله المعبود مالكا لذلك ولا يجوز عبادة من لا يملك شيئا، والله سبحانه هو السميع المجيب للدعوة العليم بكنه الحاجة من غير جهل دون غيره؛ فوجب عبادته من غير إشراك غيره.

٤. ﴿قُلْ يَا أهل الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ﴾ خطاب آخر للنبي ﷺ بأمره أن يدعو أهل الكتاب إلى عدم الغلو في دينهم، وأهل الكتاب وخاصة النصارى مبتلون بذلك، و(الغالي) المتجاوز عن الحد بالإفراط، ويقابله (القالي) في طرف التفريط، ودين الله الذي يفسره كتبه المنزلة يأمر بالتوحيد ونفي الشريك وينهى عن اتخاذ الشركاء لله سبحانه، وقد ابتلي بذلك أهل الكتاب عامة اليهود والنصارى، وإن كان أمر النصارى في ذلك أشنع وأفظع قال تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إلا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إلا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾

٥. والقول بأن عزيرا ابن الله وإن كان غير ظاهر اليوم عند اليهود لكن الآية تشهد بأنهم كانوا يقولون ذلك في عصر النزول، والظاهر أن ذلك كان لقبا تشريفيا يلقبونه به قبال ما خدمهم وأحسن إليهم في إرجاعهم إلى أورشليم (بيت المقدس) بعد إسارة بابل، وجمع لهم التوراة ثانيا بعد ضياعه في قصة بخت نصر، وقد كانوا يعدون بنوة الله لقبا تشريفيا كما يتخذ النصارى اليوم الأبوة كذلك ويسمون الباباوات والبطارقة والقسيسين بالآباء (الباب والبابا: الأب) وقد قال تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾ [المائدة: ١٨]، بل الآية الثانية: أعني قوله: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ﴾ تدل على ذلك حيث اقتصر فيها على ذكر المسيح عليه السلام، ولم يذكر عزيرا فدل على دخوله في عموم قوله: ﴿أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ﴾ وأنهم إنما كانوا يسمونه ابن الله كما يسمون أحبارهم أبناء الله، وقد خصوه بالذكر وحده شكرا لإحسانه إليهم كما تقدمت الإشارة إليه.

٦. وبالجملة وضعهم بعض أنبيائهم وأحبارهم ورهبانهم موضع الربوبية وخضوعهم لهم بما لا يخضع بمثله إلا لله سبحانه غلو منهم في دينهم ينهاهم الله عن ذلك بلسان نبيه ﷺ.

٧. وتقييد الغلو في الدين بغير الحق ـ ولا يكون الغلو إلا كذلك ـ إنما هو للتأكيد وتذكير لازم

المعنى مع ملزومه لئلا يذهل عنه السامع وقد ذهل حين غلا أو كان كالذاهل.

٨. وإطلاق الأب على الله سبحانه بتحليل معناه وتجريده عن وسمة نواقص المادة الجسمانية أي من بيده الإيجاد والتربية، وكذلك الابن بمعناه المجرد التحليلي وإن لم يمنعه العقل لكنه ممنوع شرعا لتوقيفية أسماء الله سبحانه لما في التوسع في إطلاق الأسماء المختلفة عليه تعالى من المفاسد، وكفى مفسدة في إطلاق الأب والابن ما لقيته الأمتان: اليهود والنصارى وخاصة النصارى من أولياء الكنيسة خلال قرون متمادية ولن يزال الأمر على ذلك.

٩. ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ ظاهر السياق أن المراد بهؤلاء القوم الذين نهوا عن اتباع أهوائهم هم المتبوعون المطاعون في آرائهم وأوامرهم فيكون ضلالهم لمكان التزامهم بآرائهم؛ إضلالهم كثيرا هو اتباع غيرهم لهم، وضلالهم عن سواء السبيل هو المتحصل لهم من ضلالهم وإضلالهم، وهو ضلال على ضلال، وكذلك ظاهر السياق أن المراد بهم هم الوثنية وعبدة الأصنام فإن ظاهر السياق أن الخطاب إنما هو لجميع أهل الكتاب لا للمعاصرين منهم للنبي ﷺ حتى يكون نهيا لمتأخريهم عن اتباع متقدميهم، ويؤيده بل يدل عليه قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ﴾ [التوبة: ٣٠]، فيكون ذلك حقيقة تحليلية تاريخية أشار إليها القرآن الكريم هي أن القول بالأبوة والبنوة مما تسرب إلى أهل الكتاب من قبل من تقدمهم من الوثنية، وقد تقدم في الكلام على قصص المسيح عليه السلام في سورة آل عمران أن هذا القول في جملة من الأقوال والآراء موجود عند الوثنية البرهمنية والبوذية في الهند والصين، وكذلك مصر القديم وغيرهم، وإنما أخذ بالتسرب في الملة الكتابية بيد دعاتها، فظهر في زي الدين وكان الاسم لدين التوحيد والمسمى للوثنية.

١٠. ذكر هنا مبحثا بعنوان (كلام في معنى التوحيد في القرآن)، ليس له صلة مباشرة بالتفسير التحليلي، نقلناه إلى محله من السلسلة.

الحوثي:

ذكر بدر الدّين الحوثي (ت ١٤٣١ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَاللهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ ما لا يملك لكم ضراً ولا نفعاً وهو عيسى عليه السلام، ولعل هذا وهو كونه ﴿لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ لازم لهم من قولهم: إنه لم يستطع تخليص آدم وبني آدم من ملك الشيطان إلا بتعرضه للصلب والأذى، فلو كان يملك الضر والنفع لاستطاع إنقاذهم واشتراهم بفدية غير صلبه وتعرضه للضر والأذى، هذا إذا كانت خارجةً مخرج الإلزام، وكذلك يلزم من قولهم: إن الأب خلق الخلق بواسطة الابن، وأن تدبير أمور الخليقة وظيفة روح القدس.

٢. قال الإمام القاسم عليه السلام في كتاب (الرد على النصارى): (وكذلك قالت النصارى: إن الله خلق الأشياء بآنية نفسه وحفظها ودبرها بروح قدسه، وأن الابن خلق الخلق وفطره، وأن روح القدس حفظ الخلق ودبره، وزعموا أن قوّة الخلق غير قوّة الحفظ والتدبير، وأن الأب لم ينفرد من ذلك بقليل ولا كثير) فإذا كان الحفظ وتدبير الأمر ليس إلا وظيفة روح القدس وله وحده دون عيسى قوة الحفظ والتدبير كان عيسى لا يرجى منه نفع ولا يخشى منه ضر؛ لأن ذلك كله من الحفظ وتدبير الأمر.

٣. هذا ويحتمل: أن الله تعالى قال: ﴿أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ ليبين للنصارى الحقيقة أن عيسى عليه السلام لا يملك لهم ضراً ولا نفعاً، ومعنى ملكه له قدرته عليه مستقلاً غير متوقف على إذن الله وإقداره عليه، بل متى شاء فعل بدون قيد ولا شرط فنفى الله ذلك عن عيسى وهو أصدق القائلين، وقوله تعالى: ﴿وَاللهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ فيفيد: أنه الذي يسمع الدعاء من العابد حين يعبده، ويسمع الذاكر لَه حين يذكره ويعلم العبادة وخلوص النية بها، فهو الذي يرجى منه نفع العبادة لدفع الضر وجلب النفع.

٤. ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ﴾ الغلو: تجاوز الحد المشروع تديناً، كالإفراط في تعظيم عيسى بجعله رباً، وكاتخاذهم أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله، وقوله تعالى: ﴿لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ﴾ أي غلواً غير الحق، وهذا ذم للغلو بأنه غير الحق، وتعريف بالفصل بين الغلو وغير

(١) التيسير في التفسير: ٢/٣٥٨.

الغلو لمن قد غلا وهو لا يرى أنه غالٍ.

٥. ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ يخبرهم الله أن اتباعهم لأسلافهم الذين يعظمونهم، إنما هو اتباع لأهوائهم وليسوا إلا قوماً قد ضلوا وأضلوا كثيراً، فهم مع ضلالهم في أنفسهم مفسدون لا يستحقون أن يعتبروا قدوة في الدين، ومع أن ضلالهم واضح لمن استعمل عقله لأنهم ضلوا عن الحق الواضح الذي هو سواء السبيل الذي لا عوج فيه.

فضل الله:

ذكر محمد حسين فضل الله (ت ١٤٣١ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي(١):

١. ﴿قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ فماذا يملك عيسى عليه السّلام من مقومات القوة الذاتية الّتي يستطيع من خلالها أن يمنحكم النفع أو يدفع عنكم الضرر؟ إنه لا يملك شيئا من ذلك في ذاته، بل هو بشر كبقيّة البشر في قدراته الطبيعيّة وليس له شيء أكثر من ذلك إلا فيما أجراه الله على يديه من آياته مما أراده الله من مواجهة الرسالة للتحدي من أجل إخضاع الكفر والكافرين بطريقة المعجزة ولكنها شأن من الشؤون الّتي لا تملك امتدادا ولا عمقا في شخصيته، فلها وقتها المعين، وحدودها الخاصة، ويتحرك بعد ذلك الإنسان في عيسى عليه السّلام بقدرته المحدودة الّتي لا تملك نفعا ولا ضرا لنفسها ولا لأحد، فكيف تسيرون في هذا الاتجاه؟ وكيف تأمنون على أنفسكم المسؤوليّة غدا أمام الله الذي يسمع ما تقولون، ويعلم ما تضمرون ﴿وَاللهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾

٢. ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ﴾ لماذا الغلو في شخصيّة السيد المسيح عليه السّلام؟ ولماذا هذا الانحراف؟ ماذا تستفيدون من ذلك كله؟ وما النتيجة الحقيقيّة في هذا الاتجاه على مستوى ما تحصلون عليه من أرباح في ابتعادكم عن الحق؟ لا شيء لأن الأمر كله بيد الله الذي يدعوكم إلى الهدى، فاستجيبوا له بالسير على خط الحقّ.

٣. ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ لأنهم لا يريدون لكم الخير والنجاة، فإذا كانوا قد ضلوا ولم يهتدوا الطريق، فكيف يمكن أن يمنحوكم الهدى، فإن

---

(١) من وحي القرآن: ٨/٢٨٨.

فاقد الشيء لا يعطيه؟ وإذا كانوا قد أضلوا كثيرا من الناس قبلكم فكيف تأمنونهم على أنفسكم؟ ولا بد للإنسان العاقل من اتباع الفكر الذي ينطلق به الآخرون، إذا اقتنع به، فلا يتبع أهواءهم فيما يحبونه أو يبغضونه، لأن اتباع هوى النفس يؤدي إلى الضلال، لأنه لا يرتكز على قاعدة، فكيف باتباع هوى الآخرين؟

الشيرازي:

ذكر ناصر مكارم الشيرازي في تفسير هذا المقطع ما يلي[1]:

١. لكي يكمل الاستدلال السابق تستنكر الآية عبادتهم المسيح مع أنّهم يعلمون أن له احتياجات بشرية، وإنّه لا قدرة له على دفع الضرر عن نفسه أو نفعها، فكيف يتسنى له دفع الضرر عن الغير أو نفعهم؟ ﴿قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾؟ فكثيرا ما تعرّض هو وأتباعه للأذى على أيدي أعدائهم، ولولا أنّ الله شمله بلطفه لما استطاع أن يخطو خطوة واحدة.

٢. وفي النهاية يحذرهم من أن يظنوا أنّ الله لا يسمع ما يتقولونه أو لا يعلم ما يكنونه: ﴿وَاللهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾

٣. الآية التّالية تأمر رسول الله عليه السّلام، بعد اتضاح خطأ أهل الكتاب في الغلو أن يدعوهم بالأدلة الجلية إلى الرجوع عن السير في هذا الطريق: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ﴾

٤. إنّ غلو النصارى معروف، إلّا أنّ غلو اليهود، الذي يشملهم تعبير ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ﴾ قد يكون إشارة إلى ما كانوا يقولونه عن العزير وقد اعتبروه ابن الله، ولما كان الغلو ينشأ ـ أكثر ما ينشأ ـ عن إتباع الضالين أهواءهم، لذلك يقول الله سبحانه: ﴿لا تَتَّبِعُوا أَهْواءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وأَضَلُّوا كَثِيراً وضَلُّوا عَنْ سَواءِ السَّبِيلِ﴾، وفي هذا إشارة ـ أيضا ـ إلى ما انعكس في التّأريخ المسيحي، إذ أنّ موضوع التثليث والغلو في أمر المسيح عليه السّلام لم يكن له وجود خلال القرون الاولى من المسيحية، ولكن عندما اعتنق بعض الهنود وأمثالهم من عبدة الأصنام المسيحية أدخلوا فيها شيئا من دينهم السابق، كالتثليث والشرك، إنّ الثالوث الهندي (الإيمان بالآلهة الثلاثة: برهما، وفيشنو، وسيغا)، كان تاريخيا أسبق من التثليث

---

(١) تفسير الأمثل: ٤/١١٥.

المسيحي الذي لا شك أنّه انعكاس لذاك، ففي الآية الثلاثين من سورة التوبة وبعد ذكر غلو اليهود والنصارى في مسألة العزير والمسيح عليه السّلام يقول سبحانه ﴿يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ﴾

٥. وقد وردت كلمة (ضلوا) في هذه الآية مرّتين بالنسبة للكفار الذين اقتبس منهم أهل الكتاب الغلو، ولعل هذا التكرار من باب التوكيد، إذ أنّهم كانوا قبل ذلك من الضّالين، ثمّ لّما أضلّوا لآخرين بدعواهم وقعوا في ضلال آخر، ومن يسعى لتضليل الآخرين يكون أضلّ منهم في الواقع، لأنّه يكون قد استهلك قواه لدفع نفسه ودفع الآخرين إلى طريق التعاسة ولحمل آثام الآخرين ـ أيضا ـ على كاهله، وهل يرتضي المرء السائر على الطريق المستقيم أن يضيف إلى آثامه آثام غيره أيضا؟

٧٣. اللعن والمعصية والاعتداء

نتناول في هذا الفصل ما ذكره المفسّرون ـ بحسب التسلسل التاريخي، والمدارس الإسلامية المختلفة ـ حول تفسير المقطع [٧٣] من سورة المائدة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [المائدة: ٧٨ ـ ٧٩]، مع العلم أنّا نقلنا المباحث التي لا علاقة لها ـ كبرى أو مباشرة ـ بالتفسير التحليلي إلى محالّها من كتب السلسلة.

معاذ:

روي عن معاذ بن جبل (ت ١٨ هـ) أنّه قال: قال رسول الله ﷺ: (خذوا العطاء ما كان عطاء، فإذا كان رشوة عن دينكم فلا تأخذوه، ولن تتركوه، يمنعكم من ذلك الفقر والمخافة، إن بني مرح قد جاءوا، وإن رحى الإسلام ستدور، فحيثما دار القرآن فدوروا به، إنه يوشك السلطان والقرآن أن يقتتلا ويتفرقا، إنه سيكون عليكم ولاة يحكمون لكم بحكم ولهم بغيره، فإن أطعتموهم أضلوكم، وإن عصيتموهم قتلوكم)، قالوا: يا رسول الله، فكيف بنا إن أدركنا ذلك؟ قال: (تكونوا كأصحاب عيسى؛ نشروا بالمناشير، ورفعوا على الخشب؛ موت في طاعة خير من حياة في معصية، إن أول ما كان نقص في بني إسرائيل أنهم كانوا يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر شبه التعذير، فكان أحدهم إذا لقي صاحبه الذي كان يعيب عليه آكله وشاربه، كأنه لم يعب عليه شيئا، فلعنهم الله على لسان نبيهم داود وعيسى ابن مريم، ﴿ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾، والذي نفسي بيده، لتأمرن بالمعروف، ولتنهون عن المنكر، أو ليسلطن الله عليكم شراركم، ثم ليدعون خياركم فلا يستجاب لهم، والذي نفسي بيده، لتأمرن بالمعروف، ولتنهن عن المنكر، ولتأخذن على يد الظالم فلتأطرنه عليه أطرا، أو ليضربن الله قلوب بعضكم ببعض)[١].

ابن مسعود:

روي عن عبد الله بن مسعود (ت ٣٢ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

---

(١) عزاه السيوطي إلى عبد بن حميد،وأخرجه الطبراني في الكبير ٢٠/٩٠.

١. روي أنّه قال: قال رسول الله ﷺ: (إن أول ما دخل النقص على بني إسرائيل كان الرجل يلقى الرجل فيقول له: يا هذا، اتق الله، ودع ما تصنع؛ فإنه لا يحل لك، ثم يلقاه من الغد، فلا يمنعه ذلك أن يكون أكيله وشريبه وقعيده، فلما فعلوا ذلك ضرب الله قلوب بعضهم ببعض)، ثم قال: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ﴾ إلى قوله: ﴿فَاسِقُونَ﴾، ثم قال: (كلا، والله، لتأمرن بالمعروف، ولتنهون عن المنكر، ولتأخذن على يدي الظالم، ولتأطرنه[1]، على الحق أطرا)[2].

٢. روي أنّه قال: قال رسول الله ﷺ: (إن بني إسرائيل لما عملوا الخطيئة نهاهم علماؤهم تعذيرا[3]،، ثم جالسوهم وآكلوهم وشاربوهم، كأن لم يعملوا بالأمس خطيئة! فلما رأى الله ذلك منهم ضرب بقلوب بعضهم على بعض، ولعنهم على لسان نبي من الأنبياء)، ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ﴾ حتى فرغ من الآية، ثم قال: (لبئس ما كانوا يصنعون)، ثم قال رسول الله ﷺ: (والله، لتأمرن بالمعروف، ولتنهون عن المنكر، ولتأطرنهم على الحق أطرا، أو ليضربن الله بقلوب بعضكم على بعض، وليلعننكم كما لعنهم)[4]

كعب:

روي عن أبي عمرو بن حماس، أن ابن الزبير قال: لكعب الأحبار (ت ٣٤ هـ): هل لله من علامة في العباد إذا سخط عليهم؟ قال: نعم، يذلهم، فلا يأمرون بالمعروف، ولا ينهون عن المنكر، وفي القرآن: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ الآية[5].

حذيفة:

روي عن حذيفة بن اليمان (ت ٣٦ هـ) أن النبي ﷺ قال: (والذي نفسي بيده، لتأمرن بالمعروف، ولتنهون عن المنكر، أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقابا من عنده، ثم لتدعنه فلا يستجيب لكم)[6]

---

(١) أي: تعطفوه عليه.

(٢) أبو داود ٦/٣٩١.

(٣) تعذيرًا: أي نهيًا قصَّروا فيه ولم يبالغوا.

(٤) أبو داود (٤٣٣٧).

(٥) عزاه السيوطي إلى أبي الشيخ.

(٦) الترمذي ٤/٢٤٣.

ابن عباس:

روي عن ابن عباس (ت ٦٨ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال: في قوله: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ﴾ يعني: في الزبور، ﴿وَعِيسَى﴾ يعني: في الإنجيل[1].

٢. روي أنّه قال: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ الآية؛ لعنوا بكل لسان؛ على عهد موسى في التوراة، ولعنوا على عهد عيسى في الإنجيل، ولعنوا على عهد داود في الزبور، ولعنوا على عهد محمد ﷺ في القرآن[2].

٣. روي أنّه قال: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ بكل لسان؛ لعنوا على عهد موسى في التوراة، وعلى عهد داود في الزبور، وعلى عهد عيسى في الإنجيل، ولعنوا على لسان محمد ﷺ في القرآن[3].

٤. روي أنّه قال: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ الآية، قال: خالطوهم بعد النهي على تجاراتهم، فضرب الله قلوب بعضهم على بعض، وهم ملعونون على لسان داود وعيسى ابن مريم[4].

٥. روي أنّه قال: قيل: يا رسول الله، أتهلك القرية فيهم الصالحون؟ قال: (نعم)، فقيل: لم، يا رسول الله؟ قال: (بتهاونهم وسكوتهم عن معاصي الله عز وجل)[5].

ابن أبزى:

روي عن سعيد بن عبد الرحمن بن أبزى (ت ١٠٠ هـ) عن أبيه، قال: خطب رسول الله ﷺ، فحمد الله، وأثنى عليه، وذكر طوائف من المسلمين فأثنى عليهم خيرا، ثم قال: (ما بال أقوام لا يعلمون جيرانهم، ولا يفقهونهم، ولا يفطنونهم، ولا يأمرونهم، ولا ينهونهم!؟ وما بال أقوام لا يتعلمون من جيرانهم، ولا يتفقهون، ولا يتفطنون!؟ والذي نفسي بيده، ليعلمن جيرانهم، وليفقهنهم، وليفطننهم، وليأمرنهم،

---

(١) ابن جرير ٥٨٦/٨.

(٢) ابن جرير ٥٨٦/٨.

(٣) ابن جرير ٥٨٧/٨.

(٤) ابن جرير ٥٨٧/٨.

(٥) الطبراني في الكبير ٢٧٠/١١.

ولينهونهم، وليتعلمن قوم من جيرانهم، وليتفقهن، وليتفطنن، أو لأعاجلنهم بالعقوبة في دار الدنيا)، ثم نزل فدخل بيته، فقال أصحاب رسول الله ﷺ بينهم: من يعني بهذا الكلام؟ قالوا: ما نعلم يعني بهذا الكلام إلا الأشعريين، إن الأشعريين فقهاء علماء، ولهم جيران من أهل المياه جفاة جهلة، فاجتمع جماعة من الأشعريين، فدخلوا على النبي ﷺ، فقالوا: ذكرت طوائف من المسلمين بخير، وذكرتنا بشر، فما بالنا؟ فقال رسول الله ﷺ: (لتعلمن جيرانكم، ولتفقهنهم، ولتفطننهم، ولتأمرنهم، ولتنهونهم، أو لأعاجلنكم بالعقوبة في دار الدنيا)، فقالوا: يا رسول الله، فأما إذن فأمهلنا سنة، ففي سنة ما نعلمهم ويتعلمون، فأمهلهم سنة، ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون١ كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون﴾[(١)].

أبو مالك:

روي عن أبي مالك غزوان الغفاري (ت ١٠٠ هـ) أنّه قال في الآية: لعنوا على لسان داود فجعلوا قردة، وعلى لسان عيسى فجعلوا خنازير[(٢)].

الباقر:

روي عن الإمام الباقر (ت ١١٤ هـ) أنّه قال: أما داود فإنه لعن أهل أيلة لما اعتدوا في سبتهم، وكان اعتداؤهم في زمانه، فقال: اللهم ألبسهم اللعنة مثل الرداء، ومثل المنطقة على الخصرين، فمسخهم الله قردة، وأما عيسى عليه السلام فإنه لعن الذين نزلت عليهم المائدة، ثم كفروا بعد ذلك[(٣)].

قتادة:

روي عن قتادة بن دعامة (ت ١١٧ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال: لعنهم الله على لسان داود في زمانه فجعلهم قردة خاسئين، ولعنهم في الإنجيل على لسان عيسى فجعلهم خنازير[(٤)].

---

(١) ابن عساكر في تاريخه ٣٢/٥٧.

(٢) ابن جرير ٨/٥٨٨.

(٣) مجمع البيان ٤/٣٥٧.

(٤) ابن جرير ٨/٥٨٨.

٢. روي أنّه قال: ﴿ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾، قال: اجتنبوا المعصية والعدوان؛ فإن بهما هلك من هلك قبلكم من الناس[١].

الصادق:

روي عن الإمام الصادق (ت ١٤٨ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. عن مسعدة بن صدقة، قال: سأل رجل الإمام الصادق عن قوم من الشيعة يدخلون في أعمال السلطان، ويعملون لهم ويحبونهم ويوالونهم؟قال: (ليس هم من الشيعة، ولكنهم من أولئك) ثم قرأ الإمام الصادق هذه الآية: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾ إلى قوله: ﴿وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ قال: (الخنازير على لسان داود، والقردة على لسان عيسى عليه السلام)[٢].

٢. روي أنّه قال: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾ الخنازير على لسان داود، والقردة على لسان عيسى بن مريم عليهما السلام[٣].

٣. روي أنّه قال: ﴿كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ أما إنهم لم يكونوا يدخلون مداخلهم، ولا يجلسون مجالسهم، ولكن كانوا إذا لقوهم ضحكوا في وجوههم وأنسوا بهم[٤].

ابن جريج:

روي عن ابن جريج (ت ١٥٠ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال: وقال آخرون: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ﴾، دعا عليهم داود على عهده، فلعنوا بدعوته، قال: مر داود على نفر منهم وهم في بيت، فقال: من في البيت؟ قالوا: خنازير، قال: اللهم اجعلهم خنازير، فكانوا خنازير، ثم أصابتهم لعنته، ودعا عليهم عيسى، فقال: اللهم العن من افترى علي وعلى أمي، واجعلهم قردة خاسئين[٥].

---

(١) ابن أبي حاتم ١١٨٢/٤.

(٢) تفسير القمّي ١٧٦/١.

(٣) الكافي ٢٠٠/٨.

(٤) تفسير العيّاشي ٣٣٥/١.

(٥) ابن جرير ٥٨٧/٨.

٢. روي أنّه قال: ﴿كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ﴾ لا تتناهى أنفسهم بعد أن وقعوا في الكفر[(١)].

مقاتل:

روي عن مقاتل بن سليمان (ت ١٥٠ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ اليهود ﴿مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ يعني: من سبط بني إسرائيل ﴿عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ﴾ ابن أنيشا، وذلك أنهم صادوا الحيتان يوم السبت، وكانوا قد نهوا عن صيد الحيتان يوم السبت، قال: داود: اللهم، إن عبادك قد خالفوا أمرك، وتركوا أمرك، فاجعلهم آية ومثلا لخلقك، فمسخهم الله عز وجل قردة، فهذه لعنة داود عليه السلام، ﴿وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾ وأما لعنة عيسى ﷺ فإنهم أكلوا المائدة، ثم كفروا، ورفعوا من المائدة، فقال عيسى: اللهم، إنك وعدتني أن من كفر منهم بعد ما يأكل من المائدة أن تعذبه عذابا لا تعذبه أحدا من العالمين، اللهم، العنهم كما لعنت أصحاب السبت، فكانوا خمسة آلاف، فمسخهم الله عز وجل خنازير، ليس فيهم امرأة ولا صبي، ﴿ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا﴾ في ترك أمره، ﴿وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ في دينهم[(٢)].

٢. روي أنّه قال: ﴿كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ حين لم ينهوهم عن المنكر[(٣)].

ابن زيد:

روي عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم (ت ١٨٢ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال: ﴿ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ ماذا كانت معصيتهم؟ قال: ﴿كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ﴾[(٤)].

٢. روي أنّه قال: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾ لعنوا

---

(١) ابن جرير ٨/٥٩٢.

(٢) تفسير مقاتل ابن سليمان ١/٤٩٦.

(٣) تفسير مقاتل ابن سليمان ١/٤٩٦.

(٤) ابن جرير ٨/٥٩١.

في الإنجيل، وفي الزبور، وقال: قال رسول الله ﷺ: (إن رحى الإيمان قد دارت، فدوروا مع القرآن حيث دار، فإنه قد فرغ الله مما افترض فيه، وإنه كانت أمة من بني إسرائيل كانوا أهل عدل، يأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر، فأخذهم قومهم، فنشروهم بالمناشير، وصلبوهم على الخشب، وبقيت منهم بقية، فلم يرضوا حتى داخلوا الملوك، وجالسوهم، ثم لم يرضوا حتى واكلوهم، فضرب الله تلك القلوب بعضها ببعض، فجعلها واحدة)، فذلك قول الله تعالى: ﴿لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود﴾ إلى: ﴿ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾، ماذا كانت معصيتهم؟ قال: ﴿كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾[1].

الماتريدي:

ذكر أبو منصور الماتريدي (ت ٣٣٣ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[2]:

١. ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾

أ. قال بعضهم: لعنوا بكل لسان؛ لعنوا على عهد موسى عليه السلام في التوراة، وعلى عهد داوود في الزبور، وعلى عهد عيسى في الإنجيل، وعلى عهد رسولنا مُحَمَّد ﷺ في القرآن؛ وهو قول ابن عباسٍ.

ب. وقيل: مسخوا بدعائهم بما اعتدوا، فصاروا قردة وخنازير، قال ابن عباسٍ: (القردة والخنازير من نسل الذين مسخوا)، وقال الحسن: (انقطع ذلك النسل)

ج. وأصل اللعن: هو الطرد؛ كأنهم طردوا عن رحمة الله.

٢. ويحتمل تخصيص اللعن على لسان داوود لأن داوود عليه السلام كان به غلظة وخشونة، وهو الذي كان اتخذ الأسلحة وآلات الحرب، وعيسى كان به لين ورفق؛ ليعلم أن اللعن الذي كان منهما كان لتعديهم الحدود ـ حدود الله ـ وعصيانهم ربهم، وكانوا مستوجبين لذلك محقين؛ ولذلك استجيب دعاؤهم عليهم باللعن أعني: دعاء الرسل، عليهم السلام.

٣. وقوله عز وجل: ﴿كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ﴾ ذكر في بعض القصة عن عبد الله بن مسعود قال قال رسول الله ﷺ: (لما وقعت بنو إسرائيل في المعاصي نهاهم علماؤهم فلم ينتهوا، فجالسوهم

---

(١) ابن جرير ٨/٥٩١.

(٢) تأويلات أهل السنة: ٣/٥٧٠.

في مجالسهم وآكلوهم وشاربوهم، فضرب الله قلوب بعضهم ببعض، ولعنهم على لسان داود وعيسى ابن مريم؛ ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون) قال فجلس رسول الله ﷺ وكان متكئا فقال: (لا والذي نفسي بيده حتى تأطروهم على الحق أطرا) قال أبو عبيد: يعني تعطفوهم عطفا، وقال غيره: حتى تكسروهم كسرا.

العياني:

ذكر الإمام المهدي العياني (ت ٤٠٤ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي)[١]:

١. معنى قوله: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾، أي لعنهم الله في الكفر برسوله وقدم لهم الذم واللعنة والخزي على لسان داود وعيسى بن مريم.

الطوسي:

ذكر أبو جعفر الطوسي (ت ٤٦٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[٢]:

١. قيل في معنى ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ الآية ثلاثة أقوال:

أ. أحدهما: إياسهم من مغفرة الله مع الإقامة على الكفر والمعصية لله عز وجل لدعاء الأنبياء عليهم السلام عليهم بالعقوبة ودعوتهم مستجابة مع ما في ذلك من الفضيحة، وانطواء أولياء الله لهم على العداوة، والمظاهرة عليهم في إقامة الحجة.

ب. الثاني: قال الحسن ومجاهد وقتادة وأبو مالك: لعنوا على لسان داوود فصاروا قردة وعلى لسان عيسى، فصاروا خنازير، وإنها ذكر عيسى وداوود لأنهما أنبه الأنبياء المبعوثين بعد موسى عليه السلام ولما ذكر داوود أغنى عن ذكر سليمان، لأن قولهما واحد، وقال أبو جعفر عليه السلام: (أما داوود فلعن أهل ايلة لما اعتدوا في سبتهم وكان اعتداؤهم في زمانه، فقال: اللهم ألبسهم اللعنة مثل الرداء ومثل المنطقة على الحقوين، فمسخهم الله قردة، وأما عيسى فلعن الذين أنزلت عليهم المائدة ثم كفروا بعد ذلك)

ج. الثالث: قال أبو علي الجبائي: إنه إنما أظهر ذلك لئلا يوهموا الناس أن لهم منزلة بولادة الأنبياء تنجيهم من عقوبة المعاصي.

٢. واللعن هو الابعاد من رحمة الله، فلعنه الله يعني أبعده الله من رحمته إلى عقوبته، ولا يجوز لعن

---

(١) تفسير الإمام المهدي العياني: ٢/٢٢٥.

(٢) تفسير الطوسي: ٣/٦٠٩.

من لا يستحق العقوبة من الأطفال والمجانين والبهائم، لأنه تعالى لا يبعد من رحمته من لا يستحق الابعاد عنها.

٣. ﴿ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ إشارة إلى اللعن الذي تقدم ذكره بمعصيتهم واعتدائهم، فـ (إذا) لما قرب و(ذلك) لما بعد، لأنه اجتزئ في دلالة الخطاب لما قرب بالإقبال عليه، وفي القريب بالإشارة إليه فلما بعد لم يصلح الاجتزاء فيهما كما يصلح فيما قرب، فأتى بالكاف للخطاب وأكد ذلك باللام وكسرت لالتقاء الساكنين والكاف في ذلك حرف وفي غلامك اسم، ولهذا لم يؤكد بما يؤكد في غلامك لأنك لا تقول ذلك نفسك، كما تقول في غلامك نفسك.

٤. وإنما قال: ﴿بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ وإن كان الكفر أعظم الإجرام ليدل على أن من خلصت معصيته مما يكفرها أو بقتة، وأنهم مع كفرهم قد عصوا بغير الكفر من الجرم الذي فسر في الآية التي بعد.

٥. ﴿كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ أخبر الله تعالى أن هؤلاء الكفار الذين ذكرهم لم يكونوا يتناهون عن منكر أي لم يكن ينهى، بعضهم بعضاً مثل قولك لا يتضاربون ولا يترامون ولا ينتهون ومعناه لا يكفون عما نهوا عنه.

٦. ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ وفتحت اللام لام القسم وتقديره أقسم لبئس ما كانوا يفعلون كما فتحت لام الابتداء لأنها لما لم تكن عاملة كـ (لام الاضافة) اختير لها أخف الحركات، ولا يجوز أن تكون لام الابتداء، لأنها لا تدخل على الفعل إلا في باب (أن) ولا تدخل على الماضي.

٧. (ما) في قوله: ﴿لَبِئْسَ مَا﴾ قيل فيها قولان:

أ. أحدهما: أن تكون (ما) كافة لـ (بئس) كما تكف في (إنما) و(بعد ما) و(ربما)

ب. والآخر: أن تكون اسماً نكرة كأنه قال بئس شيئاً فعلوه، كما تقول بئس رجلا كان عندك.

٨. وفي الآية دلالة على وجوب انكار المنكر، لأن كل شيء ذم الله عليه، فواجب تركه إلا أن يفيد بوقت يخصه، لأن ظاهر ذلك يقتضي قبحه، والتحذير منه.

٩. والمنكر هو القبيح، سمي بذلك لأنه ينكره العقل من حيث أن العقل يقبل الحسن ويعترف به، ولا يأباه وينكر القبيح ويأباه والإنكار ضد الإقرار، فما يقر به العقل هو الحق، وما ينكره، فهو الباطل.

١٠. وقيل في معنى (المنكر) ـ ها هنا ـ ثلاثة أقوال:

أ. أحدها: صيد السمك في السبت.

ب. الثاني: أخذ الرشوة في الحكم.

ج. الثالث: أكل الربا وأثمان الشحوم.

١١. وقال رسول الله ﷺ: (لا قدست أمَّة لا تأخذ لضعيفها حقه غير مضيع)

الجشمي:

ذكر الحاكم الجشمي (ت ٤٩٤ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. شرح مختصر للكلمات:

أ. اللعن: الإبعاد والطرد، ويُقال: لعنه الله؛ أي أبعده من رحمته.

ب. يتناهون: يتفاعلون من النهي، نحو يتضاربون ويترامون، وينتهون: يكفون عما نهوا عنه.

ج. المنكر: القبيح من الفعل؛ لأنه ينكره العقل.

٢. بَيَّنَ الله تعالى ما جرى على أسلافهم، فقال سبحانه: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾:

أ. قيل: لعنوا على لسان داوود فصاروا قردة، وعلى لسان عيسى فصاروا خنازير، عن الحسن ومجاهد.

ب. وقيل: لعنوا عذبوا.

ج. وقيل: لبسوا الذلة والمسكنة، ومعنى لعنوا: أي دعاء عليهم باللعن.

د. وقيل: معنى اللعن على لسانهما: إياسهما من المغفرة للإقامة على الكفر ودعاء الأنبياء عليهم.

هـ. وقيل: إنما ذكر اللعن على لسانهما إزالة للاتهام بأن لهم منزلة بولادة الأنبياء، عن أبي علي.

و. وقيل: لعنوا على عهد موسى في التوراة، وعلى عهد عيسى في الإنجيل، وعلى عهد داوود في الزبور، وعلى عهد محمد في القرآن.

---

(١) التهذيب في التفسير: ٣/٣٧٥.

٣. ﴿ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا﴾:

أ. أي خالفوا الله في أوامره ونواهيه.

ب. وقيل: باعتدائهم في السبت.

ج. وقيل: تركهم الأمر بالمعروف.

٤. ﴿وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ يجاوزون الحد في العصيان.

٥. ثم بين عصيانهم، فقال سبحانه: ﴿كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ﴾ لا ينهى بعضهم بعضًا ﴿عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ﴾:

أ. عن فعل قبيح حتى شاع فيهم المناكير.

ب. وقيل: كان لا يتناهى إذا نهاه غيره.

ج. وقيل: علماؤهم لدينهم جهالهم، عن الأصم.

٦. ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ أي بئس الفعل فعلهم، تعجيب من الله لنبيه من سوء أفعالهم في ترك النهي عن المنكر، وقسم منه على ذلك.

٧. تدل الآية الكريمة على:

أ. أنهم لعنوا، وأنهم استوجبوا ذلك بفعلهم، فيبطل قول من يقول: إن الثواب والعقاب لا يُسْتَحَقُّ على الأعمال، وأنه يجوز أن يبتدئ بذلك.

ب. أن ذلك اللعن كان على لسان داوود وعيسى، وقد اختلفوا فيه:

• فقيل: إن قوم داوود هم أهل أيلة لما اعتدوا في السبت بأخذ الحيتان على ما قص الله تعالى في سورة الأعراف، قال داوود اللهم العنهم واجعلهم آية)، فمسخوا.

• وقيل: إن داوود وعيسى بشرا بمحمد ﷺ ولَعَنَا من يكذبه، عن الأصم.

• وقيل: إن داوود بلغه أن قومًا يجتمعون على منكر فأتاهم ليعظهم فقالوا: إنا قردة لسنا نفهم ما تقول، قال: ﴿كُونُوا قِرَدَةً﴾، فمسخهم الله، عن الأصم، فأما أصحاب عيسى فإن طائفة من اليهود أولعوا به بعد موت أمه يتبعونه ويرمونه، فدعا عليهم بالمسخ، فمسخوا خنازير.

• وقيل: المسخ كان على مَنْ كفر بعد نزول المائدة.

ج. أن ترك النهي عن المنكر من الكبائر، فتدل على وجوبه وعظم تركه.

٨. مسائل لغوية ونحوية:

أ. زيدت اللام في ﴿ذَلِكَ﴾ لتأكيد معنى التراخي؛ لأن ﴿ذَا﴾ لِمَا قرب، و﴿ذَلِكَ﴾ لما بعد؛ لأنه إذا قرب اكتفي بالإشارة إليه والإقبال عليه في دليل الخطاب، فأما إذا بعد لم يصلح ذلك فيه كما صلح فيما قرب، وأتى بالكاف للخطاب، وأكد ذلك باللام، وكسرت لالتقاء الساكنين، والكاف في ﴿ذَلِكَ﴾ حرف خطاب، وفي غلامك) اسم.

ب. لام ﴿لَبِئْسَ﴾: لام القسم، وفتحت كما فتحت لام الابتداء، إلا أنها لما لم تكن عاملة كعمل لام الإضافة اختير لها أخف الحركات.

الطَبِرسي:

ذكر الفضل الطَبِرسي (ت ٥٤٨ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١ . أخبر تعالى عما جرى على أسلافهم فقال: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾ قيل في معناه أقوال:

أ. أحدها: إن معناه لعنوا على لسان داوود فصاروا قردة، وعلى لسان عيسى، فصاروا خنازير، وإنما خص عيسى وداوود لأنهما أنبه الأنبياء المبعوثين من بعد موسى، ولما ذكر داوود أغنى عن ذكر سليمان، لان قولهما واحد، عن الحسن، ومجاهد، وقتادة، وقال أبو جعفر الباقر عليه السلام: أما داوود فإنه لعن أهل أيلة لما اعتدوا في سبتهم، وكان اعتداؤهم في زمانه، فقال: اللهم ألبسهم اللعنة مثل الرداء، ومثل المنطقة على الحقوين، فمسخهم الله قردة فأما عيسى عليه السلام، فإنه لعن الذين أنزلت عليهم المائدة ثم كفروا بعد ذلك.

ب. ثانيها: ما قاله ابن عباس: إنه يريد في الزبور وفي الإنجيل، ومعنى هذا إن الله تعالى لعن في الزبور من يكفر من بني إسرائيل، وفي الإنجيل كذلك، فلذلك قيل: ﴿عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾

---

(١) تفسير الطبرسي: ٣/٣٥٦.

ج. ثالثها: أن يكون عيسى وداوود علما أن محمدا نبي مبعوث، ولعنا من يكفر به، عن الزجاج.

٢. والأول أصح، والمراد أن الله أيسهم من المغفرة مع الإقامة على الكفر، لدعاء الأنبياء عليهم بالعقوبة، ودعوتهم مستجابة، وإنما ذكر اللعن على لسانهما، إزالة للإيهام بأن لهم منزلة بولادة الأنبياء، تنجيهم من العقوبة.

٣. ﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إلى اللعن المتقدم ذكره ﴿بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ أي: بمعصيتهم واعتدائهم.

٤. ثم بين تعالى حالهم، فقال: ﴿كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ﴾ أي: لم يكن ينهى بعضهم بعضا، ولا ينتهون أي: لا يكفون عما نهوا عنه، قال ابن عباس: كان بنو إسرائيل ثلاث فرق: فرقة اعتدوا في السبت، وفرقة نهوهم، ولكن لم يدعو مجالستهم ولا مؤاكلتهم، وفرقة لما رأوهم يعتدون ارتحلوا عنهم، وبقيت الفرقتان المعتدية والناهية المخالطة، فلعنوا جميعا، ولذلك قال رسول الله ﷺ: لتأمرن بالمعروف ولتنهن عن المنكر، ولتأخذن على يد السفيه، ولتأطرنه على الحق أطرا، أو ليضربن الله قلوب بعضكم على بعض، ويلعنكم كما لعنهم.

٥. للتناهي هاهنا معنيان:

أ. أحدهما: إنه تفاعل من النهي أي: كانوا لا ينهى بعضهم بعضا.

ب. الثاني: إنه بمعنى الانتهاء، يقال: انتهى عن الامر، وتناهى عنه: إذا كف عنه.

٦. إنما سمي القبيح منكرا: لأنه ينكره العقل، من حيث إن العقل يقبل الحسن، ويعترف به، ولا يأباه، وينكر القبيح ويأباه: وما ينكره العقل فهو الباطل، وما يقر به، فهو الحق:

أ. وقيل: إن المراد بالمنكر هنا: صيدهم السمك يوم السبت.

ب. وقيل: هو أخذهم الرشى في الاحكام.

ج. وقيل: أكلهم الربا وأثمان الشحوم.

٧. ثم أقسم سبحانه فقال: ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ أي: بئس شيئا فعلهم.

ابن الجوزي:

ذكر أبو الفرج بن الجوزي (ت ٥٩٧ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ في لعنهم قولان:

أ. أحدهما: أنه نفس اللعن، ومعناه المباعدة من الرّحمة، قال ابن عباس: لعنوا على لسان داوود فصاروا قردة، ولعنوا على لسان عيسى في الإنجيل، قال الزجّاج: وجائز أن يكون داوود وعيسى أعلما أنّ محمّدا نبيّ، ولعنا من كفر به.

ب. الثاني: أنه المسخ، قاله مجاهد، لعنوا على لسان داوود فصاروا قردة، وعلى لسان عيسى، فصاروا خنازير، وقال الحسن، وقتادة: لعن أصحاب السّبت على لسان داوود فإنهم لمّا اعتدوا، قال داوود اللهمّ العنهم، واجعلهم آية، فمسخوا قردة، ولعن أصحاب المائدة على لسان عيسى، فإنّهم لمّا أكلوا منها ولم يؤمنوا؛ قال عيسى: اللهمّ العنهم كما لعنت أصحاب السّبت، فجعلوا خنازير.

٢. ﴿ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا﴾ أي: ذلك اللعن بمعصيتهم لله تعالى في مخالفتهم أمره ونهيه، وباعتدائهم في مجاوزة ما حدّه لهم.

٣. ﴿كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ﴾ التّناهي: تفاعل من النّهي، أي: كانوا لا ينهى بعضهم بعضا عن المنكر، وذكر المفسّرون في هذا المنكر ثلاثة أقوال:

أ. أحدها: صيد السّمك يوم السّبت.

ب. الثاني: أخذ الرّشوة في الحكم.

ج. الثالث: أكل الرّبا، وأثمان الشّحوم.

٤. ذكر المنكر منكّرا يدلّ على الإطلاق، ويمنع هذا الحصر، ويدلّ على ذلك ما روي عن النبيّ ﷺ أنه قال: (إنّ الرجل من بني إسرائيل كان إذا رأى أخاه على الذّنب نهاه عنه تعذيرا، فإذا كان الغد لم يمنعه ما رأى منه أن يكون أكيله وخليطه وشريبه، فلمّا رأى الله تعالى ذلك منهم ضرب بقلوب بعضهم على بعض ولعنهم على لسان داوود وعيسى ابن مريم)

٥. ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ قال الزجّاج: اللّام دخلت للقسم والتّوكيد، والمعنى: لبئس شيئا

---

(١) زاد المسير في علم التفسير: ١/٥٧٤.

فعلهم.

الرَّازي:

ذكر الفخر الرازي (ت ٦٠٦ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. لما خاطب الله تعالى أهل الكتاب بهذا الخطاب وصف أسلافهم فقال تعالى: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾، قال أكثر المفسرين: يعني أصحاب السبت، وأصحاب المائدة:

أ. أما أصحاب السبت فهو أن قوم داوود وهم أهل (ايلة) لما اعتدوا في السبت بأخذ الحيتان على ما ذكر الله تعالى هذه القصة في سورة الأعراف قال داوود اللهم العنهم واجعلهم آية فمسخوا قردة.

ب. وأما أصحاب المائدة فإنهم لما أكلوا من المائدة ولم يؤمنوا قال عيسى: اللهم العنهم كما لعنت أصحاب السبت فأصبحوا خنازير، وكانوا خمسة آلاف رجل ما فيهم امرأة ولا صبي.

٢. قال بعض العلماء: إن اليهود كانوا يفتخرون بأنا من أولاد الأنبياء، فذكر الله تعالى هذه الآية لتدل على أنهم ملعونون على ألسنة الأنبياء، وقيل: أن داوود وعيسى عليهما السلام بشرا بمحمد ﷺ، ولعنا من يكذبه، وهو قول الأصم.

٣. ﴿ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ والمعنى أن ذلك اللعن كان بسبب أنهم يعصون ويبالغون في ذلك العصيان.

٤. ثم إنه تعالى فسّر المعصية والاعتداء بقوله: ﴿كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ﴾ وللتناهي هاهنا معنيان:

أ. أحدهما: وهو الذي عليه الجمهور أنه تفاعل من النهي، أي كانوا لا ينهى بعضهم بعضا، روى ابن مسعود عن النبي ﷺ أنه قال: (من رضي عمل قوم فهو منهم ومن كثر سواد قوم فهو منهم)

ب. الثاني في التناهي: أنه بمعنى الانتهاء، يقال: انتهى عن الأمر، وتناهى عنه إذا كف عنه.

٥. ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ اللام في ﴿لَبِئْسَ﴾ لام القسم، كأنه قال أقسم لبئس ما كانوا

---

(١) التفسير الكبير: ٤١٢/١٢.

يفعلون، وهو ارتكاب المعاصي والعدوان، وترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

٦. سؤال وإشكال: الانتهاء عن الشيء بعد أن صار مفعولا غير ممكن فلم ذمهم عليه؟ والجواب: من وجوه:

أ. الأول: أن يكون المراد لا يتناهون عن معاودة منكر فعلوه

ب. الثاني: لا يتناهون عن منكر أرادوا فعله وأحضروا آلاته وأدواته.

ج. الثالث: لا يتناهون عن الإصرار على منكر فعلوه.

القرطبي:

ذكر محمد بن أحمد القرطبي (ت ٦٧١ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. في قوله تعالى: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾ جواز لعن الكافرين وإن كانوا من أولاد الأنبياء، وأن شرف النسب لا يمنع إطلاق اللعنة في حقهم.

٢. ومعنى ﴿عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾ أي لعنوا في الزبور والإنجيل، فإن الزبور لسان داوود والإنجيل لسان عيسى أي لعنهم الله في الكتابين، وقد تقدم اشتقاقهما، قال مجاهد وقتادة وغيرهما، لعنهم مسخهم قردة وخنازير، قال أبو مالك: الذين لعنوا على لسان داوود مسخوا قردة، والذين لعنوا على لسان عيسى مسخوا خنازير، وقال ابن عباس: الذين لعنوا على لسان داوود أصحاب السبت، والذين لعنوا على لسان عيسى الذين كفروا بالمائدة بعد نزولها، وروي نحوه عن النبي ﷺ، وقيل: لعن الأسلاف والأخلاف ممن كفر بمحمد ﷺ على لسان داوود وعيسى، لأنهما أعلما أن محمدا ﷺ نبي مبعوث فلعنا من يكفر به.

٣. ﴿ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا﴾، ذلك في موضع رفع بالابتداء أي ذلك اللعن بما عصوا، أي بعصيانهم، ويجوز أن يكون على إضمار مبتدأ، أي الأمر ذلك، ويجوز أن يكون في موضع نصب أي فعلنا ذلك بهم لعصيانهم واعتدائهم.

٤. ﴿كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ﴾، أي لا ينهى بعضهم بعضا: ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾

(١) تفسير القرطبي: ٦/٢٥٢.

ذم لتركهم النهي، وكذا من بعدهم يذم من فعل فعلهم، خرج أبو داوود عن عبد الله بن مسعود قال قال رسول الله ﷺ: (إن أول ما دخل النقص على بني إسرائيل كان الرجل أول ما يلقى الرجل فيقول يا هذا اتق الله ودع ما تصنع فإنه لا يحل لك ثم يلقاه من الغد فلا يمنعه ذلك أن يكون أكيله وشريبه وقعيده فلما فعلوا ذلك ضرب الله قلوب بعضهم ببعض ثم قال لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داوود وعيسى ابن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون) إلى قوله: ﴿فَاسِقُونَ﴾ ثم قال: (كلا والله لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر ولتأخذن على يدي الظالم ولتأطرنه على الحق ولتقصرنه على الحق قصرا أو ليضربن الله بقلوب بعضكم على بعض وليلعننكم كما لعنهم)، وخرجه الترمذي أيضا، ومعنى لتأطرنه لتردنه:

أ. قال ابن عطية: والإجماع منعقد على أن النهي عن المنكر فرض لمن أطاقه وأمن الضرر على نفسه وعلى المسلمين، فإن خاف فينكر بقلبه ويهجر ذا المنكر ولا يخالطه.

ب. وقال حذاق أهل العلم: وليس من شرط الناهي أن يكون سليما عن معصية بل ينهى العصاة بعضهم بعضا، وقال بعض الأصوليين: فرض على الذين يتعاطون الكئوس أن ينهى بعضهم بعضا، واستدلوا بهذه الآية، قالوا: لأن قوله: ﴿كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ﴾ يقتضي اشتراكهم في الفعل وذمهم على ترك التناهي.

٥. وفي الآية دليل على النهي عن مجالسة المجرمين وأمر بتركهم وهجرانهم، وأكد ذلك بقوله في الإنكار على اليهود: ﴿تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ و﴿مَا﴾ من قوله: ﴿مَا كَانُوا﴾ يجوز أن تكون في موضع نصب وما بعدها نعت لها، التقدير لبئس شيئا كانوا يفعلونه، أو تكون في موضع رفع وهي بمعنى الذي.

الشوكاني:

ذكر محمد بن علي الشوكاني (ت ١٢٥٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ أي لعنهم الله سبحانه ﴿عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ

(١) فتح القدير: ٢/٧٧.

مَرْيَمَ﴾ أي في الزبور والإنجيل على لسان داوود وعيسى بما فعلوه من المعاصي كاعتدائهم في السبت وكفرهم بعيسى.

٢. ﴿ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا﴾ جملة مستأنفة جواب عن سؤال مقدر، والإشارة بذلك إلى اللعن: أي ذلك اللعن بسبب المعصية والاعتداء لا بسبب آخر.

٣. ثم بين سبحانه المعصية والاعتداء بقوله: ﴿كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ﴾ فأسند الفعل إليهم لكون فاعله من جملتهم وإن لم يفعلوه جميعا، والمعنى: أنهم كانوا لا ينهون العاصي عن معاودة معصية قد فعلها، أو تهيّأ لفعلها، ويحتمل أن يكون وصفهم بأنهم قد فعلوا المنكر باعتبار حالة النزول لا حالة ترك الإنكار، وبيان العصيان والاعتداء بترك التناهي عن المنكر لأن من أخلّ بواجب لأنفسهم ليردوا عليه يوم القيامة.

أَطَّفَيِّش:

ذكر محمد أَطَّفَيِّش (ت ١٣٣٢ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن بَنِي إِسْرَآءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ﴾ اعتدى قوم من اليهود واصطادوا الحوت في السبت، وهم أصحاب (أيلة)، على عهد داود عليه السلام قبل عيسى، فدعا عليهم فقال: (اللهمَّ العنهم واجعلهم قردة) فمسخوا قردة.

٢. ﴿وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾ أكل ناسٌ من قوم عيسى من المائدة وادَّخروا ولم يؤمنوا، فدعا عليهم عيسى فقال اللهمَّ: (العنهم واجعلهم قردة وخنازير)، فمسخوا قردة وخنازير، وهم خمسة آلاف ليس فيهم صبيٌّ ولا امرأة.

٣. وقيل: معنى لعنِهم على لسان داود وعيسى: إنزالُ لعنهم من الله عليهما، بأن قال لهما في الزبور والإنجيل: من كفر بالله أو بواحد من أنبيائه فقد لعنته، أو أوحى إليهما على لسان جبريل، وقال الزجَّاج: أمر الله تعالى داود وعيسى أن يؤمنا بمحمَّدٍ ﷺ ويلعنا من كفر به، والمراد باللسان الحقيقة، فشمل لسانين، ويجوز في العربيَّة: (على لسانَيْ داود وعيسى) بالتثنية، ويجوز فيها: (على ألسنة) بالجمع.

---

(١) تيسير التفسير، أطفيش: ١٠١/٤.

٤. ﴿ذَٰلِكَ﴾ اللعن المقتضي للمسخ، ﴿بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ﴾ أي: بعصيانهم وكونهم يعتدون فيما بينهم وبين رَبِّهم، ويعتدون فيما بينهم وبين الخلق، أو العصيان: الصغائر، والاعتداء: الكبائر، أو أَعَمُّ، والاعتداء في السبت، والكفرُ بعد الأكل من المائدة، ويجوز عطف (كَانُوا يَعْتَدُونَ..) إلخ، على (ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوْا)، أو على (لُعِنَ..) إلخ عطفَ قصَّة على أخرى، [قلت] ولا أجيزُ واو الاستئناف، واختار أبو حيَّان الاستئناف وقال: يدلُّ له تفسير ذلك بقوله تعالى:

٥. ﴿كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ﴾ لا ينهى بعضهم بعضًا عنه، أو لا ينتهون عنه، والأوَّل أصل في التفاعل، وما فُعِلَ لا يُنهى عنه لفوته، إذ لا يمكن تصييره غير مفعول وقد فُعِلَ، فالمنكر في الآية غير مفعول إلَّا بعدُ، والمراد: عن منكر أرادوا فِعْلَه، فالفعل مؤوَّل بسببه وملزومه وهو الإرادة، أو المراد: لا يتناهون عن مثل منكر فعلوه من صنفه أو من سائر المعاصي، وكذا إذا فُسِّرَ التناهي بالانتهاء يحتاج إلى أحد هذه التأويلات؛ لأنَّ ما فُعِل لا يُنتَهَى عنه، فالمعنَى: لا يريدون الانتهاء أو لا يستعملون مثل ما هو انتهاء عن ذلك، والمنكر على العموم، والإفراد له نوعيٌّ لا شخصيٌّ، وقيل: المراد الصيد يوم السبت، وقيل: الرشوة في الحكم، وقيل: الربا وأثمان الشحوم.

٦. ﴿لَبِيسَ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ﴾ إنشاءٌ لذمِّ فعلهم، وتعجيبٌ مؤكَّد بالقسم، أي: والله لبئس، أو بلام الابتداء على أنَّها للابتداء؛ لأنَّ الفعل الجامد كالاسم، والمراد: ما كانوا يفعلون من المناكر، أو من ترك النهي، أو منهما وهو أَعَمُّ فائدة، وشُهِرَ تفسيرُه بترك النهي، قال حذيفة عنه ﷺ: (والذي نفسي بيده لتأمُرُنَّ بالمعروف، ولتَنْهَوُنَّ عن المنكر، أو ليوشِكَنَّ الله أن يبعث عليكم عقابًا من عنده، ثمَّ لتَدْعُنَّه فلا يستجيب لكم)، وقال ﷺ: (إنَّ الله لا يُعَذِّبُ العامَّة بِذَنْبِ الخاصَّةِ، حتَّى يروا المنكر بين ظُهرَانِيهم وهم قادرون على أن يَنْكُرُوه فلا ينكرُونه، فإذا فعلوا ذلك عَذَّبَ الله تعالى الخاصَّة والعامَّة)، وقال ﷺ: (والذِي نفسُ محمَّدٍ بِيَدِهِ لَيَخْرُجَنَّ من أمَّتي أناس من قبورهم في صور القردة والخنازير بما داهنوا أهل المعاصي، وكفُّوا عن نهيهم وهم يستطيعون)

القاسمي:

ذكر جمال الدين القاسمي (ت ١٣٣٢ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[1]:

١. أخبر تعالى أنه لعن الكافرين من بني إسرائيل فيما أنزله على داوود وعيسى عليهما السلام، بسبب عصيانهم وما عدّد من كبائرهم، فقال سبحانه: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ أي: لعنهم الله عز وجلّ ﴿عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾ أي: لسانيهما، وأفرد لعدم اللبس، إن أريد باللسان الجارحة، وقيل: المراد به الكلام وما نزل عليهما، كذا في (العناية)

٢. ﴿ذَلِكَ﴾ أي: لعنهم الهائل ﴿بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ بقتل الأنبياء واستحلال المعاصي، ﴿كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ﴾ أي: لا ينهى بعضهم بعضا عن ارتكاب المآثم والمحارم، ثم ذمّهم على ذلك ليحذر من ارتكاب مثل الذي ارتكبوه فقال: ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ مؤكدا بلام القسم، تعجيبا من سوء فعلهم، كيف وقد أدّاهم إلى ما شرح من اللعن الكبير.

٣. دلت الآية الكريمة على:

أ. جواز لعنهم.

ب. على المنع من الذرائع التي تبطل مقاصد الشرع، لما رواه أكثر المفسرين، أن الذين لعنهم داوود عليه السلام أهل أيلة الذين اعتدوا في السبت واصطادوا الحيتان فيه، وستأتي قصتهم في (الأعراف)

ج. وجوب النهي عن المنكر، قال الحاكم: وتدل على أن ترك النهي من الكبائر.

٤. الأحاديث في (الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر) كثيرة، ومما يناسب منها هذا المقام:

أ. روى أحمد في معنى الآية عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: لما وقعت بنو إسرائيل في المعاصي نهتهم علماؤهم فلم ينتهوا، فجالسوهم في مجالسهم، أو في أسواقهم، وواكلوهم وشاربوهم، فضرب الله قلوب بعضهم ببعض، ولعنهم على لسان داوود وعيسى ابن مريم، ﴿ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾، وكان رسول الله ﷺ متكئا فجلس فقال: لا، والذي نفسي بيده! حتى تأطروهم على الحق أطرا، أي: تعطفوهم عليه، ورواه الترمذي وقال: حسن غريب، وأخرجه أبو داوود عنه فقال: قال رسول الله ﷺ: إن أول ما دخل النقص على بني إسرائيل أنه كان الرجل يلقى الرجل فيقول يا هذا! اتّق الله، ودع ما

---

(١) تفسير القاسمي: ٤/٢٢٢.

تصنع، فإنه لا يحل لك، ثم يلقاه من الغد فلا يمنعه ذلك أن يكون أكيله وشريبه وقعيده، فلما فعلوا ذلك ضرب الله قلوب بعضهم ببعض ثم قال: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ـ إلى قوله ـ ﴿فَاسِقُونَ﴾، ثم قال كلا والله! لتأمرنّ بالمعروف، ولتنهونّ عن المنكر، ولتأخذن على يد الظالم، ولتأطرنّه على الحق أطرا، أو تقصرنّه على الحق قصرا، زاد في رواية: أو ليضربنّ الله قلوب بعضكم ببعض، ثم يلعنكم كما لعنهم، وكذا رواه الترمذيّ وحسّنه، وابن ماجة.

ب. ما رواه أحمد والترمذيّ عن حذيفة بن اليمان: أن النبيّ ﷺ قال والذي نفسي بيده! لتأمرنّ بالمعروف ولتنهونّ عن المنكر، أو ليوشكنّ الله أن يبعث عليكم عقابا من عنده، ثم لتدعنّه فلا يستجيب لكم.

ج. في (الصحيحين) عن أبي سعيد قال قال رسول الله ﷺ: من رأى منكم منكرا فليغيّره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان.

د. روى أحمد عن عديّ بن عميرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: إنّ الله لا يعذب العامة بعمل الخاصة حتى يروا المنكر بين ظهرانيهم، وهم قادرون على أن ينكروه فلا ينكروه، فإذا فعلوا ذلك عذب الله الخاصة والعامة.

٥. أحاديث أخرى مشكلة: هذه الأحاديث إنما يتروّح بها الضعفة، من نحو العلماء والقادة، وأما من كان لهم الكلمة النافذة والوجاهة التامة فهيهات أن تغني عنهم، وهذه المواعيد الهائلة تخفق فوق رؤوسهم.. ولذا قال الزمخشريّ: فيا حسرة على المسلمين في إعراضهم عن باب التناهي عن المناكير، وقلّة عبئهم به، كأنه ليس من ملّة الإسلام في شيء مع ما يتلون من كتاب الله، وما فيه من المبالغات في هذا الباب، وقد مرّ عند قوله تعالى: ﴿لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ﴾ [المائدة: ٦٣] ما يؤيد ما هنا، فتذكّر:

أ. روى ابن ماجة عن أبي سعيد الخدريّ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: إن الله ليسأل العبد يوم القيامة حتى يقول: ما منعك إذ رأيت المنكر أن تنكره؟ فإذا لقن الله عبدا حجته قال يا ربّ! رجوتك وفرقت الناس، قال الحافظ ابن كثير: تفرّد به ابن ماجة، وإسناده لا بأس به.

ب. روى أحمد والترمذيّ عن حذيفة عن النبي ﷺ قال: لا ينبغي لمسلم أن يذل نفسه، قيل: وكيف يذل نفسه؟ قال يتعرض من البلاء ما لا يطيق، قال الترمذيّ: حسن غريب.

ج. روى ابن ماجة عن أنس بن مالك قال: قيل: يا رسول الله! متى نترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؟ قال إذا ظهر فيكم ما ظهر في الأمم قبلكم، قلنا: يا رسول الله! وما ظهر في الأمم قبلنا؟ قال الملك في صغاركم، الفاحشة في كباركم، والعلم في رذالتكم، قال زيد بن يحيى الخزاعيّ، أحد رواته: معنى قول النبيّ ﷺ (والعلم في رذالتكم) إذا كان العلم في الفساق، تفرّد به ابن ماجة، وله شاهد في حديث أبي ثعلبة يأتي إن شاء الله عند قوله تعالى: ﴿لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ﴾ ـ أفاده ابن كثير.

٦. سؤال وإشكال: كيف وقع ترك التناهي عن المنكر تفسيرا للمعصية والاعتداء؟ والجواب: قال الزمخشريّ: من قبل أن الله تعالى أمر بالتناهي، فكان الإخلال به معصية، وهو اعتداء.

رضا:

ذكر محمد رشيد رضا (ت ١٣٥٤هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. سؤال وإشكال: كيف غلب بني إسرائيل ذلك الضلال والإضلال، وآثر أكثرهم اتباع الهوى على هدى الأنبياء؟ وبماذا آخذهم الله تعالى على هذا الإصرار؟ والجواب: عن ذلك قوله عز وجل: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ اللعن أشد ما يعبر الله تعالى به عن مقته وغضبه، فالملعون منه هو المحروم من لطفه وعنايته، البعيد عن هبوط رأفته ورحمته، وقد كان داوود عليه السلام لعن الذين اعتدوا منهم في السبت أو العاصين المعتدين عامة، والمعتدين في السبت خاصة، ثم لعنهم عيسى عليه السلام وهو آخر الأنبياء المرسلين منهم، وإنما كان سبب ذلك اللعن من الله، الذي استمر هذا الاستمرار، عصيانهم له عز وجل، واعتداؤهم الممتد المستمر، كما يدل عليه قوله تعالى: ﴿وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾، وقد بين عز وجل ذلك العصيان، وسبب استمرارهم على تعدي حدود الله وإصرارهم عليه بقوله: ﴿كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ﴾

٢. ﴿كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ﴾ أي كانوا لا ينهى بعضهم بعضا عن منكر ما من المنكرات مهما اشتد قبحها وعظم ضررها، وإنما النهي عن المنكر حفاظ الدين، وسياج الآداب والفضائل، فإذا ترك تجرأ الفساق على إظهار فسقهم وفجورهم، ومتى صار الدهماء يرون المنكرات بأعينهم، ويسمعونها

---

(١) تفسير المنار: ٦/٤٠٦.

بآذانهم، تزول وحشتها وقبحها من أنفسهم، ثم يتجرأ الكثيرون أو الأكثرون على اقترافها، فالأخبار بهذا الشأن من شؤونهم، أخبار بفشو المنكرات فيهم، وانتشار مفاسدها بينهم، لأن وجود العلة يقتضي وجود المعلول، ولولا استمرار وقوع المنكرات، لما صح أن يكون ترك التناهي شأنا من شؤون القوم ودأبا من دؤوبهم، [وقد بسطنا في مسألة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في تفسير ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ﴾ [النساء: ١٠٤] الآية.

٣. ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ هذا تأكيد قسمي لذم ما كانوا يفعلونه مصرين عليه من اقترف المنكرات والسكوت عليها والرضاء بها، وكفى بذلك إفسادا ذلك شأنهم ودأبهم الذي مردوا واصروا عليه، بينه الله تعالى لرسوله وللمؤمنين عبرة لهم، حتى لا يفعلهم فيكونوا مثلهم، ويحل بهم من لعنة الله وغضبه ما حل بهم، روى أبو داوود والترمذي وحسنه وابن ماجه وغيرهم من حديث ابن مسعود قال قال رسول الله ﷺ (إن أول ما دخل النقص على بني إسرائيل أنه كان الرجل يلقى الرجل فيقول يا هذا اتق الله ودع ما تصنع فإنه لا يحل لك، ثم يلقاه من الغد وهو على حاله فلا يمنعه ذلك أن يكون أكيله وشريبه وقعيده، فلما فعلوا ذلك ضرب الله قلوب بعضهم ببعض ـ ثم قال: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ الآية، ثم قال ﷺ ـ: كلا والله لتأمرن بالمعروف وتنهون عن المنكر، ثم لتأخذن على يد الظالم ولتأطرنه على الحق أطرا، ولتقصرنه على الحق قصرا، أو ليضربن الله قلوب بعضكم ببعض ثم يلعنكم كما يلعنهم) وورد في المعنى عدة أحاديث، فهل من معتبر أو مذكر؟ بل رأينا من آثار غضب الله تعالى مثلما رأى بنو إسرائيل أو قريبا منه، وقد عرفنا سببه ولم نتركه، ونراه يزداد بالإصرار على السبب، ولا نتوب ولا نتذكر!! فإلى متى إلى متى؟

المراغي:

ذكر أحمد بن مصطفى المراغي (ت ١٣٧١ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[1]:

١. بعد أن بين الله تعالى ضلالهم وإضلالهم ذكر أسباب ذلك وأرشد إلى ما أخذهم به، فقال: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرائِيلَ عَلَى لِسانِ داوُدَ وعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذلِكَ بِما عَصَوْا وكانُوا يَعْتَدُونَ﴾ أي

(١) تفسير المراغي: ١٧١/٦

لعن الله الذين كفروا من بنى إسرائيل في الزبور والإنجيل على لسان هذين النبيين، فقد لعن داوود عليه السلام من اعتدى منهم في السبت أو لعن العاصين المعتدين عامة، وكذلك لعنهم عيسى عليه السلام وهو آخر أنبيائهم، وما سبب ذلك اللعن الذي امتدّ واستمر إلا تماديتهم في العصيان وتمردهم على الأديان، كما يدل عليه قوله: ﴿وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾

٢. ثم بين سبحانه أسباب استمرارهم على العصيان وتعدى الحدود فقال: ﴿كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ﴾ أي كان من دأبهم إلا ينهى أحد منهم أحدا عن منكر يقترفه مهما قبح وعظم ضرره، والنهى عن المنكر هو حفاظ الدين، وسياج الفضائل والآداب، فإذا تجرأ المستهترون على إظهار فسقهم وفجورهم ورآهم الغوغاء من الناس قلدوهم فيه، وزال قبحه من نفوسهم، وصار عادة لهم، وزال سلطان الدين من قلوبهم وتركت أحكامه وراءهم ظهريا، وفى الآية إيماء إلى فشوّ المنكرات فيهم وانتشار مفاسدها بينهم، إذ لولا ذلك كان ترك التناهي شأنا من شئونهم، وعادة من عاداتهم.

٣. ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ هذا تقبيح لسوء فعلهم وتعجب منه وذم لهم على اقتراف بعضهم للمنكرات وإصرارهم عليها، وسكوت آخرين ورضاهم بها، وفى سوق الآية إرشاد للمؤمنين وعبرة لهم، حتى لا يفعلوا فعلهم فيكونوا مثلهم ويحل بهم من غضب الله ولعنه مثل ما حل ببني إسرائيل.

٤. والآثار[١] في هذا الباب كثيرة، وفيها وعيد عظيم على ترك التناهي فهل من مدّكر، وإلى متى نعرض عن أوامر ديننا، ولا نرعوى عن غيّنا، ولا نتّبع أوامر شرعنا؟

سيّد:

ذكر سيّد قطب (ت ١٣٨٥ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[٢]:

١. في النهاية يجيء ذلك التقرير الشامل عن موقف أنبياء بني إسرائيل من كفار بني إسرائيل، على مدى التاريخ؛ ممثلا في موقف داوود وموقف عيسى ـ عليهما السلام ـ وكلاهما لعن كفار بني إسرائيل، واستجاب الله له، بسبب عصيانهم وعدوانهم، وبسبب انحلالهم الاجتماعي، وسكوتهم على المنكر يفشو فيهم فلا يتناهون عنه؛ وبسبب توليهم الكافرين؛ فباءوا بالسخط واللعنة، وكتب عليهم الخلود في

---

(١) ذكر هنا بعض الأحاديث والآثار، التي سبق ذكرها.

(٢) في ظلال القرآن: ٢/٩٤٨.

العذاب.

٢. وهكذا يبدو أن تاريخ بني إسرائيل في الكفر والمعصية واللعنة عريق، وأن أنبياءهم الذين أرسلوا لهدايتهم وإنقاذهم، هم في النهاية الذين تولوا لعنتهم وطردهم من هداية الله؛ فسمع الله دعاءهم وكتب السخط واللعنة على بني إسرائيل.

٣. والذين كفروا من بني إسرائيل هم الذين حرفوا كتبهم المنزلة؛ وهم الذين لم يتحاكموا إلى شريعة الله ـ كما مر في المواضع القرآنية المتعددة في هذه السورة وفي السور غيرها ـ وهم الذين نقضوا عهد الله معهم لينصرنّ كل رسول ويعزرونه ويتبعونه: ﴿ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾، فهي المعصية والاعتداء؛ يتمثلان في كل صورهما الاعتقادية والسلوكية على السواء، وقد حفل تاريخ بني إسرائيل بالمعصية والاعتداء.. كما فصل الله في كتابه الكريم.

٤. ولم تكن المعصية والاعتداء أعمالا فردية في مجتمع بني إسرائيل، ولكنها انتهت إلى أن تصبح طابع الجماعة كلها؛ وأن يسكت عنها المجتمع، ولا يقابلها بالتناهي والنكير: ﴿كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾، إن العصيان والعدوان قد يقعان في كل مجتمع من الشريرين المفسدين المنحرفين، فالأرض لا تخلو من الشر.

٥. والمجتمع لا يخلو من الشذوذ، ولكن طبيعة المجتمع الصالح لا تسمح للشر والمنكر أن يصبحا عرفا مصطلحا عليه؛ وأن يصبحا سهلا يجترئ عليه كل من يهم به.. وعند ما يصبح فعل الشر أصعب من فعل الخير في مجتمع من المجتمعات؛ ويصبح الجزاء على الشر رادعا وجماعيا تقف الجماعة كلها دونه؛ وتوقع العقوبة الرادعة عليه.. عندئذ ينزوي الشر، وتنحسر دوافعه، وعندئذ يتماسك المجتمع فلا تنحل عراه، وعندئذ ينحصر الفساد في أفراد أو مجموعات يطاردها المجتمع، ولا يسمح لها بالسيطرة؛ وعندئذ لا تشيع الفاحشة، ولا تصبح هي الطابع العام!

٦. والمنهج الإسلامي ـ بعرضه لهذه الظاهرة في المجتمع الإسرائيلي ـ في صورة الكراهية والتنديد، يريد للجماعة المسلمة أن يكون لها كيان حي متجمع صلب؛ يدفع كل بادرة من بوادر العدوان والمعصية، قبل أن تصبح ظاهرة عامة؛ ويريد للمجتمع الإسلامي أن يكون صلبا في الحق، وحساسا تجاه الاعتداء عليه؛ ويريد للقائمين على الدين أن يؤدوا أمانتهم التي استحفظوا عليها، فيقفوا في وجه الشر والفساد

والطغيان والاعتداء.. ولا يخافوا لومة لائم، سواء جاء هذا الشر من الحكام المتسلطين بالحكم؛ أو الأغنياء المتسلطين بالمال؛ أو الأشرار المتسلطين بالأذي؛ أو الجماهير المتسلطة بالهوى، فمنهج الله هو منهج الله، والخارجون عليه علوا أم سفلوا سواء.

٧. والإسلام يشدد في الوفاء بهذه الأمانة؛ فيجعل عقوبة الجماعة عامة بما يقع فيها من شر إذا هي سكتت عليه؛ ويجعل الأمانة في عنق كل فرد، بعد أن يضعها في عنق الجماعة عامة، روى أحمد ـ بإسناده ـ عن عبد الله بن مسعود، قال قال رسول الله ﷺ: (لما وقعت بنو إسرائيل في المعاصي نهتهم علماؤهم فلم ينتهوا فجالسوهم في مجالسهم، وواكلوهم وشاربوهم، فضرب الله بعضهم ببعض، ولعنهم على لسان داوود وعيسى بن مريم.. (ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون)، وكان الرسول ﷺ متكئا فجلس، فقال: (ولا والذي نفسي بيده حتى تأطروهم على الحق أطرا)، وروى أبو داوود ـ بإسناده ـ عن عبد الله بن مسعود قال قال رسول الله ﷺ (إن أول ما دخل النقص على بني إسرائيل كان الرجل يلقى الرجل، فيقول: يا هذا اتق الله ودع ما تصنع فإنه لا يحل لك، ثم يلقاه من الغد، فلا يمنعه ذلك أن يكون أكيله وشريبه وقعيده، فلما فعلوا ذلك ضرب الله قلوب بعضهم ببعض)، ثم قال: (لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داوود وعيسى بن مريم) ـ إلى قوله: (فاسقون) ثم قال: (كلا والله لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر، ولتأخذن على يد الظالم، ولتأطرنه على الحق أطرا ـ أو تقصرنه على الحق قصرا ـ) فليس هو مجرد الأمر والنهي، ثم تنتهي المسألة، إنما هو الإصرار، والمقاطعة، والكف بالقوة عن الشر والفساد والمعصية والاعتداء، وروى مسلم ـ بإسناده ـ عن أبي سعيد الخدري قال قال رسول الله ﷺ (من رأى منكم منكرا فليغيره بيده؛ فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه.. وذلك أضعف الإيمان)، وروى أحمد ـ بإسناده ـ عن عدي بن عميرة قال ـ سمعت رسول الله ﷺ يقول: (إن الله لا يعذب العامة بعمل الخاصة، حتى يروا المنكر بين ظهرانيهم ـ وهم قادرون على أن ينكروه ـ فلا ينكرونه، فإذا فعلوا عذب الله العامة والخاصة)، وروى أبو داوود والترمذي ـ بإسناده ـ عن أبي سعيد قال قال رسول الله ﷺ: (أفضل الجهاد كلمة حق عند إمام جائر)

٨. وتتوارد النصوص القرآنية والنبوية تترى في هذا المعنى؛ لأن هذا التماسك في كيان الجماعة بحيث لا يقول أحد فيها ـ وهو يرى المنكر يقع من غيره ـ: وأنا ما لي!؟ وهذه الحمية ضد الفساد في المجتمع، بحيث لا يقول أحد ـ وهو يرى الفساد يسري ويشيع ـ وماذا أصنع والتعرض للفساد يلحق بي الأذى!؟

وهذه الغيرة على حرمات الله، والشعور بالتكليف المباشر بصيانتها والدفع عنها للنجاة من الله.. هذا كله هو قوام الجماعة المسلمة الذي لا قيام لها إلا به..

٩. وهذا كله في حاجة إلى الإيمان الصحيح بالله؛ ومعرفة تكاليف هذا الإيمان وإلى الإدراك الصحيح لمنهج الله؛ ومعرفة أنه يشمل كل جوانب الحياة، وإلى الجد في أخذ العقيدة بقوة، والجهد لإقامة المنهج الذي ينبثق منها في حياة المجتمع كله.. فالمجتمع المسلم الذي يستمد قانونه من شريعة الله؛ ويقيم حياته كلها على منهجه؛ هو المجتمع الذي يسمح للمسلم أن يزاول حقيقة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ بحيث لا يصبح هذا عملا فرديا ضائعا في الخضم؛ أو يجعله غير ممكن أصلا في كثير من الأحيان! كما هو الحال في المجتمعات الجاهلية القائمة اليوم في أرجاء الأرض؛ والتي تقيم حياتها على تقاليد ومصطلحات اجتماعية تسترذل تدخل أحد في شأن أحد؛ وتعتبر الفسق والفجور والمعصية (مسائل شخصية)! ليس لأحد أن يتدخل في شأنها.. كما تجعل من الظلم والبطش والاعتداء والجور سيفا مصلتا من الإرهاب يلجم الأفواه، ويعقد الألسنة، وينكل بمن يقول كلمة حق أو معروف في وجه الطغيان.

١٠. إن الجهد الأصيل، والتضحيات النبيلة يجب أن تتجه أولا إلى إقامة المجتمع الخير.. والمجتمع الخير هو الذي يقوم على منهج الله.. قبل أن ينصرف الجهد والبذل والتضحية إلى إصلاحات جزئية، شخصية وفردية؛ عن طريق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وحين يتخذ له شريعة غير شريعة الله، فينبغي عندئذ أن تبدأ المحاولة من الأساس، وأن تنبت من الجذور؛ وأن يكون الجهد والجهاد لتقرير سلطان الله في الأرض.. وحين يستقر هذا السلطان يصبح الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر شيئا يرتكن إلى أساس.

١١. وهذا يحتاج إلى إيمان، وإلى إدراك لحقيقة هذا الإيمان ومجاله في نظام الحياة، فالإيمان على هذا المستوي هو الذي يجعل الاعتماد كله على الله؛ والثقة كلها بنصرته للخير - مهما طال الطريق - واحتساب الأجر عنده، فلا ينتظر من ينهض لهذه المهمة جزاء في هذه الأرض، ولا تقديرا من المجتمع الضال، ولا نصرة من أهل الجاهلية في أي مكان! إن كل النصوص القرآنية والنبوية التي ورد فيها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كانت تتحدث عن واجب المسلم في مجتمع مسلم، مجتمع يعترف ابتداء بسلطان الله، ويتحاكم إلى شريعته، مهما وجد فيه من طغيان الحكم، في بعض الأحيان، ومن شيوع الإثم في بعض

الأحيان.. وهكذا نجد في قول الرسول ﷺ: (أفضل الجهاد كلمة حق عند إمام جائر).. فهو (إمام) ولا يكون إماما حتى يعترف ابتداء بسلطان الله؛ وبتحكيم شريعته، فالذي لا يحكم شريعة الله لا يقال له: (إمام) إنما يقول عنه الله سبحانه ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾

١٢. فأما المجتمعات الجاهلية التي لا تتحاكم إلى شريعة الله، فالمنكر الأكبر فيها والأهم، هو المنكر الذي تنبع منه كل المنكرات.. هو رفض ألوهية الله برفض شريعته للحياة.. وهذا المنكر الكبير الأساسي الجذري هو الذي يجب أن يتجه إليه الإنكار، قبل الدخول في المنكرات الجزئية، التي هي تبع لهذا المنكر الأكبر، وفرع عنه، وعرض له.. إنه لا جدوى من ضياع الجهد.. جهد الخيرين الصالحين من الناس.. في مقاومة المنكرات الجزئية، الناشئة بطبيعتها من المنكر الأول.. منكر الجرأة على الله وادعاء خصائص الألوهية، ورفض ألوهية الله، برفض شريعته للحياة.. لا جدوى من ضياع الجهد في مقاومة منكرات هي مقتضيات ذلك المنكر الأول وثمراته النكدة بلا جدال.

١٣. على أنه إلام نحاكم الناس في أمر ما يرتكبونه من منكرات؟ بأي ميزان نزن أعمالهم لنقول لهم: إن هذا منكر فاجتنبوه؟ أنت تقول: إن هذا منكر؛ فيطلع عليك عشرة من هنا ومن هناك يقولون لك: كلا! ليس هذا منكرا، لقد كان منكرا في الزمان الخالي! والدنيا (تتطور)، والمجتمع (يتقدم) وتختلف الاعتبارات! فلا بد إذن من ميزان ثابت نرجع إليه بالأعمال، ولا بد من قيم معترف بها نقيس إليها المعروف والمنكر، فمن أين نستمد هذه القيم؟ ومن أين نأتي بهذا الميزان؟ من تقديرات الناس وعرفهم وأهوائهم وشهواتهم ـ وهي متقلبة لا تثبت على حال؟ إننا ننتهي إذن إلى متاهة لا دليل فيها، وإلى خضم لا معالم فيه! فلا بد ابتداء من إقامة الميزان.. ولا بد أن يكون هذا الميزان ثابتا لا يتأرجح مع الأهواء.. هذا الميزان الثابت هو ميزان الله.. فماذا إذا كان المجتمع لا يعترف ـ ابتداء ـ بسلطان الله؟ ماذا إذا كان لا يتحاكم إلى شريعة الله؟ بل ماذا إذا كان يسخر ويهزأ ويستنكر وينكل بمن يدعوه إلى منهج الله؟ ألا يكون جهدا ضائعا، وعبثا هازلا، أن تقوم في مثل هذا المجتمع لتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، في جزئيات وجانبيات من شئون الحياة، تختلف عليها الموازين والقيم، وتتعارض فيها الآراء والأهواء!؟ إنه لا بد من الاتفاق مبدئيا على حكم، وعلى ميزان، وعلى سلطان، وعلى جهة يرجع إليها المختلفون في الآراء والأهواء..

١٤. لا بد من الأمر بالمعروف الأكبر وهو الاعتراف بسلطان الله ومنهجه للحياة، والنهي عن

المنكر الأكبر وهو رفض ألوهية الله برفض شريعته للحياة.. وبعد إقامة الأساس يمكن أن يقام البنيان!

فلتوفر الجهود المبعثرة إذن، ولتحشد كلها في جبهة واحدة، لإقامة الأساس الذي عليه وحده يقام البنيان!

وإن الإنسان ليرثي أحيانا ويعجب لأناس طيبين، ينفقون جهدهم في (الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر) في الفروع؛ بينما الأصل الذي تقوم عليه حياة المجتمع المسلم؛ ويقوم عليه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، مقطوع! فما غناء أن تنهى الناس عن أكل الحرام مثلا في مجتمع يقوم اقتصاده كله على الربا؛ فيستحيل ماله كله حراما؛ ولا يملك فرد فيه أن يأكل من حلال.. لأن نظامه الاجتماعي والاقتصادي كله لا يقوم على شريعة الله، لأنه ابتداء يرفض ألوهية الله برفض شريعته للحياة!؟

١٥. وما غناء أن تنهى الناس عن الفسق مثلا في مجتمع قانونه لا يعتبر الزنا جريمة ـ إلا في حالة الإكراه ـ ولا يعاقب حتى في حالة الإكراه بشريعة الله.. لأنه ابتداء يرفض ألوهية الله برفض شريعته للحياة!؟ وما غناء أن تنهى الناس عن السكر في مجتمع قانونه يبيح تداول وشرب الخمر، ولا يعاقب إلا على حالة السكر البين في الطريق العام، وحتى هذه لا يعاقب فيها بحد الله، لأنه لا يعترف ابتداء بحاكمية الله!؟ وما غناء أن تنهى الناس عن سب الدين؛ في مجتمع لا يعترف بسلطان الله؛ ولا يعبد فيه الله، إنما هو يتخذ أربابا من دونه؛ ينزلون له شريعته وقانونه؛ ونظامه وأوضاعه، وقيمه وموازينه، والساب والمسبوب كلاهما ليس في دين الله، إنما هما وأهل مجتمعهما طرا في دين من ينزلون لهم الشرائع والقوانين؛ ويضعون لهم القيم والموازين!؟ ما غناء الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في مثل هذه الأحوال؟ ما غناء النهي عن هذه الكبائر ـ فضلا عن أن يكون النهي عن الصغائر ـ والكبيرة الكبرى لا نهي عنها.. كبيرة الكفر بالله، برفض منهجه للحياة!؟ إن الأمر أكبر وأوسع وأعمق، مما ينفق فيه هؤلاء (الطيبون) جهدهم وطاقتهم واهتمامهم.. إنه ـ في هذه المرحلة ـ ليس أمر تتبع الفرعيات ـ مهما تكن ضخمة حتى ولو كانت هي حدود الله، فحدود الله تقوم ابتداء على الاعتراف بحاكمية الله دون سواه، فإذا لم يصبح هذا الاعتراف حقيقة واقعة؛ تتمثل في اعتبار شريعة الله هي المصدر الوحيد للتشريع؛ واعتبار ربوبية الله وقوامته هي المصدر الوحيد للسلطة.. فكل جهد في الفروع ضائع؛ وكل محاولة في الفروع عبث.. والمنكر الأكبر أحق بالجهد والمحاولة من سائر المنكرات.. والرسول ﷺ يقول: (من رأى منكم منكرا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان)..

١٦. وقد يجيء على المسلمين زمان لا يستطيعون فيه تغيير المنكر بأيديهم؛ ولا يستطيعون فيه تغيير المنكر بألسنتهم؛ فيبقى أضعف الإيمان وهو تغييره بقلوبهم؛ وهذا ما لا يملك أحد أن يحول بينهم وبينه، إن هم كانوا حقا على الإسلام! وليس هذا موقفا سلبيا من المنكر ـ كما يلوح في بادئ الأمر ـ وتعبير الرسول ﷺ بأنه تغيير دليل على أنه عمل إيجابي في طبيعته، فإنكار المنكر بالقلب، معناه احتفاظ هذا القلب بإيجابيته تجاه المنكر.. إنه ينكره ويكرهه ولا يستسلم له، ولا يعتبره الوضع الشرعي الذي يخضع له ويعترف به..

١٧. وإنكار القلوب لوضع من الأوضاع قوة إيجابية لهدم هذا الوضع المنكر، ولإقامة الوضع (المعروف) في أول فرصة تسنح، وللتربص بالمنكر حتى تواتي هذه الفرصة.. وهذا كله عمل إيجابي في التغيير.. وهو على كل حال أضعف الإيمان فلا أقل من أن يحتفظ المسلم بأضعف الإيمان أما الاستسلام للمنكر لأنه واقع، ولأن له ضغطا ـ قد يكون ساحقا ـ فهو الخروج من آخر حلقة، والتخلي حتى عن أضعف الإيمان هذ وإلا حقت على المجتمع اللعنة التي حقت على بني إسرائيل: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾

الخطيب:

ذكر عبد الكريم الخطيب (ت ١٣٩٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. الذين كفروا من بنى إسرائيل هم عامّة بنى إسرائيل ومعظمهم، ولم يجيء النصّ القرآني عامّا شاملا بلعن بنى إسرائيل جميعا حتى لا يدخل الذين سلم لهم دينهم منهم، تحت هذا الحكم، فيكون ذلك مدعاة إلى سوء ظنّهم بأنفسهم.. أولا، وبالله.. ثانيا، ومن جهة أخرى فإن النصّ القرآني قد حمل ـ معه إلى جانب اللعنة التي رمى الله بها هؤلاء القوم ـ حمل وصفا كاشفا لهم، وهو أنهم كفروا، ولو جاء النظم القرآني هكذا: (لعن بنو إسرائيل على لسان داوود وعيسى ابن مريم) لدخل معهم في هذه اللعنة الذين آمنوا منهم، ثم لم يكن هذا الوصف بالكفر مصاحبا لتلك اللعنة صبّت عليهم.

٢. ﴿عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾ أي أن الله وجّه حكمه باللعنة على الذين كفروا من بنى

(١) التفسير القرآني للقرآن: ٣/١١٥٤.

إسرائيل، محمولا على لسان داوود وعيسى ابن مريم.. فقد لعنهم الله سبحانه مرتين.. مرة على لسان (داود)، ومرة على لسان ﴿عِيسَى﴾ عليهما السلام.

٣. ولا نسأل ماذا كانت لعنة داوود لهم، ولا عن أي شيء كانت تلك اللعنة التي رماهم الله بها على لسان داوود وكذلك الشأن في اللعنة التي جاءتهم على لسان المسيح.. فقد غيّر القوم وبدّلوا في زبور داوود وفي إنجيل عيسى، والذي علينا أن نؤمن به، هو أن الله لعن اليهود هذه اللعنات على لسان هذين النبيين الكريمين.

٤. ﴿كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ﴾ هو بيان لسبب آخر من أسباب اللعنة التي لعن الله بها بنى إسرائيل، وهي أنهم مع عدوانهم على حرمات الله، وتطاولهم على أنبيائه بالتكذيب وبالقتل، فإنه لم يكن فيهم من رشيد ينكر عليهم هذا المنكر، ويردّهم عن هذا الضلال.. ﴿كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ﴾ أي لا ينهى محسنهم مسيئهم، ولا يأخذ عالمهم بيد جاهلهم، فلا تناصح بينهم على معروف، ولا تناهى عن منكر.. وليس هذا شأن الجماعة السليمة، المتنبهة لكل آفة تعرض لأى عضو من أعضائها.

٥. فجماعة اليهود جماعة يعيش كل فرد فيها في ذات نفسه، لا يعنيه إلا ما يتصل به اتصالا مباشرا، ولا عليه أن يهلك الناس جميعا.. وليس هذا شأن عامتهم وحسب، بل هو شأن رؤسائهم وأصحاب السلطة الروحية فيهم، وقد نصّ الله عليهم ذلك بقوله: (لَوْ لا يَنْهاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ ما كانُوا يَصْنَعُونَ) [المائدة: ٦٣]

٦. ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ هو تجريم لأفعال اليهود جميعا، عامتهم وخاصتهم، علماؤهم وجهلاؤهم.. أفعالهم كلها منكرة، لا تتحرّى الحق، ولا تستقيم عليه.

ابن عاشور:

ذكر محمد الطاهر بن عاشور (ت ١٣٩٣ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي(١):

١. جملة ﴿لُعِنَ﴾ مستأنفة استئنافا ابتدائيا فيها تخلّص بديع لتخصيص اليهود بالإنحاء عليهم دون النّصارى، وهي خبريّة مناسبة لجملة ﴿قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ﴾ [المائدة: ٧٧]، تتنزّل منها منزلة الدّليل، لأنّ

(١) التحرير والتنوير: ٥/١٨٠.

فيها استدلالا على اليهود بما في كتبهم وبما في كتب النّصارى، والمقصود إثبات أنّ الضّلال مستمرّ فيهم فإنّ ما بين داوود وعيسى أكثر من ألف سنة.

٢. و﴿عَلَى﴾ في قوله: ﴿عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ﴾ للاستعلاء المجازي المستعمل في تمكّن الملابسة، فهي استعارة تبعيّة لمعنى باء الملابسة مثل قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ﴾ [البقرة: ٥]، قصد منها المبالغة في الملابسة، أي لعنوا بلسان داوود أي بكلامه الملابس للسانه، وقد ورد في سفر الملوك وفي سفر المزامير أنّ داوود لعن الّذين يبدّلون الدّين، وجاء في المزمور الثّالث والخمسين (الله من السّماء أشرف على بني البشر لينظر هل من فاهم طالب الله كلّهم قد ارتدّوا معا فسدوا ـ ثم قال ـ أخزيتهم لأنّ الله قد وفضهم ليت من صهيون خلاص إسرائيل) وفي المزمور ١٠٩ (قد انفتح عليّ فم الشرّير وتكلّموا معي بلسان كذب أحاطوا بي وقاتلوني بلا سبب ـ ثمّ قال ـ ينظرون إليّ وينغضون رؤوسهم ـ ثمّ قال ـ أمّا هم فيلعنون وأمّا أنت فتبارك، قاموا وخزوا أمّا عبدك فيفرح) ذلك أنّ بني إسرائيل كانوا قد ثاروا على داوود مع ابنه ابشلوم، وكذلك لعنهم على لسان عيسى متكرّر في الأناجيل، و(ذلك) إشارة إلى اللّعن المأخوذ من لعن أو إلى الكلام السابق بتأويل المذكور، والجملة مستأنفة استئنافا بيانيا؛ كأنّ سائلا يسأل عن موجب هذا اللّعن فأجيب بأنّه بسبب عصيانهم وعدوانهم، أي لم يكن بلا سبب، وقد أفاد اسم الإشارة مع باء السّببيّة ومع وقوعه في جواب سؤال مقدّر أفاد مجموع ذلك مفاد القصر، أي ليس لعنهم إلّا بسبب عصيانهم كما أشار إليه في (الكشاف) وليس في الكلام صيغة قصر، فالحصر مأخوذ من مجموع الأمور الثّلاثة، وهذه النّكتة من غرر صاحب (الكشاف)

٣. والمقصود من الحصر أن لا يضلّ النّاس في تعليل سبب اللّعن فربّما أسندوه إلى سبب غير ذلك على عادة الضّلّال في العناية بالسفاسف والتّفريط في المهمّات، لأنّ التفطّن لأسباب العقوبة أوّل درجات التّوفيق، ومثل ذلك مثل البله من النّاس تصييبهم الأمراض المعضلة فيحسبونها من مسّ الجنّ أو من عين أصابتهم ويعرضون عن العلل والأسباب فلا يعالجونها بدوائها.

٤. و(ما) في قوله: ﴿بِمَا عَصَوْا﴾ مصدريّة، أي بعصيانهم وكونهم معتدين، فعدل عن التّعبير بالمصدرين إلى التعبير بالفعلين مع (ما) المصدرية ليفيد الفعلان معنى تجدّد العصيان واستمرار الاعتداء منهم، ولتفيد صيغة المضي أنّ ذلك أمر قديم فيهم، وصيغة المضارع أنّه متكرّر الحدوث، فالعصيان هو

مخالفة أوامر الله تعالى، والاعتداء هو إضرار الأنبياء.

٥. وإنّما عبّر في جانب العصيان بالماضي لأنّه تقرّر فلم يقبل الزّيادة، وعبّر في جانب الاعتداء بالمضارع لأنّه مستمرّ، فإنّهم اعتدوا على محمّد ﷺ بالتّكذيب والمنافقة ومحاولة الفتك والكيد.

٦. وجملة ﴿كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ﴾ مستأنفة استئنافا بيانيا جوابا لسؤال ينشأ عن قوله: ﴿ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا﴾، وهو أن يقال كيف تكون أمّة كلّها متمالئة على العصيان والاعتداء، فقال: ﴿كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ﴾، وذلك أن شأن المناكر أن يبتدئها الواحد أنّ النّفر القليل، فإذا لم يجدوا من يغيّر عليهم تزايدوا فيها ففشت واتّبع فيها الدّهماء بعضهم بعضا حتّى تعمّ وينسى كونها مناكر فلا يهتدي النّاس إلى الإقلاع عنها والتّوبة منها فتصيبهم لعنة الله، وقد روى التّرمذي وأبو داوود من طرق عن عبد الله بن مسعود بألفاظ متقاربة قال قال رسول الله ﷺ: (كان الرجل من بني إسرائيل يلقى الرجل إذا رآه على الذنب فيقول: يا هذا اتّق الله ودع ما تصنع، ثمّ يلقاه من الغد فلا يمنعه ذلك أن يكون أكيله وخليطه وشريكه، فلما فعلوا ذلك ضرب الله قلوب بعضهم ببعض ولعنهم على لسان داوود وعيسى ابن مريم، ثمّ قرأ: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ إلى قوله: ﴿فَاسِقُونَ﴾ [المائدة: ٧٨ ـ ٨١] ثمّ قال والّذي نفسي بيده لتأمرنّ بالمعروف ولتنهونّ عن المنكر ولتأخذنّ على يد الظّالم ولتأطرنّه على الحقّ أطرا أو ليضربنّ الله قلوب بعضكم على بعض أو ليلعنكم كما لعنهم)

٧. وأطلق التناهي بصيغة المفاعلة على نهي بعضهم بعضا باعتبار مجموع الأمّة وأنّ ناهي فاعل المنكر منهم هو بصدد أن ينهاه المنهيّ عندما يرتكب هو منكرا فيحصل بذلك التّناهي، فالمفاعلة مقدّرة وليست حقيقيّة، والقرينة عموم الضّمير في قوله: ﴿فَعَلُوهُ﴾، فإنّ المنكر إنّما يفعله بعضهم ويسكت عليه البعض الآخر؛ وربّما فعل البعض الآخر منكرا آخر وسكت عليه البعض الّذي كان فعل منكرا قبله وهكذا، فهم يصانعون أنفسهم.

والمراد بـ﴿مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ تركهم التناهي، وأطلق على ترك التناهي لفظ الفعل في قوله: ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ مع أنّه ترك، لأنّ السكوت على المنكر لا يخلو من إظهار الرّضا به والمشاركة فيه، وفي هذا دليل للقائلين من أئمّة الكلام من الأشاعرة بأنّه لا تكليف إلّا بفعل، وأنّ المكلّف به في النّهي فعل، وهو الانتهاء، أي الكفّ، والكفّ فعل، وقد سمّى الله الترك هنا فعلا، وقد أكّد فعل الذّم بإدخال لام

القسم عليه للإقصاء في ذمّة.

أبو زهرة:

ذكر محمد أبو زهرة (ت ١٣٩٤ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾ أي لعن الله تعالى الذين كفروا من بنى إسرائيل بأن طردهم من رحمته، وجعلهم مظهرا للحسد والبغض في هذه الأرض، وكأن الحق على غيرهم من الناس في جبلتهم الأولين، وقد مسخوا أنفسهم، وشوهوا أخلاقهم فلعنهم الله تعالى.

٢. سؤال وإشكال: لماذا بنى (لعن) الفعل للمجهول ولم يذكر الفاعل؟ والجواب: أن الفاعل معلوم، وهو الله تعالى؛ لأن داوود وعيسى نبيان يتكلمان عن الله تعالى، فما ينطقان عن الهوى، وهما لا يملكان الطرد من رحمة الله تعالى، وأن في البناء للمجهول فوق ذلك إشعارا بأن اللعن يستحقونه من سوء أعمالهم، ثم إن البناء للمجهول فيه إشارة إلى عموم اللاعنين مع الله سبحانه وتعالى؛ إذ يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون إلا الذين تابوا.

٣. اللعنة منصبة على الذين كفروا، وليست على عمومهم، وذلك من إنصاف الله في أحكامه، وإن كان الذين آمنوا بنسبتهم للذين كفروا عددا قليلا، كما قال تعالى: ﴿مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾ [المائدة]، وأنه واضح أن من أسباب لعنتهم كفرهم مع عصيانهم؛ لأن التعبير بالموصول يفيد أن الصلة من أسباب الحكم.

٤. ذكر الله تعالى أن اللعن جاءهم على لسان داوود وعيسى ابن مريم، وهما نبيان جاءا بعد موسى عليه السلام أحدهما كان نبيا مجاهدا محاربا، قادهم إلى مواطن الظفر، ومع ذلك لعنهم الله على لسانه، والثاني كان رسولا مسالما ومع ذلك لعنهم بأمر الله تعالى، فهم ملعونون في الحرب والسلم على سواء، ولقد جاء في بعض كتب التفسير عن ابن عباس أن أهل إيليا عندما كان اليهود بها ودنسوها، لما اعتدوا يوم السبت، قال داوود عليه السلام: اللهم ألبسهم اللعن مثل الرداء، ومثل المنطقة على الحقوين، ولما طلبوا

---

(١) زهرة التفاسير: ٥/٢٣١٨.

المائدة، وقال الله تعالى: ﴿إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ﴾ [المائدة]، قال عيسى عليه السلام: اللهم عذب من كذب بعد ما أكل من المائدة عذابا لم تعذبه أحدا من العالمين.

٥. وإن الذى يبدو لنا أن هذا بيان لما نزل بهم من لعن مستمر جاء هذا اللعن على لسان داوود ومن جاء بعد حتى كان عيسى، فكان لعن الكافرين عاما، يستوى في ذلك من كان يجاهد بالسيف، والحرب، ومن كان يجاهد بالسلم، فلعنهم الله إلا أن يتوبوا.

٦. ﴿ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ هذا بيان لسبب اللعن والطرد من رحمة الله تعالى يوم القيامة، فلم يكن لعنهم لذواتهم، وإنما لأعمالهم وإيذائهم، فجملة أعمال أولئك الذين كفروا من أهل الكتاب عصيان الله سبحانه وتعالى، أمرهم بعبادة الله وحده، فكان منهم إشراك، وأمرهم بالإيمان باليوم الآخر فكان منهم من أنكره، وأمرهم بإطاعة النبيين ففريقا كذبوا، وفريقا يقتلون، وأمرهم بألا يعتدوا يوم السبت فاعتدوا، وأمرهم بألا يأكلوا الربا فأكلوه، وهكذا كانت أعمالهم نكرا وعصيانا، وكان أشد عصيانهم أن اعتدوا على خلق الله تعالى، فكانوا حاقدين على كل مخلوق سواهم، وبالغوا في إعنات الناس أن اشتدوا بمعونة غيرهم، وبالغوا في الإفساد وإيقاد الفتن إن ضعفوا عن المقاومة الظاهرة.

٧. والعصيان لله وأخصه الاعتداء هو سبب الطرد من رحمة الله، وعموم العصيان يدخل فيه كل سبب الطرد واللعن فلا يوجد سبب غيرهما، وقد عبر عن العصيان بالماضي للإشارة إلى قرار العصيان في طبائعهم ونفوسهم، وثباته فيها، وعبر عن الاعتداء بالمضارع؛ لأنه مستمر قائم، وبذلك كان الجمع بين الماضي والمضارع للدلالة على الثبات والقرار والاستمرار، ونسب العصيان إليهم جميعا، والاعتداء إليهم جميعا، لأنه كان من بعضهم، وأقره سائرهم أو سكت عنه باقيهم، فكان منهم وقوعا ورضا.

٨.، ولذا قال سبحانه: ﴿كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ هذا النص فيه معنى التفسير للآية السابقة، لأنه يبين عموم العصيان والاعتداء فيهم، لأن الاعتداء في الكثير يقع من بعضهم، فكيف ينسب إلى كلهم، وفى هذا النص إشارة إلى أن سبب فساد الأمم في عمومها هو السكوت على المنكر فيها، والمنكر هو الأمر القبيح في ذاته وينهى الشارع عنه، والتناهي يطلق بإطلاقين، وهو الانتهاء عن الفعل الآثم، ومعنى النص على هذا: أنهم يعصون الله تعالى ما أمرهم ويصرون عليه، ويستمرون على فعلهم، فلا يتوبون ولا يرجعون، ولكن ليس هذا هو الظاهر المشهور، والإطلاق الثاني لمعنى التناهي أن

ينهى بعضهم بعضا إذا وقع المنكر فيهم وهو الظاهر، والتناهي عن المنكر يشتمل على ثلاثة معان كلها داخل فيه:

أ. أولها: أن يوجد فيهم ناه عن الشر يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر، سواء أكان الناهي عددا كبيرا، أم كان عددا قليلا، فليست الكثرة مطلوبة، إنما المراد الوقوع منه.

ب. ثانيها: أن يمنع الفعل قبل وقوعه أو يقلله بدفع الكثير منه.

ج. ثالثها: أن يستنكره؛ لأن السكوت عنه رضا، وبذلك يدفع الاعتراض الذى أورده بعض المفسرين وهو كيف يتصور النهى عن الفعل بعده، فنقول: إن النهى عن المنكر بعد وقوعه إنما هو استنكاره، لأنه يمنع الفعل في المستقبل.

٩. وقد نسب الفعل إليهم أجمعين إذ وقع من بعضهم، وسكت عنه سائرهم ولذا قال سبحانه: ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾، وقد أكد سبحانه وتعالى نسبة الفعل إليهم باللام والقسم المطوي وذمهم ذما مؤكدا، فالفعل بئس يدل على الذم، والذم كان منصبا على الفعل رجاء إيمانهم، وقد روى ابن مسعود أن النبي ﷺ قال: (من رضى عمل قوم فهو منهم، ومن كثّر سواد قوم فهو منهم)

١٠. والآية تدل على أن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر قوام الأمم، ولا صلاح لهم إلا إذا قاموا بحقه، فالأمم تصلح بالأمر بالمعروف، وتفسد بتركه، ولذلك اعتبره القرآن خاصة الأمة الإسلامية، وبه خيرها، قال تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللهِ﴾ [آل عمران]، وقد قال ﷺ: (والذى نفسى بيده لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر، أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقابا من عنده، ثم لتدعنه فلا يستجيب لكم)، ويقول ﷺ: (إن الله لا يعذب العامة بعمل الخاصة حتى يروا المنكر بين ظهرانيهم، وهم قادرون على أن ينكروه فلا ينكروه)، ولقد تنبأ رسول الله ﷺ بأن ضياع المسلمين عندما يختفى فيهم الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، فقد روى أنس بن مالك، أن بعض صحابة رسول الله ﷺ سألوه قائلين يا رسول الله: متى يترك الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر؟ قال ﷺ: (إذا ظهر فيكم ما ظهر في الأمم قبلكم)، قالوا: يا رسول الله، وما ظهر في الأمم قبلنا؟ قال ﷺ: (إذا كان الملك في صغاركم، والفاحشة في كباركم، والعلم في رذالكم)، فالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر هو عصام الأمة وهو مكون الرأي العام الفاضل، ويقال: إن الأمة كلها تعصى إذا ظهر العصيان، ولم تستنكره.

مُغْنِيَّة:

ذكر محمد جواد مُغْنِيَّة (ت ١٤٠٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾، قال المفسرون: نهى داوود بني إسرائيل عن صيد الحيتان يوم السبت بوحي من الله، ولما عتوا عن أمره لعنهم، ودعا عليهم، فصاروا قردة، أما عيسى فقد طلب منه خمسة آلاف رجل أن ينزل عليهم مائدة من السماء، فيأكلوا منها، ويؤمنوا به، ولما نزلت أكلوا ونكلوا، فقال عيسى: اللهم العنهم كما لعنت أصحاب السبت، ولا شيء في الآية يومئ إلى هذه التفاصيل، والمعنى الظاهر أن داوود وعيسى لعنا من كفر من بني إسرائيل ﴿ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾، وسكت الله سبحانه عن نوع العصيان والاعتداء، ولم يسكت عنه جهلا ولا نسيانا، ونحن نسكت عما سكت الله عنه، وفي الوقت نفسه نؤمن بأن لعنة الله ونقمته تصيب كل من عصى واعتدى، سواء أكان إسرائيليا، أو هاشميا.

٢. ﴿كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾، تشعر هذه الآية بأن عمل المنكر لم يكن عملا فرديا في المجتمع اليهودي، وإنما كان عمل الجماعة كلها، وأن المنكر قد تفشى بينهم، حتى صار عادة من عاداتهم المألوفة التي اصطلح عليها الكبير والصغير، ولذا لم يوجد فيهم من يستنكر المنكر، وينهى عنه، وعن صحيح مسلم والبخاري أن رسول الله قال: (لتتبعن سنن من كان قبلكم حذو القذّة بالقذة، حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه، قالوا يا رسول الله: اليهود والنصارى؟ قال فمن؟) القذة إحدى ريش السهم.

الطباطبائي:

ذكر محمد حسين الطباطبائي (ت ١٤٠٢ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(٢)]:

١. ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾ إلى آخر الآيتين إخبار بأن الكافرين منهم ملعونون بلسان أنبيائهم، وفيه تعريض لهؤلاء الذين كفرهم الله في هذه الآيات من اليهود ملعونين بدعوة أنبيائهم أنفسهم، وذلك بسبب عصيانهم لأنبيائهم، وهم كانوا مستمرين على

---

(١) التفسير الكاشف: ٣/١٠٩.

(٢) الميزان في تفسير القرآن: ٦/٧٩.

الاعتداء.

٢. ﴿كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ﴾ بيان لقوله: ﴿وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾

الحوثي:

ذكر بدر الدّين الحوثي (ت ١٤٣١ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾ دعا عليهم داوود وعيسى ابن مريم بلعنة الله، ولما كان ذلك حكم الله فيهم كان لعنة من الله على لسان دود وعيسى ابن مريم ﴿ذَلِكَ﴾ لعنهم المذكور ﴿بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ فهو جزاء لهم ﴿بِمَا عَصَوْا﴾ ربهم كتركهم للنهي عن المنكر، وكتوليهم للذين كفروا، ﴿وَ﴾ بما ﴿كَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ كاعتداء أصحاب السبت، وكقتل الأنبياء، والذين يأمرون بالقسط من الناس.

٢. ﴿كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ﴾ تركوا النهي عن المنكر فيما بينهم حتى لا ينهى بعضهم بعضاً عن منكر قط، ولعل النهي المذكور في الحديث لم يكن يعد نهياً؛ لأنه قول غير جاد بل هو لاحق بالهزل، قال الناصر عليه السلام في (البساط): وحدثنا بشر، قال حدثنا وكيع، قال حدثنا سفيان، قال حدثنا علي ابن بَذيمة، قال سمعت أبا عبيدة يقول: قال رسول الله ﷺ: (لما وقع النقص في بني إسرائيل جعل أحدهم يرى أخاه على الذنب فينهاه عنه، ولا يمنعه ذلك أن يكون أكيله وشَرِيبَه وجليسه، فصرف الله قلوب بعضهم ببعض، ونزل فيهم القرآن ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ إلى آخر أربع آيات ﴿وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾) قال وكان رسول الله ﷺ متكئاً فاستوى جالساً، ثم قال: (كلاَّ والذي نفسي بيده حتى يأخذوا على يدي الظالم، ويأطروه على الحق أطراً) قال الناصر الحسن بن علي عليه السلام: (يأطروه على الحق: أي يعطفوه على الحق عطفاً) قوله: (فصرف الله)، هكذا في النسخة، ويمكن تفسيره: بالخذلان، على معنى الصرف عن الهدى، ولو جاء بلفظ: فضرَّب ـ بتشديد الراء ـ لكان معناه: الإغراء بينهم، كما أفاده في (الصحاح)، والحديث في (سنن أبي داوود بلفظ: (ضربَ) ولعله بدون تشديد ـ مجاز عن إلقاء العداوة والبغضاء بينهم، كأن قلب المبغض إذا رأى عدوه أو سمعه يضرب بالعصا، فجعل العدو

---

(١) التيسير في التفسير: ٢/٣٥٩.

يضرب به قلب عدوه ـ والله أعلم، وقد خرج الحديث السيوطي في (الدر المنثور) من كتب عديدة بلفظ ضرب، وأورد الحديث ونحوه عن ابن مسعود، ومعاذ، وأبي موسى الأشعري، والحديث ـ أيضاً ـ في أمالي المرشد بالله عليه السلام بلفظ ضرب من طريقين: عن عبيدة وفي آخر أحداهما: (كلاَّ والذي نفسي بيده حتى تأطروهم) الخ ـ بالمثناة من فوق ـ راجع (أمالي المرشد بالله) فله طرق، إلا أنه يجمعها طريقان، وفيهما معاً باللفظ أو المعنى الخطاب في آخره بالمثناة من فوق، والذم لهم على ترك النهي عن المنكرات التي فعلوها موجّه إلى تركهم لَه في وقته لا إلى تركه بعد وقوعه، وإنما ذكر وقوعه يفيد أنه قد جاء وقت النهي فلم ينهوا عنه، ونظيره قوله تعالى في قارون: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ﴾ [القصص:٨١]

٣. ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ كلهم العصاة والمداهنون، وهذا ذم مؤكد بـ (لام القسم)

فضل الله:

ذكر محمد حسين فضل الله (ت ١٤٣١ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[1]:

١. ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾ لقد عاش داوود عليه السّلام مع بني إسرائيل من أجل أن يدعوهم إلى الله وعاش عيسى عليه السّلام معهم، من أجل أن يعلّمهم الكتاب والحكمة، ويخرجهم من الظلمات إلى النور، في طريق الله، وكانت النتيجة لديهما، أنهما واجها جمهورا كبيرا من الكافرين الذين وقفوا ضدهما وضد رسالتهما موقف جحود وكفران، وحاولا قيادتهم إلى الحوار فلم يقبلوا، وأطلقا فيهم دعوة إلى الحق فلم يستجيبوا، وأقاما عليهم الحجّة فلم يهتدوا، ولم تنفع كل التجارب معهم فلم يكن منهما إلا أن أطلقا اللعنة في وجوههم، وطلبا من الله أن يبعدهم عن رحمته لأنهم لا يستحقونها.

٢. ﴿ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ بسبب معاصيهم المتكرّرة وعدوانهم على عباد الله وعلى رسله ورسالته، وكان من ملامحهم في كفرهم العملي، الناشئ من كفرهم الفكري، أنهم ﴿كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ﴾، فلا خطورة عندهم في فعل المنكر، بل هو شيء طبيعي يمارسونه ببساطة وعفويّة، كما

---

(١) من وحي القرآن: ٨/٢٩٠.

يمارسون أوضاعهم الطبيعيّة الأخرى، فلا يشعرون بحرج منه، ولذلك لم يعيشوا في مجتمعهم التناهي عنه، فلا ينهى أحدهم الآخر عن فعل المنكر، كما يفعله الناس الذين يرفضون المنكر فكريا وعمليّا.

٣. ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ لأن ذلك هو سبيل خراب المجتمعات، وسر دمارها، فإن المجتمعات التي يمارس أفرادها المنكرات كالظلم والبغي والعدوان والتمرد على الله، في حلاله وحرامه وأكل أموال الناس بالباطل ونحو ذلك، ولا يتناهى أفرادها عنه، سوف تقع في قبضة النتائج السلبية المطلقة من ذلك كله.

الشيرازي:

ذكر ناصر مكارم الشيرازي في تفسير هذا المقطع ما يلي[1]:

١. تشير هذه الآيات إلى المصير المشؤوم الذي انتهى إليه الكافرون السابقون، لكي يعتبر به أهل الكتاب فلا يتبعونهم اتباعا أعمى، فيقول: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾، أمّا لماذا ورد اسما هذين النّبيين دون غيرهما، فللمفسّرين في ذلك أقوال:

أ. فمن قائل: إنّ السبب هو أنّهما كانا أشهر الأنبياء بعد موسى عليه السّلام.

ب. وقيل: إنّ السبب هو أنّ كثيرا من أهل الكتاب كانوا يفخرون بأنّهم من نسل داوود وتذكر الآية أوّلا أنّ داوود كان يلعن السائرين على طريق الكفر والطغيان.

ج. ويقول بعض: إنّ في الآية إشارة إلى حادثتين تأريخيتين أثارتا غضب هذين النّبيين، فلعنا جمعا من بني إسرائيل، فداود قد لعن سكان مدينة (أيلة) الساحلية المعروفين باسم (أصحاب السبت)، وسيأتي تفصيل تأريخهم في سورة الأعراف، وعيسى عليه السّلام لعن جمعا من اتباعه ممن أصروا على اتباع طريق الإنكار والمعارضة حتى بعد نزول المائدة من السماء.

٢. على كل حال، فالآية تشير إلى أنّ مجرّد كون الإنسان من بني إسرائيل، أو من أتباع المسيح دون أن ينسجم مع خط سيرهما، لا يكون مدعاة لنجاته، بل أنّ هذين النّبيين قد لعنا من كان على هذه الشاكلة من الناس، وفي آخر الآية توكيد لهذا الأمر وبيان للسبب: ﴿ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾

---

(١) تفسير الأمثل: ٤/١١٧.

٣. الآية التّالية تؤكّد أنّ هؤلاء لم يعترفوا أبدا بأنّ عليهم يتحملوا أية مسئولية اجتماعية، ولا هم كانوا يتناهون عن المنكر، بل أنّ بعضا من صلحائهم كانوا بسكوتهم وممالاتهم يشجعون العصاة عمليا ﴿كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ﴾ لذلك فقد كانت أعمالهم سيئة وقبيحة: ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾

٤. هنالك في تفسير هذه الآية روايات منقولة عن رسول الله ﷺ وعن أهل البيت عليهم السّلام ذات دلالات تعليمية، ففي حديث عن رسول الله ﷺ أنّه قال: (لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر ولتأخذون على يد السفيه ولتأطرنه على الحقّ اطرا، أو ليضربن الله قلوب بعضكم على بعض ويلعنكم كما لعنهم)، وفي حديث آخر عن الامام الصّادق عليه السّلام في تفسير ﴿كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ﴾ أنّه قال: (أمّا أنّهم لم يكونوا يدخلون مداخلهم ولا يجلسون مجالسهم، ولكن كانوا إذا لقوهم ضحكوا في وجوههم وأنسوا بهم)

٧٤. جزاء الولاء للظلمة

نتناول في هذا الفصل ما ذكره المفسّرون ـ بحسب التسلسل التاريخي، والمدارس الإسلامية المختلفة ـ حول تفسير المقطع [٧٤] من سورة المائدة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ [المائدة: ٨٠ ـ ٨١]، مع العلم أنّا نقلنا المباحث التي لا علاقة لها ـ كبرى أو مباشرة ـ بالتفسير التحليلي إلى محالّها من كتب السلسلة.

حذيفة:

روي عن حذيفة بن اليمان (ت ٣٦ هـ) أن النبي ﷺ قال: (يا معشر المسلمين، إياكم والزنا؛ فإن فيه ست خصال، ثلاث في الدنيا وثلاث في الآخرة: فأما التي في الدنيا فذهاب البهاء، ودوام الفقر، وقصر العمر، وأما التي في الآخرة فسخط الله، وسوء الحساب، والخلود في النار)، ثم تلا رسول الله ﷺ: ﴿لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ﴾[١].

ابن عباس:

روي عن ابن عباس (ت ٦٨ هـ) أنّه قال: ﴿لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ﴾ ما أمرتهم[٢].

مجاهد:

روي عن مجاهد (ت ١٠٤ هـ) أنّه قال: ﴿وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ﴾ المنافقون[٣].

الباقر:

روي عن الإمام الباقر (ت ١١٤ هـ) أنّه قال: ﴿تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يتولون

---

(١) الخرائطي في مساوئ الأخلاق ص ٢٢٠.

(٢) ابن أبي حاتم ٤/١١٨٢.

(٣) تفسير مجاهد ص ٣١٣.

الملوك الجبارين، ويزينون لهم أهواءهم، ليصيبوا من دنياهم[1].

مقاتل:

روي عن مقاتل بن سليمان (ت ١٥٠ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال: ﴿تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يعني: من قريش، ﴿لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ﴾ لأنهم ليسوا بأصحاب كتاب ﴿أَنْ سَخِطَ اللهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ﴾[2].

٢. روي أنّه قال: ﴿وَلَوْ كَانُوا﴾ يعني: اليهود ﴿يُؤْمِنُونَ بِاللهِ﴾ يعني: يصدقون بالله عز وجل بأنه واحد لا شريك له، ﴿وَ﴾ بـ ﴿النَّبِيِّ﴾ ﷺ، ﴿وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ﴾ من القرآن؛ ﴿مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ﴾ يقول: ما اتخذوا مشركي العرب أولياء، ﴿وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ﴾ من اليهود ﴿فَاسِقُونَ﴾ يعني: عاصين[3].

الرسّي:

ذكر الإمام القاسم الرسي (ت ٢٤٦ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي)[4]:

١. ﴿تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ يقول سبحانه: لو كانوا يؤمنون بالنبي الذي كان فيهم، وبمن صار من أنبياء الله ورسله صلى الله عليهم إليهم ـ لما والوا عدوا مشآقا، ولا أدخلوا عليهم ـ إذ كانوا أعداء للرب ـ مرفقا، بمخالطة منهم لهم ولا معاملة، ولا بمجاورة لأحد منهم ولا محآلة، وقد تعلمون أن من ذكره الله سبحانه في هذه الآية بالتولي للكفار من اليهود، وإن كانوا قد نقضوا في أكثر الأمور ما بينهم وبين الله من العهود، فلم ينقضوا: أنهم غير متولين للكفار في أديانهم، ولا راضين بعبادة ما كان الكافرون يعبدون من أوثانهم، ولا ما كانوا يشرعون في دينهم من الشرائع، ويفترون على الله فيه من الشنائع، في أكل الميتة والدم، وما كانوا يحلون من كل محرم؛ بل كانوا لهم في ذلك مخالفين، ولعملهم فيه من القالين؛ ولكنهم كانوا لهم موالين، وإن لم يكونوا

---

(١) مجمع البيان ٤/٣٥٨.

(٢) تفسير مقاتل ابن سليمان ١/٤٩٦.

(٣) تفسير مقاتل ابن سليمان ١/٣١٦.

(٤) الأنوار البهية المنتزع من كتب أئمة الزيدية: ١/٣٣٧.

لدينهم قائلين، وكانوا لهم على دينهم من العائبين، ولهم في أنفسهم من المعادين؛ ولكنهم كانوا أولياء لهم بالنصرة والموآدة، وبما ذكرنا من الجوار والمعاملة والمقاعدة؛ أفلا ترون كيف جعلهم رب العالمين، بموالاتهم لمن ظلم ـ من الظالمين!؟ فأثبت سبحانه عليهم في الحكم، أنهم عنده كـ: هم في الظلم، وأنهم منهم؛ بموالاتهم لهم، وإن كانوا برآاء منهم في شرائع دينهم، وجاهلين بأكثر أقاويلهم، لا يعملون منها حرفا، ولا من أوصافهم فيها وصفا؛ فلذلك كان من الموالاة، ما ذكرنا من القرب والمداناة، التي منها المجاورة والمحآلة، كما منها الإخاء والمخآلة.

الماتريدي:

ذكر أبو منصور الماتريدي (ت ٣٣٣ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. قوله عز وجل: ﴿تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾:

أ. قيل: قوله: ﴿تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ﴾ يعني: المنافقين، ﴿يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يعني: اليهود يتولون الذين كفروا ويعاندون رسول الله وأصحابه.

ب. وقيل: ﴿تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ﴾: يعني: من اليهود: ﴿يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ من مشركي العرب وغيرهم، كانوا يظاهرون على رسول الله ﷺ والمؤمنين، ويعاونون عليهم، وقد كان من الفريقين جميعًا ذلك.

ج. ويحتمل وجهًا آخر: قوله: ﴿تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ﴾ من هَؤُلَاءِ الذين شهد لهم رسول الله ﷺ يتولون الذين كفروا، يعني: أسلافهم ورؤساءهم؛ كقوله: ﴿لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا﴾ الآية، تولى هَؤُلَاءِ أُولَئِكَ واتبعوا أهواءهم.

٢. وقوله عز وجل: ﴿لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللهُ عَلَيْهِمْ﴾: أي: ما قدمت أنفسهم سخط الله عليهم.

٣. وقوله عز وجل: ﴿وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالنَّبِيِّ﴾ يعني: المنافقين، في أحد التأويلين، وفي تأويل آخر: اليهود، أي: لو صدق هَؤُلَاءِ رسول الله ﷺ وآمنوا به وصدقوا ما أنزل إليه من القرآن ـ ما اتخذوا أُولَئِكَ أولياء.

---

(١) تأويلات أهل السنة: ٣/٥٧٣.

٤. ثم يحتمل قوله تعالى: ﴿مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ﴾ في الدِّين أو في النصر والمعونة والنصرة، ﴿وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾

الطوسي:

ذكر أبو جعفر الطوسي (ت ٤٦٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. هذا خطاب من الله للنبي ﷺ يقول له ﴿تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ﴾ يعني من هؤلاء اليهود في قول الحسن وأبي علي، وقال غيرهما يعني أهل الكتاب ﴿يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾:

أ. من عبدة الأوثان في قول الحسن وغيره.

ب. وقال أبو جعفر: يتولون الملوك الجبارين ويزينون لهم أهوائهم ليصيبوا من دنياهم.

٢. سؤال وإشكال: كيف يتولى أهل الكتاب عبدة الأوثان مع إكفارهم إياهم على تلك العبادة!؟

والجواب:

أ. لأنهم يعملون عمل المتولي بالنصرة والمعاونة والرضا بما يكون منهم من عداوة النبي ﷺ ومحاربته.

ب. ويجوز أن يكونوا تولوهم على ذلك في الحقيقة، فيكون على جهة تقييد الصفة.

٣. سؤال وإشكال: ما الفائدة في اخباره ﷺ يراه وهو عالم به؟ والجواب: عنه جوابان:

أ. أحدهما: التوبيخ لصاحبه فيقرعون بما هو معلوم من حالهم.

ب. والآخر: التنبيه على باطن أمرهم بما يدل عليه ظاهر حالهم المعلومة فينكشف باطنهم القبيح.

٤. ﴿لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ﴾ قيل في معناه قولان:

أ. أحدهما: بئس شيئاً قدموه من العمل لمعادهم في الآخرة في قول أبي علي، واللام لام القسم على ما بيناه.

ب. الثاني: إنه يجري مجرى قوله: ﴿سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ﴾ أي قدمت لهم أنفسهم بما بعثهم على تولي الذين كفروا مع مخالفتهم.

---

(١) تفسير الطوسي: ٣/٦١٢.

٥. ﴿أَنْ سَخِطَ اللهُ عَلَيْهِمْ﴾ قيل في موضع ﴿أَنْ سَخِطَ اللهُ﴾ قولان:

أ. أحدهما: رفع كقولك: ما قدموه لأنفسهم سخط الله أي هو سخط الله عليهم وخلودهم في النار بما كان من توليهم ورفعه كرفع (زيد) في قولك: بئس رجلا زيد.

ب. الثاني: أنه جر على تقدير لأن سخط الله عليهم وحصلوا على الخلود في النار وقال الزجاج: يجوز أن يكون نصباً على تقدير بئس الشيء ذلك، لأن أكسبهم السخطة عليهم.

٦. قيل في معنى قوله: ﴿وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِالله وَالنَّبِيِّ وَمَا أنزل إليه مَا اتَّخَذُوهُمْ﴾ مع العلم بأنهم لا يؤمنون بالنبي قولان:

أ. أحدهما: قال الحسن ومجاهد أنه في المنافقين من اليهود.

ب. الثاني: المراد بالنبي موسى عليه السلام ومعنى (لو) ـ ها هنا ـ النفي لإيمانهم وإن لم يكون حرف نفي لكنه خرج مخرج الحجاج الذي يدل على نفي الايمان، وإنما معناه تعليق الثاني بالأول في أنه يجب بوجوبه، فإذا ظهر أن الثاني لم يجب دل على أن الأول لم يكن قد دخله معنى النفي من هذه الجهة.

٧. سؤال وإشكال: إذا كان المؤمن بالله لا يطلق عليه اسم مؤمن إلا وهو مؤمن بالنبي وبما أنزل إليه فلم ذكرا؟ والجواب: للدلالة على التفصيل لأن تلك الصفة وان كانت دالة فإنها تدل على طريق الجملة.

٨. ﴿مَا اتَّخَذُوهُمْ أولياء﴾ يعني هؤلاء لو كانوا مؤمنين على الحقيقة لما اتخذوا المشركين أولياء و(ما) يجوز أن تكون جواب (لو) ولا يجوز أن تكون جواب (ان) لأن حرف الجزاء يعمل فيها قبله و(ما) لها صدر الكلام فلا يعمل فيها، وليس كذلك (لم) فلذلك لم يجز أن آتيني ما ضرك ويجوز أن آتيني لم يضرك، لأنه يجوز أن تقول زيدا لم أضرب ولا يجوز أن تقول زيداً ما ضربت.

٩. ﴿وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ إنما وصفهم بالفسق وإن كان الكفر أعظم في باب الذم لأمرين:

أ. أحدهما: إن معناه خارجون عن أمر الله فهذا المعنى لا يظهر بصفة كافر.

ب. والآخر: أن الفاسق في كفره هو المتمرد فيه والكلام يدل على أنهم فاسقون في كفرهم أي خارجون إلى التمرد فيه.

الجشمي:

ذكر الحاكم الجشمي (ت ٤٩٤ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. اختلف في سبب نزول الآية الكريمة:

أ. قيل: نزلت في اليهود الَّذِينَ تولوا المشركين نحو أهل خيبر، وكعب بن الأشرف.

ب. وقيل: نزلت في المنافقين الدين تولوا اليهود.

٢. ﴿تَرَى﴾ يا محمد ﴿كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ اختلفوا في مَنْ الكثير، ومَنْ الَّذِينَ كفروا؟

أ. قيل: هم اليهود نحو كعب بن الأشرف وأمثاله تولوا عبدة الأوثان ومشركي قريش، عن الحسن وأبي علي.

ب. وقيل: هم أهل خيبر حالفوا قريشًا، عن أبي مسلم.

ج. وقيل: هم أهل الكتاب يتولون الكفار.

د. وقيل: هم المنافقون يتولون اليهود.

هـ. وقيل: يتولونهم في الحث على حرب رسول الله ﷺ حين خرجوا إلى قريش بالاستنفار.

و. وقيل: يتناصرون بينهم ويتوالون.

٣. ﴿لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ﴾:

أ. يعني بئس ما قدموا من العمل لمعادهم، عن أبي علي.

ب. وقيل: هو كقولك: سولت لهم أنفسهم؛ أي بئس ما قدمت أنفسهم بالاعتماد على تولي الكفار.

٤. سؤال وإشكال: أي فائدة في الإخبار عما يراه هو؟ والجواب: فيه قولان:

أ. أحدهما: التوبيخ لهم.

ب. الثاني: التنبيه على باطن أمرهم.

٥. ﴿أَنْ سَخِطَ اللهُ عَلَيْهِمْ﴾:

أ. أي: لسوء فعلهم غضب الله عليهم.

ب. وقيل: بئس ما قدمت علماؤهم من العمل الذي سخط الله به عليهم عن الأصم.

---

(١) التهذيب في التفسير: ٣/٣٧٥.

٦. ﴿وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ﴾ أي في عذاب جهنم دائمون لا ينقطع.

٧. ﴿وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالنَّبِيِّ﴾:

أ. قيل: هم المنافقون من اليهود عن الحسن ومجاهد؛ يعني لو صدقوا بِاللهِ والنبي محمد ﷺ على الحقيقة كما يظهرون ﴿وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ﴾ القرآن.

ب. وقيل: بالنبي موسى وما أنزل إليه التوراة عن الأصم.

٨. ﴿مَا اتَّخَذُوهُمْ﴾ يعني الكافرين ﴿أَوْلِيَاءُ﴾:

أ. وقيل: هذه موالاة التناصر والمعاونة على معاداة النبي ﷺ ومحاربته.

ب. ويجوز أن يكون على الموالاة في الحقيقة.

٩. ﴿وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ﴾ يعني من اليهود والنصارى ﴿فَاسِقُونَ﴾ خارجون عن أمر الله، وإنما قال: ﴿مِنْهُمْ﴾؛ لأن بعضهم آمن.

١٠. تدل الآية الكريمة على:

أ. المنع من موالاة الكفار والفساق ومعاشرتهم فيما يوهم الرضا بفعلهم فإنه منهم، فأما ما سوى ذلك فيجوز نص الله عليه في قوله: ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ﴾

ب. أنهم يخلدون في النار، خلاف قول جهم.

ج. أنهم استحقوا ذلك بفعلهم، خلاف ما يقوله أهل الجبر.

د. أن أفعال العباد حادثة من جهتهم: لذلك أضاف إليهم العصيان والاعتداء وأوجب اللعن على ذلك، وكذلك الفعل والتقديم وجميع ما ذكر في الآيات، وكل ذلك يبطل قولهم في المخلوق.

١١. مسائل لغوية ونحوية:

أ. في ﴿مَا﴾ في قوله: ﴿لَبِئْسَ مَا﴾ قولان:

- أحدهما: أن تكون كافة.
- الثاني: أن تكون اسم نكرة، على تقدير: بئس شيئًا فعلوه.

ب. في موضع ﴿أَنْ﴾ في قوله: ﴿أَنْ سَخِطَ اللهُ﴾ قولان:

أ. الأول: رفع على تقدير قولك: بئس رجلاً زيد.

ب. الثاني: جر، على تقدير: لأن سخط الله عليهم.

ج. معنى ﴿لَوْ﴾ في قوله: ﴿وَلَوْ كَانُوا﴾: النفي لإيمانهم.

الطَبِرسي:

ذكر الفضل الطَبرِسي (ت ٥٤٨ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[1]:

١. ﴿تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ﴾ أي: من اليهود ﴿يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يريد كفار مكة، عنى بذلك كعب بن الأشرف وأصحابه، حين استجاشوا المشركين على رسول الله، وذكرنا ذلك عند قوله: ﴿وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا﴾ وقال أبو جعفر الباقر عليه السلام: يتولون الملوك الجبارين، ويزينون لهم أهواءهم ليصيبوا من دنياهم، وفي هذا توبيخ لأولئك القوم، وتنبيه على سوء فعالهم، وخبث عقائدهم.

٢. ﴿لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ﴾ أي: بئس ما قدموا من العمل لمعادهم في الآخرة ﴿أَنْ سَخِطَ اللهُ عَلَيْهِمْ﴾ أي: سخط الله عليهم ﴿وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ﴾ وذهب ابن عباس، ومجاهد، والحسن إلى أن هذه الآية في المنافقين من اليهود، والكناية في قوله: ﴿مِنْهُمْ﴾ عائدة إليهم، ويؤكده ما بعد هذه الآية.

٣. ﴿وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ﴾ أي: لو كانوا يصدقون الله ﴿وَالنَّبِيِّ﴾:

أ. محمد ﷺ ﴿وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ﴾ من القرآن، ويعتقدون ذلك على الحقيقة، كما يظهرونه ﴿مَا اتَّخَذُوهُمْ﴾ يعني الكافرين ﴿أَوْلِيَاءَ﴾ عن ابن عباس، والحسن، ومجاهد.

ب. وقيل: المراد بالنبي موسى، وبما أنزل إليه التوراة، فيكون المراد بهم اليهود الذين جاهروا بالعداوة لرسول الله، والتولي للمشركين، ويكون معنى الموالاة: التناصر والمعاونة على محاربة النبي ﷺ ومعاداته، ويجوز أن يكون يريد الموالاة على الحقيقة.

٤. ﴿وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ وصفهم بالفسق، وإن كان الكفر أبلغ في باب الذم لأمرين:

أ. أحدهما: إنهم خارجون عن أمر الله، وهذا المعنى لا يظهر بأن يصفهم بالكفر.

---

(١) تفسير الطبرسي: ٣/٣٥٧.

ب. والآخر: إن الفاسق في كفره هو المتمرد فيه، والكلام يدل على أنهم فاسقون في كفرهم أي: خارجون إلى التمرد فيه.

٥. مسائل لغوية ونحوية:

أ. ﴿لَبِئْسَ مَا﴾: يجوز أن يكون ما ههنا كافة لبئس، كما تكف في إنما ولكنما وبعدما وربما، واللام فيه للقسم، ويجوز أن يكون اسما نكرة، فكأنه قال بئس شيئا فعلوه، كما تقول بئس رجلا كان عندك.

ب. محل ﴿أَنْ سَخِطَ اللهُ عَلَيْهِمْ﴾ رفع، كرفع زيد في قولك: بئس رجلا زيد، فيكون مبتدأ، وبئس وما عملت فيه خبره، أو يكون خبر مبتدأ محذوف، كأنه لما قال بئس رجلا، قيل: من هو؟فقال: زيد، أي: هو زيد، ويجوز أن يكون محله نصبا على تأويل بئس الشيء ذلك، لان سخط الله عليهم.

ابن الجوزي:

ذكر أبو الفرج بن الجوزي (ت ٥٩٧ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. ﴿تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ﴾ في المشار إليهم قولان:

أ. أحدهما: أنهم المنافقون، روي عن ابن عباس، والحسن، ومجاهد.

ب. الثاني: أنهم اليهود، قاله مقاتل في آخرين، فعلى هذا القول انتظام الآيات ظاهر، وعلى الأوّل يرجع الكلام إلى قوله تعالى: ﴿فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ﴾

٢. في الذين كفروا قولان:

أ. أحدهما: أنهم اليهود، قاله أرباب القول الأوّل.

ب. الثاني: أنهم مشركو العرب، قاله أرباب هذا القول الثاني.

٣. ﴿لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ﴾ أي: بئسما قدّموا لمعادهم ﴿أَنْ سَخِطَ اللهُ عَلَيْهِمْ﴾ قال الزجّاج: يجوز أن تكون (أن) في موضع رفع على إضمار هو، كأنه قيل: هو أن سخط الله عليهم.

الرَّازي:

ذكر الفخر الرازي (ت ٦٠٦ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[٢]:

---

(١) زاد المسير في علم التفسير: ١/٥٧٥.

(٢) التفسير الكبير: ١٢/٤١٣.

١. لما وصف الله تعالى أسلافهم بما تقدم وصف الحاضرين منهم بأنهم يتولون الكفار وعبدة الأوثان، والمراد منهم كعب بن الأشرف وأصحابه حين استجاشوا المشركين على الرسول ﷺ، وذكرنا ذلك في قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا﴾ [النساء: ٥١]

٢. ﴿لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ﴾ أي بئس ما قدموا من العمل لمعادهم في دار الآخرة.

٣. ﴿أَنْ سَخِطَ اللهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ﴾ محل ﴿إِنَّ﴾ رفع كما تقول: بئس رجلا زيد، ورفعه كرفع زيد، وفي زيد وجهان:

أ. الأول: أن يكون مبتدأ، ويكون (بئس) وما عملت فيه خبره.

ب. الثاني: أن يكون خبر مبتدأ محذوف، كأنه لما قال بئس رجلا قتل: ما هو؟ فقال: زيد، أي هو زيد.

٤. ﴿وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾:

أ. والمعنى: لو كانوا يؤمنون بالله والنبي وهو موسى وما أنزل إليه في التوراة كما يدعون ما اتخذوا المشركين أولياء، لأن تحريم ذلك متأكد في التوراة وفي شرع موسى عليه السلام، فلما فعلوا ذلك ظهر أنه ليس مرادهم تقرير دين موسى عليه السلام، بل مرادهم الرياسة والجاه فيسعون في تحصيله بأي طريق قدروا عليه، فلهذا وصفهم الله تعالى بالفسق فقال: ﴿وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾

ب. وفيه وجه آخر ذكره القفال، وهو أن يكون المعنى: ولو كان هؤلاء المتولون من المشركين يؤمنون بالله وبمحمد ﷺ ما اتخذهم هؤلاء اليهود أولياء، وهذا الوجه حسن ليس في الكلام ما يدفعه.

القرطبي:

ذكر محمد بن أحمد القرطبي (ت ٦٧١ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. ﴿تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ﴾ أي من اليهود، قيل: كعب بن الأشرف وأصحابه، وقال مجاهد: يعني المنافقين ﴿يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي المشركين، وليسوا على دينهم.

٢. ﴿لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ﴾ أي سولت وزينت، وقيل: المعنى لبئس ما قدموا لأنفسهم

---

(١) تفسير القرطبي: ٦/٢٥٤.

ومعادهم، ﴿أَنْ سَخِطَ اللهُ عَلَيْهِمْ﴾ ﴿أَنْ﴾ في موضع رفع على إضمار مبتدأ كقولك: بئس رجلا زيد، وقيل: بدل من ﴿مَا﴾ في قوله ﴿لَبِئْسَ﴾ على أن تكون ﴿مَا﴾ نكرة فتكون رفعا أيضا، ويجوز أن تكون في موضع نصب بمعنى لان سخط الله عليهم: ﴿وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ﴾ ابتداء وخبر.

٣. ﴿وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِالله وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ﴾ يدل بهذا على أن من اتخذ كافرا وليا فليس بمؤمن إذا اعتقد اعتقاده ورضي أفعاله، ﴿وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ أي خارجون عن الإيمان بنبيهم لتحريفهم، أو عن الإيمان بمحمد ﷺ لنفاقهم.

الشوكاني:

ذكر محمد بن علي الشوكاني (ت ١٢٥٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي(١):

١. المخصوص بالذم هو ﴿أَنْ سَخِطَ اللهُ عَلَيْهِمْ﴾ أي موجب سخط الله عليهم على حذف مضاف أو هو سخط الله عليهم على حذف المبتدأ؛ وقيل هو: أي أنّ سخط الله عليهم بدل من ما.

٢. ﴿وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِالله وَالنَّبِيِّ﴾ أي نبيهم ﴿وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ﴾ من الكتاب ﴿مَا اتَّخَذُوهُمْ﴾ أي المشركين ﴿أَوْلِيَاءُ﴾ لأن الله سبحانه ورسوله المرسل إليهم وكتابه المنزل عليهم قد نهوهم عن ذلك.

٣. ﴿وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ أي خارجون عن ولاية الله وعن الإيمان به وبرسوله وبكتابه.

أَطَّفِّيش:

ذكر محمد أَطَّفِّيش (ت ١٣٣٢ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي(٢):

١. ﴿تَرَى﴾ بعينيك برؤية الأثر، أو تَعْلَم يا محمَّد، أو يا من يصلح للرؤية ﴿كَثِيرًا مِّنْهُمْ﴾ من أهل الكتاب عمومًا، وقيل: المراد اليهود، وهو أظهر، ككعب بن الأشرف وأصحابه، وقد خرج جماعة منهم إلى مكَّة ليتَّفقوا مع المشركين على رسول الله ﷺ وعلى المؤمنين، فلم يتمَّ لهم ذلك.

٢. ﴿يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أشركوا من قريش أو غيرهم، ويفضِّلونهم على رسول الله ﷺ والمؤمنين بغضًا لهم وحبًّا لذلِّهم، والله يأبى إلَّا نصرهم وعزَّهم.

٣. ﴿لَبِيسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُم﴾ لبئس الذي قَدَّمَته لهم أنفسهم، أو لبئس هو شيئًا قَدَّمَته لهم

---

(١) فتح القدير: ٢/٧٧.

(٢) تيسير التفسير، أطفيش: ٤/١٠٤.

أنفسهم، ﴿أَن سَخِطَ اللهُ عَلَيْهِم﴾ مخصوص بالذمِّ على حذف مضاف، أي: موجب سخطه عليهم، لأنَّهم لا يقدِّمون السخط في الدُّنيا وهو عذاب الآخرة، أو ما يلحقهم في الدُّنيا من الأسواء، إذ ليس تقديم ذلك في وسعهم ولا محبوبًا لهم، بل يقدِّمون أفعال السوء واعتقاد السوء وهي الموجبة لعذاب الآخرة، أو المخصوص محذوف، أي: عملهم الذي عملوه، فيكون (أَن سَخِطَ اللهُ عَلَيْهِم) علَّةً، أي: لأنَّه سخط الله عليهم به، أو بدلاً منه، وإن جعل (أَن سَخِطَ) بدلاً من (مَا) على أنَّها موصولة أو معرِفة تامَّة جاز، بل جاز ولو على أنَّها نكرة، وإبدال المعرفة من النكرة أولى من تكلُّف تقدير: (لبئس الشيء شيئًا قَدَّمَته لهم أنفسهم سخطُ الله)، على أنَّ (سخطُ الله) بدل من المخصوص المُقَدَّر وهو: شيءٌ.

٤. ﴿وفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ﴾ الجملة معطوفة على خبر (أنْ) المخفَّفة، فينسحب عليها التأويل بالمصدر، أي: سخطه وخلودهم في العذاب.

٥. ﴿وَلَوْ كَانُواْ يُومِنُونَ بِاللهِ وَالنَّبِيءِ﴾ جنس أنبيائهم كموسى وعيسى، والضمير لأهل الكتاب، ﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ﴾ من التوراة والإنجيل وغيرهما ﴿مَا اتَّخَذُوهُمْ﴾ أي: ما اتَّخذوا مشركي قريش وغيرَهم ﴿أَوْلِيَآءَ﴾ يحبُّونهم من قلوبهم ويوادُّونهم ويسارُّونهم ويعينونهم، فإنَّ الإيمان بالأنبياء والكتب ينافي ذلك، ويجوز أن يراد بـ (النَّبِيءِ) سيِّدنا محمَّد ﷺ ، وبـ (مَا أُنزِلَ): القرآنُ، وصحَّ ذلك مع إنكارهم لهما، لأنَّهما حقٌّ ظاهر كالشمس، فلم يعتبر إنكارهم، أو يُقَدَّرُ في هذا الوجه: (ما اتَّخذوهم أولياء فينجوا من العذاب)، وإن رجعنا الضمير في قوله: ﴿وَلَوْ كَانُوا يُومِنُونَ﴾ إلى المنافقين ولو لم يَجْرِ لهم ذكر لكان المراد سيِّدنا محمَّد ﷺ والقرآن، فتكون الهاء في (اتَّخَذُوهُم) للذين كفروا، أي: المشركين، أو لأهل الكتاب الذين اتَّخذوا الكفَّار أولياء، أو لأهل الكتاب والمشركين.

٦. ﴿وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ خارجون عن حكم التوراة والإنجيل، أو مستمرُّون في النفاق، والمراد بالكثير مقابل القِلَّة المعادلة لهم، أي: والقليل غير فاسق من أهل الكتاب، بل مؤمن من أوَّل، أو يتوب، والقليل من المنافقين يتوب أيضًا.

القاسمي:

ذكر جمال الدين القاسمي (ت ١٣٣٢ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

لما وصف الله تعالى أسلافهم بما مضى، وصف الحاضرين بقوله: ﴿تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ﴾ أي: من أهل الكتاب ﴿يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: يوالون المشركين، بغضا لرسول الله ﷺ، قال الرازيّ: والمراد منهم كعب بن الأشرف وأصحابه، حين استجاشوا المشركين على الرسول ﷺ، وذكرنا ذلك في قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا﴾

١. ﴿لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ﴾ أي: لبئس شيئا قدموا لمعادهم، ﴿أَنْ سَخِطَ اللهُ عَلَيْهِمْ﴾ هو المخصوص بالذم، على حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه، تنبيها على كمال التعلق والارتباط بينهما كأنهما شيء واحد، ومبالغة في الذم، والمعنى: لبئس زادهم في الآخرة موجب سخطه تعالى عليهم ﴿وَفِي الْعَذَابِ﴾ أي: عذاب جهنم ﴿هُمْ خَالِدُونَ﴾

٢. ﴿وَلَوْ كَانُوا﴾ أي: هؤلاء الذين يتولون عبدة الأوثان من أهل الكتاب ﴿يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالنَّبِيِّ﴾ أي نبيهم موسى عليه السلام ﴿وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ﴾ أي: من التوراة ﴿مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ﴾ إذ الإيمان بالله يمنع من تولّي من يعبد غيره ﴿وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ خارجون عن دينهم، أو متمردون في نفاقهم، يعني: أن موالاتهم للمشركين كفى بها دليلا على نفاقهم، وإن إيمانهم ليس بإيمان، لأن تحريم ذلك متأكد في التوراة وفي شرع موسى عليه السلام، فلما فعلوا ذلك ظهر أنه ليس مرادهم تقرير دين موسى عليه السلام، بل مرادهم الرياسة والجاه، فيسعون في تحصيله بأي طريق قدروا عليه، فلهذا وصفهم تعالى بالفسق، وفي الآية وجه آخر: وهو أن يكون المعنى: ولو كانوا ـ أي منافقوا أهل الكتاب المدّعون للإيمان ـ يؤمنون بمحمد ﷺ والقرآن حق الإيمان ما ارتكبوا ما ارتكبوه، من موالاة الكافرين في الباطن، والوجه الأول أقوم.

رضا:

ذكر محمد رشيد رضا (ت ١٣٥٤هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(٢)]:

١. ذكر الله تعالى لرسوله حالا من أحوالهم الحاضرة التي هي من آثار تلك السيرة الراسخة، فقال: ﴿تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي ترى أيها الرسول كثيرا من بني إسرائيل يتولون الذين كفروا

---

(١) تفسير القاسمي: ٤/٢٢٥.

(٢) تفسير المنار: ٦/٤٠٧.

من مشركي قومك، ويحرضونهم على قتالك، وأنت تؤمن بالله وبما أنزله على أنبيائهم وتشهد لهم بالرسالة؛ وأولئك المشركون لا يوحدون الله تعالى ولا يؤمنون بكتبه ولا برسله مثلك، فكيف يتولونهم ويحالفونهم عليك لولا اتباع أهوائهم، وسخط الله عليهم؟

٢. ﴿لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللهُ عَلَيْهِمْ﴾ هذا ذم مؤكد بالقسم لعمل اليهود الذي قدمته لهم أنفسهم ليلقوا الله تعالى به في الآخرة، وما هو إلا العمل القبيح الذي أوجب سخط الله عليهم، فالمخصوص بالذم هو ذلك السخط الذي استحقوه، وليس أمامهم ما يجزون به سواه، ولبئس شيئا يقدمه الإنسان لنفسه، فسيجزون به شر الجزاء

٣. ﴿وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ﴾ فهو محيط بهم لا يجدون عنه مصرفا، لأن النجاة من العذاب إنما تكون برضاء الله تعالى، وهم لم يعملوا إلا ما أوجب سخطه.

٤. ﴿وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ﴾ أي ولو كان أولئك اليهود الذين يتولون الكافرين من مشركي العرب يؤمن بالله والنبي محمد ﷺ أو النبي الذي يدعون إتباعه وهو موسى عليه السلام وما أنزل إليه من الهدى والفرقان، لما اتخذوا أولئك الكافرين من عبدة الأصنام أولياء لهم وأنصارا، لأن العقيدة الدينية كانت تبعدهم عنهم والجنسية علة الضم، وفي العبارة وجه آخر وهو: لو كان أولئك الذين كفروا من المشركين يؤمنون بالله والنبي وما أنزل إليه ما اتخذتهم اليهود أولياء، أي أنهم لم يتخذوهم أولياء إلا لكفرهم بالله ورسوله وما أنزل إليه، والمراد من التوجيهين واحد، وهو أن هذه الولاية بين اليهود والمشركين لم يكن لها علة إلا اتفاق الفريقين على الكفر بالله ورسوله وكتابه، والتعاون على حرب الرسول وإبطال دعوته والتنكيل بمن آمن به، هذا هو المشهور في التفسير الآية.

٥. وذهب مجاهد إلى أن المراد بالذين تولاهم اليهود من الذين كفروا المنافقون، وهو أظهر الأقوال، والمعنى أن أولئك المنافقين كفار، ولو كانوا يؤمنون بالله والنبي وما أنزل إليه كما يدعون ما اتخذهم اليهود أولياء لهم، فتوليهم إياهم دليل كونهم يسرون الكفر ويظهرون الإيمان نفاقا، وقد تقدم الكلام في موالاة المنافقين لليهود وغيرهم فيما مضى من تفسير هذه السورة، وما العهد به ببعيد، كما تقدم القول في الموالاة والتناصر بين اليهود والمشركين، فاليهود كانوا يتولون المشركين والمنافقين جميعا للاشتراك في عداوة النبي ﷺ والمؤمنين، وما قلنا إن قول مجاهد أظهر إلا من حيث اللفظ، وقد بين الله العلة الجامعة بينهم بقوله:

﴿وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ أي خارجون من حظيرة الدين، منسلون منه انسلال الشعرة من العجين، والقليل لا تأثير له في سيرة الأمة وأعمالها.

المراغي:

ذكر أحمد بن مصطفى المراغي (ت ١٣٧١ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. بعد أن ذكر الله لنبيه أحوال أسلافهم ذكر له أحوال حاضريهم مما يدل على رسوخ تلك الملكات فيهم، فقال: ﴿تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي ترى أيها الرسول الكريم كثيرا من بنى إسرائيل يتولون الذين كفروا من مشركي قومك ويحالفونهم عليك ويحرّضونهم على قتالك، وأنت تؤمن بالله وبما أنزله على رسله وأنبيائه وتشهد لهم بصدق الرسالة وأولئك المشركون لا يؤمنون بكتاب ولا رسول ولا يعبدون إلها واحدا، ولولا اتباع الهوى وتزيين الشيطان لهم أعمالهم ما فعلوا ذلك، ولا دار هذا بخاطرهم، وما استحبّوا العمى على الهدى ﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ وقد روى أن كعب بن الأشرف وأصحابه ذهبوا إلى مكة واستجاشوا المشركين على الرسول ﷺ ولكن لم يتم لهم ما أرادوا، إذ لم يلبّوا لهم دعوة، ولا استجابوا لهم كلمة.

٢. ﴿لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ﴾ أي بئس شيئا قدموه لأنفسهم في آخرتهم ـ الأعمال التي أوجبت سخط الله وعظيم غضبه وسيجزون بها شر الجزاء، إذ سيحيط بهم العذاب ولا يجدون عنه مصرفا، ويخلدون في النار أبدا، فالنجاة منه إنما تكون برضا الله عن عبده، وهم لم يعملوا إلا ما يوجب سخطه وشديد غضبه.

٣. ﴿وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أنزل إليه مَا اتَّخَذُوهُمْ أولياء﴾ أي ولو كان أولئك اليهود الذين يتولون الكافرين من مشركي العرب ـ يؤمنون بالنبي الذي يدّعون اتباعه وهو موسى عليه السلام وما أنزل إليه من الهدى والبينات، لما اتخذوا أولئك الكافرين ممن يعبدون الأوثان والأصنام أولياء وأنصارا، إذ كانت العقيدة الدينية تصدهم عن ذلك وتدفع عنهم هذه الآصار والآثام التي يقترفونها.

٤. والخلاصة ـ إن هذه الولاية بين اليهود والمشركين لم يكن لها من سبب إلا اتفاق الفريقين على

---

(١) تفسير المراغي ٦/١٧٤.

الكفر بالله ورسوله، والتعاون على حربه، وإبطال دعوته، والتنكيل بمن آمن به.

٥. ويرى مجاهد أن المراد بالذين كفروا المنافقون أي: إن أولئك المنافقين كفار ولو كانوا يؤمنون بالله والنبي وما أنزل إليه كما يدّعون ما اتخذهم اليهود أولياء لهم، فتولّيهم إياهم من أعظم الأدلة على أنهم يسترون الكفر ويظهرون الإيمان نفاقا، وكان اليهود يتولون المشركين والمنافقين جميعا لاشتراكهم في عداوة النبي ﷺ والمؤمنين.

٦. وقد بين الله أسباب هذه الألفة والعلة الجامعة بينهم فقال: ﴿وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ أي ولكن كثيرا منهم متمردون في النفاق، خارجون عن حظيرة الدين، لا يريدون إلا الرئاسة والجاه، ويسعون إلى تحصيلها من أي طريق قدروا عليه، ومتى سار الكثير من الأمة على طريق تبعه الباقون، إذ لا عبرة بالقليل في سيرة الأمة وأعمالها.

سيّد:

ذكر سيّد قطب (ت ١٣٨٥ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. يمضي السياق إلى نهاية هذا المقطع في الحديث عن بني إسرائيل، وهو نهاية هذا الجزء، فيصف حالهم على عهد الرسول ﷺ وهي حالهم في كل زمان وفي كل مكان، فهم يتولون الذين كفروا، ويتناصرون معهم ضد الجماعة المسلمة، وعلة ذلك ـ مع أنهم أهل كتاب ـ أنهم لم يؤمنوا بالله والنبي وأنهم لم يدخلوا في دين الله الأخير.. فهم غير مؤمنين، ولو كانوا مؤمنين ما تولوا الكافرين: ﴿تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾

٢. وهذا التقرير كما ينطبق على حال اليهود ـ على عهد رسول الله ﷺ ينطبق على حالهم اليوم وغدا، وفي كل حين، كذلك ينطبق على الفريق الآخر من أهل الكتاب في معظم أرجاء الأرض اليوم.. مما يدعو إلى التدبر العميق في أسرار هذا القرآن، وفي عجائبه المدخرة للجماعة المسلمة في كل آن.

٣. لقد كان اليهود هم الذين يتولون المشركين؛ ويؤلبونهم على المسلمين، ﴿وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا

(١) في ظلال القرآن: ٢/٩٥٢.

هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا﴾، كما حكى عنهم القرآن الكريم، وقد تجلى هذا كله على أتمه في غزوة الأحزاب، ومن قبلها ومن بعدها كذلك؛ إلى اللحظة الحاضرة.. وما قامت إسرائيل في أرض فلسطين أخيرا إلا بالولاء والتعاون مع الكافرين الجدد من الماديين الملحدين! فأما الفريق الآخر من أهل الكتاب، فهو يتعاون مع المادية الإلحادية كلما كان الأمر أمر المسلمين! وهم يتعاونون مع الوثنية المشركة كذلك، كلما كانت المعركة مع المسلمين! حتى و(المسلمون) لا يمثلون الإسلام في شيء إلا في أنهم من ذراري قوم كانوا مسلمين! ولكنها الإحنة التي لا تهدأ على هذا الدين؛ ومن ينتمون إليه، ولو كانوا في انتمائهم مدعين! وصدق الله العظيم: ﴿تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ﴾

٤. فهذه هي الحصيلة التي قدمتها لهم أنفسهم.. إنها سخط الله عليهم، وخلودهم في العذاب، فما أبأسها من حصيلة! وما أبأسها من تقدمة تقدمها لهم أنفسهم؛ ويا لها من ثمرة مرة، ثمرة توليهم للكافرين! فمن منا يسمع قول الله سبحانه عن القوم؟ فلا يتخذ من عند نفسه مقررات لم يأذن بها الله: في الولاء والتناصر بين أهل هذا الدين؛ وأعدائه الذين يتولون الكافرين!

٥. ما الدافع؟ ما دافع القوم لتولي الذين كفروا؟ إنه عدم الإيمان بالله والنبي: ﴿وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ هذه هي العلة.. إنهم لم يؤمنوا بالله والنبي.. إن كثرتهم فاسقة.. إنهم يتجانسون ـ إذن ـ مع الذين كفروا في الشعور والوجهة؛ فلا جرم يتولون الذين كفروا ولا يتولون المؤمنين.. وتبرز لنا من هذا التعقيب القرآني ثلاث حقائق بارزة:

أ. الحقيقة الأولى: أن أهل الكتاب جميعا ـ إلا القلة التي آمنت بمحمد ﷺ ـ غير مؤمنين بالله، لأنهم لم يؤمنوا برسوله الأخير، ولم ينف القرآن الكريم عنهم الإيمان بالنبي وحده، بل نفى عنهم الإيمان بالله كذلك، ﴿وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ﴾ وهو تقرير من الله سبحانه لا يقبل التأويل، مهما تكن دعواهم في الإيمان بالله.. وبخاصة إذا اعتبرنا ما هم عليه من انحراف التصور للحقيقة الإلهية كما سلف في آيات هذا الدرس وفي غيرها من آيات القرآن الكريم.

ب. والحقيقة الثانية: أن أهل الكتاب جميعا مدعوون إلى الدخول في دين الله، على لسان محمد ﷺ فإن استجابوا فقد آمنوا، وأصبحوا على دين الله، وإن تولوا فهم كما وصفهم الله.

ج. والحقيقة الثالثة: أنه لا ولاء ولا تناصر بينهم وبين المسلمين، في شأن من الشئون، لأن كل شأن من شئون الحياة عند المسلم خاضع لأمر الدين.

٦. ويبقى أن الإسلام يأمر أهله بالإحسان إلى أهل الكتاب في العشرة والسلوك؛ وبحماية أرواحهم وأموالهم وأعراضهم في دار الإسلام؛ وبتركهم إلى ما هم فيه من عقائدهم كائنة ما تكون؛ وإلى دعوتهم بالحسنى إلى الإسلام ومجادلتهم بالحسنى كذلك، والوفاء لهم ـ ما وفوا ـ بعهدهم ومسالمتهم للمسلمين.. وهم ـ في أية حال ـ لا يكرهون على شيء في أمر الدين.. هذا هو الإسلام.. في وضوحه ونصاعته، وفي بره وسماحته.. والله يقول الحق، وهو يهدي السبيل.

الخطيب:

ذكر عبد الكريم الخطيب (ت ١٣٩٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. ﴿تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ الضمير في ﴿مِنْهُمْ﴾ يعود إلى علماء اليهود، وخاصتهم، وأنّهم يعطون ولاءهم ومودتهم للذين كفروا من مشركي العرب، ومن كافرى اليهود أنفسهم، ليظاهروهم على الدعوة الإسلامية، وليقودوا جبهة الكفر المتصدّية لها.. وهذا منهم هو كفر فوق كفر، وضلال فوق ضلال.. إذ لم يكفهم أنهم عرفوا الحق وكتموه، بل أجلبوا عليه الأعداء، وكانوا لهم في حربه سندا وظهيرا.. فاستحقوا لهذا سخط الله عليهم، وأن يصلوا النار التي أعدّها للعصاة المحادّين لله ورسوله.. وهذا ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ﴾

٢. ﴿أَنْ سَخِطَ اللهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ﴾ هو مصدر مؤول، وهو المخصوص بالذم أي بئس شيئا قدمته لهم أنفسهم، وأعدته ليوم الجزاء، سخط الله ولعنته لهم في الدنيا، والعذاب الشديد يوم القيامة في جهنم خالدين فيها أبدا.

٣. ﴿وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِالله وَالنَّبِيِّ وَمَا أنزل إليه مَا اتَّخَذُوهُمْ أولياء﴾ هو بيان لهذا المرض الخبيث المستكنّ في قلوب هؤلاء العلماء من بنى إسرائيل، وهو أنهم قد أعمى بصائرهم بالحسد، فألقوا بأنفسهم

---

(١) التفسير القرآني للقرآن: ٣/١١٥٦.

إلى التهلكة، وكفروا بالله، إذ كفروا بالنبيّ وما أنزل إليه من ربه، وكان ما بأيديهم من دلائل تدل على نبوته، وما عندهم من علم به وبرسالته ـ جديرا بأن يجعلهم أسبق الناس إلى لقاء هذا النبيّ والإيمان به، والوقوف من ورائه، والجهاد تحت رايته.. ولكنهم تخلّوا عن مكانهم هذا، الذي كان ينبغي أن يأخذوه مع النبي، وانحازوا إلى جهة الكافرين والمنافقين.. حسدا وبغيا.

٤. في قوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ هو حكم على الكثرة الغالبة من علماء اليهود بالفسق، والخروج عن الطريق القويم، طريق الحق والنور، إلى طريق العماية والضلال.. وإن قليلا منهم هو الذي سلم فلم يقع تحت طائلة هذا الحكم.

٥. سؤال وإشكال: لسائل أن يسأل: كيف يحكم على اليهود بالكفر، مع أنهم أهل كتاب، وأنهم يؤمنون بالله، وأن الإسلام قد وضعهم وضعا خاصا في أحكامه، فجعلهم أهل ذمّة، وسمح لهم أن يعيشوا في المجتمع الإسلامي وإلا تهدم بيوت عبادتهم، وإلا يحال بينهم وبين أن يؤدوا شعائر دينهم فيها.. كيف هذا؟ والجواب: من وجوه:

أ. فأولا: هم كافرون ـ لا شك في هذا ـ لأنهم اجترءوا الله، فنبذوا كتاب الله الذي في أيديهم، وحرّفوه، ثم ما بقي بأيديهم منه لم يستقيموا عليه، بل تأولوه تأويلا فاسدا، يجرى مع أهوائهم وما يشتهون.. فهم ـ وإن لم ينكروا الله ـ قد حاربوا الله، واستخفّوا بكلماته، وجعلوها تبعا لأهوائهم، ولم يجعلوا أهواءهم تبعا لها، والكافر بالله، والمنكر له، وإن غلظ جرمه، وعظم إثمه ـ هو أخفّ جرما، وأقل إثما، ممن عرف الله واستخفّ به، وأعلن الحرب عليه، فشوّه وجه كلماته، وأراق دم أنبيائه.

ب. وثانيا: هم كافرون ـ لا شك في هذا أيضا ـ لأنهم أنكروا نبوّة النبيّ وبهتوه، وكفروا بما أنزل عليه، وهم يعلمون ـ بما في أيديهم من كتب الله ـ أنه رسول من عند الله، وأن الآيات التي بين يديه هي كلمات الله.. وفي هذا يقول الله تعالى: ﴿وَلَمَّا جاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ الله مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جاءَهُمْ ما عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ الله عَلَى الْكافِرِينَ بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِما أنزل الله بَغْياً أَنْ يُنَزِّلَ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلى مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ فَباؤُوا بِغَضَبٍ عَلى غَضَبٍ وَلِلْكافِرِينَ عَذابٌ مُهِينٌ﴾ [البقرة: ٨٩ ـ ٩٠] فلقد دمغهم الله سبحانه بالكفر أكثر من مرة.. ﴿كَفَرُوا بِهِ﴾.. ﴿فَلَعْنَةُ الله عَلَى الْكَافِرِينَ﴾.. ﴿بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أنزل اللهُ﴾.. ﴿وَلِلْكَافِرِينَ

عَذَابٌ مُهِينٌ﴾، فهذا بعض ما وصفهم الله به في هاتين الآيتين، وقد توعدهم الله سبحانه باللعنة، ورماهم بالغضب بعد الغضب، ورصد لهم العذاب المهين يوم القيامة)..

ج. وثالثا: إن تصوّر اليهود لله هو تصور خاطئ فاسد، إذ يرون الله هو إله اليهود وحدهم لا يتعامل مع غيرهم، ولا يعمل لأحد سواهم، ولا يشغل إلا بهم وبمشكلاتهم.. فهو (رب الجنود) يقودهم في ميادين القتال، بل ويقاتل لهم وهم ينظرون، كما قالوا لموسى: ﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ [المائدة: ٢٤]، وهذا تصور خاطئ لله رب العالمين.. إنهم لا يرونه إلا أشبه بإنسان يملك قوى خارقة لا يملكونها، أشبه بآلهة الأساطير التي تولدت في خيال الوثنيين لتحقق لهم أحلاما قصرت أيديهم عن تحقيقها.. ولهذا، فقد طلبوا إلى موسى أن يريهم الله جهرة، أي عيانا، فقالوا ما حكاه القرآن عنهم: ﴿لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللهَ جَهْرَةً﴾ (٥٥ البقرة)، هذا هو إله اليهود الذي يؤمنون به.. إنه إلههم وحدهم.. أما هذا الوجود فله إله أو آلهته.. وذلك كفر، أو شرك، أو فسق.. وقد صف صف اليهود بهذه الصفات جميعا.

د. ورابعا: جعل الإسلام أهل الكتاب أهل ذمّة ولم يأخذهم بما أخذ به غيرهم ممن لا كتاب لهم من المشركين والكافرين، كالصائبين والمجوس، ومشركي العرب وغيرهم، لأنهم على شبهة من دين، ولهذا لم يقم عليهم حدّ القتل، إذ كان من أصول الإسلام: (درء الحدود بالشبهات).. فهم ـ أي أهل الكتاب ـ كافرون، ولكن كفرهم مشوب بإيمان باهت.. وهذا الإيمان على ما فيه، لا يرفع عنهم الحكم ـ ديانة ـ بأنهم كافرون، ولكنه يرفع عنهم إقامة حدّ الكفر عليهم بقتلهم، إذا وقعوا في حوزة المسلمين وصاروا إلى أيديهم، وأبوا أن يدخلوا في الإسلام.، فهذا الكفر المشوب بالإيمان، أو الإيمان المختلط بالكفر، يعصم دماءهم، وأموالهم، ويجعلهم ذمة في يد المسلمين.. وفي هذا يقول الله تعالى: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ [التوبة: ٢٩].. فهذه الجزية التي تؤخذ منهم، وهذا الصّغار الذي ينضح عليهم من الجزية التي يؤدونها ـ هو تعزير لهم على جناية الكفر الذي حالت دون إقامة الحدّ عليهم فيه، شبهة الإيمان المختلط بكفرهم.

ابن عاشور:

ذكر محمد الطاهر بن عاشور (ت ١٣٩٣ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي(١):

١. ﴿تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ استئناف ابتدائي ذكر به حال طائفة من اليهود كانوا في زمن الرّسول ﷺ وأظهروا الإسلام وهم معظم المنافقين وقد دلّ على ذلك قوله: ﴿يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾، لأنّه لا يستغرب إلّا لكونه صادرا ممّن أظهروا الإسلام فهذا انتقال لشناعة المنافقين، والرؤية في قوله: ﴿تَرَى﴾ بصريّة، والخطاب للرّسول.

٢. والمراد بـ ﴿كَثِيرًا مِنْهُمْ﴾ كثير من يهود المدينة، بقرينة قوله: ﴿تَرَى﴾، وذلك أنّ كثيرا من اليهود بالمدينة أظهروا الإسلام نفاقا، نظرا لإسلام جميع أهل المدينة من الأوس والخزرج فاستنكر اليهود أنفسهم فيها، فتظاهروا بالإسلام ليكونوا عينا ليهود خيبر وقريظة والنضير، ومعنى ﴿يَتَوَلَّوْنَ﴾ يتّخذونهم أولياء.

٣. والمراد بالّذين كفروا مشركو مكّة ومن حول المدينة من الأعراب الذين بقوا على الشرك، ومن هؤلاء اليهود كعب بن الأشرف رئيس اليهود فإنّه كان مواليا لأهل مكّة وكان يغريهم بغزو المدينة، وقد تقدّم أنّهم المراد في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا﴾ [النساء: ٥١]

٤. وقوله: ﴿أَنْ سَخِطَ اللهُ عَلَيْهِمْ﴾ (أن) فيه مصدريّة دخلت على الفعل الماضي وهو جائز، كما في (الكشاف) كقوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ﴾ [الإسراء: ٧٤]، والمصدر المأخوذ هو المخصوص بالذمّ، والتّقدير: لبئس ما قدمت بهم أنفسهم سخط الله عليهم، فسخط الله مذموم، وقد أفاد هذا المخصوص أنّ الله قد غضب عليهم غضبا خاصّا لموالاتهم الّذين كفروا، وذلك غير مصرّح به في الكلام فهذا من إيجاز الحذف، ولك أن تجعل المراد بسخط الله هو اللّعنة الّتي في قوله: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [المائدة: ٧٨]، وكون ذلك ممّا قدّمت لهم أنفسهم معلوم من الكلام السابق.

٥. وقوله: ﴿وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالنَّبِيِّ﴾ الواو للحال من قوله: ﴿تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ﴾ باعتبار كون المراد بهم المتظاهرين بالإسلام بقرينة ما تقدّم، فالمعنى: ولو كانوا يؤمنون إيمانا صادقا ما اتّخذوا المشركين أولياء، والمراد بالنّبيء محمّد ﷺ، وبما أنزل إليه القرآن، وذلك لأنّ النّبي نهى المؤمنين عن موالاة

---

(١) التحرير والتنوير: ١٨٢/٥.

المشركين، والقرآن نهى عن ذلك في غير ما آية، وقد تقدّم في قوله: ﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ٢٨]، وقد جعل موالاتهم للمشركين علامة على عدم إيمانهم بطريقة القياس الاستثنائي، لأنّ المشركين أعداء الرّسول فموالاتهم لهم علامة على عدم الإيمان به، وقد تقدّم ذلك في سورة آل عمران.

٦. وقوله: ﴿وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ هو استثناء القياس، أي ولكنّ كثيرا من بني إسرائيل ﴿فَاسِقُونَ﴾، فالضمير عائد إلى ما عاد إليه ضمير ﴿تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ﴾ و﴿فَاسِقُونَ﴾ كافرون، فلا عجب في موالاتهم المشركين لاتّحادهم في مناواة الإسلام، فالمراد بالكثير في قوله: ﴿وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ عين المراد من قوله: ﴿تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ فقد أعيدت النكرة نكرة وهي عين الأولى: إذ ليس يلزم إعادتها معرفة، ألا ترى قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح: ٥، ٦]، وليس ضمير ﴿مِنْهُمْ﴾ عائدا إلى ﴿كَثِيرًا﴾ إذ ليس المراد أنّ الكثير من الكثير فاسقون بل المراد كلّهم.

أبو زهرة:

ذكر محمد أبو زهرة (ت ١٣٩٤ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي(١):

١. ﴿تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ هذا عمل من أعمال اليهود تذهب بهم بغضاؤهم، وحقدهم على المؤمنين إلى أن ينضم كثيرون منهم للمشركين، فالمراد بالذين كفروا أولئك الذين كفروا بالوحدانية، وبلغوا غاية الكفر وأقصاه، وذلك يدل عليه التاريخ، فقد ذهب قوم من اليهود، وألبوا على النبي ﷺ المشركين، ووالوهم، والتولي الموادة والمناصرة والانضمام إليهم، وفى كل حرب دخلها النبي ﷺ كان اليهود مع عهودهم الموثقة مع المؤمنين يوالون المشركين زاعمين أنهم فاتحو المدينة، فبنو النضير خانوا العهد وبنو قريظة وبنو قينقاع كذلك.

٢. وفسر بعض العلماء الذين كفروا بالجبابرة من الملوك الكافرين، فهم يتولون كل ذي قوة، ولو كان جبارا عاتيا، وينسب ذلك الرأي إلى محمد الباقر بن على زين العابدين، وفيه غرابة، وإن كان معناه سليما.

---

(١) زهرة التفاسير: ٥/٢٣٢٢.

٣. ﴿لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ﴾ (بئس) كما ذكرنا تدل على الذم، و﴿مَا قَدَّمَتْ﴾ أيديهم هو ما قدموه من عصيان وعدم التناهي عن المنكر، والاعتداء وتولى المشركين والجبابرة، وقد أكد سبحانه وتعالى الذم بالقسم واللام، والتعبير بما قدمت أنفسهم يشمل الفعل والقول، والحقد والحسد والمظهر في هذا الذم ينالهم أمران خطيران: أحدهما: سخط الله تعالى وحسب ذلك شرا في مآلهم، وأنهم مخلدون في العذاب، وقد أكد سبحانه عذابهم بكلمة ـ هم ـ وتقديم ﴿فِي الْعَذَابِ﴾، وتخليده.

٤. وقد بين سبحانه أن ولاية المشركين والجبابرة أمر مذموم لأنه ضد الخير، فقال: ﴿وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ﴾ إن أولئك اليهود يحسبون أنهم يؤمنون بالله، وأن لهم أنبياء جاءوا إليهم، وكتبا خوطبوا بها، فيبين الله سبحانه وتعالى أنهم لو كانوا يؤمنون بالله حق الإيمان وأنه واحد أحد فرد صمد، وأن له رسالة بعثها، وأن لهم نبيا خاطبهم عن الله تعالى ما تركوا ولاية الموحدين، واختاروا ولاية المشركين الذين لا يوحدون الله ولا يؤمنون بنبوة نبي مرسل، ولا بكتاب منزل ولكنهم حاقدون حاسدون متمردون على الحق إشباعا لأهوائهم.

٥. ولذلك ختم الآية بقوله: ﴿وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ استدراك فيه بيان لحالهم، وسبب تركهم موالاة المؤمنين، فذكر أن كثيرا منهم خارجون متمردون على الحق بسبب ما في قلوبهم من حقد وحسد، ونرى إنصاف القرآن بينا واضحا إذ لم يرمهم جميعا بالفسوق عن أمره، وقد أكد فسوق الأكثرين بوصفهم بالفسق، وكأنه وصف مستمر لهم، وليس حالا عارضا، اللهم اهدنا فيمن هديت، واشف قلوبنا من الغل والحسد.

مُغْنِيَّة:

ذكر محمد جواد مُغْنِيَّة (ت ١٤٠٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. ﴿تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾، ضمير منهم يعود إلى اليهود، والمراد بالذين كفروا ـ هنا ـ مشركو العرب، وكان كثير من اليهود يقفون مع المشركين ضد النبي ﷺ، ويحرضونهم عليه، بل كانوا

(١) التفسير الكاشف: ٣/١٠٩.

أشد منهم عداوة له، مع أن النبي ﷺ يؤمن بالله، وبنبوة موسى عليه السلام، وما أنزل إليه من ربه، والمشركون يعبدون الأوثان، ولا يؤمنون بموسى، ولا بكتاب من كتب الله، فكان الأولى باليهود، وهذه هي الحال، أن يقفوا مع المؤمنين ضد الوثنيين، لا مع الوثنيين ضد المؤمنين، ولكن اليهود كانوا وما زالوا يعملون على أساس الربح والتجارة، لا على أساس الدين، كان يهود المدينة يسيطرون على التجارة الداخلية، ومشركو العرب يسيطرون على التجارة الخارجية، فعمل النبي ﷺ على تحرير الناس من السيطرتين، فالتقت مصلحة اليهود مع مصلحة المشركين فتكاتفوا معهم وتضامنوا ضد المؤمنين، تماما كما التقت اليوم مصلحة اليهود مع مصالح أرباب الشركات الاستثمارية من المسيحيين ضد الشعوب والمستعفين.. وسبق الكلام عن ذلك عند تفسير الآية ٥١ من هذه السورة.

٢. ﴿لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ﴾، هذه نتيجة فسادهم واعتدائهم، سخطه وعذابه، وكل امرئ مجزي بما أسلف، وقادم على ما قدم، مسلما كان أو مشركا كان.

٣. ﴿وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالنَّبِيِّ﴾ ـ موسى ـ ﴿وَمَا أنزل إليه مَا اتَّخَذُوهُمْ أولياء﴾، ذكر سبحانه في الآية السابقة أن اليهود، أو الكثير منهم كانوا يتولون المشركين، ويؤلبونهم على المسلمين، مع أن المسلمين أقرب اليهم دينا من المشركين، ثم بيّن سبحانه في هذه الآية أن أولئك اليهود لم يؤمنوا بالله، ولا بموسى، ولا بما أنزل في التوراة كما يدعون، ولو صدقوا في دعواهم ما اتخذوا المشركين أولياء من دون المؤمنين، لأن ذلك محرم في شريعة التوراة، ﴿وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾، أي أن المسألة عندهم ليست مسألة دين وعقيدة، وإنما هي مسألة مصلحة ومنفعة، كما قدمنا.

الطباطبائي:

ذكر محمد حسين الطباطبائي (ت ١٤٠٢ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[1]:

١. ﴿تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾، وهذا من قبيل الاستشهاد بالحس على كونهم معتدين فإنهم لو قدروا دينهم حق قدره لزموه ولم يعتدوه، ولازم ذلك أن يتولوا أهل التوحيد ويتبرءوا من الذين

(١) الميزان في تفسير القرآن: ٦/٧٩.

كفروا لأن أعداء ما يقدسه قوم أعداء لذلك القوم، فإذا تحابوا وتوالوا دل ذلك على إعراض ذلك القوم وتركهم ما كانوا يقدسونه ويحترمونه، وصديق العدو عدو.

٢. ثم ذمهم الله تعالى بقوله: ﴿لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ﴾ وهو ولاية الكفار عن هوى النفس، وكان جزاؤه ووباله ﴿أَنْ سَخِطَ اللهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ﴾، ففي الآية وضع جزاء العمل وعاقبته موضع العمل كأن أنفسهم قدمت لهم جزاء العمل بتقديم نفس العمل.

٣. ﴿وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أنزل إليه مَا اتَّخَذُوهُمْ أولياء وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ أي ولو كان أهل الكتاب هؤلاء يؤمنون بالله والنبي محمد ﷺ وما أنزل إليه، أو نبي أنفسهم كموسى مثلا وما أنزل إليه كالتوراة مثلا ما اتخذوا أولئك الكفار أولياء لأن الإيمان يجب سائر الأسباب، ولكن كثيرا منهم فاسقون متمردون عن الإيمان وفي الآية وجه آخر احتملوه، وهو أن يرجع ضمائر قوله: ﴿كَانُوا﴾ و﴿يُؤْمِنُونَ﴾ و﴿اتَّخَذُوهُمْ﴾ في قوله: ﴿مَا اتَّخَذُوهُمْ﴾ راجعة إلى الذين كفروا، والمعنى: ولو كان الذين كفروا أولئك الكفار الذين يتولاهم أهل الكتاب يؤمنون بالله والنبي والقرآن ما اتخذتهم أهل الكتاب أولياء، وإنما تولوهم لمكان كفرهم، وهذا وجه لا بأس به غير أن الإضراب في قوله: ﴿وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ لا يلائمه.

الحوثي:

ذكر بدر الدّين الحوثي (ت ١٤٣١ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. ﴿تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ لوقت نزول القرآن وما قبله يتولون من هم في دين أهل الكتاب كفار لا يجوز توليهم، أي يصادقونهم ويصافونهم المودَّة.

٢. ﴿مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ﴾ هو ما كانوا يفعلون، ونُسِب إلى أنفسهم لأنها هي الأمارة بالسوء التي ورطتهم فيه، وجعل تقديماً لأنفسهم، لأن من شأن العاقل الذي سمع الوعد والوعيد أن يقدم لنفسه عملاً صالحاً ينجيه من العذاب ويبلغه الجنة، فلما كان المذكورون من أهل الكتاب جعلوا مكان ذلك المعاصي الموبقات جعلت تقديماً لأنفسهم، على طريق المشاكلة التقديرية، أو تهكماً بهم.

---

(١) التيسير في التفسير: ٢/٣٦١.

٣. ﴿أَنْ سَخِطَ اللهُ عَلَيْهِمْ﴾ إما مخصوص بالذم أي هو سخط الله عليهم؛ لأن معاصيهم سبب السخط، وإما تعليل للأفعال المذمومة أنها وقعت منهم؛ لأن سخط الله عليهم، أي أن معاصيهم جرَّت معاصيَ أكبر منها بسبب خذلان الله لهم، كقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف:٥]

٤. ﴿وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ﴾ لا يخرجون منه كما زعموا أنها لن تمسهم النار إلا أياماً معدودة، والجملة معطوفة على جملة ﴿لَبِئْسَ﴾ إلى ﴿أَنْ سَخِطَ اللهُ عَلَيْهِمْ﴾

٥. ﴿وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِالله وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ النبي الذي ينتمون إليه ﴿وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ﴾ كما يدعون ﴿مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ﴾ لأن الإيمان لا يدع صاحبه يتولى أعداء الله، كما قال تعالى: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِالله وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللهَ وَرَسُولَهُ﴾ [المجادلة:٢٢] لأن المؤمن يحب في الله ويبغض في الله كما في الحديث: (أوثق عرى الإيمان الحبّ في الله، والبغض في الله)

٦. ﴿وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ﴾ أي من أهل الكتاب، وهم الذين قال فيهم: ﴿تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ﴾ وهو احتراس لئلا يوهم أن أهل الكتاب كلهم فاسقون مع أنهم ليسوا سواء، فهؤلاء ليسوا مؤمنين بل هم ﴿فَاسِقُونَ﴾ خارجون عن أمر الله خبثة فجار، ومن كان كذلك لا يستبعد منه الشرك فلا يغتر بهم من بعدهم، وقد قيل: إن بعض النصارى احتج لقولهم في عيسى بأنه مذهب واضح البطلان في بادئ الرأي، فلولا أن فلاناً وفلاناً وفلاناً من أسلافهم قد علموا صحة ذلك لما دانوا به؛ لأنهم أهل عقول ودين فلعل ما ساقه القرآن من ذكر معاصي أهل الكتاب من ترك التناهي عن المنكر وتولي الكفار ساقه لإبطال هذه الشبهة وتحقيق أن ضلالاتهم إنما هي أهواء أنفسهم لا برهان لهم بها.

فضل الله:

ذكر محمد حسين فضل الله (ت ١٤٣١ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. وكان من ملامحهم أنهم ﴿يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾، ويخلصون لهم المودّة، ويتعاونون معهم في محاربة خط الرسالات، لأن الكفر لا يمثل عندهم عقدة فكرية أو نفسيّة، ليكون ذلك بمثابة الحاجز

---

(١) من وحي القرآن: ٨/٢٩٣.

الداخلي الذي يمنع من المودّة الروحيّة والعمليّة، بل هو ـ على العكس من ذلك ـ يمثل انفتاحا بمقدار ما يلتقي الفكر بالفكر، والأهداف بالأهداف، لَبِئْسَ ما قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ فالله ـ سبحانه وتعالى ـ يعتبر أن هذا السلوك هو بئس السلوك الذي قدمته لهم أنفسهم، وقادتهم إليه أهواؤهم، فأبعدتهم عن رحمة الله، ﴿أَنْ سَخِطَ اللهُ عَلَيْهِمْ﴾ وقربتهم من سخطه الذي لن يجدوا أمامهم معه إلا الخلود في العذاب، وفِي الْعَذابِ هُمْ خالِدُونَ الذي جعله الله جزاء للمتمردين والكافرين.

٢. ثم يوضح القرآن خط الفكرة، فإن ولاية الكافرين الّتي تمثل إزالة كل الحواجز الفكريّة والنفسيّة والعمليّة بينهم، لا يمكن أن تلتقي في خط واحد مع الإيمان بالله وبرسوله وبالوحي الذي أنزل عليه، لأن الإيمان بذلك كلّه يعني العمل على بناء الشخصيّة على الإخلاص لله وللرسول، والاندماج في أجواء الوحي ومخططاته، وبالتالي، تحديد المواقف من الأشياء والأشخاص على هذا الأساس من خلال ما تمثله قضايا الإيمان من قيمة روحيّة وفكرية وعمليّة للإنسان وللحياة فلا مجال للانسجام مع الخطوط المضادّة، أو مع الأشخاص الذين يتحركون في اتجاه هذه الخطوط لأن ذلك يعني الرضى بالخط المنحرف، في الموقف أو في الشخص، أو التهوين من خطورته بالفصل بين الذات والفكر والموقف، فإذا كان التوافق في هذه الأمور كانت الولاية والمودة، وإذا كان التنافر والاختلاف فيها، كانت المواجهة والمضادة في المواقف والعلاقات.

٣. وهذا ما ينبغي لنا ـ كمسلمين وكعاملين للإسلام أن نواجهه حين نواجه أمر العلاقات بيننا وبين الآخرين الذين نختلف معهم في أمر العقيدة والسياسة والاجتماع، فقد نلاحظ أن هناك دعوات في الساحة، تعمل على تبسيط المسألة وتخفيف خطرها، وتحويلها إلى حالة هامشيّة لا دخل لها في حركة العلاقات الفكرية والشعوريّة والعمليّة، لأن طبيعة العلاقات ـ كما يرى هؤلاء ـ تتحرك من قاعدة العلاقات الذاتيّة الحميمة ـ بعيدا عن كل الخلافات في القضايا الفكرية، هذا ما نشاهده في التقاء الفئات المختلفة في الكفر على أكثر من صعيد في حركة العلاقات الذاتية من دون أن يحدث ذلك أي خلل في العقيدة أو في الانتماء.

٤. إن مثل هذه الدعوات قد تخلط بين العلاقات الإنسانيّة المتمثلة بشؤون الحياة وأوضاعها الاقتصاديّة والسياسيّة والاجتماعيّة وبين العلاقات الإنسانيّة الخاصة المتمثلة فيما يتخذه الناس من مواقف

وأفكار، في آفاقها النفسية والفكرية، مما يفرض نوعا من الحدود الداخليّة والخارجيّة الّتي تحمي الأفكار والمواقف من الميوعة والذوبان في غمار العلاقات العاطفية الحميمة إن المودة تقف في الجانب الثاني، أما المعاملة فتقف في الجانب الأول، وذلك هو الخط الفاصل بين علاقات المودة وعلاقات المعاملة، حيث يرفض الإسلام الأولى بين الكافرين والمؤمنين، ويوافق على الثانية بين مختلف الفئات وذلك هو الإيحاء القرآني للمرحلة العملية الّتي يخوضها المسلمون في مواجهة الكفر بجميع أشكاله وألوانه، لتبدأ المجابهة الرافضة من الداخل لكل ما هو كفر أو حركة في اتجاه قوّة الكفر، لتتحول إلى موقف حاسم في ساحة الصراع.

الشيرازي:

ذكر ناصر مكارم الشيرازي في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. الآية الكريمة تشير إلى معصية أخرى من معاصيهم: ﴿تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾، من البديهي أنّ صداقتهم لأولئك لم تكن صداقة عادية، بل كانت ممتزجة بأنواع المعاصي، وكانوا يشجعون الأعمال والأفكار الخاطئة، لذلك أدانت الآية في عباراتها الأخيرة الأعمال التي قدموها ليوم المعاد، تلك الأعمال التي استوجبت غضب الله وعذابه الدائم: ﴿لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ﴾

٢. أمّا من هم المقصودون بتعبير ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ فإنّ بعضا يقول: إنّهم كانوا مشركي مكّة الذين صادقوا اليهود، ويرى بعض أنّهم الجبارون والظالمون الذين كان اليهود قديما يمدون إليهم يد الصداقة، وهذا الرأي يؤكّده الحديث المنقول عن الإمام الباقر عليه السّلام إذ قال: (يتولون الملوك الجبارين ويزينون لهم أهواءهم ليصيبوا من دنياهم)، وليس ثمّة ما يمنع أن تشمل الآية كلا المعنيين، بل وتكون أعم منهما أيضا.

٣. ﴿وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ هذه الآية تبيّن لهم طريق النجاة من نهجهم الخاطئ، وهو أنّهم لو كانوا حقا يؤمنون بالله وبرسوله وبما أنزل

---

(١) تفسير الأمثل: ٤/١١٩.

عليه، لما عقدوا أواصر الصداقة مع أعداء الله ولا اعتمدوهم أبدا: ﴿وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ﴾ ولكن الذي يؤسف له هو أنّ الذين يطيعون أوامر الله قلّة، ومعظمهم خارجون عن نطاق إطاعته وسائرون على طريق الفسق ﴿وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾

٤. من الواضح أنّ كلمة (النّبي) هنا تعني (رسول الإسلام ﷺ) وذلك لأنّ هذه الكلمة قد استعملت في القرآن المجيد في آيات متعددة بهذا المعنى، وهذا الموضوع يتكرر في عشرات الآيات، ثمّة احتمال آخر في تفسير هذه الآية، هو أنّ الضمير في (كانوا) يعود على المشركين وعبدة الأصنام، أي لو أنّ هؤلاء المشركين الذين يعتمدهم اليهود ويثقون بهم، قد آمنوا برسول الله ﷺ والقرآن، لما اختارهم اليهود أصدقاء لهم، وهذا دليل بيّن على على ضلال هؤلاء وفسقهم، وذلك لأنّهم ـ على الرغم من زعمهم أنّهم يتبعون الكتب السماوية ـ يتخذون عبدة الأصنام أصدقاء لهم ما دام هؤلاء مشركين، ولكنّهم يبتعدون عنهم إذا توجهوا إلى الله والكتب السماوية، بيد أنّ التّفسير الأوّل أقرب إلى ظاهر الآيات، حيث الضمائر كلّها تعود إلى مرجع واحد هو اليهود.

٧٥. اليهود والنصارى والعداوة والمودة

نتناول في هذا الفصل ما ذكره المفسّرون ـ بحسب التسلسل التاريخي، والمدارس الإسلامية المختلفة ـ حول تفسير المقطع [٧٥] من سورة المائدة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ فَأَثَابَهُمُ اللهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ [المائدة: ٨٢ ـ ٨٦]، مع العلم أنّا نقلنا المباحث التي لا علاقة لها ـ كبرى أو مباشرة ـ بالتفسير التحليلي إلى محالّها من كتب السلسلة.

سلمان:

روي عن سلمان الفارسي (ت ٣٤ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال في قصة إسلامه: لما قدم النبي ﷺ المدينة صنعت طعاما، فجئت به، فقال: (ما هذا؟)، قلت: صدقة، فقال لأصحابه: (كلوا)، ولم يأكل، ثم إني رجعت حتى جمعت طعاما، فأتيته به، فقال: (ما هذا؟)، قلت: هدية، فأكل، وقال لأصحابه: (كلوا)، قلت: يا رسول الله، أخبرني عن النصارى، قال: (لا خير فيهم، ولا في من أحبهم)، فقمت وأنا مثقل؛ فأنزل الله: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ﴾ حتى بلغ: ﴿تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ﴾، فأرسل إلي رسول الله ﷺ، فقال لي: (يا سلمان، إن أصحابك هؤلاء الذين ذكر الله)[1].

٢. روي أنّه قال: كنت يتيما من رامهرمز، وكان ابن دهقان رامهرمز يختلف إلى معلم يعلمه، فلزمته لأكون في كنفه، وكان لي أخ أكبر مني، وكان مستغنيا في نفسه، وكنت غلاما فقيرا، فكان إذا قام من مجلسه تفرق من يحفظه، فإذا تفرقوا خرج فتقنع بثوبه، ثم صعد الجبل، فكان يفعل ذلك غير مرة متنكرا، قال:

---

(١) الفسوي في المعرفة والتاريخ ٣/٢٩٦.

فقلت: أما إنك تفعل كذا وكذا، فلم لا تذهب بي معك؟ قال: أنت غلام، وأخاف أن يظهر منك شيء، قال: قلت: لا تخف، قال: فإن في هذا الجبل قوما في برطيل[1]،، لهم عبادة وصلاح، يذكرون الله عز وجل، ويذكرون الآخرة، يزعمون أنا عبدة النيران، وعبدة الأوثان، وأنا على غير دين، قلت: فاذهب بي معك إليهم، قال: لا أقدر على ذلك حتى أستأمرهم، وأنا أخاف أن يظهر منك شيء فيعلم أبي، فيقتل القوم، فيجري هلاكهم على يدي، قال: قلت: لم يظهر مني ذلك، فاستأمرهم، فقال: غلام عندي يتيم، فأحب أن يأتيكم، ويسمع كلامكم، قالوا: إن كنت تثق به، قال: أرجو ألا يجيء منه إلا ما أحب، قالوا: فجئ به، فقال لي: قد استأذنت القوم أن تجيء معي، فإذا كانت الساعة التي رأيتني أخرج فيها فأتني، ولا يعلم بك أحد، فإن أبي إن علم قتلهم، قال: فلما كانت الساعة التي يخرج تبعته، فصعد الجبل، فانتهينا إليهم، فإذا هم في برطيلهم ـ قال: علي: وأراه قال: هم ستة أو سبعة ـ قال: وكأن الروح قد خرجت منهم من العبادة، يصومون النهار، ويقومون الليل، يأكلون الشجر وما وجدوا، فقعدنا إليهم، فأثنى ابن الدهقان علي خيرا، فتكلموا، فحمدوا الله، وأثنوا عليه، وذكروا من مضى من الرسل والأنبياء، حتى خلصوا إلى عيسى ابن مريم، قالوا: بعثه الله، ولد بغير ذكر، بعثه الله رسولا، وسخر له ما كان يفعل من إحياء الموتى، وخلق الطير، وإبراء الأعمى والأبرص، فكفر به قوم وتبعه قوم، وإنما كان عبد الله ورسوله، ابتلى به خلقه، قال: وقالوا قبل ذلك: يا غلام، إن لك ربا، وإن لك معادا، وإن بين يديك جنة ونارا، إليها تصير، وإن هؤلاء القوم الذين يعبدون النيران أهل كفر وضلالة، لا يرضى الله بما يصنعون، وليسوا على دين، فلما حضرت الساعة التي ينصرف فيها الغلام انصرف وانصرفت معه، ثم غدونا إليهم، فقالوا مثل ذلك وأحسن، فلزمتهم، فقالوا: يا سلمان، إنك غلام، وإنك لا تستطيع أن تصنع كما نصنع، فكل واشرب، وصل ونم، قال: فاطلع الملك على صنيع ابنه، فركب الخيل حتى أتاهم في برطيلهم، فقال: يا هؤلاء، قد جاورتموني فأحسنت جواركم، ولم تروا مني سوءا، فعمدتم إلى ابني فأفسدتموه علي، قد أجلتكم ثلاثا؛ فإن قدرت عليكم بعد ثلاث أحرقت عليكم برطيلكم هذا، فالحقوا ببلادكم، فإني أكره أن يكون مني إليكم سوء، قالوا: نعم، ما تعمدنا مساءتك، ولا أردنا إلا الخير، فكف ابنه عن إتيانهم، فقلت له: اتق الله، فإنك تعرف

---

(١) البرطيل: حجر مستطيل عظيم.

أن هذا الدين دين الله، وإن أباك ونحن على غير دين، إنما هم عبدة النيران لا يعرفون الله، فلا تبع آخرتك بدنيا غيرك، قال: يا سلمان، هو كما تقول، وإنما أتخلف عن القوم بقيا عليهم، إن اتبعت القوم يطلبني أبي في الخيل، وقد جزع من إتياني إياهم حتى طردهم، وقد أعرف أن الحق في أيديهم، قلت: أنت أعلم، ثم لقيت أخي فعرضت عليه، فقال: أنا مشتغل بنفسي في طلب المعيشة، فأتيتهم في اليوم الذي أرادوا أن يرتحلوا فيه، فقالوا: يا سلمان، قد كنا نحذر، فكان ما رأيت، اتق الله، واعلم أن الدين ما أوصيناك به، وإن هؤلاء عبدة النيران، لا يعرفون الله ولا يذكرونه، فلا يخدعنك أحد عن ذلك، قلت: ما أنا بمفارقكم، قالوا: إنك لا تقدر على أن تكون معنا، نحن نصوم النهار، ونقوم الليل، ونأكل الشجر وما أصبنا، وأنت لا تستطيع ذلك، قال: قلت: لا أفارقكم، قالوا: أنت أعلم، قد أعلمناك حالنا، فإذا أبيت فاطلب أحدا يكون معك، واحمل معك شيئا تأكله، فإنك لا تستطيع ما نستطيع نحن، قال: ففعلت ولقيت أخي، فعرضت عليه، فأبى، فأتيتهم فتحملوا، فكانوا يمشون وأمشي معهم، فرزقنا الله السلامة حتى قدمنا الموصل، فأتينا بيعة بالموصل، فلما دخلوا حفوا بهم، وقالوا: أين كنتم؟ قالوا: كنا في بلاد لا يذكرون الله، بها عبدة نيران فطردونا، فقدمنا عليكم، فلما كان بعد قالوا: يا سلمان، إن هاهنا قوما في هذه الجبال هم أهل دين، وإنا نريد لقاءهم، فكن أنت هاهنا مع هؤلاء، فإنهم أهل دين وسترى منهم ما تحب، قلت: ما أنا بمفارقكم، قال: وأوصوا بي أهل البيعة، فقال أهل دين البيعة: أقم معنا، فانه لا يعجزك شيء يسعنا، قلت: ما أنا بمفارقكم، فخرجوا وأنا معهم، فأصبحنا بين جبال، فإذا صخرة وماء كثير في جرار وخبز كثير، فقعدنا عند الصخرة، فلما طلعت الشمس خرجوا من بين تلك الجبال، يخرج رجل رجل من مكانه، كأن الأرواح انتزعت منهم، حتى كثروا، فرحبوا بهم وحفوا، وقالوا: أين كنتم، لم نركم؟ قالوا: كنا في بلاد لا يذكرون اسم الله، فيها عبدة النيران، وكنا نعبد الله فيها، فطردونا، فقالوا: ما هذا الغلام؟ قالوا: فطفقوا يثنون علي، وقالوا: صحبنا من تلك البلاد، فلم نر منه إلا خيرا، قال: فوالله، إنهم لكذا إذ طلع عليهم رجل من كهف؛ رجل طوال، فجاء حتى سلم وجلس، فحفوا به وعظموه أصحابي الذين كنت معهم وأحدقوا به، فقال لهم: أين كنتم؟ فأخبروه، فقال: ما هذا الغلام معكم؟ فأثنوا علي خيرا، وأخبروه باتباعي إياهم، ولم أر مثل إعظامهم إياه، فحمد الله، وأثنى عليه، ثم ذكر من أرسل الله من رسله وأنبيائه، وما لقوا، وما صنع بهم، حتى ذكر مولد عيسى ابن مريم، وأنه ولد بغير ذكر، فبعثه الله رسولا، وأجرى على يديه إحياء

الموتى، وإبراء الأعمى والأبرص، وأنه يخلق من الطين كهيئة الطير فينفخ فيه فيكون طيرا بإذن الله، وأنزل عليه الإنجيل، وعلمه التوراة، وبعثه رسولا إلى بني إسرائيل، فكفر به قوم، وآمن به قوم، وذكر بعض ما لقي عيسى ابن مريم، وأنه كان عبدا أنعم الله عليه، فشكر ذلك له، ورضي عنه، حتى قبضه الله، وهو يعظمهم ويقول: اتقوا الله، والزموا ما جاء به عيسى، ولا تخالفوا فيخالف بكم، ثم قال: من أراد أن يأخذ من هذا شيئا فليأخذ، فجعل الرجل يقوم فيأخذ الجرة من الماء والطعام والشيء، فقام إليه أصحابي الذين جئت معهم، فسلموا عليه، وعظموه، فقال لهم: الزموا هذا الدين، وإياكم أن تفرقوا، واستوصوا بهذا الغلام خيرا، وقال لي: يا غلام، هذا دين الله الذي تسمعني أقوله، وما سواه هو الكفر، قال: قلت: ما أفارقك، قال: إنك لن تستطيع أن تكون معي، إني لا أخرج من كهفي هذا إلا كل يوم أحد، لا تقدر على الكينونة معي، قال: وأقبل على أصحابه، فقالوا: يا غلام، إنك لا تستطيع أن تكون معه، قلت: ما أنا بمفارقك، قال: يا غلام، فإني أعلمك الآن أني أدخل هذا الكهف ولا أخرج منه إلى الأحد الآخر، وأنت أعلم، قلت: ما أنا بمفارقك، قال له أصحابه: يا فلان، هذا غلام ونخاف عليه، قال: لي: أنت أعلم، قلت: إني لا أفارقك، فبكى أصحابي الأولون الذين كنت معهم عند فراقهم إياي، فقال: خذ من هذا الطعام ما ترى أنه يكفيك إلى الأحد الآخر، وخذ من هذا الماء ما تكتفي به، ففعلت، وتفرقوا، وذهب كل إنسان إلى مكانه الذي يكون فيه، وتبعته حتى دخل الكهف في الجبل، فقال: ضع ما معك وكل واشرب، وقام يصلي، فقمت معه أصلي، قال: فانفتل إلي، وقال: إنك لا تستطيع هذا، ولكن صل ونم، وكل واشرب، ففعلت، فما رأيته نائما ولا طاعما إلا راكعا وساجدا إلى الأحد الآخر، فلما أصبحنا قال: خذ جرتك هذه، وانطلق، فخرجت معه أتبعه حتى انتهينا إلى الصخرة، وإذا هم قد خرجوا من تلك الجبال، واجتمعوا إلى الصخرة ينتظرون خروجه، فقعدوا وجاد في حديثه نحو المرة الأولى، فقال: الزموا هذا الدين، ولا تفرقوا، واتقوا الله، واعلموا أن عيسى ابن مريم كان عبد الله، أنعم الله عليه، ثم ذكروني فقالوا: يا فلان، كيف وجدت هذا الغلام؟ فأثنى علي، وقال خيرا، فحمدوا الله، وإذا خبز كثير وماء فأخذوا، وجعل الرجل يأخذ بقدر ما يكتفي به، ففعلت، وتفرقوا في تلك الجبال، ورجع إلى كهفه، ورجعت معه، فلبث ما شاء الله، يخرج في كل يوم أحد، ويخرجون معه، ويوصيهم بما كان يوصيهم به، فخرج في أحد، فلما اجتمعوا حمد الله ووعظهم، وقال مثل ماكان يقول لهم، ثم قال لهم آخر ذلك: يا هؤلاء، إني قد كبر سني، ورق عظمي،

واقترب أجلي، وإنه لا عهد لي بهذا البيت منذ كذا وكذا، ولا بد لي من إتيانه، فاستوصوا بهذا الغلام خيرا، وإني رأيته لا بأس به، فجزع القوم، فما رأيت مثل جزعهم، وقالوا: يا أبا فلان، أنت كبير، وأنت وحدك، ولا نأمن أن يصيبك الشيء، ولسنا أحوج ما كنا إليك، قال: لا تراجعوني، لا بد لي من إتيانه، ولكن استوصوا بهذا الغلام خيرا، وافعلوا وافعلوا، قال: قلت: ما أنا بمفارقك، قال: يا سلمان، قد رأيت حالي وماكنت عليه، وليس هذا كذلك، إنما أمشي، أصوم النهار، وأقوم الليل، ولا أستطيع أن أحمل معي زادا ولا غيره، ولا تقدر على هذا، قال: قلت: ما أنا بمفارقك، قال: أنت أعلم، قالوا: يا أبا فلان، إنا نخاف عليك وعلى هذا الغلام، قال: هو أعلم، قد أعلمته الحالة، وقد رأى ما كان قبل هذا، قلت: لا أفارقك، قال: فبكوا وودعوه، وقال لهم: اتقوا الله وكونوا على ما أوصيتكم به، فإن أعش فلعلي أرجع إليكم، وإن أمت فإن الله حي لا يموت، فسلم عليهم وخرج وخرجت معه، وقال لي: احمل معك من هذا الخبز شيئا تأكله، فخرج وخرجت معه، يمشي وأتبعه يذكر الله، ولا يلتفت ولا يقف على شيء، حتى إذا أمسى قال: يا سلمان، صل أنت ونم، وكل واشرب، ثم قام هو يصلي، إلى أن انتهى إلى بيت المقدس، وكان لا يرفع طرفه إلى السماء إذا أمسى، حتى انتهينا إلى بيت المقدس، وإذا على الباب مقعد، قال: يا عبد الله، قد ترى حالي، فتصدق علي بشيء، فلم يلتفت إليه، ودخل المسجد ودخلت معه، فجعل يتتبع أمكنة من المسجد يصلي فيها، ثم قال: يا سلمان، إني لم أنم منذ كذا وكذا، ولم أجد طعم نوم، فإن أنت جعلت لي أن توقظني إذا بلغ الظل مكان كذا وكذا نمت؛ فإني أحب أن أنام في هذا المسجد، وإلا لم أنم، قال: قلت: فإني أفعل، قال: فانظر إذا بلغ الظل مكان كذا وكذا، فأيقظني إذا غلبتني عيني، فنام، فقلت في نفسي: هذا لم ينم منذ كذا وكذا، وقد رأيت بعض ذلك، لأدعنه ينام حتى يشتفي من النوم، وكان فيما يمشي وأنا معه، يقبل علي، فيعظني ويخبرني أن لي ربا، وأن بين يدي جنة ونارا وحسابا، ويعلمني بذلك ويذكرني نحو ما كان يذكر القوم يوم الأحد، حتى قال: فيما يقول لي: يا سلمان، إن الله تعالى سوف يبعث رسولا اسمه أحمد، يخرج بتهامة ـ وكان رجلا أعجميا لا يحسن أن يقول: تهامة، ولا: محمد ـ، علامته أنه يأكل الهدية، ولا يأكل الصدقة، بين كتفيه خاتم، وهذا زمانه الذي يخرج فيه قد تقارب، فأما أنا فإني شيخ كبير ولا أحسبني أدركه، فإن أدركته أنت فصدقه واتبعه، قلت: وإن أمرني بترك دينك وما أنت عليه؟ قال: وإن أمرك، فإن الحق فيما يجيء به، ورضا الرحمن فيما قال: فلم يمض إلا يسير حتى استيقظ فزعا يذكر الله، فقال: يا سلمان، مضى

الفيء من هذا المكان ولم أذكر الله، أين ما جعلت لي على نفسك؟ قال: قلت: أخبرتني أنك لم تنم منذ كذا وكذا، وقد رأيت بعض ذلك، فأحببت أن تشتفي من النوم، فحمد الله، وقام فخرج فتبعته، فقال المقعد: يا عبد الله، دخلت فسألتك فلم تعطني، وخرجت فسألتك فلم تعطني، فقام ينظر هل يرى أحدا، فلم يره، فدنا منه فقال: ناولني يدك، فناوله، فقال: قم باسم الله، فقام كأنه نشط من عقال، صحيحا لا عيب فيه، فخلى عن يده، فانطلق ذاهبا، وكان لا يلوي على أحد، ولا يقوم عليه، فقال لي المقعد: يا غلام، احمل علي ثيابي حتى أنطلق وأبشر أهلي، فحملت عليه ثيابه، وانطلق لا يلوي علي، فخرجت في إثره أطلبه، وكلما سألت عنه قالوا: أمامك، حتى لقيني الركب من كلب، فسألتهم، فلما سمعوا لغتي أناخ رجل منهم بعيره، فحملني فجعلني خلفه حتى أتوا بي بلادهم، قال: فباعوني، فاشترتني امرأة من الأنصار، فجعلتني في حائط لها، وقدم رسول الله ﷺ فأخبرت به، فأخذت شيئا من تمر حائطي، فجعلته على شيء، ثم أتيته فوجدت عنده أناسا، وإذا أبو بكر أقرب القوم منه، فوضعته بين يديه، فقال: (ما هذا؟)، قلت: صدقة، فقال للقوم: (كلوا)، ولم يأكل هو، ثم لبثت ما شاء الله، ثم أخذت مثل ذلك، فجعلته على شيء، ثم أتيته، فوجدت عنده أناسا، وإذا أبو بكر أقرب القوم منه، فوضعته بين يديه، فقال: (ما هذا؟)، قلت: هدية، قال: (باسم الله)، فأكل وأكل القوم، قال: قلت في نفسي: هذه من آياته، كان صاحبي رجلا أعجميا لم يحسن أن يقول: تهامة، قال: تهمة، وقال: أحمد، فدرت خلفه، ففطن لي فأرخى ثوبه، فإذا الخاتم في ناحية كتفه الأيسر، فتبينته، ثم درت حتى جلست بين يديه، فقلت: أشهد أن لا إله إلا الله، وأنك رسول الله، قال: (من أنت؟)، قلت: مملوك، فحدثته بحديثي وحديث الرجل الذي كنت معه، وما أمرني به، قال: (لمن أنت؟)، قلت: لامرأة من الأنصار، جعلتني في حائط لها، قال: (يا أبا بكر)، قال: لبيك، قال: (اشتره)، قال: فاشتراني أبو بكر، فأعتقني، فلبثت ما شاء الله أن ألبث، ثم أتيته فسلمت عليه، وقعدت بين يديه، فقلت: يا رسول الله، ما تقول في دين النصارى؟ قال: (لا خير فيهم ولا في دينهم)، فدخلني أمر عظيم، فقلت في نفسي: هذا الذي كنت معه، ورأيت منه ما رأيت، أخذ بيد المقعد فأقامه الله على يديه، لا خير في هؤلاء ولا في دينهم! فانصرفت وفي نفسي ما شاء الله، فأنزل الله بعد على النبي ﷺ: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ إلى آخر الآية، فقال النبي ﷺ: (علي بسلمان)، فأتاني الرسول فدعاني وأنا خائف، فجئت حتى قعدت بين يديه، فقرأ: بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا

وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ إلى آخر الآية، فقال: (يا سلمان، أولئك الذين كنت معهم وصاحبك، لم يكونوا نصارى، إنما كانوا مسلمين)، فقلت: يا رسول الله، فوالذي بعثك بالحق، لقد أمرني باتباعك، فقلت له: وإن أمرني بترك دينك وما أنت عليه، فأتركه؟ قال: نعم، فاتركه، فإن الحق وما يحب الله فيما يأمرك[1].

٣. روي أنّه سئل عن قوله: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا﴾، قال: الرهبان الذين في الصوامع، نزلت على رسول الله ﷺ: (ذلك بأن منهم صديقين ورهبانا)[2]، ولفظ البزار: دع القسيسين، أقرأني رسول الله ﷺ: (ذلك بأن منهم صديقين)، ولفظ الحكيم الترمذي: قرأت على النبي ﷺ: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ﴾، فأقرأني: (ذلك بأن منهم صديقين)[3].

أبو هريرة:

روي عن أبي هريرة (ت ٥٨ هـ) أنّه قال: قال رسول الله ﷺ: (ما خلا يهودي بمسلم إلا هم بقتله)، وفي لفظ: (إلا حدث نفسه بقتله)[4].

الخراساني:

روي عن عطاء الخراساني (ت ٦٠ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال: ما ذكر الله به النصارى من خير فإنما يراد به: النجاشي، وأصحابه[5].

٢. روي أنّه قال: كانوا ثمانين رجلا؛ أربعون من أهل نجران من بني الحارث بن كعب، واثنان وثلاثون من الحبشة، وثمانية روميون من أهل الشام[6].

ابن عباس:

روي عن ابن عباس (ت ٦٨ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال: كان رسول الله ﷺ وهو بمكة يخاف على أصحابه من المشركين، فبعث جعفر بن

---

(١) الحاكم ٣/٦٩٢.

(٢) القراءة شاذة.

(٣) الطبراني في الكبير ٦/٢٦٦.

(٤) ابن الأعرابي في معجمه ٣/١٠٩٠.

(٥) ابن أبي حاتم ٤/١١٨٣.

(٦) تفسير الثعلبي ٤/٩٩.

أبي طالب وابن مسعود وعثمان بن مظعون في رهط من أصحابه إلى النجاشي ملك الحبشة، فلما بلغ المشركين بعثوا عمرو بن العاصي في رهط منهم، ذكروا أنهم سبقوا أصحاب النبي ﷺ إلى النجاشي، فقالوا: إنه قد خرج فينا رجل سفه عقول قريش وأحلامها، زعم أنه نبي، وإنه بعث إليك رهطا ليفسدوا عليك قومك، فأحببنا أن نأتيك ونخبرك خبرهم، قال: إن جاءوني نظرت فيما يقولون، فلما قدم أصحاب رسول الله ﷺ، فأتوا إلى باب النجاشي فقالوا: استأذن لأولياء الله، فقال: ائذن لهم، فمرحبا بأولياء الله، فلما دخلوا عليه سلموا، فقال الرهط من المشركين: ألم تر أيها الملك أنا صدقناك، وأنهم لم يحيوك بتحيتك التي تحيا بها، فقال لهم: ما يمنعكم أن تحيوني بتحيتي؟ قالوا: إنا حييناك بتحية أهل الجنة وتحية الملائكة، فقال لهم: ما يقول صاحبكم في عيسى وأمه؟ قالوا: يقول: عبد الله ورسوله، وكلمة من الله، وروح منه، ألقاها إلى مريم، ويقول في مريم: إنها العذراء الطيبة البتول، قال: فأخذ عودا من الأرض، فقال: ما زاد عيسى وأمه على ما قال: صاحبكم هذا العود، فكره المشركون قوله، وتغير له وجوههم، فقال: هل تقرؤون شيئا مما أنزل عليكم؟ قالوا: نعم، قال: فاقرؤوا، فقرؤوا وحوله القسيسون والرهبان وسائر النصارى، فجعلت طائفة من القسيسين والرهبان كلما قرؤوا آية انحدرت دموعهم مما عرفوا من الحق، قال: الله: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ﴾[1].

٢. روي أنّه قال: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا﴾ كانوا نواتي في البحر ـ يعني: ملاحين ـ، قال: فمر بهم عيسى ابن مريم، فدعاهم إلى الإسلام، فأجابوه، قال: فذلك قوله: ﴿قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا﴾[2].

٣. روي أنّه قال: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ﴾ إنهم كانوا نواتين ـ يعني: ملاحين ـ قدموا مع جعفر بن أبي طالب من الحبش، فلما قرأ عليهم رسول الله ﷺ القرآن آمنوا، وفاضت أعينهم، فقال رسول الله ﷺ: (إذا رجعتم إلى أرضكم انتقلتم عن دينكم)، فقالوا: لن ننقلب عن ديننا، فأنزل الله ذلك من قولهم: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ﴾[3].

---

(١) ابن جرير ٨/٥٩٥.

(٢) ابن جرير ٨/٥٩٩.

(٣) الطبراني في الكبير ١٢/٥٥.

٤ . روي أنّه قال: ﴿فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ أمة محمد ﷺ، وفي لفظ قال: يعنون بالشاهدين: محمدا ﷺ وأمته؛ أنهم قد شهدوا له أنه بلغ، وشهدوا للرسل أنهم قد بلغوا(١).

ابن الزبير:

روي عن عبد الله بن الزبير (ت ٧٣ هـ) أنّه قال: نزلت هذه الآية في النجاشي وأصحابه: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ﴾(٢).

ابن المسيب:

روي عن سعيد بن المسيب (ت ٩٣ هـ) أنّه قال: بعث رسول الله ﷺ عمرو بن أمية الضمري وكتب معه كتابا إلى النجاشي، فقدم على النجاشي، فقرأ كتاب رسول الله ﷺ، ثم دعا جعفر بن أبي طالب والمهاجرين معه، وأرسل النجاشي إلى الرهبان والقسيسين فجمعهم، ثم أمر جعفر بن أبي طالب أن يقرأ عليهم القرآن، فقرأ عليهم سورة مريم، فآمنوا بالقرآن، وفاضت أعينهم من الدمع، وهم الذين أنزل فيهم: ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً﴾ إلى قوله: ﴿مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾(٣).

عروة:

روي عن عروة بن الزبير (ت ٩٤ هـ) أنّه قال: كانوا يرون أن هذه الآية نزلت في النجاشي: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ﴾(٤).

ابن جبير:

روي عن سعيد بن جبير (ت ٩٥ هـ) أنّه قال: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا﴾ هم رسل النجاشي الذين أرسل بإسلامه وإسلام قومه، كانوا سبعين رجلا، اختارهم من قومه، الخير فالخير، في الفقه والسن ـ وفي لفظ: بعث من خيار أصحابه إلى رسول الله ﷺ ثلاثين رجلا ـ فلما أتوا رسول الله ﷺ دخلوا عليه، فقرأ عليهم سورة يس، فبكوا حين سمعوا القرآن، وعرفوا أنه الحق؛ فأنزل الله فيهم: ﴿ذَلِكَ

---

(١) ابن جرير ٨/٦٠٣.

(٢) النسائي في الكبرى ١٠/٨٤.

(٣) ابن أبي شيبة ١٤/٣٤٩.

(٤) ابن أبي شيبة ١٤/٣٤٨.

بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا﴾ الآية، ونزلت هذه الآية فيهم أيضا: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ﴾ إلى قوله: ﴿أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا﴾ [القصص: ٥٤] [القصص: ٥٢ ـ ٥٤][1].

مجاهد:

روي عن مجاهد (ت ١٠٤ هـ) أنّه قال: ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى﴾ هم الوفد الذين جاءوا مع جعفر وأصحابه من أرض الحبشة[2].

البصري:

روي عن الحسن البصري (ت ١١٠ هـ) أنّه قال: ﴿قِسِّيسِينَ﴾ علماؤهم[3].

عطاء:

روي عن عطاء بن أبي رباح (ت ١١٤ هـ) أنّه قال: ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى﴾ هم ناس من الحبشة، آمنوا إذ جاءتهم مهاجرة المؤمنين، فذلك لهم[4].

قتادة:

روي عن قتادة بن دعامة (ت ١١٧ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١ ـ روي أنّه قال: ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً﴾ الآية، أناس من أهل الكتاب كانوا على شريعة من الحق مما جاء به عيسى، يؤمنون به، وينتهون إليه، فلما بعث الله محمدا ﷺ صدقوه، وآمنوا به، وعرفوا ما جاء به من الحق أنه من الله، فأثنى عليهم بما تسمعون[5].

٢ ـ روي، قال: ذكر لنا: أن هذه الآية نزلت في الذين أقبلوا مع جعفر من أرض الحبشة، وكان جعفر لحق بالحبشة هو وأربعون معه من قريش، وخمسون من الأشعريين، منهم أربعة من عك، أكبرهم أبو عامر الأشعري، وأصغرهم عامر، فذكر لنا: أن قريشا بعثوا في طلبهم عمرو بن العاص، وعمارة بن

---

(١) ابن جرير ٨/٦٠٠.

(٢) تفسير مجاهد ص ٣١٣.

(٣) ابن أبي حاتم ٤/١١٨٤.

(٤) عزاه السيوطي إلى أبي الشيخ.

(٥) ابن جرير ٨/٥٩٧.

الوليد، فأتوا النجاشي، فقالوا: إن هؤلاء قد أفسدوا دين قومهم، فأرسل إليهم، فجاءوا، فسألهم، فقالوا: بعث الله فينا نبيا كما بعث في الأمم قبلنا، يدعونا إلى الله وحده، ويأمرنا بالمعروف، وينهانا عن المنكر، ويأمرنا بالصلة، وينهانا عن القطيعة، ويأمرنا بالوفاء، وينهانا عن النكث، وإن قومنا بغوا علينا، وأخرجونا حين صدقناه وآمنا به، فلم نجد أحدا نلجأ إليه غيرك، فقال معروفا، فقال عمرو وصاحبه: إنهم يقولون في عيسى غير الذي تقول، قال: وما تقولون في عيسى؟ قالوا: نشهد أنه عبد الله، ورسوله، وكلمة الله، وروحه، وأنه ولدته عذراء بتول، قال: ما أخطأتم، ثم قال: لعمرو وأصحابه: لولا أنكما أقبلتما في جواري لفعلت بكما وفعلت، وذكر لنا: أن جعفرا وأصحابه إذ أقبلوا جاء أولئك معهم، فآمنوا بمحمد ﷺ، فقال قائل: لو قد رجعوا إلى أرضهم لحقوا بدينهم، فحدثنا: أنه قدم مع جعفر سبعون منهم، فلما قرأ عليهم نبي الله ﷺ فاضت أعينهم[١].

السدي:

روي عن إسماعيل السدي الكوفي (ت ١٢٧ هـ) أنّه قال: بعث النجاشي إلى رسول الله ﷺ اثني عشر رجلا؛ سبعة قسيسين، وخمسة رهبانا، ينظرون إليه، ويسألونه، فلما لقوه فقرأ عليهم ما أنزل الله بكوا، وآمنوا؛ فأنزل الله فيهم: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ﴾ الآية، فآمنوا، ثم رجعوا إلى النجاشي، فهاجر النجاشي معهم، فمات في الطريق، فصلى عليه رسول الله ﷺ والمسلمون، واستغفروا له[٢].

الصادق:

روي عن الإمام الصادق (ت ١٤٨ هـ) أنّه قال: ذكر النصارى وعداوتهم، فقال: قول الله: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ قال: (أولئك كانوا قوما بين عيسى ومحمد عليهما السلام، ينتظرون مجيء محمد ﷺ)[٣]

مقاتل:

روي عن مقاتل بن سليمان (ت ١٥٠ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

---

(١) عزاه السيوطي إلى أبي الشيخ.

(٢) ابن جرير ٥٩٦/٨.

(٣) تفسير العيّاشي ٣٣٥/١.

١. روي أنّه قال: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ كان اليهود يعاونون مشركي العرب على قتال النبي ﷺ، ويأمرونهم بالمسير إلى النبي ﷺ، ﴿وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ يعني: مشركي العرب أيضا، كانوا شديدي العداوة للنبي ﷺ وأصحابه ـ رضي الله عنهم ـ[1].

٢. روي أنّه قال: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾، نزلت في أربعين رجلا من مؤمني أهل الإنجيل؛ منهم اثنان وثلاثون رجلا قدموا من أرض الحبشة مع جعفر بن أبي طالب، وثمانية نفر قدموا من الشام معهم بحيرى الراهب، وأبرهة، والأشرف، ودريس، وتمام، وقسيم، ودريد، وأيمن، والقسيسون الذين يحلقون أواسط رءوسهم، وذلك أنهم حين سمعوا القرآن من النبي ﷺ قالوا: ما أشبه هذا بالذي كنا نتحدث به عن عيسى ابن مريم ﷺ! فبكوا، وصدقوا بالله عز وجل ورسله[2].

٣. روي أنّه قال: ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً﴾ وليس يعني: في الحب، ولكن يعني: في سرعة الإجابة للإيمان، ﴿لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى﴾ وكانوا في قرية تسمى: ناصرة[3].

٤. روي أنّه قال: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا﴾ يعني: متعبدين؛ أصحاب الصوامع، ﴿وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ يعني: لا يتكبرون عن الإيمان[4].

مقاتل:

روي عن مقاتل بن سليمان (ت ١٥٠ هـ)

١. روي أنّه قال: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ﴾ من القرآن؛ ﴿تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا﴾ يعني: صدقنا بالقرآن أنه من الله عز وجل[5].

٢. روي أنّه قال: ﴿فَاكْتُبْنَا﴾ يعني: فاجعلنا ﴿مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ [ابن جريج] قال: عبد الملك بن

(١) تفسير مقاتل ابن سليمان (العلمية) ٣١٦/١.
(٢) تفسير مقاتل ابن سليمان ٣١٦/١.
(٣) تفسير مقاتل ابن سليمان ٣١٦/١.
(٤) تفسير مقاتل ابن سليمان ٣١٦/١.
(٥) تفسير مقاتل ابن سليمان ٣١٦/١.

جريج (ت ١٥٠ هـ) ﴿فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾: مع أمة محمد ﷺ[(١)].

٣. روي أنّه قال: ﴿وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللهِ﴾ وذلك أنهم لما أسلموا ورجعوا إلى أرضهم لامهم كفار قومهم، فقالوا: أتركتم ملة عيسى ﷺ ودين آبائكم!؟ قالوا: نعم، ﴿وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ﴾ مع محمد ﷺ، ﴿وَنَطْمَعُ﴾ يعني: ونرجو ﴿أَنْ يُدْخِلَنَا رَبُّنَا﴾ الجنة ﴿مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ﴾ وهم المهاجرين الأول رضوان الله عليهم[(٢)].

٤. روي أنّه قال: ﴿فَأَثَابَهُمُ اللهُ بِمَا قَالُوا﴾ من التصديق ﴿جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ لا يموتون، ﴿وَذَلِكَ﴾ الثواب ﴿جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ﴾[(٣)]

٥. روي أنّه قال: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ يعني: بالقرآن؛ بأنه ليس من الله عز وجل ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ يعني: ما عظم من النار، يعني: كفار النصارى الذين لاموهم حين أسلموا وتابعوا النبي ﷺ[(٤)].

ابن إسحاق:

روي عن محمد بن إسحاق (ت ١٥١ هـ) أنّه قال: سألت الزهري عن هذه الآيات: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾، وقوله: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ [الفرقان: ٦٣]، قال: ما زلت أسمع علماءنا يقولون: نزلت في النجاشي وأصحابه[(٥)].

ابن زيد:

روي عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم (ت ١٨٢ هـ) أنّه قال: القسيسون: عبادهم[(٦)].

ابن زيد:

روي عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم (ت ١٨٢ هـ) أنّه قال: ﴿وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ

---

(١) ابن جرير ٨/٦٠٣.

(٢) تفسير مقاتل ابن سليمان ١/٣١٧.

(٣) تفسير مقاتل ابن سليمان ١/٣١٧.

(٤) تفسير مقاتل ابن سليمان ١/٣١٧.

(٥) ابن جرير ٨/٦٠٢.

(٦) ابن جرير ٨/٥٩٨.

﴿الصَّالِحِينَ﴾ القوم الصالحون: رسول الله ﷺ، وأصحابه[1].

الماتريدي:

ذكر أبو منصور الماتريدي (ت ٣٣٣ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[2]:

١. ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ تحتمل الآية وجوهًا:

أ. تحتمل: أن يكون ما ذكر من شدة عداوة اليهود للذين آمنوا قومًا مخصوصين منهم.

ب. وتحتمل: اليهود الذين كانوا بقرب رسول الله ﷺ وأصحابه هم أشد عداوة لهم.

ج. وتحتمل: اليهود جملة، فهو على ما كان منهم من قتل الأنبياء وتكذيبهم إياهم، ونصب القتال والحرب مع رسول الله ﷺ والمؤمنين، وما كان منهم من قول الوخش في الله سبحانه ما لم يسبقهم أحد بمثل ذلك ما وصفوا الله عز وجل بالبخل والفقر، وهو قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللهِ مَغْلُولَةٌ﴾، وقالوا: ﴿إِنَّ اللهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾، وغير ذلك من القول؛ وذلك لشدة بغضهم وعداوتهم وقساوة قلوبهم؛ فعلى ذلك كل من دعاهم إلى دين الله تعالى، فهم له أشد عداوة، وأقسى قلبًا.

٢. وأمَّا النصارى: فلم يكن منهم واحد مما كان من اليهود: من قتل الأنبياء، ونصب الحروب والقتال معهم، ولم يروا في مذهبهم القتال ولا الحرب، ولا كان منهم من القول الوخش ما كان من اليهود، بل كان فيهم اللين والرفق؛ حتى حملهم ذلك على القول في عيسى ما قالوا، وذلك منهم له تعظيم فوق القدر الذي جعل الله له، حتى رفعوه من قدر العبودية إلى قدر الربوبية؛ لذلك كفروا، وإلا كانوا يؤمنون بالكتب والأنبياء عليهم السلام من قبل.

٣. ألا ترى أنه قال: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا﴾ أخبر عز وجل أن منهم قسيسين ورهبانًا، والرهبان: هم العباد، وقيل: القسيسون: هم الصديقون، ولم يكن من اليهود رهبان ولا قسيسين؛ لذلك كان النصارى أقرب مودة وألين قلبًا من اليهود.

٤. فإن كان ذلك في قوم مخصوصين مشار إليهم، وهو ما ذكر في القصة أن بني قريظة وبني النضير كانوا يعاونون ويظاهرون مشركي العرب على قتال رسول الله ﷺ ويأمرونهم بذلك، ظاهروا وأعانوا لمن لم

---

(١) ابن جرير ٨/٦٠٥.

(٢) تأويلات أهل السنة: ٣/٥٧٣.

يؤمن بنبي ولا كتاب قط على من قد آمن بالأنبياء والكتب جميعًا؛ وذلك لسفههم وشدة تعنتهم؛ حتى قاتلهم رسول الله ﷺ وأجلاهم من بلادهم إلى أرض الشام، وإن كان ذلك عن قوم بقرب رسول الله ﷺ والمؤمنين، وهو ما كان من يهود المدينة؛ حيث بايعوا أهل مكة على قتال رسول الله ﷺ وكانوا عيونًا لهم عليهم وطلائع، ولم يذكر في قصة من القصص أنه كان من النصارى شيء من ذلك، كان أقرب مودة للمؤمنين.

٥. وما قال بعضه أهل التأويل بأن من أسلم منهم كان أقرب مودة للمؤمنين من اليهود فحاصل هذا الكلام أن المؤمن أقرب مودة للمؤمنين من الكافر، وذلك كلام لا يفيد معنى.

٦. وقوله عز وجل: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ﴾ سرورا على أنفسهم مما ظفروا مما كانوا يسمعون من نعته ﷺ وصفته ويطمعون خروجه، وقد يعمل السرور هذا العمل إذا اشتد به وفرح القلب فاضت عيناه سرورًا.

٧. ويحتمل قوله تعالى: ﴿تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ﴾؛ حزنًا على قومهم؛ حيث لم يؤمنوا بعد أن بلغهم ما بلغ هَؤُلَاءِ من أعلام النبوة وآثار الرسالة؛ إشفاقًا عليهم أن كيف لم يؤمنوا؛ كقوله تعالى: ﴿وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ﴾: قد فاضت أعينهم حزنًا ألا يجدوا ما ينفقون.

٨. وقوله: ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا﴾ بما أنزلت واتبعنا الرسول ﴿فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ الآية:

أ. قيل: مع الأنبياء والرسل.

ب. وقيل: مع أصحاب مُحَمَّد ﷺ، وهو واحد.

٩. ثم ذكر في القصة:

أ. أنها نزلت في النجاشي وأصحابه.

ب. وقيل: نزلت في أربعين رجلا من مسلمي أهل الإنجيل: بعضهم قدموا من أرض الحبشة، وبعضهم قدموا من أرض الشام، فسمعوا القرآن من النبي ﷺ فقالوا: ما أشبه هذا بالذي نُحَدَّثُ من حديث عيسى!! فبكوا وصدقوا؛ فنزلت الآية فيهم، فلا ندري كيف كانت القصة؛ وفيمن نزلت؛ إذ ليس في الآية بيانه، وليس بنا إلى معرفة ذلك حاجة سوى ما فيه من شدة رغبتهم في القرآن، وسرورهم على ذلك.

١٠. وقوله عز وجل: ﴿وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ﴾ ﴿الْحَقُّ﴾ يحتمل: الرسول ﷺ، ويحتمل: القرآن، ويحتمل: كليهما.

١١. وقوله عز وجل: ﴿وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ﴾:

أ. قال الحسن: قوله تعالى: ﴿وَنَطْمَعُ﴾: أي: نعلم أن يدخلنا ربنا الجنة إذا آمنا بالله وما جاءنا من الحق.

ب. قيل: نطمع: هو الطمع والرجاء، أي: نطمع ونرجو أن يدخلنا ربنا في دين قوم صالحين.

١٢. و﴿الصَّالِحِينَ﴾:

أ. يحتمل: ما ذكرنا من الأنبياء والرسل.

ب. ويحتمل: أصحاب مُحَمَّد ﷺ.

١٣. وقوله عز وجل: ﴿فَأَثَابَهُمُ اللهُ بِمَا قَالُوا﴾ الثناء الحسن في الدنيا؛ حيث ذكرهم في القرآن؛ فيذكرون إلى يوم القيامة، ويثنى عليهم، وفي الآخرة: الجنة ونعيمها.

١٤. ﴿وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ﴾، المحسن: كأنه هو الذي يتقي المعاصي، ويأتي بالخيرات والحسنات جميعًا، يعمل عملين جميعًا، والتقي: هو الذي يتقي المعاصي والمكاره خاصة.

١٥. وقوله عز وجل: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾

أ. قال بعضهم: (الجحيم): هو اسم معظم النار.

ب. وقال غيرهم: هو اسم درك من دركات النار؛ وكذلك (السعير)

العياني:

ذكر الإمام المهدي العياني (ت ٤٠٤ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. معنى قوله: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى﴾ يعني بذلك من أسلم وتاب من النصارى وليس يعني الكافرين منهم، ألا تسمع إلى قوله: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا﴾، يعني علماءهم وخيارهم ثم قال: ﴿وَأَنَّهُمْ

---

(١) تفسير الإمام المهدي العياني: ٢/٢٢٥.

﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ﴾ إلى آخر الآية.

الديلمي:

ذكر الإمام الناصر الديلمي (ت ٤٤٤ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ يعني عبدة الأوثان لأن الفريقين تماليا على عداوة المسلمين وعلى عداوة رسول الله ﷺ ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى﴾ وليست هذه الآية على العموم وإنما نزلت في النجاشي وأصحابه الذين أسلموا لأنهم كانوا على شريعة عيسى فلما أن بعث الله النبي ﷺ آمنوا به.

٢. ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا﴾ واحد القسيسين قس وهم العباد واحد الرهبان راهب وهم الزهاد ﴿وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ يعني لإذعان الحق إذا لزم والحجة إذا قامت.

٣. ﴿فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ وهم الأنبياء والأئمة ومن تبعهم من أولياء المسلمين.

الماوردي:

ذكر أبو الحسن الماوردي (ت ٤٥٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[٢]:

١. ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُواْ﴾ يعني عبدة الأوثان من العرب، تَمَالأَ الفريقان على عداوة النبي ﷺ.

٢. ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامنواْ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّا نَصَارى﴾ ليس هذا على العموم، وإنما هو خاص، وفيه قولان:

أ. أحدهما: عنى بذلك النجاشي وأصحابه لَّمَا أَسْلَمُوا، قاله ابن عباس، وسعيد بن جبير.

ب. الثاني: أنهم قوم من النصارى كانوا على الحق متمسكين بشريعة عيسى عليه السلام، فَلَمَّا بُعِثَ محمد ﷺ آمنوا به، قاله قتادة.

٣. ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا﴾ واحد القسيسين قس، من قس وهم العباد، وواحد الرهبان راهب، وهم الزهاد، ﴿وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ يعني عن الإِذعان للحق إذا لزم، وللحجة إذا قامت.

---

(١) البرهان في تفسير القرآن للديلمي: ١/٢٢١.

(٢) تفسير الماوردي: ٢/٥٨.

٤. وفي قوله تعالى: ﴿فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ وجهان:

أ. أحدهما: مع أمة محمد ﷺ الذين يشهدون بالحق، كما قال تعالى: ﴿لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ [البقرة: ١٤٣]، قاله ابن عباس، وابن جريج.

ب. الثاني: يعني الذين يشهدون بالإِيمان، قاله الحسن.

الطوسي:

ذكر أبو جعفر الطوسي (ت ٤٦٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. قيل في سبب نزول هذه الآية قولان:

أ. أحدهما: قال ابن عباس وسعيد بن جبير وعطاء والسدي: إنها نزلت في النجاشي ملك الحبشة وأصحابه لما اسلموا.

ب. وقال قتادة: نزلت في قوم من أهل الكتاب كانوا على الحق متمسكين بشريعة عيسى عليه السلام فلما جاء محمد ﷺ آمنوا به.

ج. وقال مجاهد: نزلت في الذين جاءوا مع جعفر بن أبي طالب مسلمين.

٢. واللام في قوله: ﴿لَتَجِدَنَّ﴾ لام القسم، والنون دخلت لتفصل بين الحال والاستقبال، هذا مذهب الخليل، وسيبويه وغيرهما، وقوله: ﴿عَدَاوَةً﴾ منصرف منتصب على التمييز.

٣. وصف الله تعالى اليهود والمشركين بأنهم أشد الناس عداوة للمؤمنين، لأن اليهود ظاهروا المشركين على المؤمنين مع أن المؤمنين يؤمنون بنبوة موسى والتوراة التي أتى بها، فكان ينبغي أن يكونوا إلى من وافقهم في الايمان بنبيهم وكتابهم أقرب، وظاهروا المشركين حسداً للنبي عليه السلام.

٤. ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى﴾:

أ. يعني الذين قدمنا ذكرهم ـ عن المفسرين.

ب. وقال الزجاج يجوز أن يكون أراد به النصارى، لأنهم كانوا أقل مظاهرة للمشركين، وبه قال الجبائي.

---

(١) تفسير الطوسي: ٣/٦١٤

ج. وروي عن ابن عباس أنه قال من زعم أنها في النصارى فقد كذب، وإنما هم النصارى الأربعون الذين فاضت أعينهم حين قرأ النبي ﷺ عليهم القرآن اثنان وثلاثون من الحبشة، وثمانية من أهل الشام، وسارعوا إلى الإسلام ولم يسارع اليهود.

٥. والمودة هي المحبة إذا كان معها ميل الطباع يقال: وددت الرجل أوده ودا ووداداً ومودة: إذا أحببته وودته: إذا تمنيته أوده وداً، ومنه قوله: ﴿وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾

٦. ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا﴾:

أ. فالقسيسون العباد في قول ابن زيد والقس والقسيس واحد إلا أنه قد صار كالعلم على رئيس من رؤساء النصارى في العبادة، ويجمع قسوساً وأصله في اللغة النميمة يقس قساً إذا نم الحديث، قال رؤبة بن العجاج:

يضحكن عن قس الأذى غوافلا لا جعبريات ولا طهاملا

الطهامل من النساء القباح، ومصدره القسوسة والقسيسة فالقس الذي ينم حاله بالاجتهاد في العبادة.

ب. والرهبان جمع راهب، كراكب وركبان وفارس وفرسان، قال الشاعر:

رهبان مدين لو رأوك تنزلوا والعصم من شعف العقول الفادر

وقيل: إنه يكون واحداً ويجمع رهابين كقربان وقرابين ورهابنة أيضاً قال الشاعر:

لو عاينت رهبان دير في القلل لأقبل الرهبان يمشي ونزل

وكل ذلك من الرهبة التي هي المخافة ورهب يرهب رهباً إذا خاف والترهيب ضد الترغيب.

٧. ﴿وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ معناه إن هؤلاء النصارى الذين آمنوا لا يستكبرون عن اتباع الحق والانقياد له كما استكبر اليهود وعباد الأوثان وانفوا من قبول الحق، وأخبر الله تعالى في هذه الآية عن مجاوري النبي ﷺ من اليهود، ومودة النجاشي وأصحابه الذين أسلموا معه من الحبشة لأن الهجرة كانت إلى المدينة وبها اليهود والى الحبشة وبها النجاشي وأصحابه فأخبر عن عداوة هؤلاء ومودة أولئك.

٨. ﴿وَإِذَا سَمِعُوا ما أنزل إِلَى الرَّسُولِ تَرى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنا آمَنَّا فَاكْتُبْنا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ هذا وصف للذين آمنوا من هؤلاء النصارى الذين ذكرهم الله أنهم أقرب

مودة للمؤمنين بأنهم إذا سمعوا ما أنزل الله من القرآن يتلى.

٩. ﴿تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ﴾ يعني من آمن من هؤلاء النصارى، قال الزجاج وأبو علي: تقديره ومنهم إذا سمعوا ولم يذكر (منهم) لدلالة الكلام عليه وما وصفهم به فيما بعده، وفيض العين من الدمع امتلئوها منه سيلًا ومنه فيض النهر من الماء وفيض الإناء، وهو سيلانه عن شدة امتلاء، ومنه قول الشاعر:

ففاضت دموعي فظل الشؤو ن إما وكيفاً وإما انحدارا

وخبر مستفيض أي شائع، وفاض صدر فلان بسره، وأفاض القوم من عرفات إلى منى إذا دفعوا، وأفاض القوم في الحديث إذا اندفعوا فيه، والدمع الماء الجاري من العين ويشبه به الصافي، فيقال دمعة، والمدامع مجاري الدمع وشجة دامعة تسيل دماً.

١٠. ﴿مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ﴾ أي مما علموه من صدق النبي وصحة ما أتى به ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا﴾ في موضع الحال، وتقديره قائلين ﴿رَبَّنَا آمَنَّا﴾ أي صدقنا بها أنزلت.

١١. ﴿فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ قيل في معناه قولان:

أ. أحدهما: فاجعلنا مع الشاهدين فيكون بمنزلة ما قد كتب ودون.

ب. الثاني: فاكتبنا معهم في أم الكتاب وهو اللوح المحفوظ، و(الشاهدين) قال ابن عباس وابن جريج: مع أمة محمد ﷺ الذين يشهدون بالحق من قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾

ج. وقال الحسن: هم الذين يشهدون بالإيمان وقال أبو علي الذين يشهدون بتصديق نبيك وكتابك.

١٢. ﴿وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ﴾ هذا إخبار عن هؤلاء الذين آمنوا من النصارى بأنهم قالوا: (وما لنا):

أ. قال الزجاج: وهو جواب لمن قال لهم من قومهم معنفين لهم: لم آمنتم.

ب. وقال غيره: قدروا في أنفسهم كأن سائلًا يسألهم عنه، فأجابوا بذلك.

١٣. ﴿لا نُؤْمِنُ﴾ في موضع نصب على الحال، وتقديره أي شيء لنا تاركين للإيمان أي في حال

تركنا للإيمان والايمان هو التصديق عن ثقة، لأن الصدق راجع إلى طمأنينة القلب بما صدق به.

١٤. والحق هو الشيء الذي من عمل عليه نجا، ومن عمل على ضده من الباطل هلك.

١٥. ومعنى (من) ـ هاهنا ـ قيل في معناه قولان:

أ. أحدهما: تبيين الاضافة التي تقوم مقام الصفة، كأنه قيل: والجائي لنا الذي هو حق.

ب. وقال آخرون: إنها للتبعيض لأنهم آمنوا بالذي جاءهم على التفصيل.

١٦. ووصف القرآن بأنه (جاء) مجاز، كما قيل: نزل، ومعناه نزل به الملك، فكذلك جاء به الملك، ويقال: جاء بمعنى حدث نحو (جاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ) وجاء البرد والحر.

١٧. ﴿وَنَطْمَعُ﴾ فالطمع تعلق النفس بما يقوى أن يكون من معنى المحبوب، ونظيره الأمل والرجاء فالطمع يكون معه الخوف أو لا يكون.

١٨. ﴿أَنْ يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ﴾ معناه أن يدخلنا معهم الجنة، والصالح هو الذي يعمل الصلاح في نفسه وإذا عمله في غيره فهو مصلح، فلذلك لم يوصف الله تعالى بأنه صالح ووصف بأنه مصلح.

١٩. ﴿فَأَثَابَهُمُ اللهُ﴾ جازاهم الله بالنعيم على العمل كما أن العقاب الجزاء بالعذاب على العمل وأصل الثواب الرجوع، ومنه قوله: ﴿هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ أي هل رجع اليهم جزاء عملهم، ﴿بِمَا قَالُوا﴾ يعني قولهم ﴿رَبَّنَا آمَنَّا﴾

٢٠. ﴿جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ إنما ذكرها بلفظ الجمع وإن كانت هي جنة الخلد:

أ. لأنها جنة فيها جنات أي بساتين، وتذكر بالجمع لتبين عن اختلاف صورها وأحوال أشجارها وأنهارها ووجوه الاستمتاع بها.

ب. ووجه آخر: هو أن يكون جمعها مضافاً اليهم كما يقال لهم جنة الخلد إلا أنها مرة تذكر على طريق الجنس، ومرة على غير طريق الجنس.

٢١. ﴿وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ﴾ (ذلك) إشارة إلى الثواب، والإحسان هو إيصال النفع الحسن إلى الغير، وضده الاساءة، وهي إيصال الضرر القبيح إليه، وليس كل من كان من جهته إحسان فهو محسن مطلقاً، فالمحسن فاعل الإحسان الخالي مما يبطله، كما أن المؤمن هو فاعل الايمان الخالص مما يحبطه، وعندنا

لا يحتاج إلى شرط خلوه مما يبطله، لأن الإحباط عندنا باطل، لكن يحتاج أن يشرط فيه أن يكون خالياً من وجوه القبح.

٢٢. ﴿وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ﴾ وإن كان مطلقاً فهو مقيد في المعنى بالمحسنين الذين يجوز عليهم الوعد بالنفع، لأنه وعد به، إلا ترى أن الله تعالى يفعل الإحسان وإن كان لا يصح عليه الثواب لأنه مضمن بمن يجوز عليه المنافع والمضار فجزاؤه هذه المنافع العظام دون المضار، لأنه خرج مخرج استدعاء العباد إلى فعل الإحسان.

٢٣. ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ لما كان أهل الكتاب فريقين أحدهما آمنوا، والثاني كفروا، وذكر الوعد للمؤمنين منهم اقتضى أن يذكر الوعيد لمن كفر منهم وأطلق اللفظ ليكون لهم ولكل من جرى مجراهم.

٢٤. وإنما شرط في الوعيد على الكفر بالتكذيب بالآيات وإن كان كل واحد، منهما يستحق به العقاب، لأن صفة الكفار من أهل الكتاب أنهم يكذبون بالآيات، فلم يصلح ـ هاهنا ـ لو كذبوا لأنهم قد جمعوا الأمرين، ولأن دعوة الرسول ﷺ بوعيد الكفار ظاهرة مع مجيء القرآن به في نحو قوله: ﴿إِنَّ اللهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ فلم يقع فيه اشكال لهذا.

٢٥. ﴿أُولَئِكَ﴾ يعني هؤلاء الكفار، ﴿أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ يعني الملازمون لها، كقولك أصحاب الصحراء وليس كمثل أصحاب الأموال، لأن معنى ذلك ملاك الأموال، وليس من شرط المكذب أن يكون عالماً أن ما كذب به صحيح بل إذا اعتقد أن الخبر كذب سمي مكذباً، وإن لم يعلم أنه كذب، وإنما يستحق الذم، لأنه جعل له طريق إلى أن يعلم صحة ما كذب به، و(الجحيم) النار الشديدة الإيقاد وهو اسم من أسماء جهنم ويقال: جحم فلان النار إذا شدد إيقادها، ويقال أيضاً لعين الأسد: جحمة لشدة إيقادها، ويقال ذلك للحرب أيضاً قال الشاعر:

والحرب لا تبقى لجا ... حمها التخيل والمراح

إلا الفتى الصبار في النج ... دات والفرس الوقاح

الجشمي:

ذكر الحاكم الجشمي (ت ٤٩٤ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. شرح مختصر للكلمات:

أ. المودة والمحبة من النظائر، ودِدْتُ الرجل أَوَدُّهُ، ومنه ﴿وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾

ب. العداوة: نقيض الولاية.

ج. القس والقسيس واحد، ومعناه: العبادة، إلا أنه صار كالعَلَمِ لرئيس من رؤساء النصارى، وجمعه: قُسُوسٌ، وأصله في اللغة: التمتمة فيمن يَقُسُّ قَسًّا: إذا أتم الحديث، ومصدره القُسُوسَة، والقَسِيسَةُ، فالقِسِّيسُ: الذي يتم حاله بالاجتهاد في العبادة.

د. الرهبان: جمع راهب، كركبان جمع راكب، وفرسان وفارس، وقيل: رهبان واحد وجمعه: رَهَابِين، كقربان وقرابين، ويجوز رهابنة، وكل ذلك من الرهبة، وهي الخوف، رَهِبَ يَرْهَبُ رُهْبًا ورَهْبَةً: إذا خاف، والترهب: التعبد، والترهيب نقيض الترغيب، وقد صار هذا الاسم عَلَمًا لعلماء النصارى وزهادهم.

هـ. التكبر: ترك الحق أَنَفَةً من قبوله، وأصله الكبر، وهو العظمة، والتكبر أن يتعظم بما ليس له.

و. الفيض: السيلان عن شدة امتلاء، فاض النهر والإناء يفيض فيضًا، وجبر مستفيض، إذا كثر وانتشر، كفيض الماء عن كثرة.

ز. الطمع والأمل والرجاء من النظائر، والطمع: تعليق القلب بالمحبوب.

ح. الثواب: الجزاء، وأصله الرجوع، ومنه ﴿هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ﴾

ط. الجحيم: النار الشديدة الإيقاد، يقال: جحم فلان النار شدد إيقادها، وهو اسم من أسماء جهنم أخذ من هذا.

٢. اختلف في سبب نزول الآية الكريمة:

أ. قيل: نزلت في النجاشي وأصحابه لما أسلموا، عن ابن عباس وسعيد بن جبير وعطاء والسدي.

ب. وقيل: هم قوم من أهل الكتاب كانوا متمسكين بشريعة عيسى، ثم آمنوا بمحمد ﷺ عن قتادة.

---

(١) التهذيب في التفسير: ٣/٣٧٩.

ج. وقيل: نزلت في نفر من نصارى الحبشة لما سمعوا القرآن أسلموا.

د. وقيل: إن النجاشي بعث وفدًا إلى النبي ﷺ فتلا عليهم القرآن فأسلموا، فلما رجعوا إلي النجاشي أسلم، ولم يزل مسلمًا حتى مات وصلى عليه النبي ﷺ وهو بالمدينة.

هـ. وقيل: إن المشركين ائتمروا أن يفتنوا المسلمين عن دينهم، ويعذبوهم فأمرهم رسول الله ﷺ بالهجرة إلى الحبشة وملكهم النجاشي فخرجوا سِرًّا، وأول من خرج عثمان بن عفان معه رقية بنت رسول الله ﷺ وذلك في رجب في السنة الخامسة من المبعث، وفيمن خرج جعفر بن أبي طالب، ثم تتابع الناس وعلمت قريش بذلك، فبعثوا عمرو بن العاص وفاكهة بن المغيرة بالهدايا ليردهم إليهم، فلم يردهم ودعاهم ودعا القسيسين، فقرأ جعفر القرآن، فآمن النجاشي وجماعة، ورجع عمرو خائبًا، ثم أقام هناك جماعة، ورجع بعضهم حتى هاجر رسول الله ﷺ ومضت سنون، ثم زوج النجاشي أم حبيبة من النبي ﷺ واسمها رملة بأربعمائة دينار، ونقدها من ماله، وبعث بها إلى النبي ﷺ فأجاز النكاح، ورجع جعفر يوم فتح خيبر.

و. وقيل: هم قوم من الحبشة قدموا على رسول الله ﷺ قدمتين قدمة بمكة وقدمة بالمدينة، عن الأصم.

٣. لما تقدم من اليهود موالاتهم الكفار، بيّن أنهم مع ذلك يعادون المسلمين توبيخًا لهم، وتهجينًا لفعلهم، فقال سبحانه: ﴿لَتَجِدَنَّ﴾ يا محمد، أو لتجدن أيها السامع من المؤمنين ﴿أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ يعني مشركي العرب لمظاهرتهم اليهود على معاداة النبي ﷺ، عن الأصم وأبي علي.

٤. ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي مودة للمؤمنين بمحمد ﷺ ﴿الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى﴾ فيه قولان:

أ. الأول: أنهم الَّذِينَ آمنوا منهم، عن ابن عباس وسعيد بن جبير وعطاء وقتادة والأصم، ثم اختلفوا، فقيل: إنهم وفد النجاشي، قدموا مع جعفر بن أبي طالب، وكانوا سبعين، وقيل: أربعين رَجُلاً، عن مقاتل، وقيل: ثمانين، عن عطاء، وقيل: هم ناس من أهل الكتاب، عن قتادة.

ب. الثاني: أنهم المتمسكون بالنصرانية، عن أبي علي وأبي مسلم وجماعة، ثم اختلفوا:

أ. فقيل: لأنهم يسمعون الحق ولا يتكبرون، واليهود لحسدهم لا يسمعون.

ب. وقيل: النصارى إذا أسلموا صفت قلوبهم عن عداوة المسلمين، وحسن إسلامهم، فكأنه قيل: هم أقل عداوة؛ ولذلك قال: ﴿أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً﴾ قال القاضي: وهو أقرب من الأول.

٥. ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ﴾ من النصارى ﴿قِسِّيسِينَ﴾:

أ. قيل: عُبَّادًا، عن ابن زيد.

ب. وقيل: علماء، عن قطرب.

ج. وقيل: لما اختلف النصارى في دينهم وَأَمْرِ عيسى ثبت قسيس عالم من علمائهم على الحق، فمن سلك سبيله فهو قسيس منسوب إليه عن عروة بن الزبير.

٦. ﴿وَرُهْبَانًا﴾ قيل: خَائِفًا وهم أصحاب الصوامع ﴿وَأَنَّهُمْ﴾:

أ. قيل: الكناية إلى القسيسين والرهبان.

ب. وقيل: إلى كل النصارى.

٧. ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ عن اتباع الحق والإذعان له.

٨. سؤال وإشكال: جعل العلة في قرب مودة النصارى أن منهم قسيسين ورهبانًا فما وجه ذلك؟

والجواب: فيه قولان:

أ. الأول: أن الزهاد والعلماء إذا لم ينفروا العوام عن المسلمين وقبول الحق كانوا أقرب، وأحبار اليهود لما نَفَّرُوا كانوا أشد عداوة.

ب. الثاني: أن لقاء النصارى لهم بعدما أسلموا يقربهم إلى الإسلام.

٩. ﴿وَإِذَا سَمِعُوا﴾:

أ. قيل: هم من وصفهم بأنهم أقرب مودة، وهذا على قول من حمل الآية على أنها فيمن آمن منهم، ومن قال بالقول الثاني قال إنه يرجع إلى بعضهم.

ب. وقيل: يرجع إلى القسيسين عن أبي علي وأبي مسلم.

١٠. ﴿مَا أُنْزِلَ﴾ يعني القرآن إِلَى ﴿الرَّسُولِ﴾ يعني محمدًا ﷺ، و﴿تَرَى﴾ يا محمد أو يا أيها المؤمن ﴿أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ﴾ يعني يسيل الدمع عن امتلاء ﴿مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ﴾ أي لمعرفتهم بأن المتلوَّ

عليهم كلامُ الله، وأنه حق ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا﴾ صدقنا أنه كلامك أنزلته على نبيك ﴿فَاكْتُبْنَا﴾:

أ. قيل: فاجعلنا معهم بمنزلة ما قد كتب ودوِّن.

ب. وقيل: فاكتبنا معهم في اللوح المحفوظ.

١١. ﴿مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾:

أ. قيل: مع محمد وأمته الَّذِينَ يشهدون بالحق، عن ابن عباس وابن جريج.

ب. وقيل: مع الَّذِينَ يشهدون بالإيمان وأنك واحدٌ، عن الحسن.

ج. وقيل: الَّذِينَ يشهدون بتصديق نبيك وكتابك، عن أبي علي.

د. وقيل: آمنا بكتابك ﴿فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ في الأرض بالحق.

١٢. ﴿وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ﴾ يعني لأي عذر لا نؤمن:

أ. قيل: هو جواب لهم لمن قال لم آمنتم؟ عن الزجاج.

ب. وقيل: إنهم قدروا ذلك في أنفسهم، كأن سائلاً سألهم عنه.

١٣. ﴿بِاللهِ﴾ بعدله وتوحيده ﴿وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ﴾:

أ. يعني جاء به الملك.

ب. وقيل: جاء بمعنى حدث؛ لأن المجيء في هذا الموضع توسيع؛ لأنه من صفات الأجسام دون الأعراض إلا أنه كثر حتى صار كالحقيقة، والحق هو القرآن والإسلام.

١٤. ﴿وَنَطْمَعُ﴾ أي نرجو ونؤمل، وإنها قالوا: نطمع؛ لأنهم لا يدرون ما يفعلون في باقي عمرهم ﴿أَنْ يُدْخِلَنَا رَبُّنَا﴾ يعني في الجنة لإيماننا بالحق، فحذف ذكر الجنة لأن الكلام يدل عليه ﴿مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ﴾:

أ. المؤمنين من أمة محمد.

ب. وقيل: الأنبياء وأتباعهم، عن الأصم.

١٥. ﴿فَأَثَابَهُمُ اللهُ﴾ أي جازاهم ﴿بِمَا قَالُوا﴾ بما تقدم ذكره ﴿جَنَّاتٌ﴾ بساتين ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ أي يجري الماء في الأنهار من تحت الأبنية والأشجار ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أي دائمين لا ينقطع، ولا ينقطعون ﴿وَذَلِكَ﴾ يعني ما تقدم من الجزاء ﴿جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ﴾ أي ثواب الَّذِينَ يفعلون الإحسان.

١٦. ثم عقب الوعد بذكر الوعيد على عادته سبحانه فقال: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ هذا وإن اتصل بذكر النصارى وأن مَنْ كَفَرَ منهم يلحق به الوعيد فاللفظ عام في جميع الكفار ﴿وَكَذَّبُوا﴾ بالحق، وإنما جمع بين الكفر والتكذيب؛ لأن اليهود والنصارى جمعوا بينهما والآية نزلت فيهم ﴿بِآيَاتِنَا﴾ حججنا، وهو القرآن وغيره ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ أي ملازمون له دائمون فيه؛ يعني في نار جهنم.

١٧. تدل الآية الكريمة على:

أ. أن أقربهم مودة مَنْ آمن منهم؛ لأنه وصفهم بصفات المدح، وحكى قولهم ﴿آمَنَّا﴾، ﴿وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ﴾ وكل ذلك لا يليق إلا بالمؤمن، وذكر أبو علي أنه يدل على أن منهمْ مَنْ آمن.

ب. أن عداوة اليهود للمسلمين أشد وكذلك عداوة المشركين، لما هم عليه من التظاهر على حرب رسول الله ﷺ مع ما بينهم من الاختلاف، ولعداوتهم له تظاهروا.

ج. أن الثواب ينال بالإيمان والإحسان، خلاف قول المرجئة.

د. أن العذاب يستحق بالكفر، خلاف قول الْمُجْبِرَةِ أنه ليس على الأعمال جزاء.

هـ. حدث القرآن؛ لأنهم أجمعوا أن المراد بها أنزل القرآن، وما يجوز عليه الإنزال كان محدثًا.

و. أن أفعال العباد حادثة من جهتهم من وجوه؛ ولذلك مدحهم بالإيمان وقول الحق، وذمهم بالتكبر، فأوجب الجزاء لهم على إحسانهم والعقاب على كفرهم، وذلك يبطل قولهم في المخلوق.

١٨. القراءة العامة ﴿قِسِّيسِينَ﴾ وهو قراءة الأئمة، والظاهر المنقول عن رسول الله ﷺ، وعن سلمان قال قرأت على رسول الله ﷺ ﴿قِسِّيسِينَ﴾ فقال: (صديقين ورهبانا) وهذا محمول على أنه وصفهم بذلك.

١٩. مسائل لغوية ونحوية:

أ. اللام في قوله: ﴿لَتَجِدَنَّ﴾ لام القسم، ودخلت النون لتفصل بين الحال والاستقبال، على مذهب سيبويه والخليل.

ب. ونصب ﴿عَدَاوَةً﴾ على التمييز.

ج. ﴿مِنْ﴾ في قوله: ﴿مِنَ الْحَقِّ﴾ فيه قولان:

- أحدهما: تبيين الإضافة التي تقوم مقام الصفة كأنه قيل: والجائي لنا الذي هو الحق.
- الثاني: أنه للتبعيض؛ لأنهم آمنوا بالذي جاءهم.

د. ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً﴾ تقديره: لتجدن اليهود أشد الناس عداوة، و(اليهود) المفعول الأول، و﴿أَشَدَّ النَّاسِ﴾ المفعول الثاني.

هـ. نصب ﴿قِسِّيسِينَ﴾؛ لأنه اسم ﴿أَنّ﴾

الطَبِرسي:

ذكر الفضل الطَبِرسي (ت ٥٤٨ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[1]:

١. شرح مختصر للكلمات:

أ. ﴿قِسِّيسِينَ﴾ قال الزجاج: القسيس والقس: من رؤساء النصارى، فأما القس في اللغة: فهو النميمة ونشر الحديث، يقال قس فلان الحديث قسا، قال الفراء: ويجمع القسيس: قساوسة، جمعوه على مهالبة، فكانت قساسسه، فكسرت السينان، فأبدلوا إحداهن واوا، والقسوسة مصدر القس والقسيس، وقد تكلمت العرب بها، وأنشد المازني:

لو عرضت لأيبلي قس ... أشعث في هيكله مندس

حن إليها كحنين الطس، وقال أمية:

لو كان منقلب كانت قساوسة ... يحييهم الله في أيديهم الزبر

ب. الرهبان: جمع راهب، مثل راكب وركبان، وفارس وفرسان، والرهبانية: مصدره، والترهب: التعبد في صومعة، وأصله من الرهبة المخافة، وقال جرير:

رهبان مدين لو رأوك تنزلوا ... والعصم من شعف الجبال الفادر

وقال بعضهم: الرهبان يكون واحدا وجمعا، فمن جعله واحدا جعله بناء على فعلان وأنشد:

لو عاينت رهبان دير في القلل ... لانحدر الرهبان يمشي ونزل

ج. ﴿تَفِيضُ﴾ وفيض العين من الدمع، امتلاؤها منه، كفيض النهر من الماء، وفيض الاناء، وهو سيلانه من شدة امتلائه، وفاض صدر فلان بسره، وأفاض القوم من عرفات إلى منى إذا دفعوا، وأفاضوا في الحديث إذا تدافعوا فيه.

---

(١) تفسير الطبرسي: ٣/٣٥٨.

د. الدمع: الماء الجاري من العين، ويشبه به الصافي، فيقال كأنه دمعة، والمدامع: مجاري الدمع، وشجة دامعة: تسيل دما.

هـ. الطمع: تعلق النفس بما يقوى أن يكون من معنى المحبوب، ونظيره الأمل والرجاء، والطمع: أن يكون معه الخوف أن لا يكون.

و. الصالح هو الذي عمل الصلاح في نفسه، فإن كان عمله في غيره فهو مصلح، فلذلك يوصف الله تعالى بأنه مصلح، ولم يوصف بأنه صالح.

ز. أثابهم: أي جازاهم، وأصل الثواب: الرجوع.

ح. الإحسان: إيصال النفع الحسن إلى الغير، وضده الإساءة: وهو إيصال الضرر القبيح إليه، وليس كل من كان من جهته إحسان، فهو محسن مطلقا، فالمحسن: فاعل الإحسان بشرط أن يكون خاليا من وجود القبح.

ط. الجحيم: النار الشدية الإيقاد، وهو هنا اسم من أسماء جهنم، وجحم فلان النار: إذا شدد إيقادها، ويقال لعين الأسد: جحمة، لشدة إيقادها، قال والحرب لا يبقى لجاحمها التخيل والمراح.

٢. مما روي في سبب نزول الآية الكريمة: نزلت في النجاشي، وأصحابه، قال المفسرون: ائتمرت قريش أن يفتنوا المؤمنين عن دينهم، فوثبت كل قبيلة على من فيها من المسلمين، يؤذونهم ويعذبونهم، فافتتن من افتتن، وعصم الله منهم من شاء، ومنع الله رسوله بعمه أبي طالب، فلما رأى رسول الله ما بأصحابه، ولم يقدر على منعهم، ولم يؤمر بعد بالجهاد، أمرهم بالخروج إلى أرض الحبشة، وقال: إن بها ملكا صالحا، لا يظلم ولا يظلم عنده أحد، فاخرجوا إليه حتى يجعل الله عز وجل للمسلمين فرجا وأراد به النجاشي، واسمه أصحمة، وهو بالحبشية عطية، وإنما النجاشي اسم الملك، كقولهم: تبع، وكسرى، وقيصر، فخرج إليها سرا أحد عشر رجلا، وأربع نسوة، وهم عثمان بن عفان، وامرأته رقية بنت رسول الله، والزبير بن العوام، وعبد الله بن مسعود، وعبد الرحمن بن عوف، وأبو حذيفة بن عتبة، وامرأته سهلة بنت سهيل بن عمرو، ومصعب بن عمير، وأبو سلمة بن عبد الأسد، وامرأته أم سلمة بنت أبي أمية، وعثمان بن مظعون، وعامر بن ربيعة، وامرأته ليلى بنت أبي خيثمة، وحاطب بن عمرو، وسهل بن البيضاء، فخرجوا إلى البحر، وأخذوا سفينة إلى أرض الحبشة بنصف دينار، وذلك في رجب، في السنة الخامسة من

مبعث رسول الله، وهذه هي الهجرة الأولى، ثم خرج جعفر بن أبي طالب، وتتابع المسلمون إليها، وكان جميع من هاجر إلى الحبشة من المسلمين، اثنين وثمانين رجلا، سوى النساء والصبيان، فلما علمت قريش بذلك، وجهوا عمرو بن العاص وصاحبه عمارة بن الوليد بالهدايا، إلى النجاشي، وإلى بطارقته، ليردوهم إليهم، وكان عمارة بن الوليد شابا حسن الوجه، وأخرج عمرو بن العاص أهله معه، فلما ركبوا السفينة شربوا الخمر، فقال عمارة لعمرو بن العاص: قل لأهلك تقبلني، فأبى، فلما انتشى عمرو دفعه عمارة في الماء، ونشب عمرو في صدر السفينة، وأخرج من الماء، وألقى الله بينهما العداوة في مسيرهما، قبل أن يقدما إلى النجاشي، ثم وردا على النجاشي فقال عمرو بن العاص: أيها الملك! إن قوما خالفونا في ديننا، وسبوا آلهتنا، وصاروا إليك، فردهم إلينا، فبعث النجاشي إلى جعفر، فجاءه، فقال: يا أيها الملك! سلهم أنحن عبيد لهم؟ فقال: لا بل أحرار، قال فسلهم ألهم علينا ديون يطالبوننا بها؟ قال لا، ما لنا عليكم ديون، قال فلكم في أعناقنا دماء تطالبونا بها؟ قال عمرو: لا، قال فما تريدون منا، آذيتمونا فخرجنا من دياركم؟ ثم قال أيها الملك! بعث الله فينا نبيا أمرنا بخلع الأنداد، وترك الاستقسام بالأزلام، وأمرنا بالصلاة، والزكاة، والعدل، والإحسان، وإيتاء ذي القربى، ونهانا عن الفحشاء، والمنكر، والبغي، فقال النجاشي: بهذا بعث الله عيسى، ثم قال النجاشي لجعفر: هل تحفظ مما أنزل الله على نبيك شيئا؟ قال نعم، فقرأ سورة مريم، فلما بلغ قوله: (وهزي إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطبا جنيا) قال هذا والله هو الحق! فقال عمرو: إنه مخالف لنا، فرده إلينا، فرفع النجاشي يده، وضرب بها وجه عمرو، وقال: أسكت والله لئن ذكرته بعد بسوء لأفعلن بك، وقال: أرجعوا إلى هذا هديته، وقال لجعفر وأصحابه: امكثوا فإنكم سيوم، والسيوم: الآمنون، وأمر لهم بما يصلحهم من الرزق، فانصرف عمرو وأقام المسلمون هناك بخير دار، وأحسن جوار، إلى أن هاجر رسول الله وعلا أمره وهادن قريشا، وفتح خيبر، فوافى جعفر إلى رسول الله بجميع من كانوا معه، فقال رسول الله: لا أدري أنا بفتح خيبر أسر، أم بقدوم جعفر، ووافى جعفر وأصحابه رسول الله في سبعين رجلا، منهم اثنان وستون من الحبشة، وثمانية من أهل الشام، فيهم بحيراء الراهب، فقرأ عليهم رسول الله ﷺ سورة يس إلى آخرها، فبكوا حين سمعوا القرآن، وآمنوا، وقالوا: ما أشبه هذا بما كان ينزل على عيسى، فأنزل الله فيهم هذه الآيات، وقال مقاتل، والكلبي: كانوا أربعين رجلا: اثنان وثلاثون من الحبشة، وثمانية من أهل الشام، وقال عطا: كانوا ثمانين رجلا: أربعون من أهل نجران من بني الحرث

بن كعب، واثنان وثلاثون من الحبشة، وثمانية روميون من أهل الشام.

٣. ذكر تعالى معاداة اليهود للمسلمين فقال: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ وصف اليهود والمشركين بأنهم أشد الناس عداوة للمؤمنين، لان اليهود ظاهروا المشركين على المؤمنين، مع أن المؤمنين يؤمنون بنبوة موسى والتوراة التي أتى بها، فكان ينبغي أن يكونوا إلى من وافقهم في الايمان بنبيهم وكتابهم، أقرب وإنما فعلوا ذلك حسدا للنبي ﷺ.

٤. ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى﴾ يعني الذين قدمنا ذكرهم من النجاشي ملك الحبشة، وأصحابه، عن ابن عباس، وسعيد بن جبير، وعطا، والسدي، والذين جاؤوا مع جعفر مسلمين، عن مجاهد.

٥. ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ﴾ أي: من النصارى ﴿قِسِّيسِينَ﴾:

أ. أي: عبادا، عن ابن زيد.

ب. وقيل: علماء، عن قطرب.

ج. وقيل: إن النصارى ضيعت الإنجيل، وأدخلوا فيه ما ليس فيه، وبقي من علمائهم واحد على الحق والاستقامة، فهو قسيسا، فمن كان على هداه ودينه فهو قسيس.

٦. ﴿وَرُهْبَانًا﴾ أي: أصحاب الصوامع ﴿وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ معناه: أن هؤلاء النصارى الذين آمنوا، لا يستكبرون عن اتباع الحق، والانقياد له، كما استكبر اليهود وعباد الأوثان، وأنفوا عن قبول الحق.

٧. أخبر الله تعالى في هذه الآية عن عداوة مجاوري النبي ﷺ من اليهود، ومودة النجاشي وأصحابه الذين أسلموا معه من الحبشة، لان الهجرة كانت إلى المدينة، وبها اليهود، وإلى الحبشة، وبها النجاشي وأصحابه.

٨. ثم وصفهم فقال: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ﴾ من القرآن ﴿تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ﴾ أي: لمعرفتهم بأن المتلو عليهم كلام الله، وأنه حق ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا﴾ أي: صدقنا بأنه كلامك أنزلته على نبيك ﴿فَاكْتُبْنَا﴾:

أ. أي: فاجعلنا بمنزلة من قد كتب ودون.

ب. وقيل: فاكتبنا في أم الكتاب، وهو اللوح المحفوظ.

٩. ﴿مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾:

أ. أي: مع محمد وأمته الذين يشهدون بالحق، عن ابن عباس.

ب. وقيل: مع الذين يشهدون بالإيمان عن الحسن.

ج. وقيل: مع الذين يشهدون بتصديق نبيك وكتابك، عن الجبائي.

١٠. ﴿وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ﴾:

أ. معناه: لأي عذر لا نؤمن بالله؟وهذا جواب لمن قال لهم من قومهم تعنيفا لهم: لم آمنتم، عن الزجاج.

ب. وقيل: إنهم قدروا في أنفسهم كأن سائلا سألهم عنه، فأجابوا بذلك.

١١. ﴿وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ﴾ الحق: هو القرآن والإسلام:

أ. ووصفه بالمجيء مجازا، كما يقال: نزل، وإنما نزل به الملك، فكذلك جاء به الملك.

ب. وقيل: إن جاء بمعنى حدث نحو قوله: ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ﴾ [ق: ١٩]

١٢. ﴿وَنَطْمَعُ﴾ أي: نرجو ونأمل ﴿أَنْ يُدْخِلَنَا رَبُّنَا﴾ يعني في الجنة لإيماننا بالحق، فحذف لدلالة الكلام عليه، ﴿مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ﴾ المؤمنين من أمة محمد.

١٣. ﴿فَأَثَابَهُمُ﴾ أي: جازاهم ﴿اللهُ بِمَا قَالُوا﴾:

أ. أي: بالتوحيد، عن الكلبي، وعلى هذا فإنما علق الثواب بمجرد القول، لأنه قد سبق من وصفهم ما يدل على إخلاصهم فيما قالوه، وهو المعرفة في قوله: ﴿مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ﴾ والبكاء المؤذن بحقيقة الإخلاص، واستكانة القلب ومعرفته، والقول إذا اقترن به المعرفة والإخلاص، فهو الإيمان الحقيقي الموعود عليه الثواب.

ب. وقيل: إن المراد بما قالوا: ما سألوا، يعني قوله: ﴿فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ ﴿وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا﴾ الآية، عن عطاء، عن ابن عباس، وعلى هذا فيكون القول معناه المسألة للجنة.

١٤. ﴿جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ مر تفسيره ﴿وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ﴾ أي: المؤمنين، عن الكلبي، والموحدين، عن ابن عباس.

١٥. ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ لما ذكر سبحانه الوعد لمؤمنيهم،

ذكر الوعيد لمن كفر منهم، وكذب، وأطلق اللفظ به، ليكون لهم ولمن جرى مجراهم في الكفر، وإنما شرط في الوعيد على الكفر التكذيب بالآيات، وإن كان كل منهما يستحق به العقاب، لأن صفة الكفار من أهل الكتاب، أنهم يكذبون بالآيات، فلم يصح ههنا، أو كذبوا، لأنهم جمعوا الأمرين، وليس من شرط المكذب أن يكون عالما، بأن ما كذب به صحيح، بل إذا اعتقد أن الخبر كذب سمي مكذبا، وإن لم يعلم أنه كذب، وإنما يستحق به الذم لأنه جعل له طريق إلى أن يعلم صحة ما كذب به.

١٦. مسائل لغوية ونحوية:

أ. اللام في (لتجدن) لام القسم، والنون دخلت ليفصل بين الحال والاستقبال، هذا مذهب الخليل، وسيبويه.

ب. ﴿عَدَاوَةٌ﴾: منصوب على التمييز.

ج. ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا﴾: في موضع نصب على الحال، وتقديره قائلين ربنا.

د. ﴿لَا نُؤْمِنُ﴾: في موضع نصب على الحال، تقديره أي شيء لنا تاركين الايمان أي: في حال تركنا الايمان.

هـ. ﴿مِنَ الْحَقِّ﴾: معنى ﴿مِنْ﴾ تبيين الإضافة التي تقوم مقام الصفة كأنه قيل: والجائي لنا الذي هو الحق، وقيل: إنها للتبعيض لأنهم آمنوا بالذي جاءهم على التفصيل.

ابن الجوزي:

ذكر أبو الفرج بن الجوزي (ت ٥٩٧ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ﴾ قال المفسّرون: نزلت هذه الآية وما بعدها ممّا يتعلّق بها في النّجاشيّ وأصحابه، قال سعيد بن جبير: بعث النّجاشيّ قوما إلى رسول الله ﷺ، فأسلموا، فنزلت فيهم هذه الآية والتي بعدها.

٢. اللام في ﴿لَتَجِدَنَّ﴾: قال الزجّاج: لام القسم، والنّون دخلت تفصل بين الحال والاستقبال، و﴿عَدَاوَةٌ﴾ منصوب على التّمييز، واليهود ظاهروا المشركين على المؤمنين حسدا للنبيّ عليه السّلام.

---

(١) زاد المسير في علم التفسير: ١/٥٧٥.

٣. ﴿وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ يعني: عبدة الأوثان، فأمّا الذين قالوا إنّا نصارى، فهل هذا عام في كلّ النّصارى أم خاصّ؟ فيه قولان:

أ. أحدهما: أنه خاص، ثم فيه قولان:

• أحدهما: أنه أراد النّجاشيّ وأصحابه لّما أسلموا، قاله ابن عباس وابن جبير.

• الثاني: أنهم قوم من النّصارى كانوا متمسّكين بشريعة عيسى، فلمّا جاء محمّد عليه السلام أسلموا، قاله قتادة.

ب. الثاني: أنه عامّ، قال الزجّاج: يجوز أن يراد به النّصارى لأنهم كانوا أقلّ مظاهرة للمشركين من اليهود.

٤. ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا﴾ قال الزجاج: (القس) و(القسيس) من رؤساء النصارى، وقال قطرب: القسيس: العالم بلغة الروم، فأما الرهبان: فهم العبّاد أرباب الصوامع، قال ابن فارس: الترهب: التعبد.

٥. سؤال وإشكال: كيف مدحهم بأن منهم قسيسين ورهبانا وليس ذلك من أمر شريعتنا؟ والجواب: أنه مدحهم بالتّمسّك بدين عيسى حين استعملوا في أمر محمّد ما أخذ عليهم في كتابهم، وقد كانت الرّهبانيّة مستحسنة في دينهم، والمعنى: بأنّ فيهم علماء بما أوصى به عيسى من أمر محمّد ﷺ، قال القاضي أبو يعلى: وربّما ظنّ جاهل أنّ في هذه الآية مدح النّصارى، وليس كذلك، لأنه إنّما مدح من آمن منهم، ويدلّ عليه ما بعد ذلك، ولا شكّ أنّ مقالة النّصارى أقبح من مقالة اليهود.

٦. ﴿وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾، أي: لا يتكبّرون عن اتّباع الحقّ، ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ﴾، قال ابن عباس: لّما حضر أصحاب النبيّ ﷺ بين يدي النّجاشيّ، وقرؤوا القرآن، سمع ذلك القسّيسون والرّهبان، فانحدرت دموعهم ممّا عرفوا من الحقّ، فقال الله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿الشَّاهِدِينَ﴾

٧. ﴿فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾، أي: مع من يشهد بالحقّ، وللمفسّرين في المراد بالشّاهدين هاهنا أربعة أقوال:

أ. أحدها: محمّد وأمّته، رواه عليّ بن أبي طلحة، وعكرمة عن ابن عباس.

ب. الثاني: أصحاب محمّد ﷺ، رواه أبو صالح عن ابن عباس.

ج. الثالث: الذين يشهدون بالإيمان، قاله الحسن.

د. الرابع: الأنبياء والمؤمنون، قاله الزجّاج.

٨. ﴿وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللهِ﴾ قال ابن عباس: لامهم قومهم على الإيمان فقالوا هذا.

٩. في ﴿الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ﴾ ثلاثة أقوال:

أ. أحدها: أصحاب رسول الله ﷺ، قاله ابن عباس.

ب. الثاني: رسول الله ﷺ وأصحابه، قاله ابن زيد.

ج. الثالث: المهاجرون الأوّلون، قاله مقاتل.

١٠. ﴿وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ﴾ قال ابن عباس: ثواب المؤمنين.

الرَّازي:

ذكر الفخر الرازي (ت ٦٠٦ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي(١):

١. لما ذكر الله تعالى من أحوال أهل الكتاب من اليهود والنصارى ما ذكره ذكر في هذه الآية أن اليهود في غاية العداوة مع المسلمين، ولذلك جعلهم قرناء للمشركين في شدة العداوة، بل نبّه على أنهم أشد في العداوة من المشركين من جهة أنه قدم ذكرهم على ذكر المشركين، ولعمري أنهم كذلك، وعن النبي ﷺ أنه قال: (ما خلا يهوديان بمسلم إلا هما بقتله)، وذكر الله تعالى أن النصارى ألين عريكة من اليهود وأقرب إلى المسلمين منهم:

أ. قال ابن عباس وسعيد بن جبير وعطاء والسدي: المراد به النجاشي وقومه الذين قدموا من الحبشة على الرسول ﷺ وآمنوا به، ولم يرد جميع النصارى مع ظهور عداوتهم للمسلمين.

ب. وقال آخرون: مذهب اليهود أنه يجب عليهم إيصال الشر إلى من يخالفهم في الدين بأي طريق كان، فإن قدروا على القتل فذاك، وإلا فبغصب المال أو بالسرقة أو بنوع من المكر والكيد والحيلة، وأما النصارى فليس مذهبهم ذاك بل الإيذاء في دينهم حرام، فهذا هو وجه التفاوت، والمقصود من بيان هذا

---

(١) التفسير الكبير: ١٢/٤١٤.

التفاوت تخفيف أمر اليهود على الرسول ﷺ.

٢. واللام في قوله: ﴿لَتَجِدَنَّ﴾ لام القسم، والتقدير: قسما إنك تجد اليهود والمشركين أشد الناس عداوة مع المؤمنين، وقد شرحت لك أن هذا التمرد والمعصية عادة قديمة لهم، ففرغ خاطرك عنهم ولا تبال بمكرهم وكيدهم.

٣. علة هذا التفاوت أن اليهود مخصوصون بالحرص الشديد على الدنيا والدليل عليه قوله تعالى: ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ [البقرة: ٩٦] فقرنهم في الحرص بالمشركين المنكرين للمعاد، والحرص معدن الأخلاق الذميمة لأن من كان حريصا على الدنيا طرح دينه في طلب الدنيا وأقدم على كل محظور ومنكر بطلب الدنيا، فلا جرم تشتد عداوته مع كل من نال مالا أو جاها، وأما النصارى فإنهم في أكثر الأمر معرضون عن الدنيا مقبلون على العبادة وترك طلب الرياسة والتكبر والترفع، وكل من كان كذلك فإنه لا يحسد الناس ولا يؤذيهم ولا يخاصمهم، بل يكون لين العريكة في طلب الحق سهل الانقياد له، فهذا هو الفرق بين هذين الفريقين في هذا الباب، وهو المراد بقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾

٤. وهاهنا دقيقة نافعة في طلب الدين وهو أن كفر النصارى أغلظ من كفر اليهود لأن النصارى ينازعون في الإلهيات وفي النبوات، واليهود لا ينازعون إلا في النبوات، ولا شك في أن الأول أغلظ، ثم إن النصارى مع غلظ كفرهم لما لم يشتد حرصهم على طلب الدنيا بل كان في قلبهم شيء من الميل إلى الآخرة شرّفهم الله بقوله: ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى﴾ وأما اليهود مع أن كفرهم أخف في جنب كفر النصارى طردهم وخصهم الله بمزيد اللعن وما ذاك إلا بسبب حرصهم على الدنيا، وذلك ينبهك على صحة قوله ﷺ: (حب الدنيا رأس كل خطيئة)

٥. القس والقسيس اسم لرئيس النصارى، والجمع القسيسون، وقال عروة بن الزبير: صنعت النصارى الإنجيل وأدخلت فيه ما ليس منه وبقي واحد من علمائهم على الحق والدين، وكان اسمه قسيسا، فمن كان على هديه ودينه فهو قسيس، قال قطرب: القس والقسيس العالم بلغة الروم، وهذا مما وقع الوفاق فيه بين اللغتين، وأما الرهبان فهو جمع راهب كركبان وراكب، وفرسان وفارس، وقال بعضهم: الرهبان واحد، وجمعه رهابين كقربان وقرابين، وأصله من الرهبة بمعنى المخافة.

٦. سؤال وإشكال: كيف مدحهم الله تعالى بذلك مع قوله: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا﴾ [الحديد: ٢٧] وقوله ﷺ: (لا رهبانية في الإسلام)؟ والجواب: إن ذلك صار ممدوحا في مقابلة طريقة اليهود في القساوة والغلظة، ولا يلزم من هذا القدر كونه ممدوحا على الإطلاق.

٧. ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ﴾ الضمير في قوله: ﴿سَمِعُوا﴾ يرجع إلى القسيسين والرهبان الذين آمنوا منهم و﴿مَا أُنْزِلَ﴾ يعني القرآن إلى الرسول يعني محمدا ﷺ قال ابن عباس: يريد النجاشي وأصحابه، وذلك لأن جعفر الطيار قرأ عليهم سورة مريم، فأخذ النجاشي تبنة من الأرض وقال: والله ما زاد على ما قال الله في الإنجيل مثل هذا، وما زالوا يبكون حتى فرغ جعفر من القراءة.

٨. في قوله تعالى: ﴿تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ﴾ وجهان:

أ. الأول: المراد أن أعينهم تمتلئ من الدمع حتى تفيض لأن الفيض أن يمتلئ الإناء وغيره حتى يطلع ما فيه من جوانبه.

ب. الثاني: أن يكون المراد المبالغة في وصفهم بالبكاء فجعلت أعينهم كأنها تفيض بأنفسها.

٩. ﴿مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ﴾ أي مما نزل على محمد وهو الحق، سؤال وإشكال: أي فرق بين (من) وبين (من) في قوله: ﴿مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ﴾؟ والجواب: الأولى: لابتداء الغاية، والتقدير: أن فيض الدمع إنما ابتدئ من معرفة الحق، وكان من أجله وبسببه، والثانية: للتبعيض، يعني أنهم عرفوا بعض الحق وهو القرآن فأبكاهم الله، فكيف لو عرفوا كله.

١٠. ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا﴾ أي بما سمعنا وشهدنا أنه حق ﴿فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ وفيه وجهان:

أ. الأول: يريد أمة محمد ﷺ الذين يشهدون بالحق، وهو مأخوذ من قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ [البقرة: ١٤٣]

ب. الثاني: أي مع كل من شهد من أنبيائك ومؤمني عبادك بأنك لا إله غيرك.

١١. ﴿وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ﴾ قال صاحب (الكشاف) محل ﴿لَا نُؤْمِنُ﴾ النصب على الحال بمعنى غير مؤمنين، كقولك قائما، والواو في قوله: ﴿وَنَطْمَعُ﴾ واو الحال.

١٢. سؤال وإشكال: ما العامل في الحال الأولى والثانية؟ والجواب:

أ. العامل في الأولى: ما في اللام من معنى الفعل، كأنه قيل: أي شيء حصل لنا حال كوننا غير مؤمنين، وفي الثاني معنى هذا الفعل ولكن مقيدا بالحال الأولى، لأنك لو أزلتها وقلت: وما لنا ونطمع لم يكن كلاما.

ب. ويجوز أن يكون ﴿وَنَطْمَعُ﴾ حالا من ﴿لَا نُؤْمِنُ﴾ على أنهم أنكروا على أنفسهم أنهم لا يوحدون الله ويطمعون مع ذلك أن يصحبوا الصالحين، وأن يكون معطوفا على قوله: ﴿لَا نُؤْمِنُ﴾ على معنى: وما لنا نجمع بين التثليث وبين الطمع في صحبة الصالحين.

١٣. تقدير الآية: ويدخلنا ربنا مع القوم الصالحين جنّته ودار رضوانه، قال تعالى: ﴿لَيُدْخِلَنَّهُمْ مُدْخَلًا يَرْضَوْنَهُ﴾ [الحج: ٥٩] إلا أنه حسن الحذف لكونه معلوما.

١٤. ﴿فَأَثَابَهُمُ اللهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ ظاهر الآية يدل على أنهم إنما استحقوا ذلك الثواب بمجرد القول لأنه تعالى قال: ﴿فَأَثَابَهُمُ اللهُ بِمَا قَالُوا﴾ وذلك غير ممكن لأن مجرد القول لا يفيد الثواب، وأجابوا عنه من وجهين:

أ. الأول: أنه قد سبق من وصفهم ما يدل على إخلاصهم فيما قالوا، وهو المعرفة، وذلك هو قوله: ﴿مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ﴾ [المائدة: ٨٣] فلما حصلت المعرفة والإخلاص وكمال الانقياد ثم انضاف إليه القول لا جرم كمل الإيمان.

ب. الثاني: روى عطاء عن ابن عباس أنه قال: قوله: ﴿بِمَا قَالُوا﴾ يريد بما سألوا، يعني قولهم: ﴿فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ [المائدة: ٨٣]

١٥. الآية دالة على أن المؤمن الفاسق لا يبقى مخلدا في النار، وبيانه من وجهين:

أ. الأول: أنه تعالى قال: ﴿وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ﴾ وهذا الإحسان لا بدّ وأن يكون هو الذي تقدم ذكره من المعرفة وهو قوله: ﴿مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ﴾ [المائدة: ٨٣] ومن الإقرار به، وهو قوله: ﴿فَأَثَابَهُمُ اللهُ بِمَا قَالُوا﴾ وإذا كان كذلك، فهذه الآية دالة على أن هذه المعرفة، وهذا الإقرار يوجب أن يحصل له هذا الثواب، وصاحب الكبيرة له هذه المعرفة وهذا الإقرار، فوجب أن يحصل له هذا الثواب، فأما أن ينقل من

الجنّة إلى النار وهو باطل بالإجماع، أو يقال: يعاقب على ذنبه ثم ينقل إلى الجنة وذلك هو المطلوب.

ب. الثاني: هو أنه تعالى قال: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ فقوله: ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ يفيد الحصر، أي أولئك أصحاب الجحيم لا غيرهم، والمصاحب للشيء هو الملازم له الذي لا ينفك عنه، فهذا يقتضي تخصيص هذا الدوام بالكفار، فصارت هذه الآية من هذين الوجهين من أقوى الدلائل على أن الخلود في النار لا يحصل للمؤمن الفاسق.

القرطبي:

ذكر محمد بن أحمد القرطبي (ت ٦٧١ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ﴾ اللام لام قسم ودخلت النون على قول الخليل وسيبويه فرقا بين الحال والمستقبل، ﴿عَدَاوَةً﴾ نصب على البيان وكذا.

٢. ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى﴾ وهذه الآية نزلت:

أ. في النجاشي وأصحابه لما قدم عليهم المسلمون في الهجرة الأولى: حسب ما هو مشهور في سيرة ابن إسحاق وغيره ـ خوفا من المشركين وفتنتهم، وكانوا ذوي عدد، ثم هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة بعد ذلك فلم يقدروا على الوصول إليه، حالت بينهم وبين رسول الله ﷺ الحرب، فلما كانت وقعة بدر وقتل الله فيها صناديد الكفار، قال كفار قريش: إن ثأركم بأرض الحبشة، فاهدوا إلى النجاشي وابعثوا إليه رجلين من ذوي رأيكم لعله يعطيكم من عنده فتقتلونهم بمن قتل منكم ببدر، فبعث كفار قريش عمرو بن العاص وعبد الله بن أبي ربيعة بهدايا، فسمع النبي ﷺ بذلك، فبعث رسول الله ﷺ عمرو بن أمية الضمري، وكتب معه إلى النجاشي، فقدم على النجاشي، فقرأ كتاب رسول الله ﷺ، ثم دعا جعفر بن أبي طالب والمهاجرين، وأرسل إلى الرهبان والقسيسين فجمعهم، ثم أمر جعفر أن يقرأ عليهم القرآن فقرأ سورة مَرْيَمَ، فقاموا تفيض أعينهم من الدمع، فهم الذين أنزل الله فيهم: ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى﴾ وقرأ إلى ﴿الشَّاهِدِينَ﴾ رواه أبو داوود عن سعيد بن المسيب وعن عروة بن الزبير، أن الهجرة الأولى: هجرة المسلمين إلى أرض الحبشة، وساق الحديث بطوله، وذكر البيهقي عن ابن إسحاق قال قدم

---

(١) تفسير القرطبي: ٦/٢٥٥.

على النبي ﷺ عشرون رجلا وهو بمكة أو قريب من ذلك، من النصارى حين ظهر خبره من الحبشة، فوجدوه في المسجد فكلموه وسألوه، ورجال من قريش في أنديتهم حول الكعبة فلما فرغوا من مسألتهم رسول الله ﷺ عما أرادوا، دعاهم رسول الله ﷺ إلى الله تعالى، وتلا عليهم القرآن، فلما سمعوه فاضت أعينهم من الدمع، ثم استجابوا له وآمنوا به وصدقوه، وعرفوا منه ما كان يوصف لهم في كتابهم من أمره، فلما قاموا من عنده اعترضهم أبو جهل في نفر من قريش فقالوا: خيبكم الله من ركب! بعثكم من وراءكم من أهل دينكم ترتادون لهم فتأتونهم بخبر الرجل، فلم تظهر مجالستكم عنده حتى فارقتم دينكم وصدقتموه بما قال لكم، ما نعلم ركبا أحمق منكم ـ أو كما قال لهم ـ فقالوا: سلام عليكم لا نجاهلكم لنا أعمالنا ولكم أعمالكم، لا نألوا أنفسنا خيرا، فيقال: إن النفر النصارى من أهل نجران، ويقال: إن فيهم نزلت هؤلاء الآيات ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ﴾ [القصص] إلى قوله: ﴿لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ﴾ [القصص]

ب. وقيل: إن جعفرا وأصحابه قدم على النبي ﷺ في سبعين رجلا عليهم ثياب الصوف، فيهم اثنان وستون من الحبشة وثمانية من أهل الشام وهم بحيراء الراهب وإدريس وأشرف وأبرهة وثمامة وقثم ودريد وأيمن، فقرأ عليهم رسول الله ﷺ سورة يس إلى آخرها، فبكوا حين سمعوا القرآن وآمنوا، وقالوا: ما أشبه هذا بما كان ينزل على عيسى فنزلت فيهم: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى﴾ يعني وفد النجاشي وكانوا أصحاب الصوامع.

ج. وقال سعيد ابن جبير: وأنزل الله فيهم أيضا ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ﴾ [القصص] إلى قوله: ﴿أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ﴾ [القصص] إلى آخر الآية.

د. وقال مقاتل والكلبي: كانوا أربعين رجلا من أهل نجران من بني الحرث بن كعب، واثنان وثلاثون من الحبشة، وثمانية وستون من أهل الشام.

هـ. وقال قتادة: نزلت في ناس من أهل الكتاب كانوا على شريعة من الحق مما جاء به عيسى، فلما بعث الله محمدا ﷺ آمنوا به فأثنى الله عليهم.

٣. ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا﴾ واحد القسيسين قس وقسيس، قاله قطرب، والقسيس

العالم، وأصله من قس إذا تتبع الشيء فطلبه، قال الراجز: يصبحن عن قس الأذى غوافلا وتقسست أصواتهم بالليل تسمعتها، والقس النميمة، والقس أيضا رئيس من رؤساء النصارى في الدين والعلم، وجمعه قسوس، وكذلك القسيس مثل الشر والشرير فالقسيسون هم الذين يتبعون العلماء والعباد، ويقال في جمع قسيس مكسرا: قساوسة أبدل من إحدى السينين واوا وقساوسة أيضا كمهالبة، والأصل قساسسة فأبدلوا إحدى السينات واوا لكثرتها، ولفظ القسيس إما أن يكون عربيا، وإما أن يكون بلغة الروم ولكن خلطته العرب بكلامهم فصار من لغتهم إذ ليس في الكتاب ما ليس من لغة العرب كما تقدم، وقال أبو بكر الأنباري: عن الصلت عن حامية بن رباب قال قلت لسلمان ﴿بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا﴾ فقال: دع القسيسين في الصوامع والمحراب أقرأنيها رسول الله ﷺ بأن (منهم صديقين ورهبانا)، وقال عروة بن الزبير: ضيعت النصارى الإنجيل، وأدخلوا فيه ما ليس منه، وكانوا أربعة نفر الذين غيروه، لوقاس ومرقوس ويحنس ومقبوس، وبقي قسيس على الحق وعلى الاستقامة، فمن كان على دينه وهديه فهو قسيس.

٤. ﴿وَرُهْبَانًا﴾ الرهبان جمع راهب كركبان وراكب، قال النابغة:

لو أنها عرضت لأشمط راهب عبد الإله صرورة متعبد

لرنا لرؤيتها وحسن حديثها ولخاله رشدا وإن لم يرشد

والفعل منه رهب الله يرهبه أي خافه رهبا ورهبا ورهبة، والرهبانية والترهب التعبد في صومعة، قال أبو عبيد: وقد يكون (رهبان) للواحد والجمع، قال الفراء: ويجمع (رهبان) إذا كان للمفرد رهابنة ورهابين كقربان وقرابين، قال جرير في الجمع:

رهبان مدين لو رأوك تنزلوا والعصم من شعف العقول الفادر

الفادر المسن من الوعول، ويقال: العظيم، وكذلك الفدور والجمع فدر وفدور وموضعها المفدرة، قال الجوهري، وقال آخر في التوحيد:

لو أبصرت رهبان دير في الجبل لانحدر الرهبان يسعى ويصل

من الصلاة، والرهابة على وزن السحابة عظم في الصدر مشرف على البطن مثل اللسان.

٥. وهذا المدح لمن آمن منهم بمحمد ﷺ دون من أصر على كفره ولهذا قال: ﴿وَأَنَّهُمْ لَا

يَسْتَكْبِرُونَ﴾ أي عن الانقياد إلى الحق.

٦. ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ﴾ أي بالدمع وهو في موضع الحال، وكذا يقولون)، وقال امرؤ القيس:

ففاضت دموع العين مني صبابة   على النحر حتى بل دمعي محملي

وخبر مستفيض إذا كثر وانتشر كفيض الماء عن الكثرة.

٧. وهذه أحوال العلماء يبكون ولا يصعقون، ويسألون ولا يصيحون، ويتحازنون ولا يتموتون، كما قال تعالى: ﴿اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللهِ﴾ [الزمر]، وقال: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ وفي الأنفال يأتي بيان هذا المعنى إن شاء الله تعالى.

٨. وبين الله سبحانه في هذه الآيات أن أشد الكفار تمردا وعتوا وعداوة للمسلمين اليهود، ويضاهيهم المشركون، وبين أن أقربهم مودة النصارى.

٩. ﴿فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ أي مع أمة محمد ﷺ الذين يشهدون بالحق من قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ [البقرة] عن ابن عباس وابن جريج، وقال الحسن: الذين يشهدون بالإيمان، وقال أبو علي: الذين يشهدون بتصديق نبيك وكتابك، ومعنى ﴿فَاكْتُبْنَا﴾ اجعلنا، فيكون بمنزلة ما قد كتب ودون،

١٠. ﴿وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ﴾ بين استبصارهم في الدين، أي يقولون وما لنا لا نؤمن، أي وما لنا تاركين الإيمان ف ﴿نُؤْمِنَ﴾ في موضع نصب على الحال، ﴿وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ﴾ أي مع أمة محمد ﷺ بدليل قوله: ﴿أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ [الأنبياء] يريد أمة محمد ﷺ، وفي الكلام إضمار أي نطمع أن يدخلنا ربنا الجنة.

١١. وقيل: ﴿نَطْمَعُ﴾ بمعنى ﴿فِي﴾ كما تذكر ﴿فِي﴾ بمعنى ﴿مَعَ﴾ تقول: كنت فيمن لقي الأمير، أي مع من لقي الأمير، والطمع يكون مخففا وغير مخفف، يقال: طمع فيه طمعا وطماعة وطماعية مخفف فهو طمع.

١٢. ﴿فَأَثَابَهُمُ اللهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ﴾ دليل على إخلاص إيمانهم وصدق مقالهم، فأجاب الله سؤالهم

وحقق طمعهم ـ وهكذا من خلص إيمانه وصدق يقينه يكون ثوابه الجنة.

١٣. ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ من اليهود والنصارى ومن المشركين ﴿وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ والجحيم النار الشديدة الاتقاد، يقال: جحم فلان النار إذا شدد إيقادها، ويقال أيضا لعين الأسد: جحمة، لشدة اتقادها، ويقال ذلك للحرب قال الشاعر:

والحرب لا يبقى لجا حمها التخيل والمراح

إلا الفتى الصبار في النجدات والفرس الوقاح

الشوكاني:

ذكر محمد بن علي الشوكاني (ت ١٢٥٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي(١):

١. ﴿لَتَجِدَنَّ﴾، هذه جملة مستأنفة مقرّرة لما قبلها من تعداد مساوئ اليهود وهناتهم، ودخول لام القسم عليها يزيدها تأكيدا وتقريرا، والخطاب لرسول الله ﷺ، أو لكلّ من يصلح له كما في غير هذا الموضع من الكتاب العزيز، والمعنى في الآية: أن اليهود والمشركين، لعنهم الله، أشدّ جميع الناس عداوة للمؤمنين وأصلبهم في ذلك، وأنّ النّصارى أقرب الناس مودّة للمؤمنين.

٢. واللام في ﴿لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ في الموضعين متعلقة بمحذوف وقع صفة لعداوة ومودّة؛ وقيل: هو متعلّق بعداوة ومودة؛ والإشارة بقوله: ﴿ذَلِكَ﴾ إلى كونهم أقرب مودّة.

٣. والباء في ﴿بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ﴾ للسببية: أي ذلك بسبب أن منهم قسّيسين، وهو جمع قسّ وقسيس قاله قطرب، والقسّيس: العالم، وأصله من قسّ: إذا تتبع الشيء وطلبه، قال الراجز: (يصبحن عن قسّ الأذى غوافلا) وتقسّست أصواتهم بالليل تسمّعتها، والقسّ: النميمة، والقسّ أيضا: رئيس النصارى في الدين والعلم، وجمعه قسوس أيضا، وكذلك القسّيس: مثل الشرّ والشرّير، ويقال في جمع قسّيس تكسيرا قساوسة بإبدال أحد السينين واوا، والأصل قساسسة، فالمراد بالقسيسين في الآية: المتبعون للعلماء والعباد، وهو إما عجميّ خلطته العرب بكلامها، أو عربيّ.

٤. والرهبان: جمع راهب كركبان وراكب، والفعل رهب الله يرهبه: أي خافه، والرهبانية

---

(١) فتح القدير: ٢/٧٧.

والترهّب: التّعبّد في الصّوامع، قال أبو عبيد: وقد يكون رهبان للواحد والجمع، قال الفرّاء: ويجمع رهبان إذا كان للمفرد: رهابنة ورهابين كقربان وقرابين، وقد قال جرير في الجمع: (رهبان مدين لو رأوك تنزّلوا)، وقال الشاعر في استعمال رهبان مفردا:

لو أبصرت رهبان دير في الجبل لانحدر الرّهبان يسعى ويصل

٥. ثم وصفهم الله سبحانه بأنهم لا يستكبرون عن قول الحقّ، بل هم متواضعون، بخلاف اليهود فإنهم على ضدّ ذلك، وهذه الجملة معطوفة على الجملة التي قبلها.

٦. ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ﴾ معطوف على جملة ﴿وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾

٧. ﴿تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ﴾ أي تمتلئ فتفيض، لأنّ الفيض لا يكون إلا بعد الامتلاء، جعل الأعين تفيض، والفائض: إنما هو الدمع قصدا للمبالغة كقولهم دمعت عينه، قال امرؤ القيس:

ففاضت دموع العين منّي صبابة على النّحر حتّى بلّ دمعي محملي

﴿مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ﴾ من الأولى: لابتداء الغاية، والثانية: بيانية: أي كان ابتداء الفيض ناشئا من معرفة الحق، ويجوز أن تكون الثانية: تبعيضية، وقرئ: ﴿تَرَى أَعْيُنَهُمْ﴾ على البناء للمجهول.

٨. ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا﴾ استئناف مسوق لجواب سؤال مقدّر، كأنه قيل: فما حالهم عند سماع القرآن؟ فقال: ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ أي آمنّا بهذا الكتاب النازل من عندك على محمد وبمن أنزلته عليه فاكتبنا مع الشاهدين على الناس يوم القيامة من أمة محمد أو مع الشاهدين، بأنه حق، أو مع الشاهدين بصدق محمد وأنه رسولك إلى الناس.

٩. ﴿وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللهِ﴾ كلام مستأنف، والاستفهام للاستبعاد ﴿وَلَنَا﴾ متعلق بمحذوف، و﴿لَا نُؤْمِنُ﴾ في محل نصب في الحال، والتقدير: أيّ شيء حصل لنا حال كوننا لا نؤمن بالله وبما جاءنا من الحق؟ والمعنى: أنهم استبعدوا انتفاء الإيمان منهم مع وجود المقتضي له، وهو الطمع في إنعام الله، فالاستفهام والنفي متوجّهان إلى القيد والمقيد جميعا كقوله تعالى: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ للهِ وَقَارًا﴾

١٠. والواو في ﴿وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ﴾ للحال أيضا بتقدير مبتدأ: أي أيّ شيء حصل لنا؟ غير مؤمنين ونحن نطمع في الدخول مع الصّالحين، فالحال الأولى والثانية: صاحبها الضمير في ﴿لَنَا﴾ وعاملها الفعل المقدّر: أي حصل، ويجوز أن تكون الحال الثانية: من الضمير في

﴿نُؤْمِنَ﴾ والتقدير: وما لنا نجمع بين ترك الإيمان وبين الطمع في صحبة الصالحين.

١١. ﴿فَأَثَابَهُمُ اللهُ بِمَا قَالُوا﴾ أثابهم على هذا القول مخلصين له معتقدين لمضمونه.

١٢. ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ التكذيب بالآيات كفر فهو من باب عطف الخاص على العام، والجحيم: النار الشديدة الإيقاد، ويقال جحم فلان النار: إذا شدّد إيقادها، ويقال أيضا لعين الأسد: جحمة لشدّة اتقادها.

أَطَّفِّيش:

ذكر محمد أَطَّفِّيش (ت ١٣٣٢ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي(١):

١. ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ﴾ الكلام في اليهود وحدهم، أو مع غيرهم قبلُ وبعدُ، فالمراد أنّهم أشدُّ عداوة لا فيمن هو أشدُّ عداوة لهم، اليهود أم غيرهم، فالأَوْلى أنَّ (الْيَهُودَ) مفعول أوّل و(أَشَدَّ) ثانٍ لا العكس، إلّا أنّه جائز، والمراد بالناس: الكُفَّار.

٢. ﴿عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُواْ الْيَهُودَ﴾ عمومًا، وقيل: يهود المدينة والمشاهد، وعموم اللفظ يقتضيان العموم، ﴿وَالَّذِينَ أَشْرَكُواْ﴾ من أهل مكّة لتَضَاعُفِ كفرهم وجهلهم وحبِّهم للدنيا واللَّذَّات، ورغبتهم في تكذيب الأنبياء وتسفيه الحقِّ، وقيل: المراد المشركون مطلقًا، وقدَّم اليهود لأنّهم أشدُّ عداوة من المشركين، ولأنَّ الكلام فيهم.

٣. ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُواْ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّا نَصَارَى﴾ ذلك في جملتهم لا في خصوص مَن أسلم منهم، ومَن شأنُهم لين الجانب، ورقّة القلب، وقِلَّة الرغبة في الدُّنيا، ومَن شأنُهم الاهتمام بالعلم والتعلُّم، ولو كانت القسوة والغلظة قد توجد في بعضهم وفي بعض الأماكن وبعض الأزمنة، وكفرهم ولو كان أشدَّ مِن كفر اليهود كالتثليث، لكن يقارنه بعض الميل إلى الآخرة ونحوه ممَّا لا يوجد في اليهود، وتسميةُ النصارى لَمَّا قال عيسى: ﴿مَنَ انصَارِيَ إِلَى اللهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللهِ﴾ [آل عمران: ٥٢]، وتسمية اليهود لَمَّا قال لهم موسى ما ذكر الله تعالى قالوا: ﴿اِذْهَبَ اَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا﴾ [المائدة: ٢٤]

٤. وقد أسلم من النصارى ومن التحق بهم من الروم قرى لا تحصى، وإلى الآن يسلمون عام ألف

---

(١) تيسير التفسير، أطفيش: ٤/١٠٥.

وثلاثمائة وأحد عشر، وممَّا يوضِّح لك ذلك أنَّ ممَّا تدين به اليهود وجوب إيصال الشرِّ إلى من خالفهم في دينهم، نصرانيًّا أو مسلمًا أو غيرهما من كلِّ من يستحلُّ السبت، يرون حلَّ دمائهم وأموالهم، ودانت النصارى بتحريم الأذى، ولا يخفى أنَّ حبَّ الأذى بالديانة يكون أشدُّ منه بالتشهِّي وبعارض، قال أبو هريرة: قال رسول الله ﷺ: (ما خلا يهوديٌّ بمسلم إلَّا همَّ بقتله) رواه ابن مردويه، وروي: (إلَّا حدَّث نفسه بقتله)، وأراد مسلم الدخول على يهوديٍّ فردَّ الباب عنه، وبينهما معرفة، فقال له المسلم في ذلك؟ فأجابه بأنَّ في ديني وجوب قتلك إن قدرت عليك، وقد قدرت إن خلوت بك، وأنا أحبُّك، ولا أريد قتلك، وهذه منه خيانة مبنيَّة على أخرى.

٥. ﴿ذَالِكَ﴾ أي: قربُ مودَّتهم الزائد ﴿بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ﴾ علماء، قال عروة بن الزبير: ضيَّعت النصارى الإنجيل، وأدخلوا فيه ما ليس منه، وبقي واحد منهم على الدِّين والحقِّ، واسمه (قسِّيس)، فكانوا يسمُّون من على دينه قِسِّيسًا، حتَّى إنَّه ينتحل هذا الاسم من ليس فيه معناه، وقد قيل: مِنْ (قَسَّ) بمعنى قَصَّ، وهو تتبُّع الأثر، وهم يتَّبعون العلم والحِكَم، أو يتَّبعون أوراد اللَّيْل، ﴿وَرُهْبَانًا﴾ عبَّادًا خائفين الله، من الرهبة بمعنى الخوف، أو الترهُّب بمعنى التعبُّد مع الرهبة، وهو جمع راهب، كراكب وركبان، وهو لفظ عربيٌّ، ﴿وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ عن الحقِّ ولو لم يؤمنوا كما تستكبر اليهود.

٦. وقوله: ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ﴾ إلى قوله: ﴿الصَّالِحِينَ﴾ داخل في التعليل، أي: حصل في جملتهم قربُ المودَّة بسبب أنَّ منهم قسِّيسين ورهبانًا، وسببِ أنَّهم لا يستكبرون، وبسبب أنَّ أعينَهم تفيض من الدمع بمعرفة الحقِّ إذا سمعوا القرآن، وبسبب قولهم: ﴿رَبَّنَآ آمَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ [آل عمران: ٥٣]، وبسبب قولهم: ﴿وَمَا لَنَا لَا نُومِنُ بِاللهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُّدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ﴾، ومَن كان مِن هؤلاء قبلَ النبي ﷺ تسبَّب لقرب المودَّة لِمَن قَبْلَه ومَن معه ومَن بَعدَه، ومَن كان معه تسبَّب لِمَن معه ومَن بعدَه، وكأنَّه قيل: حصول أَقْرَبِيَّة المودَّةِ للمسلمين فيهم تسبَّب فيها علماؤهم وعبَّادهم، كلٌّ وأهل زمانه، إلى أن جاء قسِّيسون ورهبانٌ على عهد رسول الله الذين نزل فيهم قوله تعالى: ﴿ذَالِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾

٧. ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ﴾ محمَّد ﷺ، وهو ما نزل من القرآن ﴿تَرى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ﴾ لرقَّة قلوبهم وشدَّة خشيتهم ومسارعتهم إلى قبول الحقِّ، والعين لا تفيض بنفسها بل دمعها،

فالمراد بـ (تَفِيضُ): تمتلئ؛ لأنَّ الامتلاء سبب الفيض؛ لأنَّ الفيض انصباب عن امتلاء، وذلك مبالغة حتَّى كان الامتلاء نفس الفيض، أو أسند الفيض إلى الأعين إسنادًا للمحلِّ كأنَّها تفيض بنفسها مبالغة، وإنَّما يفيض دمعها الذي هي محلُّه، و(مِن) للابتداء، أي: من كثرة الدمع، كذا قيل، [قلت] والأَوْلى أنَّها بمعنى الباء.

٨. ﴿مِمَّا عَرَفُواْ﴾ (مِنْ) للتعليل، أي: لِمَا عرفوه، وقيل: للابتداء على أنَّ الأولى: ليست؛ له لأنَّ الفيض نشأ مِمَّا عرفوا، ﴿مِنَ الْحَقِّ﴾ (مِنْ) للبيان، أي: مِمَّا عرفوه حال كونه هو الحقّ، أي: جنس الحقِّ؛ أو للتبعيض، أي: فكيف لو عرفوا كلَّ الحقِّ فكأنَّهم يبكون دمًا، أو تنسجم دموعهم.

٩. ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَآ آمَنَّا﴾ بما سمعنا، وهو ما أنزل إلى الرَّسول أو بمحمد ﷺ ، ﴿فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ مع الذين شهدوا من أمَّته بِأَنَّهُ حقٌّ من الله، أو بأنَّه ﷺ رسولٌ إلى الناس كلِّهم، أو من الذين يشهدون على الأمم يوم القيامة وهم أمَّته ﷺ .

١٠. ﴿وَمَا لَنَا لَا نُومِنُ بِالله﴾ مع قيام الدلائل، والجملة من جملة المقول، كأنَّه قيل: (ويقولون: ما لنا..) إلخ، وقيل: معطوفة على جملة محذوفة، والمحذوفة من المقول، أَي: (ما لكم لا تؤمنون بالله، وما لنا..) إلخ، واختار الزجَّاج أَنَّهَا جواب سؤال، كأنَّه قيل: لِمَ آمنتم؟ وَيَرُدُّه اقترانها بالواو، والحقُّ أنَّ واو الاستئناف لا تصحُّ؛ لأنَّ الاستئناف ليس معنى، وزعم بعض عن الأخفش أنَّ الواو تزاد في الجملة المستأنفة.

١١. ﴿وَمَا جَآءَنَا مِنَ الْحَقِّ﴾ وهو الوحدانيَّة ونفي التثليث والتثنية، و(مِن) للبيان، أو (الحقُّ): الله و(مِن) للابتداء، وكانوا من قبل ذلك مؤمنين محقِّقين نافين للتثليث والتثنية، كما قال الله جلَّ وعلا: ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ﴾ [القصص: ٥٣]؛ فالمراد: ما لنا لا نؤمن هذا الإيمان الخاصَّ، وهو الإيمان بمحمَّدٍ وما جاء به؟ وقيل: أسلَموا حين سمعوا ما أنزل إلى الرَّسول.

١٢. ﴿وَنَطْمَعُ﴾ عطف على (لَا نُومِنُ)، أي: ما لنا نجمع بين ترك الإيمان والطمع، أو على نؤمن فالنفي متسلِّط عليه، أي: ما لنا لا نؤمن ولا نطمع فإنَّا إن لم نؤمن لم نطمع، أو خبر لمحذوف، والجملة حال من ضمير (نُومِنُ)، أي: ما لنا لا نؤمن ونحن نطمع، فإنَّ الطامع يسعى فيما يتحقَّق له ما يطمع فيه، ﴿أَنْ يُّدْخِلَنَا﴾ في أن يدخلنا ﴿رَبُّنَا﴾ جنَّته ﴿مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ﴾ أمَّة محمَّد ﷺ ، أو عموم الصَّالحين.

١٣. نزل قوله: ﴿لَتَجِدَنَّ﴾ إلى قوله: ﴿الصَّالِحِينَ﴾ في وفد النجاشيِّ القادمين على رسول الله ﷺ، فقرأ عليهم ﷺ (يس) فبكوا وأسلموا، فقالوا: ما أشبه هذا بما نزل على عيسى عليه السلام !، والوفد قبل الهجرة وهؤلاء الآيات في المدينة؛ لأنَّ المائدة مَدَنِيَّة، وأمَّا (يس) فمَكِّيَّة.

١٤. وقيل: نزلت الآيات في أربعين رجلاً من نصارى نجران من العرب من بني الحارث بن كعب، واثنين وثلاثين من الحبشة، وثمانية من الروم، وقال قتادة: نزلت في ناس من أهل الكتاب لم يخرجوا عن دين عيسى وآمنوا بسَيِّدنَا محمَّد ﷺ، ويروى أنَّ جعفرًا وأصحابه رجعوا من الحبشة ووافوا رسول الله ﷺ وهو على خيبر، هم واثنان وستُّون من الحبشة وثمانية من الشام، عليهم ثياب الصوف، فقرأ ﷺ (يس) فبكوا وآمنوا، فالآيات فيهم.

١٥. وروي أنَّ النجاشي قال لجعفر : هل تعرفون شيئًا مِمَّا أنزل على صاحبكم؟ قالوا: نعم، قال: اقرؤوا، فقرأ جعفر سورة مريم، وهناك قسِّيسون ورهبان وسائر النصارى، فعرفوا ما قرأ، فانحدرت دموعهم مِمَّا عرفوا من الحقِّ، ونزلت الآيات فيهم، وأرسل النجاشيُّ إلى رسول الله ﷺ ابنه (أزهى) في ستِّين من أصحابه وكلُّهم أسلموا، وكتب إليه: يا رسول الله إنِّي أشهد أنَّك رسول الله صادقًا مصدَّقًا، وقد بايعتك وبايعت ابن عمِّك جعفرًا، وأسلمت لله ربِّ العالمين، وقد بعثت إليك ابني (أزهى) وإن شئت أن آتيك بنفسي فعلتُ، والسلام عليك يا رسول الله، فركبوا في سفينة في أثر جعفر حتَّى إذا كانوا في وسط البحر غرقوا.

١٦. وعن ابن عبَّاس: المراد بالنصارى في الآية اثنان وستُّون من الحبشة وثمانية من الشام: أبرهة وبحيرى وإدريس وأشرف وتمام وقثم ودريد وأيمن، فهم سبعون جاءوا مع جعفر.

١٧. ﴿فَأَثَابَهُمُ اللهُ بِمَا قَالُواْ﴾ بما اعتقدوا، والقول يطلق على الاعتقاد، أو بقولهم المطابق لاعتقادهم، وقيل: القول بمعنى الرأي والمذهب، وفسَّر كثيرٌ القولَ بقولهم: (مَا لَنَا لَا نُومِنُ)، وبعض بقولهم: (رَبَّنَا آمَنَّا)، وعن ابن عبَّاس هو قولهم: (فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ)، وقولهم: (وَنَطْمَعُ..) إلخ.

١٨. ﴿جَنَّاتٍ﴾ مفعول آخر لـ (أثَابَ)، أي: جعل الجَنَّات ثوابًا لهم، ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الَانْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وذَالِكَ﴾ ما ذكر من الإثابة، أو الإشارة إلى الإثابِ (بلا تاء) يعتبر مضافًا، أي: إثابة أو إثابهم (بكسر الهمزة)، كقوله تعالى: ﴿وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَآءِ الزَّكَاةِ﴾ [الأنبياء: ٧٣]، ﴿جَزَآءُ الْمُحْسِنِينَ﴾ أحسنوا

النظر في الدلائل النقليّة والحسِّيّة فآمنوا وعملوا واتَّقَوا، أو أحسنوا بالإيمان والعمل والتقوى، أو اعتادوا الإحسان في الأمور، والمراد: عمومُ المحسنين، أو هؤلاء المذكورون، فمقتضى الظاهر: (جَزَاؤُهُم) فأظهرَ ليصفهم بأنَّ ذلك منهم إحسان.

١٩. ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ من أهل الكتاب وغيرهم ﴿وَكَذَّبُواْ بِآيَاتِنَآ﴾ أي: القرآن ﴿أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ ترهيب بعد ترغيب.

القاسمي:

ذكر جمال الدين القاسمي (ت ١٣٣٢ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. أكد تعالى ما تقدم من مثالب اليهود بقوله: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ وإنما عاداهم اليهود لإيمانهم بعيسى ومحمد ﷺ؛ وعاداهم المشركون لتوحيدهم وإقرارهم بنبوة الأنبياء ـ أشار إليه المهايميّ، وقال غيره: لشدة إبائهم، وتضاعف كفرهم، وانهماكهم في اتباع الهوى، وركونهم إلى التقليد، وبعدهم عن التحقيق، وتمرنهم على التمرد والاستعصاء على الأنبياء، والاجتراء على تكذيبهم، ومناصبتهم لهم، ولهذا قتلوا كثيرا منهم حتى هموا بقتل رسول الله ﷺ غير مرة، وسموه، وسحروه، وألّبوا عليه أشباههم من المشركين، وفي تقديم (اليهود) على (المشركين)، بعد لزّهما في قرن واحد، إشعار بتقدمهم عليهم في العداوة، كما أن في تقديمهم عليهم في قوله تعالى: ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ [البقرة: ٩٦] إيذانا بتقدمهم عليهم في الحرص، ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى﴾ للين جانبهم وقلة غلّ قلوبهم.

٢. قال ابن كثير: وما ذاك إلا لما في قلوبهم، إذ كانوا على دين المسيح، من الرقة والرأفة، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً﴾ [الحديد: ٢٧]، وفي كتابهم: (من ضربك على خدك الأيمن فأدر له خدك الأيسر)، وليس القتال مشروعا في ملّتهم.

٣. ولأن من مذهب اليهود، أنه يجب إيصال الشر إلى من خالف دينهم بأي طريق كان، من القتل ونهب المال ونحوهما، وهو عند النصارى حرام، فحصل الفرق، قد روى ابن مردويه عن أبي هريرة

---

(١) تفسير القاسمي: ٤/٢٢٦.

مرفوعا: ما خلا يهوديّ بمسلم إلا همّ بقتله.

٤. ولكثرة اهتمام النصارى بالعلم والترهب، مما يدعو إلى قلة البغضاء والحسد، ولين العريكة، كما أشير إليه بقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ﴾ أي: كونهم أقرب مودة للمؤمنين ﴿بِأَنَّ مِنْهُمْ﴾ أي: بسبب أن منهم ﴿قِسِّيسِينَ﴾ أي علماء ﴿وَرُهْبَانًا﴾ أي عبّادا متجردين ﴿وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ أي: يتواضعون لوداعتهم ولا يتكبرون كاليهود.

٥. وفي الآية دليل على أن الإقبال على العلم، والإعراض عن الشهوات، والبراءة من الكبر - محمود، وإن كان ذلك من كافر.

٦. قال الناصر في (الانتصاف): إنما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى﴾ ولم يقل (النّصارى) تعريضا بصلابة اليهود في الكفر والامتناع من الامتثال للأمر، لأن اليهود قيل لهم: ﴿ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ﴾ [المائدة: ٢١] فقابلوا ذلك بأن قالوا: ﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ [المائدة: ٢٤]، والنصارى قالوا: ﴿نَحْنُ أَنْصَارُ اللهِ﴾ [آل عمران: ٥٢]، ومن ثم سمّوا نصارى، وكذلك أيضا ورد أول هذه السورة، ﴿وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ [المائدة: ١٤]، فأسند ذلك إلى قولهم، والإشارة به إلى قولهم: ﴿نَحْنُ أَنْصَارُ اللهِ﴾ لكنه هاهنا ذكر تنبيها على أنهم لم يثبتوا على الميثاق ولا على ما قالوه من أنهم أنصار الله، وفي الآية الثانية: ذكر تنبيها على أنهم أقرب حالا من اليهود، لأنهم لما ورد عليهم الأمر لم يكافحوه بالردّ مكافحة اليهود، بل قالوا: ﴿نَحْنُ أَنْصَارُ اللهِ﴾، واليهود قالت: ﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ﴾.. الآية، فهذا سره.

٧. ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ﴾ عطف على (لا يستكبرون)، قال أبو البقاء: ويجوز أن يكون مستأنفا في اللفظ وإن كان له تعلق بما قبله في المعنى، يعني: وإذا سمعوا القرآن ﴿تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ﴾ أي: تنصبّ ﴿مِنَ الدَّمْعِ﴾ الحاصل من اجتماع حرارة الحب والخوف، مع برد اليقين ﴿مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ﴾ أي من كتابهم، فوجدوه أكمل منه وأفضل، أو من الذي نزل على الرسول ﷺ وهو الحق، أو من صفة محمد ﷺ ونعته في كتابهم ﴿يَقُولُونَ﴾ أي: من عدم استكبارهم ﴿رَبَّنَا آمَنَّا﴾ أي: بك وبما أنزلت وبرسولك محمد ﴿فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ أي: الذين شهدوا بأنه حق أو بنبوته، روى الحاكم، وصححه، ابن عباس قال أي مع أمة محمد ﷺ، وأمته هم الشاهدون، يشهدون لنبيهم أنه قد بلّغ، وللرسل أنهم قد

بلّغوا.

٨. ﴿وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللهِ﴾ إنكار استبعاد لانتفاء الإيمان مع قيام موجبه ـ وهو الطمع ـ في إنعام الله عليهم بصحبة الصالحين ﴿وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ﴾ أي، وبما جاءنا من القرآن، وفي إعرابه وجه آخر يأتي، ﴿وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ﴾ يعني مع أمة محمد ﷺ؛ أو المعنى: أن يدخلنا ربّنا الجنة مع الأنبياء والمؤمنين.

٩. ﴿فَأَثَابَهُمُ اللهُ بِمَا قَالُوا﴾ أي: بما تكلموا به من قولهم ﴿رَبَّنَا آمَنَّا﴾ الصادر عن اعتقاد وإخلاص واعتراف بالحقّ ﴿جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا﴾ أي: من تحت شجرها ومساكنها ﴿الْأَنْهَارُ﴾ يعني أنهار الماء واللبن والخمر والعسل ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أي: مقيمين في الجنة لا يموتون ولا يخرجون منها ﴿وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ﴾ يعني المؤمنين الموحّدين المخلصين في إيمانهم.

١٠. اتفق المفسرون على أن هذه الآيات الأربع نزلت في النجاشي وأصحابه[1]، أخرج النسائي عن عبد الله بن الزبير قال: نزلت هذه الآيات في النجاشيّ وأصحابه: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ﴾، وروى الطبرانيّ عن ابن عباس نحوه، بأبسط منه، ـ كذا في (أسباب النزول للسيوطيّ) وقال ابن كثير: قال عليّ بن أبي طلحة عن ابن عباس: نزلت هذه الآيات في النجاشيّ وأصحابه، الذين، حين تلا عليهم جعفر بن أبي طالب بالحبشة القرآن، بكوا حتى أخضبوا لحاهم، قال ابن كثير: (وهذا القول فيه نظر، لأن هذه الآية مدنية، وقصة جعفر مع النجاشيّ قبل الهجرة)، أقول: إن نظره مدفوع، فإنه حكى في هذه الآية بعد الهجرة ما وقع قبلها، ونظائره في التنزيل كثيرة، ولا إشكال فيه.. وظاهر أنّ المقصود بهذه الآية التعريض بعناد اليهود الذين كانوا حول المدينة، وهم يهود بني قريظة والنضير، وبعناد المشركين أيضا، وقساوة قلوب الفريقين، وأنه كان الأجدر بهما أن يعترفوا بالحق كما اعترف به النجاشي وأصحابه.

١١. وقال ابن كثير: هذا الصنف من النصارى هم المذكورون في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ للهِ﴾ [آل عمران: ١٩٩]، الآية، وهم الذين قال الله فيهم: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا

---

(١) ذكر ما ورد في سبب النزول الذي سبق ذكره.

إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ﴾ إلى قوله: ﴿لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ﴾ [القصص: ٥٢ ـ ٥٥

١٢. في الآية دليل على أن المشروع عند قراءة القرآن الخشوع والبكاء، وفي الخبر: ابكوا فإن لم تجدوا بكاء فتباكوا، أخرجه المنذريّ في (الترغيب والترهيب) عن عبد الله بن عمرو، وقال: رواه الحاكم مرفوعا وصحّحه، والمراد إشراب القلب والخوف المهابة لله تعالى.

١٣. في قوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا﴾، وقوله: ﴿فَأَثَابَهُمُ اللهُ بِمَا قَالُوا﴾ دليل على أن الإقرار داخل في الإيمان كما هو مذهب الفقهاء، وتعلقت الكرامية في أن الإيمان مجرد القول بقوله تعالى: ﴿بِمَا قَالُوا﴾، لكن الثناء بفيض الدمع في السباق، وبالإحسان في السياق، يدفع ذلك؛ وأنّى يكون مجرد القول إيمانا وقد قال الله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾؟ نفى الإيمان عنهم، مع قولهم ﴿آمَنَّا بِاللهِ﴾ لعدم التصديق بالقلب.

١٤. وقال أهل المعرفة: الموجود منهم ثلاثة أشياء: البكاء على الجفاء، والدعاء على العطاء، والرضا بالقضاء، فمن ادعى المعرفة، ولم يكن فيه هذه الثلاثة، فليس بصادق في دعواه..! أفاده النسفيّ.

١٥. وقال الخازن: إنما علق الثواب بمجرد القول، لأنه قد سبق وصفهم بما يدل على إخلاصهم فيما قالوا، وهو المعرفة والبكاء المؤذنان بحقيقة الإخلاص واستكانة القلب، لأن القول إذا اقترن بالمعرفة فهو الإيمان الحقيقيّ الموعود عليه بالثواب.

١٦. وقال الرازيّ: لما حصلت المعرفة والإخلاص وكمال الانقياد، ثم انضاف إليه القول، لا جرم كمل الإيمان.

١٧. قوله تعالى: ﴿وَمَا جَاءَنَا﴾ يجوز أن يكون في موضع جرّ، أي: وبما جاءنا، و﴿مِنَ الْحَقِّ﴾ حال من الفاعل المستتر، أو لغو متعلق بجاء أي: وبما جاءنا من عند الله، ويجوز أن يكون مبتدأ و﴿مِنَ الْحَقِّ﴾ الخبر، والجملة في موضع الحال، وقوله تعالى: ﴿وَنَطْمَعُ﴾ يجوز أن يكون معطوفا على ﴿نُؤْمِنَ﴾ أي: وما لنا لا نطمع، ويجوز أن يكون التقدير: ونحن نطمع، فتكون الجملة حالا من ضمير الفاعل في ﴿نُؤْمِنَ﴾ ـ أفاده أبو البقاء.

١٨. ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ أي: الذين جحدوا الحقّ الذي جاءهم وكذّبوا بحجج الله وبراهينه أولئك أصحاب الجحيم، أي: النار الشديدة الحرارة، جزاء وفاقا.

رضا:

ذكر محمد رشيد رضا (ت ١٣٥٤هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[1]:

١. ختم الله هذا السياق في محاجة أهل الكتاب وبيان شأنهم، بهذه الآيات التي بين فيها حالتهم النفسية في عداوة المؤمنين ومودتهم، ودرجة قربهم منهم وبعدهم عنهم، وكذا حالة المشركين فقال: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى﴾ العداوة بغضاء يظهر أثرها في القول والعمل، والمودة محبة يظهر أثرها في القول والعمل، خلافا للجمهور الذين فسروها بالمحبة مطلقا، وفي كلمة ﴿لَتَجِدَنَّ﴾ تأكيدان ـ لام القسم في أول الكلمة ونون التوكيد في آخرها، وفي الخطاب بها وجهان: أحدهما أنه للنبي ﷺ وثانيهما أنه لكل من يوجه إليه الكلام.

٢. وفي ﴿النَّاسِ﴾ الذين نزل فيهم هذا التفصيل قولان: أحدهما أنهم يهود الحجاز ومشركو العرب ونصارى الحبشة في عصر التنزيل، والثاني أنه عام:

أ. فأما صدقه على أهل العصر الأول فظاهر أتم الظهور، ولا سيما إذا جعلنا الخطاب للنبي ﷺ فإن أشد ما لاقى ـ بأبي هو وأمي ـ من العداوة والإيذاء قد كان من يهود الحجاز في المدينة وما حولها، ومشركي العرب ولا سيما مكة وما قرب منها، ولم ير من النصارى مثل تلك العداوة والإيذاء، بل رأى من نصارى الحبشة أحسن المودة بحماية المهاجرين الذين أرسلهم ﷺ في أول الإسلام من مكة إلى الحبشة خوفا عليهم من مشركيها الذين كانوا يؤذونهم أشد الإيذاء ليفتنوهم عن دينهم، حتى قال أكثر أهل التفسير المأثور: إن الآية نزلت فيهم أولا وبالذات، ولا ينفي هذا القول كون العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، وسيأتي ما روي في ذلك في آخر تفسير الآيات.

ب. لما أرسل النبي ﷺ كتب الدعوة الإسلامية إلى الملوك ورؤساء الشعوب كان النصارى منهم أحسنهم ردا ـ فهرقل ملك الروم في الشام حاول إقناع رعيته بقبول الإسلام فلما لم يقبلوا لجمودهم على التقليد، وعدم فقههم حقيقة الدين الجديد، اكتفى بالرد الحسن، والمقوقس عظيم القبط في مصر كان

---

(١) تفسير المنار: ٣/٧.

أحسن منه ردا، وإن لم يكن أكثر إلى الإسلام ميلا، وأرسل للنبي ﷺ هدية حسنة، ثم لما فتحت مصر والشام، وعرف أهلها مزية الإسلام، دخلوا في دين الله أفواجا، وكان القبط أسرع له قبولا.

ج. وقد كان حاطب بن أبي بلتعة رسول النبي ﷺ إلى المقوقس، وكان مما قاله له بعد أن أعطاه الكتاب: إنه كان قبلك رجل يزعم أنه الرب الأعلى ﴿فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَىٰ﴾ [النازعات: ٢٥] فانتقم به ثم انتقم منه، فاعتبر بغيرك ولا يعتبر بك غيرك، فقال المقوقس: إن لنا دينا لن ندعه إلا لما هو خير منه، فقال حاطب: ندعوك إلى دين الإسلام الكافي به الله فقد سواه، إن هذا النبي دعا الناس فكان أشدهم عليه قريش، وأعداهم له اليهود، وأقربهم منه النصارى، ولعمري ما بشارة موسى بعيسى إلا كبشارة عيسى بمحمد، وما دعاؤنا إياك إلى القرآن، إلا كدعائك أهل التوراة إلى الإنجيل، وكل نبي أدرك قوما فهم أمته، فالحق عليهم أن يطيعوه، ولسنا ننهاك عن دين المسيح ولكنا نأمرك به (أي هو الإسلام عينه) فقال المقوقس: إني قد نظرت في أمر هذا النبي فوجدته لا يأمر بمزهود فيه، ولا ينهى عن مرغوب فيه، ولم أجده بالساحر الضال، ولا الكاهن الكاذب، ووجدت معه آية النبوة بإخراج الخبء، والإخبار بالنجوى، وسأنظر ـ الخ.

د. ومما يشهد لما ذكرناه أيضا حديث عمرو بن العاص رسول النبي ﷺ إلى ملك عمان جيفر بن الجلندي وأخيه عبد بن الجلندي، فإن عمرا عمد أولا إلى عبد لأنه أحلم الرجلين وأسهلهما خلقا، فبلغه دعوة الإسلام، فقال له عبد: يا عمرو إنك ابن سيد قومك فكيف صنع أبوك؟ (قال عمرو) قلت: مات ولم يؤمن بمحمد ﷺ، ووددت أنه كان أسلم وصدق به، وقد كنت أنا على مثل رأيه حتى هداني الله للإسلام، قال فمتى تبعته؟ قلت: قريبا، فسألني أين كان إسلامك؟ قلت: عند النجاشي، وأخبرته أن النجاشي قد أسلم، قال فكيف صنع قومه بملكه؟ فقلت أقروه واتبعوه، قال والأساقفة والرهبان تبعوه؟ قلت نعم، قال انظر يا عمرو ما تقول، إنه ليس من خصلة في رجل أفضح من الكذب، قلت: ما كذبت وما نستحله في ديننا، ثم قال ما أرى هرقل علم بإسلام النجاشي، قلت: بلى، قال بأي شيء علمت ذلك، قلت: كان النجاشي يخرج له خرجا فلما أسلم وصدق بمحمد ﷺ قال لا والله لو سألني درهما واحدا ما أعطيته، فبلغ هرقل قوله، فقال له اليناق أخوه: اتدع عبدك لا يخرج لك خرجا، ويدين بدين غيرك دينا محدثا؟ قال هرقل: رجل رغب في دين فاختاره لنفسه ما أصنع به؟ والله لولا الضن بملكي لصنعت كما

صنع، قال انظر ما تقول يا عمرو، قلت والله صدقتك، قال عبد: فأخبرني ما الذي يأمر به وينهى عنه؟ قلت يأمر بطاعة الله عز وجل وينهى عن معصيته، ويأمر بالبر وصلة الرحم، وينهى عن الظلم والعدوان، وعن الزنا وعن الخمر وعن عبادة الحجر والوثن والصليب، قال ما أحسن هذا الذي يدعو إليه، لو كان أخي يتابعني عليه لركبنا حتى نؤمن بمحمد ونصدق به، ولكن أخي يضن بملكه من أن يدعه ويصير ذنبا،) المراد منه (وقد أسلم الرجلان بعد)

٣. فعلم من هذه الشواهد أن النصارى الذين كانوا مجاورين للحجاز كانوا في زمن البعثة أقرب مودة للمؤمنين، وأقرب قبولا للإسلام، وإن من توقف من ملوكهم عن الإسلام فما كان توقفه إلا ضنا بملكه، وأن النجاشي (أصحمة) ملك الحبشة قد أسلمت معه بطانته من رجال الدين والدنيا، ولكن يظهر أن الإسلام لم ينتشر في الحبشة بعد موته رضي الله عنه، ولم يعن المسلمون بإقامة أحكامهم في تلك البلاد، كما فعلوا في مصر والشام ﴿مَثَلًا﴾ وهذا بحث تاريخي ليس من موضوعنا هنا، ولكن ورد أن النبي ﷺ قال: (دعوا الحبشة ما ودعوكم، واتركوا الترك ما تركوكم) عزاه السيوطي في الجامع الصغير إلى أبي داوود عن رجل من الصحابة وعلم عليه بالصحة، وقد رواه أبو داوود بهذا اللفظ، والنسائي بلفظه في آخر حديث طويل ملخصه أن النبي ﷺ قال ما معناه إن الله تعالى أراه ـ وهو يحفر في الخندق في وقعة الأحزاب ـ بلاد كسرى فاسأل أن يدعو الله تعالى بأن يفتحها لأمته فدعا، ثم ذكر أن الله أراه ملك قيصر وديار الشام فاسأل أن يدعو الله تعالى بأن يفتحها لهم فدعا، ثم ذكر أن الله أراه بلاد الحبشة وقال هذا الحديث قبل أن يسألوه الدعاء بفتحها.

٤. وجملة القول أن النبي ﷺ والمؤمنين به رأوا في عصره من مودة النصارى وقربهم من الإسلام بقدر ما رأوا من عداوة اليهود والمشركين، وقد يظن بعض الناس أن سبب ذلك بعد النصارى عنهم، وقرب اليهود منهم في المدينة والمشركين في مكة والمدينة معا،ومن بلغته الدعوة إلى ترك دينه إلى دين آخر من بعيد لا يعني بعداوة أهلها وبمقاومتها كما يعني القريب الذي توجه إليه الدعوة مواجهة ومشافهة، ولذلك كان اليهود في الشام والأندلس يعطفون على المسلمين عند الفتح ويرغبون في نصرهم على نصارى الروم والقوط، ثم صار بين المسلمين والنصارى من العداوة على الملك والحروب لأجله ما هو أشد مما كان من عداوة اليهود والمشركين لسلفهم في أول الإسلام.

٥. والقاعدة لهذا الرأي أن العداوة والمودة كانت ولم تزل أثر التنازع على المنافع والسيادة باسم الدين أو الدنيا، ولا دخل لطبيعة الدين فيها، وقد يؤيد هذا بما يثيره دعاة النصرانية في نفوس المسلمين في هذا الزمان، وبما بين الدول الإسلامية والنصرانية من البغي والعدوان، على أنه ليس بين اليهود والمسلمين من ذلك شيء ولكن قد يوجد مثله بين مسلمي الهند ومشركيها، لتعارض مصالحهم ومنافعهم فيها، فعلة العداوة والمودة خارجية لا دينية ولا جنسية.

٦. هذا كلام صحيح في جملته لا تفصيله، وينطبق على المختلفين في الدين والمتفقين فيه ـ فقد حارب نصارى البلقان بعضهم بعضا كما حاربوا العثمانيين، بل أهل المذهب الواحد من النصارى يحارب الآن بعضهم بعضا كالإنجليز والألمان، وليس هو المراد بالآية، وإنما القرآن يبين هنا معنى أعلى منه وأعم، لا خاصا بالتنازع، وهو أن العلة الصحيحة لعداوة المعادين ومودة الموادين هي الحالة الروحية التي هي أثر تقاليدهم الدينية والعادية وتربيتهم الأدبية والاجتماعية، وقد نبه القرآن إلى ذلك في بيان سبب مودة النصارى من هذه الآية، وترك سبب شدة عداوة اليهود والمشركين لأن حالتهم الروحية مبينة في القرآن أتم البيان في عدة سور، ومن أوسعها بيانا لأحوال اليهود هذه السورة وما قبلها من السور الطوال المدنية، وأوسعها بيانا لأحوال المشركين سورة الأنعام التي تليها وهي من السور المكية.

٧. كان اليهود والمشركون مشتركين في بعض الصفات والأخلاق التي اقتضت شدة العداوة للمؤمنين، فمنها الكبر والعتو، والبغي وحب العلو، ومنها العصبية الجنسية، والحمية القومية، ومنها غلبة الحياة المادية، ومنها الأثرة والقسوة، وضعف عاطفة الحنان والرحمة، وكان مشركو العرب على جاهليتهم أرق من اليهود قلوبا، وأكثر سخاء وإيثارا، وأشد حرية في الفكر والاستقلال، وما قدم الله ذكر اليهود في الآية إلا لإفادة أصالتهم وتمكنهم فيما وصفوا به، وتبريزهم على مشركي العرب فيه، وناهيك بما سبق لهم من قتل بعض الأنبياء وإيذاء بعض، واستحلال أكل أموال غيرهم بالباطل، وأما ما كان من ضلعهم مع المسلمين في البلاد المقدسة والشام والأندلس فإنما كان لأجل تفيؤ ظل عدلهم، والاستراحة من اضطهاد نصارى تلك البلاد لهم، فهم لم يعدوا في ذلك عادتهم، ولم يتركوا ما عرف من شنشنتهم، وهي أنهم لا يعملون شيئا إلا لمصلحتهم.

٨. ويمكن أن يستنبط ما تركه الله هنا من بيان سبب شدة هؤلاء وأولئك مما بينه من سبب قرب

مودة النصارى بقوله عز وجل ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ أي ذلك ـ الذي ذكر من كون النصارى أقرب مودة للذين آمنوا ـ بسبب أن منهم قسيسين يتولون تعليمهم وتربيتهم الدينية، ورهبانا يمثلون فيهم الزهد وترك نعيم الدنيا والخوف من الله عز وجل والانقطاع لعبادته، وإنهم لا يستكبرون عن الإذعان للحق إذا ظهر لهم أنه الحق، لأن أشهر آداب دينهم التواضع والتذلل، وقبول كل سلطة، والخضوع لكل حاكم، بل من المشهور فيها الأمر بمحبة الأعداء، وإدارة الخد الأيسر لمن ضرب الخد الأيمن، فتداول هذه الوصايا، ووجود أولئك القسيسين والرهبان، لابد أن يؤثر في نفوس جمهور الأمة وسوادها، فيضعف صفة الاستكبار عن قبول الحق فيها، وقد عهد من النصارى قبول سلطة المخالف لهم طوعا واختيارا، والرضاء بها سرا وجهارا، وأما اليهود فإذا أظهروا الرضا بذلك اضطرارا، أسروا الكيد أسرارا، ومكروا مكرا كبارا.

٩. فتلك كانت صفات الفريقين الغالبة، لا أخلاق أفراد الأمتين كافة، ففي كل قوم خبيثون وطيبون، ﴿وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٠٩] ولكن شريعة اليهود نفسها تربي في نفوسهم الأثرة الجنسية لأنها خاصة بشعب إسرائيل، وكل أحكامها ونصوصها مبنية على ذلك، وحكمة ذلك أن المراد منها تربية أمة موحدة بين أمم الوثنية الكثيرة بعد إنقاذها من استعباد أشد أولئك الوثنيين بطشا وأضراهم بالاستبداد ـ وهي أمة الفراعنة ـ ولو أذن الله لنبي إسرائيل بعد إنجائهم من مصر إلى الأرض المقدسة أن يخالطوا الأمم التي كانت فيها، وجعل شريعتهم عامة مبنية على قواعد المساواة بين الإسرائيليين وغيرهم ـ كالشريعة الإسلامية ـ لغلبت تعاليم أولئك الوثنيين وشرورهم على الإسرائيليين لقرب عهدهم بالتوحيد، مع استعدادهم الوراثي لقبول تقاليد غيرهم والخضوع لهم، ولذلك أمروا بأن لا يبقوا في الأرض المقدسة نسمة ما ممن كان فيها قبلهم، وكان موسى عليه السلام يحذرهم أشد التحذير من مفاسد الوثنيين بعده.

١٠. سؤال وإشكال: إن هذا الإصلاح بتربية أمة واحدة على هذه الطريقة، بمثل هذه الشريعة، يترتب عليه مفاسد أخرى في أخلاق هذه الأمة، ولو لم يكن من مفاسده إلا ما هو معروف من أخلاق اليهود إلى الآن، التي كانت سبب اضطهاد الأمم لهم في كل مكان، من حرصهم على الانتفاع من غيرهم، وعدم نفع أحد بشيء منهم، إلا إذا كان وسيلة لمنفعة لهم أكبر منه أو دفع ضرر، وتجرد السواد الأعظم منهم

عن إيثار أحد غريب عنهم بشيء ـ لكفى، وكان شبهة عظيمة على كون دينهم ليس من عند الله تعالى: ﴿وَاللهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ﴾ [البقرة: ٢٠٥]، والجواب: عن هذه الشبهة سهل على المسلمين، وبيانه[1]:

أ. إن تلك الشريعة كانت مؤقتة لا دائمة، فكانت في العصر الأول هي الوسيلة إلى تكوين أمة موحدة بين أمم الوثنية، وكان المصلحون من الأنبياء صلوات الله عليهم يتعاهدون أهلها زمنا بعد زمن بالإصلاح المعنوي، كإلهيات زبور داوود وأدبيات حكم سليمان عليهما السلام، حتى لا تغلب على القوم المادية وتفسدهم الأثرة، ثم جاء مصلح إسرائيل الأعظم عيسى المسيح ﷺ بنقض ما كانوا عليه من ذلك بدعوتهم إلى نقيض ما كانوا عليه، فقابل مبالغتهم في المادية بالمبالغة في الروحانية، ومبالغتهم في الآثرة بالمبالغة في الإيثار (الذي تعبر عنه النصارى بإنكار الذات) ومبالغتهم في الجمود على ظواهر الشريعة بالمبالغة في النظر إلى مقاصدها، فكره إليهم السيادة والغنى، وذم التمتع بنعيم الدنيا، وأمر بمحبة الأعداء، وعدم الجزاء على الإيذاء ـ وكان ذلك كله تمهيدا لإكمال الله تعالى دينه بإرسال خاتم النبيين والمرسلين، محمد المبعوث رحمة للعالمين، البارقليط روح الحق، الذي يعلمهم ويعلم غيرهم كل شيء فيجمع للبشر بين مصالح الروح والجسد، ويأمر بالعدل والإحسان لا بالإحسان فقط.

ب. فمن لم يؤثر فيهم إصلاح المسيح من اليهود ظلوا على جمودهم وأثرتهم وعصبيتهم، وكانوا أشد عداوة لهذا النبي ومن آمن به ممن أثر فيهم ذلك الإصلاح، وكان فيهم بقية من القسيسين والرهبان، سواء كان أصلهم من اليهود أو غيرهم من الأقوام، فكانوا أقرب مودة لهم، وكانوا أسرع إلى الإيمان من غيرهم، فصدق عليهم قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ [الأعراف: ١٥٧] وما كان ذلك الإصر والأغلال إلا شدة أحكام التوراة في الطعام والشراب والأحكام المدنية والجنائية، وشدة أحكام الإنجيل في الزهد وإذلال النفس وحرمانها.

ج. ومما يدل على كون النصارى أقرب من اليهود إلى الإسلام بطبيعة دين كل منهما، وفاقا لتعليل

---

(١) تقسيم الفروع هنا ليس منهجيا، وإنما من باب التبسيط فقط

الآية الكريمة، كثرة من يسلم من النصارى في كل زمان وقلة من يسلم من اليهود، ولولا ضعف المسلمين في هذا الزمان، وإعراضهم عن هداية القرآن وإهمالهم الدعوة إلى الإسلام، وإبرازه بصورته الصحيحة للأنام ـ على فساد حكوماتهم وعجز رجالها في السياسة، وتخلفهم عن مجاراة الأمم في العلم والحضارة ـ ولولا بلوغ دول الإفرنج النصرانية فيه أوج العزة والقوة، وسبق أممهم في حلبة المدنية والثورة، واستمالتهم لنصارى الشرق وجذبهم إليهم، واعتزاز هؤلاء بهم، وتلقيهم أساليب التربية الدينية والمدنية عنهم، وجعل الدين فيها من المقومات الجنسية للأقوام والشعوب تربى على أن تحافظ عليها كما تحافظ على لغتها، فلا تستبدل بها غيرها وإن كانت خيرا منها ـ إلى غير ذلك من قوانين هذه التربية وأساليبها ـ ولولا ما أشرنا إليه من التنازع السياسي الدنيوي بين دولنا ودولهم، لكانت المودة بين الفريقين أتم، وانتشار الإسلام فيهم أعم، لأن الإسلام إصلاح في النصرانية، كما إن النصرانية إصلاح في اليهودية، فاليهود الذين عادوا النصرانية، كانوا أجدر ممن صلحوا بها بعداوة الإسلامية، ودين الله على ألسنة موسى وعيسى ومحمد ﷺ واحد، ولكنه جرى مع البشر على سنة الارتقاء، إلى أن بلغ سن الكمال.

١١. سؤال وإشكال: إذا كنت تزعم إن سبب ما ذكره الله تعالى من كون النصارى أقرب الناس مودة للمؤمنين هو تعاليم دينهم وتقاليده، وأنه لذلك يجب أن يكون عاما فيهم، وإن نزل في طائفة منهم، إذا انتفت الموانع ـ فبماذا تجيب عن الحرب الصليبية التي أوقد النصارى نارها باسم الدين، ولم يلق المسلمون مثلها من اليهود ولا المشركين، ويقرب من ذلك سائر الحروب بين المسلمين والنصارى؟ والجواب: عندي جوابين عن هذا السؤال أو جوابا من وجهين:

أ. أحدهما: إن ما كان عليه المسلمون من الدين القريب من النصرانية بل الذي هو إصلاح فيها وإكمال لها كما قررنا، لم يكن معروفا عند أولئك الصليبيين، بل كان للمسلمين صورة في مخيلاتهم غير صورتهم الصحيحة التي طبعها في نفوسهم الإسلام ـ صورة وثنية وحشية مشوهة أقبح التشويه، منعكسة عن الكتب والرسائل والخطب التي كان ينشئها بطرس الراهب وأمثاله، ولو وصف للمسلمين يومئذ قوم بما وصفهم به مثيرو الحرب الصليبية ودعوا إلى قتالهم لنفروا خفافا وثقالا.

ب. ثانيهما: إن ما في الإنجيل من روح السلام والمحبة والتواضع والإيثار، والخضوع لكل سلطان، لم ينتصر في أوربة على روح الحرب والأثرة والكبرياء وحب السيادة في الأرض ـ تلك الصفات

التي كانت قد بلغت في عهد السلطة الرومانية أشدها، وكانت سبب إبادة الوثنيين من أوربة كلها، ثم سبب الحرب الصليبية، ومحاولة إبادة المسلمين من البلاد المقدسة أو الشرق كله، بل كانت ولا تزال سبب الحروب القاسية بين النصارى أنفسهم بسبب اختلاف المذاهب، أو التنازع على الممالك، وكل هذا من تعاليم روح الشيطان، لا من تأثير تعاليم روح الله عليه السلام، وإن رووا عنه أنه قال ما جئت لألقي سلاما على الأرض إنما جئت لألقي سيفا، فعلم من هذا إن ما كان بين المسلمين والنصارى من عداء فإنما سببه بعد أحد الفريقين أو كل منهما عن هداية دينه، أو جهالة وسوء فهم وقع بينهما، وأمر المتأخر من دولهما ظاهر، لا ينسبه إلى طبيعة دينهما إلا جاهل أو مكابر، فالدولة العثمانية كانت قد فتحت كثيرا من بلادهم بالقوة القاهرة، فلما دالت لهم القوة ثأروا لأنفسهم، فإن كان الساسة البلقانيون قد هاجوا شعوبهم على قتالها باسم الصليب والمسيح، فلم يلبثوا أن كذب الله تعالى دعواهم المسيحية بإيقادهم نار القتال بينهم، فما زال أئمة السياسة المضلين من الفريقين يتخذون الدين أخدوعة يخدعون بها العامة لتأييد سياستهم حتى في الجناية على الدين وأهله.

١٢. سؤال وإشكال: إن اليهودية أقرب إلى الإسلام من النصرانية لأنها ديانة توحيد، والنصرانية ديانة تثليث، والتوحيد هو أساس دين الله على ألسنة جميع رسله، وهو منتهى الكمال في العقائد، ولذلك يجوز أن يغفر الله كل ذنب إلا الشرك، والجواب: إن عقيدة التثليث الدخيلة في المسيحية لما كانت لا تفهم ولا تعقل لم يكن لها تأثير في أنفس أهلها يبعدهم عن الإسلام، بل ربما كانت من أسباب قبول دعوة الإسلام، وإنما التأثير الأعظم في تقريب الناس بعضهم من بعض أو ضده: الأخلاق والآداب، وإننا نرى في كل عصر من الموادة بين المسلمين والنصارى ما لا نرى مثله بين غيرهما من المختلفين في الدين، وما ضعفت هذه المودة في بلد إلا بفتن السياسة، وعصبيات أهل الرياسة، فلعنة الله على مثيري العداوة والبغضاء بين عباد الله إتباعا لأهوائهم، أو إرضاء لرؤسائهم.

١٣. من مباحث الألفاظ في الآية أن الرهبان جمع راهب (كركبان جمع راكب) وهو المتبتل المنقطع في دير أو صومعة للعبادة وحرمان النفس من التنعم بالزوج والولد ولذات الطعام والزينة، فهو من الرهبة بمعنى الخوف، أو من رهب الإبل وهو هزالها وكلاهما من طول السير، والقسيسين جمع قسيس ـ ومثله قس وجمعه قسوس ـ وهو رئيس ديني في عرف الكنيسة فوق الشماس ودون الأسقف، مأخوذ من قولهم:

قس الإبل يقسها (من باب نصر) قسا (بتثليث القاف) إذا أحسن رعيها وساقها، والأصل في القسيسين أن يكونوا من أهل العلم بدينهم وكتبهم، لأنهم رعاة ومفتون، فيكون ذكر الرهبان والقسيسين جمعا بين العباد والعلماء، وكون الرهبانية بدعة في النصرانية لا ينافي في تقريب النصارى من مودة المسلمين.

١٤. وروى أهل التفسير المأثور قولا بأن المراد بالقسيسين والرهبان من آمن بعيسى في عهده كالحواريين ـ وقولا آخر بأن المراد بهم جماعة النجاشي، وسيأتي بعض ما ورد في ذلك، ومن الناس من يجعل هذه الآية آخر الجزء.

١٥. ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ﴾ أي وإذا سمع أولئك الذين قالوا إنا نصارى ما أنزل إلى الرسول الكامل ـ محمد ﷺ ـ الذي أكمل به الدين، وبعث رحمة للعالمين، ترى أيها الناظر إليهم أعينهم تفيض من الدمع، أي تمتلئ دمعا حتى يتدفق الدمع من جوانبها لكثرته، أو حتى كأن الأعين ذابت وصارت دمعا جاريا، ذلك من أجل ما عرفوه من الحق الذي بينه لهم القرآن، ولم يمنعهم من الإذعان والخشوع له ما منع غيرهم من العتو والاستكبار، فقوله: ﴿مِنَ الْحَقِّ﴾ بيان لقوله: ﴿مِمَّا عَرَفُوا﴾ وقيل إن من فيه للتبعيض، أي أن أعينهم فاضت عبرة ودموعا، عبرة منهم وخشوعا، لمعرفتهم بعض الحق، إذ سمعوا بعض الآيات دون البعض، فكيف لو عرفوا الحق كله بسماع جميع القرآن ومعرفة ما جاءت به السنة من الأسوة الحسنة والبيان، وهذا القول إنما يصح بتطبيقه على واقعة معنية كالذي تسمع في النجاشي وجماعته، وأما ظاهر الجملة الشرطية فهو بيان ما يكون من شأنهم عند سماع القرآن، وهو العبرة والاستعبار، والدموع الغزار.

١٦. ثم بين تعالى ما يكون من مقالهم، بعد بيان ما يكون من حالهم، فقال: ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ أي يقولون هذا القول يريدون به إنشاء الإيمان والتضرع إلى الله تعالى بأن يقبله منهم ويكتبهم مع أمة محمد ﷺ، الذين جعلهم الله تعالى كالرسل شهداء على الناس، وإنما يقولون ذلك لأنهم كانوا يعلمون من كتبهم، أو مما يتناقلونه عن سلفهم، أن النبي الأخير الذي يكمل الله به الدين يكون متبعوه شهداء على الناس، أو المعنى أنهم بدخولهم في هذه الأمة يكتبون من الشاهدين، فذكر الله الأمة بأشرف أوصافها، قال ابن عباس: إن الشاهدين هنا هم الشهداء في قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣] وروي عنه أنه قال هم

محمد ﷺ وأمته، أنهم شهدوا أنه قد بلغ، وإن الرسول قال قد بلغت، كأنه يقول: إن الشهادة للرسل تستلزم الشهادة على من خالفهم، وإلا كان هذا التفسير غير ظاهر، لأن الشهادة على المرء ضد الشهادة له، والحق أن الشهادة هنا يراد بها أن هذه الأمة تشهد على الأمم يوم القيامة وتكون حجة على المشركين والمبطلين بكونها مظهرا لدين الله الحق الذي جحدوه أو ضلوا عنه، وقد حققنا القول في بيان معنى الشهداء في تفسير سورة النساء والسورتين قبلها؛ فليراجع تفسير ٤: ٦٨ ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَالرَّسُولَ﴾ [النساء: ٦٨]

١٧. ﴿وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ﴾ هذا تتمة قولهم، والمعنى أي مانع يمنعنا من الإيمان بالله وحده وبما جاءنا من الحق على لسان هذا الرسول، بعد أن ظهر لنا إنه البارقليط روح الحق الذي بشر به المسيح، والحال أننا نطمع أن يدخلنا ربنا مع القوم الصالحين، الذين صلحت أنفسهم بالعقائد الصحيحة، والفضائل الكاملة، والعبادات الخالصة، والمعاملات المستقيمة، وهم أتباع هذا النبي الكريم الذين رأينا أثر صلاحهم بأعيننا بعد ما كان من فسادهم في جاهليتهم ما كان؟ أي لا مانع يمنعنا من هذا الإيمان بعد تحقيق موجبه، وقيام سببه، فسروا القوم الصالحين بأصحاب الرسول، وهو متعين بالنسبة إلى من آمن من نصارى الحبشة، وكل من سار على طريقهم يعد منهم ويحشر معهم.

١٨. ﴿فَأَثَابَهُمُ اللهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ﴾ أي فجزاهم الله تعالى وأعطاهم من الثواب بقولهم الذي عبروا به عن إيمانهم وإخلاصهم بساتين وحدائق في دار النعيم تجري من تحت أشجارها الأنهار يخلدون فيها، فلا هي تسلب منهم ولا هم يرغبون عنها ويتركونها، وذلك النوع من الثواب جزاء جميع المحسنين في سيرتهم وأعمالهم من أهل الإيمان وقد علم من الآيات الأخرى أن في تلك الجنات من الدور والقصور والنعيم الروحاني والرضوان الإلهي ما لا يمكن أن يعبر عنه الكلام ويحيط به الوصف في هذا العالم المخالف لذلك العالم في حقيقته وخواصه ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٧]

١٩. هذا وإن المحدثين يجمعون بين أمثال هذه الروايات[1] بتعدد الوقائع فإن لم يمكن الجمع

---

(١) ذكر ما ورد في سبب النزول الذي سبق ذكره.

اعتمدوا على ما كان أقوى سندا.

٢٠. ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ بعد أن بين الله تعالى في آخر الآية السابقة أن ما أثاب به أولئك النصارى الذين آمنوا بالرسول الأعظم، ﷺ، هو جزاء جميع المحسنين عنده، الذين آمنوا كإيمانهم وخشعوا للحق كخشوعهم، عقب عليه بجزاء المسيئين إلى أنفسهم بالكفر والتكذيب، على سنة القرآن في الجمع بين الوعد والوعيد، فقال: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ الدالة على وحدانيتنا، وصدق رسولنا فيما يبلغه عنا، ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ أي أولئك دون غيرهم هم أصحاب تلك النار العظيمة الملازمون لها، الذين ليس لهم مثوى سواها، أعاذنا الله منها.

المراغي:

ذكر أحمد بن مصطفى المراغي (ت ١٣٧١ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. بعد أن حاجّ سبحانه وتعالى أهل الكتاب، وذكر من مخازيهم أنهم اتخذوا الدين الإسلامي هزوا ولعبا، وأن اليهود منهم قالوا: يد الله مغلولة، وأنهم قتلوا رسلهم تارة وكذبوهم أخرى، وأن النصارى منهم اعتقدوا عقائد زائفة؛ فمنهم من قال المسيح ابن الله، ومنهم من قال إن الله ثالث ثلاثة، وقد عابهم على ذلك وكرّ عليهم بالحجة إثر الحجة لتفنيد ما كانوا يعتقدون، ذكر هنا أحوالهم في عداوتهم للمؤمنين ومحبتهم لهم ومقدار تلك المحبة والعداوة، وبين حال المشركين مع المؤمنين بالتبع لهم.

٢. ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمنوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ أي قسما لتجدن أيها الرسول أشد الناس عداوة للذين صدّقوك واتبعوك وصدقوا بما جئتهم به، اليهود والمشركين من عبدة الأوثان الذين اتخذوها آلهة يعبدونها من دون الله، وأشد ما لاقى النبي ﷺ من العداوة والإيذاء، كان من يهود الحجاز في المدينة وما حولها، ومن مشركي العرب ولا سيما مكة وما قرب منها.

٣. وقد كان اليهود والمشركون مشتركين في بعض الصفات والأخلاق التي اقتضت عداوتهم الشديدة للمؤمنين كالكبر، والعتوّ، والبغي، وغلبة الحياة المادية، والأثرة والقسوة، وضعف عاطفة الحنان والرحمة، والعصبية الجنسية، والحميّة القوية، ولكنّ مشركي العرب على جاهليتهم كانوا أرق من اليهود

---

(١) تفسير المراغي ٧/٥.

قلوبا، وأعظم سخاء وإيثارا، وأكثر حرية في الفكر واستقلالا في الرأي وقدّم سبحانه ذكر اليهود للإشارة إلى تفوقهم على العرب فيما وصفوا به، فضلا عما امتازوا به من قتل بعض الأنبياء وإيذاء بعض آخر، واستحلال أكل أموال غيرهم بالباطل، ولم يكن ميلهم مع المسلمين في البلاد المقدسة والشام والأندلس إلا ميلا وراء مصلحتهم الخاصة، إذ هم تفيئوا ظلال عدلهم، واستراحوا به من اضطهاد النصارى في تلك البلاد.

٤. ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمنوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى﴾ أي ولتجدنّ أقرب الناس محبة للذين آمنوا بك وصدقوك ـ الذين قالوا إنا نصارى ـ فإن النبي ﷺ رأى من نصارى الحبشة أحسن المودة؛ بحماية المهاجرين الذين أرسلهم ﷺ في أول الإسلام من مكة إلى الحبشة، خوفا عليهم من مشركيها الذين كانوا يؤذونهم أشد الإيذاء، ليفتنوهم عن دينهم، ولما أرسل النبي ﷺ كتبه إلى الملوك ورؤساء الشعوب كان النصارى منهم أحسنهم ردا، فهرقل ملك الروم في الشام حاول إقناع رعيته بقبول الإسلام فلم يستطع، لجمودهم على التقليد فاكتفى بالرد الحسن، والمقوقس عظيم القبط في مصر كان أحسن منه ردا، وإن لم يكن أكثر منه ميلا إلى الإسلام، وأرسل للنبي ﷺ هدية حسنة، ثم لما فتحت مصر والشام وعرف أهلهما ما للإسلام من مزايا أهرعوا إلى الدخول في الدين أفواجا وكان القبط أسرع إليه قبولا.

٥. والخلاصة ـ إن النبي ﷺ والمؤمنين به رأوا في عصره من مودة النصارى وقربهم من الإسلام بقدر ما رأوا من عداوة اليهود والمشركين، وأن من توقف من ملوكهم عن الإسلام فما كان توقفه إلا ضنا بملكه، وأن النجاشي أصحمة ملك الحبشة قد أسلمت معه بطانته من رجال الدين والدنيا، ولكن الإسلام لم ينتشر في الحبشة بعد موته، ولم يهتم المسلمون بإقامة دينهم في تلك البلاد كما فعلوا في مصر والشام.

٦. ثم بين سبحانه وتعالى سبب مودة النصارى للذين آمنوا فقال: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ أي إن السبب في هذه المودة أن منهم قسيسين يتولون تعليمهم التعليم الديني ويهذبون أخلاقهم ويربون فيهم الآداب والفضائل، ورهبانا يعوّدونهم الزهد والتقشف والإعراض عن زخرف الدنيا ونعيمها، ويكبرون في نفوسهم الخوف من الله والانقطاع لعبادته، وأنهم لا يستكبرون عن الإذعان للحق إذا ظهر أنه الحق، إذ من فضائل دينهم التواضع والتذلل والخضوع لكل حاكم، بل إنهم أمروا بمحبة الأعداء، وإدارة الخدّ الأيسر لمن ضرب الخد الأيمن، فكل أولئك يؤثّر في جمهور الأمة

وسوادها الأعظم، وقد عهد من النصارى قبول سلطة المخالف لهم طوعا واختيارا، بخلاف اليهود فإنهم إذا أظهروا الرضا اضطرارا أسرّوا الكيد وأضمروا المكر، لأن الشريعة اليهودية تولد في نفوسهم العصبية الجنسية والحميّة القومية، لأنها خاصة بشعب إسرائيل، وأحكامها ونصوصها مبنية على ذلك.

٧. ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أنزل إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ﴾ أي وإذا سمع أولئك الذين قالوا إنا نصارى ما أنزل إلى الرسول محمد ﷺ الذي بعثه الله رحمة للعالمين؛ ترى أعينهم تفيض من الدمع حتى يتدفق من جوانبها لكثرته من أجل ما عرفوه من الحق الذي بيّنه لهم القرآن الكريم، ولم يمنعهم ما يمنع غيرهم من عتوّ واستكبار.

٨. ثم ذكر سبحانه ما يكون منهم من القول إثر بيان ما كان من حالهم فقال: ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ أي يقولون هذه المقالة قاصدين بها إنشاء الإيمان والتضرع إلى الله والخضوع له بأن يتقبله منهم ويكتبهم مع أمة محمد ﷺ الذين جعلهم الله تعالى شهداء على الناس، لأنهم كانوا يعلمون من كتبهم ومما يتناقلونه عن أسلافهم أن النبي الأخير الذي يكمل به الدين ويتم به التشريع العام يكون متبعوه شهداء على الناس ويكونون حجة على المشركين والمبطلين كما جاء في الآية الأخرى ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾

٩. ثم زادوا كلامهم توكيدا فقالوا: ﴿وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ﴾ أي وأيّ مانع يمنعنا من الإيمان بالله الذي لا إله إلا هو، ويصدنا عن اتباع ما جاءنا من الحق على لسان هذا النبي الكريم، بعد أن ظهر لنا أنه هو روح الحق الذي بشر به المسيح؟ وإننا لنطمع أن يدخلنا ربنا مع القوم الذين صلحت أنفسهم بالعقائد الصحيحة، والفضائل والآداب الكاملة، وهم أتباع هذا النبي الكريم الذين استبان لنا أثر صلاحهم وشاهدناه بأعيننا بعد ما كان منهم من فساد في الأرض وعتوّ كبير في جاهليتهم، والخلاصة - إنه لا مانع لنا من هذا الإيمان بعد أن تظاهرت أسبابه، وتحققت موجباته فوجب علينا الجري على سننه، واتباع نهجه وطريقه.

١٠. ثم بين سبحانه ما جازاهم به على ذلك فقال: ﴿فَأَثَابَهُمُ اللهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ﴾ أي فجزاهم الله وأعطاهم من الثواب بما نطقت به ألسنتهم معبرا عما في قلوبهم من خالص الإيمان وصحيح الاعتقاد - جنات وحدائق في دار النعيم تجرى من تحت

أشجارها الوارفة الظلال، الأنهار التي تسيل مياهها سلسبيلا، يخلدون فيها أبدا فلا يسلبها منهم أحد، ولا هم يرغبون عنها ويودون لو تركوها، ومثل هذا الجزاء قد أعده للذين أخلصوا في عقائدهم وأحسنوا أعمالهم.

١١. وعلينا أن نقف في وصف نعيم الآخرة على ما جاء به القرآن الكريم وصحت به السنة النبوية، ولا نعد وذلك إلى ما وراءه، فإن النعيم الروحاني والرضوان الإلهي لا يمكن أن يعبر عنه الكلام ولا يحيط به الوصف، فنحن في عالم يخالف ذلك العالم في أوصافه وخواصه، مهما أكثرنا من الوصف، فلا نصل إلى شيء مما أعده الله لهم هناك ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾

١٢. وبعد أن بين سبحانه ما أعدّ لعباده المحسنين من عظيم الثواب جزاء صادق إيمانهم ذكر جزاء المسيئين إلى أنفسهم بالكفران والتكذيب جريا على سنة القرآن في الجمع بين الوعد والوعيد قال ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ الجاحم والجحيم: ما اشتد حرّه من النار أي وأما الذين جحدوا توحيد الله وأنكروا نبوة محمد ﷺ وكذبوا بآيات كتابه، فأولئك هم أصحاب النار وسكانها المقيمون فيها لا يبرحونها.

سيّد:

ذكر سيّد قطب (ت ١٣٨٥ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. هذه البقية من الحديث عن اليهود والنصارى والمشركين، ومواقفهم من الرسول ﷺ ومن الأمة المسلمة؛ هي طرف من الحديث الطويل الذي تضمنته السورة من قبل خلال أكثر من (ربعين) فقد تناولت الحديث عن فساد عقيدة اليهود والنصارى معا، وسوء طوية اليهود وسوء فعلهم، سواء مع أنبيائهم من قبل أو مع الرسول ﷺ ونصرة المشركين عليه.. كما تناولت الحكم على عقيدة اليهود والنصارى التي انتهوا إليها بأنها (الكفر) لتركهم ما جاء في كتبهم وتكذيبهم بما جاءهم به رسول الله ﷺ والتوكيد بأنهم ليسوا على شيء حتى يقيموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم.. ثم وجه الحديث إلى الرسول ﷺ ليبلغ ما أنزل إليه من ربه إلى الجميع مشركين ويهودا ونصارى؛ فكلهم ليسوا على شيء من دين الله؛ وكلهم مخاطب

(١) في ظلال القرآن: ٢/٩٦٠.

بالإسلام للدخول فيه، كما وجه الحديث إلى الأمة المسلمة لتتولى الله والرسول والذين آمنوا، ولا تتولى اليهود والنصارى، فإن بعضهم أولياء بعض؛ واليهود يتولون الذين كفروا؛ وقد لعنوا على لسان داوود وعيسى بن مريم.

٢. فالآن تجيء هذه البقية لتقرير مواقف هذه الطوائف جميعا من النبي ﷺ ومن الأمة المسلمة، ولتقرير الجزاء الذي ينتظر الجميع في الآخرة.. لقد كانت هذه الأمة تتلقى هذا القرآن لتقرر ـ وفق توجيهاته وتقريراته ـ خطتها وحركتها، ولتتخذ ـ وفق هذه التوجيهات والتقريرات ـ مواقفها من الناس جميعا، فهذا الكتاب كان هو موجهها ومحركها ورائدها ومرشدها.. ومن ثم كانت تغلب ولا تغلب، لأنها تخوض معركتها مع أعدائها تحت القيادة الربانية المباشرة؛ مذ كان نبيها يقودها وفق الإرشادات الربانية العلوية..

٣. وهذه الإرشادات الربانية ما تزال؛ والتقريرات التي تضمنها ذلك الكتاب الكريم ما تزال، والذين يحملون دعوة الإسلام اليوم وغدا خليقون أن يتلقوا هذه التقريرات وتلك الإرشادات كأنهم يخاطبون بها اللحظة؛ ليقرروا على ضوئها مواقفهم من شتى طوائف الناس؛ ومن شتى المذاهب والمعتقدات والآراء، ومن شتى الأوضاع والأنظمة وشتى القيم والموازين.. اليوم وغدا وإلى آخر الزمان..

٤. ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ إن صيغة العبارة تحتمل أن تكون خطابا للرسول ﷺ وأن تكون كذلك خطابا عاما خرج مخرج العموم، لأنه يتضمن أمرا ظاهرا مكشوفا يجده كل إنسان، وهي صيغة لها نظائرها في الأسلوب العربي الذي نزل به القرآن الكريم.. وهي في كلتا الحالتين تفيد معناها الظاهر الذي تؤديه..

٥. فإذا تقرر هذا فإن الأمر الذي يلفت النظر في صياغة العبارة هو تقديم اليهود على الذين أشركوا في صدد أنهم أشد الناس عداوة للذين آمنوا؛ وأن شدة عداوتهم ظاهرة مكشوفة وأمر مقرر يراه كل من يرى، ويجده كل من يتأمل!

٦. نعم إن العطف بالواو في التعبير العربي يفيد الجمع بين الأمرين ولا يفيد تعقيبا ولا ترتيبا.. ولكن تقديم اليهود هنا، حيث يقوم الظن بأنهم أقل عداوة للذين آمنوا من المشركين ـ بما أنهم أصلا أهل كتاب ـ يجعل لهذا التقديم شأنا خاصا غير المألوف من العطف بالواو في التعبير العربي! إنه ـ على الأقل ـ يوجه النظر إلى أن كونهم أهل كتاب لم يغير من الحقيقة الواقعة، وهي أنهم كالذين أشركوا أشد عداوة

للذين آمنوا! ونقول: إن هذا (على الأقل)، ولا ينفي هذا احتمال أن يكون المقصود هو تقديمهم في شدة العداء على الذين أشركوا.

٧. وحين يستأنس الإنسان في تفسير هذا التقرير الرباني بالواقع التاريخي المشهود منذ مولد الإسلام حتى اللحظة الحاضرة، فإنه لا يتردد في تقرير أن عداء اليهود للذين آمنوا كان دائما أشد وأقسى وأعمق إصرارا وأطول أمدا من عداء الذين أشركوا:

أ. لقد واجه اليهود الإسلام بالعداء منذ اللحظة الأولى: التي قامت فيها دولة الإسلام بالمدينة، وكادوا للأمة المسلمة منذ اليوم الأول الذي أصبحت فيه أمة، وتضمن القرآن الكريم من التقريرات والإشارات عن هذا العداء وهذا الكيد ما يكفي وحده لتصوير تلك الحرب المريرة التي شنها اليهود على الإسلام وعلى رسول الإسلام ﷺ وعلى الأمة المسلمة في تاريخها الطويل؛ والتي لم تخب لحظة واحدة قرابة أربعة عشر قرنا، وما تزال حتى اللحظة يتسعر أوارها في أرجاء الأرض جميعا لقد عقد الرسول ﷺ أول مقدمه إلى المدينة، معاهدة تعايش مع اليهود؛ ودعاهم إلى الإسلام الذي يصدق ما بين أيديهم من التوراة.. ولكنهم لم يفوا بهذا العهد - شأنهم في هذا كشأنهم مع كل عهد قطعوه مع ربهم أو مع أنبيائهم من قبل، حتى قال الله فيهم: ﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ أَوَكُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ولقد أضمروا العداء للإسلام والمسلمين منذ اليوم الأول الذي جمع الله فيه الأوس والخزرج على الإسلام، فلم يعد لليهود في صفوفهم مدخل ولا مخرج، ومنذ اليوم الذي تحددت فيه قيادة الأمة المسلمة وأمسك بزمامها محمد رسول الله ﷺ فلم تعد لليهود فرصة للتسلط! ولقد استخدموا كل الأسلحة والوسائل التي تفتقت عنها عبقرية المكر اليهودية، وأفادتها من قرون السبي في بابل، والعبودية في مصر، والذل في الدولة الرومانية، ومع أن الإسلام قد وسعهم بعد ما ضاقت بهم الملل والنحل على مدار التاريخ، فإنهم ردوا للإسلام جميله عليهم أقبح الكيد وألأم المكر منذ اليوم الأول.

ب. ولقد ألبوا على الإسلام والمسلمين كل قوى الجزيرة العربية المشركة؛ وراحوا يجمعون القبائل المتفرقة لحرب الجماعة المسلمة: ﴿وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا﴾

ج. ولما غلبهم الإسلام بقوة الحق ـ يوم أن كان الناس مسلمين ـ استداروا يكيدون له بدس المفتريات في كتبه ـ لم يسلم من هذا الدس إلا كتاب الله الذي تكفل بحفظه سبحانه ـ ويكيدون له بالدس بين صفوف المسلمين، وإثارة الفتن عن طريق استخدام حديثي العهد بالإسلام ومن ليس لهم فيه فقه من مسلمة الأقطار، ويكيدون له بتأليب خصومه عليه في أنحاء الأرض.. حتى انتهى بهم المطاف أن يكونوا في العصر الأخير هم الذين يقودون المعركة مع الإسلام في كل شبر على وجه الأرض؛ وهم الذين يستخدمون الصليبية والوثنية في هذه الحرب الشاملة، وهم الذين يقيمون الأوضاع ويصنعون الأبطال الذين يتسمون بأسماء المسلمين، ويشنونها حربا صليبية صهيونية على كل جذر من جذور هذا الدين! وصدق الله العظيم: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾

د. إن الذي ألب الأحزاب على الدولة المسلمة الناشئة في المدينة؛ وجمع بين اليهود من بني قريظة وغيرهم؛ وبين قريش في مكة، وبين القبائل الأخرى في الجزيرة.. يهودي.. والذي قاد حملة الوضع والكذب في أحاديث رسول الله ﷺ وفي الروايات والسير.. يهودي.. ثم إن الذي كان وراء إثارة النعرات القومية في دولة الخلافة الأخيرة؛ ووراء الانقلابات التي ابتدأت بعزل الشريعة عن الحكم واستبدال (الدستور) بها في عهد السلطان عبد الحميد، ثم انتهت بإلغاء الخلافة جملة على يدي (البطل) أتاتورك.. يهودي..

هـ. وسائر ما تلا ذلك من الحرب المعلنة على طلائع البعث الإسلامي في كل مكان على وجه الأرض وراءه يهود! ثم لقد كان وراء النزعة المادية الإلحادية.. يهودي.. ووراء النزعة الحيوانية الجنسية يهودي.. ووراء معظم النظريات الهدامة لكل المقدسات والضوابط يهود!

و. ولقد كانت الحرب التي شنها اليهود على الإسلام أطول أمدا، وأعرض مجالا، من تلك التي شنها عليه المشركون والوثنيون ـ على ضراوتها ـ قديما وحديثا.. إن المعركة مع مشركي العرب لم تمتد إلى أكثر من عشرين عاما في جملتها، وكذلك كانت المعركة مع فارس في العهد الأول.

ز. أما في العصر الحديث فإن ضراوة المعركة بين الوثنية الهندية والإسلام ضراوة ظاهرة؛ ولكنها لا تبلغ ضراوة الصهيونية العالمية.. (التي تعد الماركسية مجرد فرع لها) وليس هناك ما يماثل معركة اليهود مع الإسلام في طول الأمد وعرض المجال إلا معركة الصليبية، التي ستتعرض لها في الفقرة التالية.

٨. فإذا سمعنا الله سبحانه يقول: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾، ويقدم اليهود في النص على الذين أشركوا.. ثم راجعنا هذا الواقع التاريخي، فإننا ندرك طرفا من حكمة الله في تقديم اليهود على الذين أشركوا! إنهم هذه الجبلة النكدة الشريرة، التي ينغل الحقد في صدورها على الإسلام وعلى نبي الإسلام، فيحذر الله نبيه وأهل دينه منها.. ولم يغلب هذه الجبلة النكدة الشريرة إلا الإسلام وأهله يوم أن كانوا أهله!.. ولن يخلص العالم من هذه الجبلة النكدة إلا الإسلام يوم يفيء أهله إليه..

٩. ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى﴾، إن هذه الآيات تصور حالة، وتقرر حكما في هذه الحالة.. تصور حالة فريق من أتباع عيسى عليه السلام: ﴿الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى﴾، وتقرر أنهم أقرب مودة للذين آمنوا.

١٠. ومع أن متابعة مجموع الآيات لا تدع مجالا للشك في أنها تصور حالة معينة، هي التي ينطبق عليها هذا التقرير المعين، فإن الكثيرين يخطئون فهم مدلولها، ويجعلون منها مادة للتميع المؤذي في تقدير المسلمين لموقفهم من المعسكرات المختلفة، وموقف هذه المعسكرات منهم.. لذلك نجد من الضروري - في ظلال القرآن - أن نتابع بالدقة تصوير هذه الآيات لهذه الحالة الخاصة التي ينطبق عليها ذلك الحكم الخاص:

أ. إن الحالة التي تصورها هذه الآيات هي حالة فئة من الناس، قالوا: إنا نصارى، هم أقرب مودة للذين آمنوا: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾، فمنهم من يعرفون حقيقة دين النصارى فلا يستكبرون على الحق حين يتبين لهم..

ب. ولكن السياق القرآني لا يقف عند هذا الحد، ولا يدع الأمر مجهلا ومعمما على كل من قالوا: إنا نصارى.. إنما هو يمضي فيصور موقف هذه الفئة التي يعنيها: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ﴾، فهذا مشهد حي يرتسم من التصوير القرآني لهذه الفئة من الناس، الذين هم أقرب مودة للذين آمنوا.. إنهم إذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول من هذا القرآن اهتزت مشاعرهم، ولانت قلوبهم، وفاضت أعينهم بالدمع تعبيرا عن التأثر العميق العنيف بالحق

الذي سمعوه، والذي لا يجدون له في أول الأمر كفاء من التعبير إلا الدمع الغزير ـ وهي حالة معروفة في النفس البشرية حين يبلغ بها التأثر درجة أعلى من أن يفي بها القول، فيفيض الدمع، ليؤدي ما لا يؤديه القول؛ وليطلق الشحنة الحبيسة من التأثر العميق العنيف.

ج. ثم هم لا يكتفون بهذا الفيض من الدمع؛ ولا يقفون موقفا سلبيا من الحق الذي تأثروا به هذا التأثر عند سماع القرآن؛ والشعور بالحق الذي يحمله والإحساس بما له من سلطان.. إنهم لا يقفون موقف المتأثر الذي تفيض عيناه بالدمع ثم ينتهي أمره مع هذا الحق! إنما هم يتقدمون ليتخذوا من هذا الحق موقفا إيجابيا صريحا.. موقف القبول لهذا الحق، والإيمان به، والإذعان لسلطانه، وإعلان هذا الإيمان وهذا الإذعان في لهجة قوية عميقة صريحة: ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ﴾، إنهم أولا يعلنون لربهم إيمانهم بهذا الحق الذي عرفوه، ثم يدعونه سبحانه أن يضمهم إلى قائمة الشاهدين لهذا الحق؛ وأن يسلكهم في سلك الأمة القائمة عليه في الأرض.. الأمة المسلمة، التي تشهد لهذا الدين بأنه الحق، وتؤدي هذه الشهادة بلسانها وبعملها وبحركتها لإقرار هذا الحق في حياة البشر.. فهؤلاء الشاهدون الجدد ينضمون إلى هذه الأمة المسلمة؛ ويشهدون ربهم على إيمانهم بالحق الذي تتبعه هذه الأمة؛ ويدعونه سبحانه أن يكتبهم في سجلها..

د. ثم هم بعد ذلك يستنكرون على أنفسهم أن يعوقهم معوق عن الإيمان بالله؛ أو أن يسمعوا هذا الحق ثم لا يؤمنوا به، ولا يأملوا ـ بهذا الإيمان ـ أن يقبلهم ربهم، ويرفع مقامهم عنده، فيدخلهم مع القوم الصالحين: ﴿وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ﴾، فهو موقف صريح قاطع تجاه ما أنزل الله إلى رسوله من الحق.. موقف الاستماع والمعرفة، ثم التأثر الغامر والإيمان الجاهر، ثم الإسلام والانضمام إلى الأمة المسلمة، مع دعاء الله سبحانه أن يجعلهم من الشاهدين لهذا الحق؛ الذين يؤدون شهادتهم سلوكا وعملا وجهادا لإقراره في الأرض، والتمكين له في حياة الناس.

هـ. ثم وضوح الطريق في تقديرهم وتوحده؛ بحيث لا يعودون يرون أنه يجوز لهم أن يمضوا إلا في طريق واحد: هو طريق الإيمان بالله، وبالحق الذي أنزله على رسوله، والأمل ـ بعد ذلك ـ في القبول عنده والرضوان.

و. ولا يقف السياق القرآني هنا عند بيان من هم الذين يعنيهم بأنهم أقرب مودة للذين آمنوا من

الذين قالوا: إنا نصارى؛ وعند بيان سلوكهم في مواجهة ما أنزل الله إلى الرسول ﷺ من الحق؛ وفي اتخاذ موقف إيجابي صريح، بالإيمان المعلن، والانضمام إلى الصف المسلم؛ والاستعداد لأداء الشهادة بالنفس والجهد والمال؛ والدعاء إلى الله أن يقبلهم في الصف الشاهد لهذا الحق على هذا النحو؛ مع الطمع في أن يختم لهم بالانضمام إلى موكب الصالحين.

١١. لا يقف السياق القرآني عند هذا الحد في بيان أمر هؤلاء الذين يقرر أنهم أقرب مودة للذين آمنوا، بل يتابع خطاه لتكملة الصورة، ورسم المصير الذي انتهوا إليه فعلا: ﴿فَأَثَابَهُمُ اللهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ﴾، لقد علم الله صدق قلوبهم وألسنتهم؛ وصدق عزيمتهم على المضي في الطريق؛ وصدق تصميمهم على أداء الشهادة لهذا الدين الجديد الذي دخلوا فيه؛ ولهذا الصف المسلم الذي اختاروه، واعتبارهم أن أداء هذه الشهادة ـ بكل تكاليفها في النفس والمال ـ منة يمن الله بها على من يشاء من عباده؛ واعتبارهم كذلك أنه لم يعد لهم طريق يسلكونه إلا هذا الطريق الذي أعلنوا المضي فيه؛ ورجاءهم في ربهم أن يدخلهم مع القوم الصالحين.

١٢. لقد علم الله منهم هذا كله؛ فقبل منهم قولهم، وكتب لهم الجنة جزاء لهم؛ وشهد لهم سبحانه بأنهم محسنون، وأنه يجزيهم جزاء المحسنين: ﴿فَأَثَابَهُمُ اللهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ﴾، والإحسان أعلى درجات الإيمان والإسلام.. والله ـ جل جلاله ـ قد شهد لهذا الفريق من الناس أنه من المحسنين، هو فريق خاص محدد الملامح هذا الذي يقول عنه القرآن الكريم: ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى﴾، هو فريق لا يستكبر عن الحق حين يسمعه، بل يستجيب له تلك الاستجابة العميقة الجاهرة الصريحة، وهو فريق لا يتردد في إعلان استجابته للإسلام، والانضمام للصف المسلم؛ والانضمام إليه بصفة خاصة في تكاليف هذه العقيدة؛ وهي أداء الشهادة لها بالاستقامة عليها والجهاد لإقرارها وتمكينها، وهو فريق علم الله منه صدق قوله فقبله في صفوف المحسنين..

١٣. ولكن السياق القرآني لا يقف عند هذا الحد في تحديد ملامح هذا الفريق المقصود من الناس الذين تجدهم أقرب مودة للذين آمنوا، بل إنه ليمضي فيميزه من الفريق الآخر من الذين قالوا: إنا نصارى، ممن يسمعون هذا الحق فيكفرون به ويكذبون، ولا يستجيبون له، ولا ينضمون إلى صفوف الشاهدين:

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾، والمقصود قطعا بالذين كفروا وكذبوا في هذا الموضع هم الذين يسمعون ـ من الذين قالوا إنا نصارى ـ ثم لا يستجيبون.. والقرآن يسميهم الكافرين كلما كانوا في مثل هذا الموقف، سواء في ذلك اليهود والنصارى؛ ويضمهم إلى موكب الكفار مع المشركين سواء؛ ما داموا في موقف التكذيب لما أنزل الله على رسوله من الحق؛ وفي موقف الامتناع عن الدخول في الإسلام الذي لا يقبل الله من الناس دينا سواه.. نجد هذا في مثل قول الله سبحانه: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾، ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ﴾، ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾، ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾، ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾

١٤. فهو تعبير مألوف في القرآن، وحكم معهود.. وهو يأتي هنا للتفرقة بين فريقين من الذين قالوا: إنا نصارى؛ وللتفرقة بين موقف كل فريق منهما تجاه الذين آمنوا؛ وللتفرقة كذلك بين مصير هؤلاء وأولئك عند الله.. هؤلاء لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك جزاء المحسنين، وأولئك أصحاب الجحيم.

١٥. وليس كل من قالوا: إنهم نصارى إذن داخلين في ذلك الحكم: ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾، كما يحاول أن يقول من يقتطعون آيات القرآن دون تمامها.. إنما هذا الحكم مقصور على حالة معينة لم يدع السياق القرآني أمرها غامضا، ولا ملامحها مجهلة، ولا موقفها متلبسا بموقف سواها في كثير ولا قليل.. ولقد وردت روايات لها قيمتها في تحديد من هم النصارى المعنيون بهذا النص[1].. وقال قتادة: (نزلت في ناس من أهل الكتاب كانوا على شريعة من الحق مما جاء به عيسى، فلما بعث الله محمدا ﷺ آمنوا به فأثنى الله عليهم)

١٦. وهذا الذي نقرره في معنى هذا النص؛ والذي يدل عليه السياق بذاته، وتؤيده هذه الروايات التي أسلفنا، هو الذي يتفق مع بقية التقريرات في هذه السورة وفي غيرها عن موقف أهل الكتاب عامة ـ

---

(١) ذكر ما ورد في سبب النزول الذي سبق ذكره.

اليهود والنصارى ـ من هذا الدين وأهله، كما أنه هو الذي يتفق مع الواقع التاريخي الذي عرفته الأمة المسلمة خلال أربعة عشر قرنا.

١٧. إن السورة وحدة في اتجاهها وظلالها وجوها وأهدافها؛ وكلام الله سبحانه لا يناقض بعضه بعضا، ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾، وقد وردت في هذه السورة نفسها نصوص وتقريرات، تحدد معنى هذا النص الذي نواجهه هنا وتجلوه.. نذكر منها: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾، ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾، كذلك جاء في سورة البقرة: ﴿وَلَنْ تَرْضى عَنْكَ الْيَهُودُ ولَا النَّصارى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللهِ هُوَالْهُدى ولَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْواءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ ما لَكَ مِنَ اللهِ مِنْ وَلِيٍّ ولا نَصِيرٍ﴾

١٨. كذلك صدّق الواقع التاريخي ما حذر الله الأمة المسلمة إياه؛ من اليهود ومن النصارى سواء، وإذا كان الواقع التاريخي قد حفظ لليهود وقفتهم النكدة للإسلام منذ اليوم الأول الذي دخل فيه الإسلام عليهم المدينة؛ في صورة كيد لم ينته ولم يكف حتى اللحظة الحاضرة؛ وإذا كان اليهود لا يزالون يقودون الحملة ضد الإسلام في كل أرجاء الأرض اليوم في حقد خبيث وكيد لئيم.. فإن هذا الواقع قد حفظ كذلك للنصارى الصليبيين أنهم اتخذوا من الإسلام موقف العداء منذ واقعة اليرموك بين جيش المسلمين وجيوش الروم ـ فيما عدا الحالات التي وقع فيها ما تصفه الآيات التي نحن بصددها فاستجابت قلوب للإسلام ودخلت فيه، وفيما عدا حالات أخرى آثرت فيها طوائف من النصارى أن تحتمي بعدل الإسلام من ظلم طوائف أخرى من النصارى كذلك؛ يلاقون من ظلمها الوبال!

١٩. أما التيار العام الذي يمثل موقف النصارى جملة فهو تلك الحروب الصليبية التي لم يخب أوارها قط ـ إلا في الظاهر ـ منذ التقى الإسلام والرومان على ضفاف اليرموك! لقد تجلت أحقاد الصليبية على الإسلام وأهله في الحروب الصليبية المشهورة طوال قرنين من الزمان، كما تجلت في حروب الإبادة التي شنتها الصليبية على الإسلام والمسلمين في الأندلس، ثم في حملات الاستعمار والتبشير على الممالك الإسلامية في إفريقية أولا، ثم في العالم كله أخيرا..

٢٠. ولقد ظلت الصهيونية العالمية والصليبية العالمية حليفتين في حرب الإسلام ـ على كل ما بينهما من أحقاد ـ ولكنهم كانوا في حربهم للإسلام كما قال عنهم العليم الخبير: ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ حتى مزقوا دولة الخلافة الأخيرة، ثم مضوا في طريقهم ينقضون هذا الدين عروة عروة، وبعد أن أجهزوا على عروة (الحكم) ها هم أولاء يحاولون الإجهاز على عروة (الصلاة)! ثم ها هم أولاء يعيدون موقف اليهود القديم مع المسلمين والوثنيين، فيؤيدون الوثنية حيثما وجدت ضد الإسلام، عن طريق المساعدات المباشرة تارة، وعن طريق المؤسسات الدولية التي يشرفون عليها تارة أخرى! وليس الصراع بين الهند وباكستان على كشمير وموقف الصليبية منها ببعيد.

٢١. وذلك فوق إقامة واحتضان وكفالة الأوضاع التي تتولى سحق حركات الإحياء والبعث الإسلامية في كل مكان على وجه الأرض، وإلباس القائمين بهذه الأوضاع أثواب البطولة الزائفة ودق الطبول من حولهم، ليستطيعوا الإجهاز على الإسلام، في زحمة الضجيج العالمي حول الأقزام الذين يلبسون أردية الأبطال! هذا موجز سريع لما سجله الواقع التاريخي طوال أربعة عشر قرنا؛ من مواقف اليهودية والصليبية تجاه الإسلام؛ لا فرق بين هذه وتلك؛ ولا افتراق بين هذا المعسكر وذاك في الكيد للإسلام، والحقد عليه، والحرب الدائبة التي لا تفتر على امتداد الزمان.

٢٢. وهذا ما ينبغي أن يعيه الواعون اليوم وغدا؛ فلا ينساقوا وراء حركات التمييع الخادعة أو المخدوعة؛ التي تنظر إلى أوائل مثل هذا النص القرآني ـ دون متابعة لبقيته؛ ودون متابعة لسياق السورة كله، ودون متابعة لتقريرات القرآن عامة، ودون متابعة للواقع التاريخي الذي يصدق هذا كله ـ ثم تتخذ من ذلك وسيلة لتخدير مشاعر المسلمين تجاه المعسكرات التي تضمر لهم الحقد وتبيت لهم الكيد؛ الأمر الذي تبذل فيه هذه المعسكرات جهدها، وهي بصدد الضربة الأخيرة الموجهة إلى جذور العقيدة.

٢٣. إن هذه المعسكرات لا تخشى شيئا أكثر مما تخشى الوعي في قلوب العصبة المؤمنة ـ مهما قل عددها وعدتها ـ فالذين ينيمون هذا الوعي هم أعدى أعداء هذه العقيدة، وقد يكون بعضهم من الفرائس المخدوعة؛ ولكن ضررهم لا يقل ـ حينئذ ـ عن ضرر أعدى الأعداء، بل إنه ليكون أشد أذى وضرا.. إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم؛ وهو لا يناقض بعضه بعضا، فلنقرأه إذن على بصيرة.

الخطيب:

ذكر عبد الكريم الخطيب (ت ١٣٩٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. الخطاب في قوله تعالى: ﴿لَتَجِدَنَّ﴾ موجّه إلى النبيّ ﷺ، ثم هو خطاب من بعده لكل من هو أهل لأن يخاطب، من المؤمنين، وغير المؤمنين، فاليهود والنصارى، هم فيمن دخل في هذا الخطاب.

٢. ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمنوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ كشف لهذا الموقف العدائى، الذي يقفه اليهود من الدعوة الإسلامية وأهلها.. فهم.. كما يقول الله تعالى: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمنوا الْيَهُودَ﴾ ثم يأتي من بعدهم في العداوة للمؤمنين، الذين أشركوا.. وهذا وضع مقلوب بالنسبة لليهود، إذ كانوا ـ وهم أهل كتاب ـ أولى الناس بأن يناصروا أهل الكتاب ويوادّوهم، لا أن يكونوا في الجبهة الأولى من الجبهات المعادية للمؤمنين، إذ يتقدمون في هذا الموقف اللئيم أهل الكفر والشرك، فيكونون قادة الحملة الموجهة لحرب الله والمؤمنين بالله!

٣. في قوله تعالى: ﴿لَتَجِدَنَّ﴾ إشارة إلى أن هذا الحكم الذي فضح الله به اليهود، ليس حكما معلّقا على أي شرط، بحيث يقع إذا وقع هذا الشرط، أو هو حكم خفيّ لا تظهر آثاره للعيان.. وإنما هو حكم مطلق، واقع دائما، ظاهر لا خفاء فيه، ولهذا جاء التعبير عنه بلفظ ﴿تَجِدُ﴾ بمعنى ترى، وتبصر، وتتحقق، ثم جاء هذا اللفظ مؤكدا بالقسم، وبنون التوكيد ﴿لَتَجِدَنَّ﴾.. فهو أمر واقع، مؤكد الوقوع، لا احتمال فيه لشك أو ريب.

٤. هذه هي وجهة اليهود في الحياة، وهذا هو حكم الله عليهم.. فماذا يرى الراءون منهم؟ وما مدى انطباق هذا الحكم عليهم؟

أ. إن مسيرتهم في الحياة تشهد شهادة ناطقة بأنهم حرب على الأديان وعلى المؤمنين.. بل هم حرب على الإنسانية كلّها، قبل أن يكونوا حربا على الأديان التي يدين بها الناس، ولكن لّما كان الدّين هو ملاك أمر المجتمعات الإنسانية، ومنطلق حياتها الرّوحية والاجتماعية ـ كان الميدان الذي يعمل فيه اليهود، لإفساد المجتمعات، وإصابتها في مقاتلها، هو ميدان الدين، فإذا تحلّل الناس من الدّين، وتقطعت بينهم وبينه الأسباب، تحوّلوا إلى حيوانات ضارية، يقتل بعضها بعضها، بلا حساب من عقل أو ضمير.. وهذا

(١) التفسير القرآني للقرآن: ٤/٤.

ما يفعله اليهود في كل مجتمع يعيشون فيه:

ب. لقد دخلت الدعوة المسيحية أوربّا، فأحيت كثيرا من معالم الإنسانية التي كانت قد افتقدتها زمنا طويلا، ولكن ما إن كادت هذه الصحوة الإنسانية تسفر عن وجهها، حتى تصدّى لها اليهود، فدخل كثير منهم في المسيحية كذبا، واجتهد كثير منهم في الدعوة، زورا وبهتانا، حتى إذا بلغ مكانة بين المسيحيين، لعب بالدين، ومسخ تعاليمه، وجاء إلى الناس بالمفتريات والأباطيل، حتى كانت تلك الحروب التي اشتعلت في أوربا بين العلم والدين، وإذا العلم في مواجهته للدّين يجد الطريق مهيأة له، للنّيل منه، بل والقضاء عليه، فأجلاه عن موطنه من القلوب التي كانت تجد فيها احتفظت به من دين، شيئا تمسك به، وتحرص عليه! ومن هنا كان هذا الإلحاد الذي طغى على المجتمع الغربي كله في أوربا وأمريكا.. وإذا الحياة هناك حياة ماديّة طاغية، تعصف بالناس عصفا، وتسوقهم سوقا عنيفا إلى هذا الصراع المرير، الذي أشعل نار الحرب، فشملت العالم كلّه، ودارت دورتها مرتين في أقل من ربع قرن من مطلع هذا القرن الذي نعيش فيه ـ القرن العشرين الميلادى ـ دون أن يكون هناك وازع من الدّين يحمى الناس من هذا الضّياع المستولى عليهم، ودون أن يكون لدعوة المسيح عليه السلام أي أثر في إقامة الناس على الأمن والسلام اللذين جاء مبشرا بهما.

ج. واليهود، هم تجار هذه الحروب الدائرة في كل صقع من هذا العالم، يجنون منها مكاسبها، ويجمعون من مخلّفات رمادها الشيء الكثير! فهم ـ أولا ـ يشبعون نقمتهم من الإنسانية، بهذه الأنهار المتدفقة من الدماء المراقة من الناس، على اختلاف أجناسهم وأديانهم! وهم ـ ثانيا ـ يقطعون علائق المودة والإخاء بين الناس، بهذه الحروب التي لا تنقطع أبدا، وهم ـ ثالثا ـ يشترون الذّمم والضمائر، التي تروج سوقها أعظم رواج، في هذه الأجواء العاصفة، التي تشتمل على الناس، وتستولى على عقولهم وقلوبهم.. فلا ثمن لضمير ـ حيث لا ضمير ـ ولا حساب لشرف، حيث الموت راصد يخطف النفوس! ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمنوا الْيَهُودَ﴾.. ففتش وراء كلّ شر يهبّ على المجتمعات الإنسانية من أي أفق، تجد أن مطلعه اليهود.. قديما وحديثا.. اليوم، وما بعد اليوم..

٥. ونكاد نقف عند قوله تعالى: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمنوا الْيَهُودَ﴾.. أما ﴿الَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ فهم من صنع اليهود، إذ هم الذين أفسدوا على كثير من المؤمنين دينهم، وساقوهم إلى الشرك،

كما أنهم ـ وقد سبقوا إلى الإيمان بالله، بما أرسل الله إليهم من رسل، وما أنزل عليهم من كتب ـ لم يفتحوا للمشركين طريقا إلى الإيمان بالله، ولم يدعوهم إليه، بل ضنّوا بما في أيديهم، وحجبوه عن كل عين.. بل وأكثر من هذا، فإنهم زيّنوا الشرك للمشركين، ويسّروا لهم سبله، بما أذاعوا في المجتمعات الإنسانية من مفاسد وشرور.

٦. ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمنوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى﴾ هو وجه مشرق من وجوه الدّين وما يفعله في المتدينين، يقابل هذا الوجه الكريه الذي بدا من بعض أصحاب الدين، وهم اليهود.. ففي دعوة المسيح التي يدين بها النصارى دعوة كريمة إلى التواضع، والتسامح، والإخاء.. مع الإنسانية كلها، بل والتآلف مع الوجود كلّه، ناطقه وصامته! وإذا كانت المسيحية اليوم قد تغيّر وجهها عند المتدينين بها، فذلك من جناية اليهود عليها، وعلى المتدينين بها.

٧. والنصرانىّ المتمسك بنصرانيته، الموالي لعقيدته، هو إنسان وديع رقيق، يتأسّى بالسيد المسيح في وداعته، ورقته، ورحمته، وإنسانيته، وأيّ نصراني يستمع إلى قولة المسيح: (أحبّوا أعداءكم، باركوا لاعنيكم، أحسنوا إلى مبغضيكم، وصلّوا لأجل الذين يسيئون إليكم ويطردونكم) ـ أي نصراني يستمع إلى تلك القولة الكريمة، ثم لا يمسّ قلبه شعاعة من نورها الألق، أو قبسة من نفحاتها المباركة؟ ولكن اليهود أدخلوا على المسيحية ما غيّر وجهها، وأفسد طبيعتها.. وحسبنا أن نذكر هنا (بولس الرسول) وما كان له ـ هو اليهودي ـ من شأن في هذا المقام!

٨. ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا﴾ إشارة إلى أن علماء النصارى، وأصحاب الرئاسة والتوجيه الديني فيهم، هم جماعة يمثلون الوجه المشرق للمسيحية، في وداعتهم، ولطفهم، وحبهم للإنسانية.. على حين يقابل هذا: الربانيون والأحبار، الذين هم قادة اليهود وأصحاب الرئاسة الدينية عندهم، والذين هم العقل المفكر واليد العاملة للمجتمع اليهودي، وما يرمى به الناس من شر وبلاء بأيديهم!.. فالقسيسون والرهبان.. رأس سليم، معافى من الأمراض الخبيثة.. يقوم على جسد المسيحية، ويعمل على حمايته من الآفات، التي يرمى بها اليهود في كيانه.. والربانيون والأحبار.. رأس فاسد، تدور فيه عواصف الشر والبغي.. يقوم على جسد اليهود، فيغذى بذور الشر والبغي الكامنة فيه! وشتان بين رأس ورأس، وجسد وجسد!

٩. ﴿وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ إشارة أخرى إلى ما بين رؤساء المسيحيين ورؤساء اليهود، وبين المسيحيين وبين اليهود، من تفاوت بعيد! فهؤلاء ـ أي النصارى ـ لا يستكبرون، ولا يعزلون أنفسهم عن المجتمع الإنساني ولا يرون ما يراه اليهود في أنفسهم من أنهم شعب الله المختار.. ولهذا اختلط المسيحيون بالعالم كله، ودعوا الناس جميعا إلى ما معهم من دين الله.. أما اليهود، فقد عزلهم الكبر والغرور عن أن يختلطوا بالناس، وأن يدعوهم إلى دين الله الذي معهم..

١٠. ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أنزل إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾.. هو شاهد ثالث على الإنسانية المنطلقة التي تنشد الخير، وتطلب الحق، وأنها حين تستمع إلى كلمات الله، تستمع إليها في غير كبر أو استعلاء، فإذا اهتدت إلى طريق الحق، استقامت عليه، ولزمته.. وإن لم تهتد، توقفت وأمسكت في رفق ولطف، ولهذا دخل كثير من أتباع المسيح في الإسلام عن اعتقاد صحيح، وإيمان وثيق: ﴿تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ أي اجعلنا من الذين شهدوا النبي واستمعوا إليه وآمنوا به، وليس كذلك شأن اليهود، قد أعماهم التعصب، وأصمّهم الكبر، عن أن يستمعوا لكلمة حق، أو يستجيبوا لدعوة رسول..!

١١. ﴿وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِالله وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ﴾.. إنه لسان الحال، لكل طالب حق، حين تبدو له أماراته، وتلوح لعينيه دلائله، لا يتردد أبدا في قبوله، والأخذ به، ليرشد وليكون في عباد الله الصالحين..

١٢. ﴿فَأَثَابَهُمُ اللهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ﴾.. هو الجواب المسعد لهذا التساؤل المتعاطف مع الحق، المستجيب له.. فقد تلقاهم الله سبحانه بهذا اللطف الكريم، وملأ أيديهم من هذا الرزق الطيب.. ﴿جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ﴾..

١٣. في قوله تعالى: ﴿بِمَا قَالُوا﴾ إشارة إلى أن قولهم هذا لم يكن مجرد قول، وإنما هو ترجمة عن إيمان صادق، خفق به القلب، واهتزت له المشاعر، وفاضت به العيون، دمعا خاشعا.. لو ظفرت الأرض بقطرة منه لاهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج.

١٤. قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ يطلع على الناس في

الموقف بصورة ذات دلالتين: دلالة يرى منها أولئك الذين كفروا وكذبوا بآيات الله، ما أعد لهم من نكال وعذاب، جزاء كفرهم وتكذيبهم بآيات الله، ورسل الله، وعداوتهم للمؤمنين بالله وبرسل الله.، والوجه البارز في هذه الصورة هم اليهود ومن ورائهم كل كافر، وكل مكذب.. والدلالة الأخرى يراها المؤمنون الذين أضافهم الله في رحابه، وأنزلهم منازل إكرامه، وعافاهم من هذا البلاء، الذي يتقلب فيه الكافرون المكذبون ـ فيضاعف بهذا نعيم المؤمنين، وتردّد ألسنتهم قول الحق جل وعلا: ﴿الْحَمْدُ لله الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾، [فاطر: ٣٥]

ابن عاشور:

ذكر محمد الطاهر بن عاشور (ت ١٣٩٣ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١ . ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ فذلكة لما تقدّم من ذكر ما لاقى به اليهود والنصارى دعوة الإسلام من الإعراض على تفاوت فيه بين الطائفتين؛ فإنّ الله شنّع من أحوال اليهود ما يعرف منه عداوتهم للإسلام إذ قال: ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾ [المائدة: ٦٤]، فكرّرها مرّتين وقال: ﴿تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [المائدة: ٨٠]، وقال: ﴿وَإِذَا جَاءُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكُفْرِ﴾ [المائدة: ٦١] فعلم تلوّنهم في مضارّة المسلمين وأذاهم، وذكر من أحوال النصارى ما شنّع به عقيدتهم ولكنّه لم يحك عنهم ما فيه عداوتهم المسلمين، وقد نهى المسلمين عن اتّخاذ الفريقين أولياء في قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ﴾ [المائدة: ٥١] الآية، فجاء قوله: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً﴾ الآية فذلكة لحاصل ما تكنّه ضمائر الفريقين نحو المسلمين، ولذلك فصلت ولم تعطف، واللام في ﴿لَتَجِدَنَّ﴾ لام القسم يقصد منها التأكيد، وزادته نون التوكيد تأكيدا، والوجدان هنا وجدان قلبي، وهو من أفعال العلم، ولذلك يعدّى إلى مفعولين، وقد تقدّم عند قوله تعالى: ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ﴾ في سورة البقرة [٩٦]، وانتصب ﴿عَدَاوَةً﴾ على تمييز نسبة ﴿أَشَدَّ﴾ إلى النّاس، ومثله انتصاب ﴿مَوَدَّةً﴾

---

(١) التحرير والتنوير: ٥/١٨٤.

٢. وذكر المشركين مع اليهود لمناسبة اجتماع الفريقين على عداوة المسلمين، فقد ألّف بين اليهود والمشركين بغض الإسلام؛ فاليهود للحسد على مجيء النبوءة من غيرهم، والمشركون للحسد على أن سبقهم المسلمون بالاهتداء إلى الدين الحقّ ونبذ الباطل.

٣. وقوله: ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً﴾ أي أقرب النّاس مودّة للذين آمنوا، أي أقرب الناس من أهل الملل المخالفة للإسلام، وهذان طرفان في معاملة المسلمين، وبين الطرفين فرق متفاوتة في بغض المسلمين، مثل المجوس والصابئة وعبدة الأوثان والمعطّلة.

٤. والمراد بالنصارى هنا الباقون على دين النصرانية لا محالة، لقوله: ﴿أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾، فأمّا من آمن من النصارى فقد صار من المسلمين، وقد تقدّم الكلام على نظير قوله: ﴿الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ﴾ [المائدة: ١٤]، المقصود منه إقامة الحجّة عليهم بأنّهم التزموا أن يكونوا أنصار الله ﴿قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللهِ﴾ [الصف: ١٤]، كما تقدّم في تفسير نظيره، فالمقصود هنا تذكيرهم بمضمون هذا اللقب ليزدادوا من مودّة المسلمين فيتّبعوا دين الإسلام.

٥. وقوله: ﴿ذَلِكَ﴾ الإشارة إلى الكلام المتقدّم، وهو أنّهم أقرب مودة للذين آمنوا، والباء في قوله: ﴿بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ﴾ باء السببية، وهي تفيد معنى لام التعليل، والضمير في قوله: ﴿مِنْهُمْ﴾ راجع إلى النصارى.

٦. والقسّيسون جمع سلامة لقسّيس بوزن سجّين، ويقال قسّ ـ بفتح القاف وتشديد السين ـ وهو عالم دين النصرانية، وقال قطرب: هي بلغة الروم، وهذا ممّا وقع فيه الوفاق بين اللغتين.

٧. والرهبان هنا جمع راهب، مثل ركبان جمع راكب، وفرسان جمع فارس، وهو غير مقيس في وصف على فاعل، والراهب من النصارى المنقطع في دير أو صومعة للعبادة، وقال الراغب: الرهبان يكون واحدا وجمعا، فمن جعله واحدا جمعه على رهابين ورهابنة، وهذا مروي عن الفرّاء، ولم يحك الزمخشري في الأساس أنّ رهبان يكون مفردا، وإطلاقه على الواحد في بيت أنشده ابن الأعرابي:

لو أبصرت رهبان دير بالجبل لانحدر الرّهبان يسعى ويزل

٨. وإنّما كان وجود القسّيسين والرهبان بينهم سببا في اقتراب مودّتهم من المؤمنين لما هو معروف

بين العرب من حسن أخلاق القسّيسين والرهبان وتواضعهم وتسامحهم، وكانوا منتشرين في جهات كثيرة من بلاد العرب يعمّرون الأديرة والصوامع والبيع، وأكثرهم من عرب الشام الذين بلغتهم دعوة النصرانية على طريق الروم، فقد عرفهم العرب بالزهد ومسالمة الناس وكثر ذلك في كلام شعرائهم، قال النابغة:

لو أنّها برزت لأشمط راهب　　　عبد الإله صرورة متعبّد

لرنا لطلعتها وحسن حديثها　　　ولخاله رشدا وإن لم يرشد

فوجود هؤلاء فيهم وكونهم رؤساء دينهم ممّا يكون سببا في صلاح أخلاق أهل ملّتهم.

٩. والاستكبار: السين والتاء فيه للمبالغة، وهو يطلق على التكبّر والتعاظم، ويطلق على المكابرة وكراهية الحقّ، وهما متلازمان، فالمراد من قوله: ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ أنّهم متواضعون منصفون، وضمير ﴿وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ يجوز أن يعود إلى ما عاد إليه ضمير ﴿بِأَنَّ مِنْهُمْ﴾، أي وأنّ الذين قالوا إنّا نصارى لا يستكبرون، فيكون قد أثبت التواضع لجميع أهل ملّة النصرانية في ذلك العصر، وقد كان نصارى العرب متحلّين بمكارم من الأخلاق، قال النابغة يمدح آل النعمان الغساني وكانوا متنصّرين:

مجلّتهم ذات الإله ودينهم　　　قويم فما يرجون غير العواقب

ولا يحسبون الخير لا شرّ بعده　　　ولا يحسبون الشرّ ضربة لازب

١٠. وظاهر قوله: ﴿الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى﴾ أنّ هذا الخلق وصف للنصارى كلّهم من حيث إنّهم نصارى فيتعيّن أن يحمل الموصول على العموم العرفي، وهم نصارى العرب، فإنّ اتّباعهم النصرانية على ضعفهم فيها ضمّ إلى مكارم أخلاقهم العربية مكارم أخلاق دينية، كما كان عليه زهير ولبيد وورقة بن نوفل وأضرابهم.

١١. وضمير ﴿وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ عائد إلى ﴿قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا﴾ لأنّه أقرب في الذكر، وهذا تشعر به إعادة قوله: ﴿وَأَنَّهُمْ﴾، ليكون إيماء إلى تغيير الأسلوب في معاد الضمير، وتكون ضمائر الجمع من قوله: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا﴾ ـ إلى قوله ـ ﴿فَأَثَابَهُمُ اللهُ﴾ [المائدة: ٨٣ ـ ٨٥] تابعة لضمير ﴿وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾

١٢. وقرينة صرف الضمائر المتشابهة إلى معادين هي سياق الكلام، ومثله وارد في الضمائر كقوله تعالى: ﴿وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا﴾ [الروم: ٩]، فضمير الرفع في ﴿عَمَرُوهَا﴾ الأول عائد إلى غير ضمير الرفع في ﴿عَمَرُوهَا﴾ الثاني، وكقول عبّاس بن مرداس:

عدنا ولولا نحن أحدق جمعهم   بالمسلمين وأحرزوا ما جمّعوا

يريد بضمير (أحرزوا) جماعة المشركين، وبضمير (جمّعوا) جماعة المسلمين.

١٣. ويعضّد هذا ما ذكره الطبري والواحدي وكثير من المفسّرين عن ابن عبّاس ومجاهد وغيرهما: أنّ المعنيّ في هذه الآية ثمانية من نصارى الشام كانوا في بلاد الحبشة وأتوا المدينة مع اثنين وستّين راهبا من الحبشة مصاحبين للمسلمين الذين رجعوا من هجرتهم بالحبشة وسمعوا القرآن وأسلموا، وهم: بحيرا الراهب، وإدريس، وأشرف، وأبرهة، وثمامة، وقثم، ودريد، وأيمن، أي ممّن يحسنون العربية ليتمكّنوا من فهم القرآن عند سماعه، وهذا الوفد ورد إلى المدينة مع الذين عادوا من مهاجرة الحبشة، سنة سبع فكانت الإشارة إليهم في هذه الآية تذكيرا بفضلهم، وهي من آخر ما نزل ولم يعرف قوم معيّنون من النصارى أسلموا في زمن الرسول ﷺ، ولعلّ الله أعلم رسوله بفريق من النصارى آمنوا بمحمّد ﷺ في قلوبهم ولم يتمكّنوا من لقائه ولا من إظهار إيمانهم ولم يبلغهم من الشريعة إلّا شيء قليل تمسّكوا به ولم يعلموا اشتراط إظهار الإيمان المسمّى بالإسلام، وهؤلاء يشبه حالهم حال من لم تبلغه الدعوة، لأنّ بلوغ الدعوة متفاوت المراتب، ولعلّ هؤلاء كان منهم من هو بأرض الحبشة أو باليمن، ولا شكّ أنّ النجاشي (أصحمة) منهم، وقد كان بهذه الحالة أخبر عنه بذلك النّبي ﷺ، والمقصود أنّ الأمّة التي فيها أمثال هؤلاء تكون قريبة من مودّة المسلمين.

١٤. والرسول هو محمّد ﷺ كما هو غالب عليه في إطلاقه في القرآن، وما أنزل إليه هو القرآن، والخطاب في قوله: ﴿تَرَى أَعْيُنَهُمْ﴾ للنبي ﷺ، إن كان قد رأى منهم من هذه صفته، أو هو خطاب لكلّ من يصحّ أن يرى، فهو خطاب لغير معيّن ليعمّ كلّ من يخاطب.

١٥. وقوله: ﴿تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ﴾ معناه يفيض منها الدمع لأنّ حقيقة الفيض أن يسند إلى المائع المتجاوز حاويه فيسيل خارجا عنه، يقال: فاض الماء، إذا تجاوز ظرفه، وفاض الدمع إذا تجاوز ما يغرورق بالعين، وقد يسند الفيض إلى الظرف على طريقة المجاز العقلي، فيقال: فاض الوادي، أي فاض ماؤه، كما يقال: جرى الوادي، أي جرى ماؤه، وفي الحديث: (ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه)، وقد يقرنون هذا الإسناد بتمييز يكون قرينة للإسناد المجازي فيقولون: فاضت عينه دمعا، بتحويل الإسناد المسمّى تمييز النسبة، أي قرينة النسبة المجازية، فأمّا ما في هذه الآية فإجراؤه على قول نحاة البصرة يمنع أن يكون (من)

الداخلة على الدمع هي البيانية التي يجرّ بها اسم التمييز، لأنّ ذلك عندهم ممتنع في تمييز النسبة، فتكون الآية منسوجة على منوال القلب للمبالغة، قلب قول الناس المتعارف: فاض الدمع من عين فلان، فقيل: ﴿أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ﴾، فحرف (من) حرف ابتداء، وإذا أجري على قول نحاة الكوفة كانت (من) بيانية جارّة لاسم التمييز، وتعريف الدمع تعريف الجنس، مثل: طبت النّفس.

١٦. و(من) في قوله: ﴿مِمَّا عَرَفُوا﴾ تعليلية، أي سبب فيضها ما عرفوا عند سماع القرآن من أنّه الحقّ الموعود به، فمن قائمة مقام المفعول لأجله كما في قوله: ﴿تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا﴾ [التوبة: ٩٢]، أي ففاضت أعينهم من انفعال البهجة بأن حضروا مشهد تصديق عيسى فيما بشّر به، وأن حضروا الرسول الموعود به ففازوا بالفضيلتين، و(من) في قوله: ﴿مِنَ الْحَقِّ﴾ بيانية، أي ممّا عرفوا، وهو الحقّ الخاصّ، أو تبعيضية، أي ممّا عرفوه وهو النبي الموعود به الذي خبره من جملة الحقّ الذي جاء به عيسى والنبيئون من قبله.

١٧. وجملة ﴿يَقُولُونَ﴾ حال، أي تفيض أعينهم في حال قولهم هذا، وهذا القول يجوز أن يكون علنا، ويجوز أن يكون في خويصتهم، والمراد بالشاهدين الذين شهدوا بعثة الرسل وصدّقوهم، وهذه فضيلة عظيمة لم تحصل إلّا في أزمان ابتداء دعوة الرسل ولا تحصل بعد هذه المرّة، وتلك الفضيلة أنّها المبادرة بتصديق الرسل عند بعثتهم حين يكذبهم الناس بادئ الأمر، كما قال ورقة: يا ليتني أكون جذعا إذ يخرجك قومك، أي تكذيبا منهم، أو أرادوا فاكتبنا مع الشاهدين الذين أنبأهم عيسى عليه السلام ببعثة الرسول الذي يجيء بعده، فيكونوا شهادة على مجيئه وشهادة بصدق عيسى، ففي إنجيل متّى عدد ٢٤ من قول عيسى (ويقوم أنبياء كذبة كثيرون ويضلّون كثيرين ولكن الذي يصبر إلى المنتهى فهذا يخلص ويفوز ببشارة الملكوت هذه شهادة لجميع الأمم)، وفي إنجيل يوحنّا عدد ١٥ من قول عيسى (ومتى جاء المعزّى روح الحقّ الذي من عند الأب ينبثق فهو يشهد لي وتشهدون أنتم أيضا لأنّكم معي من الابتداء)، وإنّ لكلمة ﴿الْحَقُّ﴾ وكلمة ﴿الشَّاهِدِينَ﴾ في هذه الآية موقعا لا تغني فيه غيرهما لأنّهما تشيران إلى ما في بشارة عيسى عليه السلام.

١٨. وقوله: ﴿وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ﴾، هو من قولهم، فيحتمل أنّهم يقولونه في أنفسهم عندما يخامرهم التردّد في أمر النزوع عن دينهم القديم إلى الدخول في الإسلام، وذلك التردّد

يعرض للمعتقد عند الهمّ بالرجوع في اعتقاده وهو المسمّى بالنظر؛ ويحتمل أنّهم يقولونه لمن يعارضهم من أهل ملّتهم أو من إخوانهم ويشكّكهم فيما عزموا عليه، ويحتمل أنّهم يقولونه لمن يعيّرهم من اليهود أو غيرهم بأنّهم لم يتصلّبوا في دينهم، فقد قيل: إنّ اليهود عيّروا النفر الذين أسلموا، إذا صحّ خبر إسلامهم، وتقدّم القول في تركيب (ما لنا لا نفعل) عند قوله تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ﴾ في سورة النساء [٧٥]

١٩. وجملة ﴿وَنَطْمَعُ﴾ يجوز أن تكون معطوفة على جملة ﴿ما لَنا لا نُؤْمِنُ﴾، ويحتمل أن تكون الواو للحال، أي كيف نترك الإيمان بالحقّ وقد كنّا من قبل طامعين أن يجعلنا ربّنا مع القوم الصالحين مثل الحواريّين، فكيف نفلت ما عنّ لنا من وسائل الحصول على هذه المنقبة الجليلة، ولا يصحّ جعلها معطوفة على جملة ﴿نُؤْمِنَ﴾ لئلا تكون معمولة للنفي، إذ ليس المعنى على ما لنا لا نطمع، لأنّ الطمع في الخير لا يتردّد فيه ولا يلام عليه حتّى يحتاج صاحبه إلى الاحتجاج لنفسه بـ (ما لنا لا نفعل)

٢٠. ﴿فَأَثَابَهُمُ اللهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ﴾ تفريع على قوله: ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا﴾ [المائدة: ٨٣] إلى آخر الآية، ومعنى (أثابهم) أعطاهم الثواب، وقد تقدّم القول فيه عند تفسير قوله تعالى: ﴿لَمَثُوبَةٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ خَيْرٌ﴾ في سورة البقرة [١٠٣]

٢١. والباء في قوله: ﴿بِمَا قَالُوا﴾ للسببية، والمراد بالقول قول الصادق وهو المطابق للواقع، فهو القول المطابق لاعتقاد القلب، وما قالوه هو ما حكي بقوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ [المائدة: ٨٣] الآية، وأثاب يتعدّى إلى مفعولين على طريقة باب أعطى، ف ﴿جَنَّاتُ﴾ مفعوله الثاني، وهو المعطى لهم، والإشارة في قوله: ﴿وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ﴾ إلى الثواب المأخوذ من ﴿فَأَثَابَهُمُ﴾ ولك أن تجعل الإشارة إلى المذكور وهو الجنّات وما بها من الأنهار وخلودهم فيها، وقد تقدّم نظير ذلك عند قوله تعالى في سورة البقرة [٦٨] ﴿عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ﴾

٢٢. ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ هذا تتميم واحتراس، أي والذين كفروا من النصارى وكذّبوا بالقرآن هم بضدّ الذين أثابهم الله جنّات تجري من تحتها الأنهار.

٢٣. وأصحاب الجحيم ملازموه، والجحيم جهنّم، وأصل الجحيم النار العظيمة تجعل في حفرة ليدوم لهيبها، يقال: نار جحمة، أي شديدة اللهب، قال بعض الطائيين من الجاهلية من شعراء الحماسة:

نحن حبسنا بني جديلة في		نار من الحرب جحمة الضرم

أبو زهرة:

ذكر محمد أبو زهرة (ت ١٣٩٤ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي(١):

١. كان ما تقدم من آيات من قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ [المائدة]، في شأن المؤمنين في معاملتهم لأهل الكتاب، وقد ذكر أحوالهم مع المؤمنين، وخص اليهود بالذكر؛ لأن عداوتهم لأهل الإيمان كانت مستحكمة، وإيذاءهم للمؤمنين كان مستمرا، ولقد كان القرآن الكريم منصفا للحقيقة كشأنه دائما ـ عندما فرق بين النصارى من جانب واليهود والمشركين من جانب، ولذلك قال سبحانه: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً﴾

٢. في هذا النص الكريم يؤكد سبحانه وتعالى بالقسم وبنون التوكيد ـ أن أشد الناس عداوة للمؤمنين اليهود والذين أشركوا، والخطاب للنبي ﷺ وإذا كان الخطاب له ـ ﷺ: فإن كلمة: ﴿لَتَجِدَنَّ﴾، فيها معنى توكيد العداوة، لأن النبي ﷺ يجدها محسوسة واضح في المعاملات التي تقع بينه وبين اليهود، وبينه وبين المشركين، وما كان من النصارى معه، ويكون من شدة العداوة، وقرب المودة هو ما كان من معاصري النبي ﷺ من اليهود والذين أشركوا، والذين قالوا إنا نصارى، ويصح أن يكون الخطاب لكل أهل القرآن الذين يقرءونه ويخاطبون بأحكامه وآياته، من الذين آمنوا.

٣. ذكر الله تعالى اليهود قبل الذين أشركوا؛ لأن عداوة اليهود منشؤها الحقد والحسد اللذان قد يرسخان في النفس اليهودية، وهما دائما فيها ما دام اليهود على هذه الحال التي أركسوا أنفسهم فيها، وقد عبر عنهم بالوصف، ولم يقل الذين هادوا للإشارة إلى أن العداوة حال دائمة مستمرة مستحكمة، حتى أن النبي ﷺ يقول: (ما خلا يهودي بمسلم إلا هم بقتله) ومع أن اليهود أقرب في الاعتقاد من النصارى؛ تجد النصارى في الماضي كانوا أقرب، والقرب في الاعتقاد سببه الشائع بينهم هو الوحدانية، أما النصارى فإن الشائع بينهم هو التثليث ولكن العداوة لا تتبع القرب أو البعد في الاعتقاد، بل تتبع مقدار الحسد والبغض،

---

(١) زهرة التفاسير: ٥/٢٣٢٤.

وفوق ذلك، فإنه من المقررات في علم الآراء والمعتقدات أنه كلما تقاربت العقيدتان تنازعتا، وكان التناحر أشد، لطمع كل طائفة في أن تأخذ الأخرى إليها.

٤. وقد عبر سبحانه عن المشركين بـ ﴿الَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾؛ للإشارة إلى أن الشرك قريب الزوال منهم، وهو السبب، أما اليهود فالسبب هو الحقد وليس قريب الزوال، إذ استكنّ في قلوبهم أن كل مخالف لهم في دينهم عدو لهم يحقدون عليه، ولأنهم كانوا يريدون أن تكون النبوة دائما فيهم لا تخرج عنهم.

٥. العداوة مقابلة بالمودة، فالأمر ليس خلافا في الاعتقاد، بل هو المودة أو العداوة فليس لقرب الاعتقاد أو بعده أثر في العداوة، وعلى هذا كان اليهود أشد عداوة من النصارى، والنص يومئ إلى أنهم أكثر عداوة من الذين أشركوا بتقديم اليهود، لأن المودة لم تقطع من كل الوجوه بين النبي ﷺ والمشركين من قريش، بل إن ما كان يفرقه الاعتقاد يقابله مودة الرحم، وإن كانت حروب.

٦. سؤال وإشكال: لماذا عبر عن النصارى بقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى﴾، والجواب: أجاب عن ذلك بعض المفسرين بأنه تشريف للنصارى، لأن عيسى عليه السلام عندما قال: ﴿مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ﴾ [الصف]، فقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى﴾، تذكير بهذا الموقف الكريم في مقابل قول اليهود عندما دعاهم موسى إلى دخول الأرض المقدسة فقد قالوا: ﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ [المائدة]، هذا كلام بعض المفسرين ولكن يلاحظ أن الذين قالوا نحن أنصار الله هم الحواريون، والذين كانت بينهم مودة المسلمين ليسوا هم أن أولئك هم الحواريون الذين سلمت عقيدتهم، أما الذين يتحدث عنهم فهم كانوا من أهل التثليث ثم تاب الله تعالى عليهم، ولقد ذكرهم بهذا العنوان: ﴿الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى﴾، في مقام الذم، فقد قال تعالى: ﴿وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ [المائدة]، ولأجل هذا لا نقول إن التعبير بقالوا إنا النصارى فيه تشريف، إنما هو بيان أن هؤلاء يقولون أنهم نصارى، ولكنهم ليسوا نصارى عيسى عليه السلام وإن كانوا من بعد ذلك قد اهتدوا.

٧. سؤال وإشكال: من هم اليهود الذين هم أشد عداوة، ومن هم النصارى الذين كانوا أقرب مودة؟ والجواب: قال بعض المفسرين: إن المراد منهم الذين عاصروا النبي ﷺ وقد كانوا كذلك حقا، ولكن قال ابن جرير: إن الوصف عام، فاختار أن هذا الكلام ينطبق على كل أقوام كانوا بهذه المثابة، وعندى أن

النصارى ليسوا النصارى في عهد النبي ﷺ فقط، بل كل من ينطبق عليهم وصف المودة في كل عصر، ومن لا ينطبق عليهم، فهم إلى اليهودية أقرب، وإليها أدنى.

٨. ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾، في هذا الكلام بيان السبب، في قرب المودة الذى كان بين المؤمنين والنصارى في عهد النبي ﷺ أن توافرت الأسباب، ولم يكن القسس والرهبان دعاة عداء وبغضاء؛ والقسيس هو عالم النصارى بأحكام دينهم، والمتفحص أحوالهم، والمرشد لهم، وأصله من (قسّ) بمعنى تتبع، فالقسيس لا يترك الإرشاد.

٩. والرهبان جمع راهب كركبان جمع راكب، وتطلق كلمة رهبان على المفرد، كما تطلق على الجمع، وهو الرجل الزاهد المتبتل المنصرف للعبادة في زعمهم، وهو يقوم بعمل القسيس في العبادة، بيد أنه ينفرد عنه بالانصراف الكلى عن الدنيا ويتخصص للعبادة والإرشاد والتوجيه.

١٠. ولا شك أن حال القسيسين والرهبان في عصر النبي ﷺ كانوا كذلك، وكانوا القائدين للاهتداء بهدى الإسلام، فقد أخذوا بالكثيرين من نصارى الجزيرة العربية، واتبعوا الإسلام، واستمعوا إلى دعوة النبي ﷺ، وأن هذا النص ينطبق على كل قسيس يدعو بدعاية الحق، ويكون ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه.

١١. وفى ذلك الكلام تعريض باليهود الذين تركهم أحبارهم وعلماؤهم في غيهم يعمهون، فكانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه، ولم ينههم الربانيون والأحبار عما ارتكبوا من جرائم، وما امتلأت به قلوبهم من غل وحقد.

١٢. وهناك مع ما كان القسيسون والرهبان عليه وصف آخر هو السبب في إيمان الكثيرين منهم في الجزيرة العربية، ثم الشام ومصر من بعد ذلك، وهو أنهم: ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾، وقد جعل ذلك سببا قائما بذاته، وأكد سبحانه وتعالى سببيته بـ (أن) وبالجملة الاسمية، وعبر سبحانه في خبر الجملة الاسمية بالفعل المضارع لتصوير حالهم في عدم الاستكبار، وأن الاستكبار هو داء اليهود الدوى، وهو داء المشركين فاليهود يحسبون أنهم أبناء الله وأحباؤه، وأنهم من صنف فوق الناس، وأن الجميع دونهم، فذهب بهم غلواؤهم إلى الكفر والضلال، وقتل الأنبياء وتكذيبهم، والمشركون ما كفروا بما جاء به النبي ﷺ، إلا أنهم رأوا العبيد والفقراء والضعفاء هم الذين يتبعونه، فذهب بهم اعتزازهم بالباطل ألا يتبعوه، وقالوا مقالة قوم نوح له:

﴿وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ﴾ [هود]، ونصارى الجزيرة العربية ومن شاكلهم جانبوا الكبر، فقربوا من الحق، وقد بين سبحانه حالهم في اتباع الحق.

١٣. ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ﴾ الرسول هو محمد ﷺ، ما أنزل إليه هو القرآن، وأنهم لإيمانهم بالحق، وإخلاص قلوبهم، واطمئنان نفوسهم إلى الحق وقد طلبوه بمجرد أن سمعوا القرآن فتحت نفوسهم له وكأنهم كانوا يطلبونه، وأولئك طائفة من نصارى الشرق منهم من كان يؤمن بأن عيسى رسول الله وأن الإنجيل بشّر بمحمد ﷺ فلما سمعوا القرآن وسمعوا محمدا ﷺ، وعندهم صفاته فاضت الدموع من عيونهم فرحا به، إذ قد استشرفوا له فوجدوه فكان بردا وسلاما، وقد يكون مع المشارقة من النصارى طائفة من المثلثين وهو الظاهر، كانوا يحسون أنهم في ضلال، وظلام متكاثف من الأوهام، فلما رأوا النور تمشوا إليه.

١٤. ومعنى قوله: ﴿تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ﴾ أن الدمع ينزل من عيونهم فائضا عما تمتلئ به بسبب الحق الذى عرفوه، ومقتضى الكلام أنهم كانوا في حيرة حتى وجدوه، وأثلجت نفوسهم به، وقد قال الزمخشري في توجيه الكلام من الناحية البلاغية: (معناه تمتلئ عيونهم من الدمع حتى تفيض؛ لأن الفيض أن يمتلئ الإناء أو غيره، حتى يطلع ما فيه من جوانبه فوضع الفيض الذى هو من الامتلاء موضع الامتلاء، وهو من إقامة المسبب مقام السبب، أو قصدت المبالغة في وصفهم بالبكاء، فجعلت أعينهم كأنها تفيض بأنفسها أي تسيل من الدمع من أجل البكاء)، هذا كلام الزمخشري في التحرير البلاغي لمعنى تفيض أعينهم، وعندى أن الكلام مبالغة في تأثرهم بدعوة النبي ﷺ واستقامة قلوبهم وعقولهم نحو الحق، وسرورهم به، ومن السرور ما يكون مظهره انبثاق الدموع من العين، وقد أكد الكلام بأنه لم يعبر عنه بالإخبار، بل عبر عنه بالرؤية المبصرة التي هي أقوى أسباب العلم الحسى، وصور حالهم في التعبير بالمضارع.

١٥. وقوله تعالى: ﴿مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ﴾، معناه أن سبب البكاء هو ما عرفوه من الحق، وهذا يدل على أمرين:

أ. أولهما: أنه تحقق لديهم ما وجدوه من أوصاف النبي ﷺ.

ب. ثانيهما: أنهم كانوا لنفاذ بصائرهم، وعظم مداركهم يحسون بأنهم كانوا في ضلال، فعرفوا

الطريق، وكانوا في ظلام فاستناروا وكانوا في حيرة فاطمأنوا، وإن هذا ينطبق على كل نصراني طالب للحق، لم يطمس الله على بصيرته.

١٦. وبعد أن بين سبحانه حالهم المرئية ذكر قولهم بعد اهتدائهم فقال تعالت كلماته: ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ حكى الله سبحانه وتعالى قولهم وقد اتجهوا فيه إلى الله تعالى معترفين بربوبيته وحده، وأنه على كل شيء قدير، ومقرين بالإيمان الصادق المنبعث من قلوبهم، وطلبوا من الله تعالى أن يكتبهم من الذين شهدوا بالحق، وشهدوا برسالة النبي ﷺ، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة]، وكما قال تعالى: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ [الحج]

١٧. وهؤلاء الذين آمنوا لا يجدون غرابة في أن يؤمنوا إنما الغرابة في ألا يؤمنوا، ولذلك حكى الله عنهم قولهم: ﴿وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ﴾ [المائدة]، الاستفهام هنا إنكاري فيه معنى التعجب، وهو إنكار للوقوع، فهو بمعنى نفى أن يحدث منهم عدم الإيمان لأن موجب الإيمان قد وجد، وهو الإيمان لله تعالى جل جلاله، والحق الذى جاء إليهم وخوطبوا به، ولا يوجد أي مانع يمنعهم من الإيمان فالسبب قد تحقق ولا مانع، والاستفهام بمعنى النفي وهو داخل على نفى، ونفى النفي إثبات، فمعناه إصرار على الإيمان وقوله تعالى: ﴿لَا نُؤْمِنُ بِاللهِ﴾، حال مما دخل عليه النفي وصاحب الحال هو: (نا)

١٨. والكلام يومئ إلى أنه كان هناك اعتراض، وكان كلامهم للرد على هذا الاعتراض، والتاريخ يثبت أنه كان اعتراض على من آمنوا من هؤلاء النصارى، والمنطق النفسي للجماعات في قديمها وحديثها أن تستنكر من يغير دينه إلى دين الحق الذى ارتآه، وهؤلاء من الذى قال تعالى فيهم: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ﴾ [آل عمران]، وقال فيهم سبحانه: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ﴾ [القصص]، ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي

الْجَاهِلِينَ﴾ [القصص]

١٩. وإن إيمانهم هذا وإذعانهم للحق في وسط إنكارهم لم يجعلهم يجزمون بالجزاء في الآخرة، بل كانوا حقا كصادقى الإيمان يطمعون لا في الجزاء وحده بل يطمعون في أن يكونوا مع أهل الإيمان الذين يجمعهم الصلاح في الأعمال، ولذا قال سبحانه عنهم: ﴿وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ﴾، فهم لقوة إيمانهم يستصغرون ما عملوا، ويطمعون في أن يدخلهم ربهم الذى خلقهم وأنماهم، وكفلهم برحمته وعنايته أن يدخلوا في ضمن الذين اختارهم الله تعالى واصطفاهم، وهم قوم الله وحزبه، وهم الصالحون المصلحون، والمؤمن المخلص يستقل عمله بجوار أنعم الله تعالى عليه، فهو لا يستكثر بتقواه، ولا يمن بعبادته، وليس حالهم كحال الذين يمنون على الله تعالى إذ قال تعالى: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ بَلِ اللهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الحجرات]

٢٠. ولقد كان ما أعده الله تعالى أكثر مما طمعوا، وإذ أعد لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار، ولذا قال تعالى: ﴿فَأَثَابَهُمُ اللهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ﴾، في هذا النص الكريم إجابتهم إلى ما طلبوا، وهو إجابة الله العزيز الكريم، وهو أكبر مما طلبوا، لقد كانوا يطمعون أن يكونوا من القوم الصالحين وأن يكتبوا مع الشاهدين، فأجابهم بالجزاء الأوفى وهو ما أعد الله تعالى لعباده المتقين، كانوا يطمعون ويرجون، فسمى سبحانه ما أعطاهم جزاء وفاقا، وكانوا يطلبون أن يكونوا مع الصالحين، فسماهم الله تعالى محسنين، أي مجيدين متقين مخلصين، فكان الجواب هو جواب الحكيم الكريم الذى يقول تعالت كلماته: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾ [الرحمن]، والثواب الرجوع بالشيء إلى حالته الأولى، وكان ثواب العمل من قبيل الرجوع إلى أصل العمل، أي أن ما ينالهم من جنات النعيم، أي من المقام الذى ينعمون، وإنما عاد إليهم من أعمالهم، وذلك كرم من الله تعالى إذ جعل جزاءهم من العمل ذاته، وهو ذو الفضل العظيم، وذلك هو الجزاء لمن يحسن.

٢١. وجعل سبحانه وتعالى الثواب على القول؛ لأنه يدل على الإخلاص، وعلى الإيمان الصادق، والعمل الطيب، فالجزاء على هذا كله الذى دل عليه القول الطيب.

٢٢. هذا جزاء أولئك الذين آمنوا وصدقوا الله تعالى، أما جزاء الذين كفروا وجحدوا فهو ما ذكر سبحانه وتعالى بقوله: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾، ذكر سبحانه وتعالى جزاء

الذين استمروا على كفرهم في مقابل جزاء الذين آمنوا وطمعوا في رحمة الله تعالى، وأدركوا الحق فأذعنوا له، وكان جزاء الكافرين أنهم صاروا أصحاب الجحيم، أي الملازمين لها الذين لا يفارقونها، والجحيم هي النار المتأججة التي لا تنطفئ، وقد استحق ذلك العقاب بسببين:

أ. أولهما ـ كفرهم وجحودهم بالحقائق الثابتة التي جاءتهم والتي تدركها العقول السليمة، فهم قد استحقوه بكفرهم بها مع أن النفس السليمة تذعن لها من غير تردد، لأنها هي التي تتفق مع العقل والفطرة المستقيمة.

ب. الثاني: أنهم كذبوا بآيات الله تعالى أي الأدلة والمعجزات التي ساقها رب العالمين لتأييد النبي المرسل الذى أرسل إليهم، فهم لم يؤمنوا بهذه المعجزات، ولم يصدقوها، فكانوا حائرين بائرين، إذ لم يدركوا الحق في ذاته وهو متفق مع العقل المستقيم، ولم يتقبلوا الأدلة القاطعة التي سيقت إليهم للدلالة على الحق الذى لم يدركوه.

٢٣. وهذان السببان هما اللذان من أجلهما كان العقاب، ولذلك عبر بالموصول الذى يدل على أن الصلة هي سبب الحكم، وعبر بالإشارة، وهي تدل على أن المشار إليه هو سبب الحكم.

٢٤. وكلمة الذين كفروا تشمل من كانوا من أهل الكتاب ومن كانوا من غيرهم لأن السبب في ذلك الجزاء الأليم يتحقق في النوعين: إذ كلاهما كفر بالحق لما جاءه، وكلاهما كذب آيات الله تعالى التي ساقها للدلالة على رسالة الرسول، وحيث تحقق السبب تحقق المسبب لا محالة، وهو العذاب الأليم الدائم.. هدانا الله إلى الحق، وإلى صراط الله العزيز الحميد.

مُغْنِيَّة:

ذكر محمد جواد مُغْنِيَّة (ت ١٤٠٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمنوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾، أي أن اليهود والمشركين أشد الناس عداوة للمسلمين.. وكثيرا ما يستشهد بهذه الآية على أن دين النصارى أقرب إلى الإسلام من دين اليهود.. وهذا خطأ إن أريد دين اليهود والنصارى قبل التحريف، لأن الدين عند الله وأنبيائه واحد

(١) التفسير الكاشف: ٣/١١٤.

من حيث العقيدة وأصولها، وإن أريد دينهما بعد التحريف فهما فيه سواء: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إلا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾ [آل عمران: ١٩]

٢. والصحيح أن عداوة اليهود والمشركين تتصل اتصالا وثيقا بالتصادم بين طبيعة الدعوة الإسلامية، وطبيعة النظام الذي كان سائدا في جزيرة العرب أول البعثة.. كان هذا النظام يقوم على أساس التسابق لاقتناء المال والعبيد عن طريق السلب والنهب، والربا والغش، وما إليه من أسباب القهر والمكر، وقد انعكست طبيعة هذا النظام على الكبار من مشركي مكة الذين كانوا يسيطرون على التجارة الخارجية، كما انعكست على زعماء اليهود في المدينة الذين كانوا يسيطرون على الصناعة والتجارة الداخلية، وانطلقت دعوة محمد ﷺ تنادي بالعدل، وترفض الظلم والاستغلال بشتى صوره وأشكاله، وتصدت للمستغلين من اليهود والمشركين بالذات، وعلى هذا الصعيد التقت مصلحة الطرفين، وتحالفوا على ما بينهما من التباعد في الدين والعقيدة، تحالفوا وتكاتفوا يدا واحدة على حرب محمد ﷺ العدو المشترك.. وبهذا نجد تفسير قوله تعالى: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمنوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾

٣. وبتعبير أوضح أن عداوة اليهود والمشركين للمسلمين كانت بدافع دنيوي، لا بدافع ديني، ولكن تستر اليهود باسم الدين رياء ونفاقا، تماما كما يفعل اليوم أصحاب الكسب غير المشروع.. هذا، إلى أن كلا من اليهود والمشركين يشتركون في العصبية الجنسية، والحمية القومية.. ولكن مشركي العرب كانوا على جاهليتهم أرق قلبا، وأكرم يدا، وأكثر حرية في الفكر، ومن هنا آمن أكثرهم برسول الله ﷺ، وما آمن به من اليهود إلا قليل.

٤. ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمنوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى﴾، يتخذ البعض من هذه الآية وما بعدها مادة للتمويه بأن القرآن الكريم يرجح أحد المعسكرين المتطاحنين - في أيامنا هذه - على المعسكر الآخر.. وهذا ما يدعونا إلى أن نشرح هذه الآيات الأربع، ونوضحها بما لا يترك مجالا لاستغلال الانتهازيين والمنحرفين: إن من تأمل هذه الآيات لا يعتريه أدنى ريب بأنها متكاملة يتمم بعضها بعضا، وأنه لا يصح بحال أن تفسر واحدة منها مستقلة عن أخواتها، وأنها صريحة واضحة في أن الله سبحانه لم يفاضل بين النصارى على وجه العموم، وبين غيرهم من الطوائف في البعد أو القرب من المسلمين، وإنما أراد سبحانه فئة خاصة من النصارى بدليل أنه تعالى لم يقف عند القول: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا

وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ بل عقبه بقوله: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أنزل إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾، ومعنى هذا أن من النصارى من عرفوا الإسلام، ودخلوا فيه طوعا، وعن قناعة وإيمان، والتاريخ يثبت ذلك، كما شهد التاريخ أيضا بالأحقاد الصليبية على الإسلام والمسلمين، وبإبادتهم من الأندلس، وبفظائع الايطاليين في طرابلس الغرب، والفرنسيين في الجزائر وتونس والمغرب وسورية، وبفظائع الانكليز في مصر والعراق والسودان وغيرها.. واليوم تتحالف الولايات المتحدة مع اليهود على إبادة شعب فلسطين، وتسلح هؤلاء القراصنة بأحدث الأسلحة فيعتدون، ثم يزعمون أنهم المعتدى عليهم فتدعم الولايات المتحدة هذا الزعم، وتذب عنه بحماس في مجلس الأمن وهيئة الأمم، ويهاجم اليهود ويبطشون، ثم يدعون أنهم معرضون للبطش والهجوم، وتقول الولايات المتحدة: نعم هذا هو الصدق والعدل.. فهل بعد هذا، وكثير غير هذا يقال: أن النصارى، كل النصارى أقرب الناس مودة للمسلمين؟ إن مثل هذا لا يفوه به إلا جاهل أو مضلل.

٥. ثم ماذا يصنع هذا المضلل بقوله تعالى: ﴿وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِالله وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ﴾، أن الحق الذي جاءهم وآمنوا به هو الذي بشر به عيسى: ﴿وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ [الصف: ٦]

٦. ويؤكد هذا، وينفي عنه كل ريب قوله تعالى بلا فاصل: ﴿فَأَثَابَهُمُ اللهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ﴾، فشهادة الله لهذه الفئة من النصارى بالإحسان وجزاؤها بالجنان - دليل قاطع على إسلامها، وانها هي وحدها المقصودة بوصف الإحسان والثواب عليه.

٧. أما النصارى الذين أنكروا الحق بعد أن عرفوه، أو أعرضوا عنه، دون أن ينظروا إلى دلائله وبيناته، أما هؤلاء فقد هددهم الله سبحانه وتوعدهم بقوله: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾

٨. سؤال وإشكال: إن قوله: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا﴾ يشمل كل من كفر وكذّب فما هو وجه التخصيص بالنصارى؟ والجواب: سياق الكلام يدل على أن الله سبحانه بعد أن وعد من آمن من النصارى بالجنة توعد من أصر على الكفر منهم بالنار، وأطلق اللفظ ليشمل التهديد كل من خالف الحق وعانده، وهذا لا يتنافى مع ما قلناه.

٩. والخلاصة أن هذه الآيات صريحة في أن المقصود منها فئة خاصة من النصارى وهم الذين عرفوا الحق، وآمنوا به، وأن الله سبحانه قد أدخلهم الجنة بسبب إيمانهم وصالح أعمالهم، وإذا افترضنا ـ جدلا ـ أن قوله تعالى: ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً﴾) يشمل كل من قالوا إنا نصارى، إذا افترضنا هذا فيجب أن نصرف الآية عن ظاهرها، ونخصصها بمن آمن منهم لأمرين:

أ. الأول: أن الله سبحانه ذكر في العديد من آياته أن النصارى جعلوا للهّ شركاء، وكتموا اسم محمد ﷺ عن علم، واتخذوا أحبارهم ورهبانهم آلهة من دون الله، ثم نهى جل ثناؤه عن اتخاذ اليهود والنصارى أولياء، وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ﴾، وإذا عطفنا هذه الآية وما إليها على قوله: ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً﴾ يكون المعنى أن النصارى ﴿مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾ كما جاء في الآية ٦٧ من سورة المائدة.

ب. الثاني: أن أهل التفاسير قالوا: إن الآيات التي نحن بصددها نزلت في النجاشي ملك الحبشة، وكان نصرانيا، لأن النبي ﷺ لما رأى ما حل بأصحابه من أذى المشركين في بدء الدعوة أمرهم بالهجرة إلى الحبشة، وقال لهم: إن فيها ملكا لا يظلم عنده أحد، فذهبوا إليه، وكان من بينهم جعفر بن أبي طالب، فوجدوا عند النجاشي الأمان، وحسن الجوار، وكان ذلك في السنة الخامسة من مبعث الرسول ﷺ، وقد تواترت الأخبار أن النجاشي وبطانته من رجال الدين والدنيا أسلموا على يد جعفر بن أبي طالب بعد أن تلا عليهم آيات من الذكر الحكيم، وذكر محاسن الإسلام، وان أعينهم فاضت من الدمع عندما سمعوا آيات الله.

١٠. وبعد، فإن من يستشهد بقوله تعالى: ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً﴾ على أن النصرانية والنصارى بوجه عام أقرب من غيرهم إلى الإسلام والمسلمين، ويسكت عن الآيات المتممة لهذه الآية، إن من يفعل هذا فهو جاهل بكتاب الله، أو مراء يتزلف إلى النصارى على حساب الإسلام والقرآن، أو خائن يسمم أفكار السذج من المسلمين ليصدقوا مزاعم أعداء الدين الذين يناصرون إسرائيل ويباركون عدوانها على العرب والمسلمين.

الطباطبائي:

ذكر محمد حسين الطباطبائي (ت ١٤٠٢ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمنوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ إلى قوله: ﴿نَصَارَى﴾ لما بين سبحانه في الآيات السابقة الرذائل المشتركة بين أهل الكتاب عامة، وبعض ما يختص ببعضهم كقول اليهود: ﴿يَدُ اللهِ مَغْلُولَةٌ﴾ وقول النصارى: ﴿إِنَّ اللهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ ختم الآيات بما يختص به كل من الطائفين إذا قيس حالهم من المؤمنين ودينهم، وأضاف إلى حالهم حال المشركين ليتم الكلام في وقع الإسلام من قلوب الأمم غير المسلمة من حيث قربهم وبعدهم من قبوله.

٢. ويتم الكلام في أن النصارى أقرب تلك الأمم مودة للمسلمين وأسمع لدعوتهم الحقة، وإنما عدهم الله سبحانه أقرب مودة للمسلمين لما وقع من إيمان طائفة منهم بالنبي ﷺ كما يدل عليه قوله في الآية التالية: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أنزل إِلَى الرَّسُولِ﴾، لكن لو كان إيمان طائفة تصحح هذه النسبة إلى جميعهم كان من الواجب أن تعد اليهود والمشركون كمثل النصارى وينسب إليهما نظير ما نسب إليهم لمكان إسلام طائفة من اليهود كعبد الله بن سلام وأصحابه، وإسلام عدة من مشركي العرب وهم عامة المسلمين اليوم فتخصيص النصارى بمثل قوله: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أنزل﴾، دون اليهود والمشركين يدل على حسن إقبالهم على الدعوة الإسلامية وإجابة النبي ﷺ مع أنهم على خيار بين أن يقيموا على دينهم ويؤدوا الجزية، وبين أن يقبلوا الإسلام، أو يحاربوا.

٣. وهذا بخلاف المشركين فإنهم لم يكن يقبل منهم إلا قبول الدعوة فكثرة المؤمنين منهم لا يدل على حسن الإجابة، على ما كابد النبي ﷺ من جفوتهم ولقاه المسلمون من أيديهم بقسوتهم ونخوتهم.

٤. وكذلك اليهود وإن كانوا كالنصارى في إمكان إقامتهم على دينهم وتأدية الجزية إلى المسلمين لكنهم تمادوا في نخوتهم، وتصلبوا في عصبيتهم، وأخذوا بالمكر والمكيدة، ونقضوا عهودهم، وتربصوا الدوائر على المسلمين، ومسوهم بأمر المس وآلمه.

٥. وهذا الذي جرى من أمر النصارى مع النبي ﷺ والدعوة الإسلامية، وحسن إجابتهم، وكذا من أمر اليهود والمشركين في التمادي على الاستكبار والعصبية جرى بعينه بعده ﷺ على حذو ما جرى في

---

(١) الميزان في تفسير القرآن: ٦/٨٠.

عهده فما أكثر من لبى الدعوة الإسلامية من فرق النصارى خلال القرون الماضية، وما أقل ذلك من اليهود والوثنيين! فاحتفاظ هذه الخصيصة في هؤلاء وهؤلاء يصدق الكتاب العزيز في ما أفاده.

٦. ومن المعلوم أن قوله تعالى: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمنوا﴾ من قبيل بيان الضابط العام في صورة خطاب خاص نظير ما مر في الآيات السابقة: ﴿تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ و﴿ترى كَثِيراً مِنْهُمْ يُسارِعُونَ فِي الْإِثْمِ﴾

٧. ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ القسيس معرب (كشيش) والرهبان جمع الراهب وقد يكون مفردا، قال الراغب: الرهبة والرهب مخافة مع تحرز ـ إلى أن قال ـ والترهب التعبد، والرهبانية غلو في تحمل التعبد من فرط الرهبة، قال تعالى: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا﴾ والرهبان يكون واحدا وجمعا فمن جعله واحدا جمعه على رهابين.

٨. علل تعالى ما ذكره من كون النصارى أقرب مودة وآنس قلوبا للذين آمنوا بخصال ثلاث يفقدها غيرهم من اليهود والمشركين، وهي أن فيهم علماء وأن فيهم رهبانا وزهادا، وأنهم لا يستكبرون وذلك مفتاح تهيؤهم للسعادة، وذلك أن سعادة حياة الدين أن تقوم بصالح العمل عن علم به، وإن شئت فقل: إن يذعن بالحق فيطبق عمله عليه؛ فله حاجة إلى العلم ليدرك به حق الدين وهو دين الحق، ومجرد إدراك الحق لا يكفي للتهيؤ للعمل على طبقه حتى ينتزع الإنسان من نفسه الهيئة المانعة عنه، وهو الاستكبار عن الحق بعصبية وما يشابهها، وإذا تلبس الإنسان بالعلم النافع والنصفة في جنب الحق برفع الاستكبار تهيأ للخضوع للحق بالعمل به لكن بشرط عدم منافاة الجو لذلك فإن لموافقة الجو للعمل تأثيرا عظيما في باب الأعمال فإن الأعمال التي يعتورها عامة المجتمع وينمو عليها أفراده، وتستقر عليهم عادتهم خلفا عن سلف لا يبقى للنفس فراغ أن تتفكر في أمرها أو تتدبر وتدبر في التخلص عنها إذا كانت ضارة مفسدة للسعادة، وكذلك الحال في الأعمال الصالحة إذا استقر التلبس بها في مجتمع يصعب على النفس تركها، ولذا قيل: إن العادة طبيعة ثانية، ولذا كان أيضا أول فعل مخالف حرجا على النفس في الغاية وهو عند النفس دليل على الإمكان، ثم لا يزال كلما تحقق فعل زاد في سهولة التحقق ونقص بقدره من صعوبته، فإذا تحقق الإنسان أن عملا كذا حق صالح ونزع عن نفسه أغراض العناد واللجاج بإماتة الاستكبار والاستعلاء على الحق كان من العون كل العون على إتيانه أن يرى إنسانا يرتكبه فتتلقى نفسه إمكان العمل.

٩. ومن هنا يظهر أن المجتمع إنما يتهيأ لقبول الحق إذا اشتمل على علماء يعلمونه ويعلمونه، وعلى رجال يقومون بالعمل به حتى يذعن العامة بإمكان العمل ويشاهدوا حسنه، وعلى اعتياد عامتهم على الخضوع للحق وعدم الاستكبار عنه إذا انكشف لهم، ولهذا علل الله سبحانه قرب النصارى من قبول الدعوة الحقة الدينية بأن فيهم قسيسين ورهبانا وأنهم لا يستكبرون؛ ففيهم علماء لا يزالون يذكرونهم مقام الحق ومعارف الدين قولا، وفيهم زهاد يذكرونهم عظمة ربهم وأهمية سعادتهم الأخروية والدنيوية عملا، وفيهم عدم الاستكبار عن قبول الحق.

١٠. وأما اليهود فإنهم وإن كان فيهم أحبار علماء لكنهم مستكبرون لا تدعهم رذيلة العناد والاستعلاء أن يتهيئوا لقبول الحق، وأما الذين أشركوا فإنهم يفقدون العلماء والزهاد، وفيهم رذيلة الاستكبار.

١١. ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أنزل إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ﴾، فاضت العين بالدمع سال دمعها بكثرة، و﴿مِنَ﴾ في قوله: ﴿مِنَ الدَّمْعِ﴾ للابتداء، وفي قوله: ﴿مِمَّا﴾ للنشوء، وفي قوله: ﴿مِنَ الْحَقِّ﴾ بيانية.

١٢. ﴿وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِالله﴾، لفظة ﴿يُدْخِلَنَا﴾ كأنها مضمنة معنى الجعل، ولذلك عدي بمع، والمعنى: يجعلنا ربنا مع القوم الصالحين مدخلا لنا فيهم، وفي هذه الأفعال والأقوال التي حكاها الله تعالى عنهم تصديق ما ذكره عنهم أنهم أقرب مودة للذين آمنوا، وتحقيق أن فيهم العلم النافع والعمل الصالح والخضوع للحق حيث كان فيهم قسيسون ورهبان وهم لا يستكبرون.

١٣. ﴿فَأَثَابَهُمُ الله﴾ إلى آخر الآيتين، (الإثابة) المجازاة، والآية الأولى: ذكر جزائهم، والآية الثانية: فيها ذكر جزاء من خالفهم على طريق المقابلة استيفاء للأقسام.

الحوثي:

ذكر بدر الدّين الحوثي (ت ١٤٣١ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. ﴿لَتَجِدَنَّ﴾ لعلّه خطاب عام لكل سامع لوضوح عداوتهم لكل من يعرفهم ﴿وَالَّذِينَ

---

(١) التيسير في التفسير: ٢/٣٦٣.

﴿أَشْرَكُوا﴾ عام لكفار العرب المشركين وللمشركين من أهل الكتاب وغيرهم؛ وذلك لأن دين الله الذي عليه المؤمنون ينافي دين المشركين وهم يحبون من يتخذونهم أنداداً لله كحب الله؛ ولذلك يبغضون المؤمنين الذين يبرءون من شركائهم، فسواء في هذا الغلاة من النصارى الذين أشركوا بعيسى وسائر المشركين؛ لأن شدة حب النصارى الغلاة لعيسى تجعلهم يغضبون على من ينفي إلهيته على قدر غلوهم فيه؛ فلذلك لا فرق بينهم وبين سائر المشركين، بل قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ في غلاة النصارى الذين أشركوا بعيسى أظهر؛ لأنه قال: ﴿وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ ولم يقل والمشركين لأن الشرك حادث في النصارى كما هو حادث في بعض اليهود، وأصل دينهم الذي ينتمون إليه هو التوحيد.

٢. ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى﴾ أي ولم يشركوا وهم النجاشي ومن أشبهه ﴿ذَلِكَ﴾ أي قرب مودتهم للذين آمنوا ﴿بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ ﴿قِسِّيسِينَ﴾ كبار علماء النصارى، وقال الشرفي في (المصابيح): (قال المرتضى عليه السلام: والقسيسون، فهم كبار النصارى يصلون بهم ويقدمونهم ويعظمونهم) وقال في (الصحاح): (والقَسّ ـ أيضاً ـ رئيس من رؤساء النصارى في الدين والعلم وكذلك القسيس) وأصل الرهبان: من الرهبة، وهي الخشية، ثم صار اسماً للزاهد الذي يتخلى للعبادة ويترك شواغل الدنيا، ثم صار يستعمل في المتخلي للعبادة المظهر للزهادة والتخلي من الشواغل الدنيوية.

٣. فالحاصل: أن في هؤلاء النصارى قدوةً مهيّأةً لقبول الإيمان بدين الله الذي جاء به الرسول ﷺ وأن هؤلاء الذين قالوا إنا نصارى كلهم ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ فهم بذلك مهيئون أيضاً لقبول الحق لسلامتهم من الكبر المانع منه لثقل الخروج من الدين المألوف إلى غيره لمجرد اتباع الحق فقد سلموا من هذا المانع كما سلموا من الغلو الذي يمنع المشركين من التوحيد، فكانوا قريباً من قبول الحق غير نافرين من الذين آمنوا، بل هم أقرب مودةً لهم لموافقتهم في التوحيد وتجويزهم قبل النظر وسماع القرآن أن الدين الذي دخلوا فيه هو الحق قد أرسل الله به محمداً ﷺ.

٤. ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ﴾ ﴿مَا أَنْزَلَ﴾ من القرآن ﴿تَرَى﴾ أي يراها الحاضر لهم ﴿مِمَّا عَرَفُوا﴾ بسبب ما عرفوا ﴿مِنَ الْحَقِّ﴾ وهو أن الله قد أرسل الرسول الذي بشر به عيسى مصدقاً لما جاء به عيسى عليه السلام ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ

الشَّاهِدِينَ﴾ ﴿آمَنَّا﴾ بما أنزلت على محمد ﴿فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ به، قال الشرفي في (المصابيح): (روي عن النجاشي أنه قال لجعفر بن أبي طالب حين اجتمع في مجلسه المهاجرون إلى الحبشة والمشركون وهم يغرونه عليهم ويطلبون هلاكهم عنده: هل في كتابكم ذكر مريم؟ قال جعفر: فيه سورة تنسب إليها، فقرأها إلى قوله: ﴿ذَلِكَ عِسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ﴾ [مريم:٣٤] وقرأ (سورة طه) إلى قوله: ﴿وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى﴾ [طه:٩] فبكى النجاشي، وكذلك قومه الذين وفدوا على رسول الله ﷺ وهم سبعون رجلاً حين قرأ عليهم: سورة يس)

٥. ﴿وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ﴾ ﴿وَمَا لَنَا﴾ أيُّ مانع يمنعنا، وأيُّ حالة لنا تنافي الإيمان وتمنع منه، وهذا استبعاد منهم لترك الإيمان لأن اللائق بحالهم هو الإيمان بالله وما جاء هم من الحق، وطمع أن يدخلهم ربهم مع القوم الصالحين الذين هم محمد ومن معه ﷺ يدخلهم معهم الجنة، وهذه الآيات فيهم مثل الآيات في (سورة القصص): ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ﴾ [القصص:٥٢ ـ ٥٣] الآيات.

٦. ﴿فَأَثَابَهُمُ اللهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أثابهم الله جنات جعلها لهم ثواباً فصارت لهم بحكمه وجعله، ويحتمل: أن ذلك وعد مؤكد بإخراجه مخرج الماضي، كأنه قيل: فأحلَّهم جنات خالدين فيها، وهذا أقرب لجعل ﴿خَالِدِينَ﴾ حالاً محققة، وعلى الأول يكون خالدين حالاً مقدَّرة ﴿وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ﴾ المحسنون: هم المؤمنون المتقون فجزاهم الله ما يجزي المحسنين لأنهم منهم.

٧. ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ وهذا يعم المشركين من أهل الكتاب وسائر الكفار المكذبين، و﴿الْجَحِيمَ﴾ نار جهنم، وأصحابها أهلها.

فضل الله:

ذكر محمد حسين فضل الله (ت ١٤٣١ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[1]:

١. لم يلتق النبيّ محمد ﷺ أهل الكتاب في موقف صراع في مكّة، فقد كان المجتمع المكي مجتمعا

(١) من وحي القرآن: ٣٠٠/٨.

وثنيا مشركا، إلا من بعض أفراد قلائل، ولذا لم نجد في الآيات الّتي نزلت في مكّة، ما يشير إلى أي جدال أو حوار بينه وبينهم، لأنه كان مشغولا بمحاربة الشرك والوثنيّة من جهة، ولأنهم لا يعتبرون مشكلة إسلاميّة من جهة أخرى.

٢. وربما نلمح في البداية، تعاطفا وتقاربا بينه وبين المجتمع النصراني في مكان آخر، من خلال مشروع هجرة المسلمين المضطهدين إلى الحبشة فرارا بدينهم، أملا في أن يجدوا هناك بعض الحرية والطمأنينة في ممارسة عقيدتهم، وهذا ما حصل كما يحدثنا به التاريخ الإسلامي، وتشير إليه بعض الآيات الكريمة، فقد حدّثنا التاريخ أنهم قد حصلوا على الحماية القوية عند ملك الحبشة النجاشي، حيث حال بينهم وبين قريش الّتي لحقت بهم إلى هناك لتوغر صدره عليهم، فلم يستجب لذلك، بل أصغى مع جماعته إلى أفكار المسلمين وأقوالهم، وانسجموا مع الأجواء الروحيّة الّتي أفاضها القرآن الكريم عليهم، بما تلاه المسلمون من الآيات الّتي تتحدث عن عيسى وأمّه عليه السّلام، وعن المعاني الروحيّة الكبيرة الّتي أوحى بها الله إلى نبيه، مما يلتقي مع الخط الواحد للرسالات السماوية، لأنهم رأوا فيها روحانيّة المسيحيّة الحقة، وإخلاصها وواقعيتها الخاشعة، مما جعل ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ خشوعا لله سبحانه، كما أشارت إليه هذه الآيات.

٣. وهاجر النبيّ محمد ﷺ إلى المدينة ليشيّد المجتمع الإسلامي الجديد على دعائم القوّة والعلم والتقوى، فواجه اليهود من أهل الكتاب هناك، إذ لم يكن في المدينة نصارى، متجنبا الاصطدام بهم، بل أكثر من ذلك، اتخذ موقفا منهم في غاية الحكمة، إذا عقد معهم معاهدة صداقة تفسح المجال للتعايش السلمي بين الديانتين، قائمة على أساس الحوار بعيدا عن العصبيات والسلبيات، وكان من الممكن لهذه المعاهدة أن تدوم وتخلق الجو الرائع للتعايش الديني السلمي لكنّ اليهود أبو أن يساهموا في استقرار هذ الجو فمضوا يعدّون العدّة للوقوف بوجه الدعوة الجديدة والنبيّ الجديد قال ابن إسحاق، في رواية ابن هشام عنه في سيرة النبيّ ﷺ: (ونصبت ـ عند ذلك ـ أحبار يهود لرسول الله ﷺ العداوة، بغيا وحسدا وضغنا، لما خصّ الله تعالى به العرب من أخذه رسوله منهم، وانضاف إليهم رجال من الأوس والخزرج ممن كان عسى على جاهليته، فكانوا أهل نفاق على دين آبائهم من الشرك والتكذيب بالبعث، إلا أن الإسلام قهرهم

بظهوره واجتماع قومهم عليه، فظهروا بالإسلام، واتخذوه جنة من القتل ونافقوا في السر، وكان هواهم مع يهود لتكذيبهم النبيّ ﷺ وجحودهم الإسلام، وكانت أحبار يهود هم الذين يسألون رسول الله ﷺ ويتعنتونه ويأتونه باللبس ليلبسوا الحق بالباطل، فكان القرآن ينزل فيهم فيما يسألون عنه)، وذلك لصرف النبيّ محمد ﷺ وإشغاله عن مهمته الأصليّة في بناء القاعدة ـ بما تثيره من القضايا الجانبية، أو بما تمارسه من أساليب اللف والدوران، ولتشغل المسلمين عن همومهم العملية من أجل مواجهة حياتهم الجديدة في ظل الإسلام، بما يحدثون في داخلهم من ارتباك وقلق وتشويش، وبما يثيرونه بينهم من خلافات وانقسامات.

٤. وفي ضوء هذا العرض البسيط الذي يجعلنا نعيش في الأجواء التاريخيّة لنزول هذه الآيات، نستطيع أن نعرف عقدة اليهود الّتي يحملونها ضدّ الإسلام والمسلمين فيما أثاروه ويثيرونه من مشاكل وخلافات وهموم وتحديات للواقع الإسلامي على مدى التاريخ، لأنهم لا ينطلقون من قيم فكريّة وروحيّة معينة فيما يخططون ويكيدون له في تصرفاتهم وأعمالهم وعلاقاتهم، بل ينطلقون من شعور مريض بالزهو والخيلاء والكبرياء والتفوق على بقيّة الشعوب، الأمر الذي يدفعهم إلى المزيد من العنصريّة السوداء المتعصبة الحاقدة، ويدفعهم إلى خنق كل عوامل التقدم والنمو والقوة التي للآخرين ـ لا سيّما المسلمين ـ الذين يطرحون ـ من خلال القرآن الكريم ـ الرفض لفكرة شعب الله المختار، والدعوة إلى إقامة الحياة بكل مظاهرها وتجلياتها وأبعادها على أساس المنطق المسلح بالحجج والبراهين الدامغة، وبوسيلة الحوار البناء والجدال بالتي هي أحسن، ولذلك، فإن قصة اليهود في التاريخ هي قصة الشعب المعقد الذي انطلق من التوراة في البداية، لكنه ما لبث أن ابتعد عنها في تفكيره، واقتصر منها على الإطار دون الصورة الحقيقيّة، وصولا إلى استبدالها بالصور المزيفة، التي تحاكي زيفهم الفكري والروحي الذي يعيشونه في خطوات الماضي والحاضر والمستقبل.

٥. أما النصارى، فقد انطلقوا من خلال الإنجيل على أساس القيم الروحيّة التي يحفل بها، مما يجعل من قضية اللقاء بهم قضية تخضع للأجواء الخاشعة في تصورها لله وفي حركة العبادة له، بالرّغم من الاختلاف في تفاصيل ذلك كله ولهذا كانت الآيات تؤكد على هذا الجانب الروحي دون الذاتي فليست المسألة فئة تلتقي بفئة على أساس النطاق البشري الذي تمثله هذه أو تلك، ولكن المسألة مسألة قيم يعيشها ويؤمن بها هؤلاء ليكون اللقاء على أساس ذلك، وقد أشارت الآيات إلى هذه الناحية، واعتبرت وجود

القسيسين والرهبان ظاهرة إيجابيّة، فيما يمثله هذا اللون من الناس من انقطاع للعبادة وابتهال للهّ، وتواضع للناس، وابتعاد عن الاستكبار، وتحدثت عن التجربة الأولى للقاء، في الوقت الذي لم يكن فيه المجتمع النصراني قد عاش عقدة الصراع ضدّ الإسلام والمسلمين، نظرا إلى أن القضية كانت قضية الدعوة في بداياتها الأولى، فقد تلقى الذين استمعوا إلى آيات الله، آيات الله، بروح منفتحة على الخير من كلمات البر، واعية لعمق الروح الإيماني، عائشة للفرح الروحي المتدفق من روحيّة الوحي الإلهي، منفعلين بالحقيقة الصافية المشرقة القائمة على التأمل والإلهام، مرسلة نفوسهم دموع الخشوع فياضة، وامضة بإشارات المحبة والسلام، ويرتعد كيانهم ويقشعر لبرودة الإيمان وهيبة الموقف أمام عظمة الله تعالى، وتكرع أرواحهم كأس الملاطفة من معين الذات الإيماني حتّى الثمالة، فإذا بهم أمام الحقّ الذي عرفوه، يبكون من الفرح.

٦. ﴿مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ﴾ تماما كما هو فرح الأطفال بالهدية الحلوة، في براءة الطفولة، فيبتلون إلى الله في صلاة خاشعة، لأن الإيمان ليس مجرّد فكر يخضع للمعادلات العقليّة، ولكنه فكر وروح وشعور عامر بحركة الحياة، فإذا به يقظة إحساس، ومنطلق روح، وصفاء قلب، وهزّة كيان، ﴿فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾، الذين يعيشون الحضور الدائم مع الله، فيعيشون ـ من خلال ذلك ـ الحضور الواعي لمسؤوليّة الحياة مع الآخرين.

٧. وهكذا يتحرك التساؤل في قوّة إرادة الإيمان ﴿وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللهِ﴾ الذين يفرض نفسه علينا في كل ما نفكر ونشعر ونعيش من قضايا الحياة وتفاصيلها، وحركة النفس وتطلعاتها، ﴿وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ﴾ الذي يتمثل في وضوح الحقيقة في وجداننا وأعماقنا!؟ وتلك هي قصة الإنسان الواعي، إذا عاش وضوح الرؤية للأفكار والأشياء، فإنه لا يملك إلا أن يلتصق بالمعرفة التصاق إيمان، وينفعل بالحياة، من خلالها، انفعال الموقف والممارسة، أما الإنسان الذي يهرب من الحقيقة الّتي تواجهه، ويختبئ وراء أقنعة متنوعة تحجب عنه إشراقتها، فهو الإنسان المعقّد الذي لا يعيش الإيمان كمسؤوليّة، بل يتحرك معه على أساس الرغبة والرهبة في نطاق أنانيّة الذات، وهو غير هذا الإنسان الذي يقف وقفة الابتهال الخاشع أمام الله ليعبر عن رغباته الروحيّة بين يديه.

٨. ﴿وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ﴾ فها هي الأشواق الروحيّة تتطلع إلى العيش مع

النفوس الصالحة المؤمنة التي جاهدت في سبيل الله عندما كانت في الدنيا، وجاءت لتعيش نتائج جهادها في جنة الله، رضوانا ورحمة ومغفرة.

٩. وكانت الاستجابة لهذه الابتهالات الروحيّة ثوابا بما قالوا، ﴿فَأَثَابَهُمُ اللهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ﴾ الذين أحسنوا القول والعمل، ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ أما هؤلاء الذين ابتعدوا عن مواقع رحمة الله بعد أن دعاهم الله إليها وتمردوا في روح عدوانية كافرة، أما هؤلاء فهم أصحاب الجحيم ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾

١٠. وهكذا نستوحي من هذه الآيات، أن المشكلة الّتي يعانيها أصحاب الديانات السماويّة، فيما يختلفون فيه، ليست مشكلة الفكر الذي يتنازعون في صحته وفساده، وليست مشكلة الشريعة الّتي يختلفون في صوابها وخطئها بل هي مشكلة الروحيّة التي يواجهون بها بعضهم البعض، فقد ينطلق البعض من موقع العقدة الّتي تحاول أن تتداخل بسلبياتها الخانقة في كل فكر وكل أسلوب، لتنحرف به عن مساره الطبيعي في حالة المواجهة الفكريّة، فيتحول الأمر إلى حرب بين العواطف والتشنجات بدلا من أن يكون حوارا بين الأفكار، ويلف الموضوع ذلك الضباب النفسي الحائل دون وضوح الرؤية مما يؤدي إلى التشاحن والتباغض، فالحرب في نهاية المطاف، وقد ينطلق البعض من موقع الفكرة التي تتطلع إلى الوضوح، فتواجه الفكر بالفكر الذي يناقش ويحاور من أجل أن يكتشف المناطق المجهولة لديه أو يكشف للآخرين المناطق المجهولة عندهم، ليقف الجميع، من خلال ذلك، على أرض الحقيقة الّتي يلتقي عليها كلّ الناس الذين يعيشون الشوق الروحي إلى المعرفة، وهذا ما يهدف إليه الإسلام في أسلوبه الفكري، في الدعوة إلى الحوار، بالروحيّة التي لا تتحرك من خلفيات العقدة، بل تعيش انطلاقات الفكرة الباحثة عن الوضوح في رحلة البحث عن الإيمان فلا يتحول الاختلاف إلى عداوة تتعمّق بالممارسات السلبية، بل يتحول إلى تجربة حيّة صادقة تفتح الطريق إلى صداقة فكريّة تتأكد بالكلمات والمواقف الإيجابيّة.

١١. وقد يكون من الأفكار التي نستوحيها ـ من هذه الآيات ـ أن هذه المودّة القريبة التي يقررها القرآن الكريم، في موقف النصارى من المسلمين، كانت بسبب هذه الروحيّة المتواضعة المنطلقة التي يعيشها القسيسون والرهبان فيما يستلهمونه من تعاليم الإنجيل، وما يستوحونه من ابتهالات التأمل بين يدي الله، هذا من جهة، ومن جهة أخرى، فإنها تعود إلى الانفتاح الفكري والروحي على الأفكار والآفاق

الجديدة التي يطرحها الآخرون من خلال آيات الله، فلا يواجهونها بالرفض السريع، بل بالتأمل الدقيق والفكر العميق، وفي ضوء ذلك، نستطيع أن نشير إلى عدة نقاط في الموضوع:

أ. أولا: إن ذلك يدفعنا إلى إفساح المجال ـ دائما ـ للانطلاق بالواقع إلى هذا الجو، فنعمل على إثارة المعاني الروحيّة في أخلاقيات النصرانيّة المستمدة من الإنجيل من أجل اكتشاف مواطن اللقاء فيما يلتقي فيه الإسلام والنصرانيّة من مفاهيم في الإيمان والحياة، ليكون ذلك أساسا لاحتواء كل السلبيات التي تتحرك في الساحة فتدفعها إلى التعقيد والارتباك، وبذلك يمكن للعاملين أن يبدءوا في عملية الإعداد لإيجاد الأرضية الصلبة الّتي تؤدي إلى الوقوف المشترك، في موقف الاتحاد أو التفاهم.

ب. ثانيا: إن هذه الفكرة توحي لنا بالابتعاد عمّا تعارف عليه الناس من أساليب المجاملة الخادعة الّتي تحاول أن تتغافل عن كل السلبيات بطريقة سطحيّة مائعة تواجه المشكلة في مستوى اللحظات السريعة، لننطلق إلى الدراسة الهادئة الدقيقة الّتي تعمل على التعامل مع الموقف، من خلال المعطيات الواقعيّة الموجودة في الساحة فتثير الإيجابيات في بعض المواقع، وتشير إلى السلبيات في بعض آخر، وقد تغفلها في مواقع أخرى، لتوجه الحالة إلى النتائج الطيبة، إن الابتعاد عن مثل هذه الدراسة الواقعيّة الهادئة، والسير في خط الأساليب العاطفية، يميع الموقف ويفقده جديته، بل يوحي بالهروب من الواقع والاختفاء خلف الألفاظ البرّاقة، والعودة من جديد إلى تعقيدات الواقع الصعب، بعد اكتشاف السراب في لحظة الوصول إلى الأفق البعيد.

ج. ثالثا: إن هذا الجو الإيجابي في الآيات، الذي يؤدي إلى النتائج الإيجابية على صعيد اللقاء، يدفعنا إلى اكتشاف المسألة على مستوى الأرضيّة التي نقف عليها، لنتعرّف الملامح الحقيقيّة للواقع، لأن العوامل التاريخيّة والسياسيّة المعقدة، قد تركت آثارا عميقة في داخل القلوب والنفوس والأفكار، وخلفت جروحا في الأعماق، مما جعل الجو يختلف كثيرا عن أجواء هذه الآيات، فكانت العقدة موضع الفكر، وعاش الحقد في مواقع المحبة، وارتفعت الحواجز أمام فرص اللقاء، وبدأت الساحة في بعض مواقعها تتكشف عن نصرانيّة يهوديّة في حقدها وعداوتها للإسلام والمسلمين، الأمر الذي يوحي بالحذر الذي يدفع إلى الواقعيّة ولا يدعو إلى الشلل لئلا يجرنا التساهل في مثل هذه الأمور إلى الوقوع في الفخ المنصوب لنا تحت تأثير الشعارات الخادعة الداعية إلى المحبة، في الوقت الذي تعمل فيه، بكلّ جهدها، للتخطيط الدقيق للسير في

خط الحقد والعداوة.

د. رابعا: إن التأكيد على استخدام صيغة التفضيل في عداوة اليهود والذين أشركوا للمسلمين، يجعلنا نواجه الموقف في علاقتنا مع اليهود والجماعات الملحدة والمشركة، من خلال هذا الخط، فنعيش معهم، كما يعيش الإنسان مع عدوّه، لأنّ اليهود يخططون لإضعاف الإسلام والمسلمين، وبالتالي للقضاء على وجوده ووجودهم، ولأن الملحدين والمشركين يعملون على نسف كل قواعد الإيمان في الحياة، مما يجعل من مسألة العداوة أمرا طبيعيا، لأنّ ذلك يرى أن رسالته وعقيدته يفرضان عليه القضاء على فكرك أو عليك، وبالتالي لا يمكنك أن تعتبره صديقا، أو تتعامل معه معاملة الصديق، إلّا إذا كنت ساذجا لا تفهم الأشياء بوضوح، وفي ضوء هذا، ينبغي لنا أن نواجه بحذر الدعوات المؤكدة على التسامح في هذا المجال، فيما يرفع من شعارات التسامح الديني، ورفض التعصّب، وما إلى ذلك، فقد يكون المقصود من ذلك كله، تخفيف حالة التوتر الفكري والروحي والعملي الّتي يعيشها الإنسان المؤمن المسلم، للمحافظة على خط الثبات في مواقعه الإسلاميّة، وعدم إفساح المجال للاهتزاز والتزلزل أمام هجمات الأعداء، لأنّ الإنسان كلّما اقترب من حالة الاسترخاء في مواقع التحدي، كلّما اقترب من الهزيمة أمام مخططات الأعداء، ربّما يكون من المصلحة للإسلام والمسلمين أن يحافظوا على نسبة عالية من درجات التوتر والالتزام بالخط، لئلا يستغل العدو حالة الاسترخاء الّتي يعمل لإيجادها، فيهزمنا بالضربة القاضية، ولكن ليس معنى ذلك أنّنا نواجه الموقف بأساليب الانفعال المثيرة الّتي تملأ الجو بكل عناصر الإثارة، لتخلق حربا هنا، وحربا هناك، وتثير الفوضى والخلافات الطائفيّة الحاقدة في كل مكان، لأنّنا لا نجد في ذلك مصلحة للمسيرة الإسلاميّة، بل معنى كل ذلك أنّنا نواجه الموقف بأساليب الوعي الّتي تتحرّك في الساحة بطريقة واقعيّة تتعامل مع المعطيات والظروف الموضوعيّة من موقع المحافظة على الوجود أمام الآخرين الّذين يعملون لتصفية هذا الوجود أو هزيمته، وقد يفرض علينا الواقع أن ندخل مع هؤلاء في علاقات تجاريّة وسياسيّة وعلميّة، فلا نجد في ذلك أيّ حرج، في حدود المصلحة العليا للإسلام والمسلمين، لأنّ الإنسان قد يجد من الخير أن يتعامل مع عدوه في حالات الهدنة مع الاحتفاظ بالحيطة والحذر في مختلف الظروف والأوقات والمظاهر.

الشيرازي:

ذكر ناصر مكارم الشيرازي في تفسير هذا المقطع ما يلي[1]:

١. كثير من المفسّرين ـ ومنهم الطبرسي في (مجمع البيان)، والفخر الرازي، وصاحب (المنار) ينقلون في تفاسيرهم عن المفسّرين السابقين أنّ هذه الآيات قد نزلت بحقّ (النّجاشي) صاحب الحبشة على عهد رسول الله ﷺ وأتباعه، وفي تفسير (البرهان) حديث يشرح هذا الموضوع شرحا وافيا، ويمكن تلخيص الرّوايات الإسلامية والتواريخ وأقوال المفسّرين بهذا الخصوص في ما يلي[2].

٢. وروي عن سعيد بن جبير في سبب نزول الآية أنّ النجاشي أرسل ثلاثين شخصا من أخلص أتباعه إلى المدينة لإظهار حبّه لرسول الله ﷺ وللإسلام، أولئك هم الذين استمعوا إلى آيات سورة (يس) فأسلموا، فنزلت الآيات المذكورة تقديرا لأولئك المؤمنين.

٣. لا يتعارض سبب النّزول هذا مع كون سورة المائدة قد نزلت في أواخر عمر رسول الله ﷺ، إذ أنّ هذا القول يرجع إلى معظم آيات السورة، وليس ثمّة ما يمنع أن تكون بعض تلك الآيات قد نزلت في حوادث سابقة، ثمّ وضعت ـ لأسباب ـ بأمر من رسول الله ﷺ في هذه السّورة.

٤. تقارن هذه الآيات بين اليهود والنصارى الذين عاصروا رسول الله ﷺ، ففي الآية الاولى وضع اليهود والمشركون في طرف واحد والمسيحيون في طرف آخر: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى﴾، يشهد تاريخ الإسلام، بجلاء على هذه الحقيقة، ففي كثير من الحروب التي أثيرت ضد المسلمين كان لليهود ضلع فيها، بصورة مباشرة أو غير مباشرة، ولم يتورعوا عن التوسل بأية وسيلة للتآمر، وقليل منهم اعتنق الإسلام، ولكننا قلّما نجد المسلمين يواجهون المسيحيين في غزواتهم، كما أنّ الكثيرين منهم التحقوا بصفوف المسلمين.

٥. ثمّ يعزوا القرآن هذا الاختلاف في السلوك الفردي والاجتماعي إلى وجود خصائص في المسيحيين المعاصرين لرسول الله ﷺ لم تكن موجودة في اليهود:

أ. فأوّلا: كان بينهم نفر من العلماء لم يسعوا ـ كما فعل علماء اليهود ـ إلى إخفاء الحقائق ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ﴾، ثمّ كان منهم جمع من الزهاد الذين تركوا الدنيا، وهي النقطة المناقضة لما ـ كان يفعله

---

(١) تفسير الأمثل: ٤/١٢٤.

(٢) ذكر ما ورد في سبب النزول الذي سبق ذكره.

بخلاء اليهود الجشعين، وعلى الرغم من كلّ انحرافاتهم كانوا على مستوى أرفع بكثير من مستوى اليهود: (ورهبانا)

ب. وكثير منهم كانوا يخضعون للحق، ولم يتكبروا، في حين كان معظم اليهود يرون أنّهم عنصر أرفع، فرفضوا قبول الإسلام الذي لم يأت على يد عنصر يهودي: ﴿وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾

ج. ثمّ إنّ نفرا منهم كانوا إذا استمعوا لآيات من القرآن تنحدر دموعهم مثل من صحب جعفر من الأحباش لأنّهم يعرفون الحقّ إذا سمعوه: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ﴾، فكانوا ينادون بكل صراحة وشجاعة، ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾، لقد كان تأثرهم بالآيات القرآنية من الشدة بحيث أنّهم كانوا يقولون: ﴿وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ﴾

٦. سبق أن قلنا إنّ هذه المقارنة كانت بين اليهود والنصارى المعاصرين لرسول الله ﷺ، فاليهود ـ وإن كانوا من أصحاب الكتب السماوية ـ بلغت شدة تعلقهم بالمادة وحبّهم لها أن انخرطوا في سلك المشركين الذين لم يكن يربطهم بهم أي وجه شبه مشترك، مع أن اليهود في البداية كانوا من المبشرين بمجيء الإسلام ولم تكن قد دخلتهم انحرافات كالتثليث والغلو اللذين كانا عند المسيحيين، غير أن حبّهم للدنيا حبّ عبادة قد أبعدهم عن الحقّ، بينما معاصروهم المسيحيون لم يكونوا على هذه المشاكلة.

٧. إلّا أنّ التّأريخ القديم والمعاصر يقول لنا: أنّ المسيحيين في القرون التي أعقبت ذلك قد ارتكبوا بحق الإسلام والمسلمين جرائم لا تقل عمّا فعله اليهود في هذا المجال، إنّ الحروب الصليبية الطّويلة والدّموية في القرون الماضية، والاستفزازات الكثيرة التي يقوم بها الاستعمار ضد الإسلام والمسلمين اليوم غير خافية على أحد، لذلك ليس لنا أن نأخذ الآيات المذكورة مأخذ قانون عام بالنسبة لجميع المسيحيين، بل إنّ الآية: ﴿إِذا سَمِعُوا ما أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ﴾ وما بعدها دليل على إنّها نزلت بحق جمع من المسيحيين الذين كانوا يعاصرون رسول الله ﷺ.

٨. الآيتان الأخيرتان فيهما إشارة إلى مصير هاتين الطائفتين وإلى عقابهما وثوابهما، أولئك الذين أظهروا المودة للمؤمنين وخضعوا لآيات الله وأظهروا إيمانهم بكل شجاعة وصراحة: ﴿فَأَثَابَهُمُ اللهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ﴾، وأمّا أولئك الذين ساروا في طريق

العداء والعناد فتقول الآية عنهم: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾